

مجلة الأزهر

المجلد الثاني والعشرون

١٢
٢٠٠٦
رواية

مدير المجلة
ورئيس تحريرها
محمود خير الدين

الاشتراك السنوي
٤٠ مصر والسودان
٥٠ لتجارف القطر المصرى

ثمن العدد ٠٤ ملها

دارة المهور : بديوان الإدارة العامة للأزهر والمعاهد الدينية بالقاهرة



مطبعة الأزهر

١٩٥٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مجلة الأزهر في عامها الثاني والعشرين

الحمد لله على ما وقفنا إليه من خدمة دينه القويم ، والصلاة والسلام على نبيه
ورسوله الكريم محمد ، وعلى آله وصحبه وتابعيه إلى يوم الدين .

أما بعد ، فإننا قد شارفنا السنة الثانية والعشرين من حياة هذه المجلة ، اللسان
الناطق للأزهر والأزهريين ، ولست بمبالغ إذا قلت إنها نالت في هذه السنوات
القليلة ما لم ينله سواها في مثلها من الشهرة ، وبعد الصيت ، والثقة التي لا تحصى ،
وقد أدت في مدى هذه المدة من الخدم للعالم الإسلامي في مشارق الأرض
ومغاربها ، ما لا يتفق لغيرها ، لنسبها إلى الأزهر المعمور . فرى المسلمين يتلقون
أعدادها كلها ظهرت تلقى الظمأ للدم النير ، فيكتبون على قراءتها ، ومن لم يعرف
العربية منهم يترجم حتى يترجم له قومه ما بهم جماعتهم منها . وهذه المنزلة ترجع
لحبهم للأزهر ، واعتقادهم الراسخ أنه كعبة العلوم الدينية ، ومورد الثقافة
الإسلامية ، والذين يحبرونها خيرة الأزهريين علما وعملا .

إن هذه المنزلة توجب علينا المزيد من التدقيق فيما تنقل من مقالات أصحاب
الفضيلة العلماء الذين يتفضلون بتزويدها من محصولهم العلى الثمين ، ونعسرنا
لأن نزيدها تحسينا بقدر ما تمكنتنا منه الطاقة البشرية ، فإنه ليس وراء هذه الخدمة
بجال تصرف الأهمية فيه ، ولا بعدها غاية تتوق المهمة البشرية أن تصل إليها .

وأنا في هذا المقام نرى لزاما علينا أن ننوه بالتشجيع الذي ترى شأبيه
علينا من حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق الأول ، وتذكر ما يمنحنا إياه من
عطفه الملكي الثمين ، فإن هذا كله من العوامل التي ثبتت وتثبت أركان هذه المجلة ،
وتتمها قوة على مضاعفة جهودها في خدمة الإسلام والمسلمين .

كذلك لا يجوز أن نفعل ما يبذله شيوخ الأزهر الأكرمون من العناية بأمرها ، والرعاية للقائمين بها ، وخاصة حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ عبد المجيد سليم ، فإن فضيلته كان يدها بفتاويه القيمة في الشئون الدينية والدنيوية ، مما كان لها أكبر الآثار في كسب إكبار المسلمين لها ، واعتزازهم بها .

أما وقد وفينا ببعض ما عهدنا الله عليه من صادق الخدمة ، وغالض الوفاء لهذه المجلة ، فإننا نعد قراءها بأننا سنكون عند ظنهم بنا حماة مخلصين لعقائد الإسلام ، ودعاة مروجين لفضائله بين الأنام ، معتمدين على الله في أداء واجبنا نحو دينه ، راجين منه العون والكفاية ، إنه ولي التوفيق ، وهو أكرم مسئول .

محمد فريد وهبى

الاستاذ الاكبر الجديد

حضرة صاحب الفضيلة العلامة الجليل الشيخ عبد المجيد سليم

صدر أمر حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم فاروق الاول ، في اليوم السابع من شهر أكتوبر الجارى ، بتعيين حضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الاكبر الشيخ عبد المجيد سليم شيخاً للجامع الأزهر ، خلفاً للاستاذ الجليل الشيخ محمد مأمون الشناوى شيخه السابق رحمه الله وتولاه برضوانه .

لقد وفق الله جلالة الملك توفيقاً عظيماً ، وسدد مرماه أكل تسديد ، باختياره هذا الحبر النبيل لمشيخة الأزهر ، وهو البقية الصالحة من الأعلام الذين حفظوا تراث العلم جيلاً بعد جيل ، وصانوا ثروته القيمة في أحوال كانت تكفى لأن تبددها كما بددت سواها من مذخور آباتنا الاولين .

وفضيلته مع تحليه بهذه الدرجة العالية من العلم ، قدر له أن يكون مشرفاً على تيار التطور الاجتماعى الذى تقلبت الأمة في أدواره في عهدها الأخير ، بتوليّه مهمة الإفتاء في الشؤون العامة سنين كثيرة ، فكانت وظيفته تستدعى منه أن يكشف عن مكنونات الشريعة الخالدة ، وأن يعلى سماحتها ، وسعة صدرها لكل جديد نافع ، ولكل طريف لابد منه ، فأكمل بدعة ضلالة ، ولاكل محدث جهالة . فكان بفتاواه القيمة نعم العون للأمة في دور نهوضها العقلى والمادى ؛ إذ جنبها موقف سوء الظن الذى وقفته أكثر الشعوب الإسلامية حيال التيار المدنى الحديث ، فلم تستغد منه شيئاً وجمدت حيث هى فأصبحت نهياً للمستعمرين .

وإن في تولى فضيلته مشيخة الأزهر على سعة علمه بالعوامل التى تعمل في الأمم الإسلامية من ناحية العلم وناحية الدين ، تحت تأثير المدنية الغربية ، وما تسلحت به هذه من علوم وفلسفات وفنون ، سيكون له إن شاء الله أثر بالغ في هذا الدور من الانتقال الذى نحن فيه .

ولسنا نشك في أن فضيلة الاستاذ الاكبر الشيخ عبد المجيد سليم رجل هذا العهد السعيد ، فلندع لفضيلته بالتوفيق ، ولجلالة الملك المعظم بدوام التأيد .

محمد فريد وجدى

إلى فضيلة الأستاذ الأكبر

الشيخ عبد المجيد سليم ، شيخ الجامع الأزهر

تحية من فضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد الجواد رمضان
الأستاذ بكلية اللغة العربية

أهل ، وسد ، وامتز ، يا أزهري	هذا سليم ، شيخك الأكبر
في تمت ، في طي أبراده	تطابق المظهر والمخبر
السلف الصالح عادت به	أيامه ، والطابع الأغر
والأمل البتام لاحت لنا	في وجهه ، أنواره تزهتر

يا أيها الشيخ الجليل الذي	ينفع طيب المسك إذ يذكر
لا يمتور الأزهر علم وما	للمعلم إلا باب — مصدر
شجاعة الدين ، وإيمانه	أعز ما ينشده الأزهر
فانهض بروح الدين في حصنه	بجلك الأسود والأحمر
واحتض بشرع الله في قدسه	بنكف هذا الزمن الأغر
لن يخذل الحق ، وأنت الذي	يدعو به ، والأزهر المنبر

تهنئة

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ عبد المجيد سليم
شيخ الجامع الأزهر

يوم أغر على الزمان غدا
وافترق الدهر عن بساتنه
والقصور بين مهال ومكبر
سبحانك اللهم فضلك سابق
والأزهر المعمور صلت عريته
وبعثت فيهم قائدا من بينهم
شيخ الشيوخ ولا أبالي قائلا
ولكم دعونا فاستجيب دعاؤنا
الأزهري سليقة وطبيعة
وهو البصير بذاتهم ودوائهم
يا وحيد العلماء أنت إمامهم
لك غيرة في الدين ذاعت شهرة
والحلم طبع والوفاء بحجية
ومنايع التقوى تفيض جداولها
اخلع على المعمور منك مهابة
في الشرق والإسلام هزة نشوة
دم للشريعة ساميا ومناخا

سطعت كواكبه ولاح الفرقد
والأزهر المعمور شكرا يسجد
بالبشر يحدو هاتف ومردد
تحمي الحنيئة أن تمد لها يد
وأعدت عهدا للأولى قد شيدوا
يلوهم هام السحاب ويصعد
أنت المرجى والرئيس الأواحد
وأنت تعلم ما بنوا ونشيد
أدرى بطبع الأزهرى وأرشد
ياسو الجراح وللجراح يضم
فاسلك بهم سبل الهداية يهتدوا
ما المعلوم فأنت فيها المفرد
والعدل تاج شع منه المسجد
من نور قلبك والدلائل تشهد
وأهد إليه شباب يشهد
هتفوا بحبك يا إمام ورددوا
في ظل فاروق تعيش وتسعد

الساعي التوازي

المراقب بالأزهر

من فضيلة شيخ الجامع الأزهر إلى إخوانه المسلمين وأبنائه الأزهريين

نشر فيما يلي الكلمة التي وجهها حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر
الشيخ عبد المجيد سليم ، شيخ الجامع الأزهر ، إلى المسلمين وأبنائه الأزهريين ،
لمناسبة رأس السنة الهجرية :

نحمدك اللهم ونستعينك ، ونؤمن بك ، ون托كل عليك ، ونستغفرك وتوب
إليك ، ونعوذ بك من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، ونسألك العصمة من الزلل ،
والتوفيق إلى صالح العمل ، ونصلي ونسلم على نبيك الذي بعثت رحمة للعالمين ،
وعلى آله وصحبه أجمعين .

« ربنا لا نرغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب .
ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ، ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين
آمنوا ، ربنا إنك رؤوف رحيم » .

أما بعد ، فإني أهنيء إخواني المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها بذكرى
الهجرة النبوية المباركة ، وأسأل الله تعالى أن يجعل هذا العام مباركا عليهم ،
وأن يوفقهم فيه إلى تبوء مكانة العزة والقوة ، وأن يربط على قلوبهم برباط
الإيمان والأخوة في الإسلام حتى يكونوا في سائر شعوبهم وبلادهم كالجسد الواحد ،
يشعر قاصيمهم بما يشعر به دانيهم ، ويرتفعوا بأنفسهم وأمتهم عن عوامل التفرق
والقطع ، وأسباب التنازع والتباغض .

ولأنه ليسعدني ويشرح صدري أن يكون أول ما أطلع به إخواني المسلمين
بعد أن توليت منصبى هو هذا البيان الذي أتفاهل خيرا بمناسبته السعيدة وأجعل
النصح فيه ، والدعاء شكراً لله على ما حباني به من نعمة ، وولاء للملك المعظم
على ما تفضل به على من ثقة ، وعرفانا وتقديراً لعاطفة إخواني المسلمين الذين رحبوا
بمقدمى وهناؤنى بمنصبى .

إذا كانت الذكريات في تاريخ الأمم مشارف واعتزاز ، يثيرها الآخرون إعجاباً و غرراً ، بما فعل الأولون ، فإن فيها لعباً ينبغي أن تدرك ، ومثلاً يجب أن نتخذى ، وإلا كانت مجرد أقوال تقال ، وخطب تذاع .

وإن تاريخ نبينا الكريم ، صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه ، هو تاريخ المثل العليا ، والأخلاق الفاضلة ، والبطولة التي أساسها الصبر على المكروه ، والثبات للبعث ، والتضحية بكل عزيز وغال في سبيل الحق والخير والإصلاح ، وما الهجرة إلا فصل من فصول التاريخ العظيم .

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم حين هاجر من مكة إلى المدينة فوق الحنين من عمره بثلاث سنين ، فلم يركن في هذه المن إلى الهدوء والراحة ، ولم يشد النعيم والدعة ، ولكنه احتمل عبء الجهاد في سبيل الله راضياً مطمئناً صابراً على الأذى محسباً أجره على الله ، واثقاً بالنصر والقوز ، وقد راودوه عن دينه ورسالته ، على أن يكون ملكاً أو يملأوا عليه بيته فضة وذهباً ، فأبى واستمسك بما نذبه الله إليه ، وقال كلمته الخالدة التي يهتز لها قلب كل مؤمن : « والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله ، أو أهلك دونه » .

وظل يصدع بكلمة الحق في وجوه أساطين الباطل عالية تدوى بها أرجاء مكة وما حولها ، وتقض مضاجع مشركيها وطواغيتها ، فأذوه إيذاء شديداً وحاربوه حرباً منكراً ، وألبوا عليه قوى الشر والفساد تأليباً ، فما لانت قناته ، ولا صدعت صفاته ، حتى إذا لجئوا إلى آخر وسيلة يلجأ إليها المبطلون حين يضيقون بأهل الحق ذرعاً هتموا بقتله ، ودبروا تدمير الخبيث للفتك به ، أمره الله أن يخرج من هذه القرية الظالم أهلها ، إلى بلد طيب ، صالح لاستقبال بذور الخير والصلاح ، ونباتها إنباتاً حسناً ، والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه .

وهكذا ضرب المثل في الصبر حين صابر ، وفي الهجرة حين هاجر ، وعلم المؤمنين وسائر المصلحين أن أول مراتب الجهاد هي الصبر كل الصبر والاحتفال كل الاحتفال ، فإذا لم نجد المثابرة والمصابرة في بيته من النيات لفسادها والنوايا كان الرأي والحزم أن تتحول دعوة الحق إلى غيرها ، وأن تطرق أسماها جديدة وهقولا

رشيدة ، فإن المبادئ والدعوات كما تحتاج في نشرها وتثبيتها إلى قوة وشجاعة وصبر واحتمال ، تحتاج كذلك إلى سياسة وبصر وحن تصرف وتجديد في التماس وسائل النجاح .

إن هذه الذكرى تطالع المسلمين ، وقد تألبت عليهم في شتى بلادهم قوى الشر ، وداخلتهم عوامل الفساد ودواعي الفشل والضياع ، فإذا لم ينتبهوا من غفلتهم ويستيقظوا من رقادهم ، ويعالجوا أسباب ضعفهم وخذلانهم ، فإن الأمر والله جلل ، وقد دللنا عبر التاريخ وحوادث الدهر ، أن الأمم إذا انحلت أخلاقها ، وفست عقيدتها وخرجت على دينها والصالح من تقاليدها ، وتكررت للفضائل ، وانعمت في الرذائل ، كان ذلك من علامات ساعتها ودلائل آخرتها .

فإذا كنت موجها في بيان هذا إلى إخواني المسلمين نصيحة ، فبى أن يفتشوا إلى رشدهم ، ويتوبوا إلى ربهم ، ويعودوا إلى دينهم ، ويخلعوا أنفسهم من المباديل والمنكرات وسائر ما نهى الله عنه ، ويتمسكوا بالفضائل وأخلاق الشرف والاستقامة التي قصت سنة الله في خلقه ألا تهض الأمم إلا بها ، ولا تقوم الحياة السعيدة إلا عليها ، فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا .

أما أنتم أيها الإخوان والابناء في الأزهر من أساتذة وطلاب فنصيحني إليكم أن تدركوا حق الإدراك أنكم مجتهدون في سبيل الله ، تبتغون للناس طريق الهدى وتدعونهم إلى الخير ، وتأمرونهم بالمعروف وتنهونهم عن المنكر ، وسيلكم إلى ذلك أن تصلحوا أنفسكم أولا ، وأن تجعلوا منها مثلا لعملية يراها الناس فيحتذونها ، في الدين والعلم والخلق والمظهر والمخبر ، فأقبلوا على دراساتكم ناشطين مخلصين ، وابدلوا في سبيل كمالكم العقلي غاية ما تستطيعون ، وتجهلوا بالفضيلة فيما بينكم وفيما بين الناس ، فإن العلم سلاحكم والخلق صلاحكم ؛ وليستحضرا الأستاذ وطلابه دائما أن العلاقة بينهم كالعلاقة بين الأب وأبنائه . له عليهم السمع والطاعة والتوقير والإجلال ، ولهم عليه الإخلاص والصدق والنصح والتوجيه إلى التي هي أقوم .

إنني أريد لكم الخير وأبقيكم سبيل الرشاد، وأرجو تحقيق آمال الأمة فيكم، وإعلاء كلمة الدين والعلم بكم، وتأييد الحجة القائمة على أنكم أعلام الحق ودعائم الخير، فأعيوني على إصلاح شأنكم، وارفعوا رأسي أرفع رؤوسكم، واستوجبوا العدل والإنصاف بالجد والإخلاص، وكونوا على اختلاف بلادكم وشعوبكم ومذاهبكم إخوانا في الله متحابين. وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان.

أسأل الله لي ولكم الصلاح والرشاد.

يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون .
والمعسر، إن الإنسان لفي خسر، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر .

اللهم إني أتوجه إليك، توجه العبد الخاضع، لجلالك وعظمتك، الراجي لرحمتك ونعمتك، أن تنصر الإسلام والمسلمين، وأن تكلاً بعين رعايتك، وتمد بتوفيقك وهدايتك ملوكهم ورؤسائهم، ولا سيما ملك مصر وملاذها وموضع آمالها، ومناطق مجدها وعزها، فأروقا الأول حفظه الله وأيده بنصره، ووفق رجال حكومته إلى ما فيه الخير والصلاح.

اللهم وارحم ملك مصر الراحل الطيب الذكر فؤادا الأول، وأسبغ عليه حلل غفرانك ورضوانك يا أرحم الراحمين.

والحمد لله رب العالمين، وسلام الله ورحمته وبركاته عليكم أجمعين.

احتفال الأزهر بذكرى الهجرة النبوية

احتشدت ألوف مؤلفة من العلماء والوجهاء والطلاب يوم الجمعة أول العام الهجري بمد صلاة العصر بالجامع الأزهر، لسماع كلمة الجامعة الأزهرية في يوم الهجرة النبوية، وكان حاضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ عبد المجيد سليم في مقدمة المحتفلين بهذا اليوم الكريم : فهضر حاضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمود أبو العيون سكرتير عام الأزهر فألقى كلمة أحسن فيها كل الإحسان ، ووفى المقام حقّه أكل توفيه ، فقابلها المستمعون بالإعجاب والثناء . وما هي .

إذا ذكرت هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم رجع الذهن إلى سبعين عاما وثلاثة عشر قرنا مضت على حادث تمخض عنه التاريخ ، لم يحدث مثله في المصور القديمة قط ؛ حادث تغير له وجه الزمان ، وانقلبت به الأوضاع والشرائع ؛ ذلك هو هجرة الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم ؛ حادث تجلّت فيه قوة العزيمة ونفاذ البصيرة ، وكال البطولة ، وصدق الإرادة ، وقوة الإيمان ، وغاية التضحية والإيثار .

أجر فجر النور المحمدي ، وأشرق سناؤه ، وتباج ضياؤه في جزيرة العرب ، وكان يسودها ظلام الشرك والجهالة ، وتتناوشها أسابيل الشرور والبواقي ، وعقائيل الاضطهاد والمظالم ، والعالم كله كان يئن تحت أنقال الحياة وضراوتها .

ظهر المعصوم ، صلى الله عليه وسلم ، في هذه البيئة يدعو الناس إلى الصراط المستقيم ، فوعده وأوعده ، وبشر وأنذر ؛ فنهض من آمن به وهم قل ، ومنهم من صد عنه ، ومن من هاهم قومه وعشيرته من قريش ، ومن لف لفهم من صناديد العرب المقادير ذوي المصريات والكثرة ، فلم يلق منهم إلا تأييا ونفورا ، فما زال بهم يلاينهم ويصانعهم ، ويقتل بهم في الدروة والغارب ، وما زالوا به يحاورونه

ويدأرونه ، ويلفون حوله بالتهديد مرة ، وبالإغراء أخرى ، ويمدون ويمنونه بالمال والجاء والملك والشرف ، وهو عن ذلك متأنب ، معرض أشد الإغراض ، فعدلوا عن الإغراء إلى مطاردته والتضييق عليه ، وتعذيب أصحابه أشد العذاب . كان يصلي بالكعبة فأنوه وهو ساجد ، ووضعوا سلا البهائم على رأسه ورقبته ، لحجاء فاطمة باكية وأماطت هذا الأذى عنه . وكان يصلي مرة أخرى فيجىء أحد أعمامه ويخنقه ، وجعل يعنصر رقبته حتى جحظت عيناه فيأني أبو بكر ، ويمنع عنه . ويقول : « أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله » . ومع ذلك التضييق والتعذيب يثبت في دعوته ، ويحتمل الأذى في سبيلها ، ماضياً لا يصده صاد ، مقدماً لا يرهب الردى . ويؤخذ بلال ، وهو أحد الموالى المؤمنين بالدعوة ، ويجلد بالسياط وهو يقول : « أحد أحد » . وعمار بن ياسر توضع الصخرة عمدة فوق بطنه ، ويمدب هو وأهله بالنار ، وهم صابرون ثابتون على إيمانهم .

ولقد تحسّن المشركون في ضروب الإيذاء للمصدق المصدق ، صلى الله عليه وسلم ، وهو في غضون ذلك يتمز الفرص في المواسم ، ويدعو الوافدين على أسواق مكة ، والبيت الحرام ، ويعقد البيعة سرّاً على الهدم والدم مع رهط من الخزرج من أهل المدينة ، فكانوا أعضاداً له وأنصاراً في مستقبل الأحداث الجسام .

ولقد رمى المسلمون بأعظم المحن والبلايا في أنفسهم وفي أموالهم ، ففر كثير منهم رجالاً ونساء إلى الحبشة ، وإلى غير الحبشة من الأصقاع البائية ، وبقي البعض بمكة يعاني من الشدة والضيق ما لا يحتمل ، ولا يستطيع الصبر عليه ، وفي آخر الأمر رأى أعداء الحق أن يقضوا على الدعوة قضاء مبرماً ، وأن يقتلوا صاحب الرسالة عليه الصلاة والسلام ، فاشتوروا وثرأدوا الأمر بينهم ، وانفقوا على أن يقوم بالأمر في ذلك فتيا أشداء من قبائل العرب ، ويضروه ضربة رجل واحد ، فيتفرق دمه في القبائل ولا يقدر بنو عبد المطلب على النار له ؛ فأطلعه الله على مكرم ، وتأنى له بالهجرة إلى المدينة . وإذا بمكر بك الذين

كفروا أئنيبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ، ويمكرون ويمكر الله ، والله خير الماكرين .

مضى النبي قدما إلى الغاية التي رسمها الله له ، ومعه صاحبه أبو بكر ، وضربا في الصحراء في ليل أليل حتى بلغا غار ثور ، فلما بلغاه تقدم أبو بكر فاستبرأه ، ودخله الرسول صلى الله عليه وسلم ومعه صاحبه الصديق رضى الله عنه ؛ ويصبح المتأمرين وقد دخلوا دار الرسول شاهرين أسلحتهم ، لتنفيذ انذارهم ، فيجدون عليا نائما في موضعه ، مسجى بردائه صلى الله عليه وسلم ، فيرتدون خائبين . ثم تجدد قریش في طلبه والحقا به ، ويمرون بغار ثور ، ولو أنهم نظروا تحت أرجلهم لراوه صلى الله عليه وسلم ، ولكن الله أعمى أبصارهم كما أعمى بصائرهم ، وأنجاه من كيدهم .

، إلا تنصروه فقد نصره الله ، إذ أخرجه الذين كفروا ثانی اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا ، فأزل الله سكينته عليه ، وأيده بجنود لم تروها ، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى ، وكلمة الله هي العليا ، والله عزيز حكيم .

وبعد ثلاثة أيام مضاهها الرسول صلى الله عليه وسلم في غار ثور ، اتخذ سبيلا إلى المدينة فاستقبله أهلها مكبرين مهللين . قال البراء : « ما رأيت الناس فرحوا بشيء كفرحهم برسول الله يوم جاء المدينة . » وبذلك تمت هجرته صلى الله عليه وسلم ، وسمى المسلمين بالمدينة الأنصار .

وعلى أثر ذلك هاجر كثير من أصحابه إلى المدينة ، فأخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهم وبين الأنصار ، وجعلهم أمة مقراصة متماسكة قوية ، ثم وحد بين الأوس والخزرج ، وقد دخلوا في الإسلام أفواجا أفواجا ، فكانوا إخوة متحدين الأقيدة والغاية والامل ، وزال ما كان بينهم من جفاوة وعداوة قديمة مستحكمة .

وبعد أن استقر الأمر لرسول الله صلى الله عليه وسلم عبا الجيوش ، وعقد

لها الآلوية ، ويعت البعوث ، وأخذ من ذلك الحين يحمى الدعوة الإسلامية ويندود عنها ، ويقا تل من يصد عن سبيلها .

• الأتقائلون قوما فكشوا أيمانهم ، وهما باخراج الرسول ، وهم بدهوكم أول مرة ، أنخسونهم . فاقه أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين ، قاتلوم يعضبهم الله بأيديكم ، ويخزهم وينصركم عليهم ، ويشف صدور قوم مؤمنين .

ومن ذلك قويت شوكة المسلمين ، وتأسست الدعوة الإسلامية ، وجعل الناس يدخلون في دين الله آمنين مطمئين ، وعم الإسلام ربوع الجزيرة ، ثم أخذ يزحف إلى جوارها ، وما انتقل رسول الله إلى الرقيق الأعلى حتى كان الإسلام قد شرقي وغرب ، وكانت له الكلمة العليا .

والعبرة في الهجرة :

١ — أن القادة والاحرار إذا سيموا الصيم في أوطانهم ، ولم يستطيعوا تأدية رسالتهم في قومهم ، هاجروا إلى بلاد ينهأ لهم فيها العمل أحراراً ، ويشمكتون من إسماع صوتهم الى مواطنهم .

٢ — أن الاحرار بهجرتهم يستطيعون بحيلتهم ، وحسن سياستهم أن يجمعوا حولهم أنصاراً يساندونهم في بلوع عابتهم ، ومعقد آمالهم ، وبذلك يرجعون إلى أوطانهم متصربين فاتحين .

ويقول الله تعالى : • إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم ، قالوا فيم كنتم ؟ قالوا كنا مستضعفين في الارض ، قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ؟ •

• ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الارض مراً نغماً كثيراً وسعة ، ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله ، وكان الله غفوراً رحيماً .

وفي هذه الهجرة بالذات تحققت تلك العبرة : وكانت فرقاً بين الحق والباطل ، والظلام والنور ، والخير والشر ، وكان فيها هداية الناس ، وسعادة البشر .

وإن الأزهر إذ يحتفل بالهجرة النبوية ، إنما يحتفل بمحادث إسلامي عظيم له خطره في حفز الجماعة الإسلامية إلى أقدمس الغايات ، وأسبح المقاصد ؛ وتذكيرهم بأيام البطولة الخالدة للمسلمين الذين كانوا يعيشون الحق ويتسابقون إلى سُوح الموت والشهادة ؛ للزيادة عن الراية الإسلامية ، وإعلاء كلمة التوحيد .

أما بعد : فإن الأزهر ليأسف أشد الأسف لفقد شيخه السابق المغفور له فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مأمون الشاوي ، فقد كان عضداً للدين ، وأباً رحماً للأساتذة والطلبة ، وكان ميمون النغية ، عظيم النفع .

وللإسلام والمسلمين خير عوض في شيخ الأزهر الحالي ، فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ عبد المجيد سليم ، ولقد فرحنا بتوليته كرمى المشيخة فرحاً عظيماً ، ففضيلته معروف بالورع والتقوى ، والغيرة على الدين والكرامة ، والتضلع من علوم أصول الدين ، والفقه الإسلامي على الأخص .

حفظه الله نصيراً للدين ، وأباً عضداً للعلم والعلماء ، وأعانه على عمل الخير للأزهر والأزهريين .

ونصلي ونسلم عليك يا رسول الله صلاة وسلاماً دائماً دوام ملك الله .

وندعوك اللهم أن تهدينا بهديه ، وأن تيسر لنا السير في سبيله ، وأن تبصرنا بحالنا ، وأن توفقنا إلى خدمة الوطن الإسلامي ، وأن تسدد خطوات ولاية الأمور فينا ، في ظل حضرة صاحب الجلالة المتوكل على الله الملك فاروق الأول ، ناصر الدين ، وحامي حى الإسلام والمسلمين .

اللهم احمه بحمايتك ، وارعه برعايتك ، واكفل له حياة مديدة مقرونة بالمر والتأييد .

وأن توفق رجال حكومته الرشيدة لعمل ما فيه خير العباد والبلاد .

لَيْسَ مِنْ هَيْئَانِ بَدَأَ

صدر كتاب تحت عنوان (من هنا بدأ) أحيط بلغظ شديد ، ثم صدر ، و وكل أمره إلى محكمة القاهرة الابتدائية ، حكمت بأن ليس للقانون مسوغ في مصادره ومنع انتشاره ، فأقبل الناس على قراءته ليروا منار الضجة التي أوجبت بحاكمته ، حتى طبعت منه عدة طبعات في مدى نحو ثلاثة أشهر ؛ وهو إقبال لم يصادفه كتاب قبله في هذه البلاد . ولذلك عينا بأمره وقرأناه بمنأى ، فوجدنا مؤلفه الفاضل فضيلة الأستاذ خالد محمد خالد خريج كلية أصول الدين ، قد حاض بحراً لا ساحل له من فلسفة الدين ، وفلسفة الاجتماع ، أذاه إلى وجهات نظر تحتاج لتحيص دقيق ، وتحليل عمك ؛ لأنه يمد أن منحه المصادر هذه الدرجة من الذبوع يجب أن يقال حقه من النقد ، لاسيما وقد عالج أعظم المسائل خطورة ، وهي الدين ، والاجتماع ، وتوزيع الثروة العامة ، ولا توجد مجلة من اختصاصها هذه المسائل أجدر من مجلة الأزهر بنقده .

• • •

كتاب (من هنا بدأ) يشتمل على أربعة أبواب ، أولها (الدين لا الكهانة) ، وقد شغل منه ثمانية وأربعين صفحة ؛ ثانياً (الحيز هو السلام) ؛ وقد استدعى منه ثمانية وأربعين صفحة أيضاً ؛ ثالثاً (قومية الحكم) وقد أخذ منه خمسة وستين صفحة ؛ رابعاً (الرثة المعطلة) وقد استوعب منه تسعة وخمسين صفحة . وقد وضعنا كتاباً ناقشنا فيه فضيلة الأستاذ مناقشة عليية ، الغرض منها الوصول إلى الحقيقة لا إثارة المهازرة ، وحرقة المساعي التي تبذل للإصلاح والتكامل ، وقد سلناه للطبعة على أن لا تذييه إلا بعد أن يتم نشره في هذه المجلة .

قال فضيلة الأستاذ في أول فصل من كتابه :

« كل ما نود أن ننصح به ، هو أن نبارك هذا (الوعي) وبدعه ينمو ويتسلق ، وأن لا نحاول قط كبجه وزجره ، فإن ذلك هو السبيل كل السبيل إلى خلق المجتمع الحر الباسل ، الذي يريد أن نكونه . قد تصيب مرة وتخطئ مرات (يريد الأمة) ، وتهندى تارة وتضل ناراً ، ولكنها أحيراً سوف تضع أقدامها على صراط الحقيقة والصواب . »

« إننا لن نقدم لمجتمعنا في هذه الفترة الحاصرة خوفاً من (الحرية) ، كي يستطيع في ضوئها وسناها أن يرى ، ويفكر ، ويختار الطريق القويم . »

« والحرر من (الخوف) هو نقطة البدء في طريقنا الطويل ورحلتنا الشاقة . »

« ومن أجل ذلك يحمي هذا الكتاب في أوامه ، ليقول للمجتمع (لا تخف) ، وليريح من طريقه تلك الاشباح التي تخيفه وتحذله وتملؤه روعاً ورعباً - كما يهيب بالمواطنين جميعاً حكومة وشعباً وأفراداً ، أن يتحملوا تبعات الرشد في شجاعة وغبطة ، وأن يتقبلوا الواجبات الجديدة التي تفرضها علينا الحياة وظروفها ، وأن يكون كل مواطن أداة حية تساهم في التحول الاجتماعي الرشيد الذي تنوق إليه ، والذي يجب أن يبدأ فوراً ويتم سريعاً . »

ثم فسر حصرة ما يريد من قوله التحول الاجتماعي ، أنه : « إلى قومية شاملة لا تافرها ، وإلى اشتراكية عادلة لا استعلال ولا ظلم فيها ، وإلى وهي ناضج سليم لا ساطع للرجعية ولا للكهاة عليه ، وإلى سلام غامر يبدل حقد المجتمع حياً .. وترنمه ولاء وأماناً ، وقلقه استقراراً وغبطة وسكينة . »

ونحن نعلق على هذا الكلام بقولنا :

إن وعي الجماعات كوعي الأفراد يكون عادة مقدمة لبلوغها جميع مقدمات الحياة ، وأسباب البقاء ، وإنكته كما هو لدى الأفراد يحتاج لتوجيهات من الآباء والمعلمين ، هو كذلك لدى الجماعات في حاجة ماسة إلى هداة ومرشدين ؛ فإن أهوزوا ارتد هذا الوعي كارثة عليهم ، وانقلب بحكم التطور إلى اندفاع لا يقف في عنقه عند حد ، وهو ما تعانيه اليوم من تدهور الأخلاق ، وانحلال الرُّبُط الأدبية

وتدافع الجماهير إلى ما يبدها ويددها. ومن العجيب أن المؤلف ينصح - والحال كما ترى - بمنعها (الحرية) ويعظمها بالتححرر من (الخوف) أيضاً ١ .

إن الخروج على الآداب المتفق عليها في هذا الدور الذي نحن فيه ، ويسميه الأستاذ ، وعياً ، ويطلب له المزيد من الحرية ، قد بلغ إلى حد لا يمكن أن تقبله وتطبيقه أمة لها أمل في البقاء ، فقد عتق الأبناء الآباء والأمهات ، واستحقوا بالآداب والمعتقدات ، ولولا أن القوانين تحد قليلاً من هذه الإباحة الجذوية ، لأصبحت الطرقات والمنزهات بؤراً لأحقق ضروب الموبقات .

أفيظن مؤلفنا أن هذا الضرب من الوعي المفروك لسلطان الشهوات ، يؤدي إلى ما يتخيله من نهوض ، وخاصة بعد أن يبه الناس قسماً من الحرية أوفى مما كان سبياً في هذه المنكرات ؟ لم يقل بهذا الرأي عالم اجتماعي في العالم ، لأنه مما لا يعقل ؛ فإن الشعوب إذا تمادت في ركوب أهوائها ، جرفت انحرافاتنا من مائه من الضلال ليس وراءها إلا التفكك والانحلال .

إن الشعب الذي يترك له الزمام ، وخاصة في دور شبوته ، لا يزال يهيم في مناهات طيشه حتى يصاب بالإعياء الذي يسلمه إلى اليأس ، وإذا ذلك إما أن يفنى في جثمان شعب آخر ، أو أن تحتله دولة مستعمرة تستغل الدماء الذي يبق له من الحياة . أما البقاء فلا والله ، إلا إذا وعى الحياة على ما يفهم المصلحون ، وحد من شهوانه وحرريته ، واحترم الوصايا التي أجمع العالم كله على أنها أصول الرقي ، وبتأبيح الفلاح .

ومن عجب أن الأستاذ يتيح للشعوب أن ترقى كل هذه (الحرية) ، وينصح بعدم الحد لها منها ، ويوصيها أيضاً بأن تنزع (الخوف) من قلبها ، أي أن لا تحسب لمغبة تهورها حساباً ! فليسمح لي أن أقول : إنه لا يوجد شعب يدخل في هذا الدور ملقى حبله على غارب ثم يخرج منه وله وجود بين الشعوب ! بل أن أقول : لم يوجد شعب كتب له البقاء وجد في الشروط التي يوصي بها الأستاذ هذا عرف التاريخ ؛ فقد جرت سنة الله على أن الشعوب التي كتب لها الوعي

والارتقاء ، ينشأ من صميمها أفراد يتولونها بالنصح والإرشاد ، ويعملون من هوجها كلما انحرفت عن الطريق ، ويرشدونها إلى سواء الصراط ، تارة بالوعظ والتذكير ، وطوراً بالزجر والعقاب ، حتى تبلغ أشدها ؛ ولا تحرم في دور من أدوارها من المرشدين والهداة . فعل أي أساس على يدعو الأستاذ القادة والقائمين على الأخلاق والآداب أن يلزموا الصمت والاستكافة ، تاركين شعبهم يهيم على غير هدى حتى ينزل عليه الرشد من نفسه فيستقيم ؟ هذا طلب ما لا يمكن ولا يكون ، وما لم تجر منه الله به في أمة من الأمم من يوم خلقها إلى هذا اليوم .

• • •

وبعد ، فإلى أي هدف يرى الأستاذ بعد إسدائه هذه التصامح : • إلى قومية شاملة لا تتأخر فيها ، وإلى اشتراكية عادلة لا استغلال ولا ظلم فيها ، وإلى وعى ناضج لا سلطان للرجعية ولا للكهنات عليه ، وإلى سلام غامر يدل حقد المجتمع حياً ... وتربصه ولاء وأمان ، وقلقه استقراراً وغبطة وسكينة . .

نقول : أما الاشتراكية فهي لا تزال في الميزان ، فقد قال بها أفلاطون قبل نحو ألفين وأربعمئة سنة ، فاعتبر قوله الناس من الأمور الخيالية . ولكن التفكير فيها بقي حياً يظهر حياً ويختفي أجيالاً . ففي القرن الخامس عشر دعا إليها الفيلسوف (توماس مور) الإنجليزى . فشرع الناس يؤسسون مدناً على النظام الاشتراكي البحث ، فلم تهم لها قائمة ، وعلل الاشتراكيون فشلها بأنها لم يراع في إنشائها ما يحيط بها من المؤثرات .

فلما نبغ (كارل ماركس) ، وكان من يهود ألمانيا ، وضع للاشتراكية أساساً عليها ، فدعا إلى الاشتراكية العالمية لتتوحد الانظمة في سائر الممالك ، ويكون ذلك داعياً لبقائها ، فاعتبر أباً للاشتراكية . وهي تقوم على أصلين رئيسيين : إلغاء الملكية الفردية إلى حد ما ، وإلغاء الوراثة إلغاء تاماً ، لتكون الأرض ملكاً لجميع العائشين عليها . فهي كما ترى تصطدم بمقتبين كأداوين : إلغاء الملكية والوراثة ، وهما أعلق بقلب الإنسان من أعز شيء عنده ، ولكنهما يسهلان على من لا يملك شيئاً .

نعم لا توجد مملكة تخلو من دعوة اشتراكية واشتراكيين ، ولكنهم في كل بلد ، ما عدا روسيا ، قلّة لا تستطيع أن تفرد بالحكم فيه ، ومع ذلك يقول الأستاذ في صفحة (١٢٨) من كتابه : « لقد انعقد (إجماع العالم المنحصر كله) على أن النظام الذي تبلغ به المنفعة الاجتماعية حدّها الأقصى في الوقت الحاضر هو الاشتراكية ، ويتجلى هذا (الإجماع العالمي الرشيد) في أخذ الدول الناهضة (جميعها) بهذا النظام ، وتطبيقه على مجتمعاتها تطبيقاً قد تختلف وسائله . ولكنه في شئ مظاهره يفضى إلى غاية واحدة . وإن مواكب الأمم الراقية لتحطف الأبصار وهي سائرة في طريقها إلى قم الاشتراكية العليا . »

يقول : « إننا نعجب من قول الأستاذ بالانعقاد إجماع العالم المتمسك على أن الاشتراكية خير نظام تبلغ به المنفعة الاجتماعية حدّها الأقصى ، وأن الدول الناهضة تأخذ بها وتطبقها الخ ، وأنت ترى وتقرأ في الجرائد كل يوم أن الاشتراكية حزب من الأحزاب لا أكثر ولا أقل ، وأنها لم تل الحكم فيها منفردة بالسلطان إلا في إنجلترا ، ولكن اشتراكيي الإنجليز معتدلون لا يقولون بإلغاء الملكية الفردية ولا الوراثة ، بل لهم مطالب يتقاضونها من أصحاب رؤوس الأموال طلباً لتحقيق التوازن الاقتصادي ، ودفع كابوس البؤس عن الطبقة العاملة ، وقد رضخ لهم أصحاب رؤوس الأموال بكثير مما يطلبون . وقد فازوا في الانتخابات مراراً وتولوا الحكم ، فلم يصدر منهم أقل تطرف يثير ثائرة المحافظين . ووزارتهم اليوم في إنجلترا على وشك السقوط ، فلا تزيد أغليتها عن نحو ستة أصوات . »

ولم يَلِ الاشتراكيون الحكم منفردين قط لا في فرنسا ولا في إيطاليا ولا في أية مملكة أوربية ، ورغمما عما يحدثونه من المشاغبات والإضرابات عن العمل هناك ، فإن تلك الممالك لا تهيم في الانتخابات العامة إلا عدداً محدوداً من المقاعد لا تبلغ ربع ما لبقية الأحزاب . وذلك لأنهم يكرهون المال ويرونهم أجدر بالكد والإرهاق ، ولكمهم يكرهون التنازل عن الملكية الخاصة

والوارثة ، ويتسامحون بكل ما دونهما ، فأصبح ما سمعوا به من مطالب العمال الحققة حدا يشكرون عليه .

فالدول الاوربية لم تأخذ بالنظام الاشتراكي كما يقول الاستاذ ، ولم ينعقد إجماع العالم المنحضر كله على أن الاشتراكية هي النظام الذي تبلغ به المنفعة الاجتماعية حدما الأقصى في الوقت الحاضر . ألا ترى أنه لو كان الامر كذلك لاندجحت جميع الأحزاب في الاشتراكية ، ولانتخب الناس لمجالسهم النيابية الاشتراكيين دون سواهم ١ .

يجوز أن تصح الاشتراكية في عهد من العهود المستقبلية مذهب الناس أجمعين ، ولكن ذلك لن يكون إلا إذا بلغ الناس حداً من التعاطف الإنساني ، والترابط الأخرى ، ومن عدم الانانية ، والتزهد عن الدانية ، بحيث تنعدم في نظرم الفوارق الشخصية ، وهذا ، إن لم يكن محالاً ، فلن يكون إلا بعد أدوار عديدة من التطور العقلي والنفسى لا يمكن أن نتخيله تخيلاً ، لأنه لا يوجد في العالم بعد بلوغ الثقافة إلى الحد الذي وصلت إليه اليوم ما يدل عليه . فلا تزال الأمم تميل للتساحر ، والآحاد في أرقاها كمها في المدنية دائنين على التزامهم ، ولا تزال الطبيعة الشريرة تهيئها حب الذات ، والميل إلى التفوق ، ويريدوها شيئاً الكبر والحسد والضعينة والطمع والشر ، وتلوثها بشرور كثيرة من حب العدوان والنار والسرقة والعش والتدليس والتحايل وغيرها مما لا يحصى ، أفلا ترى معنى أنه قبل أن يعيش الناس إخواً مشتركين في الحياة ، يجب أن تزول كل هذه الآثام والأرجاس من الطباع ، وأن تطهر النفوس من أدرانها ، وما تؤدي إليه من مآسها ، وأن يحل محلها أضدادها من الصفات البيلة ، والميول السامية ، والنوايا السليمة ، ليتمكن أن يعيش الناس جميعاً كأنهم أفراد أسرة واحدة ؟

فإن أردتـ مع تلوث بني آدم بكل هذه الشرور - أن تسود الاشتراكية الأمم ، فذلك لن يكون إلا بإكراهها عليها ، ومن ذا الذي يكرهها وهي حرة تعطى بلادها من ضروب الحكم ما تشاء ؟ .

محمد فريد وجدي

التأريخ

لفضيلة الاستاذ الشيخ فكرى يس

أخرج البخارى فى صحيحه عن سهل بن سعد قال : « ما عدّوا من مبعث
النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا من متوفاه ، وإنما عدّوا من مقدّمه المدينة » .

ينبئنا هذا الاثر الجليل أن الصحابة رضوان الله عليهم لم يجعلوا وقت مبعث
صلى الله عليه وسلم ، ولا وقت وفاته مبدأ لعدد السنين والاعوام ، وحساب
الشهور والايام ، وتاريخ الحوادث والاحوال ، وإنما جعلوا وقت خروجه
من مكة إلى المدينة مهاجراً هو المبدأ لذلك ، فقد اتفقت له صلى الله عليه وسلم
أربع حوادث جسام ، وقضايا عظام ، كل منها يصح أن يؤرخ به ، ويصلح
أن يكون مبدأ للتأريخ ، وهى . مولده ، ومبعثه ، وهجرته ، ووفاته ، ولكنهم
رجحوا الهجرة على غيرها ، لأن المولد والمبعث لا يخلو كل منهما من الخلاف
والنزاع حول تعيين وقته بالضبط والتحديد ، ولأن الوفاة بوقع تذكرها
واستحضارها فى كثير من الأسف والالام على فراقه صلى الله عليه وسلم ، فاخترها
الهجرة ، لأنها لا ينجم عنها شيء من ذلك .

والتأريخ بالهجر ، ثم ترك تخفيفاً ، وهو تعريف الوقت من حيث هو وقت ،
ومثله التورخ بالواو ، وهو قليل الاستعمال ، يقال : أرحت وورّخت : وقت ،
وقيل : تأريخ كل شيء غايته ووقته الذى ينتهى إليه ، ومنه قيل . فلان تأريخ قومه ،
أى ينتهى إليه شرفهم ورياستهم .

والتأريخ فى الاصطلاح : توقيت الفعل بالزمان ، ليعلم مقدار ما بين ابتدائه ،
وبين أية غاية فرضت له ، فإذا قلت : كتبته فى يوم كذا من شهر كذا
من سنة كذا ، وقرئ بعد ما كتبته بسنة مثلاً ، عُلِمَ أن ما بين الكتابة
وبين قراءتها سنة ، وقيل : هو أول مدة الشهر ، ليعلم به مقدار ما مضى .

وكان التأريخ يستعمل أولاً في نفس الوقت الذي يحدث فيه الشيء، ثم توسع فيه حتى صار يستعمل فيما يمرض لهذا الشيء من أحوال .
وهناك خلاف مشهور في أن لفظة « تأريخ » هل هي عربية أو أعجمية ؟ ، فن يرى أنها عربية يقول : إنها مشتقة من الأرخ — بفتح الهمزة وكسرهما — وهو ولد البقرة الوحشية ، كأه شيء حدث كما يحدث الولد ، وقيل : الأرخ : الوقت ، والتأريخ التوقيت ، وقيل : التأريخ قلب التأخير .
ومن يرى أنها أعجمية يقول : إنها معرب « ماه روز » ، ومعناه حساب الشهور والأيام .

وقال بعض الباحثين : إن كلمة « تأريخ » في اللغة العربية مواتدة من كلمة « ياروخ » في اللغة العبرية ، ومعناها فيها هو القمر ، والقمر في اللغة التركية اسمه « ياروق » ، ومعنى الاسم هو المنير المضيء ، استعارته اليهود من الأتراك ، كما استعارت اسم « التوراة » من « توره » ، ولذا لم ترد كلمة « تأريخ » في القرآن ، ولا في لسان النبي صلى الله عليه وسلم .

والتأريخ معروف عند الناس من قديم الزمان ، فإنه لما كثر بنو آدم ، أرخوا بهبوط آدم من الجنة ، فلما بعث الله نوحاً ، أرخوا من الطوفان ، فلما كان تحريق إبراهيم ، أرخوا من ذلك إلى زمان يوسف ، ثم إلى خروج موسى من مصر ببني إسرائيل ، ثم إلى زمن داود ، ثم إلى زمن سليمان ، ثم إلى زمان عيسى ، وقيل : أرخت اليهود بخراب بيت المقدس ، والنصارى برفع المسيح ، وقيل : كان بنو إسماعيل يؤرخون من بنيان البيت ، حتى مات كعب بن لؤى ، فأرخوا من موته ، فلما كان عام الفيل أرخوا منه ، وقيل : كان في اليمن والحجاز تواريخ كثيرة ، يتوارثونها خلفاً عن سلف ، وأما كانت باعتبار حوادث وقعت في الأيام الخالية ، فلما هاجر النبي صلى الله عليه وسلم ، اتخذ المسلمون هجرته مبدأ للتأريخ ، وتناسوا ما قبله .

وذكر بعض العلماء أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر بالتأريخ يوم قدم المدينة مهاجراً في شهر ربيع الأول ، ويعضد هذا ما روى من أن النبي صلى الله عليه وسلم أرخ بالهجرة حين كتب الكتاب لنصارى نجران ، وأمر علياً أن يكتب فيه : إنه كتب لخمس من الهجرة ، فيكون أول مؤرخ بالهجرة — علي هذا — هو رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولكن المحفوظ المشهور أن أول من وضع التاريخ الهجرى هو عمر بن الخطاب
رضى الله عنه ، وقد ذكروا في سبب ذلك هذه روايات :

منها إنهم كانوا قبل خلافة عمر يسمون كل سنة باسم حادثة وقعت فيها ،
كسنة الإذن ، وسنة الأمر ، وسنة الابتلاء ، فلما كانت خلافته رضى الله عنه
سأله بعض الصحابة في ذلك ، وقالوا : هذا أمر يطول ، وربما يقع في بعض
السنين اختلاف وغلط ، فاختار رضى الله عنه عام الهجرة مبدأ من غير تسمية
السنين بما وقع فيها ، فاستحسن الصحابة رأيه في ذلك .

ومنها أن أبا موسى الأشعرى كتب إلى عمر أنه يأتيها من أمير المؤمنين كتب
ليس لها تاريخ ، ولا تدرى بأيها نعمل ، فجمع عمر الناس ، فقال بعضهم :
أرخ بالبعث ، وقال بعضهم : أرخ بالهجرة ، فقال عمر : الهجرة فرقت بين الحق
والباطل ، فأرخوا بها ، وذلك سنة سبع عشرة ، فلما اتفقوا على التاريخ بالهجرة ،
قال بعضهم : ابدأوا برمضان ، فقال عمر : بل بالحرم ، فإنه منصرف الناس
من حجهم ، فاتفقوا عليه .

ومنها أنه رُفِعَ لعمر صكَّ محله شعبان ، فقال : أى شعبان هو ؟ ، الماضى ،
أو الذى نحن فيه ، أو الآتى ؟ ، ثم قال : إن الاموال قد كثرت فينا ، وما قسمناه
غير مؤقت ، فكيف التوصل إلى ضبطه ؟ ، فقال له ملك الاهواز — وكان
قد أسلم وأسلم على يده — : إن للعجم حسابا ، يسمونه « ماه روز » ويستندونه
إلى من غلب من الأكاسرة ، ثم شرجه له ، وبين كيفية ، فقال رضى الله عنه :
ضعوا للناس شيئا من ذلك يتعاملون عليه ، ويضبطون به أوقاتهم ، فذكروا له
تاريخ الفرس ، فلم يوافق عليه ، فاستحسنوا الهجرة تاريخا .

ومنها أنه قدم رجل من اليمن فقال : رأيت باليمن شيئا يسمونه « التاريخ » ،
يكتبون من عام كذا ، وشهر كذا ، فقال عمر : هذا حسن ، فأرخوا ، فلما أجمعوا
على جعله من الهجرة ، قال عمر : بأى شهر تبدأ ؟ ، فقال قوم : من رجب ،
وقال آخرون : من رمضان ، فقال عثمان : أرخوا المحرم ، فإنه شهر حرام ،
وهو أول السنة ، ومنصرف الناس من الحج ، وكان ذلك سنة سبع عشرة ،
أو ست عشرة في منتصف ربيع الاول .

ومنها أن عمر جمع الناس ، فسألم عن أول يوم يكتب التاريخ ، فقال على : من يوم هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وترك أرض الشرك ، ففعله عمر .

هذا هو المحفوظ المشهور في وضع التاريخ الهجري ، ويرى بعض العلماء أنه لا تناف بينه وبين الأول ، فإنه لا مانع من أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم قد أمر بالتاريخ من الهجرة ، وأن عمر قد تبعه في ذلك .

وذكر السبيل أن الصحابة أخذوا التاريخ بالهجرة من قوله تعالى : « المسجد أسس على التقوى من أول يوم » ، لأنه من المعلوم أنه ليس أول الأيام مطلقاً ، فتمتين أنه أضيف إلى شيء مضمرة ، وهو أول الزمن الذي عز فيه الإسلام ، وعبد فيه النبي صلى الله عليه وسلم ربّه آمناً مطمئناً ، وابتدأ بناء المسجد ، فوافق رأى الصحابة ابتداء التاريخ من ذلك اليوم ، وفهم من فعلهم أن قوله تعالى : « من أول يوم » ، أنه أول أيام التاريخ الإسلامي ، أي أول يوم تدخل فيه النبي وأصحابه المدينة .

وإذا كانت الهجرة قد وقعت في شهر ربيع الأول ، فما هي الحكمة في تأخير التاريخ منه إلى التاريخ من المحرم ؟ .

وقد بينوا الحكمة في ذلك من عدة وجوه :

أحدها : أن ابتداء الحرم على الهجرة كان في المحرم ، إذ البيعة وقعت في أثناء ذي الحجة ، وهي مقدمة الهجرة ، فكان أول هلال استهل بعد البيعة ، والحرم هل الهجرة هلال المحرم ، فناسب أن يجعل مبدأ السنة الهجرية .

ثانيها : أن المحرم أول شهور السنة عند العرب ، وكانوا يعظمونه ، ويستأنفون فيه أعمالهم بعد انصرافهم من الحج ، أخرج البخاري في تاريخه عن عبيد بن عمير قال : المحرم شهر الله ، رأس السنة ، فيه يكسى البيت ، ويؤرخ التاريخ ، ويضرب الورق .

ثالثها : أن أول يوم من المحرم هو اليوم الذي تفجر منه السنة وتبتدىء ، كما يشير إلى ذلك تفسير ابن عباس وقتادة من أن الفجر الذي أقسم به الله تعالى في أول سورة العنكبوت ، هو أول يوم من شهر المحرم لجزر السنة .

وعلى كل حال ، فالذى يستفاد من مجموع الآثار والروايات الكثيرة الصحيحة أن الذى أشار بجعل المحرم مبدأ السنة الهجرية هم عمر وعثمان وعلى ، والصحابة واقفون على ذلك .

وأما ما قيل من أنهم كانوا فى صدر الإسلام يؤرخون بربيع الاول ، فالمراد منه أن ذلك كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث كانوا يؤرخون بسنة القديوم ، وبأول شهر منها ، وهو ربيع الاول ، وأما ما حدث فى زمن عمر ، فهو التاريخ بالهجرة وبالمحرم .

ويقول أهل الصناعة فى الكتابة والتحرير : إنه لا بد من تأريخ الرسائل والمكاتيب ، لأنه لا يُدَلَّ على تحقق الاخبار ، ووقوع الحوادث ، ولا يُعرف قربُ عهد الكتابة وبعده ، وتقدمه وتأخره إلا بالتأريخ .

ومن أصحاب هذه الصناعة من ينظر فى التاريخ إلى ما مضى من الشهر ، وما بقى منه ، فإن كان ما بقى أكثر من نصف الشهر ، كتب لكذا وكذا ليلة مضت من شهر كذا ، وإن كان الباقي أقل من النصف ، جعل مكان مضت ... بقيت . ومنهم من لا يؤرخ إلا بما مضى من الشهر ، لأنه واقع معروف ، وما بقى مغيب مجهول ، وأكثر العمل جار على هذه الطريقة .

والليل فى تاريخ العرب مقدم على النهار ، فإن السنين عندهم مبنية على الشهور القمرية ، فالليالى سابقة على الأيام ، لأن القمر إنما يطلع ليلا ، ولأن أول الشهر ليلة ، وآخره يوم ، ولهذا يقال فى التاريخ بأول ليلة ، كتب لأول ليلة من الشهر ، أو لغرته ، أو لميله ، أو لمستهله ، وفى الليلة الثانية . كتب لليلة الثانية من كذا ، وعلى هذا القياس إلى آخر الشهر ، ويكتب فى الخامس عشر . للنصف من كذا ، لأنه أخصر ، وفى الليلة الأخيرة يكتب : لآخر ليلة منه ، أو سلخه ، أو انسلاخه ، وكذلك يكتب فى اليوم الأخير ، وإذا كتب لآخر ليلة ، أو لآخر يوم ، علم أن الشهر كان تاما .

وكانوا فى مبدأ التاريخ بالهجرة ، لا يفتون السنة بكونها هجرية ، ولهذا لا يكاد يوجد أثر لذلك فى الكتب العربية القديمة ، ويظهر أنهم لم يحدثوا هذا التعت إلا بعد استعمال التاريخ بغير الهجرة ، فاحتجج إليه للاحتراز ؟

المتنفعون بمسكن القرآن

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد محمد المدني
المفتش بالأزهر

سأل سائل عما ورد في وصف القرآن الكريم من مثل قوله تعالى :
« هدى للمتقين » ، « وذكرى للمؤمنين » ، « وهدى ورحمة لقوم يؤمنون » ، مما
يفيد أن القرآن ليس له تأثير إلا على صنف خاص من الناس : هم المؤمنون
أو المتقون ، أما غيرهم فلا تأثير له عليهم ، ولا يتفنون بهديه ، ولا تشرق على
قلوبهم أنواره ؛ وإذا كان القرآن كذلك فهو كتاب خاص لقوم مخصوصين ،
ولا يصلح أن يكون « عالمياً » قادراً على هداية الناس أجمعين .

وقبل أن نجيب على هذا السؤال نقبنا ما ورد في القرآن الكريم من مثل
ذلك ، فوجدناه على ما قرر السائل ، فإن كلمة « هدى » أو « موعظة » أو « ذكرى »
أو « شفاء » لم يوصف بها كتاب الله إلا مضافة « للمتقين » أو « المؤمنين »
أو « المحسنين » أو ما إليها من الأوصاف الخاصة ، وإذن فابنى عليه السؤال
صحيح ، وعلينا أن ننظر في الجواب :

إن هذا الوصف للقرآن الكريم وصف متفق مع الواقع وحقيقة الأمر
في الناس ، فليس كل إنسان مستعداً لقبول الهداية الإلهية والانتفاع بها ، فإن
النفوس تختلف ، فمنها نفوس غلبت عليها المادية المظلمة ، فصار أصحابها أجساداً
ليس للروح سلطان عليها ، وليس للعنويات حظ فيها ، ومنها نفوس صافية
راقية تعلم أن الحياة ليست محسّسات خشب ، وتثق فيما وراء هذه المادة أكثر
من وثوقها بالمادة ، وتتقبل في أطمئنان حكم الشعور القلبي ، والإحساس
الداخلي ، كما تتقبل المرئيات أو المسموعات أو الملموسات .

والصنف الأول من الناس أقرب إلى البهائم ، بل فيهم شبه من الجناد الذي
لا يعي ولا يفعل ، أما الصنف الثاني فهو مثال الإنسانية ، وكلما ارتقى فيه هذا

الشعور الروحي ، والإحساس المعنوي ؛ اقرب إلى الكمال ، حتى يصل إلى
 ، المثل الأعلى ، في الإنسانية ، والقرآن الكريم يصف لنا الصنف الأول في كثير
 من الآيات فيقول : « أم تحب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون ، إن هم
 إلا كالأنعام ، بل هم أضل سبيلا ، « لم قلب لا يفقهون بها ، ولم أعين لا يبصرون
 بها ، ولم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام ، بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون ،
 « ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ، ويقول : « ثم قس
 قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة ، وإن من الحجارة لما يتفجر منه
 الأنهار ، وإن منها لما يشقى فيخرج منه الماء ، وإن منها لما يهبط من خشية الله .

وهو يبنى على هذه الطبيعة التي يقررها عنهم ، ما يذكركم من انصرافهم عن
 الذكر ، والتواني عن الحق ، وإعراضهم عما فيه صلاحهم ، فيقول : « إنك
 لا تسمع الموقى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين ، وما أنت بهادى المعنى
 عن ضلالتهم ، « إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون ، « أفأنت
 تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون . »

وقد صور الله لنا هذه الطبيعة الجامدة في عدة آيات تصويراً رائعاً يبين لنا
 أمرها أنهم يان ، فن ذلك قوله جل وعلا : « إنا جعلنا في أعقابهم أغلالاً فهي
 إلى الأذقان فهم مقمحون ، وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيهم
 فهم لا يبصرون ، ولا شك أن صورة المعلول الذي أحاطت الأغلال بعنقه ،
 ووصلت بعرضها إلى ذقنه ، فأقمت - أي تركت رأسه مرفوعاً لعنقها فلا يستطيع
 له حراكاً - وقد حشر في مكان ضيق قد سدت من دونه المنافذ فليس له منه
 متقدم ولا متأخر ، وغشى على بصره فهو غير قادر على رؤية ما حوله ؛ لا شك
 أن صورة كهذه الصورة اليبانية البليغة تدل على مقدار فساد الفطرة ، وجود
 الطبيعة ، ومن ذلك قوله تعالى على لسان رسوله نوح عليه السلام : « قال رب إنى
 دعوت قومي ليلاً ونهاراً فلم يردهم دعائى إلا فراراً ، وإنى كلما دعوتهم لتغفر لهم
 جعلوا أصابعهم في آذانهم ، واستغشوا ثيابهم وأصرروا واستكبروا استكباراً ،
 ثم إنى دعوتهم جهاراً ، ثم إنى أعلنت لهم وأسررت لهم إسراراً ، فهذه أيضاً صورة
 واضحة في بيان معنى الإعراض والالتواء ، يصور فيها قوماً فقدت طبائعهم ، فلم

يتقبلوا الهدى على أى نحو جاءهم ، فإذا أسمعهم الداعي وضعوا أصابعهم فى آذانهم وإذا تعرض لهم استغشوا ثيابهم ، وإذا حاول أن يعالجهم من نواحيهم النفسية بالجهر لهم نارة ، والإعلان نارة ، والإسرار نارة ، أفسدوا عليه سائر محاولاته إصراراً واستكباراً ، فهم كالوحوش الكاسرة ، أو الفردة العاصية ، أو النور الشرسة ، ومن ذلك قوله تعالى ، وقد صرح فيه بطبيعتهم الوحشية النافرة .
 . فما لم عن التذكرة معرضين ، كأهم حر مستغفرة فرت من قسورة ، إلى غير ذلك من الآيات .

أما الصنف الثانى من الناس فهو صنف طبع حساس مرهف الشعور ، فيه صفات الإنسانية : يخاف ويرجو ، ويسمع ، ويعقل ، ويتدبر ويدرك ، وتهزه الذكرى ، وتفعه الموعظة ، ويتفتح قلبه للهدى ، ويهوى فؤاده للإيمان ، وينشرح به صدره ، ويطمئن إليه نفساً ، ولا تزيده حوادث الخير والشر إلا ثباتاً ، هذا الصنف هو الذى يعمده القرآن حياً ، ويرجيه إليه الدعوة ، ويخاطب فيه ضميره وقلبه . إنما يستجيب الدين يسمعون . . . إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب .
 . إنما تذكر من اتبع الذكر وخشى الرحمن بالمعيب . . . إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون . . . إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون . . .

وكما صور الله الصنف الأول بما ذكرنا ، صور الصنف الثانى فى كثير من الآيات ، فن ذلك قوله تعالى . . . الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاقيقشعرمه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله .
 فهذه صورة المتقل فى رياض الذكر ، تمر به آية تخويف فيقف عندها خائفاً وجلال يقشعر لها بدنه ، ويرتجف من هول وعيدها فؤاده ، ثم تمر به آية ترجية فيلين ويرجو ويقبل على الله ، لا يخاف ظلاماً ولا مصاباً . . .

ومن ذلك قوله جل علاه . وإذا سمعوا ما أول إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق ، يقولون ربنا آمنا فاكتمنا مع الشاكرين ، وما لنا لا تؤمن بالله وما جاءنا من الحق ولنعلم أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين ، وهذه الآية فى وصف بعض النصارى ويبان استعدادهم لتقبل الحق ، والإيمان به ، لما فى قلوبهم من الرقة والخشوع ، ويقول الله تعالى فى وصف

قوم آخرين من أهل الكتاب : « ليسوا سواء » من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون ، يؤمنون بالله واليوم الآخر ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين . وكل ذلك تصوير للطبيعة الصافية المواتية من أى ملة كان صاحبها ، فليس الأمر في ذلك خاصا بدين ، ولا مقصورا على طائفة بعينها من الناس ، وإعما هو أمر الطبيعة البشرية حيثما كانت ، وفي أى زمان وجدت .

تين بهذا موافقة التعبير القرآنى للواقع الطبيعى ، وأن القرآن حين يقول « هدى للنتقين » ، وذكرى للذومين ، وما إلى ذلك ، يصف الناس على حقيقتهم ، ويشير لأرباب الدهوات وأصحاب الانكار إلى تلك الطبيعة فيهم ، حتى لا يضيعوا أوقاتهم ، ولا يشتتوا جهودهم فى تطلب الماء إلا من ينابيعه ، وفى استقبالات الخطى إلا من وشيجه :

وهل ينبت الخطى إلا وشيجه ونعرس إلا فى سابنها النخل

وهذه حقيقة إذا فهمت وتقررت فى نفوس الدعاة والمصلحين كان لها فى رسالتهم أعظم الجدوى ، وكانت لأشخاصهم نعم السلوى ، أما جدواها فى أن تسير القافلة قدما لا تلوى على من ندأ أو شد ، ولا تظنر من تخلف أو كل ، فإنه من الخير كل الخير للإنسانية أن تخطو فى سبيل الإصلاح خطواتها غير عابثة بمن يحاولون تعويقها ، ويعملون على إنقائها وتكجيلها ، فلتدعهم فيما هم فيه ، ولتفض لطيتها راشدة قوية فسوف تحملهم بذلك على مجاراتها ، وتبذلهم ، ولو على الرغم منهم ، إليها ، وأما سلواها فى أنها تطرد عن العاملين دواهي الحزن والأسف ، فإن صاحب الفكرة إذا جوبه بالمداوة فى سبيلها ، وعود بها : ران على قلبه رَيْنٌ من الحزن والأسى ، فإذا علم أن الدين يمدونه ويماندونه هم أصحاب الطبايع الملتوية ، والنفوس الفاسدة ، سُرَى عنه وذهب ما يلاقى من الأسف والحزن .

وقد أرشد القرآن الكريم إلى الجدوى والسلوى جميعاً ، ذلك أنه أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالسير فى سبيله دون اكتراث بمن حقت عليهم الكلمة

« إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ، ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الآليم ، » قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون ، » فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون ، » قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني ، » كما أنه سلاه واستل ما في نفسه من اللوعة بمثل قوله ، فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا ، » كتاب أنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج منه لتنذر به وذكرى للمؤمنين ، » إليك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء ، » فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ، » .

أما بعد فإن القرآن الكريم آية من آيات الله الكبرى ، فيه للعقول تبصرة ، وللقلوب موعظة ، ولكن لمن أراد أن يذكر ، » إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ، » .

سعة الصدر

هما أبو عاصم محمد بن حمزة الأسلي المدني الحسن بن زيد بن الحسن بن هاشم بن أبي طالب ، وهو من هو علماً وعملاً وشرفاً ، فقال فيه :

له حق وليس عليه حق ومهما قال فالحسن الجليل
وقد كان الرسول يرى حقوقاً عليه لغيره وهو الرسول

فاتفق أن تولى الحسن المدينة ، فأثابه أبو عاصم الأسلي المذكور ، متكرراً في زى الأعراب ، وأنشده قوله فيه :

ستأني مدحتي الحسن بن زيد وتشهد لي بصفين القبور
قبور لم تزل منذ غاب عنها أبو حسن تعاديبها الدهور
هما أبواك من وضعا فضعه وأنت برفع من رفعا جدبر

فقال له الحسن : من أنت ؟ فأجابه : أنا الأسلي .

فقال له الحسن : إذن حيّاك الله ، وبسط له رداءه وأجلسه عليه ، وأمر له بعشرة آلاف درهم ، ولم يله بكلمة عما قال فيه .

الحج من الناحية الفلسفية

للدكتور محمد يوسف موسى

الأستاذ بكلية أصول الدين

الحج ، كما نعلم جميعا ، ركن من أركان الإسلام ، وشعيرة يتطلب القيام بها البذل من المال والنفس ، وعبادة لا يتم للقادر عليها دونه إلا بالاضطرار بها ، حتى ليُروى عن الرسول صلوات الله وسلامه عليه أنه قال : « من مات ولم يحج فليمت إن شاء يهوديا وإن شاء نصرانيا » . وليس من همى الآن ببيان ما للحج من مقدمات ومعالم وشروط لا يتم إلا بها ، بل موضوع الحديث هو الحج باعتباره عملا اجتماعيا تدعو إليه الفكرة الفلسفية ، لو لم يدع إليه الدين .

• • •

الإنسان مركب من عنصرين : أرضى وهو الجسد ؛ وسماوى وهو الروح . وقد عايناهم الزراع الحاد بينهما كما يكون بين الشيئين أحدهما للآخر ضد وعدو . والناس في ميلهم لهذا العنصر أو ذاك بين مفرط ومفترط ، إلا من كان حكيما فمرف لكل حقه وأرضاه بقدر . ولم ترتطم الإنسانية في هذه الغمرة التي نلّسها هذه الأيام إلا بسبب انحيازها للناحية المادية وانغماسها فيها .

لهذا ، كان لابد من عمل يلفتنا بقوة عن هذه الحياة بما يستلزمه من إعراض عن زينة الدنيا وطيباتها ، وبما يوجب من مساواة تشعّر الفنى منا بأنه أخ لمن يعيش بينهم من عبيد الله لا يتميز بهم في ملبسه ومظهره وعامة أحواله .

هذا العمل هو الحج الذى ، كما يقول القرآن ، يعتبر فى الشريعة الإسلامية عروضا عن الرهبانية والمسيحية ، إذ فيه ما فيه من كبت الشهوات والبهذهن الدنيا والإقبال على الله والسمو بالروح ، وقد سلم مما يلزم الرهبانية من عت وإرهاق دائمين .

ثم ، في الحج مع هذا ، زيارة البيت العتيق الذي أضافه الله تعالى إلى نفسه لشرفه ، وجمع لا كبر عدد من المسلمين في صعيد واحد يؤمون غرضاً واحداً ، ولكل من هذين حكته وأثره البعيد في حياة الأمة أفراداً وجماعات إنما تشق الأمة إذا تناكدت وتفرقت بها السبل : والإسلام ، الذي حث المسلمين على أن يأتَمروا بينهم بمعروف ، جعل لهم مؤتمرات : بعضها يومية وهو الصلاة جماعة ، وبعضها أسبوعي ، أوسع وأعم من سابقه ، وهو صلاة الجمعة ، وبعضها كل عام على نحو أشمل وهو صلاة العيدين ، وأخيراً المؤتمر الأكبر وهو الحج الذي يجب أن يشهده كل مسلم قادر ، مرة واحدة على الأقل في حياته .

ومن الناس من لا يفهم الحقائق إلا مئة ، أو مرموزاً لها بمثل محسة ، فكان من الحكمة أن يكون من شعائر الحج الطواف بالبيت واستلام الحجر الأسود ، رمزاً لما يجب أن يكون عليه المسلمون من وحدة في الهدف واتحاد في التوجه لله . إن البيت الذي أمرنا بالطواف حوله ، هو بيت الله ، الذي جعله مثابة للناس وأمنأ ، وفي الطواف به تشبه بالملائكة الخافين بالعرش ، الطائفين به قانتين مسبحين لا يفتررون ، وفي ذلك ما فيه من سمو للروح وعروج بها إلى السموات العلى . ونفس الحلول بالبيت ورجابه ، تهديد طيب لرؤية صاحبه جل وعلا ، من صفات النفس ، فصارت أهلاً لهذه السعادة القصوى ، وفي استلام الحجر من المسلمين كافة ييمة مهم جميعاً لله عز وجل على كل ما هو حق وجميل وخير وفضيلة .

أليس هذا الحجر المقدس ، كما جاء في الحديث الشريف ، يمين الله يضافح بها خلقه ؟ ، إن في استلام هذا الحجر ، وهذا ما يرمز له ، حافزاً قوياً على وفاء الحاج بما وعده الله عليه من بُعد عن الشر ، وحُب للفضيلة ، وحرص على عمل الخير .

وفي الحج مع هذا كله ، دلالة قوية على الثقة بآفة واستجلاب لمونه . تعزم على الحج المرأة الضعيفة بطبيعتها والرجل الضعيف لمرضه وسنه الكبيرة ، فما هو إلا أن يبدأ من هذه حالته السلي له حتى يجد من نفسه القوة ومن غيره المساعدة ، وحتى يعود صعب الأمر ذلولاً ، فتنبأ له السبل ويمضى لما أراد دون عقبات

أو صواب . ذلك بأنه نزع عنه رداء الغرور بنفسه وحوله ، وألقى نفسه في سبيل الله واتّما به ، متكللاً عليه ، معتدّاً به وحده ، فكان له ما أراد .

والحج ، بمد ما نعرف من الأعمال الظاهرة ، له حقائق باطنة يجب التفوّد إليها ، وأحوال نفسية يشعر بها الحاج ويصم بها . إنه ليمجني في هذا حديث جرى بين الشّيليّ رضوان الله عليه ، وبين صاحب له . كان من هذا الحديث أن الشّيليّ — وهو متصوف حريّ بهذا الوصف ، وليس كأدعياء التصوف في هذه الأيام — يرى أن من عقد الحج لله ، ولم يفسح بهذا العقد كل عقد يخالفه ، كان كأنه ما عقد الحج ونواه ؛ وأن من تجرد من ثيابه للإحرام ، ولم يتجرد مع هذا من المعاصي ، يكون كأنه ما تجرد من ثيابه ؛ وأن من لبى ، ولم يذق هن الله جواب تليته ، يكون كأنه ما لبى ؛ وأن من أشرف على مكة ، فلم يشرف عليه حال من الله تعالى ، يكون كأنه ما دخلها ؛ وأن من صافح الحجر الأسود ، فلم يجد أثر الأمن ، كان كأنه ما صافحه أو لمسه ، لأن من صافح الحجر فقد صافح الحق سبحانه وتعالى ، ومن صافح الله صار في أمن وسلام منه ؛ وأن من رمى بالحجار ، فلم يرم بهذا جملة ولم يردد به علماً يظهر عليه ، كان كأنه ما رمى ؛ وأن من مضى من مكة إلى المدينة فزار الروضة الشريفة ، ثم لم يكشف بشيء من الحقائق ، ولم ير زيادة في الكرامات عليه ، كان كأنه ما زار ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم يقول : « الحاج والعمار زوار الله ، وحق على المزور أن يكرم زوّاره » . وهكذا ، نجد من الشّيليّ ، رحمة الله عليه ، تحليلاً دقيقاً طريقاً للحج وأعماله ومشاعره ، تفهم منه كثيراً من أسرارهِ وفلسفته .

ومن الحق أن نوافق الشّيليّ وأمثاله في نظرم للحج وحكمه وأسراره ، هذه النظرة الفلسفية العالية . إن منا من يبدل في سبيل السفر للحجّاز كثيراً من المال ، ويتمب نفسه بكثير من المشقات ، وذلك في سبيل أن ينظر بلقب « حاج » ، ينال به من عروض الحياة الدنيا ؛ ومنا من يعيش أيام الحج في تلك البلاد المقدسة والأجواء الروحية السامية ، ثم لا يتذوق شيئاً منها ، فيعود أغلظ قلباً عما ذهب ؛ ومنا أخيراً من عرف يقيناً خطر ما هو مقبل عليه ، وعلم

أنه يهجر الأهل والوطن والشموات والمذات في سبيل الله وزيارة بيته الحرام ، وإذا فهو يقدر البيت قدره ويرى لربه عظمته وجلاله ، يخلص النية له ويرعاه في كل خطوة له وعمل ، ويحمده نفسه وهواه حتى يرجع لبلده خيراً مما ذهب ، ويعود لأهله وقد تقبل الله حبه ورضيه وأرضاه .

ذلك ، والحج للكعبة وإن كان من خصائص أمتنا الإسلامية ، فإنه ، باعتباره قصداً إلى مكان مقدس ، عرفته الأمم المتقدمة في العصور المختلفة . عرفه اليونان فكانوا يحجون قبل المسيح عليه السلام إلى معابد مقدسة لديهم ، وعرفه الهنود والصينيون القدامى ، ثم عرفه اليهود والمسيحيون الذين لا يزالون يحجون إلى بيت المقدس .

ومما يجدر ملاحظته أن الحجاج من هذه الأمم المختلفة وغيرها ، يلتزمون أثناء الحج التقشف والزهد في هذه الدنيا كما نلتزم ، ليشرعوا أنفسهم شيئاً من الروحية العالية ، وطلباً لمصاف معبوداتهم وطعماً في ثوابها . وليس هذا التوافق من الأمم المختلفة بمجيب : فالإنسان هو الإنسان في كل زمن ، وإنه ليعس في قرارة نفسه : الحاجة للسمو الروحي والتقرب من المعبود أو من الرمز الذي اتخذ هذا المعبود . وهذا السمو وهذا التقرب لها سبل عدة ، من أهمها تجشم التعب وبذل المال في سبيل الحج للمكان المقدس الذي يراه ألصق البقاع بما اتخذ من إله .

هذا هو خطر الحج عند الأمم المختلفة لما يعتبرونه مقدساً من مكان ، فكيف عدنا وهو تلبية لداء أبنائنا إبراهيم الخليل عليه السلام وإجابة لرجائه ربه إذ يقول : . رب إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة ، فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم ، وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون ، ! وهو مع ذلك استجابة لأمر نبيها محمد صلى الله عليه وسلم حين أمره الله بقوله : . واذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ، ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات . . فقد روى أنه عليه الصلاة والسلام لما نزلت هذه الآيات صعد أبا قبيس فقال : يا أيها الناس أحجثوا بيت ربكم ، فأسمعه الله تعالى من في أصلاب الرجال

وأرغام النساء فيما بين المشرق والمغرب عن سبق في عليه تعالى أنه يحج ، من الطائفين والقائمين والركع السجود

إني أحاول أن أتصور ديناً حلاً من الحج لمشهد مقدس وبقاع طاهرة ، فلا أكاد أظفر إلا بصورة باعثة لدين مبيت لا حياة فيه ، وقاصر عن بلوغ الكمال بمتبعيه . إنه من النافع كل النفع أن يصل المرء ، في هذا رياضة للجسم والروح ؛ وحسن وجيل أن يصوم ، وفيه تعويد على الصبر وترقيق للنفس وفائدة للجسم ؛ ومن الخير للجموع أن يؤدي أفرادهم الزكاة على اختلاف ألوانها ، في هذا اقتلاع للحسد والحقد من قلوب المعوزين على القادرين ، وعون للفقراء على متاعب الحياة ، وإعلاق لكثير من السجون ، وفتح لغير قليل من المنشآت الاجتماعية . ولكن ، هذه العبادات كلها لا تنفي عن الزام الأمة للحج لمكان واحد وقصد غرض واحد ، والعيش فترة من الزمن في تجرد عن الحياة ومفاتها ، وإقبال على الله وحده ، واستعداد لتلقي فيضه ورحمته ما دنا قد سعيينا إلى بيته محضين النية له .

من ذلك كله ، نعرف أن الحج عمل يأمر به العقل قبل أن يوحى به الدين ، وأن لكل عمل من أعماله وشعيرة من شعائره حكمته وفلسفته ، وأن ديناً صحيحاً لا يمكن أن يقوم بدونه ، وأن أمة من الأمم لا يسعها أن تستغنى عنه . وحسبنا دلالة على هذا ، ما أشرنا إليه من أن الأمم التي خلت عرفت وعرفت له خطره ، وأن الأمم التي تعمّر العالم اليوم — على اختلاف مللها ونحلها — تعدّ الحج لمكان ما ، أمراً مقدساً فيه رياضة للجسم وسمو للنفس وخير للأمة عامة . وإن أمراً تجمع عليه الأمم في العصور الخسالية والأيام الحاضرة ، رغم ما يفرق بينها من اختلاف في الجنس والدين والتقاليد ، هو أمر لا يقادر قدره ولا يكاد يُدرك كل ما فيه من جمال وخير وفضيلة .

من أجل هذا ، أدعو الله أن يوفقنا لهذا الخير مرة بعد مرة ، وأن يجعل حج من يحج من المسلمين عامة حجاً مبروراً ليس له جزاء إلا الجنة كما جاء في حديث المصطفى صلوات الله وسلامه عليه .

المهاجرون والأنصار

لفضيلة الأستاذ الشيخ إبراهيم على أبو الحشب
المدرس بكلية الشريعة

الدين الإسلامي يطلب إلى المسلم الفرار بدينه عن الفتن ، والأي بمرضه
عن الشبهات ، والبعد بنفسه عن مواطن الأذى ، خصوصاً إذا كان ذلك لا يجر
إلى عضي طيبة ، ونهاية محمودة ، وخاتمة مشكورة .

ولو أن النبي صلى الله عليه وسلم ظل بمكة يتحمل هو وأصحابه العنت ،
ويعرض للبهالك ، ويقدم نفسه بنفسه للذات الرخيصة ، والقتل الحقيق ، الذي
كان يستهدف له هنالك ، لما قامت لدعوته قائمة ، ولظلت الفوضى ضاربة
أطنابها في ربوع الجزيرة كلها حتى يقضى الله أمراً كان معمولاً .

على أنه ليس من حصافة العقل ، وحزامة الرأي ، ونضج التفكير ، أن يقف
الاهزل لشاكي السلاح ، أو يازل الضعيف القوي ، أو يصول أفراد قليلون
أمة بأسرها لا تزال فيها جاهلية السفهاء ، وطيش المأفونين .

ولهذا ، فقد كان الانتقال من مكة إلى المدينة بمثابة الهدوء الذي يسبق
العاصفة - كما يقولون - أو الخطط الموضوعة في نظام الحرب ، وأساليب
الهجوم ، والذي يعرف أن المسلمين تكتلوا بعدها للغزو ، وتجمعوا للجهاد ،
وباعوا أنفسهم لله ، يدرك إلى أي مدى غيروا وجه الزمن ، وحولوا معالم الدنيا
ورسموا حدود الحياة وأبعادها ، واقترحوا هي الدعوى ما يجب أن تكون عليه
نظمه وتقاليده .

ولولا أن المهاجرين تسالوا خلصة ، وخرجوا مباغتين ، لضرب عليهم
المشركون الحصار ، وحالوا بينهم وبين الخروج إلى يثرب ، لأنهم لا يشكون
في أن العدو الذي يهارق ميدان القتال ، ربما كان فراره خداعاً أو تحفزاً للوثوب .

وفي التاريخ ما يدل على أنهم لم يهتأ لهم صفو ، أو تهدأ لهم عاصفة ، أو تخفد لهم جفوة ، حتى إذ علموا أن محمداً قادم إلى مكة بعد تسع سنوات يفتحها ، ويبسط سلطانه عليها ، تدهموا إليه بعنوان « أخ كريم وابن أخ كريم » ، وأبى أدبه - حيثئذ - إلا أن يقول لهم : اذهبوا فأنتم الطلقاء .

هذا تلخيص ذلك الحادث الذي يردد الناس الكلام عنه طويلاً ، والتعليق عليه مستفيضاً ، وفي خلال هذا وهذا يفوتهم أن يهتدوا إلى الصواب ، أو يصيبوا أكباد الحقيقة .

والطريف الجديد في هذا الحادث أنه تمخض عن لون من ألوان التنافس الديني ، والعصية غير المرذولة . جعل الأذهان تنفتح إلى نعمة لم يكن لهم بها عهد سابق ، تلك هي كلمة « المهاجرون والأنصار » .

« في المدينة لقيت هذه الرسالة مرتعاً حصيداً ، وجواً مناسباً ، وبئس صلحة ، ونفوساً تفتديها بدمائها وأموالها . ولقي هؤلاء الدين تركوا ديارهم وزروعهم وثمارهم ، أهلاً بأهل وجيراناً بحيران ، وتسابق الأوس والخزرج في الإحسان إلى « اللاجئين » ، وامتدحهم القرآن بقوله : (ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة)

وتمكنتم منزلهم عند النبي صلى الله عليه وسلم ، وزادت محبته لهم ، وثقته بهم ، واطمأنه إليهم ، إلى درجة أنه كان يحرمهم من القاء ويقول : « إلى لاهطي الرجل ، وغيره أحب إلي » .

على أن أهل مكة لا يقولون في الفضل ، ولا يقصون في المزية ، فإنهم احتضنوا الدعوة في مهدها ، وتمهدوها في يادى أمرها ، وجعلوا شمسها تسطع ونورها يضيء ، وكلمتها تدوى ، وصوتها ينبعث ، ومنهم السابقون الأولون .

ورجالهم المرموقون أمثال الخلفاء الأربعة دعموا البناء ، ورفعوا اللواء ، وفقى العرب على آثارهم ، ومضوا على سننهم ، خصوصاً عمر الذي استجاب الله به دعوة الرسول : « اللهم انصر الإسلام بأحب الرجلين إليك » .

وإذا كان في الحديث ، الانصار كرشى وعيني ، واستوصوا بالانصار خيرا ، والله الله في الانصار ، ولا يحبهم إلا مؤمن ، وغير ذلك مما يدل على أنهم بلغوا شأوا عظيما ، فإن القرآن — كذلك — يذكر المهاجرين أولا ، ويعدم بالثواب الجزيل ، والمنزلة الرفيعة ، والنعيم المقيم ، ويجعل للهجرة أجر الجهاد والاستشهاد .

وقد أغرى ذلك كله فريقاً من أولئك جميعاً أن يشغلوا زمنا طويلا بالمفاضلة بين المهاجرين والانصار ، مفاضلة فيها شيء من المبالغة ، وكأنه صلى الله عليه وسلم كان يتباً بما يكون وراء هذا الجدل من الخطأ في الرأي . والخطأ في التقدير حين يقول : أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم ، وإذا ذكرتم أصحابي فأمسكوا ١١ :

وما كان يدور بخلد إنسان أن المسلمين الذين عاصروا الوحي وأدركوا نزول الآيات ، وتشرفوا بنور وجه الكريم تكون فيهم نزعة المكاثرة بالفضل ، والمعاخرة بالطاعة ، إلا أن الذي يدرى قرب عهدهم بما كان عليه أسلافهم من هذا الخلق الذي كانوا يقيمون له الأسواق ، ويحاربون المحكين ، يقول : شئتم أعرفها من أخزم .

وفي اليوم الذي اختار الله فيه محمدا صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى ، واجتمع المسلمون في سقيفة بني ساعدة يتحدثون في انتخاب الخليفة الذي يرعى شؤونهم ، ويقضى بينهم ، ويرد عدوانهم ، ويكبح جماحهم ، ويقوم عليهم الحدود ضربوا على هذه النعمة المهاجرون والانصار ، وأحد أبو بكر رضى الله عنه يكيل التواء للفريقين ، ويفندق في المدح للطرفين ، عساه أن يخذل نيران الفتنة ، ولولا ما كان له من الصعوبة للرسول ، وأنه خصه باليابة عنه في الصلاة بالمسلمين في مرض موته ، وأن عمر بن الخطاب سارع إلى مبايعته فبايعه كثيرون لكانت الحال غير الحال : كفانا الله شر الحلاف ، ورحم الانصار والمهاجرين والذين اتبعوهم بإحسان إلى يوم الدين ؟

مِنْ تَوْجِيهَاتِ الْإِسْلَامِ

لفضيلة الاستاذ الشيخ محمود النواوي
المفتش بالأزهر

« ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله والله رءوف بالعباد ،

نفسى وأهل أولئك الذين تجردوا من أنفسهم ولذاتهم ، ومن أموالهم وأبائهم ، فباعوا كل ذلك لله ، وبذلوه في سبيل الله ، إهم يجديرون بأن نطأ على الرءوس إذا ذكروا ، وأن تلين لعظمة نفوسهم الجلود والقلوب ، أولئك الذين هدام الله . وأولئك هم أولو الآلآب . .

قد عرف الإسلام كثيرا من هؤلاء المجاهدين الصابرين وعلى رأسهم سيد الأمة وأستاذها ، سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، الذى كانت فيه الأسوة الصالحة الكريمة لكل من يجاهد في سبيل الله ، ويشترى نفسه ابتغاء مرضاة الله ، لقد كان يؤذى في ذات . ولأه . ومر أخلص أهليه وذوى قرباه ، في غدوة ورواحه ، وفي مصانه وصباحه .

ولقد تضامرت عليه قريش ، ونألبت عليه العرب ، فما وهن لما أصابه في سبيل الله وما ضعف وما استكان ، ولا زاد على أن قال كلمته الخالدة المدوية في بضاء هذا الوجود ، الناصعة المشرقة في صفحات البشرية والخلود . . والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ، حتى يظهره الله أو أهلك دونه ، ما تركته . .

ولقد كان لأستاذيته العظيمة في العزة الإسلامية والكرامة الأدبية ، والنفسك بالحق أثرها الخالد العظيم في نفوس أصحابه وأتباعه ، منذ قام الصراع بدهونه الكريمة بين الحق والباطل ، ومنذ شمرت قريش عن ساعدها تتفنن في أذى من عرف السبيل إلى الدين الحق ، ووثبت كل قبيلة على من فيها من

المسلمين ، يعذبونهم بشقى الألوان وصنوف الهوان . فهذا ياقى عبده الحبشى
 « بلالا ، على لرمل فى الهجير تحت الشمس المحرقة ، ويضع على صدره الحجر
 ويسله للبوت وهو يقول . أحد أحد ، ثم يمر به ورقة بن نوفل فيرتى لحاله ،
 ويكي له ويقول : « والله لئن قتلته قريش لا تحزنه حانا ، ثم يشتريه أبو بكر
 فيحتقه كما عتق كثيرا من الموالى قبله وبعده ، منهم جارية لعمر بن الخطاب قبل
 إسلامه ، وهذه امرأة أخرى عذبت أشد العذاب حتى ماتت ، لا تصرف عن
 دينها الحق ، ولا تحول عن مبدئها الصدق ، وهذه وهذا ، ومن إليهم من المعذبين
 فى ذات الله وفى سبيل مرضاته ، وابتغاء وجهه الكريم .

وعرز الإسلام مواقفهم . ووجه الناس جميعا وجههم إذ يقول . « أم حسبت
 أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم . منهم البأساء والضرراء
 وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه منى نصر الله . ألا إن نصر الله
 قريب ، بنفسى وأهل أولئك الذين اشترى الله سبحانه أنفسهم وأموالهم ، بأن لهم
 الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا فى التوراة والإنجيل
 والقرآن . ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به ، وذلك هو
 العوز العظيم .

كل نصيحة يضحى بها المؤمن فى سبيل الله فهمى سعادة له ، وإعناق لنفسه ،
 ورهان على أن الإيمان الصحيح غالط قلبه ، وكذلك الإسلام حين تعالط
 بشاشته القلوب .

اتمسك بالحق ، والبقاء على المبدأ القويم ، والكلمة الصادقة العادلة عند
 السلطان الجائر ، وعدم الرضا بالضم ، ولا المبالاة بما يصيب المؤمن فى انبيات
 على مبدئه ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والصبر على ما يصيب فى سبيله
 وما يقع من تضحيات لأجله ؛ كل ذلك شراء للنفس ابتغاء مرضاة الله . ذلك
 بأنهم لا يصيهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة فى سبيل الله . ولا يعطأون . وطننا
 يغيط به الكفار . ولا يقاتلون من عدو نبلا إلا كتب لهم به عمل صالح إن الله لا يصيب
 أجر المحسنين .

ليت شعرى متى رى فى أمنا هذه ، أولئك الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه .

هم الذين نمر بهم الأرض ويستقر السلام والامن وترضى السماء ، وتم السعادة والرغاء .

أما أولئك المنافقون ، الذين يلقون هؤلاء بوجه ومؤلاء بوجه ، ويتجملون لكل من يلقون ، فيعاملون الجائر المقيم على جورهم معاملة المعاونة والصفاء ، ويقابلون التقي المغرق في نسكهم مقابلة المجاملة والرياء ، ويلبسون الحق بالباطل ، ويكتُمون الحق وهم يعلمون ، فانهم شر وبلاء على هذه الأمة أكثر من أعدائها ، وهم الشؤم على الحياة والمجتمع ، وهم الذين يعملون شركة الجماعة ، ويغشون أبدي أهل الحق والطاعة ، غناء كعشاء السيل ، ما يبالي الله في أى واد هلكوا ، ولا من أى أبواب الجحيم ولجوا .

إن شراء النفس ابتغاء مرضاة الله فريضة محكمة ، وسنة قائمة ، وعزيمة صادقة ، يحلها الجهاد الصادق لإعلاء كلمة الحق ، وإصلاح المجتمع الذى يعيش فيه المرء ، ولن يكون ذلك إلا بعد أن يجاهد المؤمن نفسه أولاً ، ليحصن إيمانه وليحفظ قلبه ولسانه ، وليستعمل جوارحه فى الخير والخير ، فيجعلها كلها لله وبالله ، لا يضمن بصالحه ، ولا يذخر وسماً فى منفعة ، ولن يكون ذلك أيضاً إلا بعد جهاد الشيطان والانتصار عليه ، حتى يسلم المجاهد من عبثه به ، فيعصى أمره ، ويكذب وعده ، فإنه مترص ببنى آدم . يعدم وينهم وما يعدم الشيطان إلا غروراً .

، الشيطان يعدمكم الفقر وبأسركم بالفحشاء ، والله يعدمكم مغفرة منه وفضلاً ، والله واسع عليم .

وإن فى مجاهدة الشيطان لأكبر قوة للنفس ، ومساعدة للقلب من الأمراض الفتاكة التى تعميه عن إِبصار الحق ، وتفتره عن توجيه الجوارح فى الخير ..

« ومن يعيش عن ذكر الرحمن تفيض له شيطاناً فهو له قرين ، وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون ، حتى إذا جاءنا قال يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين . »

وإذا تم جهاد النفس والشيطان ، وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم ، فقد سهل

جهاد الكفار والمنافقين وأهل الزيغ والمارقين ، واستطاع المؤمن أن يعيش كريماً عظيماً ، ويدعى بذلك في ملكوت السماء . .

واقصد ذكر الإمام العالم الصوفي ابن قيم الجوزية في كتاب ، زاد المعاد ، أن جهاد النفس على أربع مراتب :

١ — جهادها على تعلم الهدى ، ودين الحق الذي لا فلاح بدونه ولا سعادة إلا به .

٢ — جهادها على العمل به ، فإن العلم وحده إن لم يصرها لم ينفعها .

٣ — جهادها على الدعوة إليه وتعليمه ، وإلا كان من الدين يكتبون ما أزل الله من البينات والهدى .

٤ — جهادها لتصبر على مشاق الدعوة إلى الله ، وأذى الخلق في سبيلها .

فن استكمل هذه المراتب فهو من الربانيين .

وأما جهاد الشيطان فرقتان :

الأولى : دفع ما يلقى إليه من الشهوات والشكوك في الإيمان ، وذلك يثمر اليقين .

الثانية : دفع ما باقى من الإرادة والشهوات ، وذلك يثمر الصبر .

واليقين والصبر هما اللذان رفع الله بهما من رفع من عباده ، كما يشير إليه قوله ، وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا ، وكانوا بآياتنا يوقنون .

فن استطاع أن يقوم نفسه ، وأن يزع شيطانه فقد اعتز بالله ، وارتفع عن كل من سواه ، يقول الحق ولو هلى والديه والآخرين ، ولا يكتبكم الشهادة ، وينصر أولياء الله مهما تحلل عنهم سواء ؛ ويخذل أولياء الشيطان مهما تنافس الناس في القرب منهم ، الضعيف قوى عنده حتى يأخذ له حقه ، والقوى ضعيف عنده حتى يأخذ الحق منه . يتعهد جاره وعشيرته وصديقه بإحلاص وطيب نفس ،

ويجد في مصالح المحتاجين . وإغاثة الملهوفين . نفسه منه في غناء ، والناس جميعاً
منه في راحة .

ويجبني من كلام أمير المؤمنين على عليه السلام في كلمة لأخيه عقيل :
« وأما ما سألت عنه من رأيي في القتال فإن رأيي قتال المخلين حتى ألقى الله ،
لا يزيدني كثرة الناس حولي عزة ، ولا تفرقهم عني وحشة ، ولا تحببني ابن أهلك ،
ولو أسله الناس ، مصرعاً متحشماً . ولا مفرراً للضمير وأهناً ، ولا سلس الزمام للقائد ،
ولا وطلاء الظهر للراكب : ولكن كما قال أخو سليم :

فإن تسأليني كيف أنت فأني صبور على ريب الزمان صليب
يعز على أن ترى في كآبة فيشمت عاد أو يساء حبيب

العفو

لما دخل المأمون بغداد أحضر (دُعِيلاً) الشاعر بعد أن أعطاه
الآمان ، وكان قد هجاه وهجا أباه ، فقال له : يا دُعيل (من الحضيض الأوهـد)
يشير المأمون إلى ما قاله فيه من قصيدة هجاه بها

فقال دُعيل : يا أمر المؤمنين قد عفوت عمن هو أشد جرماً مني . وقد أراد
المأمون من اللفظين اللذين واجه الشاعر بهما أن يذكره بالقصيدة التي هجاه بها
ومنها قوله يخاطب المأمون :

إني من القوم الذين سيوفهم قنات أعاك وشرفتك بمقعد
شادوا بك كرك بعد طول حمله واستفذك من الحضيض الأوهـد

نوه له في هذا البيت بما قام به طاهر بن الحسين من مثل أخيه محمد بن الرشيد
ونوئته المأمون مكانه واستنشد هذه القصيدة . فاستغفاه ، فقال : لا بأس عليك
وقد رويتها ، وإنما أحببت أن اسممها منك . فلما أنشده إياها وانتهى إلى قوله منها :

بنات زياد في القصور مصونة وربت رسول الله في الفلوات

بكي المأمون وجدده الآمان ، وأحسن له الصلة .

دعاء مستجاب

لفضيلة الأستاذ حسن جاد

المدرس بكلية اللغة العربية

ليس في تاريخ الإسلام كله صفحة أبلغ في الأسى والأسف ، وأدعى إلى الشجن والالم ، من تاريخ الأندلس . ففي الأندلس وحدها طوى للإسلام بساط بمدود ، ودالت دولة كبيرة ، وبادت أمة عظيمة ، ونجيت حضارة زاهرة . ولم تبق ثمة من تلك الصفحة الباهرة سوى أطلال دارسة ، وذكريات حزينة ، تثير في أغوار النفس بالغ الحسرات ، وتعمر في قلب كل مسلم أعمق الجراحات .

فإذا انفرط عقد الخلافة ، وشت شمل الوحدة ، ودب ديب العصية والفرقة ، واستبدت بكل فرد شهوات الحكم ونزوات السلطان ، وزال عن الكبراء ذلك السلطان القاهر الذي خضعوا له منذ عهد عبد الرحمن الناصر ، اضطرب أمر الدولة وتخاذلت سواعدها ، ومادت أركانها . وصارت بعد أن أبي طاهر نبيا مشاعاً يتجاذبه الخلائف من ملوك الطوائف ، فإز كل ما استطاع من البلاد ، وأخذت المدن الكبرى تستقل عن قرطبة منذ سنة ٤٠٠ هـ ؛ فقلب قواد البربر في الجنوب ، وكبراء الصقالبة في الشرق ، واستقل بالنواحي الأخرى أسر كبيرة من العرب . وكان أول المتغلبين بنو ذى النون في طليطلة ، ثم كانت بنو هود في سرقسطة ؛ وبنو عباد في إشبيلية ، وبنو الأملس في بطليوس ، وبنو جهور في قرطبة .

وهكذا وثب المتغلبون على أشلاء الأندلس يفتسمونها ، وقامت الدويلات في المقاطعات والمدن يتنافس بعضها بعضاً ، وتحاول كل واحدة أن تنزع ما بيد الأخرى ، ووجد عدو الأندلس الخالد — أسبانيا الصرانية — فرصته السانحة ،

فأخذ يؤلب بعض الدويلات على بعض ، وملكها يرتعون في أحضان النصارى ،
ويلتمس كل محالفهم على خصمه ، حتى انقصر النصارى البلاد من أطرافها ،
وتوغلوا فيها إمارة بعد إمارة ، إلى أن طلوا صفحة الإسلام بعد ثمانية قرون ،
وخرج آخر جماعة إسلامية جلت عن الأمدلس سنة ١٠١٧ هـ بعد ما رأوا
مصارع إخوانهم ونفيهم وتشريدكم . وتوالت السنون ، ومرت الأيام ، والمأساة
تحرز في نفس كل مسلم ، وتتجدد في صدر كل عربي ، وكأنه في موقف أبي الحزم
ابن جهور حين وقف على قصور الأمويين وقد تقوضت أبنيتها ، وعوضت
من أنيسها بالوحوش أفنيها ، فقال :

قلعت يوما لدار قوم تفاروا أين سكانك العزاز هلينا ؟
فأجابت : هنا أقاموا قليلا ثم ساروا ولست أعلم أين^(١)

تولى أبو الوليد بن جهور أمر قرطبة بعد أبيه فيمن تولوا الأمر واستقلوا
بالمدين الكبرى من ملوك الطوائف ، فلما أدركه الإعياء وألحت عليه الشيخوخة ،
ترك الأمر لابنه عبد الملك ، وأسلمه الزمام . فلما طمع يحيى بن دى النون في
قرطبة ، على عادة هؤلاء الملوك ، وقد توفرت دواعي الطمع من الانحلال
والهزقة ، وأرقته الرغبة في الاستيلاء عليها فيمن توارقه من المتربصين ، أشب بخاله
فيها فاستجار عبد الملك بالمعتمد بن عباد المنتطب على لإشبيلية ، فكان كالمستجير
من الرمضاء بالنار ، حيث كان هو الآخر متبنا بقرطبة حتى جلا عنها ابن دى النون
يأسا . ولكن ما انقشعت سدة الليل حتى هتك العباديون الحرم . خرج
عبد الملك لكي يشبهم ويشكرهم على حمايته فلم يرهم إلا إحداهم بقصره
وارتفاع أصواتهم بالبرادة من أمره . وقبض عليه وعلى سائر أهله ، وأخرج
أبوه الشيخ أبو الوليد مغلوج الشدق ، مائل الشق ؛ فلما وسط به فتنطرة قرطبة
خارجاً منها على عجين رفع يديه إلى السماء وأخذ يبتهل : اللهم كما أجبت الدعاء
هلينا فأجبه لنا ،^(٢) .

(١) مطبع الأندلس من ١٧ ولفح - ١ ص ٢٤٩ .

(٢) من الذخيرة لابن بسام - ٢ ص ١١٤ وما بعدها .

ترى هل استجاب الله هذا الدعاء ؟

كان المعتمد هذا أكبر ملوك الطوائف وأنداهم راحة ، وأرحبهم ساحة ، وكانت دولته كما يقول أبو بكر الداني أشبه شيء بالدولة العباسية بعدد ، سعة مكارم ، وجمع فضائل ؛ وكانت حصرنه ملتقى الرجال وروسم الشعراء ، وكان ذكي النفس ، غزير الأدب رقيق الشعر ، اجتمع له من الشعراء وأهل الأدب ما لم يجتمع للملك قبله ^(١) . أما ترفه وإسرافه وبدخه فشيء يسمو على الخيال ، ويتقاصر دونه افتنان القصاص . قالوا إن جاريته ، اعتداد ، رأت يوما نساء البادية يمين اللين في القرب وهن رافعات عن سوقهن في العطين ، فاشتت أن تفعل هي وجواربها مثل هؤلاء النسوة ، فأمر المعتمد بالملك والكافور وماء الورد ، وصير الجميع طينا في القصر ، وجعل لها قريبا وحبالا من إبريسم وخرجت هي وجواربها تخوض في ذلك الطين ^(٢) .

أما نهايته فكانت من أجمع الهيايات ، وكانت ظروفها على هذا النحو الذي سلكه هؤلاء الملوك من الرغبة في الاستبداد بالملك ، وحوك الدسائس ، ونخب العرص ، والاستعانة بالأجنبي .

طمع الأذفوش في بلاد المعتمد ، فأرسل إليه يتهده ، فصرب المعتمد الرسول وقتل من معه ، فتألم له الأذفوش ، فاستعان المعتمد بالأمير يوسف ابن تاشفين ، فتم له النصر . ولكن دعاء أبي الوليد لا يزال يتردد في أطباق السماء ، فكما كان المعتمد مارا حين استجار به أبو الوليد من رمضان ابن ذى النون ، كان يوسف بن تاشفين مارا على المعتمد من رمضان الأذفوش ، فقد غدر بالمعتمد وانزع البلاد من أيامه ، وقتل ابنه الظافر المتولى زمام قرطبة المفصورة ، في حالة مؤثرة وصفها صاحب الفلاند ، ثم ابنه المأمون كذلك . وحوصر المعتمد بأشبيلية وقبض عليه واعتقل بمدينة ، أغمات ، وأودع دل قيدها وظلام سجنها ، وشرّد أبناؤه ، ودلت بناته . وتحطم ملكه الشاخ ، وانطوى بساط عزه ومجده .

دخلت عليه بناته في سجنه يوم عيد وكن يعزلن للناس بالاجرة في أغمات ،

(١) فتح الطيب ٢٥ ص ٩١٢ .

(٢) المعصية - للراشدي .

حتى إن إحداهن غزلت لبيت صاحب الشرطة الذي كان في خدمة أبيها وهو في سلطانه ، قرآن المعتمد في أطوار بالية وحالة رثة ، فصدعن قلبه فقال :

فيا مضي كنت بالاعياء مسرورا	فساءك العيد في أغصان مأسورا
ترى بنائك في الأطوار جائعة	يغزلن للناس لا يملكن قطميرا
برزن نحوك للتسليم خاشعة	أبصارهن حسيرات مكاسيرا
يطأن في التراب والأقدام حافية	كأنها لم تغطأ مسكا وكافورا
من بات بعدك في ملك يصر به	فإنما بات بالأحلام مغرورا

وكان القدر كان يسخر من عبته مع جاريته (اعتماد) فردت بناته إلى الطين الحقيقي : طين الريفيات حاملات الجرار ، لاطين المسك والعنبر والكافور :

يطأن في الطين والأقدام حافية كأنها لم تغطأ مسكا وكافورا
أجل :

أأرغب أن أعيش أرى بناتي	عوارى قد أضربها الخفاء
خوادم بنت من قد كان أهلى	مراتبه إذا يبدو النداء
ولكن الدعاء إذا دعاه	ضمير مخلص نفع الدعاء

ويدخل عليه ولده أبو هاشم والقيود قد عضت لساقيه عض الاسود ، وهو لا يطيق لإعمال قدم ، فلما رآه بكى وقال :

فبدي أما فعلنى مسلما	أبيت أن تشفق أو ترحما
يصرق فيك أبو هاشم	فينثى والقلب قد هشما
ارحم طفلا طائشا له	لم يحش أن يأتيك مسترحما
وارحم أخيات له مثله	جرعتهن السم والعظما

وما زال يرسل من زفراته ، ويسكب من عبراته حتى مات بالسجن سنة ٨٨٨هـ ، بعد أن صدع القلوب بأناته الكسيرة ، وهز النفوس بمواجهه الآلية ، فما أمر الهدلة بعد العز ، وما أقسى الشقاء بعد النعيم ١ . وقف ابن اللبابة في جماعة من الشعراء على قبره في يوم عيد ، والناس عند قبور أهلهم ، فأشد بصوت عال :

أهل النار يخضعون

لفضيلة الأستاذ علي محمد حسن العماري
مبعوث الأزهر في السودان

نعوذ بالله من النار ومن خصوماتها ، وإنها لخصومات عنيفة لا عهد لأهل الدنيا بمثلا ؛ فهي خصومات بين السادة والمسودين ، بين الاتباع والمتبوعين ، ظلم الجميع أنفسهم فرأوا العذاب ، فترا المتبوعون ، وندم التابعون .
وهذه قصة عرض لها القرآن الكريم في أكثر من موضع ، فبين في وضوح وجلاء حال أولئك الكبراء الذين حلوا أوزارهم ، وأوزار الدين أضلوم بغير علم ، وحال أولئك الضعفاء الذين صغرت نفوسهم ، وسخفت عقولهم ، ودلت أراذلهم ، فانقادوا لكبرائهم ، يؤمنون بهم ، ويعجبونهم كعب الله أو أشد حبا ، ويعتقدون أنهم سيعملونهم على أجنحتهم يوم يحشر الناس حفاة هراة . فللؤمن محبوب

ملك الملوك أسامع فأنادى أم قد عدتكم عن السماع عواد
لما نقلت عن القصور ولم تكن فيها كما قد كنت في الأحياد
أقبلت في هذا الثرى لك خاضعا وجعلت قبرك موضع الانشاد
واستمر في القصيدة يكي والناس يخضعون عليه ويكون .

نرى هل استجاب الله دعاء أبي الوليد حين أخرجه المعتمد مفلوج الشدق مائل الشق ؟ نعم . ولعلها عظة لمن يصول بالقوة ، ويدل بالبأس ، ويعميه الغرور فيكيد للضعيف ، ويستبد بالمفلوب ، ويستعمر الشعوب ، ويستعبد المهالك ، ويدبر في الخفاء . وإن دهوة المظلوم ليس بينها وبين الله حجاب ، كما يقول الرسول صلوات الله عليه ، وإنها لدعاء نافع مستجاب ، كما يقول المعتمد نفسه :
ولكن الدعاء إذا دعاء ضمير مخلص نفع الدعاء .

واحد — هو الله تعالى — يعتقد أنه كل شيء ، ويبيده ملكوت كل شيء ، وله القدرة والسلطان على جميع الأكوان ، فأناله من خير فهو بهدأته وتوفيقه ، وما تعذر عليه من أمر فهو يكفه إلهه ، ويعول فيه عليه ، وللشرك أرباب متفرقون ، فإذا تعذر عليه أمر ، لجأ إلى بشر أو صخر ، أو توسل بحيوان أو قبر ، أو استشفع بزيد أو عمرو ، فهو دائماً مضطرب البال ، لا يستقر من القلق على حال (١) .

هكذا يدين السادة للضعفاء ، وهكذا يذل الضعفاء للسادة ، ولكنهم ما يكادون يفارقون هذه الحياة حتى يتبين لهم ، فإذا بلغت الروح الخلقوم ، وحضرت الملائكة تتوفى أولئك الضعفاء ، سألتهم : أين الذين كنتم تعتمدون عليهم ، وتتوسلون بهم ، وتعتمدون أنهم شركاء لله ، فيلصقت الضعفاء بمنة ويسرة ، فلا يرون من يرد عنهم الموت ، أو يخفف من سكراته ، فيعرفون — لأول مرة — أنها كانت خدعة ، حتى إذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم قالوا أين ما كنتم تدعون من دون الله ، قالوا ضلوا عنا ، وينفخ في الصور فيخرجون من قبورهم فاكسى رؤوسهم ، خشعوا أبصارهم ، يهولهم الموقف ، ويشدد عليهم الحساب ، فيلصقون لعلمهم يمدون من يأخذ بأيديهم ، فإذا سادتهم يبرزهم الملائكة لهم ، لكن لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه ، ولا يسأل حميم حميماً ، فهم يترامون ، ويصر بعضهم بعضاً ، ولكن يفر المرء من أخيه وصاحبه ، فيسمعون الصوت ساخراً منهم ، هارتا بهم : « ما لكم لا تنصرون ، فيشتعبون عتاباً خفيفاً هادئاً ، يقول الاتباع : إنكم كنتم توسوسون لنا ، وتزينون لنا الشرك والكفر ، فيجيبهم المتبوعون في حسرة لادعة ، وألم بالغ ، ما كانت لنا عليكم من سلطان ، بل أنتم الذين آثرتم الشرك . » احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون من دون الله فأمدهم إلى صراط الجحيم ، وقفوهم إنهم مسئولون ، ما لكم لا تنصرون ، بل هم اليوم مستسلمون ، وأقبل بعضهم على بعض يتسألون ، قالوا إنكم كنتم تأتونا عن الله . قالوا بل لم تكفروا مؤمنين ، وما كان لنا عليكم من سلطان بل كنتم قوماً طاغين . ولكن يشتد عليهم العذاب ، ويطول بهم

الموقف ، فترفع أصواتهم وينمجر غيظهم ، وحقنهم على رؤسائهم ، فيتراجعون القول ، ويتقاذفون التهم ، الضعفاء يتهمون سادتهم بأهم أضلومهم ، وضمومهم من الهدى ، وحادوا بهم عن طريق الحق ، وأوهمومهم أن الخير في اتباعهم ، والرشاد في السير وراءهم ، والمستكبرون يتهمون الضعفاء بأهم كانوا راغبين في الشهوات ، طامعين في الملذات ، محبين للمساد في الأرض ، متهاونين في حق أنفسهم ، ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول ، يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين ، قال الذين استكبروا للذين استضعفوا : نحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كتمن بجرمين ، قال الذين استضعفوا للذين استكبروا . بل مكر الليل والهار إذ تأمرونا أن نكفر بالله ونجعل له أندادا ، وأسروا الندامة لما رأوا العذاب .

ثم يساق المستكبرون إلى النار يحدون فيها جزاء ما اكتسبوا ، في محوم ، وحميم ، وظل من محوم ، لا بارد ولا كريم ، ويلتفتون في ساعة من ساعات الضيق والقلق - وكل ساعاتهم كذلك - إلى أبواب الجمع ، فإذا الزبابة يسوقون فوجاً في السلاسل والأغلال ، فيتأملونهم فإذا هم أتباعهم في الدنيا ، فينتقربون منهم ، وينادونهم ، لا مرحباً بكم ، ولا سهلاً لكم . كنا ظلماتكم نجوهم من العذاب ، وبعدتم عن النار ، ولكنكم تدخلونها كما دخلناهما ، فلا حياكم الله ، فيرد عليهم الاتباع حاققين ثائرين : بل أنتم لا مرحباً بكم أنتم قدمتموه لنا فبئس القرار . وهكذا كلما دخل فوج لمن الأول الآخر ، ولمن الآخر الأول ، فإذا اجتمعت الأفواج كلها ، جعلوا يتصايحون ويتسابون ، ويظنون كذلك يتسابون ويتلاعنون حتى يأتى الله : قال ادخلوا في أمم قد دخلت من قبلكم من الجن والإنس في النار ، كلما دخلت أمة لعنت أختها حتى إذا ادركوا فيها جميعاً قالت أغرام أولام . ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضعفاً من النار ، قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون ، وقالت أولام لأغرام : فإنا كنا عليكم من فضل فدوقوا العذاب بما كنتم تكسبون . فإذا لم يجدوا من هذا التلاعن فائدة لجأ الضعفاء - كماداتهم في الدنيا - إلى سادتهم - ولعلمهم يرجعون هذه المرة ساخرين - رجعوا إليهم يرجونهم أن يخففوا عنهم شيئاً من العذاب ، ولكن كيف ! وكل فيها : وإذا يتعاجون في النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعاً فهل أنتم

مغنون عنا نصيباً من النار ، قال الذين استكبروا إنما كل فيها ، إن الله قد حكم بين العباد ، ، وتبرأوا منهم - وهم منذ بعيد يتبرأون - ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حبا لله ، ولو يرى الذين ظلموا إذ بدعوا العذاب أن القوة لله جميعاً ، وأن الله شديد العذاب ، إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب ، وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرأوا منا ، كذلك يريهم الله أعمالهم ، حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار ، نعم ، لا رجعة ولا عودة ، ولا أمل في رجعة أو عودة ، فلم يبق إلا اليأس ، اليأس من المبوعين ، واليأس من العودة إلى الدنيا ، فيندمون على ما فعلوا ، ويلجأون إلى الله يطلبون منه أن يضاعف لسادتهم العذاب : يوم تقلب وجوههم في النار يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسول ، وقالوا ربنا إنما أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا ، ربنا آت بهم ضعف من العذاب والعنهم لعناً كبيراً .

حكم الله بين العباد ، وجازى كلا بما قدم ، جازى المتكبر بضلاله وإضلاله ، ولم يرحم الضعيف العقل ، الضعيف الرأي ، لجأه على ضلاله ، واستخفافه بعقله ، واتباعه لغيره على غير هدى ولا بصيرة ، ولم يذفع الاتباع بمتبوعهم ، ولا خفف عن المتبوعين أن الاتباع معهم في النار ، والقرآن الكريم يخاطب هؤلاء وهؤلاء : ولئن دفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم في العذاب مشتركون .

أهل النار يختصمون : إن ذلك لحق نخاصم أهل النار ، ويتحاجون ويتلاعون ، ويتبرأ الكبار من الصغار ، ويشترك الجميع في العذاب .

هذه هي القصة التي ذكرها القرآن الكريم في مواضع غير قليلة ، وبينها واضحة جلية ، فهل لنا أن نطعم في أن يلتفت إليها أولئك الذين يعمدوا الله على حرف ، ويشعلون بآمال كاذبة ، وهل لهم أن يعلموا أن كل علاقة تقوم بين اثنين على غير رضا الله ومحبته هي وبال على الاثنين معاً ، يوم لا تنفع خلة ولا شفاعة ، ولا ينقو مولى عن مولى شيئاً ، و الإخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين ،

لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ

لمضية الشيخ محمود حميدة

المدرس بكلية اللغة العربية

أجناس المخلوقات متنوعة ، وأنواعها متفاوتة وأعمال الإنسان متعددة ، وأقواله متكاثرة ، وقد اختار الله من كل جنس أطيبه ومن كل نوع أحسنه ومن كل عمل أصدقه ومن كل قول أوفاه .

فطيّب كل شيء هو مختاره تعالى وموضع قبوله ورضاه ، وأن تناول خلقه ما سواه ، ففضل التورانية اللطيفة على البشرية الكشيفة ، ورفع الطين على النار ، وميز الناطق على الأعمم والحيوان على الجماد ، وجعل في كل ذلك ما به تأتلف وتختلف ، وتتحده وتفترق ، وتقبل وترد ، وتعلو وترسب .

والإحسان في كل شيء هو طلبته وموضع محبته وإليه دعوته ومنه اسمه وإليه مرده وعنده جزاؤه والزيادة منه وثوابه والفضل عليه .

والمحسن يحب الحسن والمحسنين ، ويكره الخبيث والخبيثين ، كما أن الطيب يحب الطيب والطيبين ، ويكره الخبيث والخبيثين فأعمال الإنسان وأقواله خاضعة لهذا الوضع تابعة لهذا القانون : من أحسن فلنفسه ، ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد .

والقول الحسن أو الكلام الطيب الذي إليه يصعد وبه يرضى وعده يقبل هو المنزه عن الفحش والتفحش ، والكذب والبهتان ، والخبيث والزور ، والباطل والضلال . فكان نصحاً للسليين أو صلحاً بين المتخاصمين أو شهادة تظهر الحق أو قولة تبطل العدوان أو سفارة مخلصة أو شفاعة حسنة أو ذكرًا يرطب القلوب أو استغفاراً يمحو الذنوب أو صلاة ناهية أو حكمة شافية أو دعوة للإصلاح أو صرخة في الحق أو نداء في سبيل الله .

والعمل الصالح الذى إليه يرفع ولديه يزل وعنده يقع موقعه من الرضى والقبول هو ما حسنته الفطر السليمة والشرائع المزعلة والعقول الصحيحة .
 كتوحيد المبدع وإيثار رضاه على هدى النفس وتخصيصه بالطاعة والعبادة والإحسان إلى خلقه بتصحهم وانصافهم وتحمل أذاهم ، والكف عن أعراسهم ومعاملتهم بالحسنى والأخذ بيدهم إلى طريق النجاة وامتنال أوامره واجتناب نواهيه ، كما أنه تعالى اختار من الأخلاق أذكاهم وأطهرها كالوفاء والرحمة ، والتواضع والعزة ، والحلم والشجاعة ، والحق والصبر ، والمروءة والسخاء ، وصيانة الوجه ، ونقاء القلب من الغل والحسد والحقد إلى غير ذلك من خلال الخير وصفات الرحمة التى أيدها النظر ودعت إليها الأديان ، وواقفت عليها الطباع وقضت بها العقول .
 ويجب الله لعباده من الغذاء أو النساء أو الراحة أو المشراء - الحلال الجلى ، والسليم الحنى ، والمرى الشهى ، والطيب الذكى ، والحلل الوفى ، والناصح الآبى ، والصاحب النقى .

وسبحانه وتعالى يحب الطيب لعباده ومن عباده ، ويكره لهم الخبيث فأحل لهم الطيبات وحرم عليهم الخبائث ودعاهم بما أودع فيهم من قوة التمييز وقدرة التفكير وبعد النظر وصحة التأمل والاعتبار - إلى النافع الناصع والصالح الظاهر والحق المبين والطريق المستقيم ؛ حتى إذا ما استقاموا على الطريقة وطابت نفوسهم بالطيبات ونفرت من الخبائث توفتهم الملائكة طيبين ، وقال لهم خزنة الجنة سلام عليكم طيبم فادخلوها خالدين .

فإنجنة طيبة ، غرسها طيب ، وماؤها طيب ، وربها طيب ، أهداها الله للطيبين واختارها للتقين ، كما أن النار خبيثة ، ربها خبيث ، وطلمها خبيث ، أعداها الله للخبثين ، وجعلها دارا للسرفين ؛ فهما داران لكل منهما جزء مقسوم ونصيب معلوم وعدد مرسوم .

أما الدنيا فقد جمعت بين الأمرين ، واتسعت للتقيضين واشتملت على الضدين ففيها : شر وخير ، وعدل وظلم ، ونور وظلمة ، وهدى وضلال ، وعلم وجهل ، وحكمة وزنى ، ودب وتوبة ، وإصلاح وإفساد ، وطيب وخبث ، كل ذلك وما وراءه لا تتردد النفوس فيه ولا يتطرق الشك إليه ، فالحلال بين والحرام بين ولكن العقول المعيرة بين هذه المتخالفات وتلك المتباينات قد يفتطها صدأ يعكر

صفوها أو سحاب يستر ضوءها أو حجاب يمنع نفوذها فتتردى في الباطل باسم الحق وتؤمن بالزور والضلال خضوعاً لعلبة الشهوة وسيطرة الشيطان .

وما كان الله ليدع عباده في ظلمة الدنيا حيارى بين حق مستور ، وباطل مشهور ، وهو دون أن يبين لهم الطريق ويوضح لهم السيل ويفتح لهم باب الرشاد والقبول . وكيف يجعل لهم موعداً ، ويضع لهم ميزاناً ويعد لهم صراطاً ويفهم وقفة السؤال والحساب ، ويرف المحسن إلى الجنة ، ويسوق المجرم إلى النار وهو عدل في قصائمه ورؤوف بعباده ، وقد بقيت الحجة للأخوذ ، والمعذرة للمطلوب ، تعالى الله عن ذلك ، وقته عما هناك ، فقصت كلته وشاءت لإرادته أن تكون الحجة له والمعذرة إليه ، فله الحجة البالغة على خلقه ، وليس لمخلوق عليه حجة ، فاصطنى من عباده من شاء أن يصطنى ، واختار منهم من شاء أن يختار ، اصطنى رسلاً من الناس للناس ليتم انتظام ، وتقطع الأعذار ، وتبطل العلل ، وبزول الاليس وتفوم الحجة ويحصل الإلزام .

أرسلهم لتمييز ما اختلط ، وكشف ما استتر وتوضيح ما اشتبه ، ونشر الحق وإقامة العدل وفتح مسالك الجنة وسد مسالك النار .

أرسلهم مبشرين ومنذرين ومهادين ومامحين وداعين ومرشدين . صنعهم بيده وعلمهم من كفته وأسبغ عليهم من نعمته وجعلهم مصابيح مضيئة تهدي إليه ، وتدل عليه وتحيا لأجله وتموت لأمره وتدهو لجنته وتفر من بابه ؛ أمدم بنصره وأيدم بعنايته وأنزل معهم الكتب والحجج فاستبان الأمر ووضع السبيل وسلك كل طريقة وصوت الحق يناديه : هذا حلال وهذا حرام ، ليهلك من هلك ويحيا من سلك .

وقد شاءت حكمة الحكيم بعد دعوة المرسلين أن يبقى في الناس من الناس أمثلة من أمثلة الخير ودعاة من دعاة المعروف وهداة من هداة الآلاء ، تهذب نفوسهم وسمت عقولهم وصدقت نياتهم وتولاهم رحم ، فظهر قلوبهم وعرفهم بنفسه فباهوا من أجلها نفوسهم فلا يردون ولا يصدرون إلا متقين مؤمنين بمثلين موقنين ، وهؤلاء هم الأنبياء قبل حكم النبوة والاولياء والعلماء بعد البعثة المحمدية ، أولئك دعوا الناس بأفعالهم وأقوالهم وصحتهم ونطقهم فسكانوا قدوة تحتذى وعصبة ترتجى ، رحمة من ربك وفضلا من خالقك ، وفقا الله لمتابعتهم والسير هلى سنتهم ؟

الأفضل بن بدر الجمالي

الأستاذ هبة المنعم محمد الشيخ
مدرس أول الآداب بالمعاهد الدينية

كان بدر الجمالي ، والد الأفضل ، أرمي الجنس ، اشتراه جمال الدولة بن عمار ورباه عنده ، ولصائب رأيه ، وقوة عزمه ، وشهامته ، استنابه المستنصر الفاطمي على مدينة صور ، وقيل عسكاً . ثم أخذ يتدرج في المناصب العسكرية لما أصابه من نجاح في الحروب السورية ، وحرب الأتراك ، حتى أضحى أشد الحكام قوة في سوريا . ولما أطبقت المصائب على الدولة الفاطمية في عهد المستنصر استجار به الخليفة ، لبرأ الصدع ، ويقوم المعوج ، فقدم مصر على رأس جيوشه السورية المسماة ، الشرقيين Easterns ، تميزا لهم عن الترك ، والبرابرة ، والعناصر الموجودة بالبلاد ، وذلك بعد أن فتكت الجماعة بأهل البلاد ثمانى سنوات (٤٤٦ — ٥٤٤ هـ) . وبعد أن عاث الترك فيها فساداً . وبعد مجيئه فوض له الخليفة كل شيء ، فسميت الوزارة باسم « وزارة التفويض » ، ومن ثم علاجم الوزارة وهو بجم الخلافة ، وذلك طابع التاريخ الفاطمي ، في عهده الأخير . وألحق يقال إن البلاد تدعى لبدر وابنه الأفضل مدى نصف قرن بما سادها من هدوء ورخاء .

ولما مرض بدر الجمالي ، أوصى بتدبير المملكة من بعده ، لولده الثاني ، شاهين شاه ، ، وذلك أطول ما لازمه ، وتدريب على يده ، واكتسب من سيرته . ولما تولى ، شاهين شاه ، الوزارة ، لقب بالأفضل ، وبجميع الألقاب ، والامتيازات ، التي كانت لآبيه ولقد كان للأفضل ، أخ ، يكبره ، يدعى ، الأوحده ، لم يعهد إليه أبوه ، بالوزارة ، لأنه خرج عليه ، وتحصن في الاسكندرية ، ففضى إليه أبوه ومارله حتى هزمه ، ودخل الاسكندرية ، وبنى بها مسجد العطارين . أضف إلى ذلك ما تحلى به الأفضل من أخلاق وميزات ، لم تكن لأخيه الأوحده .

ولم يخلص الأمر للأفضل بسهولة ، فإن « أمين الدولة لاوون » ، وهو من فتيان بدر ، تكرر لمساخيه مع سيده ، وحاول في ساعات بدر الأخيرة ، أن يقفز إلى الوزارة ، عن طريق رشوة الأمراء ، واسترضاء الخليفة الفاطمي ، فأبى المستنصر الوفي ذلك عليه ، ودرس له منافسه « ناصر الدولة أفتكين » ، حتى اجتمع الأمراء ، على مناصرة الأفضل . فركب الأفضل ، بعد فشل « لاوون » ، إلى باب العيد ، فأكرم الخليفة وقادته ، وأقامه مقام أبيه ، وسد به مسده ، وأتبع ذلك بزيارة لبدر ، وهو على فراش الموت ، مقرأً أمر أبيه من بعده ، بمعاملة له ، وعطامته على مصير ابنه . وبذلك أضحي الأفضل وزيراً مكان أبيه ، واجتمع له من الرتب والألقاب والأدعية ما كان لأبيه . أما « لاوون » ، فقد عفا عنه الأفضل ، وأبقى عليه ، ثم اعتقله أثناء حركة « نزار » ، بالاسكندرية ، مخافة خيائته ، وظل كذلك حتى مات في معتقله .

وقد كان الأفضل يلقب « بالسيد الأجل » ، الأفضل ، سيف الإمام ، جلال الإسلام ، شرف الآم ، ناصر الدين ، خليل أمير المؤمنين ، أبو القاسم شاهين شاه ، ابن السيد الأجل ، أمير الجيوش المستنصرى ، وفي الحقيقة أن لقب الأفضل ، يسترعى انتباهنا . ويقدر المستطاع تلمست علة هذه التسمية أثناء قراءتي في الخطوط المقرزية إذ يقول المقرزى ما نصه : « فلما قام شاهين شاه أمير الجيوش من بعد أبيه ، ومات الخليفة المستنصر ، وأجلس ابن بدر في الخلافة أحمد بن المستنصر ولقبه بالمستعلي ، صار يقال له الأفضل ، ومن بعده صار من يتولى هذه الرتبة يلقب بها أيضاً . فن حديث المقرزى يمكن أن نستنتج أن لقب الأفضل صار له عند ما فضل خلافة المستعلي على نزار ، وأقامه بدل أخيه . منذ ذلك الحين صار يقال له الأفضل ، أما الوزراء الذين حملوا هذا اللقب من بعده ، فقد حملوه تقليداً وتشبهاً .

قضى المستنصر عام ٤٨٧ هـ (٢٩ ديسمبر ١٠٩٤ م) ، وخلف من بعده ، سبعة أولاد ، كان أصغرهم المستعلي ، الذي اختلف العرش ، بمساعدة الأفضل ، وأكبرهم نزار ، الذي أقصى عن العرش . وتضطرب الرواية الإسلامية في هل هدد الخليفة الراحل من بعده بالخلافة إلى ولده نزار أم لا ؟ ويقال إن الخليفة

قد نص صراحة في حياته على أن يخلفه ولده ، أبو المنصور نزار ، فلما مرض أراد أخذ البيعة له ، فتقاعد الأفضل ، ودافع المستنصر من يوم الى يوم حتى مات . ولقد عهد الأفضل بشئ الوسائل الى إبعاد نزار عن الخلافة ، فأخذ يدس له ، عند العوام والخواص ، وخوفهم منه ، حتى انفضوا من حوله ، ثم فاوض همه نزار في ولاية أبي القاسم على أن يلقب بالمستعل على أن تكون لها كفالة الدولة فشهدت بأن المستنصر عهد له بمحضر القاضي والداعي . جد الأفضل بعد ذلك في أخذ البيعة للمستعل ، وتم ذلك بحضور قاضي القضاة المؤيد بنصر الأتام ، علي بن مافع بن الكحال ، على مقدمى الدولة ورؤسائها وأعيانها ، واستجاب لهذه البيعة كل من اسماعيل وعبد الله ابن المستنصر ، وكتب بذلك عضدا قرأه على الأمراء ، الشريف سناء الملك محمد بن محمد الحسيني ، الكاتب بدويان الإنشاء .

لم يترك نزار الامر يعضى على هذا النحو سهلاً ليناً ، وهو فيما يرى صاحب حق مغتصب ، وقال للأفضل يوم طلب منه مبايعة المستعل ، لوقطعت ما بايعت من هو أصغر مني سنأ ، وخط والدى عندي بأنى ولي عهده ، وأما أحصره . . وخرج مسرعاً حيث مضى هو وأخوه عبد الله - ماقضاً البيعة - وابن . مصال السلجى ، إلى الإسكندرية ، وهناك استأل نزار واليها المدعو : ناصر الدولة أفتكين التركي ، ، إذ وعده بالوزارة ، وكذا بايع أهل الإسكندرية نزاراً ولقب بالمصطفى لدين الله ، وساعده على ذلك : ابن عمار ، قاضي الاسكندرية ، فكان البيعة التي تمت بالقاهرة على يد قاضي القضاة ، علي بن مافع بن الكحال ، ، قد تم مثلاً بالاسكندرية على يد قاضي الاسكندرية ، جلال الدولة علي بن أحمد بن عمار . وذلك ما أزعج الأفضل كثيراً ، فأخذ يعد العدة لملاقاة نزار .

وفي آخر المحرم ٤٨٨ هـ (فبراير ١٠٩٥ م) ، أهد الأفضل حملة سار بها متجهاً إلى الاسكندرية ، غير أنه انكسر في جوكه الاولى ، وتمكن نزار من الاستيلاء على الوجه البحرى مما توافر لديه من الانصار العديدين من أعراب الدلتا ، وبذا أصبح نزار خطراً حقيقياً يهدد سلامة الدولة . وجع الأفضل إلى القاهرة منكسراً ، وليس غائب الرجاء ، فجمع على عجل جيشاً آخر ، وتوسل

بوسائل الدس والرشوة لدى أعوان نزار وأفتكين ، وأخذ يقدم الوعود الطيبة ، فانقض أعوان نزار من حوله ، وأقدم على محاصرة الاسكندرية ، وضيق عليها الخناق ، ففر هـ ابن مصال ، إلى المغرب ، وصعفت بذلك شوكة نزار وأفتكين ، وطلبوا الأمان فأمتهما ، ثم قبض عليهما وعلى هـ ابن عمار ، وأرسلهم مخفورين إلى القاهرة ، فأما نزار فإنه قتل في القصر بأن أقيم بين حائطين بنيا عليه ، وأما أفتكين فقد قتله الأفضل بعد قدومه ، ويقول ابن خلدون [ج ٤ ص ٢٦] إنه قتل بالضرب بالمصي لأن الأفضل أحضره يوماً ووجهه فهم بالرد عليه .

وعلى هذا نرى أن الأفضل أخيل بالأمان الذي أعطاه لنزار وأفتكين وابن عمار ، لأنه كان حائفاً حتماً كبيراً على نزار وأفتكين ، ولأن الأخير كان يلعب المستعلى والأفضل على المنابر . كذا قتل الأفضل عبد الله أخ نزار ، وولى هـ أبا الحسن بن حديد ، قاضياً على الاسكندرية بذلك ابن عمار .

وتردد بعض المصادر سلباً طريفاً تعلق به فرار هـ ابن مصال ، إلى بلاد المغرب ، وذلك أن ابن مصال رأى في منامه أنه راكب فرساً والأفضل يسير في ركابه فقال المعبر : الماشي على الأرض أملك لها ، فلما سمع ذلك جمع ماله وفر إلى بلاد المغرب ، ويقال إن الأفضل أمن ابن مصال واستقدمه وأبقى عليه . وهكذا استطاع الأفضل القضاء على هذه الفتنة في مهدها ، التي لو قدر لها النجاح لأطاحت بوزارته وبخليفة المستعلى .

ويجدر بنا أن نقول : ما هي الأسباب التي حملت الأفضل على إقصاء نزار عن الخلافة ؟ تردد غالبية المصادر وخاصة العربية منها أن نزار أخرج ذات يوم في حياة أبيه فإذا الأفضل راكب وقد دخل من أحد أبواب القصر ، وكان المرء مظلماً فلم يره الأفضل ولم يترجل ، فصاح به نزار : انزل يا أرمي المجلس .

وفي رواية أخرى ، إنزل يا أرمق يا كلب ، وفي ثالثة ، إنزل يا أرمق يا نجس ، وعلى هذا أضمر كل لصاحبه الكرامية ، ومن دواعي هذه الكرامية أيضاً ، أن كان لنزار حاشية وأعوان يعملون على إقصاء الأفضل عن الوزارة .

وبالإضافة إلى ذلك فقد كان الأفضل يعارض نزاراً في أيام أبيه ويستخف به ويضع من حواشيه وأسبابه ويبتطش بغلمانه ... فلما مات المستنصر خاف الأفضل على نفسه فعمل على إقصائه عن العرش . أما المصادر الأجنبية فتورد جملة تعليقات لهذا الإقصاء ، من أهمها أن الأفضل كان يرغب في الاحتفاظ لنفسه بالقوة التي كانت لأبيه أيام المستنصر ، فعمل على إقصاء نزار عن الخلافة وكان عمره إذ ذاك خمسين عاماً ، أما المستنصر فكان عمره في ذلك الحين ثمان عشرة عاماً ، فيكون ولا شك في يده أطوع أمراً وأسلس مقادة من أخيه الحسن ، فكان الأفضل يابعد نزاراً عن العرش ، كان مدفوعاً بعوامل شخصية قوامها الكرامية والطمع في تركيز السلطة في يده ، ولم تذكر المصادر عربية كانت أو أجنبية عيوباً خلقية أو خلقية تحول دون تولى نزار الخلافة .

ويحذر بنا أن نلم في ختام هذا المقام بالنتائج التي ترتبت على حركة نزار وهزيمته ، وأهمها نتيجتان : الأولى ازدياد قوة الأفضل بالطبع ، إذ ظل المستنصر مسلوب السلطة معه طيلة خلافته . والثانية أن هذه الحركة سببت الانقسام في صفوف الفاطميين ، فأصبح الفاطميون وأعوانهم بمصر قسماً ، وأتباعهم خارج مصر قسماً آخر ، وهؤلاء هم النزاريون الذين كانوا يدعون مبدئياً للذهب الفاطمي عامة ، ثم أصبحوا بعد مقتل نزار سنة ٤٨٨ هـ حزباً قائماً بذاته يعمل على ماوأة الفاطميين بمصر ويقول بإمامة نزار ، ولقد سببت هذه الطائفة كثيراً من المتاعب للدولة الفاطمية ، ولقد دخل بعضهم مصر ولا يبعد مطلقاً أن يكونوا هم الذين دسوا السم للإمام المستنصر .

والى مقال قادم نعرض فيه لفرقة النزارية ، ونتم فيه الحديث عن وزير جليل خطير من أهم وزراء العهد الفاطمي هو الأفضل بن بدر الجمالي .

دراسات في التصوف :

العقل والنقل والذوق

للاستاذ عمر طلعت زهران

أستاذ في الآداب

نشأت بين الفقهاء والصوفية خصومة عنيفة دامية ، بدأت مع بدء التصوف كعلم ، واستمرت تشتد وتضطرم كلما تقدم بها الزمن . فالصوفية قد اتبعوا مذهبا ، واصطغروا آراء ، هي على طرف قبيض مع آراء الفقهاء ، فكان النضال بين الفريقين فضال مذاهب :

طريق التصوف ، كما نعرف ، هو التخلص من ربة البدن ، وهو تنقية النفس وتصفية الروح ، والصعود بها إلى السماك الأعلى ، هناك حيث تتحد بالحق ، وحيث تنكشف لها أنوار اليقين ، فالروح إن تخلصت من البدن ، سميت وارفتت عن أدران الأرض وأحقادها ، إلى عالم الله ، إلى عالم الحقيقة . هالك تجمد الروح لذة لا تعاد لها لذة . أما السبيل إلى ذلك فهو كما قلنا التخلص من ربة البدن : بالرياضة والمجاهدة والزهد والحرمان والتشف .

تلك جميعا هي وسائل في سبيل غاية أولى ، ومقصد أسمى وأبلى ، لا بل في سبيل شيء أعظم من ذلك وأقدس ، إنما هي وسائل فصل بوساطتها إلى عين الحق . يريد هؤلاء القوم أن تتلاشى عن أبصارهم حجب الماديات ، فيأخذون أبدانهم بالمجاهدات والرياضات ، حتى يتخلصوا — إن أمكنهم ذلك — من مظهر الوجود الشخصي المحدود : يريدون الفناء عن أنفسهم في الله ، والتخلص من أبدانهم ليتصلوا بالله .

ولكن الفقهاء أبوا أن يسيروا مع الصوفية في نفس الطريق ، فأحبوا آذانهم دون هذا الحديث ، فإنه لحديث مشكل ، وطريق غير معبد ، لا يستطيع السير

فيه إلا من يسلك طرق الصوفية ويتبع خطتهم ، فإنهم وقد بنوا عليهم على أصول كشفية ، وعلوم ذوقية ، فإن علينا أن نحكم الأصول حتى نعرف الفروع ، وأن نتجرد عن الدنيا والآخرة حتى نذوق ، وعلينا قبل أن نبدأ فهم كلامهم أن نكون منهم ، وأن نعلم ماهية النفس على طريقتهم .

وهنا يجد الفقهاء يحالفونهم في السير ، ويباينونهم في الفهم ؛ إن الروح عندهم من أمر ربهم ، لا يقبلون فيها نقاشاً أو جدالاً ، إنها حقيقة مسلمة أمرهم الله ألا يحشوها ، ولذا يعجز الفقهاء عن فهم الصوفية ، فرماهم هؤلاء بأهم لا يعلمون من الحكمة إلا الخشوف والقشر ، وحاصل ما حصلوه إنما كان معرفة الجسم وبعض أعراضها ، وبعض عوارض الوجود ، بل وليت ذلك سلم من الأخطاء ، فإن به الكثير من الخطأ .

رأى الفقهاء أن الصوفية يتزهدون ، ويعرضون عن الدنيا ، لا يخشون منها مأرباً ، وإيمانهم يعون وجه الله ذي الجلال والإكرام ، لا يسمعون إلى منفعة إن عاجلة أو آجلة في عالم الفناء ، ولكنهم يرغبون في عالم الحقيقة ، يرغبون الاتحاد بالله والفناء فيه . ولكن الفقهاء يرون أن الرهد مخالف للشرعية السمحاء ، نهى الله عنه بآياته البينات ، أفلم يقل عز وجل : « يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ، ولا تعمدوا إلى الله لا يحب المعتدين » ، ولكن ليت الأمر وقف صد الزهد ، فإن أمره سهل ميسور ، ولكنه تعدها إلى ما هو أكثر من ذلك خطراً وأقوى أثراً ، فإدى الصوفية بالسكر والغيبة ، قد سكرُوا وغابُوا ، يقولون إن أرواحهم في العالم القدسي ، في حضرة الربوبية ، فهم إن فطلقوا فإنما ينطقون بلسان الله ، وإن تكلموا فإنما يتكلمون عن الله ، فإن قال الخلاج : أنا الحق ، أو إن قال : ما في الجبة إلا الله ؛ أو إن قال ابن عربي :

أما من أهوى ومن أهوى أنا نحن روحان حللنا بدنا

نظر الاشرافيون إليهم نظرة إكبار وإجلال ، ولم لا ، وهم الواصلون إلى درجة المرفان ، المتحدثون بالله قلباً وقالياً ، الناطقون عن لسان الحق ، المتكلمون عن إله الخلق ، إذن فليس في حديثهم هذا غرابة ، ولا يحق لنا أن ندهش إن سمعناه ، أو أن نعجب منه ، أو أن نستكره ؛ أما الفقهاء فيرون فيه كفرأ

والحداد. فن هو ذلك الإنسان ، ذلك العبد الذي يرتقى فيصل إلى الله ، من هو هذا المخلوق من طين وماء مهيّن ، أين هو من الله : نور السموات والأرض ، النور على النور ، الذي يكاد نوره أن يخطف الأبصار ، الله الذي إذا تجلّ لجبل لخرّ الجبل من هيئته تعالى : أين هذا الإنسان إذن من عظمة الله وجبروته وقوته ، وأنى له أن يتصل به ، إن هو إلا إنك وهتان ، وإن هو إلا تضليل للعقول :

فدع الذين إذا أتوك تنسكوا وإذا خلوا ، فهم ذناب خفاف

فالتصوف عند الفقهاء كان حقاً في عهد واحد وحقية من الزمن واحدة ، أما ذلك العهد وتلك الحقبة ، فهو عهد الصحابة والتابعين ، عهد السلف الصالح ، أما بعد ذلك فقد خلط التصوف بالفلسفة الإشرافية ، وكسى بلون من الزهد الفارسي ، فأخذ التصوف حياة غير الحياة التي عرف بها الزهاد والوعاظ في صدر الإسلام ، وشاع يومئذ الغلو في الزهد ، وراج ما توهموه في معنى التوكل من أنه نزع اليد من الأسباب جملة .

ووحدة الوجود هي أهم المسائل التي أحقت الفقهاء على الصوفية ، وأثارهم ضدهم ، فنظروا إليهم نظرهم إلى الملاحدة أو الكفار .

ولعل هذه النظرية في أصلها هندية أو فارسية ، متأثرة ببعض الافلوطينية ، ولكن الصوفية قد صبعوها بصيغتهم الخاصة ، وأسبغوا عليها من روحهم ما أحالها إسلامية إشرافية خالصة : فالكانات كلها مظهر لعلم الله وإرادته ، وفيض صدر عنه مباشرة أو بالواسطة : فوجودها مستمد منه جل شأنه ، ولا موجود بذاته ولذاته إلا الله الواجب الوجود ، المستغنى عن كل ما سواه ، وعنه صدرت الكائنات الأخرى ، وأفادت الوجود والحياة فوجودها عرضي وبالتالي ، ومن هنا يظهر لنا أنه ليس ثمت إلا كائن واحد ، موجود حقيقة وضرورة بل هو الوجود كله . أما الكائنات الأخرى ، فلا تسمى موجودات إلا مجازاً . وإذا كان الله هو الموجود الحق ، فكل ما عداه ظواهر وأوهام . فليس ما ثم وجود قديم خالق ، ووجود حادث مخلوق ، بل وجود هذا العالم هو عين وجود الله .

ولابن تيمية فقد مشهور لهذه النظرية ، يقول : لو صح هذا الذى يقولون
لكان الله هو عين الخنازير والكلاب وسائر المخلوقات الدنيا ؛ وهذا كفر
وبطلان ليس بعدهما كفر وبطلان . وثبت نتيجة تتفرع منها : لو أننا كنا نحن
هين الله ، نحن بضعة منه وجزء ، فأفعالنا إن أحسنها هي أفعال الله ، وأعمالنا إن أسأنا
هي أفعال الله ، فكان الله إن أثاب إنما يثيب نفسه ، وإن عاقب فإثما يعاقب
نفسه ، وهذا عدم لشرع والدين .

ونادى الفقهاء بتكفير من يقول بهذه النظرية ، وكأنا أحس الصوفية بما
يفتح عن نظريتهم هذه فقالوا قولهم المشهور : إن العلم علان : علم مكتسب ، وعلم
موحى به . أما الأول فلندعه لهؤلاء المنفيين بين الصفحات ، الباحثين بين الكلمات
الساخرين الليل الطويل ، القارئين المؤلفين : أما العلم الثانى فسيه الله ، والله
وحده هو الذى يصطفى عبده ، ويختبئه ، ثم يشرق على قلبه نورا ليس بعده نور ،
وعلى أكثر من العلم المكتسب ، بل وليس بينهما سبيل للمقارنة . وعلى الفريق
الأول أن يكتفى بعلم الدنيا ، وألا يحاول أن ينفذ الى علم الله الذى لا يعرفه
إلا هو ، والراسخون فى العلم المقربون منه المصطفون . [يتبع]

الفصاحة

قال أبو وجرة السعدي يصف كلام رجل :

يكنى قليل كلامه وكثيره ثبت إذا طبال التضال مصيب
وأشدد أبو العباس محمد بن يزيد المبرد ولم يسم قائله وهو مولد ولم يتقضى
توليدته من حظ القديم شيئا :

طبيب بداء فنون الكلام	فلم يمش يوما ولم يهذر
فإن هو أطب في خطبة	قضى للتبيل على المنذر
وإن هو أوجز في خطبة	قصى للقل على المكثر
وقال شاعر آخر يصف خطيبا :	

فإذا تكلم خلت منكم	بجميع عدة ألسن الخطباء
فكان آدم كان عليه الذى	قد كان لهم من الأسماء

العلاقة بين أسامة والنصرانية

لمحاضرة الأستاذ سالم أحمد الرشيدى

أستاذ فى التاريخ الإسلامى

[سلطان عثمانى يدعو بابا روما إلى

اعتناق النصرانية ويعدده بالشهرة والمجد]

أخذت الدولة العثمانية بعد قيامها واستقرارها فى آسيا الصغرى ، فى بداية القرن الرابع عشر الميلادى تمت فتوحاتها شرقاً وغرباً ، وعبرت مضيق الدردنيل إلى أوروبا واستولت على كثير من ممالكها حتى بسطت سيطرتها على معظم البلقان . وقد أثار هذا التقدم السريع الباهر الذى أحرزته الدولة العثمانية القزع والرعب بين دول أوروبا ، وطالما دعت الباجورية فى روما إلى شن الحروب الصليبية على هذه الدولة الإسلامية الفتية والقضاء عليها .

وعند ما تولى محمد الفاتح حرش السلطنة سنة ٨٥٥ هـ (١٤٤١ م) كانت لا تزال فى آسيا الصغرى بعض قلاع وإمارات إسلامية ونصرانية لم تدخل بعد فى نطاق الدولة العثمانية ، وكانت كلها تضرر لهذه الدولة أشد العداوة والكراهية التى يمازجها شئ من التخوف والخشية . وما لبثت هذه القوى المختلفة أن أخذت تتآمر وتظم الحطوط القضاء على الدولة العثمانية التى تزداد كل يوم قوة وخطراً ، ولا سيما بعد استيلاء السلطان الفاتح على القسطنطينية . وتولت رعاة هذه الحركات والمؤامرات طرابزون (١) .

(١) إمارة نصرانية صغيرة تقع فى شمال شرق آسيا الصغرى على شاطئ البحر الأسود ، وكانت تعرف باسم : إمباطورة طرابزون . .

وكان يوحنا انبراطورها^(١) وقتذاك كغيره من الروم ، كبير الاعتداد والمعجب بنفسه ، يعتقد أنه لا يدانيه أحد في المهارة السياسية ومعرفة دغائنها وحباثلها ، فكان يستخف بأعدائه ويستجيب شأنهم وقوتهم . ولما بلغت وفاة السلطان مراد الثاني وقيام السلطان محمد الفاتح مكانه - وهو فتى شاب - استطار فرحاً وغبطة ، إذ ليس أيسر عليه - في اعتقاده - من أن يتغلب بحنكته ودهائه على هذا الشاب الغر ، ويخضعه لأمره ، وأن في قدرته أن يستميل إليه من حوله من الأمراء في آسيا الصغرى وفيما وراءها من آسيا ، بل وفي أوروبا أيضاً ، يشد بهم أزره ويسخرهم لأغراضه ، ويؤلبهم جميعاً على العثمانيين .

وقد وجد يوحنا في الأمير الطموح أوزون حسن^(٢) خير حليف ونصير يعينه على تحقيق هذا الأمر ؛ إذ كان مثل يوحنا بنفس على الدولة العثمانية ما تحرزه من مجد وانتصارات ، ويكن لها أشد الكراهية والعداوة . غير أنه اشترط على يوحنا لمساعدته أن يزوجه ابنته كاترينه التي شغفته حباً من كثرة ما سمع عن جمالها وحسنها ، وقبل الامبراطور يوحنا ما طلبه أوزون حسن ، وسره أن يكسب هذا الحليف العظيم هذا الثمن البخس ، وبعث إليه ابنته مع أخيه دارد يصحبها عدد من الوصيفات النصرانيات وجماعة من الرهبان والقسس لمعاونتها على أداء شعائر دينها . ونجح يوحنا إلى جانب ذلك في توحيد صفوف الأمراء المجاورين له - أمراء سينوب والقرمان والكرج وأرمينيا الصغرى - الذين جمعهم على اختلاف أجناسهم وعقائدهم الحقد على الدولة العثمانية ، وتعاهدوا فيما بينهم على القيام بهجوم واحد عليها . وجاش في نفوس هؤلاء المتحالفين أو المتآمرين أمل قوى في قهر السلطان الفاتح وإخراجه من آسيا .

(١) يقول القسوس العلامة الأب انتانس ماري الكرمل ، أن كتابة الامبراطور بهذا الرسم ، كما رسمه المصورون لا يوافق القواعد القريية ، لأنه لا يرى في الحکم الضادية من عبرية ومعربة فيها الميم ساكنة ويلها ياء متحركة . فاذا وقع مثل ذلك رسمت اديم نونا ، ولهذا يجب أن يكتب : (الامبراطور) بنون .

(٢) أمير ترکانی كان يحكم آمد وديار بكر .

وحاول الانبراطور يوحنا أن يصم إلى هذه القوى الشرقية المجتمعة قوة الأوربيين في الغرب ، فتزلف إلى البابوية بالعمل على توحيد الكنيستين الشرقية والعربية ، وإزالة أسباب الخلاف بينهما على الرغم من أنه في قرارة نفسه كان شديد التمسك بأرثودوكسيته ، شديد التعصب لها ، لا يؤمن بالاتحاد ولا يعتقد صحته .

وفيا كان الانبراطور يوحنا يحرك هذه المأمرة ويرسم الخطط ويعد العدة للقضاء على الدولة العثمانية ، يدفعه إلى ذلك أعظم الآمال ، ويرى إلى المستقبل بنظرة واثقة باسمه إذ بعث الموت في سنة ١٤٥٨ م قبل أن يشهد شيئاً عما كان أعد ودبر ، وقبل أن يشهد العاصفة التي كان يعمل على إثارتها وترك وراءه طفلاً صغيراً في الرابعة من عمره يدعى الكسيوس ، ولم يجد عمه داود صعوبة في تنحيته وأن يستبد بالحكم دونه .

واصل الانبراطور داود ما قد بدأه أخوه في تكوين تلك الجبهة المتحدة ضد العثمانيين ، وصرف كل جهده وقواه في التأهب للعرب المقبلة ، ولم يكن داود أقل من أخيه يوحنا عجباً وغروراً بنفسه ، يستخف قوة الدولة العثمانية وقوة الجيش العثماني ، ويعتقد أن أسوار مدينته طرابزون لا تقتم ، سيرتد عنها السلطان الفاتح إن هاجمها ، كما ارتد عنها غزاة من قبله ، كيف وقد اجتمعت حوله قوات أمراء الشرق ، وستناصره بعد ذلك قوات أمراء الغرب !

وكانت شؤون الروم في بلاد المورة تشغل بال الفاتح إذ ذاك ، فرأى أن ينهي أمره هناك ويقر فيها السلام ، قبل أن يقل جيشه إلى آسيا . وبذلك نبأت لداود فسحة من الوقت امتدت سنتين قبل بدء القتال يحكم فيها أمره واستعداداه ، فأنتم زواج ابنة أخيه كاترين بأوزون حسن ، فقد توفي الانبراطور يوحنا قبل إتمامه . واستطاعت هذه العروس الحسنة الذكية أن تحلب لب الأمير التركاني وتسيطر على نفسه ، وأخذت توجع نيران الحقد الذي كان يتقد في صدره على السلطان العثماني وما آتاه الله من مجد وسلطان . وجدد داود المحالقات السابقة التي عقدت مع من حوله من الأمراء .

وكان البابا كاليكست الثالث Calixte III - وهو الذى أخذ منه الكرادلة ميثاقا غليظا عندما انتحى لبابوية فى سنة ١٤٥٥ ليبدل أعظم الجهد فى قتال الأتراك العثمانيين - قد أرسل لوى دى بولونى Louis de Bologne - من رجال الفرنسكان وكان يجيد كثيرا من لغات الشرق - إلى امبراطور طرابزون وأوزون حسن وغيرهما من أمراء الشرق يدعوهم إلى الائتلاف والتضافر على قتال الأتراك . ثم عاد الرسول الفرنسكانى إلى الغرب يصحبه رسل آخرون بعثهم إلى الغرب هؤلاء الأمراء الشرقيون وفى مقدمتهم ميخائيل اليجرى Michael Aligeri رسول امبراطور طرابزون ، وكان يحمل رسالة خاصة من سيده البابا عدده فيها الجيوش الجرارة التى أعدما هو وأمراء الشرق لقتال العثمانيين ، ورسالة أخرى لفيليب لبون Philippe le Bon دوق بورغنديا أشد أمراء أوروبا تحمسا لقتال الأتراك .

سلك هؤلاء الرسل فى رحلتهم إلى الغرب طريق البر وعرجوا على المجر والنمسا ، وعندما وصلوا البندقية استقبلهم الناس بحماس عظيم وحفاوة بالغة ، وهم يحدقون بأبصارهم فى تطلع واستغراب إلى ملابسهم الشرقية الفضفاضة . ومن البندقية شخصوا إلى روما ، وكان البابا كاليكست الثالث قد توفى وخلعه البابا باى الثانى Pie II ، وكان يفوق سلفه فى الحماس إلى قتال الأتراك ، فاحتفى بهؤلاء الرسل وأكرمهم وقدم لهم رسائل توصية لملوك أوروبا . وبعث برسالة خاصة إلى دوق بورغنديا يوصيه فيها أن يحسن لقاء أولئك الرسل ويكرم وفادتهم ويستحثه على التجهيل فى القيام بالحملة الصليبية ، وأن لا يكون أقل حمة وبلاء فى هذا السيل من أمراء الشرق .

وفى شهر مايو من سنة ١٤٦١ كان هؤلاء الرسل الشرقيون فى باريس لدى بلاط الملك شارل السابع ، وذكروا له أن أمراء الشرق قد استجابوا دعوة أهل الصليب ، وأنهم قد عقدوا العزم على قتال العثمانيين ، وطلبوا منه أن تشترك فرنسا

بمجنودها في هذه الحملة . ومن هناك ذهب هؤلاء الرسل إلى سان أومير Saint Omer (في شمال فرنسا) حيث التقوا بفيليب لويون دوق بورغنديا . ولم يكن هذا الدوق في حاجة إلى من يثير حماسه ويحثه على قتال العثمانيين ، فقد كان في مقدمة من دعا إلى طردهم من أوروبا قبل استيلائهم على القسطنطينية ، فكيف بعد استيلائهم عليها ؟ وسلم إليه ميخائيل اليجري رسالة سيده الإمبراطور داود وفيها يحضه على الائتلاف والتحالف بين أمراء الشرق وأمراء الغرب والتألب على العدو المشترك ، ووعده داود بأن يعاونه — بعد إحراز النصر على الأتراك — على تويجه ملكا على بيت المقدس .

وكانت الخطة المرسومة بين المتآمرين هي أن يهجم أمراء الغرب من ناحيتهم على حدود الدولة العثمانية ، ويرحفون إلى الشرق ، ويهجم أمراء الشرق من ناحيتهم على حدود الدولة العثمانية ويرحفون إلى الغرب . ويقع العثمانيون بذلك بين فكي . كماشة ، واسعة تضغط عليهم من هنا وهناك وتعصرهم عصراً لا تبقى منهم هي أحد إلا أن ينفلت إلى البحر أو عاد هؤلاء الرسل بعد تطوافهم بأوروبا إلى روما .

وكانت جنوا تملك فيما تملك من مستعمرات في الشرق مدينة ، إماصرة ، في آسيا الصغرى على شاطئ البحر الأسود و ، كفه ، بشبه جزيرة القرم .

وتعد هاتان المستعمرتان وبخاصة الأخيرة منهما ، من أهم المراكز التجارية لجنوا في الشرق . ولم تكن البابوية من جانبها أقل اهتماما بمصير هذه المستعمرات الشرقية إذ كانت تنظر إليها على أنها مواقع أمامية للنصرانية ، فأخذت تمد الجنويين بالأموال عوناً لهم على الدفاع عن هذه المواقع . وأخذت من جهة أخرى تعمل على إنجاح تلك المؤامرة الكبرى التي لا نعرف لها نظيراً في التاريخ والتي انتلمت فيها الروح الصليبية بالمصلحة التجارية والاحقاد الشخصية على الدولة العثمانية .

من قريح بدر

لفضيلة الاستاذ الشيخ أحمد حسن كحيل

مبعوث الأزهر بالمدينة المنورة

[قنا برحلة دراسية من المدينة المنورة إلى بدر ، ثم ينبع ،
فرايت أن أرسم صورة صحيحة لبدر ، وأتبع الطريق النبوي إليها ،
وأصور ما شاهدت فيها لحضرات القراء ، وأبجل ما جال في قلبي
من آلام وآمال .]

قد كانت بدر المحركة الفاصلة بين الحق والباطل ، والموقعة الحاسمة بين الإيمان
والشرك ، ضرب فيها الكفر على هامه ضربة خفت لها صوته ، وتقطعت أفعاله
ولم تبق له قائمة بعدها ، وقويت شوكة الإسلام وتألق سناه وامتد لواؤه ، ومن
يومئذ وهو يزداد عزا وقوة وتأيدا : حتى تكونت الامبراطورية الإسلامية ،
فعلى أكتاف أبطال بدر ونظري سيوفهم وأسلات رماحهم قاعدت الدولة الإسلامية
وانتشر الإسلام من الصين شرقا إلى الأطلس غربا ، ولو قدر لهذه الفئة المؤمنة
أن تنهزم يومئذ لحبا ضوء الإسلام ، وأفل نجمه وقتلت الدعوة المحمدية وهي
لا تزال في المهد . وهذا ما كان يحسه رسول الله صلى الله عليه وسلم ويؤمن به
وقت أن حى وطيس القتال فوقف في العرش يناجي ربه ويضرع إليه فيقول :
« اللهم فنصرك الذي وعدتني ، اللهم إن نهلك هذه العصاة المؤمنة اليوم لا تعبد
في الأرض أبدا . » ولهذا المعنى تجلّى الله على أهل بدر فقال أعملوا ما شئتم . فمن
ذا الذي يذكر بدرًا ولا يتلفت إلى هذا التاريخ الحافل والعز الغابر والمجد الدائر
أيام كانت القلوب مؤتلفة والشمل مجتمعا ؟ من ذا الذي يذكر بدرًا ولا يذكر
تلك القلوب العامرة بالإيمان ، الفياصة بالإخلاص ، وتلك النفوس الزكية التي
ضربت أروع المثل في التضحية والبذل ؟

من ذا الذي يذكر بدرًا ولا يذكر كيف يفعل الإيمان بالنفوس ، فيخلق

من الضعف قوة، ومن القلة كثرة، ومن الخور شجاعة وعزما، وإقداما وحزما ١٩٩. من الذي يذكر بدرا فلا يهفو إليها قلبه، ولا يهوى إليها فؤاده طلبا للذكر، وشوقا إلى تلك السهول والربا التي طالما هبطت عليها الملائكة، وسالت على بطاحها دماء المسلمين، ورفرفت في أجوائها أرواح الشهداء ٢٠٠.

• • •

خرجنا إلى بدر - وقلوبنا تسبقنا - نلتهمس العظة والذكرى، ونبتغي غذاء الروح والعقل، ففيها عظمت بالغات، وحياة لمعقول ومتمتع الأرواح وجلاء للقلوب، وما أخرجنا في هذا العصر لتلصص العظمت بين أطلال الماضي وفي زوايا التاريخ علنا نجد قصا يهذى الأمة الإسلامية ويتقدما من ضلالها. ويبدد تلك الغياهب التي اكتتفتها، ويمنعها المطامع والشهوات التي فرقها ١١ والحكمة عالية أمرنا الله أن نضرب الأرض تتبع تاريخ الأولين وآثار الغابرين

ولقد كنا في رحلتنا حريصين على أن تتبج الطريق النبوي إلى بدر لعرف مقدار ما عاناه الصحابة من جهد وما تحملوا من نصب. فيعد أن خرجنا من المضينة إلى وادي العقيق سرنا في طريق الحاج إلى مكة فررنا بذى الحليفة وعرق الظبية وهي جبل قبل المسيجيد بأربعين ميلا تقريبا، وفي هذا المكان قتل الرسول أحمد الأسرى واسمه عقبة بن معيط، ثم مررنا بالروحاء وهي قبل المسيجيد بعشرة أميال تقريبا يقال لها بئر الراحة، وقد نزل بها الرسول.

ثم واصلنا السير إلى المسيجيد، والسهل الفسيح الذي تقع فيه المسيجيد، هو الذي كان يقال له المنصرف. وفي هذا المكان قسم الرسول العائثم ثم تركنا طريق مكة إلى يسارنا وملنا ذات اليمين فقطعنا وادي رحقان عرضا، ثم دخلنا في وادي الصفراء وسرنا فيه مسافات مررنا خلالها بيهض الخيوف ومنها خيف الحزامي، فلما وصلنا إلى خيف الحزام وجدنا أن الطريق النبوي اتجه إلى وادي ذفران، وهو واد يتصل بالصفراء ولا يصلح لمرور السيارات، فاضطررنا إلى أن نواصل السير في وادي الصفراء وهو طريق عودة النبي صلى الله عليه وسلم.

ولقد وقفنا في هذا المكان، حيث يتصل وادي ذفران بوادي الصفراء، نستوحيه العبرة، ونستلهمه العظة، فقد جرت فيه أروع حوادث التاريخ وتجلت

فوقه أعظم مظاهر الإيمان وآيات البطولة الخالدة ، إذ بلغ المسلمين في هذا المكان أن قريشاً خرجت في جيش جرار لنجمي تجارتها ، وتدافع عن هيبته ، والرسول مع أصحابه قلة لم يخرجوا لقتال ولا للحرب فإدا هم فاعلون ١٤

عقد رسول الله صلى الله عليه وسلم في وادي ذفران مؤتمراً يجمع المسلمين يستشيرهم في الأمر إذ أن محمداً صلى الله عليه وسلم لم يكن طاعية مستبداً برأيه بل كان قائداً حكماً . فقال عليه السلام : أشيروا علي . فقام أبو بكر فتكلم خمس وقام عمر فتكلم خمس ، ثم قام المقداد بن عمرو فقال : يا رسول الله ! إمض لما أراك الله فنحن معك ، والله لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون ، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ! وسكت . ثم التفت الرسول ناحية الأنصار وقال : أشيروا علي وكان يريد رأى الأنصار الذين بايعوه يوم العقبة ، فقام سعد بن معاذ صاحب راية الأنصار فقال يا رسول الله : لقد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق . فامض لما أردت فنحن معك ، فوالذي بعثك ، لو استعرضت بنا البحر نفخته لخصناه معك وما نخاف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا هدوماً غداً . إنا لصبر في الحرب ، صدق في اللقاء ولعل الله يريك منا ما تقر به عينك ، فسر بنا على بركة الله : فاستبش سعد من كلامه ، حتى أشرق وجه رسول الله بالسرور ، وقال : سيروا وأبشروا فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين ١٥ فله تلك النفوس المؤمنة ١١١ ثلاثمائة رجل يخرجون للاستيلاء على تجارة قريش التي أخرجتهم من ديارهم ، واستلبت أموالهم ، وفتنتهم عن دينهم ، ولم يخرجوا للحرب ولا لقتال ، ثم يعلون أن قريشاً خرجت إليهم في جيش كثيف العدد ، سانغ الدروع وافر العدة ، فلا تزلزل قلوبهم ولا ينتشون عن قصد بل يصمدون للعدو ويحرسون على نزاهة ١١ .

إن هذا في لغة عصرنا تهوور وانتعاز ، ولكنه في لغة العصر الأول نصحية وإيمان .

قلنا إن الرسول صلى الله عليه وسلم سلك في عودته من بدر وادي الصفراء ولم يرجع من وادي ذفران وفي هذا الوادي — الصفراء — دفن عبيدة بن الحارث

ابن عبد المطلب أحد الأنطال الثلاثة — على وحرة وعبيدة — الذين خرجوا لمبارزة عتبة وشيبة أبي ربيعة والوليد بن عتبة . فأصيب عبيدة بجراح ظلت تنزف دما ، واستشهد في الطريق وهم عائدون الى المدينة متأثراً بجراحه ولا يعلم على وجه التحقيق الموضع الذى دفن به ، وكل ما يقال عنه إنما حدى ورجم بالغيب لا يعتمد على شاهد ثبوت ولا تحقيق تاريخى صحيح .

واصلنا السير فى وادى الصفراء متجهين غرباً ، وقد يميل بنا الوادى ذات اليمين وذات الشمال ، وقد ينحرج ويتسع حتى يعظم اتساعه وقد يضيق حتى يشتد ضيقه .

وفى هذا الوادى الى بدر تسكث العيون التى يجرى منها الماء ويتدفق غزيراً فيروى ماحولها من نخيل ويطلق على كل عين وماحولها من نخيل ، خيف ، وأهم جيسوف هذا الوادى خيف الحزامى وخيف الحمرام وخيف أم ديام وخيف الواسطة .

ومن الغريب أنه لا يروى من ماء هذه العيون إلا النخيل ، مع أن كثيراً من أرض الوادى صالحة لزراعة العاكة والخضر ١١ ويدولنا أن هذا الوادى غزير المياه ، طيب التربة : لو عنى به ، وغرست فيه أشجار العاكة ، وزرعت به بعض الخضر ، لدر الخير على أهل البادية ، ولا طعمهم من جوع ، وكفاهم من عوز ، وأغصام من فقر — بل لقام بكفاية المدن ، فعسى أن يظفر هذا الوادى بحظ من رعاية الحكومة السعودية واهتمام رجال الزراعة ، كما ظفر التعليم فيه بعناية المعارف ، فأشئت فيه المدارس القروية والابتدائية لمحاربة الجهل ، فليست محاربة الفقر ومكافحة الجوع بأهون قدراً وأقل خطراً من محاربة الجهل ١٢

ولقد سررنا ما رأيناه من إقبال أهل البادية على التعليم ، وكما كان جميلاً أن نرى أبناء البادية وهم يخترقون الأودية ، ويسلقون الجبال ، وينحدرون فوق الهضاب عند انصرافهم من المدرسة .

وفى الواحدة مساء قبل العشاء ، كنا نندفع من مضيق الصفراء الى سهل بدر فنطرق أبواب هذه القرية الهادئة النائمة الغارقة فى ذكريات التاريخ ١٣ فكم يجل لها

التاريخ نفرا، ورفع لها بين المدن والامصار ذكرا ١١ لا يذكر حق منتصر ،
ولا باطل منكسر ، إلا وذكرت بدر ١ ولا يذكر تعاون واتحاد إلا كانت بدر
مثلا ١ ولا يذكر تضحية وإيمان إلا كانت رمزا وعلما ١١

وكان أول من استقبلنا فيها مدير مدرستها ، وهو شاب يقبض نشاطاً وأريحية
وكرما ، فوضعنا رحالنا في المدرسة وقضينا صدر ليلتنا سمر وتجاذب أطراف
الحديث حول بدر وما فيها من آيات وعبر بالغات ١١ وكانت أكبر عبرة تمثلناها
وأحسناها أننا وصلنا بدرنا بعد رحلة دامت سبع ساعات ، وقد أجهدنا السفر
وبلغ منا التعب مداه ونال السلال غايته ومنهائه ١ — مع نخامة المركب ولين
الفراش وغدوية الماء ونوفر أسباب المتعة والراحة ، هذا ورسول الله صلى الله عليه
وسلم وأصحابه يسلكون هذا الطريق وهو وعزم يمد وصعب لم يذل ، ويقطعون
معظمه سيراً على أقدامهم ١ أى والله سيراً على أقدامهم ١! إذ لم يكن إلا سبعون
بعيراً تحمل زادهم ومناعمهم فكانوا يعتقبونها كل ثلاثة أو أربعة أو خمسة
يتناوبون بعيراً حتى رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن أسعد حظاً من أصحابه
فقد قطع ثلثي الطريق سيراً على قدميه ، كان يقاوب بعيره مع علي بن أبي طالب
ومرقد الغنوى ، ويقطعون هذه المرحلة القاسية في ثمانية أيام ثم لا يجدون في
انتظارهم — كما وجدنا غراشاً وثيراً ولا طعاماً شهيأ ١١ بل يجدون عدواً صعب
المراس شديد الشماس متقد الخماس شاكي السلاح لا يملهم حتى يستريحوا من
وهاء السفر ووعورة الطريق ، بل يصعبهم في اليوم التالي فيحوضون معه المعركة
ذايين عن دين الله مجاهدين في سبيل الحق يلتقون شبا الالة وفتيات السيوف
بنحورهم ويستقبلون شانك السهام بوجوههم وصدورهم لا يشكون ظلماً
ولا يدون تعباً .

فن أين لم هذه القوة التي بهرت العدو وفرقت شمله وفلت حده ١١ إنها
قوة اليقين وحرارة الإيمان وسلطان الحق وروح من عند الله أمد بها جنده ،
ونصر بها عبده وصدق بها وعده ١ سيهزم الجمع وبولون الدبر ١ .

، لها بقية ،

عظمة الهجرة

لفضيلة الاستاذ المنشاوى عبود الخولى
المدرس بمعهد القاهرة

نعمى الالام بذكر الحوادث الجسام ، لما لها من الترجيه الحازم فى حياتها والاساس القويم فى تكوين نهضتها والاثـر الخالد فى هزها وإسعادها . وإذا نظرنا إلى موضوع الهجرة ، وجدناه حادثاً قذاً فى تاريخ الإنسانية ، يجمع من السمـو والعظمة ما تتضام أمامه قوة الحوادث وتتلأشى روعتها . فهو أرفعها شأنًا ، وأنبها قصداً ، وأوسعها يماً وإقبالاً ، لذا كان أولى بالتقدير والإكبار ، وأحق بالتفديس والإعجاب .

وقد تضمن هذا الحادث الخطير أموراً جليلة يصح كل منهما أن يكون مثلاً كريماً للبدا القيم ، والهدى الرشيد ، والعظه النافذة ، والحكمة البالغة .

فقد نشأ سيدنا ومولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بقعة من بقاع الأرض حُجبت عنها أوار المعرفة ، وغابت شمس الهداية ، وأظلت الناس محب قائمة من الباطل الآثيم ، والاضلال البعيد . وطبعت على الشر نفوسهم ، فكفوا على عبادة الاوثان ، وتدنوا برجسها ، وارتكسوا فى حضيض الشهوات ، وخف فى العلم وزنهم ، وطاش فى تقدير الامور سهامهم فحسبوا الشرك ديناً ، وسفك الدماء شجاعة وانتهاك الحرمات إقداماً وواد البنات عفافاً وشرفاً . وخيل إليهم أن هذا نهاية ما تصل إليه الإنسانية من رفعة وكال . فن تسكب سيلهم أجمعوا على محاربه والكيد له حتى ينخبط فى أهوائهم ويغوص باطلهم ويركض فى ضلالتهم .

لكن الإله جلت قدرته جعل نبيه خلقاً آخر فاصطفاه طيب العنصر ، نقى الجوهر ، وفطره على الإيمان الكامل ، والخلق الماجد ، ورضيه أن يكون أمين وحيه ، ومبلغ شريعته .

وإما اختار الله فيه من تلك البيئة التي هي أبعد البيئات عن المدنية والحضارة ليكون ذلك معجزة كبرى ، وآية عظمى تدفع إلى الإيمان به والتصديق برسائه . صدع الرسول بأمره ، وهانت عليه نفسه في سبيل طاعته ، ودعا قومه إلى التشرف بعبادة الله وحده ، والتخلص من أدران الوثنية . وأقام على ذلك من الدلائل ما يتفق هو والفطرة البشرية ، وأحالم إلى ماركز في نفوسهم ، وما تدركه حواسهم ، فاستجاب لدائه نرّ يسير فتحو أعينهم لنوره فاستضاءت به وقلوبهم لهديه فلاها حكمة وأمنا ، وسداداً ورشدا . لكن الأعلىية الساحقة أخلدوا إلى الأرض ، وصرفوا أبصارهم ولووا رؤوسهم ، وأصموا آذانهم ، واسغشوا نياهم ، وأصروا على هنادم ، واستكبروا استكبارا .

كل هذا لم يهتج عاطفة الرسول ضدّهم ولم يمنعه من الحذب عليهم . والاهتمام بأمرهم . والحرص الفائق على هدايتهم ، فالزم معهم ما يسديه الطبيب إلى المريض من كريم العاية . وصادق المواساة حتى لقد نزل عليه قولُ ربه (فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا) .

وليت أمرهم وقف عند هذا الحد . بل أمتعوا في الكبد له ، وسلطوا عليه من أنواع الإيذاء ما سواه له نفوسهم ، ووسعته قدرتهم ، وجدّوا في إيقاظ الفتن حوله ، وتأليب العرب عليه ، وتنفير الناس من دعوته ، ووضع العقبات في سبيلها ، وعاملوه مع أقاربه معاملة المنبوذين ، وحاصروهم حصاراً اقتصادياً كما يفعل اليوم في عصر هذه المدنية العاتية الطائفة ، وقسوا في الانتقام من أصحابه ، وترهبصوا بهم الدوائر ، وقعدوا لهم كل مرصد ، ولم يتحصن هؤلاء الضعفاء إلا بقوة الإيمان ، وكان برد اليقين يطفىء نار الألم .

ولست أبالي حين أقتل مسلماً على أى جنب كان في الله مصرعي

أيض الرسول بعد هذا أن جفور تغلغلّت في نفوسهم فأوصدت دونهم أبواب الخير وسدت مسالك الهداية ، فليس من الحكمة إذن أن يستمر على قرع آذانهم بحقه بعد أن جرف سيل الباطل حواسهم وأهدر آدميتهم (لهم قلوب

لا يفقهون بها ولم أعين لا يبصرون بها ولم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون (حقا لقد كانوا أضل من الأنعام فإنها لا تحمل ضغنا لمن أحسن إليها . أما هم فكان جزاء إرشاده لهم أن أجمعوا على المنكر في ناديبهم ودبروا مؤامرة لاغتياله والقضاء عليه قبل أن يعظم أمره فتستصصى عليهم معالجته ، لكن عين ربه تكلؤه وعيابه ترعاه ، وقد أعطاه أمانا موثقا بقوله (والله يعصمك من الناس) ، لا شك أن الرسول يثق بجودة تعاليمه وصلاحيتها إلى حد تقصر عنه سوابق الأوهام ، غير أنه قد ظهر لديه أن قلوبهم قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلاً ، فتشوقت نفسه إلى أفتدة خصبة يودعها بذوره الطاهرة لتنبت أصلا قويا ، وغرسا كريما ، وتؤتي أكلا مضاعفا .

وهذا أقوم إرشاد لكل مصلح يؤمن بقيمة مبادئه ويتلى بأمان لا يرفعون لها رأساً ولا يقيمون لها وزماً .

لذا كان من رحمة الله بنبيه أن أذن له في الهجرة إلى بلد يتفبأ فيه ظلال الأمن ويستنشق نسيم الحرية ، ويستمتع بجلال الإيمان وعزته ، وصفاته وروعته ، ويمجد بيثته صالحه مقسمة الأفق ينشر فيها روحه المقدس ، وهدية الحكيم .

هكذا أمر الرسول بالارتحال هن قراره المكين ، وحب الوطن لا صق بنفس كل إنسان فقد أظلمت سماءه وأرواه مائه ، وهو مشوى الأهل والعشيرة ومدرج الطفولة ، ومرتع الحداثة ، ومصرح الاحبة والخلان .

لكن محمداً عليه السلام قد أنساه شرف الغاية كل هذه الأمور واستأنس بلذة الطاعة ، ونجمرد من جميع حظوظه ، وأسلم وجهه لله محسناً في تنفيذ أمره .

والهجرة ماجاً أمين لكل مضطهد في رأيه ، محارب في عقيدته . ربما يخطر على بعض الأذهان أنه ما دام النبي يؤدي رسالة ربه . ويبلغ دينه فلم لم يُسِعه بالمعونة فيجعل له من قومه ظهيراً وسنداً ؟

ولا ينبغي أنه لو حصل هذا لارتاب الناس في أمره وقالوا فكرة أدعاها محمد وانفق عليها مع أهله وأحاطها بسياج من الهيبة والحلال .

أما وقد وقع أن حاربه أقرب الناس إليه ، ونصره أبعدهم عنه . فإن شمس الإيمان به تبعد ظل الشكوك والأوهام .

وجد الإسلام في المدينة ملاذا حصينا . وركنا رشيدا . فرسخت قوائمه . وامتدت فروعه فصار يغزو القلوب متحكما فيها والصباير مهيمنة عليها وظلت حرارته تصبر غيوم الشبهات وتكسر أشواك الشك حتى ظفر الناس بروض اليقين ، ونعموا بعزة الملوك وطهارة الملائكة ، من هذا يتبين أن حادث الهجرة فصل التفرقة بين الضعف والقوة والذلة والعزة ، كما تمثل صراعا عنيفا ، دار بين الحق والباطل وأن الأخير مهما كان أمضى سلاحا وأعز نفرا ، لا بد أن يكتسحه طوفان الحق عملا بسنة له الخالدة (فأما الزيد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض) .

أيها المسلمون : ليس المقصود من ذكرى الهجرة أن تفسد القصائد وترتل الكلمات مع العفلة عن موضع العبرة منها ، فإن أخشى إن صنعنا ذلك أن ندخل في قول الله سبحانه : (وكأى من آية في السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون) إنما الواجب أن يأخذ كل منا نفسه بسيرة صاحب الهجرة ، فقد نجحت دعوته بتقيد الراسخة ، وسياسته البارعة ، وعزمته الماضية ، وصبره الذي افتحم به المحن وقهر الأهوال ، نخرج منها ظاهراً متصراً كالسبيكة الخالصة لا يجد الناقد الأملح فيها مغمزا .

والهجرة ، وإن انقضت بصورتها وشكلها ، إلا أنها باقية لجميع المسلمين بروحها وجوهرها ، فلزام عليهم أن يهجرُوا أسباب غضب الله وموجبات خطئه حتى لا ينزل بهم ما حل بغيرهم من الأمم التي انحرفت عن الهدى الإلهي فتردت في هاوية الشقاء وعوقبت بحرب ضروس تحصد الناس حصداً ، وتتأصلهم إستصالاً ، تركت الأطفال يتامى والنساء أرمال ، لجعت النفوس ، وأدمت القلوب ، وسلبتها لذة الطمأنينة والامن ، وأكلت الاخضر واليابس ، وأصلت المدن الزاهرة التي تأخذ زينتها بالابصار ، وتستهوئ الأبواب ليلاً بهيما ، وحطاما بالياً ، وحشياً تذروه الرياح (وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذهم آليم شديد) .

شَوَاهِدُ الْبَلَاغَةِ

والإعجاز في القرآن الكريم

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد عبد المنعم خفاجي

المدرس بكلية اللغة العربية

القرآن كتاب الله المعجز ، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ،
تنزيل من حكيم حميد .

آيات وسور اشتعلت على أمور الدين والدنيا ، وانتظمت سعادة الأولى
والآخرة ، ونزلت هدى ونورا للبشر كافة ؛ قصص على الأوهام الباطلة ،
والأساطير الكاذبة ، والعبادات الضالة ، والأديان المتحرفة ، وأحالت الظلام
ضياء ، والشقاء سعادة ، واليأس أملا ، والضلال هدى ، والجبل علما ومعرفة
وثقافة ، نهل من معينها الزاخر كل من رغب في الخير ، وطمح إلى النور والهدى
والأمن والسلام ؛ وثقلت الشرى من الفوضى والظلم والعبودية وسفك
الدماء ونهب الأموال وهناك الأعراض ، إلى حياة فيها رضا وطمأنينة ، وحرية
وعدل وإخاء ، ومعرفة ، وعمران ومدنية ، وحدود ، وشرائع ، ونظم وضعت
لسعادة الناس والجماعات والشعوب والإنسانية قاطبة .

قبس من الهدى والنور ، نزل به جبريل من السماء إلى الأرض ، على سيد
الخلق ، وأكرم الرسل ، محمد صلوات الله عليه ، بقلعه الناس ، وشر به العرب
والبشر كافة ، وهدى به الدنيا كلها ، وفتح به صفحة جديدة في تاريخ العالم كله ،
وأفقد الناس من ضلال الجاهلية الأولى ،

تصوروا الشعر ما تصوروه ، فلما سمعوا آياته البينة ، وبلاغته المتدفقة ، ورأوا
هدايته النادرة ، وفصاحته الباهرة ، وما فيه من روعة التصوير ودقة التعبير ،
وشدة التأثير ، قالوا : إى والله إنه لشعر شاعر ، وسحر ساحر ، إن هذا إلا سحر
يؤثر ، إن هذا إلا قول البشر ، وكذبوا وأبى الله ، فإ هو إلا وحى يوحى ،
ومعجزة تتحدى ، وبلاغة تتلى وتروى على مر العصور .

إن أسلوب القرآن نمط فريد من البلاغة والروعة ، وجلالة الروح ، وإشراق البيان ، وجمال الديباجة ، وقوة المطلق ، وعمق الرؤية التصوير والتمثيل .
أسلوب جمع بين الجزالة والسلاسة ، والقوة والدفقة ، وحرارة الإيمان ، وتدقيق البلاغة ، فهو السحر الساحر ، والنور الباهر ، والحق الساطع ، والصدق المبين .

نزل الذكر الحكيم في أسلوب لا يضارعه أسلوب ؛ فلا هو شعر ولا هو جمع ، ولا هو مزاجية ، ولا هو نثر مرسل ولا خطابة . إنما هو نظم رائع ، وألماظ عذبة ، وجلال وروعة ؛ جمع بلاغة جميع أساليب البيان ، وفصاحة شتى خصائص النظم ، واستوفى كل صاصر الإعجاز .

تحدى الله به العرب فجزوا ، فتحداهم بسورة منه فهبوا ، فتحداهم بأقصر سورة غرسوا ؛ ولما سمعهم فصحاوهم وبلغاؤهم وأرباب البيان فهم يجدوا له خاشعين .
وما إيمان عمر حين سمع دله ، ، وما فزع عتبة بن ربيعة وقوله : د والله ما هو بشعر ولا بحر ولا كهانة ، ^(١) حين سمع د فصلت ، ، وما تردد بلغاء العرب على الأماكن التي يتعبد فيها محمد ليلا ليسمعوا هذه البلاغة الباهرة خفية ، وما عجزهم بعد التحدى ؛ ما كل ذلك إلا مظهر الإعجاز الذي شهد به العلماء والبلغاء على مر الأجيال . يقول الباقلاني في كتابه إعجاز القرآن :

« إن نظم القرآن على تصرف وجوهه ، واختلاف مذاهبه ، خارج عن المعبود من نظام كلام العرب ، ومباين للألوف من ترتيب خطايهم ؛ وله أسلوب يختص به ، ويتميز في تصرفه ، عن أساليب الكلام المعتاد ؛ وليس للعرب كلام يشتمل على هذه الفصاحة والفرابة ، والتصرف البديع ، والمعاني اللطيفة ، والفوائد الغزيرة ، والحكم الكثيرة ، والتناسب في البلاغة ، والتشابه في البراعة ؛ على هذا الطول ، وعلى هذا القدر ؛ فهو على ما وصفه الله تعالى به : « الله نزل أحسن الحديث ، كتابا متشابها متاني ، تقصص منه جلوه الذين يخشون ربهم ،

ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ، ، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا .

ذلك إلى أن عجب نظمه ، وبديع تأليفه ، لا يتفاوت ولا يتباين ، على ما يتصرف إليه من الوجوه التي يتصرف إليها .

وهناك شيء آخر ، وهو ورود تلك المعاني التي يتضمنها في أصل الشريعة والأحكام ، والاحتجاجات في أصل الدين ، والرد على الملحدين ، هذه الأساليب البليغة ، وموافقة بعضها بعضاً في اللطف والبراعة ، مما يتعذر على البشر ، وقد علم أن تخير الألفاظ للمعاني المتداولة المألوفة أسهل وأقرب من تخير الألفاظ لمعان مبسكرة ، وأبواب مستعددة : وبراعة اللفظ في المعنى البارع أعجب من براعته في المعنى المتداول

وبعد فإنك تجد في كتاب الله الحكمة وفصل الخطاب ، مجلوة عليك في منظر بهيج ، ومعرض رشيق ، ونظم أنيق ، غير متعاص على الأسماع ، ولا ملو على الأنفاس ، ولا مستكره في اللفظ ، يمر كما يمر الميم ، ويضئ كما يضئ الفجر ، ويذخر كما يذخر البحر ، كالروح في البدن ، والنور في الأفق ، والنيث الشامل ، والضياء الباهر ، والصبح المبين .

وخصائص القرآن البيانية ، وما اشتمل عليه من روائع الحكم والأمثال ، وبلغ المجاز ، ودقيق التشبيه ، وجيد الاستعارة والكناية ، وساحر الطباق والجناس ، ومحكم الإيجاز والأطناب المفيد : كل ذلك كثير جداً ، إلى حد يصعب يأنه إلا في مؤلفات ضخمة .

أما أغراضه ومقاصده لحبك أنه قد جال في كل غرض في الاجتماع والسياسة والحكمة والقصص والزهد والأدب والتعليم والإرشاد والوهد والوعيد ، وفي الدين والتشريع والتوجيه ، وهو في كل ذلك كتاب الله الحكيم المعجز الصادق .

وأما معانيه لحبك ما تشتمل عليه من صدق وحق ووضوح وجلال ، وهي من غير معين العرب الذي يهلون منه ، لا طمشان النفوس إليها ، وارتياح

القلوب لها ، ولما تشتمل عليه من الحجة الباهرة ، والأدلة الساطعة والاحكام الصائبة ؛ وبحق إنه معجزة البيان وآية السناء .

وأما ألفاظه لحسبك جزالتها وقوتها ، مع السلامة والعذوبة ، ومع البعد عن الوحش والغريب الباهر والسوق المبذل والبعيد المعقد ؛ فوق ما تتحلى به من سحر وجمال ، وما تطوى عليه من أسرار الفصاحة وخصائص البيان والإعجاز .
وأما بلاغة القرآن فهي حديث الدنيا ، والقضية التي سلم بها أساطير البيان ، وبقول البلاغة ؛ أرأيت هذا التحدى مع العجز الواضح ، ومع الخزي الاليم ؟ وهل سمعت قصة الوليد بن المعيرة ، وقد تردد على محمد خفية وخيفة ، وسمع منه ثم قال لقوم : والله ما فيكم رجل أعلم بالشعر مني ولا برجزه ولا يقصيده ، ولا بأشعار الجن ، والله ما يشبه الذي نقول شيئاً من هذا ، والله إن لقوله الذي يقول حلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإنه لمثمر أعلاه ، مغدق أسفله ، وإنه ليعلو ولا يعلو عليه . ثم أرأيت هذا الاعرابي وقد سمع قوله تعالى : فاصدع بما تؤمر ، فسجد ، وقال : سجدت لفصاحته ؟

ولذلك تعلم أن العرب أمة تحب البلاغة ، وتعشقها ، وتبجدها ، وبهرها البيان الجيد ، وفيها مصاقع الخطابة ، ومقاول الفصاحة ، وأعلام الشعر ، لا تحسب سحر البيان إلا لها ، وبلاغة الكلام إلا وفقاً عليها ، وكانت كما يقول الجاحظ : أكثر ما كانت شاعراً وخطيباً ؛ وقد دعاهم ففجروا ، ثم تحدى به أقصاهم فشدهوا ، ثم حاروا في وصف بيانه وإعجازه ، وخروا لحسنته ساجدين .
أفليس ذلك كله مع ما قدمناه لك أدلة الإعجاز وشواهد ، وحجته وبرهانه ؟
ألسنت إذا حاولت أن تبحث عن أثر أدبي خالد على مر الأيام والمصور ، تجد فيه الإنسانية هداما ، والفضيلة مبتغاها ، والنفس البشرية رشدها وسعادتها ؛ لا تجد أمامك إلا القرآن الكريم ، والذكر الحكيم ؟

أيها القلم قب ، فبلاغة القرآن وإعجازه في غنى عن الدليل ، ومتى تحتاج الشمس في وجودها إلى برهان ؟ وسر بلاغته وإعجازه يستمضي على البيان ، ويدق على الفهم ، ويعلو على المقول ، لأنه آية الله ، والمعجزة الخارقة التي اختص بها رسوله الأعظم محمداً صلوات الله عليه و

منابع التصوف الإسلامي

الدكتور ينولد ا. نيكلسون

تعريب الأستاذ نور الدين شريعة

خريج كلية اللغة العربية

برهن البحث الحديث على أن أصل الصوفية لا يمكن أن يرد إلى سبب واحد محدود . ومن هنا لم يرتض باحث منصف ، هذه التعميمات الجارفة ؛ من أمثال : أنها رد فعل العقل الآري تجاه الدين السامي الفاتح ؛ أو أنها ليست إلا تنابجا غالسا للفكر الفارسي أو الهندي .

وأمثال هذه الأحكام — وإن يكن لها نصيب من الصحة — تعفل البديهية التي تحتمل لإقامة رابطة تاريخية بين (أ) وبين (ب) أنه لا يمكن أن تستدل بشبه أحدهما للآخر ، من غير أن نبين في الوقت عينه :

١ — أن صلة (ب) الفعلية مع (أ) بحيث تجعل النسبة المدعاة جائزة .

٢ — أن الفرض المحتمل متفق مع جميع الحقائق المؤكدة المدعومة .

وهذه الآراء ، التي ذكرت ، لا تقوم لهذه الشروط . فإن لم تكن الصوفية شيئاً غير أنها ثورة الروح الآرية ، فكيف نفسر الحقيقة ، التي لا سبيل إلى العطن فيها ، من أن بعض كبار رواد التصوف الإسلامى من أهل سوريا ومصر ؟ وأنهم هرب الجنس ؟

وكذلك يفضل المتعمسون للأصل البوذي ، أو الفيدى : عن أن التيار الرئيسى ، للتأثير الهندي على الحضارة الإسلامية ، يمتد إلى همد متأخر : مع أن علم الكلام ، والفلسفة ، والعلم في الإسلام ، قد آتت بواكيرها الفضة ، فرق تربة تشربت الحضارة الإغريقية .

والحق أن الصوفية شيء معقد . ومن هنا لم يكن في الطوق أن يقدم جواب بسيط في السؤال من أصلها . ولعلنا أن نقرب من الجواب إذا حددنا القوى

والحركات المختلفة ، التى صاغت الصوفية ، وحددت الاتجاه الذى صارت إليه ، فى عهود نموها الباكورة .

ولتعتبر أولا أهم التأثيرات الخارجية ، تلك التأثيرات غير الإسلامية ، وأهمها :

١ - المسيحية

من الجلى أن ميول الزهد والتأمل ، التى أشرت إليها ، كانت على وفاق مع النظرية المسيحية ، ومنها استمدت أسباب قوتها . فكثير من نصوص الإنجيل ، ومن الأقوال المنسوبة إلى المسيح ، مقتبس فى أقدم تراجم الصوفية . والراهبنة المسيحيون كثيراً ما يظهرون فى مقام المعلمين ، يولون النصح والتشديد لزهاد مسلمين متقلبين . وقد رأينا أن ثوب الصوف - الذى منه جاء الصوفى - مسبغى الأصل ، ونذور الصوم عن الكلام ، والذكر ، ورياضات الزهد الأخرى ، لعلها أن ترد إلى هذا الأصل نفسه . وفيما يتصل بمذهب الحب الإلهى ، ندع هذه المقتطفات نترجم عن نفسها :

« روى أن المسيح مر على طائفة من العباد ، وقد احترقوا من العبادة ، كأنهم الشئان البالية ، فقال : « ما أنتم ؟ » قالوا : « نحن عباد » ، قال : « لآى شئ تعبدتم ؟ » قالوا : « خوفنا من النار غفنا منها » ، فقال : « حق على الله أن يؤمنكم ما خفتم » ، ثم جاوزهم ، فر بأخرين أشد عبادة ، فقال : « لآى شئ تعبدتم ؟ » فقالوا : « شوقنا إلى الجنان ، وما أهد فيها لأوليائه » ، فممن نرجو ذلك ، فقال : « حق على الله أن يهطيك ما رجوتهم » ، ثم جاوزهم فر بأخرين يتعبدون ، فقال : « ما أنتم ؟ » قالوا : « نحن المحبون لله ، لم نعبده خوفاً من ناره ، ولا شوقاً إلى جنته ، ولكن حباله ونعظماً لجلاله » . فقال : « أنتم أولياء الله حقاً ، معكم أسرت أن أقم ، فأقام بين أظهرهم . وفى لفظ آخر أنه قال للأولين : « مخلوقا خفتم ، ومخلوقا أحببتهم » . وقال لمؤلا : « أنتم المقربون » (١) .

(١) أبو طالب الحكى : موت القلوب . ٣٠ ص ٨٢ من ١٣ - ١٩ المطبعة المصرية .

حدث أحمد بن أبي الخوارى^(١) قال : « قلت لراهب : « أى شيء أقوى ما تجدونه فى كتبكم ؟ » . قال : « ما نجد شيئاً أقوى من أن تحمل حيلك وقوتك كلها فى محبة الخالق »^(٢) .

وسأل بعض الزهاد راهباً آخر : « متى يكون الرجل أكثر إمعاناً فى العبادة ؟ » فأجاب : « حين يملك الحب قلبه ، فليس له عندئذ من مسرة ولا رغبة : إلا فى العبادة المتصلة .. »

وتأثير المسيحية — من خلال أحيارها ، وورهبانها ، وفرقها الخوارج ، من أمثال فرقة « المصلين »^(٣) Euchitae ، — ذو وجهين . زهدى ، وصوفى . والتصرف الشرقى المسيحى : كان — على أى وجه — يحوى عنصراً وثنياً . فقد تشرب منذ بعيد أفكار أفلوطين ، واصطنع لغة المدرسة اللاطونية الحديثة .

(١) أبو العباس أحمد بن عبد الله بن أبي الخوارى الدمشقى ، من أهل دمشق ، يروى عن وكيع ابن الجراح الكتب ، وعن الوليد بن مسلم وصحب أبا سليمان الفراءى وحفظ عنه الرقائق . انظر الأساطير للسمعانى ص ١٨٠ طبع لندن سنة ١٩١١ فى سلسلة « جبب » Gibb ، التذكارية .

(٢) أبو نعيم : حلية الأولياء ١٠٣ ص ٨ من ٧ - ٩ عطمة السدادة بالقاهرة سنة ١٩٣٨ .

(٣) « المصلون » Euchitae ، فرقة مسيحية غالية ، من الهرطقة ، يهيم مذهبها على أن الصلاة المتصلة يمكن أن تجتث أصل الخطيئة وتبلغ بالإنسان حد الكمال الروحى وتنتهى . وقد قاموا بنشر مذهبهم ابتداء من النصف الثانى لقرن الرابع الميلادى حتى القرن السادس . بل إن تأثيرهم نمت إلى ما بعد ذلك . وهم يعتقدون أن كل إنسان قد وكل به شيطان يقوِّه على الوقوع فى الآثام ؛ وليس التمسك بكفاف فى طرد هذا الشيطان . إنما يجتث التمسك هذا الآثام من ظاهره ويدفع جذوره غائرة فى أعماق النفس . والدواء الشافى لذلك هو الصلاة المتصلة ، حتى يحس الإنسان إحساساً قوياً أن شيطانه قد قارعه . وقد تفاهد حينئذ الروح القدس دأبه إلى جسم الإنسان على هيئة مارغريث مؤذية . بينما تفاهد روح الشر عندئذ خارجاً عن جسده على صورة حبة فى أكلمها . ثم يتبع ذلك وقت السعادة حين تحس الروح اتحاداً مع عريسها ، كما تحس الروح نفوة النفاق مع زوجها حين يدخل بها ، وإذا فاضل يعتقد أنه مشارك فى الطبيعة الإلهية ، وهم يدعون أن لهم انكشافات وكرامات لا تتيسر لعامة الناس . وكانوا يتصورون إبطواً بأهوائهم شياطينهم التى كانت تترامى لهم . وكانوا يدعون لأنفسهم علم القلب ، والكشف عما فى نفوس الناس . كما كانوا يظنون نظرية عدم الكثرات إلى وسائل الكسبية العادية ومقاومة الخطيئة من بحر رياضة الرهبنة و « والشماء » الربانى Eucharist . وقد قصرُوا أوقانهم كلها على الصلاة وجعلوا يتكلمون الناس حتى يشدوا رصفهم . كما أنه كان من بينهم طوائف فى الأرض من الرجال والنساء قد تخلوا عن الدنيا ومتاعها . وفى الصيغ كانوا يأمون على قارعة الطريق . على أن متاعهم يرمونهم بالفساد وانتشار الاعلال بينهم .. انظر : Encyclopaedia of religion and Ethics المجلد الخامس ص ٥١٠ .

رسالة الأزهر

وكيف يؤديها ... ؟

للشيخ أحمد محمد صقر

ليس في رسالة الأزهر قولان . . ولا اعتراض على تلك الرسالة في موضوعها . ولكن الخلاف يقع في الوسيلة التي يمكن بها أداء ذلك الواجب كاملاً ...

فلو أراد باحث دقيق أن يطالب في تحديد هدف الأزهر لما خرج عما وجزه في كلمات قصار هي أن غاية الأزهر ، المحافظة — على الدين الإسلامي واللغة العربية ونشرهما ذلك أن الأزهر حصن الإسلام . وهو القائم على درسه ونشره وحفظ أصوله وفروعه ما بقيت السموات والأرض . . ولا سبيل إلى ذلك الحفظ إلا بإتقان الفصحى وحفظ موادها وتذوق أدبها ورعاية طرق الأداء فيها وعند يظن إنسان ذلك أمراً سهلاً المثال قريب المتناول . ولكن من يدرك معنى الإسلام ومعنى اللغة العربية لا يسبغ لنفسه الحكم على مهمة الأزهر الناهض بها بأنها مهمة سهلة ميسورة . .

فلو كان الإسلام دين رهبانية وصوامع . أو دين عصر معين ومكان محدود فقط لمان الأمر وخففت المشقة . . ولكنه دين مجتمع ودين سياسة . دين نظام ودين اقتصاد . . . دين حكومة وإدارة وقانون . . وفوق ذلك فهو دين الغد كما كان دين الأمس ، وكما هو دين اليوم . . ليس محدود السلطان ولا موقوت العمل . . ولا مقصوراً على بلد من بلاد الله . . .

لحينما نقرر أن رسالة الأزهر هي المحافظة على هذا الدين العظيم ونشره يجب علينا أن نتصور مشقة الواجب وععبه الأداء . . وطول الطريق . . . وفي الوقت نفسه نتظر فنرى الأزهر لا يملك إلا رجالاً يشتغلون بالتعليم والتعلم بمعنى أنه ليس هيئة سياسية ترسم الخطط وتحتمل على الوصول إلى أهدافها ، وليس جماعة مالية تثر الذهب في طريقها لتبلغ ما تريد . .

وبالرغم من ذلك لا يستطيع أحد أن يدعى هياً على الأزهر ، الذي يتخذ الحسنى وسيلته ، ونشر الثقافة جهده المستطاع .

فقد غزا العالم نوره ، وملا مسامع الدنيا صوته ، فتقاطر المبعوثون إليه يغترفون من معينه ، وتتابع المتخرجون فيه صوب النفوس الظماء ، ييلون أوامها ، ويروون غليلها ، ويرفقون بالأفئدة الصادية ، والأنفاس اللاهثة .

وأصبح الأزهر قبلة العالم الإسلامى يحج إليها طلباً للنور والمعرفة ، وما كان ذلك بقيادة هبقرى مغوار ، بل كان بفضل الرسالة نفسها ، فإن ديباً أراد له الله الخلود ، ولغة حق لها البقاء ، لا بد أن ينتصرا على أحداث الزمن وصروف الدهر . ولا بد أن تسرى قوة الرسالة فى أوصال حاملها فتخلق منهم بشراً لا كالبشر ، وشباناً يسمون الشيوخ ، لأنهم جمعوا حكمة الشيخوخة وعزيمة الشباب . حملوا مشعل النور منذ ألف عام رغم الأعاصير الهوج ، والريح الرعزع والعاصف التكبأ ، فما ضعفوا ولا امتدادوا طوع الهوى .

وفى الحق أنى ما تأملت تلك المأثرة التى تمت على يد الأزهر ، إلا تملكنى شعور بالحسب نحو هذا المعهد القديم العتيق .

وسرى فى نفس تيار من العرفان بالجليل والاعتراف بالواجب على العالم الإسلامى إزاء ذلك الحصن المنيع ، حقاً ما كان القرآن أن يضيع فائه تعالى ضمن له الحفظ والبقاء ، ولكن لو لم يكن الأزهر لاستعجمت الآلئ وماتت القرىحة العربية ، ولو ظل الأمر العربى سائراً فى طريق الشوك منحدرأ إلى الهاوية بعد أن ذبلت زهرته فى بغداد لكنا اليوم فى ظلمات من الجهالة لا يعلم كتبها غير الله تعالى ؛ فاقضت هناية الله أن يتلقف الأزهر مشعل الحياة ، ويختزن الثقافة الإسلامية وتصبح أروقه مثابة الدارسين من كل بقعة وأمة ، وقد تخرج فى صحن الأزهر القديم رجال دافعوا عن الدين وحفظوا اللغة العربية وتدرج الأزهر فى أطوار متعاقبة فبعت العلم والآداب وكان يحيط أنظار الشعوب بمثابة معقل ترفرف عليه راية الزعامة الشعبية وليس غلوا أن تقرر : أن الأزهر هو الذى خطا بمصر نحو الحياة الدستورية وهياًها لسبق أخواتها فى الشرق .

وصارت الأمور إلى الأزهر الجديد ، فقد مضى الأزهر القديم محمداً مشكوراً ، وتجددت الحياة في العالم الإسلامي وفي مصر زعيمة هذا العالم .. وكان لزاماً أن يتجدد الأزهر كعبة العلوم الإسلامية .

وقد كان ١١٠ ولم يشمل التجديد ذلك الطابع الأزهرى ، وظلت الفكرة الأصلية واضحة ، وتمشياً مع مقتضيات العصر اتبع نظام التخصص في المراحل العالية فأشبه فيه كليات ثلاث وحددت لكل كلية مهمتها ونوع المواد التي تدرس فيها ، وكل ذلك جميل وعظيم ، غير أننا نحس في الأزهر الجديد فتوراً لعله نتيجة حتمية لليثة والعصر ، وهي ظاهرة تتجلى في كل أنواع التعليم على اختلاف أهدافه . وهناك شيء آخر نلحس في الأزهر الجديد ولا ندرى أنسميه قصوراً أم قصيراً ؟ ..

ذلك أن الطالب لا ينال اهتماماً مذكوراً ولا يُراعى حقه في الثقافة المصرية كأنه مضطرب أن يفسخ كل الانسلاخ من يثته ولا سيما في مرحلتى التعليم الابتدائى والثانوى ، فيشب الطالب غريباً بين قومه كسير الفؤاد عاجزاً عن مسابقة إخوانه متهماً في ذوقه وتفكيره ، فإذا تكلم في الأمور العامة أعرض الناس عنه كأنهم يقولون : ما للأزهرى والحياة العامة ، وماله وثقافة العصر ؟ إن هو إلا منقطع للعلوم القديمة ، والحلقات الميتة العديمة الفائدة ؛ ولذلك كله أثر في نفسية الطالب لا ينمحي وطالع يسمه بميمم الانزواء والبعد عن مشاكل العالم . ولعل تلك الضجة التي أثارها الكتاب على صفحات الجرائد منذ قريب .

حول الكتب الأزهرية ، والبرامج التعليمية في الأزهر تعتبر نتيجة للشعور بهذا النقص ... وإلى مع ذلك لا أوافق على كل تلك النقدرات ... فالأزهر صلة بين الماضى والحاضر ... ولا بد من الإبقاء على ما يربطنا بهذا الماضى ، وإن كنا نطلب التحفيف وإضافة مواد تتصل بالاجتماع والاقتصاد يستعين بها الطالب على تبليغ رسالته إلى قوم يعصرون بعصرهم ويقدمون جديدهم ، حتى لا ينفروا كل النفور من الدعاة والمصلحين ، وخير الناس من لبس لكل حال لباسها ، وطابق بين مقتضى الحال وما يقول ، أما في مرحلة التعليم العالى فإن أحسن السطحية غالبية على دراستها ونحن في حاجة إلى الغوص وإلى الدراسة بعمق ، كما يقول

الفاد المحدثون ، أما الدراسة السطحية العرضية فإنها عقيم لا تفتح ولا تفيد ، نريد دراسة مستفيضة وتوسعا في البحوث .

نريد أن تكلفونا تكليفاً بالغرض واستخلاص المعلومات من المراجع الثبينة ، نريد أن تدفعونا دفعا إلى الاعتناء على النفس ، وتببع المروق العملية في مناجها . نحن نعترف بأننا نال قسطاً كبيراً من الحرية في المناقشة ولكن هذه الحرية مقصورة على كتب معينة وآراء لقوم سبقوا ولم يدعوا لأنفسهم المعصمة ، فنحن بداور ونحاورهم نعود إلى رأى فلان من المجتهدين ، ولو كان ضعيفاً اعتنادا على ما له من الحكمة ، فإذا سئل أحدنا عن أمر يتعلق بالدين أو اللغة ، نجد أنفسنا مسوقين إلى ترديد تلك الخلاقات فيمل السائل ، وينصرف هنا معتقداً ألا نفع فينا ولا خير عندنا ، وليس هذا الكلام بعيداً عن رسالة الأزهر بل إن ذلك جوهرها ، فإن التقارب بين المصلح والناس أول خطوة في نجاح الفكرة ، فنحن لا تعلم لأنفسنا نقط ، ولا للناس فقط ، بل نقصد للثقافة لعقولنا وأفكارنا حتى نستطيع التأثير في غيرنا .

وقد أصبح التجديد في وسائل الاداء جزءاً من الرسالة نفسها . . . فإذا تم للأزهر ذلك استطاع طلابه تبليغ الرسالة وأداءها . . . فكل فرد يعتبر داعية حيثما حل . . . في قريته وبيئته . . . والأزهر هو المسئول عن تسليحه ليكون صورة قوية واضحة من صور الأزهر . . . ويكون عنواناً صحيحاً للإسلام . . . أما أداء الرسالة العالمية التي وقف الأزهر نفسه عليها فإنه يحتاج في أدائها إلى التجديد في العرض والابتكار في التبليغ كما هو الشأن في الجامعات العلمية الحديثة وذلك بأن يخرج مطبوعات بانتظام تقوم مقام المشافهة والخطاب . . . وتلك هي الطريقة الصناعية . . . فيعيد طبع الكتب النافعة وتوضيحها وتحليل أفكارها وتبسيطها لتكون في متناول الناس في عصرنا .

ويعيد الكتابة في تاريخ الإسلام كتابة منصفة مليئة بالتحقيق والتحليل والنقد النافع والنمحيص المثمر ، وليسكن للأزهر دائرة معارف إسلامية كبرى تميز المتبحرين للثقافة العربية الدينية وتكون له رسائل تبحث في مشاكل العالم من الوجهة الإسلامية ليشرح الناس أننا قوم بخدم البشرية وتنازع أطوارها .

أسلوب التمثيل

في القرآن الكريم

للمحاضرة الأستاذ عز الدين اسماعيل

قال الأصمباني : لضرب العرب الأمثال ، واستحضار العلماء النظائر شان ليس بالحق في إبراز حفيات الدقائق ، ورفع الأستار عن الحقائق ، ترك المتخيل في صورة المتحقق ، والمنتم في معرض المتيقن ، والتائب كأه مشاهد : وفي ضرب الأمثال تبكيت للخصم الشديد الخصومة ، وقع لضراوة الجراح الآتي ، فإنه يؤثر في القلوب مالا يؤثر وصف الشيء في نفسه ، ولذلك أكثر الله تعالى في كتابه وفي سائر كتبه الأمثال ، ومن سور الإنجيل سورة تسمى سورة الأمثال وفشت في كلام النبي وكلام الأنبياء والحكماء (١) . وقال تعالى : ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل لعلمهم يتذكرون . وقال أيضا : وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون . . وأخرج البيهقي عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن القرآن نزل على خمسة أوجه : حلال وحرام ، ومحكم ومقشاه ، وأمثال : فاعملوا بالحلال واجتنبوا الحرام ، واتبعوا المحكم ، وآمنوا بالمشاهة ، واعتبروا بالأمثال (٢) . وإذن فأسلوب التمثيل من الأساليب العربية البليغة ، عرفه العرب وكثر في القرآن والحديث ، فكانت له بذلك أهمية خاصة . وفيما يلي نستعرض تمثيلا من التمثيلات القرآنية لنعرف قيمته ونطلع على سر بلاغته وأدلة إعجازه .

قال تعالى : وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء

(١) الاتقان السيوطي ، ٢٠ ص ٢٢٢ ط ٢ - ١٩٤١ .

(٢) نفس المصدر ص ٢٢٢ .

ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون . وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون . الله يستهزئ بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون . أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين ، مثلهم كمثل الذي استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون صم بكم عى فهم لا يرجعون . أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق ، يحملون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين . يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا ، ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم إن الله على كل شيء قدير .

قال الزحزحى فى الكشف : « لما وصفوا بأنهم اشتروا الضلالة بالهدى عقب ذلك بهذا التمثيل ليثقل هدام الذى ياعوه بالنار المضئة ما حول المستوقد ، والضلالة التى اشتروها وطبع بها على قلوبهم بذهاب الله بنورهم ، وتركهم فى الظلمات . كانت حواسهم سليمة ، ولكن لما سدوا عن الإصاحة إلى الحق مسامعهم وأبوا أن ينطقوا به ألسنتهم ، وأن ينظروا ويتبصروا بعيونهم ، جعلوا كما ألبست مشاعرهم . . . ثم تلى سبحانه فى شأنهم بتمثيل آخر ليكون كشفا لحالهم بعد كشف وإيضاحا عاب لإيضاح . وكما يجب على البليغ فى مظان الإجمال والإيجاز أن يحمل ويوجز فكذلك الواجب عليه فى . وورد التفصيل والإشباع أن يفصل ويشبع . وقد شبه المتأفق فى التمثيل الأول بالمستوقد نارا ، وإظهاره الإيمان بالإضاءة ، وانقطاع انتفاعه بانطفاء النار ، فإذا شبه فى التمثيل الثانى بالصيب وبالظلمات وبالرعد والبرق والصواعق ؟ لقائل أن يقول : شبه دين الإسلام بالصيب لأن القلوب تنجى به حياة الأرض بالمطر ، وما يتعلق به من شبه الكفار بالظلمات ، وما فيه من الوعد والوعيد بالرعد والبرق ، وما يصيب الكفرة من الأفراع والبلايا والفتن من جهة أهل الإسلام بالصواعق والمعنى أو كمثل ذى صيب . والمراد كمثل أخذتهم السماء على هذه الصفة فلقوا منها ما لقوا . ثم كيف يصنعون فى تارتق خفوق البرق وخففته ؟ وهذا تمثيل لشدة الأمر على المتأفقين بشدته على أصحاب الصيب وما فيه من غاية التحير والجهل

بما يأتون وما يندرون ، إذا صادفوا من البرق خفقة مع خوف أن يخطف أبصارهم
اتهرؤا تلك الخفقة فرصة غخطوا خطوات يسيرة ، فإذا خفي وفتر لمعانه
بقوا واقفين متقيدين ، ولو شاء الله لزاد في قصيف الرعد فأصمهم وفي ضوء
البرق فأعمىهم .

وقد أغفلنا في نقل هذا الشرح للزغشرى — وهو من أقوم الشروح —
ما يتعرض له بين الفينة والفينة من مشكلات لغوية وبلاغية . والآن نبين رأيه
في بلاغة هذا التثليل فراء يقول في مستهل كلامه : لما جاء بحقيقة صفتهم أعقبا
بصرب المثل زيادة في الكشف وتمييز البيان . ثم يقل عبارة الاصهاني التي
صدرنا بها هذا المقال ، إلى أن يقول : والمثل في أصل كلامهم بمعنى المثل وهو
النظير . يقال مثل ومثل ومثيل كشبه وشبه وشبيه . ثم قيل للقول السائر الممثل
مصريه بمورده مثل وإذا سأل سائل هل ما في الآية استعارة أجاب بأنه مختلف
فيه ، وأن المحققين على تسميته تشبيها بليغا لا استعارة ، لأن المستعار له مذكور
وهم المنافقون . ونجده يورد آخر الأمر رأيا لعله أدنى إلى الصواب والفهم السليم
فيخلص إلى أن الصحيح الذي عليه علماء البيان لا يتحطونه هو أن التثليلين جميعا
من جملة التثليلات المركبة دون المفرقة ، لا يتكلف الواحد واحدا شيء يقدر
شبهه به . ويانه أن العرب تأخذ أشياء فرادى معزولا بعضها عن بعض ، لم يأخذ
هذا بمحجرة ذاك فتشبهها بنظائرها كما فعل امرؤ القيس وجاء في القرآن ، وتشبه
كيفية حاصلة من مجموع أشياء قد تضاممت وتلاصقت حتى عادت شيئا واحدا بأخرى
كقوله تعالى : واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به
نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقبذرا .
فالمراد قلة بقاء زهرة الدنيا كقلة بقاء الخضر . فأما أن يراد تشبيه الأفراد
بالأفراد غير منوط بعضها ببعض ومصيره شيئا واحدا فلا . فكذلك لما
وصف وقوع المنافقين في ضلالهم وما ضبطوا فيه من الحيرة والدهشة شبهت
حيرتهم وشدة الأمر عليهم بما يكابد من طفت ناره بعض إيقادها في ظلة الليل
وكذلك من أحذته السماء في الليلة المظلمة مع رعد وبرق وخوف من الصواهي .

هذا الرأي الأخير الذى انتهى إليه الزعزعى رأى طيب لو أحسنّا استخدامه؛ فالذى لا شك فيه أن التمثيل فى الآية لا يمكن أن يفصل كل جزء من أجزائه ليُشبه به ذلك الجزء من المشبه الذى لم يظهر فى الكلام ، لأن جوامع الشبه بذلك ستختلف وتعدد دون أن يُقصد إلى شيء من هذا الاختلاف والتعدد ، وإنما الذى قصد من التمثيل فى الآية هو إكساب المشبه الصفة الخاصة من الصورة التى ترسمها جميع أجزاء المشبه به مجتمعة متضامة . ونحن الآن بسبيل الإعراف على جوهر الفكرة ورسم الخطوط الواضحة للعملية الفنية التى يقوم عليها التمثيل فى الآية وفى غيرها من الآى . فالملاحظ أنه فى كل أساليب التمثيل لا يكون لدينا إلا شبه واحد . هذا المشبه فى الأغلب الاعم يكون أمراً معنوياً لأنه يكون صفة ، والصفة على العموم تفهم ولا تحس : ففى قوله تعالى : مثل الذين كرموا ربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف ، إنما يصف أعمال الكفار ، فإذا الصفة أمر معنوى فينقله بالتمثيل فى قوله كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف إلى شيء محسوس . ولكن يجب أن نقبّه هنا إلى أنه لا يقصد أن أعمال الكفار تشبه الرماد الذى اشتد به الريح فى اليوم العاصف وإلا لما كان ذلك مفهوماً ، وإنما المقصود هو أن الصفة التى يمكن أن توصف بها أعمال الكفار تلتقى أخيراً بالنتيجة التى يستنبطها العقل من صورة الرماد حين تعصف به الريح . فصفة أعمال الكفار ، ومفهوم الصورة المادية التى رسمها الله لها هما اللذان يلتقيان ويتشابهان ، وهما فى الوقت نفسه أمران معنويان ، وغاية ما فى الأمر أن الصورة أو التمثيل المادى لصفة أعمال الكفار بهذه الصورة المادية ، صورة الرماد تذكروه الرياح إنما هو أسلوب لا يقصد لذاته ولا يؤخذ فتفصل أجزاؤه لاكتناء معناه والوقوف على مرماه ، وإنما هو وسيلة إلى غيره ، هو وسيلة إلى تصوير معنوى لصفة معنوية هى صفة أعمال الكفار . وهذا التصوير المعنوى يتحصل بالضرورة من مجموع تلك الصورة المادية التى اتخذت معداة أو قطرة إلى تلك الصورة المعنوية . فتجسيم القرآن وتشخيصه للعنويات بهذه الصورة ينتج عملاقاً هو من الأعمال الفنية فى الذروة ، كما يؤدى غرضه الأصيل المقصود من التصوير وما يمكن أن ينقله إلى النفس من إحساس بالمعنى المقصود وإدراك له .

رثاء

انتقل الى الدار الآخرة في اليوم الرابع من شهر سبتمبر سنة ١٩٥٠ العالم الجليل الشيخ محمد مأمون الشناوى شيخ الجامع الأزهر متأثراً بدهاء عضال ألم به نحو ثلاثة أشهر ، فكان لنعمة أسف عميق لدى كل من عرفه ، وغشى مجلسه ، لما كان عليه ، رحمه الله ، من محاسن الشيم ، والتواضع ، وحسن الإصغاء لدوى الحاجات . تلقى رحمه الله العلم في الأزهر ، والدرجة العالمية في سنة (١٩٠٦) ، وعين مدرسا في معهد الاسكندرية ، ثم تولى لقضاء بالمحاكم الشرعية ، وتقلب في وظائفها واشتهر فيها بآثار العدل والإنصاف .

وفي سنة (١٩٢٦) اختير ليكون إماما خاصا للمحفوظ له الملك فؤاد ، فشغل هذا المنصب نحو خمس سنين ، كان فيها حاصلا على رضا صاحب الجلالة وعطفه . وفي سنة (١٩٣١) ، حين وضع للتدريس بالأزهر نظام جديد ، وقسمت الدراسة العالية فيه الى ثلاثة فروع ، وأنشئت لها كليات ثلاث : واحدة للشرعية وأخرى لأصول الدين ، وثالثة للغة ، اختير الشيخ رحمه الله شيخا لكلية الشرعية ، فكث يشغل منصبه فيها بكفاية محمودة ، وعمل مشكور قرابة ثلاث عشرة سنة .

وفي سنة (١٩٤٤) أسندت إليه وكالة الجامع الأزهر ، وكان المرحوم الشيخ مصطفى المراغى شيخا له ، فلبث في هذا المنصب حتى توفى الاستاذ المذكور ، وترددت الحكومة في تخيير رجل كفء لشغل منصب المشيخة ، فوقع الاختيار على المرحوم الاستاذ مصطفى عبد الرازق ، فرق أن قانون الأزهر يشترط فيمن يتولى هذه الوظيفة أن يكون من هيئة كبار العلماء ، ولم يكن الاستاذ المذكور منها ، فاستحسن أن ينقح هذا القانون حتى يتسع لتعيين من يصلح من لا تطبق عليه شروطه من أجلاء العلماء ، مادامت تتوافر فيه المؤهلات العلمية والادبية . فلما عرض هذا الحل على المرحوم الشيخ محمد مأمون الشناوى أبى ورأى أن يستقيل من منصبه ، وأن يتولى هذا الأمر غيره . فقبلت استقالته . ومضت الحكومة في إصلاح ذلك القانون ، وعين المرحوم الشيخ مصطفى عبد الرازق شيخا للأزهر . فلما كانت سنة (١٩٤٨) وتوفى الاستاذ المذكور ، أسندت الحكومة مشيخة الأزهر إلى

الشيخ محمد مأمون الشناوى فى الشهر الاول من تلك السنة . فلبث فيها الى أن وافته أجله فى الحين الذى ذكرناه آنفا .

ومما يجب تسجيله للأستاذ المرحوم حالة الاستقرار الذى شمل جميع طلبة الكليات والمعاهد الأزهرية ، ووفاء منها بشكر ما أداء إليهم من الخدم فى مساواة خريجهم بخريجى الجامعة المصرية فى المرتبات ، وفيما كان عاملا عليه من تحقيق أمانهم .

محمد فريد وهبى

مرشد الآنام

لمعرفة الحلال والحرام

هذا كتاب قيم ، جليل القيمة ، عظيم النفع ، وضعه الأستاذ الشاب على فكرى بك ليكون لمفتيه مرشدا آمينا لكل ما يهمه معرفته من الحلال والحرام ، فهو ذكر دينى لمن يستشيره فى أموره الدينية ، لا يستغنى عنه المسلم الذى يهمه أن يرسم فى حياته الطريق المستقيم .

كتبنا مقدمة لهذا الكتاب قلنا فيها :

« وقد تعقب مؤلفنا الفاضل المحرمات الى أبعد وأخفى مظاهرها ، كما يتعقب (البكتريولوجى) الميكروبات الضارة فى أدق وأعضل مظاهرها . فقد أتى على المحرمات الصادرة عن هواجس القلوب ، ومسارح العيون ، واصفاهات الآذان وفضول اللسان ، كأصنام الشرور ، والنظر الى المحرمات ، وسماع الهتان والعيبة والنيمة الخ... فهذه كلها محرمات يتجاهلها أكثر الناس ، ويتخيلون أنهم ما داموا بعيدين عن مشهورات المحارم ، كالخمر والميسر والفسق ، فهم فى حل لأن يقعوا فى أعراض الناس بالظنون السيئة ، وأن يقتابوهم بغير ثبوت ، وأن يشهروا بهم ، لا كراهية فيما يرتكبون ، ولكن تشفيا منهم ، ونشرا لمساوئهم ، ليحملوا الناس على تحقيرهم وكراهتهم ، وما هروا أنهم يسيئون الى أنفسهم قبل أن يلحقوا الأذى بخصومهم . »

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بيان

حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ عبد المجيد سليم
شيخ الجامع الأزهر

في اليوم الأول من شهر نوفمبر عام ١٩٥٠ دعا حضرة صاحب
الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ عبد المجيد سليم جمهوراً من حضرات
العلماء ورجال الصحافة، وألقى فيهم خطاباً مفصلاً، لما انتهى إحداها
من الإصلاحات في الأزهر، وفضيحه في سمو تفكيره، ومضاء عزيمته،
وجهه للإصلاح، جدير أن يرى ضرورة إحداث هذه الإصلاحات
الجليلة، وما يتجدد منها في الناحيتين الدراسية والنظامية، حتى تصير
الجامعة الأزهرية أجمع جامعة لتثقيت المعارف، كما هي أقدمها جميعاً
في الوجود، وأما المهمة جد خطيرة، نرجو أن يمدد الحق بروح من
عنده ليوفيقها حقها.

أهواني وأبنائي الصحفيين

أحمد الله تعالى اليكم، وأصلى وأسلم على نبيه وصفوته من خلقه سيدنا محمد
الذي بعثه رحمة للعالمين، وعلى آله وصحبه أجمعين، وأسأله تعالى أن يجعلني وإياكم
من الداعين إلى الخير، الأمرين بالمعروف، الناهين عن المنكر، الحافظين
لحدود الله، وأن يؤيد بعنايته وتوفيقه حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك المعظم
فاروق الأول، صاحب اليد الطولى، والفصل المشكور في كل توجيه سديد
إلى ما فيه مصلحة الأمة، وتركيز الحق والعدل، وإعلاء شأن الدين والعلم،
كما أسأله تعالى أن يوفق رجال حكومته الجليلة وسائر أفسراد رعيته المخلصين
إلى ما يرفع شأن الأمة، ويحيي مجدها، ويثبت دعائمها، وأن يفرح على العالم
في مشارق الأرض ومغاربها، لواء رحمته، وظل سكينته، ويهديهم صراطه المستقيم.

لقد دعوت إلى هذا المؤتمر اعتداداً بالصحافة الرشيدة ، وإدراكاً لمسكاتها وأثرها في توجيه الأمة إلى مواطن الخير والاستقامة والرشاد في شتى سواحي الحياة ، وإن بين الصحافة الموقف والأزهر الشريف لاتفاقاً في العاية ، وتلاقياً على الهدف ، ذلك بأنهما يرميان كلاهما إلى الإصلاح والتقويم ، ويرشدان إلى أهدى السبل لتحقيق الخير ، وتتيب دعائم الحق ، لذلك لا أراى في حاجة إلى مشاهدتهم أن يكونوا عوناً لدعوة الإصلاح والفضيلة في الأمة ، وأن يحببوا إليها أخلاق الشرف والاستقامة التي تنهض بها الأمم ، وتقوم عليها الشعوب ، ويكرهوا إليها أخلاق الضعف والاحلال التي ما نفشت في أمه إلا أخذها الله بالعذاب ، وأتى ببنائها من القواعد . صان الله أمثا ووقاما ، وأعادها من كل سوء .

لقد تشرفت في العاشر من المحرم سنة ١٣٧٠ هـ الموافق (٢٢ من أكتوبر سنة ١٩٥٠) بمقابلة حضرة صاحب الجلالة مولاي الملك المعظم ، لرفع فروض الولاية والشكر لجلالك على ما تفضل به من إسناد منصب المشيخة إلى ، وأصار حكم بأنى كنت قبل أن أنشرف بهذه المقابلة محسا بثقل التبعة ، مشعفا على نفسى من تحمل هذه الامانة الكبرى ، فلما تشرفت بمقابلة جلالته ، ولقيت من عطفه السامى ما لقيت ، وشعرت وأنا فى حصرته بشدة رغبته فى الإصلاح ، وعظيم حرصه على أن ينهض الأزهر برسائله ، وكريم استعدادده لتأييد العاملين المحصلين : شرح الله صدرى ، وأقر عيني ، وأحسست أن روحا من القوة والعزيمة يسرى فى نفسى .

لقد وجدت جلالته حمظه الله محييا بشئون هذا المعهد دقيقتها وجليلها ، حريصاً على أن يحفظ أمانته العالية التى ائتمنه الله عليها ، وكان من ذلك أن جلالته - أدام الله توفيقه - بادرني بتوجيهات وإرشادات سامية ، أضاءتلى السبيل إلى تحقيق ما أبنيه من ضروب الإصلاح ، وإنى إذا لخصت لحضراتكم خطبى ومنهاجى فى الاضطلاع بشئون الأزهر : إنما أصدر عن هذه التوجيهات الكريمة ، والإرشادات السامية .

إن مهمة الأزهر ، ذات شقين عظيمين :

أحدهما : تعليم أبناء الأمة الإسلامية دينهم ولغة كتابهم تعليماً قوياً منمراً يجعلهم حملة للشريعة ، أئمة في الدين واللغة ، حُفَظَا حراساً لكتاب الله وسنة رسوله وراث السلف الصالح .

الثاني : القيام بما أوجبه الله على الأمة من تبليغ دعوته ، وإقامة حجته ، ونشر دينه ، فإن هذا الدين عام حالد إلى يوم القيامة ، وقد شرعه الله للناس جميعاً ، وأنبأنا أن فيه صلاح العالم واستقامته على الصراط السوي ، وأنه سبيل الأمن والسلم والحياة الطيبة ، وأوجب على المؤمنين في كل زمان ومكان أن يقوموا بالدعوة إليه ، وإظهار نوره ، وأن يسلكوا لذلك سبيله ، ويأخذوا بأسبابه .

وإذا كان تبليغ الدين ، ونشر أحكامه ، وبث تعاليمه واجباً على المؤمنين في كل الاوقات ، فإنه على أهل الأزهر أوجب ، وفي هذا الزمان ألزم ، فإن العالم بنوء اليوم تحت أعباء الدعوات الفاسدة ، والمبادئ الخطرة ، ولا يقوم من كارثة إلا إلى كارثة ، وأهل الأزهر بما لهم من الصدارة الدينية ، والتاريخ المجيد ، أقدر الناس على بيان ما في الإسلام من مزايا تكفل للعالم الحياة السعيدة والأمن والسلام ، وتوطد فيه دعائم الحرية الصحيحة والمساواة الحقيقية لا فرق بين جنس وجنس ، ولا بين لون ولون ، إلا بما يقدمه العاملون من أعمال صالحة ، وجهود مافعة ، يأبها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم .

على رعاية هذين الجانبين يجب أن تقوم خطة الإصلاح في الأزهر ، وأن يعمل العاملون على تحقيق آمال الأمة فيه .

وسبيل إلى ذلك في الأمر الأول ، التي أخذ بها نفسى ، وأدعو إليها إخواني وأبنائي الأزهريين ، أن نستحضر دائماً هذه المبادئ ، وأن نصدر عنها في كل شئونا التعليمية .

فأول ذلك ، أن يكون هنا الأكبر التفرغ لتكثير أنفسنا ، والنزود من العلم يزداد طيب يعيننا على أداء حقوق الله وحقوق أمتنا العزيزة ، ويجعل لنا في الناس

منزلة وشأناً ، فإن العلم هو غذاء العقول ، وكال الفؤوس ، وأساس التقدم ، وما من خير يتاله الأفراد ، وتحصل عليه الأمم والجماعات ، إلا والعلم أصله ، والمعرفة أساسه ، وما من شر أو ضعف أو فقر . أو اضطراب أو اختلال أو انحلال ، إلا ومصدره الجهل ، وخطأ التصور والقصور أو التقصير في المعرفة والادراك .

وإذا قلت العلم ، فإنما أريد العلم الذى يطبع أصحابه بطابع الفضيلة والخلق الكريم ، وتظهر آثاره في أفعالهم وأعمالهم قبل أن تظهر في أقوالهم وكتاباتهم وخطبهم .

إذا استحضرتنا هذا المبدأ دائماً ، لجعلنا العلم غاية ، والتجمل بالمعرفة والفضيلة شعارنا ، أمكس أن نتغلب على المشاق ، وأن نقهر الصعاب ، وأن نعتصم بالصبر في جميع شئوننا ، وأن نطمئن إلى أن أمورنا ستقتر ، وأن آمالنا ستتحقق ، وأن الأمة ستقدرنا حق قدرنا ، وأن الدولة ستوفر لنا أسباب المعونة والإنصاف ، ولا تبخل علينا بما تجود به على غيرنا .

إن الأزهرين كثيرهم من طوائف الأمة ، للأمة عليهم حقوق ، ولهم عليها حقوق ، والمساواة بينهم وبين أمثالهم في حقوقهم ، كالحرص على قيامهم بواجباتهم ، جزء من برنامجي ، وموضع من مواضع اهتمامي وعنايتي ، وإلى لوائقي أهم بالعمل الدائب ، والجهد الخالص ، رافعون إن شاء الله صوتي ، ومؤيدون حجتي . أسأل الله أن يحقق آمالي فيهم ، وآمالهم في ، وأن يحقق فينا جميعاً آمال الأمة التي هي أعز آمال المليك المعظم .

المبدأ الثاني : أن نعتنى بالأمم من العلوم بالنسبة إلينا ، فنبذل أكبر جهودنا لدراسة الدين واللغة وما يتصل بهما ، ويعين عليهما ، وألا نتخلى في الوقت نفسه عن العلوم التي تفيدنا في حياتنا العامة ، والتي لا يسعنا ولا يحمل بنا أن نجعلها .

إن الأمة تريد من الأزهر أن يخرج لها علماء في الدين والشريعة واللغة وسائر العلوم العقلية والاجتماعية المتصلة بها ، على أن يكون هؤلاء العلماء مزودين مع هذا بقدر صالح من العلوم الأخرى التي تفيدهم في مجتمعهم ثقافة عامة .

المبدأ الثالث : أن المقصود الأول من العلم هو تحصيل الملكية الصحيحة في العلم ، والنزود من قواعده ومسائله بما يفيد ويصح ، فكل تعليم لا يؤدي إلى غايته ، ولا يفيد الفائدة المقصودة من العلم إنما هو تضييع للأوقات والجهود وإتفاق للأموال والمواهب فيما لا طائل تحته .

فإذا استعرضنا هذا المبدأ كان لزاما علينا أن نعمل على مراجعة ما لدينا من الكتب ، ففر منها ما ثبتت صلاحيته لتحقيق الغاية من العلم ، ونبعد منها ما لم تنوثر فيه أسباب تلك الصلاحية .

إن الكتب التي ورثناها نوعان :

أحدهما : تلك الكتب الأولى التي ألهمها العلم والحق صاف ، والمؤلفون يكتبون على بصيرة ، ويمضون في البحث على فطرم ، لا يقصدون إلا تجلية ما يبحثون والوصول إلى الفائدة من أقرب الطرق .

وهذا النوع من الكتب فيه علم غزير ، ومادة صالحة طيبة ، وغذاء العقول وتخرج لها على طابع استقلال مشر ، فليس من الرأي أن نحرم أنفسنا ما فيها من الماريا ، وأن نظل عنها مبعدين .

النوع الثاني : ما كتبه المتأخرون حين كانت تسودهم الرغبة في الإيجاز وجمع المعلومات الكثيرة في الالفاظ القليلة ، حتى وصل الأمر ببعضهم إلى حد الإلفاز .

وهذه الكتب من شأنها أن تضيع أوقات المشتغلين بها ، وتبعث في نفوسهم الكراهية لها ، والنفور منها ، والطالب لا يصلحه إلا أن يحب كتابه كما يحب أستاذه ، فإذا كره هذا أو ذاك كان غذاؤه كرها ، وحضنه كرها ، ورب غذاء تصدى به الأجسام .

لكنها مع ذلك تحوى كثيرا من القوائد العلية ، التي قد تخلو منها كتب النوع الأول ، وتمثل في الوقت نفسه عصرا من عصر التفكير العلمي لا يسع الأزهر أن يجهله ، وأن يعجز عن مزاولته ، وإدراك ما فيه من خير .

والرأى عندى أن يراعى الأزهر المصلحتين ، وأن يوفق بين هاتين الغايتين
المحمودتين .

وسيكون من أهم ما أعنى به إن شاء الله تأليف لجان من جماعة كبار العلماء
وأساتذة الكليات والمعاهد والمختصين في شئون التعليم لمراجعة الكتب الدراسية
ولإبقاء الصالح منها ، واختيار لون جديد يوجه الطلاب توجيهًا حسنًا إلى العلم النافع
من أقرب طريق وأيسره .

ولا يفوتنى أن أشجع - إن شاء الله - مع هذا حركة التأليف والتجديد
عن طريق الجوائز وغيرها حتى يتصل حبيل العلم ويمتد ، وتأخذ العقول والأفكار
سبيلها إلى غابات قد يكون فيها خير وبركة على العلم والدين .

• • •

أما الشق الثانى من مهمة الأزهر ، وهو القيام ببليغ الدعوة ، ونشر دين الله
فسبيل الأزهر إليه أن ينظم اتصاله بالعالم اتصالاً فكرياً وعملياً .
وقد تشرفت فى هذا الشأن أيضاً بتوجيهات سامية حكيمة من لدن
جلالة الملك :

منها العمل على ترجمة القرآن الكريم إلى اللغات الأجنبية ، نشر كتاب
الله الكريم فى بيئات ومواطن يجب عليها أن تنشره فيها ، ولا يغبى أن تتجاهل
ما يعود على ديننا وأمتنا من الفوائد الجليلة فى ذلك .

وقد كان هذا المشروع موضع تفكير الأزهر من قبل ، وأقرته جماعة
كبار العلماء بعد دراسته وتبين حكم الله فيه ، ويسرنى الآن أن أعلن ما اعتمدته
من اعداد المصنفات للشروع فيه على بركة الله ، وأسأله جل شأنه المعونة
والتوفيق والسداد .

ومنها توجيه العلماء - أولاً - إلى وضع أبحاث فى الفقه والتشريع تسار
الروح العلمى الحاضر ، وتكفل إبراز ما فى الفقه الإسلامى من قواعد العدل
والرحمة والمصلحة التى تشهد بها لفطر السليمة ، والعقول الراجعة ، وتبين للناس
أن ما جاء فى التشريعات الحديثة القائمة على أسس سليمة : موجود فى الفقه الإسلامى
مع بيان أدلته وحججه ، ودفع الشبه عنه .

و- ثانياً- إلى إصدار نشرات ووضع مؤلفات باللغات الأجنبية لبيان حقيقة الإسلام، والتعريف بمزاياه حتى يعلم المنصفون من الأمم أن الإسلام هو الكفيل وحده بالحياة الطيبة للفرد والأسرة والجماعة .

ومنها العمل على النهوض بالبعوث الإسلامية وتنظيم الاتصال بالبلاد المحتاجة إلى معونة الأزهر، ولا سيما البلاد التي تربطها بمصر روابط وثيقة، حتى يؤدي الأزهر واجبه في نشر الثقافة الدينية بين المسلمين، ويحمل عن بئلام أو يبعثهم مثلاً صالحة تكون خير عنوان له .

ومنها العناية بمجلة الأزهر حتى تكون في طليعة المجلات الكبرى، وتتمكن من أداء مهمتها على الوجه الأكمل .

ومنها العمل على إنشاء مطبعة خاصة تعين على إخراج ما يرى الأزهر إخراجه من الكتب، وهل طبع مؤلفات علانته .

ومنها العمل على تنفيذ الرغبة السامية بشأن كتب الحديث الشريف .

هذه هي الخطوط الرئيسية في برنامجي للنهوض بالأزهر، والسير به في طريق التقدم والكمال .

ولست أشك في أن أهل الأزهر سيتلقون هذه التوجهات الملكية السامية بعزائم صادقة، وهم وثابة، معتزبن بها، عاملين على تحقيقها، وأن حكومة جلالة الملك ستعيني عليها، وتؤيدني فيها، فإن ما أعلمه عن صاحب المقام الرفيع رئيسها، وأصحاب المعالي زملائه الكرام من حرص على كل ما يثبت دعائم الدين والعلم والخلق، ويحقق آمال الأزهر وآمال الأمة فيه، ليمتد الاطمئنان كل الاطمئنان إلى قلبي وقلب كل مؤمن .

وقفنا الله جميعاً إلى ما يحبه ويرضاه، ويسر لنا سبيل العمل الصالح الخير الإسلام والمسلمين بل الخير العالم أجمع، وأظل بالرعاية والتوفيق جلالة مليكتنا المعظم ورجال حكومته، إنه سميع مجيب ؟

لِسِرِّ هَيْبَانِبَلْ

من هم الذين يوصمون بالكهانة ويصح أن يطلق عليهم لفظ الكهنة ؟

تابعنا قراءة كتاب (من هنا نبدأ) للحضرة مؤلفه الأستاذ خالد محمد خالد
فألفيناه يقول :

هناك شيء اسمه الكهانة ، انحدرت إلينا من القرون الأولى ... وهي ذات
تعاليم ومبادئ صارمة وقائلة . . . أرادت أن تستغل ولاء الناس للدين فلبست
لبوسه ، وتشبهت به ، بل واستطاعت أن تتطفل عليه وتخالط بعض تعاليمه ،
ثم راحت تفتك سمومها المييدة في دأب ومثابرة ، مباركة الرجعية الاقتصادية ،
والرجعية الاجتماعية ، مدافعة عن مزايا الفقر والجبل والمرضى !! ولم يبق أمام
الحكومات والمجتمعات التي تحرم دينها ، وتحرص عليه ، إلا أن تبادر بكل وسيلة
مستطاعة إلى عزل هذه الكهانة الخيثة ، وتقية الدين من شوائبها ، حتى يظل
ولاء الناس له ، وإعجابهم به . .

نقول لم يذكر الأستاذ مؤلف الكتاب الطائفة التي تمثل هذه الكهانة ،
واكتفى بقوله : أنه يقصد بها جماعة تزوير رجال الدين ، وانتدبوا لبث تعاليمه
في الناس ، وهم ليسوا منه في شيء . وقد أعملنا الفكر لنصل إلى تعيينهم ، فلم نهتد
إلا إلى رجال من جهة الناس تزوير رجال الدين ، واندسوا بين العامة
يفتنونهم بما لا يعملون ، ويصورون لهم الدين على ما يهوون ، تصورا يفرجه هن
حقيقته . وهم شر على الدين من أعدائه ، ويجب على أول الأمر منهم من تسمح
عقول السذج بضلالتهم الضارة .

ولكننا رجعنا قلنا لو كان يريد بهم هؤلاء فإن أمرهم أهون من أن يكتب

فيهم فصلاً يقع في نحو تسعين صفحة من الكتاب ، ومن أن يزرع هذا الزرع
الذي يتمثل في هذه السطور من كتابه وهي :

« وهكذا تظل الكهانة تزحف وتمزج بتعاليم الدين ، وتحتل عقول الناس
على أنها الدين الذي يجب أن يدعوا له ولا يناقشوه ! وهنا ينجم ضرران خطيران :
(الأول) استماع الناس لها ، واقتناعهم بها حيث تسير بهم الى الهاوية ، بعد أن
تسكرم بتعاليمها التي تريحهم عما يتعب السكرام ، وحيث يظلون عبيد لخصوصية
ساحقة كاذبة لم يأت بها من الله وحى ولا كتاب (الثاني) أنه على مر الزمن
لا بد من ظهور طبقة مثقفة في المجتمع تؤمن بالحرية وبالعصر ، وتمنن الخرافة ،
ترى الشعب وهو يساق الى الموت والظلام . . . فتقف سائلة عن هذا الرائد
الحديث المضلل الذي يسوقه : من هو ؟ فيقال لها هو الدين ، ثم أخذت تنمو فيه
حتى اكتسبت شخصيته ، وأسمى بسياته وملاحه . عندئذ يصب هؤلاء المثقفون
على الدين جام غضبهم ، ويشنون عليه حملات عنيفة ، ويدعون الناس الى الشك
فيه ، والتمرد عليه . هذا هو الذي حدث في أوروبا والغرب ، وهو الذي نخشى أن
يحدث في الشرق إذا لم نبادر بعزل الكهنة عن الدين ، وتفتيت من شوائبها ،
ونقدمه للناس وحيثاً متألفاً كيوم نزل من لدن حكيم عليم . »

قرأنا في الكتاب هذه العبارات ، فازددنا حيرة في تعيين الطائفة التي يسميها
بالكهانة ، وبها من التأثير بحيث تحتل كهانتها عقول الناس على أنها الدين الذي
يجب أن يدعوا له ولا يناقشوه الخ ! نعم ازددنا حيرة ، لأننا لم نجرؤ أن نفهم منها
أنه يريد بها علماء الدين ، فليس للعلماء دعوة غير ما يبشرونه في مجلهم من المقالات ،
وما يبادى به وعاظهم في الأقاليم ، من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؛ ول هؤلاء
أيضاً مجلة خاصة ينشرون فيها ما يمين لهم من البحوث ، وكلها من خير ما تنرمه
الثقافة الفاضلة والمدعب القويم ؛ فكان بحسب الأستاذ خالد أن ينقل عنهما
بعض ما تنشرانه من الأضاليل ، ليرى قراءه بدليل محسوس كيف تسم هذه الكهانة
عقول إخواته في الدين !

أعدنا نظراً فيما كتبه الأستاذ في (الكهانة) لعلنا نعرف أى الطوائف في مصر
يريد . فرائاه يقول أيضاً :

هناك شيء اسمه الكهانة ، انحدرت إلينا من القرون الأولى ، وهي ذات
 تماثيل ومبادئ ضارة وقائلة ...! أرادت أن تستغل ولاء الناس للدين فلبست
 لبوسه ، وتشبهت به ، بل واستطاعت أن تنطفئ عليه وتخالط بعض تماثيله ،
 ثم راحت تمت سمومها المييدة في دأب ومثارة ، مباركة الرجعية الاقتصادية ،
 والرجعية الاجتماعية ، مدافعة عن مزايا الفقر والجهل والمرض ١١ ولم يبق أمام
 الحكومات والمجتمعات التي تحترم دينها وتحرم عليه ، إلا أن تبادر بكل وسيلة
 مستطاعة إلى هزل هذه الكهانة الخبيثة ، وتقوية الدين من شوائبها . .

ثم قال :

« فإلى أي شيء تدعو الكهانة ؟ نستطيع أن نعرف الجواب من مناوئتها
 الحادة لربعيات المجتمع وطموحه ، فمتى ما اشتد احساس الشعب بيقوسه وحصاصته ،
 ونضرم شوقاً إلى عدالة اجتماعية يستجم فيها من وعناء لغوبه الطويل ، وبدا كأن
 العرص تستجيب له ، وقام جلالة الفاروق يمدد بنفسه طريق اليقظة الشعبية
 الزاحفة ، ففاجأ مجلس الوزراء في إحدى جلساته ، وحاطب الوزراء بنبرات
 حازمة مؤثرة تحمل آلام عشرين مليوناً من البشر : « جئت أطلب بحق الفقير
 والمحروم والمريض ، ! عندما حدث ذلك ... رأيت الكهانة المصرية تختط
 مذهباً عجيباً . إذ راحت تخطر الناس بخرافاتها ، وسال جشازها سيل العرم حاملاً
 مبادئها الخزية المدبرة ، داعية الناس إلى القاعة المقدسة ، بيد أن الكهنة
 أنفسهم ألد أعداء القاعة ، وأسبق الناس إلى اقتصاص المعانم ، والبحث
 عن المال والجاه ! ، انتهى .

لما طالما هذه العفريات رجعتا نشك فيما ظنناه من أن المراد بالكهانة
 مذهب علماء الدين ، ففى عهد الناس أن واحداً مهم دعا إلى الرجعية الاقتصادية
 أو دافع عن مزايا الفقر والجهل والمرض ؟ أما كان يحدو بحمرة الكاتب أن
 يأتي بعبارة من خطابة منبرية لأحدهم ، أو كتاب وضعه بعضهم ، يُثبت هذه التهمة
 عليهم ؟ وإذا كان الدينون يستبطنون مذهب الرجعية ويعملون على ترويجها ،
 فكيف يميل أنهم مع ذلك يقررون تدريس علم الاقتصاد السياسى في كلياتهم ،
 وهو يثبت بأدلة لا تقبل النقص أن المال ضرورى للبياعات ضرورة الدم

لجسم الحى ، وأن لكل منهما دورة حيوية لا بد منها لحفظ الحياة الفردية والاجتماعية.

ثم إذا كان الدينيون المعاصرون رجعيين ، فكيف يعقل أن يخطوا في سبيل التجديد هذه الخطوات الجديدة الجريئة ، فيقرروا تدريس العلوم الطبيعية والرياضية والمذاهب الفلسفية الحديثة في كلياتهم ، لينتخرج الطالب آخذاً من كل علم بطرف ؟ .

إن المدارس والكليات المسيحية تدرس هذه العلوم في المصور الحديثة ، ولكن لا تدرس منها إلا ما هو مؤلف بأقلام أعلامهم ، ولا تسمح بأن يلقيها إلا رجال منهم ، على خلاف كليات الأزهر فأياها تعين أساتذة هذه العلوم من الحاصلين على إجازات فيها من المدارس الأميرية ، وعن لا علاقة لهم بالدين أصلاً ، بل زادوا على ذلك فقرروا تدريس اللغات الأجنبية في تلك الكليات ، وبالغوا في هذا التسامح فأرسلوا بأجيب طلبتهم إلى إنجلترا وفرنسا والمانيا لدراسة هذه اللغات وإتقانها ، ودراسة بعض الفروع العلمية بها . فهل يظن بل هل يعقل أن يصدر مثل هذا التسامح كله من طائفة تدبر بالرجعية ، وتتمسك مثلها العليا من الجهل ، والمرض والعقر ؟ ؟ ؟

لست أريد بهذا أن أقول إن الدينيين وصلوا بنساجهم هذا ، الذى أصبح مضرب الأمثال ، إلى المثل العليا التى ينشدونها ويعملون للوصول إليها ، ولكنى أريد أن أقول إن انهم أولى الحل والعقد منهم بالرجعية ، وتشبيهم بالكهنة ، وعملهم في سبيل بلوغ المثل العليا ما رأيت ، يعتبر تحمياً بحار العقل في فهم مداه وفي تمثيله !

إن الأزهر لم يبلغ هذا التطور الجديد من حياته إلا منذ سنين معدودة ، وهو ماض في سبيل الوصول إلى ما يقتضيه هذا التطور من التجديدات بكل ما يملكه من وسيلة ، ولكن أمثال هذه الانتقالات تقتضى المصلحين وقتاً كافياً لتثمر فيه ثمراتها المنتظرة منها ، بل لتسكل وتصلح للإنتاج والإثمار . ولو كان الناقدون يشاركون العاملين في أحداث هذا الانقلاب ، ويমানون بعض مشقاته وتوابعه ، لأدركوا أن كل جديد لابد له من وقت ليضج فيه ، ووقت آخر

ليؤتي ثمرانه . فلو أمهل الأزهريون جامعتهم ملاوة من الدهر مع مشاطرة كبار شيوخها جهودهم على التوضيح بها ، لبلغوا العاية في مدة وجيزة ، لاسيما وحضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الأكبر الشيخ عبد المجيد سليم ، من أشد الناس شغفا بجعل الأزهر مثلاً أعلى للجامعات الدينية : أما لو تمعلنا الثمرة قبل نضجها ، وعملنا على الإسراع بها قبل استيמתها أدوار لبنائها ، اضطررنا بحكم الظروف لانتظار زمن أطول للحصول على ما نتخيله لمرضاتنا .

يقول مؤلفنا الفاضل :

« وما دمننا بحاجة الى تقديم ثقافة دينية جديدة ريشة ، فلا بد من العمل على خلق جيل جديد من الوعاظ وأئمة المساجد ، والأزهريون اليوم على أتم الاستعداد الفهمي والذهني للقيام بهذه الرسالة الجديدة . وليس على شيوخ الأزهر إلا أن يقدموا لهم برامج حديثة ، ومناهج علمية سليمة تتفق والوعى الجديد . فإذا أبى شيوخ الأزهر ذلك أو عجزوا عنه ، كان حقاً لزاماً على الدولة أن تنشئ في كل جامعة من جامعاتنا العلمية القائمة والتي ستقوم ، كلية للدراسات الدينية تدرس المبادئ الصحيحة التي تهدي الى حياة دينية نامضة ، حتى يصير الدين عماداً لقوى التقدم والارتقاء ، ويتخرج منها وعاظ من طراز جديد . كوعاظ الكنيسة في أوروبا . ولا بد من الإجابة بالعلماء الراشدين كي يعرضوا كل قضايا الدين من جديد عرضاً وافياً خالفاً ، وإذا كنا نقدر خطر تعاليم الكهانة على حياتنا ، ونؤمن بأن الأفكار أقوى من الجيوش ، فإن الدولة ستتم لا محالة إذا شاركتنا هذا الإيمان ، بالقضاء على الكهانة ومكائنها ، ومؤلف بجمع العلماء ليقوم بالمهمة التي ذكرناها . وهي عرض التعاليم الدينية صحيحة عرضاً جديداً ، ويؤلف الكتب في ذلك ويشترك فيه علماء الدين واسمو الأفق مع صفوة مختار من رجال الفكر والأدب والاجتماع ، انتهى .

وعن نقول :

إن الحالة التي وسماها الاستاد المؤلف بالكهانة ليس لها وجود في مصر ، وإن وجدت ففي طبقة من الجهلة لا تخلو منها أمة في الأرض ، مهما بلغت من السمو العلمي والمدنى ، وإن كل ما ناهى حضرته لهذه الأمة من الرشد في الدين ، والفهم

الصحيح له ، لمواجهة فسة عهدنا العلى المدنى الراهق ، حدث منذ أكثر من سبعين عاما بنبوخ الفيلسوف الإسلامى الجليل جمال الدين الأفغانى . وقد علونه على نشر تعاليمه ، وبث أصوله وفلسفته ، جهره من نبعاء الأزهريين على رأسهم العلامة الجليل الشيخ محمد عبيد . فى مجلة تدعى العروة الوثقى أذاعوها فى الخافيين ، فتيةظ نباء المسلمين من سباتهم الذى كان قد طال عليهم الأمد فيه ، وشرعوا يوقظون من حولهم بمن لا بصر لهم تمام عليه ، ولا بما سيأدون إليه تحت ضغط شهادات عليية لاقدرة لهم على فهمها ، ولا على اتقاء آثارها : مبينين بهم إلى تدارك ما هم منتهون إليه من التدهور المادى والادبى ، ثم منه إلى الفناء فى أمم ليس بينها وبينهم أية صلة من الصلات الروحية والاجتماعية ، ولكن كيف تصل هذه الدعوة الى قلوبهم ، بل الى أسماعهم ، وهم فى درجة من الأمية لا تسمع لهم بفهم شئ مما يشغل بال هؤلاء المصلحين الذين يهيبون بهم الى طريق النجاة ؟ ومع هذا فان هذه الصيحات الإصلاحية التى بدأت ضعيفة متحاذلة ، أخذت تقوى وتشد رويدا رويدا حتى أصبح صوتها الآن مدويا فى الخافيين .

واليوم وقد زال خطر هذه الأمية ، ونبع عهدنا ألوف وألوف من رجال العلم والقلم ، وصدرت ألوف من المؤلفات تنشر أصول الإسلام الصحيحة ، وتدل على أن هذه الأصول أحكم وأكمل ما تأخذ به الأمم لبناء وجودها ، وفى العالم الإسلامى اليوم مئات من المجلات تبين ماهية الإسلام ، وتبرهن بالدلائل المحسوسة على أن تعاليمه تبرزى مراميها الادبية والاجتماعية والعلمية جميع التعاليم الموجهة الى الأمم عامتها وحاصتها ، لتأخذ فى أسباب بناء مدنية فاصلة تناسب مواهب الإنسان وعماياته البعيدة ، وتنتشر فى جميع البلاد التى يسكنها أبناء هذا الدين جرائد ومجلات تردد هذه الدعوة . وتنقل عن فلاسفة الأوروميين وعلمائهم إعجابهم بالدين الإسلامى وشهاداتهم له بأنه الدين الوحيد الذى يأخذ بيد الإنسانية الى العايات القصية ، والمثل العليا البعيدة : فلما اليوم وقد بلغ العلم بماهية الإسلام الى هذا الحد من الذبوع والانتشار ، هل يحظر على بال أحد أبناؤه أن يكتب ما كتبه الاستاذ خالد فى كتابه وهو قوله :

، انه على مر الزمن لابد من ظهور طبقة في المجتمع تؤمن بالحرية وبالعكر ،
وتمتن الخرافة ، ترى الشعب وهو يساق إلى الموت والظلام فتقف سائلة عن
هذا الرائد الخبيث المضلل الذي يسوقه : من هو ؟ فيقال لها هو الدين
هذه يصب هؤلاء المثقفون على الدين جام غضبهم ، ويشنون عليه حملات عنيفة
ويدعون الناس إلى الشك فيه ، والتمرد عليه . . انتهى .

فهل يعقل ان يبلغ العالم بأجمعه صوت الاسلام في الحكمة ، وفي أسلوبه الفذ
في إحياء الامم والشعوب ، وترقيتها أدبيا وماديا ، وفي إيمانها خلافة الله في الارض ،
ولا يصل خبره الى طبقتنا المثقفة فيصبوا جام غضبهم عليه ، ويدعون الناس
إلى الشك فيه ؟ لا أظن ذلك . . .

محمد فريد وجرى

الْمُسْتَفِيدُونَ مِنْ كِتَابِ الْقُرْآنِ

— ٢ —

لفضيلة الأستاذ المجليل الشيخ محمد محمد الهدى

كنت في العدد الماضي من مجلة الأزهر الغراء بعض ما أسعف به الخاطر فيما يدل عليه مثل قوله تعالى في وصف القرآن الكريم ، هدى للتقين ، وذكرى للؤمنين ، ، وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ، إلى غير ذلك من الآيات التي تشير لأرباب الدعوات وأصحاب الأفكار ، إلى أنه لا يكتفي في سيادة الحق وتقبله من الداعين إليه حق ثابت تبدو معالمة ، ويعرف بسببها ، ولكن يجب أن يكون المدعوون إليه ذوي قلوب حية ، ونفوس غير ملتوية ، حتى يكونوا مستعدين لتقبله ، والاتماع به .

وقد ظلت دعوة الإيمان تتردد في أرجاء مكة ثلاثة عشر عاما ، يصدع بها رجل مهم ، عرفوه بالصدق والأمانة ، وشهدوا له بالعظامة والزكاة ، واحترموه بألوان الابتلاء ، فارتزق ولا تحول ، ومع ذلك لم تشرق على قلوب أهلها شمس الحقيقة ، ولم يتمكن رسول الله صلى الله عليه وسلم من المقام بينهم آمنا على نفسه ودعوته وأصحابه ، فهاجر إلى بيثة صالحة مستعدة ، هداه الله إليها ، فهدى به ، وأظهر دينه على الدين كله .

هذا المعنى الذي تناولته في مقالتي السابق يثير في نفسي معنى طالما رددته ورويت فيه ، هو أن هذا القرآن يعطى كل ذي اختصاص في ناحية من الواحي العقلي دليلا يناسبه على إعجازه وسموه وركوبه من عند الله جل جلاله ، ومن ذلك أنه يتحدث عن النفوس البشرية في كثير من آياته حديث الخبير بها ، العارف بدقائقها وما تنطوي عليه ، وكثيراً ما أمر ببعض هذه المواطن فيه فأقف

عندها موقف المأخوذ بما لها من روعة وجلال ، إذ أرى فيها تحليلات نفسية قوية لا يطمع المشغولون بالفلسفة وعلم النفس أن يصلوا إلى مداها مهما توغلوا في البحث ، وصوبوا وصعدوا في آفاق النظر .

ولنصرب لذلك مثلاً من الآية التي جرّت إلى هذا الحديث وما اتصل بها من الآيات في أول سورة البقرة . ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين ، فقد قررت أولاً منزلة الكتاب الكريم بهذه العبارة الموجزة التي يصرب بها البلغاء المثل في القوة ، ويتخذونها مثلاً لما تفيد الإشارة والتعريف باللام من التعظيم والتعظيم والقصر ، ثم نفت عنه الريب بهذا الأسلوب المقيد للعموم حيث أنت بالنتيجة في سياق التقي : ثم أثبتت بعد تعظيمه وتخصيمه ونفي جميع ألوان الريب والشك عنه هذه الحقيقة التي كانت موضع بحثنا في المقال السابق ، ثم جاءت بعد هذا الإجمال بالصفات التي تطوى عليها كله ، المتقين ، فقالت : الذين يؤمنون بالغيب ، ويقومون الصلاة ، وعما رزقناهم ينفقون ، والذين يؤمنون بما أنزل إليك ، وما أنزل من قبلك ، وبالأخرة هم يوقنون ، أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون .

أما تدنا هذه الآيات في وصف المتقين حسن صفات :

الوصف الأول الإيمان بالغيب ، والناس في هذه الحاجة ليسوا سواء ، فمنهم من قر في نفسه أن الحياة هي ما يراه ويشاهده ويعرض كل حين من المحسّات والمبصرات ، فتراه لا يؤمن إلا بما يحسه أو يصل إليه من طريق من طرقت العلم المادى ، ومهم من يعلم أنه وما يبصر وما يفعل ذرة من ذرات هذا الكون العظيم الذى غاب عنه أكثره ، وأن وراء هذا الكون ما لا يعلم إلا الله ، فهو يقف عند حده ولا يعتر بما يعلمه ، ولا يتأني على الاقرار بضعفه وعجزه وقصوره وحاجته إلى اللجوء إلى القوة القاهرة الخفية التي تسيطر عليه وعلى كل ما في العالم ، والتي تجري في أحكامها وتصاريحها على سنن يعلم بعضها ويجهل أكثرها .

فأما الصنف الأول ، فإنه يتأني عن هداية القرآن ، لا ينتفع بها ، ولا تعمل فيه ، لأن هداية القرآن تستلزم الإيمان برب القرآن ، وبأنه أوحى إلى عبده ما أوحى ، وبأن هذا الوحي كان صلة خاصة بين ملك سماوى وبشر أرضى

يأذن الله ، وعلى سنة منه ، وكل هذا غيب ، وهو لا يؤمن بالغيب ، وأما الصنف الثاني فهو إنسان الفطرة الذى يرى نفسه فى كل حال موضعاً لتأثيرات خارجية عنه ، فلا هى من نفسه ، ولا هى من بنى جفسه ، تأثيرات خفية تخيفه أحياناً ، وترجيه أحياناً ، وتضعفه أحياناً ، وتقويه أحياناً ، ويرى نفسه يأخذ بكل ما يقع عليه فكره من أسباب فى ناحية من النواحي ، ومع ذلك لا يصل إلى الغاية التى تطلع إليها وابتغائها ، إما لأن أسباباً أخرى غابت عنه ، وإما لأن مانعاً منع وليس فى حسابه ، فهو إذن قاصر ، ووسائله قاصرة ، وعمله محدود ، وقدرته محدودة ، وهو لهذا مؤمن بالغيب ، واثق بأن قوة وراء القوى الظاهرة لا بد أن تكون ، ولا بد أن يؤمن بها ، وذلك هو مبدأ الإيمان بالغيب ، وذلك هو أول شروط الانتفاع بالقرآن ، والنزول على حكم القرآن .

الوصف الثانى : إقامة الصلاة ، والإيمان بالغيب لا يستلزم إقامة الصلاة ، فإن الأول علم ، والثانى عمل ، وكثيراً ما نجد مؤمنين بالله معترفين بالغيب لا يقيمون الصلاة ، وإقامة الصلاة شرط من شروط الانتفاع بهدى القرآن ، ذلك أن طبيعة الإنسان هى النسيان والصلاة تذكير ، فال مداومة عليها من شأنها أن تقطع الجفوة ، وتفتح القلب فى الحين بعد الحين إلى وافدات الهداية ، وخواطر العرفان عن الله كما يقول المتصوفة ، وقد جربنا أن المرء إذا واطب على الاتصال بكبير ذى منزلة فى نفسه ، وهىة فى قلبه ، فهم هم ، وهرف إشاراته ومراميه ، وكان على بينة من روحه ، وما له من توجيهات أو توجيهات ، وأن على العكس من ذلك المنقطع عنه ، البعيد عن مجلسه ، الذى لا ياجبه ولا يلاقيه ، فالعبد المواظب على حضرة مولاه ، الحريص على الوقوف بين يديه كل يوم خمس مرات مضياً لصلاته ، مؤدياً لها على وجهها ، كما يفهم من التعبير بمادة الإقامة ، لا بد أن يكسب من هذه الإقامة ، وتلك المواظبة على الحضرة ، روحاً يجعله أهلاً لأن يفهم وينفع ويستدى .

الوصف الثالث : الإنفاق من الرزق ، وهو لازم لسماحة النفس وما تنطوى عليه من الجود ومحبة البدل

إن البخل والكزازة والحرص على المال والضن به عن مواضعه أماره على فساد الطبع ، وضعف الإيمان ، فأما كون ذلك أماره على فساد الطبع ؛ فلأن المال وسيلة لا غاية ، فإذا انقلب غاية ، وصار جمعه والاحتفاظ به مقصوداً لذاته ، فقد خرج صاحبه بذلك على الفطرة ، وجانب الوصف السليم ، وأما كونه أماره على ضعف الإيمان ؛ فإن المرء لا يكمل إيمانه حتى يكون بما في يده الله أوثق منه بما في يده ، وليس كذلك البخيل .

وكثيراً ما ترى أناساً يصلون ويصومون ويقومون حتى إذا امتحنوا ولو بالقليل في أموالهم ، ليستدوا معروفاً ، أو يؤدوا حقاً ؛ رأيهم يتفنون رموسهم ، وينظرون إلى من يدعوهم إلى ذلك نظر المغشى عليه من الموت

هؤلاء لست أقول قد خرج الإيمان من قلوبهم فإنهم مؤمنون ، وقد يبخل المؤمن ، ولكن أحداً منهم لن يكون مرآة صافية ينعكس عليها نور القرآن ولن يتفتح قلبه لتلقى هدايته كما تتفتح قلوب ذوى السباحة والصفاء ومن هانت عليهم الدنيا .

الوصف الرابع . الإيمان بما أنزل إلى محمد صلى الله عليه وسلم وما أنزل من قبله ، ولا يصل إلى ذلك إلا من خلا قلبه من التمسب والتعجز ، فإن الذي يؤمن ببعض الكتب ويكفر ببعض كالذي يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعض ، والدين عند الله واحد هو الإسلام ، فإما أن يؤمن المرء بالجميع وإما أن يكون كافراً ، وفي هذا بلاغ للدين يزعمون أنهم يهودون في القرآن أو في الكتب السماوية بعض أحكام صالحة للعصر ، موافقة للحضارة والرقى ، وبعض أحكام يزعمونها رجعية هتيفة كالحدود أو تحريم الربا أو ما إلى ذلك مما فتوا في شأنه بما عندهم ، وهم عن أسرار غافلون ، فقل هؤلاء لا تنجلي لهم هداية القرآن ، ولا ينتفعون بها ، لأنهم يحكون فيها ما عندهم ، ولا يحكونها هي فيما عندهم ، فهم بما عندهم مؤمنون ، وبما جاءهم من الله كافرون ، فكيف يرجى لهم النفع ، وينظر منهم الاهتداء ؟ إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم ، أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون .

الوصف الخامس : الإيمان بالآخرة ، وهذه العقيدة هى أجدى شىء على الإنسان من حيث تصفيته وتثيئته للانتفاع بهدى القرآن ، فإن المؤمن بأن وراء هذه الدار داراً يحاسب فيها كل امرئ على ما قدمت يداه ، فن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ، تكون نفسه دائماً مستعدة لتقبل هداية القرآن ، التى كثيراً ما تعتمد على الترغيب والترهيب ، أما الكافر بذلك فإنه يسخر بما يسمع ، ويمتد أنه غير مسئول عما يفعل ، ويقول : « إن هى إلا حياتنا الدنياموت ونحيا وما نحن بمبعوثين » فيحمله ذلك على أن يركب رأسه ، وينادى فى غلوائه ، ويعرض عن كل نصيح ، ويخرج على كل هدى . ولذلك يصفهم الله تعالى بمثل قوله : « إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون . ختم الله على قلوبهم ، وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ، ولم يذهب عنهم » .

أما بعد . فهذا مثال من حديث القرآن عن الفوس ، ووصفه للطبائع البشرية ، ولنا إلى الموضوع عودة إن شاء الله ؟

بين رؤبة وأبى مسلم

قال الاصمعي : حدثني رؤبة قال : دخلت على أبى موسى صاحب الدعوة للعباسيين ، فلما أبصرني نادى يارؤبة ، فأجبت :

ليك إذا دعوتى ليكا أحمد وما ساقى إلিকা

الحمد والمنة فى يدىكا

قال : بل فى يدى الله تعالى ، ثم قلت : يأذن لى أمير المؤمنين فى الإنشاد ؟ قال : نعم ، فأنشدته :

ما زال يأتى الملك فى أقطاره وعن يمينه وعن يساره
مسعراً لا يصطلى بباره حتى أقر الملك فى قراره

فقال : يارؤبة إنك أتيتنا وقد شف المال ، واستفده الإنفاق ، وقد أمرنا لك بجائزة ، وهى تافهة يسيرة ، ومك المود وعلينا الممول .

القرآن كتاب جامع شامل

لفضيلة الأستاذ الشيخ فكري ياسين

أخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم عن ابن مسعود قال : « أنزل في هذا القرآن كل علم ، وبتين فيه كل شيء ، ولكن علما يقصر عن إدراك ما بتين لنا في القرآن » .

مهما كسب الكتّابون ، وأجاد المنشرون ، وأبدع المؤلفون ، وأحسن الباحثون ، وأكثروا من الحديث عن القرآن ، وبيان أسرارهِ ومقاصده ، واستنباط أحكامهِ وحكمهِ ، وإظهار مبادئهِ وتعاليمهِ ، والكشف عن فضائلهِ ومحاسنهِ ، فإنهم لن يبلغوا شأوَ السنة في هذا المضمار ، ولن يصلوا ما جاءت به من فرائد وآيات ، أو على الأقل لن يخرجوا عما رسمته من مناهج ، وأوصفت من معالم ، وعبدته من طرق ، وأوحى به من توجيهات ، وأرشدت إليه من موضوعات .

أجل ، فلقد تناولت الكلام عليه من كل نواحيهِ ، وعالجته من جميع أطرافهِ ، ولم تترك دقيقة ولا جلية إلا ألمت بها ، أو دلت عليها ، أو أشارت إليها .

ومن أول ما تمحدثت به السنة عن القرآن تبيان أنه كتاب سماوي جامع ، وسفر إلهي شامل ، وأنه لم يعادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، ولم يدع سرا ولا حكما إلا صرح به ، أو رمز إليه .

نعم وإن كان هذا كله قد يكون معلوما من مثل قوله تعالى : « وأنزلنا إليك الكتاب تبيانا لكل شيء » ، وقوله : « ما فرطنا في الكتاب من شيء » ،

ومن الأمر بالسؤال عما لا نعلم في قوله : « فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ، إلا أن السنة قد زادت ذلك بياناً ، وأرسمته إيضاحاً ، ووفته حقه من الشرح والتفسير .

ومن أجمع ما جاء في السنة مقرراً لذلك ، ونافلاً به ، ما أخرجه الترمذى وغيره عن عليّ رضي الله عنه قال : « سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ستكون فتن كقطع الليل المظلم ، قلت : يا رسول الله ، وما المخرج منها ؟ قال : كتاب الله تبارك وتعالى ، فيه نبأ من قبلكم ، وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم ، هو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله ، هو حبل الله المتين ، ونوره المبين ، والذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، هو الذي لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، ولا تشعب منه الآراء ، ولا يشج منه العلماء ، ولا يملكه الاغنياء ، ولا يحلق على كثرة الرد ، ولا تنقضي عجائبه ، هو الذي لم تنته الجن إذا سمعته أن قالوا . إنا سمعنا قرآناً عجبا ، من هلم عليه سبق ، ومن قال به صدق ، ومن حكم به عدل ، ومن عمل به أجر ، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم » (١) .

وما أخرجه أبو بكر محمد بن القاسم عن عبد الله بن مسعود ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن هذا القرآن مادة الله ، فتعلموا من مادته ما استطعتم ، وذلك أن المآدب العامرة الفاخرة ، تجمع في العادة شتى أنواع الاطعمة ، ومختلف الألوان والاصناف ، ويجد فيها الآكل ما يريد ويشتهي ، فشبه الحديث الشريف القرآن الكريم بصنيع صنعه الله عز وجل للناس ، لهم فيه خير ومنافع ، ومصالح وفوائد ، ثم دعاهم إليه .

وقد ورد غير هذا كثير من الأحاديث والآثار ، وكلها تؤيد ما ذكرناه ،

(١) في سند هذا الحديث الحارث بن عبد الله ، وقد قال عنه القرطبي : « رماه الصفي بالكذب ، وليس بشيء » ، ولم يبين من الحارث كذب ، وإنما نعم عليه إمرأته في حب علي ، وتفضيله له على غيره ، ومن هاهنا — والله أعلم — كذبه الصفي ، لأن الصفي يذهب إلى تفضيل أبي بكر ، وإلى أنه أول من أسلم ، وقال أبو عمر بن عبد البر : « وأظن الصفي عوقب لقوله في الحارث الهمداني : صدق الحارث ، وكان أحد الكفايين » .

وتشهد له ، ومن ثم كثرت عبارات العلماء في هذا المعنى ، وتعددت أقوالهم عنه ، وإن اختلفت صيغها باختلافهم في المشارب والمآزغ ، فقد قال الشافعي :
« جميع ما حكم به النبي صلى الله عليه وسلم ، فهو بما فهمه من القرآن » .

وقال غيره : « جمع القرآن علوم الأولين والآخرين ، بحيث لم يحيط بها علما حقيقة إلا المتكلم به ، ثم رسول الله صلى الله عليه وسلم خلا ما استأثر به سبحانه ، ثم ورثه عنه معظم ذلك سادات الصحابة رضى الله عنهم وأعلامهم ، مثل الخلفاء الأربعة ، ومثل ابن مسعود وابن عباس رضى الله عنهما ، حتى لقد قال : لو ضاع لى هلال بدير ، لوجدته في كتاب الله تعالى ، ثم ورث عنهم التابعون بإحسان ، ثم تهاصرت لهم ، وفترت المزائم ، وتضائل أهل العلم ، وضعفوا عن حمل ما حمله الصحابة والتابعون من علومه وسائر فنونه » .

وقال آخر : « ما من شيء إلا يمكن استخراجُه من القرآن ، لمن فهمه الله تعالى ، حتى إن البعض قد استنبط أن عمره صلى الله عليه وسلم ثلاث وستون سنة من قوله سبحانه في سورة المنافقين : « ولن يؤخر الله نصراً إذا جاء أجلها » ، فإنها رأس ثلاث وستين سورة ، وعقبها بالثعابين ، ليظهر الثعابين في فقده بنفس ذلك النبي صلى الله عليه وسلم » .

فهذا كله يدل على مقدار ما يشتمل عليه القرآن الكريم من علوم وفنون ، وغايات وأهداف ، وينبئ بأن عجزنا عن الإحاطة بها ، والوقوف على تفصيلاتها ، واستخراجها من مواضعها ، إنما يرجع إلى تقصيرنا في الوسائل العلمية الصحيحة الموصلة إلى معرفتها ، وإلى الفتور في العلم والمزائم ، والقصور في المداوك والأنهام ، لا إلى خلو القرآن الكريم ، وتجرده من تلك المعاني والأغراض .

ومما تحدثت به السنة عن القرآن أيضاً ، إخبارها بأنه مؤيد للكشف السالفة ، ومصدق لما جاء فيها ، أورد ابن أبي حاتم من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى : « ومبيننا عليه » ، قال : « القرآن أمين على كل كتاب كان قبله » .

فإن توجيه هذا الكلام أن القرآن قد تضمن تصديق جميع ما أنزل قبله ، لأن الأحكام التي فيه ، إما مقررة لما سبق ، وإما ناسخة - وذلك يستدعي إثبات المنسوخ - وإما مجدة ، وكل ذلك دال على تفضيل المجدد .

ويقيد هذا ما جاء في سورة المائدة من قوله تعالى : « وأزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ، ومهيئنا عليه » ، فقد قالوا في بيان معنى تصديقه للكتب السابقة عليه : إنه نزل حسيبا نعمت فيها ، أو نزل مطابقا لها في أصل الملة والدين ، أو مطابقا لما لم ينسخ ، كالتقصص والمواظ ، وبعض المحرمات ، كالكذب والزنا والربا ، أو نزل موافقا لجميع ما فيها ، والمخالفة في بعض جزئيات الأحكام ليست بمخالفة في الحقيقة ، بل هي موافقة لها من حيث إن كلا منها حق في عصره ، متضمن للحكمة التي يدور عليها فلك التشريع ، وليس في الكتب السابقة ما يدل على أبدية أحكامها المنسوخة ، حتى يخالفها ما ينسخها ، بل إن نطقها بصحة القرآن الناسخ لها يطق بنسخها ، وانتهاء وقتها الذي شرعت للصلحة فيه .

وليس هذا من البداه في شيء ، فإن المخالفة في تلك الأحكام المنسوخة إنما هو اختلاف عصر وزمان ، حتى لو تأخر نزول المتقدم لنزل على وفق المتقدم ، ولو تقدم نزول المتأخر لوافق المتقدم ، وإلى ذلك يشير ما أخرجه الإمام أحمد وغيره عن جابر أنه صلى الله عليه وسلم قال حين قرأ بين يديه عمر بن الخطاب رضي الله عنه شيئا من التوراة : « لو كان موسى حيا لما وسعه إلا اتباعي » ، وجاء في رواية الدارمي : « والذي نفس محمد بيده لو بدا لكم موسى فاتبعتموه وتركتموني لصلتم عن سواء السبيل ، ولو كان حيا ، وأدرك نبوتي لآتينني » .

وقالوا في بيان معنى هيمنة القرآن على ما قبله من الكتب : إنه رقيب على سائر الكتب السماوية المحفوظة عن التعيير ، حيث يشهد لها بالصحة والنبات ، ويقرر أصول شرائعها ، وما يتأبد من فروعها ، ويبين أحكامها المنسوخة ، وقيل : إنه شاهد عليها بأنه الحق ، أو إنه حافظ لها ، ومؤتمن عليها ، كما قال سعيد ابن جبير : « القرآن مؤتمن على ما قبله من الكتب » .

وهل أى حال ، خلاصة ما قيل فى بيان هذين المعينين : أن الذى يؤخذ منهما فى الجملة هو موافقة ما أفادته السنة فى أخبارها الكثيرة من تأييد القرآن للكتب السابقة ، وتصديقه لها ، وتقريره أو تعديله ، أو تعديده لأحكامها ، كما سلفت الإشارة إليه .

• • •

ومن حديث السنة عن القرآن كذلك ما جاء فيها شرحاً لمعناه ، وتفسيراً لنصوصه ، وتأكيذاً لمحكمه ، وتوضيحاً لمشكله ، وبسطاً لمختصره ، وتخصيصاً لعامة ، وتقييداً لخاصة . وتبييناً لما أجمل فيه من الأحكام ، كالصلاة والزكاة والحج والصوم والطهارات والذبايح والاسكحة ، وما يتعلق بها من الطلاق والرجعة والظهار والعان وغير ذلك ، وهذا كيان موافقت الصلاة وركوعها وسجودها ، وسائر أحكامها ، وبيان مقادير الزكاة وأوقاتها ، ونُصَب الأموال المزكاة ، وتعيين ما يركى وما لا يركى منها ، وبيان انتهاء أمد الحكم الأول ، وهو الفسخ . وكالبيان بطريق الإلحاق والقياس ، والتفريع على القواعد العامة ، وبيان الحكم الزائد على الكتاب ، كتحريم نكاح المرأة على عمتها وخالتها ، والحكم بالشاهد واليمين . وغير ذلك مما لو رُحنا نستوعبه ونستوفيه ، ونستعرض قصاياه ومثاله ، ونستكمل نصوصه وأمثله ، لطلال بنا القول ، وأعيانا الاستقصاء ، ومما تركه هنا للسلام عليه فى مواضعه إن شاء الله تعالى .

وعلى الجملة ، فقد توافرت أحاديث السنة عن الكتاب ، وامتدت إلى موضوعات كثيرة غير هذا ، كنزول القرآن وكيفية إزاله ، وأول وآخر ما نزل منه ، واللسان الذى نزل به ، والأحرف التى نزل عليها ، وجمعه وترتيبه ، وكتابه وقرآئه ، وتعليمه وتعلمه ، وفضله على سائر الكلام ، وحفظه واستظهاره ، وتعمده واستدكاره ، وترتيبه وترجيحه ، وتحسين الصوت بتلاوته ، وخشية الله عند قراءته ، والرياء فيها ، والتأكل بها ، وما إلى ذلك مما هو موضوع لكثير من العلوم والفنون ، ومادة لطائفة من البحوث والدراسات ، ومما سيكون محلاً لمحاولاتنا المقبلة فى الفصول الآتية بحول الله وتوفيقه .

لغويات

لفظيد الأستاذ الشيخ محمد علي النجار

احتاج محمد كتاباً ،

يشيع هذا الاستعمال ، ولا يرى مستعملوه ضيقاً ولا حرجاً ، ولا يخالج بعضهم شك في صحته في العربية . وهو بجانب لما درج عليه الاستعمال العربي متابذله . فقد جرى العرب على أن يمدى ما صيغ من الحاجة بالحرف ، فيقال : احتاج محمد إلى كتاب ، وفي حاجة إلى كتاب . وفي الأساس : لا أحوجنى الله إلى فلان . وهذه حاجتي ، أي ما أحتاج إليه وأطلبه .

وهذا الخطأ قديم ، فقد قال^(١) ابن عيين ، وهو من شعراء الدولة الأيوبية ، وقد توفي سنة ٦٣٠ :

أنظر إلى بعين مولى لم يزل يولى الدي ، وتلاف قبل تلاف
أنا كالذي : أحتاج ما يحتاجه فاغتم ثوابي والثاء الوافي
وقوله : « ثوابي ، أي الثواب من الله الذي يلحقك بإغاثتي . وفي بعض روايات الديوان :

فاغتم ثأبي والدعاء الوافي

وقوله : « تلافى ، يريد تلقى » ولم أقف على التلافى في التلف فيما رأيت من المعاجم ، وكأنما مد ابن عيين لأم التلف وأشيع حركتها ، لجاء التلاف ؛ ويشفع له في ذلك موقف الشعر ، ورغبته في التجنيس الذي كان كغيره من البديع يصور إليه كل شاعر وكاتب في ذلك العصر . ولم يأت ابن هنين في ذلك بدعاً من الاسم ؛ فقد قال ابن هرمة من قبله :

وأنت من الفوائل حين ترمى ومن ذم الرجال بمنزاج

(١) أنظر ديوانه ٩٢ ، وروايات ابن حلكان في ترجمة الملك المظفر عيسى في أواخر حرف العين .

يريد بمنزج ؛ وقال الراجز القديم :

قلت - وقد حرت على الكلكال : يا ناقى أما جلت من مجال

يريد الكلكل ، وهو صدر الدابة .

وليبني ان عنين قصة طريفة أحببت إبرادها . فقد كان أنيراً عند الملك المعظم هبى ابن الملك العادل من ملوك الدولة الأيوبية ، وكان ملازماً له ، فاقطع عنه مدة لمرضه ، وكتب إليه بهذين البيتين ، وكان الجواب على هذا أن عاده الملك المعظم ، وأعطاه صرة فيها ثلاثمائة دينار ، وقال : هذه الصلة ، وأما العائد . قال ابن خلكان ، وقد أورد هذه القصة في ترجمة الملك المعظم هبى . . وهذه لو وقعت لأكابر النحاة ومن هو في ممارسته طول عمره لاستعظم ذلك منه ، لاسيما هذا الملك . . وكان من شدة ابن عنين أن يدخل في شعره الاصطلاح النحوى ويستعمل معانيه ، وقال ابن هشام في شرح القطر في مبحث وجوب تأخر إن وأحواتها على اسمها : . وما أحسن قول ابن عنين يشكو تأخره :

كأنى من أخبار إن ، ولم يحز له أحد في النحو أن يتقدما

وأعود لما كنت فيه من بحث ، فأقول . إن لابن عنين سلفاً قريباً منه هو يوسف بن محمد البلوتى صاحب كتاب ألف باء ، وقد طبع هذا الكتاب . وهذا البلوتى أخذ عن السهيلي المتوفى سنة ٥٨٩ ، وعن ابن الفخار ، ورحل إلى المشرق وأخذ عن علمائه ؛ فأخذ عن الحافظ السائق بسكندرية ، وغزا مع صلاح الدين الأيوبي في الشام ، وتوفى في رمضان سنة ٦٠٤ . وترجم له ابن الأبار في التكملة . وترجمته في النسخة المطبوعة تحت الرقم ٢٠٨٩ . وقد عنيت بإيراد تاريخ وفاته إذ خلا منه مضافات هذا التاريخ ؛ ككشف الظنون .

فقد تحدث عن كتابه ألف باء ، وذكر محتوياته ، ولم يعرض لتاريخ وفاته وكذلك فهرس دار الكتب المصرية . وفي معجم المطبوعات العربية لسركيس : . قيل : توفى سنة ٥٧٦ ، وتراه يأتي بهذا القول على جهة الشك والتردد ولا يذكر المراجع على عاده .

وأعود فأقول : إن البلوى قال في « ألف باء »^(١) :

خرجت من شيء إلى غيره وكله علم وقول مسديد
يحتاجه القارىء والسامع : الكل منهم راغب في المزيد
وتراء يستعمل « الكل » بأل ، وفي هذا الاستعمال مجال للقول والنقد : فإن
« كلا » مما يلزم الإضافة إن لم يكن في اللفظ في التقدير . وبعد ، فقد يذهب
ذاهب إلى التضمن في هذه المادة ، وحديث عن المهج العربي ، وللتضمن
بحث آخر .

(المستقيمون يحيون حيوات شريفة)

مكدا يستعمل المصريون جمع الحياة . وما وقفت على جمعها في القديم .
وقد تكرر ذكر الحياة في الكتاب العزيز في صيغة الأفراد ، ولم تجاوزه أبته .
وذلك أنها مصدر ، وسنة العرب الغالبة تجنب جمع المصدر : إذ كان كاسم الجنس
يقع على القليل والكثير من الأحداث ، تقول : قام محمد ، أي حدث منه قيام ،
وهذا يشمل القومة والقومتين ، وما جاوز ذلك . كما تشاء . قال ابن جني في اللع :
« المصدر لا يثنى ولا يجمع » : من قبل أنه بلفظه يدل على قليله وكثيره ، فأشبهه
من هذا أسماء الأجناس : كالماء والزيت . فكما لا يثنى ولا يجمع أسماء الأجناس
فكذلك المصدر . فإن احتلت أوعاءه جاز تثنيته وجمعه ، بأن يكون صرب أشد
من ضرب .

هل أنه قد ورد عن العرب جمع المصدر : فمن ذلك قول الأعشى .

قد جربوه فما زادت تجارتهم أباً قدامة إلا المجد والفتنا

فقرأ قد جمع التجربة ، ومنه قول الله تعالى . في سورة الأحزاب : وتظنون
بأنه الظنون . وقد سوغ جمع الظن تعدد متعلقاته : قال أبو حيان^(٢) في البحر :
« والظنون جمع لما اختلفت متعلقاته ، وإن كان لا ينقاس عند سيوئه جمع المصدر

(١) ج ٢ ص ٦٥

(٢) ج ٧ ص ٢١٦ .

إذا اختلفت متعلقاته ، وينقاس عند غيره . وقد جاء الظنون جمعا في أشعارهم :
أنشد أبو عمرو في كتاب الألفان :

إذا الجموزاء أردفت الثريا ظنت بآل فاطمة الظنونا
وقد ذكر في اللسان أن الظن يكون اسما ومصدرا ، وأن الذي جمع في الآية
الاسم . والفرق بين الاسم والمصدر فيما اتحدت صيغته عسير .

وأيا ما كان الأمر فقد يدعو الحال إلى جمع الحياة لتعدد أوعاها ، وهناك
وراء هذا ما يدعو لجمع ، حياة ، وهو أن نجعل علماء وهذا جار الآن ، يستعمل
اسما للأنثى . وهذا يجوز جمعه من غير تكثير من أحد من النحاة .

وقد جرى البحث في صيغتها في الجمع ، فهل يقال : الحيوانات كما جرى به
الاستعمال المصري ؟ أو يقال الحيات يباين ؟

إن تركيب الحياة هو . ح ي ي . أى إن العين واللام ياء . فالألف في الحياة
مبدلة من الباء ، ومقتضى هذا أن ترد إلى أصلها في الجمع ، فيقال : الحيات ؛
كما يقال : الفتيات والحصيات ومن هذا ما أتت الحاجة إلى الظرف في الصيغة
المصرية : ، الحيوانات . .

وأقدم بين يدي البحث في هذا الأمر أن العرب قالت : ، الحيوان . في الحياة
وذي الحياة : فيرى الخليل وسيبويه أن الواو بدل من الياء استكراها لتوالي
اليامين : ويقول - سيبويه في الكتاب (١) : ، وأما قولهم حيوان فإنهم كرهوا أن
تكون الياء الأولى ساكنة ، ولم يكونوا يلزموها الحركة وهنا والآخرى غير معثلة
من موضعها ، فأبدلوا الواو ليختلف الحرفان : كما أبدلوا في رحوى حيث كرهوا
الياءات ، فصارت الأولى على الأصل ، يريد سيبويه أن ، الحيوان ، لو سكنت
الياء الأولى لطلق بالحرفين على الإدغام . ، حيان ، وكان ذلك عذبا في النطق ،
مستساغا ، ولكن لا يدين لنا هذا التفسير : فإن الحيوان مصدر قصد به الدلالة
على الحركة والاضطراب كالغليان والنزوان والخفقان ، وقصد أن تظهر الحركة

في اللفظ ، ولما لم يكن سبيل إلى الإدغام كان النطق بالياء متحركين فيه استئصال ما ، فتجنب العرب هذا بقلب الياء الثانية وأرأ قراراً من توالي مثلين ، كما قيل رحوى وأصله رحي ، ولما جرى الإبدال في الثانية بقيت الأولى على الأصل . وهذا تعليل من سيدييه للشذوذ الذي وقع من العرب في هذه الكلمة . ولم تطلب نفس المارفي بهذا الشذوذ والتكاف له ، فهو يرى أن الحيوان ليس من تركيب رحي ، بل هو من تركيب رحي و ، قالوا وفي الحيوان أصيلة غير مبدلة . وقد رد عليه مذهبه بأن التركيب رحي و ، لم يأت منه فعل ، فيقول في رد هذا : كم من لفظ لم يرد له فعل ؛ ألا ترى أنهم يقولون : فاطم الميت ، يفيض ، فيظأ ، وقالوا أيضاً : فوظأ ، ولم يرد فعل لهذا الأخير ، فلم يقولوا : فاطم ، يفوظ .

وأقول بعد هذا : إن الاختلاف في « الحيوان » لم نعهده في « الحياة » ، فسكانهم يجمعون على أن لامي ياء . وإذا دعا الأمر إلى تحريك هذه الألف في « الحياة » فهل لنا أن تأتى بالواو قراراً من توالي المثلين كما قيل في الحيوان ، فيقال : الحيوانات .

هذا ، وقد علمت أن إبدال الياء واوا في الحيوان عند الخليل وسيدييه شاذ لا ينقاس . ولتأمل أن يقول : إن الشذوذ يؤنس بالشذوذ ، فالشذوذ في الحيوان يقرب الشذوذ في الحيوانات . والتأخر في اللسان تعرصه هذه العبارة : « الحياة » نقيض الموت : كنت في المصحف بالواو ، ليعلم أن الواو بعد الياء في حدّ الجمع ، فإذا يفهم القارئ من هذا الكلام ؟ أليس يحق له أن يفهم أن الحياة إذا جمعت كانت الواو فيها بعد الياء أى يقال فيها الحيوانات ، وأن اللغويين لم يضعوا هذا إلا بعد أن وقفوا في كلام العرب على هذا الجمع للحياة .

ونرى في اللسان أيضاً النص الآتي . ، وحكى ابن جني عن قطرب أن أهل اليمن يقولون . الحيوة ، بواو قبلها فتحة ، ، انكون محطتين وجه الحق إذا أخذنا من هذا أن لام الحياة واو عند هؤلاء اليمنيين ، وإذا فاجع عندهم حيوات ، ألبتة .

وهذا يصحح الحيوانات في الاستعمال المعصرى .

وورد في شعر مالك بن الحارث الهذلي قوله :^(١)

إذا خلقت باطنى سرار و بطن مضاض حيث غدا صباح
تركت صديقنا ، و بليت أرضاً بها هذر لفسى أو بحاح
فلا ينجو نجاتي ثم حى من الحيوانات ، ليس له جناح

فترى فيه الحيوانات ، و طاهر أمرها أنها جمع الحياة ، و كأن الكلام على حذف المضاف ، أى من ذوى الحيوانات ، و النجاء . الإمراع فى السير و العدو ، يريد أنه لا يبلغ مبلغه فى العدو حى من ذوى الحياة ليس له جناح ، يستثنى بذلك الطائر ذا الجناح ، فهو لا يزعم أنه يسبقه . ولكن السكرى فى شرحه يقول :
« من اليبوات و الحيوان ، أى لا ينجو نجاتي حى فيه الروح ليس له جناح ، أى ليس يطير . و من الأحياء . أى لا يعدو عدوى شيء فيه روح يومئذ .

و الحيوانات : جمع الحية أى ليسوا بأموات ، فهو يرى أن الحيوانات جمع حية و كأنه يريد نفساً حية . فيشمل المذكور . على أن هذا الجمع لم يأت على لفظ واحد ، ولو أتى على لفظه لقليل : حيات . ولا أرى حرجاً فى حمل « الحيوانات ، فى البيت على أن يكون جمعاً للحياة على ما أسلفت . وعلى هذا يصح لنا الحيوانات .

وبما يؤنس لهذا ما جاء فى القاموس أن جمع الحية للثعبان : حيات و حيوات فترام قبلوا ياء حية الثانية فى الجمع و أوأ حين أرادوا تحريك الياءين ، و هذا يرشدنا إلى أن العرب ترفض فى هذه المادة اجتماع الياءين متحركين .

ويخرج القارىء من هذا ، و كأنى به قد اقتنع بصحة الجمع :
« الحيوانات ،

(١) أنظر شرح أشعار الهدلين المطبوع فى أوروبا فى أول الجزء الأول .

العلاقة بينه سلامه والنصرانية

امام ساد سالم احمد الرشيدى

استاذ فى التاريخ الإسلامى

[سلطان عثمانى يدعو بابا

روما إلى اعتناق النصرانية]

— ٢ —

لم تخف على السلطان الفاتح هذه الحركات والمؤامرات وما يدبره أعداؤه فى الشرق والغرب للقضاء عليه وعلى دولته ، وأدرك ضرورة الإسراع فى العمل قبل أن يطبق عليه أعداؤه من هنا وهناك ، فأمر انتهى من فتح بلاد المورة حتى أهد فى ربيع سنة ٨٦٥ هـ (١٤٦٩ م) جيشاً جديداً فى القسطنطينية وجيشاً آخر فى بروسه وأسطولا قوياً يتألف من نحو مئتي سفينة ، وزحف لنوره إلى « أماحره » وأطبق عليها من البر والبحر ، وأخذت هذه المدينة على غرة فلم تجد مناصاً من الاستسلام لم تغن عنها قلاعها وعددها شيئاً ، وواصل الفاتح سيره بعد ذلك إلى سينوب ، ولم يحاول أميرها اسماعيل اسفنديا مدافعة العثمانيين ومقاتلتهم ، فقد استيقظ فى نفسه ضميره الإسلامى وكرر عليه أن يعالى الأجانب على سلطان مسلم لا يبي عن الغزو والجهاد فى سبيل الله ، فأثر الاستسلام للفاتح وسلم له بلاده بغير قتال ، وأمرع السلطان الفاتح إلى ديار بكر وأخذ أميرها أوزون حسن على غرة ، فاستحوذ عليه الفزع والذعر ورأى أن لا قبل له بمفرده بمقاتلة السلطان الفاتح ، فبعث إليه أمه ساره خاتون مع بعض كبار رجال دولته يطلب الصلح ، وقبل الفاتح ما عرضته أوزون حسن على أن يكف عن مناصرة أنبراطور طرابزون ، وعن الاغارة على الحدود العثمانية . ولم يسع الانبراطور

داوود بعد أن قصى على حلفائه الأقربين إلا أن يستسلم صاغراً للسلطان الفاتح الذى نفاه وأهله إلى أدرنه .

ومكثدا قصى السلطان الفاتح بما أظهر من نفاذ البصيرة وقوة المزيمة وسرعة الحركة ، على تلك المخالفة الكبرى التى دبرت للقضاء عليه وهلى دولته ، وقد كانت هذه المخالفة معقد آمال واسعة عريضة للشركين فيها لاسيما انبراطور طرابزون واوزون حسن والبابا . أما انبراطور طرابزون رأس هذه المؤامرة فقد كان يؤمل أن يبنى على انقراض الدولة العثمانية دولة بوزنطية عظيمة كذلك التى كانت فى عهد جستنيان ؛ واوزون حسن ذلك الأمير التركمانى الطموح كان يستهدف - بعد القضاء على الدولة العثمانية - أن يقيم مكانها انبراطورية إسلامية كبرى فى الشرق تدخل فى حدودها مصر والجزيرة العربية ويتفرد هو بزعامتها ، أما البابا فقد كان يرمى إلى القضاء على هذه الدولة الإسلامية الفتية التى وصلت فتوحاتها إلى شواطئ بحر الادرياتيک وأصبحت تنهفز للوثوب على إيطاليا نفسها ويوطد أقدام الكاثوليكية فى هذه البلاد الشاسعة .

هذه هى الآمال ، أو بعض الآمال التى كانت تحتاج رؤوس بعض هؤلاء المتآمرين فأين هم الآن عما قدروا وأملوا ؟

أما الإنبرطور داود فقد سبق أسيراً إلى أدرنه ليعيش فيها مع أهله ودوى قرياه ، وأن كانت نفسه لا تزال نجيش ببعض الآمال وتترقب الفرصة المواتية .

أما أوزون حسن فقد أكره على قبول ذلك الصلح لإكراهها وقبله على مضاء ومراة وأن تظاهر بعكس ذلك ، ولم يلبث بعد ذلك أن اشترك فى حلف نصرائى جديد ضد الدولة العثمانية .

أما البابوية فقد كان لها موقف آخر بعد هذه المزيمة . وكان على كرسي البابوية حينذاك البابا ، باى ، الثانى ، وكان إلى جانب حماسه الدينى الشديد رجلاً واسع المعرفة والاطلاع ، واسع الخبرة والتجربة ، قد جاب كثيراً من بلدان أوربا قبل توليه البابوية ، وشغل كثيراً من المناصب المدنية والدينية ، وقد آلمه فشل الحملات

الصليبية العديدة التي شنتها البابوية على الدولة الأمانية ، وآله تخاذل ملوك النصارى في كثير من الأحيان واشتغالهم بمصالحهم الخاصة ، ثم بداله ، رأى فريد لم يخطر ببال أحد من البابوات قبله :

«دسمع د باى ، الثانى كثيراً عن تسامح السلطان محمد بن الفاتح في الدين فلم يكره أحداً على اعتناق الإسلام ، وسمع كثيراً من مجالسه مع بطريرك القسطنطينية ومناظراته معه في شؤون النصرانية ، فلم لا يحاول البابا أن يطرق قلب هذا السلطان ويدعوه بالحسنى إلى اعتناق النصرانية ويرضى في نفس الوقت طموحه إلى المجد والملك بعد أن فشلت جميع وسائل العنف والحرب لقمعه ويكسب بتنصره — وهو ما كان يترقبه البابا — قوة عظيمة ، بل أعظم قوة في العالم كانت في ذلك الوقت ؟

ونفذ البابا «باى» الثانى رأيه فبعث إلى السلطان محمد الفاتح في سنة ١٤٦٣ م . كتاباً طويلاً يدعوه به إلى اعتناق النصرانية قال له فيه : «إذا أردت أن تبسط سيادتك وسلطانك بين النصارى وتضفى على اسمك المجد فإن ذلك في وسعك دون حاجة إلى مال ولا سلاح ولا جند ولا أسطول ، بل إن شيئاً هيناً جداً يستطيع أن يجعل منك أعظم رجل بين العالمين وأشدهم قوة وأوسعهم صيتاً وشهرة .

«ستسألنى ما هذا الشيء ؟ إنه لا صعوبة في وجدانه ولا حاجة إلى الذهاب بعيداً للبحث عنه ، إنه في متناول كل الناس ، إنه قليل من الماء تعتمد به ، فيجملك نصرايها خادماً للإنجيل . فإن فعلت ذلك فلن يسكون على وجه الأرض أمير يستطيع أن يفوقك في المجد ولا أن يضارحك في القوة . إنا سنصحبك إمبراطوراً للروم والشرق وسيصبح ما فتحته من البلاد بالقوة وتمتلكها الآن ظلماً وعدواناً — سيصبح حينئذ حقاً وملكاً شرعياً لك ، وسيجلك جميع النصارى ويختاروك حكاماً فيما يشجر بينهم من خلاف ، ويقصد إليك جميع المظلومين كما يقصدون إلى سامهم المشترك .

ولا ندرى هل أجاب السلطان الفاتح على رسالة البابا هذه ، أو بماذا أجاب ؟ والامر الذى لا شك فيه أنه مضى في طريقه يجاهد في سبيل الله وإعلاء كلمة

الإسلام . ولم يجد البابا «باي» الثاني بعد فشل محاولته بدا من أن يعود إلى الطريقة الأولى ، التي درجت عليها البابوية من قبل ، وهي طريقة الحملات الصليبية .

وكانت الحرب قد اندلعت نيرانها حينذاك بين جمهورية البندقية والدولة العثمانية ، فوجد كل من البابا والبندقية في الآخر الحليف الطبيعي في كفاح العدو المشترك . وجد البابا في إعداد حملة صليبية جديدة إلى الشرق ، وقد أرادها هذه المرة أن تكون حملة فريدة في تاريخ الحملات الصليبية في القوة والروعة والمهابة ، تحدث عنها الاجيال القادمة إلى آخر الزمن ، فكتب إلى رئيس جمهورية البندقية ، ودوق بورغنديا ، يعلنهما أنه سيخرج بنفسه في هذه الحملة وطلب إليهما أن يخرجوا معه ، لأن وجودهم على رأس الجيش الصليبي سيكسب روعة ونظاماً ، ويلقى في نفوس المسلمين الروع والرهبة ، ثم اجتمع بالكرادلة وخطبهم خطبة حماسية ، طلب إليهم فيها أن يصحبوه في الحملة القادمة ، فإن ذلك وحده هو الكفيل بأن يحمل ملوك أوروبا على الخروج والاشتراك فيها ، إذ سينجولون من التخلف والقبوع في ديارهم حينما يرون البابا - وقد هدته الشيوخوخة - وكرادته الموقرين ، قد خرجوا بأنفسهم إلى القتال .

وفي ٢٢ أكتوبر سنة ١٤٦٣ أذاع الباب «باي» الثاني منشوراً حماسياً بليغاً على جميع النصارى دعاهم فيه إلى الحرب المقدسة ضد الأتراك العثمانيين وأعلن إن احتشاد الجيوش سيكون في أنكون (١) Ancone وأنذر بأن صواعق الكنيسة ستزلزل على المتخاذلين والذين يمكرون صفو السلام في الداخل بمحاربة بعضهم بعضاً . ولكي يجمع البابا أكبر قدر ممكن من المال أمر ببيع صكوك الغفران في جميع أرجاء القارة الأوروبية ، وجعل لكل ذنب ثمتاً محدداً ، والصك الكامل لغفران جميع الذنوب كان ثمته عشرين ألف فلورن ، ثم كتب مرة أخرى إلى رئيس البندقية يؤكد له عزمه على الخروج إلى الحرب الصليبية يصحبه الكرادلة والجنود المغاوير الأشداء ، وسيفتح في ذلك كل ما يملك من مال وثروة وسيرافقه في هذه الحملة دوق بورغنديا مع جنوده البواسل الذين يناط بهم النصر ،

(١) مدينة في منتصف إيطاليا على ساحل بحر الأدرياتيک .

يبد أن هذا النصر سيكون أبهى وأتم إذا خرج رئيس البندقية بنفسه مع الجيش النصراني، فإن ما للأمرء والملوك من الجلالة والمجد والفوز تأثيراً كبيراً في نفوس الجنود، كما أن الأسماء الضخمة العظيمة ستلقى الرعب والفرح في نفس العدو الذي سيستخذي ويتطامن أمام شخص دوق بورغنديا وهاباة الكرسي الرسولي فكيف إذا ظهر معهما رئيس البندقية على سفينته الفخمة، بوساتور، وهو في ثيابه الفاخرة؟ إن آسيا كلها إلى الشرق كله سيرتعد خوفاً ورعباً.

وفي ١١ يونيو ١٤٦٤ م أدى البابا د باي، الثاني آخر صلواته في كنيسة الرسل بروما ثم بدأ سيره إلى أنكون ليبحر منها إلى الشرق. وهذه أول مرة في تاريخ البابوية والنصرانية، وآخر مرة أيضاً، يخرج فيها البابا من روما ليتولى قيادة حملة صليبية بنفسه. وقد انتهت البابا عند بدء سفره من روما حمى خفيفة ولكنه لم يحفل بها وطلب إلى أطبائه أن لا يذكروا عن ذلك لأحد شيئاً.

يبد أن هذه الحملة الصليبية رغم ما أحيطت به من الأسماء الالامعة وما أعد لها من الاستعدادات الضخمة لم تؤت الثمرة التي كان يتوقعها البابا د باي. الثاني فقد تفتت روح الفوضى والتفacs بين صفوف الصليبيين، وما لبث أن تشتت جمعهم وانتهى أمرهم بمأساة فاجعة أليمة، واغتم البابا لذلك غماً شديداً، وثارَت به العلل والالقام ورزحت تحت وطأتها القاتلة شيخوخته الذابلة، وأحس الوهن يسرى في جسمه، وشعر بدنو أجله، فدعا إليه جميع الكرادلة لتوديعهم وطلب منهم أن يصلوا لأجله. ومات البابا د باي، الثاني بين أيديهم في ١٤ أغسطس ١٤٦٤.

على أن أثر هذه الحملة لم يقف عند هذا الفشل وهذه المأساة المحزنة، فإنها فوق ذلك قد أشاعت في نفوس النصارى نوطاً من الفئوط واليأس في نجاح أهداد أية حملة صليبية أخرى ضد العثمانيين.

ولم يفت البابا د باي، الثاني قبيل موته، بعد أن تحقق من فشل الحملة التي أهداها أن يعود إلى محاولته الأولى فرجه نداءً آخر إلى السلطان محمد الفاتح دعاه فيه إلى التصبر.

وكان ذلك آخر عمل قام به البابا د باي، الثاني في سبيل النصرانية.

المج

المؤتمر الاسلامى الاكبر

لفضيلة الأستاذ الدكتور محمد يوسف موسى

هذا الحج الذى تكلمنا عنه فى العدد الماضى من الناحية الفلسفية ، وبيننا أنه المؤتمر الذى يجب أن يشهده المسلم مرة واحدة على الأقل فى عمره ، ليتذاكر فيه المسلمون أمورهم العامة ، ويماجروا بعض ما يحسون به من مشاكل — نقول : هذا الحج بالوضع الحاضر للبلاد الإسلامية ، أيسلح حقاً أن يكون مؤتمراً عاماً للمسلمين ينعقد كل عام فى البلاد المقدسة ؟ وهنا أجدنى ، بعد أن رأيت هناك ما رأيت وتحققت ما تحققت ، مضطراً للقول بأنه لا يمكن أن يكون المؤتمر المطلوب .

إن لكل بلد من بلاد الأمة الإسلامية مشاكله الخاصة التى قد لا يستطيع حلها وحده لو ترك لنفسه ، فهو فى حاجة — لهذا — للاستعانة بغيره من البلاد الإسلامية ؛ وإن للعالم الإسلامى كله مشاكله العامة التى لا يمكن فى حلها ، كلها أو بعضها ، الأساليب التى يتبعها الرجال الرسميون فى الحكومات أو الجامعة العربية . لهذا وذاك ، لابد من مؤتمر عام يعمل لعلاج هذه المشاكل على نحو آخر غير ما عرفنا حتى اليوم ، ويشارك فيه ضرب آخر من رجالات الإسلام .

إلا أن ذلك يتطلب منا :

١ — أن تنتشر اللغة العربية وقم جميع العالم الإسلامى .

٢ — أن ينشأ مكتب دائم لهذا المؤتمر فى مكة والمدينة .

٣ — أن تتوفر ، لدى من يقوم على هذا المكتب ، الية الطيبة والإرادة الحازمة لعلاج هذه المشاكل .

١ — إنه من الواضح والبدهي وجوب تعميم اللغة العربية ، حتى تكون اللغة الأولى لكل مسلم من أقصى المغرب إلى أقصى المشرق . وبدون هذا لا يمكن التعامل بين المسلمين والتشاور في كل ما ينوبهم من أمور ومشاكل تستحق النظر والعلاج من المسلمين جميعا . وقد كان مؤلما لي أشد الألم أن أرى بجوارى بالحرم المقدس الأخ المسلم من تركيا أو إيران أو الهند أو الأفغان مثلا ، وأن يحس كلانا العاطفة الطيبة لآخيه والحاجة للتعهد معه ، ثم لا يستطيع إلى ذلك سبيلا ، لجهله العربية .

وهناك في أمثال هذه المناسبات ، تذكر مع الأسف المؤلم والحزن العميق أن الأستاذ الشيخ محمد حسن الأعظمي الباكستاني لم ينجح فيما حاوله وبذل فيه كثيراً من جهده ونشاطه الكبيرين ؛ أعنى الاستعانة بمصر لتعليم العربية ونشرها بالباكستان ، الدعوة التي كان ميلادها أعظم فرح أحسن به العالم الإسلامي في هذه السنوات . لقد اجتمعت لهذا المهم الجليل لجنة عامة كبيرة بدار المجمع للغوى بالقاهرة ، وكنت أحد الأعضاء الذين دعوا لهذا الاجتماع الذي ضم كثيراً من رجالات مصر المعنيين بالشئون الإسلامية العامة ، وكان في مقدمتهم الأستاذ الجليل الدكتور أحمد أمين بك ، وكنت أنتظر الخير الكثير من هذه اللجنة ، ولكن - وما أمراً لكن - كان هذا الاجتماع الأول والآخر !

وفي مكة التقيت بأحد رجالات سوريا ، هو الوزير المفوض بالباكستان ، وهو يكاد يحترق لما يحبه من تحادل المسلمين العرب وهدم هوائيم بتعليم العربية ونشرها بالباكستان . لقد ذكر لي أن الباكستانيين يقولون في مؤتمر عقد في كراتشي هذا العام : لقد سئمنا من مديتنا سنوات طويلة للمسلمين بشأن نشر اللغة العربية عندنا ، وآل لنا الآن أن نستجيب للجهة الأخرى التي تحاول بكل ما لها من قوة أن تجعلنا نتجه للاقتصار على الأوردية أو الانجليزية !

إذاً ، على الجامعة العربية ، على الحكومات الإسلامية ، على العرب المسلمين

على هؤلاء جميعاً واجب مفروض ، هو نشر اللغة العربية في البلاد الإسلامية بكل وسيلة ، وأن يكون ذلك عاجلاً ، وإلا كان من المستحيل أن يتفهم المسلمون في أمورهم ، وأن يكون الحج مؤتمراً عاماً لهم يعالج شئونهم ومشاكلهم العامة .

٢ — ثم يجب أن يحدد كل عام المشاكل المهمة أو العاجلة التي تتطلب الحل ، وأن يقوم كل قادر من رجالات الإسلام بتصبيه في علاجها ووضع حلول لها ؛ وهذا يستلزم طبعاً أن يكون للمؤتمر مكتب دائم بمكة والمدينة ، وبخاصة بالأولى ، لطول إقامة المسلمين بها ، ولأن من المسلمين من يرى أحياناً أن يتمصر على الحج لهذا السبب أو ذاك .

وأول من أول هذه المشاكل استحقاقاً للبحث والعلاج ، إن أمكن أن يقوم هذا المؤتمر ، مشكلة كيف يتم الحج لبيت الله الحرام بمكة المكرمة وزيارة الحرم النبوي الشريف بالمدينة المنورة بأقل ما يمكن من المتاعب والمشاق والتكاليف المالية ؛ فقد والله عانينا من كل هذا هناك ما جعل البعض منا يفتون بأن الحج أصبح غير واجب في هذه الأيام وفي هذه الظروف على كثير جداً من المسلمين . هذه المشكلة التي تتطلب البحث العميق والحل السريع ، نداول كل ما يتصل بالحج من جميع النواحي ؛ وسائل السفر ؛ ورسم الإذن بدخول الحجاز لأداء هذه الفريضة المقدسة ، هذا الرسم الفاحش غير المعقول الذي فرض على الحجاج أدائه ؛ أماكن الإقامة بمكة والمدينة ؛ وسائل الانتقال وبخاصة من جدة للمدينة ، هذا الطريق الذي يحامى - بما فيه من عرבות لا تصلح لنقل الألبسة - في استشهاده كثير من الحجاج والزوار ثم المرافق الصحية التي لا تعرف تلك البلاد لها وجوداً ، أو على الأقل لا تعرف لها وجوداً على وجه يرضى - في أدنى الدرجات - الكرامة الإنسانية .

٣ — وأخيراً ، يجب أن تتوفر لدى حكومات الإسلام ورجالات العرب والمسلمين ، الذين يقوم بهذا المكتب والمؤتمر عليهم ، النية الطيبة في الإصلاح والإرادة الصادقة لنجاح هذا المؤتمر في معالجة مشاكل العالم الإسلامي .

بدون هذا يكون الحج فريضة تسقط عن المسلم بأدائها ، ولكن لا نكون

قد اتخذناه وسيلة لغايات من أرقى الغايات ، وأعظمها أثراً في حياة الإسلام والمسلمين .

وقد يكون من الخير أن أشير هنا إلى أن الأزهريين أنفسهم الذين يحجون كل عام لا يجدون من القائمين على الأمر هناك ما يجب أن يجدوه من تيسير أداء رسالتهم الدينية التي يجب عليهم أدائها في هذه البقاع المقدسة وفي تلك المناسبة الجليلة . بل إن وسائل التعارف بينهم وبين أمثالهم عن بمنون بالتوجيه الديني في موسم الحج تكاد تكون معدومة ، وفي رأي أنه يساعد في علاج هذه الناحية أن يكون هناك اتفاق سابق قبل موسم الحج بين هذه البعثات الدينية ، وبين الرجال الدينيين المشرفين على الحرمين الشريفين بمكة والمدينة ، على نواحي التوجيه ، ووسائله .

هذا ، والله يقول الحق ، وهو يهدي السبيل .

عظمة

كان أهل المدينة قد تاروا على المنصور الخليفة العباسي تحت قيادة محمد بن هبة الله بن الحسن من أهل البيت النبوي ، فقاتلهم المنصور ، وقبض على قائدهم فقتله ، ثم أحضر جعفر بن محمد بن علي بن الحسين فقال : « قد رأيت إطباق أهل المدينة على حربي ، وقد رأيت أن أبعث إليهم من ينور عيونهم ، ويحمر نخلهم . »

فقال له جعفر : يا أمير المؤمنين : إن سليمان أعطى فشكر ، وإن أيوب ابتلى فصبر ، وإن يوسف قدر فقفر ، فافتد بأيهم شئت ، وقد جعلك الله من نسل الذين يصفون ويصفحون .

فقال له المنصور : « إن أحدا لا يعلننا الحلم ، ولا يعرفنا العلم ، وإنما قلت هممت ولم ترفي فعلت ؛ وإنك لتعلم أن قدرتي عليهم تمنعني من الاساءة إليهم . »

نقد الدین ایبکی

لفظیدہ الاسناد السیخ عبد اللہ مصطفیٰ المراغی

مدیر قسم المساجد بوزارة الاوقاف

التاریخ الإسلامی فی العلوم والفنون زاخر زاهر ، عظیم الفوائد ، جلیل العوائد ، ومن أجل الظواهر التي نلفت إليها وننبه الباحثين عليها ؛ تخصص بعض الاسر من المسلمين فی الاشتغال بالعلم والعناية به والنبوع فيه ؛ تلك ظاهرة خلیقة بالنسجیل والتسکیریم لما تدل علیه من شوق أصیل عند المسلمين إلى العلم وإقبالهم علیه وخدمتهم له ، حتی بلغوا فيه القدح المملی والمقام الکریم ، وحسبى أن أشیر هنا إلى أن علوم الدین بفروعها المختلفة من أصول وحديث وتفسیر ، قد هرفت ثلاثة من أسرة واحدة ، کلهم یسمى ابن تیمیة ، وهم جده وابنه وحفیده ، قد تناوبوا فی نسق ، ومضوا علی سبیل واحدة من التخصیل والفضل والتبریز .

فأولهم محمد الدین بن تیمیة ، وهو عبد السلام بن عبد الله ، المولود بمران سنة ٥٩٠ هـ ، وابنه شهاب الدین بن تیمیة وهو عبدة الحلیم بن عبد السلام المولود بمران سنة ٦٢٧ هـ ، وحفیده تقی الدین بن تیمیة وهو أحمد بن عبد الحلیم المولود بمران ٦٩٩ هـ ، ويحدر بالدارسین لأنارهم المظلمین علی أبحاثهم ، أن یلاحظوا ذلك کی یدرکوا ما بین آرائهم من فروق ، وما لکل منهم من انحاء . وكذلك عرف الاسلام بالاندلس مثل ذلك من تعدد العلماء من أسرة واحدة ، فتحن نعرف ابن رشد الجمد وهو فقیه مالکی مقدر مؤلف ، کثیرا ما یصادف القاریء فی کتب المالکیة الإشارة إلى کتابه المسمى بمقدمات ابن رشد ، ثم جاء بعده ابن رشد الفقیه المجتهد والفیلسوف النابعة مفخرة المسلمين وأبو الفللفة الحديثة باعتراف الاوربيين ، وهو معروف عند المؤرخین بابن رشد الحفید تمييزا له عن جده المذكور آنفا .

ومن تتبع هذه الظاهرة الکریمة استطاع أن یحصى من أئانها البارزة کثیرا .

ولسكى معنى هنا بأن أنحدث عن أسرة السبكيين المصرية الأزهرية فإنى أرى لهم من الفضل ما يستوجب نشر ذكركم وتفصيل أخبارهم ومبقتضى ذلك بضع مقالات .
أما إنهم قد دارسوا العلم وخدموا الأزهر وألغوا فى علوم الدين واللغة ،
فذلك ما تشهد به مؤلفاتهم الجليلة الكثيرة التى أمضى الأزهر قروما وهو دارس
لها ، مهتم بها ، يرجع إليها كل أزهري محقق ، وكل عالم باحث فى الفنون التى ألفت
فيها ، واعتبرت بحق مقياس البراعة وآية التحصيل لدارسها . والباقيون من هذه
الأسرة أربعة علماء أجلاء سأزجهم لك تباعا مبتدئا اليوم بأولهم تاريخا الإمام
تقى الدين السبكي والآخرين أبناء وقريب له .

أما تقى الدين فهو : على بن عبد الكافي بن على بن تمام بن يوسف بن موسى السبكي
الملكنى بأبى الحسن الملقب بتقى الدين الفقيه الشافعى المفسر الحافظ الأصولى النحوى
اللغوى المقرئ البيانى الجليل ، ولد سنة ٦٨٣ هجرية بسبك إحدى قرى مديرية المنوفية
بالقطر المصرى ، وقد أظفروه بما سلف من أوصاف عديدة مجيدة سجلها مترجموه نشاطه
العجيب فى الدراسة ، وطموحه إلى مختلف العلوم وشعب المعرفة ، وملازمته لشيوخ
عصره ، ورحلته إلى داني البلاد وقاصيها فى سبيل التلقى والتحصيل ، فقد تلقى علم
القراءات على التتقى بن الصائغ ، وأخذ التفسير عن العالم الوائى ، وتفق على ابن الرفعة ،
وحقق الأصول على العلامة الباجى ، وتفق فى النحو على أبى حيان ، وسمع الحديث
على الشرف الدمياطى ، ثم شافه أن يضم إلى ثقافته الراسخة علم التصوف فرحل
إلى الإسكندرية وتلقاه على تاج الدين بن عطاء الله السكندرى .

ومن العلماء الذين عرفهم ودارسهم ، أبو الحسن يحيى بن عبد العزيز الصواف :
وعبد الرحمن بن مخلوف بن جماعة ، ويحيى بن محمد بن عبد السلام . ولم يزل به
تحصيل العلم وابتعاؤه حتى كاتب علماء بغداد وكاتبوه وقدروا عليه ، وأجاز له
منهم الرشيد بن أبى القاسم وإسماعيل بن الطيال ، وكذلك احتمل وعشاء السفر
ومشقة البالغة فى تلك الأيام فى سبيل العلم والتحقيق به ، فرحل إلى الشام وسمع
من ابن الموزين ، وهناك ذاعت شهرته وعلا بين العلماء قدره ، فتولى قضاء الشام
وكان قاضيا عادلا عفيفا نزيها لا يخشى فى الله لومة لائم ، وتولى مشيخة دار الحديث
الشامية البرانية ، ثم هوى قواده إلى بيت الله الحرام وزيارة الروضة النبوية ، على

ما كنها أفضل الصلاة والسلام ، ولقى في الحجاز الإمام ابن مشرف وسمع منه ، ثم عاد إلى القاهرة وقد عرف بالبحر في العلوم واشتهر في الفقه بالاستنباطات الجليلة ، والدقائق اللطيفة ، والقواعد المحررة التي لم يسبقه إليها أحد فأقبل عليه الدارسون والمحصلون يقتبسون من علمه ويستنبطون بتحقيقه ومن أشهرهم : الحافظ أبو الحجاج المزي وأبو عبد الله الذهبي . ولقد كان رحمه الله ، على علو قدره وعظيم تمكنه ، متصفاً في البحث رجاءاً إلى الحق ، فلا جرم أن جمعت هذه الصفات القلوب حوله ، وبثت في القلوب حبه وحملت الناس على اتباعه وتوقيره ، ولم تمنعه كثرة أسفاره واشتغاله بالتدريس لنلامذته من التأليف ، بل قد بلغت مؤلفاته مبلغاً عجيباً في كثرتها ودقتها وشمولها للباحث التي يتناولها ويمررها .

وأصحاب التراجم يعدون من مؤلفاته نحو مائة وحسين كتاباً ، منها : تفسير القرآن ، وشرح المساج في الفقه ، ونيل العلا في المعطف بلا ، وشفاء السقام في زيارة خير الأنام رد به على ابن تيمية (ط) ، والعلم المنتشر في ثبات الشهور (ط) ، والاقتصاص في الفرق بين الحصر والاختصاص . ومن مؤلفاته القيمة التي لها شأن في الأزهر جليل ، ويقاس في دراستها أمل البراعة والتحصيل ، شرح منهاج البيضاوى في الأصول ، فقد ابتدأ شيخنا تقي الدين هذا الشرح ، ومضى فيه إلى قول البيضاوى رحمه الله ، الواجب إن تناول كل واحد فهو فرض عين ، ثم أتم شرحه إلى آخر الكتاب أبه العالم الجليل ، تاج الدين السبكي صاحب جمع الجوامع .

والدارسون لهذين الكتابين من الأزهريين ، يشهدون على علم ويقين ، بما للترجم في علم الأصول من تمكن وإحاطة ، يجعلانه فارس ميدانه ، وواحد أقرانه . فكتاب جمع الجوامع - وإن كان من تأليف ابنه تاج الدين - يحتوى على أبحاث جليلة ، وتحقيقات فريدة لآبيه ، تجعله يشارك في فضله ويسام في مجده ، وسنفضل القول من هذا الكتاب حين نترجم لمؤلفه ، وتزوج هذه الترجمة بشهادة مؤلاء العلماء الاعلام للإمام السبكي بالفضل في علمه ومقدرته ودينه وسيرته . فالسيوطي هذه من المجتهدين ، وقال الصلاح المصفى : ما جاء بعد الغزالي مثله ، وقال السيد محمد بدر الدين أبو قراس النعساني : هو عندى مثل سفيان الثوري . وليس لى بعد ذلك إلا أن أقول : إنما يعرف الفضل من الناس ذروه ،

رحمهم الله أجمعين ، ونفع بسيرتهم وآثارهم المسلمين .

بشيرة النبي

أفضله الأستاذ الشيخ إبراهيم علي أبو الخشب

لما مال المسلمون من المشركين بيد مناهم ، وانتصروا عليهم ذلك الانتصار الرائع الذي حول مجرى التاريخ ، ولامت أذن الدنيا ، وأرهف سمع الدهر ، حفز الكفار جهودهم ، وشهدوا عزائمهم ، واستنهضوا همهم ، وجمعوا جمعهم ، للبارزة من جديد ، فخرجوا بأحاديثقاتلوا محمدا صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، فقال المتشقي الحاقق ، المتقيظ العاضب ، راجين أن يضموا بذلك حدا لما بينهم وبينه ، حتى لا يرتفع صوته ، ولا ندوى كلمته ، أو تسرى إلى النفوس دعوته ، وخرج معهم نساؤهم ، ليلهن فيهم الثورة ، ويؤججن نيران الحماسة ، وكان في النساء هند بنت هبة روجة أبي سفيان بن حرب المسماة آكلة الكبد ، وكان في الرجال جبير ابن مطعم ، وكلاهما متوريتان أن تناح له الفرصة التي يأخذ فيها بوتره ، ويقتص لنفسه ، وكان لجبير هبد حبشي يدهي وحشي ، يملأ الجسم ، مفرط الشجاعة ، وفور القوة ، يخيف بشكله وبأسه ، طالب إليه أن يخرج لقتال المسلمين ، ومناه أن يعتقه إذا هو أردى الخزرة بن هبد المطلب ، وكانت هند قبل ذلك عرضت عليه مالا كثيرا ليقتل الخزرة . ولم يكن التأمر على قتل هذا الرجل تبريدا لعله ، وإرواء لظما ، وإنما كان كذلك لمكأة الخزرة في المسلمين من البسالة والإقدام ، والعزم والقوة . وقد كان الرسول رضوان الله عليه يمتاز بالخزرة ويحبه ، ويقدره ويحترمه ، لا لأنه عمه ، ولا لأنه منحاز إلى جانبه ، ولكن لأنه مع ذلك ، ينفق عن جيش محارب ، وجاعة مقاتلة ، والقضاء عليه عدم لركن متين ، وحصن حصين . وإذا كان الخزرة توافرت له معاني الشجاعة والإقدام ، والمغامرة والتضحية ، والعزم والمضاء ، والهمة وعدم المبالاة ، فإنه لم يقدم إلى جانب ذلك الحذر والحيلة ، واليقظة والانتباه ، والرأى والتدبير ، والعكر والنظر ، والاتعاظ بالحوادث ، إلا أن الحين الذي يسبق جهد الحريص ، كان يخفيه له

المقدار في ضربة صوبها له وحشى . نعيم الوجوم ، وسادت السكينة ، من عظم ما أصاب المسلمين من ذهول ، واعتراهم من هموم ، وربما كان هذا القاتل يعلم مبلغ ما أصاب النبي نفسه صلوات الله عليه من جرم هذه الفاجعة ، ولذلك فإنه بعد أن عنق وأطلق سيده صراحة أسلم وحسن إسلامه ، واطمأن خاطره لتوفيق الله إياه ، واتجاهه الى سبيل المؤمنين ، لكن شيئا واحدا لا يزال يحز في قلبه ، ويعتقد أن الله لا يغفر له مهما صام وصلى ، وافى جهده في الطاعة ، وعمره في العبادة ، ذلك أنه أماح حفيظة الرسول بهذا القتل ، ولهذا لم يجرؤ على أن يلاقه وجها لوجه ، أو يضع يده في يده . وما زال هكذا يفر ويبالغ في الفرار ، ويهرب ويمتن في الهرب ، حتى قيل للنبي ما هو ذا . فقال له أنت ؟ قال : نعم أنا يا رسول الله وأرجو أن يكون الإسلام عني على ما قبله ، فقال حول وجهك عني يا وحشى ، فإن لا أطيق أن أرى يعينى رجلا قتل الحمزة بن عبد المطلب .

ويروي الرواة أن وحشيا قال ما زالت هذه تعلق مضجعي ، وتؤرقني جفني ، وتتعيب خاطري ، وأما أرجو أن يوفقني الله لعمل أرضى به رسوله ، وأكفر ما عساى أن أكون قد اقترفته ، فلم أجد إلا أن أقتل مسيلة السكذاب حينما حل راية الفتنة ، وشق عصا الطاعة ، وادعى النبوة في خلافة أبي بكر الصديق هذان الله بهديه . . ولعل كثيرا ممن يسمون بهذه القصة أن يقولوا ما ذنب رجل لا ذنب له . . ولعلمهم يذهبون إلى أبعد من هذا كله ، فيقولون ما كان من اللائق أن يقف النبي هذا الموقف من مسلم راسخ القدم ، قسوى العقيدة ، صحيح الإيمان . وهذه الدعوى إنما يدعيها من يجرد الرسل من بشرتهم ، وهؤلاء النفس يقولون إن الألم الذي تفعله الذكريات المصطنعة ، والصور البغيضة ، والمناظر المكروهة ، قد يقتل صاحبه بغير سكن ، ولا سيما إذا كان من هؤلاء المرضى بما يسمى « صغط الدم » والعياذ بالله ، فإنه يعتريه الشلل ، ثم يقضى لوقته . والمتنبى كان أدرك الناس بهذه الظاهرة البشرية على الرغم من أنه لم يدرس الطب ، ولم يزاول الفلسفة ، لأنه يقول :

واحتفال الأذى ورؤية جانيه غداء تضيء به الأجسام II

والحواس تمتدّ كما يتغذى الجسد ، ويمتريها الضنى والصفى ، والنحافة
والهزال ، والتهدم والمرض ، حين تناول طعاما لا تستيعبه ولا تحبّه ...
ويقول الأدباء فيما يزعمونه من هذا القليل : اكحللت عيني لمراك ، وطاب
قلبي بقلبيك .

والحيث في هذا يطول ويستترسل . . . ونحن نود أن يفهم المؤمنون
برسالة النبي صلى الله عليه وسلم أن القرآن الكريم ينادى بأنه بشر يأكل الطعام
ويمشي في الأسواق ، ينام ويصحو ، ويكره ويحب ، ويفضّض ويرضى . . . وكان
مثار العجب في قریش أن تكون هذه المهمة الشاقة ، والمسئولية العظمى ،
في علق إنسان ، قد تستويه الشهوات ، وتملكه الزوات ، وتصرفه الأهواء ،
وتوجّهه المآرب ، وهم لم يألّفوا رجلاً تسمو به روحه إلى هذا الأفق الطاهر
وتخلق ذاته في تلك الأجواء البريّة ، بحيث لا يظلم ولا يطغى ، فافرحوا أن
يكون من الملائكة المقربين ، ورد الله جل جلاله عليهم بقوله : ولو جعلناه ملكا
لجعلناه رجلا ، لأنهم لا يأتفسون به ، ولا يفهمون منه ، ولا يتلقون عنه ،
إلا إذا تحول إلى جنسهم ، وعاد إلى نوعهم . . . وكان هو مُصرّح بهذا إذا احتكم
إليه خصيان ، وحاول أحدهما بسحر يياه ، وطلاقة لسانه ، وعذوبة مطلقه ،
أن يصور الباطل على شكل الحق ، فيهام من الالتجاء إلى هذا الأسلوب
في التقاضى خوفاً من أن يلتبس عليه الأمر ، وتشبهه المهالم ، فإذا هو يحكم بالشىء
لعير صاحبه معلناً لهم أنه : بشر يخطئ ويصيب . . . وإذا كان سبحانه يمت به
إلى العرب أمياً لا يقرأ ولا يكتب ليتأتى التحدّى ، ويتبين الإعجاز ،
فبسر كذلك لم يجرده من خصائص البشر ليرينا أن النبوة لا تكتسب
بالتحصّل ، ولا تحبى بالاجتهاد ، بل هي سر إلهي يضعه الله فيمن يختاره من
عباده الصالحين ؟

رضى الناس

نفسه الأستاذ الشيخ على حسن العمري

مبعوث الأزهر في السودان

من الامثال السائرة على السنة الخاصة والعامة (رضا الناس غاية لا تدرك) . وهذا المثل من أصدق الكلم ، وأحكم الحكم التي تعبر عن واقع محسوس ، ومشاهد ملموس ، فقد خلق الناس مختلفين في الطباع والفرائض والأخلاق ، ولا يزالون مختلفين ، وموازينهم التي يزنون بها الرجال والأعمال مختلفة أشد الاختلاف ، ومقاييسهم مضطربة في أكثر الأحيان ، فما ظفر برضاهم خالق ولا مخلوق .

اختلفوا في ذات الاله ، واختلفوا في الانبياء ، فقال المسلمون عن محمد صلى الله عليه وسلم إنه رسول الله وخاتم النبيين ، وقال المشركون إنه ساحر كذاب ، وقالت النصارى : المسيح بن الله ، وقالت اليهود : أنه ولد من غير أب شرعى ، وقال المسلمون — كما نطق كتابهم الكريم — ما المسيح بن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام . واختلفوا في الخلفاء من بعد الرسل فقد أحب عليا قوم حتى كفروا بحبه ، وأبغضه آخرون حتى كفروا ببغضه ، وسمى جمهور المسلمين أبابكر وعمر شيخي المسلمين وكفرهما بعض الناس بل كفروا من يقول إن لهما نصيبا في الإسلام ، واختلفوا في العلماء والشعراء ، والولاة والقضاة ، وفي شأن كل فاه حتى قال بعض الكتاب : إن العظيم من الرجال من اختلف فيه الناس فرفعه قوم إلى السماء ونزل به آخرون إلى الحضيض ، وذكر العالم الكبير أبو عثمان الجاحظ أنه كان يقال : يستدل على نباهة الرجل من الماضين بتباين الناس فيه ، ثم قال : ألا ترى عليا

رضى الله عنه قال يهلك في فتيان : بحب مفرط ، وهذه صفة أبه الناس ، وأبدهم غاية في مراتب الدين وشرف الدنيا .

بل إن التقدير عند الشخص الواحد يختلف في آن به في آخر ، فهو يزن رجلاً فيرفقه ثم يمود بعد طویل أو قصير من الزمن فيخفّضه ، وما حدث التاريخ ولا سمحنا أن إنساناً اتفق عليه الناس . وكيف وفي الناس قوم مولعون بالقد ، مفرمون بتقص ذوى الفضل والمواهب الخالدة ؟ فسكلم رأوا رجلاً ناهياً تلصوا له المثالب والعيوب ، فإن قاتل قالوا متهور وإن قعد قالوا جبان ، وإن أفتق قالوا مسرف ، وإن أمسك قالوا بخيل . . . وهكذا

ويروون في القصص الشعبي أن رجلاً أراد أن يرى ابنه طبايع الناس ، فأخذ دابة وركبها وأردف ابنه خلفه ، ومرا بجماعة من الناس فقالوا : ما أقسى قلبه ! يركبان معاً على هذا الحيوان المسكين . فقال الرجل : يا بني تماقب ، فركب الرجل وسار ابنه خلفه ، فلما مرا بجماعة أخرى قالوا : ما أضغف تفكير هذا الرجل ، يشفق على الحيوان ، ولا يشفق على ابنه ، وهو فلدة كبده ! فترجل الرجل وأركب ابنه فقال من لقيهما من الناس : ما أسوأ أدب هذا الولد ، يركب ويترك أباه المسن الضعيف يمشى خلفه ؟ فقال الرجل : لم يبق يا بني إلا أن نسير معاً ، ونترك الدابة خفيفة الظهر ، حتى نسلم من انتقاد الناس ، ولكنهما ما سلبا ، فما هو إلا أن مرا بجماعة من الناس حتى قالوا : ما أحقها ، بمشيان ، ومعها دابة موفقة الخلق ، قوية البنيان . فلم خلفت ؟

وهنا أخذ الرجل يعلم ابنه ويضع يده على موضع العبرة من حيلته وتنا يبره فقال : يا بني : ركبنا معاً فرماني الناس بقسوة القلب ، وركبت أنا فرموني بضعف التفكير ، وركبت أنت فرموك بسوء الادب ، وسرنا معاً فرمونا بالحق . فما أحد من ألسن الناس يسلم !

وأنت مع الناس شديد الشبه بهذا الشاعر مع صاحبه : شكاً فلامته على شكواه ، وكرم حبه فأنكرت عليه صبره ، ودنا فأبعدته ، وتباعده فجزعته من بعده بخار في أمره وجعل يصيح :

شكوت فصالت كل هذا بهرما يحبي أراح الله قلبك من جي
فلما كنت الحب قالت لشدما صبرت . وما هذا بفعل شجي القلب
وأذنو فتفصيني فأبعد طالبا رضاها فتعند التباعد من ذنبي
فشكواى تؤذيها وحبري يسوؤها وتخرج من بعدى وتفر عن قربى
يا قوم هل من حيلة تعرفونها أجيبوا بها واستوجبوا الشكر من ربى

ومن نقول : غفر الله لك أيها الشاعر ، وعفا عن أمثالك . فإ نعلم ،
ولا كان الدين بهامصروك يعلمون لك حيلة ، فمكذبا شأن القرافي ، ومكذبا
شأن الناس ، وأى كذا خلقت ، كما يقول المحويون . والإنسان مهما عامل الناس
بالحسنى ، وأخذهم باللين والطف ، فلا بد أن يجد فيهم من يلتوى عليه .

هذ يرى من الإنسان ما إن جفوته صفالى ولا إن كنت طوع يديه
وإنى لمحتاج إلى ظل صاحب يرق ويصفو إن كدرت عليه

ولذلك قال المأمون حين سمع هذا البيت . . . وإنى لمحتاج . الخ . أين
من يأخذ نصف ملكى ويعطى هذا الصاحب ، ثم جاء البديع الهمداني فى القرن
الرابع فكتب إلى بعض معارفه يقول . فأما الإنصاف فى الصداقة فهو ضالتي
هذه الاصدقاء ولا أقول :

وإنى لمشتاق إلى ظل صاحب يرق ويصفو إن كدرت عليه

فإن قائل هذا البيت قاله والزمان زمان ، والإخوان إخوان ، وحسن
العشرة سلطان ، ولكنى أقول وإنى لمشتاق إلى ظل :

رجل يوازنك المودة جاهداً يعطى ويأخذ منك بالميزان
فإذا رأى رجحان حبة خردل مالت مودته مع الرجحان

وقد كما تفرح الفضل ، فأصبحا تفرح العدل ، وإلى الله المشتكى لا منه .

وسئل شريح القاضي : كيف أصبحت ؟ فقال : أصبحت ونصف الناس
على غضبان . هذا شأن شريح ، وهو بعد قاض عادل نزيه ، لا يميل به غرض
النفس عن قصد السبيل ، ولا يمدل به هوى الرأى عن جادة الصواب ،

ومع هذا فقل شريح من كل رجل يحكم بالعدل ، ولا يقول إلا الحق يجب أن يقتبط بهذه الحال أشد الاغتراب ، فحب امرئ حر الرأي ، قوم الدين ، نظيف السلوك أن يرضى عنه نصف من يعاشروهم من الناس ، وقد بما قال خطيب العرب وحكيمها أكرم بن صبيح : أن قول الحق لم يترك لى صديقا .

حتى بعد أن ينتقل الإنسان عن هذه الدنيا لا يعدم من يستنزل عليه الرحمة ومن يصب عليه اللعنات ، وقد يسلو روحه بين ابتسامة الشامت فيه ، ودموع الباكي عليه ، والشاعر يقول :

المرء يأمل أن يعيش وطول عيش قد يضره
تفنى بشائسته ويبقى بعد حلو العيش مره
وتسوءه الأيام حتى ما يرى شيئا يسره
كم شامت بي إن هلك وقائل لله دره

والأديب الأريب ينبغي له أن يطلب رضا الناس فإن رضاهم يقيه من شرور كثيرة ، وليس أصعب من عداوات الرجال ، ولكن لا ينبغي أن يطلب رضاهم بما يستخط الله عز وجل فقد قالت السيدة عائشة رضى الله عنها : من أَرْضَى الله يَخْطِئَ الناسَ كَفَاءَ الله ما بينه وبين الناس ، ومن أَرْضَى الناسَ يَخْطِئَ الله وكله الله الى الناس ، ومن أصلح سريره أصلح الله علانيته .

فإذا لم يكن بد فليؤثر الإنسان رضا الله مهما كلفه ذلك من عناء ومشقة ، ولكن كما قالت السيدة رابعة العدوية رضى الله عنها ، وهى تناجي ربها :

فليت الذى بينى وبينك عامر ويبى وبين العالمين خراب

وبعد ، مرضا الناس غاية لا تدرك ، ولكن ما لا يدرك كله لا يترك كله .

على هامش المولد والهجرة

ميتداد محمد صلى الله عليه وسلم

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمود حميدة

المدرس بكلية اللغة العربية

سلام عليك يا رسول الله مولوداً ومبعوثاً ، ومقبلاً ومهاجراً ، ومبشراً
ومندراً ، وحياً وميتاً ، وروحاً في عليين . سلام عليك ما تعاقبت السنين ،
ونوالت الأيام تردد دعوتك ، وتنتشر صفحتك ، وتظهر مجدك ، وتتلو على الوجود
آياتك البينات ، وعظائمك البالغات ، فلقد كنت سلاماً على الوجود منذ تعلقت
الإرادة بوجودك ، والمشيئة بخلقك ، فأنت حق من الحق ، ورحمة من الرحمة ،
ونور من النور ، ولدت فكنت خير مولود عرفته الأرض نقاءً وطهرًا ، وصفاءً
وكرمًا ، ونسبًا وحسبًا ، ونشأت فكنت خير ناشئ خلقت وخلفًا ، وعز
ومجدًا ، وأمانة وصدقًا ، وبعثت فكنت خير مبعوث لخير أمة أخرجت للناس ،
تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر .

قدمت العناية للناس رحمة بهم ، ومنقذاً لهم لما ضرب الفساد بهجرته في
الأرض ، وشاع الضلال وذاع ، وتلاشت الحضارات الصحيحة ، والمدنيات
السليمة ، وأهلك الأمم الراقية المبالغة في الترف والامعان في المجون ، وأصبحت
الأرض تنتظر النجدة من السماء ليكشف ما بها من ضرر ، وما أصابها من انحلال .
وهيات لامة انقصمت عراها ، وفقدت أخلاقها ، وفقدت طاقتها أن تقوم ببناء
أو تعمیر ، أو بهدي أو إصلاح . لهذا لم تنج الدعوة للإصلاح في الأرض إلى
أصحاب الحضارات المشوهة ، والمدنيات الممسوخة ، وإنما ولت وجهها شطر الامة
الاهمية التي أكسبتها العزلة مناهة ، حفظتها من أدوار المستهترين ، وامراض
المسرفين ، فبقيت طاقتها البشرية صحيحة سليمة ، ونوفر لديها كل ما يصلح لتكوين
أمة حية تقوم الوجود ، وتنتشر السلام . ذلك أن الاميين عاشوا في جزيرتهم

هيشة شظف وجذب ، لا يعلون شيئاً من مفاتن الدنيا ، ومباهج الحياة ، وبهرج الحضارة ، إلا بقدر لا يفت من سوا عدم الفائدة ، وطباتهم السليمة ، فهم أهل جاهلية بما عند متابعيهم — الفرس والروم — من خلاعة طغت على المعارف والحكمة ، وظلم جعل من الناس عجائز مسخرة لتشبع بطوناً نهمة ، وسيادة كاذبة ، وألوهية ضالة . فالعرب قد لازمهم الفطرة البريئة ، والبساطة المخففة من أنقال العيش ، وأعباء الحياة ، فصحت أجسامهم ، وصحت معها عقولهم ، ولم يكن لإسرافهم في الجهل والضلال إلا على وزان إسرافهم في لذائذ العيش ومنع الحياة ، وأنى للعقر والإقلاق أن يتسعا للأسراف أو يهينا للفساد ، فكل ما عديم نزاحم على الكسرة ، وناكب على الفطرة ، وما وراء ذلك فهو على هامش حياتهم ، وليس من صميم وجودهم . لذلك كانت الأمة العربية أولى أمم الأرض بحمل الدهوة ونشرها ، وإقامة الحجة وإنقاذ البشرية من ضلالها .

وأمن المترفون في الفسوق وأسرفوا في استيفاء الشهوات واللذائذ ، وأنصرفوا عن كل خير في الأرض . فأفسدوا ولم يصلحوا وعطلوا ولم ينشئوا واختفت فيهم الفضيلة ، وتبجعت منهم الرذيلة ، وتطأير الشر من مواعدهم موافد الضلال والفجور ، وحملت الرياح الهوجاء إلى مواضع الطهر والقداسة . ومراطن السذاجة والفطر السليمة ، فتغيرت النفوس الطاهرة ، وتغلب الهوى ، وتحفد الشيطان ، واتخذ العرب من أول بيت وضع للناس للتوحيد والتنزيه ، والاثوبة والأمن ، مكاناً للشركاء والأمداد ، ومبادة للضلال ، ومرتعاً للفساد .

عند ذلك تجلست رحمة الله بخلقه ، واختار عاتم رسله لحقائمه دهونه ، ليجبر ما يصعد وينظم ما انمرط ، ويسمع ما علق بالعطر ، حتى تعود سيرتها الأولى ليرد بهم الناس إلى الحق البين ، والطريق المستقيم ، ولكن الضلال قد صادف قلوباً خالية فتمكن منها ، ووجد الشيطان نفوساً بريئة ففت فيها الشر ، فوجد الرسول الكريم مشقة وجهداً في تحليل العرب من الأدواء التي أصابها ، والأمراض التي نزلت بها فأسر بالدهوة إسراراً نحواً من ثلاث سنين ، ثم دعا جهاراً نحواً من عشرين لما قيل . اصعد بما تؤمر وأعرض عن المشركين ، وهيء الرسول تهيئة خاصة ، فكان مثال النبيل والخير ، هرف بين آله وقومه بالطهارة والنزاهة ، والصدق والأمانة على الرغم مما كان عليه من قلة في المال ، ونقص في الولد ، لا ينتطح في ذلك عزاز

ولا يختلف فيه اثنان ، ولكن الشر قد تأصل في نفوس القوم ، فصمت الأذان عن سماع الحق ، وأقفلت القلوب عن قبول الهدى وعميت الأنصار عن رؤية آيات الله ، وتكرر الدعوة الإلهية القريب والبعيد والمحبة والمبغض إلا من عصم الله وقليل ما هم .

وسلك الرسول الكريم في تبليغ خبر ربه طريقاً منطقياً ، فتحدث إلى الأصدقاء والإخوان في خلوات وفترات معدلتاً أمره موضعاً خبره ، وتحدث إلى الناس في المجالس والأسواق عن العصيلة والأخلاق ، وأخذ يلزم من طرف خفي ما عليه القوم من بعد عن الحق ومجاهدة للمعقول والمقبول ، وجوهر الدعوة سر في نفسه لا يجاهر به حتى تنبأ النفوس لقبوله .

وبدأ بإنذار العشيرة والأقربين ، وهم أولى باتباعه والاستجابة له ، إبقاء على وشيجة القرى ووفاء بحق الرحم فإن الرحم ، يوصل من وصله ، وأى صلة تدانى ديناً يهدى إلى الحق ، وإيماناً يورث الجنة ويبعد من النار ، ثم أعلن إلى قومه فدعاهم ليلاً ونهاراً فلم يزدحم دعواه إلا فراراً ، فألح وألح حرصاً على قومه أن يتعرضوا لخطب ربه ، فيحل عليهم غضبه أو ينزل عليهم عذابه ، وهو بهم رموف رحيم .

وكم ضاق صدره من خلافتهم حتى كاد يهلك نفسه دوسهم ، فلعلك يا خع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً ، ولا طفهم الرسول وقتل بالذروة منهم والغارب ، وتجاوز عن مسيئتهم ، عله يظهر منهم بلفتة إلى الحق أو نظرة إلى ما جاء به من دين تناول الذكور والإناث ، والأحرار والعبيد ، والبيض والسود ، قوامه التوحيد ، ودعامته الفضيلة ، وفي التوحيد تسفيه للشرك والشركاء والمشركين ، وفي الفضيلة طهارة وصفاء وتثبيت لدعاة الحق وإنصاف للعقل على الهوى وتقرير للعدالة والمساواة وتنديد بالردية واحتقار قشر ومحو للباطل .

فكبر على القوم أن يكون من بينهم داعياً ولا حلامهم مسبقاً ، وفي القرينين من هو أولى بالشرف وأجدر بالسيادة ، وقالوا فيها قالوا ، لو أنزل هذا القرآن على رجل من القرينتين عظيم ، فكان الرد عليهم ، أم يقسمون رحمة ربك ، وبالعوا في إيدائه وأسرفوا في الكيد له ، وقالوا فيه ، ساحر أو مجنون ، بل قالوا شاعر نربص به ريب المنون ، أتواصوا به بل هم قوم طاغون ، وتلك سنة الله في المرسلين ، ف ، ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك ، وقد مستهم البساء والصراء ، فصبروا حتى جاءهم النصر ، وتحقق وعد الله ، لاغلبين أنا وسلي ، .

الأديب والأديب

نفضير الأستاذ الشيخ عبد الحميد محمود السلاوت

المدرس بكلية اللغة العربية

نحب أن نعرض هنا لمشكلة يحار فيها الناشئون ، وقد يختلف فيها العلماء والمتأدبون ، هي مشكلة تختلف فيها قولاً وجدلاً ، لا ينهى عند حد ، ولا يقف لدى غاية ، تختلف فيها بيننا وبين أنفسنا حين تنازعنا البواعث المختلفة ، والعوامل المتباينة إلى القراءة ، ففقف مترددين حائرين .

هذه المشكلة ماذا نقرأ ؟ أتقرأ للقدمات أم للحديث . أم لها معاً ؟
وأتقصر قراءتنا على ما تنضح به العربية من ألوان الثقافة وصور المعرفة أم لابد من إحاطة واستيعاب ، أو على الأقل وقوف على نتاج الأفكار ، وثمرات الفرائح ، ومطارح الأخيلة في كل لسان ؟

إذا التفتنا حلاً لهذه المشكلة مما نسمعه من أفواه المتقنين ، تنازعنا تيارات مختلفة وهوامل متباينة ، ففي بعض المجتمعات الأدبية ترددها صرخات وتبعث صرخات تقول : مالنا وللقدمات وآداب القدمات ، وقد عاشوا في بينات وسمتهم وانطوت عليهم وسمتهم من المظاهر والأوضاع مالا م حياتهم ووافق أوضاعهم ، ثم لم تعد ألوان تفكيرهم ولا مطارح أخيلتهم ولا مآثور آدابهم تنسق مع ما تفكر فيه أو تتخيله ، ؟ نسى هؤلاء الناعبون أن الحياة إن اختلفت بعض ألوانها وبنايت بعض صورها ، فهي في سيماتها الصامة ومظاهرها المشتركة لا تختلف في قليل ولا كثير ، هؤلاء الذين يتفرون من القديم ، ويتسكرون للقدمات ، قد خافهم الصبر وخذلهم الجلد ، فلم تعد عقولهم تقبل إلا أخف ألوان الأدب وأبسط مظاهر الثقافة ، ونسوا أن الأساس الذي نبنى عليه ، والمصدر الذي نقبس منه والدنخر

الذى نمنح من معيته هو الأدب القديم ، فأل أغضينا عنه وأغفلنا شأنه بنينا حياتنا على شفا جرف هار ، وأقمنا مجدنا الأدبي على غير أساس .

وهناك أناس يسيثون الظن بكل جديد ، ويتهمون أشنع اتهام ، ويصفونه بالضعف والهزال ، ويؤمنون أعمق الإيمان أن هذا الأدب الذى تهدر به طبائع المحدثين لا يصلح للبقاء ، ولا يستحق العناية والاهتمام . يستحفون فيه كل فكرة ويستهنون كل أسلوب ، ويلتمسون العيب فى كل صورة ، ويختزنون المساءة لكل ما يخلج به الفكر أو تنبض به القلوب . ولو سألتهم عن حقيقة ما يختزنون من شبه لا عوزهم الدليل واستعصت عليهم الحجة .

لا عيب فى الجديد لأنه جديد ، ولا مزية للقديم لأنه قديم . إنما السمو والابداع أو التخلف والقصور فى القيم الفنية للأثر من ذات نفسه ، فهو الذى يدل على مكانه من الرفعة أو الانحطاط . والتقدم أو الانتكاس لا مقدمه ولا حادثه .

وقديما ملك أقواما التعصب ، واستولى عليهم الهوى مع جلال أقدارهم وعظم منازلهم ، وأصالة رأيهم فى دولة الأدب ، حتى إن بعض هؤلاء المتعصبين للقديم أملى شعرا لبعض المحدثين على أنه قديم فامتدحه وأطراه وأثنى عليه أجزل ثناء . فلما أنبىء بعد ذلك أنه لمحدث غضب ، ومزق أوراقه وصار يقول خرق خرق .

يقول القاضى الجرجاني فى كتابه الوساطة صفحة ٤٤ : فى هذا الصدد (إن خصم المتنبي فريقان . أحدهما يعم بالقص كل محدث ، ولا يرى الشعر إلا القديم الجاهل وما سلك به ذلك المهج وأجرى على تلك الطريقة ، ويزعم أن ساقه الشعراء رؤية وابن هرمة وابن ميادة ، فإذا انتهى إلى من بعدهم كبشار وأبي نواس وطبقتهم ، سمى شعرهم ملحا وظرفا واستحسن منه البيت بعد البيت استحسان البادرة وأجراه بحرى المكاهة ، فإذا نزلت به إلى أبي تمام وأضرابه نفى يده وأقسم واجتهد أن القوم لم يقرضوا بيتا قط ، ولم يقبوا من الشعر إلا بالبعد وما أكثر من ترى وتسمع من حفاظ اللغة ومن جلة الرواة من يلجج بعيب المتأخرين - أن أحدهم يُنشد البيت فيستحسنه ويستجيده ويعجب منه ويختاره ، فإذا نسب إلى بعض أهل عصره وشعراء زمانه ، كذب نفسه ونقض

قوله ورأى تلك الغضاضة أهون ممحلاً وأقل مرزأة من تسليم فضيلة لمحدث
والاقرار بالاحسان لمولده .

حكى عن إسحاق بن إبراهيم الموصلى أنه قال أنشدت الأصمى :

هل إلى نظرة إليك سبيل قيل الصدى ويشقى الغليل
إن ما قل منك يكثر عندى وكثير ممن تحب القليل

فقال والله هذا الديباج الحسروانى : لمن تشدنى ؟ فقلت إنهما ليلتهما فقال
لا جرم والله إن أثر الصنعة فيهما لظاهر .

ولكن إسحاق هذا حوزى جعودا بجعود ونكراما بنكران ، فقد كان كما يقول
المهزبانى يصير الاوائل فى كل أحواله وكان يتعصب على المحدثين ، ومن كان
يتعصب عليهم أبانواس وكان يقول هو يخطئ . قال يحيى بن على فكنت أشده
جيد قوله فلا يحمل به لما فى نفسه فأنشدته قوله :

وخيمة باطور برأس منيفة نهم يدا من رامها بزيل
إلى قوله .

إذا ما أتت دون اللهاة من القفى دعا همه من صدره برحيل
فكان على أمره . فقلت والله لو كانت لبعض أعراب هذيل لجلستها أفضل
شئ سمعت قط .

وكان من تعصبه على أبى نواس يقول ما ظننت أنى أعيش إلى زمان أرى
شعر أبى نواس ينفق فيه هذا النفاق ، وكان ابن الأعرابي يقول (ص ٢٤٦ الموشح
) إنما أشعار هؤلاء المحدثين من مثل أبى نواس وغيره ، مثل الريحان يشم يوما
ويذوى فيرى به ، وأشعار القدماء مثل المسك والعنبر كلما حركته ازداد طيبا .
وهذا تعبير يحمل فى طياته ما كانوا يضمرون من حقد واضطغان على
المحدثين . ويظهر أن المعاصرة غالباً تكون من أقوى أسباب التعاسد وأشد
عوامل التنافر والتحاقد ، حتى إن كلمة الحق فى مثل هذه المواطن تجعل الفحول
يشرقون بريقهم ويفصون بها إذا ضيق عليهم الخناق : ومهما أوتى بعض الناس
من قوة الحججة وسعة العقل ودقة الفهم فقد لا يملكون الغلبة على ما وقر فى
طبايعهم من حقد ولا ما استكن فى نفوسهم من هوى أو مودة .

يقول أبو عبد الله القمي : كنا عند ابن الأعرابي ، فأشده رجل شعرا لابي نواس أحسن فيه فسكت ، فقال له الرجل أليس هذا من أحسن الشعر . فقال بلى ولكن القديم أحب الي .
وقال أبو الحسن الطوسي : كنا عند ابن الأعرابي فقال : أيما أحسن هذين
قول أبي نواس :

دع عنك لومي فإن اللوم إغراء وداوئي بالنى كانت هي الداء
أو الذي أخذ منه وهو يقول الأعشى :
وكأس شربت على لذة وأخرى تداويت منها بها
فسكتا فقال السابق أجود :

وإن هذا لما يدعو إلى الغرابة والعجب ، فإن عصية الرجل وحقده وغضته بقسول الحق لما يثير الدهشة حقاً . مع أن أبا النواس فيما أرى فاقه بالاختصار وعذوبة الشعر وسلامته بما ينفر منه الطبع ويستكرهه السمع والنص الصريح على أن الخرداء ودواء ، أما الأعشى فإنه يجهل السامع في تعرف مواطن الضمائر المتابعة ويجعل صدره ضيقاً بها أشد الضيق .

قال ابن قتيبة (وكان الناس يستجيدون قول الأعشى الى أن قال أبو نواس بيته ، فزاد فيه معنى اجتمع له به الحسن في صدره وعجزه ، فللأعشى فضل سبق عليه ، ولأبي نواس فضل الريادة عليه) .

وكان الأخفش ينقد بشارا لأنه محدث ويطعن على شعره ، فلما بلغ ذلك بشارا تهدهد بالهجاء ، فبكى الأخفش وقال وقعت في لسان الأعشى ثم أخذ بعد ذلك محتج في كتبه بشعره ليلعله ذلك ، فكف عنه .

فهذا عالم جليل وإمام كبير نقد الشاعر عصية وأنفة ، ثم استرضاه فرقا ورهباً ، فلم يتحرر قولة الحق ولا منهج الصواب .

وهذا ابن قتيبة الأديب الكبير يدلنا على ما كان يشيع من خلائق بعض العلماء وتحيز بعض الدارسين في عصره من تفضيل السابقين والعصية على المحدثين ويعلم أنه لا يسير على سبيلهم ولا يرضى بطريقتهم إذ يقول في مقدمة

كتابه . الشعر والشعراء : ما بآنى ، ولم أقصد فيها ذكرته من شعر كل شاعر مختاراً له سبيل من قلد أو استحسن باستحسان غيره ولا نظرت إلى المتقدم منهم بعين الجلالة لتقدمه ولا المتأخر منهم بعين الاحتقار لتأخره . بل نظرت بعين العدل إلى المريقين وأعطيت كلا حقه ووفرت عليه حظه — فأنى رأيت من علياتنا من يستجيد الشعر السخيف لتقدم قائله ويضعه مواضع متخيره ويرذل الشعر الرصين ولا عيب له عنده إلا أنه قيل في زمانه ورأى قائله . ولم يقصر الله الشعر والعلم والبلاغة على زمن دون زمن ولا خص به قوما دون قوم . بل جعل ذلك مشتركاً مقسوماً بين عباده ، وجعل كل قديم منهم حديثاً في عصره . فكل من أتى بحسن من قول أو فعل ذكرناه له وأثنيّا عليه به ولم يضعه عندنا تأخر قائله ولا حداثة سنه كما أن الردء إذا ورد علينا للتقدم أو الشريف لم يرفعه عندنا شرف صاحبه ولا تقدمه .

ولقد أطلت في عرض كثير من الصور التي تدل على تحكم الهوى في كثير من النفوس . ولكن لادل على أن الناس في كل عصر هم الناس والعقول هي العقول والقياس هو القياس وإن اختلفت المظاهر وتباينت السمات . وكما يختلف الناس في هذا الزمن في تفضيل القديم على المحدث أو المحدث على القديم كذلك كان الناس فيما مضى يختلفون ويناديون .

ومثل ذلك يقال بالنسبة لما نطالعه أو نحتاجه من ثمرات القرائح وتاج العقول في الآداب الأجنبية . فكثير من الناس يدعون بسلوكهم وسمتهم إلى العزلة ويرغمون أن هذه الآداب تفسد الأذواق وتحيل الأخيلة وتشكك الناس في قيمة آدابهم .

وبعض الأدباء يتعمدون عن تراثنا ويفضون عن نتاجنا ويرون أنه ليس هناك أدب إلا ما جاء عن العرب ونطق به أدياء الغرب .

وأولئك وهؤلاء غالون فيما يرون من رأى ويلتزمون من عقيدة . فأن الأديب الفطن والمفكر النابه لا ينبغي أن يلفظ إلى هذه الترهات والفسافس بل يجب أن يلتهم ما يصح له من ألوان المعارف وصور البيان مهما كان الزمن الذي تمخض عنها ومهما كان اللسان الذي جاءت فيه .

ولا يفوتني وأنا أعالج هذه الناحية أن أعرض هنا صورتين تكادان تتقاربان

في الموضوع : إحداهما لشاعر قديم والأخرى لشاعر محدث . وسنجد في كل منهما من روعة البيان وخلاصة المنطق ، وتحليق الخيال ما يبعث على الإعجاب والإكبار ، فلم يبق المحدث حدائمه من الإبداع والإحسان ومساماة المتقدم على بعد عصره وتراى زمنه .

قال ابن الرومي في وصف مغنيات :

وقيات كأنها أمهات	عاطفات على بنينا حواني
مطولات وما حملن جنينا	مرضعات ولسن ذات لبان
ملقيات أطفالن ثديا	ناعدات كأحسن الرمان
مغميات كأنها حافلات	وهي صفر من درة الالبان
كل طفل يدمى بأسماء شتى	بين عود ومزمر وكراب
أمه دهرها تترجم عنه	وهو يادى الفنى عن الترجمان

وقال في هذا المعنى أو ما يشبهه ، فأبدع أيما إبداع وأجاد أروع إبداع الأستاذ الشاعر المرحوم الشيخ أحمد الزين :

لامست في النفس أوتار هواها	عادة بالسحر تغزو من غزاها
كلما مست يداها وترا	حسد الآخر ما مست يداها
نمنح الأوتار كفا رخصة	أشجحت الأوتار من قبل شجها
ويكاد العود يدمى كفا	قبلا لو أن للعود شفاها
لحما يبعث في ميت المي	نضرة العهد ومعسول صباها
خفقات يخفق القلب لها	هي أناك فزادى أو صداها
وحين كاد من رفته	أن يذيب اللحن في العود مياها
وشجون طالما أخفيها	نقد للعود إليها غمكاها

إلى أن قال :

كل هذا نطق العود به وتناجي هو والنفس شفاها
فلنظر في شعر المحدثين إلى هذه الدقة المميقة ، وهذا الاستقصاء البارع
وذلك الخيال البديع الطريف وتلك المعاني التي أنسايت من قريب ومن بعيد في
ألغة عجيبة حتى ليحسب المرء أن له بها عهداً وما هي في الواقع مما تجتمع للفكر
وتفاد للخيال ، إلا بعد كد ومطاوله وشدة احتيال ؟

دراسات في التصوف

العقل والنقل والذوق

لمؤلفه عمير طلعت زهران

أستاذ في الآداب

- ٢ -

وإن قال الجنيد : مذهبنا هذا مقيد بالكتاب والسنة ^(١) ، فقد كان يؤمن دون شك بأنه وراء الكتاب ووراء السنة أمر آخر ، هو الله ، هو المقصد الأخير ، والفاية التي ليست بعدها غاية ، فالمتصوف لا يعمل لذنيه ، ولا يسعى لآخرته ، وإنما هو محب يرجو حبيبه في إلحاح ، لا يريد عنه بدلا ، ولا ينبغي به غيره ، ليكن في الأرض ما بها من خيرات ، ولتكن في الجحيم نيران متأججات ، وفي النعيم أنهر من لبن ، ولكنه لا يريد هذا ، ولا يرغب في ذلك ، لا بل هو راغب عن ذلك جميعه ، راغب في الله ، والله وحده . راغب في الاتحاد بالله الذي هو أعلى مقامات النفس وأسمى مراتبها ، يحس معه الواصل كأنه والبارئ شيء واحد ، يرى مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، ويشعر بعبطة وسرور لا نظير لهما . ويخترق الحجب ، ويصعد إلى عالم النور والملائكة ، فتكشف له المغيبات والأمور الخفية ، فيخيل لجلسته أنه حاضر والواقع أنه غائب ، وأنه قريب والحقيقة أنه بعيد : قد انصرف عن كل شئون الدنيا وفقى في الله . وأول من نادى بهذا الفكرة هو البسطامي ^(٢) ، ولعله قد

(١) الرسالة القشيرية .

(٢) هو أبو يزيد قيسطامى عاش في بظام قرب شاهرود في حراسان من أعمال فارس في القرن الثالث الهجرى ، وهو من أئمة التصوف .

استمدها من تعاليم هندية كانت سائدة في بلاد الفرس مسقط رأسه . وحاول الصوفية تدعيم نظريتهم إن ثرا وإن شعرا ، وبحوثا لها عن آيات وأحاديث تؤيدها ، فوجدوا في هذا الحديث القدسي : « ما تقرب إلى المتقربون بمثل أداء ما افترضت عليهم ، ولا يزال العبد يتقرب إلى بالنوازل حتى يحبنى وأحبه ، فإذا أحببته كنت له سمعاً وبصراً ، فبى يهمر وبى يسمع ، أقول وجد الصوفية في هذا الحديث القدسي بعض ما يؤيد ما يذهبون إليه .

تلك هى أهم أفكار الصوفية التى عارضهم فيها الفقهاء ، ولكن تمت فكرة أخرى زادت الهوة بين الفريقين أنساها ، ألا وهى قول الصوفية بتوحيد الأديان : إن الدين عند الله الإسلام ، قول لاشك فيه ولا ريب ، صريح فى دلالة ، صريح فى عبارته ، ليس له باطن أو ظاهر ، ولكن جاء قوم ونادوا بأن الكل إنما يعبد الله ، وأن الإسلام والبصرائية وغير هذه أو تلك من الأديان إنما هى وسيلة لعبادة الله ، التعصب الدينى بمقوت عندهم مكروه : لا تكن مسلماً ولا نصرانياً ، ولا تكن صابئاً ولا وثنياً ، ولكن كن من شئت ، على أى دين أردت (١) ، ولكن اعبد الله : اعبد الله إن على صورة الوثن الحجرى ، أو متجلياً لك فى الشمس أو فى القمر ، واعبد الله إن متجرداً عن كل شيء ، أو متجداً بأشياء . لترمز لإلهك بأى رمز تريد ، فما دمت مخلصاً فى نيتك ، موفياً لعبادتك ، كان ما تفعل حقاً : « فالأديان كلها لله ، شغل كل طائفة منهم بدين ، اختيار اعليهم ، لا اختياراً مهم . أخذ بهذه الفكرة الخلاج وابن عربى وابن العارض والجيلى والرومى وغيرهم كثيرون ، ونادوا بها جميعاً إن نظروا وإن ثنوا ، ولعل من أجل ما قيل فيها آيات ابن عربى إذ يقول :

لقد كنت قبل اليوم أنكر صاحبى	إذا لم يكن دينى إلى دينه دان
وقد صار قلبى قابلاً كل صورة	فرعى لغزلاً ، ودبر لرهبان
وبيت لاوثان ، وكعبة طائف ،	وألواح تورا ، ومصحف قرآن
أدين بدين الحب أنى توجهت	ركائبه ، فالحب دينى وإيمانى

(١) اتخذت البابية البهائية - فيما بعد - هذه الفكرة ، وكانت أهم دعامة لهاياتهم .

أو قوله :

عقد الخلائق في الإله عقائداً وأنا اعتقدت جميع ما اعتقدوه

أو قول بعضهم :

إن نحرّ للأحجار في اليد عاكف

وإن هب النار المحروس وما انطفت

فما عبدوا غيري وما كان قصدم سوى ، وإن لم يظهروا عقد نيتي

ويقول السعد التفتازاني^(١) معارضاً الآراء الصوفية ومتحدثاً عن مذهب وحدة الوجود : الحلول والاتحاد مستحيلان على الله ، والمخالفون في هذا منهم نصارى ومهم متمعون إلى الإسلام ، ومنهم بعض المتصوفة القائلون بأن السالك إذا أمن في السلوك ، وغاض لجة الوصول ، فربما يحل الله تعالى فيه ، كالنار في الفحم بحيث لا يتأثر به ، ويتحد بحيث لا اثنية ولا تعابر ، وصح أن يقول هو أنا وأنا هو ، وحينئذ يرتفع الأمر والهي .

ومن هنا نادى الصوفية أن مسألة الإلهام ليس بحجة كما يقول ابن السبكي ، لجعلوا دلالة الذوق فوق دلالة النص ، وقالوا : إذا ما تعارض الأمر والذوق ، قدمنا الذوق على الأمر ، ويقول بعضهم :

يا صاحبي أنت تهاني وتأمرني والوجد أصدق نهاء وأمار
فإن أظلمك وأعصى الوجد رحمتهم عن اليقين إلى أوهام أخبار

ومن هنا أيضاً قالوا بأن الصوفي يتناق من السماء أحكامه ، التي قد تخالف أحكام الشريعة ، فالصوفية أباحت لهم أشياء هي محظورة على غيرهم .

(١) سمع الحديث التفتازاني من كبار العلماء الأصناف له كتب كثيرة مشهورة ، كان يعيش في مصر فيمورلك ، وروى في الأستاذ أحمد ترياني أنه قرأ أن شرف الدين الهرجيني المتصوف سأله مرة : هل جاء ذكر المتصوفة في القرآن ؟ قال نعم ، جاء ذكرهم بعد العلماء قال في أي آية ، فأجابه في قوله تعالى : « هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ، يريد وصف المتصوفة بالذين لا يعلمون » .

وإن كان لهذه الآراء أثر ، فإنما كان عند الفقهاء ، الذين ، ولا شك ، حكموا بكفر هذا ، لأن دليلهم وطريقهم إنما هما الكتاب والسنة ، وهل بعد الكتاب والسنة دليل ؟! ، ومن خالف الكتاب والسنة فقد كفر ، فما بالك هؤلاء القوم ، زعموا أن أحكامهم من السماء ، بل وزاد البعض منهم ، قادعى أنه وقد اتحد بالله ، وبلغ منزلة عليا ، فقد سقطت عنه التكاليف ، وزعم أن التكليف خاص بالدوام ، ساقط عن الخواص فإنه :

يطلب بالأوراد من كان عافلا فكيف بقلب كل أوقاته ورد

وهذه ولا شك دعوى باطلة ، اصطلمها قوم لرغبة في نفوسهم وغاية لهم ، وإما ترى الفقهاء محقّين في هذه الناحية في تقدم لهذا الفريق من الصوفية . بل ومحقّين في تجريمهم لهم ، فقد يقبل المفكر أن يناقش فكرة وحدة الوجود أو الاتحاد والحلول ، ولكن لا أتصور أبداً مسألة سقوط التكاليف . إن زعم هؤلاء أنه وحى من الله ، فلعل الأرجح أنه وحى من الشيطان .

وتمت مسألة أخيرة أثبت بين الفريقين الفقهاء والصوفية ، هي مسألة السماع . نادى الفقهاء بأن لا خير في السماع ، سماع الجيد الصالح من الأقوال فإن النبي (ص) كان يستمع ويدعو إلى السمع ، ويحدثنا أبو حامد الخليلي أنه قال لأحمد بن حنبل : يا أبا عبد الله ، القصائد الرقاق التي في ذكر الجنة والنار أي شيء فيها ؟ فقال : مثل أي شيء ؟ قلت :

يقولون .

إذا ما قال لي ربّي أما استحييت تعصيني

وتخني الذنب من خافي وبالعصيان تأتيني

فقال أعد ، فأعدت عليه ، فقام ودخل بيته ، ورد الباب ، فسمعت بحيه من داخل البيت وهو يردد البيتين . وليس في مثل هذه الأماشيد من بأس ، فقد يكون فيها تذكير لبعض النفوس الغافلة ؛ وإنما تدخل في قبيل اللهو إذا كانت توضع في ألحان الغناء ، حتى تكون اللذة في طيب الغناها لا فيما إحوته من حكمة وموعظة .

هذه هي وجهة نظر الفقهاء كما يوضحها أحدهم، ولكننا نرى الصوفية قد اتخذوا مجالس الأذكار، يرددون فيها اسم الله آلاف المرات، حتى إذا ما أخذتهم الجلالة - كما يقولون - غمروا مغشياً عليهم، إن تعباً أو خشية من الله - ونرى الغزالي يقول في الإحياء: متصوفة أهل هذا الزمان - إلا من عصمه الله - اغتروا بالزى والمنطق والهيئة من السماع والرفص، ولم يتعبوا أنفسهم في المجاهدة والرياضة.

ولكننا نجد الصوفية يغنون قصائدهم التي يتغنون فيها بحب الله وبالإعراض عن الدنيا، إنهم فيها لا يتشبهون بغادة حسناء، ولا يتغزلون بكاعب ناهد لعب، ولكنهم يحدثون الله، يبينون عن عشقهم لذاته، ويظهرون حبه لهم، تلك القصائد التي نجدها في ديوان ابن الفارض وفي شعر ابن عربي والسهروردى المقتول:

أبدأ نحن اليكم الأرواح ووصالكم دبحانها والراح

هذه خلاصة للصلة بين النقل والتصوف تظهر لنا انضال الطويل بين الصوفية والفقهاء، وهو فضال دافع فيه الصوفية عن عقائدهم، دافعوا بالروح وبالبدن، وكلفتهم آراؤهم ثمناً فادساً، فقد قتل منهم الحلاج والسهروردى، ونكل بنير هذين.

ومن الحق أن نقول إن العلماء الفقهاء المنصفين، العارفين روح دينهم، العاملين بأمرار الشريعة السمحاء، لم يكونوا أبداً هم السبب في هذا الاضطهاد، وإنما هي فئة قليلة، توجد دائماً في كل عصر ومصر وزمان، تولب الحكام على أمثال هؤلاء المتصوفة الزهاد الناسكين، وتنعدهم إلى غيرهم من أحرار الفكر ودعاة التقدم أعداء الجود، فإذا جهلاء ومؤلاء يلقون اضطهاداً ويقاسون هفواً، ثم لا يلبث التاريخ حتى يصنفهم، فإذا بذكراهم تعود طائفة فياحة فضرة.

الاساطير عند مختلف الشعوب

للمؤلف: محمد الشبح

لغتي في الأدب الإنجليزي

لا نستطيع أن نلحق الاساطير Mythology بفروع المعرفة النافعة التي تزداد بها مقدرة الإنسان ، وتربو ثروته ، ويرتفع ذكره ، ويدبح صيته في المجتمع الذي يعيش بين ظهرانيه . ولكنها مع ذلك من المعارف التي لا غناء لنا عنها إذا جعلنا السعادة النفسية والمتعة الروحية هدفاً لنا ننمنا في حياتنا ، فالاساطير مصدر لكثير من الثقافات الشعبية والعقائد الدينية التي إذا أجدنا فهم أسرارها وتوصلنا إلى المعين الذي صدرت عنه جداولها الأصلية ، أمكننا أن نحيا حياة هادئة مستقرة راسخة ، نعرف ماضيها ونستمد من بين رماده ومضات وهاجة تصلها بحاضرها ، وتبرق على أضوائها أحلام المستقبل .

وقد كان العربي قليل الحظ من الاساطير ، ومن ثم نشأت دياناته الأولى تافهة سطحية . لا يمكن أن تجرى بحرى الديانات الهندية أو الإغريقية أو الرومانية ذوات الفلسفات العميقة ، والآلهة العديدة الجبارة ، فهي نتاج أساطير رائعة استلهمتها تلك الشعوب من يثانها الزاخرة بشتى الكائنات الحافلة بكثير من الأعاجيب . بل إن العرب قد عزفوا عن آداب الأمم الأخرى وولوا عنها مدبرين ، حين لمسوا فيها ما يهدد عقيدتهم الدينية ويعدو على شعائهم التي عكفوا عليها طويلاً ، وأمنوا في الخذر والخوف فتجافوا عن كثير من الفنون الجميلة كالنصير والتمثيل والسمت حين جاء الإسلام وقضى على عبادة الأصنام .

ولا جدال في أن الأقليم تأثيراً قوياً في النازلين به ، وفي مدى انفساح حيالهم وعمقه ، بل إن الإقليم هو المرجع الأول الذي نعزو إليه وفرة الاساطير وتمدها في أمة من الأمم أو مدرتها وتفرقها ، ولذلك رأينا العربي في صحرائه الجرداء يعيش عيشة بدوية ، لا مأوى له غير مساكن متنقلة يصطعبها من شعر

عزلة أو ورنافته ، ولا تكتنفها غير رمال شاسعة لا يبعدها البصر فاصطنع خياله بتلك المسحة السطحية المنبسطة ، وعجزت ملكة الابتكار فيه عن اختراع الموضوعات ، وخلق الشخصيات .

فأما ديانات الأعريق والرومان القدماء فقد انطعات شعلتها منذ زمان طويل ، ولم تعد نرى لها بين الأحياء فرداً واحداً يتخذها عقيدة لنفسه ، فقد أصبحت لا تمت إلى العقائد الروحية صلة ، بينما أصبحت وثيقة الارتباط بفرعين من فروع المعرفة الإنسانية هما الآداب والفنون ، حيث مازالت تلقى ظلالها في صفوة النتاج الأدبي والفني قديمه وحديثه ، حتى أننا نندر اليوم ألا نجد إشارة إليها في قصائد الشعراء ومقالات الكتاب وخطب الخطباء . فلا بد لمن يبغي تذوق آداب عصره واتهاها من الينابيع التي أمدتها بالجمال الأسر والسحر الخلال الأخاذ ، أن يسبح بحمالة في أجواء مفعمة بالأساطير الأغريقية والرومانية التي جادت بها ملكة الابتكار عند شعوب نشأت في بيئات مابضة بالحياة نائرة بالحركة والنشاط .

ولا بد لنا لكي ندرك مغزى أساطير الأعريق أن نعرف شيئاً عن مدى ما وصل إليه علمهم بتركيب العلم جميعاً ، فقد تناقل الرومان وغيرهم من الشعوب عن الأعريق تلك المعرفة ، كما اقتبسوا منهم كثيراً من العلوم والدين .

وكان الأعريق يعتقدون أن الأرض منبسطة دائرية وأن بلادهم تشغل جزءها الأوسط حيث يحتل جبل أولمبس Mount Olympus ، محيط الآلهة ، المنطقة المركزية منها . وبدا ذلك القرص الدائري لأعينهم تنحرفه من الغرب إلى الشرق مياه البحر الأبيض التي تشطره شطرين متساويين ، وتحف به مياه المحيط التي تجري من الجنوب إلى الشمال في الجانب الغربي وفي اتجاه عكس ذلك في الجانب الشرق ؛ تلك المياه التي يفيض تيارها ثابتاً هادئاً لا تهبه عاصفة أو تعبث به ريح .

واعتقدوا لذلك أن الجانب الشمالي من الأرض يسكنه قوم تنعمهم السعادة ويحوظهم النعيم الدائم ، لا يعانون مرضاً ولا يشكون عوزاً ولا يجهدون كدأ ولا يقنون حرباً . أما في الجانب الجنوبي فيعيش قوم يدعون الإثيوبيين Ethiopians تحبهم الآلهة عطفها وتسخ عليهم كرمها . وفي الشريط الغربي يقيم

أناس في سهل الفردوس Elgsian Plain لا تمتد إليهم يد الموت العانية ، فهم في متعة أبدية وفي رخاء مقيم .

وهكذا نرى قدماء الاغريق يكادون يجهلون أمر الشعوب الاخرى جميعاً فينهض خيالهم حينئذ يعمر مجاهل الارض — كما تخيلوها — بأشباح ووحوش وسحرة ، أو بأقوام تواررهم الآلهة وتسبخ عليهم ودها وفيضها .

أما الشمس والقمر فقد حسبوهما يطلعان ويبحيان من المحيط ، وتخيّلوا لإله الشمس زورقاً يجنحاً يندرع به الارض جيئةً وذهوباً ، ليقلعه من غربها عبر مياه المحيط إلى مشارق الارض ، حيث يطلع بنوره على الآلهة والناس . بل إن خيالهم قد لم كثيراً في تصوراتهم ، فزعموا أن الآلهة تتقابل جميعاً في ردة فسيحة بأحد القصور الملوكية ، لتتناول طعامها وشرابها الذي توزعه عليها آلهة مفرطة الجمال تدعى ، هيب ، Hebe . وهناك يتناولون أمور السماء والارض بالعرض والنقد حيث تصل إلى أسماعهم الموسيقى العذبة مناسبة من أوتار آلة يحملها إله الموسيقى .

وكذلك اعتقد المصريون القدماء أن أول من حكم الارض هم الآلهة ، ثم انحدر منهم ملوكهم الاول الذين يرجعون إلى أصل سماوى ، وكانت تلك الآلهة — ككل الآلهة الوثنية — تتصف بكافة صفات البشر من التحاسد والتباغض ، والتآزر والتنافر ، فن الاساطير المصرية الدائمة حول حكم الآلهة قصة أوزيريس وما جرى له مع منافسة أخيه ، ست ، وما انتهى إليه الامر من قتل أوزيريس ، ثم عودته للحياة مرة أخرى ، وانتفاذ المصريين بعد ذلك لهذين الإلهين رمزاً للبعث بعد الموت .

وصفة القول في الاسطورة أنها ليست سوى قصة خرافية صاغها الإنسان البدائي وأنتجها خياله ، وانتخذ لها مسرحة الافق الذي يمتد إليه ناظرناه ، فإن ضائق به ، فيلى ميدان أرحب وأفسح يكون فيه أقدر على التحليق وافراض الفروض ، يفسرها ما حير ذهنه وأعجز عقله بالغازه وأساجيه . وبالرغم مما حوته تلك القصص من عقائد قد تبدو لنا اليوم سخيفة غريبة ، فهي صورة العهود التي كتبت فيها ، ومراة تنعكس عليها عقليات الشعوب المختلفة في بداية نشأتها وما كانت تموج به نفسيات تلك الامم من آمال وآلام .

عجالات في الأدب العربي :

جرامات القلم

لفظيـر الاستاذ الشيخ كامل محمد عبيد

مدرس الادب بالازهر

فما ألقى إلينا التراث الأدبي العربي بقايا كثيرة غزيرة جدية بالتفصي والدرس ، ومنها مخلفات الطغتن القاسية من القلم واللسان ، والرميات المدمية من الصرامة والبيان . وقد بما جتمعت الصحراء العربية من المرواحات ، إلا في جوانب قليلة ، فسيطرت عليها عواصف العصية وأخذتها نشوة الصرعات القبلية ، فسخرت الشاعرية في مسالك الهجو والتفاخر ، وأرسلت عنان القول في الجحجح العادي والقول المصمى ، وفي حق الهجاء ، ونظم الشعراء الجاهليين مياهم طائشة ومواسم سوداء قائمة ، حتى إذا أشرقت دعوة الإسلام ، وإذا طلع الرسول على العالم بأدب القول والإحسان في الخصومة ، توارت نار العداوة القاسية في الصورة الفنية البليانية شيئاً ولم تخرج على الناس في ثوبها البشع .

ولما اتسعت وطنيات الإسلام ، وتوزعت الأقليمة الأدبية ، وقامت الدولات وتداخلت العاصر العربية وغير العربية ، وتلونت الفرائح ، ومصرت الأمصار وتباعدت الاقطار ، وغلت مراحل الخصومات السياسية ، وتناطحت الآراء واختلقت المذاهب ، وعرفت الأقلام طريقها في مزق الرقاق ووجوه الصحف وأطواه الكتب وأجنحة القراطيس . انتقضت الأقلام وتمردت ، وانعمست في محابر من الدماء ، وولفت في مسایل تجرّتها ببياناً قاسياً ، وقتلتا قاتلاً كاد يخطى على ما جاء في شعر الهجاء ، وما روى من نقائص الشعراء .

وساعد على هذا اللون صراع الدولة الأموية مع دعاة العباسية ، ثم قوى هذا الفن ما جدد في صحوة الدولة العباسية من سطوة الموالي وتمكنهم من قسمة الحكم والحجاية والسبق في ميادين العلوم والفنون . وإلى جانب هذا ما نشأت الحضارة من عبقريات نستشهد فيها بابن المقفع ، والجاحظ ، والصابي ، والحريري ، وابن أبي الحديد ، والقاضي الفاضل ، وكتاب مدرسته الصناعات والمتصعين .

• • •

ولست من الذين بضيقون بالراث الذي حلفت الممارك اليبانية ، لأنني أجد فيه قوة - إن سودها الغضب - فقد يشفع لها عندى متانة الأداء ، وصرامة الجلال وأصابة الهدف ، وتسيد الصرية ، وصلى القول أحيانا ، ومن وراء ذلك رسم معالم لنفس المتحاصمين والمتطاحين قد لا يجده عند المداحين والمطربين بالحق والباطل . فالقارىء في رسائل المدح والشكر ، يجمع مع البيان ملقا يزداد ثم يزداد حتى ليكاد يصرفك عن التفرز بمتمعة الإجابة الفنية ، ولكن الجاحظ مثلا حين يصور البخلاء ، والصابي حين يصف من يغدر بعد وفاء ، والحريري حين يرصع في الأشياء فلس من وراء حرارة الصدق ما مُنِيَتْ به الإنسانية - ولا تزال - في نفوس تعرفها بسيماها من شر قانع في طواياها ، وغدر ثابت في حناياها .

ولولا تشيكية الأدباء ، وشكائات أقلامهم . ولولا محامتهم المصورة لتلك الطباع لصاعت معالم نجد لها في حياتنا المحدثه أشباها وأمثالا حية تجري بيننا ولا توصف إلا بسحر البيان الماضى . في مثله ، وفي قصته ، وفي جلته البليغة ، وجماعته الموفقة ، ولذعته الساخرة ، وتعرضته المصعقة ، ووصفته السارية ، وملعته التالدة ودعائه الشاقة .

وإنك أيها القارىء لو اجد في كتب الرسائل والمحاضرات ، ومفردات النقد وجامع المحاسن والمساوى ، والمسكافات والمقامات ، حيوات كاشفة عن الاتجاه الذى نذهب إليه ونرتضيه من الأدباء الذين عاشوا في حرب قلبية ، وأفنوا أعمارهم في ميادين الصراع السياسى والأدبى ، وصدقونا ما وجدوا من متاعب ومصاعب وصارحونا حين لم يسكتهم سلطان الحاكم عن أناس تحكمت فيهم شهوة الطغيان وأطربهم سحر الانانية ، وأعمهم بريق المال ، وتحكم فيهم مارد البخل ، وشيطان

الشعخ ، والذي يتمتع في هذا الفن اليان ما صورت الافلام في كتب الرحلات وما وصفت في طبائع بعض البلدان . وما كشفت من خصائص الاقاليم ، وما قارنت به بين العواصم ، وما فاخرت به على السنة المدن ك بغداد ، ودمشق ، وقرطبة ، وأشبيلية ، وكنغر تاطة . وأمتع ما يتمتع ما جاء في كتب الاندلسيين من مفاحرات بين مدائنهم . وقد تعرض فن القلم في هذا الميدان للأفراد والجماعات وتمدى الطيعة إلى الحيوانات فضلا عن الدويلات وحلافها ، والمالك وساسنها . وإلى لذا كر مثلا موجزها ، ونفعا تشير إلى الخصائص والطرائف ويكفي منها الإيلاس . روت كتب الادب فيما أجمع الناس عليه من بخل أهل (مرور) : إن تمامه ابن أشرس . قال :

« ما رأيت اليك قط في بلدة إلا وهو يدعو الدجاج وينثر الحب إليها ويلطف بها ، إلا في (مرور) فإن رأيت يأكّل وحده ، فعلت أن لؤمهم في المأكّل . »
ومن رسالة « البديع الحمذاني » يذم والياً فاشلا في عمله : « إنما جره الحبل ليضع كما صفع من قبل ، وستعود تلك الحالة لحالة ، وتقلب تلك الحبل حباله ، إلى أن يقول : (ماذا ؟ أليس ما سلب أكثر مما أعطى ، وما حرم أفضل مما أولى وما عدم أوفر مما غنم) » وما كتبه (بشر البليوي) في تصوير بعض الناس :

« أما بعد ، فإن من الناس من تحمل حاجته أهون من خش طلبة ، ومنهم من حمل عداوته أخف من ثقل صداقته ، ومنهم من إفراط لا تمته أحسن من قدر مدحته ، وإن أقه حاق (فلان) ليغم الدنيا ويقدر به أهلها . . . فاسأل الذي فتن الأرض بحيانه ، وغم أهلها بيقانه ، أن يدل بطنها من ظهرها . »

• • •

ولا أريد أن أطيل في الاستشهاد ، فإن للشعراء والبلغاء في الذم والهجاء نظما وشرأ ما تضيق به الصحائف ، ولكننا لا نملك في أن في الناس من يستحق الإهراق بالوسيات الأدبية القاسية ، ومن هؤلاء من اتصف بسوء الخصال ، وأنهم بأخلاق الأراذل والاندال ، وجعل اللؤم جلبابه وشعاره ، والبخل وطاهه ودناره .

ومن أوجز ما قاله أديب أعرابي في وصف أقوام « هم أقل الناس ذنوباً

الى أهدائهم ، وأكثرهم تجرما على أصدقائهم ، بصومون عن المعروف ويفطرون على الفحشاء .

وقال أحمد بن يوسف الكاتب في بنى سعيد بن مسلم بن فتيبة : محاسنهم مساوية السفل ، مساوئهم فضائح الأمم ، والسفهم معقودة بالي ، وأيديهم معقولة بالبخل ، وأعراضهم أعراض الذم ، فهم كما قيل .

لا يكثرول وإن طالت حياتهم ولا تئيد غنازهم وإن بادوا .
وقد لا يكون الكاتب صادقا في حلقته ، ولكنه فيما يصور لا يقدم أن تكون ضربائه قيا توجه واجدة من تنزل عليهم صادقة واصفة مفصحة .

وانى لمنه الاستشهاد بصنيع الجاحظ في بخلائه حين وصف صد يقاله فقال .
ولا تقولوا الآن : قد واقه أساء أبو عثمان إلى صديقه ، بل تناوله بالسوء حتى بدأ بنفسه ، ومن كانت هذه صفته وهذا مذهبه ، فغير مأمون على جليسه وأى الرجال المذهب .

هذا والله الشيوخ ، والتبوع ، والبذاء وقلة الوفاء .

اعلوا أنى لم أتمس بهذه الأحاديث عنه الا موافقته ، وطلب رضاه ومحبة ولقد خفت أن أكون عند كثير من الناس دسيسة من قبله ، وكينا من كانه وذلك أن أحب الأصحاب اليه أبلغهم قولا في آياس الناس بما قبله ، وأجودهم حسما لأسياب الطمع في ماله... الى أن يقول : لأن شهرته بالقبيح عد نفسه في هذا الأقليم قد أغتته عن التنويه والتتبيه على مذهبه . وكيف وهو يرى أن سهل بن هرون واسماعيل بن غزوان كانا من المرففين ، وأن الثورى والكندى يستوجبان الحجر : وبلغنى أنه قال : لو لم تعرفوا من كرامة الملا نسكة على الله إلا أنه لم يبتلهم الفقة ، ولا بقول العيال : هات ، لعرفتم حالتهم ومنزلتهم) .

ومهما يكن ، فإن الأدب الذى حل أثر تلك الجراحات القلية يستحق الدراسة النفسية ، والصيرفة البلاغية ، والمقارنات التاريخية ، والاستقصاءات لا المجالات المسرعة ، والخطرات الطائرة ، والنقيات الخاطفة

وإنها لجراحات لا ينضب لها معين :

جراحات السنان لها التام ولا يلتام ما جرح اللسان

آراء في إعجاز القرآن الكريم

لفضيلة الأستاذ محمد عبد المنعم خفاجي

المدرس بكلية اللغة العربية

— ١ —

عنى العلماء من قديم بالتأليف في إعجاز القرآن الكريم . ومن أشهر هذه المؤلفات :

١ — إعجاز القرآن لأبي عبيدة المتوفى عام ٢٠٧ هـ ولعل الذي دعاه إلى تأليفه هو الرد على بعض المعتزلة الذين ذهبوا إلى أن فصاحة القرآن الكريم غير معجزة بنفسها .

٢ — نظم القرآن لإمام العربية الجاحظ المتوفى عام ٢٥٥ هـ . وقد كشف فيه الجاحظ عن أسرار إعجاز القرآن الكريم بأسلوبه البليغ وبيانه الفصيح المأثور .

٣ — إعجاز القرآن في نظمه وتأليفه لأبي عبد الله محمد بن يزيد الواسطي المتوفى عام ٣٠٦ هـ ؛ وقد شرحه عبد القاهر الجرجاني شرحاً كبيراً سماه المعتضد وشرحاً آخر أصغر منه .

٤ — نظم القرآن لابن الإحشيد ، وكذلك لابن أبي داود م ٣١٦ هـ .

٥ — كتاب إعجاز القرآن للرماني م ٣٨٣ هـ ، وكذلك للإمام الخطابي م ٣٨٨ هـ ، وكذلك للإمام القاضي أبي بكر محمد بن الطيب الباقلاني م ٤٠٣ هـ .

٦ — دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني م ٤٧١ هـ .

٧ — كما ألف في الإعجاز نحر الدين الرازي م ٦٠٦ هـ ، وابن أبي الأصبع م ٦٥٤ هـ ، والزمكاني م ٧٢٧ هـ ، والرافعي المتوفى عام ١٩٣٦ م .

- ٢ -

كان الجعد بن درهم في عصر بني أمية يقول : إن فصاحة القرآن الكريم غير معجزة ^(١) ، وجاء بعده أبو إسحاق إبراهيم النظام الممنزل المشهور فذهب إلى أن سبب الإعجاز هو الصرفة ، ومعنى هذا أن القرآن لا يرتفع من الناحية البيانية عن طاقة البشر وقدرتهم ، لولا صرف الله لهم أن يأتوا بمثله ، ويُروى عنه رأى آخر ، وهو أن الإعجاز إنما كان من حيث إخبار القرآن الكريم بأنباء الغيب الماضية والمستقبلية .

ولكن الجاحظ يثبت الإعجاز للقرآن الكريم ، ويرجمه إلى بلاغته الساحرة وخصائصه البيانية الرائعة ونظمه المعجيب وفصاحته الباهرة ؛ فالقرآن في الذروة من البلاغة ، وفي القمة من الإعجاز ، وقد تُحدِّدوا به فلم يقدرُوا به ، وتُجَمِّلُ عليهم العجز عن معارضته ، واعترف أساطين البلاغة منهم ببلاغته ، حتى قال الوليد ابن المغيرة بعد أن سمع القرآن من الرسول : والله ما فيكم رجل أعلم بالشعر مني ولا برجزه ولا بقصيده ولا بأشعار الجن ، والله ما يشبه الذي تقول شيئاً من هذا ، وواجه إن لقوله الذي يقول حلالة ، وإن عليه لظلاوة ، وإنه لثمر أعلاه مفدق أسفله ، وإنه ليعلى ولا يعلى عليه .

وعلى نهج الجاحظ سار عبد القاهر الجرجاني صاحب دلائل الإعجاز الذي دافع عن إعجاز القرآن الكريم ، وأرجعه إلى خصائص النظم العربي ودقائقه ، وما تجدد ^(٢) بالقرآن من هظيم المازية ، وباهر الفضل ، والمعجيب من الوصف حتى أعجز الخلق قاطبة ، وحتى لم يجر لسان ، ولم ين يبان ، ولم يساعد إسمكان وكما يقول عبد القاهر أيضاً : ^(٣) أعجزتهم من أيا ظهرت لهم في نظمهم ، وخصائص صادفوها في سياق لفظه ، وبدائع راعتهم من مبادئ آية ومقاطعها ، وبجاري ألفاظها ومواقعها ، وفي مضرب كل مثل ومساق كل خبر ، وبهرم أنهم تأملوه

(١) سنعود إن شاء الله إلى هذا الرأي بالبحث والتفد وإقامة الأدلة على خطائه .

(٢) ص ٩ المدخل إلى دلائل الإعجاز من الطبقة الثانية .

(٣) ص ٣٣ دلائل الإعجاز .

سورة سورة ، وعشراً عشراً وآية آية ، فلم يحسدوا في الجميع كلمة ينبو مكانها بل وجدوا انساقا بهر العقول ، وأعجز الجمهور . .

أما القاضي الباقلاني فقد أحصى جملة وجوه إعجاز القرآن في ثلاثة . ما في القرآن من الأخبار عن الغيب بما لا يقدر عليه البشر ، ولا سبيل لم إليه ؛ وما فيه من أخبار الأمم القديمة ، مع أمية الرسول الظاهرة : ونظم القرآن الكريم وعجيب تأليفه ، وتباهيه في البلاغة إلى الحد الذي يعلم عجز الخلق عنه . وقد شرح الباقلاني وجوه الإعجاز في نظم القرآن الكريم : وتحدث عن التحدى والإعجاز وكل ما يتصل بهذا الباب ، في كتابه المشهور ، إعجاز القرآن الكريم ، الذي قال فيه ابن العربي : لم يصنف كتاب مثله :

وتحدث القاضي عياض في كتابه ، الشفاء ، عن إعجاز القرآن الكريم وأرجعه إلى وجوه أربعة : أولها : حسن تأليفه والتأم كله ، وفصاحته ، ووجوه إعجازه وبلاغته الخارقة ، وثانيها صورة نظمها العجيب ، والأسلوب الغريب المخالف لأساليب كلام العرب ومناهج نظمها وثرها . وثالثها : ما انطوى عليه من الأخبار بالمغيبات ، ورابعها : ما أنبأ به من أخبار القرون السالفة ، والأمم البائدة ، والشرائع الدائرة ^(١) . .

ومن العلماء من يذكر من وجوه الإعجاز : جدة القرآن على التلاوة ، وجمعه لعلوم ومعارف لم يحيط بها أحد من علماء الأمم ، وما حواه من أخبار الأولى والآخرة ، ومشاكله بعض أجزائه بعضا ، وحسن إلتلاف أنواعها والتأمل أقسامها وحسن التخلص من قصة إلى أخرى ، والخروج من باب إلى غيره . ومنهم من يرجع الإعجاز إلى خلو القرآن الكريم من التناقض واشتماله على المعاني الدقيقة ، ومنهم من يقول : إن وجه الإعجاز ما تضمنه القرآن من المزايا الظاهرة والبدائع الرائقة في الفوائض والمقاصد والحواشيم في كل سورة وفي مبادئ الآيات وفواصلها .

وقد عرض السيوطي في كتابه ، الإتيان ، لإعجاز القرآن الكريم ، وذكر بعضاً من آراء العلماء فيه ^(١) .

وأرجع الإمام الرازي الإعجاز إلى . الفصاحة ، وغرابة الأسلوب ، والسلامة من جميع العيوب . وأرجعه الإمام الزمלקاني إلى تأليفه الخاص به .

وقال ابن حازم في « منهاج البلغاء » : « وجه الإعجاز في القرآن من حيث استمرت الفصاحة والبلاغة فيه من جميع أنحاء في جميعه استمراراً لا يوجد له فترة ، لا يقدر عليه أحد من البشر » .

وقال الإمام الخطابي : ذهب الأكثرون من علماء النظر إلى أن وجه الإعجاز في القرآن من جهة البلاغة ، لكن صعب عليهم تفصيلها ، وصفوا فيه إلى حكم الذوق ثم قال : حتى لا ترى شيئاً من الالفاظ أفصح ولا أجزل ولا أعذب من الفاظه ، ولا ترى نظماً أحسن تأليفاً وأشد تلاقؤماً وتشاكلاً من نظمه ، وأما معانيه فكل ذي لب يشهد له بالتقدم في أبوابه ، والترقى إلى أعلى درجاته .

إلى ما سوى ذلك من الآراء في إعجاز القرآن الكريم ، والتي تشعبت كلها ، ثم تلاقت في موجة ، في بحر بلجي زاخر ، هو دون القرآن الكريم في روحه وجلاله ، ودون إعجازه العظيم في سره وسهره وعظمته . ولقد مضى القدماء في بحثهم عن الإعجاز ، ثم لم يستطيعوا الوصول إلى غايات الإعجاز ؛ وأعاد المحدثون الكلام فيه ، وإن كانوا لم يرجعوا لطائل : فبعض جعل وجوه الإعجاز في ما يشتمل عليه القرآن من قوة روحية خارقة ، ومن أحداث التاريخ المجهولة ، ومن الأسلوب المنطوق والأسلوب العلى . وآخرون يرددون الآراء القديمة : شارحين أو ناقدين .

— ٣ —

وهذا كله على أي حال صور من ثقافات العلماء ، وعقلياتهم ، وملكاتهم ، ونزعاتهم في فهم أسرار بلاغة القرآن الكريم وإعجازه .

ومن تعود بالفقار إلى فطرته الأدبية وحدها ، فنطالبها بالفهم والنقد والحكم في قضية الإعجاز .

(١) ص ١١٨ ، ٢ الإتيان طبعة القاهرة ١٩٣٥ ، وما بعدها .

فقد نزل على محمد صلوات الله عليه كتاب من عند الله ، هو أعظم دستور عرف في شرائع الإنسانية ، وأروع كتاب أثر في تاريخ البلاغة الأدبية : ودعى العرب إلى الإيمان برسالته ، وهو في ذلك يحتاج عليهم بالقرآن ، وبدعوى صباح مساء إلى أن يمارضوه إن كان كاذبا ، بسورة واحدة ، أو بآيات بسيرة . وكلما ازداد تحديا لهم ازدادوا عجزا وخزيا ، مع طول باعهم في من البيان ، ومع أنهم كانوا أكثر ما يكون خطيباً وشاعراً وبليغاً . ثم مضت الأجيال ، والعلماء والأدباء والبلغاء والنقاد والمؤلفون في كل عصر يترفون بإعجازه ، ويقرون بقصورهم عن بلوغ منزلته في البلاغة والفصاحة والبيان . ولا تزال الفطر الأدبية الخالصة تهتز اهتزاز الإعجاب والإكبار ، كلما سمعت آية من آياته ، أو سورة من سوره . ولا تزال الموازنة بينه وبين ما سواه من الآثار الأدبية والدينية والعقلية مستحيلة ممتعة ، لبعد ما بينه وبين سواه من الآثار كبعد ما بين السماء والأرض : فهل ذلك إلا لأنه كتاب الله الحكيم ، ومعجزة محمد الباهرة ، والآية الناطقة على صدق رسالته ؟ وهل ذلك إلا مظهر لبلاغة القرآن الباهرة : ودليل على إعجازه وأنه من عند الله .

— ٤ —

وبعد . فإنا قبل أن نختم هذا البحث نقول : إن أظهر أسرار إعجاز القرآن الكريم تتجلى فيما يلي :

١ — بلاغة القرآن النادرة ، التي لا يحيط بها وصف ، ولا يستطيع أن يكشف خصائصها باحث ؛ ويكفيك أن علوم البلاغة والنقد والإعجاز قد وضعت للكشف عن مظاهر هذه البلاغة وأسرارها ؛ ثم هي الآن ، وبعد مضي أكثر من عشرة قرون من الزمان ، لا تزال في أول الفسابة ، هي أن بلاغة القرآن أوسع مدى من البحث عن استعاراته وكنائياته وتشبيهاته وأمثاله ، وحكمته وإعجازه ومجازه ، فهي تشمل كل خصائص الفن الأدبي والبياني في القرآن الكريم .

٢ — روعه القرآن وجده ، وأخذه بالافتدة والاسماع والمشاعر والمواطف والنفوس .

٣ — عظمة تصويره للحياة الإنسانية في ماضيها وحاضرها ومستقبلها ،
وللنفس البشرية في سلبها وحربها ، ولطوها وجدما ، وأملها وألمها ، وكفرها
وإيمانها ، وللثقل العليا في الحياة المهدبة الكريمة التي يعمل لها الإنسان وتسير
لشأطها الآمين الانسانية .

٤ — سمو الروح في القرآن الكريم : فهو ليس كتاب قصص أو تسلية ،
أو أدب أو حكمة أو فلسفة ، أو تاريخ أو اجتماع . وإنما هو خلاصة لكل ما في
الحياة من ثقافة وحقائق . ويزيد على ذلك بأنه منهج كامل للحياة الروحية
والاجتماعية والبشرية الكاملة الصحيحة السليمة ، وما أجدرنا أن نقول : إنه
كتاب الإنسانية كافة .

٥ — جلال أثره الأدبي في لغة العرب وأدبهم . وفي حياتهم ، وفي حياة
المسلمين والعالم .

٦ — خلوده على مر الأيام والامكنة والمعصور ، وبجزئ الناس عن معارضته
مع أنه تحدى ولا يزال يتحدى الناس كافة ، ومع ما يشتمل عليه تاريخ العالم من
أفذاذ المفكرين والأدباء والبلغاء .

٧ — بساطة أسلوب القرآن الكريم ووضوحه وجماله وقوته وجزالته
وهذوبته .

٨ — شرف معانيه ، وسمو حكمه ، وجلال دعوته ، وصدق حجته وعمق
منزعه ، وعلو تصويره .

٩ — والدليل الأخير على الإعجاز هو عظمة أغراضه ومقاصده ، ورفعة
مراميها ومنابعه ، وعبقورية غاياته ورسالاته ، وتوجيهه البشرية كافة إلى حياة جديدة
فيها الأمل والسعادة ، والأمن والسلام ، والخير المطلق ، والإخاء والحق
والعدالة ، والحرية والمساواة بين الناس ؛ وصدق الله العظيم حين يقول : تبارك
الذي نزل الفرقان على عبده ، ليكون للعالمين نذيرا ،

ولما هودت إلى هذا الموضوع إن شاء الله ، وما توفيقى إلا بالله .

الشَّعْرُ

للمؤلف: إبراهيم عمار

مراقب بالأزهر

من يوم أن اختفى من الوجود صوت حافظ وشوقي ، والشعر العربي
يُعاني أزمة عاتبة ، قد يُج لها صوته ، وخبا ضوؤه ، ولم يعد يُسمع
ألا كأنة المصدور .

وقد كان العهدُ به أنه الصوت المدوي الذي يسجل الأحداث ، ويسبق
الزمن في رسم الخطط ، وتحديد الأهداف ، ويحفز الأمة إلى نيل حقها المصوب
ويشير لها طريق الخلود ، ويقدها إلى حياة أخلاقها وعاداتها ونهضاتها بسياج من
الخلق والطموح والدين . كل ذلك وغيره في أدب تنفوسه النفس ، وأسلوب
تصبو إليه القلوب والعقول .

ومن عجب أن يكون هذا في وقت لم ينم الأمة نُصجها . ولم يتكامل وعيها ،
ولم ينتشر التعليم في بنيتها ، ولم تُنم ثقافتُ الغروب ولم تعدد اليشاشات ، ولم ترج
الصحف ، ولم ترق وسائل المدينية ولم يرتبط العالم برباط المؤسسات ،
وهقد المؤتمرات .

أجل ولم تكن الفتاة إلا كما مهملا ، لم تدخل مدرسة ، ولم تقرأ كتابا ، ولم
تغش الدواوي ، وكان دون دخولها الجامعة حرط الامتداد . . . ولم تُسد في الناس
حالة الشك في كل شيء ولا شيء . شك في العقائد والمعادن ، وشك في
الهدوء والاستقرار ، وشك في الأمن وفي السلام ، وشك في أي النظم خير
لبنى الإنسان .

فإننا اليوم نتفقد الشاعر فلا نجد له ؟ وإذا وجد فلقته متخاذلة ، وخياله ذابل ، وهمايه متداعية من الأعياء والانحطاط .

يقول أولو الرأي الثقات : إن سبب رقي الأدب يوعيه الشعر والنثر ، ينحصر في ثلاثة :

١ — صلاحية البيئة .

٢ — انتشار الثقافة .

٣ — الحكم الديمقراطي .

وقد اكتملت لأمتنا بفضل الله هذه الخلال ، ومع ذلك فقد هزل الشعر ، أو هو على وشك الزوال .

فهل من سبب لذلك ؟

قد يكون سببه أن ماشئنا لا يجدون في برامج التعليم المنهل العذب الذي يروى ظمأهم ويحييهم في الشعر .

فليس هناك درس لانشاده ، ولا جائزة للتفوق فيه ، ولا عقاب ينال من لم يحفظ منه شيئاً ، ولا تقدير لمن يمارسه أو يحاول التبريز فيه .

وقد يكون أن الصحف والمجلات — وما أكثرها — لا تفرد صفحة واحدة لانشاد الشعر والتفني به ، فكانت نتيجة ذلك أن تبورى في النثر حتى بلغ الذروة أو قارب ، وطرح الشعر جانباً .

وقد يكون أن الأدباء أرادوا أن يسدوا النقص في الأدب العربي ، ويدروا عنه ما عاق به ، فأقبلوا على القصص ، يتنافسون ويتبارون فيها ، واتصر لهم أصحاب الصحف والمجلات وصادف ذلك هوى لدى كبار الكتاب ، فعالجوها في بيان محكم واتقان بديع .

وقد يكون أن المجتمع المصري لا يُعنى به في قليل ولا كثير : فلهذا المحاضرات

والحوار في المتديات ، والخطب في المناسبات ، تثر كلها ، حتى في حملات الرثاء والتأبين لا تكون نسبة الشعر لما يُلقى فيها إلا كنسبة الواحد للبثات .

قد يكون هذا كله ، وقد يكون غيره ، عاملاً قوياً من عوامل فقور المتعلمين من الشعر ، ورغبتهم عنه ، وانصرافهم إلى النثر يؤدونه كأحكم ما يكون الأداء ، ويتقنونه كأحسن ما يكون الاتقان .

وهكذا خلا مكان الشعر أو كاد ، وأصبحنا نعيش على الماضي ودكره ، اللهم إلا من نفر يدعونه ويصطنعونه .

ألا أنكر أن الشاعرية هبة من عند الله ، ولكنها موهبة تذكو بالعمل ، وتسمو بالتعهد ، وتوق ثمارها في ظل الرعاية والتشجيع .

والآن وقد أتاح الله للغة العربية وللأزهر المعمور شيخاً ضليعاً ومصلحاً فذا خبيراً بشؤوننا العلمية والعقلية ومقوماتها فأنا نرتقب علاجه لهذه الحالة في لفظة وأطمئنان ، ولا سيما وقد وثق نفسه بعهد أذاعه على رجال الصحف والمجلات ، في أوائل هذا الشهر ، بأنه سيعمل على تهذيب الكتب ، ونقيح البرامج ؛ ويعد بأنه سيمنح جائزة للتفوقين في اللغة العربية .

فلعل ناشئة الأزهر تقدر هذه الرغبة ، وتقبل على رياض الشعر فتجني أطيب ثماره ، وتستوحيه ألوان القول فتمضي به قدماً إلى أبعد غاياته ، وتسمو به إلى أرفع درجاته ، مضممة إياه معاني تغذى العقول وتؤثر في النفوس .

ولعل معالي وزير المعارف وهو عميد الأدب وزعيم المنأدين يهب تدهور الشعر قبساً من تفكيره العميق الدقيق ، وخبرته الطويلة واقتراده على التنفيذ فإذا المتروك مألوف ، وإذا المكروه محبوب ، وإذا شباب الأمة مقبلون على الشعر يتذوقونه ، وعلى قوله يجيدونه .

لفتنة من لفتائك يا معالي الوزير الجريئة الخيرة تعيد للشعر مكانه ، وتزيل عن الأدب هابه ، وترفع اللغة رأسها ، والأمة صوتها ، وتجملك في هداد المجتدين الخالدين .

الافضل بن بذر الجمالى

مؤسّس مدرسة النعم محمد الشيخ

مدرس أول الاواب بالمعاهد الدينية

رأينا في مقالنا السابق ، كيف استطاع الافضل ، أن يرفع المستعلى ، إلى عرش الخلافة ، بعد أن قضى على نزار وحركته ، وقد كانت فرقة الزارية ، إحدى النتائج التي تمخضت عنها هذه الحركة . وسأعرض لهذه الفرقة في إيجاز .

قدم مصر عام ٤٧٩ هـ ، حسن بن الصباح ، رئيس الاسماعيليه ، واجتمع بالخليفة ، المستنصر الفاطمي ، ، وتمكّل بنشر الدعوة له في خراسان ، فأمدّه الخليفة بالمال ، وسأله ، ابن الصباح ، عن الخليفة من بعده فقال : ولدي نزار . وأقام ، ابن الصباح ، بمصر ثمانية عشر شهراً ، رحل بعدها إلى بلاد العجم ، حيث جد في نشر دعوته ، وبث تعاليمه ، حتى كثر أشياعه ، وأخذ يجمع السلاح سرّاً ، ولما قويت شوكته ، استولى على قلعة الموت Castle of almut ، من ملوك الديلم ، وجعلها مركزاً لثبوت دعوته الاسماعيلية ، ثم استولى بعد ذلك ، على قلعتي الدروغان ، ومن قلعة الموت أرسل دعاته ورسله إلى مختلف الجهات ، وأخذ يأتى على العلماء مسائل ، منها : لم كانت الأيام مبيحة ؟ والبروج اثني عشر ؟ ، وادعى أنه استأثر من إمامه بفواض العلوم ، وكثر أعياله للبلوك والرؤساء ، وجاء الامام ، أبو حامد الغزالي ، إلى نيسابور ، حيث ناظر أتباع ابن الصباح ، وألف كتابه ، المستظهرى ، ، وأجاب عن مسألتهم . وسميت فرقة ابن الصباح هذه ، بأدى الامر ، بالاسماعيلية نسبة إلى ، اسماعيل بن جعفر الصادق ، ، جد الفاطميين الأكبر ، وتحت هذه التسمية خدمت طائفة الاسماعيليه الفاطميين خارج مصر ، ودعوا إليهم . وبعد مقتل نزار على النحو الذى أشرنا إليه ، سميت هذه الطائفة باسم الزارية ، نسبة الى نزار ، الذى نص الامام المستنصر على خلافته ، من بعده ، وهم يعتقدون أن نزاراً لا محالة ظاهر على وجه الأرض مرة

أخرى وتحت هذه التسمية ، خدم الزاريون حزمهم ، وانفصلوا عن الفاطميين بمصر ، بل وعملوا على مناوئتهم على نحو ما ذكرناه . وسميت هذه الطائفة أخيراً « بالحشاشين » ، إما لأنهم كانوا يتعاطون الحشيش *consommateurs de hachich* ، أو لأنهم كانوا يقرمون بأعمال لا يأتونها إلا الحشاشون ، فأطلق عليهم هذا الاسم تجوراً ، وكانت لهذه الطائفة نظم تشبه نظم الطائفة الاسماعيلية عامة ، ولكنها تختلف عنها في التفاصيل . وهكذا كان نشوء فرقة الزارية ، من الظواهر العامة التى يتميز بها عهد الأفضل .

قضى المستعلى فى ١٩ صفر سنة ٤٩٥ هـ (١١٠١ م) ، وتولى الأفضل أخذ اليمامة الآمرية ، وخلف المستعلى ثلاثة أولاد هم : أبو على ، ونمت بالآمر ، وجعفر وعبد الصمد ، وكان عمر الأمر يوم تولى الخلافة ، خمس سنوات وشهراً وأربعة أيام ، ولم يستطع الخليفة الطفل أن يعتدل على فرسه يومذاك ، فأجلسه الأفضل أمامه ، على فرسه ، وطاف به القاهرة على هذه الحال .

وللقارىء أن يتصور مدى السلطة التى كانت للأفضل أيام هذا الخليفة ، فلما كبر ، واشتد ساعده ، أحس بنقل يد الأفضل عليه ، ففكر فى التخلص منه ، وفعلاً تم له ما أراد على نحو ما سذكره .

وكان للأفضل سياسة داخلية واضحة ، فقد بنى ، دار الوزارة الكبرى ، التى يقول : ابن عبد الظاهر ، إنها من بناء أبيه بدر ، ولكن كتب إبتاعيات الأملاك القديمة التى بتلك الحطة تدل على أنها من عمارة الأفضل ، وكانت هذه الدار طوال العهد الفاطمى ، مقر الوزراء ، ثم أصبحت بعد ذلك مقر الملوك ، وصار يطلق عليها ، الدار السلطانية . كذلك بنى الأفضل ، ومرصداً ، بسبب الاختلاف بين التقاويم الشامية والمصرية كل عام ، كما أمر ببناء خليج تحليه العامة ، ببحر أبى المنجا ، نسبة إلى أبى المنجا بن شعيب ، اليهودى الذى قام بحفره . كما بنى فى عهده كثير من الجوامع والمساجد ، منها جامع القبلة والمسجد الجيوشى ، وبنى المئذنة الكبيرة بجامع عمرو بن العاص ، والمئذنة السعيدية المستجدة به أيضاً ، وبنى جامع الجزيرة كذلك . وجدد الأفضل عام ٥٠٩ هـ ديواناً أسماه ، ديوان التحقيق ، أقام عليه ، أبابركات بن الليث الصرانى .

وأنشأ الأفضل كثيراً من البساتين والحدائق . وكان من أهم التنظيمات التي أحدثها الأفضل نظام خيالة أطلق عليه Squires of the chamber .

وكان على هؤلاء الفرسان تنفيذ أوامره دون اعتراض ، فهم يشبهون عندنا اليوم ما نسميه بالعرق القدانية . ويقص علينا الأستاذ Hanotaux في كتابه *Egyptienme Histoire de la Nation* ، جزء ٤ ص ٢٦٧ طائفة أخرى من إصلاحات الأفضل . فيقول إنه بظهور الأفضل على مسرح التاريخ الفاطمي ، ابتدأت سلسلة متصلة من الإصلاحات المالية ، فقد غير من قيمة القطع النقدية ، كما وضع نظاماً لتولى الخلافة في حالة عدم وجود وريث ، كما أنشأ مجلساً للمدائين ، وتبع من إصلاحات الأفضل ، رخاء شامل ، وأضحى ناتج الضرائب ضعف ما كان عليه أيام أبيه ، وليس هذا نتيجة لتعسف أو نحوه ، وإنما بسبب الإصلاح الذي عم مرافق البلاد جميعاً . كذلك يجب أن نقرر أن ازدهار البلاط الفاطمي لم يكن مرجعه إلى الخلفاء وحدهم ، بل أيضاً إلى وزرائهم الأكفاء الأقوياء الأثرياء .

أما عن سياسة الأفضل الخارجية ، فتتلخص في استرداد الممتلكات الفاطمية التي التهمتها دولة الأرمن ، وهي بيت المقدس وسائر فلسطين وقسم من غربي سوريا ، وكانت دولة السلاجقة إذ ذاك بالقسم الشرقي من سوريا . كما كانت هذه القوى التي تنظم الشرق الأدنى على شيء كثير من التفكك والانحلال ، مما مهد السبل أمام الصليبيين إلى لقمة سائغة . ويجب أن نقرر هنا أن حملة الأفضل التي شنها على سكان الأرمن سنة ١١٤٠ هـ ، وانزع بها بيت المقدس من يديه ، كانت في الواقع خطوة خطاها في صالح الصليبيين ، إذ بها أزال عقبة كؤودا من سيلهم ، ولقد تحمل السلاجقة الدقة الصليبية الأولى ، فذهبت إمبراطوريتهم مع الريح ، وأضحى الشرق الأدنى كله تحت رحمة الصليبيين ، لما شاع بين دوله من التفكك والانحلال . ولقد عقد الأفضل مع الصليبيين معاهدة ذهبت المصادر في تحليلها مذاهب شتى ، فابن الأثير يقول إن الأفضل عمد إلى محالفة الصليبيين خوفاً من قوة السلاجقة ، ويقول الأستاذ Hanotaux إن الأفضل قد توخى بذلك وجه الحكمة . أما الأستاذ ستانلي ل. بول Stanley L. Poole ، فينقل عن كتاب *Cp. Aist. Occ. der Croisades* Iv. 48,78 تعليلاً ،

لا أراء من العقل فى شىء ، إذ يقول : إن الأفضل ربما يكون قد اقتوى التحول إلى المسيحية ، وذلك يتقنه ما نعرف عن عقيدة الأفضل ، ومواقفه الدينية المشهورة ويقولون كذلك إن الفظائع التى اقترفها الصليبيون قد خوفت الوزير المصرى .

غير أن هذه المعاهدة الوهمية ، لم توقف الصليبيين عند حد ، إذ لم تمس الدافع الذى حرك الفرنجة من بلادهم ، وهو التعصب الدينى الأعمى . والمهم هو أن الصليبيين اكتسحوا الشرق الأدنى ، وأشبعوا أهله تقتيلاً ، ودياراً نهياً وتخريباً ، وكانت السياسة الدفاعية هى المسيطرة على الموقف حتى آخر الخلافة الفاطمية ، ويميل مؤرخو العرب إلى انتقاد سياسة الأفضل الخارجية من هذه الناحية .

ويحسن فى ختام حديثنا عن الأفضل ، أن نلم بشىء من أخلاقه وصفاته ، كان الأفضل مكرماً لأهل العلم والأدب ، وكان هو نفسه شاعراً وأديباً ، وخلفه مكتبة تحوى خمسة آلاف مجلد ، وصارت مصر مقصد الطامعين فى جوده من الشعراء والأدباء . وكان شديد الغيرة على نسائه .

وكان الأفضل يعيل ميل السنين ، فألقى الاحتفال بالموالد الأربعة : مولد النبى صلى الله عليه وسلم ، ومولد فاطمة رضى الله عنها ، ومولد سيدنا على رضى الله عنه ، ومولد الإمام الخليفة القائم بالامر ، وكان ذلك فى الواقع كافياً لتقويض دعائم الحكم الفاطمى ، كما كان ذلك أيضاً سبباً فى كراهية الزاريين له ، وقد يكون ميله السنى أحد العوامل التى أطاحت بحياته . كان الأفضل ثابت العقيدة راسخ الإيمان ، عادلاً ، حسن السيرة : حكى أنه لما قتل ، وظهر الظلم بعده ، اجتمع جماعة من الناس ، واستفتوا بالخليفة ، ولعنوا الأفضل ، فسألم الخليفة عن سبب لعنهم إياه فقالوا : إنه عدل وأحسن السيرة ، فغادرنا بلادنا وأوطاسنا ، وقصدنا بلدك لعدله وأصابتنا بعده هذا الظلم ، فهو كان السبب فى ظلمنا ، فأحسن الخليفة إليهم . وكان الأفضل كذلك لخل رأى حسن التدبير ، معترفاً بنفسه .

وقد ترك الأفضل ثروة ، أفاضت المصادر فى عدها وحصرها ، حتى بالعت إلى حد كبير ، ولكنها تبثنا على أى حال ، بما كان لذلك الوزير ، من سلطة مطلقة لا تحد . قصى الأفضل مقتولا : قيل بتدبير من الطائفة البدمية التى ضيق عليها الأفضل فى حياته ، وقيل - وهو الأرجح - بتدبير من الخليفة الأمر ، لتضييقه عليه ، وتدخله فى كل صغيرة وكبيرة من شئون الدولة .

المعرفة العباسية في القاهرة

دكتور هاشم محمد إبراهيم

مدرس الآداب بمعهد القاهرة

المعروف أن الظاهر بيبرس هو الذي فكر في اجتذاب الخلافة العباسية إلى القاهرة بعد أن نزلت بها كارثة المغول ببغداد ، والمعروف أيضاً أن نجاحه في ذلك المشروع قد أقال الخلافة من عرشها ، غير أنه من الحق أن يعلم أن بيبرس ليس أول من فكر في ذلك المشروع من الملوك والسلاطين الذين تداولوا حكم مصر الإسلامية ، وإنما هو الذي تولى تحقيقه بنجاح ، فقد حاول أحمد بن طولون اجتذاب الخليفة المعتمد إلى مصر كأنما أراد بذلك أن يلبس دولته الجديدة ثوباً شرعياً أو أنه كان يفكر في وسيلة ينتقم بها من الموفق ، فجاءت هذه الوسيلة خبط عشواء في إقامة الخلافة بمصر .

ولقد فكر محمد بن الإحشيد في ذلك حينما ذهب إلى الشام سنة ٩٩٤ ميلادية لإغاثة الخليفة المتقي .

ثم إنه لما وجد أمراء المماليك البحرية أن السلطة أصبحت في أيديهم بعد قتل المعظم توران شاه رأوا أن يوطدوا أركان دولتهم بموافقة الخليفة العباسي .

ولقد فعل ذلك أمراء المماليك عندما أعلنوا سلطة شجرة الدر ، وأرسلوا إلى بغداد يلتمسون الموافقة من الخليفة على ذلك السلطان ثم خلعوا السلطانة الماهرة تحت تأثير ما وصلهم من عدم رضا الخليفة .

ثم إن المعز أيلك لجأ للخلافة العباسية في الشهور الأولى من سلطنته ، ثم حدث أن تمزقت الخلافة العباسية بسقوط بغداد في يد هولاكو وقتل الخليفة وولده وأكابر بغداد .

ومن المحتمل أن معظم أبناء البيت العباسي قد قتلوا أثناء تلك الكارثة ، وقد فر من أبناء البيت العباسي ومن رجاله كل من استطاع إلى الفرار سيلاً

وربما كان معظم أولئك الذين استطاعوا الفرار من اللاحقين في البيت العباسي وليسوا من القريبين في سلسلة الخلفاء .

ومهما يكن ، فقد غيرت هذه الحادثة من سياسة الممالك نحو الخلافة ، فعملوا بعد سقوط بغداد على اجتذاب الفارين من أبناء البيت العباسي وغيرهم إلى القاهرة

والراجح أن السلطان قطز كان يفكر في أكثر من هذا وهو إما إعادة الخلافة إلى بغداد ، والدليل على ذلك أنه استدعى إلى دمشق بعد نصرته العظيم في واقعة عين جالوت سنة ١٢٦٠ ميلادية أحد أبناء البيت العباسي بالشام ، واسمه أبو العباس أحمد ، وبايعه بالخلافة وزوده بالجند ، ورجع هذا الخليفة من عند قطز إلى العراق واتصر فيها على شردمة من التتر وافتتح الأنبار وغيرها - ثم حدث أن اغتيل قطز فأرسل السلطان الجديد وهو بيبرس إلى أبي العباس أحمد يستدعيه إلى القاهرة ، غير أن أبا العباس كان قليل الحظ تلك المرة إذ أن سليلا آخر من أبناء البيت العباسي واسمه أبو القاسم كان قد سبقه إلى بيبرس - ولابد أنه أعلن أوليته وجدارته لمنصب الخلافة .

إزاء هذا السباق بين هذين العباسيين فضل أبو العباس الرجوع إلى الشام وقصد حلب حيث بايعه أميرها شمس الدين أقوش ، وكان خارجاً عن طاعة بيبرس ، وقد بايع الخليفة أيضاً كثير من زعماء حلب - ثم أخذ أبو العباس يعد مشروع العودة إلى العراق وقصد بما اجتمع إليه من أمداد زوده بها أمير حلب إلى «ناوشة التتر مرة أخرى ، وأقام هناك .

أما أبو القاسم فقد وصل إلى القاهرة ، وتلقاه بيبرس وأنزله بقلعة الجبل ، ومالغ في إكرامه وأحضر العربان للتعريف عليه وإعلان تسليته من العباسيين وعقد مجلس عام أعلن فيه أن الأمير أبو القاسم ابن الخليفة الظاهر العباسي ووريث أبو القاسم بالخلافة ، كما بايع أبو القاسم السلطان بيبرس ، بأن يكون سلطاناً على البلاد الإسلامية وما يضاف إليها . ثم كتب بيبرس في نفس اليوم إلى المموك والنواب في سائر الممالك ، بأن يأخذوا البيعة على أنفسهم وعلى من قبلهم للخليفة

الجديد ، وأن يدعى للسلطان بعد الخليفة ، وأن تقمض القود باسمهما . وأخذ
بيبرس يجهز الخليفة بالجيش لاسترجاع الخلافة إليه .

ويقال إن ما أنفقه بيبرس لا يقل عن مليون دينار . وخرج السلطان مع
الخليفة إلى دمشق ، وفي عزمه أن يكون عدد الجيش الخلفي ١٠ آلاف فارس
من عنده . غير أن أحد أمراء الموصل وسوس للسلطان بدمشق أن الخليفة إذا
استقر ببغداد نازع دولة المماليك وأخرجهم من مصر ، فأوجس بيبرس خيفة
ولم يجهز الخليفة بأكثر من ٣٠٠ فارس ، وسار الخليفة بهذا العدد إلى العراق
حيث انضم إليه ٤٠٠ فارس من عرب العراق الذين كان قد لجأ إليهم في أول
أمره ، كما لحق به أعداد من حماة والموصل ، وتقدم الخليفة بهذا العدد القليل
إلى مشهد على أطراف العراق حيث وجد منافسه أبا العباس أحمد في ٧٠٠ فارس
من التركان ، فاتفقا على اجتماع الكلمة لإقامة الدولة العباسية ، وتقدما معاً شطر
بغداد يريدان محاربة التتر ، وبالقرب من بلدة هيت إلتقى التتر بالعباسيين ، وكان
أمراً مقصياً إذ غلب ذلك الجيش ، وفقى معظمه ، ولم يفلت سوى أبي العباس ،
أما الخليفة المنكود فلم يعرف عنه خبر .

وسواء أُرسل الظاهر بيبرس يستدعى أبا العباس إلى القاهرة أم لم يرسل ،
فإن المعروف أن هذا الأمير العباسي وصل إلى دمشق بعد واقعة هيت بشهر
فقط ، وخرج منها إلى مصر ، واحتفل به بيبرس وأنزله في قلعة الجبل ، كما فعل
مع الخليفة أبي القاسم .

على أن السلطان بدأ يفكر في إقامة الخلافة العباسية في مصر وأنه ترك فكرة
إقامتها ببغداد — ثم أخذ بيبرس يعمل لمبايعة أبي العباس بالخلافة كما فعل مع
منافسه السابق ، فصرى نسب أبي العباس على الناس بعد ما ثبت عند قاضي القضاة
ولقب بالحاكم بأمر الله وبايعه السلطان بذلك ، ثم أقبل الخليفة على السلطان وقلده
أمور البلاد الإسلامية وخطب للخليفة الثاني على منابر القاهرة ودمشق
ومكة والمدينة .

وهكذا أحييت الخلافة العباسية للمرة الثانية بالقاهرة ، وأراد بيبرس هذه
المررة أن يكون الخليفة تحت عينه بالقاهرة — ولم يرد بيبرس بذلك أن يخلق

في عاصمته سلطة دينية أو سياسية بجانب سلطته ، بل أراد أن يكون الخليفة سلطة مافعة لحسب يستمد منها ما يحتاج إليه من الحماية الروحية والمركز الشرعى ، وبدل على ذلك أن السلطان لم يأمر تلك المرة أن يكتب اسم الخليفة على السكة وأنه أسكنه أحد أبراج القلعة الذى عرف فيما بعد ببرج الخليفة — ولم يترك له غير الدعاء فى الخطبة .

على ذلك لم تكسب الخلافة العباسية إلا كسباً زائفاً ، إذ كان سلاطين المماليك منذ ذلك الوقت يفرضون لأنفسهم — حق الفتح العثمانى — مركزاً ممتازاً بحجة أنهم حماة الخلافة ، وصارت القاهرة مركز العالم الإسلامى وذلك فوق مركزها التجارى .

واستمرت الخلافة العباسية فى دولة المماليك قائمة بذلك القسط الطفيف من السلطان والنفوذ ، ولم يفكر أحد من الخلفاء فى توسيع نفوذه ، بل قنعوا بالتضيقات التى أحدثها قلاوون حين تحولت الخلافة إلى قلعة ثانوية بعيدة عن القلعة وهى قلعة السكش بالبعالة الحالية ، غير أن الخلافة العباسية بدأت تتحرك فعلاً للانتقام من بيت قلاوون فى أيام الناصر محمد ، حينما مالت إلى أحد السلاطين الذين تخلفت عنهم أيام هذا السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، وهوقبت الخلافة فى شخص القائم بها بعد عودة الناصر إلى السلطة مرة ثانية فى أوائل القرن ١٤ م .

وبقيت الخلافة على هذا الضعف تحت رقابة دائمة حتى انتهى عصر الناصر محمد فى أواسط القرن ١٤ م ، وتولى الدولة المملوكية سلسلة أباء البيت ، القلاوونى وعملت الخلافة العباسية جهدها للانتقام من أبناء هذا البيت ، وكان آخرها ما استطاعت من خلع آخر أباء ذلك البيت من السلطة المملوكية فى أواخر القرن ١٤ م مما أدى إلى انتهاء دولة المماليك الأولى سنة ١٣٨٢ م وقيام الدولة الثانية (المماليك البرجية) .

وحاولت الخلافة فى عهد الدولة الثانية أن تجمع بين السلطة والخلافة معا لكنها فشلت فى ذلك ، وبقيت هكذا على سالفها من الضيق حتى حدثت لها القلة الثانية من القاهرة إلى استنبول بعد فتح الأتراك العثمانيين لمصر وإزالة الدولة المملوكية بها .

أسلوب الجدل في القرآن

للمؤلف الشيخ عز الدين اسماعيل

يلاحظ كل من قرأ القرآن الكريم وتدره ، وعاش معه بعقله وقلبه فترة متطاولة ، أن قواعد الإيمان وأصوله التي هي لباب الدين الخفيف وجوهر الدعوة ، لم تعرض في القرآن بشكل تعقيدى جامد ، يأخذ الناس بالشدة ، ويقسرم على قبول تلك المبادئ أو الأصول قسراً دون ما إجابة للفكر ، وإعمال للذهن ، بل على العكس من ذلك تماماً ، إذ هو ينزل بتلك الأصول المقدسة إلى منزلة الأحد والرد ، أو قل إلى منزلة الجدل والمناقشة .

فوجود الله سبحانه وتعالى ، ووحدانيته ، والحياة الآخرة ، والبعث ، وما شاكل ذلك من تلك الأصول ، يجدها جميعاً تعرض لا بصورة إلزامية وحسب ، ولكنها تعرض في صورة جدلية وأسلوب حجاج لا تقرر جديداً إذا قلنا إنه مفعم ومقنع وبالتالي يكون ملزماً ؛ ولكن الإلزام هنا عن بيعة وبعد اقتناع واقتناع .

ولا تقرر من صفات القرآن جديداً إذا قلنا إن هذا الجدل يعرض على ذهن كل إنسان - مهما اختلف الناس في ثقافتهم بين السذاجة والعمق - فيجد فيه مقنماً أى مقنع ؛ بل أكثر من هذا ، فظاني أن هذا الجدل لم يكن في صورة المختلفة ليحدث في العقول الاقتناع لحسب ، بل كان يصحبه - وما زال - لون من الإيمان عميق ، نتيجة رضى وارتياح نفسى تحدثهما الحججة وأسلوب الحججة جميعاً . وما وقع لجبير بن مطعم من أنه سمع النبی صلى الله عليه وسلم يقرأ في المغرب بالطور . فقال : لما بلغ الرسول هذه الآيات : « أم خلقوا من غير شيء ، أم هم الخالقون ، أم خلقوا السموات والأرض ، بل لا يوقنون ، أم عندهم خزائن ربك ، أم هم المصيطرون ... » قال : كاد قلبي أن يطير ؛ وذلك أول ما قرأه الإسلام

في قلبي^(١) - فهذا مثل ملبوس لما كان يتركه هذا الأسلوب الجدلي في النفوس من أثر، وما كان يحدثه من تعميق الإيمان في القلوب . وإذا كنا لا نستطيع أن نقرر أن عقلية العرب إبان الدعوة كانت آخذة بأسباب الفلسفة والكلام مثلبا صارت إليه في العصر العباسي مثلاً ، فإن صور الجدل التي نزل بها القرآن هي الصور التي كانت توائم عقلية العرب التي لم توغل بعد في الفلسفة أو الكلام وإن صلحت فيما بعد لأن تكون مادة طيبة عندما تعلست العقول وأخذت بأسباب الكلام . وهنا لا يملك الإنسان إلا أن يشهد ويسجل لوناً من ألوان الإعجاز من رب القوى والقدر . والسيوطي لا يبعد عن هذا حينما يذكر لنزول الجدل بهذه الصورة هذين السببين :

أولاً . بسبب ما قاله : وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم .

ثانياً : إن المسائل إلى دقيق الحاجة هو العاجز عن إقامة الحجة بالجليل من الكلام ، فإن من استطاع أن يفهم بالأوضح الذي يفهمه الأكثرون لم ينحط إلى الأغصان الذي لا يعرفه إلا الأقلون ولم يكن ملغراً ، فأخرج تعالى مخاطباته في حاجة خلقه في أجل صورة ليفهم العامة من جليها ما يفهمهم وتلزمهم الحاجة ، ويفهم الخواص من أنبائها ما يرب على ما أدركه فهم الخطاب .

والآيات الجدلية في القرآن معنية بجوانب ثلاثة هامة وبارزة ، أولها وجود الله ومعرفة ، وثانيها وحدانيته ، وثالثها الخلق أو الإنشاء والإعادة أو البعث وهذه الجوانب - كما سبق الإشارة - أصول جوهرية في العقيدة نعرض لها فيما يلي .

أولاً . فيما يختص بمعرفة الله إثبات وجوده تصادفنا تلك الصورة الرمزية الرائعة المتمثلة في قصة إبراهيم عليه السلام . وإذا قال إبراهيم لأبيه آذر أنتخذ أصناماً آلهة إني أراك وقومك في ضلال مبين . وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين . فلما جن عليه الليل رأى كوكباً قال هداً ربى ، فلما أفل ، قال لا أحب الآفلين . فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربى فلما

أفل قال لن لم يهتدي ربي لا كونه من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر ، فلما أفلت قال يا قوم إني بربى مما تشركون . إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض خفيّاً وما أنا من المشركين ، فهذه الطريقة يرتقى العقل إلى معرفة الله الحق : فلا هو الكوكب ، ولا هو القمر ولا هو الشمس الأكبر ، ولكنه هو الذي فطر من جميعاً وفطر السماوات والأرض . وفي ذلك تصوير دقيق لاستنباط العقل وجوده الثابت ، الدائم من : المتغير ، الحائل ، وإنا لنقرأ هذه الآيات : إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والملك التي تجري في البحر بما يفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض آيات لقوم يعقلون ، فنقرأ فيها الأدلة المسادية والبراهين الملموسة على وجود الخالق المبدع ، وهذا من باب معرفة العلة بطريق المعلول ، وأى الله شك فاطر السماوات والأرض .

وبهنا أن هذا الأسلوب السهل البسيط الواضح في التدليل قد انطوى على مادة فلسفية أشبعت عقلية كعقلية ابن رشد بعد ذلك ببيعة قرون ، فاستنبط منها ما سماه دليل الاختراع والخلق ، أى إبداع الأشياء ، ودليل العناية Providence أى خدمة هذه المخلوقات لتحقيق غاية . وعلى هذا الأساس تدبر قوله تعالى : « أم خلقوا من غير شيء » ... الآية ، وقوله . « راجع سر ٣١ آية ٢٠ ، ٢١ . »

ثانياً : وبالمبدأ العلى البسيط يعرف كل إنسان أن لكل موجود موجد ، ولكن لم لا يشترك أكثر من موحد في إيجاد الشيء ؟

الجواب : « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ، لأنه لو كان للعالم صانعان لكان لا يجرى تدبيرهما على نظام ولا يتسق على إحكام ، ولكان العجز يلحقهما أو أحدهما . وذلك لأنه لو أراد أحدهما إحياء جسم وأراد الآخر إماتته فإما أن تنفذ إرادتهما فيتناقض لاستحالة تجزئته الفعل إن فرض الاتفاق ، أولا متاع اجتماع الضدين إن فرض الاختلاف ، وإما أن لا تنفذ إرادتهما فيؤدى إلى عجزهما ، أو لا تنفذ إرادة أحدهما فيؤدى إلى عجزه ، وإلا لا يكون

عاجزا^(١) وما اتخذ الله من ولد وما كان معه من آله إذن لذهب كل إله بما خلق ولعلنا بعضهم على بعض.

ثالثا : ثم لننظر أخيرا كيف قدم الحجج الباهرة لمن أصر البعث كالدهريين القائلين « وقالوا إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين » س ٢٣ آية ٣٧ لقد دلت سبحانه وتعالى على إعادتهم وبعثهم من جديد بأن الذي يبدأ الخلق في قدرته أن يعيده ، فهنا تخاص الاعادة على الابتداء كما صور ذلك تعالى في أول سورة الحج « يأياها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإن خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقه ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ، ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ، ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ، ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا ، وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج . ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيي الموتى وأنه على كل شيء قدير . وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور ، ففي هذه الآيات دليلا ، الأول نجده في أنفسنا حيث كنا زايما ثم نصير إلى الموت ، والثاني في تلك الأرض الهامدة الميتة حتى إذا زل عليها الماء دببت فيها الحياة وأنبتت نباتا حسنا . وهكذا في الأرض أدلة وآيات ، وفي أنفسنا أدلة وآيات لا تترك مسرعا فثبك ، ولا مجالا للمكابرة . وانظر إلى هذه المقدمات في سورة ق : « ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد . والنحل باسقات لها طلع نضيد . ررقا للعباد ، وأحيينا به بلدة ميتا ، فهل يجادل نفسك شك في هذا ؟ فإذا آمنت — وإنك لا تملك إلا أن تؤمن — بهذا ، فكذلك يكون البعث ، أو . كذلك الخروج ، وعلى هذا التمر نستطيع أن تدبر في قوله تعالى : « وضرب لنا مثلا ونسئ خلقه ... الخ ، الآيات ، آخر يس . »

هذه هي النواحي الثلاث البارزة في الجدل القرآني . ولا أحسبك وقد أمررت عليها ذمك ، ولبثت معها قليلا ، إلا قد أدركت مغزى قول جبر بن مطعم « كاد قلبي أن يطير » . وأي رفيق بالمقول ذلك الذي طالعه في قوله تعالى :

« أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون . أم خلقوا السماوات والارض بل لا يوقنون ، لقد أخذ بهذه البساطة في الحجة وقوتها مع ذلك وفصاحتها . ولو استطاع الإنسان أن يقرب ذلك بصورة من الصور لتمثلت له صورة مرب كبير يأخذ الأطفال باللين والرفق ، وإذا اختلفوا معه قال : « يا أبائي الأعزاء رويدكم ! وهيا تفاهم ، - وجل الله تعالى عن المثل : وألست تحس بتلك الشفافية في قوله تعالى : « وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم لسانه ، أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله ، وقد جاءكم بالبينات من ربكم ، وإن يك كاذباً فعليه كذبه ، وإن يك صادقاً يصيبكم بعض الذي يعدكم ، إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب » يقول ابن الأثير « متباً ، إلا ما أحسن مأخذ هذا الكلام وألطفه ، فإنه أخذهم بالاحتجاج على طريقة التقسيم ، فقال لا يحل هذا الرجل من أن يكون كاذباً فكذب به يعود عليه ولا يتعداه ، أو يكون صادقاً يصيبكم بعض الذي يعدكم إن تعرضتم له . هذا وفي الكلام من حسن الادب والإنصاف (١) ، « وأين إذن يكون حسن الادب في المجادلة ، والإنصاف في الحكم ، إن لم يكن في كتاب الله الكريم ؟

ولنتبين مع ابن الأثير قوله تعالى : « وادكر في الكتاب إبراهيم إله كان صديقاً نبياً . إذا قال لآبيه يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يفنى عنك شيئاً . يا أبت إن قد جاءني من العلم ما لم يأتك ، فاتبني أمهلك صراطاً سوياً . يا أبت لا تعبد الشيطان ، إن الشيطان كان للرحمن عصياً . يا أبت إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان ولياً » . يقول ابن الأثير : هذا كلام يهرأ عطاف السامعين ، وفيه من الفوائد ما أذكره ؛ وهو أنه لما أراد إبراهيم عليه السلام أن ينصح آباءه ويمظه وينمذه بما كان متورطاً فيه من الخطأ العظيم الذي عصى به أمر العقل ، رتب الكلام معه في أحسن نظام ، مع استعمال الجمالة واللفظ والادب الحميد والخلق الحسن مستنصحا في ذلك بتبصيرة ربه وذلك أنه طلب منه أولاً العلة في خطيئته منبه على تماديه موقف من غمته ، لأن المعبود لو كان حياً مميزاً سميماً بصيراً مقتدرأ على الثواب والعقاب ، وأنه بعض الخلق يُستخف عقل من أهله للعبادة ، ووصفه بالربوبية ، ولو كان أشرف الخلائق

كالملائكة والبيدين ، فكيف بمن جعل المعبود جماً لا يسمع ولا يبصر ، يعني به الصنم ؛ ثم أتى ذلك بدعوته إلى الحق مترقفاً به فلم ييسم أباه بالجهل المطلق ولا نفسه بالعلم الفائق ، ولكنه قال إن منى لطائف من العلم وشيئاً منه وذلك علم الدلالة على ملوك الطريق فلا تسنكف . وهب أنى وإياك في مسير وهندى معرفة بهدابة الطريق دونك ، فاتبعى أنجلك من أن تضل . ثم نلت ذلك بتضيطة عما كان عليه ونهيه فقال . إن الشيطان الذى استعصى على ربك ، وهو عدوك وعدو أبليك آدم ، هو الذى ورطك فى هذه الورطة ، وألفاك فى هذه الضلالة . . ثم ربح ذلك بتخويفه إياه سوء العاقبة فلم يصرح بأن العقاب لاحق به ، ولكنه قال إني (أخاف) أن يمسك (عذاب) فنكر العذاب ملاطفة لآييه . وصدر كل نصيحة من هذه الصانح بقوله . يا أبت توسلا إليه واستعظافاً (١) .

وأخيراً ، فعله لم يعد خافياً أنه من أراد أن يتعلم أسلوب المجادلة وآدابها وطرقها المنطقية والفنية ، فعليه أن يقرأ القرآن ، ويتدبر ، ويدبر الطر ، ليستخلص المعبر وليجد غذاءه القلى والنفسى موفورين .

الفصاحة

قال أبو وجرة السعدي يصف كلام زجل :

يكفى قليل كلامه وكثيره تبث اذا طال الضال مصيب

وأشد أبو العباس محمد بن يزيد المبرد ولم يسم قائله وهو مولد ولم ينقصه توليده من حظ القديم شيئاً :

طبيب	بداء	فتون	الكلام	فلم	يمى	يوما	ولم	يهذر
فان	هو	أطب	فى	خطبة	قضى	للمطيل	على	المذر
وان	هو	أوجز	فى	خطبة	قصى	للقيل	على	المكتر

فِي عِلْمِ الْمُؤَلَّفَاتِ لِلْجَدِيدِ

مؤلفات ابن سينا

ابن سينا من أشهر فلاسفة الإسلام إن لم يكن أشهرهم جميعاً . فقد وعى كل ما يمكن أن يعميه حب للعلوم من المعارف التي كانت رائجة في زمنه ، وألف فيها كتاباً أو أكثر ، وهو معدود واحداً من الأفراد القلائل الذين جمعوا الثروة العلمية للعالم الإسلامي ، وتركوها أثراً قيماً لمن بعدهم . فلا غرو بعد هذا أن يبقى اسمه حياً في أفواه المتعلمين ، وقد يتعداهم إلى الأميين أيضاً ؛ فإنه كما ألفت في الأفلاك وحركات النجوم والكواكب ، ألفت في الفلسفة والطب والعلاج ، وتناقل الناس ما كتبه ، وعنوا به عناية خاصة لما كان عليه من الشهرة والتفوق . وقد لقبه العلماء بالشيخ الرئيس لفضله ووزارة عليه . كان تركي الأصل ولد ببلخ وانتقل إلى بخارى ومنها أخذ ينقل في المدن طلباً للعلوم ، وتصيداً للمعارف . وقد عد له المحصون نحو مائة مؤلف في جميع العلوم . وقد اهتم العالم بذلك الكتب وتناحروها لما حوت من نفائس المعارف ، وقد شغل العارفين بذلك في جميع مراكز العلم بعد وفاته إلى يومنا هذا . وقد نسب إليه بعض مروجي الكتب مؤلفات ليست له لتزوج بين الناس ، وتنبه العلماء لهذا التدليس فتنبهوه في كل زمان وفي كل بلد بعد وفاته ، لتخليص مؤلفاته من الدخيل ، وقد وقفوا إلى ذلك بما بذلوه من جهد ومثابرة . وقل من أتعب عشاق العلم بعد وفاته ، كما أتعبهم ابن سينا ، ولكي ذلك يرجع إلى سمو مؤلفاته ، واستحقاقها لتجربتها مما ليس منها إبقاء على الثقة بها ، والتعويل عليها .

فلما أوف وقت إقامة مهرجان لابن سينا في هذا العام أو ربيع الذي يليه ، انتهزت الإدارة الثقافية من جامعة الدول العربية هذه الفرصة لاجل أن تجمع أكثر ما تستطيع جمعه من مظانه في أقطار الأرض ؛ فبعثت بعثاً إلى تركيا وإيران وأسبانيا ليمكثوا مدوبيها من أخذ صور ما عساه أن يكون لديها من مؤلفات هذا الفيلسوف الإسلامى الفذ ، وقد ألفت في مصر لجنة لجمع المؤلفات التى تطبعها الأمم المتحدة بذلك لابن سينا ، وترتيب البحوث والخطب التى تلقى في المهرجان المثوى لإقامته احتفالاً بذكرى ابن سينا في ذلك المهرجان . فكان أول ما يجب على لجنة المهرجان عمله هو أن تحصى مؤلفات ابن سينا وتدل على أماكن وجودها . وقد وكلت عمل هذا الإحصاء إلى الأستاذ المستشرق الضليع الألب جورج شحاتة قوائى ، وكلفته حصر هذه الكتب في جميع المكتبات المشهورة ، وخاصة مكاتب استانبول التى جمعت من مؤلفات ابن سينا أكثر مما جمع غيرها ، وكلفته فوق هذا أن يصف هذه الكتب ويقسمها إلى موضوعاتها ، وأن يرتبها بحسب تواريخ ظهورها . وهذا تكليف ثوم به الجماعة فبالك بفرد . ولكنه رغمًا عن المشاق التى تعترض سبيله ، والمتاعب التى يجب تحملها للوصول إلى غرضه ، فإنه قد وفى بما عهد إليه . وإنى أدعه يحدد مدى عمله بقله فقد كتب في كتابه الذى بين يدى يقول :

« إنى لم أتوخ بعملى هذا أن أصل إلى موسوعة جامعة تحوى كل ما يخص ابن سينا ، ولا أدعى أن ما أقوله هنا هو الكلمة القاطعة في المشا كل العديدة التى تواجه الباحث المهم بإنتاج ابن سينا . فعلى أكثر تواضعا من هذا وذاك . إنى أريد فقط أن أضع بين يدى الباحثين بعض الوثائق الخاصة بإنتاج ابن سينا ليستطيعوا على ضوءها أن يتابعوا أبحاثهم . وبمعنى أدق أن أحصر جميع مؤلفات ابن سينا ، مطبوعها ومخطوطها ، وأن أشير إلى محتوياتها ومظانها ، وإلى المواضع التى بها هذه المخطوطات ، مع وصفها على قدر ما تسمح له طاقى .

« وما يجعل هذا العمل ذا أهمية إنى رجعت فيه إلى مخطوطات الآستانة التى أتيت لى أن أراها في زيارتى إلى تركيا سنة ١٩٢٩ . فنى الآستانة من مؤلفات ابن سينا القسط الأوفر ، إذ هناك ما يربو على الآلاف والخمسة مائة مخطوط لابن سينا ولا يخفى أن الإطلاع عليها أمر أسامى لعمل كهذا ، . ولقد كان شعورى منذ

البدء أن يكون محور مجهودى مخطوطات الأستاذة ، ولقد قلت هذا فى لجنة ابن سينا فى القاهرة فى نوفمبر سنة ١٩٤٨ ، فرحبت اللجنة بهذه الفكرة ، وكلفتنى أن أقوم بمحصر مخطوطات الأستاذة حين إقامتى مع البعثة العلمية للمخطوطات التى أرسلت إلى هناك .

ثم أخذ بين ما عهد سبيل البحث له وافاض فى ذلك ، والمطلع على العمل الذى قام به ، والتدقيقات التى استخدمها لضبط أرقامها ، وتعيين موضوعاتها ، يدرك لأول وهلة المشقات التى كابدها ، والمجهودات التى بذلها ، ويجد نفسه مدفوعا إلى شكره عليها ، والثناء عليه من أجلها . ففى الحلق يقال خدمة للعلم والحكمة قل من يكابد مثلها فى سبيل خدمة العلم والحكمة فى زماننا الراهن . فرجو الله أن يثيبه عليها ثواب العاملين المخلصين ، وأن ينفع بها طلاب المعرفة ، وهو الغرض الذى توخاه من القيام بحقها ، والجزاء الذى يرجوه عليها .

تاريخ داريا

هو مؤلف تاريخى نفيس للأفاضل عبد الجبار الخولانى رحمه الله ، عني بنشره المجمع العلمى العربى بدمشق بعناية الاستاذ اللغوى النابه سعيد الافغانى .

أما داريا فهى أكبر قرى الغوطة الجنوبية لدمشق تبعد عن دمشق نحو ثمانية كيلو مترات جنوبا إلى غرب ، ويبلغ عدد أهلها خمسة عشر الفا وقد كانت فى أكثر العصور حاضرة العلم والأدب . لذلك هى بافراد كتاب لتاريخها القاضى عبد الجبار الخولانى فى نحو سنة (٣٦٥) وترجم فيه لسبعة وأربعين من أهل الحديث فى داريا . وهو عدد قليل لم يستوف ، فأين هو بما كتبه هما ابن عساكر وهو يقع فى ستة أجزاء ؟ وهو كتاب يحتوى على فوائد مركزة ومزايا علمية لا توجد فى غيره ولذلك رأى المجمع العلمى العربى ان يأمر بطبعه فكان ما اراد وله الشكر . ولا يجوز أن ننسى فضل الذى عى به وهو الاستاذ الجليل سعيد الافغانى ضد اتفاق من الجهود المشكورة ما يجعل كل قارىء يعجب بما خدمه به من التحقيقات .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَيْسَ مِنْ هَبْنَانِجَلْ

الكهانة أيضا

نعود اليوم لمناقشة ما كتبه حضرة الاستاذ خالد محمد في كتابه (من هنا نبدا) فنقول :

قال حضرة : « والآس . نقدم بهذه الأسئلة : « ماذا تريد الكهانة بدعوتها الناس إلى الفقر ؟ ولماذا تسخر نفسها للدفاع عن مصالح الكبار ؟ ولماذا تكافح كل محاولة لتحول اجتماعي يريده المجتمع ، ويتصرم شوقاً إليه ؟ .

نقول : لم نر نحن ولم نسمع ولم ير غيرنا ولم نسمع أن واحداً من العلماء تصدى يوماً من الأيام لدعوة الناس إلى الفقر ، أفلم يكن من الحكمة في مثل هذا المقام الخطير أن ينقل عنه بعض ما قال حتى لا يتهم بأنه يكيل النهم جزافاً ، ليرد عليها ، توسلاً لقول ما يريد أن ينشره من المبادئ ، كما يفعل القصاصون . إن رسول الإسلام صلى الله عليه وسلم نفسه ، كره الفقر واستعاذ منه في حديث مشهور ، نفعه أئمة الحديث ، فهل يجرؤ عالم إسلامي أن يمدحه ويتخذ ذلك مذهباً له ينشره بين الناس ، وفي عهدنا هذا ؟

وأى عالم ديني سخر نفسه للدفاع عن مصالح الكبار ، وفي أى مجلة أو جريدة أو كتاب نشر هذا الدفاع ؟

وما هو التحول الاجتماعي ... الذي يريده المجتمع ويحول رجال الدين دونه ؟ كل هذا كان يجب بيانه للناس ليكون لكلامه وقع في نفوسهم وتأثير في عقولهم . أما ما نقله عن (ولز) وحاول الاستاذ أن يجعله مثالا للأمة الإسلامية في العصر الحاضر ، فطلب بعيد المثال : فإن الفرق بين ما عليه المسلمون ، حتى عامتهم ، من العقائد الدينية ، ونظمهم الحكومية ، وروابطهم الاجتماعية ،

ووجهاتهم الأدبية ، وخاصة في هذا العصر ، لا يمكن أن يقارن بما ذكره (ولز)
 عن سلطان الكهان قبل آلاف السنين !
 يقول الأستاذ خالد مستهزئاً :

« ليس من الإنصاف أن نظلم الكهانة فذمتها بالوجود المطلق ، فإن لها مرونة
 خارقة تمدّها دائماً بإمكانيات التفاعل مع التطور ، وتلبيها حاجات المجتمع . ماذا
 يريد الناس ؟ أيريدون اشتراكية وعدالة ؟ إن لدى الكهنة اشتراكية جاهزة ، وهم
 مستعدون أن يجودوا بها عليهم ليعيشوا في ظلها أعزة شاحخين كرماء ! تلك
 هي اشتراكية الصدقات فالصدقة في نظر الكهانة نظام اقتصادي وافي الخ . الخ .
 يقول الأستاذ : يريد الناس اشتراكية وعدالة ، ونحن نقول : أما العدالة
 فلنسا نتكلم فيها فهي الغاية السامية لجميع الخلق ، ونحن هنا كعبرنا نعظم شأنها
 ونطلبها ؛ ولكن الناس عندما لا يطلبون الاشتراكية . نعم لدينا حزب اشتراكي
 وله جريدة تنشر مبادئه ، ولكن لم ينتخب من أعضائه أحد للبرلمان ، وقد رشح
 حصرة زعيمه نفسه لمجلس النواب مرات ، فلم يحصل على الأصوات الكافية ،
 لا نقول هذا تحقيراً له فهو محام فاضل ، ولا للبيادى التي يدعو إليها ، ولكننا
 نقوله تدليلاً على أن هذه الأمة لا تروج فيها الدعوة إلى الاشتراكية . وليس
 في مجلسي البرلمان عضو واحد يمت إلى الاشتراكية بسبب ، فكيف بعد هذا
 يستطيع أن يقول الأستاذ خالد : إن الأمة تريد الاشتراكية ؟ بل ليس في العالم
 المتمدين كله غير روسيا والامم الواقعة في دائرة نفوذها هي التي يسود فيها
 هذا المذهب ، ولكن بقية العالم المتمدين ليس للاشتراكية فيها شأن خاص ،
 فهي هنالك تعتبر حزباً من الأحزاب عدد أعضاء نوابه في مجالسها النيابية أقل
 من ربع مجموعهم . فإذا كان هذا شأن أوروبا في تقدير الاشتراكية ، فهل يتصور
 أن تكون البلاد الإسلامية أكثر تقدراً لها منها ؟

أما قول الأستاذ خالد مستهزئاً : « فالصدقة في نظر الكهانة نظام اقتصادي
 وافي ، ووسيلة ناجحة لمحاربة الفقر ، وإسعاد الشعب ، ومطاردة مناعبه وشفائه ،
 وإنك لتسمع وترى الدعوة إلى الصدقة والإحسان في كل مناسبة حتى تكاد تشك
 هل أنت في مجتمع أو ملجأ ! » . ونحن نذكر المقصود من كلمة الصدقة هنا ونبين
 وجه اعتماد المصلحين الاجتماعيين من المسلمين عليها فنقول :

المقصود بكلمة الصدقة هنا (الزكاة) المفروضة على الأغنياء لتتفق في حفظ اتزان الطبقات الاجتماعية ودرء علبها ؛ وأشد هذه العلل وقوع طائفة كبيرة منها في إقلال لا يمكنها من توفية حاجات حياتها ، ولا حماية وجودها من شروها ؛ فيكون حقا على المؤسرين من إخوانهم أن ينزلوا عن جزء من أموالهم لتلك الطبقات لتتفادى غوائلها ، فهو حق طبيعي لم باعتبار أهم جزء من الهيئة الاجتماعية ، التي لا يتأتى لها أن تقوم برسالها إلا بتضامن طوائفها ، وتكافل جماعاتها .

وقد فطن الأوروبيون لهذا الأمر الجلل في القرنين الأخيرين ، فعملوا جاهدين على القيام به ، فبدأوا بزيادة أجور العمال ، لحماية أسرهم من الغوائل الطبيعية ؛ وما زالوا يترقون فيه تحت حافز من مطالبات الطبقات الدنيا بالانصاف ، حتى بلغوا فيها شأوا بعيدا ، من أظهر آثاره ما قرروه من الإتاوات على رؤس الأموال وسموه بضريبة الضمان الاجتماعي ، وحقوق أخرى فرضوها على أصحاب الإيرادات الضخمة بلغت في بعض الأمم نحو تسعين في المائة من تلك الإيرادات . ولولا هذه المحاولات لما هدأت الفتن ، ولاندلعت السنة نيرانها من ناحية الطبقات المحرومة من المال .

ومن يتأمل بعلم يجد أن ما استخدمه الأوروبيون من هذه الوسائل القيمة من الضرائب المختلفة ، سبقهم إليها الاسلام بتشكيفه الأغنياء بدفع (الزكاة) عن أموالهم . وقد سهاها بالصدقات تحببها لأدائها إلى نفوسهم ، وما يدل على أنها ليست من نوع الصدقات التي تمنح للفقراء والمعوزين أنها إجبارية ، والصدقة اختيارية ، وأنها لا تنجي كالتجبي الزكاة بواسطة عمال الدولة ، فهذه ضريبة حكومية واجبة التحصيل ، ولو أدى تحصيلها إلى اراقة الدماء . حتى إنه لما انتقل النبي صلى الله عليه وسلم إلى الرقيق الأعلى ، وتولى أبو بكر الخلافة ، أضربت بعض القبائل عن دفع الزكاة . فعزم أبو بكر على أن يجبرهم على دفعها ، وأخذ في إعداد العدة لذلك . فكلما عمر بن الخطاب في الأمر ، ورجاه أن يتخذ في تنفيذ ما أجمع عليه خشية أن ثور القبائل وتصبأ عن الإسلام وهي قرية عهد به ، فقال له خليفة رسول الله . والله لو سمعوني عقاب بعير كانوا يؤدونه للنبي صلى الله عليه وسلم لقاتلهم عليه ؛ وما عثم حتى أرسل إليهم بالجنود تترى ، وقاتلهم وأراق دماءهم في سبيل تحصيل الزكاة ، وهذا لا يكون إلا إذا كانت الزكاة ركنا من أركان إقامة الدولة . مثلها كمثل الضرائب التي تتقاضاها الدول عن الأراضي الزراعية وعوائد الأملاك الخ .

وعلى هذا فيكون الإسلام قد سبق العالم أجمع إلى وضع ضرائب على الأثرياء
 نجي منهم لسد مفقر الاجتماع ، ورأب صدوعه ، بتفاوت الناس في درجات
 الكسب . والحكمة في ذلك هي أن الأموال تهر الأموال ، فلز ترك الأغنياء
 وشأنهم ، امتصوا بقوة وسائلهم معين الثروة الاجتماعية ، ولم يتركوا للفقراء
 إلا الأرشال ، فتسوء حالهم ويتأخرون عن شأو غيرهم من المومنين ؛ ولا يزال
 يتسع الفرق بين الفريقين حتى يصبح الفقراء مستعبدين للأغنياء ، فتسوء حالهم ،
 وكثيرا ما يحملهم الإملاق على الثورات ، فيحتل نظام الجماعة ، ويعتل وجود
 الأمة ؛ ثم ما هي إلا بضعة مصادمات يتغللها ضروب شتى من النهب والسلب ،
 حتى يعم الجميع الخراب .

من هنا ترى أن (الزكاة) نظام اجتماعي ثمرته حفظ التوازن بين طبقات
 الجماعة ، كان الإسلام أول واضع له ، وهو من أقوى الأدلة على أن الشرع الإسلامي
 وحى إلهي ، وضع لكل موطن من مواطن الضعف في الجماعات الآخذة به علاجا
 يتق به شرور الانحلال والتلاشي ، فأنحن بصدده من أمر الصدقات وهي الزكاة
 يجب أن يعتبر آية موجبة لإكباره ، وباعته على تأييده وإجلاله .

ولو عملت الحكومات الإسلامية بما شرعه الإسلام من تحصيل ضريبة
 الزكاة ، لباع إيرادها منه ملايين كثيرة من الجنيئات تسد خلة الفاقة في الطبقات
 الدنيا من الجماعات ، وتؤدي ما تؤديه الضرائب التي عمدت إليها في العهد الأخير
 الحكومات الأوروبية لاقفاء شرور الإقلال ، الذي تعرض له الطبقات المحرومة
 من المال في الجماعات ، ولأمكن بواسطته أحداث التعادل بينها على نسبة لاندع
 للفقراء عذرا في زعزعة أركان الاجتماع ، والتألب على قلب نظمه التقليدية ،
 وتفكيك عرى وحدته العمرانية .

ومن العجب العاجب أن الأستاذ مؤلف كتاب (من هنا نبدأ) يتجاهل
 هذا كله ، ويمص كأنه يعتبر أن الزكاة التي عبر عنها الشارع في بعض المواطن
 بالصدقات ، من النوع الذي يرضخ به الأغنياء للفقراء ، وهو يعلم أنه ليس كذلك
 أصلا ولا موضوعا ؛ فإن هذا عما يتفضل به المحسنون على المستجدين طوعية بغير
 إيجاب ، وقد يتمتعون عنه بثانا فلا يطالبهم به أحد ؛ أما ما نحن بصدده فهو

(حق معلوم) يحجب بواسطة عمال الحكومة ، ويماقب الممتنعون عنه . فإن دافعوا عن أنفسهم أجبروا عليه وأخذ منهم قسراً ؛ وله مصارف يوجه إليها ، وقاية للمجتمع من غوائل عدم التوازن بين الطبقات ، فأين هذا من ذاك ؟ ذاك شائع بين جميع الشعوب ، فإن في جميعها محسنين يعطفون على المحوزين ؛ ولكن هذا من موارد الحكومة الإسلامية ، تمنيه بواسطة عاملها ، وتنفقه في صيانة الأئزان بين طبقات الهيئة الاجتماعية ، حتى لا تميل كفة الميزان بواحدة منها فيختل نظامها ، وتصبح حرباً على المومنين .

ولكن الأستاذ المؤلف يستغل هذه المغالطة إلى أقصى حد فيقول :

« معاذ الله أن يرضى لعباده المدلة والخوان . إن الإسلام حين دعا إلى العدل والتكافل الاجتماعي ، لم تكن الصدقة (ولا يقول الزكاة) في حسابه قط كوسيلة تنهض بها حياة الشعوب .. بل هي شيء يشبه أكل الميتة فتباح لبعض الأفراد الذين لا يجدون ما يقيم الأود ويمسك الرمق ، ولكنها لا تعالج مستوى الهبوط المعيشي للأمم والجماعات » .

تشدد الأستاذ صاحب (من هنا نبدأ) تشدداً كبيراً في تحقير الصدقة ، وأطال في تحقيرها حتى قال متابعاً طريقته : « إنها أوساخ الناس ، إنها غسالة ذنوب الناس . فكيف نتصور أن يرفع الإسلام مستوى الحياة والمعيشة بهذه الغسالات والأوساخ ؟ إنا تلقى على الأمة أعظم درس في الخوان والضعفة حين ندعها تفهم أن طريق إصلاحها ، وشيوع العدالة فيها هي الصدقات » .

وبعد هذه الثورة الشعواء التي لا موجب لها على الصدقة ، ولم يقل أحد بأنها مصدر كسب فريف ، أو وسيلة أريستوقراطية للمعيشة ، بل هي محقرة حتى لدى الفقراء أنفسهم ، تدارك موقفه فقال :

« وكانت الصدقة في عصر الرسول ، وفي لغة القرآن ، تعني (هدية مفروضة) هي ضريبة الزكاة ، التي نزل فيها : « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكهم بها » ، وأما ما وراء ذلك من الهبات والتبرعات ، فكان الرسول يعالجها بضرورات أخرى طارئة في مجتمعه الذي لم يكن التطور قد أسعفه بعد بالنظم والمفصلات .. ثم قال : « إن الزكاة وإن سميت بهذا الاسم إلا أنها تختلف عن الصدقة كل

الاختلاف لأنها كما ذكرت (ضريبة مفروضة) وليست نافلة من نوافل البر والإحسان . .

بعد ما اعترف الاستاذ خالد أخيراً بأن الزكاة (ضريبة مفروضة) وأنها تختلف عن الصدقة كل الاختلاف ، عاد فقال :

« فكيف تصور أن يرفع الاسلام مستوى الحياة والمعيشة بهذه الفسالات والأوساخ ؟ »

فهل من المطلق السليم أن الاستاذ بعد ما يفرق بين الصدقة والزكاة ، ويعترف بأن مراد القرآن منها في موضوع الزكاة أنها (ضريبة مفروضة) ، وبعد ما يصرح المصلحون المعاصرون أنهم إنما يقصدون بما يكتبون هذه الضريبة المفروضة ، يعود فيقول : « فكيف تصور أن يرفع الاسلام مستوى الحياة بهذه الفسالات والأوساخ ؟ » إننا نلقى على الأمة أعظم درس في الهوان والضعف حين ندعها نظهم أن طريق إصلاحها وشيوع العدالة فيها هي الصدقات ، ثم يصبى فيملا بحو صفحتين من كتابه في تحقير الصدقات وفي أنها أوساخ وأقذار ١١ .

ألا يعلم الاستاذ أن واحداً من الذين كتبوا في موضوع رفع مستوى الحياة في هذه الأمة وخاصة في العهد الأخير لم يقصد بذلك الاعتماد على الصدقات ، بل على تلك الضريبة المفروضة وهي الزكاة ؟ وإذا كان يعلم ذلك فهل عثر على قول لأحد العلماء أو طلبة العلم أو الشعاذين أنفسهم ، يعتبر التصديق بالقرش والقرشين وسيلة لإصلاح المجتمعات ؟

إذا كان يقول لا ، فما حكمة إسبابه في هذا الموضوع ، وتقل كل ما ورد في تحقيره عن الرسول والأئمة وخاصة المسلمين وعامتهم حتى ملا به محمداً من كتابه ؟ وإذا كان يعترف بأن الزكاة (ضريبة مفروضة) على المسلمين ، فهل تعتمد الدول الأوروبية الكبرى كالولايات المتحدة الأمريكية و إنجلترا وفرنسا وإيطاليا وغيرها على غير (الضرائب) التي تفرضها على الناس لوقاية الاجتماع من شرور الثورات والاضطرابات ، ولتحسين حال أهل الإقلال في الجماعات ؟

القرآن وقواعد النحو

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد محمد المدني

قرأت في جريدة البلاغ كلمة في مقال للدكتور زكي مبارك، يذكر فيها أن القرآن الكريم ربما تخطى قواعد النحو لعرض موسيقى، ودل لذلك بقوله تعالى « وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت، فيقول رب لولا أخرني إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين ». والشاهد في قوله « وأكن » بالجزم مع أنه معطوف على منصوب هو قوله : « فأصدق »، كما مثل بقوله تعالى « وانفجر، وليال عشر، والشفع والوتر، والليل إذا يسر »، حيث كان القياس أن تكون « والليل إذا يسرى »، بإثبات الياء.

وهذا الموضوع : موضوع الزعم بأن القرآن قد تخطى القواعد النحوية ليس بالجديد، فكثيراً ما نجد بعض المهشرين بمحوض فيه مقررراً ما يراه إثباتاً أو نقياً، وقد مر بي قريباً الاشتغال بذلك حينما كنت مكلفاً بالظفر في كتاب « الفرقان » الذي صودر، وقد جاء صاحبه بكثير من الآيات التي زعم أن فيها مخالفة للقواعد في معرض الإزراء بالفراءات، أو التهجين لما فعله الأصحاب في رسم المصحف، والحمد لله الذي وفق لإظهار شأن هذا الكتاب، وهدف ما جاء به، حتى حكم مجلس الدولة برفض طلب التعويض، وإلغاء المصادرة، بعد دفاع طويل ومذكرات مختلفة. وقد تحدثت عن هذا الموضوع من قبل فلا أعود إليه. وإنما أريد أن أقول : إن مثل من يقرر أن القرآن قد تخطى قواعد النحو كمثل من يقرر أنه تخطى قواعد الأصول، وكلاهما خاطئ، لأن الأصول حين يقرر قاعدة، فإنما يقررها بعد تتبع ما يدل عليها من كتاب الله وسنة رسوله، وما يقضى به الفهم فيها، فإذا أن يكون تتبعه صحيحاً كاملاً فلا يجد خلافاً بين القاعدة التي قررها، وآية ما من الكتاب الكريم، وإما أن يكون تتبعه ناقصاً

ف نجد خلافاً بين القاعدة وبعض ما جاء في القرآن ، وحيث لا يقال إن القرآن خرج على قواعد الأصول ، ولكن يقال إن هذه القواعد قصرت في التبع أو قصر أصحابها ، وكان عليهم أن يكونوا أدق في وضع القاعدة .

وربما كان الأمر بالنسبة للقواعد النحوية أوضح ، فإن النحو هو القواعد المستنبطة من كلام العرب للأحوال الإعرابية والبائية التي يكون عليها الكلام ، ولا شك أن القرآن الكريم هو أول حجة في جواز شيء أو عدم جوازه ، وإذا كان بعض القواعد النحوية ليس له شاهد إلا كلمة أو بيت من الشعر فليكن به أهراي ، فما بالك بشيء يحى به القرآن الكريم .

وأذكر على سبيل الاستطراف ما قرأته قديماً في بعض كتب الأدب من أن الفرزدق كان يمزح مع عبد الله بن إسحق النحوي - فيما أظن - فقال له :

ولو كان عبد الله مولى هجوته ولكن عبد الله مولى مواليا

فقال له عبد الله : لقد أخطأت فأصلح خطأك . إني مولى موال ، لا مولى مواليا ، فأجابه الفرزدق على الفور : إن عليّ أن أقول ، وإن عليك أن تضع القاعدة .

يشير بذلك إلى أن الشاعر المحتج بقوله يقول ما شاء على فطرته وبجيته ، ولا يبعد قوله خطأ ولا لحناً ، ولو خالف قاعدة مشهورة عند النحاة .

ولذلك يقتصد بعض المتحدثين في هذا فيقولون : جاء كذا على الكثير ، وخالف كذا القاعدة المشهورة ، إلى غير ذلك من العبارات التي لا يفهم منها التخطئة من قريب أو من بعيد .

بعد هذا ننظر في الآيتين اللتين استشهد بهما الدكتور زكي مبارك لتعلم هل خالفنا القواعد حقاً ؟

قال الطبرسي في تفسير مجمع البيان ، وهو بصدد الكلام عن قوله تعالى : فأصدق وأكن من الصالحين : قرأ أبو عمرو : وأكون ، بالنصب ، والياقون : وأكن ، بالجزم . . والحجة — أي حجة القراءتين — أن من قرأ وأكن عطفه

على موضع قوله فأصدق ، لأنه في موضع فعل مجزوم ، ألا ترى أنك إذا قلت :
أخبرني أصدق ، كان جزماً بأنه جواب الجزاء ، وقد أغنى السؤال عن ذكر الشرط ،
والتقدير : أخبرني فإنك أن تؤخرني أصدق ، فلما كان الفعل المتصّب بعد الفاء
في موضع فعل مجزوم بأنه جواب الشرط ، تحمّل قوله « وأكن » عليه ، ومثل
ذلك قوله تعالى « ومن يضل الله فلا هادي له ، ويذرهم » لما كان فلا هادي له
في موضع فعل مجزوم ، حل « ويذرهم » عليه . . ومثل ذلك قول الشاعر :

أباً سلكت فإني لك كاشح وعلى انتفاصك في الحياة وأزدد

محمل « وأزدد » على موضع الفاء وما بعدها ، وأما قول أبي عمرو « وأكون »
فإنما حمّله على اللفظ دون الموضع ، وكان الحمل على اللفظ أولى لظهوره
في اللفظ وقربه . .

فن هذا الذي ذكره الطبرسي في توجيه قراءة الجزم يتبين أن لا خطأ ولا تعطى
وأزيد ما ذكره أيضاً في ناحية ما يشير إليه بقوله إن « أكن » في موضع الجزم
فأقول : إن إيراد ما قبل هذه الجملة يمين على فهم المراد ، فأنه تعالى يقول
في سورة المنافقين :

« يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ، ومن يفعل
ذلك فأولئك هم الخاسرون » ، وأنفقوا مما رزقكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت
فيقول رب لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين ، ولن
يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها والله خير بما تعملون . .

فهذه الآيات تتحدث عن شأن الإنفاق والتصدق وما يجب على المؤمنين
فيه ، مقابلة بذلك ما جاء قبلها في قوله تعالى عن المنافقين : « هم الذين يقولون
لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا » ، والله خزائن السموات والأرض
ولكن المنافقين لا يفقهون ، فهم تبيي الصلاح وهمه في هذا المقام على التصديق
والبذل ، والصدقة والبخل ، فمن تصدق وبذل فهو الصالح ، ومن بخل وأبى فهو
المنافق الخادع ، فإذا قال امرؤ حين يأتيه الموت « رب لولا أخرتني إلى أجل
قريب فأصدق وأكن من الصالحين » كان المعنى الذي يوحى به السياق ، والذي
يأتي في ذهن قائل هذا الكلام : وإن أصدق أكن من الصالحين ، وتحدير

الكلام بحسب ترتيب المعنى المفهوم من جو الآيات : أخرنى فإنك إن أخرتنى سأصدق ، وإن أتصدق أكن من الصالحين ، فالمراد الربط بين الصدقة والكون من الصالحين ، وليس المراد حصول الصدقة والكون من الصالحين بعد التأخير ، وإنما يقال ذلك في قراءة « وأكون » .

أما قوله تعالى : والليل إذا يسر ، فيقول فيه الطبرسي أيضا :
« قرأ أهل المدينة وأبو عمرو وقتيبة عن الكسائي » والليل إذا يسرى ،
بإثبات الياء في الوصل وحذفها في الوقف ، وقرأ ابن كثير ويعقوب بإثبات الياء
في الوصل والوقف ، والباقون بالحذف فيهما .

ثم وجه هذه القراءات ، فذكر أن قراءة حذف الياء ترجع إلى قاعدة
ذكرها سيويه من أن ما لا يحذف في الكلام وما يختار فيه ألا يحذف نحو القاصي
بالألف واللام : يحذف إذا كان في قافية أو فاصلة ، قال سيويه : والفاصلة
نحو : والليل إذا يسر ، و يوم التناد ، و الكبير المتعال ، فإذا كان شيء من
ذلك في كلام تام شبه بالفاصلة ، فحسن حذفها ، نحو قوله تعالى : ذلك ما كنا نبع .

بهذا يتبين أن القاعدة لا تضيق عن حذف الياء كما زعم من زعم ،
والله المستعان على ما يصفون .

السيادة

نظر رجل إلى معاوية وهو غلام صغير فقال : إني أظن أن هذا الغلام
سيسود قومه ، فسمعت أمه عند فقالت : تكلته إذا لم يسد غير قومه .

ودخل ضمرة بن أبي ضمرة على النعمان بن المنذر وكانت به دماة شديدة ، فالتفت
النعمان إلى أصحابه وقال : تسمع بالمعدي خير من أن تراه .

فقال ضمرة : أيها الملك إنما المرء بأصغريه قلبه ولسانه ، فإن قال قال ببيان ،
وإن قاتل قاتل بجهنان .

قال النعمان : صدقت ، وبحق سوءك قودك .

نزول القرآن

لفقيه الأئمة الشيخ فكري ياسين

جاء في الصحيحين من حديث عائشة رضي الله عنها في بدء الوحي قالت :
« جاءه الملك ، فقال : اقرأ ، قال : ما أنا بقارىء ، قال : فأخذني فغطني حتى بلغ
منى الجهد ، ثم أرسلني ، وكرر ذلك معي ثلاث مرات ، وفي الأخيرة قال له :
« اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم
الذي علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم » .

• • •

النزول في الأصل . المحطات من علو ، يقال : نزل عن دابته : إذا حط
عنها ، ونزل بكذا وأزله بمعنى ، وإنزال الله تعالى نعمه ونقمه على الخلق :
إعطائهم إياها ، وذلك إما بإنزال الشيء نفسه ، كإنزال القرآن ، وإما بإنزال
أسبابه ، والهداية إليه ، كإنزال الحديد واللباس ، ونحو ذلك ، والفرق بين الإنزال
والتنزيل في وصف القرآن ، أن التنزيل يختص بالموضع الذي يشير إليه إنزاله مفرقا ،
والإنزال عام ، وأما التنزيل ، فهو كالنزل به ، يقال : نزل الملك بكذا وتنزل ،
ولا يقال : نزل الله بكذا ، ولا تنزل .

ويطلق النزول أيضاً ويراد به الحلول في المكان ، يقال : نزل في مكان كذا :
إذا حل فيه ، وأوى إليه .

غير أن النزول بمعنى المحذور الشيء من علو إلى سفلى ، وبمعنى الحلول
في المكان ، والأوى به ، لا تليق إرادته في نزول القرآن من الله تعالى ،

ولا في إنزاله إياه ، لما يلزم هذين المعنيين من صفات الحدوث ، فلا بد إذن من استعمال النزول في معنى مجازي ، وقال البعض : إن المراد بإنزال القرآن إظهاره في مكان عال ، ثم إنزال الملك به من ذلك المكان ، وقال آخرون : إن المراد بإنزاله إعلام الملك به ، وإفهامه إياه ، ثم إنزاله بما فهمه ، وقيل غير ذلك ، ويرى بعض الباحثين أن الأولى والأحسن جعل المعنى المجازي لإنزال القرآن هو الإعلام في جميع إطلاقاته .

ولما كان نزول القرآن يتصل اتصالاً وثيقاً بالوحي ، لمجيئه من طريقه ، ووصوله في بريده ، كان من الضروري أن تشير إشارة عارة إلى معنى الوحي وأقسامه وكيفية صورته ، حتى يتسنى لنا أن نعرف حقيقة النزول في وضعها الصحيح الأكمل

فالوحي عند أهل اللغة يطلق على الإعلام في خفاء ، وعلى الكتابة والمكتوب والبعث ، والتصويت شيئاً بعد شيء ، وقد يجيء بمعنى الأمر نحو : « وإذ أوحيت إلى الخواريين أن آمنوا بي وبرسولي » ، وبمعنى التسخير نحو : « وأوحى ربك إلى السحرة ، أى سخرها لهذا الفعل ، وهو اتخاذها من الجبال بيوتا الخ : وقد يعبر عن ذلك بالإلهام ، لكن المراد به هدايتها لذلك ، والا فالإلهام حقيقة إنما يكون لما قل ، نحو : « وأوحينا إلى أم موسى » ، وقد يجيء الوحي بمعنى الإشارة نحو : « فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا » وقيل : أصل الوحي التفهيم ، فكل ما دللت به من كلام أو كتابة أو رسالة أو إشارة أو إيماء فهو وحي .

والوحي في اصطلاح الشرع : إعلام الله تعالى أنبياءه الشيء إما بكتاب أو برسالة ملك ، أو منام ، أو إلهام ، وقد يطلق على الموحى كالقرآن والسنة من إطلاق المصدر على المفعول ، قال تعالى : « إن هو إلا وحي يوحى » .

وأما صور الوحي في كيفية نزوله على محمد صلى الله عليه وسلم ، فقد ذكروا له سبعة أحوال : أحدها : أن يكون ذلك في المنام ، كما في حديث عائشة : أول ما بدى به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصالحة . ثانياً :

أن ينفتح الكلام في روعه نفثا ، كما في حديث : إن روح القدس ينفتح في روعي .
ثالثها : أن يأتيه في مثل صلصلة الجرس ، كما في حديث . كيف يأتيك الوحي ؟
رابعها : أن يتمثل له الملك في صورة رجل ، كما في حديث كيفية الوحي أيضا .
خامسها : أن يترامى له الملك في الصورة التي خلقه الله عليها ، سادسها : أن يكلمه
الله من وراء حجاب ، إما في اليقظة ، كما كلفه في ليلة الإسراء ، وإما في المنام ،
كما في حديث الترمذي : « أتاني ربي في أحسن صورة . الحديث . سابعها . وحى
إسرافيل ، فقد ثبت بالطرق الصحاح كما في مسند أحمد : « أن رسول الله صلى الله
عليه وسلم نزلت عليه النبوة ، وهو ابن أربعين سنة ، فقرن بنبوته إسرافيل
عليه السلام ثلاث سنين ، فكان يعلمه الكلمة والشيء . ولم ينزل القرآن ، فلما مصت
ثلاث سنين ، قرن بنبوته جبريل عليه السلام ، فنزل القرآن على لسانه عشرين
سنة : عشرا بمكة ، وعشرا بالمدينة ، فأت وهو ابن ثلاث وستين سنة . »

وذكر الحليمي أن الوحي كان يأتيه على سنة وأربعين نوعا ، وغالبها من
صفات حامل الوحي ، وبمجموعها يدخل فيها ذكر من الصور السابقة .

ووحى القرآن كله ، كان بواسطة أمين الوحي جبريل عليه السلام الذي
تواترت الاخبار من لدن النبي عليه الصلاة والسلام إلى يومنا هذا أنه الملك
الذي كان يحمل الوحي ، وينزل بالقرآن على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ،
وأغلب ما كان يأتيه به على ضربين : أحدهما أنه كان يأتيه به ، فيلقيه عليه كما
يلقى الرجل على الرجل ، والثاني أنه كان يأتيه به في مثل صوت الجرس : فأما
وحى إسرافيل ، فإنه لم ينزل عليه فيه شيء من القرآن ، والإلقاء في الروح راجع
إلى الصلصلة : والتكليم ليلة الإسراء ، كان بلا واسطة ؛ ورويته له في صورته
التي خلق عليها لم تقع إلا مرتين : مرة عند ما طلب منه ذلك ، والآخرى
عند المعراج .

وأما في النوم ، فإن القرآن كله قد نزل في اليقظة ، ولم ينزل منه في النوم
شيء ، وذهب بعضهم إلى أن فيه ما نزل في النوم ، واستدل على ذلك بما روى
مسلم عن أنس قال : بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ذات يوم بين أظهرنا

في المسجد ، إذ أغنى لإغفاءة ، ثم رفع رأسه ميتسما ، فقلنا : ما أضحكك يا رسول الله ؟ ، فقال : أنزلت على آتفا سورة ، فقرأ : ، بسم الله الرحمن الرحيم ، إنا أعطيناك الكوثر ، فصل لربك وانحر ، إن شاتئك هو الآخر ، ، وقد رد على ذلك الرافعي في أماليه ، فقال : ، هم فاهمون من الحديث أن السورة نزلت في تلك الإغفاءة ، وقالوا : من الوحي ما يأتيه في النوم ، لأن رؤيا الأنبياء وحى ، قال : وهذا صحيح ، ولكن الاشبه أن يقال : إن القرآن كله نزل في اليقظة ، وكأنه خطر له في النوم سورة الكوثر المنزلة في اليقظة ، أو عرض عليه الكوثر الذي وردت فيه السورة ، أو تكون تلك الإغفاءة ليست لإغفاءة نوم ، بل الحالة التي كانت تمر به عند نزول الوحي ، وتسمى برحاء الوحي ، قال السيوطي : ، الذي قاله الرافعي في غاية الانجاء ، وهو الذي كست أميل إليه قبل الوقوف عليه .

فمن هذا كله تبيين الحالة التي كان ينزل فيها جبريل بالقرآن على النبي صلى الله عليه وسلم ، ومنه يعلم أنها تمكاد تمحصر في كيفيتين : في الإتيان له في مثل صلصلة الجرس ، وهذه يدخل فيها دوى الحبل وغيره مما يقاربه من الكيفيات ، وفي التمثل له بصورة رجل كدحية بن خليفة الكلبي ، والأعرابي وغيرهما .

وهذا كله في نزول جبريل بالقرآن على النبي عليه السلام ، وأما نزول القرآن على جبريل ، وتلقيه له ، فهذا من آباء الغيب التي لم ترد فيها نصوص ، ولم تعرف لها كيفية ، وكل ما هنالك أقوال للعلماء والباحثين يصح الاستئناس بها ، والاسترشاد بما فيها

قال الطبري : ، لعل نزول القرآن على الملك أن يتلقاه تنقفا روحانيا ، أو يحفظه من اللوح المحفوظ ، فينزل به على النبي صلى الله عليه وسلم ، فيلقيه إليه .

وقال البيهقي في معنى قوله تعالى : ، إنا أنزلناه في ليلة القدر ، : يريد - والله أعلم - إنا أممنا الملك ، وأقمناه إياه ، وأنزلناه بما سمع .

وقال الغزالي : ، وسماع الملك وغيره الوحي من الله تعالى بغير واسطة ، يستحيل أن يكون بحرف أو صوت ، لكن يكون بخلق الله تعالى للسامع علما

ضروريا بثلاثة أمور : بالمتكلم ، وبأن ما سمعه كلامه ، وبمراده من كلامه ، والقدرة الازلية لا تقصر عن اضطراب الملك وغيره إلى العلم بذلك ، وكما أن كلامه تعالى ليس من جنس كلام البشر ، فسماعه الذى يخلق له عبده ، ليس من جنس سماع الأصوات .

وحكى القرأى خلافا للعلماء فى ابتداء الوحي ، وهل كان جبريل يقل له ملك عن الله عز وجل ، أو يخلق له علم ضرورى بأن الله تعالى طلب منه أن يأتي محمداً أو غيره من الأنبياء بسورة كذا ، أو خلق له علماً ضرورياً بأن يأتي اللوح المحفوظ ، فينقل منه كذا

والقرآن نزول آخر غير هذا ، وهو نزوله إلى اللوح المحفوظ ، ونزوله من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة فى السماء الدنيا : فأما الاول ، فيشير إليه قوله تعالى : « بل هو قرآن مجيد فى لوح محفوظ » ، ولكن طريقة نزوله إلى اللوح ، وكيفية وجوده فيه ، ووقته ، كل هذا لا يعلمه إلا الله تعالى .

وأما الثانى ، فقد اختلف فيه على أقوال كثيرة ، أشهرها وأصحها أنه نزل إلى سماء الدنيا ليلة القدر جملة واحدة ، ثم نزل بعد ذلك متجهاً فى عشرين سنة ، أو فى ثلاث وعشرين ، أو فى خمس وعشرين على حسب الاختلاف فى مدة إقامته صلى الله عليه وسلم بمكة بعد البعثة ، ويشير إلى هذا القول قوله تعالى : « إنا أنزلناه فى ليلة مباركة » وقوله « إنا أنزلناه فى ليلة القدر » ، وقوله : « شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن » ، وتؤيده الأخبار الصحيحة الواردة فى ذلك ، والمنقولة عن ابن عباس رضى الله عنه ، قال : « فصل القرآن فوضع فى بيت العزة من السماء الدنيا ، فجعل جبريل ينزل به على النبي صلى الله عليه وسلم » ، وقال : « أنزل القرآن جملة واحدة إلى سماء الدنيا فى ليلة القدر » ، وكان بمواقع النجوم ، وكان الله ينزله على رسوله صلى الله عليه وسلم بعضه فى إثر بعض » ، وقال : « أنزل القرآن جملة واحدة حتى وضع فى بيت العزة فى السماء الدنيا » ، ونزله جبريل على محمد صلى الله عليه وسلم بحجاب كلام العباد وأعمالهم ، « إلى غير ذلك من الآثار الكثيرة ، والأخبار الصحيحة .

وقيل : إنه نزل إلى صماء الدنيا في عشرين ليلة قدر من عشرين سنة ، أو في ثلاث وعشرين ليلة قدر من ثلاث وعشرين سنة ، أو في خمس وعشرين ليلة قدر من خمس وعشرين سنة في كل ليلة ما يقدر الله تعالى إزاله في كل السنة ، ثم نزل بعد ذلك منجما في جميع السنة .

وقيل : إنه ابتدئ نزوله في ليلة القدر ، ثم نزل بعد ذلك منجما في أوقات مختلفة من سائر الأوقات .

والذي يدل عليه استقرار الأحاديث أن القرآن كان ينزل على النبي صلى الله عليه وسلم مفردا بحسب الحاجة ، وأنه كان ينزل بعض آية ، وآية ، وآيتين ، وثلاثا وأربعا ، وخمسا ، وعشرا ، وأكثر من ذلك . والسرف في نزوله منجما تثبت فؤاده صلى الله عليه وسلم ، وتقوية قلبه بكثرة نزول الملك إليه ، وتجدد العهد به ، أو تيسير حفظه عليه ، لأنه عليه السلام كان أميا لا يقرأ ولا يكتب ، ففرق نزوله عليه ، ليسهل حفظه ، بخلاف غيره من الأنبياء ، فإنهم كانوا قارئين وكاتبين ، فيسهل عليهم حفظ الجميع إذا نزل عليهم جملة ، أو لأن القرآن منه الناسخ والمنسوخ ، ومنه ما هو جواب لسؤال ، ومنه ما هو إنكار على قول قيل ، أو فعل فعل ، وكل هذا يقتضى أن ينزل مفردا لا جملة .

واختلف في حقيقة المنزل على النبي صلى الله عليه وسلم ، والحق أنه اللفظ والمعنى جميعا ، وأن جبريل وهى القرآن من اللوح المحفوظ ، ثم نزل به على النبي صلى الله عليه وسلم .

وزعم بعض الناس أن جبريل إنما نزل بالمعاني خاصة ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم عبر عنها بلغة العرب ، وزعم آخرون أن الله تعالى أوحى إلى جبريل بالمعنى فقط ، وأنه هو قد صاغه بلغة العرب في تلك الالفاظ المخصوصة ، ثم نزل به كذلك بعد ذلك . والظاهر أن هذين الزعمين بعيدان عن الحقيقة ، لأنهما يفتحان باب النزول على القرآن الكريم ، ويسهلان إثارة الشكوك حوله ، ويأبسان إعجازه الذى يقوم على اتحاد اللفظ والمعنى في نزولها معا من عند الله تعالى .

وقد قسم العلامة الجويني كلام الله المنزل إلى قسمين : قسم يجوز أدائه بالملء ، وقسم لا يجوز أن يعبر منه كلمة ولا حرف ، وقال السيوطي تمليقا على تقسيم الجويني : القرآن هو القسم الثاني ، والقسم الأول هو السنة ، فقد ورد أن جبريل كان ينزل بالسنة كما ينزل بالقرآن ، ومن هنا جازت رواية السنة بالملء ، لأن جبريل أداها بالملء ، ولم تهرز رواية القرآن بالملء ، لأن جبريل أداها بالقف ، ولم يبح له أدائه بالملء ، والسرف في ذلك راجع إلى أن المقصود منه التبعد بلفظه ، والإعجاز به ، فلا يقدر أحد أن يأتي بلفظ يقوم مقامه ، وأن تحت كل حرف منه معاني لا يحاط بها كثرة ، فلا يقدر أحد أن يأتي بذله بما يشتمل عليه — إلى أن قال : وقد رأيت من السلف ما يعضد كلام الجويني .

ولا خلاف في أن الليلة التي ابتداء فيها نزول القرآن هي ليلة القدر ، كما قال تعالى : « إنا أنزلناه في ليلة القدر » ، وفي أن هذه الليلة كانت في شهر رمضان كما قال تعالى : « شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن » ، وهو الشهر الذي كان النبي صلى الله عليه وسلم يتمكف فيه بفار حراء ويصومه ، حيث جاءه جبريل وعرض عليه أن يقرأ ، فقال له : « ما أنا بقارئ » ، فأحذه وضحه إليه ضمنا شديدا ، حتى كان له غطيط يشبه صوته صوت المختق ، فلما بلغ ذلك منه غاية التعب والمشفقة أطلقه ثم فعل ذلك معه ثلاث مرات ، وفي الثالثة قال له : « اقرأ باسم ربك ، الآيات .

وأما تعيين الليلة التي ابتداء فيها نزول القرآن ، فقد وقع فيها اختلاف كثير ، والجمهور من العلماء على أنها في أواخر العشر الأخير من رمضان ، وروى ابن سعد وغيره أن نزول الملك عليه بحراء ، كان يوم الاثنين لسبع عشرة ليلة خلت من رمضان سنة إحدى وأربعين من ميلاده صلى الله عليه وسلم ، ويميل إلى هذا الأخير بعض أصحاب السير والمؤرخين .

كلمتان

لفضيلة الأستاذ الدكتور محمد يوسف موسى

أخلاق

صدق الشاعر إذ يقول : . وإنما الأمم الأخلاق... ، فإنه مما لا يجوز أن يشك فيه أن قوام الأمم الأخلاق ، فإن تخلت عنها أصبحت ولا عاصم لها من الضياع والتهدم . وهل أدل على هذا مما وقع ويقع تحت أسماعنا وأبصارنا من أمم تهار ، وأخرى لا يزيد ما الزمن وما يجيء به من بلاء إلا قوة ، ولا شدائد التي يطير لها قلب الشجعان إلا استمساكاً ومنعة ! ومرجع هذا ضياع الأخلاق في الأولى ، ونأصلها وقوتها في الأخرى . هذا حق لا يحتاج لدليل فوق دليل الواقع ، وهو يصدق على الأفراد والجماعات الصغيرة ، كما يصدق على الجماعات الكبيرة والأمم ، وكما يصدق كذلك على دور العلم وما إليها من المعاهد والمؤسسات المختلفة . إن تقيصة خلقية واحدة قد تكون سيئاً قوياً في فساد الأمر وشقاء كثير من الناس .

ولنتل لذلك بالكذب ، وبالكذب يفترقه كبير من يجب عليهم بحكم عملهم وتربيتهم وتقافتهم أن يتزهوا عنه ، ويصدر عنه بسهولة ويُشركا بصدر الصدق عن الصادق ، بل ربما وجد ذلك سائغاً لذيذاً !

تجتمع وبعض الإخوان والملاء لأمر من الأمور العامة ، ويكون الغرض من هذا الاجتماع الصالح العام ، ويتحدث بعض المجتمعين في إحلاص وصدق مبينين هذا الصالح ومشيرين للوسائل الطيبة التي توصل إليه ، ثم ينتهي الاجتماع والكل مستبشر بما تم ووائق من نجاح القصد . وما هو إلا قليل حتى يتبين

للفائمين بهذا الاجتماع أن ما كان فيه قد تبرح بعض الإخوان بنقله محرفاً مبدلاً تقريباً منه إلى الرؤساء ، دون أن يدري كبر ما تولى وإثم ما اقترف ودون أن يعلم أن ما نقل كاذباً سيّبين سريماً كذبه ، وأن العاقبة ستكون حتماً سيئة له وللصالح العام الذي كان يقصده الجميع !

ومثال آخر : يكون لك عند هذا الموظف الكبير أمر هو من عمله بحكم منصبه ، فنذهب إليه معتقداً أن الأمر سهل لا عسر فيه ، وأنت بين أمرين في كل منهما رضى : إما ، نعم ، ثمرة ، وإما ، لا ، مريعة . يتلفك هذا الرجل بأهلاً وسهلاً ، ويسدك ويسرف في الوعد بإجابة ما ترجو ، حتى تخرج معتقداً أن ما ترجو صار على طرف الثمام أو حبل الذراع كما يقولون ، وتتم الأيام وأنت دائب السعى وهو دائب التوكيد لما وعد ، ملتصا كل مرة تملة من الإنجاز قبلها وأنت راضٍ ، معتقداً أنه صادق كما يكون الرجال . حتى إذا جدد الجدد ، وحان آخر أجل ضربه لقضاء ما ألحقت فيه من أمر ، فرّ منك وأنكر ما وعد ؛ فإذا بما كنت تعتقد من أمر مقصى صار معضلاً ، وإذا بمصالح تضيق عليك كان من الواجب ألا تضيق !

أيها الكاذب ، أيها الإنسان صورة لاحقيقة ليس الكذب إلا جرأة على الله وخوفاً من العبد . إنما يكذب المجرم خوف العقوبة ، ويكذب الخادم خوف السيد ، وقد يكون لذين وأمثالهما من الجهل عذر في الجرأة على الله مالك الأمر كله ، والخوف من العبد الذي لا يملك لنفسه ولا لغيره نفعاً ولا ضرراً . ولكن ما هذك أنت في نقل ما لم يكن ، وفي تحريف الكلم عن مواضعه ، وفي استسهال الكذب واستعذابه ! أقوم أمة وأمثال هذا الرجل ، تهوذا ، كثيرون فيها ، بل ومن يسمع لهم !

رحم الله ابن السهاك إذ كان يرى أن الكذب بما لا يتفق مع الآفة والمروءة حتى ليخشى ألا يؤجر هل تركه . ولعمري لقد صدق ابن السهاك ؛ فالكذب يجب أن يترك أفة لأنه لا يلائم القطرة التي لم يلحقها لؤم ولا دنس . ولذلك حرمة الأديان كلها ، بل حرمة الحكماء وإن كانوا وثنيين لم يأنهم نبى أو رسول .

من الرجولة :

الرجولة وأعنى بها احترام المرء لنفسه وتقدير ما منحه الله له من نعمة الحرية في الإرادة ، فلا يسخر نفسه لغيره فسخيراً يذهب بالكرامة والحق ويحجب المروءة ، ولا يحمل نفسه عبداً لهذا ، وظلا لذلك يزول بزواله ، حتى كأنه لا يعرف لنفسه وجوداً مستقلاً كإنسان ورجل ! الرجولة بهذا الفهم أمر يسير كل اليسر تارة ، وعسير كل العسر تارة أخرى . يسير على من يرى أن الناس ولدتهم أمهاتهم أسراراً فلا يصح ولا يحمل أن يمدودوا عبيداً ، ومن يعتقد أن الله مالك الأمر كله ، فهو يعطى ويمنع متى شاء وحده دون أن يكون لأحد من خلقه أمر من الأمور معه . وهي أمر عسير إلى أقصى حدود العسر على من عدت نفسه بالله أو ضعفت ، فهو يرى أن الرزق والنعمة أمور يملكها ذوو الجاه وأصحاب السلطان وحدهم ، يتصرفون فيها كما يريدون بالبطش والإمساك فهو لهذا يبحث عن سيد يملكه نفسه ويقتازل له من رجولته في سبيل ما ينال منه .

والامة لا تعظم بالملايين التي تضمها من الناس الذين يفدون ويروحون ، بل بما تضم من الرجال وإن كانوا قلة من الناحية العددية .

ليس برجل من لا يستطيع أن يقول : لا ، إذا سيم خطه خسف ! ليس برجل من إذا ضمه مجلس لكبير من الناس فقد منه مزجر الكلب وجعل نفسه بوقاً له يردد ما يقول ويؤمن بما يحدث ويتابع ما يرى ! ليس برجل من يكون مصداق الشاعر الذي يقول :

يوما يمان إذا لاقيت ذا يمن وإن لقيت معديا فعدناي

ليس برجل من يقبل عليك مع الدنيا حين تقبل ويدبر هتك معها حين تدبر ، ويأونتك لأن الرئيس تحدى عليك غضبانا !

إنما الرجل من آمن بالله وأنه الضار والنافع ، وخالط هذا الإيمان قلبه وروحه ، فهو يصدق بالحق وإن هدد بالويل والثبور . إنما الرجل من عرف حقاً أن الدنيا عرض زائل فاحتفظ برجولته وكرامته ، ولم يرض لنفسه أن تلثم هذه

الكرامة ولو كان البدل الدنيا بأسرها . إنما الرجل من ينصح لأمته وأولى الأمر فيها إن تلاقى لهم أشباه الرجال الذين يدورون مع الريح ويفترون ما سبق أن اعتقدوا من آراء كما يغير المرء قبحه وجلبابه إن غدا لا يتفق مع البدع !

مثل الرجولة كثيرة يذخر بها التاريخ أيام هو الإسلام ومجده . ومن فضول القول أن يذكر من هذه المثل ما كان من عمر الفاروق وقد أزمع الهجرة بدينه من مكة ، ومراجعته للرسول الذي لا ينطق عن الهوى في أمور نزل القرآن في بعضها مؤيداً لرأيه ، ونحو هذا مما حفظ التاريخ لكثير من الصحابة والسلف الصالح رضوان الله عليهم ، ولكي أكتفي من ذلك بمثال واحد فيه رجولة مكنمة .

هذا المثال تراه في محاولة الهادي الخليفة العباسي خلع هارون الرشيد من ولاية العهد ومبايعة ابنه جعفر ، لقد جلس الهادي ، لما صحت منه العزيمة على هذه الفعلة للناس ، وشرح في أخذ البيعة لابنه جعفر وخلع الرشيد ، فبايع مشيخة العرب والقواد ، ثم جئ به بالقائد هرثة بن أعين ليبايع فأبى وقال : « إن يميني مشغولة ببيعة أمير المؤمنين ، وشيأى مشغولة ببيعة هارون ، فأبايع بماذا ؟ » فأجاب الهادي بقوله : « تخلع هارون وتبايع جعفرأ » ، فقال : يا أمير المؤمنين ! أنا رجل أدب بصيحتك ونصيحة الأئمة منكم أهل البيت ، وباقه لو تخوفت أن تحرقني على صدقي إياك بالنار لما حجزني ذلك عن صدقك ! إن البيعة يا أمير المؤمنين إنما هي إيمان ، وقد خلقت هارون بمثل ما تستحلفني به لجعفر ، وإن خلعت اليوم هارون خلعت جعفرأ غداً !

هنا استشاط الهادي غضباً ، وأمر بجيء عنق هرثة ، ثم تاب لرشده واكتفى بإسقاطه من قيادته وإخراجه ملوماً مدحوراً . وأخيراً ، وجم الهادي ساعة لا يأمر ولا يهيى ، ثم رفع رأسه وأمر برده وقال له : « يا حائك ! يبايع أهل بيت أمير المؤمنين وفيهم عم جده وعم أبيه وعموته وإخوته وسائر لحته ، ويبايع وجوه العرب والموالي والقواد ، وتمسك أنت عن البيعة ! » فقال هرثة : « يا أمير المؤمنين ! وما حاجتك إلى بيعة الحائك بعد بيعة من ذكرت من أعيان

الناس ! ألا إن الأمر على ما بايئت لك ، إنه لا يخلع اليوم أحد هارون ويقي في غدد الجعفر ! .

قال القاضي خوري راوى هذا الحديث : فالتفت الهادى إلى من حضر مجلسه ، وقال لهم : « شامت الوجوه اصدق والله هرثمة ، ورو وغدرتم ! » ثم أمر هرثمة بخمسين ألف درهم وأقطعهم أرضاً واسعة .

أرايت هذه الرجولة السكاملة واعتزاز هرثمة ! يرفض في عزم ثابت إرادة الخليفة وهو الحاكم المطلق حين ذاك في أمر أجمع عليه كبار الدولة ، ويحتاج في قوة عن رأيه رغم تهديده بالقتل ، ويصمم على ما يرى حتى يظفر بالغلبة والنصر ويعرف الخليفة له سداد الرأي وصدق الرجولة وكامل الوفاء ، فلا يخرج من حضرته إلا عزبوا كريمة منصوراً متاباً !

أين هذا بما عليه كثير من كبرائنا وسادتنا بحكم مناصبهم ومراكزهم الذين فتوا الناس في أخلاقهم ودينهم وأصلوهم السيل ، إذ قلدهم في شعارهم وهو الميل مع الریح حيث تميل !

مثل هذا الموقف العظيم لا يقفه إلا رجل يؤمن بالله واليوم الآخر ، ويؤمن برجولته نعمة من الله يحب رعايتها ، ويؤمن بأن الخلق جميعاً لا يستطيعون أن ينفدوا أو يضرروا أحداً بما لم يرد الله وإن كان بعضهم لبعض ظهيراً . وبهذا الخلق وأمثاله تمتاز الأمة ويشيع الخير فيها ، بتقليد الصغير للكبير والعمامة للسادة .

أما نحن فوا أسفاه ، لا يحتاج الرئيس بله الحاكم ، لإعداد بعض من تحت رياسته أو تهديده ليطيع فيما يريد ، بل يكفي أن يستشف بعض هؤلاء الذين لهم صور الرجال دون حقائقها رغبة الرئيس ، فيسارع إلى تحقيق ما يريد ، لا يرهى في ذلك إلا ولا ذمة ولا كرامة !

ونعد ، فإننا نتوجه إلى الله الذى لا أحد لقدرته أن يغير ما بأنفسنا ، وأن يجعلنا رجالاً تمتاز بهم الأمة العربية والإسلام ؟

ذكرى المولد الشريف

موشحة

لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد الجواد رمضاء

يا خجلتنا من يياض شبى شوه وجهى لدى الفواق ؛
فلا دموعى ، ولا نسيى ولا ولوعى ، ولا هوانى

• • •

أف لهذا المشيب يحور أجمل ما خطبه الشباب ؛
يثنى الفقى غفوة ويصحو إذا زمان الصبا سراب
روض زما نبتة ، وصبح يعقبه الجذب والضياب

• • •

يا لك من طارق غريب عن الهوى والصفاء لوانى
أحيابه هيشة الحريب بلا خيال ، ولا أمانى

• • •

يا لهف نضى على شباب من الحق والحياة أحل
الظرف ، والنصف ، والتصابى يوم تولى الشباب ولى
عوجوا على ريمه ركابى أحتل من ذى الهموم ثغلا

• • •

أُسْبِحْ في أمّته الرحيب وأنشَقْ الشُّرْبَ في المغاني
وأملأ الجو بالنعيب أسي وحزنا على زمان

• • •

من لي بأن استردّ هداً شربته في الكؤوس خراً ؟
مضى ، وأهدى إلى وجدأ حبه في الفؤاد جراً
كان زمان الشباب سدا فعاد بعد المشيب ذكرى ا

• • •

يانفس ، قدآت أن تؤوي عجلي ، إلى شاطئه الأمان
وفي حي المصطفى الحبيب تلقين ماشئت من ضمان

• • •

ميلاده الباهر المجيد نال به الكون ما تمنى
بنوره أشرق الوجود وهر أعطافه ، فغنى ا
أقر حين الملا ولید قر به الكون واطمأنا ا

• • •

تهفو بحاله بالقلوب كما هفت بالنهى المثاني
تضم ذكراه في وجيب وفي جلال ، وفي حنان

• • •

يا قوم ، من شام مثل طه قد أنبت العلم في الصحارى ؟
أمية يعيش في مداها وشرعه أفضت حيارى
لاق بها خصمه وجاما لخار في أمره ومارى

• • •

من أين للكفر والصلب بواهر الوحي والقرآن ؟
أولاك يروون عن غيوب وذا يلقاه عن هيان

• • •

دعا ، فأحيا القلوب غلفاً وسار والسعد في الركاب

وأوسع العالمين عطفاً في الحكم والسلم والعباد
لم يملأ الخائفين خوفاً فتلك في شرعة الذئاب

• • •

من كل خيانة مريب يختص بالعطف كل جان
أو غادر قاجر لموب يكسب بالعرض كالزواني ١

• • •

قولوا لصهيون : ما لموسى بروح الأناس قتلا ؟
والصليبي : ما لميسى يملأ هذا الوجود ختلا ؟
تعباً لأعلامكم ، ونكساً أما نبيكاً ، فجلا
لم يدعوا في الوردى لحوب ولا لغدر ، ولا اختيان
ولا أغارا على الشعوب بكل مسترزق جبان

• • •

سنمر السكون من جديد بدين خير الأمام طه
بالجند ، خفاقة البنود تذك أعلام من رماها
البدء في المشرق السعيد ينبع ، والغرب منتهاها

■ • •

ونحن في أمنا القريب سرنا على هامة الزمان
في الهدى ، في السلم ، في الحروب في الحكم ، في السلم ، في البيان

• • •

جهدٌ مضى في الزمان حراً وعجز في ظله الانام
هبت ، لياليه كتن غراً قد ساد من بعده الظلام
ياسيد المصلحين طراً - هليك من ربك السلام -

■ • •

اعطف على بائس أدب مروع في الحياة طاف
قل لي - إذا خفت من ذنوبي - : لا تبئس ، أنت في ضماني ١

لغويات

لفظية الأستاذ الشيخ محمد علي النجار

ورثك أمس الأول ، وقدم محمد أول أمس
يتردد مثل هذا كثيراً ، ويعني بأمس الأول وأول أمس اليوم الذي قبل
أمس ؛ وهو اليوم الذي قبل يومك . فنقول : حدث هذا الأمر أمس الأول
أو أول أمس إذا حدث ليومين خلوا من اليوم الذي نتحدث فيه . وفي صحيفة
المصري الصادرة في يوم ١٩٥٠/١١/٢٧ : « وكنا قد أقمنا أول أمس إلى عزم
الولايات المتحدة على التوسط لتسوية الخلاف القائم بينهما » .

والاستعمال العربي الفصيح في هذا أن يقال : رثك أول من أمس ، أي في يوم
أسبق من أمس ، وهو اليوم الذي يسبق اليوم الذي قبل يومك ، وفي مثال صحيفة
المصري السابق ، وكنا قد أقمنا أول من أمس ، وهكذا . فهذا الذي ينبغي أن
يجرى عليه الناس وفقاً لما أثر عن العرب . فقد جاء في اللسان في (أمس) :
« ابن السكيت : تقول : ما رأيته مذ أمس ؛ فإنه لم تره يوماً قبل ذلك قلت :
ما رأيته مذ أول من أمس » .

وإذا رأيت محمداً لثلاثة أيام خلون قلت : رأيت محمداً مذ أول من أول من
أمس ، ولا تتجاوز العرب في أمس ذلك ، قال في اللسان في (وأل) . « نقول :
ما رأيته مذ أمس ؛ فإن لم تره يوماً قبل أمس قلت : ما رأيته مذ أول من أمس ؛
فإن لم تره مذ يومين قبل أمس قلت : ما رأيته مذ أول من أول من أمس ، ولم
تجاوز ذلك » .

وفي نصيح ثعلب (باب حروف مفردة) : « ونقول : ما رأيته مذ أول
من أمس ؛ فإن أردت يومين قبل ذلك قلت : ما رأيته مذ أول من أول من أمس ،
ولا تتجاوز ذلك ، وقال شارحه الهروي : « أي لا يقال إلا ليومين قبل أمس .
وأمس هو اسم لليوم الذي قبل يومك » .

ولم أر عبارة "أسس الأول" فيما وقفت عليه ، فأما "أول أسس" فقد جاءت في سبئية البحرى ، ومعنى به بدء أسس وبكرته . قال البحرى :

وكان الوفود ضاحين حصرى من وقوف خلف الزحام وخفس
وكان القبان وسط المقاص ير ترجعن بين نحو ولمس
وكان اللقاء أول من أم س ووشك الفراق أول أسس

فهو يقول : كان اللقاء كان في اليوم السابق أسس . وتراء قال فيه : أول من أسس لا أسس الأول ، ويقول . كان الفراق كان ببدء يوم اللقاء فكان أسس فما أسرع الفراق بعد التلاق ، وقد جعل الفراق في غدوة أسس ليكون أقرب إلى يوم التلاق إذ لم يكن في آخر أسس . وحسبك بكلام البحرى هذا مقنعا في أن تعدل عن استعمال "أول أسس" حيث يجب أن يوضع "أول من أسس" .

الماجريات

تجرى هذه اللفظة "الماجريات" كثيرا : ويراد بها الحوادث الجارية ، وهي من الالتفات المولدة التي دخلت في عداد ما يتكلم به الناس ، وجاوزت لغة العامة إلى لغة الخاصة . ففي صبح الأعشى ج ١٤ ص ٢٥١ العنوان الآتي : "الباب السادس ما يكتب في الحوادث والماجريات" . وأصل تأليف هذه الكلمة هو الموصول وصلته "ماجرى" أي الذي جرى وحدث ، فتوهم أن ذلك كلمة مفردة فعوملت معاملة الكلمات المفردة ، وأدخلت عليها أداة التعريفات وجمعت فقبل : الماجريات ، ومثلها في هذا مثل الماصدقات في اصطلاح المناطق ، ومعنى الماصدقات الجزئيات والأفراد التي يصدق عليها الكلى ويتحقق فيها ، فاصدقات الإنسان زيد وعمرو وخالد ومن جرى هذا المجرى في تحقق حد الإنسان فيه ، وقد قال الصبان في حواشيه على شرح الملوى السلم في المنطق في مبحث الذات والمرضى (فصل في مباحث دلالة الألفاظ) . " ما صدق الشيء : أفراد التي يصدق هو عليها أي يحمل ، وهو اسم مركب من ما الموصولة وصلتها .

وترى من هذا أن واحد الماجريات هو "ماجرى" على حد ما قيل في واحد الماصدقات ، وإن كادوا لا ينطقون بواحد الماجريات .

تلى أن صاحب صبح الأعشى يحمل واحد الماجريات « ماجرية » ، فقد قال تحت الترجمة السابقة : « ويختلف الحال فيها باختلاف الوقائع » ، فإذا وقعت للأديب ماجرية وأراد الكتابة بها إلى بعض إخوانه حكى له تلك الماجرية في كلامه : مع تنميق الكلام في ذلك إما ابتداء ، وإما جواباً .

وقد رأيت أن هذا لا يتفق مع أصل تأليفها . ولو صح ما قاله صاحب صبح الأعشى في واحداه وأنه « ماجرية » ، لما صح تصحيح الياء وإقرارها ؛ إذ أن القانون الصرى يوجب قلبها ألماً لتحركها وافتتاح ما قبلها ، فكان يجب يقال فيها : « الماجرة » .

وصاحب صبح الأعشى هو أبو العباس أحمد بن علي الفلقشندى ، وكان يعيش في مصر في القرن الثامن الهجرى ، وتولى ديوان الإنشاء ، وكانت وفاته سنة ٨٢٩ كما في الضوء اللامع للسخاوى . وقد سقت تاريخ وفاته ليعلم أولية الكلمة التي هي موضوع البحث ، وهي « الماجريات » ، وأنها تصرب بعرق في القدم .

ومن الجلى بعد هذا أنى لا أريد إقرار الكلمة التي أبحث فيها ولا تصويبها ؛ إذ كانت نافية عن منهاج تأليف الكلمات العربية ، فمن الخير تسكبها والمدول عنها . والله الموفق للصواب .

زينب الصباغ — الذرة الشامى

١ — يجرى الأسلوب الأول : « زينب الصباغ » ، في هذه الأيام : يحملون « الصباغ » ، وما جرى مجراه لقباً للأسرة لا يتغير ويلزم حالة واحدة ، فيقال : خالد البناء ، وفاطمة البناء ، وهكذا دون تفريق في ذلك بين حالتى التذكير والتأنيث وقد أخبرنى ذو علم باللغات الغربية الحية أن القوم في اسم الأسرة فريقان : فريق يرى جود هذا الاسم فلا يختلف في تذكير ولا تأنيث ؛ وهم الذين يتكلمون اللغات الجرمانية (الانكليزية والالمانية) ، والذين يتكلمون اللغات اللاتينية (الفرنسية والإيطالية والأسبانية) وفريق يرى التفريق فيه بين حالتى التذكير والتأنيث فيباحق القرب إذا كان جارياً على المؤنث علم التأنيث عندهم ، وهم الذين يتكلمون اللغات السلافية ، ومنهم أم الروس .

وسنة العرب في ذلك أن الصباغ مثلا يكون لمن يتحاطى هذه الحرفة ، فإذا
شهر بها كان ذلك لقباً له ، وقيل : فلان الصباغ ليميز عن يشاركه في اسمه
وليس بصباغ .

فإذا كان له ولد مثلاً وأريد نسبته إليه قيل : خالد الصباغي وفاطمة الصباغية
بأداة النسب . وقد كان في الانصار قطان مدينة الرسول عليه الصلاة والسلام
بنو عدي بن النجار ، فكان يقال لمن ينسب إليهم التجارى الجارية ؛ وفي الروض^(١)
الانف للسبيل في حديث زواج هاشم بن عبد المطلب جد الرسول عليه الصلاة
والسلام ، وذكر نكاح هاشم سلمى بنت عمرو النجارية .

فترى أن أهل عصرنا استوا سنة فريق من الفريقين في لقب الأمرة ، فلا
يقرءون فيه بين تذكير وتأنيت ، وتنكبوا سنة العرب .

وقد جاء في صحيفة الرسالة العدد (٩٨٩) مقال هزوزة اليازجيه ، جعل الكاتب
هناؤه «وردة اليازجى» واليازجى كلمة تركية معناها الكاتب ، وقد جرت حيناً
من الدهر على ألسنة الناس لاسيما في بلاد الشام على عهد الحكم التركي ، وعملت
معاملة المفردات العربية ، وصارت لقباً للأمرة اشتغل أهلها بالأدب ، وكان لهم
عليه فضل عظيم ، منهم ناصيف اليازجى وإبراهيم اليازجى ، والمتبادر في العبارة
السابقة أن يكون «اليازجى» وصفاً لوردة فيكون مما تتحدث فيه ، ويكون
هذا من الكاتب جرياً على المؤلف في هذه الأيام . وقد يجوز أن يقرأ «وردة
اليازجى» بجر ، اليازجى ، بالإضافة ، أى وردة المنسوبة إلى اليازجى فلا يكون
عما نحن فيه ، ولكن هذا خلاف المنيار .

٢ - ونجرب العبارة الثانية : «الذرة الشامى» كثيراً على ألسنة الناس ، والذرة فيها
علم التأنيث ، فالواجب أن يقال . الذرة الشامية ، واست أدري مآل هذا الزيغ
عن الصواب ولا مرده . وقد يخرج هذا على تأويل الذرة بالبت ، ولكن مثل
هذا التخرج يلجأ إليه فيما سمع من العرب ، كما قال بعضهم . إن فلانا رجل لعوب
أنه كنانى فاحتقرها ، فأث الكتاب لما ذهب به مذهب الرسالة .

كيف تقارب الشعوب

منهج الاسلام في ذلك

لفضيلة الأستاذ الشيخ أبرار الوفا المرافعى

يحاول الساسة وقادة الفكر في الأمم التقريب بين الشعوب وإزالة الحواجز السياسية التي أقامتها الاطماع والامواء، على مدى الاجيال بعد أن تكفلت الحضارة المادية بإزالة الحواجز الطبيعية من بحار وأنهار وجبال وصحارى ووديان ، وأعنى بالحواجز السياسية هذه الحدود الوهمية من خطوط الطول وخطوط العرض وهذه الفروق الاعتبارية من جنسية وقومية وهىلية للألوان والثقافات

وهدف هؤلاء القضاء على أسباب الحروب والتطاحن في ميادين السياسة والاقتصاد والثقافة ، ثم الوصول بالشعوب إلى حياة ناعمة في ظلال الأمن والسلام ولا يسع كل حب للسلام إلا أن يبارك هذه الجهود ويبدل من نفسه وماله ما يقضى إلى هذه الغاية ، كما لا يسع كل منصف إلا أن يقدر لهؤلاء جهودهم فيها .

غير أنه رغم ما يبذل في هذا السبيل من جهود وما يجمع لها من جموع فإن التقدم لا يزال بطيئاً ولا يزال الهدف بعيداً والطريق وعراً ، وأكبر الظن أنهم لن يبلغوا الهدف ، وأن جهودهم ستبوء بالفشل .

ذلك أن الدعوة إلى هذه الغاية بموزنها الوسائل الصحيحة والعناصر القوية لانجاح الدعوات والبلوغ إلى الاهداف ، ومن أهم هذه العناصر الاخلاص لها والتطبيق العملى من القائمين عليها ، وإذا فشك كل الشك في توابع مذهب المنصرين في الدعاة اليها ، ودعواتهم في الواقع ما هى إلا سلسلة من الاغاديع السياسية

تبعث عليها ماسيات خاصة مداهنة للجماعات والأمم الصغيرة تخديراً لوعيتها
الانسانى واحتفاظاً بها أن تسير في الطريق التي رسم لها ، وآية ذلك أنه إذا قبل
لهؤلاء الدعاة تعالوا إلى تطبيق مبادئكم وأعطوا الشعوب حقوقها السياسية
والاجتماعية وامنحوها حرياتها وأشعروها بهذه المساواة ، لنسكن نفوسها إلى
مادعونها إليه وتطمئن قلوبها إلى صدق نياتكم فيها ، لم نحل منهم بطائل وأجابوك
بممسول من القول لا يفنى عن الواقع شيئاً .

ولو أنهم أخلصوا في القصد وصدقوا في العزم لصدقت أقوالهم أفعالهم
وكانت القدوة بأعمالهم أبعد أثراً وأعظم نجاحاً ، وشاهدنا التاريخي على ما نقول
محمد صلى الله عليه وسلم الداعي الإسلامى الأول والمصلح الانسانى الفد ، فلقد كان
مثلاً أعلى في صدق عزمته وإخلاص دعوته ، فأصاب هدفه وبلغ غايته وربط بين
الامة الإسلامية روابط جعلها أمة واحدة متماسكة الاجزاء وثيقة البين موحدة
المقاصد بعد أن كانت أوزاعاً متنافرة من القبائل والشعوب وغدا المؤمن الاسيوى
أخاً للمؤمن الافريقى والاورقى والمؤمن الحبشى أخاً للمؤمن العربى أخوة صادقة
عميقة لا تشوبها مظاهر النفاق والرياء ، نحنا صلى الله عليه وسلم منحنى غربياً ووضع
نظاماً رائعاً في جملة وتفصيله وسن للجماعات والافراد حقوقاً وواجبات على
أساس من الشورى والعدل والمساواة والتعاطف والمحبة والتناصح في عمل
الحخير وتجنب الأذى ، وعلى أساس من الرضا والقناعة واحترام حقوق الغير
فألغى الفوارق بين الطبقات أمام القانون وحرم التباذ بالمصريات والتباهى
بالانساب وأوصى بالمرأة والضعيف ، والمسكين والليلف وحرم الشعاعة في
حدود الله وحذر من سوء الظن والتجسس وتبعب العورات ، ومن مصايه العامة
في القرآن :

وأمرهم شورى بينهم ، إن الله يأمر بالعدل والإحسان ، ، إنما المؤمنون
إخوة فأصلحوا بين أخويكم ، ، وقمارنوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم
والعدوان ، ، يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً
منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن ولا تلبسوا أنفسكم ولا تباذروا

بالألقاب بشئ الاسم الفسوق بعد الإيمان ، ، ، يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم ولا يحسبوا ولا يفتب بعضهم بعضاً ، ، ، يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم . .

ومن الوصايا العامة في السنة : ، الناس سواسية كأسنان المشط ، ، لا فضل لعربي ولا لعجمي إلا بالتقوى ، ، لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، ، المؤمنون شركاء في دماؤهم ويسمى بدنتهم أديانهم وهم بيد على من سواهم ، ، كل المؤمن على المؤمن حرام دمه وماله وعرضه . لا شفاعة في حد من حذر الله . من نفس من يؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ، .

وإن تعجب لشيء فاعجب لهذا التفصيل الذي تناولت به التعاليم المحمدية ، حياة الإنسان كفرد في سائر أحواله فقد تناولته عزياً وزوجاً ، وقريباً وبعيداً ، وحاكماً ومحكوماً ، وغنياً وفقيراً ، وعاملاً وعاطلاً ، وعالمياً وجامعاً ، وتناولت شؤنه في مطعمه وملبسه ، وحديثه وجمسه ، وزيارته وساسته في جميع أحواله ورسمت له طرائق العمل في صور أحكام ذات ألوان ، وفرضت بعضها وسدت بعضها ، وبذبت إلى بعض ، وأرشدت إلى أخلاق وآداب هي العاية فيها وصلت إليه المدينة من خلق وذوق وأدب ، ووضعت بهذا أمنن الأساس في بناء المجتمع الإنساني تجميد عقول الفلاسفة ، وتقف منها في أول الطريق .

وكانت أفعاله صلى الله عليه وسلم تطبيقاً عملياً لأقواله وتعاليمه ، فإذا دعا إلى الشورى صرب المثل بنفسه ، فقد استشار بعض أصحابه في حوادث ونزل على رأيهم حيث بدا له وجه الخير فيها ، وإذا دعا إلى المساواة كان كذلك ، روى عنه أنه أقبل على بعض أصحابه يوماً فقاموا له إجلالاً فقال عليه السلام : لا تقوموا كما تقوم الأعاجم يعظم بعضهم بعضاً ، إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد ، وأجلس كما يجلس ، وإذا دعا إلى التعاون فهو في تعاونه المثل الاسمي ، روى أنه كان ذات يوم في سفر فأمر أصحابه بأصلاح شاة ، فقال رجل على ذبحها ، وقال ثان على

سليخها ، وقال ثالث على طيخها ، فقال الرسول صلى الله عليه : وعلى جمع الخطب فقالوا يا رسول الله : تكفيك العمل ، فقال تعلمت أنكم تكفونني إياه ، ولكنني أكره أن أتميز عليكم .

وإذا دعا إلى العدل صدق فعله قوله ، شمع إليه بعض أصحابه في جريمة فاشتد به الغضب وقال ، واقه لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها .

وقد نهج أصحابه نهجه ، خطب أبو بكر رضي الله عنه أثر مبايعته بالخلافة فقال أيها الناس ، أني قد وليت عليكم ولست بخبركم ، فإن أحسنت فأعينوني ، وإن صدقت فقوموني ، الضعيف فيكم قوي عندي حتى آخذ له حقه ، والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه ، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله ، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم .

وكان عمر رضي الله عنه يتفقد أحوال رعيته ليلا ليطلعن على أداء واجبه فيها وجهر عثمان ثلث الجيش من ماله في غزوة العسرة حين دعت مصلحة الأمة إلى البذل والتضحية .

بهذا الأسلوب من التطبيق العملي لمبادئ الدعوة دعا محمد صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه إلى التقارب بين الشعوب والصامان بين الأعداء ، فأفلحت دعوته ، وكان نجاحه فيها مثلاً تاريخياً فذا في قوة التأثير وسرعة الاستجابة ، وكان موضع الدهش لدى المؤرخين من العرب والأوربيين ، وما نجمت دعوته إلا بأنها قامت على أساس من الأخلاق والمزم والتطبيق العملي لمبادئها ، فهل سلك الداعون للتقريب بين الشعوب الآن ذلك السبيل ، وهل صدقت أقوالهم أفعالهم أم كانت أقوالهم صيحات تبعثها المناسبات ، وهي مزيج من الدهاء والصخريه وألحيات يلهون بها الشعوب كلما حزمهم كرب أو نزلت بهم نازلة ألجأتهم إليها ، يلتمسون لديها تفرج هذه الكروب وتلطيف تلك النوازل ؟

الجواب هو في واقع أحوال تلك الشعوب وموقفها من هؤلاء الدعاة وشعوبهم وفيما يسود العالم من قلق وفرع وسوء ظن ؟

سَيِّدِي اِبْرَاهِيمَ الدَّرَوَنِي

لفضيلة الاستاذ الشيخ محمود النواوي

المنشئ بالأزهر

فكرت في هذا الموضوع بعد زيارتي لمدينة دمشق منذ العاشر من المحرم هذا العام . فقد جالت بذهني معان نحو التصوف ، وضممت إليها بعض حقائق عن هذا الشيخ المعتقد فيه كثير أ من المسلمين ، وأرجو ألا تخلو من فوائد توجه الناس وجهة وسطى صالحة ، في نواح كثير الحديث حولها بين غلو وإسراف ، وتحامل وإسفاف ، وبالله التوفيق .

التصوف من العلوم الإسلامية ، وفرع من فروعها ، كالفقه والأصول ، وغيرهما ؛ فإذا كان الفقه يبحث في صحة العمل وفساده ، وحله وحرمة ، لتنظيم أحوال المعاش ، فإن التصوف يبحث فيما هو أساس لإصلاح العمل وجره على أكمل الوجوه وأتمها ؛ فهو يعالج رياضة النفس وإصلاح القلب ، وحسن رعايته ؛ والقلب هو المهيمن على كل عمل يصدر ، والمحرك للأعضاء على وفق ما يبصر ؛ فإذا استقام استقام اللسان ، واستقامت الجوارح وسلمت الصلاة ، والصوم ، والزكاة ، وأمثالها ، من آفات الرياء ، وما إليه من كل ما يجعل العمل خاليا من الروح التي قصد إليها الشارع الحكيم .

والقلب هو مصدر لفبوضات العلم الحجة ، وهو المرأة التي تبصر فيها حقائق الكون ، وأسرار الوجود ، وتنطبع فيها المعارف والحكم التي لا حد لها ؛ وهذه المرأة لا تعطيك الصور صادقة سالمة إلا إذا كانت مجلوة مشرقة ؛ وفي هذا العلم والعمل به يتعرف الطريق إلى جلاء تلك المرأة ، وتصبح الإدراك بها للحقائق والمعارف ؛ وكل ما في هذا العلم من مدارك مؤسدة على التقوى فن الشرع الشريف استمدادها ، ومن الكتاب والسنة منهاجها ؛ فالدين الإسلامي مهيمن على وضع الأعمال وضعا صالحا يقرب إلى الله ، ويشرح الصدر للإسلام ، ويجمع

شعب الخير ، وبوجه إلى أقرب الطرق في سعادة الوجود ؛ فإذا كان في قوله تعالى مثلاً : أقيموا الصلاة ، دلالة على فرضيتها كما يقول الفقهاء ، فإن فيه دلالة على ناحية لا تحصل الغاية التي به إليها الدين ، وهي النهي عن الفحشاء والمنكر ، بدونها ؛ ذلك أن الإقامة هي التعديل ، من أقام العود إذا عدله ، فكل صلاة ليست على هذا الوجه لا خير فيها ، وهي لا تنهى عن الفحشاء والمنكر ، بل لصاحبها الويل ، كما نطقت به آية أخرى من القرآن الكريم . . .

وهكذا تجمد الكتاب الكريم ، والسنة النبوية الصحيحة مشتملة على أسس التصوف ، وقواعده السليمة ، مما يجعل لكل عمل روحاً مثمرة ، ويخلق منه أذواقاً ونفوساً قيعة .

ولذلك يكون للمتوفرين على هذه النواحي الصالحة مواجيد وحالات ، وتقع من بعضهم خوارق عادات ، ولا سيما أن سيرهم وسلوكهم مؤسس على تغليب جانب الروح على جانب الجسد ، وإيثارها بالخدمة ، وفي الروح ثروة عظيمة ، ولذاتها معارف وأسرار كريمة ، ولكن الناس يدسونها بالمادة والاهماك في الملاذ ؛ وفي القرآن الكريم : « قد أفلح من زكاه ، وقد غاب من دساها » .

وهنا نشير إلى أن بعض صور الكشف التي تصل إليها تلك النفوس قد لا يفهمها العقل ؛ لأن الروح فوق طور العقل ، وقد لا تتفق مع ظاهر الشرع الشريف ؛ لأن الشرع في الأعم الأكثر يخاطب العقول ، ويجارى جميع استعدادات البشر ، وأحياناً يتدخل الشيطان مع بعض السالكين في هذه الطرق ، فيلبس عليهم ، ويزل بهم ؛ وتلك هي أسباب الخلافات التي تقوم كثيراً بين المتصوفة وغيرهم . ومن الحق على الصوفي ألا يظهر شيئاً من إدراكاته التي لا تتفق مع ظاهر الشرع ، وإلا كان عرضة للفتنة وإيقاع الخلاف بين طوائف الأمة ؛ وإذا أظهر شيئاً من ذلك فن حق القائم على الشرع إنكاره ، ولا يكلفه الإسلام قبوله مهما كان صاحبه إلا أن يؤول كلامه بما يتفق مع الدين . ومبنى طريق هذه الطائفة على الرياضة ، وتذليل النفس ، ودفع رعونتها ، ومقاومة ما يدفعها إليه الشيطان ، ويحسنت لها من أبواب الشر والفساد ؛ وخير سبيل إلى ذلك الإغراق في ذكر الله بالصور المختلفة ، ومعاشرة الصالحين ، والبعد عن أوساط المفسدين ؛

وبقدر ما ينال المرء من الذكر والطاعة السليمة من الآفات ، يكون حظه من التصرف ؛ ولهذا عرف الصوفية باتخاذ الأوراد التي هي ذكر مرتب في مواجيد معينة بصور وأحوال لا تختلف مع ما جاء به الكتاب والسنة من حث ومن توجيه ، وهي من الورد بمعنى المساء الذي يرده الظلماء ، فيروون ظلمام .

ولابن خلدون في هذا المقام بحث طويل في مقدمته ، يشير في بعضه إلى أن أصل طريقهم بحاسبة النفس على الأفعال والتروك ، والكلام في هذه الأدواق والمواجد التي تحصل من المجاهدات ، ثم تستقر للبريد مقاماً ، ويرتقى منها إلى غيرها ؛ ثم لم مع ذلك آداب مخصوصة بهم ، واصطلاحات في ألفاظ تدور بينهم ؛ فلهذا اختص هؤلاء بهذا النوع من العلم الذي ليس لواحد من أهل الشريعة الكلام فيه ، وصار علم الشريعة على صنفين : صنف مخصوص بالفقهاء وأهل الفتيا ، وهي الأحكام العامة في العبادات والمعاملات ؛ وصنف مخصوص بالقوم في القيام بهذه المجاهدة ، وبحاسبة النفس ، والكلام في الأدواق ، والمواجد العارضة في طريقها ، وكيفية الترقى بها من ذوق إلى ذوق ، وشرح الاصطلاحات التي تدور بينهم في ذلك ؛ ولما كتبت العلوم ودونت ، كتب رجال من أهل هذه الطريقة في طريقهم ، وكتب كثير منهم في عدة نواح ، كالورع والمحاسبة على الأخذ والتروك ؛ وجمع الغزالي معارفهم الشرعية في كتاب الإحياء ، وشرح اصطلاحاتهم وعباراتهم ... ثم أشار ابن خلدون إلى أن الطريقة كانت أولاً عبادة فقط تنافي أحكامها من صدور الرجال ، ثم صارت علماً مدوناً يطلق عليه اسم التصوف ، كما وقع في سائر العلوم التي دونت بالكتاب ، من التفسير ، والحديث ، والفقه ، والأصول . وتكلم ابن خلدون في الكشف والإطلاع على عوالم من أمر الله بسبب الخلوة والذكر ، وفصل سبب ذلك ، ثم بين أن الكشف لا يكون صحيحاً عندما إلا إذا كان ناشئاً عن الاستقامة .

وتنقل ابن خلدون في أحكام كثيرة تتصل بالتصوف ، وبما اشتهر من مذهب الحلول والوحدة ، وما إلى ذلك مما لا يعنيها الخوض في تفاصيله الآن ، وقد تعرض للحديث عنه في مقام آخر ؛ إنما الذي يعني أن نشير إلى أن هذه الطريقة لأمر ما انتشرت في القرن السابع الهجري ، وظهر رجال حلقوا في

آفاقها ، وربما فتن بهم كثير من الناس ، من أمثال السيد البدوى ، والدسوقي ، والرفاعى ؛ وللتاس فى طباهم افتتان بهذه الخوارق التى تسمى كرامات ، وبما يظهر على أيدي بعض الناس من كشف يخبرون فيه عن الغيب الماضى أو المستقبل ؛ ولهذا كان يرجع الناس إلى السكبان فيعظمونهم ويحكمونهم فى أمورهم ؛ وفى هوام المسلمين كثرة تغلوا فى تقدير هؤلاء غلوا تخرج به عن الدين ، وتورط فى كثير من الزيغ الذى قد يفسد عقيدتهم ، ويخرجهم إلى حد الإلحاد أو الشرك ، نعوذ بالله من الضلال .

وليس فى شرعة الإسلام أكثر من إزال الناس منازلهم ، مع الحيطة ، حتى لا يتخذ بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله ، ولا يطرى بعضهم بعضاً مهما كان ، كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم ، إنما الكل عبد الله ويشر عن خلق ، لا يملك لنفسه نفعاً ، ولا ضراً ، ولا موتاً ، ولا حياة ، ولا نشوراً ...

والإمام الدسوقي من أولئك العلماء المنصوفة الذين نشروا بمدينة دسوقي فى القرن السابع الهجرى الذى أشرنا إلى أنه ظهر فيه التصوف ظهوراً قوياً ، وتغلغل فيه رجاله إلى حدود قد تسمى إلى بعض الناس فى بعض عقائدهم بما تسميه عدواً إلى من بعدهم ودرجوا عليه ...

ولد الدسوقي بالمدينة المذكورة سنة ١٢٤٣ هـ ، وتوفى بها سنة ١٢٨٦ هـ ، فعمره نحو ثلاث وأربعين سنة ، قضى شطراً منها فى طلب العلم ، وتفق على مذهب الإمام الشافعى ، ووضع فيه بعض كتبه ، ثم اقتنى آثار الصوفية ، كما حدث عنه الشعرائى فى طبقاته ، فكان من أجلاء مشايخ الفقهاء أصحاب الخرق ، وكان من صدور المقربين صاحب كرامات ظاهرة ، ومقامات فاخرة ، وسرائر طاهرة ، وبصائر باهرة ، وأحوال خارقة ، وأنفاس صادقة ، وهم عالية ، ورغب سنية ، ومناظر بهية ، وإشارات بورية ، ونفحات روحانية ، وأسرار ملكوتية ، ومحاصرات قدسية ، وما إلى ذلك من عبارات خلجها عليه الإمام الشعرائى ، قد تاق ضوؤه على ما نحاول الوصول إليه من تجلية الرجل للقارئ ، شخصية حقيقية عرفها المتحققون من رجال الفن ، ونوهوا بشأها ، وأعلوا من قدرها ؛ ونحن والقراء الكرام ، رى فيما يتناولون عن الرجل من عجائب وكرامات يجب أن

تقرأ بغاية التحفظ ، وتؤخذ على أنها أخبار لم يتحرر في نقلها ما يجب أن يراعى في صحة الأسانيد التي تأتي على الأخبار المنقولة ضوء العلم والإيمان الصحيح ، يستوى في ذلك ما ينقل عن الدسوق وعن غيره ، مهما علت رتبته إلى سيد المرسلين صلوات الله وسلامه عليه . فهم يذكرون أنه كان يتكلم في المهد ، وأنه صام أول رمضان صادفه في حياته ، وأن ذلك كان بعد ولادته بيوم واحد ؛ ويقولون إنه يخاطب جبريل ، وإنه يقرأ الألواح المحفوظ ؛ ويذكرون عنه قصصاً كثيرة ، فيها كثير من العجائب والفرائب ؛ ففى بعضها أن نقيبه دفع سبعة من القضاة جاءوا يمتحنونه إلى ما خلف جبل قاف ، فكشوا سنة ، ثم عفا عنهم بعد توبتهم ؛ وفي بعضها أنه أمر التماسح أن يلفظ صيحاً كان ابتلعه ، فلفظ حياً ، ثم قال التماسح مت يا ذن الله فأت ؛ وكثير وكثير جداً من أمثال تلك الأشياء التي قلنا إنه يجب التحفظ في الإيمان بها ، مع الاعتقاد بأن الله قدير على خرق العادات لا يقف أمام قدرته شيء . على أننا نشير بوجوب المبادرة بتكذيب ما يدل الشرع على عدم وقوعه ، ونمسك القلم عن الخوض في تفصيل ذلك ، لدع المجال فيه لحضرات أصحاب الفضيلة أرباب الفتيا ، والمختصين من أهل الصناعة ؛ ثم يشير إلى أنهم نقلوا عن الإمام الدسوق من النثر والعظم ، ما يدل على أنه كان من المتحققين والصوفية الذين بلغوا شأواً بعيداً في معرفة الله ، والاطلاع على كثير من الأسرار واللطائف ، والامتنياز في معرفة دخائل النفوس وأسقامها ، وعلاها وطرق علاجها .

من ذلك : قوله : « من عامل الله بالسرائر ، جعله على الاسرة والحظائر ، ومن خلص نظره من الاحتكاس ، سلم من الالتباس ، لا يكمل الفقير حتى يكون محبا لجميع الناس ، مشفقاً عليهم ، سائراً لعوراتهم ، فإن ادعى الكمال وهو على خلاف ذلك فهو كادب ؛ من غفل عن مناقشة نفسه تلف ، وإن لم يسارع إلى المناقشة كشف . إن كنت ولدي حقاً ، ومتبعي صدقا ، فأخلص الرق لله تعالى ، واجعل واعظك من قلبك . وكن عمالاً ، ولا تلتبس من أحد درهما ؛ فإن هذه طريقى ، ومن أحببني سلك مئى فيها ؛ فإن الفقير الصادق هو الذى يُطمع ولا يُنطعم ، ويُعطى ولا يُعطى ، ولا يلتمس الدنيا ولا شيئاً من هروصها ، فإن الرشا فى

الطریق ! حرام وشيخكم قد بايع الله تعالى ألا يأخذ لأحد فلساً ، ولا درهما ، وأطال (رحمه الله) في هذه الوصاة القيعة التي تدل على حال ما يقع فيه مدعو التصوف في أزمنة هذه بمن يحملون طريق الله شباكاً بجميع الدنيا ، واحتيالاً للسكار في الأموال ، والتمتع بطيبات الحياة الدنيا التي هي أبعد ما يكون عن ساحة هذه الطائفة الكريمة .

وقد نقلوا عنه كثيراً من النظم الذي يفيد مقدار منزلته في نواحي التصوف ، ويدل على أنه كان على جانب من البصر باللغة العربية وآدابها . ومن ذلك قوله :

سهم الليل صائبة المرامي إذا وترت بأوتار الخشوع
يصوبها إلى المرمى رجال يطيلون السجود مع الركوع
بالسنة نهمهم في دعاء بأجفان تفيض من الدموع
إذا أوترن ، ثم رمين سهماً فما يغني التحصن بالدروع
ومن نظمه أيضاً :

سقاني محبوبي بكأس المحبة فنتت هلى العشاق سكرأ بخلوق
ولاح لنا نور الجلالة لو أضا لضم الجبال الراسيات لدكت
وكننت أنا الساقى لمن كان حاضراً أطوف عليهم كرة بعد كرة

هذه هي الصورة التي أردت أن أجلبها للقرا . مرجعها بها الكثير منهم إلى ميزان الاعتدال بقدر ما وسمعه على وأطمأن إليه قلبي ، ولا أحب أن أختم هذه المعجالة قبل أن ألفت النظر إلى ما اعتاد الناس للدسوقي وأمثاله من شد الرحال ، ونذر الذور ، وإقامة الموالد في هذه الصور التي نشاهدها جميعاً ، وما إلى ذلك من شئون كثر خوض الناس فيها لغولاء الأولياء ؛ وهو أيضاً مما أذع المجال فيه لحصرات السادة الفقههاء من أهل التوجيه والقائمين بالإصلاح والإرشاد ، مع حرصى البالغ ووصاتى الصادقة الخالصة أن يساس الناس في التوجيهه باطنف ودقة ، ورفق وحكمة ، وتوجيهه إلى الحسنى بالحسنى ، والله ولى التوفيق ؟

متاعب الرسول

تفسير الشيخ إبراهيم أبو القتيب

المدرس بكلية الشريعة

الرُّسُلُ صلوات الله وسلامه عليهم صفوته سبحانه وقمالي من خلقه ما في ذلك شك... ولكن حياتهم مليئة بالمتاعب، حافلة بالأذى، محفوفة بالكدر، محروطة بالشدائد، وقد دلّ التاريخ على أنه لم يتخلّ واحد منهم من الهموم والمشاق، والنصب والتنقيص... وإذا صح أن الامتحان مقياسُ لرضا القبول، والدرجات والمنازل، فإن هؤلاء وصلوا بما تحملوه، وحصلوا بما صادفوه، على ما لا يُتصور أن تناله البشرية كلها من مكاة مرموقة، وعلى قدر أهل العزم تأتي العزائم... إلا أن نبينا - جزاه الله عن الإنسانية أفضل الجزاء - كان أكثرهم تعرضا للعنف، وأوفرهم نصيبا من المكروه، لأن مهمته أخطر، ورسالته أعظم، وقوته أبعد ما يكونون عن اللين والحوادة، والرحمة والرفق... ومنذ أول يوم نزل عليه جبريل وضمته إلى صدره فبلغ منه الجهد قائلاً له: اقرأ باسم ربك الذي خلق، وذهب إلى خديجة يرجف فؤاده، وهو يُهمّهم بقوله: والله لقد خشيت على نفسي، وقال له ورقة بن نوفل ليتني كنت حرباً إذ يخرجك قومك... قرأ عنوان كتابه وعلم أنه يخوض غمار الغيب الغامض، والمستقبل المجهول، وكان كوقع الساعة عليه أن يقول له ورقة - على ضوء ما قرأ بالعبرانية في كتب الأديان السالفة - نعم، فإنه لم يأت رجل بمثل ما أُنشئت به إلا عودى ١١ ولم يكد بعد ذلك يصعد الصفا والمروة وينادى بطون قريش ليعلمن إليهم أنه نذير لهم بين يدي عذاب شديد، حتى قال له أبو لهب تبت يدك، ألهذا جمعنا، وكان يرجو أن يأخذوا على يديه قبل أن تجتمع عليه العرب، ونزلت فيه السورة المعروفة باسمه، وكان ذلك إشعالات

لنيران عداوته ، وإذكاته لاتون حقه ، فأخذ يكبد له صلى الله عليه وسلم ، ويفتح له صفحات أخرى من الإيلام والأذى ، والفسوة والعنف ، وقد كان يسكن زلى جواره هو وزوجته حمالة الحطب ، دون مراعات حرمة الجوار ، ولا لزمام القرابة .

أما الجار الثانى : فإنه عقبة بن أبى معيط ، وكان لا يقل فى العداوة والبغض والإضرار والأذى عن أبى لهب . .

وقد أغراء أبو جهل ذات يوم أن يلقى الاقذار على رأس الرسول وهو ساجد ، وصنع وليمة دعا إليها الوجوه والأعيان ، ودعاه صلى الله عليه وسلم فيمن دعى ، فلما حضر الطعام ، قال له : أنا لا أكل طعام مشرك كافر ، فشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فلما علم بذلك أبى بن خلف تهدده إن لم يرجع إلى دين الاشياخ ، وهو الذى تقصد إليه الآية : « ويوم يعض الظالم على يديه يقول يا ليتى اتخذت مع الرسول سبيلا ، يا ويلتا ليتى لم أتخذ فلانا خليلا ، لقد أضلنى عن الذكر بعد إذ جاءنى ، وكان الشيطان للإنسان خذولاً . وهؤلاء كلهم من المستهزئين الذين كفاه الله شرهم ، وأراه مصارعهم فى بدر وغيرها من الغزوات .

ولو أن تلك المتاعب كانت فى أول عهده بالدعوة ، لقلنا - هكذا - تكون الأمور فى الابتداء شاقة ، لأن المصلح الاجتماعى لا يحتاج إلى الجلد والاحتمال بعد هذه المرحلة ، حيث تكون القلوب قد تفتحت ، والأذهان قد نهأت ، والطباع قد تحولت ، ثم لا يكون بعد ذلك إلا الاستقرار والسكون .

إلا أنه صلى الله عليه وسلم ظل عمره الطويل ، وحياته المديدة ، فى جو ملبد بالغيوم ، متعم بالرياح والأعاصير .

وعن إذا استقيننا فقد والديه ، وموت جده عبد المطلب ، وعنه أبى طالب ، ونشأته فى أحضان الفقر والتربة ، وغضون العوز والحاجة ، وجدنا أن أيامه كلها فى -بيل الدعوة لم يهنا له فيها صفر ، ولم يصادفه لذة ولا سرور .

وهامى ذى عاتشة رضى الله عنها تقول له : « هل أتى عليك يوم كان أشد

من أحد؟ قال : لقد لقيت من قومك ما لقيت ، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة ، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن كلال فلم يجبه إلى ما أردت ، فانطلقت وأما مهموم على وجهي ، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب ، فرفعت رأسي ، فإذا أنا بسحابة قد أظلتني ، فنظرت ، فإذا فيها جبريل ، فناداني . فقال إن الله قد سمع قول قومك لك ، وما ردوا به عليك . وقد بعث إليك ملك الجبال ، فلم على ، ثم قال يا محمد . فقال ذلك ، فما شئت ، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين . فقال النبي صلى الله عليه وسلم ، بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد وحده لا يشرك به شيئا ، وصدق الله العظيم . لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم . . أما أحد الذي تسأل عنه رضى الله عنها في الحديث ، فإنها الغزوة المعروفة بهذا الاسم ، إذ ترك بعض المسلمين أماكنهم من صفوف الجيش ، حين لاح لهم النصر ، طمعاً في أسلاب العدر ، وكان هذا الخلل سبباً في الهزيمة المسكرة ، التي حلت كثيراً منهم على الفرار ، ولا سيما بعد أن سمعوا مادياً ينادى ، إن محمداً قد مات ، ، وفي هذه الغزوة شجعت رأسه وكسرت رباعيته ، واحتمل من صنوف الأذى ، وألوان العذاب . ما لا يحتمله إلا صناديد الرجال ، ولما عاتب هؤلاء الفارين والمفسدين في تلك الهزيمة أجاوبوه بذلك العذر الواهي ، وهنالك نزلت فيهم الآيات ، وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا ، وسيجزي الله الشاكرين ، وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجلاً ، ومن يرد ثواب الدنيا فؤده منها ، ومن يرد ثواب الآخرة فؤده منها وسيجزي الله الشاكرين ، وكأى من نبي قاتل معه ربيون كثير ، فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله ، وما ضعفوا وما استكانوا ، والله يحب الصابرين . . ونحن نعلم أنه لم تكن تلك الغزوة فقط من الساعات الرهيبة ، واللحظات الحرجة التي لاقى فيها الشدائد ، وتحمل الأهوال ، فقد مرت بالمسلمين ، تبوك ، التي سماها القرآن ساعة العسرة ، لأنها صادفت حمارة القيظ ، ووافقت أيام الجذب والجوع ، وكانت محكا للإيمان الصادق ، والجهاد الخالص ، وهتك الله فيها أستارا كانت تغطي على النفاق .

مولد النور

نفسية الشيخ على رفاعي

مفتش الوعظ والارشاد بالأزهر

بميلاد سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم انشر نور الحياة في جزيرة العرب ، وأضاء الله به المشارق والمغارب ، وأحيا به أمة خيم على ربوعها الفناء ، وأطبق على أهلها ظلام الجهل ، فهي والأنعام سواء . ومن أراد أن يعرف ذلك تمام المعرفة فليظر إلى ما كان عليه شبه جزيرة العرب قبل بعثة من أرسله الله سراجا

وَتَقَدَّمَهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صفوف المسلمين في هذا الوقت كان مثالا على فدائية القائد الذي يسبق جوده إلى الهلاك ، ويتقدمهم إلى الموت ، ويبيع قبلهم روحه رخيصة في سبيل الله ، من غير نظر إلى ما يعرض له من العقبات والصعاب ... وقد عرفنا من حديث غزوة الخندق أنه كان يحفر بنفسه مع أصحابه ، فلما دُمِيتْ أصبح له لم يعلِّقه ذلك عن متابعة العمل ، ولم يصدفه عن مواصلة السير فيه ، ولم يزد على قوله : وفي سبيل الله ما لقيت ، وكان الذين يعملون معه كلما رأوا منه هذا التواضع ، وأحسنوا فيه هذا الإيمان ، وشاهدوا استهاته بما يلاقى تأججت عزائمهم ، واشتعلت هممهم ، وصاعفوا جهودهم . .

وربما كان الذي لا فناء من خصومه بعضا بما كان يلقاه من بعض أنصاره الذين كانت فيهم جفوة طباع ، وفظاظة قلب ، وخشونة معاملة ، وإذا كان العرب على العموم قساة الأكباد ، غلاط العادات ، فقد كان قومه على الخصوص أكثر في ذلك كله من سواهم ... وفي الحديث أن رجلا أعرايا جاء إليه فقال له بأسلوب العنف والشدّة ، يا محمد ، ثم جذبه من حاشية ردائه جذبة تأثرت به رقيقته ، وطلب منه أن يأمر له بشيء من مال الله ، فلم يزد على أن التفت إليه ضاحكا ، وأمره بالعطاء ، وبهذا اللين ، وذلك الخيم يسود الرجل ، ويستحق ثناء الله . وإنك لعل خلق عظيم . .

بضوءه وقرأ ينير ، يرى أن القوم كانوا في عماء ليس بعده عماء ، وجهالة ليس بعدها جهالة ، حقول كلبية ، ونفوس مريضة امتطلت الشر وركبت الفساد . الجفاء فيهم طبيعة ، والغلظة في أحوالهم غريزة . يرون الشجاعة في السفك والسلب واعتداء الأقوياء على الضعاف . لا تربطهم وحدة سياسية ، ولا تجمعهم رابطة دينية ، ولا يردعهم هن فعل القبيح قانون ، ولا يعصمهم عن الوقوع في الدنايا خلق . فهم كما قال الله فيهم : أولئك كالأنعام بل هم أضل ، أولئك هم العاقلون .

حرموا نعمة النظر في مصنوعات الله ليؤمنوا بصانعها ، فالدين عندهم هواء . ينحتون الأصنام بأيديهم ، ويتخذونها أرباباً تعبد من دون الله ، يعتقدون فيها النفع والضرر ويقدمون لها القرابين ويخلصون لها التقديس والتعظيم . وليست الأصنام عندهم واحدة بل لكل قبيلة صنمها ومعبودها . وبلغ من تعلقهم بها أن الرجل منهم كان إذا رغب في السفر حرص على أن يصحب معه صنماً صغيراً يماثل صنم قبيلته يضرع إليه في حاجاته ، ويستمد منه المعونة في تحقيق رغباته . ويحب ما يروى من سفاهة عقولهم وانحطاط تفكيرهم أن بعضهم كان يتخذ إلهه من الحلوى فإذا جاع أكله ! فعل يدل على طمس البصيرة وانعدام التفكير ، وركوب الأهواء وتقليد الآباء ، وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدى عن السبيل .

وكاوا مع ذلك في عقائدهم أصنافاً شتى ، فمنهم من أنكر وجود الخالق وجحد البعث والإعادة ، وقالوا : ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر ، ومنهم من أترف بالخالق وابتداء الخلق وأنكر البعث والإعادة ، وفرقاً أسكروا الرسل واستبعدوا أن يبعث الله بشراً رسولاً وعبدوا الأوثان والأصنام وزعموا أنها تقربهم من الله زلفى .

وجمهرة العرب كانوا من هذا الصنف . وقليل منهم كان يميل إلى اليهودية والنصرانية ، وبعضهم كان يعبد الملائكة ويعتقد أنهم بنات الله ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

ذلك موجز حالهم الدينية ، أما حالهم السياسية فلا تحزن عدوا ولا تسر صديقاً ، فقد كانوا أذلاء مستضعفين لدولتي الروم والفرس . وكانت قوانينهم ما اصطلحت عليه كل قبيلة ، أو ما رآه زعيمها من حسن وقبح ، فالحسن ما يحسنه

والقيح ما يقبحه ، لا يرون جريمة في وأد البنات وقتل الاولاد ، ولا يأنف المرء منهم أن يتكح زوجة أبيه أو يجمع بين أختين على فراشه .

في هذا الظلام الحالك والليل البهيم بعث الله نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم ، فأضاء بيئته القلوب وأشرق عليها نور الهداية ، فبدل جفاهها مودة ، وغلظتها رقة ورحمة ، وجهلها علماً وحكمة ، وذلها عزاً ومجداً .

لقد جاء ميلاده وسط هذه الغياض بما سبقه من إرماصات إيذانا بعهد جديد تتغير على صفحته تيارات الخلق برسوم من العزة والمظنة ، مُصممت بها العقيدة وانتقل بها الفكر من الأحجار إلى بارثها وارفع البصر من الأرض إلى السماء يتلقف منها حل فضيته ، لئن كتب المؤرخون وأكثروا وأطالوا البحث عن عظيم يكشفون للعالم ما استسر من نواحي عظمت . عظيم في قيادته لشعبه وتغلبه على سيده عاداته . أو عظيم في فلسفته يشق بالناس طريقاً إلى ما وراء المشاهدات ، أو عظيم في شخصيته التي تهر من بعد وتعلب على العقول والقلوب من قرب . أو عظيم في نشأته وتكوينه ، نحوطة المعانيب إلى غير ذلك مما يعنى به الفئاد الوازنون للأشخاص والأعمال . فأنى لهم أن يكتبوا عن هذه الشخصية التي طامسا وضعها الباحثون من أهل الشرق والغرب أمام مناظيرهم حتى إذا وصلوا إلى ناحية زعموها معدة لعظمته أشرق شعاع آخر من ناحية أخرى ليست في حسابهم ، فأرجعهم الفهمى وقد أحسوا بأنهم لم يصلوا إلى الغاية مما يشهدون .

فأند جمع الشتات ورسم الهدف ووضحه لكل ذى بصيرة . إنه أستاذ البشرية على اختلاف طبقاتها وتنوع مذاهبها عن طريق إحياء الفضيلة التي وضعها العالم قبله تحت الأقدام (إنما بهت لأنم مكارم الأخلاق) .

ولم ينل هذا بكلمة واعظة أو صدقة مبدولة بل ناله يذل الوقت وتكريس الجهد ، واستطاع بهذا الثمن أن يجمع من حوله مؤلاء نفر من صناديد الكفر إلى هداة وغزاة في سبيل الله .

تدرج بهم على هدى القرآن في الأدب العالى (فيما رحة من الله لست لهم . ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك . .) (إنما المؤمنون إخوة)

(ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين) . حتى فاجأوا كسرى على عرش عظمتهم وهم في خشونة الملابس وزهادة العيش بكلمة الحق جريئة حكيمة (أسلم تسلم يؤذك الله أجرك مرتين) فعبدوا الله مخلصين له الدين ، وعاملوا الخلق غير عادين ولا غاشين ، فلكوا الدنيا زاهدين فيها والآخرة عن طريق الدنيا وتركوا لنا من بعدهم ميراثاً يفنى الزمان ولا يفنى (فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة) فنكولنا الكريم أصلاً ونشأة ومن مثله حياة تزخر بالخير وسط شروء قاصمة . ومن يدانيه في يتم توجه الاتزان وزايد الأدب وعهدنا بالآيتام الإهمال والضياع أو الدلال وفساد الحال . من كيتيم عهد الله رزاقه وعقلاً حتى لم تؤخذ عليه هفوة يعير بها أو زلة لسان أو عثرة قدم تقص مكانته (الله أعلم حيث يجعل رسالته) .

أسعدوا أفكاركم أيها الكاتبون وأقلامكم ، حين تزجون بها في حياة هذا المولود الذي سعد به العالم . إذ أطلق العقول بعد ما قيدتها الأديان الباطلة بالآوهام والأضاليل (إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون) .

وحرر الطعام من قيود الاستعباد في الأموال والرقاب ، فأعطى كل امرئ حقه في حياته يرسم لنفسه ما يشاء من مسالك بحيث لا يضرب غيره (يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً -) (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا) (يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ...) حتى خلع عن نفسه الحول والقوة ونزل إلى الناس واحداً منهم يقول (إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ إنما إلهمكم إله واحد . فن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً) .

لقد كان مولد النور والهدى لم أراد النور والهدى . ولترجع قبل ألف وثلاثمائة وثلاث وثمانين سنة ، كي تنف مع وسط العالم المتخبط لتجعله أستاذاً مرشداً في ظروف شاه فيها وجه الحق وأصبح الزور والطغيان عند الأمم قانوناً بل وديناً . إتنا إن فعلنا وحاولنا الخلاص فلا بد واصلون (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين) فإن من حله الرسالة وسلمه القيادة قال (يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله إذا دُعيت وسراجاً منيراً) .

أعلام الأزهر

حمزة فتح الله

المتوفى سنة ١٣٣٦ هـ (١٩١٨ م)

لفضيلة الشيخ محمد طاهر الفقي

المدرس بكلية اللغة العربية

نشأته وحياته :

ينحدر من سلالة مغربية ، ولكنه ولد في بئر الاسكندرية ، سنة ١٢٦٦ هـ (١٨٤٩ م) وشب بها ، حفظ القرآن في إحدى مكاتبها ، ودرس العلوم الشرعية واللغوية بجامع الشيخ ابراهيم باشا ، ثم التحق بالأزهر ، فأنتم به دراسته ، وتوفر على الآداب واللغة فتمكن منهما وأصاب حظا كبيرا ، وديج الرسائل الادبية ، ونظم الشعر ، ثم عاد إلى الاسكندرية ، ورحل إلى تونس ، فلبث فيها بضع سنين تولى في أثنائها تحرير جريدة « الرائد التونسي » ، فأكسبه ذلك مرانة ودربة على معالجة الكتابة الصحفية والسياسية . ثم عاد إلى مصر ، فألقى نار الثورة العرابية مشبوبة ، فاقبل بالخدو ، وكان من أعوانه ومناصريه ، فأوحى إليه أن يحرر جريدة « البرهان » ، فأنشأها « معوض فريد » ، وقد كانت أسبوعية تصدر في الاسكندرية وتعلن أنها صحيفة الخديو ، وتفاخر بأنها « حلت من أعتابه العليا محل القبول » . كانت الصحف المصرية تحبذ الشورى وتدعو لها ، والكتاب يعضدون هذا المسلك ويجهدون في سبيله ، ولكن « الشيخ حمزة » رحمه الله دعا دعوة رجعية تنافي ما أجمعت عليه الصحف في ذلك الحين ، ولم يقتصر في مناصرته للخديو على تحرير جريدة البرهان ، بل أصدر جريدة « الاعتدال » ، عام الثورة العرابية ذابدا عن العرش ، وكثيراً ما كان يخاطب معضداً هذه السياسة .

وفي سنة ١٨٦٦ م ندبته الحكومة المصرية لتمثيلها في المؤتمر العلمي الشرقي الذي عقد في فيينا ، كما ندبته مرة أخرى لتمثيلها في مؤتمر العلوم الشرقية الذي اجتمع في « استكهلم » سنة ١٨٨٩ م .

ثم رأى أن يزاول التعليم فعين في سنة ١٨٨٨ م مدرسا بمدرسة اللسان ، ثم مدرسا بمدرسة دار العلوم العليا ، وتخرج عليه طائفة من المُصلّمين^(١) في اللغة والأدب .

وفي سنة ١٩١٠ م عين مفتشا أول للغة العربية ، وظل كذلك إلى أن خرج بحكم الستين ، في سنة ١٩١٢ م ، فعكف على البحث والاطلاع والتغليب في كتب اللغة والأدب ، حتى وافته المنية في أبريل سنة ١٩١٨ م بمدان كان كف بصره .

أثره في اللغة والأدب :

كان رحمه الله حجة في اللغة ، متمكنا من أصولها وفروعها ، ملما بأسرارها ودقائقها ، غيورا عليها ، شديد الحفاظ لها ، يلتزمها في حديثه مع جميع الناس حتى مع غاده ، ولم ينزل عن غريبها في جميع ما كتبه من شعر أو نثر أو حديث أو رسالة أو تقرير ، حتى كان بعض الأدباء يضع بعض النواذر في أسلوب غريب ، وينسبها إليه لتلصق به .

وكان شديد الحفظ قوي الذاكرة ، ملما بطائفة عظيمة من شعر الفحول وقصصهم ، وأحاديث السلف وما يتعلق بهم ، فما تذكر له حادثة إلا وبفيض في تقريرها وبيانها والتعليق عليها والانتقال منها إلى أخرى مشابهة لها .

هذا إلى عذوبة حديثه ، وحمية عبارته ، وحلاوة محاضراته ، وجمال دعايته ، وما يتدفق منه من بيان وعلم فزيرين .

وكانت له على المدرسين هيئة واسعة ، ويتراف دقيق في أثناء تفتيشه بوزارة المعارف ، فقد كان يحاسبهم حسابا هيرا على هفواتهم ، ويرشدنم إلى زلانهم ،

ويطلبهم إلى مواطن الخطأ والصواب ، حتى اضطروهم إلى مراجعة معاجم اللغة ، والبحث في مجفواتها ، وما طال هجره من الالفاظ ، فأخرج كنوزها ، ورد إليها بهجتها ، ونفى عنها ما يداخلها من الأغلاط ، وخلصها من أدران العامية والدخيل ونقاعا من عجمة الأساليب وفساد التراكيب .

ويحدث الأستاذ عبد العزيز البشري ، رحمه الله عن أثره في اللغة فيقول :
« وفي أعقاب نهضة المرصني ، يقبل العالمان الأدبيان ، الشيخ حمزة فتح الله ،
والشيخ إبراهيم البازجي ، فيكشفان عن مجفوات العربية ، ويستظهران من
أوضاعها وصيغها ما يدل على الكثير من الأسباب الدائرة ، ويتعقبان الأخطاء
الشائعة ، ويدلان على الصحيح الناصح ^(١) من كلام العرب فيأخذ الكتاب
والشعراء أنفسهم بالنحري في التماس الصحيح حذر النقد والتشهير ، وكذلك
تصفو اللغة وتشرق ديباجتها ^(٢) » .

كان من أثر هذه العناية وما أخذ به المدرسين من شدة المراقبة وعمر الحساب
أن طبع كثير منهم بطابعه ، فتشددوا تشدده ، ونسجوا على منواله ، ووقفوا
عند السماع وعكفوا عليه ، بل تعالى بعض المفتونين منهم ، وتعدوا طورهم ،
لجملوا يقولون : لا توجد هذه الكلمة في اللغة ، ولو وجدت في شعر تحول
الأدباء من أهل القرون الأولى ^(٣) » .

والحق أن هذه طريقة خدمت اللغة ، وكان لها أثر طيب في سلامتها ، ولكن
الإمعان في التشدد ، ومجر ما سهل من الالفاظ إلى العريب المتوهم ربما أوردت
الكتابة تعقيدا وغموضا .

وكثيرا ما كانت تعرض عليه وزارة المعارف ما تعبطه من كتب العربية
فيقوم بتصحيحها ويخرجها سليمة من الأخطاء اللغوية والعربية .

مؤلفاته :

ترك الشيخ حمزة فتح الله آثارا دالة على غرارة علمه ، ودقة بصره ، وتمكنه

(١) نصح : خالص ، والناصر الخالص (٢) المختار ج ١ ص ٤١

(٣) الوسيط في الأدبي العربي ص ٣٤٠ .

من أسرار العربية وإلمامه بدقائقها ، وقد اتسمت هذه المؤلفات بالبحث المظلم ،
والنسيج المحكم ، والاستيعاب الدال على سعة العلم .

ومن هذه المؤلفات :

(المواهب الفتحة في علوم اللغة العربية) التي أحيا بها ما اندثر من آثار
السابقين ، وجرى فيها على طريقة الجاحظ والمبرد والقالى والمرقصى في أماليهم ،
وهي فنون من اللغة والأدب والعلم ، دالة على سعة اطلاعه ، وطول باعه
في علوم مختلفة من أدب ونحو وصرف وبلاغة وتاريخ وفقه ومنطق وغير ذلك
فهي أخذت من كل فن نظراً ، وجمع لها يوسع المدارك وينتفع الأدهان ، وهو
إذ يعرض خطبة من خطب العرب أو قصيدة من قصائدهم أو رسالة من رسائلهم
يترجم للخطيب أو الشاعر أو الأديب ويذكر شيئاً من خبرهم ، ثم يشرح أثره
الشعري أو النثرى شرحاً لغوياً دقيقاً ، ويستطرد إلى إعراب الشعر ، ويعرج
بذكر طرف من النحو أو الصرف أو البيان مقابلاً بين هذا المعنى وما ذهب
إليه غيره ، وهكذا لا يزال يهتم في الأدب والعلم وينجد ، ويطوف بك بين رياضه
ويهدى إليك من ثماره ، وأنت مفتون بما أهدى إليك ، معجب بطريقته في البحث
ومنحاه في الدراسة ، وحسن تنظيمه وترتيبه . « والمواهب » جزآن حافظان
بالنكت الأدبية والبحوث المختلفة التي تقوم الالسة وتمد الأفلام ، وتفتح
الأديب بما لا غنية له عنه ، والكتاب مطبوع متداول .

ومن مؤلفاته رسالة في المعردات الأعجمية التي وردت في القرآن الكريم ،
وهي بحث طريف أعان عليه سعة علمه ، وله رسالة أخرى في الوسم سماها « هداية
الفهم إلى بعض أنواع الوسم » تحدث فيها عن وسم الخيل والعنم وغيرهما وأسماء
ذلك عند العرب مما هو عليه في كتاب المخصص لابن سيدة وغيره من كتب
اللغة ، وفي أول الرسالة فهرس بأسماء السمات مرتب على حروف الهجاء ، والرسالة
علاوة بصور بعض الإبل الموسومة ، طبعت في بولاق سنة ١٣١٣ هـ ، وله رسالة
في التوحيد نهج فيها منهجاً عقلياً في البحث والاستدلال ، وله رسالة « سماها
باكورة السلام » في حقوق النساء في الإسلام ، وهي مطبوعة أيضاً .

كتابته :

كانت له في الكتابة طريقتان . طريقة وعرة متكلفة ، وأخرى سهلة مرسلة ، فهو يلتزم السجع أحيانا ، ويفتن في استعمال العريب ، ويعمد إلى الزخرف والصنعة ، فتجىء كتابة ثقيلة متوعدة غامضة ، تفر النفس من طول ما بذل فيها من التعمل والتكلف .

ولكنه يعمد أحيانا إلى السلاسة والسهولة ، ويتجنب السجع ، لا يرد في كلامه إلا عفوا غير مطلوب ، ويتضح معناه ، ويشرق تعبيره .

وهو في كلتا الحالتين فصيح العبارة محكم النسيج ، شديد السطوة . ويغلب أن يكون النوع الأول في رسائله ومعاطاته الوصف ، ومجاراته أساليب القدماء ، وأشد ذلك في توقيعاته .

ويغلب أن تكون السهولة والوضوح في كتابته الصحفية وما يتناول به الشؤون الاجتماعية .

شعره :

أما شعره فهو غريب مسدود ، لا يجري بحرى الطبع والارتياح ، بل يتناول على استكراه وتكلف ، ويعنى فيه بالزخرف والصنعة ولا تقسم منه روح الشعر المطبوع ، ولم نثر على شيء من شعره إلا قليلا .

نماذج من كتابته

كتب إلى بعض الفضلاء يطلب وده ، وهو من ثروة المتكلف الجارى بحرى الصنعة والتعمل :

« كما أن شقف (١) الجنان (٢) ، بالحسن والإحسان ، تكون داعيته المشاهدة وتسريح الأنظار في محيا (٣) السكال ، ومجتل (٤) الجمال ، فترى العين من تلك

(١) الشقف : شدة الحب . (٢) الجنان بالفتح : القلب .

(٣) المحيا بضم الميم وتشديد الياء : الوجه . (٤) مجتل : مظرة .

الغوة^(١) ما يملؤها قرة^(٢) ، فكذلك السماع يستدعي هذا الشغف فيتأثر الفؤاد بما يشغف^(٣) الأذن مما تهذب به إليه طرائف^(٤) الاخبار حتى كأن حاسنى السمع والبصر في ذلك حصوان^(٥) ، بل أخوان ، في هيكل هذا الجنان^(٦) .

، ألا وإن محاسن السيد الاجل لما سارت بها الركبان ، وأثني عليها كل لسان ، ما بين أحلاق أبي من الروض التضفير^(٧) ، وأعراق^(٨) أشهى من عذائب النسيم^(٩) ، قد احتلت من فؤادي لا أقول منزلاً رحيباً ، ولا وادياً خصيباً ، بل منزلة شتاء^(١٠) ، ودارة^(١١) علياء ، وأرجأ^(١٢) بطوالها السعيدة بسعد ، ويلوح بها من ذكره كل حين فرقد^(١٣) ، فلم أنشب^(١٤) أن قدمت كتابي هذا لمولاي بين يدي اللقاء ، علة أن يسمع به الزمان . وتشعر^(١٥) عنه الليالي والأيام ، ليتاح لي رى الفؤاد بما أرويه من حديث زيد الخيل الذي سماء رسول الله صلى الله عليه وسلم زيد الخير ، وقال له : ما وصف لي أحد فرأيتني إلا وجدته دون ما وصف لي سواك ، وإن فيك خصلتين يجبهما الله : الحلم والآناة^(١٦) ، مقتدياً بالإمام محمود جار الله^(١٧) في تقديم هذا الحديث الشريف ، على ما أنشده إياه الشريف ابن الشجري أول ما لقيه ، وكان قد تحابا بالسماع :

كانت مُسألة الركبان تخبرنا عن جابر بن رباح أطيّب الخبر
حتى اجتمعنا فلا والله ما سمعت أذن بأحسن مما قد رأى بصرى ،

(١) الغرة : الوجه .

(٢) قرت العين : جف دعمها وردت من السرور والاسم منه القرة بضم القاف

(٣) يشغف الأذن : يطربها ، وأصله من لبس الشغف وهو القروط .

(٤) الطرائف : الأحاديث المستملحة . (٥) الصنوان : الأخوان الشقيقان

(٦) التضفير : الحسن . (٧) الأعراق هنا : بمعنى الطباع والصفات .

(٨) النسيم : الكثير من المساء . (٩) شتاء : عالية .

(١٠) دارة : دار ، ويراد بها المكاة (١١) الأوج : العلو .

(١٢) الفرقد : نجم قريب من القطب الشمالى .

(١٣) لم أنشب : لم ألبث . (١٤) تشعر : تكشف .

(١٥) يتاح لي . يتنبأ لي . (١٦) الآناة : الوقار والحلم .

ومن كتابته السهلة الواضحة التي لا التواء فيها ولا تعقيد ، ما كتبه بعنوان « الشورى ومجلس النواب المصرى » ، فما قاله :

« نحن وإن كنا نعلم ما يترتب على الشورى من الفوائد العظيمة ، والمنافع الجسيمة ، وما ينجم عن التفرد بالرأى من سوء العاقبة ، غير أن ذلك لم ينمنا من إبداء ما نراه من الملاحظات فى الأمرين كليهما ، أعنى الشورى والتفرد بالرأى المعروف بالاستبداد ؛ فأما الشورى ، فإنها وإن كانت بمدوحة عقلا وشرعاً بما ورد فى الكتاب العزيز ، والسنة المطهرة فى غير موضع ، إلا أن ذلك ليس على معنى أنها واجبة حتماً على أولى الأمر بحيث لا تصى بدونها يمينهم ، ولا تنفذ أحكامهم ، لأن هذا ما لا يقول به أحد ، بل إن مبلغ العلم فيها أنها من الأمور التى نذبت إليها الشريعة المطهرة من قبيل إتمام مكارم الأخلاق .

« وأما الاستئناس بأن الخليفة الثانى عمر بن الخطاب رضى الله عنه قد ترك الأمور شورية فهو غلط ظاهر .

« ألا وإن الملوك ظل الله تعالى فى أرضه ، لا يجوز الخروج عن طاعتهم ، ولا البغى عليهم ، ولا تخفّر ذمتهم ولا تنكث بيعتهم ، ولا ينقض عهدهم فى حال من الأحوال ، اللهم إلا بكفر صريح لا يحتمل التأويل » (١) .

نموذج من توقيعاته .

وقع لبهض المدرسين على قطع المحفوظات التى أرسلت إليه ليقرأها ، وكان قد ضرب على بعضها ، فقال وهو غاية فى العموض والإغراب :

« لم أرد بذلك الترميج » (٢) « إلا الرعوى » (٣) « على النشء » ، فإن قلنا مع حفظ المبنى خير من كثر يطوح » (٤) « به فى موايى » (٥) « المنبت » (٦) .

(١) نشرت بمجريدة البرهان الصادرة فى أول ديسمبر سنة ١٨٨١ م .

(٢) الترميج : إفساد السطور بعد كتابتها .

(٣) الرعوى ويضم النزوع عن الجبل وحسن الرجوع عنه .

(٤) يطوح به : يرى به . (٥) الموايى : جمع مومة وهى الصحراء .

(٦) المنبت : المنقطع عن السفر (٧) العود : البعير المسن .

نموذج من شعره .

قال في مؤتمر العلوم باستكمل :

حمد السرى يا أخى الدود^(١) والنا^(٢)
ولو شهدت صابا خضعت لجنته
يطفوا إذا خفقت فيه بأجحة
تجمر في اليم أذيالا مصبة
ومن^(٣) :
أنساك وعشاء^(٤) إغباب وإغباب^(٥)
على سفين^(٦) بجح الليل خباب^(٧)
من تحتها كل خواص ورساب
كالخود^(٨) تفتال في أذيال جلاب^(٩)

طفقت أختلها^(١٠) شررا^(١١) وقد سمرت
تقول ما لتوى بي مولما دنفا
ومن^(١٢) :
عنا التام ونضت^(١٣) فضل أثواب
يا ليتما بسذول في الهوى ما بي

وهو الذى كان أغرائى بنظرته
فهو الذى إن كنتم الحب باح به
فأعجب له كيف أغرائى وأغرى بي
وهو الذى في مهاوى الحب ألقى بي
ومن^(١٤) في الحكم :

-
- (١) النا^(١) : الناقة المسنة (٢) الوعشاء : المشقة .
(٣) إغباب : أغب الإبل صاحبها إذا ترك سقيها يوما وليلتين .
(٤) الإخباب : الإسراع (٥) سفين : جمع سفينة .
(٦) خباب : مضطرب .
(٧) (١) الخود : الحسنة الخلق الشابة أو الناعمة ، ج : خودات وخود .
(٨) الجلاباب كسر دباب : القميص ، وثوب واسع للرأة دون الملحفة
أو ما تغطي به ثيابها من فوق كالمحفة ، أو هو الخمار .
(٩) أختلها : أخذها .
(١٠) شررا : شرره وإليه يشزره نظر منه في أحد شقيه أو هو نظر فيه
إعراض ، أو نظر الغضبان بمؤخر العين أو النظر عن يمين وشمال (قاوس) .
(١١) نضت : خلمت .

كم جامع بالثريا راضه ^(١) سفر فوق الثرى بين أكوار ^(٢) وأقتاب ^(٣)
 إن الثواء ثواء ^(٤) والقصور قبو ر العاجزين ولا إبراء ^(٥) للخباني ^(٦)
 ومن بنى نيل بمجد وهو في دعة فقد بنى من صفاة ^(٧) در أحلاب ^(٨)
 والمرء في موطن كالدرد في صدف والتبر في معدن والتبع في غاب
 وقال يمدح الوزير خير الدين باشا بقصيدة مطلعها :

آلاؤك ^(٩) الغرأ وآماؤك ^(١٠) الفرر زهاجا في الزمان الجيد والطرر ^(١١)
 الله ملجؤنا إذ ليس يفجؤنا شر الخطوب وخير الدين لي وزر

(١) راضه : ذقة .

(٢) الأكوار : الرجال أو بأدائها : جمع كور .

(٣) الأقتاب : الأكف التي توضع على نقالة الاحمال ، جمع قتب .

(٤) الثواء : ثوى المكان وبه ثوى ثواء وثوبا نزل ، وأثوى به أطلال
 الإقامة به أو نزل .

(٥) الإبراء : أوردى الزند إذا أخرج ناره .

(٦) الخباني : خبت النار سكنت أو طفئت .

(٧) الصفاة : الحبر الصلد الضخم لا يثبت .

(٨) أحلاب : الحلب ويحرك استخراج ما في الضرع من اللبن ، والحلب
 محركة والحليب ، اللبن المحلوب .

(٩) الآلاء : النعم .

(١٠) الآناء : الزمن والساعة من الليل أو ساعة ما منه .

(١١) الطرر : جمع طرة (جانب الثوب الذي لا مدب له وشفير الوادى
 والهر وطرق كل شئ وحرفته ، والتأصية) وأن تقطع للجارية
 في تقدم ماضيها كالعلم تحت التاج .

دراسات في التصوف :

السهروردي المقتول

لحضرة الأستاذ عمر طلعت زهران
أستاذ في الآداب

[بالسر إنا باعوا نباح دماؤهم وكذا دماء العاشقين نباح]

إذا مر مار بحلب ، فقد يرى غرفة مظلمة باردة لا ينفذ إليها ضوء ، ولا تسرى إليها شمس ، ولا يتخللها هواء ، كأن الضوء والشمس والهواء ، تبخل على القبر الذي بها ، أو كأنها لا تعلم أن بها قبراً يضم رفات عقل حر ، وصوفي لقي من جهود عصره ، وصادف من نعت قومه ، مالم يصادفه رجل آخر : هو رفات لرجل كان مثلاً للشجاعة ، رجل لم يحفل بالموت واستقبله باسمه هارثاً ، كأنما يستقبل نعيًا أو سعادة حقة .

فإن كان سقراط مثل الفيلسوف الحر الذي أثر الموت ، ولم يحفل به ، الذي ، أعطى الكأس وهي مية شفتى محب يشتهي التقيلا ، فإن هناك لصورة أروع ، ومأساة ألجع ، هي صورة هذا الشاب ، ومأساة ذلك المفكر الذي مات ميتة من أقذع الميتات وأعنفها : مات ففترق عنه محبه ، ثم نسي على مر الزمان ؛ وسواء أبكى بالدموع الغزار ، أو رثى بالدر من الأقوال ، بكل هذا قد ذهب ، كما ذهب مفكرنا ومات ، ذهب بعد أن ترك صفحة خطتها له يد الأقدار ، وبعد أن كتب في سجل الخلود اسمه ، وضمن البقاء لذكره .

هذا هو شهاب الدين السهروردي .

ومن عرفوا بهذا الاسم في تاريخ الإسلام كثيرون ، اشتهر كل منهم بالعلم والفضل والآداب ، ولكن من يميننا من بينهم هو هذا الذي قتل بحلب بعد

أن حرر الفقهاء وثيقة كفره ، وسجلوا زندقته ، واتهموه بالتعطيل وإفساد عقول الشباب .

وليس السهروردي هو أول ضحايا الفكر ، ولن يكون آخرهم ، فكلم غيره قد قتل أو سجن ، وكلم غيره نفي أو شرد ، ولا ذنب لهذا أولئك إلا سعة الانقي وحرية الرأي ، وهي سعة وحرية تأتي الانقي دائماً مع العقليات العتيقة الرجعية الجامدة .

من هؤلاء في تاريخ الفكر الإسلامي كثيرون ، منهم البسطامي الذي نفي ، وسهل بن هبة الله التستري الذي أخرج من بلده متنبهاً بالقبح والكفر .

وكفر الجنيد والشبل ، ورعى أبو مدين بالزندقة ، وقتل الحلاج ، وأخرج أبو حسن الشاذلي من مصر بعد أن حكم عليه بالزندقة .

ولكن هؤلاء جميعاً اليوم يعدون من أساطين العلم وصناديد الفكر ، صفحتهم بيضاء نقية ، وسيرتهم عطرة زكية ، كانوا شهداء ، وغدوا مغلدين .

ولولا هذا الاضطهاد لازدهرت عقول كثيرة ونبتت ، وسطعت نجوم في سماء الفكر ، نبا نورها واحتجب ، بفعل الاضطهاد .

• • •

اشتغل السهروردي بالفقه ، وراض نفسه على التصوف ؛ نظم الشعر ، وأمل في الفلسفة ، ودرّس في العلم ، وطوف في البلدان وهو شاب في ريعان العمر ، وما لبث أن قذفت به الأقدار إلى حلب ، فالتفتها له مقراً ، ولنشاطه العلمي مسرحاً . جادل فيها وناظر ، فأعجب به الشباب فأحبوه ، وخافه الفقهاء فسدوه ، وما زالت فئة منهم تدس له المرة إثر المرة ، حتى ظفروا به بدمه . ذلكم الرجل الذي يتغنى الصوفية في أروقتهم بقصيدته :

أبداً تسمى اليكم الأرواح ووصالكم وبجانبها والراح

هو يحيى بن حبش السهروردي ، شهيد من شهداء الفكر ، عالم مفكر ، ذكي حاد الذكاء ، حر النزعة ، فيلسوف متصوف ، شاعر رقيق ، زاهد ازدرى الحياة وزخرفها الفاني ، وطامع في الله والقرب منه ، أراد بالحياة الدنيا حياة خيراً وأبقى ،

فأعرض عن الزائل من ملذات الحياة ، ولم يحاول أن يتقرب للناس أو للبلوك ، فسمى هؤلاء اليه ، مع ما كان عليه من هيئة زرية ، وثياب رثة ، لم يهتم بالشئون العرسية ، ولكنه سعى إلى جواهر الأمور وحقائقها العليا .

ذلك هو السهروردي كما اتفق عليه كل المؤرخين ، يقول عنه ياقوت الرومي :
 « شهاب الدين أبو الفتوح السهروردي ، كان ، ضيها : شافعي المذهب ، أصوليا ، أدبيا ، شاعرا ، حكما ، متفتحا ، نفاثارا ، لم يناظره مناظر إلا خصمه وأخيه : قرأ بالمراغة على الشيخ الإمام مجد الدين الجيلي الفقيه الأصولي المتكلم ، ولازمه مدة ، ثم تفتل في البلاد على قدم التجرد ، واتي بمباردين الشيخ نجر الدين المارديني ، وصحبه ، وكان يثنى عليه كثيرا ، ويقول : لم أرفى زمانا أحدا مثله ، ولكني أخشى عليه من شدة حدته ، وقلة تحفظه . ثم رحل أبو الفتوح إلى حلب فدخلها في زمن الظاهر غازي بن أيوب سنة ٥٧٩ هـ ، ونزل في المدرسة الحلاوية ، وحضر درس شيخها الشريف افتخار الدين ، وبحث مع الفقهاء من تلاميذه وغيرهم ، وناظرهم في هذه مسائل ، فلم يجاره أحد منهم ، وظهر عليهم . وظهر فضله للشيخ افتخار الدين ؛ فقرب بجلسه وأدناه ، وعرف مكانه في الناس . ومن ذلك الحين تألب عليه الفقهاء ، وكثر تشفيهم عليه . »

أما صاحب النجوم الزاهرة ، فيورد لنا : « أن السهروردي كان يمانى علوم الأوائل والمطلق والسيمياء وأبواب النيرنجيات ، فاستمال بذلك خلقا كثيرا وتبعوه ، وله تصانيف في هذه العلوم . »

ويراه « ابن أبي أصيبعة ، في طبقات الأطباء : « أو حداهل زمانه في العلوم الحسكية جامعا للعلوم الفلسفية ، بارعا في الأصول الفقهية ، « فرط الدكا . ، فصيح العبارة ، وكان عليه أكثر من عقله . »

وكان « صاحب العبر ، يراه : « أحد أدكيا بني آدم ، وأنه كان رأسا في معرفة علوم الأوائل ، بارعا في علوم الكلام ، مناظرا محججا ، متزهدا ، مزدريا للعلماء مستهزئا ، ولعل هذا هو السبب الذي حمل « ابن خلدون ، على أن يهد السهروردي ، « رقيق الدين ، وإن لم يذهب إلى اتهامه بالزندقة .

كان عصر السهروردي وبيئته ، عجيبين حقاً ، فقد كان عصر اضطراب بالغ ، وحروب وحشية ، بلغت من الشدة ديلغا عظيماً ، كانت حروب يدفعها دافعان ، ولها هدفان . الدين ، والوطن . قام المسلمون يذودون عن بلادهم عادية الصليبيين ، ويدفعون هلاقتهم : ليحموا حتى دينهم ، فكان القوم في هوس وجنون ، في خوف وقلق : في اضطراب . نشأ عن ذلك كله أن طبع العصر بطابع ديني عنيف ، فكان للفقهاء فيه مكان مرموق ومرتبة سامية ، وكان كل ما يشتم منه رائحة الزندقة ، أو يظن فيه الخروج على الدين ، يمس الناس في أرق إحساساتهم وأكثرها تأثراً .

• • •

بالقرب من زنجان من أعمال أذربيجان ، توجد بلدة ليست بالكبيرة الجميلة ، وليست بالصغيرة الخاملة ، وفيها كان يعيش صاحبنا ، لا يشغله إلا التفكير والخصوص وراء درر المعاني وجواهر الوجود ، وكأما صديق شهاب الدين يلدته ، أو ضاقت به بيئته ، فنزع عنها يحوب بلاد الله إلى أن ألقي عصي ترحاله في حلب ، وكانت آنئذ من أشهر مدن الإسلام ، يحكمها الملك الظاهر بن صلاح الدين ، الرجل الذي أنهض المشرق فجز المغرب ، والذي دافع ضد غزاة الشرق الاتين من الغرب ، يرجون بحق الإسلام ، ويريدون بيت المقدس .

شد شهاب الدين ، رحاله إلى سورية ، يحمل في وقاضه الحكمة ، ويطوى في ثيابه عقله العلم والمعرفة ، وما إن وصل حتى ألف حوله العلماء يناقشونه ، وكأما سبقت شهرته إلى تلك البلاد : وكأما خيل إليه أنه في أرض الحرية والنور ، الأرض التي بزغ في جنباتها المسيح ، والتي إليها سرى نبي الإسلام ، فدخل حلب يحذوه الرجاء ، ويدفعه الشوق إلى أن ينادي بمذاهب جديدة ، وأن يبنى آراء جديدة ، وأن يكتب ويؤلف ويعلل ، وأن يبدأ من جديد حياة جديدة .

ودخل السهروردي . حلب ، وله من العمر ثلاثون عاماً ، وله من الشهرة حينذاك ما طغى على كل شهرة خاصة ، وإن كان ما زال شاباً . عرف فضله الشيخ ، افتخار الدين . فحبه منه ونقل إلى السلطان أمره ، فأحب أن يعرفه ، ولكن الخصوم نقلوا إلى السلطان صورة قبيحة عنه ووصفوه وصفاً تقشعر منه النفوس :

زرى الخنقة ، دنس الثياب ، وسخ البدن ، لا يغسل له جسماً أو ثوباً أو يداً ، لا يقص ظفراً ولا شعراً ، بل لقد ذهبوا إلى أبعد من ذلك فقالوا : إن القمل كان يتأثر على وجهه ويسمى على ثيابه فيهرب منه كل من يراه .

وهذه صورة بشرة تنفر النفس من صاحبها ، وتحمل الإنسان على البعد عنه ، ولكن إذا عرفنا أن السلطان قد قابله ، وما أن فاض السهروردي في حديثه ، وتكلم في أدق الشئون العقلية والدينية ، حتى قربته وأقبل عليه وتحصص به ، إذا عرفنا هذا ، علنا مقدار المبالغة في الصورة التي رسموها للسهروردي . وهكذا ذهبت دسائس الخصوم أدراج الرياح .

تحدث السهروردي مع الملك الظاهر ، رأى هذا منه : صفاء العقيدة ، وقوة الإيمان ، وحرية الرأي ، ونقاء الطوية : فازداد عليه عطفاً ، وله تقريباً وإحساناً . وبالتالي ازداد خصومه منه حسداً وكداً ، فإذا بالسهروردي عديم : زنديق كافر معطل ، والادعى من ذلك والامر أن السلطان قد قرب به ، إذن فعليهم بصلاح الدين .

كان صلاح الدين في مصر ، وكان الطابع الذي يطبع العصر كما سبق القول هو حدة العاطفة الدينية ، نتيجة للحروب الصليبية .

اجتمعت كلمة بعض العقهاء على السهروردي ، فتألبت معهم جموع الجهل ، واجتمع شعث الجامدين ، ولم يكن تأمرهم إذ ذاك على السهروردي ، وإنما كان على التفكير على العلم وعلى الحرية .

حطبوا على المنابر فأثاروا ثائرة الجماهير ، إذ استفزوا شعورها الديني ، وهي أدق ناحية وأكثرها حساسية عند الشعوب .

هي التي ساقط الأوربيين لفتح بيت المقدس ، وهي قبل ذلك التي دفعت بجموع العرب نحو مجدهم الرائع .

قال المتأثرون : إهم إنما يريدون إغقاد الدين ، يمحون زنديق كافر متعرد على الدين ، وذهبوا إلى السلطان والشعب من ورائهم ، ولكن السلطان كان يعرف السهروردي معرفة اليقين ، وكان يعرف مقدار ما في دعايرهم من صدق ، ناهيك بحبه لادلم ، وصلته الوثيقة بالعالم . [يتبع]

مولعروج الجسم الى السماء

لحضرة الأستاذ أحمد زرجاني

أستاذ الأدب العربي بجامعة جريد
والأستاذ الوائز بجامعة طواد الآن

[أصدر مجلس الكرادلة برئاسة بابا روما قراراً لخواه
أن السيدة مريم قد رفعت إلى السماء ، فكتب هذا
المقال على هامش الموضوع]

كم في عصرنا من المعجائب والغرائب في كل ناحية من النواحي : في
الاختراعات والاكتشافات ، وفي الأفكار والآراء ، وفي الأقوال والأفعال ،
وفي إبداء الحقائق وقلب موضوعها ، وفي بيان المصالح الاجتماعية البشرية ، ثم
في نقض الغرض منها وتطبيقها على الفوائد الخاصة بأمة أو هيئة أو فرد ، ولو كان
مرتباً على هذا النقص والتطبيق هلاك أمم أو آلاف من النفوس أو خراب
للعالم أجمع .

هذا ما في العالم من دلائل وشرور ومفاسد ونحن ، قد تعد أقل منها شأنًا ،
وإن غدت كالجراثيم تنخر جسم المجتمع ، حتى نجد الناس في هذا العصر أحوج
ما يكونون إلى دعوة تراط بعضهم ببعض ، وتقرب بين عقولهم وأفكارهم
ومعتقدهم وآرائهم ، لكي يحصل التفاهم والتعارف بين الشعوب والقبائل والأمم
والأفراد ، فتخفف من آلامهم وأسقامهم الروحية التي منوا بها ، من جراء
التعصبات الواهية القديمة في الأزمنة الغابرة ، ثم بما انضم إليها من الأهواء
والأطماع الحديثة ، والنزوع إلى الاستعمار والاستثمار ، بسبب عبادة المادة وأتباع

الأغراض وإعراض الناس عن الله ، وجعلهم لإلهم هوام ، فزادهم ذلك مدنا على إبله .

نم في هذا العصر يقلب الناس وجوههم في السماء ليجدوا في الأرض من يخصهم من هذه الظلمات التي نعضها فوق بعض ، فلا يجدون في ساستهم وقادتهم الا صدق قول الشاعر :

أملتهم ثم تأماتهم فلاح لي أن ليس فيهم فلاح
أو قول الآخر :

اني لافتح عبي حين أفتحها على كثير . ولكن لا أرى رجلا

وبعد اليأس والقنوط من رجال الدنيا ونسائها لمعالجة هذه المشكلات ، أو التخفيف من أفعال شؤمها التي تنوء بالعصبة أولى القوة [عصبة الأمم وما في بابها من لجان كبيرة أو صغيرة] ، كنت أود أن يكون في رسالات الأديان ما يكون شفاء للناس من أمراضهم الروحية ، وكنت أود اتحاد الأديان ، أو تقاربها وتفاهمها على أصول بشرية لإسعاد الأمم والأفراد مادة وروحاً ، حتى تخرج ما في صدورهم من غل ، ويصبحوا بنعمة الله إخواناً .

وكنت ولا أزال أرى أن هذا لا كان ولن يكون ، مادام الناس يرون أن الأديان كالأحزاب والمسالك السياسية قائمة على النقاش والجدال والتمصب والآهواء ، وكنت أود أن يكون من زعماء الأديان ورؤساء المذاهب رجال علماء — ولا أهني بالعلم العلم الدراسي القابل للنقض والتزوير ، أو المتغير بالمظاهر والأزياء ، أو المتأثر بالظروف والبيئات ، بل العلم الذي هو وحى وإلهام ، باحث للخيرات والفضائل ، دافع للشرور والردائل ، مهذب للنفس ومطهر لها عما عشيها من لواحق المادة وغواشيها ، ومعتقل لمرايا القلوب من صدا الأوهام ؛ أو العلم الذي هو نور ، ونور يقذفه الله في قلب من يشاء من عباده ، والعالم الرباني في عصرنا هو الطبيب النظامي الذي جس نبض النفوس ، وعرف داءها ودواءها ، وشق القلوب وكشف غطاءها واكتشف ميولها

وأهواءها ، ويسعى لنشر الخير والفضيلة بين الناس ، ويعيذهم بالله من شر الوساوس الخناس ، حتى يتغلب السور على الظلام ، ويسود بينهم الصلح والسلام .

ولا يخفى على من له دربة وقلب سليم ، أنه كلما كثرت مشاركات الخلاف ، كثرت الشقاق والنفاق ، وكلما زادت نعمة في الطنبور ، رقص عليها الراقصون من هواة الجدل في مسارح شهواتهم ، ويزيدون عليها كل ما يوحى إليهم شياطينهم في خلواتهم ، وهكذا كانت الفساد بذرة بذورها في حبات القلوب ، وتلاحقت الاحقاب ، وتوارثها الأبناء عن الآباء ، ونمت وانبثقت بأ مطار من غمام الأوهام ، حتى صارت اليوم ظلاما في ظلام ، ويحق للسجرات أن يرق للبشر .
نوع الإنسان ، على الرغم من انتشار العلوم والمعارف ، واكتشاف شيء كثير من أسرار الطبائع ، أسوأ حالا في هذا العصر منهم في كل زمان ، لأنهم قد نكروا عن الفصائل المعنوية ، التي هي نتيجة العلم الحقيقي ، الذي يأمر بالمعدل والإحسان ، ويبهى عن الفحشاء والمنكر والبغى . وصار أصدق تعريف بين الإنسان عن الحيوان ، في طرف الرجحان ، هو : مستوى القامة ، عريض الاطراف ، ماش على القدمين ، وأما من طرف النقصان :

فقد وجدت مكان القول ذا سمة فإن وجدت لساناً قائلاً فقل

وفي هذا الزمان الذي طوى الفكر الإنساني فيه مراحل ما كان يخطر ببال الإنسان في القرون الأولى ، وكأننا سار على جناح البرق والبخار ، وتغير مجرى الفكر بمسافات بعيدة عما كان في القرون الوسطى وما قبلها ، وصارت عقول الناس لا تقبل إلا ما يقع تحت الحواس ، ولا اهتمام لأكثرهم بما وراء الطبيعة وحل غوامضها ، وكشف رموزها ، ومفتاح الرمز - وهو الإشراق والتجريد والصفاء - ليس في متناول أيديهم الآن .

فإن اناس اليوم ، في مختلف أصقاع العالم ، لا يقبلون عقيدة جديدة إلا برهان كالخس ، أو دليل كالشمس . وأصبح وقتهم كالذهب ، لكسب الذهب ،

ولا يصرفونه في المذهب ، ولا سيما في أمثال العقائد الروحية العويصة ، التي إن فرضنا إمكان إثباتها ، فيختص برجال منزهين عن الدنيا وزخارفها ، والمادة وسفاسفها ، الذين قد جردوا أنفسهم للعروج إلى السماء ، والاتصال بالملأ الأعلى ، ولا يخوض هذه العمار إلا واحد بعد واحد . أفلا يحسن رجال اللاهوت أن يقللوا من المباحث الفلسفية العميقة المثيرة للشغابات والشبهات ، الموجبة لتشكيك الناس في عقائدهم ، المؤيدة لذبتهم ورجرجتهم ، فيما قبلوه بإفاعات من التوارث والتقليد ، وأن يفتنوا إلى قلوب الناس من طريق العواطف والوجدان ، ليقرّبهم إلى الله زلّنى ، وأن يدهوا إلى سبيل ربهم بالحكمة والموعظة الحسنة ، ويحادلهم بالنّى هي أحسن ، وأن يردّهم عن الغوص في مشارب الاختلاف ، ومعتكات العقول والآلباب ، وأن ينظروا بعيونهم إلى الامام لا إلى الورا ، فإن العيون إنما خلقت لأجل هذا .

وكم أعجبنى وسرقى ما قاله الاستاذ الاكبر شيخ الجامع الأزهر في بيانه الاخير من لزوم طرد الزوائد والحواشى ، وما يكتشفها من الغواشى ، والرجوع إلى أصول الدين ومبادئه ، والاخذ بشمراته وتناججه ، وحذف الفشور ، والاكتفاء بالالباب ، ليسكون نبراساً يهتدى به أولو الآلباب ، ويخلص الناس من ظلمات الوسواس ، حتى يكون فيه خير العالم أجمع ، والحق أحق أن يتبع .

وكم في مشارق الارض ومغاربها من ابتلاءات عجيبه من ناحية الاخلاق والاعمال نشأت من الخرافات والأوهام ، ومن الاختلاف في المذاهب والآديان ، ومن تفاوت اللغات والاجناس ، إن لم يتداركها زعماء الآديان - والدين أمتن حصن وآخر ممقل للإنسانية - بالسعى في تلطيف العواطف البشرية وتوحيد طرق الدعوة إلى الحق ، ومحو آثار الحمية الجاهلية ، ونشر مبادئ الإخاء الإنسانى ، إن لم يتداركوها فعلى الدنيا السلام ، وعلى الدين ألف ..

والسلام على من اتبع الهدى .

مصر والسودان

وحدة لا انفصام لها

لؤسناء عبد النعم محمد الشيخ

مدرس أول الآداب بالمعاهد الدينية

إن المتتبع للقضية المصرية يروعه أن كان السودان دائماً ، هو الصخرة العاتية التي تحطم هدها سفينة المحادثات المصرية البريطانية ، ذلك لأن اتحاد شقي الوادي ، أمر حيوي ، لا يمكن للفارض المصري ، أن يتجاهله ، ويسقطه من الحساب .

وسأعرض في بحثي هذا إلى العلاقات التاريخية والجغرافية والاقتصادية والثقافية والقرمية والجنسية واللغوية والدينية والسياسية بين الشطرين ، وحيثما سيقتضح أن الوحدة بينهما أمر محتوم ، رعى بذلك المستعمرون أم غضبوا .

العلاقات التاريخية بين مصر والسودان قديمة جداً ، وهي ترجع إلى عهد الأسرة الثالثة ، كما جاءت بذلك نقوش حجر ، بالرمو ، أى إلى حوالى ٢٩٠٠ ق.م ، وفي عهد الأسرة الثانية عشرة امتدت حدود مصر الجنوبية إلى الشلال الثاني ، وأقيمت القلاع والمعسكرات إلى ما وراء الشلال الرابع ، وأضحت الأراضى السودانية إلى النيل الأزرق ، في عهد الأسرة الثامنة عشرة جزءاً من مصر ، تسود فيه الظلم الإدارية والسياسية المصرية ، ودلت الآثار على أن بلاد الصومال والواوات ، كانت تدفع الجزية إلى ، تحتتمس الثالث ، كما شيد ، أمنحتب الثاني ، معبداً في وادى باع النجا ، عند النيل الأزرق ، وشيد ، أمنحتب الثالث ، كذلك معبداً له في جبة ، حصب ، التي تبعد ١٥٠ ميلاً جنوب وادى حلفا . ولقد استتب الأمر للمصريين مدى مائة وخمسين عاماً ، كان السودانيون خلالها يدينون بالدين

المصري القديم ، ويتكلمون أو يتكلم البارزون فيهم اللغة المصرية ، ودرجوا على الكثير من العادات المصرية .

وظلت العلاقة بين مصر والسودان قائمة طوال عهد الفراعنة ، تضمت أحياناً ، وتقوى أحياناً أخرى ، ولكنها تثبت على أى حال مدى تقدير العقلية المصرية القديمة لفكرة الربط بين الشطرين ، وما وراء هذه الفكرة من خير عظيم لكليهما (١) . وفي عهد الأسرة العشرين ، ضعفت صلات مصر بالسودان ، وانقصمت عرى الرابطة بينهما فترة من الزمن ، حتى جاء قبيز ، وغزا مصر ثم السودان عام ٥٢٥ ق . م . ولكنه لم يستطع إقامة أية علاقات معه .

وفي عهد البطالسة ، ازدهرت التجارة ، بين بطليموس الثاني ، وهـ أركين ، ملك النوبة ، ازدهاراً عظيماً . وقد ولى بطليموس وجهه شطر المرافئ البحرية ، القريبة من جنوبي السودان ، ليتخذها قواعد للتجارة مع تلك البلاد ، وهذه المرافئ هي بمينا الملحقات التي يطالب بها الحزب الوطني اليوم ، وشيد بطليموس مدينة إبيثيراس Epitheras التي كان موقعها غير بعيد من سواكن ، واتخذها قاعدة اتصال وتجارة مع جنوب السودان وشرقه .

وقد نسج جميع حكام البطالسة على هذا النحو من الاهتمام بالسودان وتجارته وخيراته ، وبهنا أن نعرف أن أركين ، ملك النوبة ومعاصر بطليموس الرابع ، وقد لقب نفسه ، طنائح آمن تع رع ، نسبة إلى آمن رع ، وسمى نفسه « ابن رع وحبيب إيزيس » .

وظلت العلاقة قائمة بين مصر والسودان في عهد الرومان أيضاً منذ أيام كورنيليوس جاليوس ، أول حكامهم على مصر ، وأخذوا يرسلون الحملات المتعاقبة لتثبيت حقوقهم في السودان وقاديب القبائل المغيرة على حدود مصر الجنوبية ، وما الآثار والمعاقل المنتشرة في جنوب الوادي إلا دليل هذه العناية بشئون الجنوب .

هذا عرض سريع للاتصال الوثيق بين مصر الفرعونية والبطلمية والرومانية وبلاد النوبة في الجنوب ، ولقد أطلق عليها في التاريخ أسماء كثيرة ، نهى في التوراة

(١) كما جاء وقت كان للنوبيين فيه دولة قوية حكمت مصر والسودان وامتد نفوذها إلى مايل .

« بلاد الكوش ، وكوش هذا ، فيما تقول التوراة ، هو جد النوبيين وأخو « مصر ايم ، جد المصريين ، وكلاهما من سلالة « حام بن نوح » ، وتقول بعض الروايات ، إن المصريين ، جالية نوبية نزحت إلى الشمال ، وتقول أخرى ، إن النوبيين جالية مصرية ، هاجرت إلى الجنوب ، وسواء أكان هذا أم ذاك ، فإنه مما لا شك فيه ، أنهما من عنصر واحد ، وقد أثبتت الأبحاث العلمية التي أجراها العلامة « إليوت سميث Eliot Smith » في منابر مصر والنوبة أنه لا فرق بين المصري والنوبي في التكوين الجسماني ، حتى لبغدر من هذه الوجهة تعيين حد فاصل يميز أحدهما عن الآخر !! وقد وقعت في بدء الأسرات الملكية في مصر غزوات جاءت بكثير من الدماء النوبية لفتحت بها الدم المصرية والنوبي . ولما جاء الفتح الإسلامي ، تدفقت سيول القبائل العربية إلى تلك البلاد استباحاً للرزق ، وبحساً وراء مناجم الذهب ، فاختلفت دماء النوبيين والبججه بالدماء العربية ، وزلت هنالك بعض قبائل البربر ، ثم جاء الفتح التركي بعنصر آخر حتى صار النوبيون خليطاً من عدة عناصر أهمها العربي فالتركي فالبربري فالنوبي ، ولقد أسفر الاتصال التاريخي بين مصر والنوبة عن إيجاد رابطة قوية بينهما ، فإن مملكة « نينه » لم تقم إلا على أساس الحضارة المصرية ، التي أخذت تنمو وتزدهر وتسطيع بالصيغة الفرعونية .

وبقيت العلاقات بين مصر والسودان قائمة في عهد الحكومات العربية الإسلامية التي وليت حكم مصر ، والتي ما فتئت ترسل الحملات إلى تلك الجهات لتأديب المغيربين على حدود مصر الجنوبية وفرض الجزية عليهم . ولقد قال المتنبي يمدح كافوراً الأختيدي :

يصرف الأمر من مصر إلى عدن إلى الهجاز فأرض الزنج فالنوب

وجرد محمد علي الكبير ، رأس الأسرة العلوية الكريمة ، حملة لفتح السودان كان يرى من ورائها ، إلى تأمين حدود مصر الجنوبية ، وقطع خط الرجعة على المماليك ، ولما أشار به عليه مستشاروه الفرنسيون ، من أهمية السودان الاقتصادية ، ووجود مناجم للذهب به ، والحاجة إلى الجند . والمهم أن حدود مصر السودانية وصلت جنوباً إلى جزيرة « دنكا » أمام غدكرو وإلى كردفان غرباً

وذلك بمقتضى فرمان الذى صدر فى ١٣ فبراير سنة ١٨٤٩، والذى وافقت عليه الدول . وأدخل المصريون بالسودان حيثئذ زراعة القمح والخضر، وأنشأوا البساتين وزرعوا أشجار الفاكهة من رمان وعنب وبريقال وليون . وأسّس محمد على بالسودان عدة مدن منها الخرطوم وكسلا، التى أصبحت عاصمة إقليم الناكاه . والسودان الشرقى، وكثرت هجرة المصريين إلى السودان، واتخذ كثير منهم مقاما، وتزوجوا بالسودانيات . كذلك أنشأ محمد على مدينة فامكا، على النيل الأزرق سنة ١٨٤٢، وجعلها عاصمة مديرية فازوغلى، وأقام على بعد منها قصراً ومعملاً للتنقيب عن الذهب مازالت آثارها باقية إلى اليوم . ونظم محمد على الحكم فى السودان وعين له حاكماً يدهى حاكمدار السودان، يتبع ديوان الداخلية بمصر، وجعل الخرطوم عاصمة للسودان، ومقر حاكمداره، الذى خوله سلطات عسكرية ومدنية مطلقة .

وقسم السودان إلى سبع مديريات هى : دنقلة وبربر والخرطوم وكردفان وكسلا وسنار وفازوغلى، وعين لكل منها مديراً، وقسم المديريات إلى أقسام لكل قسم ناظر، وللدير وكيل ومعاونون وكتبة وقاض ومفت، ثم كون مجلساً أهلياً، و، ضبطية، . . . وهكذا كان الحكم فى السودان صورة من النظام الإدارى بمصر . . . واستتب الأمن فى ربوع السودان نتيجة لهذا النظام الدقيق وقال مستر بورنج، أحد الساتحين الانجليز فى عهد محمد على : « إن استتباب الأمن شمل كل بلد حكمه محمد على، حيثما بسط نفوذه وحكمه، وطرد دعايم الأمن ورعاه، وحيثما ضاع نفوذه ضاع الأمن، وقال قنصل فرنسا فى مصر : « إن الاهالى والاجانب على السواء، يستطيعون السير فى أى بلد من البلاد التى يحكمها محمد على فى وادى النيل إلى أقصى السودان، وفى سوريا وجزيرة العرب، فقد أقام العدل صارماً فى حزم وفى غير ضعف، فالسودان قد سادته الأمن كما ساد غيره . »

وبقى السودان فى عهد ابراهيم، كما كان فى عهد آيه، بمحدوده وإدارته، أما فى عهد عباس الاول فقد عهد السودان منى للبخسوب عليهم . وفى عهد سعيد باشا، أجاز صديقه نابليون الثالث إمبراطور فرنسا، بفرقة سودانية،

أبانت بلاءً حسناً في الحرب المكسيكية ، ولقد بلغ الثناء والمدح منتهاه على هذه الفرقة ، في كل التقارير التي كتبت عن هذه الحرب .

أما في عهد إسماعيل باشا ، فلم تشهد مصر في تاريخها القديم والحديث مثلاً شهدته في عهد إسماعيل من توسع منتظم وعابد في السودان ، فاحتلت الجيوش المصرية فاشودة سنة ١٨٦٥ م ، وهي نقطة الاتصال بين السودان وأقاليم خط الاستواء ، وحصل إسماعيل بفرمان سلطاني في ٢٧ مايو سنة ١٨٦٥ على ضم قائمقامي «سواكن» و «مصوع» إلى حكمه . وفي عهده تم فتح إقليم «خط الاستواء» و «مملكة أونبوره» . ووسطت مصر حمايتها على «مملكة أرغنده» وفتحت «مديرية بحر الغزال» و «سلطنة دارفور» ، وعند حدود الحبشة والبحر الأحمر ، امتدت الحدود وضمت «سنيت» و «بلاد البوغوص» حتى «بوغاز باب المنذب» وضمت كذلك محافظتي «زليخ وبربره» على خليج عدن ، وفتحت «سلطنة هرر» في الجنوب الشرقى للحبشة ، ودخلت سواحل الصومال الشمالية في ممتلكات مصر السودانية ، إلى «رأس جوردفون» على المحيط الهندي ثم إلى «رأس خافون» .

وبهذا امتدت حدود السودان تحت الحكم المصري جنوباً إلى بحيرة البرت وبحيرة فكتوريا ، وشرقاً إلى البحر الأحمر وخليج عدن ، وغرباً إلى حدود «وداي» ، وحصل إسماعيل من السلطان على لقب «خديو مصر والنوبة» ودارفور وكردفان وسنار ، وهد بالسودان في سنة ١٨٧٧ حوالي ٥٠ ميلاً من السكك الحديدية تبدأ من حلفا ، كلفته حوالي ٤٠٠ ألف جنيه .

هذا عرض سريع للرباط التاريخي بين مصر والسودان منذ عهد الفراعنة إلى عهد إسماعيل ، ومنه يتضح مدى اهتمام كل من ولي مصر بأمر السودان . وإلى مقال قادم نتابع فيه الحديث عن بقية العلاقات التي ترابط بين جزئي الوطن الواحد مصر والسودان .

على هامس المولد والهجرة

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمود محمد

المدرس في كلية اللغة العربية

ومن أطاع الرسول عاداء أعدائه، وأحبه أحبائه، والباطل أليف الشهوة
وحبيب الشيطان، والحق يعرفه العقل ويقره الوجدان، ولكن الهوى متيقظ
والعقل وستان، والشيطان متحفز والإنسان مُغفلان.

نادى الرسول الكريم قومه فلم يستجب له غير قلة قليلة تحملت معه لآواء
دهوته وخلاف أمته، وشقاق قومه وعشيرته، فلما خشيت الفتنة تركت مكة
إلى الحبشة مهاجرة بدينها وفارة بإيمانها، غير مبالية بمعارقة الأهل والعشيرة
والوطن والمال؛ وتلك أول هجرة في الإسلام كان فيها عثمان بن عفان وزوجه
وأصحابه، وقد لقبتم من النجاشي إجلالا وإكبارا وإكراما وتقديرا برغم ما بذله
عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص في تهوين أمرها وتقليل شأنها. وليت
شعري ماذا خشى ابن أبي ربيعة وابن العاص من هجرة المهاجرين وخروج
المضطهدين حتى يلحقا بهم ويعملا على إفساد أمرهم واحباط عملهم؟ إن القوم
قد فهموا أن الحق في جانب المخرجين، وعرفوا أنهم أخرجوا من ديارهم بغير
حق، وأن بذرتهم قوية شديدة إذا صادفتها التربة الخصبة أفرعت وأيذمت وآتت
أكلها وثمرها، وعند ذلك تخر الآلهة الكاذبة أمام إله واحد، ويصرع الباطل
من صرخة الحق، ويتساوى السيد والمسود، وتختلف بين الناس موازين التقدير،
فلا قوة ولا مال ولا حسب ولا نسب، كلهم لآدم وآدم من تراب، لا فضل لعربي
على عجمي إلا بالتقوى.

وبني من يقى بمكة يصلى نار العذاب فيكوى بعيدان محمية أو يصغد ويرى به
في حجارة الفيظ، حتى فتن من فتن، ولم يبق إلا من استمرأ العذاب في سبيل الحق

والآلم في سبيل الله . وما هي ذى حادثة مروعة تربها صورة اضطهاد الباطل الحق والكفر للإيمان والوجود المعرفة ، والسكران للإحسان : أسرة وادعة عاشت في كف قريش عيشة هادئة متواضعة تسمع وتبصر كل ما حولها من آثام وضلال ثم تسمع بعد صرخة الحق تدرى في الآفاق ، ودعوة المختار يصدع بها في ربوع مكة ، وكلها خير وإصلاح وعدالة وسماحة ، فتسرع إليها بحمية مليية موقنة مخلصه ، فيعرض لها السادة المترفون ليصدوها عن دينها ، ويردوها عن إيمانها .

ولكن الحق قد انطبع في قلوبها ، والإيمان قد ملأ نفوسها ، فلم يقدرُوا على محوه أو تحويله عن وجهته ، رغم ما بذلوا من تخويف وتأليف ، وتعذيب وإغراء . وعظم الأمر أمام غطرسة المتفطرسين وكبر المتكبرين ، ففتنوا في إرهابها وأمنوا في عذابها ، وغالوا في إيلاها ، وهي رابطة الجأش ثابتة الجنان محسبة صابرة في سبيل عقيدتها وإيمانها ، ولينهم حين عذبوها أحسنوا عذابها . أو قتلوها أحسنوا قتلها . لا بل تجاوزوا مع هؤلاء المستضعفين حدود الإنسانية في أبسط معانيها وأقل مراميها .

هذا أبو جهل عميد الضلال ورأس الكفر وأليف الظلام وعدو النور ، يقتل سمية أم حمار وزوج ياسر بطعنات يصوبها إلى مكان عفتها وموضع طهرها ، فلم يظفر منها إلا بتوحيد يذل شركه ، وإيمان يحقر جموده .

لقد عذبوا فلذة الكبد على مرأى ومسمع من الحب والعطف والرأفة والرحمة ، وتجروا على العفة أمام حارسها وحاميها وحافظها وصاتها ، وبالغوا في إذلال الشيخ أمام كرامته وهزته وصاحبته وولده ، وهذا نوع من العذاب له لون يفرد به وصورة يختص بها ، والأسرة عن بكرة أبيها تستعذب ما يقدم لها من مر الاضطهاد في سبيل طاعة رسولها ومرضاة ربها ، فصبرت على عذاب الناس وخافت من عذاب الله ، إلى أن أسلمت أرواحها الذكية راضية مرضية ، وزكت دنيا العدوان والظلم إلى جنة الخلد والعدل ، وتلك فدائية نستطلع في ثناياها الصراع العنيف بين الضلال والهدى والإيمان والكفر والظلم والعدل ، لقد أسرف أعداء الله في الكيد لأوليائه ليصدوا عن سبيله ومأمى ببالغي غايتهم ولا مصيبي

هدفهم ، فالنصر العزيز قد كتب للمؤمنين في الدنيا والخلد النعيم قد كتب لهم في الآخرة فهم بين حسنين ومرجعهما إلى جنتين .

وألح الرسول في دعوته وألح القوم في مطاردته ورد قوله ، وضافت قريش به كما ضافت بأهله وعشيرته ، فانتمرت على مقاطعة بنى هاشم وبنى عبد مناف لا يبايعون ولا يناكحون ، تفيذا لعمد بغيض كتيبه بغيض بن عامر للقوم وحلق على الكعبة تعظيما لشأنه وتوكيدا لأثره ، وحبس محمد وعشيرته في شعب أبي طالب وضيق عليهم قنموا الميرة والمادة نحو ثلاث سنين ، حتى ضجت أطفالهم من الجهد ورق لما أصابهم بعض القرشيين ، ومنهم هشام بن عمرو بن الحارث والمطعم ابن عدي ، فسعروا في نقض الصحيفة وإبطالها بعد أن أتت عليها القرصة ، ونجحوا في ذلك وخرج رسول الله كما خرج من معه ، وتجهمت له الحياة ورأى من أهل مكة ما كان يراه منهم قبل عزله .

وزاد في كربيه مفاجأته بموت حاميه ومحاميه أبي طالب ، ثم موت الرقيقة المؤيدة والشريكة المؤازرة خديجة بنت خويلد أم العطرة وزوج الحضرة وأول مؤمنة وخير صاحبة .

هنا اشتد البلاء وقل السون وتجرأ على الرسول الكريم سفهاء قومه وكاشفوه بالعماء ، وظهروا له بوجوه طالما قنعوها خشية من أبي طالب ، وصرخوا بالشر وأمنوا في الإيذاء وضيقوا على الدعوة حتى لا تجد سبيلا إلى الناس وتمطلت أعمال الرسالة ، وتلفت الرسول إلى ما حوله ومن حوله فوجد الطائفت أرق نسيما وأطيب هواء وأكثر زرعاً وماء ، ورضى أن يكون من سكانها من رقى طبعه وطابت نفسه وتفتحت مسالك قلبه لقبول الحق .

فقصدها ومعه زيد بن حارثة وهو مؤمل في قبول دعوته حريص على تبليغ رسالته ، ولكن طاش سهمه وخاب رجاؤه ، فقد عرض أمره على أشرفهم في عشرة أيام لا يدع أحداً إلا جاءه ، فلم يجن من القوم إلا ما جناه من مكة وأهلها وكان معهم كالمتجبر يعمر والمستجير من الرمضاء بالار ، وكره القوم إقامته فيهم فأمروه بالخروج من بينهم وأغروا به سفهاءهم فجعلوا يرمونه بالحجارة كفاه لعمله وجزاء لهديه ، وياله من بحث مرير وظلم عليل ، يور تطفئوه الظلة وحق ينهره

الضلال وإيمان يطارده الكفر، لقد أدمت الحجارة قدم الرسول وها هو ذا زيد ابن حارثة يقبض بنفسه ويتوق عنه بحسبه، فيشجع رأسه وفاء وفداء، وانصرف الرسول راضيا من الغنيمة بالإياب وتجمعت نفسه أمامه ونظر الى عظيم ما يحمل وكريم ما يدعو اليه، ثم نظر الى ازدراء الناس له ومواته عليهم فتوجه لسيده المعز واهب القوة ومالك النواصي بكلمات ما كاد يتمها حتى فرض في إهلاكهم وخبر في عذابهم . وميات لمن ملئت نفسه بالخير وبعث رحمة للناس أن يذكر ألمه وغضبه عند ما يرجع القضاء له والفصل إليه والمستقبل كغيبيل يصد المسرفين ورد المبطلين ؟

احتفال الأمة الإسلامية

بمولد خاتم المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم

احتفلت الأمة الإسلامية في جميع أقطار العالم على اختلاف أجناسها ولعائنها في يوم الجمعة الثاني عشر من شهر ربيع الأول من هذه السنة، وهو يوافق الثاني والعشرين من شهر ديسمبر الحالي، بمولد خاتم المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم . وقد قامت هذه الأمة بنصيبها من هذا الاحتفال على أكمل وجه ، وأمثل حال قتلا عليها سيرة الشريفة ، وتاريخه المجيد في المساجد والمجتمعات ، وأداع ملخصها بلسان الراديو حضرة صاحب المقام الرفيع رئيس وزراء مصر ، فدوى صوت رفعت داخل الدور ، فكان ذلك داعيا لزيادة العناية بسماعها ، كما كان تطوعه لإلقائها بنفسه حافزا للناس إلى تفهمها ، وهي عناية نشكره عليها ، وزجرو أن يحذو حذو رفعت في هذه الطريقة كبار الرجال في جميع الشعوب الإسلامية .

ولا يجوز في هذا المقام أن تغفل ذكر النشاط العظيم الذي قامت به دار الإذاعة المصرية من تخصيص ساعات كثيرة من برنامجها لإحياء يوم ميلاد النبي صلى الله عليه وسلم وليته بقراءة القرآن والابتهالات المختلفة . أعاد الله هذه الذكري الشريفة على الأمة الإسلامية وهي مهية الجانب ، مرفوعة الرأس بين الأمم ، ما بقي الزمان ، وتعاقب الملوان .

حول إعجاز القرآن الكريم :

الرسول الأعظم

يتحدى الناس بالقرآن معجزته الخالدة

لفخيمة الاستاذ الشيخ محمد عبد المنعم ففامي

المدرس في كلية اللغة العربية

— ١ —

كانت العرب أمة مفطورة على البلاغة والأدب والشعر ؛ تحبها وتمسكها
وتجيدها ، وترفع منزلة الشاعر المفلق والخطيب البليغ ، وتنوء بهما ؛ وكانت
أكثر ما يكون خطيباً وشاعراً وأديباً ، فإذا نبغ في القبيلة شاعر ، أو ظهر فيها
فصيح ، استشرت وافتخرت ، وأقامت الموائد واحتفلت بذلك الشيء العظيم ،
وأنت القبائل الأخرى فهنأها ، وباركت شاعرها أو خطيبها .

كان ذلك فطرتها ، لحياة التأمل والاستغراق والخيال في الصحراء ، ولل فراغ
الكثير الذي كانوا فيه ، ولحياة البادية التي تثير العاطفة وتستفز المشاعر ، ولنهم
الشاعرية ، وتوقظ الخيال والبلاغة ؛ وكانت حياتهم القبلية مدعاة للتفاخر
والتيخاصم والحروب المستمرة ، فكانت حاجتها إلى البيان والشعر والشعراء
على أشد ما تكون ...

ومن ثم فقد رأينا شعراء ياتي إليهم العرب القياد ، يصغون لقولهم ،
ويسرون وفق رأيهم ، ويمضون ما يحكمون به بينهم . يضعون الشريف النابه ،

ويرفعون الخامل الوضيع ؛ فكان امرؤ القيس لشعره الساحر زعياً ؛ وكان النابغة
سفيراً للعرب في قصور المناذرة والغساسنة ، وحكماً بين الشعراء في سوق عكاظ ؛
وكان الاعشى يغير شعره مكانة الناس الاجتماعية بين العرب ، ويقف على كسرى
وملوك الحيرة وبنى غسان ، ويسافر إلى الحبشة ؛ وكان قس بن ساعدة الأيادي
الخطيب يقف على قبصر والعسائين .. إلى ما سوى ذلك من مظاهر تقدير العرب
للإلاغة والبلاء ، والشعر والشعراء .. وبحسبك أن الشاعر كان يعلن الحرب ،
ويضع الهدنة ، فإذا شاء أعلن السلام ودعا إليه .

- ٢ -

فلما بعث محمد الرسول الأعظم صلوات الله عليه برسالاته إلى الناس كافة ،
نزل عليه كتاب مطهر من السماء ، هدى ونور وبشرى ، فيه دعوة إلى التوحيد ،
والطهر والخير والحق ؛ وفيه ما شاء الله أن يبلغه للبشر ، من شئون الحياة ، وأخبار
الأمم ، وقصص دعاة التوحيد : من المرسلين والأنبياء ؛ وفيه كل ما يسعد الناس
في دينهم ودنياهم وآخرتهم : من تشريع ، وعبادات ، وأخلاق ، وفضائل ،
وآداب ، وتوجيه كامل إلى المثل العليا .

نزل هذا الكتاب الكريم ، والنور الخالد ، والوحي الصادق ، والدستور
العظيم ؛ فكان في أعلى درجات البلاغة ، ومنازل الفصاحة ، لا يدانيه بيان ،
ولا إشاعة أو يقاربه ما كان عند العرب من : شعر ، وخطب ، ومحاورات ،
ومفاخرات ، وصافرات ، ووصايا ، ومثل ، وحكمة ، وكهانة .

وسمعه فصحاؤهم وبلغاؤهم ، نفروا ساجدين لفصاحته ، مدعنين لبلاغته ،
مقرين بأنه تسبيح وحده ، وعلم مفرد في طبقة في البيان . . بهر الشعراء منهم ،
نفرت ألسنتهم ، وسكنت شاعريتهم ، وضاع إلهامهم ، كما يضيع السراب
في الصحراء ؛ وعجبت الخطباء فيهم ، نفرت مقاولهم ، وصمتت ملكاتهم ، وفقدوا
مواهب البلاغة والقول .. وذهبت كل بلاغة في تياره ، وحلت الفطر الأدبية
العالية ، وفرت أمام أضواء نهاره .

ولكن زعماء الشرك أبوا الاذعان للدين ، والإيمان برسالة سيد المرسلين .
فأخذوا يحاربون الحق بالأوهام ، ويؤلبون قوى الشرك على داعية الإسلام . .
فقالوا في القرآن : هو شعر ، وهو سحر ، وهي أساطير الأولين ، ولو نشاء لفلنا
مثل هذا ، وإن هذا إلا اختلاق ، ورموا محمداً بالجنون .

فتحداهم الله عز وجل ، ورسوله محمد صلوات الله عليه : بهذه المعجزة
الظاهرة الخالدة ، بالقرآن الكريم ، والكتاب العربي المبين . قال الله
تعالى : « وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله ،
وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ، فإن لم تفعلوا ، وإن تفعلوا ،
فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة ، أعدت للكافرين »^(١) . وقال تعالى :
« أم يقولون : افتراء ، قل : فأتوا بعشر سور مثله مفتريات ، وادعوا من استطعتم
من دون الله إن كنتم صادقين ؛ فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله
وأن لا إله إلا هو ، فهل أنتم مسلمون ؟ »^(٢) . وقال تعالى : « أم يقولون : نقوله ،
بل لا يؤمنون ، فليأتوا بحديث مثله ، إن كانوا صادقين »^(٣) . وقال تعالى :
« قل : لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ،
ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً »^(٤) ، فسجل عجز البشر كافة ، وبين أنه لا يستطيع
الإنس والجن - ولو تظاهروا - على الوقوف أمام هذا التحدي ، ولا يقدرّون
على مثل هذه البلاغة ، التي هي فوق طاقتهم ؛ لأنها بلاغة خالق البشر ، ومصور
الإنس والجن ، الملك القادر ، والمدير الحكيم : الله جلّ جلاله ، وعلت قدرته ،
وعظمت حكمته . ونفى الله عز وجل عنه الشعر والسحر ، ورأى رسوله من أن
يكون شاعراً وساحراً ، ومن الافتراء والجنّة ، ومن الكذب والخيال ، والجم
إذا هوى ، ما ضل صاحبكم وما غوى ، وما يطق عن الهوى : إن هو إلا وحي
يوحى »^(٥) . وقال تعالى : « إنه لقول رسول كريم ؛ وما هو بقول شاعر ، قليلاً
ما تؤمنون ، ولا بقول كاهن ، قليلاً ما تذكرون ، تنزيل من رب العالمين : ولو

[٢] هود : آية ١٣ و ١٤ - وهي مكية

[٤] الاسراء : د ٨٨ - وهي مكية

[١] البقرة : آية ٢٣ و ٢٤ - وهي مدنية

[٣] الطور : د ٢٣ و ٢٤ - وهي مكية

[٥] النجم : د ١ و ٢ - وهي مكية

تقول علينا بعض الأقاويل ، لاخذنا منه باليمين ، ثم لقطعنا منه الوتين ، فما منكم من أحد عنه حاجزين ، وإنه لذكرة للمتقين ، وإنا لنعلم أن منكم مكذابين ، وإنه لحسرة على الكافرين ، وإنه لحق اليقين ،^(١) .

وهكذا رد الله عز وجل عليهم ، وبين كذبهم وافتراءهم ، ونفى عن القرآن الكريم ما وصفوه به ، وبين أنه منزل من السماء ، وأنه معجزة محمد بن عبد الله الخالدة ؛ وتحداهم - إن كانوا كافرين وكاذبين ومضللين - إلى الإتيان بمثله ، أو بعشر سور مفتريات من مثله ، أو بسورة واحدة .

فعبجروا أمام التحدى ، وبأدوا بالحزى والهوان والذلة ، وصغرت نفوسهم وأقدارهم ، فلم ينطقوا بقول ، ولم يجاروا بلاغة القرآن في آية أو آيات أو سورة أو سور .. واستمر عجزهم طيلة ثلاث وعشرين سنة ، لا فرق بين خطيبهم وبليلهم وشاعريهم ، ولا فرق بين كبير وصغير فيهم .

— ٣ —

ثم امتدت الأجيال ، وتوالى العصور ، والقرآن يتردد صدهاء في المشارق والمغارب ، فلم نر رجلاً وقف يتحدى بلاغة القرآن ، أو يدعى قدرته على مثل هذا البيان ؛ ولم نر مفكراً يؤلف كتاباً أو شاعراً ينظم قصيدة ، أو خطيباً يلقى خطبة ، أو كاتباً يحبر رسائل ومقالات ؛ ويزعم أحد منهم أن ما جاء به صنو هذه الفصاحة ، أو شبيه ذلك السحر .

وفي تاريخ العربية لحول وغول : كابن المفضل الجاحظ وابن العميد والبدیع ، وكهجير والمرزوق وبشار وأبي نواس وأبي تمام والمتنبي والمعري وشوقي - ولكن أين بلاغاتهم من هذه البلاغة ؟ وأين منازلهم من هذه المنزلة ؟ وهل منهم إلا من أذهن وبهر ، وخشع وبهر ، وخضع وأخذ ، وأيقن أنه وحى السماء . وفيها كتب ومؤلفات في أعلى ذروة البلاغة . كنهج البلاغة ، ورسائل الجاحظ ، وكليلة ودمنة ، ومقامات البديع الخ .

ولكن ما هذه وغيرها من المؤلفات ؟ وما مكاتبا وما قيمتها ؟ وما أثرها وما خطرهما في البلاغة الأدبية ؛ أمام كتاب الله المعجز ، وكلامه الحكيم ؟ بل أمامك الحديث النبوي الشريف ، وهو في الدرجة العليا من الفصاحة ، ولكن أين يقع نظمه من نظم القرآن ، وكيف يوزن حسنه بحسن قدسي البيان ؟ واقرأ إن شئت بلاغات البلغاء ، وفصاحة الفصحاء ، ثم انظر — بسكون طائر ، وخفض جناح ، وتفرغ لب ، وجمع عقل — في ذلك ، فسبق لك الفضل بين كلام الناس وبين كلام رب العالمين ، وتعلم أن القرآن يخالف نظم كلام الآدميين (١) .

وأراد مسيلة الكذاب — فجا يروي — أن يقول كلاما ، غزى وعجز ، وبأن عليه المي والحصر ، وبأن بالخصران وسوء المقلب ؛ وأبن يقع قوله ، والليل الدامس ، والذئب الهامس ، ما قطعت ، أسيد ، من رطب ولا يابس ، وقوله والمبيدات زرعاً ، والخاصدات حصداً ، والذاريات قمحاً ، والطاحنات طحناً والخابرات خبزاً ، والثارذات ثزداً ، واللاقيات لقها ، إهالة وسمناً ؛ لقد فضلتهم على أهل الور ، وما سبقكم أهل المدر ، وغير ذلك من كلامه (٢) ، من ذلك السحر والنظم القرآني العجيب المعجز ، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد (٣) ؟

— ٤ —

وفي الأمم الكبيرة فلاسفة ومفكرون ومشرهون ، وأدباء وكتاب وشعراء وخطباء . ولكل منهم كتب وآثار أدبية .

[١] ١٧٦ [مجلد القرآن الساقط طبعه ١٩٤٨ ،

[٢] راجع طرقاً منه في المرجع نفسه ص ١٢٨ .

[٣] آية ٤٢ سورة فصلت .

ولكى هل هناك من هذه الآثار ، ما يعادل في أثره وخطره ومزله القرآن الكريم ، بما اشتمل عليه من توجيه صالح كامل للحياة ، وتحديد واضح للمثل الإنسانية العليا ، ورسم لأهداف الأفراد واجتماعات والشعوب ، ودعوة إلى الحق والعدل والحرية والاخاء والمساواة والمدنية والعلم والرفقان ؟ . وهل من بينها كتاب يتعبد به الملايين من البشر ويقدمونه ، ويدعونه دستورهم في الحياة ، ويقبس الادباء والبلغاء والعلماء منه ثرواتهم الادبية والعلمية ؟ . وهل من بينها أثر قام به دين ، ونشأت عليه دوله وحضارة استظل العالم برايتها أجيالا طوالا مثل القرآن الكريم ، والكتاب الحكيم ؟ .

وهل للقرآن — بربك — شبيه من الكسب : وجد لغة وحفظها وأذاها في العالم ، ورفع شأنها وذهب ألقاها ، وأساليها ، وأحيا فنونا جديدة من الادب ، ونأثر الناس بلاغته وهذوئته وسحره ، ووضعت بسببه شتى علوم الدين واللغة والادب والبلاغة . . . كالقرآن الكريم ، وما أحدثه من آثار أدبية وبيانية وفكرية في لغة العرب : فوق آثاره في حياتهم السياسية والاجتماعية والدينية ، وفي حياة العالم والانسانية كافة ؟



ولا يزال البلقاء والقواد ورجال الادب والبيان حتى اليوم : يؤمنون ، بإيماناً صادقاً ، بأن لا سبيل إلى الوقوف في تيار بلاغة القرآن وفصاحته وإعجازه ، وأنه شيء انفرد به وحده ، وأنه كلام الله وكتابه ؛ وأن نبوة محمد صلوات الله وسلامه عليه إنما بنيت على هذه المعجزة ، وذلك الكتاب الحكيم المبين الذي عجز الانس والجن عن أن يأتوا بمثله .

وستمضي الأيام ، وتوالي الأجيال ؛ وهو يضيء كما يضيء الفجر ، ويبرخر كما يبرخر البحر ، ويفتن الالساب والمقول بسحره وجلاله وعظمته وحكمته وروعته ، وصدق الله العظيم : « الله نزل أحسن الحديث ، كتابا متشابها مثاني : تقشع منه جلود الذين يخشون ربهم ، ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ؛ ذلك هدى الله يهدي به من يشاء ، ومن يضلل الله فإله من هاد ، »

الخلافة بعد فتح الأندلس

لؤي ستاذ هاشم محمد ابراهيم

مدرس الآداب بمعهد القاهرة

تكلمنا في العدد الماضي من هذه المجلة عن الخلافة العباسية في القاهرة، ويريد أن نتابع في هذا البحث موضوع الخلافة العباسية، وموقف سلاطين آل عثمان منها بعد فتح سليم لأول لمصر سنة ١٥١٧م:

لم يهتم العالم الإسلامي بهذه الخلافة اهتماما كبيرا خارج مصر، فالإمارات الإسلامية لم تسع في الحصول على تفويض للحكم من الدباسيين بالقاهرة إذا استثنينا من ذلك محمد بن طهلق حاكم دلمى: وذلك أنه بعد أن حكم مدة ثمانية عشر عاما حكما استبداديا أراد أن يكون حكمه شرعياً، فتمكن من الحصول على تفويض للحكم من الخليفة العباسي بالقاهرة.

كذلك بلاد الحجاز مع أنها كانت خاضعة لحكم المهاليك بمصر، فإنه لم يدع للخلفاء العباسيين في خطبة الجمعة من على منابرهم إلا مرة واحدة زمن الخليفة المستعين بالله أبي الفضل، الذي يربيع بالسلطنة والخلافة معا على أثر قتل الناصر فرج.

ولقد اتخذ معظم أمراء المسلمين خارج مصر — بعد أن شعر كل منهم بقوته في بلده — لقب خليفة، مثال ذلك ما حدث في تونس عندما تلقب أميرها أبو عبد الله الحفصى بهذا اللقب — كذلك تلقب تيمورلنك بلقب الخلافة — وكان السلطان محمد الفاتح العثماني يخاطب سلطان خراسان بلقب خليفة.

إذن يمكن القول بأن هذا اللقب قد اتخذته أكثر من حاكم إسلامي في وقت واحد، كل يحكم قطرا إسلاميا.

على هذا النحو اتخذ سلاطين آل عثمان هذا اللقب قبل فتح مصر سنة ١٥١٧
بمدة قرن ونصف - فاستيلاء السلطان سليم على مصر إذن لم يقدم أو يؤخر في
اتخاذ هذا اللقب للسلطان .

أما ما تناوله الكتب التاريخية من تنازل الخليفة المتوكل العباسي رسمياً
للسلطان سليم الأول عن الخلافة ، فإنه لم يرد في ذلك نص صريح يؤيد هذا
التنازل : فثلاً المؤرخ المصري المعاصر بن إياس ، الذي عاصر الفتح العثماني ووصفه
بالتفصيل يقول :

« إن المتوكل سلم إليه مخلفات الرسول وهي . البردة التي كان يلبسها الخلفاء
العباسيون في بغداد ، وبعض من شعر لحية صلى الله عليه وسلم ، وسيف الخليفة
عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

من هذا يتضح أنه لم يوجد ما يؤيد صراحة التنازل عن الخلافة ، أما الدليل
الوحيد الذي يستند إليه المؤرخون الأتراك والأوربيون بخصوص هذا التنازل
الرسمي فهو ما ذكره موراجي دوسون Mowrajei D. Hosson سنة ١٧٨٧
في كتابه « سلسلة عامة لنسب آل عثمان » وحتى هذا المؤرخ الذي أشار
إلى تنازل الخليفة المتوكل العباسي لسليم الأول عن الخلافة رسمياً لم يذكر المصدر
الذي اعتمد عليه حتى يؤيد هذا الزعم - ولم يحاول أحد من المؤرخين الذين نفلوا
هذه الكشف عن حقيقة هذا القول ، ومن ثم انتقلت هذه الفكرة غير المستندة
إلى سد يؤيدها من كتاب إلى آخر من الكتب التاريخية شرقية كانت أو غربية
وأصبحت أمراً متفقاً عليه غير منازع فيه من حيث البداية الأوربية التي انتشرت
في العالم الإسلامي لتأييد دعوى العثمانيين للخلافة .

ولو اعتبر السلطان سليم نفسه خليفة للخلفاء العباسيين لاستعمل ألقاب
الخلافة بالأسلوب القديم ، وبما يؤيد هذا أن سلباً بعد فتحه لمصر لم يذكر في
مراسلاته مع ابنه سليمان ، أو حتى مع كبار الموظفين هذا اللقب أو أي لقب آخر
يتصل به - أما الألقاب التي وردت في هذه المراسلات فهي : الخاقان - السلطان
خادم الحرمين ، وغيرها من ألقاب العثمانيين .

وعما هو جدير بالذكر أن لقب خادم الحرمين كان يعتز به سليم الأول ويفخر به عن غيره من الألقاب ، ثم توارثه عنه بقية - لاطين الدولة العثمانية - وكان هذا اللقب من ألقاب سلاطين دولة المماليك وليس من ألقاب الخليفة العباسي .

على ذلك يمكن القول بأن سلاطين آل عثمان قبل فتح مصر وحتى بعد الفتح لم يحفلوا باللقاب . الخليفة والإمام وأمير المؤمنين ، حتى إنه لم يرد لها ذكر في المكاتبات الرسمية - وربما كان ذلك راجعاً إلى تأثر العثمانيين بمذهب أبي حنيفة الذي يدينون بمبادئه ، والذي كان يرى أن الخلافة الحققة لم تدم إلا ثلاثين سنة كما أنه لم توجد هذه الألقاب فيما كتبه الفقيه التركي إبراهيم الحلبي في كتابه « ملحق الأبحر » الذي أصبح مرجعاً هاماً في التاريخ العثماني ، كذلك ما دونه فريدون بك في رسائله السياسية التي قدمها إلى السلطان مراد الثالث سنة ١٥٧٥م لم يثر فيها على هذه الألقاب .

ولم يتلقب سلاطين آل عثمان بهذا اللقب إلا في القرن الثامن عشر الميلادي إذ أصبحوا يستعملون لقب الخلافة بشكل جديد في معاملاتهم الدولية مع المسيحيين ، وكان ذلك لأغراض سياسية ، غايتها أن يكون لهم شيء من النفوذ الديني على العالم الإسلامي الذي كان كثير منه تحت سلطان الدول المسيحية - ففي معاهدة كوتشك كينارجي Kuchuk Kainarji التي أبرمت بين السلطان عبد الحميد الأول وكثرين الثانية ملكة روسيا سنة ١٧٧٤م اقترن اسم عبد الحميد بلقب إمام وخليفة ، وأعطت هذه المعاهدة السلطان العثماني السلطة الروحية على المسلمين في شبه جزيرة القرم ، كما منحتة حق تفويض وإلى هذه البلاد بالحكم ، وتعيين القضاة ورجال الإنشاء - ولقد فطن الروس إلى أن هذه المادة تمهد السبيل لتدخل العثمانيين السياسيين في هذه البلاد ، فألغوها سنة ١٧٨٣ .

وفي القرن ١٩ أصبح لقب الخلافة المعنى القديم الذي يقصد به السيطرة على كافة المسلمين - وقد ظهر ذلك جلياً في عهد السلطان عبد الحميد الثاني في دستور مدحت باشا في ٢٤ ديسمبر سنة ١٨٣٩ ، حيث نصت الفقرة الثالثة منه على أن السلطنة العثمانية العظمى آلت إليها الخلافة الإسلامية العظمى ، وسوف تتول

إلى أبناء البيت المالِك - ونص الفقرة الرابعة على أن حضرة صاحب العظمة السلطان بصفته خليفة المسلمين قد أصبح حامى الدين الإسلامى .

ومن أهم العوامل التى جعلت الخلافة تظهر بهذا المعنى القديم ضعف العالم الإسلامى ووقوعه تحت سيطرة الدول الأوروبية الإستعمارية ، كوقوع الهند تحت الحكم البريطانى - وتقدم روسيا إلى أواسط آسيا فبسطت نفوذها على شعوب إسلامية ، واقتطعت فرنسا جزءاً من أملاك العثمانيين فى شمال أفريقيا - فكل هذه العناصر الإسلامية المشتتة فى أنحاء العالم كانت تطمح فى أن يكون بينها ارتباط بأقوى دولة إسلامية وهى الدولة العثمانية .

ومن هذه العوامل أيضاً . أن السلطان عبد الحميد حكم الدولة العثمانية فى ظروف حرجية ، فالولايات المسيحية الباقية فى البلقان تحت حكم العثمانيين مثل الصرب والجبل الأسود واليوغان ... كانت تتعاقم فيها الثورات بقصد الانفصال عن الدولة العثمانية ، أضف إلى ذلك إعلان روسيا الحرب على الدولة وتهديدها للقسطنطينية سنة ١٨٧٣ ، فذلك كله جعل العالم الإسلامى الذى خضع للنفوذ الأوروبى يتجه شطر الدولة العثمانية ، وهذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أخذت الدولة العثمانية تتجه أيضاً إلى العالم الإسلامى الخارجى لتكسب عطفه الأدبى فى صراعيها ضد المسيحيين . .

وقد جند عامل آخر جعل السلطان عبد الحميد يهتم بالخلافة ، وهو مقاومة الحركة الدستورية التى ظهرت فى تركيا بقيادة مدحت باشا ، ففضى عليها وعلى قائدها وساحل أن يحكم بطريقة استبدادية رجعية ، فعنى بإحياء الخلافة بمعناها القديم لئلى يؤكد الصبغة الدينية ، فتلعب بقلب خليفة الله فى الأرض ، ولتعب أمير المؤمنين .

وقد جمع السلطان فى ذلك مجاحاً مؤقتاً حيث ثار عليه رجال حزب الاتحاد والترقى ، وخلعوه لعمله على تأييد حكمه الاستبدادى فى بلاده بإلغائه الدستور ووقوفه فى سبيل الإصلاح .

ودخلت الدولة العثمانية الحرب العالمية الأولى ، وهزمت فيها ، وفر مصطفى كمال إلى الأماضول ، وتمكن من إيجاد جيش بصعوبة دافع به عن الوطن التركى

وأجبطت المشروعات التي كانت ترمى إلى تقسيم الأناضول - وأعلن المجلس الوطني الكبير إلغاء السلطنة العثمانية ، وأعلنت الجمهورية التركية في ٢٩ أكتوبر سنة ١٩٢٣ وانتخب مصطفى كمال رئيساً لها ، ورأى الأتراك أن بقاء الخلافة لم يعد له مبرر ويرجع ذلك إلى عدة عوامل من أهمها :

أن بقاء الخلافة قد يثير حوله حركات رجعية ودسائس ترمى إلى معارضة الحكم الكمالى ، وقد حدث هذا فعلاً في داخل تركيا ، وحتى في الخارج تزعم هذه الحركة أمراء الهند مثل آغاخان وأمير علي .

ومن هذه العوامل أيضاً أن فكرة الخلافة ترتبط بحركة الجامعة الإسلامية ، أى جمع المسلمين تحت لواء واحد ، وهذه الفكرة المرتبطة بالخلافة تختلف فكرة الدولة القومية الحديثة التي أخذت بها الجمهورية التركية الجديدة ، إذ أن أغلب سكانها أتراك لا يريدون أن يكون لهم شأن بمشاكل العالم الإسلامى المشتت في أنحاء مختلفة .

ومن هذه العوامل أيضاً رغبة مصطفى كمال في أن يجعل الوطن التركى وحدة واحدة متجانسة لا تفريق فيها بين الأفراد أو الرعية بسبب المسائل الدينية . وهناك عامل آخر ، وهو أن فصل السلطة الدينية عن السلطة السياسية في الإسلام لا يتفق ونظام الخلافة .

والعامل الأخير ، هو أن وجود الخلافة في تركيا ، يؤثر في علاقة تركيا الحديثة بالدول الأوروبية - ولم يشأ مصطفى كمال أن تزعم تركيا العالم الإسلامى وهي في حالة من الضعف والتفرقة ضد الدول الأوروبية المنتصرة ، التي استولت على معظم أملاك الدولة العثمانية القديمة - لذلك لم يرغب في أن يزوج بيلاده ، في مشكلات لا حل لها ، وفضل إلغاء الخلافة في ٢ مارس سنة ١٩٢٤ . وكان لا مانع عنده من أن تقوم في أى مكان آخر .

وفي سنة ١٩٢٦ عقد مؤتمر للخلافة في القاهرة ، وحضر مندوب عن تركيا وأعلن أن لا مانع من إقامة الخلافة في أى مكان ، ولكن ظروف العالم الإسلامى لم يهيء له قيام الخلافة منذ ذلك الوقت .

فجعة البرق في مهاتما الغرب

للدكتور حمزة محمد الشيخ

ليسافيه في الأدب الانجليزى

من جامعة فؤاد الاول

بالامس القريب تجاوزت أسلاك البرق في العالم كله تذيع أن حياة برناردشو قد انتهت ! مات بعد حياة دامت أربعة وتسعين عاماً . فقال صديق له ، وهو يعادر منزله ، هذه نهاية حلقة من حلقات التاريخ ، ، وتلقى أندريه مورا ، ، الأديب الفرنسى ، النبأ بقوله ، إن (شو) استطاع أن يقدم للمسرح الانجليزى طاقده إبن المسرح السكنديناوى ، و وفاة (شو) سيكون لها صداها الكبير فى العالم كله ، ذلك أن (شو) كان أحب الكتاب جميعاً لدى الرأى العام ، لالها كان يقول ، ولكن للاتجاه الذى يثله ، ، وقال بيتس ، Yeats ، الشاعر الايرلدى عن (شو) — : إنه أحد أبناء النور الذين نشأوا بين أبناء الدنيا . إنه ينطق بلغتهم ، ويفكر مثلهم ، ولكنه مأخوذ بطبيعة أرفع وأسمى ، ، وقال ماسفيلد الشاعر يحيه فى عامه التسعين ، من فصيحة شعرية : ، أينما الرموس النيرة على هذا الكوكب . كرميه وهو بقاء الحياة ، ولبات ولالة الفن الجليل بعد قرون فليأمرؤا له بالنصب والتماثيل .

أما د شو ، نفسه فكان يقول ، إتنى لا أحب الحياة لذاتها ، وليست الحياة مصباحاً صغيراً أحمله ، وإنما هى مشعل هائل أمسك به الآن فى يدى ، وأريد أن يشتعل وأن يزداد توهجه قبل أن أسله للأجيال المقبلة ، ، ولعل ذلك ما كان يراه من فرق بينه وبين شكسبير ، إذ كان يرى نفسه صاحب رسالة لجيله والأجيال التالية ، وأن شكسبير لم تكن له رسالة يحملها لجيل من الأجيال .

فما هي تلك الرسالة التي أدامها د. شو ، والتي جعلت أبناء عصره يحيطونه بفيض من الشهرة والاعجاب كاماً حقاً له ، بل دون حقه بكثير ؟ .

وقبل أن نخوض في جوانب الرسالة الشوثية المتشعبة ، نحب أن نلم على عجلٍ بنشأة الأديب التي كان لها أثر عميق في توجيهه ... فقد نشأ في أيرلندا ، والاييرلنديون قوم أرعهم الحكم الأجنبي ، وعصمهم الفقر ، فرحلوا من وطنهم يطلبون الرزق ويكدحون في سبيله ، ووجدوا في الفكاهة المستقرة في أعماق نفوسهم خير معين على فقرهم وسلطانهم المسلوب ، ومن هذه البيئة استمد د. شو ، سخرته وتمرده وإيمانه بجدوى المال في حياة الناس وورث برنارد شو عن أمه الذوق الموسيقي المزهف ، وحاكاه في تمردا على التقاليد ، كما أخذ عنها الدعوة الصوفية الباطنية فأصبح من النباتيين . حتى إنه كان يدعو نفسه مهتماً الغرب ، كما كان - فيما بعد - يقول عن غاندى : إنه من العظماء الذين لا يجوز التاريخ بأعمالهم إلا مرة في كل ألف سنة .

وأناحت الإيرلندية لبرنارد شو أن يتجه تفكيره اتجاهاً عالمياً ، فنزع إلى الثورة على الاستعمار والاستغلال ، وحاول تحطيم الأغلال التي تستعين بها الأمم القوية في تقرير مصير الشعوب المستضعفة . وفي الحق إنه إذا كان العالم بأسره حرياً بأن يذكر ذلك العسكر الحر الطليق ، في وقت طغت فيه ذاتية الشعوب وقادتها على آرائها واتجاهاتها ، فإن مصر خاصة خليفة بأن تعز بصداقة مفكر هذا شأنه ، وبأن تقوم اليوم بشمجيد وإحياء ذكراه .

كان برنارد شو يعطف على مصر ، ويقرأ عنها كثيراً ، ويتقصى أنباءها المتقلبة تغلب الدهر ، بل إنه ساهم بصيب كبير في عرض قضيتنا الحائرة أمام الرأي العام الإنجليزى ، ودافع عن المصريين أمجد دفاع أيام محنة دنشواى ، فكتب فصلاً طويلاً ، لم يكتب أحد مثله ، في مقدمة روايته «جزيرة جون بول الأخرى» يدافع عن المصريين ، وقت أن كان لورد كرومر يعامل المصريين معاملة السيد لعيده وإماته ، وفي حقة حالكة من تاريخ مصر ، عز فيها الصديق الذي ينتصر للحق ، ويقاوم الظلم أنى كان . وقد لاقى د. شو ، في سبيل دفاعه عن مصر كثيراً من تهكم بعض الكتاب الاستعماريين ، الذين اشتقوا من اسمه واسم

دنشواى نسبة واحدة فقالوا « شاقيان » Shacrian ، غير أن « شو » واصل اهتمامه بالفضية المصرية ، فراح يعرض على قرائه تاريخ المحكمة المخصوصة ، التى أنشأها الإنجليز لمحكمة المصريين ، واثبت بقله الصريح العادل وبسخرية اللاذعة ما لاقاه المصريون من جور وعسف واضطهاد . ولم يقر لكاتبنا العظيم قرار ولم تحب تيران حملته على مواطنيه ، حتى عنى عن المصريين الذين يحنوا ، وعادت المياه إلى مجاريها .

ولسنا نستطيع أن نفي الرسالة الثوتية حفها من التفصيل دون أن نذكر شيئاً عن المسرح الإنجليزى الذى اتجه به « شو » انجماً واقعياً ، أخذ أساسه عن هنريك إبسن النرويجى ، الذى استكشف الرجل العادى ، وأزاح الحجب عن حياته وبجل بطوكه ، وهى إبسن العظيم تلذ « شو » العظيم . ومن هنا كانت المشكلات التى يعالجها « شو » ليست مشكلات خاصة بأصحابها ، ولكنها مشكلات اجتماعية تناول العام قبل الخاص ، كالزواج وقديته التقليدية (هنة مسز وارن) والدين ونفاق المتدينين (الميجر باربارا) والاستعمار وتعميره الكاذب (جزيرة جون بول الأخرى) وفصل الطبقات ومظاهره الزائفة (بيجاليون) . ويقوم ذلك المسرح الذى دعمه « شو » على ما يسمونه بنظرية الحائط الرابع ، فليس يفصل المشاهد غير الحائط الرابع ، الذى نعرفه بالستار ، لكى يرى ما يجرى فى بيوت الناس .

أما فلسفة « شو » الاجتماعية فهى : « الاشتراكية الغاية » التى نادى بها الجماعة الغاية ، منذ تأسست فى سنة ١٨٨٤ ، وهى ليست سوى حركة تهدف إلى إصلاح المجتمع والحكومة بتوفير المال للجميع على اعتباره الوسيلة المجدية لتخليص الناس من الرذائل المادية والمعنوية .

ولا يؤمن « شو » بالديمقراطية كذهب سياسى ، بل على عكس ذلك نراه يعجب بالديكتاتورية بمسكرها الفاشى والشيوعى . ولعل السبب فى ذلك أن الجماعة الغاية ، نفسها كانت تنتمى إلى حاكم بأمره قديم ، ثم إننا رأينا « شو » يبشر بالسوبرمان فى مسرحيته « الإنسان والإنسان الأهل » ، فقلعه كذلك كان

يرى الدكتاتورية أقرب السبل التي تؤدي إلى تحقيق الحلم الذي راوده طويلا ، وظل حياته كلها يرنو إليه ويوصي العالم بانتظاره .

هذه المهمة بالأديب الغربي الاشتراكي برناردشو ، الذي له دين في أعناقنا نحن الشرقيين - ثقيل ، فقد امتزجت الثقافة الشيوعية العميقة بكافة الثقافات ، حتى لقد شهد منتصف القرن العشرين نقلة بعيدة في ذلك الميدان ، كان فضل د شو ، فيها لا يدانيه فضل كاتب ولا أديب .

وحسب الراحل الكبير غزراً ، وكفى فته تكريماً ، أن انتقل أدبه الأنيق الرائع إلى كل لغة حية ، واحتل فيها مكاناً مرموقاً . ود شو ، فإن إيرلندي بموطنه الأصلي ، بيد أن له في كل بلد وطن ، ومدرسة ، وتلاميذ ، وسوف يظل حياً آلاف السنين ، لا بنفسه ، فقد خبت قوتها الملهمة إلى الأبد ، ولا بجسده ، فقد همد منذ بعيد ، ولكن في التاريخ ، وتلك هي الحياة .

عشرة آلاف بيتين

دخل شاعر من أهل الري يقال له أبو زيد على عبد الله بن طاهر صاحب خراسان ، فأشده هذين البيتين وهما :

اثرب هيباً عليك التاج مرتفعاً من شاد مهرودع غمدان لليمن

فأنت أولى بتاج الملك تلبسه من هودة بن علي وابن ذي برن

فأمر بعشرة آلاف درهم جائزة على هذين البيتين . ودخلت ليلي الأخيالية هل الحجاج فأشده :

إذا ورد الحجاج أرضاً مريضة تتبع أقصى دائها فشفاها

شفاها من الداء العضال الذي بها غلام إذا هن القاة سقاها

فقال لها لا تقولي غلام ولكن قولي حمام ، وقال يا غلام أعطها خصانة . قالت احسبها إبلا . فرد عليها قائل بقوله : إنما أمر لك الأمير بشاء . قالت الأمير أكرم من ذلك . فأضطر الحجاج أن يوافقها على ظنها فجعلها إبلا على استحياء وإنما كان أمر لها بشاء .

ظل الرباعية في البيان

لغفيرة الأستاذ الشيخ فاضل محمد مجنون

مدرس بالأزهر

إذا صعدت النظر وأمنت التنخل في مظلوم الأدب العربي ومشوره ، وجدت
القرائح في نتائجها تتدرج مع اليقظة ، وسعة الحضارة ، وفسحة الصناعة الفنية
والأداة البيانية .

• • •

وأصدق ما يسعف الفأري - حتى لا يخالف ما نذهب إليه في عجالتنا -
معارض الرياحين وملاعب المورقات وفتان الزهر ومياس الفصوص وملاح
الورود وظلال الحدائق وجداولها ، مما أثر في أحاسيس الشعراء وأخيلتهم ، ولون
نثر الأدباء وبيانهم .

ذلك لأن القرائح العربية ما إن تفتحت لها زهرة المفان وبحت الحضارة
واحضو ضرت ، الأقاليم ، وازدانت بالحدائق وتوزعت المواهب بين فراديس
، الأندلس ، وشواطئ ، النيل ، ومسايل ، الأبلّة ، وسندسيات ، غوطة
دمشق ، وجمال ، شعب بوان ، وبحر ، صند سمرقند ، ، حتى لف الشعراء
والكتاب فتون وجنون بالجمال المورد والحلاية الهنداء والطيوب الشذية . ماء
وظل وروح وريحان . و ، شقائق نعمان ، .

وهنا طج الشعراء وأجاد الكتاب وطبوا أوصاف السوسن والاذريون
والصفيق والهار والأخوان والخيري والنسرين والخلاف والتيلوفر .

وأبدعوا في وصفهم للبنفسج والرجس والياسمين والآس والزعفران .

وبعد أن كانت طاقاتهم مقطعات أو أبيات تمر في خرباتهم أو مدائحهم
أو تشبيهاتهم حملهم الشعور بالجمال على أن يخصوا الرياحين بقصائد ورسائل
بل زادوا على هذا ونخصص بعض الشعارين والنثرين والكاتبين في حسان
الطبيعة في لدات الحدائق وناشرات الطيب ومضغعات النسيم .

وفوق هذا تفتت القرائح وتناوحت وأمنت في الإخلاص بعرائس
الروض ، فجعلت منها شعبا وفرقا تشبك الالهواء حوالها وتعلق بمحاسنها ، هذا
ينتصر للورد وذاك بفضل الياسمين والآخر يروج للرجس ويمدح طريفه .

وفي كتب المحاضرات ، عقدت مناظرات وخصومات كانت بطولتها
للرياحين ، ومحور الصراع والمفاخرة للآس أو الورد أو الياسمين .

وكأنى بالشعراء والكتاب - حين وجدوا أمية الملوك والامراء قد بخلت
على قلمهم - انصرفوا إلى مملكة الرياحين يتوجون منها ما يحبون وينتضرون لمن
يمجدون في وجناته وميساته ما يرضى إحسانهم ويريح جوانحهم ويمتدح أبصارهم
ويمسح عنهم غناء الحياة وجهامة الجسد في كسب العيش ولا يعجز الضيق
بالحياة والاحياء .

• • •

وزاد شغف الشعراء والكتاب ، واضطردتها لكرمهم في سوق الرياض وظلال
الحدائق ، حتى ليخيل لمن يقب في نتاجهم ، أن الشعراء والكتاب أقاموا من
الرياحين أحياء يخاطبونها ويشكون إليها فتحن ويمدحونها فتخجل ويناجونها
فقسمع ويطربون لها فتضطرب . ويحافون رقيبها ويحذرون عيونها
ويخشعون لظلمتها .

ولقد أسرف الشعراء والكتاب بعد العصر العباسي الأول وبالغوا وصنعوا
ونكفوا وأرهقوا قرائحهم ، حتى ضيحت الصناعة على بعضهم كثيرا من جمال
الوصف ودقة التعبير والتشبيه والتصوير ، وحظ البيان المشور من طاقات الرياحين
لا يقل عن البيان المنظوم .

ويكفي أن نذكر (ابن برد الاصغر) ثم نشير إلى رسالة له أجرى فيها
التفاوض والتحاور ، ثم قدم فيها الورد على الرياحين في مجلس عقده لرؤساء النوار
والأزهار ، منها الترجس الاصغر والبفسج والبهاء والخيري .

ثم انتهى بأن هدف الرياسة للورد ، بعد أن أجرى على السنة الإبطال وجه
التفضيل ، ويضيق المقام عن نقل رسالة المولى الفاضل تاج الدين إليّ المتوفى
سنة ٧٠٦ في المفاخرة بين الترجس والورد .

وكذلك ما جاء في الخريدة للهاد الاصفهانى من رسالة تعضيل الورد
وإنا لنقبس بعض ما جاء على السنة الشعراء لدل على صناعة بيانية تأثرت
بمفاز الطبيعة الشذية لآبى العلاء صاعد الأدلى في وردة .

وردتك يا سيدي وردة يذكرك المسك أتعاسها
كمشراء أبصرها مبصر فخطت بأكامها رأسها
ولآبى طالب الرق :

وردة في ثنائ معطار حيث بها في بديع أسرار
كأنها وجنة الحبيب وقد نقطها عاشق بدينار

• • •

ولشاعر :

كأنما الوردة لما بدت في كف من أموى وبهوانى
حرمة خديبه وفي وسطها صفرة لوني حين يلفانى

• • •

ويقول العسكرى :

أفضل الورد على النرجس لا أجعل الابلجم كالاشمس

* * *

ويقول أبو دلف :

أرى ودمك كالورد ليس بدائم ولا خير فيمن لا يدوم له عهد
ومن الأمثلة التي تشهد باستنثار الروض واستيلاء الرياحين على عواطف
الشعراء ما قاله التنوخي .

أما ترى الروض قد وافاك بمنسبا ومد نحو الندامى للسلام بدأ
فاحصر ناضر في أبيض يقق واصفر فاقع في أحمر نضداً
مثل الرقيب بدا للماشقين خفى فاحر ذا خجلا واصفر ذا كدا
ومن شعر كشاجم في قصيدة جيدة :

وروض هن صنيع الفيت راض كما رضى الصديق عن الصديق
كأن غصونه سقيت رحيقا فاست ميس شراب الرحيق
كأن شقائق النعمان فيه مداهن من لجين للخلق
يذكرني بنفسجه بقايا صنيع اللطم في الحقد الرقيق

* * *

وفي النرجس لصفي الدين الحلبي :

أقول وطرف النرجس الغض شاخص إلى وللتام حولي الماس
أيارب حتى في الحدائق أعين علينا وحتى في الرياحين نمام
وإني حين أوتر في استشهادي ذلك الضرب من الوصفين الصناع لا أغفل
إعجابي بلفحات العباقرة من أمثال البحري .

أناك الربيع الطلق يمتال ضاحكا من الحسن حتى كاد أن يشكلا
وما ضحكة الربيع إلا بساط « النوار » .

ولست بناس عثرات « النواصي » ولا نفحات « ابن الرومي » أو وصفيات
« ابن المعتز » أو طاقات « ابن خفاجة » ، ويكتفي في عجائتي هذه الإشارة ، فليس لدى
من عدة البحث غير المعلق في الذاكرة ، وفراغ الصحيفة يضيق بالمزيد .

كيف ندرس الأدب

للمؤلف الأستاذ محمد صفر

المعلم بكلية اللغة العربية

هذا رأى في دراسة الأدب للكاتب

تلك الآثار من نتاج الأدباء هي التي أعينها من كلمة «الأدب»، فنحن في عصر أصبح فيه تحديد منهج البحث لازمة للكتاب والباحثين، ولم يعد ممسأفاً ذلك الشبوع في المعكرة والاتساع في دوائر الدلالات والتساع في إطلاق الاسم على المسمى وما يجاوره، وما يمت إليه بصلة واحدة، وأصبحت التجزئة عنوان المباحث ليكن الإنتاج ولينبأ التوافر على العمل ويصير الدرس أكثر نفعاً وأقرب تناولاً؟

وبدهى أن تولد من المادة الواحدة مواد متعددة، فبعد أن كان التاريخ شاملاً لكل ما يتصل به من سياسة واجتماع وأفكار ومذاهب وعلوم وآداب، أصبح التاريخ مقيداً بكونه تاريخ سياسة أو تاريخ فرق أو تاريخ علوم أو تاريخ آداب، فهذه كلها فروع كانوا يطلقون عليها اسم التاريخ. وكفى!

وهذا العمل نفسه قد حدث للأدب، إذ كان يطلق على كل العلوم العربية بما فيها من نحو وعروض وبلاغة، وكانوا يقولون عن الأدب: «هو الأخذ من كل فن بطرف»، ولكن الدقة العلمية جعلت هذه المواد تفرط من حول الأدب، ففناق معنى هذه الكلمة، وأصبحت تطلق إطلاقاً فنياً على تلك الآثار والنصوص الأدبية فقط، سواء أكانت شعراً أم نثراً، رسائل أم خطباً، أم محاورات.

فدراسة الأدب هي دراسة تلك النصوص... والقصد من هذه الدراسة تهذيب النفوس وترقيق المشاعر وتنمية الذوق الأدبي والسمو بالعواطف البلية بعد فهم هذه النصوص ليسهل الصب على قلوبها والتوليد من معانيها والتشبث بجمال ألفاظها وتراكيها: ولكن نفس الغيور على الأدب تتقطع حشرات عند ما ينظر إلى طرق دراسة الأدب في معاهدنا على اختلاف أنواعها. وإن كل ذي حذب على تلك الآثار ليتلوى المأ على مصير هذا الفن الرفيع حينما يتحيل الظلام المخيم على هذا الركن من التراث العربي.

وما أحسب الناس إلا قانعين بما هم فيه من خلط لا يرضاه منصف لأدب لغة حية وافية... وبزبدني إشفافاً أني أسمع عن محاولات لإصلاح الدراسة في كل المواد، ما عدا الأدب، فكأن هذه المادة بلغت حد الكمال، ولم تعد في حاجة إلى النظر والتنظيم... والله يعلم أن تلك هي المادة في كل شيء... بل أستطيع أن أقول: إن الأدب لم يدرس ولم يعرف عنه شيء في دور التعليم... إذ أن الذي يدرس الآن هو تاريخ الأدب ممزوجاً بفقهاء اللغة... ولم يقف الأمر عند هذا، بل قطعت أوصاله، ومزق شرمزق بتقسيمه إلى عصور ومراحل تتبع الانقلابات السياسية وتغيرات الدول...

هذان هما منبع النقص في دراسة الأدب العربي...

أولاً: غلبة التاريخ على مذكرات الأدب.

ثانياً: تقسيم الدرس تبعاً للعصور والانقلابات السياسية...

وبذلك يضع الأدب باعتباره مادة مستقلة بين هذه الأخطاء التي ارتكبت ولا تزال ترتكب في كل كتاب يدرس على أنه في مادة الأدب... ولا شك أن هناك مدافعين عن ذلك الوضع يقولون: إن التاريخ يبين لنا مراحل الآداب وأطوارها... ودراسة البيئة تمنينا على دراسة الأدباء وفهم كلامهم... ومعرفة الحالة السياسية تساعدنا على معرفة الحالة الأدبية... ثم تقسيم الدرس باعتبار الانقلابات والدول يساعدنا على التحليل والتعمق، إذ أن لكل عصر ميزة وطابعاً... ولكل دولة تقاليد... والأدب صورة من هذه الميزات والطوابع والتقاليد... وهذا الدفاع لا يعني شيئاً ولا يفيد فائدة، فنحن لا نطلب وضع

حجاب على التاريخ وطمساً لحقائقه .. كلا .. ولا نطلب الاكتفاء بهذا القدر المختصر .. بل نريد التوسع في التاريخ التحليلي ، فهو خير معين على دراسة الأدب كما نطلب فصل المعلومات التاريخية عن كتب الأدب فصلاً تاماً ، فيدرس تاريخ الأدب على أنه مادة مستقلة .

وأما الأدب ، فإنه النصوص الأدبية ، وهي الكنز الباقي لنا من مخلفات السابقين ، لحرام أن تضيع درره في أطلال التاريخ ، وتثر جواهره في الطرق والسراديب ، تطلوها الأقدام وتمر عليها الأعين من الكرام .. إنك حينما تقلب كتاباً من كتب الأدب التي في أيدي الطلاب تأخذك الشفقة ، ويستولى عليك اليأس حينما ترى شجرة الفبائل العريية وتاريخ اللهبجات .. وأمثلة من المجمعية والكسكة والطمطمانية ، ونشأة اللغة .. والخلاف الطويل بين العلماء في هذا الموضوع .. وهكذا . ثم تجد في ذيل الكتاب تنقاً من الشعر وقطعاً من النثر مقتضبة مجتدة ، يحفظها الطلاب للاستشهاد بها عند ترجمة الأدباء . أو يرتلون بها أمام اللجان في الامتحانات الشفوية .. دون فهم ودون بحث عن ماحية الجمال فيها .

هذه جناية خلط التاريخ بالأدب .. وسأعرض عليك الجاية الفنية الأخرى التي تمنعها الدراسة الحالية على تلك الآثار بتقطيع أو صالها ، وتجزئة الأغراض : إلى جاهلية وأموية وعباسية وغير ذلك .

وما اعتقد أن هناك نفعاً ولا فائدة في هذا النوع من الدرس ، لأن عنصر المقارنة والموازنة مفقود .

وسبيل البحث في الأخذ والنقل والسرقة غير ميسرة ، فإن المنهج يفرض في كل عام عصراً من العصور بأدابه القليلة وتاريخه الكثير . فتجد الملهج مشحوناً بالمباحث التي لا تمت إلى الأدب بقراءة ، والمادة الأدبية نفسها ضئيلة ومقصومة الظاهر ، فكأنك تطلع على عضو من جسم ، وذلك تشويه لعرض الأدب ، وإفساد لثمرته المرجوة ، وإملال للناظر فيه ، إذ هو مجبور على مطالعة آثار الجاهليين مثلاً فيرى جزءاً من كل غرض ، فإذا انتقل إلى العصر الثاني نسي العصر الأول واطلع على عضو آخر منه هذا الجسم . فما ينتهي من العصور كلها ، إلا وفي ذهنه صورة

شوهاً غير متناسكة الأجزاء، ولا متشابهة الأطراف، لئلا لم ترسم على الخيلة إلا مبعثرة لا تقل لي: إن أدب كل عصر يكون مجموعة تدرس على حده لأن ما رأيت روضاً من الرياض يطلب منه أن يثبت نوعاً متشابهاً من الأزهار، فقد يجمع الزهر المختلف اللون والعبير والحجم والشكل، ومع ذلك يستمد بهجته من هذا الاختلاف وتطعم النفوس في الأس به لهذا السبب. وهل الآداب إلا إزدهار اللغات تفوح وتنفح وتسر وتبهج؟ نخذ غرضاً كالغزل مثلاً واجمع كل ما قيل فيه منذ أول العصور إلى عصرنا هذا، وادرسه دراسة وافية ووازن بين المعاني المتقاربة، وأرجع الفرع للأصل، وتأمل كل تعبير، وأكشف اللثام عن مناحي الجمال. وأتقن الفكرة واللفظ والمعنى، وأظهر العيب والقص. وخبرني أذلك خير وأجدي، أم دراسة قصيدة من كل غرض. فإشبه الغرض الواحد بالخيوط الممتدة، ولا مانع أن تتعدد ألوان هذا الخيط. فيكون بعضه أحمر والبعض الآخر أصفر؛ لأن جماله في تناسكه وتجانسه وفي جوهره، أما أعراضه فليست حائلاً بمنع من تكملة الصورة واستقلالها. فإذا انتهيت من دراسة هذا الغرض فانتقل إلى غرض آخر لتأخذ عنه فكرة كاملة لا مبهوشة ولا مجزأة، وبذلك يمكننا أن ندرس الأدب دراسة فنية تؤدي بنا إلى الغاية المنشودة، إذ أن الأدب هو ثقة القلوب حينما تهز أوتارها الأشجان، وهو صوت الشعور يناجي به الجمال، وغناء الوجدان تحركه أنفاس الفجر ونغمات الزهر، وهو مع ذلك أنة التاكل ودمنة المحزون، ودم الأعصاب التي عصرها الألم، وشفها العذاب؛ فهو صورة من النفس البشرية تبيّن آلامها وآمالها فلا بد من دراسته دراسة ماقمة مثمرة مفيدة، وذلك لا يتحقق إلا بتخليصه من هذه الشوائب، ودراسة كل غرض كامل دراسة وافية.

فإذا فعلنا ذلك خرجنا أجيالاً أكثر نفماً وأعظم فائدة لا يدورون حول أنفسهم ولا ينتهون حيث بدأوا، بل يتقدمون، ثم يتقدمون؟

[مجلة الأزهر] نشرنا هذا المقال لحضرة كاتبة الفاضل لما رأينا فيه من وجوه تقدر قدرها والمداد في هذا الأمر على ما يتفق عليه آراء المشتغلين به، وعليها نحن أن نعرض الآراء عرضاً غير متعيزين لواحد منها.

رسالة الأستاذ الأكبر

إلى شعوب العالم الاسلامي

هذه الرسالة خير ما يوجه إلى الشعوب
الإسلامية في العالم أجمع في الحالة الحاضرة جمعاً
لصفوفها ، وصوناً لوحدها .

إنتي ، وقد توليت منصبى هذا ، أعد نفسي قد حلت أمانة عالية دقيقة لا شك
أنى مسئول عنها أمام ربى ، وأسأله تعالى أن يبنى من لدته عوناً يسر صعباتها ،
ويذل عتائبها ، إن ربى لطيف لما يشاء ، إنه هو العليم الحكيم .

لقد عشت طول حياتى معنياً بأمر المسلمين ، مفكراً فيما يصلحهم ، ويتقدم
مما تورطوا فيه من الضعف والتخاذل والانحراف عن الصراط السوى في العلم
والعمل ، فوجدت أن لا سبيل إلى ذلك إلا بأمرين :

أولهما : أن يؤمنوا إيماناً عن بينة وبصيرة بأنه لا صلاح لهم إلا بهذا الدين
الذى صلح به أولهم ، وأنهم على حسب ما ينحرفون عن تعاليمه ومبادئه يصابون
في بلادهم وأنفسهم وسائر أحوالهم بالضراء وألوان الشقاء .

وثانيهما : أن يفسوا أحقادهم وميراث عداوتهم الذى أورتهم إياه عوامل
الضعف ، وعهود الذلة والخوف وتسلط الأعداء ، فيعودوا كما تركهم رسول الله
صلى الله عليه وسلم أمة واحدة عزيزة كريمة تشعر بعزتها وكرامتها ، ولا غرض
لها إلا لإعلاء كلمة الله ، ونشر دينه ، والدفاع عن الحق حيثما وجدت
لذلك سبيلاً .

إن المسلمين إذا آمنوا حق الإيمان بالامر الاول ، استقر في قلوبهم حب
دينهم ، وحرصوا على أن يسلكوا سبيله في حياتهم ، وأن يسيروا على خطته

ومنهاجه الشديد في كل شئوهم . فإن الإيمان بشيء ما هو أساس حبه وتوجه الرغبة إليه ، والحب الصادق يملك على صاحبه جوارحه وأعماله كما يملك قلبه وعواطفه ، وعلى هذا الأساس انتصر الإسلام في أوله ، فقد شرى المؤمنون أنفسهم وأموالهم لله ، وكان الله ورسوله أحب إليهم مما سواهما من المال والولد والنعمة والمناع ولولا ذلك ما استقام لهم أمر ولا تمكنوا - وهم القلة الضئيلة الهزيلة المستضعفة - من السيطرة على أكبر الأمم في أقصر زمن عرفه التاريخ لأمة ناشئة ناهضة .

وقد سجل الله تعالى هذه الحقيقة في قوله جل شأنه : « قل إن كان آباؤكم وإخوانكم وأبنائكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فترهبوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين » .

فبين بهذا القول الصريح ، أن أساس الإيمان هو إثارة الله ورسوله على كل ما سواهما بالحجة الخالصة الصادقة ، وأن إثارة شيء عليهما فسق وخروج على أمر الله ، لا يهدي الله أصحابه ، بل يجعلهم في موضع المترص المتوقع للبلاء حتى ينزل به ويأتى عليه .

والمسلمون - مع الأسف الشديد - في هذا الموضع منذ زمن طويل ، فقلنا نجد منهم من يؤثر الله ورسوله على شيء من متاعه العاني ولو كان زهيدا ، ولذلك كانت حالهم هي تلك الحال التي تسر العدو ، وتسوء الصديق .

والسبيل إلى إصلاح هذه الحال ، أن يتعاون أهل العلم والرأى في كل شعب على تعليم المسلمين دينهم تعليما نافعا ، وأن يظهروهم على مافي الدين من محاسن ، ويضعوهم بما يكفله لأهله من سعادة وقوة ، وينفخوا عنهم ما أدخل عليهم من خرافات وأوهام ، كان الركون إليها سبب ضعفهم واستكانتهم .

ولا شك أن على الأزهر في ذلك أكبر قسط ، فإنه الجامعة الدينية التي تهوى إليها أفئدة المسلمين من كل صوب ، والتي تضم طلابا من مختلف أجناسهم نفروا إليها ليتفهموا في الدين ، ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم . وقد أخذت على عاتق وشرعت - والله المستعان - في توجيه هذه الجامعة الكبرى الى ذلك توجيهها عمليا صالحا ، أرجو أن يكون مبارك اثرات على الإسلام والمسلمين إن شاء الله .

وسوف لا أدخر وسعا في إمداد المسلمين داخل الأزهر وخارجه بعلماء صالحين مصلحين يكونون رسل الثقافة الإسلامية الصحيحة حينما حلوا ، وأساة الأرواح والقلوب أينما سلكوا ، حتى تربي أمة جديدة شبيهة بالامة الأولى التي فتح الله بها مشارق الأرض ومقاريها .

وإذا كنت أعلن ما اعترزته وبدأنه في ذلك ، وأدعو إليه أبائي الأزهريين أن يأخذوه بقوة فاني أدعو كذلك سائر أهل العلم في مختلف الشعوب والطوائف الإسلامية أن يقوموا بما عليهم في ذلك ، وأن يبثوا الدعوة للدين والعلم به في أقطارهم ويبحثوا على الأخذ بها أبناء وطنهم ، حتى يكون الإصلاح عاما ، والتوجيه كاملا .

أما الأمر الثاني ، وهو أمر الاتحاد واتلاف القلوب ، والنفض عن كل ما يثير الاحتاد ، وينسكا الجروح ، فذلك أمر له فائدته الكبرى في التمجيل بالقضاء على الضعف ، والتفرغ لما ينفع المسلمين ويصلح شأنهم .

إن مثل المسلمين ، إذا احتفظوا بخلافاتهم ، وأنصتوا لداعى الفرقة والنقطعة ، كمثل شعب قامت فيه حرب أهلية طاحنة ، فهي تشغل أبناءه . وتستنفد قواهم ، وتضيع جهودهم ، وتلبيهم عن إصلاح أحوالهم ، وتقويم معوجهم ، وتعين عليهم أعداؤهم ، وتكون سببا دائما في افعال كواهلهم بما لا يحتملون من الأعباء ، وفي لباسهم لباس الذل والخوف والشقاء .

لقد ألحمت هذه الحروب الأهلية الضروس على الأمة الإسلامية منذ قرون ، فقطعت ذات بينها ، وأفسدت كثيرا من خطط الإصلاح على واضعيها والداعين إليها ، وما علت حربا كهذه نيرانها حامية ، وأسبابها واهية .

فليتدبر المسلمون موقفهم ، ولا سيما في هذا الوقت العصيب ، الذى ففرت فيه المطاعم أفواها لابتلاعهم ، والذى أصبحت القوة فيه والتسكتل هى لغة التحاطب السائدة ، وأسلوب التفاهم المفيد . وليسوا ما بينهم من الخلافات التي أوهتهم ، وثبطت من عزائمهم . وليقفروا صفاء واحدا لإتقاد أنفسهم ودينهم . بل لإتقاد العالم من المطاعم الفاسدة ، والمبادئ الخطرة . فإنهم أهل فكرة ، ووارثو رسالة ، وإن الله سألهم عما أورشهم .

إنى لأعلم أن أحسن ما تطفأ به هذه الحرب الأهلية التى ظلت مستعرة بين المسلمين قروناً طويلة ، هو التفاهم . وأن يدرك كل شعب ما عند الآخر . ويومئذ يظهر للجميع أن أمة الإسلام متفاهمة على كل ما يكون به المسلم مسلماً ، وأن ما وراء ذلك لا يضر بالدين . ولا ينبغي أن يكون سبباً فى قطع جبل الأخوة والاتلاف . وسأنظر إن شاء الله تعالى فى كل ما يعين المسلمين على إدراك هذه الحقيقة ، والعمل بمقتضاها . وإن رسالة جماعة التقريب فى ذلك لتلتقى مع رسالة الأزهر ، الذى يرى حقاً عليه أن يبصر الأمة الإسلامية بأمرها ، ويرشدها إلى ما يجب أن يقوم عليه شأنها من المودة والتراحم والآلفة ، وتبادل العلم والمعرفة .

أسأل الله أن يهيئ للمسلمين من أمرهم رشداً ، وأن يوفق قادتهم وزعماءهم إلى النجاة بهم من العواصف والانواء إنه سميع مجيب .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَيْسَ مِنْ هَيْئَانِ بَلْ

« المفلون النافعون »

شغل الأستاذ خالد محمد مؤلف كتاب (من هنا بدأ) عشر صفحات منه تحت عنوان (المفلون النافعون) وقصد بهم الذين يدعون الأمة إلى طريق قد انحرفوا عنه ، أو إلى إصلاح قد خرجوا به عن حقيقته ، وعلل تسميته إياهم بالنافعين بأنهم ينفعون أعداء الأمة ، فقال :

« فالعالم الذي ينحرف بالدين عن غايته التي هي إنهاض البشرية ، وتوفير الحياة لها ، مغفل نافع للزندقة والإلحاد والاستعمار . والرجعي الذي يعمل على تعويق التطور والحضارة ، ويعمل على أن تبقى النظم الاجتماعية والاقتصادية والثقافية في الشعب ، كالمومياء المخطئة ، لا تدب فيها الحياة ، ولا يجرى في عروقها دم جديد ، مغفل نافع للاستعمار والجهل .

إلى أن قال : « ولكن شرسب في سلالة المفلين النافعين ، وأبعدهم أثراً في مصير الأمة ومستقبلها ، أولئك المبشرون بالروحانية ، والداعون لها ، فلتحدث إذن عن هذه الروحانية ، هذه البدعة التي تطل علينا بوجها الضامر كلما أذن يتنا مؤذن : حي على الحياة .. وأود أن يكون مفهوماً ، إنا لا نسوق الحديث عن هؤلاء سخرية وتفكهاً ، وإنما هم وباء ، يزيد أن تلفت الأنظار إلى مكافئته ، وتطهير البيئة منه . فإن هذه الفكرة البلهاء ، التي تزعم أن الروحانية هي علاج الشرق الرقائي ، وأن المادية ستفسدنا كما أفستت الغرب ، وأن الروحانية شيء مستقل بذاته ، وليست أثراً من آثار المادية المنظمة ، المنعمة بالرغد والرفاهية . هذه الفكرة الساذجة تجد لها أنصاراً كثيرين ، وتتخذ حتى بعض الذين كان يظن أن لهم من ثقافتهم وعقولهم حاصماً . »

يقول مؤلفنا إن القول بأن الروحانية شيء مستقل بذاته ، وأن المادية ستفسدنا كما أفستت الغرب ، فكرة بلاء فقد أثبت العلم بتجاربه التي لا ريب فيها ، أن

أخلاق الإنسان ليست شيئاً بعيداً عن ذاته ، وتركيبه وأجهزته ، وليست شيئاً يناله صاحبه بدعوة صالحة ، أو موعظة رقيقة ، وليست شيئاً يهبط من السماء ، فيصيب أقواماً ويخطئ آخرين ، وما السلوك البشري كله . خيره وشره ، صالحه وفاسده ، ألا وليد حالتنا الصحية ، وحالتنا العقلية . .

يقول الأستاذ أن من البلاهة القول بأن الروحانية شيء مستقل بذاته وليست أثراً من آثار المادية المنظمة ، وأنها فكرة ساذجة وجدت أنصاراً كثيرين !

نقول نعم وجدت أنصاراً كثيرين في الرعيل الأول منهم الأنبياء والمرسلون ، ويليهم الفلاسفة الأولون ثم الحكماء الإسلاميون ، ثم خلفاؤهم الأوربيون تفص بهم جامعاتهم ، وأنديتهم ووراءهم جميع عقلاء الأمم في جميع أقطار العالم ؛ وأنه ليصعب على الإنسان أن يتصور أن جميع هذه العقول تستوحيها فكرة بلهاء ، وأولى بالعاقل وخاصة إذا كان قريب عهد بالعلم والفلسفة أن يتهم نفسه بالبله قبل أن يتهم هؤلاء الأساطين به . وهل مما يفهم قول الأستاذ بأن الروحانية أثر من آثار المادية المنظمة ، المفعمة بالرغد والرفاهية ؟

إن الروحانية عميدة أولية يصادفها الإنسان عند أحط التباثل المتوحشة التي لا تحصل على غداثها إلا ما تنبت الأرض من أعشاب ، وما تصيده هي من بعض الحيوانات ، وما يلقه إليها البحر من جثث الأسماك الكبيرة الميتة ، وهم أشد تمسكاً بالاعتقاد في الروحانية من سكان القصور المشيدة المحاطة بالحدائق الغناء ؛ فأية مادية منظمة ولدت لهم فكرة الروحانية وغرستها في قلوبهم إلى الحد الذي هم عليه ؟ وأى رغد من العيش ورفاهية من الحياة لديهم توصلهم إلى هذه التخيلات الراقية من العتائد المجردة ؟

وهل من الحكمة أن عميدة يتخيل أنها خدعت العالم كله وعالمه وجاهله ، متمدنه ومتوحشه ، عشرات لا تحصى من القرون تعامل هذه المعاملة من الاحتقار ، وتمحي من سجل الحقائق بحجرة قلم في رسالة كتبت لتؤثر في العقول ، وتفتح طريقاً إلى عهد جديد ؟ ثم قال :

« فالمتجمع المتمتع بعافية اقتصادية ، هو الذي تزدهر فيه العضائل ، أما المجتمع السفبان المضنى ، فلا وجود فيه للفضيلة ، ولا للروح . إن الرخاء هو الجهاز ، وهو الغدد ، وهو الخلايا التي تحيا بها الشعوب » .

نقول هذا كلام أشبه بالثر الشعرى منه بالتحقيق العلى ، والمشاهد المحسوس

من حالات الناس غير هذا ، قال الذى لا يجد ما يكفيه الحاجات الاولى لا يتوسع في الموبقات إلا بقدر محدود ، خلافاً « للمتبعين بعافية اقتصادية » . فانهم يفرقون الى أعتاقهم ، ولا يزالون بسبب احتقارهم لمن دونهم أن يكونوا أمثلة سوء لغيرهم . وكل الجماعات التي جاهدت لترقية الأوضاع الحكومية والاجتماعية كانت من طبقة العتراء تحت زعامة رجال من درجتهم . ناهيك أن الذين يادروا الى قبول هداية الأنبياء ، ووقفوا نفوسهم على نصرتهم كانوا من هذه الطبقة ، على حين أن الذين كانوا يتمتعون « بالعافية الاقتصادية » كانوا يعملون على إبطال هذه العنايةات الإصلاحية بكل الوسائل الإفسادية .

وهل ينسى أحد أن السواد الأعظم من مكتشفي أسرار العلوم ، ومخترعي أنفع الآلات والأدوات ، كانوا ولا يزالون من المحرومين من الأموال الذين يكادون لا يجدون ما يكفهم من مقومات الحياة ؟

يقول الأستاذ : « إن الكلمة الأخيرة التي سنقولها للشعب دائماً هي أن طاقته الروحية وليدة طاقته الاقتصادية ، وأنه ما لم تطاوعه الفرص ، ويحي في غير حرج ولا فاقة ، فلن تكون له روح » .

ويقول : « هكذا نقول ، وبه تؤمن ... ولكن الطريق إلى هذا الإشراق الروحي ، وإلى السكينة الاجتماعية ، والمضائل النبيلة : ما هو ؟ أما في رأينا فهو الرخاء الاقتصادي الشامل ، ثم بعد ذلك أو معه ، التربية النظيفة الباعثة . وما لم تتغير (أوضاعنا السياسية وتترق) فبهات أن يتحدد قلب المجتمع ، أو تطهر طبيعته ... ثم قال : « إن الروحانية التي ندعو إليها لا تبدأ من نفسها بل هي تبدأ من المعدة الممتلئة فاذكروا هذا جيداً ؟ »

نقول : ذكرناه جيداً كما أراد المؤلف ، ولكنه ليس بحق ، فأما منا جميع صاغة الأمر من رسل وطلاب ملك ، فما قالها منهم واحد ، بل قال خاتم المرسلين محمد بن عبد الله وهو صانع أعظم أمة ظهرت في الأرض : « حسب أحدكم من الطعام لقيات يقمن صلبة » .

ويقول الأستاذ خالد : « إن من البله الزعم بأن الروحانية شيء مستقل بذاته ، وأن المادية تستمدنا كما أمدت الغرب ، وأن العلم قد أثبت أن أخلاق الإنسان ليست شيئاً بعيداً عن ذاته وتركيبه ، فليس السلوك البشري كله إلا وليد حالتنا الصحية وحالتنا العقلية » .

ونحن نقول : لو كان الأمر كما يقرره الأستاذ . لكان كل صحيح الجسم سليم العقل على أكمل ما يكون من سمو الأخلاق ، ولكن قد يكون المشاهد المحسوس غير ذلك ، فكم من صحيح الجسم عبقري العقل ، وهو على أحسن ما يشاهد من انحناءات الأخلاق ؛ وكم من سقيم الجسم محدود العقل ، وهو على أرقى ما تتخيل من سمو الخلال ، وكرم الطباع . وبين ذلك حالات شتى يحار فيها الفكر ، ويعجز عن تعليلها العلم ، ذهب فيها العلماء مذاهب متضاربة .

ذلك لأن الروحية مستقلة عن الجسم ، لا تمت إليه بسبب ، كيف لا وهي من طبيعة أرقى من طبيعة المادة فلا ينطبق عليها ما ينطبق على هذه . وقد لفتت مسألة وجود الروح بعد اكتشاف التنويم المغناطيسى منذ قرن أنظار العلماء فأما بوجودها مستقلة عن الجسم ، وزاد عديدهم في جميع البلاد المتقدمة ، وألف الباحثون في ذلك مئات من الكتب ، وأنشئ لمتابعة البحث فيها ، ونشر أدلة وجودها بالأساليب الحسية الجديدة مئات أخرى من المجلات ، ومنها ما مضى عليه قرابة قرن من الزمان . فلا يجوز جهل أو تجاهل كل هذا الانقلاب ، وخاصة للتنسبين إلى الدين ، وإصلاح النفوس . فإن هذا الإغفال فضلا عن أنه يوم القارىء بأن المؤلف لم يصل إليه خبر عن هذه الثورة العلمية الكبرى ، أو أنه يتجاهلها ترويحاً لمبدأ المذهب المادى ، وكلا الأمرين شائنان لمن يتصدى لمفاجأة الجماهير بمثل ما يذهب إليه في أخص ما يتعلق بالحياة الإنسانية .

ولكن الأستاذ خالد يفهم من كلمة الروحية شيئاً غير العقيدة وهو السلام والإحباء والمحبة التي يفيضها على الإنسان تيسر العيش ، وهدوء النفس ، وما يحيط به من أمن وطمانينة ، على النحو الذى تكون عليه الحال في الجماعات النشطة الحرة ، وهو فهم لم يسبق إليه ، ولن ينازعه أحد فيه ، لا لأنه صادم محله ، ولكن لأن المقام لا يسمح بإضاعة الوقت في الصغريات اللفظية .

ولسكن الذى يهم القارىء أن يدركه هو الغرض الحامل للأستاذ على التوصل بكل هذه المقدمات للوصول إليه ، وقد أحفينا في البحث عنه فوجدناه مكتباً به ، ثابراً في أطوار قوله : « أما في رأينا فهو الرخاء الاقتصادى الشامل ، ثم بعد ذلك أو معه ، الترية النطقية الباعثة . وما لم تتغير (أوضاعنا الاقتصادية وتترك) فهيئات أن يتجدد قلب المجتمع ، أو تطهر طبيعته » .

فتبين أن الأستاذ يرى بعد كل ما ذكره إلى وجوب تغيير (أوضاعنا الاقتصادية) ولم يزد، وبدلاً من أن يسرع بشرح ما أجل، أخذ يحول بالفتارى، وهو يتلف على معرفة النتيجة، في شئون شتى من مساوىء السكينة في مختلف العصور، وما جتته على الإنسانية من تعطيل تطورها، ومن معاملتها بخالفها بالعسف والاضطهاد، ومن توسلها بالمسجد والمنبر لتقويض المجتمع. و توسع في اتهامها بكل ما يصيب الناس من شر، وتتل في ذلك ما أثر من أعمالها في العالم الغربي من تعطيل كل المحاولات التي بذلت لترقية الجماعات، أليس كان يجب عليه بدل كل هذا، وقد استوعب ثلاثة وعشرين صفحة، أن يسرع بالفتارى إلى شرح ما أجمله في عبارة (تغيير الأوضاع الاقتصادية) التي ظهر أنه يقصد بها إبطال الرأسمالية الفردية، أى إبطال أن يكون لأحد رأس مال خاص، وأن يكون مال الأمة كله تحت يد الحكومة يشترك جميع الأفراد في الانتفاع به تحت إشرافها.

وهنا أخطأ الأستاذ خطأ كبيراً حين ظن أن حكومة العمال في إنجلترا ألغت الرأسمالية الفردية فقد قال :

« إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » ولا بد أن يكون هذا هو الذى حدث، وإن السياسة التي سلكتها حكومة العمال لتشهد بذلك. فلقد ورثت من المحافظين مجتمعاً تشيع فيه البطالة والفوضى، وتنبعت أسباب ذلك فوجدتها تكن في (الرأسمالية الفردية) التي تسخر كل امكانيات المجتمع لمطامعها، ولم تفكر حكومة العمال طويلاً، وقررت (فوراً) الانتقال بالمجتمع الانجليزي - لأول مرة في تاريخه - من اليمين المتطرف إلى اليسار المعتدل، أى من الرأسمالية السكوند الجشعة إلى الاشتراكية المعتدلة المتسامحة، ولم نعد نسمع صيحات الجوع التي أزعجت بريطانيا العالم بها عقيب النصر، كما لم نعد نقرأ عن مهاجمة الشعب للمهارات ومصالح الحكومة واحتلالها لينام فيها ويسكنها، لأن النظام الاشتراكي التي طبقت بعض مبادئه استطاع أن يجد للجائعين زبداً، وللشردين مأوىً .

ثم هل إن حكومة العمال لم تلغ الرأسمالية الفردية، ولو فعلت لاضطربت أسواق العالم كله، وكان له صدى لا يسكن حتى تنظم العلاقات التجارية بين إنجلترا والبلاد التي تعاملها وليس ذلك بالأمر الهين، بل هو حادث اجتماعي يشعر بأثره جميع الناس حتى البعيدون منهم عن التجارة. فهل أحس أحد بشيء من ذلك هنا ونحن من أخص

المتعاملين معها وخاصة في محمولاتنا القطنية . وكل الذى حدث أن حكومة العمال أمت بعض الصناعات المعدنية ، أى جعلتها تابعة للحكومة دون الأفراد ، ولو كان مكانهم المحافظون لأموها كما فعلوا لأن المصالح العامة تقتضى ذلك .

أما (الرأسمالية الفردية) ففى لا تزال أساس النظام المال فى إنجلترا وليس لها من خصوم غير حفنة من الشعب الإنجليزى تمدهوا بالشيوعية منذ سنين ، كان يملهم عضوان سقط أحدهما فى الانتخابات التى حرت منذ نحو خمس سنين ثم سقط الثانى فى الانتخابات التى تلتها ؛ فخلا المجلس من أنصار الشيوعية ، ولم يبق غير حزب العمال ، وهو ليس بشيوعى بل ولا باشتراكي تام الاشتراكية . فهو اشتراكي من ناحية النزاع بين قيمة العمل ورأس المال ، ولكنه كغيره من سائر الأحزاب يقر الوراثة والملكية الفردية .

أما حزب العمال فلم يأت به للحكم الأميل الشعب الإنجليزى لحكومة تمثل الطبقات الفقيرة ، لشعوره بأن الحالة الاقتصادية بعد الحرب تستدعى وجود حكومة تعطف على تلك الطبقات لمعالجة الغلاء من جهة ، وتدارك حاجة العمال بزيادة أجورهم من جهة أخرى . والشعب الإنجليزى شعب حكيم ، ليس كغيره من الشعوب يشرب طبقاته تناكر ، ولكنه شعب متعاطف الطبقات يحس بعضها بحاجات بعض وتعمل على توفيتها ، اعتقادا من الجميع بأن القلق الاجتماعى لا يقتصر على ناحية دون أخرى ، ولكنه يعمها جميعا ؛ وهو لم يصل الى هذه الدرجة من الآداب الاجتماعية عفوا ، ولكن بعد أن ذاق مرارة ذلك القلق الاجتماعى فى أدوار شتى . فالامر الذى نعجب منه ظن الأستاذ المؤلف أن المبالغة فى تعظيم مبدأ من المبادئ ، وتجاوز الحدود فى بيان آثاره ، يفرى الناس على الأخذ به دون أن تعدم الحوادث لقوله ؛ وهو خطأ كبير ، لأن الامم فى سيرها نحو المثل الأعلى من الاجتماع تمر بأدوار شتى لها شئون خاصة لو استبدلت بها أرق منها عالم يدفعها التطور الطبيعى اليه ، لم تستفد منه شيئا ، بل قد يفسد عليها ما هى فيه من النظام النسبى . وعليه فإن سوق المبادئ والأصول سوق البضائع ، وعرضها عرض السلع دون أن تدعو إليها ضرورة حيوية ، أو تطور جديد ، فليس من الحكمة فى شيء ؟

دِفَاعٌ عَنِ النَّعْصِبِ

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد محمد المدني

الناس يكرهون التعصب ، ويصفون المتعصبين بضيق الأفق ، ويمسسون تقدم الأمة فكرياً بمقياس يرجع إليه ، فإذا كانت الأمة متعصبة شديدة التمسك بمبدأ أو فكرة معينة في العلم أو العقيدة دل ذلك على أنها لم تزل ذات عقلية « بدائية » ، وأنها تعيش في طرف من الحياة وحدها منعزلة عن روح التجدد التي طبع الله عليها العالم ، وجعلها سنة الدنيا ، أما إذا كانت الأمة أو الجماعة متسامحة متقبلة للأفكار والآراء دون تشدد أو ترمت ، فانهم يصفونها بأنها أمة أو جماعة راشدة صالحة للحياة .

وإطلاق القول على هذا النحو مجافاة للصواب ، وذلك أن التعصب للآراء والمذاهب الفكرية إما أن يكون نتيجة الإيمان العميق بها بعد تأملها وإدراكها إدراكاً صحيحاً ، وإما أن يكون نتيجة تقليد وأخذ دون فهم وإدراك لما انبنى عليه الرأي ، أو نظر إليه القائل به .

فالأول محمود ، بل هو واجب ، بل هو قضية العقل ، ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن صاحباً لا يستطيع أن يتفك عنه ، أو يتخلى عن لوائمه ، فإن المعارف التي يصل إليها الإنسان بالنظر والفكر إما أن تكون متعينة في نظره فيكون القول بها واجباً عقلياً لا مناص منه ، وإما أن تكون راجحة وغيرها مرجوح فلا يحلو أمر الناظر فيها إما أن يأخذ بالراجح ويترك المرجوح أو يأخذ بالمرجوح ويترك الراجح ، ولا شك أن العمل يتقضى بالأول دون الثاني .

ولهذا تعتبر القاعدة القائلة « مذهبنا صواب يحتمل الخطأ ومذهب غيرنا خطأ » يحتمل الصواب « قاعدة منصفة عادلة إذا صدرت من مجتهد ذي قوة تفكيرية ، يتحدث عن مذهب وصل إليه بطريق النظر وإعمال الفكر والاستنباط .

منصفة لأن القائل بها أنصف نفسه ، وأنصف غيره ، فأما إنصافه لنفسه فإنه لا يسمعه وقد رأى ما رأى بعد النظر والتأمل أن ينحاز إلى غيره ، ويناقض نفسه ، فهو متعصب لما رأى عن دليل وبرهان ونظر ، فلا لوم عليه في تعصبه وإنما يلام على تسامحه لو فعل ، لأنه مطالب بتكريم عقله ، وألا يتأفق في حكمه . وأما إنصافه لغيره مع تعصبه لنفسه فلأنه احتاط في حكمه فقال : قد أكون غلطاً برؤيتي غير الحق حقاً ، لقصور في لم أثبتته ، أو لتقصير لم أقصده ، وقد يكون غيري تبين ما غاب عني ، وعرف ما لم أعرف .

وهذا هو المعنى الذي حمل مالك بن أنس على أن يرفض ما عرضه عليه أبو جعفر المنصور من حمل الناس على ما في الموطأ ، فمالك رضي الله عنه معتد بالموطأ ، مطمئن إلى ما فيه ، ولكنه ينصف غيره كما ينصف نفسه ، ويترك الفرصة للآراء والمذاهب فلمل شيئاً قد وصل إليه فيه ضعف لم يتيقنه ، ولعل شيئاً قد وصل إلى غيره يبدل حكماً حكم به .

أما الثاني ، وهو التعصب الذي يكون نتيجة ميراث وتقليد فهو مذموم ، لأن صاحبه متجاوز حقه ، خارج عن طوره ، إذ معنى تعصبه أنه يرى كذا هو الحق بعينه ، وأن غيره هو الباطل ، مع أنه لم يتصور الأمر تصوراً يمكنه من الحكم .

ولهذا تعتبر القاعدة التي أسلفناها غير منصفة إذا صدرت من مقلد : لم ينصف فيها نفسه فيقف عند حده ، ويعرف قدره ، ولم ينصف فيها غيره ، بل حكم في الأمرين بما لم يعرف ، وقضيه الإنصاف أن يكون الأمرين لديه سواء .

ولو أردنا توضيحاً لذلك لقلنا الأمر برجل أعمى معه ثوب فقال له أحد الناس هذا الثوب أبيض ، وقال له آخر هو أحمر ، وهو غير مستطيع أن يحكم بصحة هذا القول أو ذاك لأنه فاقد وسيلة الحكم وهي البصر .

نعم قد يثق بأحدهما ثقة خاصة ، فيقدر حكمه ، ويرجحه على حكم الآخر ، وهذا هو ما يعتمد عليه المقلدون للذاهب إذ يثقون بأئمتهم ما لا يثقون بغيرهم ، كما يثق هذا الأعمى بأن فلانا هو الصادق بعينه .

ولكن هناك فارقاً : ذلك أن الأئمة الذين يتردد العامة بينهم كلهم موثوق بهم ، وإلا لما قلدهم المثلد ، وهم يختلفون في درجة الفهم أو طريقتهم ، والمقلد لا يستطيع

أن يحكم ، هل طريقة هذا في النظر أو درجة فهمه هي المثلّى أو الأقوى ، لأن هذا أيضاً نظر ، وهو غير قادر عليه ، فأقصى ما يرضه أن يقول سمعت كثيراً من أهل القدرة أو الشهرة يقررون أن فلاناً مبرز في فهمه ، دقيق في نظره ، وهذا تقليد في التقليد .

هذان هما نوعا التعصب بمدوحة ومذمومة ، والمتعصب من النوع الأول يسهل إقناعه وإرجاعه إلى مذهب غيره بالدلائل والبرهان ، لأنه لم يتعصب إلا لما أدرك وفهم ، فإذا أدرك ما يحوله ويغير فهمه قبله ورجع إليه ، لأنه متصف بعلم أن الرجوع إلى الحق خير من التنادى في الباطل .

أما المتعصب من النوع الثاني فلا سبيل إلى التفاهم معه ، لأنه لم يعتقد ما اعتنق عن دليل فيرجعه الدليل ، وإنما اعتنقه ثقة بقائله ، فهو لا يكف عنه ما دامت هذه الثقة قائمة في نفسه .



وفقدان التعصب يكون في حالتين :

الحالة الأولى : فقدان حرارة الإيمان بالرأى للانصراف عن موضوعه ، والاشتغال به بغيره ظاهراً أو باطناً ، فالاقتصاديون وأهل السياسة وأماهم من المشتغلين بأمور الدنيا ، لا يعينهم أمر الفقه أو الآراء الكلامية مثلاً ، فتراهم لا يكثرثون بهذا الشأن ، ولا يتعصبون لرأى من الآراء فيه ، ولو كانوا من أرق الناس عتولاً ، وأدقهم فهماً وإدراكاً ، وذلك لأنهم لا يجدون في أنفسهم رغبة في دراية هذه الموضوعات ، فقد انصرفوا عنها إلى غيرها انصرافاً ظاهراً ، وقد يكون الانصراف باطناً غير ظاهر ، كما نراه في محترفي العلم والتدين ، فظاهر أمرهم أنهم متحمسون للحقيقة في أمثال هذه القضايا ، لمغيرة عليها ، وعناية بها ، والواقع أنهم عن ذلك مشغولون بأنفسهم وأموالهم وأحوالهم ، فهم لا يقيمون وزناً لما يشتغلون به ظاهراً ، ولا يتحمسون لهذا الرأى أو ذاك مع علمهم بوجهة الحق ، فتراهم يتظاهرون بأنهم تاركون للتعصب ، مترفعون عن التزمّت والتشدد ، واهل يعلم أنهم عن الحق لمشتغلون .

وهذا أخطر ما تصاب به أمة في علانياتها وأصحاب الرأي فيها ، وقد عبرنا عنهم بالمخترفين ، لأن الظروف قضت عليهم وعلى الناس أن يكون أهل شأن من الشئون ، بينما هم لا يتصدون إلا عايتهم وما يبتغون من عرض الدنيا ، متخذين ما هم فيه شعاراً يخفى حقيقتهم .

الحالة الثانية : حالة الجاهلين بشيء فهم لا يعرفون منه قليلا ولا كثيرا ، وليس لهم قدرة على تتبع أصوله وأساسه التي أقيم عليها ، فهم لذلك لا يتعصبون له ، ولا يشتركون في بصرة طائفة على طائفة في شأنه ، وقد أنصفوا أنفسهم ؛ وكانوا منطقيين مع قصورهم وعدم استعدادهم ، فسكتوا عما لا يعلمون ، وكفوا عما لا يحسنون .

• • •

من هذا يتبين أن التعصب ليس كله مذموما ، وأن التسامح ليس دائما أمانة على الرق الفكرى واتساع الأفق العلى . والله المستعان ؟

من طرف الأدب

قال دعل في طاهر بن الحسين :

أيا ذا اليمينين والدعوتين	ومن عنده العرف والرائل
أترضى لثلى فنى أن يتم	يبابك مطرح خامل
رضيت من الود والعائدات	ومن كل ما أمل الآمل
بتسليمه بين خمس وست	إذا صمك المجلس الحافل
وما كنت أوضى بدا من سواك	أيرضى بدا رجل عاقل
وإن ناب شغل فنى دون ما	تدبره شغل شاغل
عليك السلام فإنى امرؤ	إذا ضاق بى طرد راحل

أول القرآن نزلوا وآخره

لفضيلة الاستاذ الشيخ فكري ياسين

أخرج الحاكم في المستدرک ، والبيهقي في الدلائل ، وصحاحه عن عائشة رضی الله عنها قالت : أول ما نزل من القرآن : « اقرأ باسم ربك » الآيات .
وأخرج النسائي وابن أبي حاتم : أن آخر ما نزل من القرآن : « واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله » الآية .

استغرقت المدة التي نزل فيها القرآن الكريم على النبي صلى الله عليه وسلم نحواً من ثلاث وعشرين سنة ، فقد بعث عليه السلام ، وهو ابن أربعين سنة ، وأقام بمكة بعد البعثة ما يقرب من ثلاث عشرة سنة ، وأقام بالمدينة بعد الهجرة بلا خلاف عشر سنين ، وتوفي وله من العمر ثلاث وستون سنة ، كما اتفق على ذلك جمهور المؤرخين من السلف والخلف ، وما جاء في بعض الروايات مخالفاً لهذا ، فإنه مبني على عادة العرب في إلغاء الكسر ، والاكتفاء بذكر العدد الصحيح .

وأثبت الأقوال وأصحها وأشهرها أن أول ما نزل من القرآن إطلاقاً هو صدر سورة « اقرأ باسم ربك » إلى قوله سبحانه : « علم الإنسان ما لم يعلم » ، ويدل على هذا الحديث الذي معنا ، وحديث الصحيحين في بدء الوحي : أول ما بدى به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصالحة ، الحديث ، وحديث الطبراني عن أبي رجاء العطاردي قال : « كان أبو موسى يترنماً فيجلسنا حلقاً ، وعليه ثوبان أبيضان ، فإذا تلا هذه السورة : اقرأ باسم ربك الذي خلق » ، قال : هذه أول سورة نزلت على محمد صلى الله عليه وسلم ، وكثير غير ذلك من الآثار والأخبار .

وأما القول بأن أول ما نزل من القرآن إطلاقاً هو : « يا أيها المدثر » والاستدلال له بحديث جابر بن عبد الله ، وقد سئل عن أي القرآن أنزل قبل ؟ فقال : « يا أيها المدثر » فيمكن تأويله بأن سؤال جابر إنما كان عن أول سورة كاملة نزلت من القرآن بعد فترة الوحي ، فبين أنها سورة المدثر نزلت بكاملها قبل نزول تمام سورة اقرأ فإن أول ما نزل من القرآن صدرها ، ويؤيد هذا ما جاء في الصحيحين عن جابر نفسه ، وقد سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يتحدث عن فترة الوحي ، ويقول : « فاذا الملك الذي جاءني بحراء » ، فإن هذا يدل على أن هذه القصة متأخرة عن قصة حراء التي نزل فيها : « اقرأ باسم ربك » ، أو يمكن تأويله بأن جابراً استند في إجابته على اجتهاد منه ، لاعلى نص وارد في ذلك ، فتقدم عليه الروايات السابقة ، لأن النص متقدم على الاجتهاد .

وكذلك القول بأن أول ما نزل من القرآن إطلاقاً هو سورة الفاتحة ، والاحتجاج له بما أخرجه البيهقي في الدلائل من أن الملك ناداه : يا محمد ، قل : « بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين » حتى بلغ « ولا الضالين » يمكن رده بأن هذا الحديث مرسل ستمط منه الصحابي ، فلا يتولى على معارضة الحديث المرفوع ، كحديث عائشة في بدء الوحي وغيره ، ويحتمل أن يكون حديث البيهقي المذكور خبراً عن نزول الفاتحة بعد نزول اقرأ والمدثر ، وبعد مجيئه إلى ورقة بن نوفل ، وتحديثه له بما سمعه غير مرة من نداء خلفه ، وبمشورة ورقة عليه أن يثبت ضد ذلك النداء حتى يعي ما يليق إليه .

وأما القول بأن البسملة هي أول ما نزل من القرآن إطلاقاً ، فذلك قول لا يصلح أن يكون مستقلاً برأسه ، لأن البسملة ، كانت تنزل في أول كل سورة ، فهي قد نزلت مع صدر سورة اقرأ ، ومع غيرها من السور ، فلا يستقيم انفراها بالاولية في النزول ، بل يشاركها في ذلك صدر سورة اقرأ .

وقد أراد البعض أن يجمع بين هذه الأقوال فقال : إن أول ما نزل من الآيات : « اقرأ باسم ربك » ، وأول ما نزل من أوامر التبليغ : « يا أيها المدثر » ، وأول ما نزل من السور سورة الفاتحة .

وهناك بعض أوائل مخصوصة ، نذكر لك طرفاً منها :

فأول سورة أعلنها رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة : النجم ، وحكى البعض الاتفاق على أن أول سورة نزلت بالمدينة : البقرة ، وقيل : سورة المطففين ، وقيل : سورة القدر ، وأول ما نزل في الأطلعة بمكة آية الأنعام : « قل لا أجد فيها أوحى إلى محرماً » ، وبالمدينة آية البقرة : « إنما حرم عليكم المبتة » ، وأول سورة نزلت فيها بحجة البهم ، وأول آية نزلت في الحز : « يسألونك عن الخمر والميسر ، قل فيها إثم كبير ، ومضاع للناس » ، وأول آية نزلت في القتال : « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا » ، وقيل آية : « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم » ، وقيل آية : « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم » .

° ° °

كثر الاختلاف حول آخر ما نزل من القرآن الكريم ، وتعددت الأقوال في ذلك ، ولم يرد أثر مرفوع إلى النبي صلى الله عليه وسلم يمكن أن يكون هو الفصل في هذا الشأن ، والأمر في الواقع لا يعدو أن يكون إلا كما صورته القاضي أبو بكر حيث يقول في الانتصار : « هذه الأقوال ليس فيها شيء مرفوع إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، وكلٌّ قال بضرب من الاجتهاد ، وغلبة الظن ، ويحتمل أن كلاً منهم أخبر عن آخر ما سمعه من النبي صلى الله عليه وسلم في اليوم الذي مات فيه ، أو قبل مرضه بقليل ، وغيره سمع منه بعد ذلك ، وإن لم يسمعه هو » .

ولكن الذي تدل عليه الشواهد الكثيرة ، والروايات المتعددة والنرائن المختلفة أن آخر ما نزل من القرآن إطلافاً هو قوله تعالى في سورة البقرة : « واتوا يوماً يرجعون فيه إلى الله ، ثم توفى كل نفس ما كسبت ، وهم لا يظلمون » ، فقد تكررت الآثار في ذلك ، واشتمل بعضها على ما يؤكد ويقويه كقول ابن أبي حاتم عتب روايته السابقة : وعاش النبي صلى الله عليه وسلم بعد نزولها تسع ليال ، ثم مات لليلتين خلتا من ربيع الأول ، فهذا يؤيد أن هذه الآية كانت آخر قرآن نزل ، فضلاً عما تضمنته الآية نفسها من الدلالة على قرب الرجوع

إلى الله ، واستيفاء الجزاء العادل في الدار الآخرة ، ومن الإشارة بذلك إلى انتهاء مهمة الرسول صلى الله عليه وسلم ؛ وبلوغ الغاية من رسالته .

وأما ما قيل غير هذا في آيات أخرى من أنها آخر ما نزل من القرآن ، فإنه يصح حملها على أن المراد أنها أواخر مخصوصة متباعدة بما نزلت فيه من وقائع ومناسبات ، لا أنها آخر ما نزل من القرآن إطلاقاً .

فآية : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ، وذروا ما بقى من الربا » ، وآية : « يا أيها الذين آمنوا إذا تدانيتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه » — إذا صح نزولها مع آية : « واتقوا يوماً ، دفعة واحدة ، كترتيبهما في المصحف ، فإنهما يشاركانها في الآخرة ، ويكون كل ما وقع من الرواية أنه أخبر كل راو عن بعض ما نزل من هذه الآيات الثلاث بأنه آخر ما نزل ، وهذا صحيح في ذاته إذا نظرنا إلى ذلك .

وآية : « فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى » متقدمة بأنها آخر الآيات التي نزلت في النساء ، فهي آخر متقيد ، لا آخر مطلق .

وآية : « ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم » متقدمة بأنها آخر ما نزل في حكم قتل المؤمن عمداً ، لا آخر ما نزل إطلاقاً .

وآية : « يستفتونك ، قل : الله يفتيك في الكلالة » ، يمكن حملها على أنها آخر ما نزل في المواريث ، لا آخر ما نزل مطلقاً .

والقول بأن سورة المائدة هي آخر ما نزل من القرآن ، محجوج بأن المراد به أنها آخر سورة نزلت في الحلال والحرام ، فهي آخر متقيد ، لا آخر مطلق .

وكذلك القول بأخرية خاتمة سورة براءة محمول على أنه آخر ما نزل من هذه السورة لا أنه آخر ما نزل مطلقاً ، وأيضاً آخر آية من سورة الكهف قالوا فيها : إنه لم ينزل بعدها آية تنسخها ، ولا تفسر حكمها ، بل هي مثبتة بحكمة ، فهي آخر متقيد لا مطلق .

وسورة : « إذا جاء نصر الله والفتح » محمولة على أنها آخر سورة نزلت من القرآن جبرماً كما قال ابن عباس ، أو على أنها آخر ما نزل مشعراً بوفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقد روى أنه قال حين نزلت « نعت إلى نفسي ، وأن عمر بكى حين سمعها وقال : « الكمال دليل الزوال » .

وأما آية : « اليوم أكملت لكم دينكم » ، وأتممت عليكم نعمتي ، ورضيت لكم الإسلام ديناً » ، فإنها وإن كانت قد نزلت في حجة الوداع ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يعيش بعد نزولها أكثر من إحدى وثمانين ليلة ، إلا أنه قد علم أن هناك قرآناً نزل بعدها بأكثر من شهرين ، وأن آية : « واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله » ، قد نزلت قبل وفاته صلى الله عليه وسلم بقسع ليال فقط ، فتكون آية : « اليوم أكملت لكم دينكم » آخر ما نزل من القرآن خاصاً بكامل الدين وإنجازه ، وإظهاره على الدين كله ، وإقراره في البلد الحرام ، وإجلاء المشركين عنه ، فهي آخر عقيد لا مطلق ، ويشير إلى ذلك قول ابن جرير في تفسير هذه الآية : « الأولى أن يتناول على أنه أكمل لهم دينهم بإقرارهم بالبلد الحرام ، وإجلاء المشركين عنه ، حتى حجه المسلمون لا يخالطهم المشركون » .

ويؤيده أيضاً قول ابن عباس : كان المشركون والمسلمون يحجون جميعاً ، فلما نزلت براءة نقي المشركون عن البيت ، وحج المسلمون لا يشاركهم في البيت الحرام أحد من المشركين ، فكان ذلك من تمام النعمة - وأتممت عليكم نعمتي - . وإذا كنا قد عرفنا من هذا آخر آية نزلت بالمدينة وآخر سورة نزلت بها ، هي سورة براءة ، وآخر سورة نزلت بمكة هي المؤمنون ، ويقال : العنكبوت ، وقد عرف فيما سبق أول ما نزل بهما من القرآن الكريم .

من الحكم

أشدد أحمد بن عبيد الله لشاعر قديم من قصيدة حماسية :

ولا خير في حسن الجسوم وطولها	إذا لم تزن حسن الجسوم عتول
فكائن رأينا من فرع طويلة	تموت إذا لم تحيين أصول
فإن لا يكن جسيماً طويلاً فإني	له بالفعال الصالحات وصول
ولم أر كالمعروف أما مذاقه	خلو وأما وجهه فجميل

تاج الدين السبكي

له فضيلة الأستاذ الشيخ عبد الله المراغى

مدير المساجد بوزارة الأوقاف

يعطى لى أن أوفى بما وعدت فى مقالتي السابقة فأتابع الترجمة لهذه الأسرة
المباركة من شيوخنا السبكيين الذين أسلفت لك الحديث عن أول أئمتهم ، وأصل
دوختهم تقي الدين السبكي . واليوم أترجم لابنه الفقيه العليم والإمام العظيم تاج الدين
السبكي وهو من كبار قضاة المسلمين ونوابغ علماهم تعدده مصر فى مفاخرها اللامعة
ويذكره الشرق كله بين كواكب الساطعة بما نشر من العلم وأكثر من التأليف
وهو عبد الوهاب بن على بن عبد الكافي بن على بن تمام بن يوسف بن موسى
ابن تمام السبكي الشافعى الماتب بقاضى القضاة تاج الدين المسكنى بأبى بصر الفقيه
الشافعى الأصولى المؤرخ ولد بالقاهرة سنة ٧٢٧ هجرية وتلقى دراسته الأولى عن
أبيه لأنه كان من أفاضل العلماء ثم تلمذ لغيره من علماء مصر فكنه استعداد الفطرى
الممتاز من أن يحصل فى قليل الزمن من العلم ما يعسر على سواه تحصيله فى الزمن
الطويل والسنين الكثيرة وقد أراد الله سبحانه للناسىء النابغة أن يزداد تقدما فى العلم
وسبقا إلى الفضل فرحل مع والده إلى الشام فتهيات له الفرصة الطيبة للأخذ عن
علماها والتخرج فى مجالس شيوخها ، ومن الشيوخ الذين أسعده الحظ بالتلقى عنهم
والانتفاع بعلمهم الحافظ المزي والذهبي وشمس الدين بن القيم وقد أجازوه
بالتدريس والفتيا فأقنى ولم يتجاوز عمره ثمان عشرة سنة وأصبح نابغة فى الفقه
والأصول وما زال يتألفى فى سماء الشام نجمه ويذيع فى أرجائها صيته حتى ولى
القضاء فى التاسعة والعشرين من عمره سنة ٧٥٦ هـ وتلك سن مبكرة شاهدة له
بالفضل والتبريز فى العلم بما رشحه لمصب القضاء الذى كان لا يتولاه إلا الشيوخ
المتقدمون والعلماء المسنون .

وانتد كان في منصب آية عصره يملأ الأبصار والاسماع غزارة علم واستقامة رأى وصحة استنباط يزين ذلك كله قوة حجة وطلاقة لسان وثبات جنان وما يجتمع لرجل تلك الجوانب المتعددة من الفضل والصفات النادرة في الحفظ والتحصيل والفقه والإحاطة إلا أوغرت عليه الصدور وأكثرت له الخصوم ولذلك تألب على الإمام السبكي المتألبون وكاد له المبطلون فافتروا عليه في دينه وأتهموه في عتيده وشككوا في استقامته فعزل من منصبه وجرى به إلى مصر مغلولاً متعبداً فصر الإمام العليم في محنته وأدى زكاة نعمته بما احتمل من آلام وقاسى من اضطهاد وفى ذلك يقول ابن كثير: «انتد جرى عليه من المحن والشدائد ما لم يجر على قاض قبله وحصل له من المتاعب ما لم يحصل لسواه» وقد أعتبه الصبر الجليل ما وعد الله الصابرين من حسن عاقبة الدنيا وأجر الآخرة فبدله الله من الشدة فرجاً ومن الآلام سلاماً فبرىء من التهمة وخرج من هذه المسكدة عزيزاً كريماً وعاد سيرته الأولى في النضاء بين الناس ونشر العلم بين المسلمين والظاهرة المحبوبة المشكورة في سيرة إمامنا السبكي إنه لم يشغله منصبه وواجباته عن التأليف والتصنيف فكانت حياته قصيرة الزمن إذ توفي سنة ٧٧١ هجرية وهو في الرابعة والأربعين من عمره كما هو معروف في حياة التابعين ينبغون مبكرين ويموتون مبكرين ولكنها حياة مباركة طيبة عظيمة النفع جليلة الأثر حالبة اثر بما ترك من مؤلفات لا يزال بها إلى اليوم حياً ولا يدرى إلى الله كم تطول من أجلها حياته العلية ويمتد به البقاء ولكي نظهر على نواحي نبوغه وصنوف العلوم التي حصلها وأتقنها وصنف فيها نسوق هنا ما قاله الحافظ شهاب الدين بن حنبل في ذلك.

حصل تاج الدين فوناً من العلم من فقه وأصول وكان ماهراً فيه وفى الحديث والأدب وبرع وشارك في العريية وكانت له اليد الطولى في النظم والنثر جيد البديهة صنف تصانيف عدة في فنون كثيرة على صغر سنه قرئت عليه وانتشرت في حياته وبعد موته وإليه انتهت رئاسة النضاء والمناصب بالشام ومن المدارس التي درس فيها في مصر والشام الشيعونية والجامع الطولوني والعزيرية والعدلية الكبرى والغزالية والندراوية والشاميتين والناصرية والاميرية ومشيخة دار الحديث الأشرفية . ومن هذا تبين أن شيخنا السبكي قد قضى أيامه كلها عاملاً مجاهداً في

إقامة العدل بين الناس وإذاعة العلم فيهم لم يشغله عن ذلك نعمة ولا محنة ولا إقبال دنيا ولا إدبارها وكذلك الدماء إذا شغفهم العلم حباً فاستأثر بهم وشغلهم عن مباحج الدنيا وشواغلها حتى يكون هو في النعمة هناءهم وفي المحنة عزاءهم فتراهم قد أخلصوا وقتوا فيه وقد ترك لنا عمله الموصول وتأليفه المستمر مصنفات قيمة نيينها هنا تسجيلاً لفضله وتوثيقاً بحليل قدره وهي شرح مختصر ابن الحاجب في مجلدين سماه (رفع الحاجب عن مختصر ابن الحاجب) وشرح منهاج البیضاوی فی الأصول الذی أتمه بعد والده كما بينا في مثالنا السابق والنواعد المشتعلة على الاشباه والظائر وطبقات الفقهاء الكبرى في ستة أجزاء والوسطى في مجلد ضخيم والصغرى في مجلد صغير والترشح في اختيارات والده وجمع الجوامع في أصول الفقه وشرحه بشرح سماه (منع الموانع) .

تلك مصنفات كثيرة العدد غزيرة العلم عطيمة النفع ، غير أنه يجدر بنا أن نشير من بينها إلى مصنف جمع الجوامع في الأصول الذي يعرفه الأزهر معرفة أعلنت ذكره وأجلت قدره وجعلته عمدة الدارسين لفن الأصول مدى عدة قرون من الزمان ، وجلة شيوخنا المحققين قد مارسوا هذا الكتاب وتخرجوا عليه واستبسطوا أسراره واستخرجوا لبابه . ولقد كانت المقدرة على تفهم هذا الكتاب وإدراك مراميه مقياس البراعة وآية التحقيق في فن الأصول إلى عهد قريب بين الأزهريين . رحم الله شيخنا البكي وأمثاله من أئمتنا المحققين ، وعلمائنا التابنين ورزقنا الأسوة بهم والافتداء على آثارهم ، حتى يصل الأزهر في مجده طارفاً بتدبيره ويظل عزيزاً بحاضره وقامله كما يعتز بماضيه المجيد ؟

حماسة

قال قيس بن عاصم المذمري وكان مشهوراً بالسيادة والحلم :

أنى امرؤ لا بطيء حسبي دنى بهجه ولا أفنى
من منقر فى بيت مكرمة والنصن يفت حوله الفصن
خطاه حين يقول قائلهم ييض الوجوه أعفة السُنْ
لا يفتنون لعب جارهم وهم تحفظ جواره فطُنْ

كَلِمَات

محاضرة الأستاذ الدكتور محمد يوسف موسى

١ - العلم والعمل :

ما أكثر العلماء فينا وما أقل العاملين ! نعرف النحو دقيقه وجليله ، ولكننا لانعرف أن نقيم الستة إذا تحدثنا ؛ ونعرف المنطق قديمه وحديثه ، وكيف يتركب الدليل من مقدمات تكون عنها نتائجها ، ولا نعرف مع هذا أن نكون مدققين عملياً في تفكيرنا ؛ ونحذف علوم البلاغة ، وأن لكل مقام مقالاً ، وأن الكلام يكون بليغاً إذا توفر فيه كذا وكذا ، فإذا أخذنا في الكلام جاء ما ننطق به سقيماً عتيلاً ؛ وعرفنا الأخلاق وأصولها ، والفضائل وطرقيها ، والغرائز والأمزجة والعواطف وعلاجها ، ولكن عجزنا عن تكوين الضمائر الحية المستقيمة في نفوس طلابنا وقرأتنا ؛ والفتنه وعلم الحلال والحرام حفظنا الكثير من متونه ، وقتلنا بحمها الكثير من شروحه ، ولكننا في سيرتنا ومعاملاتنا لا تتفق وما عرفنا من الشريعة ؛ ونعرف كيف تدار المعاهد والمدارس ، وكيف ينشأ التليذ على الطاعة والتظام ، وكيف يجب أن تكون العلاقة بين المدرس والتليذ والرئيس والمرموس ، ولكن لم يتبع منا كثير يعتبرون بحق إداريين حازمين محبوبين ممن تحت أيديهم ؛ ونعرف أن صحراء مصر وتربتها غنية بالمعادن المختلفة ، ولكننا لا نقب في جد عنها ؛ ونحزان أسوان نعم علم اليقين ، منذ زمان وأزمان ، أنه يمكن الاستفادة منه في توليد الكهرباء ، فيكون مصدر رغد وسعادة وقوة للأمة ، ولكننا حتى الآن لم يتم لنا شيء في هذا السبيل أو نحتفل كل عام بعيدى الهجرة والمولد ، ونذكر جاهدين في هاتين المناسبتين العظيمتين كثيراً من مزايا الإسلام وأمجاده ، ولكن لا يستطيع أن يزعم الكثير منا أنه يهتم في نفسه بعض هذه المزايا ويحاول أن يفيد حتماً من هذه الأبحاث ؛ ومنا الطيب وهو بحكم عمله رسول رحمة ، وقد كان يسمى قديماً

باسم الحكيم وهو اسم من أسماء الله عز وجل ، والفيلسوف أو مدس الفلسفة التي تقوم على البحث عن الحكمة والتوفر عليها وطلب الحقيقة وحبا ، ولكن أصبح الكثير من الأطباء ودعاة الفلسفة بعيدين عن الرحمة والحكمة والحقيقة !

علام تدل كل هذه المثل ، التي انتزعناها من واقع الحياة الفردية والاجتماعية ، وسواها كثير ؟ إنها تدل على أننا أمة تتمول ولا تفعل ، وكسبر ذلك ممثنا عند الله ما أكثر من يتكلم منا حتى الآن عن خطورة اختلاط البنات والبنين ، وناثه يملأن دور اللهو البريء وغير البريء ويجلسن مع الشبان جنبا لجنب في المعاهد الأجنبية والجامعة ! ومن يتكلم في الراديو حاثا على البر بالفقرام ومساعدة المسكرويين بلهجة تلين الأفتدة الجامدة ، ولكته يأتى أن ينزل عن بعض ما يأخذ من أجر على ما يذيع للغاية التي يدعو إليها !

يا قوم ! ليس بمثل هذا تتقدم الأمة ويسعد الشعب ! نحن في حاجة الى من يؤمن بما يقول إيماننا يدفعه الى العمل به ، وإلا فليوفر على نفسه وعلينا عناء التمول ! نحن في حاجة الى علماء وخطباء ودعاة إصلاح مؤمنين بعلمهم ، ويكونون بأعمالهم قدى صالحه لغيرهم ، فينفعون وينفع الله بهم . نحن في حاجة الى نفوس شريفة تعرف للعلم قيمته ، فتطهر به ، ثم تصدر عنه في كل ما تعمل .

وقع نظرى منذ أيام على كتاب « فى أخلاق العلماء » للمعور له الشيخ محمد سليمان ، فأعجبني ما صدره به من كلمة يتقدمها لابنه ، كلمة تتصل بموضوع ما يتحدث به الآن . لهذا أتتلى بعضها ، ففيها عظة وتذكرة لمن يريد أن يذكر ، وجمال وخير لمن يجب أن يرى ويسمع .

يقول رحمة الله له ورضوانه عليه : « واعلم يا بنى أن نور العلم أن تستقبله نفس مستعدة له ، فهى التى تستنير به ، وتشعه على الناس . إنه يصفىها فنصفى ، وتكون به نورا زية من ومض الله نور السموات والأرض ، كالمنار يهدى الضال ، وينير الدج فيسلخ الظلام ، وهذه وظيفة العلم . إنه يطهر النفوس كالبرقمة تصهر الذهب ، فيذهب ماله من خبث ، ثم يكرم حتى يتعامل به الناس ، وحتى يكون الثمن الذى يوازن به كل عرض فى الدنيا . أما العلم الذى تستقبله النفوس الصلدة

المظلمة ، فهو الذى لا يضر ولا ينفع ، ومثله يا بنى مثل ما ترى من لعب الصبيان بالمرأة إذا عكسوها على الشمس ، ألا ترى الشعاع المنعكس منها يعشى ويحرق ؟ ذلك أن وجه المرأة صلد لا ينفذ منه النور ، وقلبها أسود لا يتبله ، فارتد بذلك على الآخرين ناراً وثقمة ، ليست الغاية من العلم أن تعلم لحسب ، بل الغاية أن تعمل بما تعلم من الخير ، وأن تكون بعلمك قدوة الخير لقومك ، القدوة التى تؤثر فى الناس بالأسى . فكن كما تحب أن يعرف عنك ، بالحقيقة الواقعة ، لا بالتقول الموضوع ولا بالعمل المصنوع ، بل بالإخلاص فى صفاء النفس وتربية الضمير .

وهذا كلام جليل من رجل مجرب عرف الدنيا وعرفته ، وغالط الكثير من جميع طبقات الناس حاكين ومحكومين ، فهو يحل عن التعليق ، بل لعل التعليق عليه - إن حاولناه - أن يفسده ، وعمى أن ينفع الله به بعض قارئيه .

٢ - الصلة بين العلم والعمل :

والكلام على العلم والعمل على النحو الذى قدمنا ، يجر إلى الحديث عما بينهما من علاقة وصلة ؛ أى صلة المعلول بعلة ، فكما وجدت هذه وجد ذاك ؛ أى كلما كان العلم بأن كذا خير ، حصل العمل وفق هذا العلم ، وذلك كما يرى سقراط مؤسس علم الأخلاق ؛ أم أن الأمر ليس كذلك ، كما يرى أرسطو المعلم الأول وأنصاره ؛ فقد يعلم الإنسان ولا يعمل ، وقد يعمل على ضد ما يعلم .

إن كان كلام سقراط هو الحق ، فلا تفسير لوقوعنا فى الإثم أخلاقياً ، أى لتقصيرنا فى العمل ، إلا أننا لا نؤمن بما نعله إيماناً يتبدى . وإن كان الحق فى جانب المعلم الأول ، وأن الخطأ الأخلاقى ليس مرجعه إلا إلى قوة الهوى وأسر الشهوة ، فقد عذب عنا العقل وغلبتنا الشهوات على أمرنا ؛

وأرى الخير والحيلة لأنفسنا أن نعمل على استكمال علنا بالخير حتى يكون علماً لا يلابسه شك ، ووثيقاً لا يحالطه ريب ، فیدفعنا ذلك للعمل على وفته ؛ وأن نأخذ فى ذات الوقت فى العمل على إضعاف الهوى ودواعيه التى تصرفنا عن استلزام العقل واتباعه ، وتدفعنا لأمر الشهوات وفتنها .

ومما يعين على ذلك العناية التي ترجو، إدمان المطالعة في كتب التراجم
إن هذه الأسفار عباب علم، وصفحات نجد وغار للإسلام وعلائه، هؤلاء العلماء
الذين خالط الإيمان قلوبهم، فعرفوا الله حق معرفته، وتجلت لهم الدنيا على
حقيقتها قرأوها شيئاً تافهاً لا يوازن بشيء من الكرامة والمروءة. إن هذه الأسفار
ملئية بأخبار جلة العلماء، ومواقفهم مع الأمراء والسلاطين والخلفاء حتى في عصور
الاستبداد، وكيف كانوا لا يراعون إلا الله وحته والعلم وكرامته، فعزت وعزت
بهم البلاد، وسعدوا وسعدت بهم الأمة.

إن في كتب سيرة المصطفى وأبطال الإسلام، وترجمات العلماء الأعلام،
إعلاء النفوس، ومغنة للقلوب، وحافزاً للاعتزاز بالإسلام والتشبه برجاله.
وكم يكون جميلاً وخيراً إذا جلونا للناشئة بعض هذه السير، واتحدنا من أصحابها
مثلاً علياً لنا، وكنا لهم قدوة طيبة عملية.

(٣) يشعر البعض منا بأنه غريب عن الناس، حين عليهم؛ فإذا ضمه مجلس
بآخرين ليسوا على لونه في الثقافة رأيتهم يلم ثيابه، ويتداخل في نفسه، ويرى السلامة
منهم غيمة، والانصراف من المجلس نجاة وراحة، لماذا هذا الإحساس؟
وما عوامله؟

لعل أهم عوامل هذا الإحساس لدى من يحسه، هو شعوره بأنه يعيش في دنيا
غير دنيا الناس، فهو في واد وهم في واد آخر، وهو لهذا ثقيل عليهم يرم بهم،
إذ يعلمون ما لا يعلم من المعارف المتعددة الألوان، وربما أنكروا عليه أن
ما يعله ذو غناء في هذه الحياة.

ونعتقد أن في هذه النظرة القليلة غير قليل من التجني والمغالاة، كما أنها كانت
تصدق في الماضي أكثر من الزمن الحاضر، الذي صار فيه الأزهرى يشارك
مشاركه طيبة في درس ألوان المعارف التي لا بد منها للثقافة العامة، فضلاً عن
دراسة ما تخصص فيه من علوم.

على أن هذا لا يمنع من أن نقول إتنا لا زلنا ملومين من بعض النواحي،
إذ نبذل كثيراً من مجهودنا العظمى وزممتنا الدراسي في تعلم وتعليم ما لا يجدي،
سواء من ناحية المادة نفسها موضوع التعليم، أو من ناحية طريقة تعليمها.

ولترك الآن أحد أعلام الأزهر وأفذاذه ، وهو المغفور له العلامة الشيخ حسين والى ، يضرب المثل لذلك من غناية الأزهريين بعلم الكلام غناية أعتوا أنفسهم بها ، وأصاعوا بسببها كثيراً من الوقت والجهد كان من الخير أن ينفقا في العلم الناجع المفيد . يتولى السيد الأستاذ في الجزء الأول من كتاب التوحيد :

« علم الكلام حادث في الأمة الإسلامية ، ومشى فيه الناس صوراً بعد صور ، وكل منهم يترر صحة العقائد ويستنهض الحجج والأدلة ، وما فعلوا ذلك إلا لوجود خصوم من المبتدعة وغيرهم فكانوا معذورين فيما كتبوا . أما الآن فقد ذهبت تلك الخصوم وجاءت خصوم آخرون ، فلا يليق فرض الذهاب حاضراً وترك الحاضر الذى لا يرد إلا كتاب الله إذا بينه الراد وكان له عقل ! أما تلك الكتب ، فإن فيها حجباً كثيفاً تمتع النور وتحدث الظلمة ، وربما قصت على اعتماد صحيح ثابت .

أمن العقل والحزم أن يتوجه الإنسان إلى مباراة خصم موهوم ، ويترك الخصم الذى صبق عليه المسالك وأورشك أن يمته موتاً ؟ إن هذا هو البلاء المبين ! أمن الحزم الرد على فرقة من فرق المسلمين ليس لها اسم أو وجود إلا فى الكتب ، وترك الرد على طاعن موجود الآن ؟ أمن الحزم أن يضيع الإنسان عمره فى الاشتغال بخصوم موهومة وإن كانوا ناجين لأنهم غير كافرين ؟ أمن الحزم أن يبحث الإنسان فى الجوهر والعرض ، ولا يبحث فى الكتاب والسنة ليستفيد علماً خيراً من هذا نافعاً فى كل وقت ؟ ... إن الجوهر والعرض أصبحا فى نسيان بجانب الكبرياء وغيرها مما عرف اليوم ، فهل أخطوا فى معرفة ذلك حتى يفيدهم فى الكلام ما أفادهم ذاك ؟ حاش لله أن يأخذوا !

إن كانت معرفة ذلك نافعة فى علم الكلام ولها دخل فى منازع الاعتقاد ، ولا إخال ذلك صحيحاً ، فليصرف الحاكم أو جماعة المسلمين طائفة من الناس لدراسته ليقوموا بهذا العبء ، ولا يتركوا طلاب العلم فى شقاء وبلاء ، ولا فائدة لهم تعود إلا استهزاء الناس بهم والخط من شأنهم .

وبعد ! فهذا كلام لا يحسن كثير من الناس أن يقولوا مثله ، وهذا رأى يعز على الكثيرين فى سدادته وصراحته ، فلنجعلها خاتمة الحديث اليوم .

شِعْرَاءُ الْأَزْهَرِ

محمد الأسمر - شاعر الأزهر

لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد الجواد رمضان

الأستاذ بكلية اللغة العربية

— ٥ —

قطعت هذه السلسلة ، التي كنت أوافي بها مجلة الأزهر ، منذ حين ، لأنني إنسان في طبيعته العزوف عن الزحام ، ولو أنه على الحياة ؛ وما أشد الزحام على مجلة الأزهر ! ولو أخذ برأي ، لاقتزحت أن يكون التحرير فيها هوى ، لا كسبا ؛ إذن ، لحيتت ، وازدهرت ، ونفضت أكلافها ، التي يُعنى أولياء الأمور في الأزهر الطب لها ، على غير جدوى ، مهما أخلص الأساة ، واجتهد المعالجون .

بيد أن كثيرا ممن يتلون كتابتي بشيء من القبول ، أطلالوا ملائ على هذا الانتطاع ، وزينوا لي مراجعة الكتابة في المجلة ، وفي هذه السلسلة ؛ ثم ألزمني ذلك إلزاما لا فكاك منه ؛ رغبة الأستاذ العلامة مدير المجلة ، في مواصاتها ؛ ورغبته أمر وتشريف وتكريم ، ولا يأتى الكرامة إلا لثيم .
رجع ما انتطع .

• • •

كما يغرد البلبل خائفة وطبعا ، وكما تسجع الحمامة خائفة وطبعا ، وكما تأنرج الزهرة خائفة وطبعا ؛ يشعر محمد الأسمر خائفة وطبعا ؛ فهو شاعر مطبوع ، موهوب ، قوى الموهبة الشعرية قوة طاغية ؛ يعترف بذلك من يفيض الأسمر ، كما يعترف به من يحبه ، ممن ترمسوا بالشعر ، وتذوقوه ، وعالجوه ، لإنشاء ونقدا ؛ وليس في هذه

الشهادة إسراف ؛ فإن الموهبة شيء غير الشعر ، وإن كانت معينة ؛ وفيما ضه ،
فلذا ناد أن يذهبوا في الحكم على شعر الأسمر ، كل مذهب ؛ كما لم أن يذهبوا في الحكم
على كل شاعر غير الأسمر كل مذهب ، ولكن ليس لناقد أن ينكر أن الأسمر شاعر
موهوب ، إلا إذا أدخل التكلف على نفسه ، واصطنعه اصطناعاً .

وقد أقام الأسمر على ذلك ، البرهان الذي لا يحامره ريب ؛ بإحرازه التفوق
في المباريات الأدبية غير مرة ، على حين أسف خول الشعراء ؛ وبإجازة ديوانه
من لجنة الخالدين ، رجال مجمع فؤاد الأول للغة العربية ، على حين بهرجت دواوين
شعراء تحتك أنوفهم بالسما تعالياً وزهواً وادعاء ؛ هذا مع أن الأسمر — كما عرفه
الناس — رجل ملول ، فنان ؛ لا يطبق السكد ولا الجدد في طلب العلم ؛ ولا يصبر
على معاناة الدرس والبحث ، ولا يحتمل السهر إلا في بيت يبنه ، أو قصيد ينشئ ؛
فهو شاعر شيطاني ، تسعة أعشار شعره من وحى الشياطين ؛ وهل يأتي هذا إلا من
قوة الطبع ، وغزارة الموهبة ؟

لى صديق من رجالات وزارة المعارف ، كان يتتبع منطوعات الأسمر
في الأهرام ، ثم يقول لى بعد أن يفرغ من قراءتها : يا أخى ، شعر أسمر كم هذا ،
يؤكل أكلاً سبحان الوهاب !

ولفت نظرى مرة كلمة فى جريدة « الإخوان المسلمون » نصها : « هما اثنان
فى الأزهر . . . فأما أحدهما فإنيك ولسان حاله ينشر قول شار :

إن فى بردى جسمنا ناحلاً لو توكت عليه لانهدم

وأما الأسمر ، فإنه يأنك كأنه قصيدة رائعة تمشى على الأرض ! ، ولئن أخطأ
صحة و المتارنة ، لقد أصاب تشبيه الأسمر ؛ فإن جميع مظاهره وغايته شعر فى شعر
الهم إلا إنشاده ؛ فإن أضعف نواحي الأسمر إنشاده ، وبخاصة حين يحتمل ، ويبرز
صدره وكرشه ، وتتفتح أوداجه ، ويخرج الكلام من أسفل بطنه ؛ وهو إذا
أرسل نفسه على سحبتاً - وقلبا يفعل - يعجب ويظرب .

وقد رشح الأسمر لأمانة الشعر ، خالد الذكر ، شاعر التطريس ، خليل
مطران ، وناهيك بشهادة شاعر القطرين !

وللأسمر شعران : شعر ظاهر ، حواه ديوانه ، وسب إليه : وشعر حفي ينساب في جداول كثير من دواوين الشعراء والمثاعرين : في كلمات ، أو أشطار ، أو أبيات ، يعرفها أعضاء « مصطبة الشعراء » قديماً ، ويعرفها كير عن يعرفونه حديثاً .

والأسمر بين إخوانه ظريف كل الظريف : وكانت له « قفشات » مع المرحوم أحمد الزين تثير عواصف الضحك تولول أركان « النادي » : يشد الزين شعرا له جديداً ، فيأخذه الأسمر - في خبث - : « أنت بتكح ليه يا زين ؟ » ويلتمها الزين الناح : ويدرك أن الأسمر يريد أن يشبه شعر الزين بنفثات المصدور : فيحتاج الزين ، ويصبح في الأسمر : يا جاهل ، يا ... ، يا غبي ! حتى ارتقى ذوقك إلى حد أن يتقد كلام الزين ... ويخرج الأسمر بالصمت عن لا ، ونعم ، عدا نبرات ضحك خفيف ، ضحك من ظفر باصاصة شاكلة الرمي ، وفاز بإعجاب السامعين !

وبيت الأسمر العائلي ، بيت علم في الخلة ، فلئن ضربه أبوه على إغرامه بالشعر - على ما روى هو عن نفسه في فاتحة ديوانه - كما ضرب برد ولده بشاراً على الشعر : ودافع الأسمر عن نفسه ، كما دافع بشار عن نفسه ، فدل ذلك على أن والده كان أمياً ؛ لقد روى المغفور له الأستاذ المروى : أن الست والدة الأسمر كانت عالمة جليلة ؛ وإن كان الأسمر يتمايل برواية المروى ، ببسمة مبهمة ، لا تفيد نفيّاً ولا إثباتاً ؛ ولا تواضعاً ولا إنكاراً .

فأما سنه ، فلا تتجاوز الخامسة والأربعين ...

وأما حظه في الحياة ، فإنه حظ كان يكفي لصلاح حاله ، لولا هذا التاج الخيالي ، الذي امتحن أكثر الشعراء ، بأن يضيعوه على رموسهم ، وإن كانت خاوية قرطاه .

وفي الأسمر وفاء ، يحمله على أن يكون الاعتراف بالجميل أعذب أحاديثه وأسماره ؛ وفيه إباء ، يجعله يأبى الضيم ، ويذكر السيئة ، ويثور للعدوان ؛ بيد أنه ليس هجاء ، ولا خبيث اللسان ؛ وإنما يلقي خصمه وجاهاً ، كما يلقي الشجاع الشجاع ، لا كما يلقي الشاعر الشاعر ؛ وعلى الخلة : فتواحي الفضل في الأسمر متعددة ، وخلال

الرجولة فيه متوافرة ؛ وإن قالوا فيه هنات . وله خطايا ؛ فن منا ليس له هنات ،
ومن منا ليس ذا خطايا ؟

وإذا كان الحديث عن الأسمر ، لا يكمل إلا بذكر شيء من أشعاره ، شاهدا
على ما أوردنا من أحكام ؛ فاسمعه ، حين يذكر المظاهرات الدامية لطلبة المدارس
وطالباتها ، وانظر عن أية عاطفة شاعرة يصدر :

ملاحم . بالفدادة وبالعشى	رعاك الله من شعب أبي ا
مشى للحق أعزل ، غير صوت	يرده ، كزجرة الآتي
فوا أسفا عليه ، وهو يتنقى	شهيدا بالرصاص وبالعصى
رماء الطالمون وما رمام	فويل للضعيف من التوى
سلوه بعدما ارتشف المنايا	أبشر في مراقده يرى ؟
وليس بظالم أبدا شهيد	سقى الأوطان من دمه الزكي

واقراً في قصيدته « عودة المجاهدين » قوله :

تبنت أن الحق إن لم تنح له	بواسل يخشى ظلها فهو باطل
لعمرك لو أغنى عن الحق أنه	هو الحق ، ما قام النبي يتقاتل
فلا تحسب الحق ينهض وحده	إذا ملكت عنه ، فهو لا شك مائل
من العقل ألا يطلب الحق عاجز	فليس على وجه البسيطة عادل
وما سيشل ، عندي التي كنتم بها	ولكنها دار الأذلاء « سيشل »

ثم أخبرني عن أثر هذه الحكم الرائع في مشارك وأحاسيسك ا

أولا تحس نفحة من نفحات البهاء زهير ، حينما تقرأ للشاعر الأسمر ، قوله
للخفور له الشيخ مصطفى عبد الرازق باشا ، شيخ الأزهر الأسبق :

يا أخا الزهر منظرا	وأخا الزهر محبدا
قلت يوما لصاحبي	في حديث لنا جرى
إنما الشيخ مصطفى	وردة نفحها سرى

ذاك رأي الذي أرى يا صديق فما ترى ؟
قال : بل فوق ما أرى قلت : بل فوق ما ترى !

ولم أحسد الأسمر على قصيدة ، حسدى له على نبوته الرائعة ، التي لا أعلم أن شاعرا — غير شوقي — وفق إلى مثلها ، في العصر الحديث ، وأى حسن وراه قوله فيها :

إن الرسول محمدا صبح بدا	من راح يعثر في سناء ، فلالعا !
واقى بها يضاء ، عدل كلها	لا تلفين بها الضعيف مضجعا
دخلت على الجبروت ، وهو مقطب	صامعا ، فأبصر وجهها فتفرعا
دين المساواة الصحيحة دينه	يرعاهم في الله أشفق من رعى
ما جر أثواب الحرير ولا مشى	بالتاج من فوق الجبين مرصعا
من ألبس الدنيا السعادة حلة	فضفاضة ، ليس التميص مرقعا
وهو الذي لو شاء نالت كفته	كل الذي فوق البسيطة أجمعا
مسك به اختتم المهيمن رسله	وأبان أمر الدين والدنيا معا

* * *

أما بعد ، فإن وجوه الجبال الفنى في شعر الأسمر ، تستطيع أن تعد منها ، ولن تستطيع أن تعدها : فلا تجزى بهذا التليل الجميل ، وأحيل التراء الكرام ، على « ديوان الأسمر » الذي طبع حديثا ، فإن فيه الكثير الطيب ، والمعجب المطرب ، والبديع الطريف ؛ وجمال المنظر والمخبر . وليس هذا إعلانا عن الديوان ، فإنه — صنع الله له ما كان يدعو له به صديقه المرحوم الهراوي — لم يهد إلى نسخة منه ، وإنما رأيت في يد بعض من أهدى إليهم ، من يستأثرون بحبه وإيثاره ، ولعله — إذا قرأ هذه الكلمة — يتلوم ، فيتكرم ، ولو تطمعا ...

أيها الأدباء ، أيها العلماء :

عليكم بديوان الأسمر ، فإنه ديوان الأزهر ...

المبشرون بالإسلام

لفضيلة الأستاذ الشيخ إبراهيم علي أبو الخشب

المدرس بكلية الشريعة

ربما راع القارىء الكريم أن أجعل هذه الكلمة عنواناً لمقال تنشره مجلة رسمية تعنى باصدارها « مشيخة الأزهر » لتكون لسان صدق لها في العالم العربي وغير العربي عن يشهدون أن الإسلام لم يعد بحاجة إلى من يحمل اللباس دعائيه ، ويرفع رايته ، ويغزو به نفوساً انغمست في زهرة الدنيا ، فلم تلنّخت إلى تشريعاته وأحكامه ، ولم تؤمن بضرورة وجوده كعظام لا بد منه لحياة هادئة هاتئة تنشدها العنول السليمة ، والفطر المستقيمة ، والطبايع الوثابة إلى سعادة صحيحة ، وطمأينة دائمة ، وبلهنية معقولة .

ونحن نكذب أنفسنا ، ونغالط ضمائرنا ، حين ندّعى أن الدين يشق — وحده — الطريق إلى التلّوب ، دون تبشير به ، وأذان بصوته ، وإيقاظ لتلك البصائر التي ضلت وجهته ، وتكبت سبيله ، وراحت تتلّس النور من غير سراجها ، وإلا لما صحت كلمة الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم إذ يقول عن الخلف العدول من أبناء تلك الأمة ، أنهم يحملونه إلى المسترشدين « ينفون عنه زيغ المبطلين ، وتحريف الجاهلين » . ولما لاقى الرسول وهو بصدد تبليغه هذا الصنف المرهق ، والجهد الشاق ، والإيلام الصارخ ، والإيذاء المضنى .

وكان من حق أصحابه من بعده أن يناموا نومة أهل الكهف عن الجهاد له ، والذود عن حرمانه ، والغضب للعدوان عليه ، مع أنهم عاشوا وماتوا لدعم أركانه ورفع بنيانه ، وإعلاء كلمته ، والتنويه بشأنه في الأصقاع والبقاع إلى درجة أنهم لم يتركوا أعداءه « حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون » .

وإذا كانت «الإرساليات» الأجنبية وقفت سببها زمناً طويلاً لمحاربته ، والفض من قبضته ، والتنديد بأتباعه ، تنديداً ينطوى على السكيد والبغضاء ، فإنها ربما ضاعفت من نشاطها ، وبالغت في عدوانها من جديد ، ولا سيما حينما تتجه الاتجاه الصحيح لعلس معالم الشيوعية وغيرها من المذاهب التي تقف بينهم وبين ما يهدفون إليه من مطامع ، ويطمحون له من نفوذ وسلطان ، لأنهم يعلمون تمام العلم أن للقرآن سحراً أئحاداً ، سوف لا يذكر أحد معه شيئاً من تلك الشرائع ، ولا هاتيك المعتمدات ، إلى جانب أن دستوره في العمران والإصلاح ، والسيادة والمك ، قد لا يتلاقى مع هذه كلها في قليل ولا كثير ، لأنه اشتراكية محدودة ، تكفل الحياة المعتمولة ، والإنتاج المنظم ، والتعاون العام للفرد والجماعة ، بحيث يكون الشعب جميعه متمتعاً بالحرية وفق التناون ، مترابطاً في حدود الشعور بالحياة المثالية المنشودة ، والعربي والعجمي ، والأبيض والأسود ، والغني والفقير ، في كل ذلك سواء .

ولا ينكر عاقل أن المسلمين — جميعاً — يعيشون الآن بعاطفة «عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل » مع أن تعاليم كتابهم تحتم عليهم ما يتصل بالجماعة أكثر مما يتصل بالواحد ، وتشدد التكبير على المتهاون في حقوق الإنسانية العامة أكثر من أي تهاون آخر .

وأبو بكر رضي الله عنه لما كان يشيع أسامة بن زيد على رأس الجيش المحارب ماشياً على رجليه وأقسم عليه أسامه أن يركب فأبى قائلاً له « وماذا على أن تغبر قدمي ساعة في سبيل الله » كان يعلم مدى ما يستأمله المسلم من رضوان إذا نصب نفسه لإعلاء كلمة رب العالمين جل جلاله .

إلا أن أمراً يجب علينا ألا نفعله ذلك أن تلك الرسالة النبيلة ، رسالة « التبشير بالاسلام » والدعاية له ، لا يتمرن التوفيق بالمتحملين لها دائماً أبداً ، وعلى طول الخط — كما يقولون — لأن أصحابها ورثة الانبياء يجب عليهم أن يوطنوا أنفسهم على أنهم سيقاؤون مثل ما اتقوا ، في صبر الدارعين ، وحلم المؤمنين وصفح المتأدبين ، وعفو القادرين ، وكياسة العاقلين ، واحتيايل الماسهرين ، الذين نلحظ فيهم الخلق وحسن التأني للأشياء .

على أننا وقد أصبحنا نرى الكرة الأرضية تموج بالنظريات والفلسفة، والعلوم والفنون، والمذاهب والاتجاهات، نتول إن العلم بالسكتاب والسنة، وفتة معناها لا يسكنى فى الإقناع، ولا يصح الاقتصار عليه فى الوعظ — والمسلبون الذين درسوا المنطق اليونانى، والعلوم الفارسية، فى الدولة العباسية، وجعلوا من ذلك كله لقاحاً سائغاً فى أديهم وتفكيرهم وتأليفهم، فاستفادوا منهم جم الفوائد، لا يزالون بحاجة إلى أن يجاروا ركب الزمن، وقافلة الأيام، ليعلموا ما تطوى عليه الآفاق البعيدة، والبادى المجهولة، لأن الله سبحانه وتعالى لم يحلقهم لوطن، ولم يرد منهم أن يموتوا بأرض، ولا أن يعكفوا على بيئة واحدة — وهناك ناحية مهمة يجب أن مـيـء لها أنفسنا، ونحسب لها الحساب العظيم .. وهذه هى حسن عرضنا للسائل، ليستطيع الآخرون عنا أن يستسيغوها، وألا يتهمونا بالجهل، ويتهموا ديننا بالعم، ويظنوا بنا ظنون سوء، ولست أتعرض لنماذج من قضايانا المغفلة التى ننتملها من الكتب كما هى بدون تصرف وأ كنى بمجرد الإشارة، وأرجو من الله التوفيق .

أمثال سائرة

لابن عبد ربه مؤلف : العقد الفريد ، شعر جيد منه ما جعل فى كل بيت منه مثلاً أو مثلين . مثل قوله :

قالوا شباك قد ولى فقلت لم	هل من جديد على كر الجديدين
صل من هويت وإن أبدى معاتبة	فأطيب العيش وصل بين إلفين
فاقطع حبال خل لا تلائمه	فربما ضاقت الدنيا باثنين
فكرت فيك أبحر أنت أم قر	فقد تحير فكري بين هذين
إن قلت بجرأ وجدت البحر متحصراً	وبحر جودك تمتد العبايين
أو قلت بدرأ رأيت البدر متعصاً	فقلت شتان ما بين اليزيدين

العلم والعمل

نفضلة الأستاذ الشيخ محمود النواوي

المفتش بالأزهر

أما أن العلم في ذاته لا يستجيب العمل فذلك أمر مشهود جاء في الشاهد والغائب وهو مما استفاضت به الأخبار ، وطمحت به الآداب والأشعار ، وهو شيء لا ياباه العقل والمنطق السليم ، فإن العلم إنما يرفع ضده وهو الجهل ، ولا يرفع ضللا ولا طغيانا ولا مآثما ، فما أكثر مآثم العالمين ، ومفاسد الثرائيس والمتفهمين ، وإنما كان الشأن في العلم أن يتطلب العمل من قبل أن العاقل من حقه إذا علم الفع في شيء حرص عليه ، وإذا رأى الضرر في شيء ، فرمته تمشيا مع غريزة الحرص على جلب المنافع للنفس بتمدر الطاقة البشرية ، فإذا حق العالم أو أخطأه التوفيق خلط في سيره وعرض نفسه لكل ما فيه عليه مقال ، نسأل الله السلامة والعصمة .

وفي الحق أن العلم كالماء ، يتلون بلون الإناه ويتبع المتصف به ، والله سبحانه قسم بين الناس العلم كما قسم الرزق ، ولكي عباده يتفاوتون في تقدير العلم والانتفاع به ، كما يتفاوتون في تقدير المال ووضعه في مواضعه ، ولذلك قرنهما رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث الشريف الذي يرويه البخاري .

« لا حسد إلا في اثنتين : رجل آتاه الله مالا فسلطه علىهلكته في الحق ، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يعمل بها ويعلمها الناس . »

وفي حديث البخاري أيضا ، يقسم رسول الله صلى الله عليه وسلم المتعلمين أصنافا ، فقد شبه ما يمدّه الله من الهدى والعلم بالفيث الكثير أصاب أرضا فكان منها نضجة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب ، فأكل الناس وشربوا وملثوا أسميتهم وكان منها أرض أمسكت الماء للوارد والمستقى .

وكان منها قيمان لا تمسك ماء ولا تثبت كلاً فأهل العلم منهم النافع والمتنع

كالأرض الطيبة الثبته ومنهم النافع غير المتفع وهو الذى يعلم الخير ولا يعمل به ومنهم من لا يتفع ولا يتفع كالتبعان .

ولهذا يقول النبي صلى الله عليه وسلم إنما أنا قاسم والله المعطى فإذا وصل العلم والمعرفة إلى نفسى أفادت منها بقدر عنصرها واستعدادها واتجهت بها مع ظروفها وملاساتها ولهذا يصرف كثير من الناس العلم عن اتجاهه ويؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض ويؤولون آيات الكتاب بما يوافق أهواءهم يزعمون فى أنفسهم أنهم لا يريدون أن يقطعوا علاقتهم بالعلم ونسبتهم إليه وفى الحق لقد أوجد هؤلاء بينهم وبين العلم أكبر جفوة لأنهم فسروه على عكس اتجاهه والعلم لا يقبل ذلك لأنه نور فضاح يكشف كل من قرب منه وحام حول ضيائه وفى الحق أيضاً أن كل علم لا يوجه وجهته فميه شائبة الجهل على أى اعتبار وفى أى وضع . قال بعض السلف ما عصى الله إلا جاهل وقرأ الآية الكريمة (إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب) وفى حديث شريف لا يكون المرء عالماً حتى يكون بعلمه عاملاً بل إن فى بعض الآثار ما يدل على أن بعض المعاصي يرفع الإيمان وقت التلبس به فى الحديث لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن الخ ، ولهذا أكثر الناس من سلب الوصف عن أنصف به إذ الم يحقق ثمرته المقصودة ولذلك عندى وجهان من التأويل .

أحدهما أن المراد نفي الاتضاع فكأن هذا الشيء الموجود فى ذاته مفقود لأنه لم يحقق الغاية .

(الثانى) أنه ناقص من بعض نواحيه لأنه لم يحقق الغاية ولو كان كاملاً لحقق الغاية ولذلك تنقسم المعارف فى بعض الاصطلاحات الى علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين ولهذا كان العلم مقولاً بالتشكيك عند التحقيق .

ومهما يكن من شيء فإن العلم فى ذاته لا يستلزم العمل ولا يقتضيه ولهذا أيضاً تفاوتت أقدار العلماء فعالم فى السماك وهو الذى يشبه أنبياء بنى إسرائيل يعلم الحكمة ويعلمها ويكون كالأرض الطيبة التى تثبت الطيب وتفيد الطيب النافع المصلح .

وعالم آخر فى الحضيض تلعه الملائكة والانس والجن ممن قال فيهم الرسول

صلوات الله وسلامه عليه ، يترقى بالعالم يوم القيامة فتتدلق أفتابه في جهنم فيدور فيها كما يدور الحمار برحاه فيطيف به أهل النار فيقولون مالك وقد كنت تأمرنا بالخير وتنهانا عن الشر الحديث ، وهؤلاء هم الذين يشترون الضلالة ولا يبالون ما فعلوا .

ولذلك فإنا ننبه أهل العلم ومن آتاهم الله الكتاب والحكمة وخصهم بمزية العلم الذي يرفع المملوك إلى مجالس الملوك ويجعل صاحبه في لذة لو عرفها الملوك لما تلوه عليها ، هذا العالم الكريم ينبغي أن يحفظ علمه وكرامته وأن يحصن دينه وسمعته وأن يعز نفسه باعزازه وأن يكرر النظر في مثل كلام النافذ الجرجاني الذي يقول فيه .

يقولون لي فيك إنقباض وإنما رأوا رجلا عن موقف الدل أحجما
أشقى به غرسا وأجنية ذلة إذا قاتباع الجهل قد كان أحزما
ولو أن أهل العلم صانوه صانهم ولو عظموه في النفوس لعظما
ولكن أهانوه فهانوا ودنسوا بحياء بالاطماع حتى تجهما

يريد الوضع الطيبي من رجل العلم أن يكون أسوة حسنة وقدوة صالحة يستفيد الناس من عمله مثل ما يستفيدون من علمه أو ما يغني عن الاستفادة بعلمه وفي الواقع إنه مسئول بما يصدر منه عن الناس كما أنه مسئول عن نفسه ولهذا قالوا « اذا زل العالم زل العالم » ، « وصنفان إذا صلحا صلح الناس وإذا فسادا فسد الناس الأمراء والعلماء » .

يريد الوضع السليم من رجل العلم ألا يحرم نفسه من ثمرة هذا النور الكريم والإشراق السماوي العظيم فإشد خسارة من يرى الضياء ولا يبصر فيه وما أسوأ حرمان من حرم التوفيق لما هو أقرب شيء إليه ومن أضل ممن ضل على علم وختم الله على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة .

يريد الوضع السليم من رجل العلم ألا يحرم الكياسة إلى حد أن يهمل عمل الخير وقد تعلم ما يتنافس الناس في نيله ليصلوا إلى ذلك الخير . هذا والله حماقة تنادى على صاحبها بالثبور والويل . ويل لمن لا يعلم مرة ، وويل لمن يعلم ثم لا يعمل ألف مرة . فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً .

إذا كان الناس يعظمون العلماء ويحسدونهم على ما هم فيه من الفضل العظيم وإذا كان الله سبحانه يرفع الذين أوتوا العلم درجات ، فذلك لأنهم يستطيعون أن يفعلوا الخير ويكونوا رحمة للإنسانية ومرهما لجراحها وطباً لأمرائها ، ولأن المصنوع في أمثال العلماء أنهم آمنوا العثار والزلل في القول والعمل ، ومن لم يكن كذلك فقد نزل عن رتبة الفضل والتقدير ، ووقع في حفرة التحقير .

« وأتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين . ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فثله كثر الكلب . ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام . »
« لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ، كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه . »

العلم في ذاته فضيلة لأنه يزيل رذيلة الجهل . والجهل ظلمة والعلم نور ، والجهل عمي والعلم بصير والجهل موت والعلم حياة « أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها . »

العلم فضيلة جليلة ، ما في ذلك ريب ولا مرية ، ولكن فضل تلك الفضيلة في استغلالها والانتفاع بها ، فعلى قدر نفاستها تكون نفاسة ما تؤدي إليه .
ويعتقد قيمتها كانت خسارة من لم ينتفع بها وآثامه وحسابه العسير .

ومن حق العلم على صاحبه أن يشعر الناس بمنزلة العلم الذي يحمله ، وذلك بتلبية داعيه الكريم ، والعمل بما يقضي به في جميع الشئون وإلا استهان الناس بذلك العلم وحامله ونسبوه إلى الحق أو الجنون ، ووضعوا نصحه وتوجيهه موضع سقط المتاع ومالا وزن له وتأمل فيما يقول الله سبحانه :

« كبر متناً عند الله أن تتولوا ما لا تعملون . » « أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تقولون أفلأ تعملون . »

وبعد فما ظنك بشمعة تضيء للناس وتحرق نفسها ، وطبيب يداوى وهو سقيم أيا منه الناس على شيء .

وغير تقي يأمر الناس بالحق طبيب يداوى الناس وهو سقيم

على هامس الجول والهجرة

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمود حميد

المدرس في كلية اللغة العربية

اتجه الرسول الكريم نحو مكة ، وهو يعلم أنها كارهة للقاته وصادقة عنه ومعادية لدعوته : وتجربة الطائف لم تكن مشجعة له على التقل بين أحياء العرب ولا على التردد بين قبائلها ، فالتقى بقريش لا زالت تملأ نفوس الكثرة العربية وقريش واقفة له بالمرصاد مهونة لشأنه محقرة لأمره ترد قوله وتصد الناس عن متابعتة ، وما تقول الناس في رجل عاداه أهله وخذله قومه وعشيرته لقد استضعف من مكان قوته وروع من مكان أمنه وانتقص من مكان كماله فأنى للناس أن يجيبه أو يجاريه أو يهادنه أو تواسيه .

إذن لا بد أن يرد بصره الكليل نحو القرية التي أخرجه والبلد الذي خذله فإن ماضيه بها يهون على نفسه ظلم سكانها وألم المقام فيها . فأهلها أعلم به وإن كرهوه وأعرف بمكانته وإن أنكروه .

وقصد إلى مكة وهو شائع النفس محزون القلب منهوك القوى يحمر رجلين لانهما معه الحق المظلوم والقضية المضطهدة موقنا بالفتح مؤمنا بالنصر وسفهاء الطائف يقفون له سحاطين يشيعونه بما يشيع به أهل البنى والعسدوان والضلال والفساد ؛ ولو أنصفوه من أنفسهم لاحسنوا إيتيابه وأكرموا وفادته وودعوه وداع المحسن لشعبه المنعد لأمنه فقد جاءهم بالمجد الخالد والسيادة العامة والهدى والإصلاح والنور والعلم رجاء أن يقرب بهم بين الأرض والسماء .

ويتصور الرسول الكريم موقفه من أهل الطائف ويذكر ضعفه وهوانه فيناجي مولاه يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربى إلى من تكفى إلى بعيد يتجهنى أم إلى عدو ملكته أمرى إن لم يكن بك غضب على فلا أبالى

غير أن عافيتك هي أوسع لي ، أعوذ سور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن يحل علي غضبك أو ينزل بي سخطك لك العتي حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك . .

وفي مرجعه نزل بنخلة وهي محلة تمام بقرها سوق عكاظ ، المعروفة في حياة العرب والأدب العربي ، وقام يصلي من الليل والصلاة قرعة عليه وحيية نفسه ، والليل أنس المحبين وعرس الواصلين ومقام الحامدين وبينما هو في موقفه صرف الله إليه « نفرا من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضى ولوا إلى قومهم منافرين . قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى مصدقاً لما بين يديه يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم . يا قومنا أجبوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويحرمكم من عذاب أليم . ومن لا يحب داعي الله فليس بمعجز في الأرض وليس له من دونه أولياء أولئك في ضلال مبين . .

وكان ذلك عن غير شعور منه ولا ترقب عنده وهل يطمع الرسول الكريم في هداية هذا الجنس النافر المستخفي وقد استعصى عليه تدليل جنسه وتهذيب قومه ؟ ولكن الله قد جعل منه هادياً نافذاً في الطبائع ومؤثراً في الجبلات وجعل في رسالته قوة تحترق المحجب فيستجيب لها كل سميع ويؤمن بها كل سمي فهي رسالة تدعو لنفسها وتشتع من جوابها وإذا وصلت إلى القلب أثبت أن تستقل به وتقفل عليه وإنما تخرج به داعية إلى الحق وإلى طريق مستقيم .

وأظهر الله رسوله على أمر الجن نحوه ، طمأنة لقلبه وترضية لنفسه ، والجن خلق آخر استروا وراء لطافتهم واختفوا تبعاً لطبيعتهم كما ظهر الإنسان أثراً لكثافته ، خلقهم الله من نار كما خلق الإنسان من طين ، وفي النار لطافة وحرارة ونور ، وفي الطين كثافة وغلظ وعتامة ، ولكن المبدع المختار يرفع ويضع لا معقب لحكمه فرفع الكثيف على اللطيف وقال اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين ، معتذراً بأنه من نار وآدم من طين ونسي أنه في حضرة ربه عبد مقهور ومخلوق مغلوب ، وجره كبره وغروره إلى الخروج من دار الجبور إلى دار الشور ، ومن جنة وسعته إلى أرض لفظته .

والجن طرائق منهم الصالحون ومنهم دون ذلك ، وفي طبعهم الفجور وفي خلقهم الفجور ، وقد استمعوا الدعوة محمد صلوات الله عليه وانصتوا للقرآن فلانت طباعهم للحق وجعلوا من أنفسهم دعاة للهدى وأنصاراً للدعوة ورسلاً على الرسول يدعون الله ويصدقون بكتاب الله وينذرون بالمصداق من لا يجب داعي الله ويبشرون بالجنة من آمن بالله ، وهذا أكرام من كريم وتقدير من حكيم وفقه الله به عن مصطفىاء وخفف عن مجنبيه فأراه قوة دعوته وقدر رسالته وكيف أنها تذلل من الطباع النافرة وتعود النفوس المارقة وتجذب لرحابها جبلة كان منها من عصى ربه تكبرا على البشرية واحتقارا للآدمية .

لقد سمعت الجن واستجابت وأذعنت وآمنت ودعت قومها للهدى فكان ذلك تسليية مجزئة وترضية مقنعة بأن خلاصها أن حجب التمرشين وأهل الطائفت بالدين لم يكن لتقصير في التبليغ ولالوهن في الدعوة ولا لفجور في الحق وإنما كان عن حسد ملا النفوس وحقد أكل الصدور ، فكفروا بعربي بعث من صميمهم وأرسل فيهم وأعزم وعز عليه عنادهم وأحبهم وكره مخالفتهم ولم يدبر أولئك أنه جاء بسعادتهم وسلطانهم .

وأقام بنخلة أياما يشكر ويفكر ويجمع نفسه لمواجهة قريش ويرى زيد بن ما يعاينه الرسول فيشفق على موقفه ويخشى عليه أن يتعرض لخطر يواجهه أو ظلم يستقبله فيقول كيف تدخل على قومك وقد أخرجوك ؟ فيجيبه مطمئنا مبشراً وإن الله جاعل لما ترى فرجا ومخرجا وإن الله ناصر دينه ومظهر نبيه .

وانتهى إلى مكة ووقف بالحق على أبوابها ودار بخلده ما سيلقاه من قريش بعد أن رفض أهل الطائفت متابته ، والطائفيون والمكيون متنافسون في الشرف متعادون في الرياسة لكنهم متفقون على نصرة باطلهم وخذلان حقه ، ولا مناص له من دخول مكة مهما كلف من عناء وأرهاق فتصريف أمور رسالته يحمله مضطراً على جعلها داراً لإقامته ومركزاً لقيادته إلى أن يسه الله له داراً تحبه ويحبها يأوي إليها فتؤويه ويستنصر بها فتصره . واليوم لا يرضون دخوله ولا يمكنونه ولا يعمرون إقامته بينهم وهو يابق على عهده متمسك بأمره وقد مات أبو طالب فقل به النصير .

واستعرض رجال قريش في لحظة يسيرة إلى أن وقف نظره عند المطعم بن عدى فان له معه خنة وماضيا يطعمان في نصرته ومؤازرته ، وأرسل إلى مطعم رجلا من خزاعة لينخبره بخبره ، فلما علم مطعم خرج إلى الرسول واستقبله بعد أن دعا بليته أن يحملوا السلاح ويقفوا عند أركان البيت ، ودخل رسول الله في صحبة مطعم ومعهما زيد بن حارثة حتى وصل المسجد الحرام وانهى إلى الركن فاستلحه وصلى ركعتين وانصرف إلى بيته ومطعم وولده محذوقون بالسلاح .

وأصرت قريش على عنادها وأمعنت في إيذائه والكيد له ، وعرضت عليه ألوانا متفرقة من العذاب ، قصدا لصدّه عن غايته ، فن أشواك توضع في طريقه إلى فضلات توضع على رأسه الكريم وهو قائم لربه إلى غير ذلك من صنوف الإيلام وضروب الاستخفاف ، وهو محتسب صابر يعتذر لهم عند ربه ويطلب لهم الهداية فيقول : « اللهم اهد قومي فانهم لا يعلمون » .

وضاقت مكة بالحق وأوصدت أبوابها دون ذلك النور ، واخطلت قلوبها بصخورها فلا سمع ولا استجابة ولا ارتداع ولا اتباع ، بل استحبوا العمى على الهدى ، وطاردوا الحق في كل مكان ، ومدوا أفتواهم ليظفثوا مشعل الدين ، « ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره المشركون » ، وبقى الرسول في مركز قيادته يتردد حول مكة في المجمع والأسواق ، عله يحمّد من الوافدين من يصدق بدعوته ويؤمن برسالته ، وكان يتم له قصده لولا مطاردة قريش له بتقصد ما يبرم وإفساد ما يصلح ، ونحرج أمر الرسول في قومه وتلفت فيمن حوله فلم يحمّد فيهم رجاء في النصرة ولا أملا في البيعة ، ولولا أن أهل الأوس والخزرج كانوا يعلمون من خلفائهم ييثرب من اليهود أن نبيا من صفته كذا أطل زمانه وجاء أوانه وأن اليهود ستبجعه لتقاتل معه العرب ما أسرعتا في متابعتة والاستماع إليه ، ولكنهم تأملوه فعرفوه ، واتجهوا إليه واستمعوا لحديثه ، ووافى الموسم منهم من آمن بالدعوة وبايع على النصرة ورجع إلى قومه داعيا وهاديا .

الإسلام يحقق السلام

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمود فياض

أستاذ التاريخ بكلية أصول الدين

شهد العالم قبل الإسلام ويلات وويلات، وسادته ضلالات أفسدت على العقول اتجاهها إلى السمو وطلب الكمال، وخضع لاستبداد طاغ في توجيه أموره، وكل مقدراته، لصوالح حكام في الشرق والغرب، كل أهداف حكمهم. هي الجلوس في أبراج السيادة، والإشراف منها على استغلال المحكومين، وإن شئت قل إن حكام الشرق والغرب قبل الإسلام، كانوا في صراع على السيادة في أرض الله، ألقوا فيه إلى الجحيم كتلا من المحكومين الذين أهدرت آدميتهم، في سبيل شهوات كسرى وقبصر، ولقد غشى العالم فساد عام شامل، استشرى في كل ناحية من نواحيه. في الدين، في السياسة، في الاجتماع، في كل شيء.

كذلك شهد العالم قبل الإسلام ألوانا مختلفة من الديانات والتشريعات، السماوية والوعية شهد اليهودية والنصرانية، كما عرف الرادشنية والمردكية والمناوية والكنفشيوسية، والبوذية، ولم يجد العالم في واحدة من هذه الديانات، ما يهذب النفس، أو يرقى بالروح معارح الجلال، ولا ما ينظم مجتمعا سعيدا يقوم على الحب والسلام.

وجرب العالم منذ التقدم تشريعات الفراعنة. وقوانين حمورابي، وجملة تشريعات أخرى إغريقية، ورومانية، وفارسية، ولم يسعد العالم أي حكم قام على هذه التشريعات، إذ لم تنظم مجتمعا، أو تحقق عدلا، ولم تجلب رخاء ولا أمنا، بل لم تحفظ حرمة الإنسانية. لانها كانت تسير وفق قاعدة عامة تمثل الشرائع قبل الإسلام هي: من غلب على شيء أكله.

عالم عقل أفسدته الوثنية ، وثنية ألزمت الناس لعبادة الحجر ، أو عبادة الشجر ، أو اليران أو البشر ، وديانات عطلت المواهب ، واعتقلت العقول ، وأتجعت سعي الحروب بين الشعوب . لا طلباً لكآل إنسانى ، ولا تحميلاً لآخرة أو عدالة . بل لسيادة نوع من صنوف هذه الوثنيات .

وعالم اجتماعى أفسدته الطبقة . فأشراف هم سادة الناس ، وفى أيديهم الجاه والسلطان ، وعندهم ذهب الدنيا الوهاج ، وصنوف من الناس يتقاتون فى العبودية والاستغلال ، ويمتعون بالعتق والحرمان ، ويكدحون لسادتهم فى سبيل الإبقاء على حق الحياة .

وعادات لا تدرى أى عادات إنسان أو حيوان ، وجاهلية جاهلة ، قضت على التفكير الإنسانى ، فلم يتوجه لخدمة الإنسان ، ولم يعف البشرية باصلاح ، وهى تلح فى طلب الإصلاح .

وصراع دائم مرير بين الشرق والغرب ، بين المرس والروم ، على سيادة دنيا الله ، حروب فى إثرها حروب ، وكروب تتبعها كروب ، وخطرة فى كسرى خربت الشرق ، وكبرياء فى قيصر خرب الغرب ، ومن خطرة كسرى وكبرياء قيصر ، يتألف عالم سياسى يقوم على الظلم والفسور ، والإنسانية بين هذه العوالم المخربة المدمرة ، تنادى ربها ، وتستغيث بآريها ، يارب تدارك عبادك بوسائل الإصلاح !

وأشرقت الأرض بنور ربها ، وانبلى صبح الإصلاح ، وبعث الله محمد بن عبد الله بالإسلام رحمة للعالمين ، ليخرج الإنسانية من الظلمات إلى النور باذن ربهم إلى صراط الله العزيز الحميد .

جاء الإسلام ليصح الأوضاع السيئة ، ويصلح الفساد الذى يعانى العالم من جرائه ويلات الحروب . ويقم مجتمع الإنسانية على أسس قوية من العدالة والأخوة والمحبة والسلام .

ولقد بدأ الإسلام باصلاح العقيدة . عقيدة الناس فى رب الناس . فاستهجن الضلالات السائدة . وأنكر أن يكون هناك أدنى تصرف فى أمور الناس . الشئ

من اللات والعزى ومناة . وميلاتها من أحجار وأصنام . أو لشيء من نيران
الفرس أو حيوان غيرهم . أو لشيء مما يعبد اليهود والنصارى .

وقرر أن الخالق واحد من كل وجه ، هو وحده المتصرف في كل شيء ،
والله يرجع الأمر في كل شيء ليس كئله شيء . من حجر أو شجر ، أو بشر ، كل
الكون في قبضته ، وكل العوالم عبيده ويرجون رحمته ، ودعى الإنسان إلى تحرير
عقله من قيود الوراثة والوثنية ، فإذا حرر عقله فلينظر فيما يحيط به متأملاً
فيما خلق الله ، وليحكم عقله المتحرر ، في قضية الألوهية . ولينظر دأرباب
متفرقون خير أم الله الواحد القهار ، ؟ أفن يخلق كن لا يخلق ، ؟ . أيشركون
مالا يخلق شيئاً وهم يخلقون ، ؟ . يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ، إن
الذين تدعون من دونه الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب
شيئاً لا يستنفذوه منه ضعف الطالب والمطلوب . ماقدروا الله حق قدره إن الله
لقوى عزيز . ولا بد أن يصل العقل المتحرر من قيود الوراثة والوثنية في هذه
القضية إلى ما يدعو إليه الإسلام . لا إله إلا الله . فإذا استيقن بها الإنسان .
تفتحت له آفاق وآفاق . واستقام أمره على وجه من الإصلاح والصلاح لم يعده
من قبل !!!

• • •

خالق الكون واحد وهو المتصرف فيه . وهو وحده سيد لما خلق . وكل
خلق الله عباد الله وسببهم إلى الله واحدة . فهم أحرار . لأن الله وحده هو خالقهم
وهم عند الله سواسية لأنهم جميعاً عبيده وهم إخوة لأن ربهم واحد وأباهم واحد
وأهمم واحدة خلقوا لنساية واحدة أفضلهم عند الله أحسنهم عملاً وأنفعهم للناس
 . يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن
أكرمكم عند الله أتقاكم ، فلا الأجناس والألوان ولا الأحساب والأنساب
ولا الجاه والسلطان والأموال ولا القوميات ولا العنصريات . لا شيء من ذلك
كله بمقياس ولا ميزان عند تقدير الصلاحية أو وزن القيم . فالإسلام قومية
المسلمين وهو الجنس واللون والحسب والنسب والمسلون إخوة في الإنسانية
 وإخوة في الإسلام ومن واجب الإخوة أن تقوم بينهم المحبة ويسود بينهم السلام

ومن واجب الاخوة أن يتعاونوا على البر والتقوى . لا على الإثم والعدوان فإذا تعاونوا على هذا المنهج فلا بد أن يحلوا مشكلة الفنى والفقير كما قضوا على الطبقة الجائرة بتوحيد الله الذى خلقهم أحراراً متساويين ولم يجعل للشرف مقياساً غير حسن العمل ومدى ما يحققه الشخص من خدمات ومنافع للمؤمنين وللإنسانية ! وإذا كانت نفس الإنسان قد جبلت على الشح فقد أراد الله سبحانه ألا يخضع التعاون على البر واتقاء الشرور لهوى النفس الشحيحة بل نظم هذا التعاون فى سبيل خير الجميع تنظيمًا عجا كان موضع إطراد خصوم الإسلام أنفسهم وجعله إلزاماً للأمة متضامنة ولكل فرد بوصفه الخاص . فالأمة متضامنة فى كماله حياة الفرد حياة حرة كريمة وكل فرد مكلف برعاية مصالح الأمة . فالفرد والجماعة يتبادلان المعونة فى سبيل الخير العام .

للفقير حق معلوم فى مال الفنى ، ومال الفنى هو مال الله استخلفه فى استثماره وتنميته ، وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه ، والمؤمن الفنى جواد سمح ، لا يمسك مال الله عن الخير لعباد الله ، والمؤمن الفقير قانع عزيز ، يأخذ حقاً جعله الله له فى مال أخيه ، غير ذليل ولا مستدل ، والفنى يعطى ما وجب عليه غير مانٍ ولا متكبر ، وهذا وذاك يقوم بأمر الدين ، ويستجيب لله رب العالمين ، ولقد عين الإسلام مقادير محددة بنسب معينة وبشروط خاصة يدفعها الفنى إلى بيت مال المسلمين ، لتنفق فى سبيل الصالح العام للأمة وسمى هذا «زكاة» ثم أوجب على الأغنياء بعد ذلك الإنفاق فى سبيل الله ومصالح الأمة ، وترك التمييز والتحديد للمؤمن الفنى ، يتدر ويحدد بنفسه ما يجب عليه ، حسب ما يمل عليه إيمانه ، ووجه الخير للمسلمين .

والزكاة . والاتفاق الذى يسمى صدقة ، أريد بهما ، مواجهة حاجة الدولة ، ومتعضيات عملها على توازن القوى فى المجتمع ، حتى لا تتجمع مالية الأمة فى أيدٍ قليلة قد تكون شحنة ، فتولد الاحتداد فى النفوس . ويرجع المجتمع إلى نظام الطبقة الذى قوضه الإسلام بتعاليمه . ثم عاد إلى المجتمع الإسلامى لما تنكب صراط الإسلام كما أريد بهما . تربية النفوس وتمرنها على البذل عند دواعيه .

ومقاومة خلق الشح في نفس الإنسان الذي يدفعه في كثير من الأحيان إلى هجر الدين والفضائل في سبيل المال . واند طبق هذا النظام ونجح نجاحا بعيداً في صدر الإسلام . وقد لفت أنظار الغربيين . فجعلوه أساساً لما ظهر بينهم من نظم تعاونية وجماعية . حتى لتكاد التبرعات عندهم . تنفي بحاجات شعوبهم الاجتماعية . وقد تصاب بعض النفوس بخدبة ثقافية . فيحتلط عليها الأمر فترى في هذا النظام استدلالاً للمقيير . وإهداراً لحرمة . وقد تصاب بلوثة . فترفض ما لا تفهم مما شرع الله . وهيات أن يستقيم أمر الناس على غير ما شرع الله . ولن تحل مشكلة الفقر حلاً جريلاً . يحقق سلام المجتمع إلا على أساس ما شرعه العليم بالنفوس البشرية . فأقيموا الدين لله حالصاً من شوائب الشهوات . وتجردوا من لوثة النقاات الخادعة الوافدة . تحل مشاكلكم . ويصلح مجتمعكم .

وإذا أقام الإسلام مجتمعاً صالحاً على أساس من توحيد الله والاعتراف له وحده بالسيادة ، وتقرير الحرية والاخوة والمساواة بين الناس ، والتضامن بين الفرد والجماعة في سبيل الصالح العام للجميع . فإنه يميم حكم هذا المجتمع على أساس من الشورى الحرة . ويطلب أن يكون الحكم قيادة رشيدة للحكومين . تسعى إلى تحقيق أكبر قسط من سعادتهم . وتوفر لهم أسباب الحياة الشريفة . وتقيم بينهم العدالة وتسوى بينهم في توزيع الحقوق والواجبات . ويطلب من الحاكم أن يكون قدوة حسنة لرعيته . في قوة إيمانه والتزامه لمبادئ الدين . ووجه للخير والإيثار . حتى يحمل بسلوكه المحكومين على الاقتداء به . وينتقم الانسجام والتوافق والتجاوب بين الحاكم والمحكوم . وطلب من المحكومين أن يطيعوا الحاكم ما استقام على أمر الله . وأخلص في رعاية مصالح الدولة . فاذا اعوج قوموه بالنصح والإرشاد . وإذا أشكل عليه أمر أرشدوه بالحكمة والموعظة الحسنة إلى وجه الخير فيه . وإذا جار وظلم عاجلوه بالامر بالمعروف والنهي عن المنكر . وهو السلطة الكبرى التي جعلها الله لأذن المسلمين يقرع بها أنف أعلامه ، فاذا لم يرعوا لأمره . ولم يتلع عن الظلم بعد نصحه . فلم أن يستدلوا به غيره . وجعل المحكومين مسئولين عن الحاكم وصلاحه . مثل مسئولية الحاكم نفسه عن مصالح المحكومين . وهكذا يخلق الإسلام دولة قوية يركزها على دعائم

قوية . اجتماعية وسياسية . تضمن لها العزة والكرامة ما سارت على منهنجه الواضح المرسوم .

وإذا أقام الإسلام دولته فانه يجعل أساس العلاقات بين المسلمين وغيرهم هو السلام . يحرم على المسلمين أن يعتدوا على غيرهم . ولم يجعل الاختلاف في الدين مبرراً للعدوان . فإذا جنح غير المسلمين إلى السلم فليسلمهم المسلمون . كما نهى المسلمين عن الهجوم على عدوهم الذي استبقوا من عداوته . وتوقعوا عداوته . من دون إنذار يرسلونه إلى العدو . بل حتى يصل الإنذار إلى العدو . ثم أنكر الإسلام الحرب لمجرد التوسع والاستعمار أو طوى النفس . ولم ييجها إلا لحماية الدعوة أو دفع عدوان . فمن اختار البقاء على دينه . وسالم المسلمين . سالمه المسلمون . ومن عاهد المسلمين على الأمان فقد وجب على المسلمين الوفاء بالعهد . ومن عاقدهم على تجارة وفواله بالعمد . وهكذا في الحملة ينجم الإسلام العلاقات بين الدولة الإسلامية . وغيرها . على أساس السلام . ويجب أن يكون السلام دائماً هو رائد العلاقات الدولية . ولا يقر الإسلام النقي والعدوان في أي مظهر من مظاهر الحياة للفرد أو الجماعة .

الإسلام منهج عام للسلام . للسلام الداخلي في كل أمة . والسلام الدولي بين الدول . ولهذا المنهج تفاصيل كثيرة ودقيقة . أرجو أن يسعدني الله بفرصة لتجليتها . وبيانها للناس . منهج للسلام يهدي للتي هي أقوم . فلو أنصفت الإنسانية نفسها بالإسلام لاسعدها الإسلام . ولو شادت الإنسانية الأمن في مجتمعاتها الداخلية . فعلها بالإسلام .

ولو أرادت السلام العام بين الدول فإن الإسلام هو منهاج السلام . « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق . » فن أسلم فأولئك تحروا رشداً ، وستجلى الغمرة بعد غاشية تفضي الإنسانية — قريباً أو غير قريب — وسينظر العالم حائراً . وسيبحث عن مخلص يخلصه من ضلال العلم والإلحاد في الله وفساد الدين والسياسة والاجتماع . وستكون حيرته هذه كحيرته الأولى عند ما بحث عن منقذ قبل الإسلام . فكان الإسلام وسوف لا يجد العالم ما يخلصه من كروبه وإلحاده وماديته . ويريجحه من ويلات الحروب والخراب والدمار . سوى الإسلام . « ولتعلن نبأه بعد حين » .

في ميدان علم النفس :

تعريف الحكم

محاضرة الدكتور سمير زابر

من بين المشاكل العديدة التي تتأرجح بين العلوم المختلطة وبين وجهات النظر الثابتة، مشكلة الحكم . فهي مشكلة يتجاوزها علم النفس وعلم المنطق كل يريد أن يضمها الى حظيرته ، وكل يريد أن يدرسها بمنهج الخاص ويعتبرها ضمن أبحاثه الخاصة .

ولذلك لا تأخذنا الدهشة عندما يفاجئنا هولنجورث في مستهل فصله بعنوان جزئي هو « تعقد المشكلة » يقول فيه إن المحاولات لتعريف طبيعة الحكم وتحديد مكانته في علم النفس أو المنطق ، قد استنفدت أبحاثا كثيرة ، وقد حددت هذه الأبحاث بدافع الحكم بالنسبة لموضوعات أساسية وأولية في علم النفس ، ولذلك إذا وصف الحكم بأنه حالة إثبات لعلاقة بين موضوعين أو حدين ، فهذا يتضمن معنى خاصا للأفكار التي تستعمل في التعريف .

ولكن ما هي حالة الإثبات كحالة مميزة عن بحث مجرد ؟ ما هي طبيعة العلاقة التي يمكن أن توجد فقط في حضور عضوين أو أكثر ؟ وما هي في الحقيقة الأعضاء أو الوحدات (المعاني) التي توجد بينها العلاقات ؟ هل تدرك العلاقات بصفة واقعية ؟ هل يمكن تصنيفها بطريقة ما حسب موازين وألوان ونغات ؟ هل هي أيضا « محرويات الشعور » أم هي فقط « أفعال نسبية » ؟ وهل تصنف بصفات تتعلق بالكيفية والشدة وديمومة الإحساسات ؟ هل هي في الحقيقة مكتشفة أم هي

مختصرة لحسب ؟ كل هذه الأسئلة يضعها الكاتب في إبتداء الفصل وكلها — كما هو واضح — تنطق بتعقد المشكلة .

ولم يكف الكاتب بهذا بل أراد أن يزيد في تبيان مقدار التعمد والصعوبة فكتب تحت عنوانه الجزئى الثانى يقول : ويمكن الاعتراض بأن نظرية في الحكم لا تحتاج حينئذ إلى أى مزيادات أوليه ، وبأن طبيعة الحكم يمكن التأكد منها مباشرة خلال التأمل كى تعطينا فكرة عما وجدته في الوعي أثناء عملية الحكم ، ولكن هناك عدة عوائق هامة من أهمها أنه من المستحيل علينا أن نعطي في أى وقت تقديراً تاماً عما يحدث في الشعور حتى ولو كان في بضع ثوان ، وكل ما يستطيعه التأمل هو أن ينتحب من التجربة الكلية تلك الحوادث التي تبدو له مژدة للعملية التي تفيد الجرب فيجبر عنها ويجهل الباقيات ، وإن أفكار الوعي التأملية التي تحدث أثناء التفكير تبدو في هذا المجال كأنها فطرية ونادراً ما تبين اختيار حوادث معينة على ضوء نظريات سابقة ، فهي في الغالب لا تنحرف عن الأصوات الخارجية وأصوات التنفس وحركات الحجاب الحاجز والنشاط الجثماني عديم الغاية والحركات المستمرة للسان وإبهامات الأرجل وأصابع اليد . من ذلك يتضح أن الأحكام لا تكون إلا للحوادث التي تحصل بوضوح في الوعي لا إلى تلك التي تنكشف حيناً وتختفي حيناً آخر ، وللحوادث الجزئية أكثر من الحوادث الكلية .

ولذلك إما أن تنحرف الذات تحت تأثير اقتبائه اختيارى معين ؛ أو أن من يكتب التقرير يختار لتقريره تعبيرات توافق العملية ، ومن المؤكد أنه لا يمكن لمفهوم ما أن يلخص خصائص العملية التي حدثت تحت أى حالة من الحالات السابقتين وخاصة بالنسبة إلى وظائف الألفاظ الرمزية . وقد يذنباً اعتراض مهم بالنسبة إلى التجارب الفنية وهو وجوب إلزام الذات بأن تحكم لتقرر أو تنحرف عن مجرى الوعي ولكن هذا يتطلب معرفتنا الواضحة لمهابة الحكم وإلا كيف يمكننا أن نلزمها بالحكم وكيف نتأكد أنها حكمت ؟ وبعبارة أوضح كيف نلزم بأن ما أحررت عنه هو بالذات عملية الحكم ؟ وكذلك في إحدى دراسات الأستاذ مارب في الحكم المبكر على طريقة التأمل الباطني يحاول المختبر أن يعرف ما هي التجارب التي يجب أن تتوفر في عملية الوعي حتى ترفعها إلى درجة الحكم أى نضج الجرب تحت

حالات يمكنه فيها أن يختبر أنواع العمليات العقلية للحكم وحينئذ نسأله أن يبسط لنا التجارب التي حدثت له أثناء تلك العمليات يتضح مما سبق أنه يمكننا — بصفة مؤقتة — أن نعرف الحكم بأنه عملية الشعور الذي يمكن أن يحصل عليه في معنى ما نحول الصدق أو الكذب .

تعريف مارب :

يبدأ مارب تعريفه بضرب مثال فيقول : إذا كان لدى ثقلان وطلب مني أن أختبر أي الثقلين يبدو أثقل . أفلا يكون إخباري بتمييزهما ، حكماً ؟ ولكن على أي أساس يقوم حكمي بالموازنة بين الثقلين وعلى أي حقيقة يقوم ؟ وإذا ما تركت الاختبار جانبا وتقدمت قليلا لابين مقدار الثقل إما بالكلام أو بالإيماء ، أفلا يمكن أن يقال إن هذا الثقل يتفق أو لا يتفق مع حدث آخر وهو الأثر الحسي الذي أحدثه الثقل بالفعل .

ويستطرد مارب قائلاً : وإذا سألتني مضيفتي ماذا رأي في قبعة جديدة وأي الألوان أنسب لها ، فاني سأخبرها طبعاً بلون ما . . . فعلى أي أساس يقوم هذا الحكم ؟ وبأي مقياس يكون خطأ أو صواباً ؟ إن مضيفتي لا يهمها أن تأخذ رأيي في اللون الذي أحبه ، بل كل ما يهمها هو أن ترى هل سيتفق تخميني أنا مع ما ستفعل حقيقة أم لا .

وهناك أحكام لا تتفق مع نظرية مارب ، بالرغم من إشارة Messer وإثبات تشنر Titchener أن النظرية تتفق مع تجارب كثيرة لم تتعود أن نعتبرها حكماً كالاستظهار الحقيقي لمناطع عديمة المعنى في تجارب الذاكرة . وكاستجابة اللاعب (في صالة الجوزيم) للتراكيب اللفظية التي يصدرها المدرب .

ويجب أن نلاحظ أن مارب كغيره ممن أتوا بعد سواء بسواء ، لم يكن يبحث عن النموذج الأولي الحقيقي الداخلي للأحكام . بل كان يبحث عما يمكن تسميته الظواهر الملازمة أو التجارب الثانوية ، التي يمكن اعتبار وجودها معياراً ثابتاً .

وهذه هي الطريقة التي يتبعها البستاني الذي يفرق بين نوعين من فاكهة معينة باكتشاف نوع الحشرة الضارة التي تعيش باستمرار على كل نوع ... ولكن

لماذا نعلم على الحشرات للتمييز بين نوعي فاكهة ما ؟ ولم لا نبحت الفاكهة ذاتها ؟ فالذي نريده أولاً وقبل كل شيء بياناً واقياً يعتمد على الظواهر للحوادث أو التجارب أو العمليات التي تدل عليها لفظة حكم . ومثل هذا التعريف يدخل في علم النفس أكثر منه في المنطق وهو ما نريد أن نبذه هنا .

ولن نحاول هنا أن نزن الآراء التي قبلت بصدد طبيعة الحكم عند مزر . روول . بهلر . وغيرهم والتي تنهج منهج الاستبطان ولكننا سنحاول أن بين الجصح الرئيسية في عدم كفايتها .

مقاييس الحكم :

من بين المسائل الهامة التي ترتبط بالحكم سنمضي أولاً بما يسمى التعبير عن الحكم . ويقصد به إشارات أو ألفاظ تبين محتوياته وتستخدم لأغراض خاصة أهمها انتقال الأفكار والاتصال بالغير . ومما لا شك فيه أن التعبير عن الحكم قضايا تكون من موضوع ومحمول ورابطة .

وقد قامت مناقشات حول هذه المسائل اللغوية مراعاة للغة وأنها مرآة للحوادث الفكرية دون نظر إلى العوامل العرضية والعملية التي تحدد تطورها وتطور الكلام . ولكن اختلاف الطرق التي بها نعبر عن أحكامنا جدير بأن يمنع الخلط بين علم النفس وعلم اللغة . فالحكم كما قال مارب يمكن التعبير عنه بطرق مختلفة كالكلام والإيماء والتوافق العملي وتسلسل الخيال وتغير اتجاه التفكير . ومهما كانت طبيعة التعبير . فليس جزءاً جوهرياً من الحكم إلا ما أدركه على أنه حادثة نهائية ترتفع بالحكم ليصبح عملية إغلاق . وعلى ذلك تصبح القضية لا حكماً بحسب بل نتيجة له .

وإذا أخذنا الفكرة الأخيرة لجدير بنا أن نبين العمليات المتضمنة في المواقف العقلية وما يدل عليها يمكن أن نسميها في مضمونها تفكيراً .

ويمكن الإشارة في هذا الصدد إلى أربعة أضرب هي : « الدالة على » ، « المدلول عليه » ، « المدلل به » ، « الدلالة » ، ويقصد بالاولى ، المنبه أو الراجع

أو الباعث أو الإشارة أو التليح أو ما يقابل في المطلق الموضوع في القضية . ويقصد بالثاني ، التجارب الماضية التي يفصلها الباعث السابق الذكر وهو ما يقابل الحد الأوسط في المنطق . ويقصد بالثالث حقيقة التيام بتنفيذ ما يطلبه العامل ، كانشوء الاستجابة والتوافق والصورة والشعور إلى غير ذلك من الحوادث النفسية التي تعبر أو تشير إلى اتجاه الوظيفة وهو ما يتماثل الرابطة المنطقية أو قانون التداعي في علم النفس . ويقصد بالآخر ، الحادثة النهائية أو التعبير في ذاته كنتيجة للباعث على ضوء العلاقات الماضية وتماثل في المنطق ما يسمى بالمحمول .

وواضح أن هذا التفصيل يتفق مع ما قيل عن الحكم في كتب المعاصرين ولذلك عرض هولنجورث لبعض آرائهم توضيحاً لهذا التطابق ، فالى اللقاء في العدد القادم إن شاء الله .

حكم نبوية

لعيسى عليه السلام في كتبنا حكم كثيرة منها قوله للحواريين :
« اتخللوا المساجد بيوتا والبيوت منازل ، وكلوا بقل البرية ، واشربوا الماء القراح ، وانجسوا من الدنيا سالمين » .

وقال عليه السلام : « لا تنظروا في أعمال الناس كأنكم أرباب ، وانظروا في أعمالكم كأنكم عبيد ، فإنما الناس رجلان مبتلى ومعافى ، فارحوا أهل البلاء ، واحمدوا الله على العافية » .

وقال عليه السلام لحواريه : « عجا لكم تعملون للدنيا وأنتم ترزقون فيها بغير عمل ، ولا تعملون للآخرة وأنتم لا ترزقون فيها إلا بعمل » .

وقال عليه السلام : « ألا أخبركم بحيركم بحالسة ؟ قالوا بلى يا رسول الله قال من تذكركم بالله رؤيته ، ويزيد في عملكم منطقة ، ويسوقكم إلى الجنة عمله » .

دراسات في التصوف:

السهروردي المقتول

درويشان محمد طلعت زهراني

أستاذ في الآداب

- ٢ -

ومن هنا رأى المتآمرون أن يتجهوا إلى صلاح الدين نفسه ، فأرسلوا إليه مصورين السهروردي في أقبح صورة ، ناعته بأبشع التعوت ، وأوصوه بكل صفة رديئة ، ثم ضربوا وترأ حساساً عند صلاح الدين . فقالوا : « أدرك ولدك وإلا تلف عقيدته » .

وسارع صلاح الدين فأرسل إلى ابنه أن : ابعد عنك الرجل ، ولم ينفذ الظاهر وصية أبيه ، لعله بسر الأمر .

وهنا انقسم الرأي في حلب قسمين : قسم يؤيد ، وقسم يناوئ : حماس ونقمة ، رأى الأولون في السهروردي نبياً من أنبياء العكر ، حكماً قد أوتى كل علم ، ورأى الآخرون فيه ملحد كافرأ ، أقل جزاء له الموت .

ويحدثنا القاضي شداد ، وقد عاصر هذه الحقبة من الزمن ، قال : « أقمت بحلب فرأيت أهلها مختلفين فيه ، منهم من يصدقه ، ومنهم من يريده ، والله أعلم » .

لم يرض بعض الفقهاء بمسلك الملك الطاهر ، واجتمع منهم اثنان : زين الدين ومجد الدين ابنا حميد ، وأثارا نائرة العلماء ، وجمعوا جوعهم ، وتقدموا إلى الظاهر : أن نفذ وصية أبيك ، أن ابعد هذا الزنديق ، وأنقد الدين من شره وخلص العقائد من خطره . وأحرج الظاهر أمام أبيه وأمام الشعب ، فرأى أن يخرج

من المأزق بحل وسط هو أن يعقد مناظرة لتسوية الخلاف؛ فرضى الفقهاء بهذا الحل كما رضى به صلاح الدين .

كان الطاهر واثقا من قدرة السهروردى ومن بلاغته وفصاحته تعبيره ، ولكنه نسى أن السهروردى سيكون متهما في مجلس قضائه هم أعداؤه . واجتمع المجلس ، وناظر السهروردى فيه وظهر عليهم ، وجاء بعض هذه المناظرة في الكتب :

« قالوا : انك قلت في بعض تصانيفك إن الله قادر على أن يخلق نبياً .. وهذا مستحيل .

« قال : وما وجه استحالة ؟ فإن الله القادر هو الذى لا يمتنع عليه شيء . . . ولم يذكر التاريخ هذه المناظرة كاملة ، فقد ضاعت مع ما ضاع من تراث المسلمين وأفكارهم وكتبهم .

وحكم المجلس بإدانة السهروردى ، وبعد مداولة قصيرة حكموا بكفره وجردوه من إيمانه . ثم كتبوا وثيقة كفره ، وأذاعوها سراعا بين الناس . وهكذا نجحت المؤامرة وحكم على السهروردى بالموت . ولم يجد الطاهر بدا من أن ينقد الحكم في صديقه ، واختار القوم كيف يموت السهروردى : هل يمزقونه أم يصلبونه أم يقتلونه ، وكفاهم الملك الظاهر مؤونة التفكير «طلب إلى السهروردى أن يختار ميته ، فاختارها .

لقد كان - حتى في موته - زاهداً متصوفاً ، فاختار أن يحبس في مكان ، وأن يمنع عنه الطعام والشراب حتى يموت جوعاً . كم من الآلام عانى وهو مضطجع يهرأ الجوع أحشاءه ، لقد أراد امتحان قوة صبره ، فكان له ما أراد . أو لعله كان ساجداً في ملكوت الله ، هائياً في بحار الحق ، متأملاً في إله الخلق ، فلم يشعر بجوع ولم يعرف العطش .

وثبتت روايات أخرى عن موته ، فمن قائل إنه خنق ، ومن قائل إنه صلب ، ولكن الراجح أنه في يوم جمعة من ذى الحجة سنة سبع وثمانين وخمسمائة ، أخرج السهروردى ميتاً من الحبس .

ولم يعلم السهروردى من يدافع عنه ، فترى الشهرزورى صاحب «روضات

الجنات ، ينعتة ، بالشيخ المعظم والفيلسوف المكرم العالم الرباني والمتأله الروحاني ، .
وهو عنده جامع بين الحكمتين الذوقية والبحثية . « كان في المكاشفات الرباية آية
والمشاهدات الروحانية نهاية » .

ويستمر الشهرزوري : وصاحبنا كان الوحيد الذي تيسرت له الحكمتان ،
فإننا نرى البعض ، بل والغالبية العظمى لما يتيسر لها غير أحد الوجهين . فأوريد ،
والخلاح ما تيسر لهم غير الكشف دون البحث ، والكثيرون من الحكماء تيسر
لهم البحث دون الكشف .

° ° °

مذهب السروردي :

كنا نود أن نوفي مذهب السروردي حقه من الكلام ، بعد أن أرخنا له ،
ولكن ضيق المجال يضطرنا إلى أن نتحدث عن الخطوط العريضة لهذا المذهب
فحسب ، وأن نتناوله تناولاً عاماً فنعطى عنه فكرة عابرة .

خلف السروردي الذي قتل ولما يتجاوز الثامنة والثلاثين من عمره - على
أصح الروايات - كتباً عديدة ورسائل كثيرة ، بها حكمة وبها إشراف . ولكننا
نجد على العموم ليس صاحب مذهب طريف ، بل إنه قد أخذ التلبد من مذاهب
السابقين ، وتأثر بالكثيرين ممن سبقوه وعلى الأخص « ابن سينا » ، الذي
يحاكى مذهبه في النفس محاكاة يكاد يذهب فيها إلى نفس كلمات الشيخ الرئيس
في قصيدته العينية :

هطت إليك من المحل الأرفع ورقاء ذات تدلل وتمنع
حاكها بقصيدته التي يبدوها :

خلعت هياكلها بجرعاء الحى وصبت لمغناها القديم نشوقاً
كان السروردي متدياً ، ولكن اعتقاده لم يكن اعتقاد العوام ، بل خاصة
الخواص ، يقول في آخر المطارحات : « هو ذا قد بلغ سنى إلى قريب من
ثلاثين سنة ، وأكثر عمري في الأسفار والاستخبار ، والتحصن عن مشارك مطلع
العلوم . ولم أجد من عنده خبر عن العلوم الشريفة ، ولا من يؤمن بها » .

أما قصيدته المشهورة التي يتغنى بها المتصوفون ، فوصف حالة من حالات تجرده ، وإظهار لجة ولسكره ولشوقه :

أبدا نحن إليكم الأرواح ووصا لكم ريحانها والراح
وأحسرتا للعاشقين تحملوا تقل الحجة والهوى فضاح
وهو يخاف أن يوح بصره فانهم :
بالسر إن باحوا تباح دماؤهم وكذا دماء العاشقين تباح
ولكن :

إذا هم كنتموا تحدث عنهم عند الوشاة المدمع السحاح
إنه حبيب يرح به الشوق ، وطوح العشق ، ليس له صبر على البعاد ، يتوسل
يرجو اللقاء :

جودوا على مسكينكم بلقائكم فالصب عند لقائكم يرتاح
خفض الجناح لكم وليس عليكم للصب في خفض الجناح ، جناح
جودوا بنور الوصل من غسق الدجى فالهجر ليل ، والوصال صباح
لا ذنب للعشاق إن غلب الهوى كتمانهم ، فنى الغرام ، فباحوا
حضرنا فباخوا عن شهود ذواتهم وتنهكو لما رأوه وصاحوا
قم ياتديم الى اللدام ، وهاتما فبحانها قد دارت الأرواح
هى خمرة الحب القديم ، ومتهى غرض التديم ، فتم ذاك الراح

هذه بعض أبيات من قصيدته ، تدل كل كلمة فيها عن خلجات نفسه ، وتعبر عن شواهد روحه ، كتبها بقلبه وخطها بذوقه ، لم تملأ عليه أبدا روعة عقله ، أو يلهمه إياها صفاء بيانه ، وإنما هى حالة من حالات الغيب والغناء أنتجت تلك الأبيات التي نحس معها وكأن نفوسنا تتسامى مع معانيه ، نقسمو بعيدا بعيدا ، فى عالم الملكوت ، فى عالم الحضرة الربوبية . أو ليس هو القائل :

لأنوار نور الله فى القلب أنوار وللسر فى سر المحبين أسرار
ولما حضرنا للسرور بمجلس وحف بنا من عالم الغيب أسرار
ودارت علينا للمعارف قهوة يطوف بها من جوهر العقل نهار^(١)

(١) لاحظ قول ابن سينا : أسقنتها نهوة كدم الملا .

وهو يشرح لنا سبب ترحاله وكثرة أسفاره :

ذرى أن أسير فلا تنوحى فإن الشهب أشرفها السوارى

ورأيه فى الاتحاد يتضح من قوله :

خليل إن الأنس فى فرقة الإلس فكأن أبدأ ما عشت فى حضرة القدس
فأنت هو المعنى وفيك وجوده وفيك جميع الخلق والعرش والكرسى

وليس أصرح من هذا قوله فى وحدة الوجود ، فإنه يرى أن الإنسان يشمل
فى ذاته كل شيء حتى العرش والكرسى ، وما أشبه فكرته بفكرة الحلاج :

أنا من أهوى ومن أهوى أنا نحن روحان حللنا بدنا

أليس ذلك هو المعنى الذى يريده حين يقول : « فأنت هو المعنى وفيك وجوده » ،

وهو كتصوف ، يعرض عن لدات الدنيا ، يريد بها ما هو خير وأبقى :

لذة القرب من الله :

نزلنا على حى كرام بيوتهم معدسة ، لا هند فيها ولا علوى
ولاحت لنا نار على البعد أضمرت وجدنا عليها من نحب ومن نهوى
شما ، حيانا وأحبا تقوسنا وأسكنا من راح إجلاله التقوى

كان السهروردى يتأسى بمن يرمونه بكل قبيصة ، فيتجاوز عن الإساءة إليه ،
تجاوز القادر ، العالم ، الواصل إلى أسنى الدرجات

الخلق رضوا بطلبة ذات حزن كم قلت ، وكأقول ، لكن مع من ؟

يعرف السهروردى الصوف بأنه هو الذى اجتمعت فيه الملكات الشريفة ،
أما التصوف عنده فهو اصطلاح عن هذه .

ونجد فى مذهبه آثاراً مسيحية ، تبدو فيما استعمله من كلمات وما اصططعه
من أساليب .

ويحمل على المشائين الذين « اختصروا على أمور تشبه مقولة متى والمالك ،
فإن هذه الأقاويل لتناقضة ، ستندمسون حتماً إذا نادى المنادى الحق بظهور الحقائق » ،

وإن بقيت فتبقى في المواقف الجدلية في رياضة المبتدئين ، فإن صاحب الزروة ذات الألق إذا أنذر صدق ، وإذا وعد حقق .

وقد قرأ كتب أفلاطون ، ودعا إلى التأمل فيها ، وهو ولا شك قد أخذ منها وتأثر بها .

ويدعونا إلى تفهم الدين ، وأن لا تقبله على علاته : « فإن تعبد الله حبا ، خير من أن تعبده خوفا ، فإن التعبد بالتهويل دين اللثام » . وما أسمى رأيه : « لا عمل لنفسك ، فلتد ذل من أحوج إلى الشفع » . ثقة متاهية بالله ، وإيمان بعدله عميق هذا هو إيمان السادة ، لا إيمان العبيد .

وجدير بمن كان مثله أن يؤمن بالعقل ، ولم لا يؤمن به وقد درس الفلسفة ، والعقل هو آلة الفلاسفة ، اصططنه السهروردي كما اصططع النوق ، والعقل عنده نور الله ، ولا يهدي إلى النور غير النور ، إذ النفس مرآة الله ، ومرآة الله لا تشبهها مرآة الأجسام ، وإذا انحل التركيب رجع الواحد إلى الوحيد .

من هذا نرى أنه يفرق بين النفس وبين البدن ، ويرى في النفس مرآة الله ، ولا تشبه النفس الأجسام ، فهذه غير تلك ، ومذهبه في النفس ، كما سبق هو مذهب ابن سينا ، على الأرجح ، وهو المذهب اليوناني القديم ، ولعله أقرب إلى تعريف أرسطو ، الذي ذكره وأخذ به فلاسفة العرب : إن النفس هي كمال أول الجسم طبيعي آلى ذى وجود بالقوة .

ويدعو السهروردي إلى معرفة الله ، بأعاجيب آياته بشواهد هيئة الحضور فإن الفكرة لا تسلط على إله الأرباب .

وأكرر هنا ما سبق لنا قوله من أن العلماء الفقهاء المنصفين ، العارفين روح دينهم . العالمين بأسرار الشريعة السمحاء ، لم يكونوا أبداهم السبب في مثل هذا الاصطهاد ، وإنما هي فئة قليلة ، توجد دائما في كل عصر ومصر وزمان ، تؤلب الحكام على أمال هؤلاء المتصوفة الزهاد الناسكين ، وتعداهم إلى غيرهم من أحرار الفكر ، ودعاة التقدم أعداء الجمود ، فإذا بهؤلاء هؤلاء يلقون اصطهادا ، ويقاسون عسفا وجورا ، ثم لا يلبث التاريخ حتى ينصهم ، فإذا بذكرهم تعود عاطرة فياحة نضرة .

ابن سنان و مذهب الصرف

تفسير الأستاذ الشيخ علي محمد من العمري

تحدثت في مقالات سابقة عن نشأة مذهب الصرف ، وفهم العلماء السابقين واللاحقين له ، ثم تحدثت عما يمكن أن نفهمه منه بعد أن استعرضت موقف النظام ، وموقف الجاحظ من الاسلام بعامة ومن القرآن بخاصة ، وحلست من كل ذلك إلى أن الذي يمكن أن يفهم من كلام الجاحظ أنه لا يقصد الصرف بالمعنى المفهوم عند العلماء ، وهو أن العرب كانوا قادرين على الإتيان بمثل القرآن فصاحة وبلاغة ، وإنما معنى الصرف عنده أن الله صرف العرب عن أن يأتوا بأي معارضة للقرآن ، لئلا تشبه القصة على الأعراب وأشباه الأعراب ، ويجدوا من يقول أن هذا كالقرآن في علو الطبقة ، فيثور الجدل حول كتاب الله ، ثم تمتضي القرون ونجد عالين كبيرين عاشا في أواخر القرن الرابع الهجري وأوائل الخامس ، أحدهما مشرق والآخر مغربي ، وكلاهما كان رجلاً سياسة وعلم ، هما ابن حزم الطاهري صاحب كتاب « الفصل في الملل والنحل » ، والثاني ابن سنان الخفاجي صاحب « سر الفصاحة » ، وكلاهما يصرح بأن العرب كانوا قادرين على معارضة القرآن ، والإتيان بمثله ، لكن الله صرفهم عن ذلك ، وهذا عندهما هو وجه الإعجاز وسره ، ولا شيء غيره ، فرأيت أن أخص كل واحد منهما بمحدث مستقل .

ابن سنان هو أبو محمد عبد الله محمد بن سعيد الخفاجي الشاعر الأديب الشيعي

المتكلم تليذ العالم الشاعر الفيلسوف أبي العلاء المعري ، ولعل مما يدل على تشييعه وتفضيله علياً على أبي بكر كما يفهم من قوله :

وقالوا قد تغيرت الليالي وضيعت المنازل والحقوق
وأقسم ما استجد الدهر حلقاً ولا عدوانه إلا عتيق
أليس يرد عن فذك (على) وبملك أكثر الدنيا (عتيق)

وقد شهر الخفاجي بكتابه سر الفصاحة ، وهو من الكتب المعدودة في البلاغة ، ألفه على طريقة الأدباء ولكن كتابه دون كتب عبد التاھر ، كما شهر بالشعر ، وإن كان شعره في طبقة متوسطة ، وجيده قليل ، تولى بعض الولايات ، ثم غدر به أمير حلب ، فندس إليه من أصدقائه من سمه فتوفى سنة ٤٦٦ هـ^(١) .

ابتدأ في مقدمة كتابه فذكر أن العلماء مختلفون في إعجاز القرآن على مذهبي اثنين . أحدهما أنه خرق العادة بفصاحته . وجرى ذلك مجرى قلب العاصحية ، والثاني صرف العرب عن المعارضة مع أن فصاحة القرآن كانت في مقدورهم ، وهو هنا لا يذكر أن الصرف رأيه ، ولا يجادل عنه ، وإنما يمهّد بذكر المدهيين ليبين مكان الحاجة على كلا المدهيين إلى معرفة الفصاحة والبلاغة ، ولكنه يبادر فينفي شبهة هي أول ما يتوجه إلى مذهب الصرفية ، ذلك أن المعارضة — فيما يرى^(٢) — وقعت فعلاً فيرد على ذلك بأن مسيلة وغيره لم يأت بمعارضة على الحقيقة لأن الكلام الذي أورده غال من الفصاحة التي وقع التحدى بها في الأسلوب المخصوص ، ويقول أن كتابه سيدين أن فصاحة القرآن كانت من جنس فصاحة العرب .

وعنده أن القرآن في طبقة كلام العرب من حيث تلاؤم حروفه ، وتلاؤم ألغازه ، قرر ذلك عندما عني بالرد على الرمانى فيما ذهب إليه من أن التأليف على ثلاثة أضرب : متنافر ، ومتلائم في الطبقة الوسطى ، ومتلائم في الطبقة العليا ،

[١] ترجم له ترجمتين مستفيضتين الأستاذان الماحضان الشيخ محمد كامل الهنّى في مجلة الأزهر ، والشيخ عبد المنعم خفاجي في كتيب خاص .

[٢] كتبت في مجلة الرسالة عثا بعيت به أن يكون وقع شيء من هذه المعارضات ، وإنما هي من تشكّلات الأعياريين .

وأن القرآن كله من النوع الثالث ، ولا يشركه في ذلك غيره ، فيقول في الرد : وهذا الذي ذكره غير صحيح ، والقسمه فاسده ، وذلك أن التأليف على ضربين متنافر ومتلائم ، وقد يقع في المتلائم ما بعينه أشد تلاؤما من بعض ، ولا فرق بين القرآن وبين فصيح الكلام في هذه القضية ، ويصور حجته وجداله ورأيه في الأمور الآتية :

(١) متى رجع الإنسان إلى نفسه ، وكان معه أدنى معرفة بالتأليف المختار ، وجد في كلام العرب ما يضاهي القرآن في تأليفه .

(٢) يحمل على قول الرمانى ، ويعتبره دعوى فاسده ، ويرى أن الأمر لا يحتاج إلى هذا الابعاد الذى ينعم منه كل من علق من الأدب بشيء ، أو عرف من نقد الكلام طرفا ، وأنه لا يخفى إلا على الأعاجم وأشباه الأعاجم الذين لا يميزون بين جيد الكلام وبهرجه ، وأن هؤلاء يقولون بأذواقهم السقيمة ، ولا يلجأون لأهل الصناعة .

(٣) يصرح هنا برأيه فيقول : وإذا عدنا إلى التحيق وجدنا وجه إعجاز القرآن صرف العرب عن معارضته بأن سلبوا العلوم التى بها كانوا يتمكنون من المعارضة في وقت مرأهم ذلك .

(٤) وإذا كان الأمر على هذا فنحن بمعزل عن ادعاء ما ذهب إليه من أن بين تأليف حروف القرآن وبين تأليف غيره من كلام العرب كما بين المتنافر والمتلائم .

(٥) ثم لو ذهبنا إلى أن وجه إعجاز القرآن الفصاحة ، وادعينا أنه أفصح من جميع كلام العرب بدرجة ما بين المعجز والممكن لم نفتقر في ذلك إلى ادعاء ما ادعاء من مخالفة تأليف حروفه لتأليف الحروف الواقعة في الفصح من كلام العرب ، وذلك أنه لم يكن بنفس هذا التأليف - فقط - فصيحاً ، وإنما الفصاحة لهذا ولغيره .

(٦) أليس التلاؤم معتبراً في تأليف حروف الكلمة المفردة على ما ذكرناه فيما تقدم ؟ فلا بد من نعم . فيقال له فما عندك في تأليف كل لفظة من ألفاظ

القرآن بانفرادها ، أهو متلائم في الطبقة العليا أم في الطبقة الوسطى ؟ فان قال في الطبقة العليا ، قيل له : أو ليس هذه اللفظة قد تكلمت بها العرب قبل القرآن وبعده ، ولولا ذلك لم يكن عربيا ، ولا كانت العرب فهمته ، فقد أقررت - الآن - أن في كلام العرب ما هو متلائم في الطبقة العليا ، وهو الالفاظ المفردة ، وإن قال في الطبقة الوسطى قيل له ، إن مشاركة القرآن لطبقة الفاطم على هذا الوجه لا تزال أيضاً .

(٧) إذن لا مانع أن يقال إن في كلامهم المؤلف من الالفاظ ما هو أيضاً مثل القرآن في تأليفه ، فان علم الناظر بأحدهما كالعلم بالآخر .

(٨) وليس تنازعنا في كلمة من كلم القرآن وتقول ليس هذا في الطبقة العليا ، إلا قلنا مثله في تأليف الالفاظ بعضها مع بعض لأن الدليل على الموضعين واحد .

وهكذا يخلص من هذا النقاش في تلاؤم الحروف إلى أن أسلوب القرآن وأسلوب فصيح كلام العرب متحدان في تلاؤم التأليف ، وكل منهما - في هذا - في الطبقة العليا ، وعلى هذا التعميد يخلص في نهاية المطاف إلى ما أراد من أن أسلوب القرآن لا يختلف عن أسلوب الفصحاء من العرب ، فعارضتهم كانت ممكنة لولا الصرفة ، ومعناها عنده على ما نقلنا آنفا أنهم سلبوا العلوم ، ولكي يتضح هذا المعنى نذكر الاحتمالات التي فهمها العلماء من هذا المذهب ، على نحو ما في كتاب الطراز لابن حمزة العلوي .

الاحتمال الأول : أن الله سلب دواعي العرب إلى المعارضة ، مع أن أسباب توفر الدواعي في حقهم حاصلة من التفريع بالعجز ، والتكليف بالانقياد ، ومخالفة الأهواء .

الاحتمال الثاني : أن الله سلبهم العلوم التي لا بد منها في الاتيان بما يشاء كل القرآن ، أعم من أن تكون حاصلة لهم فأريبت عنهم ، أو غير حاصلة لكن الله صرف دواعيهم عن تحصيلها .

الاحتمال الثالث : أن الله منعهم بالالغاء على جهة النسر من المعارضة مع كونهم

قادرين ، وسلب قواهم عن ذلك . والثالث هو المشهور ، والثاني مذهب ابن سنان ، ويظهر أنه مذهب القائلين بالصرفة من الشيعة .

وقد ردد ابن سنان مذهبه مرة أخرى حين جعل يرد على من زعم أن القرآن لا يتفاوت في الفصاحة وذكر أن من يجعل الإعجاز هو بلوغ الدرجة العليا في الفصاحة لا يعكر عليه أن يكون بعض القرآن أفصح من بعض ، ثم يقول :

لكن الصحيح أن وجه الإعجاز هو صرف العرب عن معارضته ، وعنده أن هذا هو المذهب المختار ، وعليه - زعم - أهل هذه الصناعة ، وأرباب هذا العلم ، ثم يقول : وقد سطر عليه من الأدلة ما ليس هذا موضع ذكره ، وكنا نتمنى أن نطلع على هذه الأدلة حتى تناقشها على بينة ، لكنه فيما يظهر أودعها كتابه الذي ألفه في الصرفة ، والذي جاء ذكره في معجم الأدباء في ترجمة أبي العلاء المعري (قرأت بخط عبد الله محمد بن سعيد بن سنان الحفاجي الشاعر في كتاب له ألفه في الصرفة زعم فيه أن القرآن لم يخرق العادة بالفصاحة حتى صار معجزة للنبي صلى الله عليه وسلم ، وأن كل فصيح بليغ قادر على الإتيان بمثله ، ألا إنهم صرفوا عن ذلك . قال في تضاعيفه : وقد حمل جماعة من الأدباء قول (بالضم) أصحاب هذا الرأي أنه لا يمكن أحد من المعارضة بعد زمان التحدى ، على أن ينظموا على أسلوب القرآن ، وأظهر ذلك قوم ، وأخفاء آخرون ومما ظهر منه قول أبي العلاء في بعض كلامه " الخ . ثم ساق قطعتين من كلام أبي العلاء .

ولسنا نرى في كلام ابن سنان هنا ما يجعلنا نؤمن بهذا المذهب ، لأنها دعوى يعورها الدليل ، وليس أمامنا من الأدلة إلا قوله أن تأليف القرآن من منهج تأليف كلام العرب في تلازم الالفاظ ، لأن الكلمات المفردة هي كلماتهم ، فلا بد أن تكون الأساليب أساليبهم ، ولا ندري كيف ذهب عليه أن الكلمات قد تكون واحدة ، ولكن الفصحاء يختلفون في الصياغة ، ألا ترى قطعة الذهب تكون

في يد أحد الصاغة صورة رائعة جذابة، وفي يد آخر بلدية سادجة، وهي هي. أما الرد على نفس المذهب، فموعنا به حين نفصل ردود العلماء السابقين عليه.

بقى أن نقول أن الخفاجي لم يتأثر بأستاذه في هذا المذهب، لأن أيا العلماء لا يقول به، وبعض العلماء يذكرون أنه عارض التمرآن بكتابه (الفصول والغايات) وينفي ذلك الرافعي في إعجاز القرآن، وتأثير الكتاب في المقدمة، وقد ذكر ابن سنان — على ما أرجح — قطعتين، وهو تليذ يتحدث عن أستاذه، فلا يبعد أن يكون أبو العلاء قصد بكتابه هذا أن يكون على نمط القرآن، دون أن يقصد الأنيان مثله، فهم الناس أنه يقصد المعارضة فقالوا ما قالوا، وكيف يكون ذلك والكتاب كله في تمجيد الله وتقديسه، حتى الفقرات التي ذكروها له، ونقلها الرافعي جاءت ناقصة ومبدلة، ويظهر أن ما حذف منه تعمدا وحذفه، لأنه يبطل دعواهم وهذه الكلمات مما حذف: (شعر النابتة وهذيل، وعناء الطائر على الصيل، شهادة بالعظمة لمقيم الميل^(١)). وإذا كان أبو العلاء قصد المعارضة على رأى ابن سنان وياقوت، فلا يكون فائلا بالصرفه. على أن موقف أبي العلاء من ابن الراوندي وكتبه شهادة على عقيدة الرجل في القرآن، تعرض لمكتب ابن الراوندي في رسالة الغفران، وسخر منها سخرية بليغة ولم يتعرض لرأى من آراء ابن الراوندي، ولكنه تناول كتبه جملة، ألا كلمة قالها في القرآن، وقد تعرض له ابن الراوندي في بعض كتبه فقال: إنه يجد في كلام أكرم بن صفي أحسن من إنا أعطيناك الكوثر، نفسه أبو العلاء بكلمة قوية جاء فيها (وأجمع ملحد ومهتد، وما كب عن المنجحة ومقتد، أن هذا الكتاب الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم، كتاب بهر بالإعجاز ولقي عدوه بالأرجاز، ما حذى على مثال، ولا أشبه غريب الأمثال، ما هو من القصيد الموزون، ولا الرجز من سهل وحرون، ولا شاكل خطابة العرب، ولا يجمع الكهنة أولى الأرب). والرجل مع ذلك قلق حائر مضطرب، فلسنا نستبعد أن يكون خضع لبعض ذلك في بعض أيامه، أما الذي نجزم به — على مبلغ ما اطلعنا عليه من كتبه — أنه لا يقول بمذهب الصرفة، والله الهادي الى سواء الطريق.

على هامش الأخبار

عظة واعتبار، وزجر وإنذار

لفضيلة الأستاذ الشيخ أبو الوفا المرافى

مدير المكتبة الأزهرية

نشرت صحيفة الأهرام بعددها الصادر بتاريخ ١٩٥١/١/٥ خبراً ملخصه : أن فرقة البالية الراقصة كانت تقوم باستعراض راقص بصالة جامعة فؤاد الأول بمشهد من بعض السفراء والعظماء والطلاب ، فأثارت مناظر الفرقة وحركاتها بعض الطلاب ، فتهجموا على العذارى يحاولون تميلهن ، وقد أغنى على بعضهن ، ونشرت صحيفة أخرى : أن بعضهم قبل فعلاً واحدة منهن ذكرت اسمها وصورتها ، وأن مدير الجامعة اعتذر إليها وإلى سفير دولتها .

هذا هو الخبر بمختلف رواياته ، ولا شك أنه وصمة عار في جبين مصر ، وفي جبين الجامعة المصرية ، كما لا شك أن السفراء سيقابلونه بما يستحقه من الاستنكار والاستهجان ، لما سيكون له من أثر في الدوائر المصرية والأجنبية ، العلمية منها وغير العلمية ، وستجنى منه مصر عامة والهيئات الثقافية بوجه خاص أسوأ الثمرات ، وسيصور المصريون من جرائه بصورة البربر المتوحشين الذين لا يقدرون الفن ، ولا يعرفون الخلق والتقاليد ، بله الكرامات والأعراض .

والحادث بذاته وبآثاره كارثة فادحة وشر مستطير ، إلا أنه برغم ذلك قد لا يعدم فيه رجل الدين ، والغيور على الحرمات الدينية ناحية من نواحي الخير ، بل قد يبدو له من التفحص فيه أكثر من ناحية من هذه النواحي .

ففي الحادث دلالة بالغة للفاقلين والجاهلين على صحة الحكم ، وصواب الحكمة فيما جاء به الدين من تحريم اختلاط الجنسين ، وتحريم عرص مفاتن النساء على الرجال في أية صورة ولأى غرض ، لخطورة ذلك على الفتاة والأسرة والأمة . وفيه حجة دامغة على صحف الأحاديث التي طالما سود بها المستهترون وجه الصحف ، وسحروا فيها من أحكام الدين وحكمه في هذه الناحية ، واتهموها زوراً وصلالاً وجهلاً بأنها من معوقات نهوض الأمة ، لحرمانها مما في الاختلاط من تهذيب للأخلاق . . . وسمو في الوجدان والمواطف ، وما إلى ذلك من نظريات فاسدة وأقوال خاطئة ، ومادوا بوجوب التحلل منها لتنفيذ الأمة مما حرمت منه ، وجعلوا من ذلك قضية لا يملون من معاودة الحديث فيها ، والتغنى بمحاسنها .

أجل في هذا الحادث أوضح دلالة على سمو الحكمة الدينية في موضوع الاختلاط ، فهو الدليل السافر والبرهان القاطع الذي لا يحتمل شكاً أو ممانعة تسوقه الأقدار ، لمظاهرة رجال الدين فيما يتحدثون به ويدعون إليه ، ويتفقون الوقت والجهد في طرائق الإقناع به ، وتسوقه الأقدار لتحدل به قوماً لداً حالفوا الشيطان ، واتخذوا من الاستحفاف بالدين وأحكامه وسيلة إلى الشهرة ، وسلباً إلى المطامع الدنيئة ، فضل سعيهم في الحياة الدنيا ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا .

وفي هذا الحادث دلالة على أن الإنسان مع أنه ناطق مفكر ، فهو بطبيعته حيوان يستجيب لداعى حيوانيته وغريزته لأول فرصة ، سيما في عنفوان الشباب وفوران الغريزة ، وأن ما يدعيه المتحذلقون من أن التهذيب يسمو به عن حيوانيته ويكاد يجره عن طبيعته ويحيل نظرته إلى الوقائع والأمور ، ويلحقه بالملائكة الأطهار والأصفياء الأبرار ، ما هو إلا سفسطة ومغالطة يدحضها الحس والواقع حين تبدو طبيعته سافرة لا تحجبها الطلال والألوان .

وفي هذا الحادث زجر وتأديب لأولئك المسئولين الذين يسمحون لهذه المهازل أن تمثل باسم العلم والفن ويعرضون سمعة الأمة للتشويه والتشنيع ، ويصورونها

بل ويصورون حاصتها ومتعلبيها والشبهة المرجاة لمستقبلها في صورة حمر الفلوات
ووحوش الأدغال في وقت كنا نرجى فيه لمصر من وراء الاحتفالات العامة دعابة
طيبة وسمعة كريمة ، وتنفق في سبيل ذلك ما لا يقدر من الجهد والمال .

ولعم الحق ما ينبغي أن يكتفى في تأديب أولئك بهذا الزجر الأدبي وما يأموا
به من الخزي والعار ، ولكن وجه الصواب في مؤاخذتهم ، وسبيل الحزم والصرامة
معهم ، أن نقدمهم إلى المحاكمة بتهمة تعريض سمعة الأمة وكرامتها لمثل ما تعرضت
له من تشويه وتشنيع واقضاح .

وفي هذا الحادث أحيراً نذير لأولياء أمور الفتيات والقوامين عليهن ،
بأن لا تمددعهم زحارف القول في استحسان تحرر الفتيات وتحللن من أحكام
الدين وتقاليد الشرق الكريمة باسم الرق والتجديد ، وإباحة اختلاطن بالرجال
في المنازل والملاهي .

ولا يمددعهم ما ينبغي به المجددون من أن الحجاب أثر من آثار الاستبداد
والآثرة وتحكم الرجل في المرأة وحكم من أحكام الدين الفاسية ، كبرت كلمة
تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا ، فاهو إلا مرحة من مراحم الدين ،
وما هو إلا حكمة سامية في أن تكون الفتيات كما أراد الله لهن من التصون
والعفاف والبعد عن أعين الغرباء وقلوبهم ، والسمو بهن عن أحاديث السوء
والبهتان ، ليكن كالجواهر الكريمة يزيدنها الاغتراب حباً إلى النفوس وإغراء
بالنطلع إليها والمغالاة في المحافظة عليها :

وزاده كلفاً بالحب أنت منعت وحب شيء إلى الإنسان ما منعا

هذه كلمات أوحى إلى هذا الخبر بكتابتها ، وفي النفس أشياء وأشياء ، وعسى
أن يكون في تلك الكلمات خير فيصدق ما يقال :

« يأتي الخير أحياناً من طريق الشر » .

مصر والسودان

لمحاضرة الأستاذ عبد المنعم السنج

مدرس أول الآداب بالمعهد العالي

عرضنا في العدد السابق من هذه المجلة ، للرباط التاريخي الجامع بين مصر والسودان . والآن نتابع بسطنا لهذا الموضوع . موضحين بقية الروابط التي تقوى دعائم الوحدة ، وتشدد من أزر الداعين إليها ، العاملين على تحقيقها ، وتوهن دعوة الباطل ، وتسكت صوت الجور والظلم .

فن الوجهة الجغرافية ، تعتبر مصر والسودان ، وطناً واحداً ، ويقسم هذا الوطن الواحد ، إلى عدة أوطان محلية ، يمثل كل منها إقليماً جغرافياً صغيراً ، كان له دوره الخاص في نشأة المدينة وتطورها . ومن تلك الأقاليم جميعاً ، يتكون ذلك الوطن الواحد ، مصر والسودان ، الذي يربط نهر النيل بين أجزائه ، بحيث يتم بعضها بعضاً . ويحسن أن نشير في هذا الصدد ، إلى أنواع الحدود الكثيرة : فهناك الحدود السياسية بصورتها المعروفة ، ثم الحدود الحيوية ، التي تشمل المصالح الضرورية ، كذلك التي ترتبط بها حياة مصر ، وهذه تمتد إلى معظم جهات حوض النيل ، لا سيما السودان والحبشة ، اللتين يأتي عن طريقهما ماء الفيضان والغرين ، الذي يغذي الأرض ، ويجدد الخصب ، وكذلك الهضبة الاستوائية ، التي تمتد مصر بالمياه في انتظام طول العام ، فتعوض من ذبذبة الفيضان الحبشي ، الذي يقتصر على جزء محدد من السنة . وهناك الحدود الثقافية والبشرية العامة ، التي تشمل تلك الأراضي التي تربطها بمصر التاريخية ، روابط قوية من الثقافة المتبادلة ومن مختلف النواحي البشرية العامة ، وهذه تشمل السودان الشبالي ، وبقية شمال أفريقيا وهناك كذلك الحدود العسكرية ، التي ترتبط بشئون الدفاع عن مصر ، وتشمل الصحاري المجاورة ، وتمتد إلى ما وراء الحدود السياسية من ناحية الجنوب ، على أننا إذا جمعنا بين التاحيتين الحيوية والبشرية العامة ، فإننا نصل إلى أن حوض

التيال الأوسط والأدنى فى شمال السودان ووسطه وفى مصر يكثون وطناً واحداً متهاكك الأجزاء .

أما من الناحية الثقافية ، فإن مصر ترتبط بالسودان ، بروابط ثقافية ، تزيد الألفة بينهما ، ولعل هذه الرابطة حالياً ، وما تتمناه لها من الازدهار والنماء ، تسكون من أقوى العوامل ، التى توازر فكرة التوحيد ، وتعمل على إيقاظها ، فى جو من نور العرفان ، وتتميز حقائق الأمور . . وسأتى الآن على مختلف الوسائل الثقافية التى تنشرها مصر فى السودان ، ولكن فى شىء من الإيجاز : فهناك كلية الأقباط بالخرطوم ، وطلبتها خليط من المصريين والسودانيين ، وبها أقسام ثلاث ، روضة وابتدائى وثانوى ، وتعينها وزارة المعارف المصرية ، بما تقدمه لها من مدرسين ومختلف المساعدات ، كما أزمعت وزارة المعارف المصرية ، إنشاء مدرسة ثانوية حكومية بالخرطوم . ولكن الاعتماد اللازم لها حذف من ميزانية ١٩٣٩/٤٠ بسبب نشوب الحرب .

وتعمل وزارة المعارف المصرية جاهدة على تيسير العلم لأبناء الجنوب ، خفضت لهم أجور السفر ليسهل انتمائهم إلى الشمال ، ليعبوا من متاهله العذبة . كما أخذت ترسل إلى السودان بعض الأفلام التعليمية المصرية ، وعملت كذلك على إنشاء محطة للإذاعة المصرية هناك . ولوزارة الشؤون الاجتماعية لجنة فرعية ضمن لجنة السودان الدائمة ، وذلك لتنظيم الجهود الاجتماعية والخيرية ، لمساعدة إخواننا السودانيين فى الملمات . ويحسن أن تعرف أن لنادى الصيد الملكى فرع بالسودان . وهناك وسائل كثيرة لزيادة الربط بين الشعبين ، أمرها هين ميسور معروف . لمن يريد أن يخطو خطوات موقفة فى هذا السيل .

وترتبط مصر بالسودان ، بروابط اقتصادية متينة ، فمن السودان تستورد مصر الأغنام والمواشى ووجلود الماشية غير المدبوغة ، والسمن والأسماك المملحة ، والذرة العويجة والقرول السودانى ، والسهم والعاصولياء ، والحص والبাদلاء ، ولب البطيخ والبلح . أما مصر فتصدر إلى السودان السكر والمنسوجات ، وخاصة المنسوجات القطنية المصبوغة بعد النسيج والمنسوجات القطنية المحلوطة بالحرير الصناعى ، ومنسوجات الحرير الطبيعى ، ومنسوجات الحرير الصناعى ، وتصدر مصر كذلك

إلى السودان الدخان والسجائر وانبعاثك والسيجار ، والأسمنت والصابون ، والفواكه الطازجة ، والحلوى والمرببات المحفوظة ، والأرز والاحذية الجلدية ، والمصنوعة من الفماش والمطاط .

ولكن يجب أن نقرر أنه ما زالت هنالك بعض العقبات في طريق صادرات مصر إلى السودان ومن ذلك ارتفاع أجور نقل المنتجات المصرية على السكك الحديدية السودانية ، كما انعدمت العناية المصرية للسلجات في أسواق السودان ، ويدخل في ذلك أيضاً شدة المنافسة اليابانية للسلجات المصرية ، وفساد النظام الجركي في السودان ، ذلك النظام الذي لا يحمي المنتجات المصرية من الواردات الأجنبية ، أصف على ذلك السمعة السيئة ، التي أوجدها الوسطاء بتصرفاتهم غير المشروعة .

وأما عن الرباط القومى والسياسى ، فيبدو أن فكرة التوحيد بين الشطرين ، قد ثبتت أولاً في الوطن المصرى المتحضر ، الذى أدرك كنه هذه العلاقة ، فسير الجيوش لضم الشطر الشقيق ، أما فكرة الضم هذه فقد نبتت في أذهان السودانين لما مستهم الحضارة والمدنية ، وحل بواديه نور العرفان ، واعتقدوا ، كما اعتقد أشقاؤهم ، في انشمال ، أن لا حياة لمصر بدون السودان ، ولا حياة للسودان بدون مصر ، فتكونت عندهم الأحزاب السياسية التي تدعو إلى ذلك ، وتعمل جاهدة لبلوغ هذه الغاية المحيية .

ولكن لما طغنت الموجة الاستعمارية على الفارة الإفريقية ، ووقعت مصر والسودان في أرجل الأخطبوط الإنجليزى ، ظهر في الأفق ما يمكن أن نسميه بالمسألة السودانية المصرية ، لأن الذى كانت تستطيع مصر تحقيقه بقوة الجيش والعتاد ، أصبحت تلجأ إليه سياسياً عن طريق المفاوضات والمحادثات . وهى إذا كانت مع الإنجليز دهاة السياسة ، وقراصنة الاستعمار ، أصبحت الآمال من ورائها سرايا خداعاً ، يقتل المغتر فيه !!

وسأتناول في هذه العجالة أبرز مشكلة في تاريخ علاقاتنا بالانجليز ، خاصة بالسودان ، وهى اتفاقية ١٨٩٩ ، والحكم الناتج في السودان ، وهى الاتفاقية ، التي يح صوتنا في المطالبة بالغائها . وتبتدى هذه الاتفاقية بعرض حيثياتها ومقتضياتها ، فنقول بما أن بعض الأقاليم السودانية قد خرجت عن طاعة الخديوى ،

وأعيد فتحها بالجهود الحربية والمالية المشتركة بين مصر وإنجلترا ، فقد أصبح لازماً ، أن تشترك الدولتان ، بحق الفتح ، في وضع النظام الإدارى والقانونى للسودان . ولست أبغى هنا سرداً لنصوص هذه الاتفاقية ، وإنما أكتفى بتقنين دعوى الانجليز في تمسكهم بها بحجة الفتح المشترك ، وفى ذلك يقول رجال القانون المصريون ، إن الحكومة المصرية قد أكرهت على إخلاء السودان ، وإن الخديو بمقتضى الأوامرات الشاهانية ، لا يملك حق النزول عن أرض مصرية أو تابعة لمصر ، وفوق ذلك فالأوامرات التركية تحرم على الخديو إبرام اتفاقيات سياسية ، وإنجلترا إحدى الدول المعترفة بهذه الأوامرات ، وكذلك لم يقرن الاتفاق بملكية السلطان العثمانى للسودان ، وهو ملك له ، كما أن مصر كانت تابعة للسيادة التركية .

وعليه فاتفاقية عام ١٨٨٩ ، لا تربط مصر ، من الوجهة القانونية الدولية ، أضف إلى ذلك : أن عبء فتح السودان ، وقع أكثره على عاتق مصر ، حيث لم تشترك إنجلترا فيه ، إلا بوضع مئين . ثم إن مساعدة الحماية الانجليزية لمصر في هذا الفتح ، يعتبر من باب مساعدة الوصى لمحجوره في رد جزء من أملاكه ، فقد بسبب سوء تصرفاته . وسوف لا أعرض لتاريخ النضال بين إنجلترا ومصر ، من أجل السودان ، منذ بدء الحركة الوطنية وقبلها ، لأن ذلك يحتاج بجوئاً مستفيضاً ، يضيق بها الوقت . والمهم هو أن نعلم ، أن قادة الشعب المصرى ، لا يعتاون يقطعون المفاوضات ، ويترضون لوطأة النقي والحرمان ، ضناً منهم بالتفريط في قضية ، هي الحياة لسكلا الشطرين ، ويناصر قادة الشعب المصرى في الشمال ، قادة الشعب السودانى وزعماءه المستيرون في الجنوب ، ذلك لأنهم يدركون أن الاتحاد ، ليس في أى صورة من صوره ، استعماراً أو تسلطاً ، وإنما هو اتحاد المصالح المشتركة والعواطف المتبادلة .

أما عن الرباط الجنسى واللغوى والدينى ، فنحن قد علمنا ، بما سلف في العدد الفائت ، أن سكان السودان ينتمون إلى أصول كثيرة ، منها الزنوج ، والنج ، والنوبة والمولودون ، والمهاجرون والعرب ، وجلهم يقطن لإقليم النوبة ، ولغتهم هي العربية ، ودينهم هو الإسلام ، وعلى ذلك يرى أن السودانيين تربطهم بالمصريين ، رابطة الدم واللغة والدين .

وختاماً لموضوعنا هذا يحسن أن نورد بعض التصريحات التى أجراها الحق

والعدل على السنة بعض ساسة الإنجليز ، ولكن هذه التصريحات ، لا تكاد تخرج من أفواههم ، حتى تذيبها حرارة جشعهم الاستعاري ، وتلاشى أمام الحقيقة المسيطرة المسيرة لسياسة اللول الاستعمارية ، وهي أن المبادئ الفلسفية ، والتوكيدات والمواثيق النظرية ، التي ينادى بها ، ساسة اللول ، إبان المحن والكروب ، لا يمكن أن تخرج إلى عالم الواقع ، إذا عاد السلام مرة أخرى ! قال اللورد « سالسبوري » لسفير فرنسا في ١٢ أكتوبر سنة ١٨٩٦ « إني متمسك على وجه العموم بهذا الرأي - ذلك أن وادي النيل ، كان وما زال ولن يزال ملكا لمصر ، وإن كل مانع أو انتقاص ألم يحتمل هذه الملكية ، ومن جراء فتح أو احتلال المهدي قد زال وتلاشى بحكم انتصار الجيش الإنجليزي المصري » . وخطب اللورد « روسبيري » في مدينة « أبسون » بتاريخ ١٢ أكتوبر عام ١٨٩٨ فقال « لكي تقرر حقوق مصر على فاشودة ، بطريقتة حاسمة ، قد كفانا أن نذكر الحكومة الفرنسية بأقوالها في السنين الأخيرة ، وذلك باستعارة أقوال « المسير دكريب » و « كوريسل » و « هانوتو » « نحن على وشك أن نرد لمصر ، ما هو من أرضها ، وذلك حسب التصريحات التي فاهت بها الحكومة المصرية » وهذا أمر جلي واضح ، حتى إنه ليشق على أن أصدق ، أنه في الإمكان العثور على شيء ينافية . وكتب « اللورد كرومر » ، في تقريره عن عام ١٩٠١ « وليس الغرض من عند اتفاقية عام ١٨٩٩ حرمان مصر من حقوقها في السودان ، بل تزويده بحكومة صالحة ، والتخلص من العقبات التي تلقاها ، في مسألة الامتيازات » . وكتب اللورد كمبرلي في ٤ أبريل عام ١٨٩٥ إلى « اللورد دوفرين » « إذا كانت مصر تسترد السودان ، الذي كانت تحتله في المدة السالفة ، فمن الواجب علينا ، أن نعترف بحقها في امتلاكه » . واعترف « اللورد كرومر » في تقريره عام ١٩٠١ ، بمشروعية الملاحظات ، التي أبدتها في مجلس الشورى ، عند الاقتراح على الميزانية الخاصة بالسودان ، فقد قرر فيها المجلس « أن السودان ، جزء متمم لمصر » .

تلك هي التصريحات والمسكبات النظرية ، لسكبار الإنجليز في المسألة المصرية السودانية . فأين نحن منها في عالم الواقع ؟ ويمكن أن تلج طابع الدهاء في السياسة الإنجليزية ، عندما نعلم ، أنه بعد أن أعيد فتح السودان ، عينت الحكومة

السودانية ، مرتبات لآبناء المهدي وخلفائه وزعماء المهدية ، وعيّنهم في كثير من الوظائف ، وعملت أبنائهم بالمجان .

أما اهتمام ملوك مصر والزعماء فيها بأمر السودان فشيء غنى عن البيان ، وليست استقالة شريف باشا في أواخر عام ١٨٨٣ ، من أجل السودان ، بالأمر الذي يغيب عن الأذهان ، وليست تغيب عن الأذهان كذلك ، مذكرة رياض باشا إلى السير « إفلن بارنج » في ٩ ديسمبر عام ١٨٨٧ ، وهي بشأن السودان ، وقد جاء فيها : لا يتنازع إنسان في أن النيل ، هو حياة مصر ، وهذا أمر واضح جلي ، لا يختلف فيه إنسان . إذ أن النيل هو السودان ، ولا يرتاب أحد ، في أن العلاقات التي تربطهما لا انفكاك لها ، وهي أشبه شيء بعلاقة الروح بالجسد ، فإذا استولت دولة ما على ضفاف النيل ، فعلى مصر العفاء ، ويعلم من ذلك أن حكومة سمو الخديو لا يمكن أن تقبل بمحض رضاها واختيارها ، وبدون أن تكره على ذلك تعدياً كهذا على وجودها وحياتها ، وليس أدل على بالغ عنايتنا لشئون الجنوب ، من تشكيل محمود سامي باشا البارودي وزارة للسودان . وقد جاء في مشروع الدستور الذي وصفت لجنة الدستور في عهد وزارة عبد الحافظ ثروت باشا عام ١٩٢٢ بشأن السودان : (مادة ٢٩) الملك ياتجب بملك مصر (مادة ١٤٥) تجري أحكام هذا الدستور على المملكة المصرية جميعها عدا السودان ، مع أنه جزء متمم لها ، يقرر نظام الحكم فيه بقانون خاص .

ولقد استقالت وزارة ثروت باشا ومن بعدها وزارة نسيم باشا بسبب معارضة الحكومة الإنجليزية لحسين النصين ، وجاءت من بعدهما وزارة يحيى إبراهيم باشا في ١٥ مارس عام ١٩٢٣ ، فرفضت كلمة السودان ، حتى يقرر أمره نهائياً بواسطة المفاوضات ، ثم عدلت أيضاً في المادة (١٤٥) بأن قالت : « إن حذف كلمة : السودان جزء من مصر ، لا تمس ما لمصر من الحقوق في السودان . وصدر الدستور على هذا الأساس في ١٩ أبريل عام ١٩٢٣ .

وعلى هذا رى أن فكرة إدماج شمال الوادي مع جنوبه ، فكرة مختلطة باللحم والنم ، وعقيدة راحته في قلوب المواطنين جميعاً ، سودانيين ومصريين ، وسوف لا يتحولون عنها ، ولو مزجوا ماء النيل ، بالدماء تدفق مع تياره إلى الشمال ، ويضوع غيرها مع نسائمه إلى الجنوب !!

ضبط النفس

لفقيه الأئمة الشيخ محمد عبد النواب
مفتش الوعظ العام بالأزهر

كل بنى الإنسان في هذه الحياة ، بين تصاريضها المختلفة ، وأوضاعها المتباينة ، متقلبون في سراء وضراء ، تتقاذفهم منح وعجن ، وتتجاهلهم قوى الخير والشر ، والنعاء والبأساء .

والكيس العطن هو الذى يلقى الأحداث على ما فيها من شدة وحدة بأناة ، وصبر ، وضبط للنفس ، واعتصام بالسكينة يهديه إليها عقله المتبصر ، وقلبه المستنير ، ويمسك بها ديه الذى يبشره في دنياه وأخراه بالحسنيين ، ويظفره بفضل الله ، وحمد الناس .

ضبط النفس حين ترفعها سفاهة السفهاء ، ارتفاعها عن هذا الدرك البغيض ، وسموها في حائق المجد ، وسموات الجلال .

وضبط النفس في ملاقة أحداث الدهر ، جلادة نشاط العزيمة ، وتنمى الشكيمة ، وتلبي عن ألقه باقه والرضا بقضاء الله .

وضبط النفس في تحمل أعباء الحياة ، والقيام على شئونها في تعامل واختلاط ، وتربية ، أجل أثراً ، وأعظم خطراً . ففيه الأسوة الطيبة ، والعزة الغالية ، والترويض الحكيم في شئون الأسرة ، يلزمنا ضبط النفس ، فإذا اختلف الزوجان في أمر صغير أو كبير ، وقام ضبط النفس ليسد على هذا الخلاف منفذه إلى الشر المستطير ، مرت العاصفة بسلام وهذا الزوجان إلى حسن التفاهم ، وحكم العقل ، وسداد التفكير .

وإذا اختلف الولد مع أبيه ، أو الأخ مع أخيه ، وأخذت الروية تحيط المحلطين بسكينتها ، وبصيرتها ، واستمع كل مخالف إلى نذير الفُرقة ، وتشيت الأسرة ،

ينعق بين هذا الخلاف ، فأقبل في اشفاق ، وحب ، يتقطع جبل هذا الشقاق ،
ويصل ما كان من مودة ، وطاعة ، وألفة ، إذن : لكان لضبط النفس في الأسرة
سبيل إلى العزة ، والسعادة والاعتلاف .

وفي شئون التربية والتعليم يلزمنا ضبط النفس فالأستاذ - لا ريب - يرى
من جموح طلابه - في شبابهم - ومن نزواتهم ، ونزغاتهم ، ما لو برم بها ، ويأس
من علاجها ، لاستفحلت ، واستعظمت ، وهنا في ضبط النفس ، وأخذ الأمور
بالحكمة ، والحنكة وحسن التوجيه ، ما يرجى معه ، في حسن الاستعداد
من الطلاب ، استكمال غايتهم ، وارتقاء ظفرهم ، ودوام الحب ، والتقدير ،
وحسن الرعاية .

وضبط النفس في التعامل بين الناس ، تعويت للقصد السيئ من السيئ ، وكسر
من حدة الشر الحتدي ، وتضييق من هوة الخلاف ، حتى يرأب الصدع ، ويسكن
النائر ، ويهدأ الحاطر

ذكروا أن رجلاً شتم الشعبي ، فقال الشعبي له : « إن كنت كما قلت فغفر الله
لي وإن لم أكن كما قلت فغفر الله لك » .

وقسم معاوية رضي الله عنه 'قطاً' ، فأعطى شيخاً من أهل دمشق قطيفة منها ،
فلم تمعجه ، خلف أن يضرب بها رأس معاوية ، فأناه ، فأجبره . . فقال له معاوية :
أوف بنورك وليرقى الشيخ بالشيخ . . .

وما أجل ما يطق القرآن الحكيم : « ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي
هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم وما يلقاها إلا الذين صبروا
وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم » .

واتد جاء هذا الدين الحنيف - دين الإسلام - مبنياً شرف الغاية ، وجمال
القصد ، في ضبط النفس قال عز شأنه : « ولمن صبر وعفر إن ذلك لمن عزم الأمور » .
كما جاء مبنياً للأثر السيئ والخطر الجسيم ، في ثورة النفس ، وانطلاق شيطانها
يعيث فساداً ، ويتموض وداداً ، ويتمطع الآمن والأمان .

روى الإمام مسلم عن جابر رضي الله عنه قال : « أقتل غلامان ، غلام من
المهاجرين ، وغلام من الأنصار ، فادى المهاجر أو المهاجرون ياللهماجرين ، ومادى

الأنصارى : يا الأنصار ؟ فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « ما هذا ؟ »
دعوى أهل الجاهلية ... قالوا لا يا رسول الله إلا إن غلامين اقتتلا فكسع أحدهما
الآخر . قال . فلا بأس ، ولينصر الرجل أحاه ظالماً أو مظلوماً ، إن كان ظالماً
فلينبه فإنه له نصر ، وإن كان مظلوماً فلينصره .

وروى البخارى ومسلم عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم : « سباب المسلم فسوق وقتاله كفر » .

وقد حكى عن الأحنف بن قيس أنه قال ما عادانى أحد قط إلا أخذت
فى أمره بإحدى ثلاث خصال ... إن كان أعلى منى عرفت له قدره ، وإن كان
دونى رفعت قدرى عنه ، وإن كان نظيرى تفضلت عليه .

وقال الشاعر :

سألزم نفسى الصفح عن كل مذنب	وإن كثرت منه إلى الجرائم
فما الناس إلا واحد من ثلاثة	شريف ، ومشروف ، ومثل مقاوم
فأما الذى فوقى فأعرف قدره	واتبع فيه الحق ، والحق لازم .
وأما الذى دونى فأحلم دائماً	أصون به عرضى وإن لام لائم
وأما الذى مثلى فإن زل أو هفا	تفضلت : إن الفضل بالفخر حاكم

وبعد : فإن نحن أهبنا بالناس جميعاً ، على اختلاف أجناسهم ومراتبهم ، رجالهم
ونسائهم ، شبابهم وشيوخهم ، صناعاتهم وزراعتهم وتجارهم ، وأصحاب الأعمال ،
وأرباب الوظائف ، والرؤساء والمرؤسين والحكام والمحكومين أن اضطربوا
أنفسهم ، واكظموا غيظكم . وأيقظوا عاطفة الصفح والحلم والآناة ، فإن القرآن
الكريم قد نادى بذلك المبدأ السامى النبيل : « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض
عن الجاهلين » .

وإن السنة المطهرة قد أبرزته واضحا ناصحا فمن أبى هريرة رضى الله عنه أن
رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« ليس الشديد بالصرعة ، إنما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب » .

الا : ولئلا هذا فليعمل العاملون ، والله الموفق .. والمستعان ؟

تَعَدُّ الزَّوْجَاتِ

للمؤلف: نواز إبراهيم عمار

المراقب بالأزهر

هذه نثرات عما في حياتنا من عيوب ، أردت من تصويرها أن أضع العلاج لها رجاء أن تقاطع عنها ، إن لم يكن استجابة لنساء الدين ، فإجابة لداعي الوطنية ، وحرصا على النفوس من التدهور والسقوط .

يعتبر الدين الإسلامي الزوجة النعامة الأولى في بناء حياة الأسرة والخلية التي يتكون منها جسم الأمة ويقوم عليها صرح الدول ومجد الشعوب .

ويحرص على أن تكون هذه الخلية سليمة متينة قوية لتنتج نسلا كثيرا منيعا قويا . وبذلك يكثر سواد المسلمين ؛ وتتحقق فكرة الإسلام من عمارة الأرض ونماء الثروة ، وازدهار الحضارة ، وتقدم العلوم والفنون ، وأن يكون الناس كلهم إخوانا متساوين يسودهم القانون ، وتحقق على الرعوس ألوية الحق والعدالة والحرية والمساواة .

فتراه قد تعهد بها في جميع مراحلها برعايته وعطفه وأحاطها بسياس من الضمانات القوية ، وطائفة من النظم القويمة ، ومكن لها في بيتها ، وجعلها حفيظة على ما فيه من مال وبنين .

وحسبي في التدليل على هذا سلوك النبي صلى الله عليه وسلم مع زوجته خديجة رضي الله عنها : فلم يعرف عنه أنه وقف منها موقفا لا ترضاه ، ولم يحفظ لنا التاريخ ، على طول ما حفظ من مراحل حياته دقيقة وجليلة هيبتها وعظيمها . أنه ألمها أو آذاها أو تركها تبيت ليلة واحدة على غير تمجيده كزوج وكأب يرعى أبنائه ويتعهدهم ويكفل لهم الهنأة والإسعاد .

وغاية الإسلام من الزواج بينة واضحة صريحة كما جاء في القرآن الكريم :
ومن آياته « أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم
مودة ورحمة » .

فأى تواد ورحمة عند قوم تعدد في بيوتهم الزوجة ، وكيف يسكن الزوج
لزوجته والزوجة لزوجها وهم يبيتون على عداوة ؟
إن البيت الذى يضم بين جدرانہ أولاداً ليسوا أشقاء ، هو بيتٌ يُضنيه الحقد
وُيرديه العل ، وتقضى عليه الأطاع ، وتهلكه المنازعات .

وإن الولد الذى ينشأ فى أحضان هذا البيت ، هو ولدٌ قد قدَّ قلبه من صخر
وحبك ضيرٌ من قسوة ، لا يعرف حبا ولا رحمة ، يُنكر حق الأخوة ، ويجهل
ما لها من قداسة ، ولا يكن فى نفسه غير الجشع والطمع ، واستلاب مال أخوته
الباقيين ، قد انطلوت نفسه على الحقد ، فلا ينفع فيه نصع ولا إرشاد ، وتربى على
الغل ، فلا يشقى ما بنفسه إلا أن يتلعم : حتمهم ومالم ، وأحيانا حياتهم ، وبذلك
يصبح البيتُ جحيماً أو كالجحيم .

وإن المجتمع الذى يتكون من مثل هذا النشء ، هو مجتمعٌ عليلٌ هزيل ، قد
أصابه التفكك والانهلال ، ليس له غاية مرسومة ، ولا مثل أعلى يسعى للوصول
إليه ، بل لا هدف له من الحياة سوى أن يعنى ، بأية طريقة يكون الغنى ، وأن يأكل
كيف يكون الأكل ، لا يعتمد عليه فى حرب أو سلم ، لأنه فقد روحانية الحياة فى
أيامه الأولى ، وليس بعائد إليها إلا بمعجزة ، ومن الأسف أن فات زمن المعجزات .
ومن العجب أن الدين ينادى ولا استماع ، والتاريخ يحدث ويظيل ، ولا وعى
ولا اعتبار ، والعظات تفرغ الاسماع كل يوم ، ولا ازدجار !

أما الدين ، فهذه غاية من الزواج قد عرفناها ، ولكن خالفناها ، ولم نصنع
إلى قوله تعالى « فان خفتم ألا تعدلوا فواحدة » ولا اتمله : « ولن تستطيعوا أن
تعدلوا بين النساء ولو حرصتم » . بل أطلتنا لنفوسنا وشهواتنا وزغائنا العقال ،
وعددنا من الزوجات ، فلم نصل إلى النتيجة التى أرادها الله بقوله : « ومن آياته أن
خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة » .

وأما التاريخ فيحدث أن أهم المعاول فى هدم الدولة العباسية ، وزوالها من

الوجود ، هو ذلك الصراع العنيف ، والحرب الدامية التي نشبت بين الأمين وأخيه المأمون ... ولو أنهما كانا من أم واحدة ، لما كانت الحرب ، ولما انتهت إلى هذه النهاية المفجعة ، ولما وجدت نيران المطامع - بعد ذلك - وقوداً لها تشعله كلها هيئت الفرص ، ومهد السيل .

ومن الغريب المحض أن يعلم الناس هذا ، ثم لا يتحاشونه . بل يقبلون عليه ، ويأخذون بأسبابه ، فأولوا الأمر يعددون من زوجاتهم ، وتعدد أولادهم تبعاً لذلك ، ثم ينتهجون نفس الخطة التي أودت بمن سبقهم .

والناس أيضاً يقلدون ويكثرون من الزواج يعددون ويلبسون ، ويمتلكون البيت عيالا مختلفي الأجناس والألوان ، فينشأون ولا رابطة بينهم بل بالعكس كل منهم عدو لأخيه ، الآخر يتحين الفرص لاستلانه أو لاغتياله ، فيعيش كل منهم على حذر من أخيه لا تهدأ نفسه ، ولا يطمئن بالله ، ولا يقر له قرار . . . وكل واحد قد رضع من أمه كره أخيه وعدم حب الخير له ، فنفسه متوثبة على اقتراس ماله أو شخصه أحياناً .

إذن نفوسهم غير قارة ولا هادئة ولا مطمئة : وأي نفس هذه حالها لا تنتج ، وإذا أنتجت فتاجها مضطرب غير مرتكز على أساس من تفكير ومران واتزان . أعرف أسرا كثيرة متيت بهذا المرض وأعرف في نفس بنينا هذا الحل والانعلال والانهطاط ؛ ومن الغريب أن هذا مضطرب لم يحط به مرة .

ومن الناس من يفر من لوثة تعدد الزوجات ويطيع شهواته وهواه ونوازع الشرفية فيلجأ إلى عش يسمى في عرفهم « جرسونيرا » يزاول فيه إثمه ويهتك أعراض المجتمع .

ولو عرف هؤلاء الناس مقدار تأثير هذا في نفوس زوجاتهم وأبنائهم وضرره على كرامة أوطانهم وسمعة أديانهم ما فعلوه .

نعم أباح الاسلام مبدأ تعدد الزوجات ولكنه لم يبيحه مسaire للشهوات البهيمية ولكن رأياً لصدوع الاجتماع من هذه الناحية ، فكثيراً ما تدعو إليه الحاجة وتستقيم به المصلحة وتحفظ به الكرامة .

فيجب على من يقدم عليه أن يلاحظ هذه الناحية من الشريعة السمحة وأن لا يتخذ من السماح به تسكاً لاشباع شهواته والاعتقاد لأهوائه .

البريد في الإسلام

التنظيم الإداري في الدولة الإسلامية

د. عثمان هاشم محمد إبراهيم

المدرس بمعهد القاهرة

نظام البريد نظام قديم يرجع إلى زمن الأمويين - بل إن الدولة العربية ورثت هذا النظام عن الدولة البيزنطية والفارسية .

فالبريد إذن ليست كلمة عربية إنما كلمة لاتينية مأخوذة من Veradus أى الدابة التى يركبها العامل ثم نقلت مجازاً إلى المسافة المقطوعة ثم استعملت إسماعاً للنظام كله .

وذهب آخرون إلى أنه فارسي معرب ، فأصله بالفارسية (بريده دم) ومعناه مقصوص الذنب وذلك لأن الفرس كانوا يقصون ذنب بغل البريد ليمتاز عن غيره من الدواب الأخرى وكان يطلق البريد على الرسول .

والبريد في الاصطلاح : هو أن يجعل خيل مضمرات في عدة أماكن ، فإذا وصل صاحب الخبر المسرع إلى مكان منها وقد تعب فرسه ركب فرساً مستريحاً ، وكذلك يفعل في المكان الآخر حتى يصل بسرعة .

أما معناه اللغوي : فهو مسافة معلومة متمتدة بأثنى عشر ميلاً (الفخري في الآداب السلطانية ص ١٠١) .

ويقال إن أول من وضع البريد في الإسلام معاوية بن أبي سفيان الذى أخذه عن الروم أثناء حكمه في الشام وقد اهتم عبد الملك بن مروان بهذا النظام فأدخل عليه عدة تحسينات فأصبح أداة هامة في إدارة شؤون الدولة الأموية ، وقد أقر عن عبد الملك أنه قال لأحد رجاله : ولتيتك ما حضر بابي إلا أربعة : المؤذن ، فإنه

داعى الله تعالى فلا حجاب عليه . وطارق الليل ، فشر ما أتى به ولو وجد خيراً
لنام ، والبريد فتي جاء من ليل أو نهار فلا تحجبه فربما أفسد على التوم سنة حبسهم
البريد ساعة . والطعام إذا أدرك ، فافتح الباب وارفع الحجاب وخل بين الناس
وبين الدخول (التلغشندى ج ١٤ ص ٣٦٧) كذلك أشأ عمر بن عبد العزيز
حانات ينام فيها الناس وأحواض للشرب .

وفي عهد العباسيين ازدادت العناية بنظام البريد . فبلغ هذا النظام غاية كماله
أيام الرشيد والمهدى ، وكانت بغداد — عاصمة العباسيين — تتشعب منها الطرق
في كل الجهات ، وبلغ عدد الطرق التي تخرج من بغداد ٩٣٠ طريقاً مثل الطرق
الرومانية التي كانت قديماً متصلة بروما — فكل الطرق تؤدي إلى روما — وهذا
الوصف أيضاً يصدق على بغداد ، فكانت هناك طرق رئيسية وطرق فرعية أيضاً
فالطريق الرئيسى الأعظم هو الذى يخرج من بغداد إلى خراسان ويسير إلى حدود
الصين ، وهذا الطريق طويل جداً يشق الدولة الفارسية من الشرق والغرب ، ومن
الغريب أن هذا الطريق لا يزال يسلك لىران ، وهناك طرق أخرى من بغداد إلى
الأقاليم الشرقية والجنوبية والغربية : فمن بغداد إلى الحجاز لتسهيل أداء فريضة
الحج عن طريق الكوفة إلى الصحراء العربية إلى مكة والمدينة ، ثم طريق شمالى من
بغداد إلى الموصل ، ثم طريق شمالى غربى من بغداد إلى الأنبار ثم يعبر الشام
والفجور — وطريق آخر من الشام إلى مصر إلى بلاد المغرب ، وهذه الطرق
الرئيسية تتشعب منها طرق صغيرة لا حصر لها .

فنظام البريد إذن رغم أنه كان مشتقاً من البريد البيزنطى والفارسى إلا أنه
عنى به عناية شديدة ويرجع ذلك إلى عاملين أساسيين :

وهما : الحج ومراكب التجارة أو الاتصال البرى بين بغداد وأطراف الدولة
العباسية ، لذلك كان هذا النظام مهماً في النواحي الدينية والاقتصادية والسياسية .

ويقال إن ميزانية البريد في عهد العباسيين بلغت نحو ١٦٠ ألف دينار ، وكان
للبريد ديوان كبير في بغداد وكان هذا النظام نظاماً رسمياً خاصاً بأعمال الدولة ،
وليس لتقل مراسلات الجمهور ، فكانت الدواب لا يتنفع بها غير العمال خدام
الدولة فقط وكانت البغال والإبل والحمام الزاجل وسائل نقل البريد .

وقد أصبح للبريد أهمية أخرى فيؤثر عن المنصور أنه قال : « ما كان أحوجني إلى أن يكون على بابي أربعة نفر ، لا يكون على بابي أعنف منهم ، قليل له : يا أمير المؤمنين من هم ؟ قال : هم أركان الملك ، لا يصلح الملك إلا بهم ، كما أن السرير لا يصلح إلا بأربعة قوائم ، إن تنصت واحدة وهي ، أما أحدهم فقاض لا تأخذه في الله لومة لائم ، والآخر صاحب شرطة ينصف الضعيف من القوى والثالث صاحب خراج يستقصي ولا يظلم الرعية ، فإني عن ظلمها غني ، والرابع ... ثم عرض على أوصيه السبابة ثلاث مرات ، يقول في كل مرة : آه آه قيل له : ومن هو يا أمير المؤمنين ؟ قال : صاحب بريد يكتب إلى بغير هؤلاء على الصحة ، (الطبري ج ١ ص ٢٩٧) .

فكان ولاية البريد إذن عيوماً للمنصور ، وبواسطتهم كان يقف على أعمال الولاية بل كان ولاية البريد يوافقونه بالأسعار من قمح وجوب وأدم ومأكولات وغيرها - وقد كان عمال البريد يوافقونه بذلك مرتين في اليوم ، فإذا صلى المغرب وافقوه بما حدث طول النهار ، وإذا صلى الصبح وافقوه بما حدث في الليل .

وقد كتب إليه عامل البريد عن واليه في حضرموت أنه يكثر الخروج في طلب الصيد . فكتب إلى هذا الوالي : ثكلتك أمك ، وعدمتك عثيرتك ! ما هذه العدة التي أعدتها للكتابة في الوحش ؟ إنا إنما استكفيناك أمور المسلمين ولم تستكفك أمور الوحش . سلم ما كنت تلي من عملنا إلى فلان بن فلان ، وألحق بأهلك مذموماً مدحوراً ، (الطبري ج ٩ ص ٢٩٧) .

وهكذا كان في كل إقليم عامل بريد إذا وجد أمراً هاماً يرسل إلى صاحب البريد في بغداد وهذا يبلغ الخليفة ، فأصبح عمال البريد لهم صفة الجاسوسية على ما يجري في الدولة وإطلاع الخليفة في الحال عما يحدث في الأقاليم ، وكان نظام الجاسوسية موجوداً في الدولة الفارسية القديمة وكان هذا مما ورثه العباسيون عن الفرس ، ودولة واسعة مستبدة الحكم محتاجة إلى هذا النظام من الجاسوسية وعهدنا بالدولة العثمانية قريب حينما انتشرت فيها الجاسوسية ، لذلك لم يكن البريد مجرد نقل رسائل ولكنه تجاوز ذلك إلى الجاسوسية لمراقبة عمال الدولة على وجه خاص .

اليقظة بين الذاتية والموضوعية

لمحاضرة الأستاذ حمزة محمد السنج

ليسانيه في الأدب الانجليزي

من جامعة فواد الأول

يهدف القصصى ، مهما تشعب به الابتكار في ميدان الفكرة ، إلى تصوير أحداث أو وصف أشياء ، ويمتاز النثر الذى يصور الأحداث بامتلائه بالحركة والسرعة ، وأما النثر الذى يتناول الأشياء بالوصف ، فيمن صاحبه في مراقبتها عن كثب ، حتى يتغل إلى القارىء حقيقته الأصلية ، في غير تفريط أو إفراط ، ويتسم هذا النوع الأخير بسلبية الطابع وفتور الحركة . وسواء اتجه القصصى في فنه الاتجاه الأول أو الثانى أو كليهما ، فانه إنما يرمى إلى صوغ ما يسمعه وما يراه ، وما يعتلج في قلبه من مشاعر ، في رموز تيسر له نقل التأثير الذى خلقته المراتب في نفسه إلى القارىء وألك الرموز ، وهى الألفاظ التى تعين القصصى على تحقيق الوصوح المعنى الذى ينشده ، قد يحسن القصصى استخدامها ، فيستطيع تصوير الأحداث في سرعتها ، ووصف الأشياء في حقائقها ، تصويراً تسوده الدقة ، ووصفاً لا تنقصه الأمانة ، كما أنه قد يسيء استخدام تلك الألفاظ ، فيتهاقت عليها ، ويسرف فيها بقصد الزينة ، ومن ثم يجد زمام القصة قد أفلت من يده فأصبحت الأحداث تمضى في ببطء سقيم ، وتراخى عمل ، والأشياء شوهت معالمها ، فأنحط أدنى إلى الخيال منها إلى الواقع .

وهذه النزعة نحو التمتع elaboration ، والتوشية decoration في الوصف النقصى ، إنما تمزى إلى نقص كامن في النفس البشرية ، يدفعها دفعا نحو مزج الذات بكل أمر موضوعى ، ومن هنا كان تفاوت النقصيين في طيفان شخصياتهم أو اعتدالها وتوازنها في كتاباتهم .

ووجه الشبه كبير بين فنون كالموسيقى ، والرسم ، والتصوير ، وبين القصة الأدبية ، فلان القصصى مدى يصل إليه ، وأفق يحول فيه ، بيد أن ذلك يختلف — إلى حد ما — عن مدى آلة التصوير ، إذ أن القصصى يختار من نماذجه ، وابتقى من شخصياته ، ما يشاء مما يقع تحت ناظريه من بساط الحياة الفسيح ... أما آلة التصوير ، فلا يملك صاحبها مثل هذه الحرية الإيجابية في الاختيار ، إذ أن جهده الفنى ينتهى باختياره للنظر الذى يروقه ، وثبتيته لآلة التصوير ، التى تأخذ فى نقل تفاصيل المنظر ، وإن كانت لا ترتاح إليها عين المصور ؛ ومن ثم كان القصصى أكثر حرية من المصور فى الاختيار ، وأقدر على تصفية نماذجه ، وتهذيب شخصياته وإثباته لثبوت القصصيين يتراوحون حول فن التصوير قريباً وبعداً ، فكلما قرب القصصى من المصور كان موضوعه الزرع ، وكلما بعد عن المصور فى فنه كان ذاق التزعة .

وفى الحق إنه ليندر أن نجد قصصياً يعنى بفكرته theme ، ويهتم بها أكثر من عنايته بمشاعره وآرائه الخاصة . ولكننا لو عشنا أن القصة ، فى جوهرها ، ليست تعبيراً عن نفس صاحبها ، أو إبرازاً لميولها الذاتية ، وإنما هى مخاطب جمهوراً من القراء ... لو عشنا ذلك ، لدرسنا حاجة القصة إلى دقة الوصف والتصوير ، وإلى خلوها من الشرح والتعليق .

ويتوقف جزء كبير من نجاح القصصى على انتقاء موضوعه ، وهذا هو الجانب الإيجابى للاختيار ، وكذلك من الأهمية بمكان ترك الموضوعات التى لا تتلاءم مع القصة ، وهذا هو الجانب السلبى للاختيار ، الذى لو عنى به كثير من القصصيين المعاصرين ، لكانوا اليوم فى الصف الأول من حمة القصة ، والفائمين عليها ، إذ قلما نرى اليوم قاصاً ، إلا وينفق من وقته وجهده . الكثير على السطحيات externals ، بينما يهمل إهمالاً مشيناً الجوهريات essentials ، فيصف شخصياته وصفاً سطحيًا ، نعرف منه حياتهم معرفة يسيرة ، فأما أنفسهم وضمائرهم ، وما يضطرب فى الأولى من خلجات وآمال ، وما يكن فى الثانية من نجومى وأسرار ، تنعكس على أسرار صاحبها ، فيخفيها فى ابتسامة مغتصبة ، أو فى ضحكة مريرة . فأما كل ذلك فإننا لا نجد إليه سيلاً ، أو نعتز منه على التفرير اليسير . الذى لا يشقى غلة ، ولا يسد فراغاً .

وليس حسن الاختيار للوضوع وحده كافياً لكي يستطيع القاص أن ينتج أثراً أدبياً قيماً ، وإنما يكون ذلك نتيجة لتوافق بين الفكرة ومزاج الكاتب ، مما يمهّد له طريق الإبداع في تنجّسه الفكري ، مهما بعدت خاتمته ؛ أما تجارب القاص ، فإنها مهما كانت واسعة المدى أو فسيحة المجال ، فلن يصل إلى أعماق شخصيته ، أو يشحذ قوته الخائفة ، غير القليل من تلك التجارب ، التي يجد فيها خياله مسرحه الخصب وميدانه الرحيب ، وهذه المسارب الضيقة ، من تجارب القاص ، هي التي تعنيه كفتان ، لأنها قوام أفعه ، فأما ما خلا ذلك من تجارب ، فلا يهمه من أمرها شيء ، إلا ككائن حي تعرض له شتى ألوانها . . . وما ذلك إلا لأن القاص لا يستقبل تجاربه استقبالا سلبياً ، وإنما يعمل فيها عمله اللبايح وعينه الفاحصة . . . ومن ثم يمكن القول بأن شخصيات القصة إنما تنشأ عن نواة صغيرة تستقر في تربة خصبة برويها خيال القاص ويغذيها العنمل وتجارب الصبا .

وقد عانى النثر القصصي في انجلترا خلال القرن الثامن عشر الشيء الكثير من ذاتية الكتاب الطاغية ، التي ما برحت تبرز واضحة في تعليق القصصي ، أو نظرة جانبية فرعية side-glance أو تأملات فلسفية تعترض سير القصة ، كما وجدنا لورنس ستيرن (١٧١٣ - ٦٨) Sterne في قصته (Tristram Shandy) يلتزم كل أمر جل أوهاه لكي يحمّد عن محور القصة ، ويقرّب منه في هذا المضمار صمويل بتر Butler في قصته (The Way of all Tiesh) . ومل هذا الاتجاه في كتابة القصة ، وإن كان يزيدا امتناعا ، نظرا لطرافة موضوعاتها وتنوعها ، بيد أنه يغض من قيمتها الفنية ، إذ أنها تفقد أحداثها وجدتها ، ويخلو أسلوبها من القصد في التعبير ، والاستواء في العبارة .

وقد تطنى الذاتية على نصبة الأديب ، فيحاول أن يستجيب لها في شتى صورها ، وربما بالغ الأديب في ذلك ، فأفرط في استخدام المحسنات البديعية من تورية pun ، وطباق antithesis ، وحناس alliteration حتى تغدو اللوحة الفنية ، التي يحمّد نفسه في رسمها ، شوهاء متفردة لما حالظها من صنعه وكلمة mannerism ، وهذه المحسنات البديعية كالنار ، فهي خادم صالح وسيد طالح ، فإن أحسن الفنان استخدامها - كما فعل ولیم شكسبير ، عاقل الأدب الانجليزى ،

في ممتطوعاته الشعرية القصيرة sonnets ، التي زاوج فيها بين المعنى والمبنى ، وجانس بين ظلال الصورة وإطارها - إن فعل الأديب ذلك ، أصبحت تلك المحسنات عنها إحدى مقومات البناء الفني للتأج الأدبي التي لا غناء عنها للأديب لكي يعبر بها عن حالات شخصياته النفسية واتجاهاتهم الفكرية .

أما إن أساء الأديب استخدامها ، شأن الكثيرين من الأدباء الناشئين ، فإنه سرعان ما يحد نفسه كالمعجز التي تحاول يائسة ، ستر جمالها الداوي شتى أصناف العطور ، وسائر ألوان المساحيق والأصباغ لكي تثير في النفوس الرغبة فيها والعجب بها . . . ولن يلقي الأديب هو الآخر من قرائه رغبة في تتاجه أو إعجابا به ، فقد اصطاح الناس اليوم على بنفـض الـزيف ، والمبالغة ، والصنعة الجارفة التي تتجاف الذوق الأدبي السليم ، والتي لا نعتز عليها اليوم إلا في تضاعيف فن الدعاية والإعلان . أما في الأدب الرفيع ، فإن المذهب الذي لن يخجو نوره ، والذي أصدر عنه كبار الفنانين ، مهما اختلف مصدر ثقافتهم أو تباين نوعها ، هو أن قوام الفن ستر بريقه المصنوع ، وإخفاء وجهه الخاطف أو كما يقال في اللغة اللاتينية ars est celare artem .

ولعل أسوء ما تلقاه القصة الأدبية على أيدي الفنان غير المطبوع ، هو استلهامه لذاتيته الطاغية - عن قصد أو غير قصد - حتى يحد نفسه يعلو ويهبط ، ويسير يمينا وشمالا ، حسبما يتجه به تياره الفكري ، لا كما يوجهه موضوع القصة ، والمحور الذي تدور حوله أحداثها ومرئياتها . . . ونحن بعد ذلك كله قد نستطيع أن نفخر للقصى أن يتراوح بين دفتي القصة ، قرباً من الموضوع ، وبعداً عنه ، لو أن القصة لم تكن شيئاً آخر غير الموضوع . . . أما والنصـة صورة فنية للحياة حولنا ، فلذلك وجب أن تتوافر فيها عناصر أخرى إلى جانب المشابهة likeness ، كالبراعة في رسم القالب أو الاطار frame ، والآفاق في صوغ التصميم design ، والدقة في إخراج الانشاء الفني composition . . .

وهذه العناصر جميعا لو توفرت للقصى ، بعد نجاحه في اختيار موضوعه ، وحرصه على توازن عنصرى الذاتية والموضوعية في قصته ، لاستطاع أن يقدم للقارئ الانشائي creative reader نسيجاً متجانساً مؤثلاً ، ويعرض أمام ناظره ، موكبا حافلا متصلا ، ما يكاد يفرغ من استعراض صفحاته ، حتى يتمثله في مخيلته صوراً مفعمة بالحياة والانسيجام .

حول مقال :

سوف أعود إلى الأرض

لحضرة الأستاذ محمد اسماعيل الشلي

تركت إدارة مجلة الهلال القراء للقراء رأيهم فيما ذهب إليه حضرة صاحب العزة محمد توفيق دياب بك من عقيدة وآراء بثها عزته في مقالته في هلال ديسمبر الماضي تحت عنوان : (سوف أعود إلى الأرض) .

البحث العلمي والحقيقة الدينية الإسلامية :

من المقرر الثابت أنه سوف يأتي اليوم الذي فيه تكشف الفتوحات العلمية عن حقائق تجعل العقل والقلب معا يقران بما جاء به الإسلام من حقائق . وما جاء به المقال (سوف أعود إلى الأرض) لم يثبت عليها ولم يثبت دينيا .

لم يثبت دينيا إسلاميا :

قال الله تعالى : (وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير) أي معنى نبيل تركه هذه الآية وترسخه في ساحة النفس المؤمنة ، إن صاحبها إذا مارسخ هذا المعنى في صدره فسوف يلقي الحياة بأكبر قسط من التفاؤل والأمل الفسيح التلاصق للصعاب وفي ذلك سر نجاح الفرد في دنياه ، ودليل سعادته في أخراه ، ولذا يقول على كرم الله وجهه : هذه أرجى آية للؤمنين في القرآن . لأن الكريم إذا عاقب مرة لا يعاقب مرة ثانية وإذا عفا لا يعود .

هذه العقيدة السليمة في آلام الحياة وشدائدها ، وهي ذات أثر في الفرد والجماعة والنود عن حمى الوطن . ولقد علمنا من هذا أن في الشدائد دروسا وعظات ، وبها يظهر السر الدفين وتستيقظ الشعاعة الكريمة مرسله ضوؤها خارج النفس فتكون الشجاعة ، ويكون الإحسان ، ويكون الإنصاف والعطف ،

وهل تنقذ الفضائل إلا بزمام الحوادث والتجارب ، وهل قويت عزائمنا ومنتت إلا عن طريق المصائب .

قال أهل الرجعة أو التناسخ : اتد عرفتنا الآية أن المصائب أجزية على الذنوب فما بال الأطفال تتألم ولم تصبهم المصائب والمجائع ، وهل جنوا ذنباً ؟ لم هذا فقير جدا وهذا غني جدا ؟

أما جواب السادة العلماء الذين تعلم منهم صاحب المنال (سوف أعود إلى الأرض) فكأنهم من شيوخ قرية مترمتين ، إذ كانوا يصيحون في وجه السائل بقوله (لا يسأل عما يفعل) . وهو بحق لا يقتنع بما قالوا له . ولذا فتش عن العدالة الإلهية فلم يجدوها إلا في الرجعة إلى الأرض ، ولعل المرء إذا كبرت سسه وقارب أجله ، اتخذ من هذه العقيدة ما يطعمه بالرجعة إلى الأرض ، ولو علم أن في العالم الآخر ما هو أبهى وأبهى لقال (واقه لا أرجع إليها أبداً) .

نعم لا يسأل الله عما يفعل . لأن فعله بالغ الحكمة وفي منتهى الدقة . ليس فيه خلل وليس فيه ما يدعو إلى السؤال ، فهو لذلك (لا يسأل عما يفعل) وعلى العتل مستعينا بالله أن يفهم هذه العدالة الإلهية ، وهو يقررها في آية أخرى ، فيقول في التفاوت المالى الطاهر بين الناس : (ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض ولكن ينزل بقدر ما يشاء) ويقول في أن الناس طبقات بعضها فوق بعض ، وما من يد إلا وفوقها يد الله (نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ورحمة ربك خير مما يجمعون) .

وهذه القصة بالغة الحكمة كاملة العدالة . ومثل ذلك يقال في آلام الأطفال ولم يحنوا ذنباً . فما العدالة الإلهية في ذلك . تلك هي الضريبة يؤديها الآباء والأمهات ومن يتصلون بأولئك الأطفال المذالمين يؤدونها لتكفر ذنوبهم (أي ذنوب الآباء) لذالمهم لمرض أناتهم ، أو لحكم يعلها الله ، وقد جعلها الله ميداناً للعقول ، تتنافس لفهم أسرارها . وربما سحت الأبدان بالعلل والله بعباده خير بصير .

وإذا فرصنا أن الناس كان لهم وجود سابق وأذنبوا فيه ، فما الدنب إلا من النظر في النفس ولو كانت كاملة ما أذنت . فلو قيل أن نقصها نشأ من الدنب

السابق قلنا إن ذلك يلزم التسلسل وهو مستحيل . ومذهب الرجعة لا يستقيم إلا إذا فرصنا أن عدداً من الأرواح تلس ملايين الأجنة الشريفة ، ومع دوازة صاعدة هائلة ، وهو ما لم يقل به أحد . وإلا فبماذا ترى في الروح الإنسانى الكامل الذى يتكرر في عهد المظلمات في شخص كشخص سيدنا نوح عليه السلام أو نبي من الأنبياء -- كم جسماً خلعه وكم جسماً لبسه ، وعلى أى جسم يقع العذاب . إن قلنا العذاب للروح فكيف يعذب نبي ، وإن قلنا للجسم فكيف لا تباركه روح نبي ، وإن قلنا لهما معاً فكيف بذلك جميعاً ، أنا لازلت طالب يقين في عقيدة توفيق بك دياب . فما يقين عزته في هذا الإشكال .

أسألك يا سيدى . ماذا تقول في مسئولية الجزاء وتقرير التبعية الشخصية في قوله تعالى (ولا تزر وازرة وزر أخرى) أى لا تتحمل نفس مذنبه ذنب نفس أخرى وقد قلت سيدى . إن ألوف الملايين من الأرواح تنفص ألوف الملايين من الأجسام منذ بدء الخليقة الشريفة إلى متناها ، وذلك يناقض عقيدة الإسلام في البعث والنشور وإلا فكيف يحاسب الناس .

وإذا صح ما تقول سيدى في عقيدة الرجعة . فإن لكل جسم اسماً ينادى به فبأى اسم ينادى به الشخص . والرسول صلى الله عليه وسلم يقول في حديثه الصحيح (أحسنوا أسماءكم فإن الله يناديكم بها يوم القيامة) .

ما تقول سيدى في قوله تعالى (إن الذين تتوفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم) (لأنهم استكانوا للعبودية ورضخوا لجباية العلم) فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض قالوا ألم تكس أرض الله واسعة فتهاجروا فيها - أى لتطلبوا حرماتكم وكرامتكم - فأولئك مأواهم جهنم وسامت مصيراً) .

فهل جهنم هي الأرض إذا عادت إليها الروح مرة أخرى في جسم آخر غير جسم الأول .

الحق يقال أن مذهب الرجعة لا يستقيم إلا إذا هدمنا جانباً كبيراً من أركان الإسلام . فليس بصحيح ما قلته (إن هذه العقيدة لا تناقض الدين الإسلامى الحنيف في شيء . ولا تناقض المسيحية ... الخ .

ثم أيمكن أن يدرك أساطين المؤمنين بعقيدتك هذه مالا تدركه العفيف الحصان مريم ابنة عمران عندما قالت (يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً) فلو سبق وجودها موت - كما يقول أصحاب عزتك ما تمت . وأنا أسألك ما رأى أخوتنا الأقباط في عقيدة توفيق بك .

ما رأيك سيدي في الآية (لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى) فهي مorte واحد وحياة واحدة نحيها في الدنيا ، ثم ننقل إلى العالم الآخر يذوق مorte واحدة .

أما عقيدة الرجعة فيقول أحد أساطينها في مقالته (الجسد ثوب تلبسه الروح زماناً ثم تلقيه) وتعود (أى بعد موته) إلى أفتها ومصدرها ، ويقول انحدرت إلى الأرض مرة أخرى لتلبس ثوباً جديداً في شخص جنين من ألوف الاجنة التي تولد في جنبات الأرض في الشرق والغرب - وهكذا رجعة بعد رجعة .

فكم رجعة وكم مorte ، آلاف الرجعات وآلاف الموتات ، والآية تقرر (لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى) .

مصدر الإنسان ورجعائه ومصدره :

إن الله قد استأثر بعلم مصدر النفوس ومصيرها إذ يقول (ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم) فإذا في علم الله المنزل في كتاب الاسلام حتى يعلمن أستاذنا دياب بك .

إليك يا سيدي نبذة موجزة عن العقيدة التي قررها الإسلام عن « مصدر الإنسان ورجعائه ومصيره » .

- ١ -

الإنسان يسمو إلى ربه بعد معارك جبارة عاتية ، قال تعالى (يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فلاقه) . وهذا الكدح تفسره الآية في نفس السورة والقرآن يفسر بعضه بعضاً قال تعالى (لتركين عباقاً عن طبق) بمعنى أنكم يا بني الإنسان تمرون في دور بعد دور - وهذه الأدوار يذكرها الله بجملة في قوله (وقد خلقكم أطواراً) فما تفصيلها .

- (١) قل الروح من أمر ربي .
 (٢) هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض .
 (٣) وإذا أنتم أجنة في بطون أمهاتكم .

٤ — والدور الرابع . بعد التسوية في تلك البطون من نقطة إلى عطفة - الخ وفيه يقول الله تعالى (والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً) فكيف يعلم بعض من آمن بالرجعة (مولدم وميتاتهم الماضية وفي أى بلد من البلدان عاشوا حياة بعد حياة وإلى أى الآباء اتسبوا وأى اللغات تكلموا وأى الصناعات أو الأعمال اتخذوا وهل ذكورا كانوا أو إناثا في كل رجعة من رجعاتهم إلى الدنيا ليستأنفوا فيها الحياة) بالنص من مقال توفيق بك (والله يقول (أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً) هذا هو التناقض ...

٥ — الدور الخامس هو ما يشير إليه تعالى بعد انتقال الروح (ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون) فالأرواح تكون في برازخها أو الصور أو الناقور كما قرر القرآن . حتى إذا قامت القيامة الكبرى تراوجت الأرواح مع أبدانها بعد أن كانت مفردة كما قال تعالى (وإذا النفوس زوجت) وليس المقال متسع لتفصيل هذه المعاني .

٦ — الدور السادس يشير إلى قوله سبحانه (وجاءت كل نفس معها من قبرها وبرزخها) سائق وشهيد . لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد) .

٧ — الدور الأكبر (فريق في الجنة وفريق في السعير) أما المحسنون في رسالتهم في حياتهم فإن الملائكة تستقبلهم أدخلوها بسلام ذلك يوم الخلود . لهم ما يشاءون فيها ولديا مزيد (في مقعد صدق عند مليك مقتدر) .
 هذه نبذة موجزة عن العقيدة التي أؤمن بها في مصدر الإنسان ومصيره .

إلى الشباب : همسة في آذانهم

قرأنا في كتب التاريخ أن مذهب الرجعة أو التناسخ شاع في المجتمعات المتحللة الأخلاق وأن ضرره أكثر من نفعه فهو مضيع لذاتية الشخص ميسر للعدو دوس أوطاننا .

إن مذهب الرجعة يرمى عن قوس أهل الأهواء والنحل . ونحن أحوح ما نكون في الحاضر لمنايس عليه صحيحة ومضاط حثية صادقة لترفع شأن الوطن .

وإذا كان (شوبنهاور) من أساطين المؤمنين بعميدة الرجعة في العصر الحاضر فإن ذلك لا يخذعنا عما يراد بنا . فإن تيارات الغرب المستعمر ، ونظرياته الملحدة امتداد لسياسهم المحيطة لأعمالنا . تلك السياسات وهذه التيارات قد حولت أعناق خناذيد وأفذاذ من كتابنا إليها ولكن من (أبدى صفحته للحق هلك) .

وإن الباحث المحقق ليعلم حق العلم موقف تلك العتائد الزائفة من آمالنا القومية . فإذا كان المعتد بالرجعة أى يتناسخ الأرواح قصد يعود إلى الأرض في ثوب انجليزى أو صهيونى ... وإذا فلا ضرورة لجلاء ولا لزوم لمناذاة بتهديم الصهيونية ونخرج من هذا أنه لا بقاء لقوميتنا وذلك كله ناتج من التسليم للعقائد الهدامة لأركان وطنيتنا .

يا شباب العصر :

روح الجهاد فيكم أو جهاد الروح منكم أن تكونوا أنفسكم على عتيدة سليمة ذات أثر فعال . وتحمروا وطناً حراً قويا يتمد العالم من التردى في سمطات الرافقين . وأن تنبعث انسانيتكم السامية واقفة عند أمر ربها (كونوا ربانيين بما كنتم تعملون الكتاب وبما كنتم تدرسون) .

يا شباب العصر : إن قيل لكم إنكم ستعودون إلى الأرض (كما زعم فيثاغورس أوسقراط قديماً وشوبنهاور حديثاً) فقولوا أنتم : إنا سنعود إلى الله وعندكم دليلان قويان مقنعان ، ممتعان مشبعان ، (الأول) جاء ثوبان الفارسي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : يا رسول الله أين أنا إذا مت . فنزلت الآيات الكريمتان جواباً عن سؤاله « ومن يطع الله ورسوله فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً ، ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليماً » سورة النساء .

مُشْكَلَاتُ الْمَدِينَةِ الْحَدِيثَةِ

لفضيلة الأستاذ سعد الدين موسى

عدت علينا مدينة الغرب بخيلها ورجلها ، ومركبتها الطائشة ، وسيوطها الجوارف ، فأزججتنا نحن الشرقيين من رخاء عيشنا وطيب أحلامنا ، وأذهبت عنا روح الطمأنينة والامتناع ، ونسائم الهدوء والاستقرار ! وبدلت بخضراء الحياة صحراءها ، فلم تعد تستمرىء طعم الراحة وأمنة التعاس ، ولا نحس روح الطبيعة ولا نستشعر لمسة التعميم ! . وكأنا في ليل كافر لا نهار معه ، أو شواء دمج لا ابتسام له ! فما السر في هذا جميعه ؟ هل المدينة الأوربية تصادم مع مدينة الإسلام فتسير عكس اتجاهها ، وتسعى وإياها على طرق تقيض ؟ ذلك ما نريد أن نبجته ونبدل عليه .. إن الدين الإسلامي في الواقع قد جمع كل ما تفرق في المذنيات والمذيانات الأخرى من محاسن وروائع إن لم يكن قد أربى عليها .. فلم يأمر بالرهبة والانقطاع إلى النسك بكهف أو دير أو رأس جبل ، ولم يحض على ترك الناحية الإيجابية لهارة الدنيا ، واستغلال قوى الكون واستثمار أرحام الأرض ، وطرح المعاش جانباً كما قالت المسيحية ، ولم يفرض على معتقيه أن يتكالبوا على موائد الرزق وحلبة القوت ، وحطام المتاع ، وزخرف الوجود ، كأنهم حيوانات سائمة لا هدف لها في الحياة ولا مرمى إلا الطعام والسفاد والفراش والشراب والمرعى بل جاء وسطاً معتدلاً بين رغائب الروح والجسد ، وغذاء العسكر ومشتميات المعدة ولسكتنا لو نظرنا نظرة فاحصة جدية إلى المدينة الحديثة اليوم وهي وليدة المعامل الأوربية لا الأفكار الروحية ولا المواريث السماوية ، لوجدناها تتجه صوب المادية الجسدية المتاعية اتجاهها ملبوساً في ظواهر الأشياء وسطوحها ، بل تعدت إلى أسوار الباطن منها حُرِّفَتْها عن مواضعها ، وزلزلتها عن مستقرها ، وكسَّفتها بميولها وأهوائها ، وصبغت بالوانها وظلالها .

ولأفمن أين جاءت الأصباغ والمسايق وأدوات التطرية والنعومة النسائية؟
ومن أين كثرت حوادث انتحار الشباب وتفاهم التفكير فيه؟

لقد نجحت من هنا مشاكل مستعصيات وعمد معقدات في التعليم والسلوك
والأخلاق، والفرائز والتفسيات.

كما حدثت مشاكل أخرى في صميم الحيات والتطريات وأمهات المسائل
المنوية والاقتصادية والعلمانية، كالمذاهب الرأسمالية والاشتراكية والشيوعية،
وكنظام الدكتاتورية والارستقراطية والديموقراطية الخ. وكنظيم الأسرة ورعاية
الأفراد وكفالة الجماعات، وتنشئة الأطفال وسياسة النساء وتأمين الحقوق،
والحياة الزوجية، وهل غرس في أرضنا بذرة الثالوث الأصفر، الجهل والفقر
والمرض، إلا يد هذه المدنية ومحاكاتها دون تمييز النافع والضار منها. حتى قطعت
على الشعراء أخیلتها الناعمة، وعلى الفلاسفة أحلامها السابجة، وعلى العلماء
والباحثين طرائق علمهم ومناهج تفكيرهم، واصطدمت مع بعض الحقائق الكونية
وسدت على الناس منافذ الآفاق الروحية ومناجم السعادة النفسية. . ألم يكن في
الديانة الإسلامية غنية وكفاية لحل هذه المشكلات التي خلطها لشاركب المدنية
المعاصر بعامل الالتصاق والمجاورة؟ ألم يكن فيها من الأنظمة القويمة والبلاسم
الناجمة ما هو كفيل بسعادة المجتمع البشري ورفاهة العالم جميعاً؟ لقد كان سلفنا
في ثروة روحية عظمى باتباعهم خطوات هذا الدين المسمى الخالد، الإسلام،
ولم يكن في عصورهم من هو أسعد منهم حالاً كما لم يكونوا فقراء من المدنية
والحضارة مثلاً بحسب الجاهلون، بل كانوا أغنى من أهدى بصيرة وبصراً.
وهل لتفلسف متشكك أن يجادلنا في مساوية المدنية القائمة ومخازيها أو يجادل
عنها؟ حقاً لقد ربطت المشارق بالمغرب.

وانتمت الأفكار وغزت مناطق الشعور في الإنسان، وفتحت باب العلم
المدني والصراع الجدلي، والنظر المخلق على مصراعية حتى كانت المدهشات
الغرائب من الكشوف والابتكارات، والاختراع والتجديد في كل مضمار
وميدان، ولم نعد في قرن السلحفة أو الناقة والجل، بل في عصر الذرة والطائرة
واللاسلكي والكهرباء، وحقاً إنها سحرت كل طاقة صغيرة وكبيرة على سطح

الكرة أو في ساريات الجو أو أجواف المحار فانتعشت الحضارة وانتفعت البشرية - وتغلطت بمنظارها المكبر إلى خيئات النفوس وأعماق السرائر فتعددت الفنون وأطردت الصناعات واستبحر العمران وتمتدت الأذهان .

ولكن أليس ذلك كله عن طريق المادة ودولابها الحديدي وعجلاتها الطاحنة وآلاتها الجوامد الصماء ؟ وهل كان ذلك إلا ابتغاء إطفاء سعار الجوع وإسكات صراخ الأمعاء وإشغال وقود الأوطار الترابية الأرضية ؟ فهل انطفأت الحرقه أو سكت الصراخ أو أقلت من طفئانها وبغيا الأناية والنفعية ؟ كلا بل لمسنا في سبيل هذه المدنية الآلية كبكة وقلقا ، واضطرابا وعمدا نفسانية ، ومشكلات قامت وقعدت ، وبسائط عميت وعمدت . . . فهذا شبح الطامعية البغيض ، وتيار الحسد والشحناء يحض على الجريمة النكراء ويغري بالمنكر والفحشاء .

ويجب الى المرء روح التذمر والثورة والتمرد والسخط على كل نظام . فكان بيننا البغاء والربا والخمر واليانصيب والميسر ، وكان الظلام المطبق والخيرة الثلاثة المهلكة ، ونشأت شركات التأمين على الحياة والنفس لأن الإنسان لم يعد إنسانا بمدلوله الشرعى والقوى ، بل وحشا من بنات الغاب فكيف يؤمن على الأموال والأعراض والأنساب ؟ ووضعت المحاكم والسجون والقضايا والمرافعات من جرم القتل والسرقات والخيانات والانتهاكات ! وكسدت سوق الزواج وذاع الطلاق وفشت الإباحية الإلحادية ، والحرية الهوجاء المتحللة من قانون العرف والخلق والفضيلة . ومن ثم نشأت الحروب واندلعت ألسنة الفتنة ، وهبت الثورات والأحقاد كالعواصف الجامحة ، ترلزل غربال الأرض ، وتطحن مصباح السلم . . . وتنهصر غصن الزيتون ، وتميت بساتين الربيع ، وتلفع الشمس بعباءتها الدكناء ؟ ! ولماذا عبث الاحتلال بالحرقات والكرامات فأكلت الأمم النوية المستعبدة الأمم الضعيفة المغلوبة على أمرها لعمري وعمر أهلك ما خلق هذه الأدواء جميعا ، وأضعاف أضعافها إلا هذه المدنية الزائفة . . المسادية الخليعة . . . وبقدر ما سعينا نحوها مأخوذون بلعة سراها ، وسحر برمتها ، بقدر ما خلعت أفئدتنا من العقيدة الصحيحة والإيمان بقوى السماء وقدره الصانع البديع ، والبحث عن كنوز التوحيد والمعرفة الإلهية والرحمة والحسنة والإيثار والتقوى .

وانصرفنا بكليتنا عن الروحانية الصافية العميقة والعبادة المشرقة الطليقة ، وما عدنا نقيم الشعائر والمناسك إلا في كسل وفقر وارتجاء أعصاب ١ . وهي في مجملها اليوم عبارة عن ظلال ميتة وأشباح هزلى لا روح فيها ولا ذمء تؤذيها كمراسيم دولية أو شكلية عرفة ١ . . . ومن ذا الذى يفرغ من الجلبة والضوضاء آثات معدودة من سواد الليل أو يياض النهار للنجاسة والتفكر والصلاة والاعتصام بحبل السماء ؟ . ومن منا أمسى يفكر في بر أو مرحلة أو تزكية وإحسان ؟ . ينجلى ويحجل التلم في يدي أن أقول : إنا أصبحنا تحت تأثير هذه المدينيات الغريبة الحق نعد من مظاهر التأخر والرجعية والتخلف والجمود أن تنادى بتقنين الشريعة وعودة حدودها إلى الأرض بعد طول غربتها ، وكيف ونحن في حى التناون الفرنسي نطالب أحرار الفكر والرأى والعقيدة بلا حسيب أو رقيب ١٤ .

وهكذا أحسنا في هذا العصر بليب الحرمان ومجاعة الوجدان ودافع الحاجة وممرارة اللوعة والخزيان . . . نعم أحسنا الحاجة إلى الرجوع لمعين الإسلام وطرق مصراع السماء والتطلع إلى أعلى ١ . ذلك لأن المدنية الحديثة قد ألهبت ظهورنا بسياط نارية إلى غير إشراق أو متاع أو استقرار إلى حيث الهاوية والتطاحن والازمات المبيدات ١ . . . قطعنا أنفسنا من المعرفة الوجدانية ، وقطعت أرواحنا إلى النبع السماوى الدافق الفياض ، يدل غلثنا ربا ، ويأسو جراحها ويمسح آلامها ويقيم على أطلال خوفها واضطرابها صرح هتاتها وأمنها وسلامها ١ . أما هذه الحركة الدائبة المتعقمة ، والتسرع المجنون الآحق الذى جعلنا نندرو ونسخر بالمتأني المتحمل قائلين : نحن في عصر السرعة . . . والذى صرفنا عن دين محمد وروحانية الشرق وتراث العروبة ، وميراث الحق وكتاب الخلود إلى الإسراف في الشهوات والآمال والمطامع والرغاب فما لا يتره حصيد ولا يرتضيه أريب ١ ! فهل من عودة يا أمناء الإسلام . . ؟ وهل من بعث للشرق الميت من جديد ١٤ ؟

جماعة التبشير الاسلامى والاصلاح

بأم درمان « السودان »

عبد الله شوقي الأسير

كاتم السر

بقى جنوب السودان منذ آمد محيقة فى عزلة عن العالم ، لم تعرف الحضارة إليه سبيلا معلوما ونورها ، وظل أهله على فطرتهم الأولى حفاة عمراء ، دينهم الوثنية ، وعلهم الجهل ، وصلتهم بالعالم الخارجى مقطوعة ، وبشمال السودان مبثورة ألا ما يتسرب إليهم من رسالات التبشير المسيحية .

وما كانت حالتهم تلك ، لا لترضى إخوانهم ومواطنيهم فى شمال السودان ، فوطئوا العزم على الاتصال بهم ، والقيام بنحوهم بما يملية الدين ، وتفرضه الوطنية ، فأهل شمال السودان وجنوبه ، مواطنون تجمعهم صلة الوطن التى لا انفصام لها . ولهم على بعضهم البعض حقوق وواجبات . ومن حق أهل الجنوب على أهل الشمال أن يأخذوا بأيديهم ، ويعملوا على إسعادهم عملا يفرضه الدين وتمليه الوطنية .

لهذا حققت كلمة جماعة من كرام السودانيين ، بمن لهم مكانة مرموقة بين مواطنيهم ، ومن عرفوا بالتقوى والصلاح على تأسيس جمعية أسموها « جماعة التبشير الإسلامى والاصلاح » مقرها مدينة أم درمان ، وغرضها : القيام بنشر الإسلام وتعاليمه فى جنوب السودان ، وفى كافة أرجائه التى لم يصلها نور الدين الخفيف ، وقد اختارت لها لجنة تنفيذية مكونة من خمسة عشر عضواً .

وعهدت برئاستها إلى صاحب الفضيلة الشيخ محمد أمين القرشي الناضى الشرعى سابقاً ، وأمانة سرها إلى حضرة الأستاذ عبد الله شوقى الأسد .

وتهدمت الهيئة بعد تكوينها إلى إدارة السودان طالبة التصريح لها بالقيام بمهمتها فصرحت لها بذلك ، وليس للهيئة أى غرض آخر غير هدفها الإسلامى الخالص ، تستوحى أعمالها بهدى القرآن ، وسنة السلف الصالح فى إعلاء كلمة الدين الحنيف متفرعة فى ذلك بالحكمة والموعظة الحسنة ، بإذلة أقصى جهدها إلى نشر الوية الإسلام فى الجنوب .

يبد أن الوصول إلى الغايات الدينية الخالصة التى ترمع التيام بها ، ليست بالهيئة الميسورة ، فأمام الهيئة عقبات تستوجب التدليل ، ووسائل يجب أن تتوفر ، وليس العمل فيها قاصراً على مسلى السودان وحدهم ، ولكنه فرض عين على إخوانهم مسلى شمال الوادى أيضاً ، بل والمسلمين فى كافة بقاع الأرض .

لهذا تتقدم الهيئة ، إلى كافة الهيئات والجماعات والأفراد فى وادى النيل طالبة التعاون معها ، وشد أزرها ، والمساهمة الشاملة فى نشر كلمة الله ، بما أمر الله وسار عليه رسوله الكريم .

والهيئة تستمد فى هذا العمل قوتها من عون الله ، ومن صدق نية العاملين فى سبيل الله والله وحده ، وهى واثقة من أن عملها سيكلل بالنجاح ما خلصت النيات وصدقت الرغبات ، وهى مطمئة إلى عون المسلمين فى وادى النيل عوناً خالصاً مستمراً ، حتى تتحقق الغايات ويتم الله نوره ، ويخلص جنوب السودان من ظلمات الوثنية والجهل ، ويندوق أهله حلاوة الإسلام وطعم الإيمان بإذن الله إنه سميع مجيب ٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

احتفال الأزهر بعيد الميلاد الملكي

مضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر بحميد بخطبة

احتفلت البلاد المصرية يوم الإثنين الثاني عشر من شهر فبراير ، بعيد ميلاد حضرة صاحب الجلالة المعظم « فاروق الأول » ، فلست جميعها حلة فاخرة من الزينات والأنوار ، وأداع الراديو خطبة لحضرة صاحب المقام الرفيع مصطفى النحاس باشا رئيس مجلس الوزراء في تعداد مناقب جلالة ، وسرد فضائله ؛ واتلست جميع البلاد المصرية بعاصمتها فكانت البلاد في عيد وطني تبادل أهلها فيه التهناني والمسرات .

واحتفل الأزهر المعمور به ، فاجتمع فيه ألوف من علية الطبقات في مقدمتهم سعادة أحمد يوسف بك السكرتير المساعد الخاص موفداً من جلالة الملك ، فهض حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ عبد المجيد سليم وألقي كلمة بليغة جامعة ، سرد فيها صفات جلالة ومواهبه وفضائله ، متمنياً لجلالته طول البقاء وأن يجعله الله دخراً للبلاد ، وملاذاً لأهلها مدى الأيام .
وهذه خطبة حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر :

اللهم إنا نحمدك حمد المؤمنين بك ، الخاضعين لعظمتك ، الشاكرين لنعمتك ، الراجين لرحمتك ، اللهم إنا نرغب إليك أن تصلي وتسلم على عبدك ورسولك ، وأمينك على وحيك وخيرتك من خلقك ، وخاتم أنبيائك سيدنا محمد الذي أرسلته رحمة للعالمين ، وإماماً للتقين ، ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله يأذنه وسراجاً منيراً وعلى آله وأصحابه الذين عزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه وجاهدوا في الله حق جهاده فاستحلفهم في الأرض ومكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وبدلهم من بعد خوفهم أمناً ومن بعد ضعفهم قوة وعزا وسلطاناً .

اللهم وفقنا إلى اتباعهم بإحسان ، واحي فئتنا سقمهم واجعلها يارب زادنا ونورنا في معاشنا ومعادنا عليها نحيا وعليها نموت .

حصرة صاحب السعادة مندوب جلالة الملك المعظم :

أيها الإخوان : تحتفل الأمة المصرية الكريمة اليوم بعيد من أعز أعيادها القومية ، وهو عيد ميلاد حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك المعظم فاروق الأول أطال الله في عمره وأيده بتوقيفه ونصره .

وقد أراد الله جلّت نعمته أن يصاعف للأمة في هذا اليوم السعيد سرورها ويزيد في غبطتها واستبشارها ، فوق جلاله الملك المعظم — أعزه الله — إلى هذه الخطبة السعيدة المباركة ، فكان العيد بذلك عيدين وكانت العبة غبطتين .

وحق للأمة المصرية الكريمة أن تحتفل بأعياد الفاروق العظيم ، وأن تشاركه الفرح بما آتاه الله من نعمة ، وأن تحمد الله تعالى وتشكر له على أن ربط عزها ومجدها بجلالة الملك السعيد الموفق .

إن أسعد الملوك من سعدت به رعيته ، وقد أسعد الله هذه الأمة بجلالة ملكها الفاروق ، حيث اقترنت بميلاده الميمون نهضتها وتدرجت مع تدرجه في عمره المبارك أسباب مجدها وعزتها .

وجدت النهضة المصرية القوية قبيل مولده الميمون ، وقد كانت مصر من قبل أمة تتنازعها عوامل الضعف والفساد من داخلها ، وعوامل الطمع والجشع من خارجها ، فلما أذن الله لنهضتها الكبرى أن تنجح ، كان ذلك مقترنا بمطلع الفاروق أعزه الله ، فرأى العالم يومئذ أمة فتية أبية مصممة على أن تنال حقها في الحياة العزيزة الكريمة ، مجمعة على الجهاد في سبيل ذلك بكل ما منحها الله من حول وقوة لا فرق بين أسبابها وشيوخها ، ولا بين فقراتها وأغنيائها ، ولا بين حكامها ومحكومها . روح من الله سرى فيها فأحياها وقواها وأيدها بالنصر المبين ، وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم .

ولم تكن هذه النهضة في الناحية السياسية ثخسب ، ولكنها نهضة قامت على أساس وطيء من الشعور بالعز والحرص على الكرامة وانتع بما تتمتع به الأمم الحية من الاستقلال والحرية ، يؤازر ذلك برنامج صالح شامل في شتى نواحي الإصلاح والتجديد في التربية والتعليم ، في المال والتجارة ، في الزراعة والصناعة في الانصال بالعالم الخارجي لتبادل المنافع والمصالح ، في الاتفاقات بكل ما جد من اختراعات ووسائل إلى غير ذلك مما تحيا عليه الأمم ويقوم به مجدها وعظمتها .

صاحبت هذه النهضة الإصلاحية مولانا الملك فاروقاً أعزه الله منذ كان في المهد صبيّاً فاحتضنها المغفور له والده العظيم (طيب الله ثراه) كما احتضنه - فلقياً في كنفه الرعاية كل الرعاية والحفاظ أعظم الحفاظ حتى أسداهما إلى الأمة المصرية الكريمة بل إلى الشرق كله هديتين كريمتين، هما أعز ما يهديه ملك كريم إلى شعب كريم . وها هو ذا الفاروق العظيم يتلقى تلك النهضة من أبيه باليمن فيراها ويواصل سعيه الخيد في تميمتها وتقويتها ويقف في شأنها موقف القائد الحكيم بوجه العاملين ويكافئ المحصلين ويثير الهمم .

ويحيى العزائم وأنه لو اصل بها إن شاء الله تعالى إلى ما يتفنيه لامته من المجد والقوة والعظمة والنصر المبين .
أيها الاخوان :

هذا هو يمن الفاروق على مصر وتلك هي رعايته لهضتها وأسباب مجدها وعظمتها وقد فاز الأزهر الشريف بما ذكرنا فأفضل حظ وأوفر نصيب واستطاع أن يسجل في صفحات مجده تاريخاً حديثاً مجيداً .

كان من يمن الفاروق على الأزهر أن وجه الله قلب والده العظيم إلى إصلاحه وتمكينه من أداء رسالته على خير الوجوه وأفضلها فأصدر طيب الله ثراه قوانينه الإصلاحية وعدل ما مجه وزاد معاهده وأنشأ كلياته وأمر ببناء مدينة جامعية حديثة تليق به ورعى أهله أفضل رعاية وأكرمها وحرص على تقوية نزعة الدين والعلم فيهم وعلى بث روحها في الأمة حتى تقوم نهضتها على أساس متين من الخلق والفضيلة والاعتزاز بالدين فاستجاب بذلك - جراه الله أحسن الجزاء - لآمال طالما ساورت نفوس المصلحين وسعى في سبيله سعيه المحمود فأسدى إلى الدين والعلم صنيعاً مشكوراً أرجو أن يجعله الله له نورا يوم يأتي المؤمنون يسعون نورهم بين أيديهم وبأيامهم .

وكان من رعاية الفاروق للأزهر أن سار على سنة والده العظيم في العناية به والحدب على أهله والاهتمام بكل ما يعلى شأنه ويرفع قدره ويمكنه من تحقيق رسالته السامية في خدمة الإسلام والمسلمين بل في خدمة الناس أجمعين

أيمن جلالة مولانا الملك المعظم حفظه الله أن تركية النفوس بالدين وتنصيحها بتعاليمه القوية ومبادئه القويمة هما أساس يقوم عليه الإصلاح والعزة والكرامة

وخير عصمة من المبادئ الضارة والمذاهب الهدامة، فرص منذ تولى عرش آباءه الأكرمين على أن يكون الأزهر الشريف منبع الهداية الإسلامية، ومصدر التعليم الدينية الصحيحة لا في مصر وحدها بل في العالم كله .

ومن مظاهر ذلك في مصر أنه أمر بأن تبت المعاهد الدينية في الأقاليم فأُنشئ منها في عهده المبارك خمسة نظامية وأضيف إلى بعض المعاهد الابتدائية أقسام ثانوية وشجعت المعاهد الحرة فجعل لها في ميزانية الأزهر مبلغ كبير أعانها على أداء رسالتها في التهذيب والتعليم وبذلك زاد عدد المعاهد الدينية في البلاد حتى أربت على العشرين . ومن مظاهر ذلك في خارج مصر أن جلالة حفظه الله أمر بإيفاد كثير من البعثات التعليمية إلى البلاد الإسلامية تقيفاً لأبنائها ونشراً لدين الله فيها ، كما أمر باستقدام بعوث كثيرة من البلاد المختلفة لتلقى العلم في معاهده وكتباته إلى جانب إخوانهم المصريين ، وهام أولاء قد أوفت عدتهم على ثلاثة آلاف من مختلف الأجناس يجدون في كنف الفاروق من الرعاية والتكريم والتهذيب والتعليم ما يلهمهم بصداق الشكر وخالص الدعاء إليك المحبوب ، كما أمر حفظه الله بأن توفد وفود من علماء الأزهر إلى جامعات أوروبا ليجتروا علماً بما عند أهلها من علوم نافعة ويعرفوا لغاتهم ويدرسوا أحوالهم وينشروا بينهم محاسن الإسلام وينفعوا قومهم إذا رجعوا إليهم . وقد أنشئ بتوجيه جلالة الملك المعظم مركز ثقافي إسلامي في إنجلترا ، وسيتشأ مثله إن شاء الله تعالى في أمريكا ، ونرجو أن يتمكن الأزهر من تحقيق رغبة جلالة في الإكثار من هذه المراكز .

ومولانا الفاروق أعزه الله لا يألو جهداً في العمل على تقوية الأزهر ، وتوطيد دعائمه ، وتوفير أسباب الطمأنينة لأهله من علماء وطلاب حتى يتفرغوا للعلم ويعكفوا على خدمة دين الله القويم .

ولاني لأعلم من حبه على الأزهر وعطفه على الأزهريين ما يجعلني مستبشراً بالخير ، واثقاً من أن هذه الجامعة الكبرى سترقى في عهده السعيد إن شاء الله تعالى إلى ذروة مجدها وتحقق آمال جلالة وآمال سائر المسلمين فيها .

وقد تلقيت من توجيهاته السامية في شتى نواحي الإصلاح ما جعلته برنامجي وعهدي ، وأسأل الله تعالى المعونة عليه والتوفيق إلى تحقيقه .

أيها الازهريون :

إني لأعلم أن قلوبكم مفعمة بالولاء والحب والإخلاص لجلالة مولانا الملك المعظم ، وأعلم أنكم قادرون فضله عليكم وبره بكم حق قدرهما ، فإحراكم بشكر هذا الفضل والاعتزاز بهذا البر ، وإنما يكون ذلك بقيامكم بواجبكم علماء وطلاباً حتى تحققوا آمال المليك فيكم ، وتؤكدوا للعالم ما عرف عنكم من أنكم جنود الله وحفظة دينه ، وحمله كتابه ، وتبعثوا في الأمة الإسلامية على اختلاف شعوبها وأجناسها روحاً من التوبة والصلاح تستعيد به مجدها وسالف عزها وكرامتها .

إنه لا صلاح لهذه الأمة إلا بكم ، ولا قيام لها إلا على أساس دعوتكم ، فإنها دعوة الحق فانهضوا بأعبائكم كراماً أولى قوة وابتغوا وجهه الله تعالى فيما تعملون يصلح الله أموركم ، ويصلح بكم ، واعلموا أنكم جنود الله لجاهدوا في الله حق جهاده واصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون .

اللهم إنا نسألك ونبتل إليك أن تكلأ بعين رعايتك التي لا تنام جلالة مولانا الملك المحبوب فاروق الأول .

اللهم امنحه من لدنك نصراً مينا ، وارزقه دوام العافية ، وتمم النعمة وحسن المزيد .

اللهم يا حي يا قيوم يا بديع السموات والأرض يا ذا الجلال والإكرام ، نسألك أن تجعل هذه الخطبة السعيدة فاتحة لخير عظيم تقر به عين جلالة الملك ، وتسعد به أمته وتحقق به آماله ، إنك يا رب أكرم الأكرمين ، وأجود الأجودين وذو الفضل العظيم .

اللهم أعز به الاسلام وأرفع به راية القرآن ، واجعل عهده حافلاً بالخير واليمن والاقبال وقوى به شوكة الإصلاح والمصلحين من عبادك الصادقين المخلصين .

اللهم أصلح في عهده اليمون جميع شئوننا ، ويسر أمورنا ، واجمع ، شملنا وألف بين قلوبنا ، ونسألك اللهم أن توفق رجال حكومة جلالة مولانا الملك إلى ما فيه الخير العميم وأن تسهل لهم كل صعب وتيسر لهم أسباب رفعة شأن الأمة وسمو مكاتها إنك يا رب ولينا وكفى بك نصيراً وأنت يا رب مولانا ونعم المولى ونعم النصير وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

لَيْسَ هَبْنَانِبَلْ

نبين لنا من متابعة اطلاعنا على كتاب (من هنا نبدا) أن المؤلف بروج للإستراتيجية ، وهذا تطوع لاشية فيه ، فقد يكون مقتضا بأن الامة التي لا تأخذ بالاشترائية لا تقوم لها قائمة ، فلا يؤاخذ على أن ينصب من نفسه داعية لها في أمة دسورية ؛ ولكن الذي يؤاخذ عليه تصوير الدورة الاقتصادية للام تصويراً خاطئاً ، ورفع الاشتراكية العامة إلى مصاف العوامل الأولية في ترقية الشعوب ، واعتبار الاشكال الأخرى من الاجتماع ، صوراً وقتية آيلة إلى الاشتراكية لا بحالة سواء أسرع في تطوراتها أم أبطأت ؛ فأسرف لأجل ذلك في المرغبات فيها ، وارتكب في سبيل المبالغات ما لا يسمح به في كتاب على من أخطاء ، وفاته أمر خطير وهو أن للتطورات الاجتماعية أدواراً لا بد للجماعات من الدخول فيها ، واستيعاب آمادها حتى تستعد الجماعة لقبول ما يليها ، وربما نشأت حوادث دفعها لوراء درجات كثيرة بعد أن كانت على مقربة من آخر أطوارها .

قلنا إن المؤلف ارتكب في سبيل تحضيضه مواطنيه على الدخول في الاشتراكية ما لا يسمح به في كتاب على ، ونحن ناقشه الحساب في بعضها لأن في تركها على حالها في مؤلف كتب له الانتشار تضليلاً للكثير من القراء . فلتابع ملاحظتنا عليها فنقول :

قال في صفحة ٩٢ : « إن أحسن غلظة نفقرفها خلال سعيها للسلام هي التماسنا له في الخارج ، فطن أن المعاهدات ودوراتنا في فلك دول أكبر سيملاّن بلادنا سلاماً وأماناً ، ولعل الدروس التي تعلمناها من معاهدة سنة ١٩٣٦ ومن منظمة هيئة الأمم ومجلس الأمن كفيّلة بأن تلهمنا رشداً » .

يقول : الواقع أن أحداً في بلادنا لا يرغب في عقد معاهدات مع أية دولة من الدول ، ولكننا نرغم على عقدها أرباباً . فانجلترا لم تنجل عن القاهرة والاسكندرية إلا بعد عقد معاهدة سنة ١٩٣٦ ، ولو كنا ألبنا عقدها لما انجلت عنهما . ونحن الآن نريد أن تجلو عن قناة السويس فتأبى إلا بعد أن نعقد معها معاهدة تسمح لها باحتلالها إذا شبت حرب أوروبية . فنحن كما ترى لا نتطلع للمعاهدات ، ولا نصبو اليها ، ولكننا نتوسل بها لنكتسب خطوة جديدة نحو استقلالنا التام .

يريد المؤلف أن يثبت انثرائه أن وقوع طائفة من الامة في الفاقة المدقعة ، وتمتع أخرى بالرغد والسعة ، هو سبب كل بلاء يصيب الاجتماع ، ويدفع إلى الحروب . ونحن نوافقه على خطر هذا الوضع في حدوده المدقعة ؛ ولكن خطر الإدقاع في الفقر قد زال بسبب ما جد من نظم العمل ، وتحديد الأجور ، وقيام النقابات ، ومعونة الحكومات للعمال ، وبقي أشد عوامل الحروب خطراً ، وهي تسابق الدول على التحكم في بعض الطرق البحرية ، أو احتلال بعض البقاع الأرضية لضمان تصرف محصولاتها ومصنوعاتها .

أما القول بأن الحروب تزول إذا وجد الناس الحبز والزبد ، فهو بعيد عن التحقيق ، لأن العوامل التي تدفع إلى الحروب من تراحم الأمم على الاستعمار ، وعلى بسط السلطان الأدبي على الجماعات المستضعفة ، لا تزال موجودة ، بل أخذت شكلاً مهدداً لحق البشرية ، وخاصة بعد اكتشاف صنع القنابل الذرية ، وهل يفوت الأستاذ انقسام الأمم إلى معسكرين : أحدهما يؤيد الرأسمالية الفردية ، والآخر يعتبرها شر الشرور البشرية ، وما يبدو من كليهما من التحفز ، والتأهب لمجزرة عالمية ؟ فهلا حسب الأستاذ حساباً لهذا التطور الجهنمي الفطيع للعوامل المولدة للحروب ، فاكنتي بذكر أسبابها البدائية التي لم يبق لها وجود في أية أمة متقدمة . إن مشكلة أجور العمال قد حلت نهائياً في أعظم الأمم الصناعية ، وهي أمريكا وانجلترا وفرنسا وجميع الممالك الأوروبية ما عدا إيطاليا ، وهي هنالك أيضاً في طريق الحل ، فلم نعد نسمع عن تلك الاعتصابات الدموية ، ولذلك لم نجد للاشتراكية صوتاً يسمع فيها ، ويمكن أن يكون هذا الهدوء بدء حياة طيبة يجد فيها كل عامل حقه موفوراً ، والعناية به وبأسرته بعد وفاته أصلاً مرعياً .

أما ما نقله عن بعض الكتاب وأدعى أنه يحرض على الشيوعية من أن مجموع الضرائب المقررة على الأراضي الزراعية تبلغ ٤٧٠٠٠٠٠٠ جنيه في حين أن مصلحة الري التي تقوم على خدمة هذه الأراضي وتنظيم ريها تبلغ ٦٢٠٠٠٠٠٠ ، أى أن مصر تبرع سنويا للسادة أصحاب الأملاك بمبلغ ١٥٠٠٠٠٠٠ جنيه ، فهو ليس شئ . لأن الحكومة بإقامتها مصلحة للري لا ترمى إلى مصلحة طائفة من الطوائف ، ولكنها ترمى لإيجاد نظام للري في أمة لا تقوم بدونه .

ثم قال : « ونظرة أخرى إلى الميزانية ترىنا أن قيمة عوائد الأملاك المبنية تبلغ ٩١٢٠٠٠٠ جنيه في حين أن نفقات مصلحة التنظيم تبلغ ٢٠٠٠٠٠٠٠ جنيه . فكل رقم تقع عينك عليه بصرخ في وجهك بأن الثورة على النظام الإقتصادي حق ويؤكد لك أننا نعيش في بلد يصرف فيه الفقير على الغنى ، وتبنى فيه الثروات بالظلم الرسمي والجهل الحكومي » .

أما نحن فنقول ، وقبل أن نقول نسال : ما هو ذلك النظام الإقتصادي الذي يلعبونه ؟ هل من مقرراته أنه يسمح لبعض طوائف الأمة أن تجدد وتعمل وتكسب المال وتذخر ما يزيد عن حاجتها منه وتشتري به ضياعا ودورا ، وتحرم طوائف أخرى من ذلك وتحد أمامها مجال الإرتزاق ، وتحصره في وجوه محدودة ؟

إن كانت على هذه الشاكلة فهي مقررات جائرة ، ويجب ليس لعننا لحسب بل والعمل على محققها ، والتسوية بين جميع طوائف الأمة في الانتفاع بمواهبهم وجهودهم في رفع مستوى حالتهم الاقتصادية . فإذا كانت الأرض تضيق عن سد مطامعهم فبجال التجارة يسعهم ، فإن ضاق عنهم ففي الصناعات ميادين لا تحسد ، ووراء كل ذلك العلم الذي ليس له حد يقف عنده ، ولا لإمكانياته نهاية يتعذر تجاوزها .

ولكن يظهر أن أصحابا يريدون أن يحولوا الحكومة فوق ما لها من حق حفظ النظام ، والسهر على الأمن العام ، والفصل في الأحكام ، حقوقا جديدة تبلغ بها إلى حد التحكم في توزيع الثروة العمومية للأمة ؛ فلا تدعها تدور مع الأمة حرة في أدوار رقيها المدني والتعالمى ، بل أن تقيد وتوكل إلى إرادة الحكومة تصرف فيها كما تريد . والحكومة كما تعرف أفراد من الناس لا من الملائكة .

وهذا نظام ينافي ما عليه الأمم المتقدمة من جهة ، ويعطل حركة التجارة من جهة أخرى .

نعم الغرض منه أن لا يحرم الفقراء وهم السواد الأعظم في الأمم من مقومات الحياة ، ولا يتعرضون معه للفاقة والإعواز ، وأن لا تنتظم ثروة الأغنياء فتبتلع ثروة الأمة وتحكرها لعدد محصور من الأفراد . ولكن أطباء الاجتماع قبل أن يعمدوا في علاج هذا المرض إلى البتر، عمدوا إلى الحد من تضخم الثروات بفرض الضرائب . وهذا مجال يمكن التوسع فيه إلى حد بعيد يصل إلى أقصى ما تستدعيه الحال . وهو أفضل من الحل الأول ، لأنه يتماشى مع النظم الدستورية ، ولا يعتبر شذوذاً عن المألوف في الجماعات ، ولا يفضي إلى تحكيم عدد يعد على الأصابع من الرجال في أمة يبلغ عدد أفرادها عشرات الملايين .

يعطى الأستاذ مؤلف (من هنا تبدأ) عن المجتمعات العربية صورة مزعجة قائمة ، وهو لم يبالغ فيما كتبه عنها ، ولكنه عزا ما هي فيه إلى النظام المالي الذي هي عليه ، وفاته أنها مصابة بضروب من الأمراض الاجتماعية والأدوية تحول دون تطورها في أدوار التقدم والارتقاء ، بحيث أنه لو طلق عليها أرق نظام مالي لما غير من سوء حالتها التي هي عليها فيد أنملة ، بل ربما أسرع بها إلى الهاوية .

وإذا كان هذا النظام المالي أو كما يسميه بالراسمالية المردية ، وبالرجعية الاقتصادية ، هو علة كل بلاء يصيب الجماعات ، فما بال الدول الأوروبية الكبرى لا تزال مبقية عليه ، ومحتفظة به ؟ نعم إن لدى كل منها حزبا يدعو إلى الاشتراكية ولكنه لا يبلغ عند واحدة منهن أكثر من خمس أعضاء مجالسها النيابية ، وهي قلة لا تؤثر في وجهة سياستها العامة ، فكيف يسمح كاتب لنفسه أن يزعم أن الأمم لا يستقيم لها حال إلا إذا أخذت بالاشتراكية . وبأى سلطان يستسيغ كاتب أن يكتب مثل العبارة الآتية فيقول :

« هذه الرجعية هي التي توقد نار الحرب بين الأمة الواحدة لتزقها وتحرقها .. »

ويقول :

« هل نحن حريصون على سلام بلادنا وسلامتها ؟ وهل نرغب في تجنبها »

ويلات الفتن والاضطرابات؟ إذن فلنكافح (الجريمة) . وأفضل من ذلك أن نقضى على العوامل التي تيسر نشوء (الجريمة) . فالوقاية كما يقولون خير من العلاج . وإننا حين نتبع سير الانخفاضات العنيفة التي وقعت في التاريخ لا نكاد نجد لها سوى سبب واحد هو : أمة تريد وحكومة تأبى ، الخ .

نقرأ هذه المبارات ونعجب ولا ندرى كيف تكتب . ولمن تكتب ؟ فاما لدينا فالأمة إن طلبت من حكومتها شيئا فلا تستطيع أية سلطة أن تأباه عليها ، لأنها أمة ذات نظام دستوري تستطيع أن توجد لنفسها كل ما ترجوه من النظم والتأليد .

وأوروبا على أرقى مما نحن عليه من النظام الدستوري ، وهي أعرق منا فيه ، فلا يوجد فيها حكومة واحدة تحدث نفسها أن تأبى على شعبها شيئا يريد ، وكيف تجارأ على شيء من ذلك ، أو تحدث نفسها به ، وهي وليدة إرادة الشعب ؟ فإن طلب الشعب إليها شيئا فيما أن تفعله وإما أن تستقيل ؛ فإن استمالت قامت غيرها مكانها ونفذت رغبة الشعب ، لأنه المسئول وحده عن شئونه كلها .

وقد خولت الشعوب حكوماتها بعض السلطات حين ترى أن الحالة تستدعي استفتاء الجماعة في مبلغ ثقتها بنوابها الحاليين أمام ما هي بصدد من الشئون ، فلو أنها الحق في أن تطلب من الملك أو من رئيس الجمهورية أن يستقيل الشعب في الأمر الذى يثير الخلاف بين نوابها والحكومة ، فيحل المجلس ويدعو الشعب لانتخاب غيره . فإذا انتخب الشعب نوابه الجدد ، وأخذ رأيهم وجاء مؤيد لرغبة نوابه السابقين ، قامت الوزارة بتنفيذ ما يرغبون . لا تجرؤ سلطة فى الأرض أن تردّها أو تعطل من سيرها .

هذا مؤدى النظام الدستورى الذى تقوم عليه جميع حكومات العالم المتقدمين فهل يمكن لمن يلم به أن يفهم المراد من قول الأستاذ المؤلف : (أمة تريد وحكومة تأبى) ؟ فهذه الحكومة لا توجد فى عهدنا الذى نعيش فيه إلا لدى الشعوب التى لا تزال فى عهد السذاجة الاجتماعية ، ولنا وليست أم أوروبا قاطبة منهم .

فإذا بدا لأهل رأى من علماء الاجتماع أن تأخذ الأمة بمبدأ جديد ثبت نفعه ، فالطريقة الوحيدة للدعوة إليه أن يفضوا به إليها على صفحات الجرائد والمجلات ،

وأن يصدرُوا به كتباً ونشرات رجاء أن يدبغ العلم به بين الناس ، فيصل من هذا الطريق إلى نواب الأمة ، فإذا اقتنع به عدد كاف منهم أسرعوا إلى جعله موضوع مناقشة برلمانية ، فيشتد الزمّاش فيه ، وتتجلى جميع حوافيه . فإذا كان موضوعه مالياً تصدى له أعضاء مجلس الشيوخ وهم أقوى أنصار الرأسماليين ، فيشتدوا في نقده ، وإظهار جهات ضعفه ، ونواحي خطره ، وقد يعملون على رفضه . فإن اقتنع أعضاء مجلس النواب بأدلتهم وافقوهم على دعمه ، وإلا أصروا على تأييده ، وتأخذ الإجراءات النيابية طريقها في تقرير مصيره .

هذا هو الطريق الدستوري في بث التعاليم والمذاهب في الجماعات الدستورية ، لا أن تطالب من الحكومة مباشرة .

وقد قصد واضعو الدساتير هذا النظام في بحث المطالبات الجديدة لتمكين الأمة من دراستها دراسة عميقة ، بتقليبها على كل وجه ، وإطلاق الحرية لكل مماليء لها أو معترض عليها رجاء أن يجدوا الوقت الكافي والحرية المطلقة للاحقاء في دراستها ، ولإبداء آرائهم فيه غير متأثرين بشيء غير المصلحة العامة .

محمد فريد وجدي

إيمان

قال الحسن والحسين لعبد الله بن جعفر : إنك قد أسرفت في بذل المال . فأجابهما : بأبي وأمي أتينا إن الله قد عودنى أن يتفضل على عودته أن أتفضل على عباده ، فأخاف أن أقطع العادة فيقطع عني .

وقال المأمون لمحمد بن عبادة المهلبى : أنت متلاف ، فأجابه : منع الجود سوء الظن بالمعبود . يقول الله عز وجل وما أنفتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين . وقال النبي صلى الله عليه وسلم : أنفق بلالا ، ولا تخش من ذي العرش إقلالا . وقال صلى الله عليه وسلم : الخلق عيال الله ، فأحب الخلق إلى الله أنفعم لعباله .

في سبيل الله والأزهر

لفضيلة الأستاذ الدكتور محمد يوسف موسى

أما بعد :

فقد أردت نفسي جاهداً على أن تكون كلمة هذا العدد في باب من الأبواب التي أكتب فيها المتصلة بالفلسفة والفكر عامة ، فابت إياه شديداً . وحتمت على أن تكون هذه الكلمة عن الأزهر خاصة ، ولا عجب ! فلن كان الأزهر في كل أدوار تاريخه الطويل الحافل ملء الزمان ، فهو هذه الأيام ملء الزمان والاسماع ، حتى استرعى انتباه البلد كله ، وأفردت له الصحافة الكريمة مكاناً كبيراً ، فنحن لا نعيش هذه الأيام إلا له ولا نفكر إلا فيه .

يتساءل كثير من الناس ممن لم يتبطنوا الأمر ، ولم ينفقوا ما يراد بالأزهر ، عن السر في ثورة الأزهريين جميعاً ، طلاباً ومدرسين وأساتذة . هذه الثورة المهادنة الجادة الحازمة ، وكيف أصبحوا يطلبون مطالب مادية كما يطلب الغير ، وقد عهدوم زهاداً في الدنيا حين يتكالب غيرهم عليها ؟ ول هؤلاء المتسائلين على هذا النحو أتوجه بهذه الكلمة :

ما كان الأزهر في يوم ما طالب دنيا . ولكنه صاحب رسالة يحرص على أدائها ، ويرجو أن يعان عليها ، بل ألا يحال بينه وبينها . وهذه الرسالة هي حفظ كتاب الله وحراسة شريعته ، وإذاعة التعاليم الإسلامية في مصر وغير مصر من أقطار الأمة الإسلامية ، والعمل على أن يكون هذا الكتاب الكريم ، وتلك الشريعة السمحاء هما الفيصل في البلاد الإسلامية في نواحي التشريع والأخلاق والتقاليد .

وهذه الرسالة ، على خطرها وجلالها وثقل ما تقتضيه من تبعات ، قام بها الأزهر فيما مضى من تاريخه الطويل ، وعرفت له الأمة الإسلامية عظم الدور الذي يقوم به ، فأحله المحل اللائق ، ورفعته مكاناً علياً . أما اليوم فقد وضع ، حتى لمن كان أعمى أو لمن لا يحب أن يتعمق الأمور ويرد النتائج إلى مقدماتها وأسبابها الأولى ، أن القائمين على شئون مصر في هذه السنوات لا يريدون أن يقوم الأزهر برسائله من حراسة الدين وأخذ الأمة به ، حتى يتم لهم ما عملوا له زمناً طويلاً من فصل الدين عن الدولة فصلاً تاماً ، ومن أن يكون مجتمعنا مجتمعاً لا يمت في مجموع مظاهره وتقاليد الشريعة بسبب قوى أو صلة متنية . ومن ثم راحوا يتحيفون حقوق الأزهر وأهله في عنت ، ويتحدونه وأبناءه في جبروت ، ويحاولون صرف الناس عنه بطرق وأساليب شتى ، ويجدون مما بين أيديهم من الحكم وأسبابه العون في كل ما يريدون ، بل ويجدون لهم أنصاراً ممن لا يريدون — فيما يزعمون — أن تتخلف مصر عن ركب الحضارة ، كأن الإسلام الذي أوجد أكبر حضارة عرفها الإنسان ، أصبح حجر عثرة في سبيلها هذه الأيام !

هذا ، ولنا لعقد أن الحالة أو المحنة التي يمر بها الأزهر الآن ، وسيخرج منها بفضل الله ، وقد نفي عن نفسه الخبث ، وداد عن عبديه النوم الثقيل البغيض ، هي نتيجة لسياسة ، وضع أسسها المستعمر منذ قرابة قرن من الزمان ، ولا تحمل الحكومة الحاضرة وحدها تبعاتها .

إن الاستعمار على ضروب مختلفة لكل منها وسائله ، ولكن مهما اختلف المستعمرون في طرقهم وأساليبهم ، فإنهم يتفقون على وجوب القضاء على قومية البلد المستعمر ، وهذه القومية تقوم على الدين واللغة والتقاليد . وهذه الغاية قد يسير إليها المستعمر في عجلة وعفوان ، كما فعلت فرنسا في الجزائر ، أو في هون وتؤدة ، كما حاولت إنجلترا في مصر ونجحت فيه نجاحاً غير قليل .

لقد بدأ الأمر عندنا منذ طويل بالتهوين من شأن الدين واللغة ، أو تحييف حقوق القائمين بهما ، وجعلهم لدى الأمة في منزلة أدنى من نظرائهم في الثقافة ، والعمل والخدمات العامة للأمة . ومن ثم ، كان خريجو دار العلوم دون خريجي

مدرسة المعلمين العليا منزلة وراتباً ، مع اشتراكهما في العمل في المدرسة الواحدة ؛ وكان التقضاة الشرعيون - ولا يزالون - دون القضاة الأهليين في المرتبة المادية والأدبية ، مع الاستواء في الحكم بين الناس ، وما لذلك من تبعات جسام ؛ وكان خريجوا الأزهر في منزلة أدنى من هؤلاء جميعاً .

ثم انقضى الاستعمار بحمد الله ، ولكن بقي - لا أقول أذنباً وصنائع - من يخدمون بعض ما كان له من غايات ، من حيث يدرون أو لا يدرون ، فاحتفظوا في جعله رمزاً طويلاً ، حتى انتهى بنا الأمر إلى كثير مما كان يريد .

ها هو ذا أحد المسلمين ، وله مكانة ملحوظة في البلد ، يقول في كلمة نشرتها له أوائل عام ١٩٤٩ صحيفة إسلامية واسعة الانتشار : ولا يخفى أننا في مصر نجري ، في حكمة واعتدال ، على فصل الدين عن أمور الحكم وخلافات السياسة .

وها هو ذا آخر درس القانون ، وصار من المحامين ، يقول في عريضة دعوى الأنسة المحامية أمينة مصطفى خليل التي دفعها أمام محكمة القضاء الإداري تشكو وزير العدل إن لم يعينها وكالة نيابة أو محامية بقلم قضايا الحكومة بعد أن استشار في الأمر رجال الدين ، يقول كما جاء بمجلة أخبار اليوم بتاريخ ٤ نوفمبر سنة ١٩٥٠ :

« وقد أخطأت وزارة العدل السبيل حين توجهت إلى رجال الدين تستفتيهم في مسألة اجتماعية لا تتعلق بالدين - كما لو كانت مسألة ولاية المرأة القضاء أو شيئاً منه أمراً لا يتعلق بالدين والشريعة الإسلامية - في كثير أو قليل . فكان حتماً عليها ، حتى لا تتخلف عن السير في ركب الحضارة ، أن تسائل نفسها : هل تقوم في مصر حكومة دنيوية ؟ وهل الحكومة النائمة تطبق المبادئ الشرعية حتماً وصدقاً ؟ أو هل يعيش المصريون في مجتمع شرعي تطبق فيه أحكام الدين الخفيف ؟ فإذا كانت الإجابة عن هذه الأسئلة بالسلب ، حق على وزارة العدل أن تتورع عن الزج بالدين في الأمور الاجتماعية البحتة ، إلى آخر ما قال ! ونحن نعتقد مع محامي المدعية أن الإجابة عن هذه الأسئلة كلها هي بالسلب ، وهذا ما يكشف لنا عما وصل إليه من النجاح أنصار إقصاء الدين عن الدولة والمجتمع نفسه . وهم مع هذا يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، متجاهلين قوله تعالى في سورة المائدة : « أحكم الجاهلية يبغون ، ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون » ! مع أن الحفاظ بن كثير

وهو من أجل علما والإسلام ، يقول في أثناء تفسيره لهذه الآية : « فن فعل ذلك فهو كافر يجب قتاله حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله » .

وأخيراً ، من باب التمثيل ، لا من باب الاستقصاء ، نرى الأزهر ينادى عن القوام على الشريعة فيما يفرض على البلد من قوانين ترجع إلى كثير من المصادر ما عدا شريعة الله ورسوله ! كما لا يسمع له فيما يجرى في مصر من منكرات ومظالم وآثام ، وفيما يشيع فيه من تقاليد تبعد عن أمر الله والخلق الطيب بعد المشرق عن المغرب ! .

أرأينا إذاً أن التهورين من الأزهر وأبنائه وعلائه ورجاله عامة ، وانتفاص حقوقهم جميعاً في غير ورع أو حياء ، أمر يجرى على سنن مرسوم وسياسة وضع المستعمر أسسها ووسائلها منذ زمن طويل ! وأنه من عدم فهم الأمر على حقيقته ، ومن تجاهل العلل الأولى لهذه المحنة التي نمر بها ، أن يقال إن الأزهريين يشورون طلباً للمادة كما يفعل الأغيار ! .

ألا إن الأمر أخطر من هذا كله كما رأينا : ألا وإن من يؤمن بالله ودينه ، والرسول وشريعته ، والأزهر ورسالاته ، طلاباً وأساتذة ورؤساء ، ليس له أن يتزحزح خطوة واحدة عن هذا الموقف الذي نتفه الآن جميعاً في سبيل الله والأزهر ، وإلا كان فاراً من الزحف ، وباء بسخط من الله ورسوله والمسلمين جميعاً في مشارق الأرض ومغاربها .

إن الأمر أيها الناس ، لا يعدو إحدى اثنتين : إما ألا تكون مصر والعالم الإسلامي كله في غير حاجة للأزهر ، أو أن تكون في حاجة ماسة له .

فإن كانت الأولى فليخلق الأزهر ، ولينفق ما يرصد له في الميزانية على غيره من مرافق البلد ، وليربحونا من هذه الحياة التي لا يرضاها حرٌّ أبى كريم .

وإن كانت الأخرى ، وهذا ما نعتنقه صحيحاً ، فعلى الدولة أن تعرف للأزهر وأبنائه منزلتهم ، وأن توفر لهم الحياة الكريمة كماء ما يقومون به من رسالة وما عليهم من تبعات ، وعلى الأمة الإسلامية كلها أن تطالب الدولة بذلك كله في جدٍّ وإلحاح من يعرف أنه يطالب بحقه . وأقول : « على الأمة الإسلامية » ، لأن الأزهر وإن كان في مصر ، ليس لمصر وحدها ، ولكنه لأمة الإسلام جميعاً ،

والأمر في هذا ثابت وأصح لا يحتاج إلى دليل أو توضيح . وليس لأحد من يهدم الأمر أن يتعلل بحديثه بإمكان الميراثية العامة للدولة أو عدم إمكانها ؛ وإلا فكيف تتسع هذه الميزانية للإغراق على جميع الطوائف ، بل وللإغراق على فرق التثليل والرقص نستقدمها من أوربة للترفيه عن الأغنياء المترفين !

هذا ، ونقول أخيراً ما قاله فضيلة الأستاذ الكبير الشيخ حسين مخلوف عضو جامعة كبار العلماء ، ، لدى فضيلة أستاذنا الأكبر شيخ الجامع الأزهر ، إن المسألة ليست اليوم مسألة مطالب عادلة حسب ، وإنما هي مع ذلك مسألة كرامة وعزة . ويجب أن يكون للأزهر قيمته ومنزله التي عرفها التاريخ وعرفها العالم الإسلامي ، فيحترف له بحقوقه ، ويقدر أهله وما يؤدون للبلاد من خدمات التقدير اللائق . . . وإنا ، ثقة بلفتات جلالة الملك التي شملت الأزهر في كل شئونه بمزيد من العطف والرعاية ، نرجو أن يكشف الله بها هذه النعمة ، ويزيل بها هذه المحنة .

ونقول أيضاً : أحب بهذه محنة جعلت الأزهريين ، طلاباً وروساء ومرؤوسين ، جسماً واحداً ورجلاً واحداً في سبيل الله ودينه ، ورسوله وشريعته ، والأزهر ورسالته ، والله المستعان ؟

عتاب

دخل أبو دلف أحد قواد جيوش الدولة العباسية على أمير المؤمنين المأمون ، وقد كان عتاب عليه ثم أقاله ، فقال له وقد خلا مجلسه : قل أبا دلف وما عصيت أن تتول وقد رضى عنك أمير المؤمنين وغفر لك ما فعلت ؟ فقال أبو دلف : يا أمير المؤمنين :

ليالى تدنى منك بالبشر مجلسي ووجهك من ماء البشاشة يقطر
فن لي بالعين التي كنت مرة إلى بها في سالف الدهر تنظر
فقال المأمون : لك بها رجوعك إلى متاحتك ، وإقبالك على طاعتك ، ثم عاد له إلى ما كان عليه .

شرك العقيدة وشرك العمل

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد محمد المرنى

لا أظن أنه بقى على ظهر البسيطة من يعتقد أن هناك إلهاً مع الله يستحق العبادة والخضوع له كما يستحقها الله جل جلاله ، ولكن هناك نوعاً من الشرك ما يزال باقياً ، وهو أشد خطورة من الناحية العلمية وأكبر ضرراً على المجتمع من شرك الأوثان والكواكب والأحجار .

بيان ذلك أن الشرك بالله واتخاذ غيره إلهاً نوعان :

شرك فى العقيدة ، وشرك فى العمل .

فأما شرك العقيدة : فهو أن يعتقد الإنسان أن مع الله إلهاً آخر يستحق العبادة والطاعة ، كهؤلاء الذين كانوا يعبدون الشمس والقمر والأشجار والأحجار وغير ذلك من التماثيل ، التى كانوا يصنعونها بأيديهم ثم يخضعون لها ، ويقفون أمامها خاشعين ، ويتخيلون رضاها وغضبها ، وبركاتا ولعناتها ، فتعبد فرائضهم منها خوفاً وفَرَاقاً ، ولا شك أنه لا يوجد سفه وضلال يقع به الإنسان فى التخطئ والعمية كهذه العقيدة ، ولم نجد أحداً فى التاريخ يعتقد بها إلا ذوى الأحلام الضعيفة والعقول السخيفة ، ولذلك يسخر الله منهم دائماً ، ويصفهم بالجهل والعمى ، وأن لهم قلوباً لا يعقلون بها ، وأذاناً لا يسمعون بها ، وأعيناً لا يبصرون بها ، وأنهم كالأنعام بل هم أضل سبيلاً .

وهذه العقيدة مودية بصاحبها فى الدنيا قبل أن تودى به فى الآخرة ، وحسبنا أن تصور رجلاً يعيش فى مجتمع مفكر — ولا سيما فى عصرنا الحاضر —

وهو يؤمن في قرارة نفسه بأن هذا الحجر أو ذاك إله يستحق منه العبادة ، ويملك له النفع والضرر ، إنه لا شك يكون في سائر تصرفاته ذا عقلية ضئيلة ، وشخصية هزيلة ، ومثل هذا لا يرجى منه أى خير ، بل هو دائماً عرضة لجميع الشرور وألوان الفساد ، ولذلك يصور الله تعالى حال الشرك به تصويراً رائئاً يمثل جميع معاني الخيرة والاضطراب والخوف والضعف والضلال فيقول : « ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح في مكان سحيق » .

هذا هو شرك العقيدة ، وهو أول انحراف عن سواء السبيل ، وإليه يرجع كل اضطراب وكل شر وكل فساد في هذه الحياة .

أما كونه أول انحراف عن سواء السبيل ، فذلك أن الفطر السليمة والعقول المستقيمة توحى بالإيمان بالله إيماناً صحيحاً لا يتخالجه شك ، ولا يفسده شرك ، فإن الإنسان مفكر ، وتفكيره يهديه إلى أنه لم يوجد إلا بمؤثر ، ولا يجد شيئاً أمامه يمكن أن يستند إليه هذا التأثير ، بل يجد كل ما حوله من الأشياء موجداً بعد عدم مثله تماماً ، فيدعن في قرارة نفسه لهذه القوة الغيبية التي تأتي الرسل وتنزل الأديان قسميها الإله الذي خلق الخلق ، وتفكيره يهديه أيضاً إلى قضية أخرى هي قضية الوجدانية ، فيؤمن بها إيماناً عقلياً عن طريق النظر في أدلتها المعروفة ، فإذا انحرف الإنسان عن حكم فطرته ، وعن حكم عقله وتفكيره في هذا الشأن الذي يتصل بالعلاقة بينه وبين خالقه وموجده ، كان ذلك أول انحراف عن سواء السبيل .

وأما كون هذا الانحراف سبب كل اضطراب ، فإنه كما ذكرنا دليل على التباين العقل ، واعوجاج الفكر ، وباعث على سوء التصرف ، ولا يمكن أن يعيش امرؤ فاقد العقل سيئ التصرف عيشة سعيدة صالحة بين قوم عقلاء يعرفون ما يفعلون وما يتركون .

أما شرك العمل فهو إشار ما سوى الله على الله ، وإن اعتقدت أن الله واحد ، وأن الأمر بيده ، فانه لا يكتفى أن تؤمن النفس إيماناً سليماً بأن الله هو مالك النواصي والأقدام ، ثم لا يظهر لهذا الإيمان أثر في التصرف والعمل ، بل يظهر في الأعمال والتصرفات عكس ذلك ، كأن الإيمان هو ذلك الزعم القلبي الخفي الذي لا روح له ، ولا حياة به ، إنما الإيمان الحق هو الذي يحول بين صاحبه وبين إثبات المنكرات واقرار الآثام .

ولذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ، ولا يقتل القاتل حين يقتل وهو مؤمن » ويقول في حديث آخر : « والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن ، قالوا من هو يا رسول الله ؟ قال الذي لا يأمن جاره بوائقه » إلى غير ذلك من الأحاديث التي تربط الإيمان الحق الذي يعبد الله به بالأخلاق الفاضلة والأعمال الصالحة ، وقد وصف القرآن الكريم المائلين إلى الأهواء ، المتبعين للشهوات بأوصاف العبودية لغير الله ، واتخاذ غيره إلهاً إذ يقول : « وائل عليهم نبأ الذي آتينا آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ، ولو شئنا لرفعناه بها ولنسكنه أفضل إلى الأرض واتبع هواه » . « ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً » . « أرايت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلاً أم نحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً » . « بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم ، فمن يهتدي من أضل الله » .

ووصفت السنة أيضاً هؤلاء بمثل ذلك فقد جاء في بعض الأحاديث النبوية الصحيحة : « تعس عبد الدينار والدرهم ، تعس عبد الخيصة » .

فهؤلاء مشركون ، وإشراكهم أضر على المجتمع من إشراك عابد الوثن ، والمعتقد في الحجر ، لأن عابد الوثن يضر نفسه ، ويهدد حياته ، أما هؤلاء فانهم يشنون الفساد والوهن في صفوف المجتمع ، ويشيعون فيه الضعف والمنكر وسائر أصناف الرذيلة .

أقول هذا بمناسبة ما سرى في مجتمعنا المصرى من فساد وأخلاق سيئة ، عمت الصغير والكبير ، وأصبح أمرها من التسليم والقبول في المجتمع كأمر العقائد الثابتة ، ومن حاول التغير عنها ، أو النصح بالتخلص منها ، عُدَّ في قومه كالنافخ في الرماد ، أو الضارب في الحديد البارد ، ووجد من الناس من يلومه ، ويهجن فعله ، ويرميه بالتجاوز والاغترار .

وقد أصبحت مهمة العناية ورجال الدين والإصلاح بذلك من المشقة والعسر بمكان ، وإلا فن ذا الذى يستطيع أن يحول الناس عما ألفوه ، ودرجوا عليه من التعامل بغير ما شرع الله ، أو عن إباحة ما استباحوا من الحرمات باسم المدنية والحرية ، أو عن أخلاق الفجور التى منى بها الشباب ، وغض عنها الآباء والأمهات ، أو عن الفساد المتصل بالحاكين في الرشوة والمحسوبية ، والإهمال والتضييع ؟

إن الذى يريد أن يصلح شيئاً من ذلك ، أو يحاول خلع الناس منه ؛ يُنظر إليه نظرة تعجب ، ويتهم بأنه يعيش في زمان غير زمانه ، ويفكر بعقل غير عقول أهله ، وهكذا انقلب المنكر معروفاً ، والمعروف منكراً ، واتبع الناس أهواءهم فاتخذوها آلهة ، وآثروها بالتقديم والطاعة على الله ، فليس ينعمهم أن يقولوا إنهم مؤمنون بالله رباً واحداً ، كما أنهم مؤمنون به خالقاً وموجداً .

إنى لأخشى أن يكون مجتمعنا قد آثر ما يسمونه الحرية أو المدنية على أمر الله وأحكام الله ، وإلا فقل لى بربك أيها القارىء : ما الذى يدعونا إلى التمسك بهذه الألوان الباهتة من المدنية الزائفة ، وقد أفضى بنا الأمر إلى كارثة الفضيلة والخلق ، حين سمَّ بعض الفتيان في حفلة أقامتها الدولة ببعض الفتيات المُجْتَلَبَات للرقص من أوروبا ؟

أتغريتنا المدنية والرقى الكاذبان بأخلاقنا وآدابنا إلى هذا الحد ، ثم تمسك بأخطائنا في شأنهما تمسك المرء بعقيدته ، وتؤثرهما على الدين ؟

هذا هو الشرك بالله في أخطر صوره ، فإياه فحاربوا أيها المؤمنون .

القرآن كما تتحدث عنه السنة :

العلم بأسباب نزول القرآن

لمحضرة صاحب الفريدة الشيخ فكري بسّ

أخرج الواحدى بسنده عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « اتقوا الحديث إلا ما علمتم ، فإنه من كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار ، ومن كذب على القرآن من غير علم ، فليتبوأ مقعده من النار » .

من القرآن ما نزل امتداء للأغراض العامة التي جاء من أجلها ، كالتحذير إلى الدين الحق ، والعقيدة الصحيحة ، والإرشاد إلى المعاملات المشروعة ، والأخلاق الفاضلة ، وما إلى ذلك من القواعد الأساسية الكبرى التي يقوم عليها النظام السكلي العام .

ومنه ما نزل مرتبطاً بسبب من الأسباب الخاصة ، كنزوله عقب حادثة معينة أو سؤال معلوم ، وذلك كآيات التي نزلت عقب الخلاف الذي وقع بين جماعة من الأوس والخزرج بدسيسة من اليهود ، حتى تناحروا : السلاح السلاح ، فنزل قوله سبحانه : « يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين » ، إلى آيات أخرى بعدها ، وكآيات التي نزلت عقب السؤال عن ذي القرنين ، وعن الروح ، وعن الساعة .

وهذا النوع الثاني هو ما يعرف عند العلماء بسبب النزول ، وهو عبارة عن نزول الآية أو الآيات مبنية لحكم الحادثة التي وقعت ، أو لجواب السؤال الذي

رفع إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا طريق لمعرفة ذلك النوع إلا النقل الصحيح ، كما جاء في الحديث الذي معنا ، فالقول في أسباب النزول لا يحل إلا من طريق الرواية والسماع من شاهدوا التنزيل ، ووقفوا على الأسباب ، وبحشوا عنها ، ولا يصح التعويل على غير ذلك من الأحاديث المرسلة إلا إذا صحت واعتضدت بمرسل آخر ، وإلا إذا كان الراوى من المعروفين بالتبريز في التفسير ، ومن المشهود لهم بالفوق فيه ، ومن الآخذين عن الصحابة رضوان الله عليهم .

وقد عنى العلماء بهذا المبحث عناية فائقة ، وأفردوه بالتأليف والتصنيف ، لأنه خير طريق لفهم معاني القرآن ، ومعرفة وجه الحكمة الباعثة على تشريع الحكم ، وتخصيص عامه ، وتقيد مطلقه ، وإزالة الإشكالات عنه ، وغير ذلك من الفوائد الكثيرة التي لها أهمية في تفسير القرآن ، والتي تعين على فهم المقصود من آياته .

وقد تناول الأصوليون كثيرا من مباحث هذا النوع ومسانئه وجزيئاته بالدرس والتحليل ، والشرح والتفصيل ، وأشبعوه قولاً وبحناً ، وأطالوا في ذلك إطالة ليس ورلمها زيادة لمستزيد .

ومن أدق ما استدل به الأصوليون على ضرورة معرفة أسباب نزول القرآن ، ولزومها لمن أراد فهم القرآن أمران :

الأول : إن الذي يعرف به إعجاز القرآن ، إنما مداره على معرفة مقتضيات الأحوال : حال الخطاب من جهة نفس المخاطب أو الخطاب ، أو الجميع ، إذ الكلام الواحد يختلف فهمه بحسب حالين ، وبحسب مخاطبين ، وبحسب غير ذلك ، كالاستفهام ، فهو لفظ واحد ، ويدخله معان آخر من تقرير وتوبيخ وغيرها ، وكالامر ، يدخله معنى الإباحة والتهديد والتعجيز وأشباهاها ، ولا دليل على معناها المراد إلا الأمور الخارجة ، وعمادها مقتضيات الأحوال ، وليس كل حال ينقل ، ولا كل قرينة تقرر بنفس الكلام المنقول ، وإذا فات قل بعض القرائن الدالة ، فات فهم الكلام جملة ، أو فهم شيء منه ، ومعرفة أسباب النزول رافعة لكل مشكل من هذا النمط .

الأمر الثاني : إن الجهل بأسباب النزول موقع في الشبه والإشكالات ، ومورد للنصوص الطاهرة مورد الإحمال ، حتى يقع الاختلاف ، وذلك مظنة وجود النزاع ،

ويوضح ذلك ما روى أن عمر سأل ابن عباس : كيف تختلف هذه الأمة ، وبينها واحد ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ، إنا أنزل علينا القرآن ، فقرأناه ، وعلينا فهم نزل ، وإنه سيكون بعدنا أقوام يقرأون القرآن ، ولا يدرون فهم نزل ، فيسكون لهم فيه رأى ، فإذا كان لهم رأى اختلفوا ، فإذا اختلفوا اقتتلوا وروى ابن وهب عن بكير أنه سأل نافعا : كيف كان رأى ابن عمر فى الحرورية ؟ فقال : يراهم شرار خلق الله ، إنهم انطلقوا إلى آيات أنزلت فى الكفار ، فجعلوها على المؤمنين .

وقد وقع من الحوادث بين الصحابة أنفسهم ما يدل على أن عدم معرفة بعضهم لأسباب النزول ، كان له أثر كبير عند بعضهم فى فهم الآيات على غير حقيقتها ، وتفسير القرآن على غير وجهه .

فمن ذلك ما أخرجه الشيخان من أن مروان بن الحكم أشكل عليه قوله تعالى : لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا ، فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب ، ولهم عذاب أليم ، فقال لئن كان كل امرئ فرح بما أتى ، وأحب أن يحمدا بما لم يفعل معذبا ، لنعذبن أجمعون . وظل على فهمه هذا حتى سئل له ابن عباس سبب نزول هذه الآية ، وأنها نزلت فى جماعة من أهل الكتاب سألو النبي صلى الله عليه وسلم عن شئ فكتموه لإياه ، وأخبروه بغيره . وأروه أنهم أخبروه بما سألم عنه ، واستحمدوا إليه بذلك ، فلما بين ذلك ابن عباس لمروان ، زال عنه الإشكال ، وفهم المراد من الآية فهما صحيحا .

وروى أن عمر بن الخطاب استعمل قدامة بن مظعون على البحرين ، فقدم الجارود على عمر ، وأخبره أن الجارود شرب فسكرا ، فطلب عمر البيت فأقيمت ، فقال عمر لقدامة : إني جالذك ، فقال : والله ، لو شربت كما يقولون ما كان لك أن تجلدى ، فقال عمر : ولم ؟ فقال قدامة : لأن الله يقول : لا تحسبن الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات ، ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا ، فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، ثم اتقوا وآمنوا ، ثم اتقوا وأحسنوا ، شهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بدرأ ، وأحدا ، والحنق ، والمشاهد : فقال عمر : ألا تردون عليه قوله ؟ فقال ابن عباس :

إن هذه الآيات أنزلت عنراً للماضين ، وحجة على الباقين ، فعذر الماصين أنهم لقوا الله قبل أن تحرم عليهم الخمر ، وحجة على الباقين ، لأن الله يقول : « يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه ، الآيتين . فإن كان من الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا ، فإن الله قد نهى أن تشرب الخمر . قال عمر : صدقت ، ونزل قدامة على رأى القوم عند ما تبين له سبب نزول الآية ، وعرف حقيقة المراد منها .

وجاء رجل إلى ابن مسعود ، وقال له : تركت رجلاً في المسجد ، يفسر القرآن برأيه ، إذ يفسر قوله تعالى : « فارتب يوم تأتي السماء بدخان مبين » ، بأن الناس يوم القيامة يأتيهم دخان ، فيأخذ بأنفاسهم ، حتى يأخذهم كهيئة الزكام ، فقال ابن مسعود : من علم علماً ، فليقل به ، ومن لا يعلم ، فليقل : الله أعلم ، ثم أخذ يشرح سبب نزول هذه الآية ، وبين أصل معناها ، فقال : إنما كان ذلك ، لأن قريشاً ، استعصوا على النبي صلى الله عليه وسلم ، فدعا عليهم بسنين كسنى يوسف ، فأصابهم قحط وجهد ، حتى أكلوا العظام ، فجعل الرجل ينظر إلى السماء ، فيرى بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد .

وفى القرآن كثير من هذا النوع ، فليتبعه من أراد ، وفى هذا القدر كفاية .

تحاسد الأقارب

قالت العرب : أزهذ الناس في عالم أهله .

ووقف أمية بن أبي الأشكر على ابن عم له فقال :

نشدتك بالبيت الذى طاف حوله رجال بنوه من لوى بن غالب

فإنك قد جربتني فوجدتني أعبك في الجلى وأكفيك جانبي

وإن دب من قوم إليك عداوة عقاربهم دبت إليهم عقاربى

قال نعم كذلك أنت ، فما بال متبرك لا يزال إلى دسيسا ؟ قال لا أعود . قال

قد رضيت وعفا الله عما سلف .

وقال يحيى بن سعيد : من أراد أن يبين عمله ويظهر عليه فليجلس في غير مجلس رهطه .

كيف ندرّس الأدب

لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد الجواد رمضان

بهذا العنوان ، نشرت مجلة الأزهر ، عدد شهر ربيع الأول سنة ١٣٦٠ هـ ، مقالا لأحد طلاب كلية اللغة العربية ؛ قدمت له بقولها : « هذا رأى فى دراسة الأدب للكاتب » . وأعنيته بقولها : « نشرنا هذا المقال لحضرة كاتبه الفاضل ، لما رأينا فيه من وجوه تقدر قدرها ، والمدار فى هذا الأمر على ما يتفق عليه آراء المشتغلين به ، وعلينا نحن أن نعرض الآراء عرضاً غير متحيزين لواحد منها ، ولما كنت أنشرف بأبى من أقدم مدرسي الأدب فى الكلية التى منها حضرة الكاتب الفاضل ، فإنه يحتم على الكلام ، واجب العمل الذى آكل به خبزي ، وواجب الطالب ، الذى يعد شره فى مثالبنا ، وخيره فى مناقبنا .

• • •

أما بعد ، فياها الطالب الكريم ، الذى لم أنشرف بمعرفته بعد ؛ والذى أرجو له مستقبلا يضاهي طامحه ، ويوائم ثقته بنفسه واعتداده برأيه ؛ وأخيراً ، بشبح غروره ، إشباعاً يرده إلى تواضع العالم ، واتزان الناقد ، وهدوء الأديب ، إن شاء الله تعالى — إن أول شرط فى « مجانية » النقد الأدبى الذى حُبِّرت فيه مقالك ، سلامة الأسلوب وقوته ؛ ولا أكتسك أنه قد جرح شعورى « المعهدى » ما يشيع فى أسلوبك من تخادل وتفكك واضطراب ، كان ينبغي أن تعنى بإصلاحه قبل أن تسمو إلى النقد الأدبى وتفرق نفسك فى آزيه المتلاطم ؛ والناس يقولون : « الأساس ، فالبناء » .

فالناقد الأديب - يا بني - لا يقول : « مساعا ، كما قلت ، وإنما يتهدى بالأسلوب الفرائى : وما يستوى البحران ، هذا عذب فرات سائغ شرابه ، وهذا ملح أجاج .

والناقد الأديب لا يقول كما قلت : وأصبحت التجزئة عنوان المباحث ؛ وإنما يقولها تاجر « التجزئة » .

والناقد الأديب لا يقول كما قلت : وأصبحت تطلق إطلاقاً فينا الخ ، وإنما يقول : إطلاقاً إصطلاحياً أو عرفياً وكذلك لا يصف الجنابة بالفنية كما وصفها ، إلا أن يكون ذلك تجديداً في « الجنابات » ! .

والناقد الأديب ، لا يقول كما قلت : والسمو بالعواطف النبيلة ، فالعواطف النبيلة ليست في حاجة إلى ما يسمو بها .

والناقد الأديب ، لا يحيل « يفسد » كما أحلت ، إذ تقول : « ولا مانع أن تعدد ألوان هذا الخيط ، فيكون بعضه أحمر والبعض الآخر أصفر ، لأن جماله في تماسكه وتجانسه وفي جوهره » ، أما أعراضه فليست حائلاً يمنع من تكملة الصورة واستقلالها ، فهذا كلام يبصق بعضه في وجه بعض ؛ واغفر لي هذا التعبير فإنه كلام ...

إلى غير ذلك مما يخرجنا استقصاؤه إلى الإملال ؛ وبما هو من عمل معلم الإنشاء ، لا من عمل مدرس الأدب .

ثم أما بعد ، فإن الأدب الذي يدرس في جميع المؤسسات الثقافية ، على اختلاف نظمها وطبقاتها ، نوعان :

١ - أدب وصفي ويسمى : النقد الأدبي ، كما يسمى : علم الأدب ؛ وموضوعه ، معرفة ما في النصوص الأدبية ثراً ونظماً ، من نواحي الجمال والقبح العتيق . وفائدته ، فهم الأسرار البلاغية للقرآن الكريم للوصول إلى أصل من أصول الإعجاز ، لا ما قلت من أن : « القصد من هذه الدراسة ، تهذيب النفوس وترقيق المشاعر وتنمية الذوق الأدبي ، والسمو بالعواطف النبيلة ، بعد فهم هذه النصوص ، ليسهل الصب على قلبها والتوليد من معانيها والتشعث بجمال ألفاظها وتراكيبها » فكل أولئك فوائد دنيا ، بالنسبة إلى الغاية العليا من النقد الأدبي ، يا بني .

والأدب الوصفي هذا ، هو الذى استأثر بعناية العلماء والباحثين والنقاد قديماً وحديثاً ، واستبد بآفاق الدراسة الأدبية فى جميع العصور والمناهج ، مباشراً ، كما فى الوساطة والموازنة والعمدة ، وغيرها ، وغير مباشر كما فى كتب البلاغة . وما زال يدرس فى المعاهد العالية والعليا تحت عنوان النقد والنصوص ، وفى المدارس الثانوية تحت اسم : المحفوظات مرة ، والنصوص الأدبية مرة أخرى . وذلك أمر متعالم مشهور : وليس كما قلت : « أن الأدب لم يدرس ولم يعرف عنه شئ فى دور التعليم » . ولا داعى أبداً أبداً ، لهذه العواطف التى يطفح بها قولك : « ولكن نفس الغيور على الأدب تنقطع حسرات عندما ينظر إلى طرق دراسة الأدب فى معاهدنا على اختلاف أنواعها . وأن كل ذى حذب على تلك الآثار ليتلوى ألماً على مصير هذا الفن الرفيع ، حينما يتخيل الظلام النحيم » كذا كذا . على هذا الركن من التراث العربى ، « وسَلِمْتُ نفسك للأدب — يا بنى — وصحبتك بالدينا !

٢ - تاريخ أدب : وموضوعه معرفة الاطوار التى تقلب فيها الأدب ، وخصائص كل طور ، منذ ظهور الأدب الفنى « الأدب الإنشائى الذى هو قسم الأدب الوصفى ، إلى اليوم . والتاريخ مقدمة له ووسيلة إليه لا شطر من موضوعه . ولقد ظلت الدراسات الأدبية منذ ظهورها ، مقصورة على النوع الأول « الأدب الوصفى » ، حتى سنة ١٨٩٢ ، حينما عاد المغفوق له المرحوم حسن توفيق القنديل ، من بعثة إلى ألمانيا ، يحمل - فيما يحمل - مبادئ علم « تاريخ الأدب » ، وأخذ يدرسه فى مدرسة « المعلمين العليا » ، وجعل ذلك العلم ، يدرج فى مدارج الاكتمال والتضج ، وتشيع دراسته فى المعاهد الشرقية ، حتى وصل إلى التأصل والمقام الكريم الذى يقبوه اليوم من دراسة علم الأدب .

وقد تجلى تجلياً يقطع كل جدال ، أثر تاريخ الأدب ، فى فهم النصوص الأدبية ، متورها ومنظوما ، فهما يحل جمالها الفنى مسقراً وضاحاً ؛ فى أكل مظهر ، وأجل رواء ، لا يكاد يخفى ، إلا على أكمة لا يعرف القمر !
يقول الدكتور طه حسين فى « الأدب الجاهلى » :

« فهل تزعم أنك تستطيع أن تفهم همزية أبي نواس : دع عنك لوى فإن اللوم لغرام... دون أن تعرف النظام خاصة ، والمعتزلة عامة ، وما كان لهم من مذهب وقوة أيام أبي نواس ؟ وكيف تستطيع أن تفهم قوله :

فقل لمن يدعى في الصلح فلسفة حفظت شيئاً ، وغابت عنك أشياء

إذا لم تعرف أنه يريد النظام ؟ فإذا عرفت أنه يريد النظام ، فأنت في حاجة إلى أن تعرف : من النظام ، ولم تعرض به أبو نواس ؟ فسترى أن النظام كان من المعتزلة الذين يقولون إن صاحب الكهيرة مخلد في النار ؛ وإدراك شرب الخمر كبيرة فصاحبها مخلد في النار ؛ وإذن فأنت في فلسفة النظام ، وأنت متعمق في فلسفة المعتزلة ، وأنت مضطر إلى ذلك اضطراراً ، مضطر إلى أن تدرس التوحيد واختلاف أهل السنة والمعتزلة فيه ، لتفهم خيرية من خريات أبي نواس ، . . . اهـ .

وهل كان النقاد والعلماء ، منذ قال ابن هانيء الأندلسي في أواسط القرن الرابع يمدح المعز الفاطمي :

ما شئت ، لا ما شامت الأقدار فاحكم ، فأنت الواحد القهار
يرون في ذلك غير أنه غلو غير مقبول ؟

ولكنك إذا عرفت ، أن المعز من الشيعة الإسماعيليين ، وأن من عقائد هذه الفرقة : أن الإمام قائم مقام الأمر والكلمة في هذا العالم ، لجميع صفات الباري واقعة عليه ؛ وأن الباري تعالى عندهم ، منزّه عن جميع التعوت والصفات ، كالفادر والصانع ، ولا يطلقون عليه شيئاً منها ؛ فإن إطلاقها عليه يوجب الكثرة في ذاته تعالى ؛ فالصانع مثلاً ، يقتضى صنعة ومصنوعاً ، وهكذا حال جميع الصفات ، تجدد الواحد منها ثلاثاً .

أقول إذا عرفت ذلك ، عرفت أن إطلاق الواحد القهار على المعز لدين الله ، موافق لأصول عقائدهم . وليس في ذلك الإطلاق شيء من الإسراف ولا من الغلو ؛ وأن رأي النقاد غلظة مزمنة ، لم يصححها إلا تاريخ الأدب .

على أن من المقررات المتعملة المشهورة . أن الأدب ظل الحياة الاجتماعية ؛ فكيف يفهم هذا الظل على وجهه ، مقطوعاً عن دراسة هذه الحياة ؟ .

وكان تاريخ الأدب لأول عهده بالظهور ، يدرس رأياً : الخطابة في جميع

العصور؛ ثم الكتابة في جميع العصور؛ ثم الشعر بأعراضه المختلفة في جميع العصور؛ وعلى هذا الوجه، ألف المغفور له محمد أفتدى دياب، كتابه «تاريخ الأدب»، الذي كان يدرس في المعاهد العليا في عهد «نظارة المعارف»، ويعتبر الكتاب الرسمي؛ ثم جاء المتأخرون من أدباء العصر الحاضر؛ فدرسوه وألغوا فيه ألقيا؛ ولسكل وجهة؛ والخطب في ذلك — في مذهبي أنا — أيسر من أن يخرق خرقا في الأدب، أو يشرح شرحا في صرحه، أو يهدم طوبة من بنائه. وحاجة كلنا الدراستين إلى معرفة أطوار الأدب، وخصائص كل طور، لا تتغير، وليس فيها — كما قلت: «حلط لا يرضاه منصف لأدب لغة حية راقية» لأنه منهج طبيقته جميع الأمم الحية، ذوات اللغات الحية، وعملت به، وعنها نقلناه!

وأما بعد للمرة الثالثة، فأني أشكر لمجلة الأزهر، تلتفها في معاملتك، وسخامها في مجاملتك، واحترامها لرأيك، ولما رأيت فيه من وجوه تقدر قدرها كما قالت: «وعرضها له لتشتجر حوله الأقلام»، ثم وقوفها بأزاء ذلك على الجياد. ثم أشكر لك أن أتحت لي فرصة مكنتني من أن أضع الأمور في نصابها، وأن أقدم لك ولا مثالك من أبنائنا الأعزة، وسخا من الثور، أرجو أن يصرفكم عن ضلال القصد إلى سواء السبيل.

يد أنى أعتب عليك — يا ولدي الأستاذ أحمد محمد صقر — عتبا رفيقا أبويا، لأنك تحطيت أساتدتك مدرسي الأدب في كليتك الكريمة؛ وإنما شفاؤك من البلبلة الفكرية التي جناها عليك ضعف دراساتك الأدبية، على طريقهم؛ لاعلى طريق مجلة الأزهر، التي يشرف كل أزهري ألا ينشر فيها إلا كل نافع مشرف، وإن كان يخفف من خطئك هذا شدة الرغبة، في الشهرة وأن لك نظراء بين كتابها؛ فكثير من مقالاتها يحسن أن يتوجه به إلى مجلات «الوعظ والإشاد» لا إلى مجلة علمية بحثية ينبغي أن تقتصد على البحوث المركزة، في المشكلات العويصة وليس ذلك عيب المجلة، ولكنه فضيحة للناس.

وفتح الله عليك — يا ولدي — وسامحك، إكراما لطموحك وغرورك؛ فلقد أصبحت لا أحسد إلا المغرورين! والسلا عليكم ورحمة الله وبركاته.

أبوك وصديقك،

عهد المدينة

لحضرة صاحب البادية « السيد »

حَيُّ أَهْلًا بِالْهَدَى أَوْ حَيِّنِي
مَنْ لَعِبْدٍ يَنْظُرُ فِطْنَةً
تَهْفُؤُنَا ثُمَّ قَالُوا ضَلَّةٌ
غَنَى بِالْجَهْلِ إِنْ الْجَهْلُ أَزْدَاهِي
سُنَّةُ الْعِلْمِ طَاهِرٌ وَهَوَى

تَعَصَّرُ يَا عَصْرُ الْجَحَالَةِ حَبًّا
تَحْلُقُ بِالْعِلْمِ رِقَاقُ الْحَلَى
مُجَنَّةُ الْعِلْمِ دَوَاهِي مُلْحَدٍ
رَأَيْدُ الْعِلْمِ تَكْتُمُ الْمَلَى
نَحْنُ لِلْفِتْنَةِ نَهَبٌ شَدَّ مَا
الْوَعَى وَالْحَسَنُ فَتَانُ الْهَوَى
الْحَيَاةُ الطَّمَنُ حَتَّى حُسْنُهَا

قَبْلَ تَحَرُّبٍ وَجَلَادٍ وَالْهَدَى
إِنْ فِي رَأْسِ التَّحَدَّى فَكَّةٌ
صَاحَ فِي الْأَفْلَاقِ مَلَقُ ذَرَّةٍ
قَاتِلِي فِي تَحَرُّبِهِ أَوْ حُسْنِهِ

رَوَعَتْ مُحَرِّبُ السَّرْبِ وَمَا
سَلَّ بِحَكْمِ طَيْفٍ تَشْهَدُ سَيْدًا
قَاتِلُ الشُّورَى دَهَتْ وَتَنَّا
بُورِكَ الْمَسْتَوْرِ فِي أَنْصَارِهِ

قِيَمَةُ الْأَصْلَاحِ إِنْ لَمْ يَأْمَنْ
يَقْنَى الْقَانُونُ فَمَا يَقْنَى
يُتَّقَى أَوْ سَاجِدًا لِلْوَنِّ
جُنَّةُ الْحَسَنِ وَجُنْدُ الْحَسَنِ

لغويات

حضرة صاحب الفضيلة الشيخ محمد علي النجار

كتبت إليك لا لألومك . حضرت إليك لا لألومك بل لأشكرك . ما قرأت
لا فقها ولا نحواً . هذه أساليب تجري على ألسنة الناس ، وفي كتاباتهم ، وقد عن
لي أن أبحت أمرها من وجهة النحو والعربية .

١ - فالأسلوب الأول - كتبت إليك لا لألومك - يميزه النحاة
ويسوغونه ، ولا يضيقون بتخريجه ، ويعملون هذا من حذف المعطوف عليه ،
والتقدير في هذا المثال : كتبت إليك لأشكرك لا لألومك ، فلا عاطفة كما ترى
والمعطوف عليه المحذوف هو المقابل للذكر المضاد له ، ومن ثم جاءت
لا غير مكررة .

وأقدم من عرض لهذا الأسلوب وتخريجه من النحاة - فيما علمت - الإمام
أبو حيان المتوفى سنة ٧٤٥ هـ ، فقد قال في الارتشاف في مبحث العطف بلا : « وقد
يجوز حذف المعطوف عليه بلا : نحو أعطيتك لا لتظلم ، أي لتعدل لا لتظلم » ،
وتبعه في هذا تلميذه الحسن بن قاسم المرادي المعروف بابن أم قاسم شرحه للألفية
فقال في مبحث العطف : « قد يحذف المعطوف عليه بلا : نحو أعطيتك لا لتظلم
أي لتعدل » ، وقد جرى على سنن المرادي - وكانت وفاته سنة ٧٤٩ هـ - أبو الحسن
الأشعري في شرحه للألفية ، وقد أثر عن الأشعري أنه يتقبل المرادي في شرحه ،
حتى إن تلميذاته ونظامها أحدها عن المرادي ، وتتناقل الرواية عنه أنه قال : لولا
المرادي ما بلغت مرادي . أقول إن الأشعري ذكر هذا الحكم الذي أورده المرادي
ومن عرض له بعد أبي حيان السيوطي المتوفى سنة ٩١١ هـ فقال في السهم^(١) : « وقد
يحذف متبوعها : نحو أعطيتك لا لتظلم أي لتعدل لا لتظلم » .

[١] الورقة ٣٠٨ ب من مخطوطة دار الكتب رقم ١١٠٦ نحو . [٢] من ١٣٧ ج ٢ .

ولا أعلم سند أبي حيان في هذا الحكم . فهل له فية إمام متبوع نقله عنه ؟ وقد كان أبو حيان واسع الاطلاع جداً ، اجتمع لديه من آراء النحاة ما لم يجتمع لغيره أم وقف في هذا على شاهد اتخذ حجة وسلطاناً ! وأيا ما كان الأمر فأبو حيان ثقة في النحو وإمام ، وهو فيه الفحل لا يقرع أنفه ، ومحسبنا هذا في تصحيح الأسلوب الأول .

٢ — والأسلوب الثاني — كتبت إليك لا لآلومك بل لأشكرك — أشهر وأفشى في الاستعمال من الأول ، وتراه كثيراً في عبارات المؤلفين ، حتى من يتحرى منهم الصحة ، ومن يأخذ من الفصاحة بسبب وثيق . فهذا الإمام عبد القاهر الجرجاني المتوفى سنة ٤٧١ هـ — وهو من هو بلاغة وفصاحة ديباجة — يقول في أسرار^(١) البلاغة : « وإذا قد عرفت هذا فالحل في الآية من هذا التميل أيضاً ؛ لأنه تضمن الشبه من اليهود لا لأمر يرجع إلى حليفة الحل بل لأمرين آخرين : أحدهما تعديده إلى الأسفار ... فقوله لا لأمر ... يتعلق بقوله ، ويتضمن الشبه من اليهود ، وترى أنه من الأسلوب الذي تحدث عنه .

والقارىء يرى أن هذا الأسلوب يزيد على الأسلوب الأول الذي قررت صحته الإضراب (بل لأشكرك) وقد يؤتى بدله بالاستدراك فيقال : ولكن لأشكرك فهل هذه الزيادة تضر به ، وتقلبه مردوداً . منكرأ ؟

وإذا تأمل المرء بعض تأمل رأى أن ما في حيز الإضراب أو الاستدراك كان هو المعطوف عليه في الأسلوب الأول ، وهنا يدرك لأول وهلة ما في هذا الأسلوب من حرج وعسر في التخرج .

فكيف تتقدر المعطوف عليه في هذا الأسلوب وقد ذكرته في عجزه ! كان تقدير الكلام والثنية به : جئتك لأشكرك لا لآلومك ، فهل تقول : جئتك لأشكرك لا لآلومك بل لأشكرك ولكن لأشكرك ، وهل هذا إلا هراء من القول ولغو أشبه بهزيان المحموم .

إن الذي يبدو بعد هذا نبذ الأسلوب وأطراحه وهجره هجراً طويلاً .

على أن الباحث قد يبدو له في تخريجه ما يجعل له نصيباً من الصحة وقسطاً من القبول .

فقد تستطيع أن تقدر المعطوف عليه أمراً عاماً غير مافي حيز الإضراب أو الاستدراك . فنقول مثلاً في قولك : كتبت إليك لآلؤمك بل لا شكرك : كتبت إليك لآمر تحمده لآلؤمك بل لا شكرك . وقوله : بل لا شكرك إبانة عن هذا الأمر المحمود وإيضاح له .

وتستطيع أن تقدر المتبوع هو « لا شكرك » الذي هو في حيز الإضراب ، على نسق ما قدر في الأسلوب الأول . وهذا المتبوع إنما ينوي في النفس ولا ينطق به ، حتى لا يكون في النظم ضعف وتهافت . ورب شيء يقدر ولا يخرج في اللفظ : ألا ترى إلى قوله تعالى : « كتاب الله عليكم » فكتاب معمول المحذوف ، وتقدير الكلام : كتب الله . فهذا تقدير العامل ، ولو قلت : كتب الله كتاب الله لوقعت في تخيف من الكلام ومهلل من النسج ، وإنما هذا تقدير توجه الصناعة النحوية ولا يتكلم به .

وبما أسلفت من تخريج هذا الأسلوب — على ما فيه من الإبعاد والتكلف — ترى أن لا بأس بهذا الأسلوب ، مع الوصية بأن يتجنب ويهجر .

وتراني التزمت في هذين التخريجين أن تكون لا عاطفة . وذلك أنها لو لم تكن عاطفة لوجب تكرارها . ولا يجوز مخالفة ذلك إلا في ضرورة الشعر كما في قول الشاعر :

قهرت العدا لا مستعينا بعصبة ولكن بأنواع الخدائع والمكر
وثم مانع آخر ، وهو أن لاغير العاطفة وغير العاملة لا تدخل إلا على نعت أو خبر أو حال أو معرفة . وسيأتي مزيد بحث لهذا في الحديث عن الأسلوب الثالث .
٣ — والأسلوب الثالث — ما قرأت فقها ولا نحواً . ومثله : فلان لا ينفع لا في حقير ولا في جليل — أسلوب غير مرضي ولا مستساغ . وإنما الفصحح أن يقال : ما قرأت فقها ولا نحواً ، وفلان لا ينفع في حقير ولا في جليل . وذلك أن لا هذه إنما هي لتأكيد النفي ، ولا حاجة للتأكيد لقرب العهد بما النافية . وإنما تدخل لا هذه المؤكدة للنفي على المعطوف إذ كان في حكم جملة ثانية ، على أن لا تزداد

في العطف لمعنى زائد على التوكيد، وهو النص على أن النفي تناول كلا من المتعاطفين ولم ينصب على اجتماعهما، فإذا قلت: ما أكلت لحماً وسمكاً جاز أن يكون قصيدك إلى أنك لم تجمع بين هذين وإن أكلت أحدهما، فأما إذا قلت: ما أكلت لحماً ولا سمكاً فقد نفيت أن تكون عرضت بالأكل لواحد منهما.

ولا هذه لا يصلح أن تكون عاطفة: فإن لا العاطفة لا تدخل في النفي، وتدخل في مواطن أخرى ذكرها ابن مالك في قوله:

... .. ولا نداء أو أمراً أو إثباتاً تلا

وإذا ثبت لديك ووقر في صدرك ما ذكرته، فإن لا هذه هي التي يجب تكرارها.

وينص المحررون على أنها تدخل في غير التعريف على ثلاثة: الخبر والنعت والحال. ويقول ابن مالك في الكافية:

ولازم في سعة تكرير لا إذا بذى التعريف محضاً وصلاً
كذا إذا يتلوه نعت أو خبر أو حال إلا في اضطرار من شعر

وقال في شرحها (١): «ومثال لزوم التكرار لكون المتصل بلا خبراً ونعتاً وحالاً: لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون، ويوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية، وجاء زيد لا خائفاً ولا آسفاً».

وترى أنه حصر ما تدخل عليه، لا غير العاطفة وغير العاملة في الخبر والنعت والحال والمعرفة. وقد يرد على هذا الحصر ما أشده أبو زيد في نوادره (٢) من قول الراجز: ققام لاوان ولا رث القسوى.

وقد يدفع هذا بأن مافي الرجز على تقدير حذف الموصوف، أي ققام رجل لاوان ولا رث القوى، فهو مما دخل فيه لا على النعت.

وروى الجهمي في كتاب (٣) الوزراء لابن المقفع:

إذا ما مات مثل مات شخص يموت بموته خلق كبير
وأنت تموت وحدك ليس يدرى بموتك لا الصغير ولا الكبير

فكيف تقدر الموصوف هنا ؟ هل يقال : ليس يدرى الإنسان ؟ إن المتبادر في مثل هذا أن يقال : لا يدرى أحد ، وحينئذ لا يكون ، الصغير والكبير ، وصفين له لاختلافهما بالتعريف والتكثير . والاقرب أن يحمل هذا على الخطأ ، وابن المنفع قد يقع في الخطأ ، وليس هو ممن يحتاج به .

وأعود إلى ما كنت بصده . وهو : ما قرأت لا فقهأ ولا نحوأ ، فقد رأيت أن لا التي يجب تكريرها ، دخلت على ما لم يذكر النحاة دخولها عليه ، فليس منها المعمول والظرف . فالوجه الحكم فيه بالخطأ وإنكاره .

وقد وقع في هذا الأسلوب ابن الرومي إذ يقول (١) في معلم صيان مغن :

أبو سليمان لا ترضى طريقتي لا في غناء ولا تعليم صيان
له إذا جاوب الطنبور محتفلاً ضرب بمصر وصوت في خراسان

فقرأ أدخل لا غير العاطفة وغير العاملة على غير الأنواع الأربعة . وعندى أن ابن الرومي أخطأ في هذا ، وهو متأخر عن عصر الاحتجاج الذي ينتهي بإشار كما قيل . ولما في هذا أخالف الأستاذ العقاد في الحكم على ابن الرومي فهو يجعله بمفازة من الخطأ ، ويقول (٢) : « أما لفظة من حيث هو صحيح وخطأ فلفظ عالم بالنحو مطلع على شواهد العربية ولا سيما في القرآن ، . ويقول : « قلم يكن ابن الرومي ممن يسهل وقوعهم في الخطأ النحوي ؛ وإلا لظهر منه ذلك في مواضع شتى ، مع إطالته وكثارة وجرائه على تدليل النحو لمن أرادته ، . ولا يعجبني في هذا المقام استدلال الأستاذ العقاد على سلامة ابن الرومي من اللحن بأنه جرى على منع « أشياء » ، الصرف كما وردت في الكتاب الكريم ، ولم يتبع في ذلك القياسيين من النحاة الذين يرون أن وزنها أفعال فهي مصروقة عندهم . وذلك أن أشياء لا يقول نحوي - فيما علت - بصرفها ، وليسوا كلهم على أن وزنها أفعال : الجمهور البصريين أوزنها لفعاء . جرى فيها القلب ، ومن يقول : إن وزنها أفعال يقول إنها منعت الصرف على توهم أن أشياء كحمراء في الوزن ، والوهم يعمل كثيراً في اللسان كما قيل : تمتدل وتمدرع ، وكما جمع مسيل على أمسية على توهم إصالة الميم .

[١] أظن كتاب « ابن الرومي » للأستاذ العقاد ص ١٣٠ .

[٢] أظن كتابه من ابن الرومي ص ٣٢٢ وما بعدها .

أسباب العزة

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد عبد التواب

مفتش الزعظ بالأهر

قال الله تعالى في محكم كتابه وهو أصدق القائلين : « من كان يريد العزة فلله العزة جميعا ، إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه والذين يمكرون السيئات لهم عذاب شديد ومكر أولئك هو يور » .

في تعاليم هذا الكتاب العزيز ، وفي قوة بيانه ، وبالغ حجته ، وسلامة منطقته ، تبين آيات من الهدى ، وتفتح جنات من الخير ، وتدقوى هواتفُ بالحق ، معلنة إشراقته ، مجملية آفاقه ، ناطقة بالحكمة وفصل الخطاب .

ينادى هذا القرآن العزيز طلاب العزة ، فيصرهم بأسبابها ، ويسايرهم في نواحيها ، ويضع على منافذ عقولهم وقلوبهم مناوئ الرشاد .

من كان يريد العزة في الدنيا ، ومن كان يريد العزة في الآخرة ، ومن كان يريد العزة في الدنيا والآخرة جميعا ، فليطلبها عند الله ، فهو — وحده — صاحبها ، ومالكها ، وواهبها :

فأما عزة الدنيا ، من نباهة ذكر ، ووجاهة شأن ، ورجاحة رأى ، واجتماع الكلمة على حبه وحمده ، فنشأ كل ذلك ومرده ، جمال الصلة بالله ، وجلال الطاعة في تقواه .

فالعبادات كلها ، سرها وجهرها ، بدنية ، أو مالية ، أو بدنية ومالية ، أسباب تتوكد وتتوثق ، لتتمكن للعابد ، وتمكن للطبيع ، في عرة يتسع أفتها ، وتسمو غايتها .

فقيم الصلاة عزيز : لأنه يطرح وراء ظهره عوامل الافتتان ومظاهر الاغواء ويستقبل بوجهه روحانية عالية ، يوجه إليها شعوره ووجدانه ، فما يكاد ينطق

لسانه : الله أكبر ، حتى يدخل في هذه الخطيرة القدسية إلى كنف هذا العلي الكبير ، ويحتمى في جلال هذا القوى العزيز ، وينعم بالقرب من هذه العزة الغالبة التي تغشاة وتولاه ، وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إذا قام أحدكم إلى صلاته فإتما يناجى ربه فلينظر بم يناجيه ، ؟ ويقول : « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد » ، فما يكاد العبد يفرغ من صلاته حتى يكسب عزة من عزة الله ، وحتى يبلغ جلالة من جلال الله . أما المتفق في سبيل الله — زكاة أو صدقة — فإنه لكذلك عزيز ، لأنه يقوم عن الله خيفة في طعمة المحروم ، ووصلة المقطوع ، وغوثة الملهوف ، والله عز شأنه يقول : « آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه ، فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير » .

وعزيز لأنه يقرض الله قرضاً حسناً ، فهو يتعامل مع ربه ، ومعاملة العزيز عزة . وعزيز لأن يده العليا قد أعزها الله بالغنى ، ولأن إجماع الناس على حبه وحمده والثناء له أعزاه له من أجل فضل الله الذي واثم به ، فهو عزيز في نفسه ، وعزيز في قومه ، وعزيز عند ربه .

يد المعروف غم حيث كانت تحملها ، كفور أم شكور
ففي شكر الشكور لها جزاء وعند الله ما كفر الكفور

والصائم عزيز في ترفعه عن الاستجابة لحاجة نفسه من طعام وشراب ، وعن الخضوع لما آثم الهوى ومآرب الشهوات ، فهو قد كف نفسه عن كل ما يفسد صومه ، وهو قد تسامى إلى مصاف الملائكة الذين لا يطعمون ولا يشربون ، ولا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون .

كذلك من يحج بيت الله ، ويغد ضيفاً على رسول الله ، ويبر حجه وزيارته بإحلاص التلبية ، وطهرة التزكية ، فيطوف بالبيت منياً ثانياً ، ويشهد المناسك في غير تأثم ولا عصيان . . فهو العزيز بضيافة الله وتكريم الله ، روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من حج فلم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه » .

وأما عزة الآخرة فهو ما ينتظر هؤلاء الأعزة الأكرمين ، يوم يقوم الأشهاد :
فمن إلى ظل الله يوم لا ظل إلا ظله ،

سمو وغار يقيه به علمهم وأملهم : هاؤم أقرأوا كتابية ، إني ظننت أني ملاق حياية ، سبق إلى متعة النعيم الخالد في دار أعداها الله لهم ، وتلقاهم الملائكة ، هذا يومكم الذي كنتم توعدون . ثم تحييمهم أطيب تحية بالأمان والسلام ، قال تعالى : « والملائكة يدخلون عليهم من كل باب ، سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار » .

ثم ماذا هؤلاء الأعزة الأكرمين ؟ ثم نداء الله لهم يا أهل الجنة ، فيقولون لبيك ربنا وسعديك والخير كله في يديك ، فيقول هل رضيتم ؟ فيقولون : وما لنا لا نرضى يا ربنا وقد أعطيتنا ما لم نعط أحداً من خلقك ، فيقول : ألا أعطيتكم أفضل من ذلك ؟ فيقولون وأي شيء أفضل من ذلك فيقول : أحل عليكم رضواني فلا أنخط عليكم بعده أبداً . . . يا الله ؟ أي عزة أسمى ، وأي كرامة أوفى ، وأي جلال أعظم من هذه السعادات المتعاقبات المتناسكات ؟ ؟

ألا تكون العزة لمن يطلبها من الله بعزة النفس المترفعة عن الدس والنقص ، وبعزة العمل الصالح الخالص مما يشيه ويشينه ، ألا يكون طلب العزة هذا قريب الاستجابة كريم المثال ؟ ؟

أي والله ، إن العزة لله جميعا ، إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه ، وأي كلم أطيب من كلمة الإسلام ، وشهادة التوحيد ، تمنع بها الألسنة ، وتصدقها القلوب ، وتذعن لها الجوارح ؟

وأي عمل أصلاح من عبادة يسمو بها الناس ، وخلق يسعد به الناس .

يا معشر المسلمين . .

يهتف بكم كتاب الله : أن اطلبوا العزة من العزيز ، بصدق العقيدة ، وصالح العمل ، وينادىكم حديث رسول الله « إن ربكم يقول كل يوم : أنا العزيز ، فمن أراد عز الدارين فليطع العزيز » .

وصدق الله العظيم من قائل « قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما ألهمكم إله واحد ، فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً » .

وبعد : فالمستعان هو الله ، أن يكتب للمسلمين العزة ، وأن يمكن لهم في دينهم . وفي ديارهم وأن يجمع كلمتهم على الخلق الكامل ، والعمل المبرور إنه أكرم مسئول

الكتاب وكيف نفعه

لفقيه الأستاذ الشيخ أبو الوفا المراكشي

مدير المكتبة الأزهرية

شباب اليوم رجال الغد وقادة الأمة وأولو الرأي فيها ويدهم مقاليد سياستها وبمقدار توفيق الأمة في أعداد شبابها يكون مستقبلها ودرجة النهوض فيها .

وقد مضى زمن كان من وسائل أعداد الشباب أنه يحسن القراءة والكتابة بل كان ذلك هو الوسيلة الوحيدة ، أما في هذا العصر فقد تشعبت الوسائل تبعاً لتنوع فروع العلم والمعرفة وتقدمها ، وأصبحت مراحل التعليم بأنواعها والشهادات بأنواعها لا تفي بتكوين الشباب تكويناً يعمده لخلق رسالته بل لا بد له مع ذلك من دراسات شخصية عميقة يعتمد فيها على نفسه لا على مدرسه ومدرسته ولا بد له من اختبارات عملية للحوادث وللأشخاص ليستطيع أن يزاحم في الحياة على بصيرة بأحوالها وخبرة بشؤونها :

حياة الورى حرب وأنت تريد لها سلاماً وأسباب الكفاح كثير
أبت سنة العمران إلا تطاحننا وكدحاً ولو أن البقاء يسير

ولا بد للشباب مع ذلك الأعداد العلى من تسليح ديني وخلق يقيه السوء في عتميدته ونفسه ويصونه من مصارع الهوى ومواطن الغواية ويجعله ذا شخصية متماسكة قادرة على تحمل الشدائد وتدليل الصعاب وعلى قول الحق والجهر به ووزن ما يعرض عليه من مذاهب وآراء ليعرف وجه الخير فيها لنفسه وأمة فيقبلها أو يرفضها عن معرفة واقتناع .

لا بد للشباب من ذلك كله ليكون ركناً قوياً في كيان أمة وقادة يقتدى به لا لأمعة يستجيب لكل ناعق وتتجاذبه التيارات هنا وهناك .

فستولية الشباب في هذا العصر ثقيلة مرهقة لا ينبغي في حملها والاضطلاع بها إلا من وهب لها نفسه وجهده ووقته ، وأن من أهم العوامل في تكوين شخصية الشاب هو الدين ، فالدين وأساسه الإيمان بالله والرضا بقضائه وقدره ، والاعتماد في الشدائد عليه ، يجعل منه رجلاً مطمئن القلب ساكن النفس ، يقبل على عمله في ثقة ويعتمد في نجاحه بعد إعداد الوسائل على معونة الله وتوفيقه ويرضى بفتيحه على أي حال ، والدين بعد ذلك يغرس فيه كثيراً من الفضائل الشخصية والاجتماعية التي تجعل منه مواطناً صالحاً يساهم في بناء أمته وانهاضها ويدفع بها إلى منازل العرب بين الأمم ، ويغرس في نفسه فضيلة الشجاعة والصدق والإخلاص والبر بالضعيف وإغاثة اللئيف ، والإيمان بالفكرة الصحيحة والدفاع عنها بكل عزيز ، كما يغرس في نفسه احترام حقوق الغير وأموالهم وأعراضهم .

وعلى حكمة الشيوخ وحمود الشباب تنهض الأمم وتنجح الدعوات ، واقد لعب الشباب الإسلامى فتياه وفتياه . دوراً هاماً في نجاح الدعوة الإسلامية . وقاد كثير منهم الجيوش ، وفتحوا المدائن وساسوها بالعدل والإحسان ، فاجتمعت عليهم القلوب ورضيت عنهم الشعوب ، والمتصفح للتاريخ الإسلامى ينف على أمثلة رائعة للجهاد الشباب وإيمانهم بفكرتهم ، واستعدادهم الأمل في سبيل نجاحها .

وحسبنا أن نورد في هذا الصدد مثلين ليكون فيهما لشبابنا ذكرى وقوة :

١ — لما عزم النبي صلى الله عليه وسلم على الهجرة وعلمت قريش بعزمه انقضت على قتله ليلة الهجرة فأمر علياً رضي الله عنه أنه ينام في فراشه بدلاً منه ليخادع قريشاً عنه فقبل على وهو يعلم أن القتل قاب قوسين منه ، ولكنه قبل ذلك بنفس راضية مطمئنة فنجى النبي صلى الله عليه وسلم ونجحت الدعوة .

٢ — اسلمت فاطمة بنت الخطاب قبل إسلام أخيها عمر رضي الله عنهما وهي دون العشرين ، وكانت تكتم إسلامها منه لشدته فلما علم بذلك دخل عليها ، وقال : بلغني عنك أنك صابت ، خرجت عن دينك ، ثم ضربها ووثب على زوجها فضرب به الأرض وجلس على صدره فجاءت تمنعه منه فتشج وجهها وسال دمها فلما رأت الدم بكّت وقالت له : أتصريني يا عدو الله على أن أؤحد الله لقد

أسلنا على رغم أنفك يا ابن الخطاب فما كنت فاعلا فافعل وفكر عمر فيما فعل
وندم عليه وما زال به تفكيره حتى قاده إلى الإسلام وكان إسلامه عزاً للإسلام
وكان عمر كما روى عنه التاريخ .

هذان مثالان مما رواء التاريخ في جهود الشباب ونضاله وهما حسبنا
في هذا السيل .

تلك هي بعض العوامل في تكوين الشباب أو صيهم بها ولا يفوتني أن أتنبههم
إلى ضرورة الأخذ ببعض النشاط الرياضي فهو من خير الوسائل في إعدادهم عقليا
وخلقيا وجسميا كما أنه ذو أهمية كبرى في حياتهم لأنه يشغل فراغهم ويصرفهم
عن مواطن اللهو ومواقف الخلاعة التي تسبب لهم كثيراً من العلل النفسية
والجسمية وتضع لهم المعقات في سبيل الحياة الكريمة .

أخو السوء

قال أيوب بن سليمان عن ابن القاسم قال : بيننا سليمان بن داود عليهما السلام
تحمله الريح إذ مر بنصر واقع على قصر ، فقال له كم لك منذ وقعت ههنا ؟ قال
سبعائة سنة . قال فمن بنى هذا القصر ؟ قال السر لا أدري هكذا وجدته . ثم نظر سليمان
فإذا فيه كتاب منثور بآيات من الشعر وهي :

خرجنا من قرى اصطنخر	إلى القصر فقلناه
فن يسأل عن القصر	فنبأ وجدناه
فلا تصحب أخا السوء	ولإياك وإياه
فكم من جاهل أردى	حكما حين آخاه
يقاس المرء بالمرء	إذا ما للمرء ماشاه
وفي الناس من الناس	مقاييس وأشباه
وفي العين غنى للعبي	ن أن تطلق أفواه

خداع الحياة

لمفضلة الأستاذ الشيخ إبراهيم علي إبراهيم الخب

المدرس بكلية الشريعة

ليس في استطاعة البليغ الماهر، والمصور المبدع، والأديب الأملح، والكاتب الصنع، مهما أوتي من قدرة على الإجابة، ودقة في التعبير، أن يحيط بوصف الحياة في خداعها الكاذب، وغرورها الخلاب، وسراها البراق، ونفاقها المكشوف، وتلونها المفصوح، بأحسن من قول القرآن فيها «كأن أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح».. ونحن قد قرأنا للشعراء في هذا المعنى روائع الكلم وجوامعها، ومرربا بأمانهم فيها، وتشبيهاتهم لها، مرور الذي يسيبه السحر، ويأخذ به البهر، ويملك عليه حسه الجمال العائن، ورددنا ذلك كله ترديد الإكبار والإعجاب، ولكن لم يبلغ مبلغ الآية في طنطنتها ودوتها، وجلجلتها وهول تصويرها، فإنها لا تسكتني بذكر المساء يخالط الأرض فيوقظ فيها الثبت إلى النماء والخضرة والاردهار والترعرع والإثمار والقطاف والحصاد دون أن تجعل ذلك رواية تمثيلية يقبل عليها المتفرجون بشغف وشوق ثم ينتهون إلى إسدال الستار على نهاية لازمة، ومصير محتوم... وعلى الرغم من أن الله سبحانه وتعالى لم يتركنا لأحلام اليقظة تلعب بعقولنا، وتعبث بأفئدتنا، وتصرف خيالنا - الوهم - كما تشاء. بل أقام لنا من عالم الإدراك ألف دليل ودليل على أنها وشيكة الزوال، سريعة الانتهاء، مطلية بالغرور، محفوفة بالباطل، مملوءة بالحن، موسومة بالدنيا، لا نزال كلما أمكنتنا الفرصة من الترامى على أعقابها، والتهافت على أبوابها، والتعلق بأذيالها، والتكالب عليها، والتغاضي في حطامها الفاني ونرتكب في سبيل الوصول إلى أهدافنا أشنع الأساليب، حتى إذا ما أخذنا

الى خلوتنا ، واطقطنا الى رويتنا ، ونعشنا بيتنا وبين خلجات نفوسنا ، قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فيها ، لم يلبث ذلك الا نعاظ أن يتبخر فى الهواء ثم يتصاعد من رؤوسنا الى طبقات أخرى من السماء .

ومن الغريب أن هذا المقدار من الإيمان يستوى فيه المؤمنون والجاهلون ، ويدعن بصدقه العالم والجاهل ، ولا يشك فى حقيقته كبير ولا صغير ، وإذا كانت وسائل الإيمان تختلف ، فإننا جميعنا ننتهى إلى نهاية من المعرفة كان من شأنها أن تجعلنا لا ننظر إليها إلا بالمنظار ، الأسود ، فلا نطلبها إلا على قدر ما تمس إليه الحاجة القصوى ، وتقتضيه الضرورة الملحة .

وليس هنالك من ينكر أن الله سبحانه وتعالى أودع فىنا من الطباع والفرائز ما يحملنا على تنازع البقاء ، وحب التملك والسلطان ، والسيطرة والسيادة ، ولكن هذه كلها إنما تدفع إلى نشدان ، الملل الأعلى ، بحيث لا يذل الفرد لفرد ، ولا يخضع الإنسان لأخيه الإنسان خضوع الاستكانة ، وينقاد له انقياد العبودية التى هى لله وحده لا شريك له .

وفى الكتاب الكريم ما يدل على أن الله يحجر الكون لبني آدم يستخدمونه لمصالحهم ، ويصرفونه فى منافعهم ، ورسالة الواحد منا فى هذا الصخب لا تتجاوز الإصلاح الذى يعود عليه وعلى الناس فى حدود العمران والنهوض ، والتقدم والرقى ، ونرى الدين الإسلامى - ولعل الأديان الأخرى كانت هكذا - يكبح ما عساه أن يكون من طغيان الفرائز ، وطيش المطامع ، وثورة الشهوات ، فىأمرنا بالتقوى والورع ، والقناعة والزهد ، والإحسان والإيثار ، والتآلف والمحبة ، لتسطىء فىنا تلك الحدة التى تدفعنا إلى الاقتتان بهذا الزخرف الكاذب ، والمتاع الخادع ، والظلال السريعة الانتقال ، فنكف عن الشرور والآثام . والتكالب والطمع ، بما تثيره الأفراد والجماعات ، من خصومات ظالمة ، وحروب غاشمة ، جعلت هذه الحياة ، مسرحاً من مسارح الجحيم ، تمثل عليه فصول العدوان ، ومناظر الدمار ، وأشباح الخراب والهلاك ، وصارهم أقوى أن تنافس فى جعلها جهنم الخراء ، لا أكثر ولا أقل .

ولم تضق الحياة بنا ولكن زحام السوء ضيقها بجالا
ولم تقتل براحتها بنها ولكن ساقوا الموت اقتالا

وربما قال قائل هذه سنة الله ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ، والدول في تصارعها ، ووقوفها على هذه الشاكلة ، لصد التيار ، وكبح الظلم ، ورد المطامع ، هو الذى يحفظ التوازن ، ونحن مع تسليمنا بأن الآية تهدف إلى سنة من سنن الكون ، وأسلوب من أساليب العمران ، لا نفتقد أن الحال القائمة الآن يدفع إليها الرغبة فى الإصلاح ، والميل إلى العمران ، والحب فى الخير ، والجناح للسلم ، بل هى حال أشبه بمصارعة النيران ، ومهارشة الديكة ، وسعار الكلاب ، وكنا نظن أن الأمم الكبرى مدفوعة إلى ذلك كله يباعث التوسع فى السلطان ، والاستزادة من السيادة ، والبحث عن أسواق عالمية لتصريف محصولاتها الصناعية أو الزراعية . ولو صدق ذلك لقلنا ما يتول المثل العربى : « حر اتصف نفسه ، واتمنا العذر لقوم نحملهم غرائز الأحياء أن يطلبوا حياة مثالية ، وينشدوا عيشاً رغيداً .

أما والدنيا تموج بتلك الشرور ، والعالم يبعج بهذا الفلق ، كأن الميادين لا تزال تقذف بالنار ، يخر فيها ألوف الموتى . فإنا لا نستطيع إلا أن نقول إن الحلوم قد طاشت ، والطباع قد فسدت ، والغرائز قد انتكست ، والنهاية قد آذنت بروال وأن الرواية موشكة أن تتم فصولها . . . ونحن الدين ورثنا الكتاب والسنة ، ودرسنا الآيات والسور ، قد يبدو لنا فى بعض الأحياء أن نقول عن أصحاب هذا « الصراع » ، إنهم لم يجدوا من الوازع الدينى ما يستلهمونه الهداية ، ويرجون منه الصراط المستقيم ، وليس بعد الكفر إلا الضلال ، فما الذى نقوله لأنفسنا فى تفكك جماعتنا ، وتفرق كلمتنا ، وتوزع وحدتنا ، ووهى قوتنا . . وفى الوقت الذى يأمرنا ديننا أن نعلو إرادتنا ، وبسود سلطانتنا ، ويعز جانبنا ، وتكون المقادة بأيدينا . تفرقنا أيادى سبأ ، ثم لم نكتف بأتنا سوقة ته تصف - كما يقول الشاعر - حتى أصبحنا لا يلوى الفرد منا على غير هواه بقوده ، وطمعه يتولى زمامه ، وشهوته تدفعه ، ثم لا ينظر فى ذلك إلا لإشباع نهمه ، دون نظر إلى حلال وحرام ، وشرف وخس ، وسمو وإسفاف . . وما كان هذا كله إلا لأنها فتنة العيش .

وسراب الدنيا، وخداع الحياة، وزائف المجد، وباطل الآمال، وكاذب الأمان. وفي كل يوم يسوق الموت لنا من الأنباء والنذر ما يصح معه أن تتعط أو تفيق، ونعتبر أو نصحو، ويدهمنا القطار، أو تصدمنا السيارة، ولا يكون بيننا وبين أن نلفظ النفس الأخير، إلا أن تدركنا رحمة اللطيف الخير، وهتالك وفي تلك اللحظات الحاطقة تتصور قول النبي صلى الله عليه وسلم: «الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا». غير أننا لا نلبث أن نعود أشبه بالمحمور الذي يقول «وداوني بالتي كانت هي الداء». وصدق الله العظيم: «وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً، فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى مسه». . . فاللهم ألهمنا الرشد، وارزقنا الإفاقة، ولا نكلنا إلى سيئات أعمالنا، وشرور أنفسنا، واجعلنا لا ننظر إلى الحياة إلا لمنظارها.

الصديق

قال حكيم: الإحاء جوهرة رقيقة وهي ما لم ترقها ونحرسها معرضة للآفات، فتراض الأبى بالحكماء له حتى تصل إلى قربه، وبالكظم حتى يعتدرك إليك من ظلك، وبالرضا حتى لا تستكثر من نفسك بالفصل، ولا من أخيك بالتقصير.

قال عبد الصمد بن المعدل:

من لم يردك ولم ترده	لم يستفدك ولم تفده
قرب صدقك ما نأى	ورد التقارب واسترده
وإذا وهت أركانه	ومن أخى ثقة فسده

وقال أبي حازم:

إن ساءني صاحبي احتملت وإن	سر فإني أخوه شاكره
أصغح عن ذنبه وإن طلب العذ	ر فإني عليه عاذره

مجدنا في ديننا

نفضيد الشيخ محمود حميد

المدرس في كلية الشريعة

الدين فطرى في الإنسان ، والفطر السليمة تدعو العبد إلى الإحبات لمن تولى خلقه وتعهد بقاءه ، وما انحرفت تلك العقيدة عن وضعها إلا نتيجة صدام أصاب الفطر وعتامة رنت على القلوب فجعلت الأبصار قاصرة والبصائر حائرة وتغلب إلف المرء لحسه فاتخذ إلهه هواه وأضلّه الله على علم ، وقد أقام الله الحجة على العباد فأرسل فيهم رسوله ليتم الإلزام ، وتمطع الأعذار فلما فضحت الإنسانية بعد عمليات عنيفة في تطهيرها وتشريحها ختم الله الرسالة بمحمد بن عبد الله ، وجعل دينه خالداً بما أودعه من تعاليم تكفل سعادة البشرية وتسمو بالحياة إلى ذروة ما يصبو له المصلحون .

لقد جاء الاسلام بمبادئ الإصلاح العام والأخوة الصادقة فدعا الناس جميعاً إلى الاجتماع بفنائهم والانضواء تحت لوائه والوقوف عند حدوده والزمي بما وراء ذلك تحقيقاً لتوحيد الأمة في كياناتها وتوحيدها في عقيدتها

فإن ما جنته الإنسانية من صنوف العسف والعتى ألوانا كان نتيجة تفرق الكلمة ، وشق العصا وانقسام العرى وانقسام الجماعات .

وليس بدعاً أن نرى هذا الاختلاف بين الأمم المتباعدة في العقائد والمتباينة في الأهداف ، ولكن العجب العاجب أن تختلف أمة التوحيد بعد أن ربط الاسلام بين قلوبها ووحد بين شعوبها وأقام بها دولة الدنيا والآخرة في ظل كتاب « لا يأتيه الباطل بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » .

لقد شمع نور هذا الدين فاستقرت به النظم واستقامت عليه الطريقة ، ووضع به ميزان العدالة في الأرض ، وكان عجباً في كل نواحيه وهدياً في كل مراميهِ . فما من شاردة ولا واردة إلا ولها فيه حكم معلوم وطريق مرسوم .

تناول الأفراد والجماعات والأحرار والعبيد والرجال والنساء والأحر والأسود والعقيدة والسياسة والبيت والمدرسة والطريق والنهادي فهو رابطة عامة بين الإنسان وأخيه وبين الإنسان وخالفه ، وهو رابطة تهدف إلى السكال في اسمي معانيه وأرفع مقاصده .

فما من غاية إصلاحية ولا فضيلة بشرية إلا ومصدرها منه ومرجعها إليه فهو رمز للوطن ورمز للعلم ورمز للسياسة ورمز للديمقراطية ورمز لغير ذلك من معان ابتكرها من فقهها وأشبت بها من سلبها ، وإذا كان من الأمم من أعوزته المبادئ السامية والنظم القويمة والأخلاق الفاضلة فأخذ يرنو ببصره إليها حتى أصاب منها ، وجعلها أساساً لحضارته ودعامة لمجده فإن من العجب أن تنجلي الأمة الإسلامية ذات المبادئ الرشيدة والأخلاق الفاضلة عن مقوماتها ومدعماتها حتى أصبحت مهداً للقاصيين وغرضاً للبغرضين .

لم يبن الإسلام حضارته على مادة محضة كما فعل الأوروبيون الحديثون ولا على روحانية محضة كما فعل الأقدمون ، وإنما جعل أساس دولته يرتكز على الأمرين ، ويعتمد على السبيين فسكانت نهضته مادية روحية ، وكانت سيطرته إصلاحية دينية فهو دين ودولة وعلم وعمل ودنيا وآخره ، ولن يمدح المسلم غناه في غيره مهما زينت له وسأوسه وصورته له أو هامة .

وأمة اختصها الله بهذا الدين جدير بها أن تتخذ تعاليمه نبراساً تهتدي به في ظلمات الوجود وتسير عليه في شعاب الحياة ، فلا أضل من أطفأ مشعله في ليل بهيم وهو يفتش عن ضالة منشودة ورغبة مقصودة ، إن مروق كثير من الشبان ووقوعهم في غياهب الجهالة وظلمات الخيرة إنما هو نتيجة حتمية لهذا الانحلال الذي أصاب الدولة الإسلامية في صميمها وهو لا بد سائر بهم إلى التحلل من العقيدة الصحيحة وواصل بهم إلى الزيف والإلحاد .

وليس هناك ما يدفع هذا البلاء ويرد هذا الطغيان إلا أن يتغلب سلطان الدين

على النفوس ولا سبيل إلى هذا التغلب إلا أن تتغلغل تعاليم الإسلام الصحيحة وتنشر مبادئه بين الأفراد والجماعات فتزى الفرد مسلماً والتاجر مسلماً والبيت مسلماً والمدرسة مسلمة والعامل مسلماً والأمة مسلمة والحكومة مسلمة .

عند ذلك يتبوأ الإسلام مكانته ويأخذ وضعه ويعيش المسلم عيشة الأحياء الناطقة لا البهائم الهائمة .

إن كل نهضة إصلاحية لا تبنى على أساس من الدين والأخلاق لا يقر لها قرار ، ولا يستقيم لها وجود ، فيجب أن نعتد في نهضتنا على ديننا وهو دين سلم وحرب وإيمان وعمل وصناعة وزراعة وحياة وموت وجنة ونار .

إن البيت المسلم يجب أن تظهر في جوانبه تعاليم الدين الخفيف فتزى الأبناء صورة الإسلام عتلة في آباءهم وأمهاتهم وذوهم وأن المدرسة الإسلامية يجب أن تدعم مناهجها بدراسة الدين فهو أجدر العلوم بالعتاية وأولاهها بالرعاية ، فنه تكون الأخلاق ومن الأخلاق تكون الأمم .

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هو ذهبت أخلاقهم ذهبوا

وإن الفرد المسلم أيا كان طريقه في مسالك العيش ونظام الحياة يجب أن تظهر عليه دلائل الدين وعلامات الإيمان فترى من الرارع المسلم أن يكون مسلماً ومن الصانع المسلم أن يكون مسلماً ومن الخصم المسلم أن يكون مسلماً ومن القاضي أن يكون مسلماً فإن الإسلام جماع الفضائل وأساس العمران وهو وحده كفيل ببث الطمأنينة في النفوس وتهذيب القلوب ونشر ألوية السلام في ربوع الأرض فقد عم القلق وشاع الفساد وكثرت المطامع واتسع الظلم وتبرم الحق .

وإن الحكومة الإسلامية يجب أن تبرهن للناس على صدق إيمانها فتزيمهم من نفسها مثلاً من أمثلة المسلمين الصادقين الذين ينشر الله بهم الدين ويرد بهم كيد الحائثين ، وأن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن ، ويرد بالسيف ما لا ترده العبرة .

وإن الأمل ليملاً جوانبي ثقة بأن أمراء المسلمين وقادتهم قد اقتنعوا بضرورة رد الأمة إلى دينها حتى تملأ به القلوب ، فلا تفتح لقبول الأفكار الهدامة ، والمبادئ الفتاك من كل ما عكر صفو الوجود وكدر الحياة في نظر العاملين .

ولقد حطت بعض الدول خطوات مباركة لتشجيع التعليم الديني وإحياء المدرسة الإسلامية من جديد ، وها هو ذا الأزمهر العتيد ، ثمرة القرون ومعهد المسلمين ، ومعقد آمالهم ، يرسل بعونه إلى مختلف البلاد الإسلامية ، ويفتح أبوابه لمن يفتد إليه من أبناء المسلمين تحميلاً لهذه الغاية النبيلة ، ورغبة في بث تعاليم الدين الحنيف مكن الله له حتى يؤدي رسالته ، ويبلغ دعوته ، فإن في عنقه الآن الدعوة إلى الله ونشر كتاب الله .

وإني أتمثل بالأثر الخالد متضرعاً متوجهاً لمن يملك النواصي فأقول :

الهم إن تهلك هذه العصاة لا تعبد في الأرض .

وفق الله ولادة أمور المسلمين أن يشدوا أزره ، ويردوا عليه همته ويقوموا بنصره وتأنيده .

كرم

مدح ربيعة الراقي يزيد بن حاتم الأزدي وهو والي مصر ، فاستبطأه ربيعة فرحل عن مصر وقال :

أراني ولا كفران لله راجعاً بحقي حين من بوال ابن حاتم
فلما بلغ قوله يزيد بن حاتم الأزدي ، فأرسل في طلبه فرد إليه ، فلما دخل عليه قال له أنت القاتل : (أراني ولا كفران لله راجعاً) ، قال نعم ، فقال له هل قلت غير هذا ؟ قال لا والله . قال لترجمن بحقي حين مملوءة مالا . فأمر بحمل عليه ومثلته مالا . فقال فيه لما عزل عن مصر وولى بدله يزيد بن حاتم التميمي ، فقال ربيعة من أبيات :

فستان ما بين اليريدين في الندى يزيد سليم والأغر ابن حاتم
هم الصي الأزدي إضاق ماله وهم الصي التميمي جمع الدرهم

اعلام الازهر

الشيخ حسن قويدر الخليلي

المتوفى سنة ١٢٦٢ هـ - ١٨٤٥ م

لفضيلة الاسنان الشيخ محمد طاهر الفقي

المدرس بكلية اللغة العربية

نشأته وحياته :

هو « حسن » بن « علي قويدر » . كان مولده « بمصر » سنة ١٢٠٤ هـ ، وأصل أسرته من المغرب ، استوطن أحد أفرادها « الخليل » من بلاد فلسطين ، واشتهرت ذريته بالمغاربة ، ثم نزح منها إلى « مصر » والده « علي » في تجارة وأقام بها ووهب المترجم ، فلما بلغ أشده ألحقه بالأزهر لطلب العلم فيه ، فتلقى العلوم والآداب على كبار شيوخه وجملة أساتذته من أمثال الشاعر الناصر العالم « الشيخ حسن العطار » و« الشيخ إبراهيم الباجوري » فتخرج عليهم في اللغة وعلومها والآداب وفنونه ، ولا سيما الأول الذي كان من ابنه الأزهرين في الأدب شأنًا ، وأبعدهم في فنونه صيتًا ، وكان « لقويدر » رغبة فطرية في الأدب وهوى للغة وعلومها ، ومعرفة خفاياها ، واكتناه دقائقها ، فبرع في ذلك وجود ، وأنشأ الفصول ، ونظم الشعر وحرر الرسائل ، ودارت بينه وبين كتاب العصر محاورات ومراسلات ، وأمه الناشئون من عشاق الأدب والشعر فأقادوا منه ونشروا فضله .

ولم يعرف أن قويدرا شغل منصبًا ، أو زاول عملاً حكومياً ، ويظهر أنه كان عزوفاً عن الوظائف وقبوحاً فلم يسع لها ، وربما وافته دون عناه لو انصرف لها ،

ولكنه كان يتجر فيما أورثه والده من المال شركة مع بعض السوريين الذين كانوا يرسلون إليه بضاعة سورية ، ويرسل إليهم أخرى مصرية .

ولم تكن التجارة لتشغله عن العلم والأدب ، فنال منهما حظاً وافراً ، وأعطاهما فراغ وقته فصنف الكتب ، وشرح المؤلفات .

وكان رحمه الله جواداً سخياً يبذل كثيراً مما يقد إليه من ربح تجارته الوارفة الظلال ، كما كان عفيفاً أميناً يرعى الود ، ويصون لسانه عن الخوض فيما يؤدي الناس ، اللهم إلا إذا استفزه الدفاع عن نفسه ، فإن له إذ ذاك لساناً كما فعل مع « عاقل أندى » في رسالة « الأغلال والسلاسل » .

وقد كانت وفاته في شهر رمضان سنة ١٢٦٢ هـ فرائه الشعراء ، وبكاه الأدباء ومنهم تليذه الشاعر المشهور « محمود صفوت الساعاتي » الذي رعموا أنه رأى قويدره في منامه قبل وفاته بثلاث ليال ميتاً فانتبه قائلاً : رحمة الله على حسن ١١٨ ١١٠ ٦٦ ٦٤٨

قويدر . لحسب مجملها فكان تاريخاً لسنة وفاته (١) .

٣٢٠

والساعاتي هو الذي رثاه بقوله :

بكت عيون الملا وانحطت الرتب ومزقت شملها من بعدك الكتب
ونكست رأسها الأفلام باكية على القراطيس لما ناحت الخطب
ويقول فيه أيضاً :

قالوا قضي حسن المناقب فارثه فأجبتهم ومدامى تحدر
لا أستطيع رثاء من لمصابه أضى لاني في في ينثر
نثره :

نثر الشيخ حسن قويدر ، يجري مجرى الصنعة ، ويبدو عليه أثر العمل والتكلف ويلتزم الجناس فلا يفلت منه ، وليس بعجيب أن يكون أدبه كذلك ، وأن يكون

طالعه الزخرف والطلاء ، وقد كان ذلك أدب العصر ، وطريقته الملتزمة ، على أنه تليذ ، للشيخ حسن العطار ، ، وثمرة من ثماره ، وكان « العطار » أستاذه ممن يلتزمون السجع في رسائلهم ، ويولعون بالصنعة في كتابتهم ، وكتاب « إنشاء العطار » على ذلك شهيد .

ولكن « قويدر » رغم متابعتة للعصر ، ومسايرته لأستاذه ، غير معن في التعقيد ولا مفرط في الاستغراق ، بل إن ثمره أقرب — على قيوده وتكلفه — إلى الوضوح والرصانة .

نموذج من ثمره :

ومن ثمره ما قاله في خطبة شرحه لكتاب

« ومن شغنى بتلك العرائس الخواطر ، حلتى بواعث الخواطر ، على أن أكتب عليها شرحاً وأبني على دعائمها صرحاً ، وأشد بنطاق البلاغة لها كشحاً ، فوقفت على أقدامى ، متردداً في تأخرى وإقدامى ... وشددت نطاق العزم ، وتقلدت بصارم الحزم ، وقومت سنان يراعى ، وبسطت في حومة هذا الميدان باعى ، وإنى لأرى التوفيق يهوم أمامى ، والعناية هود زمامى » .

شعره :

شعر « قويدر » يميل إلى الزخرف والطلاء ، ولكنه يتعاضد بقوة وضعفاً ، حسب إغراقه في التكلف ، أو لطفه في تناوله ، وكلما كان أكثر تعميلاً كان أكثر تعقيداً ، وهو غير ملتزم طريقة واحدة ولا نهجاً واحداً .

فن شعره الذى يميل إلى السهولة ولا يفرق في المحسن والصنعة ما قاله ناصحاً :

يا طالب النصيح خذ منى بحبرة	تلقى إليها على الرغم المقاليد
عروسة من نبات الفكر قد كسيت	ملاحة ولها فى الخلد توريد
كأنها وهى بالأمثال ناطقة	طير له فى صميم القلب تغريد
احمط لسانك من لفظ ومن غلط	كل البلاء بهذا العضو مرصود

واحذر من الناس لا تركز إلى أحد فالخل في مثل هذا المصير مفقود
 واطن الناس في ذا الدهر قد فسدت فالشر طبع لهم والخير تقليد
 هذا زمان لقد سادت أراذله قلنا لهم هذه أيامكم (سودوا)
 ويقول في شرحه على منظومة «المطار» :

منظومة الفاضل المطار قد عبقت منها القلوب برّيانكة عطره
 لو لم تكن روضة في البحر يانعة لما جنى السكر منها هذه الثمره
 في ظلة الجهل لو أبدت محاسنها والليل داج أرائنا وجهه قره
 قالوا جواهر لفظ قلت لا عجب بحر البلاغة قد أهدى لنا درره
 فأنت ترى أن تخفيفه من المحسنات البديعية أكسبت شعره طلاوة، ولم ينفر
 الذوق منه، أو تصرف النفس عنه .

وبما قاله وأسرف في الجنس فيه قوله :

فشمز الفصن عن الساق وقد جرد سيفاً لرقابهم وقد
 وقال جمرى بكلامكم وقد أنا الذي أشبه أعطافاً وقد
 أحلكم وتجهلون قدرى

(فقد) دارت كلمة (وقد) في هذه الأشطر خمس مرات بالواو وبغيرها ،
 فكانت حرفاً مقروناً بالواو في الشطر الأول ، أما قوله « وقد » في الشطر الثاني
 فيحتمل أن يكون إسماً بمعنى النار واقعاً صفة « لسيفاً » أي سيفاً هو النار لرقابهم
 وأن يكون فعلاً بمعنى اتقد أي سيفاً اتقد ، وقوله بكلامكم « وقد » محتمل أيضاً
 المعنيين أي جرى نار ، أو اتقد وقوله في الشطر الرابع أشبه أعطافاً وقد ، جاءت
 فيه هذه الكلمة على معناها الحرفي مع الاقتران بالواو ، « وقد » الأخيرة ، جزء
 من قدر المضاف إلى ياء المتكلم .

فقد أرمق الشاعر نفسه وشعره بهذه الكلمة التي وضمها خمس مرات في خمسة
 أشطر وضعاً مختلفاً فيه : تهافت عيب بالمعنى وعقده ، وتكلف ذهب بجمال
 الشعر وأفسده .

ولقويدر مزدوجات أفترن في صياغتها ، وبرع في نظمها ، إلا أنها محتملة كثيراً من التكلف ، موسومة بالزعة العلية في غير موضع ومنها قوله :

رأيت بداراً فوق غصن مائس يحطر في خضر من الملابس
ويسحر العقل بطرف ناعس وهو بشوش الوجه غير عابس
كان ماء الحسن منه يجري

خاطرت لما أن رأيت خطره وحار ففكرى في بهاذك الحور
وقلت لا والله ما هذا بشر ومن بشمس قاسه أو بقمر
فليس عندي بالقياس يدري

وكلمة القياس هنا من مصطلح علم المنطق الذي تأثر الشاعر به :
لفظه العذب لعلبي قوت كأنه الدر أو الياقوت
وسحره إلى النهى (مثبت) يعجز عن مثاله هاروت
وهو الحلال من صنوف السحر

الحسن شيء ماله شيل وكل وجه حازه جميل
والنفس دائماً له تميل وصاحب العز له ذليل
في قيد أسر نيه والامر

والنهي والامر كلاهما من مصطلح علم النحو كما ترى ، وشعره متفرق لم يجمع في ديوان .

آثاره العلية والأدبية :

للشيخ ، حسن قويد ، آثار لغوية قيمة ، ومؤلفات أدبية جليلة ، غير أن كثيراً من هذه الثروة التيمية لا يزال مخطوطاً لم يطبع ، وكثيراً منها عبثت به الأيام فخرمت الانتفاع به الألفام والأفلام .

ومن أهم هذه المؤلفات :

« نيل الأرب في مثلثات العرب »

وهو كتاب جليل جمع فيه المؤلف ما يثلك من الالفاظ العربية بالحركات ،
نظمه في أرجوزة حسنة السبك محكمة النظم ، يقول في مطلعها :

يقول من أساء واسمه حسن لكن له ظى بمولاه حسن
فكم لمولاه عليه من من بالعد لا تدحل تحت الحصر

وهي سهلة الحفظ واضحة غير معقدة ، وبها مشها فوائد قيمة ، فيها غنية لكل
أديب ، طبعت بمصر سنة ١٣٠٢ هـ وفي صدرها ترجمة للمؤلف بقلم الأستاذ محمد في
(وترجمت هذه المثلثات إلى اللغة الإيطالية بقلم . فيتو . المستعرب وطبعت الترجمة
في بيروت)^(١) ويقول في مقدمتها :

جمعت فيها الكلمات اللاتي تكون في الشكل مثلثات
أبدأ المفتوح ثم آتى بالضم لكن بعد ذكر الكسر
ثم يقول :

رتبتها كمعجم على الولا معتبراً للسباب حرفاً أولاً
بذا أنت غريبة في الوضع يعشقها كل رقيق الطبع
وعدد آياتها ٢٢٩ بيتاً .

ومن مؤلفاته شرح منظومة العطار : وهي منظومة نظمها في النحو أستاذه
الشيخ . حسن العطار ، وشرحها هو شرحاً دقيقاً قيماً ، والمنظومة مشهورة
بتداولها أبناء الأزهري .

وله كتاب يسمى « زهر الثبات في الإنشاء والمراسلات » غير مطبوع .

وشرح على مزدوجته البديعة غير مطبوع أيضاً ، ويقال إنه كان واقعاً في
مائة وثيف كراسة ذهبت به الأيام^(٢) .

هذا عدا شعره المتفرق ، ومزدوجته المطبوعة المتداولة بين الأدباء .

(١) تاريخ آداب اللغة العربية زبدان ج ٤ ص ٢٥٨ .

(٢) أعيان فيان السندوقي ص ١١٨ .

الفقه السياسي عند المسلمين

لتفصيل الشيخ محمد فاضل

أستاذ الفروع الإسلامية بكلية أصول الدين

من المسلمات العامة . أن الإسلام جاء غير مماثل لما سبقه من الأديان السماوية التي فصلت بين أمور العقيدة والعبادة ، ومسائل الحكم وتدير المصالح الدنيوية لبنى الإنسان .

وإنما جاء الإسلام منظماً للسلوك العام للإنسانية في شتى نواحي نشاطها الحيوى ، فأصلاحه للعقيدة في خالق الكون ، واختياره لنقط خاص في عبادة الله ، ورسمه لمنهج الخلق الحسن ، وتنظيمه للمعاملات الإنسانية العامة ، وسياسة الدنيا ، ومنهج الحكم ومبادئ العدل ، ومواجهة حاجات الاجتماع الإنسانى ، وغير ذلك مما عرص له الإسلام بالإنشاء أو التهذيب ، أخرونياً كان أو دنيوياً مادياً أو معنوياً ، كل هذه المقررات يتألف منها الإسلام ، وبعبارة أخرى . كل ما قرره الإسلام من مبادئ وتشريعات تتعلق بالعقيدة والعبادة . أو تتعلق بالخلق ومنهج التربية . أو تتعلق بالمعاملات العامة . أو تتعلق بالحكم وسياسة الدنيا ، أو تتعلق بما يلزم حياة المسلمين الاجتماعية أو (المدنية) . كل ما قرره الإسلام في ذلك كله (من مبادئ وتشريعات) فهو دين لازم ، ليس للإنسان بصدده حق الاختيار في الفعل أو الترك . لأنه دين يجب أن يؤدى كما أراده المشرع سبحانه .

ولا تستطيع أن تفرق — في الإسلام — بين ما يمكن أن يسمى ديناً فقط أو سياسة فقط حتى يمكن الفصل بينهما ، ولهذا تجد علماء العقيدة (المتكلمين) يتحدثون عن الإله وصفاته ، كما يتحدثون على الخلافة والرياسة . وقواعد الحكم ، وما يجب ، وما لا يجب ، أن يكون عليه الحكم . والحاكم ، والمحكوم ، وكذلك تجد

علماء الأصول يتحدثون عن مصادر الشريعة ، وأصول الأحكام ، ويتحدثون عن « الخلافة » ، والحكم ، وهل هى من الأصول أو من الفروع ، وإذا جئت إلى الفقهاء وجدتهم يتحدثون عن الطهارة والصلاة والحج ، أو البيوع والرهن والإجارة ، وإلى جانب ذلك تجد حديثهم أيضاً عن الحكم والقضاء والشهادة ، والسياسة الشرعية ومقتضياتها ، ثم يجرونك إلى الحديث عن تطبيق الأحكام على المسلمين وغيرهم ، ويفضون الكلام عن العلاقات بين المسلمين أفراداً ودولة ، وغير ذلك من وهل الأصل فى العلاقة بين المسلمين وغيرهم ، السلم أو الحرب ، وغير ذلك من مسائل العلاقات الدولية (مما يعرف اليوم بالقانون الدولى بقسمية) ، وإنك لواجد فى هذه البحوث القيمة من الجدة والطرافة والانسجام مع مقتضيات السلم والحرب ، ما لا تجده فى أبحاث المعاصرين من علماء السياسة والدستور .

وهكذا يستطيع كل راغب فى البحث التعرف إلى بحوث علماء المسلمين السياسية والدستورية فى غير كبير عسر ولا مشقة ، فسجد آراء فقهاء الإسلام الدستوريين واضحة جلية ، إذا توجه إلى البحث عنها فى كتب الفقه أو الأصول ، أو الكلام ، وكثيراً جداً ما تجد كل هذه الآراء ملخصة عند مظانها فى كتب التفسير والحديث .

بعد هذا الذى قدمت ، قد يدهش القارىء الكريم إذا قلت له : إن كثيراً من المستشرقين المفرضين يقولون : إن الإسلام جاء خلواً من المبادئ السياسية والدستورية ، اللازمة لسعادة الناس وتنظيم حياتهم ، فى كل أمة متمدنة ، بدليل أن علماء الإسلام لم يشتغلوا بالبحث السياسى وليست لهم فيه مؤلفات سياسية ؛ ويجارى هؤلاء بعض المستغربين من أبناء المسلمين ، وهذه المقالة تعاقبهم : الأول أن علماء المسلمين لم يشتغلوا بالبحث الدستورى والسياسى . والثانى أن الإسلام ليست له مبادئ سياسية ودستورية ، وسنفرده الكلمة للأمر الأول .

لو لم يكن لدينا — نحن المسلمين — سوى بحوث المتكلمين والفقهاء فى السياسة وهم شراح الإسلام ، لكان ذلك وحده كافياً فى الجزم بظلم هذه المقالة الظالم أهلها ، ولكن لدينا بحوث سياسية ودستورية كاملة مستقلة عن بحوث المتكلمين والأصوليين والفقهاء ، لدينا مؤلفات سياسية لها قيمتها وخطورتها فى توجيه

السياسة الداخلية للدولة ، والسياسة الدولية على وجه العموم ، وإلى التارىء قائمة بهذه المؤلفات .

١ — مقدمة العلامة ابن خلدون . التي كتبها بين يدي كتابه « العبر وديوان المبتدأ والخبر » في التاريخ ، وهو باعتراف المنصفين من علماء الشرق والغرب أول باحث اجتماعى وضع أصول علم الاجتماع ، وأفاض في بيان سياسة الإسلام العامة . وقد أشار فيها إلى أن علماء المسلمين في العصر العباسى قد عرفوا كتاب « السياسة » لأفلاطون وأرسطو ، ومن الثابت أن حين بن اسحاق قد ترجم السياسة لأفلاطون إلى العربية ، ونقل من هذه الترجمة أحد بن يوسف فصولا نشرها في العصر الحديث رفيق بك العظم ، وسواء تأثر البحث السياسى لعلاء الإسلام ، أو لم يتأثر بهذه الترجمات ، فهذا دليل اشتغالهم بالبحث السياسى ، وقد تابعت مؤلفاتهم فيه بعد ذلك ، فظهر كتاب « السياسة » لقسطن بن لوقا بالعربية ، وقد تأثر فيه بفلاسفة الإغريق ، وألف الصابى كتابا سماه « المتوج في العدل والسياسة » .

٢ — ألف الفيلسوف الكبير « الكندى » اثنى عشر كتابا في السياسة . منها : الرسالة الكبرى ، وسياسة العامة ، والكندى مغروف غير مجهول وآثاره معلومة للباحثين ، وإن كان بعضها قد ضاع .

٣ — ألف أحمد بن الطيب تليذ الكندى كتابين « السياسة الكبير » و « السياسة الصغير » .

٤ — ألف فيلسوف الإسلام الفارابى في علم السياسة ثمانية كتب ، منها : كتاب « السياسة المدنية » وموضوعه أشبه بما يعرف اليوم بالاقتصاد السياسى ، وكتاب « المدنية الفاضلة » وهو مطبوع مشهور ، وقد نشر الآب شيخو في مجلة المشرق سنة ١٩١١ م رسالة أخرى في السياسة للفارابى غير هذين الاثرين .

٥ — ألف ابن أبي الربيع كتابا سماه « سياسة المالك في تدبير الممالك » .

٦ — ألف أبو بكر الطرطوشى كتابا سماه « سراج الملوك » .

- ٧ — ألف أبو المكارم أسعد بن الخطير كتابه «قوانين الدواوين فى نظام حكومة مصر وقوانينها» وينقل عنه كثيراً صبح الأعشى .
- ٨ — ألف الإمام الماوردى الشافعى كتابه «الاحكام السلطانية» وهو مطبوع متداول .
- ٩ — ألف الإمام أبو يعلى الفراء الخبلى كتاباً سماه أيضاً «الاحكام السلطانية» وقد أخرجه الشيخ حامد الفقى من أعوام .
- ١٠ — ألف الإمام بدر الدين بن جماعة كتابه «تحرير الاحكام فى تدبير أهل الإسلام» وقد نشرته سنة ١٩٣٤ مجلة ألمانية ثم نشرته مجلة الإنجليزية Islamica « فى نفس السنة .
- ١١ — ثلاثة كتب بالعربية هى كتاب «سياسة نامة» لنظام الدين ، وكتاب «حكمة الإشراف» للسهروردى ويظهر أنه قد تأثر فيه بأفلاطون وكتاب «أخلاق ناصرى» للطوسى .
- ١٢ — كتاب «الأخلاق الجلالية» لجلال الدين الدوانى .
- ١٣ — التاج فى أخلاق الملوك للجاحظ ، وقد نشرته من مدة دار الكسب الملكية المصرية .
- ١٤ — «السياسة الشرعية لإصلاح الراعى والرعية» اسم كتاب ألفه أستاذ النهضة الإسلامية الإمام المحدث الناقد ابن تيمية ، وهو من الذبوع والانتشار بحيث لا يمكن أن يحبل .
- ١٥ — «الطرق الحكيمة فى السياسة الشرعية» للإمام مجدد الشريعة ابن قيم الجوزية . وهو كتاب خطير مطبوع معروف لأهل العلم فى كل مكان كسابقه تماماً
- ١٦ — كتاب ألفه إمام الحرمين اسمه «غياث الأمم» .
- ١٧ — وللصائى كتاب آخر غير المتوج اسمه «تحفة الأمراء» طبع فى بيروت سنة ١٩٠٤ .

١٨ - كتب الخراج التي ألفها أئمة أعلام ، وهي مطبوعة مشهورة عند العلماء ، وهي من أهم المراجع الدستورية الإسلامية . وهي :

كتاب الخراج للقاضي أبي يوسف يعقوب بن إبراهيم صاحب الإمام أبي حنيفة ، وكتاب الخراج ليجي بن آدم ، وكتاب الخراج لقدامة بن جعفر .

١٩ - كتاب الوزراء والكتاب ، لأبي عبد الله محمد بن عبدوس الجهشيارى

٢٠ - كتاب الولاة والقضاة ، للكندى وهي مشهورة يرجع إليه العلماء دائماً

٢١ - كتاب الاموال ، ألفه أبو عبيد القاسم بن سلام .

٢٢ - كتاب الفخري في الاحكام السلطانية ، لابن الطقطقى محمد بن علي ابن طباطبا .

٢٣ - مقالات الإسلاميين ، للإمام أبي الحسن الأشعري نشره ريتز الألمانية باسلامبول سنة ١٩٢٩ .

٢٤ - مراجع التاريخ الكبرى ، وهي قصص علينا عند المناسبات كثيراً من آراء الاولين عند اختلافهم على أمر من أمور الحكم وسياسة الدنيا ، وما يستند إليه كل رأى من حجاج تقوم على توخى المصلحة .

٢٥ - هناك محطوطات كثيرة اغتصبها المستعمرون عندما انتهوا بلاد المسلمين ، وهي مسجونة في مكاتب برلين ، ولندن ، وباريس ، واسبانيا ، وليدن وفينا وغيرها ، وطالما تحدث عنها أمير البيان المرحوم شكيب أرسلان ، ولم يتح لنا الاطلاع عليها .

فإذا نحن أضفنا هذا التراث القيم الذى قدمنا ، وهو خاص بالبحوث السياسية ، إلى ذلكم التراث السياسى الضخم فى كتب التوحيد ، والاصول والفقه فى جميع المذاهب الإسلامية السنية والشيعية ، وجدنا أنفسنا ملزمين بالحكم على مقالة هؤلاء المستشرقين وتلاميذهم المستغربين ، بأنها مقالة خاطئة ظالمة .

بقى أن يقول قائل : إن بعض هذه الكتب التى قدمتها ، كانت تعالج السياسة الواقعية لاسياسة الإسلام نفسه ، لأنها كتبت مثلا للخلفاء والسلاطين ، بقصد تبرير أوضاع خاصة قائمة ونحن نقول : هذا . وإن كان حقا فإن أبحاثهم كانت تعتمد على مقررات الإسلام العامة ، وإن يكن بعضهم قد تعسف مثلا فى تأويل بعض النصوص ، فإن هذا لا يبنى أن هذا الفريق قد اشتغل بالبحث السياسى ، والاشتغال بالبحث السياسى شيء ، وتقدير هذه البحوث - وبيان مدى عمقها ، ومبلغ قربها أو بعدها عن الإسلام ، ومقدار صلاحيتها للناس أو عدم صلاحيتها - شيء آخر سنجعله بإذن الله موضوع كلماتنا المقبلة ، والمهم الآن أن نعلن أن المسلمين القدامى ، لهم بحوث ومؤلفات كثيرة فى علم السياسة .

ولا يعوتنى فى ختام هذه الكلمة أن أشير إلى عظم المبادئ السياسية التى عرض لها الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده وتلميذه السيد رشيد رضا أثناء تفسيرهما للقرآن الكريم ، كما أن السيد رشيد له كتاب عن « الخلافة » يعتبر ثمرة طيبة لغرس الإمام عبده ، ولا يقلل من قيمته تعسف السيد رشيد فى توجيه بعض النصوص ضد شرعية الخلافة العثمانية ، كما أن لأستاذنا الشيخ محمود شلتوت رسائل كثيرة لو جمعت كونت كتابا قيما عن « السياسة فى الإسلام » أذكر من هذه الرسائل القيمة ١٠ - أسس الدولة فى نظر الإسلام ٢ - الإسلام والسلام ٣ - المعاهدات فى الإسلام ٤ - تنظيم العلاقات الدولية فى الإسلام ٥ - القرآن والقتال ، وله غير هذه الرسائل بحوث دستورية تمتع عنوانه « المسئولية المدنية والجناية فى الشريعة الإسلامية » وما لا شك فيه أن هؤلاء العلماء الأعلام قد اعتمدوا على سلفهم الصالح وما أتبعه السلف فى البحث السياسى ، فهذه سلسلة متصلة الحلقات ، والله نسال أن يوفقنا إلى متابعة الكلام عن مبادئ الإسلام السياسية ، والله يهدى لنوره من يشاء ، وعليه قصد السيل .

« يتبع »

إلى أي طريق نحن مسوقون

لقصيد الأستاذ الشيخ محمود محمد المدني

المدرس بالأزهر

انقد اضطرب نظام الخلق فعمت الفوضى وشكا الجميع من تحلل خلق أصاب
الامة ، وانهيار نفسى أدركها حتى فسدت معايير الرجال ، وأصبح الوعظ ثقيلًا
على النفوس لجوحها ، ومرد ذلك كله ذلك التيار الماسى الذى ملك زمام الامة
كلها ، وصار الفرد يعمل على أن يكون مالياً ، ولو صحى فى سبيل ذلك بكل خلق
كريم ، ونفس آية ، ونسى الجميع أن الدين الإسلامى لم يقتصر تعاليمه على
الروحانيات البحتة ، بل دعا إلى كل ما يعود على الفرد والمجتمع بالخير والسعادة ،
والعزة والكرامة ، فى الدين والدنيا فى قوله تعالى : « وابتغ فيما آتاك الله الدار
الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا » . ولقد كان سيدنا عثمان وعبد الرحمن بن
عوف من خيرة الصحابة ومن المبشرين بالجنة فضلا عن أنهم كانوا من ثروة الامة
الإسلامية ، بل لقد بلغت ثروة عبد الرحمن بن عوف قرابة الأربعة ملايين ديناراً
ومع ذلك حين رغب إليه مولانا وسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم أن ينزل عن كل
ماله للسبلين لم يتوان عن التنفيذ حتى أرجعه المصطفى .

ونظرة واحدة إلى ما نحن عليه الآن تعطينا صورة صادقة على فساد تفكيرنا ،
وعدم تفهمنا لحقيقة الدين ، وما يرى إليه من مكارم لو اتبعناها لسدنا الامم
غنى وخلقاً ، وجاهاً وسياسة .

ولكننا شغلنا عن ذلك بالتقليد ، وباليته تقليد يعود على الامة بالنفع والخير ،

بل تقليد مؤذ للخلق . مذهب للكرامة مضيع للعزة ، ونظرة واحدة إلى عواقب حادث الجامعة تكفى لأن نقرر أننا نسبح في حماية من تقليد مغبته وخيمه وعواقبه مشينة .

فالدين الإسلامى يأمر النساء بعدم التبذل والخروج إلى الطرقات ، بل تلك الملابس التى تكشف عن كل المفاتر الجسمية فى وسط شباب قد ملأ العرور نفسه ، أنه وصل إلى حد عدم المؤاخذه على تصرفاته ، لأن الحرية المزعومة تكفل عدم توجيه أى نقد أو لوم عليه .

فما بال قائمين على شئون الجامعة ، وقد لمسوا بأنفسهم ورأوا بأعينهم ، أن شبابنا لم يعن بالخلق قدر عنايته بالمظهر الخارجى ، ولم يفكر فى الروح الجامعية قدر تفكيره بالعبث الصيائى فى داخل الجامعة وخارجها ، يفكرون فى استحضار فرقة رافضات البالية ، لثجية علماء الغرب ، ومفكره ليروا منظراً رغم إنكاره يذيب النفس شجلاً ، ويملاً القلب حسرة ولوعة ، ولو فكر هؤلاء فى تعاليم الإسلام الصحيحة ، وتقذوا تعاليمه على الوجه الأكمل لرفع من شأن الأمة ، وأعلى من قدرها ، ولعلم الغربيون علماء وغيرهم أن حضارة الإسلام هى الحضارة الحقبة التى يجب على العالم إذا أراد أن يستقر السلام فى ربوعه ، وأن ينتشر الأمن والاستقرار ، وأن تزول حالة التوتر التى عليها الأمم الآن ، وخوفهم من الحرب والاستعداد له ، وأن تعاليمه هى التعاليم الصحيحة . فإلى المسؤولين أتوجه بقلب مخلص أن يعمل كل من ناحيته على أن يبرز محاسن الإسلام لنفسه وأهله وعشيرته ، وبين أفراد أسرته ، وأن يعتنقها عن يقين حتى يعود للأمة مجدها وعزها ، فلا هن لغير الإسلام ، ولا نصرة حقيقية لغير المسلمين ، فالعزة لله ولرسوله وللمؤمنين ، وكفانا جوحاً وإسفافاً ، فالحالة تتطلب علاجاً حاسماً وسريعاً ، ولا علاج بغير تعاليم الإسلام ، وإن الله القوى القاهر ، ينصر من انتصر لدينه ، ويمزه بإعزازه .

دراسات في التصوف

فلسفة التصوف

لحضرة الأستاذ محمد طلعت زهران

أستاذ في الأدب

[الراغبين المتصوفة والفلاسفة ، الكرامات
وتفسيرها الفلسفي ، العلم بين المتصوفة والفلاسفة ،
المعرفة — الله]

صلة التصوف بالفلسفة ، إنما تروى قصة من أروع القصص ، وتبين عن تضال
من أعنف ما عرف العقل الشرقي . فالصوفية — كما نعرف — إنما يتبعون منهاجا
خاصا فريدا ، هو منهاج الروح والإلهام ، إن أتاهم العلم فإنما يأتيهم عن طريق الله ،
والله وحده . ليسوا بمستبدلين عن طريق العقل ، أو آخذين عن الكتب ، إنما
العلم في صدورهم ، جاءهم بنور من الله . أفاضه عليهم من كرمه ، وأشرق به على
قلوبهم من فيضه . أما العلفة فأداتها العقل ، والعقل وحده ، به يعرفون كل أمر ،
وبه يحيطون بكل شيء ، يدلم — فيما يرون — على وجود أنفسهم ، وعلى وجود الله ،
وعلى وجود العالم .

• • •

وأروع صورة لهذا التضال — بين العقل والدوق — نجدها عند الغزالي ، ذلك
الذي أحاط بعلم الفلاسفة ، ونهج سبيلهم حينما من الدهر ، حتى إذا ما عرف ذلك
الذي يدعون ، قلب لهم ظهر الحزن ، ولبت بناجزهم ، وينقض أدلتهم ، ويثبت :

ضعف العقل ، وقوة الروح . فإذا به في « إحياء علوم الدين » يوقفنا على أروع صراع بين العقل والنوق .

وسنعرض في هذه الكلمة لأهم المسائل التي احتدم فيها القول بين المريقين ، فتكلم عن الزهد لديهما ، ثم الكرامات وتفسيرها لدى المريقين ، ثم تناول نظرية المعرفة عندهما ، وأخيرا تكلم عن « الله » جل جلاله ، كما يراه الصوفي ، وكما يراه الفيلسوف .

• • •

أما الزهد ، فقد أخذ الصوفية أنفسهم به ، وراضوها عليه . وهم إنما فعلوا ذلك حتى تخلص أرواحهم من شوائب المادة ، وأدران البدن : اتخذ الصوفية الزهد وسيلة للوصول لجناب الحق ، وطريقا لكشف الحجب عن أنفسهم ، حتى يحتلوا بطلعة الله ، ويصلوا الى حضرة الربوبية ، أما الفلاسفة فتراهم في هذا فريقين : إما آخذين بالزهد كبداً وغاية ، لا كوسيلة أو طريق ، وإما تاركين الزهد ، عازفين عنه ، آخذين بالمادة المادية الفيزيائية ، مبالغين فيها مسرفين . وقد نجد بينهم فريقا ثالثا وسطا بين الإثنين فما راض نفسه على الزهد ، ولا أخذها بالإسراف في اللذة . وإنما اعتدل بين هذا وذاك ، وسار على طريق مستقيم ، لا إفراط فيه ولا تعريط . ومن هنا نعرف الفرق بين الصوفية والفلاسفة : فبينما الأولون يرون في الزهد وسيلة وطريقا ، إذا بالفلاسفة يرون فيه غاية ومتصدا . ولعلنا نرى في الآيقورية والرواقية خير مثلين على ما ذهبنا إليه .

• • •

ولما كان السبيل إلى الله هو رياضة ومجاهدة ، يصل بعدها السالك هذا الطريق ، إلى منزلة العرفان ، وهو مقام سام ، بل وقد يصل فيه السالك إلى أن يتحد بالله أو أن يحل فيه الله — حسبما تقول بعض المذاهب الصوفية ، وفيه تسامح كبير ، فإن كان ذلك كذلك ، رأينا له كرامات : كأن يظهر في أماكن متعددة ، في وقت واحد ، أو أن يأتي بفاكهة في غير أوانها ، أو أن يطعن نفسه بمعدة ،

أو أن يقبض على الحديد المحمى دون أن يصيبه مكروه ، وبالجملة أن يأتي بخوارق الأمور بما هو فوق طاقه البشر ، وبما لا قدرة للرجل العادى على فعل مثله .

يوضح الصوفية ذلك بقولهم إن الروح في حال السكر والغيبة ، تصعد فتفارق الجسم وتحد بالله ؛ أو إن الله نفسه يحل بالبدن ، فإن فعل العبد شيئاً ، لم يكن هو الذى فعل ، وإنما الله هو الفاعل ، وفي كلتا الحالتين يستطيع الإنسان أن يقوم بالخوارق ، وأن يأتي بالكرامات .

أما الفلاسفة فيفسرون ذلك تفسيراً آخر : فالمعجزات عندهم تثبت في ثلاثة أمور : أولها القوة المتخيلة ، فإنهم زعموا أنها إذا استولت وقويت ، ولم يستغرقها الحس والاشتغال ، اطلعت على اللوح المحفوظ وانطبعت فيها صور الكائنات الكائنة في المستقبل ، وذلك في اللحظة للأنبياء ، ولسائر الناس في النوم .

وثانيها هي القوة العقلية النظرية ، ترجع إلى قوة الحدس ، وهو سرعة الانتقال من معلوم إلى معلوم ، والناس في هذا منقسمون : فبعضهم من يتنبه لنفسه أو بأدنى تنبيه ، ومنهم من يتنبه مع التعب الكثير ، ورب نفس مقدسة صافية ، يستمر حدسها في جميع المعتمولات وفي أسرع الأوقات ، والمسال على ذلك الأنبياء .

ثالثها القوة النفسية العملية ، وقد تنهى إلى حد تتأثر بها الطبيعيات وتسحر ، ومثله أن النفس إذا توهمت شيئاً خدمته الأعضاء والقوى التي فيها ، فحركت إلى الجهة المتخيلة المطلوبة . ويختلف ذلك باختلاف صفاء النفوس وقوتها ، فلا يبعد أن تبلغ قوة النفس إلى حد تستخدمه القوة الطبيعية في غير بدنه ، فإذا جاز أن تطيعه أجزاء بدنه ، فلا يبعد أن تبلغ قوة النفس إلى حد تستخدمه القوة الطبيعية في غير بدنه ، فإذا جاز أن تطيعه أجزاء بدنه لم يتمتع أن يطيعه غيره ، فتتطلع نفسه إلى هبوب الريح أو نزول المطر أو هبوب عاصفة ، أو نزول صاعقة أو زلزال الأرض لتخسف يقوم .

من هذا نرى مبلغ الفرق بين تفسير الفلاسفة للكرامات والمعجزات ، وبين تفسير المتصوفة لها ، الذين يرجعون الكرامة إلى الاتحاد بالله . فإذا استولت لاهوتيته على الناسوت ، أصبح هذا قادراً على فعل أى شيء .

° ° °

والعلم لدى الصوفية — كما أبنا — إما استبصار وطريقه العقل والكتب والتعلم وإما إلهام وله طريقان : الإثراق وباعثه الله ، وأهله هم أصحاب النفوس الصافية والقلوب العامرة بالإيمان وحب الله ، والوحي عن طريق الملك من لدن الله ، وأصحابه هم الأنبياء . أما لدى الفلاسفة فالأمر جد مختلف ، فسيل العلم هو العقل ، والعقل وحده ، هو الذى يدلنا على النفس وعلى الله ، وهو الذى يقودنا إلى الحقيقة فى كل شيء . وينظر الصوفية إلى هذا العلم — العلم عن طريق العقل — على أنه أدنى درجة من علمهم ، وأنه قريب من علم العوام .

ولكن الصوفية والفلاسفة يختلفون فى فهمهم لـ «العقل» وفيما يعنون بهذا اللفظ . فهو عند الفلاسفة ما نعرف من أنه أداة للاستدلال والنظر وللفهم والمعرفة بينما هو عند الصوفية . النفس الناطقة ، أو هو محل المعقولات . فالعلم لدى الصوفية إذن هو كما يقول عليه السلام : « نور يقذفه الله تعالى فى القلب فيشرح به الصدر ، أما علامته فهي » التجافى عن دار الغرور ، والإنابة إلى دار الخلود » .

والنفس ، إما نفس مطمئنة ، إذا سكنت للأمر ، وحفظت التوازن بين شهوات الجسم ؛ وإما نفس لوامة ، إذا لم يتحقق سكونها فاضطربت مع شهوات البدن ؛ وإما النفس الأمارة بالسوء إذا استسلمت للشهوات ، واسلست لها النيات ، وأفسحت المجال للشيطان . وما أشبه « الغزالي » فى تقسيمه هذا بـ « أفلاطون » الذى يقسم النفس إلى عاقلة وغضبية وشهوية . فالأولى تقابل النفس المطمئنة ، والثانية تقابل اللوامة ، والثالثة تقابل الأمارة بالسوء ، وذلك على الرغم من اختلاف أساس التقسيم عندهما .

° ° °

وأهم من هذا وذاك هو الله ، وفرق شاسع بين معرفة الله عند الصوفية ، ومعرفة عند الفلاسفة . سئل « ذو النون المصري » : كيف عرفت ربك ؟ فأجاب : « عرفت ربي بربي ، ولولا ربي ما عرفت ربي » ، فطريق معرفة الله هو الله نفسه ، وسئل « النوري » : ما الدليل على الله ؟ فأجاب : « هو الله » ، قيل له : وما العقل ؟ قال : « العقل عاجز ، والعاجز لا يدل إلا على عاجز مثله » فلا العقل يؤدي بنا إلى الله ومعرفة ، ولا الاستدلال العلمي بكاف لكي نعرف الله . ولكن « الله » ، إن كان تمت طريق لمعرفته ، فهو عن طريقه « هو » . الله يشرق بنوره على قلب عبده ، ويمتلي بداته ، ويظهر بجلاله . لا شك إذن في تلك المعرفة عن الله ، التي تأتينا عن طريق الله نفسه . أما أن نعرف الله عن طريق العقل فذلك أمر كله شك وكله ريب ، وما أدل على ذلك من أنه إذا اصطنع فيلسوف براهين على وجود الله ، إذا بفيلسوف آخر يهدم له براهينه ، ويقول بأخرى ^(١) ، إذن فهذه وتلك محل شك ، وما دام فيها ظل من الشك ، فهي غير يقينية ، أي أنها لا تزدى إلى يقين ، وهذا « الله » الذي لا يقين فيه ، ليس إلهاً ، ولستنا إذن نعرفه كما ينبغي أن نعرف الله .

فحين إذا عرفنا النفس ، ثم أثبتنا عن طريق النفس معرفة الله ، ونحن إن دلتنا على الله بمختلف الأدلة : سواء في أنفسنا أو في غيرها ، فإن هذه المعرفة لا تبلغ أبداً يقين المعرفة التي يتذوق الله بها في قلوب عباده المصطفين . ويدلنا الأثر النازل . « من عرف نفسه ، فقد عرف ربه » يدلنا على أننا لا نعرف الله إلا إذا عرفنا أنفسنا ، ولن نعرف أنفسنا إلا إذا تجردت عما يشوبها من مادة ، وما يتعلق بها من أوشاب .

وبعبارة أخرى ، لن نعرف الله ، إلا من عرف نفسه ، ومن سلك طريق المعرفة الصحيح ، طريق الذوق والوجد .

(١) يلاحظ أن الفلاسفة رغم احتلامهم بتعقود جميعاً على براهين مبرنة ، ومن هنا كان في هذا الدليل منالطة منطقية .

أسباب الفتنة في عهد عثمان

لمحاضرة الأستاذ عبد المنعم السبع

دروس أول الآداب بالمعاهد الدينية

للفتنة في عهد عثمان أسبابها المباشرة وغير المباشرة ، وهي من هذه الوجهة تشبه الثورة الفرنسية ، كما تشابهان كذلك في أن حدوث كل منهما في صفحة التاريخ كان أمراً لا مفر منه . وهذا لأنهما يرجعان لعوامل غير مباشرة ، لم تكن من خلق الزمن الذي حدثتا فيه . غير أننا نستطيع أن نقرر أنه كان من الممكن أن تحدثا في تاريخ آخر لاحق ، لو لم توجد العوامل المباشرة التي أدت بهما إلى الحدوث زمن عثمان رضي الله عنه وزمن لويس السادس عشر .

ويمكن حصر الأسباب غير المباشرة لهذه الفتنة في التطور الاجتماعي الجديد الذي طرأ على حياة المجتمع الإسلامي نتيجة الفتوحات الواسعة التي تمت زمن أبي بكر وعمر ، كما يدخل في ذلك أيضاً ، العصية التي تميز بها العربي ، وتلك الروح العربية الثورية الجامحة أو ما يطلق عليه علماء الاجتماع اسم « روح الجنس » .

هذا عن الأسباب غير المباشرة لفتنة ، أما أسبابها المباشرة فيمكن ربطها بضعف سياسة الخليفة ، وسنعرض في شيء من البسط والتحليل لسكلا النوعين من أسباب هذه الفتنة الشنيعة . التي ذهب صحتها خليفة المسلمين الثالث عثمان رضي الله عنه .

يقول علماء الاجتماع إن الثورة دائماً خليفة التطور ، سواء أكان هذا التطور ديبياً ، أم فكرياً ، أم مادياً . أم سياسياً . ثورة تطيح بالقديم النائم من نظم الحكم أو الديانة المرعية أو الأفكار والمعتقدات السائدة أو نظم التجارة المتبعة أو أصول الفن المعروفة ، ثورة تطيح بكل ذلك ، وتفسح المجال لنظم جديدة ومعتقدات جديدة وقيم جديدة . فكلنا يعرف مدى فرع دولة الأوثان عند ما انشئ نور

الهداية الإسلامية يكتسح ظلة شبه الجزيرة العربية ، لحفلت دولة الباطل بمويقاتها وعلا صرح الحق كالطود لا يريم ، وكلما يعرف كذلك مدى ما أزكت به آراء « فولتير » و « جان جاك روسو » و « منتسكيو » نيران الثورة الفرنسية ، التي راحت تلتهم القديم الجائر ، وتمهد لحياة أخرى أكرم بني الإنسان ، وما فزع أباطرة روما ، ذات التاريخ الوثني العتيق ، يوم طرقت المسيحية أسوارها ، وجنوحهم إلى « بيرنطة » ، إلا دليل على هذا التطور الجديد .

ونحن لا ينبغي علينا ، أن المجتمع الإسلامي ، أواخر عهد عمر ، كان قد نبهاً لاستقبال طور جديد ، من أطوار حياته ، وأنه بما تم له من الانتصار المؤزر على أكاسرة الفرس وقيصرة الروم ، وبما غمره من العنايم والأموال والسبي ، وقد بدأ يودع طور البداوة وعيشها التاضب ، ويستقبل حياة الحضرة ، وعيشها الخصب ، غير أن العبقريّة العمريّة ، لم تفنّها هذه الظاهرة الجديدة في حياة المسلمين ومدى ما قد تحدّثه من نكسات لو أرخى لها العنان ، فراح يضرب للناس من سيرته العادلة الزاهدة المقتصدة أروع الامثال ، فبهرم بذلك ، وحملهم على الطريق السوي ، كما دفعهم إلى الاقتداء والتشبه بسيرته .

وأهم مظاهر التطور الاجتماعي لذلك العهد ، تضخم الثروات ، بما آل إلى المسلمين ، من خيرات الأمم المغلوبة . ولقد عُدّت المصادر الشيء الكثير من هذا الثراء العريض الذي استجد على الصحابة والمسلمين ، ومن هذه المصادر ، تاريخ الطبري ، وطبقات ابن سعد ، ومروج الذهب للسعدي ، وتاريخ ابن عساکر ، والكامل لابن الأثير . ومن هؤلاء الذين أفاضت المصادر في عد ثروتهم ، سعد بن أبي وقاص ، وعبد الرحمن بن عوف ، أحد الثمانية الذين سبقوا الخلق إلى الإسلام ، وطلحة بن عبيد الله ، أحد العشرة المبشرين بالجنة ، وكان يقال له ، طلحة الفياض ، وطلحة الجود ، وطلحة الخير ، وطلحة الطالمحات ، ومن الأغنياء الذين ورد ذكرهم أيضاً ، خبيب بن الارت ، والزبير بن العوام ، والمقداد بن الأسود وغيرهم . والشيء الذي يسترعى الانتباه ، أنه قد وجدت طبقة جديدة أصابت من الثراء ما تشرد عند وصفه الألباب ، وقد جر هذا طبعاً ، إلى حياة البذخ والترف في عهد عثمان ، الذي ترك لقريش وسواهم الحبل على الغارب ، يتأثنون الترى والصياغ ، ويشيدون الدور والأبنية الفخمة ، وبدا بدأ التطور

واصحاً جلياً ، حيث طرحت حياة البداوة الساذجة جانباً ، ومال الناس إلى الكثرة بالأموال ، وبجانب هؤلاء ، وجدت طائفة أخرى ، غاب مسعاها في الحياة ، فظفروا إلى طبقة الأغنياء ، نظرة حقد وحسد ، ودب في نفوسهم ديب اليأس والتمرد ، ومثل هؤلاء ، هم الذين يهدون للثورات ، وينفخون في أوقها . ولقد أدرك عمر ذلك قبل موته ، وقال مشفقاً على المسلمين ، لما رأى أسلاب فارس وما فيها من ياقوت وزبرجد وجوهر ، « بالله ما أعطى الله هذا قوماً إلا تحاسدوا وتباغضوا — إلا ألقى الله بأسهم بينهم » . ولقد كان عهد عثمان ، كما سلف ، دور انتقال من حياة البداوة الجافة إلى حياة الحضرة المترفة ، فكثر لديه الأموال كثرة هائلة ، اتخذ لها الخزائن ، فانتشر القيل والقال ، وأصبح الأغنياء ، بل والخليفة نفسه ، محل طعن ومؤاخذه ، لما كان يخص به أقاربه من جاه ومال ، فدبت في البلاد روح السخط والتذمر ، وحب الشغب ، وكرهية قريش ، ولعل ذلك مصداق قوله صلى الله عليه وسلم « إن أخوف ما أخاف عليكم من بعدى ما يفتح الله عليكم من زهرة الدنيا وزينتها » ولقد صدق قول رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان ذلك من الأسباب المعهدة للفتنة « ونبلوكم بالخير والشر فتنة والينا ترجعون » .

وليس من شك في أن اندلاع لهب الفتنة في عهد عثمان ، مرده إلى مجازاة الخليفة نفسه للتطور الاجتماعي ، وهو ما لم يفعله عمر ، فقد أصبح لعثمان من الثروة ما لم يكن لأحد من سلفيه ، وإلى جانب ذلك ، مد الخليفة للصحابة والتابعين والأقربين في هذا المضمار مداً ، وتلك حالة جديدة لم يشهدها عهد السلفين الكبارين أبي بكر وعمر ، فخر ذلك في نفوس الناس ، ووجدوا من ضعف الخليفة وليته ، ما شجعهم على القيام بفتنتهم المشتومة .

وإلى جانب تضخم الثروات كظهر من مظاهر التطور الاجتماعي في ذلك الحين برز مظهر آخر من مظاهر هذا التطور ، وهو اختلاط الأجناس والعناصر المختلفة فقد أصبح المجتمع الإسلامي ، بعد حوادث الفتوح ، محيطاً زاهر العباب ، يمزج بكثير من مختلف الأجناس والأديان ، وكان منهم الموتورون بسيوف المسلمين ، دخلوا الإسلام غير مخلصين ، يتحينون الفرص للإضرار بالمسلمين ، ومن هؤلاء « الهرمزان » و « جفينة » و « كعب الأحبار » و « عبد الله سبأ اليهودي » ، عماد

الفتنة الأكبر، وداعيتها الأول . وفوق ذلك كان للسبي والاسترقاق والخلط بين العناصر، أثر بعيد القور، في إعداد المجتمع الإسلامي، لهذه الفتنة، وقد كان أبناء السبايا من شر ما منى به المجتمع العربي، وقد قال عثمان رضى الله عنه : « إن أمر هذه الأمة صائر الى الابتداع بعد ثلاث فيكم، تكامل النعم، وبلوغ أولادكم من السبايا، وقراءة الأعراب والأعاجم للقرآن » .

وهناك مظهر ثالث من مظاهر التطور الاجتماعى، وهو الانفاة العامة لهذا العهد، فتمت كانت الثقافة زمن النبى الكريم، ثقافة بسيطة موحدة، إذ كانوا يتفقون عند ما جاء به الله، وما علمهم رسوله الأمين، لا تكلف ولا ابتداع ولا أمت ولا عوج، وكانوا لا يعرفون التأويل بما يوافق أهواءهم، ولا اللعب بالنصوص لحساب منافعهم، فلما كانت الفتوح وكثر اختلاط العرب بغيرهم من الشعوب الأخرى، راح أهل الاقطار المختلفة يقرأون القرآن، كل بالطريقة التى يراها، وبالثقة التى تعنيه، ففرع لذلك « حذيفة بن اليمان » و« وحيد المصحف » وبالإضافة الى ذلك، راح الصوم، وقد استنارت عقولهم فى المجتمعات والأندية والمؤتمرات، ينظرون الى سياسة الخليفة، نظرة الناقد، ويتطلعون الى أعماله تطلع المدقق المحاسب وأحياناً كانوا ينظرون الى هذه السياسة نظرة السخرية والإزدراء . ومن ثم كان هذا المظهر الثقافى الجديد ذا أثر فى التمهيد للفتنة .

ومن الأسباب غير المباشرة لهذه الفتنة الشنعاء، ما تميز به العربى من روح التعصب، فلما جاء الإسلام، حارب هذه النزعة « لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى » « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » وبذا اختفت هذه النزعة زمن النبى، ثم برزت أيام الردة، ثم اختفت بفضل أبى بكر، إذ شغل المسلمين بأمر الفتوح، وكان عمر يسعى جهده للتضام على هذه النزعة، وكانت قريش محل حسد وحقد القبائل العربية الأخرى، لما لها من المسكنة والصدارة، ثم كان هناك التعصب أيضاً بين بيوت قريش وبطونها، وأمر ذلك واضح فى الخلاف الذى شجر بينهم عندبيعة عثمان، وقد كان لروح التعصب هذه، أثرها البعيد المدى فى تعكير الجو حول الخليفة، وفى إشعال نيران الفتنة .

ومن الأسباب غير المباشرة لهذه الفتنة أيضاً، الطبيعة العربية، أو ما يطلق

عليه علماء الاجتماع «روح الجنس» ، وقد تميزت الروح العربية بالجور والعناد ، ولقد قال عمر في أول خطبة له بعد توليه الخلافة «إنما العرب مثل جمل أنف ، اتبع قائده ، فليظن قائده أين يعود ، أما أنا ، فوبر الكعبة لأحملنكم على الطريق» ، ولقد استطاع عمر أن يحملهم على الطريق حقاً ، فلما آل الأمر لعثمان ، ولم تكن له عبقرية عمر ولا حزمه ، انفلتت من يده ، مقادة هذه الأمة الجور الأنوف ، وانفجر بركان الفتنة ليودي بالخليفة الطيب الورع عثمان .

بقى من أمر هذه الفتنة أن نورد أسبابها المباشرة ، وتلخص فيما أجمع عليه المؤرخون ، من ضعف سياسة الخليفة ، ولو وضعت الخلافة آتئذ في يد قوية ، كيد علي بن أبي طالب ، لكان من المرجح أن تأخر هذه الفتنة إلى وقت لاحق ، وقد كان عثمان أقل من أن يقود أمر أمة كالأمة العربية ، وخاصة في هذا الطور الذي بلغت فيه درجة الغليان . وأول مظاهر هذا الضعف ، حياؤه وليه ، وليس أدل على ذلك من رفضه تفتيش «كبل بن زياد» ، وخضوعه للفتونين الثائرين من أهل الكوفة والبصرة ، والسير وفق أهوائهم الجامحة ، فكلموا طلبوا منه عزل عامل وتولية آخر ، لاستجاب لهم ، راجياً بذلك ، أن تلس مقادتهم له ، ولكنه بتلك السياسة ، هون من شأن ولاته ، وأطعم أولئك الطغمان الحاقدين فيهم .

ثم كان كبر سن الخليفة ، من العوامل المهيئة لهذه الفتنة ، إذ من طبائع النفس البشرية ، هبة التموى ، والطمع في الضعيف ، وعلى قدر ما كانت قوة عمر وشاططه وتوثبه ، كان ضعف عثمان وانكساره وعجزه وتردده ، فسهل على بطائه قطع الأمور دونه ، والعمل وفق مآربهم ، وبذلك تهيأت الاقطار الأخرى للثورة ورفع راية العصيان . روى الطبري أنه لما حوَّصر عثمان قال : «ومن كانت لي عليه طاعة فليجسك داره ، فإنما يريدني القوم ، وسيندمون على قتلي ، والله لو تركوني ، لظننت أني لا أحب الحياة ، وإنه تغيرت حالي ، وسقطت أسناني ، ورق عظمي» ، ومن ذلك يتضح مدى فعل السنون بالخليفة عثمان ، حتى صيرته شيخاً فانياً عاجزاً ليس له من رهبة عمر شيئاً .

ومن تخط الضعف في سياسة عثمان : إثارة الأقارب ، في مجتمع عنيد أنوف ، يروج بالفتنة ، ويتطاول منه شرر الحقد والحسد ، فكلم من لوم ، وكلم من عتاب ،

وكم من شكوى وجهت إلى عثمان وعياله ، وكان قد اصطفاهم من ذوى قرياه .
والمؤرخون يتسمون تجاه هذه السياسة قسمين : قسم يحد ما ذهب إليه الخليفة
من اصطفاء الأقارب ، بحجة أنهم كانوا أكفاء ، برهنوا على أنهم أهل للفة
التي وضعت فيهم ، ومن هؤلاء : معاوية بن أبي سفيان ، ونضيف في هذا الصدد أن
روح التمرد ، التي طبعت هذا العهد ، أخافت الخليفة ، فلم يعد يثق بغير أقاربه ، وقسم
آخر ، يخطيء الخليفة في هذه السياسة ، ويقول بأنه كان الأجدر به أن يضرب
النفوس من نفسه ، وأن يحدوا حذو عمر فيما اتخذ من سياسة تجاه أقاربه .

ومما تقدم ترى أن سياسة عثمان هذه ، وقد مهدت لإشعال نيران الفتنة ،
وقد كان عثمان في حاجة إلى مثل عبقرية عمر ، إذ كان حاكماً بالياً ؛ بأدق معاني
هذه الكلمة ، مما كان يمنعه أن يربط على كتف بدافع العطف من أن يتناولها
بالدرة بدافع العدل ، قبل أن يقرم صاحبها من مجلسه ، أما عثمان فقد كان ينبوع
رحمة ، ونسيم رقة ، له صفات من يعطى ولا يأخذ ، بسط للناس صدر خلافته ،
حتى استطابوا المرعى ، فلما هم برجرم حزنوا وتمردوا ، ولم يستطع للفتنة قما ،
فأكلته نيرانها .

ويجب أن نفرق في ختام هذا البحث ، أن نظام الحكم ، ذلك النظام الذي لم يحدد
سلطة الخليفة ، وموقفه من الأمة ، وموقف الأمة منه ، ولم ينص على طريق محددة
للحكم ، كان من العوامل التي أفسحت مجال الفتنة ، فإن روح الثورى ، التي تشيع بها
المسلمون زمن عمر وأبي بكر ، جعلتهم يتطلعون إلى التدخل في كل شيء ، وكان مظهر
الخلافة مظهر رعاية أبوية بعيدة عن العنف والقهر ، غير أن هذا التسامح قد
جر القوضى ، والافتقار إلى الحقوق ، والاختلاف على ما كان يقع من الأحداث
ويحد من الوقائع ، فلم يكن القول لهيئة خاصة ، ولا لطائفة معينة ، وقد كان عمر
يرى من وراء ذلك إلى تدريب كل مسلم على معرفة نصيبه من الواجب العام
والمصلحة المشتركة ، غير أن ذلك انقلب في عهد عثمان إلى جرأة وتناول عليه ،
مما مهد الأمور للفتنة .

هذه هي الأسباب المباشرة وغير المباشرة التي انتهت بالفتنة الشنعاء حيث كان
ضحيها خليفة المسلمين الثالث « عثمان رضى الله عنه » .

إمام المفسرين ابن جرير الطبري

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمود النواوي

المقتنى بالأزهر

لعل في ترداد النظر في تاريخ هذا الإمام العظيم وأمثاله . ما يحفز نفوسا كريمة
أو يرفع همما وخيمة . وإنما الناس من جهة التمثال أو كفاء . ولا فضل للإنسان
إلا بحياة يعمرها بعلوم يحصلها . أو آثار نافعة يخلدها فيخلد بها ، لهذا يعجبني دائما
أن أطلع القراء الكرام ، بسير هؤلاء الأئمة الأعلام .

• • •

نشأ الإمام أبو جعفر محمد بن جرير الطبري صاحب التفسير المشهور والتاريخ
المعروف ، في القرن الثالث الهجري ، وهو عهد نهضة علمية ، وبخاصة في التأليف
والتدوين ، وهي نهضة ترجع إلى عهد المنصور العباسي وتبثدي به . وكان المنصور
العباسي قد شجع العلماء ، وأعزى بالتأليف الأئمة والفقهاء وأمره في موطأ الإمام
مالك وغيره مشهور بين الناس ، وناهيك بعصر المأمون الذهبي للغة العربية وآدابها
ومعارف الدين والدنيا .

• • •

ولد الطبري سنة ٢٢٥ هـ وتوفي سنة ٣١٠ هـ ، فهي خمس وثمانون سنة تقريبا
قضاهما في جمع العلم والتصرف فيه . وقد عبت سبله . وعذبت مناهله . مع دكاء
نادر وحفظ عجيب . وفرغ وزهادة . وتوفر على العبادة . فطوف بالآفاق يرتاد
المعارف ما بين الرى . وبغداد . ومصر ، والشام ، والبصرة ، والكوفة .
وقد طال مقامه ببغداد بعدما وعدا . حتى كانت وفاته بها .

وكانت ببغداد كعبة القصاد ، وموتل الرواد ، ونجعة العالم والاديب وجمع
كل حسن وطيب . وهي التي يقول فيها ابن هاني :

دخلنا كارهين لها فلما ألقاها خرجنا مكرهين

٠ ٠ ٠

بدأ يطلب الحديث بالرى وما جاورها ، فأكثر عن الشيوخ ولا سيما محمد بن حميد الرازى والمثنى بن ابراهيم الايلي . وغيرهما . وحدث عن نفسه فى قصة يذكرها بعض المتصلين به . أنه دخل عليه هو وابنه فقال له فى حديث جرى . كم لهذا سنة ؟ قال تسع سنين . قال لم لم تسمعه منى ، قال كرهت صغره وقلة أدبه فقال لى : حفظت القرآن ولى سبع سنين ، وصليت بالناس وأنا ابن ثمانى سنين (١) وكتبت الحديث ، وأنا ابن تسع سنين ، ورأى لى أبى فى النوم أنى بين يدى النبى صلى الله عليه وسلم ، وكان معى حذلة مملوءة حجارة ، وأنا أرى بين يديه ، فقال له المعبر إنه إن كبر نصح فى دينه ، وذب عن شريعته . فحرص أبى على معوتى على طلب العلم وأنا حينئذ صغير .

وانتقل من الرى وما جاورها إلى مدينة السلام ، فأقام بها وكتب عن شيوخها فأكثر . ثم صار إلى الكوفة فكتب فيها عن محمد بن العلاء الحمدانى وإسماعيل ابن موسى وغيرهما . ثم عاد إلى مدينة السلام ، ولزم المقام بها مدة . وفتح بها وأخذ فى علوم القرآن ، ثم غرب فخرج إلى مصر ، وكتب فى طريقه بأجناد الشام والسواحل والثغور وأكثر منها ، ثم صار إلى الفسطاط سنة ٢٥٣ . وكان بها بقية من أهل العلم فأكثر عنهم الكتبة من علوم مالك والشافعى وابن وهب وغيرهم . وهكذا ظل يتنقل ويأخذ كل علم من أهله وأئمة ، حتى انتهى به المطاف إلى مدينة بغداد ، وأفاض على الناس من علمه فى شتى الفنون ، وكتب مؤلفاته ، وما زال بها سراجاً منيراً ، وشمساً مشرقة ، حتى قضى سنة ٣١٠ هـ . هذه هى حياته الحافلة بالتماس العلم والنهم فى جمعه من جميع متجعاته ، والاستباح والإنتاج ، وإذا فنزلة ابن جرير جديرة بما وصف الخطيب البغدادى إذ يقول :

« وكان أحد أئمة العلماء يحكم بقوله ، ويرجع إلى رأيه لمعرفته وفضله ، وكان قد جمع من العلوم ما لم يشاركه فيه أحد من أهل عصره .

وكان حافظاً لكتاب الله ، عارفاً بالقرامات ، بصيراً بالمعاني ، قصباً فى أحكام

[١] من مذهبنا الحنفى ، أن البلوغ شرط فى صحة الامامة .

القرآن، عالماً بالسنن وطرقها، وصحيحها وسقيمها، ناصحها ومنسوخها، عارفاً بأقوال الصحابة والتابعين، ومن بعدهم من الخالفين في الأحكام وسائل الحلال والحرام، عارفاً بأيام الناس وأخبارهم.

واقده أعجب به العلماء والمؤرخون. وجميع أصحاب الفنون في فنونهم، وذكر الرواة عنه كثيراً من العجائب، فقالوا إنه مكث أربعين سنة يكتب في كل يوم منها أربعين ورقة. وقالوا إن قوماً من تلامذته حصلوا أيام حياته منذ بلغ الحلم إلى أن توفي وهو ابن ست وثمانين سنة، ثم قسموا عليها أوراق مصنفاته فصار منها كل يوم أربع عشرة ورقة. وهم يذكرون لذلك نظائر حين يتكلمون عن أكثرنا التصنيف، كأبي الفرج الجوزي، وجلال الدين السيوطي. ولعل في أحوال بعض المعاصرين. من أمثال الدكتور طه حسين باشا، والاستاذ العقاد وغيرهما ما يقرب هذه الروايات، فقد كان الساقون أفرغ بالاً، وأبعد عن شواغل المدنية. وأقل منا أخذاً في خطوط الدنيا ومتعباً.

ولعل ميزة للطبري لم يشارك فيها هي أنه يزاحم رجال الاختصاص في اختصاصاتهم فلا يتخلف عنهم. بل أتد سبق كثيراً منهم ولا سيما في تفسيره الوحيد الذي جمع بين مسالك السلف في الرواية. والخلف في دقة الفهم والدراسة.

فأبو جعفر مفسر بلغ مرتبة الإمامة في التفسير، وفتح الناس بكتابه الذي انتشر منذ عهد، وأكب الناس على قراءته، يشرحون الطرف في فسيح رياضته، ويملاون العقول غذاء وكرعاً من حياته، وهو تفسير خالد يتحدى كل عالم ومفسر حتى اليوم. وقد ذكره الإمام المجتهد أبو حامد الاسفرائيني فقال في شأنه: لو سافر أحد إلى الصين حتى يحصل له كتاب تفسير ابن جرير لم يكن ذلك كثيراً.

ونقل الخطيب بسنده إلى عبيد الله بن أحمد السمسار قال.

«إن أبا جعفر قال لأصحابه: أنشطون للتفسير، قالوا كم يكون قدره، قال: ثلاثون ألف ورقة، فقالوا هذا مما نفني الأعمار قبل تمامه، فاختره في نحو ثلاثة آلاف ورقة. ثم قال هل تنشطون لتأريخ العالم من آدم إلى وقتنا هذا، قالوا كم يكون قدره فذكر نحواً مما قال في تفسيره، ثم قال. إنا لله، ماتت الهمم.

وهذا إن صح أكبر دلالة على همه ونشاطه تفضل الأذهان في إدراكها، وقد

قالوا إنه أملاه من سنة ٢٨٣ إلى سنة ٢٩٠.

ولعل لنا نظرة في تفسيره بعد .

ثم ابن جرير محدث عالم بالسنن وطرقها وصحيحها وسقيمها وناخبها ومنسوخها كما وصفه الخطيب . وقد ذكروا في تاريخه أنه كتب عن أبي كريب وحده أكثر من مائة ألف حديث . وهو عارف بأقوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم وقد رأيت ما كتب بمصر من علوم مالك وابن وهب والشافعي .

ولهذا فهو فقيه مستقل ، وإمام مجتهد يذكر في طبقات المجتهدين . وهو لم يقلد إلا في صباه يوم ابتدأ العقيدة بمدينة السلام على مذهب الشافعي ، على أن له أتباعا يقلدونه من العلماء . منهم أبو بكر المعافى المعروف بابن طراز .

وأبو جعفر المؤرخ المشهور الذي جمع تاريخ الدين في كتابه مع تحرر في الرواية وقوة في الأسلوب .

ثم هو في علوم العربية إمام جليل ، دلت على ذلك كتابته في التفسير وشهد له به أئمة العربية : كأبي العباس ثعلب الذي يقول فيه إنه من حذائق الكوفيين ، وكان قليل الشهادة لاحد بالحنق .

وسأحييك على نبذة مما كتب عنه أبو محمد عبد العزيز بن محمد إذ يقول : كان أبو جعفر من الفضل والعلم والدكاء والحفظ على ما لا يحمله أحد عرفه بجمعه من علوم الإسلام ما لم يجتمع لأحد من هذه الأمة ولا ظهر من كتب المصنفين واشتهر من كتب المؤلفين ما ظهر له . كان عازفا عن الدنيا تاركاً لها يرفع نفسه عن التماسها . وكان كالتقاريه الذي لا يعرف غير القرآن ، وكالمحدث الذي لا يعرف إلا الحديث ، وكالنهوي الذي لا يعرف إلا النحو ، وكالحاسب الذي لا يعرف إلا الحساب . وكان عالماً بالعبادات جامعاً للعلوم وإذا جمعت بين كتبه وغيرها وجدت لكتبه فضلاً على غيرها . . . انتهى .

وقبل أن أختم هذه السكلمة ، أشير إلى أنه روى عنه بعض منظومات تدل على ذوق في الأدب . وبصر فاحص بأساليب العرب ، ومن ذلك قوله :

خلفان لا أرضي طريقهما بطر الفنى ومذلة الفقر
فإذا غنيت فلا تكن بطرا وإذا افقرت فته على الدهر
رحمك الله يا ابن جرير . وجعل منك في أمنا أسوة صالحة كريمة ؟

وسائل النصر

لغزير الشيخ المشايخ عبود الخولي

المدرس بمعهد القاهرة

من مظاهر حكمت تعالى أن أبدع خلق الإنسان وسوى نفسه وجعلها زاخرة بالآمال العذبة حافلة بالآمال الباسمة توافقه إلى أن ترى تلك الآمال حقيقة سافرة . وواقعا مشرقا ، وهي لذلك قد تسلك من الأسباب والوسائل ما يتخلف عنه النتائج فتصمغ بالخبية والحرمان ، والهزيمة والاندحار وهي أشد ما تكون حاجة إلى النصر وشوقا إليه ولهفة عليه فكان من مزيد عنايته تعالى بعباده أن بين لهم أن النصر تابع لقانون محكم دقيق وسنة كونية خالدة فمن تنكب عنها تردى في هاوية الذل والهوان ومن استوى على صراطها حالفه العون والإمداد والعز والإسعاد فقال جل شأنه (يا أيها الذين آمنوا إن تصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم) ومن أوفى بعهده من الله ؟ ومن أقدر منه على تنفيذ مراده فهو قيوم الأرض والسموات والمهيمن على شئون عباده ، والقابض على ناصيتهم . فما من مخلوق إلا واقع في قبضته وجل من سطوته . شملته إرادته ونفذت فيه قدرته وأحاط به قهره وسلطانه ، ولا يتم من أموره إلا ما اقتضته حكمته وتعلقت به مشيئته . بيده ملكوت كل شيء لا معقب لحكمه ولا راد لقضائه (وإن يمسكك الله بضرب فلا كاشف له إلا هو ، وإن يمسكك بخير فهو على كل شيء قدير ، وهو القاهر فوق عباده ، وهو الحكيم الخبير) .

والنصر الذي طلبه تعالى من عباده يكون برعاية دينه ولذلك دعائم ثلاث — الأولى عقيدة قوية — الثانية عبادة خالصة لله وحده — الثالثة إحسان في معاملة خلقه : فسلامة العقيدة أن تخالط القلوب بشاشة الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر .

وأنة سبحانه صاحب العلم المحيط والسلطان القاهر ، فلا يعلم الغيب سواه ولا

شركة معه لبي ولا لولي ، ولا ينازعه منازع في السيطرة على شئون خلقه فهو العظيم بحجده ، العالب جنده ، النافذ قضاؤه . السانع عطاؤه (له ممالك السموات والأرض بسط الرق لمن يشاء ويمتد إنه بكل شيء عليم) فليس من الإيمان في شيء أن يتوكل الشخص على غير ربه ، أو يلتم النذر لسواه ، أو يمتد الضر والنفع في مخلوق من مخلوقاته (إن كل من في السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً ، لقد أحصاهم وعدهم عداً ، وكلهم آتية يوم القيامة فرداً) : ومن الكفر الصريح ما يفعله صعاف العقول والسفهاء من اللجوء إلى هؤلاء الدجالين الفجار الذين يدعون علم الغيب وكشف المستقبل ، ويزعمون أن لهم قدرة على جمع القلوب وتفريقها وتيسير الزواج وإنجاز الحمل ، وإطالة أعمار الأولاد ، وأن لكتاباتهم وأحجبتهم تأثيراً في الحفظ والإسعاد (كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً) . وما تلك الأساليب إلا شباك يصطادون بها الأموال من البه والمغفلين . ولو صح أن لهم طاقة على تحقيق ما يدعون ، لكان الأولى أن يسعدوا أنفسهم ولا يكبدوا في جلب دربهات يسيرة يحتالون ليلها عن وقع في شركهم . ولا ريب أن المسلم الذي يثق بهؤلاء قد اطفأ مصباح الإيمان في قلبه وأحاطت به ظلمات من الكفر بعضها فوق بعض (ومن لم يجعل الله له نورا فإنه من نور) وإذا أراد هذا المسلم أن يدرك حكم الرسول الكريم عليه فليستمع إلى ذلك بعد أن يزيل أكنة قلبه ووفر أذنه ، فقد قضى صلوات الله وسلامه عليه في مثل هذا الشخص قضاء مبرماً . فقال (من أتى عرافاً أو كاهناً فصدقه بما يقول فقد كثر بما أنزل على محمد) وصدق الرسول عليه الصلاة والسلام فإن ما أنزل عليه هو قوله تعالى (قل لا أملك لنفسي نقماً ولا ضراً إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مenni السوء) فإذا كان الرسول وهو أكرم الخلق على الله لا يملك النفع والضر لنفسه فضلاً عن أن يملكه لغيره وتبرأ من علم الغيب ، أفيملك النفع والضر ويعلم الغيب هؤلاء الأرجاس الملوثون ؟ ولكن صدق الله حيث يقول (فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور) الأمر الثاني : لإحلاص العبادة له وحده بأن تملأ قلبك بجلاله وعظمته . عابداً له كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك . ملتزماً المنهاج الذي ارتضاه لتقديسه وتمجيده مسارعاً إلى إقامة العبادات مستوفية لشروطها وأركانها قريرة

بها عينك مبهجة بها نفسك ، حريصاً على أن يظهر أثرها في السلوك والحياة العملية معتقداً أن ثمرة ذلك ترجع إليك وحدك ، فهي تزكية لروحك ، وتطهير لقلبك ، وتكريم لشخصك وسمو بإنسانيتك ، وتشريف لها بمنجاة الله تعالى والاتصال به والحصول على عظيم امداده ووافر جزائه (ومن جاهد رياء وسمعة ، أوقام إلى الصلاة متاقلاً متباطئاً عاقل القلب في أدائها ، حتى أصبحت صوراً وأشكالاً لا حقيقة لها ، وجسماً ميتاً لا حياة فيه . وحقيق بثقل هذا ألا يكون عابداً لله ، وألا يصح انتسابه لرسول الله فقد روى أن حذيفة بن اليمان رضى الله عنه رأى رجلاً يسرع في صلاته فقال له : ما صليت ولو مت على ما أنت عليه مت على غير العطرة التي فطر الله عليها عبداً .

الامر الثالث : الإحسان في المعاملة بمراقبة الله تعالى في عبادته بأن يشعر كل إنسان أنه لبنة في بناء المجتمع فعليه أن يركز جهوده في إسعاد بني جنسه وتوفير هئاتهم ويتبادل معهم المودة والإخاء والانس والصفاء وذلك فوام كل مجتمع صالح يتوئب أفراداً للنهوض وبلوغ أوج العزة والكمال . وإلا فواقعة مجتمع لا يرحم فيه الضعفاء ولا تسمح عبرات الاشتياع ولا يعطى السائل والمحروم حقه في مال الاغنياء ولا يرحم على يد الظالم ولا ينتصف للظلم . وتهدر الكرامات . وتنتهك الحرمات عندئذ تكون الحياة جحيماً مستعراً وعداباً وبليلاً .

ومن الإحسان في المعاملة لإصلاح ذات البين وجمع الكلمة وتوحيد الصفوف لمحاربة العدو العائم والتسلح له بالسلاح الذي يحافه ليظل جانباً عنده مهيأ وسلطاناً مرهوباً . ولتتظر نظرة عابرة إلى قوله تعالى (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم) فإنه سميت حكمتهم لم يعتد نوع القوة التي تُعدّها لتفتسّر في كل زمام بما يرهّب أعداء الإسلام : - والاستعداد على هذا النحو هو السلم المسلح الذي يمنع عدوان القوى على الضعيف ويبقي الأمن في ربوع البلاد فيعيش العالم في سلام دائم وصفاء شامل :

هذا هو هدى الله في نشر الأمن بين الناس لا ما ترعّمه تلك الدول العانية من حماية السلام وأقامت لذلك مجلساً يسمى مجلس الأمن . وأحاطته بسياج براق من الدعاية الزائفة . وما هي إلا أساليب ماكرة خادعة تُضمّر وراءها ختل النعالب وروغانها وشراسة الذئاب وغدرها واعتيال الأمم المستضعفة والتهام الشعوب المألوبة على أمرها . فخذوا حذركم منه أيها المسلمون فتل هذا الصنيع

الاثم صدر عن شخص تراحت عناصر الشر في نفسه ولم يعدم طلاء خذاعا فنزل فيه قول العليم الحكيم (أسس بذاته على شفا جرف هار فانهار به في نار جهنم والله لا يهدي القوم الظالمين).

أما : إذا أردتم أن يكون النصر حليفكم في قضاياكم العامة والخاصة ، فلا يكفي لذلك وضوح القضية ، بحيث لا يرتاب أحد في عدالتها ، أو إقامة الحجج التي ترفع شأن حكم ، وتدفع باطل عدوكم . بل لا بد مع هذا كله من سلوك الأسباب التي هداكم الله إليها ، وأن تصلحوا ما بينكم وبينه ، وتستمسكوا بهديه ، وتجمعوا على طاعته . والاعتصام بحمل مودته ، فقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من حاول أمراً بطاعة الله كان أقرب مما رجا وأبعد مما اتقى . ومن حاول أمراً بمعصية الله كان أبعد مما رجا وأقرب مما اتقى » . وفي هذه المدرسة القدسية تلقى تلك التعاليم الحكيمة أبطال الإسلام الذين نصرُوا بالزعم ودانت لهم أعناق الجبابرة ، وكانوا رحمة مهداة إلى الإنسانية ، رفعوا عنها إصرها ، وأقالوها من عثرتها ، وأسدوا إليها الحياة المساجدة ، والمدنية الفاضلة . وما ظفروا بهذا التوفيق البارِع ، إلا لأنهم اتخذوا طاعة ربهم معراجاً لكسب ولايته ، وجعل رعايته « ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون » .

كتب عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى سعد بن أبي وقاص وقد أمره على حرب العراق .

(أما بعد فإنى آمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال فإن تقوى الله أفضل العدة على العدو وأقوى المكيدة في الحرب . وآمرك ومن معك أن تسكوبوا أشد احتراسا من المعاصي منكم من عدوكم . فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم . وإنما ينصر المسلمون بمعصية عدوهم لله . ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة لأن عددنا ليس كعددهم ولا عدتنا كعدتهم ، فإن استوينا في المعصية كان لهم الفضل علينا في القوة ، وإلا تنصر عليهم بفضلنا لم نغلبهم بقوتنا)

أيها المسلمون : هذا شعار أسلافكم فترسموا خطاهم واحملوا مشعل هدايتهم وجدوا السبيل في طريقهم وعندئذ لا تكون يد عليكم إلا يد الله وهي معكم بالعون والإمداد أينما تتجهون . ولا تهولتكم قوة عدوكم فهي منهارة أمام تأييد الله لكم « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين » .

حرف بمانند الف

افضيلة الأستاذ الشيخ أحمد الشرباصي

المدرس بالأزهر الشريف

لله در أبي منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي النيسابوري (١) حين قال في فاتحة كتابه « فقه اللغة » :

« من أحب الله تعالى أحب رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم ، ومن أحب الرسول العربي أحب العرب ، ومن أحب العرب أحب العربية ، التي نزل بها أفضل الكتب ، على أفضل العجم والعرب ، ومن أحب العربية عني بها ، وثابر عليها ، وصرف همه إليها ، ومن هداه الله للإسلام ، وشرح صدره للإيمان ، وآتاه حسن سريرة فيه ، اعتقد أن محمدا صلى الله عليه وسلم خير الرسل ، والإسلام خير الملل ، والعرب خير الأمم ، والعربية خير اللغات والألسته ، والإقبال على تفهمها من الديانة ، إذ هي أداة للعلم ، ومفتاح التفقه في الدين ، وسبب إصلاح المعاش والمعاد ، ثم هي لإحراز الفضائل ، والاحتواء على المروءة ، وسائر أنواع المناقب ، كالنبوغ للساء ، والزند للنار ، ولو لم يكن في الإحاطة بخصائصها ، والوقوف على مجاريها ومصارفها ، والتبحر في جلائلها ودقائقها ، إلا قوة اليقين في معرفة إعجاز القرآن ، وزيادة البصيرة في إثبات النبوة ، التي هي عمدة الإيمان ، لكفى بهما فضلا يحسن فيهما أثره ، ويطيب في الدارين ثمره ؛ فكيف وأيسر

[١] ولد في تساروسه خمسين وثلاثمائة ، وتوفي سنة سبع وعشرين أو ثلاثين وأربعمائة ، وكتبه كثيرة ، وثاره ميسوط .

ما خصها الله عز وجل به من ضروب المادح ، يُكل أعلام الكتبة ، ويتعب أنامل الحسبة ؟ ^(١) .

نعم فالعربية لغة آرها الحق مند القدم بمجيده . وهما لتكون لسان وحيه ، وصوت عبادته ومناجاته ، فكان من صنعه سبحانه لها أن برع أهلها في طرائقها وفنونها ، ومهروا في تشقيتها وتصريفها ، وأبدعوا في تضمينها الكثير من أسرارها ورموزها . ثم جاء قوم منهم في ركاب الإسلام الساطع فتعبوا في ضبط شواردها ووضع قواعدها وتنظيم أبوابها ، وحرصوا على تعلمها وتعليمها ؛ وانفقت كلفة هؤلاء وأولئك على وسم المهمل لها احوالف لاحكامها الجاهل لقواعدها بسمة الشين والغيب ، حتى كانت سبة د اللحن ، من أقوى العوامل في إسقاط مكانة الرجل والإزاء عليه ؛

ومن عجب أمر هذه اللغة الشريفة العريقة أن لها من الدقائق والخفايا ما يستثير شغف اللبيب ، ويتحوز على جهد القادر ، ولا تزال هذه الدقائق تبتدى من أضوائها وتطوى حتى تبعث العجب والإعجاب ، وكمن دقات كنوز اشتملت عليها كتب العربية من قديم ا

ومن بين أسرارها أن الكلمة الواحدة من كلماتها تدخل عليها الحركة الواحدة فتقال حرفاً واحداً من حروفها فتكسب الكلمة بهذه الحركة معنى خاصاً فإذا ارتفعت هذه الحركة عن هذا الحرف من تلك الكلمة وجاءته حركة أخرى زال المعنى الأول ، وجسد للكلمة معنى آخر ، وهكذا لا تزال المعاني تتكاثر وتختلف بتتابع هذه الحركات واختلافها ، وكل هذا مما يحتاج أشد الاحتياج إلى الألباء من الرقباء الدارسين يعكفون باحثين وملاحظين ، ثم مقيدون وحافظين ، ثم ناشرين ومعلمين ، وبهمم هؤلاء تظل العربية مرفوعة اللواء زاهية الرواء .

خذ على سبيل المثال كلمة « السداد » ... وهي كلمة واحدة من جملة كلمات تشملها مادة السين والذال المشددة ... إن هذه « السين » من كلمة « السداد » تلك تكون مفتوحة تارة فيكون معناها التصد والتقوم والتوفيق والصواب ؛ جاء

في النهاية لابن الأثير ما ملخصه : « قاربوا وسددوا : أى اطلبوا بأعمالكم السداد والاستقامة ، وهو القصد في الأمر والعدل فيه : وقال الرسول العلي : سل الله السداد واذكر بالسداد تسديدك السهم ، أى إصابة القصد ، وسئل عن الإزار فقال : سدد وقارب ، أى اعمل شيئاً لا تعاب على فعله ، فلا تفرط في إرساله ولا تشميره ، وفي حصة متعلم القرآن : يغفر لأبويه إذا كانا مسددين (بكسر الدال وفتحها) أى لازمى الطريقة المستقيمة ... وكان له قوس تسمى السداد ، سميت به تفاؤلاً بما يرى عنها . »

وفي أساس البلاغة للزمخشري : « وهو على سداد من أمره وسدد ، وقلت له سداداً من القول وسدداً ، واللهم سددني : وفقني ... وأتينا الريح من سداد أرضهم : من قصدها . قال :

إذا الريح جاءت من سداد بلادها أتانا بها مسك ذكي وعنبر

وفي القاموس المحيط : « سده تسديداً قومه ووقفه للسداد . أى الصواب من القول والعمل ، وسد يسد صار سديداً : وأسد أصاب السداد . »

وتارة تكون السين مكسورة ، فيتغير معنى الكلمة دون تغيير أو تبديل ، أو زيادة أو نقص في حروفها أو بقية حركاتها ... إن معناها حين الكسر يكون شيئاً آخر غير معناها عند الفتح :

في النهاية لابن الأثير : « حتى يصيب سداداً من عيش أى يكفي حاجته . والسداد بالكسر ، كل شيء سدّد به حللاً ، وسمي به سداد الثغر والقارورة والحاجة . . وفي الأساس : « سد الثلثة فانسدت واستدت وهذا سدادها . . ومن المجاز : فيه سداد من عوز بكسر السين . يقال : ما به سداد أى عيب يسدها فلا يتكلم . . وفي القاموس : « وأما سداد القارورة والثغر فبالكسر فقط ، وسداد من عوز وعيش ما يسد به الخلة ^(١) ، ويفتح ، أو لحن وفي فقه اللغة للثعالبي : « كل شيء سدّد به شيئاً فهو سداد ، وذلك مثل سداد القارورة وسداد الثغر وسداد الخلة ^(٢) . »

فإذا ضمت هذه السين كان للكلمة معنى ثالث بعيد عن المعنيين السابقين ،
إنه يصبح داءً غير مستطاب ، جاء في القاموس المحيط : « والسَّدَاد (بضم السين)
داء في الأنف » (١) . ومثل كلمة « السداد » في ألفاظ اللغة مئات ومئات من
المثيلات والشبهات ...

ومن لطيف ما يروى عن كلمة « السداد » تلك كشاهد من شواهد عناية
السابقين بالعربية ، وحرصهم على حفظها وتقويتها ، وكلف القادرين من رجالها
بإثابة حراسها وإحزال العطاء لهم ، وعيهم من لحن فيها أو أخطأ : ما ذكره
التاريخ عن النضر بن شميل (٢) الإمام الثقة في العربية والحديث ، فقد كان من عادته
أن يدخل على الخليفة المأمون في سمره (٣) ، فدخل عليه ليلة وقد لبس قيصا
مرقوعا ، فعجب منه المأمون وقال له : يا نضر ، ما هذا التقشف حتى تدخل على
أمير المؤمنين في مثل هذه الثياب ؟ فأجاب النضر : يا أمير المؤمنين أنا شيخ ضعيف
وحر « مرو » (٤) شديد ، فأبرد بهذه الخلقان (٥) . قال المأمون : لا ولكنك
متقشف .. ثم جرى الحديث بين الجمع ، والحديث ذو شجون ، فأجرى المأمون
ذكر النساء فقال : حدثنا هشيم عن مجالد عن الشعبي عن ابن عباس قال : قال
رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا تزوج الرجل المرأة لديها وجمالها كان فيه
سداد من عوز ، ونطق كلمة « سداد » بفتح السين منها . فقال النضر :

[١] نرى نتكلم عن اختلاف المعنى باختلاف الحركة دون تعرض لتعصيل العلاقات المجازية التي
قد تكون هناك بين أحد المعاني وبقيتها .

(٢) وله سنة ثلاث وعشرين ومائة ، وتوفي سنة أربع ومائتين . [٣] قال أبو حليمان الطحطاوي
في حديثه عن إجماع أقرآن مشيرا إلى وصول النضر على المأمون : « وأما دول القاتل لصاحبه : انعد
واجلس ، فقد حكى لنا النضر بن شميل أنه دخل على المأمون عند مقدمه مرور ، فجلس بين يديه وسلم ،
فقال له المأمون : اجلس ، فقال : يا أمير المؤمنين استعذ بمطعم فأجلس ، قال : وكيف تقول ؟ .
قال : بل أجد . فأمر له بمائة . قلت : ويان ما قاله النضر بن شميل [عنا] يصح إذا اعتبرت إحدى
الصفتين بالأخرى عند المقابلة ، فتقول القيام والقعود ، كما تقول الحركة والسكون ، ولا نسهم بقولون
القيام والجوس » [عنا] فقال : عند الرجل عن قيام وجلس عن ضجعة أو استلقاء . »

[٤] مرو : بكه عاروس [الناموس] - [٥] الخلعان : بضم فكوا ثياب التي ليست حتى
بليت عن الأسان .

« صدق (١) يا أمير المؤمنين هشيم ، حدثنا عوف بن أبي جميلة عن الحسن ابن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا تزوج الرجل المرأة لذيها وجمالها كان فيها سداد من عوز » . ونطق كلمة « سداد » بكسر السين كما يجب .

وكان المأمون متسكناً فاستوى جالساً ، وقال : يا نصر ، كيف قلت سداد ؟ . قال : لأن السداد هنا الحن . فقال : وتلحنني ؟ . فأجاب النصر : إنما الحن هشيم وكان لحنانة ، فتبع أمير المؤمنين لفظه . قال المأمون : فما الفرق بينهما ؟ . أجب النصر : السداد بالفتح القصد في الدين والسييل ، والسداد بالكسر البلغة ^(٢) وكل ما سددت به شيئاً فهو سداد . قال المأمون : وتعرف العرب ذلك ؟ . قال : نعم ، هذا العرجي يقول :

أضاعوني ، وأى فنى أصاعوا ليوم كريمة وسداد ثغر

فأطرق المأمون ملياً ، ثم قال : قبح الله من لا أدب له ، ثم أخذ يسأل النصر عن أخلب بيت للعرب وأنصفه وأفنعه ، فأشده أحياناً جزلة فيما سأل . فقال له : أحسنت يا نصر . وسأله عن مائه وحاجته ، ثم كتب المأمون إلى الفضل بن سهل ليعطى النصر خمسين ألف درهم ، فضى النصر إلى الفضل ، فلما قرأ الفضل التوقيع وفيه تلخيص القصة صحك وقال : يا نصر ، أنت الملحن لأمر المؤمنين ؟ . قال : لا بل هشيم . قال الفضل : فذاك إذاً . وأعطى النصر الحسين ألعاً التي أمر بها المأمون ، ثم أعطاه فوقها ثلاثين ألف درهم من عنده ، فتمت للنصر ثمانون ألف درهم ثواباً لتصحيح حركة حرف في كلمة ^(٣) ١١ .

وهذا البيت الأخير الذي استشهد به النصر ، وجاءت فيه كلمة « سداد » كان لإنشاده سبباً في رد الحرية على منشده السجين ، فمن عبد الله بن رجاء الغداني قال :

[١] البلدة يضم مكرون : كل ما يتلج به من العيش . [٢] ذكرت القصة في « تهذيب الأسماء واللغات » للزبيدي في ترجمة النصر بن شميل ، كما ذكرت في الأغاني ، وهذه نقلاً صاحب كتاب « من أحلاق العلماء » .

كان لأبي حنيفة جار بالكوفة إسكاف^(١) يعمل نهاره أجمع ، حتى إذا جنت^(٢) الليل رجع إلى منزله وقد حمل لحماً فطبخه ، أو سمكة فيشويها ، ثم لا يزال يشرب حتى إذا دب^(٣) الشراب فيه غنى بصوت ، وهو يقول :

أضاعوني ، وأى قتي أضاعوا ليوم كريمة وسداد ثغر

فلا يزال يشرب ويردد هذا البيت حتى يأخذه النوم ، وكان أبو حنيفة يسمع جلته . وأبو حنيفة كان يصلي الليل كله ، ففقد أبو حنيفة صوته فسأل عنه فقيل : أخذه العسس منذ إياال وهو محبوس . فصل أبو حنيفة صلاة الفجر من غد وركب بغلته واستأذن على الأمير ، قال الأمير : إيدنوا له وأقبلوا به راكباً ، ولا تدعوه ينزل حتى يثأ البساط . ففعل ، فلم يزل الأمير يوسع له من مجلسه ؛ وقال : ما حاجتك ؟ قال : لى جار إسكاف أخذه العسس منذ إياال ، يأمر الأمير بتخليته فقال : نعم ، وكل من أخذ فى تلك الليلة إلى يومنا هذا . فأمر بتخليتهم أجمعين ، فركب أبو حنيفة والإسكاف يمضى وراءه . فلما نزل أبو حنيفة مصى إليه . فقال : يا قتي ، أضعناك ؟ قال : لا ، بل حفظت ورعيت ، جزاك الله خيراً عن حرمة الجوار ورعاية الحق . وتاب الرجل ولم يعد إلى ما كان !^(٤)

وهكذا شهدت العربية فى عصورها الزاهرة ميادين بحث يستفيض حولها فيجدد إلهامها ويحفظ شبابها . وكانت هذه الميادين عامرة بالفرسان الذين يذودون شنها ويحمون دمارها ، وبالعامة الذين يمجدون أولئك الذاتيين ويجزونهم خير الجزاء : والمأمول أن يقيض الله لهذه العربية المجيدة التليدة من أشبالها ورجالها من يصل سلسلة العكوف عليها والهام بها والذب عنها . حتى تظل لغة الكتاب والخطاب !!

اللهم لا تجعل فى طرقتنا إلى الخير سداداً ، وهب لنا من لدنك فى ديننا ودينانا سداداً ...

[١] فى منه اللغة كل صانع عند العرب هو إسكاف . [٢] جنت : سره ، واستجن

بجنته : استتر بها : وحن عليه الليل ، ولولاه جنت الليل أى ظلمته . الأساس ،

[٣] دب الشراب فى الروق : أى أثروا .

[٤] انظر كتاب ، من أخلاق العلماء ، ص ١٨٥ وقد نقل القصة عن تاريخ بغداد .

الشعر المسرحي

لؤي ستانف محمد حمزة الشبغ

ليسانس في الآداب

يتردد في الميدان المسرحي بين آن وآخر سؤال ، لا يكاد يحظى بجواب شاف ، من التماثمين على المسرح وشتونه ، أو من الأدباء الذين يحفلون بالنقد المسرحي ، ويعالجونه بأقلامهم بين الحين والحين ...

والسؤال الخائر يريد أن يستكشف المحصور الذي يدور حوله الشعر في المسرحيات ، والافق الذي يمتد إليه بالبحث والدرس ، والدور الذي يقوم به في التمثيلات . وهو سؤال ، وإن بدا للناظر العابر ، ذا صبغة فنية خالصة ، إلا أن ذلك لا يمثل في الواقع ، غير جانب واحد من السؤال الذي نستطيع أن نصوغه صياغة أشمل وأعم لمعناه ومرماه ، فنقول : ما هي علاقة الفن بالظواهر التي تبدو لأعيننا ، أو بتجارنا الحسية والعقلية والخيالية ؟

وفي الحق إن الرواية الثرية ، نظراً لبساطتها ، استطاعت اليوم أن تنزع الغلبة من الرواية المنظومة ، حتى لقد أصبح النظم وسيلة تعبيرية شاقة ، لا يستجيب لها غير الدر اليسير من الأدباء ، الذين يدركون أن التمثيلات الثرية ، في جوهرها ، لا تخلو من الغرابة والشذوذ ، عما ألفه المسرح التمثيلي في أزهر أيامه ، وأحفلها بالنتاج الفني الرفيع ؛ بل إنهم ليرون المسرحيات الثرية جهداً ضائعاً ، وكفاحاً لا يثمر ، في سبيل ابتناء قصور فوق الرمال .

ونحن إذا نظرنا إلى شخصيات المسرحيات المنظومة ، وجدنا الشعر هو البوق الوحيد الذي لا تستطيع أن تنطق إلا من خلاله ، لأن الشعر يعتبر قوامها ، الذي لا فكاك لها عنه ، ونسيجها الذي لا يمكنها الظهور إلا من بين ثيابه ؛ بل إننا لنحكم على تلك الشخصيات حكماً جائراً كل الجور إذا أردنا لها غير الشعر وسيلة من وسائل التعبير . فمثل هذه الشخصيات تفترق عن تلك التي تصادفنا في حياتنا

اليومية ، لأنها قد انصهرت في بوتقة التشذيب والتبسيط Simplification . ثم تعرضت بعد ذلك لتركيز ألوانها ، والمبالغة في أصباغها ، حتى غدت المواقف الأولية ، التي تحملها على أفوالها وأعمالها ، أكثر وضوحاً وجلالة ، عنها في الحياة الواقعية التي تضطرب في موكبها ، وتختلط علينا ظواهرها ، وتشابك أوضاعها ، وتتداخل ظلالها . وهذه العملية التي تنهض على التشذيب ، وتقوم على التبسيط القوي التي تتألف منها دوافع الحياة اليومية ، لا بد أن تسير في ركابها عملية أخرى ، يستحيل بها ما تواضعنا عليه في الحياة اليومية من أدوات تعبيرية سقيمة ، إلى صور بيانية رائعة كالاستعارة Metaphor والتشبيه Simile وغيرهما .

وإلى جانب ذلك فالشخصيات التي نستعرضها فوق المسرح ، تكون أقوى سحراً ، وأشد تأثيراً من الشخصيات التي تتألق في الحياة اليومية . . . ويعزى ذلك لما تمتاز به الشخصيات المسرحية من طابع منتظم ، ومظهر رتيب exaggerates shapeliness ، يعزز ما تموج به الحياة الواقعية من شخصيات يسودها اختلاط الطبع ، وغموض الطابع ، ومثل هذه الشخصيات ، بما تمتاز به من نظام وانتظام ، لا بد أن تفرغ حديثها في أسلوب تمتاز به هو الآخر ، ويسير جنباً إلى جنب مع مظهرها وطابعها . ومن ثم تتطابق في حديثها ، فإذا هو حديث يجري طبيعياً ، كما تجري الدماء في الشرايين ، فيتوالى في أوزان مضبوطة ، كما تتوالى الدماء في ضربات منتظمة ، ولسكننا نجد للنظم ، فوق ذلك كله ، وظائف أخرى في التمثيلات الشعرية . وسواء اتفق القاد الأديبون أم لم يتفقوا على أن انتظام الطابع في الشخصيات المسرحية ، وتركيز ظلالها ، يستتبعان امتنطافها شعراً ، فإننا على أي حال ، لن نجد بينهم من ينكر إمكان صياغة الرواية الناجمة بأسرها ، في قالب شعري خالص ، يخلو من الصنعة ، التي تجافي الذوق الأدبي السليم ، وتتفق مع تيار الحياة نفسها ، ومن ثم تزداد مقاومة الشخصيات لذلك التيار ، كما يزداد توجهها ، وتردهى ألوانها ولذلك فإن كل لفظة في التمثيلة المنظومة ، لا بد أن يحقق غرضين إثنين فيزيد الشخصية إيضاحاً ، وينقل الأحداث خطوات إلى الأمام .

أما الهدف الذي ترمى إليه التمثيلة ، فهو وصف أدواء الحياة ، والبحث في وسائل علاجها . . . وهي تجسم هذه المشاكل ، وترسمها في قالب واضح ، عميق الأثر . وهكذا تصبح التمثيلة وسيلة عميقة النفع في تصوير الحياة ونقدها .

وليس التعبير الشعري في التمثيلية ، بالنسبة للتجارب التي تصورها ، إلا كالتحرر
بالنسبة للكرم . ولذا نستطيع أن ننظر الى استخدام الشعر في التمثيلات كطريقة لتحقيق
طبيعتها الأصلية التي تكن وراء الفكرة Conception ، والتعبير expression .

والتعبير الشعري ، لا يهيء للفكرة الشعرية مجالا فسيحا لحسب ، بل إنه يتيح
لها ، الى جانب ذلك ، أن تصل من نفوسنا الى أغوار لا يصل إليها النثر ، مهما
كان حظه من البلاغة موفورا .

ولعل السر الغامض الدقيق في ذلك ، هو بعد ما بين الشعر والمظهر الخارجي
للحياة ، وقرب ما بينه وبين الرغبات الروحية التي تعتمل بين جوانحنا ، والتي
لا نستطيع أن نجد لها صدى حقيقيا في الحياة الواقعية .

ونحن نستطيع بعد ما تقدم ، أن نحمل الهدف الذي يتجه الشعر التمثيلي نحو
تحقيقه . . ذلك الشعر الذي يسرى في أجسادنا ، وأرواحنا ، وعمولنا ، فيوقظ منا
الحواس ، والعواطف ، والقوى المفكرة ، ويربط بيننا جميعا في اسجام عجيب ،
قوامه الشعور بالذات الذي يستحيل معه ذلك المصير الغامض ، الذي ينساق إليه
الإنسان في حياته ، إلى ضوء شامل عامر ، يستمد بريقه وبهاؤه من ذواتنا ، بل من
رغباتنا العميقة التي تستقر في أغوار نفوسنا .

فالتمثيلية الشعرية ، إنما ترمي إلى الكشف لسامعها ، عن مواطن السرور
في الحياة ، وعن القوى الكامنة في النفوس البشرية ، التي تيسر لها الحياة الرغيدة
الصافية ، بل إنها لتجعل تلك القوى حقيقة واقعة ، ماثلة أمام أبصارنا ، يتردد
صداها في آذاننا كلما خلونا إلى أنفسنا بين الحين والحين . . وجماع ذلك كله أن
الشخصيات التي نشاهدها فوق المسرح ، وهي تفرغ حديثها في أشعار طبيعيه ،
لا صنعة فيها ولا اصطناع ، إنما هي شخصيات تحفل شتى جنباتها بالحياة العميقة
المفعمة بالقوة والصدق في أوجهها ، ومن ثم فإننا لا نعجب حين نراها تواجه
المصير ، الذي يختاره لها الشاعر ، في عزه وشمم وإباء نمجدها جيا ، وتتمنى أن
يكون لنا منها قدر يسير حتى نحيا كها حين تتلاطم أماعنا أمواج الحياة ، حتى لنكاد
نفضل في مسارها المتشابكة ، وشعابها المتفرقة .

عجالات في الأدب

لغزيرة الأستاذ الشيخ كامل محمد عجمون

مدرس معهد القاهرة

كلما حلوت إلى كتاب من تراثنا الخالد وأدبنا الذي تعمق في القدم وجرى على أسلة الأقلام الفذة ، وتمحضت عنه النرائح التي يعتز بها تاريخ الأدب العربي والتأج الإسلامي . أجدني أمام مخلفات حية ولفات مشرقة تزيد على مر الأجيال صدقا ، وكأنما ألهم صاحبها أو كأن الغيب طوى له . فعبّر في أسلوب أو شرح حالجة أو صرف فكرة ، أو ألتي تجربة ، أو رسم معدا فيه هداية اليراعات التي تزيد النج في معترك المجتمعات السادرة ، والسارية في مهاب الحياة والأحياء وفي يثات مترامية كما شامت الأزيمة والامكنة .

والأقلام القديمة المقتة كان في أكثرها ظلال الاستطراد وشاهدنا وقلم الجاحظ ، وصناعته في (كتاب الحيوان) أكبر دليل ... وحتى الأوائل من مؤرخي الحياة الإسلامية والعربية نجد عند كثير منهم مزج الطرفة بالفكرة بالحظ الذي يهدف إليه المؤرخ ، وعندما نطالع صفحات من (مروح الذهب) بداخلك العجب والدهش ما دمت في صحبة (المسعودي) .

ولن أطيل ولن أرهق القارئ بنقل نصوص يضيق بها فراغ (الصحيفة) . غير أني بصدد التحدث عن (حوار) يلقاني وألقاه في كتب الأدب القديم ويعجبني ويملو لي أن ينفع كل مصاحب للتدأ من كتابنا به فإذا تدبرنا فن الحوار ووقفنا عنده طويلا وقارنا بينه وبين آثار من (يعاصرنا) من ضياع الحوار الذين نعدم في الطليعة المحدثمة المجددة نجد ، بل نشهد ، بل نصفق إعجابا للسبق الموفق والاستعداد القوى والموهبة عند (صاحب الاعاني) مثلا .

فأنت أيها القارئ الكريم إذا صحبته حين يتقص أخبار عمر بن أبي ربيعة في الجزء الأول ، وإذا خضت في مؤلفه وما جمعه عن امرئ القيس أو الفرزدق

ثم طریت الكتاب وعدت ثانية إلى قطع متجاوزة أو متباعدة من (الصباغة)
القلبية وجدت أبا العرج الاصفهانی يكاد يبلغ القمة في علاج الحادثة وإن صغرت
والفكرة وإن بلغت من القصر والایجاز مبلغا قد يلفت بعض القراء ، فقد يبلغ بها
مبلغ السحر والإعجاز من فرط اليسر والانتقال والامعان في التصوير الفني البیاني
وهو الذي لا یبارى في سبك الحوار واللباس الفكرة ما يمتلك في حفه ويزفك
في إطراب ويملك على جناح النشوة ، وهو نسیح وحده حين یقصر موقف
أمیر الشعر الجاهلی مع الفتيات اللاهيات في « دائرة جلجل » .

ولا یعننی هنا مبلغ ما فيها من مطابقة ما وقع لامرئ النیس ، ولكن الذي
لامرية فيه ، أن صاحب الأغاني ابتكر علاجاً جذاباً وإخراجاً محاوراً صادقا
للحياة الالهية اللاعبة حين یبغى أو تبغى الفتيان والفتيات الإقبال على الاستمتاع
باللهو في مفاصل المساء بصحراء العرب .

حتى إذا جدت الحياة الإسلامية ولعب الفرزدق وأمثاله أدوارهم في حل راية
الشعر في عواصم الهضة الإسلامية ، ووجدوا سابقات لامرئ النیس وأضرابه
فسولت لهم حبة الشعر والشعراء أن یظفروا بما لا ملهم من السابقین فقلدوا
أو كانوا على إصالة من وحی حياتهم .

ورأينا الفرزدق أو رأينا التاريخ یروی له كما روى لامرئ النیس .

ووجدنا صاحب الأغاني یقصر قصته ویقصر ما تعرض له الفرزدق
من قسوة الحسان .

ولكن الذي أريد الإشارة إليه هو التحايل والتجاوز في إخراج القصة
إخراجاً جميلاً موقفاً متمحواً وغالداً حتماً .

وكأنی بصاحب الأغاني قد راعى التناسق حين أراد أن یكتب (أخبار)
ففي قریش وشاعرهما (عمر بن أبی ربيعة) الذي طعم شعره بالحوار الشعري .

كأنی به راعى التناصب فطعم أغلب ما كتبه عن ذلك الشاعر تمايیر حوارية
كلما قص أقصوصة أو روى خبراً عن خروج الشاعر إلى الطائفة أو قفوله إلى
مكة في مصيفه أو مشناه في ملاعبه بین جواریه أو عادات السراة من قریش
وأعتقد أن تغلی (الشواهد هنا) لا مكان له لأن كتاب الأغاني في متناول كل
قارئ أدب أو دارس فن یؤرخ حياة الشعراء والأدباء .

وقد لا يروق القارىء الملم بالمكتبة العربية ، أن أعتمد عجائتي السارية المخفية التي أجعلها كنز الطائر العجلان .

قد لا يروقه أن أقف عند صاحب الأغاني ، ولذلك أبادر فأشير إلى قصص الأيام - وإن كان حوار من عاجلها إذ بعض ما جاء فيها من حوار لا يرتفع إلى صناعة « الأغاني » -

أشير إلى ملاحم العرب وإلى التفصص الذي جاء في تلصص منبت المثل وما نسميه مضربه ثم مورده وشاهدي كتاب الامثال للبيداني وغيره من مجاميع الامثال للؤلفين القدامى .

والذي لا خلاف عليه أن القرار أعلن بالقاص وأقرب إلى راوي الحادثة ، وإن كان لا يلزم في السرد .

والذي شاع وذاع أن الادب العربي القديم يخلو من القصة ولكن هنا أشير إلى أن أدبنا سبق بل هو سباق إلى وسيلة من وسائل التعبير الفني .

وفي ذلك دفاع تلقى به في وجه من يرى أقلامنا القديمة بالعمى . ولو انفتح باب القصة عند القدامى الاوائل لوجدنا الإجادة الكاملة عندهم غير متنازع عليها .

ولا نريد هنا أن نستدل بما جد في أواخر الدولة العباسية أو بما راووه الاندلسيون أخيراً من قصص ، فذلك ليس من هنا في هذه العجالة .

وفن المقامة رغب الناس عنه لأنه خرج في ثوب « لغوى » لا يروق إلا من تريد حصيلة من الالفاظ اللغوية .

وليس ذلك لحسب ، وإنما أغفل وفرة حظ المرأة في صميم الحياة هنالك . ولهذا فإني أعذر من يشيخ عن المقامة ، إذا أراد أن يجد فيها صدق ما يجده عند صاحب الأغاني وأمثاله من كل مؤرخ أو راصد لاحداث جدد في معترك الحياة السياسية أو الأدبية أو الاجتماعية .

وهنالك في المكتبة العربية كتب طريفة تعرضت لحياة الظرف والطرفاء ، وإلى مفارقات لازمت « الحق والمفقلين » ، ومضحكات من (البخلاء) و (المتماجين) وغير ذلك من مضطربات الجوارى وكبار المفتين من المفتين ، ولعلى أجد فسحة من الوقت فأعود إلى تفصيل واستشهاد في عجائتي التالية .

أسلحة القتال عند المسلمين

لعمدة هاشم محمد إبراهيم

مدرس الآداب بمعهد القاهرة

كانت أسلحة القتال عند المسلمين على نوعين : السلاح البرى والسلاح البحرى وكانت العناية موجهة الى النوع الاول بصفة خاصة وإن لم يحرم النوع الثانى خلال معظم العهود من العناية الكاملة وكان السلاحان يسيران سنة التقدم والتطور ويخضعان لتقدم العلم والحضارة .

كان الخلفاء يسخون فى إمداد الجند وإعدادهم بالعتاد الحربى والمؤن الوفيرة . وكان الجيش البرى يتألف من الفرسان والمشاة وكان الفرسان يتسلحون بالسيوف والرماح والدروع - أما المشاة فكان عتادهم الحراب والأقواس والسهام والدروع . وكانت هذه الأسلحة هى المستعملة عند العرب قبل الإسلام وعند غيرهم أيضاً من معظم شعوب العالم .

وقد استعمل المسلمون المنجنقات وكان أول من رى بها فى الإسلام الرسول عليه السلام عند ما طارد فلول ثقيف إلى الطائف حيث اعتصموا بالحصون ، ورموا المسلمين بالنبال من فوقها (والمنجنق : أداة ترمى بها الحجارة إلى مسافات بعيدة وارتفاع كبير) .

كذلك سير الرسول إليهم الدبابات وهى من آلات الحرب ، وكان المحاربون يدخلون فى جوفها ويدفعونها إلى الحصن ، فيقبضونه وهم فى داخلها يحميم سقمها وجوانبها من أسلحة العدو - كذلك استعمل الرسول الضَّبُور وهى مثل الدبابة تقريباً ، تصنع من الخشب المغطى بالجلد ، ويمكن فيها المهاجمون ويهربونها للحصن اقتال أهله وهم فيها وهى تشبه إلى حد كبير السيارات المدرعة اليوم .

وقد لعبت هذه الآلات دوراً عظيماً فى الفتوحات الإسلامية ، وكان الرماة أهم فرق الجيش البرى - فقد كانوا فى المقدمة لصد هجمات الفرسان بالرماح ،

وكانوا يرتدون أقبية قصيرة متدلية إلى تحت الركبة وسراويل ونعالاً ومن خلطهم يقف المشاة في صفوف متراسة ، وكان المراسلون يلبسون الدروع والحدود المصنوعة من الصلب والمحلة بربيش الفسور .

وقد أثر اختلاط العرب بالفرس والروم وغيرهم في تحسين نوع الأسلحة وفي تنظيم الجيوش الإسلامية ، ولا يرجع تفوق العرب على أعدائهم إلى الأسلحة التي استعمالوها بحسب بل إلى ما امتازوا به من النشاط والخفة وسرعة الحركة والصبر على تحمل الشدائد والحاس الديني وبذل النفس .

وقد أورد المسعودي في كتابه مروج الذهب ج ٢ ص ٣٠٧ بعضاً من الأسلحة الحربية التي استعمالها جند المأمون العباسي عند حصارهم بغداد ، ومن هذا الوصف تبين أن الجند كانوا يحاربون وفي أوساطهم النابيين (والنشيان : سراويل صغيرة مقدار شبر يستر العورة المغلظة) والمثازر (الإزار : كل ما يستر الجسم) ويغطون رؤوسهم بالحدود ، واتخذوا الدرق من الحدوص (الدرق : هي نرس من الجلد ليس به خشب) واتخذوا البوارى (البورى أو البورية : الحصار المنسوج من القصب وهو فارسي معرب) وقد طليت بالقطار وحشيت بالرمل والحصى . على كل عشرة من المقاتلين عريف ، وعلى كل عشرة عرفاء نقيب ، وعلى كل عشرة نقيب قائد ، وعلى كل عشرة قواد أمير ، ولكل مرتبته .

وكان عرض الجيش جزءاً من تدريب الجند في أوائل عهد الدولة العباسية بخاصة في عهد أبي جعفر المنصور الذي اهتم بالجيش اهتماماً كبيراً وكان يجب أن يعرض جنده وهو جالس على عرشه لابساً خوذته ، ولما ولى المنوكل الخلافة العباسية أمر الجنود بتغيير زيهم القديم ، وألبسهم أكسية رمادية وأمرهم ألا يجعلوا السيوف على أعناقهم ، بل يضعونها في مناطق حول وسطهم .

وانتدأ أنشأ العباسيون الحصون على تخوم الدولة الإسلامية وهي الثغور وهذا نوع من أنواع الشؤون الحربية التي تدل على نشاط المسلمين ، وقد كانت حدود سوريا المتاخمة لآسيا الصغرى مصدراً للخطر بالنسبة للعباسيين من جيرانهم الروم لذلك أقيمت هذه الثغور وهي طرسوس وأذنة والمصيصة ومرعش وملطية . وكانت هذه الثغور يتناولها العباسيون أحياناً والروم أحياناً أخرى أثناء الحرب .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَيْسَ مِنْ هُنَا نَبْلُ

نعود إلى نقد ما تصدينا له من كتاب الأستاذ خالد محمد (ليس من هنا نبداً) فنقول بعد الاطلاع على ما كتبه في الاشتراكية وفي تفصيل ما يجنيه الأجانب من ثرواتنا.

اطلع الأستاذ كما اطلع غيره على أعمال الأوربيين وتقانيهم في الذهاب بعلومهم ومدنيتهم إلى الغايات البعيدة، وإلى ما يحملهم ذلك على الاحتكاك بالشرق للاستفادة من ثرواته التي أهلها أهلها، بل التي يحولونها، ودرس بعض أساليبهم في الاستيلاء عليها، رأى ذلك كله فآثر في صميم قلبه، كما يؤثر في صميم قلب كل وطني يحب لبلده، وفي لقومه؛ فشرع يهيب بهم إلى الاستفادة من خيرات بلادهم، وكف يد الأجانب عنها، ولم يدع وجهاً من وجوه التأثير في إيقاظ العزمات إلا أتى عليه في عبارات بليغة، وصراحة جريئة.

ونحن نحیی في هذه النزعة الشرقية، ولكننا نرى أن ما كتبه يضر أكثر مما ينفع، فإن الأمم لا تنهض من سباتها بالكتابة، ولكن بالعمل، ولا تسير إلى أغراضها طغوراً، ولكن تدرجاً، وفي أزمان مناسبة، لا في عشية وضحاها؛ فهل يشب الطفل إن ذكرت له مزايا الشيبية، أو يُبل العليل إن سردت عليه مُشع الصحة؟

إن الأوربيين وصلوا من العلم إلى آفاق بعيدة، واستحدثوا من الآلات ما يمد أمامهم كل العقبات التي تصادفهم، فيستطيعون أن يحفروا منجاسع عشرات العمال لاستخراج معادنه الثينة بواسطة آلاتهم الحديدية القوية، قبل أن يستطيع غيرهم أن يحفروا ساقية صغيرة. أضف إلى ذلك أنهم درسوا أنواع المعادن المكنونة

في باطن الأرض ، وعرفوا كيفية استخراجها واستخلاصها مما علق بها ، وعلوا مزايها وفوائدها ، وطرق استخدامها ، واشتدت حاجتهم إليها ، وتحققوا أنها توجد في بلاد غير بلادهم . فأبى طريق يسلكونها غير استئذان الأمم التي تملك الأراضي التي توجد في باطنها ، في أن يتولوا استخراجها والاتفاع بها إزاء دفع قدر من المال يتفقون عليه بينهما ؟

في هذه الحالة لا يسع الشعوب المستضعفة إلا قبول ما يعرض عليهم لشعورهم بعجزهم عن القيام بالاستفادة منها ، فيرون أن الاتفاع بمقابل استغلالها خير من تعطيلها . فإذا كان من حق أهل العلم من أبنائها التأثير من اتفاع الغير بها دون قومهم ، فمن واجبهم أيضاً أن يعرفوا أن الضن بها يعرض استقلالهم للخطر ، فإن الأمم القوية لا تقدم وسيلة لإخضاعهم لإرادتها ، وفي هذا ما فيه من العدوان على وجودها . فينحصر الواجب والحالة هذه على هؤلاء الفيورين أن ينصحوا أقوامهم باتفاق ما يستفيدونه من إيجارها في إنهاص أمهم من كبواتها بلشر التعليم في جميع طبقاتها ، وإرسال النباه منهم إلى البلاد الأوربية لتلقى العلم والتفهم في الصناعات المختلفة ، حتى إذا آبوا إلى بلادهم زعوا لتطبيق علومهم وصناعاتهم على العمل ، وعاونوا حكومتهم على الاتفاع بخيرات بلادهم ، واستغلال ثرواتهم الطبيعية .

ولكن مؤلفنا الأستاذ خالد خالد لم يسلك هذه الطريقة ، وعمد إلى التمسك على تلك الأمم الى تسمع للأجانب باستئثار خيرات بلادها ، وتقف هي مكتوفة الأيدي إزاءها . فهل كان يمكنها أن تقف هذا الموقف وهي تعرف الوسيلة لاستغلالها ؟ إن الأستاذ خالد أكثر في كتابه من مثل قوله :

« نحن نعيش في عصر ليس للحكومات فيه رسالة سوى تحقيق المنفعة الاجتماعية للشعوب ، وإزاحة كل العوائق التي تعترضها ، وقصدها عن عايتها المقدسة .

« أما عندنا فن الخير أن نعرف بأن جماعة من أصحاب المصالح الكبيرة . وكثيراً ما يكون بعض الوزراء من أعضاء هذه الجماعة ، يتربصون بكل وعى حر ، وكل محاولة عادلة ! ولعلنا لم نفس بعد ، الصراع الشاق الذي دار بين حكومة النقراشي باشا والجماعة المذكورة بشأن الضريبة التصاعدية .

« هؤلاء المواطنون ، وإنا لندعو أن يقدروا جلال هذا القلب ، ويحفظوا لأنفسهم معناه - يلعبون بالنار ، ويتحملون مسئولية مباشرة في كل جريمة ترتكب ضد سلام المجتمع وسلامته ، وأن الشريعة الإسلامية التي يحاولون استغلالها لحماية مصالحهم تعتبرهم شركاء أصليين في الجريمة » ونحن نقول :

ماذا نفيد هذه العبارات في إصلاح عوج قائم على أسباب قوية ، وهي الجهالة المنتشرة ، والوطنية الضعيفة ، والعلل الاجتماعية التي لا تصادف علاجاً شافياً ؟

الأولى من كل هذا أن يتولى الأستاذ الناس بالعطف ، وأن يدلهم على طريق الخير ، وأن يثبت لهم أن الطفرة محال ، وأن التدرج في سبيل العمل لا بد منه . ذلك لأنه حيال جماهير ولدت في بيئات خالية من جميع عوامل التربية الشعبية . نعم ، كغيرهم من الأمم التي تراحهم ، ولكن هؤلاء لم يبلوا بما يلي الشرقيون من الجماعات المستعمرة ذات الوسائل السحرية في تدويع الشعوب ، وتكريتها من جميع مرافق الحياة .

فالوسيلة الوحيدة لحفظ حياة هذه الشعوب هي أن نعمل إلى تثقيف أبنائها ، وتخليتهم بجميع ضروب المعارف لتكوين روح شعبية قوية . ومتى وجدت هذه الروح اندفعت للعمل على إيجاد مطالبها ، فتدخل والمطامع الاستعمارية الخارجية في تطاحن مستمر بجميع وسائله المعروفة . ويكون لها الفوز في النهاية ، إن لم يكن بكل ما تريد . فبأكثره ، ثم تكرر كرة أخيرة فتحصل على الباقي منه حالصاً غير مشوب . هذه هي الطريقة العملية لاسترداد الشعوب الضعيفة لاستقلالها ، وإقصاء الشهوات الاستعمارية التي تراحها في وجودها عنها .

فإذا ألقينا الآن نظرة فاحصة على الشعوب الضعيفة التي يستغل المستعمرون أراضيها ومعادنها ، وجدناها تنفق ما تحصله من إيراداتها - وقد تكون ضخمة - على شهوات قادتها ورؤسائها ، مهملّة في سبيل ذلك كل ما يتعلق بتثقيف أبنائها تثقيفاً عالياً يدفعهم للعمل بعلومهم ، فإن لم يوجد ، فإن ثقافتهم تدفعهم للعمل على إيجاده ، ولا تستطيع أن تقف في وجوههم قوة . نعم إنهم قد يصادفون عقبات جمة ، ولكنهم لا يزالون بها حتى يجتازوها ، ويحصلوا على خيرات بلادهم كاملة غير منقوصة .

الاشتراكية : أرى أن مؤلفنا خالد أفندي محمد قد أولع بالاشتراكية ، فروى عن أبي ذر صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : عجبت لمن لا يجد القوة في بيته ، كيف لا يخرج على الناس شاهراً سيمه . ونحن نستبعد أن يكون أبو ذر الغفاري هو قاتل هذا البيت ، لأنه من أبعد الأقوال عن التعاليم الإسلامية ، ومن أقربها إلى صميم الجاهلية ، وقد عقب خالد أفندي على هذا القول بقوله :

« إنني رغم إعجابي الشديد بأبي ذر العظيم ، لا أتمنى ذلك الذي تمناه ، وهو أن يخرج الجياع شاهرين سيوفهم . وإنما أتمنى شيئاً آخر يسير التحقيق والتنفيذ لو وجدت الحكومة المجهزة بالإرادة والعزم ، وهو أن لا يوجد بيننا جوع ولا جوع ، ولنا على ذلك لقادرون إذا اتجهنا منهجاً اشترائياً صحيحاً شاملاً . . . قرأنا هذا وعجبنا كيف يطالب قوما بأن يتمذهبوا في شؤونهم المالية بمذهب لم تتأد إليه معضلاتهم التعاملية ، ولم تقتض مشكلاتهم التعاوضية ، وهل هو يرى أن تقوم الحكومة بفرض الاشتراكية على الناس كما تفرض عليهم القوانين وتحملهم على العمل بها وتجازي من يشذ عنها منهم ؟ »

إن النظم الاشتراكية لم يفكر فيها القائلون بها إلا بعد أن اصطدمت أعمالهم المالية في عقبات كأداء ، لا تحل إلا بأحداث انقلابات أساسية في موضوع توزيع الثروة العامة ، وهذا عرض لا يحدث إلا بعد أن تكون الشؤون المالية قد تعقدت بحيث لا يحلها إلا أن تدخل في نظام جديد مبتكر ، فهي علاج لاشكالات طرأت لا ترقية لأساليب قدمت ووهنت .

ومن الغريب أن الأستاذ يقول بذلك في بلد لم يرد على بال المشتغلين فيه بالأمور المالية أنه سيأتي يوم يكون فيه التبادل من أعقد المسائل ، ويحتاج إلى حلول من أعقد ما فكر فيه المفكرون في الشؤون الاجتماعية .

وهل يرى الأستاذ أن من الحكمة أن يحول نظامنا التعاملى إلى اشتراكي دون أن نشعرنا بالأحوال الطارئة بوجوب التفكير في إصلاحه ؟ وهل يصح أن تتوسل بالإهابة بالناس إليه ، ووجوب تعويلهم عليه ، وسوادهم الأعظم لا يعرف عنه شيئاً ؟

هذا ومن العجيب أن الأستاذ المؤلف يقول :

« والآن ، وقد استبان لنا أن الخبز هو السلام ، وأن مرد كل تأخر وانحيار

وتذمر إلى الفقر وما يعاينه الشعب من خصاصة وحرمان . فقد آت لنا أن نضع
أقدامنا على الطريق الذى يفضى بنا إلى الغاية النبيلة التى يتحقق ببلوغها معنى وجودنا
وحياتنا ، فأين هذا الطريق . . ؟

« لا شئ سوى الاشتراكية » .

ثم يقول :

« لقد انعقد إجماع العالم المتحضر كله ، على أن النظام الذى تبلغ به المفمة
الاجتماعية حدها الأقصى فى الوقت الحاضر هو الاشتراكية - ويتجلى هذا الإجماع
العالمى الرشيد فى أخذ الدول الناهضة (جميعها) بهذا النظام ، وتطبيقه على مجتمعاتها
تطبيقاً قد تختلف وسائله ، ولكنه فى شتى مظاهره يفضى إلى غاية واحدة ، وإن
مواكب الأمم الراقية لتتخطف الأبصار وهى سائرة فى طريقها إلى قم الاشتراكية
العليا دون أن تنهم نفسها ، أو يتهم بعضها بعضاً بتلك التهم المعروفة التى تملك
منها رصيذاً ضخماً » .

نعم من العجيب أن يقول كاتب مسئول مثل هذا القول ، وكل الناس يعلمون
أن أساس الاشتراكية أبطال الملكية الفردية والوراثة ، ولا يوجد شئ من ذلك
فى أية أمة من الأمم الأوروبية غير التى وقعت بعد الحرب داخل السور الحديدى
وهى بولونيا ونحو نصف ألمانيا وبلغاريا ورومانيا ويوغوسلافيا والباينا ، وهذه
الأمم اضطرت الى ذلك بما جرت إليه الحرب العامة الأخيرة من أحداث . أما الدول
الكبرى الأخرى فليس بينها وبين الاشتراكية أية صلة ، وكل ما حدث فيها من
أحداث فهو اعتمادها على طريقة الضمان الاجتماعى فى ضرب الضرائب الكبيرة على
ثروات المثرين ، وتدارك حاجات العمال والمحتاجين مما تحصله منها . فنجحت هذه
الوسيلة نجاحاً عظيماً ولم تلق الدعوة إلى الاشتراكية فيها نجاحاً يذكر ، إذ لم تصل
نسبة عدد نوابهم فى المجالس النيابية إلى أكثر من الخمس ، وهى نسبة لا تقرهم من
الحكم ولا تطمعهم فيه . وإذا كان الأمر كذلك ، وهو ظاهر مكشوف ، فلا يصح
أن يبالغ مؤلفنا فى نجاح الاشتراكية إلى الحد الذى وصل إليه فى كتابه الذى
بين أيدينا ؟

محمد فريد وهبى

التفسير

لمحاضرة صاحب الفضيلة الشيخ عبد المنعم أحمد النمر

المدرس بالأزهر

قال الله تعالى : « إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ، ولا تكن للخائنين خصيما » .
سورة النساء ١٠٥

أستعين بالله الذي أنزل الكتاب وهو يتولى الصالحين ، وأستمد منه التوفيق فيما عزمت عليه من موااة هذه المجلة بما يتيسر لي من الكشف عن بعض معاني وأغراض القرآن الكريم ، متفلا بين آياته مختاراً منها ما يكون أوفر اتصالاً بحياتنا وأكثر مساساً بمشاكلنا ، معنيا بالمعنى والغرض العام للآية ، أكثر من عنايتي بمباحثها اللفظية ، ومكتفياً في ذلك بما يفتح لنا الطريق إلى المعنى ، تاركا التفاصيل والأوجه البلاغية والتحويلية وغيرها إلى كتب التفسير التي وجهت إليها جل عنايتي ، والله يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم .

المفردات :

« بالحق » ، متلماً بالحق مشتملاً عليه ، فهو نازل من عند الله حقيقة وليس سحراً ولا كهانة ولا من أساطير الأولين ، كما أنه مشتمل على الحق من حيث المبادئ والأحكام والقصص ، فهو كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير « متشابهة مثاني » ، لم تزده الأيام ومكتشفات العقول إلا عظمة وروعة ، ولعل ما

يكشف لنا عن هاتين التاحيتين في تفسيرنا « بالحق » قوله تعالى . « وبالحق أنزلناه وبالحق نزل » .

« بما أراك الله » بما عرفك الله إياه بما أوحى به إليك ووجهك إليه من نظر جبار على سنن الوحي ، وليس منه الميل مع الهوى والعصية .

« ولا تكن للنحاثين خصيما » مخاصما ومجادلا ومدافعا عنهم .

نتناول هذه الآية من النواحي الآتية :

(١) صلتها بما قبلها . (٢) سبب نزولها . (٣) القرآن والحكم . (٤) الرسول والعمل بالرأى ، وهل يجوز عليه أن يحطى . (٥) الدفاع عن الجناة وموقف القرآن منه .

(١) ساق الله قبل هذه الآية ، آيات كثيرة تحض المؤمنين على قتال الكفار وترسم لهم الطريق إلى المحافظة على العقيدة بقوة الاستعداد ، وتوضح لهم ما ينتظر المؤمن المجاهد من ثواب الدنيا والآخرة ، ولقد كثرت الحديث عن هذا كثرة ربما تدفع المؤمنين إلى الاستهانة بالحق إن كان في جانب المخالفين ، وتجعلهم يفرطون في إقامة العدل إن خرج نطاقه عن المسلمين ، وجاءت حادثة كشفت عن نفوس تدعو إلى عصية إسلامية تطمس الحق وتحرف العدل وتظن أن اتفاقها في الدين مع الحاكم - وهو الرسول - يحلها من إثمها ويحمل الرسول على التعصب لها ضد الآخرين الذين ليسوا على دينهم ، ولو كان في جانبهم الحق ، فكان من المناسب إذن - بعد آيات الجهاد والقتال والضرب على يد الأعداء المخالفين - أن يذكر الله هذه الآية التي تجعل الحق والعدل هو الأساس الذي يبنى عليه كل حاكم وحكمه وملكه ، حتى يضرب صفحا عن باقي الاعتبارات ، نعم ! ليس الحق هو المعبود الذي تتجه إليه القلوب ! وهل يمكن أن تقوم الدولة إلا على قوة السواعد وقوة النفوس ؟

وأما الحادثة التي كانت السبب في نزول هذه الآية ، فقد ذكر المفسرون روايات

إن اختلفت في بعض أشخاصها ، فإنها لم تخرج كلها عن موضوع متقارب : رجل من المسلمين سرق درعا من مسلم آخر ، ولما وجد أن أمره سيفتضح ، عمل على التخلص من جانيته ، وحاول أن يلصقها بغيره ، وهذا الغير على أكثر الروايات يهودي ، وتجمع المسلمون من أسرة السارق يحاولون نفي التهمة عنه عند رسول الله ، ولإصافها بهذا اليهودي ، مستغلين في ذلك العصية الدينية ، فهم مملون يشهدون ببراءة صاحبهم وإدانة اليهودي الذي لا يدين بطاعة الله ولا لرسوله ! بل إن بعض الروايات تقرر أنهم ذهبوا إلى أبعد من هذا ، وأنهم صارحوا الرسول بغيبتهم ، وكشفوا له عن عصيتهم مع شهادتهم ، أي أنهم استعانوا على إخفاء الجاني بشهادتهم له ، وإثارة العصية الدينية ضد اليهودي الذي ألصقوا به التهمة ، ولا نفى أن الرسول بشر له الظاهر ، وأنه يميل بطبعه للمسلمين أتباعه وأنصاره ، ويفترض فيهم الصدق ، ويجب أن يكونوا بعيدين عن هذه الخيانة ، فربما تجمع ذلك كله أمامه ، ومال به إلى إصدار الحكم على اليهودي ، فأنزل الله هذه الآية الحكيمة التي تقرر مبدأ من أسس المبادئ التي يقوم عليها صلاح الحاكم والمحكوم ، وهيبة الحكم وسلامة الدولة : العدل والحق يجب ألا يحجبهما غبار الأرض ، ولا يشوه من جلالها شهوة أو عصبية ، كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين .

ما أسعد المجتمع حين يأخذ بهذا المبدأ ، ويرجع الحاكم إلى الكتاب ليحكم به بين الناس !! .

• • •

نعم ، فالقرآن لم ينزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ليتعبد هو والمسلمون بتلاوته فقط ، ولم ينزل ليثبت في نفوسهم الصبر والسكينة والموعظة فقط حين يتص أخبار الماضين ، ولم ينزل ليأخذ المسلمين ببعض العبادات والفضائل فقط . بل نزل بهذا كله ، وتنظيم الحياة ووضعها على أسس فاصلة لخلق مجتمع سعيد ، ورسم خطوطاً عامة ، بل وخاصة لهذا المجتمع ، وجابه طوائف النفوس بما يصلحها ويقومها ، ووجه الرسول صلوات الله عليه والمسلمين توجيهات مفصلة ، استطاعوا على ضوئها أن يقيموا دولة الإسلام العادلة فوق أنقاض امبراطوريات شاخت ، وسرى فيها الفساد .

وهل كان الرسول صلى الله عليه وسلم حاكماً؟ سؤال تردد كثيراً وزاد ترداده في هذه الأيام التي اشرأبت إليها أعماق كرام المسلمين يوجهون قافلتهم إلى النور الذي يشع من كتابهم ليعيشوا تحت ضوئه وفي رحابه .

لقد رأينا بعض العلماء يقولون ~ هوى في نفوسهم نعرفه ~ : ما كان الرسول صلى الله عليه وسلم حاكماً ، ولئن باشر الحكم ، لقد كان ذلك من ضرورات المجتمع الذي وجد فيه . أى كما تحكم الضرورة على شيخ القبيلة أن يحكم بين أفراد قبيلته . ولقد نسي هؤلاء أو تناسوا كثيراً من آيات القرآن الصريحة التي تلم الرسول صلى الله عليه وسلم بالحكم بما أنزله الله عليه ، وتنبه المسلمين في شدة إلى النزول عند حكمه والتسليم لأمره ، ولا أدري كيف غفلوا أو جار لهم أن يتغافلوا عن هذه الآية التي معنا ، وعن آيات كثيرة نذكر بعضها هنا :

« وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذروم أن يفتكوك عن بعض ما أنزل الله إليكم » (١) « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً » (٢) وهذه الآيات التي نزلت تبين حكم السارق والزاني والقاتل وقاطع الطريق ، وتعرض لشئون القتال من إعلان الحرب وتنظيمها . والاستعداد لها . وإعلان الهدنة ، ونقضها ، والتصرف في المال ، وغير ذلك من شئون الحياة التفصيلية . هل تعرض لها القرآن وشغل بها الوحي والرسول صلى الله عليه وسلم عبثاً ، ولتلوها وتغنى بها ؟ أو أنه أتى بها للتنفيذ والتطبيق ، وقام الرسول صلى الله عليه وسلم فعلاً بتنفيذها وتطبيقها ١١٩

لقد باشر عليه الصلاة والسلام شئون الحكم في الحرب والسلام ، في الداخل وفي الخارج حينما راسل الملوك ، وكل هذا كان بتكليف من الله سبحانه وتعالى لاختضوعاً للضرورة ، كما يقول بعض الأدعياء !!

إن أية حكومة تحترم نفسها لا ترضى أن تسن قانوناً وتضع نظاماً ولا تنفذه

ولا تطلب من الناس تنفيذه ، وهل يعقل أن تصدر حكومة رشيدة أو مستبدة أوامر لا تحب تنفيذها وطاعتها ؟ وهل يمكن أن تقوم هذه الأوامر وهذه النظم إلا على يد حكام يرعونها ؛ وهل يصلح الناس فوضى لا سراة لهم ؟ إن من العبث بل والعته ، أن نقرأ هذه الأوامر القرآنية فننظم شئون الحياة العملية في كل ناحية ثم نقول : ما للقرآن والحياة ، والتحكم في توجيهها ، وما للدين والسياسة ؟ فكرة خلقها ورعاها حكام سفهاء ظالمون ، كرهوا أن يعيشوا بمقاييس الإسلام الفاضلة ، وأن يأخذوا أنفسهم بها أمام رعييتهم ، وأحبوا أن يحبوا كما يريدون ، وكما تملى عليهم شهواتهم ، فعملوا على أن يقتلوا في رعييتهم روح المراقبة الإسلامية الفاضلة التي تضع الحاكم والمحكوم تحت سلطانها ، فشطروا الدين شطرين : جعلوا لأنفسهم شطراً هو السياسة ، وللناس شطراً سموه الدين ، فللناس دينهم ، من عبادات وتہجدات في المحاريب ، وللحكام شطرم الذي لا يتدخل فيه أحد غيرهم ، ولا يخضع طبعاً - حسب منطقهم - لمراقبة الإسلام ١ وما للإسلام والسياسة ٢ ؟ ولقد استطاع أرباب الهوى والسلطان أن يركزوا هذه الفكرة في نفوس الناس على مر الأزمان ، حتى أصبح رجل الشارع المؤمن بكتاب الله إيمان العوام يقول ما للدين والسياسة ؟ ولقد قوى هذه الفكرة في البلاد الإسلامية أخيراً أن المباشرين لأمورها ، والمسئرين لأعمالها تربوا تربية غربية ، وتثقفوا ثقافة أوربية تقوم هناك على فصل الدين عن الدولة ، وهم بالطبع متشبعون بهذه الفكرة ، كما تشبعوا بغيرها من الأفكار الغربية الاستعمارية ، وساعدتهم على هذا بعدم عن الثقافة الإسلامية الصحيحة .

إن شعوب المسلمين وحكامهم في حاجة إلى أن يفهموا أن السياسة التي رسمها القرآن للحياة هي أفضل وأسمى سياسة ، وأن نهضتهم مرهونة بإحياء روح المراقبة الإسلامية في نفوسهم التي جعلت واحداً من رعية عمر رضى الله عنه يقول له في ملا من المسلمين . لو أخطأت يا عمر لقولناك بحد سيوفنا .

ولم يغضب عمر ، بل حمد الله على هذه الروح الإسلامية العالية التي جعلت في رعيته من يقول له هذا الكلام .

فهم في آية

لفقيه الأئمة الشيخ محمد محمد المدني

يذكر المفسرون في معنى قوله تعالى في سورة الفرقان : « قل ما يعبا بكم ربى لولا دعاؤكم فقد كذبتم فسوف يكون لزاما ، عدة آراء ، بعضها في معنى « ما » وهل هي استهامة على معنى أى اعتداد يعتد بكم لولا دعاؤكم ، أو نافية على معنى لا يعبا الله بكم لولا دعاؤكم ، وبعضها في معنى « دعاؤكم » وهل المراد به العبادة أو الالتجاء إلى الله والطلب منه ، أو الشكر له ، أو الدعوة إلى الدين الحق ، وهو الإسلام ، وبعضها في المراد بقوله « فسوف يكون لزاما » ؟ .

وأحسن ما تحمل عليه الآية في رأي أن « ما » نافية ، و « دعاؤكم » بمعنى دعوتكم إلى دين الحق ، والمعنى : أن الله لا يعبا بكم وليس لكم أى شأن معه ، ولا أى تدبير فى ملكه ، ولكنه إنما يضرب لكم الأمثال ، ويبين لكم الآيات والبراهين من أجل دعائكم إلى الحق ، ويبينه لكم ، لئتم عليكم الحجة ، وبهالك من هلك عن بينة ، ويحيى من حى عن بينة ، وهاتم أولاء قد كذبتم فسوف يكون أثر تكذيبكم لزاماً عليكم يوم القيامة ، فلا تستطيعون منه تخلصاً ، ولا تزعمون أنكم كنتم عما أنذرتهم به غافلين .

إن من يشتغل بالقرآن الكريم ، ويتدبر معانيه الشريفة ، وأساليبه الحكيمة وأهدافه التى يرمى إليها ، يرى أنه شديد العناية ببيان الحق ، واجتذاب القلوب والعقول إليه ، وأنه يسلك إلى ذلك كل سبيل من شأنه أن يلفت الأنظار ، وينبه الغافلين ، فتارة يضرب الأمثال بما خلق الله من الكائنات ، وبما أودعها من قوى وبما سخرها للإنسان ، وتارة يذكر ما أمد الله به الناس من نعم ، وما أفاضه عليهم من فيوض الرحمة والإمداد ، وتارة يخوفهم من عذابه ، ويحذروهم من شديد حسابه وتارة يرغبهم فيما عنده من منافع دائمة لا يزول ولا يحول ، إلى غير ذلك

من المعاني التي ينتقل القرآن بين معانيها ، ووضعت في تصويرها ، واجتذاب الناس إليها .

قد يفهم من ذلك بعض ذوى العقول الضعيفة من أهل الكفران والعصيان ، أن الإنسان شيء له قيمة بجانب الألوهية ، وأن الله - جل وعلا - ما حفل به إلى هذا الحد ، فأفاض في الحديث إليه ، وضرب الأمثال له ، إلا لأنه مفتقر إلى عبادته ، حريص على أن يطوعه له لغرض يعود إليه ، فالله سبحانه وتعالى يبين هؤلاء الذين لا تخلو البشرية من نظرتهم الخاطئة ، التي توسوس بها إليهم شياطينهم ، أنه إنما يحفل بهم ، ويعتد بشأنهم ، لمنفعتهم هم لا لمنفعته ، فإن حاجة الإنسان إلى هدى الله وبيانه وأخذة بيده إلى الصراط السوى في المعرفة والعمل ؛ ليست أقل من حاجته إلى الطعام الذي يقيمه ، والشراب الذي يحييه ، والهواء الذي يتنسمه ، ولو أن الله سبحانه وتعالى ترك الإنسان ونفسه ، فلم يرسل إليه الرسل ، ولم ينزل له الكتب لاضطرب في هذه الحياة أمره ، واختل ميزانه ، حتى ينتهي به هذا الاختلال وذلك الاضطراب إلى الفناء العاجل .

إن العقول متفاوت ، والآراء تختلف ، وما يراه قوم من الناس حسناً قد يراه آخرون قبيحاً ، لاختلاف البيئات وما يحيط بالناس من أسباب ظاهرة أو خفية تؤثر في آرائهم ، وتلعب بعقولهم ، بل إن الرجل الواحد قد يرى في وقت ما رأياً ثم يرى في وقت آخر خلافاً ، فتتغير نظراته ، تبعاً لتغير الأسباب التي يعملها أو لا يعملها ، فإذا لم يكن للناس موازين وضوابط ينتهون إليها ، وينزلون على أحكامها فإن الخلاف بينهم يشتد ، والآراء تكثر ، وتكثر تبعاً لها عوامل النفرة والقطيعة .

ولو أردنا أن نتصور حال البشر دون أن تنزل عليهم هداية الله ، فأتينا نمثل ذلك بحال قوم نشأوا في بادية منقطعة عن العالم لا يتصلون بأحد ولا يتصل بهم أحد ، وليس لديهم من أسباب العلم والحضارة شيء ، أليس هؤلاء يعيشون ما عاشوا هملاً لا يفقهون شيئاً ، ولا يدركون إلا ما يلمسونه بأيديهم ، ويرونه بأعينهم ، فإذا فرضنا أن الأمد طال بهم على هذا النحو فانهم لا ينتقلون في أطوار المعرفة والادراك الصحيح إلا انتقالاً بطيئاً لا يكاد يدرك ، فالبشرية - لولا الهداية

الربانية - مثلها كمثل هؤلاء القوم ، تمر عليها الدهور والأزمان دون أن تتقدم في مدارج الرقي والكمال ، ولو تقدمت لكان تقدمها بطيئاً بطيئاً ، ولعلنا نلح هذا المعنى في قوله تعالى : « هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبثليه فجعلناه سميعاً بصيراً إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً » .

فهذه الآيات السكرية تشير إلى الأطوار التي مر بها الإنسان ، فالطور الأول هو الدهر الطويل الذي عاشت فيه الإنسانية عيشة الحيوان في الغاب ، لا تعلم من أمرها شيئاً في حاضرها أو ماضيها أو مستقبلها ، وذلك قبل انفتاح العقل البشري بسبب الهداية الإلهية عن الحقائق واستضاءته بنور المعارف ، والطور الأخير هو طور المعرفة والعلم الذي يصل ببعض الناس إلى الإيمان والشكر ، وبعضهم إلى الجحود والكفر ، ذلك بأنه لا يتصور شكر الشاكر ولا كفر الكافر إلا إذا صدر أحدهما عن عالم ذي تفكير ، فالحالة التي وصل فيها الإنسان إلى أن يكون منه شاكر ومنه كافر ، هي أحسن حالاته من الناحية العقلية التفكيرية ، ومن قبل كان الإنسان ساذجاً لا يعقل أن يشكر أو يكفر ، ويدل على هذا المعنى التعبير في هذه الآية بقوله : « إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً » ، حيث كان التفصيل بالشكران والكفران بياناً لإجمال يجمعهما في المعنى وهو هداية السبيل ، التي يراد بها دخول العسكر الإنساني - بالهداية الربانية - في مرحلة النظر والتفكير .

وقد ذكر الله بين هذين الطورين الأول والأخير أمراً خلق والتكليف وإعداد الإنسان بالسمع والبصر ليكون عالماً مفسكراً ، وذلك هو قوله عز وجل : « إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبثليه فجعلناه سميعاً بصيراً » .

ولهذا الأسلوب دلالة ، فإن الله سبحانه وتعالى يشير به إلى أن نعمة الخالق على الإنسان بالخلق والإيجاد ، ونعمة الهادي بالتعليم والإرشاد ، كلتاهما نعمة كبرى بها يكون قوام الإنسان في حياته ، وصلاحيته لمهارة هذا الكون ، والخلافة عن الله فيه .

ولعلنا نجد هذا المعنى أيضاً في قوله تعالى : « اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم » .

فإن هذه الآيات - وهي أول ما نزل من القرآن الكريم - تجمع بين الحديث عن الخلق ، والحديث عن العلم ، وفي ذلك إشارة واضحة إلى أن نعمة الله على الإنسان بتعليمه وإخراجه من الظلمات إلى النور ، لا تقل خطراً عن نعمته عليه بخلقه وإخراجه من ظلمات العدم إلى نور الوجود ، بل الآيات الكريمة تشعر بأن نعمة العلم أعظم ، حيث جاء ذكره بعد قوله : « اقرأ وربك الأكرم ، والله أعلم ؟ »

سحر الكلام

كان عبد الله بن معاوية بن عبد الملك بن جعفر عالماً جليلاً ، وخطيباً مفوهاً ، وشاعراً مجيداً ، كتب إلى بعض إخوانه :

أما بعد ! فقد عاقني الشك في أمرك ، عن عزيمة الرأي فيك ؛ وذلك أنك ابتدأتني بلطف عن غير خبرة ، ثم أعقبني جفاء من غير جريرة ، فأطمعني أولئك في أخائك ، وأياسني آخرك عن وفائك ، فلا أنا في غير الرجاء بمجمع لك اطراحاً ولا أنا في عدم انتظاره منك على ثقة ، فسبحان من لو شاء لاجتمعنا على اتلاف أو افرقنا على اختلاف .

السُّنَنُ

بركة المسلم حياً وميتاً

لفضيلة الأستاذ الشيخ طه محمد الداكست

المدرس بالأزهر

عن عبد الله بن عمر ، رضى الله عنهما ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :
إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها ، وهى مثل المسلم ، حدثونى ما هى ؟ فوقع
الناس فى شجر البادية ، ووقع فى نفسى أنها النخلة — قال عبد الله فاستحييت —
فقالوا يا رسول الله أخبرنا بها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هى النخلة .
قال عبد الله : فحدثت أبى بما وقع فى نفسى ، فقال لأن تكون قلتها أحب إلى من
أن يكون لى كذا وكذا . رواه الشيخان .

فى مجلس من مجالس النبى صلى الله عليه وسلم ، وقد حفل بصفوة من أصحابه ،
أراد أن يحدثهم عن المسلم الحق الذى يصلح أن يكون عضواً حياً فى الجامعة
الإسلامية ، ولبنة قوية فى بنائها ، ومن أحق من النبى صلى الله عليه وسلم بهذا
الحديث ، وهو أول المسلمين بشهادة الله سبحانه ؟ قل إن صلاتى ونسكى ومحياى
ومماتى لله رب العالمين ، لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين .

والذى أثار الحديث عن المسلم مناسبة لطيفة . اتخذ منها إمام المربين صلوات
الله وسلامه عليه سبيلاً إلى امتحان أصحابه فى أسلوب مشوق لما يلقى عليهم من
العلم والحكمة ، والتشويق فن من فنون التربية ، عنى به المربون وعلماء النفس
كثيراً ، وأوسعوه بحثاً ودرساً لما له من عظيم الأثر فى تربية الفكر وجمع التمرى .
أهدى إليه صلى الله عليه وسلم جماراً فأكل منه ، ثم سأل أصحابه أن يجبروه عن
الشجرة التى لا يتساقط ورقها على غير المعهود فى الشجر ، والتى مثلها كمثل المسلم
فى النفع والخير والبركة . . . فأخذ الحاضرون يذكرون من شجر البوادي ذاهلين

عن الشجرة التي أكلوا من جمارها ، وكان في الجمار تنبيه على الإجابة ، بيد أنهم لم يعرفوا النحلة باسم الشجرة من قبل هذا المجلس ، لكن عبد الله رضى الله عنه تنبه وألقى الله في رُوعه أنها النحلة ، وللجمار الأثر الأول في هذا التنبيه ، ولقد هم عبد الله أن يجيب ، ولكنه نظر فإذا هو أصفر القوم ، وكان عاشر عشرة هو أحدثهم ، ورأى الشيخين : أبا بكر وعمر لا يتكلمان ، فسكت عن الإجابة حياءً وأدباً . فلما عجز القوم وأعيوا ، سألو النبي صلى الله عليه وسلم فأجابهم بأنها النحلة . ولما انصرف المجلس حدث عبد الله أباہ بما وقع في نفسه ، فقال له لو قلتما يا بني لكان ذلك أحب إلى من حر النعم ، كما ثبت عند ابن حبان في صحيحه ، والأحاديث يفسر بعضها بعضاً ، ومن ذلك حديث الصحيحين : لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حر النعم ، والإبل الحمراء أعز أموال العرب وأنفسها .

• • •

ما أجمل تشبيه المسلم بالنحلة ، أو النحلة بالمسلم ، كما فعل صلى الله عليه وسلم . إنها خفيفة المؤنة ، قليلة الكلفة : تنفع ولا تضر ، وتحسن ولا تسيء ، وتعطي كثيراً ولا تأخذ - إن أخذت - إلا قليلاً ، وكذلك المسلم الحق ، يتعفف ولا يلحف ، ويتلطف ولا يتكلف ، مأمول نفعه وخيره ، مأمون شره وضره ؛ يحسن إلى الناس ويعفو عن إساءتهم ، ويعطيهم مخلصاً ، ولا يريد منهم جزاء ولا شكوراً .

وفي النحلة صلابة واستقامة ، وقوة ومثانة ، لا تحركها الرياح ولا تنال منها العواصف ، وكذلك المسلم الحق : قوى في دينه ، ثابت في يقينه ، في الزلازل وقور ، وفي المسكاره صبور ، وفي الرخاء شكور ، مهتد وهاد إلى الصراط المستقيم .

• • •

التخيل وأرفة الظلال ، طيبة التمار ، ممدودة الخير ، موصولة النفع منذ أن تفرس ، إلى أن تجف وتيس ، بل بعد أن تقطع قطعاً وترسل في مصالح الناس ومرافقهم . ولن ترى شيئاً من أصولها وفروعها وثمارها مهملأ أبداً . ويدرك بركة التخيل وخبرها في حياتها وبعد مماتها ، من يعلم أن كثيراً من الناس كانوا - ولا يزالون - يقيمون في بيوت تعتمد على جذوع النخل وجريده ، ويعيشون

على التمر عمراً ، كما تعيش إبلهم على النوى دهرأ . وفي السيرة النبوية عن عائشة رضي الله عنها : إن كنا آل محمد لنمكث شهرين ما نوقد ناراً إن هما إلا الأسودان : التمر والماء . وكذلك المسلم الحق ، كله خير وبركة ، حياً وميتاً ، لنفسه وعشيرته ، وأمه ووطنه ، والعالم أجمع :

أما في حياته : فيما يعلمهم ويرشدهم ، ويؤدى حقوقهم ، ويسمى جاهدآ في مصالحهم ويعينهم على البر والتقوى .

وأما بعد مماته فيما يترك فيهم من علم نافع ، أو هدى صالح ، أو أثر مبارك أو سنة حسنة له أجراً وأجر من عمل بها بعده إلى يوم القيامة لا ينقص من أجورهم شيء . وكل هذه الشعب الخيرة المتنوعة تدخل فيما رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له .

هذا هو المسلم الحق ، الذى تألف منه ومن أمثاله أمة رشيدة قوية ، متأسكة متآزرة ، كزرع أخرج شطأه فأزروه فاستغلظ فاستوى على سوقه ، أمة صالحة لوراثة الأرض وعمارتها ، حديرة بما وعد الله عباده : من النصر فى قوله تعالى : « وكان حتماً علينا نصر المؤمنين » والعز فى قوله سبحانه « والله العزة ورسوله وللمؤمنين » والتمكين فى الأرض من بعد الاستخلاف فيها كما قال جل سلطانه : « وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً . فأين المسلم أو المسلمون اليوم من شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء ، تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها !!

إنهم حفالة كحفالة الشعير أو التمر : أو غناء كغناء السيل ! لا تستطيع أن تحصيهم عدداً ، ولكن قلباً ترى مع الأسى والأسف أحداً !

إنه لن يعود للمسلمين مجدهم الأول إلا إذا تحلقوا بأخلاق الرعيل الأول « أشداء على الكفار رحماء بينهم » تراهم فى توادهم وتعاطفهم وتراحيمهم كمثل الجسد الواحد ، إذا اشتكى عضو منه تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى ، أو تراهم كالبنان يشد بعضه بعضاً .

وَأَجِبْ مُصْرَنَحْوَالِقِرْآنِ الْكِرِّمِ

امفضير الؤسناد الشبخ برر المنولى عبر الباسط

الموسى بكلىة الشريعة

قال تعالى : « ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا » وروى البخارى ومسلم عن ابن عمر رضى الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لا حسد إلا فى اثنتين : رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وأطراف النهار . ورجل آتاه الله مالا فهو ينفقه آناء الليل وأطراف النهار » وروى البخارى بسنده إلى عثمان بن عفان رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « خيركم من تعلم القرآن وعلمه » .

مند أسلت مصر ، وملا الإيمان قلوب بنها أقبلت على كتاب الله تعالى تستظهر آياته ، وتستنبط معانيه وتطبق تعاليمه على ما يجد لها من أحداث ، فانتشر فى ربوعها ، حواضرها وقراها ، مكاتب جعلت تحفيظ القرآن الكريم غايتها ، وفى كل مدينة من مدنها مدارس ، جعلت من علوم القرآن مواد دراستها ، فكان التعليم فى مصر يدور كله حول كتاب الله وفهم أسراره ، وتدقيق مافيه من بلاغة وأدب ، وفقه ما بين دفتيه من علوم كونية ، والتخلق بما فيه من أخلاق كريمة .

ولقد كانت مصر تتابق مع البلدان الإسلامية الأخرى فى هذا المضمار الشريف ؛ ونالت قصب السبق فى أكثر الأحيان ، وأخرجت إلى العالم الإسلامى علماء رفعوا شأنها بمناقضهم عن دين الله . ولقد ساهم فى هذا الميدان جميع طبقاتها ؛ فأمرأؤها ساهموا بجاههم وبما أفاض الله عليهم من نعم المال ، وأغنياؤها رصدوا العتار فى سبيل حفظ كتاب الله ، وقراءتها أقبلا على كتاب الله يحفظونه ويتدارسونه ، وكان لهم به جاه أى جاء ومكانة أى مكانة . وهانحن لا نزال نرى آثار هذه المكاتب التى أنشأها الأمراء والأثرياء .

ولما ركدت ريح العلم فى البلاد الإسلامية ، كانت مصر وفية لكتاب الله حريصة على أن يكون من أبنائها من يحسن تلاوته ويستظهره عن ظهر قلب ،

وأن يتلقاه الخلف عن السلف ، وأن يورثه الآباء للأبناء . حرص على ذلك حكماء ، وتنافس في هذا المضمار جميع طبقاتها كما كانت الحال أيام نهضة العلوم الإسلامية ، وقوة الدولة المحمدية ، لم تقصر مصر في هذا الواجب فترة من تاريخها الإسلامي ، بل سارت في هذا الطريق قدماً لا يثنى عنها معوق مهما كان شديداً .

ولما هبت مصر تأخذ بأسباب الحضارة الأوروبية ، غنى البيت العلوي الكريم بكتاب الله تعالى ، فحرص حكماء من هذه الدوحة المباركة على أن يكون تعليم القرآن الكريم في الصدارة من براعم الثقافة ، فكثرت الكتائب التي تحفظ الأطفال كتاب الله ، وزاد عدد الحفاظ وحفظوا بامتيازات شتى جعلت كثيراً من الطبقات تقبل على أن تعلم أبناءها كتاب الله ؛ وتتمهم بتفاته ؛ حتى حق لكل مصرى أن يمتز بأن بلاده هي أحفظ بلاد الله لكتاب الله ؛ وأن مصر قد اصطفاها الله فأورثها هذا التراث العظيم ، وإذا كانت تفتخر الآن بأزهرها وجامعاتها ، فهي كذلك تفتخر بحملة كتاب الله من أبنائها ، ولها أن تباهى بأن تيار العلوم الدينية يسير جنباً إلى جنب مع تيار العلوم الدينية ، وما ذلك إلا لحرصها على تعاليم القرآن وتعلمه .

ولا ينسى هذا الجيل أن الملك الراحل فؤاد العظيم ، كان أعظم أثر تركه - وما أكثر ماثره - أن أعاد طبع المصحف الشريف بشكل جميل وضبط دقيق .

ولا ينسى هذا الجيل أن الملك الراحل فؤاد العظيم ، رعى جمعيات المحافظة على القرآن الكريم التي انتشرت في عهده في المدن والقرى وأظلمها بجناح رعايته وعطفه حتى أثمرت أطيب الثمار .

ولا ينسى هذا الجيل أن شبله فاروقا الأول - حفظه الله - استن سنة أبيه ونهجه نهجه وسار على منواله في رعاية كتاب الله والعمل على نشر حفظه ونشر تعاليمه .

واليوم ، وقد أقررت مجانية التعليم في المرحلتين الابتدائية والثانوية ، وتيسرت سبل العلم في الجامعات المدنية ، رأينا بعض الغيورين على الكتاب المجيد يتوجسون خيفة من انصراف الأمة عن تعليم القرآن الكريم وتعلمه بعد أن زالت أكبر ميزة كان يتمتع بها حملة كتاب الله أو الراغبين في حفظه ؛ ولا سيما أن المستقبل

أمام المتعلمين تعليماً مدنياً أكثر ابتسماً منه أمام الذين يسلكون طريق التعليم الديني الذي أساسه حفظ القرآن الكريم ، والتاريخ قديمه وحديثه شاهد على أن العلم يعيش ويتزعر في ظلال رعاية أولى الأمر ، لا فرق في ذلك بين العلوم الدينية والدنيوية .

يخشى الغيورون أن ينصرف الناس عن حفظ القرآن الكريم تحت عوامل الاغراء الكثيرة التي يتمتع بها طلاب التعليم المدني بعد أن كانت إلى جانب التعليم الديني أكثر وأعظم .

يخشى الغيورون أن تصبح مصر ولا يحسن فيها أحد تلاوة كتاب الله إلا من المصاحف كما وقع - مع الأسف الممض - لأكثر البلاد الإسلامية ، والقرآن ما بقي سليماً من التحريف والتبديل إلا لأنه محفوظ في الصدور لا في السطور وفي القلوب لا في الألواح والصحف ، وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث يقول : « إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من الناس ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يبق عالم اتخذ الناس رؤساء جهالاً فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا » .

فاذا قال قائل لمؤلاء الغيورين لا تجزعوا ولا تيأسوا فإن الله وعد - ووعدده الحق - أن يحفظ هذا الكتاب حتى يأتي أمر الله ، إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ، إذا قال لهم قائل ذلك أجابوه نعم ، ولكن نحشى أن يفتقر هذا الفضل والسبق من مصر إلى غيرها من بلاد الإسلام ؛ إنا نريد أن ينتشر حفظ القرآن الكريم في جميع الأقطار الإسلامية على أن يبقى لمصر فضل السبق والحرص على هذا التراث الجليل الذي اصطفاها الله لحفظه وورثها إياه ، وأقر لها بهذا الفضل جميع المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها ، وبإيعوها بهذه الرعاية راضين مطمئنين .

يتألم الغيورون من أن يروا العناية الفائقة بعلوم وفنون ليست الأمة في حاجة إليها إصلاح دينها أو دنياها ، كالموسيقى والرقص ، والرسم للأجسام الحية العارية إلى آخر ما هنالك مما يسمونه بالفنون الجميلة ، ويقولون آسفين : لو رصد في ميزانية وزارة المعارف لحفظ كتاب الله ما رصد لهذه الفنون التي لا تحتاج إليها الأمة

لرفع شأنها أو تثقيف عقولها لآمننا على هذا التراث الضخم من الضياع ولاطمأننت قلوبنا على زعامة مصر في هذا المضمار .

ونحن نقول لهؤلاء الغيورين شكر الله لكم غيرتكم وأثابكم على حسن نيتكم ولكن لا تنسوا أن على رأس مصر ملكا يحرس على دينه حرصه على أعز شيء عنده ، وأنه لا يرى أقدس من كتاب الله وأولى برعايته السامية من المحافظة عليه . والأمل في الله كبير أن يكون عهده كعهد أبيه ، فيتشر حفظ القرآن الكريم في ربوع البلاد مدنها وقراها .

ونقول لهؤلاء الغيورين إن على رأس حكومة جلالته رجلا رأس ماله دينه . وملاك أمره عقيدته ،

وعلى رأس الأزهر رجلا لا يجاني أحداً في دين الله ، ولا يقساهل في حق الله . وعلى رأس وزارة المعارف رجلا عرف القرآن ومكاته من الثقافة ومنزلته من التربية العلمية والخلقية ، وإذا وكلت أمانة القرآن في أعناق هؤلاء ، فلا تخشوا بأساً ولا تظنوا سوءاً ، بل ادعوا الله مخلصين أن يرزقهم التوفيق إلى خير الوجوه . وأنجع السبل لتحقيق هذا الامل المنشود ؟

من محاسن الحكم

قال شاعر حكيم :

ما استقامت قناة رأيت إلا بعد أن عوج الشيبُ قناتي
وقال الأشعث بن قيس يوماً لقومه :

« إنما أنا رجل منكم . ليس لي فضل عليكم ، لكنني أبسط لكم وجهي ، وأبذل لكم مالي ، وأقضي حقوقكم ، وأحوط حريمكم ، فمن فعل مثل فعلي ، فهو مثلي ، ومن زاد على فهو خير مني » .

ابن سينا ومشكلات العصر الحاضر

لحضرة الأستاذ الدكتور محمد يوسف موسى

أستاذ بكلية أصول الدين

- ١ -

لكل زمن مشاكله التي تتنوع وتتعدد بحسب البلدان والأمم المختلفة ، وبحسب الأزمان أيضاً ، وهذه المشاكل أصناف وضروب ؛ فثمة ما يتعلق بالناحية السياسية لبيان أى النظم أصلح للحكم ؛ ومنها ما يتعلق بالناحية الاجتماعية وما تثيره من مسائل الضمير والمقاييس الخلقية والعادات والتقاليد ونحوها ؛ ومنها ما يرجع إلى غير هذه أو تلك من النواحي ، ولكل دولة أو أمة من الناس طرائقها في حل مشاكلها الخاصة بها ، وقد تستوحى في الحلول التي تراها غيرها من الأمم ، إذ لا تستغنى أمة عن الاستفادة من تجارب غيرها ؛ سواء في مسائل العلم والفكر ، أو المسائل الأخرى التي تزخر بها الحياة .

إلا أنه ، هناك طائفة أخرى من المشاكل لها طابع خاص يجعلها تعلو على الزمان والمكان ، فهي مشاكل لا تخص أمة دون أخرى ، ولا عصراً دون عصر ؛ هي مشاكل أحسها الناس جميعاً في كل زمن على اختلاف أجناسهم وألوانهم وألسنتهم ودياناتهم ؛ ومن ثم ، نجد التاريخ قد عنى عناية خاصة بتدوين ما كان من حلول لهذا الضرب من المشاكل المختلفة ، وذلك عسى أن يفيد الحاضر من جهود الغابر ، ومفكرو اليوم من تفكير رجال الأمس . ومن هذه المشاكل التي لها هذا الطابع ، أى المشاكل العالمية ، مشكلة الفقر والعمل والبطالة ، ومشكلة المرأة ومثلتها من الرجل وما لها من حقوق وواجبات .

لهذا لم يكن عجباً أن يتناول المفكرون ، وبخاصة رجال الفلسفة والاجتماع ، في كل زمن وفي كل أمة ، هذه النواحي وما تثيره من مسائل ومشاكل تتطلب الحل الذي يكون أدنى للحق وإلى طبائع الأشياء وحقائق الأمور ؛ الحل الذي يقوم به العالم وتصلح الحياة إن كان إلى ذلك من سبيل .

وابن سينا فيلسوف خالده من فلاسفة المسلمين، ولم تمنعه الفلسفة من أن يكون رجلاً سياسة ورجلاً دولة، فكان له من هذا ما يكون لأمثاله من حظوة وسمعة ونعيم أحياناً، كما كان له حظه أحياناً أخرى من المتاعب والاضطهاد ذلك بأنه لم ير نفسه أن يعيش في عزلة عن الحياة العامة كما فعل سلفه العظيم الفارابي، بل كان رجلاً واقعياً يأخذ من الحياة ويعطي، ولهذا نجده أسهم في الحياة العامة بنصيب كبير.

وهذه النزعة العملية جعلته لا يتهيد في تفكيره بمذهب خاص من مذاهب من سبقوه في القديم والحديث، بل - بعد أن وعى واستوعب ما سبقه من فلسفات - ففكر لنفسه، وأخذ يختار من آراء سابقيه ما يوافق ميوله وتفكيره، لا يبالي أين يجد ذلك أو رأى الناس فيه. ومن أجل هذا، نجد في تأليفه سمات وخصائص من المذاهب المختلفة التي عرفها تاريخ الفكر والفلسفة، وإن كانت عبقريته وقوة فكره قد غطيا هذه السمات حتى لا يكاد القارئ غير المتخصص يلمس بها، ومن ثم يعتمد بأن كل تفكير فيلسوفنا طريف لم يلمس منه شيئاً لدى غيره من أسلافه المسلمين وغير المسلمين في الشرق أو الغرب.

وقد ساعد على هذا، ما يلبسه القارئ في كتابات الشيخ الرئيس من قوة الشخصية والنزعة إلى الاستقلال في الرأي والتفكير، حتى لقد أثر عنه أنه كان يقول: حسنا ما كتب من شروح لمذاهب القدماء، فقد أن لنا أن نضع فلسفة خاصة بنا.

وابن سينا، بعد هذا، شغل الباحثين من بعده: هؤلاء الباحثون الذين عكفوا على كتاباته يحصونها، وعلى آرائه يدرسونها ويصدرون الأحكام لها أو عليها، بعد مقارنتها بآراء غيره من سابقيه ومعاصريه واللاحقين به، وكانوا في هذا التقدير والوزن لآرائه، والحكم لها أو عليها، بين المتنصر في حقه والغالي في تقديره.

على أن هذه الدراسات، أو على الأقل الجانب الأكبر منها، توجهت إليه وإلى تراثه المسمى كطبيب خلا ذكره في عالم الطب بتمانونه، وكفيلسوف منطقي وطبيعي وإلهي له في كل هذه التواحي آراء لها قدرها وخطرها. ومن الذين درسوه في عمق وإطالة في هذه التواحي الأخيرة، ولكن في تيج أحياناً، حجة الإسلام الإمام أبو حامد الغزالي. وليس من هنا الآن الحديث عن هذه الدراسة الثمينة

التي نجدها في كتاب [تهافت الفلاسفة] ، والتي نجد التعقيب القادر عليها في كتاب [تهافت التهافت] لفيلسوف الأندلس الأشهر أبو الوالد بن راشد المتوفى عام ٥٩٥ هـ .
والذي نريد أن نشير إليه الآن هنا ، هو أن جمهور الباحثين أوقفوا تماماً أوكادوا ، دراسة الشيخ الرئيس كفيلسوف اجتماعي له في هذه الناحية آراء لم تخلق جذتها مع تتابع القرون ، ومن ثم تضعه بحق في مصاف المفكرين الاجتماعيين المحدثين في أكثر من ناحية من النواحي الاجتماعية ، هذه النواحي التي تجعل موضوع دراساتها الفرد والمجتمع من مختلف الزوايا .

هذه الآراء رأيتها جديرة بالحديث عنها ونشرها ، لعل بعض الذين يعنون بالمشاكل الاجتماعية يفيدون منها ، ولعلها تلفتوا إلى وجوب دراسة مفكرينا والاعتراف بهم والإفادة منهم ، بدلا من إهمال ماضينا وتراثنا العكري والتهافت على أوروبا وما عند أوروبا تهافتاً ينال من كرامتنا ، ويظهرنا عالة على غيرنا ؛ كأننا أمة لا ماضى لها تعز به ، ولا تقاليد تفتخر بها ! إنه يجب أن نفتتح بهذا التراث المجيد في بناء حاضرنا ومستقبلنا ؛ فلقد كنا نألم أشد الألم عند ما كان إخواننا الطلاب الفرنسيون يلاحظون علينا ، معشر الشرقيين ، أننا نصطنع الحياة الغربية في جميع مناحي الحياة العامة تفريراً ثم تضيق صدورنا بأن يكون لصاغى هذه الحضارة وسدتها سيادة أو نفوذ في الشرق !

لماذا لا نستلهم هذا التراث الإسلامي المجيد ، الذي أفاد الغربيون أنفسهم كثيراً منه ، في التشريع المدني والجنائي والتجاري ؟ ولماذا لا نستلهمه أيضاً في السياسة الاقتصادية ؟ ولماذا لا يكون الأمر كذلك في ناحية سياسة الحكم ونظمه ؟ وهذا مع الإفادة من الحضارة الغربية والتعكير الغربي فيما نجد من الخير أخذه عنهما . لعل بعض السبب في هذا يرجع إلى « نوبة التعليم » عندنا والنظم التي يقوم عليها ، والتي كان منها أن صيغت عقول أبناء الأمة على طرائق مختلفة . وكان من ذلك أن التأمين على هذا التراث الإسلامي ليس إليهم من أمور الحكم شيء ، وأن الذين إليهم الحكم لا يعرفون شيئاً ذا غناء من هذا التراث ! ولعل الله يرزق مصر بمصلح قوى قادر ، لا تنقصه الإرادة الطيبة الحازمة ولا السكمانية والشجاعة ، فيغير من هذا الحال ؛ وبذلك نصل جميعاً إلى معرفة هذا التراث التيم

وتقديره حق قدره والإفادة منه ؛ وتكون النتيجة الطبيعية أن تنهض مصر ومعها سائر البلاد الإسلامية على أسس من روح الإسلام وعبقريته ومبادئه وأصوله .

هذا وأرجو ألا يثقل هذا الحديث الذي نحن بصدد التقديم له ، وألا يظن أنه حديث فلسفي بمل ، ما دام محوره أحد الفلاسفة الكبار ؛ فقد تعودنا في هذا الشرق أن نعد الفلسفة أمراً ثقيلاً ، وأن نرى فيها تفكيراً يجاحي الدين ، وكان ذلك ميراثاً تميلاً عن الماضي ؛ على أن الحال الآن ، بحمد الله ، غير الحال في ذلكم الزمن ، فقد أصبحنا نحاول أن نجد في الفلسفة عوناً على حل ما يعترينا من مشاكل ومعضلات ، ولا عجب في هذا ، وكلا الفلسفة والدين يعملان على فهم العالم ومبده ومصيره ، ويعنيان بتبصر الفرد والمجتمع بما فيه خير وسعادة ، في حاضره ومستقبله في دنياه وآخرته ، وإن كان لكل من الفلسفة والدين طرقه الخاصة التي قد تتقارب حيناً ، وتتباعد حيناً آخر .

على أن للقارئ أن يطمئن من ناحية أخرى ، فإنني لن أعرض من آراء الشيخ الرئيس إلا للقليل الذي يتعرض بصفة خاصة لبعض مشكلات العصر الحاضر ؛ وأعني بذلك مشكلة العمل والبطالة ، أو بعبارة أخرى مشكلة الضمان الاجتماعي ؛ ثم مشكلة المرأة من ناحية مساواتها أو عدم مساواتها للرجل في الطبيعة والحقوق والواجبات ، وناحية الزواج والطلاق وكيف يكون ولما يكون .

يمهد ابن سينا لحديثه عن هاتين المشكلتين ، ببيان أن الإنسان يفارق سائر الحيوانات ، بأنه لا يمكن أن يحيا حياة طيبة لو انفرد وحده بالمعيشة . ذلك ، بأنه لا بد من أن يكون المرء مكفياً بآخر من نوعه الإنساني ، كل منهم يساعد الآخر ويخدمه في ناحية من نواحي الحياة . ومن أجل هذا كان الإنسان مضطراً إلى بناء المدن وإنشاء المجتمعات ، حتى يكون البعض لبعض وإن لم يشعروا بخدما ، ويشارك ابن سينا في هذه الملاحظة كل الباحثين الاجتماعيين في قديم الزمن وحديثه .

ويخلص من هذا ، بأن يستنتج أنه لا بد إداً في وجود الإنسان وبقائه وحياته حياة طيبة من مشاركة في الحياة ، ومعاملة الناس بعضهم مع بعض ، والمعاملة تقتضي أساساً قوياً من شريعة صحيحة وعدالة حتمية ، وهذه الشريعة لا بد لها من شارع يحى

بها ، كما لا بد للعدالة من عادل يقوم بها ويحريها كما يجب . وهذا كله يستلزم أن يرسل الله لحفاته رسلا منهم يبلغون عنه شريعته ، ويتممون بين الناس بالعدالة .

وهذا النبي والرسول عليه أن يدل غاية وسعه لتأكيد سعادة الناس دنيا وأخرى ، وذلك بإرشادهم الى ما من شأنه تنزيه النفس عن الخيث من الطباع والسيئ من القول ، والردى من العمل ، وهذا كله لا يحصل إلا بأخلاق تحصل ، وملكات تكتسب بأفعال طيبة من شأنها أن تصرف النفس عن البدن والحس ونزواته وهواه ، وتديم تذكرها للبعدن الطيب الشريف الذى لها ، ويجب أن تحن له دائما .

وبعد هذا التمهيد الهام ، يأخذ شيخ الفلاسفة فى الكلام على أولى المشاكل التى أراد الكلام عليها .

• الحديث موصول •

من كلام ابن عباس رضى الله عنه

قال عبد الله بن عباس رضى الله عنهما : —

كتب إلى علي بن أبي طالب كرم وجهه : —

أما بعد - فإن المرء يسره إدراك ما لم يكن ليفوته ، ويسوءه فوت ما لم يكن ليدركه ، فليكن سرورك بما نلت من أمر آخرتك ، وليكن أسفك على ما فات منها ، وما نلت من أمر دينك فلا تسكن به فرحا ، وما فاتك منها فلا تأس عليه جزعا ، وليكن همك ما بعد الموت .

أبو حامد بهاء الدين السبكي

لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد الله المراغى

مدر المساعد بوزارة الأوقاف

بعد أن ترجمنا في المقاتلين السابقين للإمام تقي الدين السبكي ، ثم لابنه الشيخ الجليل تاج الدين ، وتحدثنا بما كان لهما من فضل وما حلقنا في أيدي العلماء والدارسين من مؤلفات لم تزل منهل الواردين ، ومقصود المحصلين ، مما كتب لهما على وجه الأيام الخلود ، وبجمل باقى ذكرهما فى العالمين ، وجعل لهما لسان صدق فى الآخرين ، اليوم نترجم لثالث الأعلام المبرزين ممن نبغ من هذه الدوحة المباركة ، وتألّق نجمه من أسرة السبكين ، وهو أحمد بن على بن عبد الكافى بن على بن تمام السبكى ، المسكنى بأبى حامد الملقب بهاء الدين ، فهو ابن تقي الدين السبكى وأخو تاج الدين .

يختلف أصحاب التراجم فى سنة مولده اختلافاً يبرأ ، فمنهم من يورخ مولده بسنة تسع عشرة وسبعمائة هجرية ، ومنهم من يجعل تاريخ مولده سنة سبع عشرة وسبعمائة هجرية ، وهم متفقون على تاريخ وفاته بسنة ثلاث وسبعين وسبعمائة هجرية ، وينفرد كتاب شذرات الذهب بالنص على أن سنة حين وفاته كانت ست وحمسين سنة ، ففعل هذا النص يبيع لنا أن نرجح ، مع ملاحظة الاتفاق على تاريخ وفاته ، أن ميلاده كان سنة سبع عشرة وسبعمائة هجرية ، وتوّه كتب التراجم بنبوغه وتبريزه فى العلم وهو صغير ، ونحن نرى ذلك معقولاً وسائفاً مقبولاً ، إذ هو قد نشأ فى كنف أبيه العالم الجليل ، فلا شك أنه قد وجد فى بيته البيئة العلمية الساهرة على تقويم صباه وتسدّد خطاه فى سبيل التريّة والتثقيف ، وكان له فى أبيه الأستاذ الأول وحسبك به مريباً حانياً وأستاذاً عليماً ، فلما اشتد ساعد أبى حامد وغشى حلقات الدرس أضاف إلى ما تلقاه عن أبيه ما يمتبسه من علماء عصره ، ويتلقاه عن أئمة زمانه فأخذ عن الأصهبانى وابن التماسح وأبى حبان ، ويظهر أن صحبته لشيخه أبى حبان قد طالّت وحسنت ، وبذلك على ذلك ما نظم فى مدح شيخه من شعر ، منه هذان البيتان :

فداكم فؤاد حارب للبعد قمتده وصب قصى وجداً وما حال عهده

وقلب جريح بالفرام منيم وطرف قريح طال في الليل سهد
وقد كان شيخه يبادلُه المودة والتقدير لكريم خلاله والرضا عن سعيه في
الطلب ودأبه على تحصيل العلم . ومن أبيات قالها فيه شيخه تبين أنه كان يراه فذا
في أقرانه نابغة بين إخوانه ، وهي :

أبو حامد حتم على الناس حمده لما حاز من علم به بان رشده
غنى علوما لم يزل منذ نشئه يلوح على أفق المعارف سعده
دكي كأن قد جاحم ائثار ذهنه ذكاء ومن شمس الظهيرة وقده
ومن حاز في سن البلوغ فضائلا زمان اغتنى بالعلم والجهل عنده

وأنت ترى أن شيخه يسجل هنا ما قد بلغ تميزه من فضل وتقدم وما جاوز
سن البلوغ . وكما أخذ اللسان العربي عن أبي حيان كذلك قرأ القرآن على الشيخ
التقى الصايغ ، وبذلك توفرت له الأسباب التي مكنته من إتقان علومه وإحكام
ثقافته ، فلم يبلغ العشرين إلا وهو عالم يشار إليه بالبنان ، وأستاذ معدود في المحققين
حتى ذكر في ترجمته أنه أفق ودرس وله عشرون سنة وولى وظائف أبيه بالقاهرة
وله إحدى وعشرون سنة لما تحول والده إلى قضاء الشام . وفي نبوغه وفضله
يقول ابن حبيب : إمام علم راخر اليم مقرون بالوفاء الجهم ، وفضله مبذول لمن قصد
وأم . وقلم كم باب عدل فتح ، وكم شمل معروف منح . ولا يحدئك مثل أبيه عن
تفوقه وسعة علمه ، هو في شهادته له شاهد عدل وحكم فصل ، لأنه يفضل على نفسه ،
عالمجابهة إذا مستعبدة والحيث مأمون . ذكروا أن أباه قد حضر درسه لخدمه وقال فيه :

دروس أحد خير من دروس على وذلك عند على غاية الأمل
وعلى هو أبوه شيخ الإسلام الجليل .

وقد شهد له أبوه بالبراعة والسبق كرة أخرى لعلها أثبت وأقوى : ذكروا أنه
أرسل من مصر بحثاً يتعلق بالعربية إلى والده حين كان بالشام فأجابه عنه ، فرد
جواب أبيه بكراسة ، فلما وقف أبوه عليها كتب إليه كتاباً صدره بقوله : وقفت
على جوابك أيها الولد الذي هو أعظم من الوالد ، وبما يؤيد ثناء أبيه عليه وتبريزه
له كثرة المناصب العلمية العالية التي تولاها وتقلب فيها ، فقد نهض فوق ولايته
لوظائف أبيه المذكورة آنفاً بتدريس مذهب الشافعي بالمشهد الشافعي وبجامع
الحاكم والشيخونية أول ما بنيت ، كما ولى قضاء الشام سنة نيابة عن أخيه ليحفظها له

ثم عهد إليه بقضاء مدينة العسكر والإفتاء بدار العدل والخطابة بالجامع الطولوني . وقد عرف شيخنا أبو حامد أن العلم أحد شئني يتألف منهما السلوك الكامل ، وأنه لا بد للعلم أن يستم وجوده ويستكمل جماله بالخلق الفاضل ، لذلك جعل هذا الإمام الكريم عليه بالتقوى والورع والدين . قال مترجموه : كان كثير التمرأة والعبادة ، معروفاً ، بالتقوى وزان نبوغه بالورع والوفاء الجم ، كثير الحج والمجاورة لبيت الله . ومما يشهد بقوة حلقه مارووا عنه حين ولي الخطابة بالجامع الطولوني ، أنه كان شديداً في وعظه حتى غضب من شدته بعض الأمراء ، فأمر أن يستيب عنه من يخطب بحضوره ، فكان لا يخطب إلا إذا غاب ذلك الأمير .

أما ما بقي لنا من غزير عليه وبارع أدبه وفاق تأليفه فيتمثل في كتابين قيمين أحدهما شرح مطول على مختصر ابن الحاجب يعني به الأصوليون ويتدارسه العالمون ، والآخر عروس الأفراح ، كتاب البلاغة النفيس الذي ما برح علماء البلاغة منذ تأليفه إليه يرجعون وعليه يعلقون ومنه يتمسسون . ولعلك تذكر هنا ما أسلفنا عليك في صدر هذه الترجمة من صحة أبي حامد لشيخه أبي حيان وتوثيق العلاقة بينهما حتى نظم الشعر في مدح أستاذه ونظم شيخه الشعر في الثناء عليه والاعجاب به فقد كان لهذه الصحبة أثرها القوي المثمر في إثنان شيخنا أبي حامد للغة العربية وعلومها ونبوغه في ذلك .

وقد تحدث المترجمون فذكروا أنه كان فائق النظم في الشعر رائق العبارة في التأليف والمحاضرة ، وقد عرفت أن أباه حين قرأ بحته المتعلق بالعربية كتب إليه معترفاً بتفوقه عليه وسبقه له في ذلك ، فنحن حتماً إذاً أن نقرر أن العلوم التي كان أبو حامد أشد تبرزاً فيها وأبعد صيناً هي اللغة العربية وعلومها ، وبذلك يشهد عروس الأفراح وهو شرح تمتع لتلخيص المفتاح دل به على سعة اطلاعه وغوصه في العلوم العربية ، ولولا ما فيه من استطراد مل وحشوه بمسائل خارجة من الفن لكان خير شرح لروح التلخيص لصناعة عبارته وسهولة أساليبه وذوقه الأدبي . وحسبه هذا الكتاب أثراً باقياً ونفعاً جارياً يضاعف حسناته ويستمر على مشواه رضوان الله ورحمته ويذكر الدارسين بفضلته ويدعوهم إلى اقتفاء أثره في نفع المسلمين وخدمة العلم والمتعلمين .

الفقه السياسي عند المسلمين

لقضيد الأستاذ الشيخ محمود فياض

استاذ التاريخ بكلية أصول الدين

— ٢ —

تحدثت في الكلمة السالفة عن بعض إنتاج المسلمين في الفقه السياسي ، ورأينا الأثر الصخيم الذي خلفوه في البحوث السياسية المستقلة عن علوم الفقه والأصول والكلام ، والآن نتحدث عن اتجاه هذه البحوث على وجه عام .

في عصر العباسيين قامت حركة التأليف والترجمة والتدوين على قدم وساق ، وجميع ما خلفه المسلمون الأول ، يرجع تقريباً إلى هذا العصر ، أو إلى أصول وضعت في هذا العصر ، وكان العباسيون يهتمون قبل كل شيء بتركيز دعائم ملكهم ، لهذا كانت حرية الرأي - على مبلغ احترامها وعظم مكانتها في الإسلام - مستظلة إلى حد ما بلواء العباسيين ، وقد كان للعباسيين خصوم من العرب يمثلهم بنو أمية الذين استطاعوا ابتناء ملك واسع ومجد عريض في الأندلس ، بمائل - إن لم يبق - ملك بني عباس ومجدهم في الشرق ، وخصوم من غير العرب يتزعمهم ويؤيهم أبناء عمومته العلويون ، وفي ظلال الحكم العباسي تفهت القوميات الغافية ، وتحركت الاطماع في نفوس كثيرين من أبناء الأجداد الأول التي غلبها الإسلام ، ولهذا رأى العباسيون من حتم أن يشرفوا على توجيه البحوث ومراقبة الإنتاج الفكري في ملكهم ، ولعل هذا هو السر في اتجاه البحوث السياسية في كتب الأحكام السلطانية الاتجاه الواقعي ، بدليل أنها كانت استجابة لرغبة حاكم أو هدية إلى حاكم ، وبعبارة أخرى : إن كتب الأحكام السلطانية ، قصد بها تقرير الأوضاع التي تعورفت سياسياً بين المسلمين وتنزيلها على مبادئ الإسلام ، أو تنزيل مبادئ الإسلام عليها بتأويلها أو تلوينها بحيث لا تختلف مع العرف السياسي - تقريراً يتمشى مع وجهة نظر العباسيين وظروفهم الخاصة ، قد يكون هذا وقد يكون غيره أيضاً .

فعلماء الإسلام الأول وجدوا أنفسهم في أمة حية تعيش في دولة قائمة لها

دستورها وأحكامها وتعاليمها ، في شتى نواحي الحياة : في الدين ، والأخلاق ، والاقتصاد ، والاجتماع ، وأمور الحكم والقيادة ، في كل شيء ، فلم يشغلوا أنفسهم ببحوث فرضية سياسية ، عن أصل الدولة ، وكيفية قيامها ، ومدى الارتباط بين سيادة الحاكم وحقوق المحكومين ، لأنهم وجدوا دولتهم قائمة بالفعل على أساس من القرآن والدعوة إلى مبادئه ، التي تجعل من الحاكم خادماً لا سيداً - وإن كانت له سيادة فعلية معترف بها - وعلى هذا لم يتحدث علماء الإسلام الأولون عن أصل الدولة ، وهل هو « زعامة العائلة » اعتماداً على طبيعة الإنسان الاجتماعية ، أو هو « الزعامة الدينية » التي قام عليها ملك بني إسرائيل القديم ، لأن ملوكهم في نظرهم خلفاء لأنبيائهم ، أو هو « حق ملكي مقدس » بمعنى أن الله اختار شخصاً وملكه على بقعة من أرضه ، وسله السلطة مباشرة فهو مشول أمام الله وحده مباشرة لا أمام الشعب ، أو هو حق الفتح والغلبة ، يرتفع عن طريقه شخص أو عائلة إلى السيادة في بقعة ما من الأرض ، أو هو نتيجة الخطيئة آدم الكبرى أوجدها الله لتكجج جماع الأفراد ، وتحد من حرياتهم عقاباً لهم على هذه الخطيئة ، كما يرى ذلك آباء المسيحية الأول : أم أن الأصل فيها هو قيام تعاقد بين الأفراد وحكامهم نتيجة لتصادم حريات الأفراد الأحرار المتساويين من كل وجه ؟ واتفاقهم على الخروج من حالة الطبيعة إلى حالة جديدة يتنازل فيها كل منهم عن شيء من حقوقه وحرياته فكانت الدولة ، وهل هذا التعاقد يقيم ملكية مطلقة مستبدة ، أو ملكية دستورية مقيدة ، أو يعطى للشعب السيادة المطلقة على حكامه ؟ كل هذا لم يشغل المسلمون أنفسهم به في العصر الأول لتدوين الفكر الإسلامي ، لأن البحث عن حالة ما قبل الدولة يقوم على أسس خيالية يفترضها الباحثون لتبرير نظرية خاصة ، وليس بحثاً يقوم على حقائق علمية معترف بها عند العلماء ، وهذا النوع من البحث الفرضي ، إن جاز في بيئة علمية لا يحكمها دستور قائم ، فإنه لا محل له ، أو هو مضية للوقت في بيئة علمية يحكمها دستور قائم . القرآن والسنة ، تناول كل شئون الحياة الإنسانية ، وحدد للأفراد وللحكام الحقوق والواجبات ، بما لا يدع مجالاً لظنيان هؤلاء أو أولئك - عند العقلاء - وما كان لهم أن يفترضوا فروضاً ، وعندهم حقائق مفررة تصرفهم عن مثل هذه الفروض ، ومن هذه الحقائق الثابتة عندهم : الملك لله الواحد القهار ، الحكم لله أحكم الحاكمين ،

والأرض لله خالقها وخالق الكون ، والله هو المشرع وعلى هدى تشريعه قامت دولة المسلمين . وإذن فليتجه البحث إلى التشريع الذي أقام الدولة ، لا إلى حالة فطرية سبقت تحضّر الإنسان ، وهو لا يعلم بالضبط متى تحضّر !!

ولكن لا بد لنا من الحديث عن أصل الدولة في نظر الإسلام ، ولدينا من النصوص الصحيحة ما يساعدنا على تجلية وجهة نظر الإسلام في أصل الدولة ، ونحن نحاول قدر طاقتنا بيان ذلك فيما يلي :

أولاً - الإسلام (القرآن) دستور عام حاد لا يتبدل ولا يتغير ، وهو هداية ربانية إلى أمثل منهج يحقق للإنسان السعادة في الدنيا والآخرة ، في شئون الدين والعبادة ، وفي تدبير مصالحه الدنيوية . إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ، فهو يهدي الإنسان إلى المهج الذي اختاره الخالق سبحانه لعبادته ، ويهديه إلى خير الوسائل التي تضمن له الحصول على ما قرره الله له من حقوق ، والقيام بما ألزمه به من تكاليف ، ومقررات القرآن الكريم ، وتوضيحات السنة الصحيحة لمبادئه ، مقررات ثابتة لا يجوز العدول عنها لمهوى النفس ، وتبدل الأوضاع .

ثانياً - حرص الإسلام العمل على التحرر من قيود الجلود التي فرضتها الوراثة عن الجلود ، وكان تحريضه بالغاً عند ما فرض له تعدد الآلهة ، ورتب ما رتب على التعدد من فساد ، فتحرر العقل وتوصل مقتنعا إلى ما دعا الإسلام إليه من وحدانية الخالق وتفرده وحده بالخلق والإيجاد ، فاستبان للناس - أن الخالق واحد وهو المالك لكل ما خلق ، فالكون ملك لله ، والناس عبيد لله ، سواء في ذلك آحاد آدميين وخاصة الرسل والأنبياء ، وبهذا المبدأ السامي ألغى الشرك في العبادة (الشرك الديني) وألغيت الفروق بين الناس (الشرك الاجتماعي) ، فكما أنه ليس من العمل عبادة غير الله مما خلق ، فليس كذلك من العقل التفرقة بين الناس الأحرار المتساويين في الخلق والعبودية للخالق ، بدافع من جنس أولون ، أو بدافع من حسب ونسب ، أو غنى وفقر ، فكل هذه الفروق لا اعتبار لها عند وزن النعيم ، وفي ذلك يقول الله سبحانه : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم » . « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة » . ويقول الرسول الكريم (الناس سواسية كأسنان المشط لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى ، الناس لآدم وآدم من تراب)

وقد جعل الإسلام مقياس الفضل والكرامة ، هو حسن العمل ومدار النفع الذى يقدمه الشخص للإسلام والمسلمين ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم . فأفضل الناس أبعدهم عن الشرك وأنفعهم للناس ، وأشق الناس من شق به الناس ، من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلحيثه حياة طيبة ، حرية تامة ، ومساواة مطلقة ، لا يمتدحها إلا صالح الإسلام والمسلمين ، والناس فى ذلك سواء ، ليس لأحد أن يبتغى عزة أو سيادة على أخيه ، فإنه من كان يريد العزة ، فله العزة ولرسوله وللمؤمنين ، ومن ابتغى وراء ذلك فهم العادون . فله سبحانه هو السيد وخلائقه هم عبيده ونسبتهم إليه واحدة ، يعيشون فى ملكه الذى خلقهم ، وسخر لهم ما فيه .

ثالثاً — المجتمع المسلم . هو مجتمع يقوم على مبادئ الإسلام ، ويرتبط أفراداه بجملة روابط قوية ، تتحكم فى قوته ، وتوجهه إلى الهدف المنشود . يرتبط بين أفراداه اعترافهم بالسيادة المطلقة لله رب العالمين ، لأنه الصانع الذى يملك ما صنع ، وترتبط بينهم أخوة إنسانية عامة : لأنهم بنو أب واحد وأم واحدة ، وترتبط بينهم أخوة فى الإيمان بالإسلام ، عمدها الله بينهم لتكون منهاجاً لتحقيق الأخوة الإنسانية العامة فى محيطها الواسع ، إذا رغبت الإنسانية فى سعادتها بالإسلام ، وترتبط بينهم وحدة الهدف ، وهو نشر الإسلام ، للبلوغ بالإنسانية كلها ، إلى الكمال والسعادة والسلام ، وترتبط بينهم وحدة التكليف لبلوغ الهدف . فلا اختيار ولا امتياز لأحد فى التكليف الربانية ، يستوى فى ذلك المسلم الأول صلوات الله وسلامه عليه وأصغر المسلمين شأنًا ، ويرتبط بينهم مسئولية عامة مشتركة عن سلامة الدين وسلامة الفرد والجماعة ، وتوفير كل مستطاع من وسائل الحياة الحرة الكريمة للفرد والجماعة .

رابعاً — هذا المجتمع الذى يقوم نتيجة لمبادئ الإسلام ، ويرتبط أفراداه بهذه الروابط ، هو مجتمع يقوم فى أرض الله ، وجموعة أفراداه (الأمة) محاطة رأساً بتكليف الله (يا أيها الناس) . (يا أيها الذين آمنوا) ، (افعلوا الخير) ، (واعبدوا الله ولا تشركوا) ، وخطاب الله للأمة شمل جميع التكليف الفردية كالصلاة والزكاة والصوم ، والجماعية كالحكم ولوازمه من إقامة العدل وتنفيذ الحدود . وإذا حكمت بين الناس أن تحكموا بالعدل . ، والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما ، والزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ... الخ . وهذه المجموعة قد استخفها الله فى أرضه لعبارتها وإقامة أحكامه المكلفة بها ، فكل

ما تملكه فبملك الله ، « وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه » ، « وكلوا من رزقه » .
وهذه الأمة المخاطبة المكلفة المسئولة ، هي الأمة الإسلامية ، فإن عاشت كلها
تحت لواء واحد ، وحكم واحد ، وخضعت لمعدرات واحدة ، في الأرض المحدودة
التي تعيش فيها شعوبها ، والتي لا يسيطر عليها غير أبنائها ، ولا تخضع سيادتها
لسيادة غيرها - كما كان الحال في عصور الخلافة الإسلامية مثلاً - إن كانت كذلك
قامت الدولة الإسلامية . التي تظل الأمة الإسلامية ، وإن عاشت شعوبها مستقلة
كل شعب في أرضه ، يحكمه حاكم خاص ، غير حكام بقية شعوبها ، قامت في أرض
كل شعب دولة مسلمة - كما هو الحال اليوم - تتميز بكل مميزات الدولة ، ولكن
هذا الاستقلال والامتياز يجب ألا يخرجها عن أن تكون حلقة قوية في سلسلة
الدولة الإسلامية الكبرى « كالبيان يشد بعضه بعضاً » .

خامساً - كل دولة لها سيادة عامة على فيها وأرضها وكل مقدراتها لا تخضع
لسيادة دولة أخرى في شيء من ذلك . والدولة الإسلامية ، لها شخصية معنوية ،
هي مناط التكليف والمسئولية . وهي التي رد الله إليها العزة والسيادة في أرضه التي
يعيش فيها ، بعد الله ، والرسول الذي أبلغ إليها شرع الله ، ووكل الله إليه تنفيذ
أوامره والإشراف على مقتضيات سيادته ، إماماً ، وقاضياً ، وقائداً ، وحاكماً عاماً
للمؤمنين ، « والله العزة والرسول وللمؤمنين » ، « إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق
لتحكم بين الناس بما أراك الله ، ولا تكن للخائنين خصيماً » . فالأمة لها على
نفسها - بعد الله والرسول - السيادة المطلقة نيابة عن الله ، لا ينازعها فيها منازع .
لها كلها كمجموعة - لا لمرد من أفرادها ، ومن حق هذه الأمة المكلفة المسئولة ،
أن تختار من يباشر سلطتها نيابة عنها - فرداً أو جماعة - لأنها مجتمعة لا تستطيع
مباشرة تكاليفها ، وهذا الاختيار من الأمة يقوم على الرضا ، وتوخي المصلحة
العامة ، لا بقر ولا جبر ، ولا خديعة ، ومن تختاره الأمة لقيادتها يخضع
لرقابتها ، وليس له شيء من السيادة عليها ، لأنه وكيل يخضع لما يخضع له الوكيل
في سائر العقود ، من رقابة الأصيل الذي يحدد له تصرفاته ، ومن هنا جاء الشبه بين
نظرية الإسلام ونظريات التعاقد ، فهناك حقيقة تعاقد بين الأمة ، ومن تختاره
لقيادتها يمثل في البيعة على كتاب الله وسنة رسوله وصالح المؤمنين ، وتعهده هو
بالعمل على ذلك ، ولكن شتان بين التعاقد في نظريات غير المسلمين ، والتعاقد عند

المسلمين ، فالأول تعاقد يقوم على تنازل الأفراد عن شيء من حقوقهم لمن يختارونه وسلطانهم عليه بعد ذلك منعدم أو محدود ، أما تعاقد المسلمين ، فهو مجرد توكيل للحاكم يباشر بمقتضاه . وفق شروط خاصة ، سلطات الأمة . ويخضع في جميع أموره لسلطان الأمة ورقاتها ، وليس له عليها سوى حق الطاعة إذا ألزم الشروط التي تعاقدوا عليها معه . وستحدث عن ذلك فيما بعد بشيء من التفصيل .

سادساً : الدولة التي تقوم وفق ما ذكرنا من القواعد السابقة هي : دولة الله !! بمعنى أن الله هو حاكمها ومالكها والمشرع لها ، وصاحب السيادة المطلقة عليها ، لا ينازعه في ذلك منازع مما خلق ، وأن الأصل فيها ، هو تكليف الله للأمة ، ومسئوليتها عن صالح الدين والأفراد أمامه سبحانه ، وإذابة الله للأمة عنه سبحانه ، في مباشرة السيادة عليها ومقتضيات هذه السيادة : ونحب أن نشير هنا إلى أن النبي محمدأ صلى الله عليه وسلم ، قد حرص تمام الحرص على أن يحمل هذا المعنى لاتباعه وخصومه على السواء ، حتى في أيام المحنة الكبرى ، عند ما ثار كثير من القبائل على سلطانه ودينه ، وتنبأ كثير من الناس بدافع العصية والحسد للرسول ولقريش فقد كتب مسيلة الكذاب إلى الرسول الصادق عليه السلام - يقول : إن الله قد أشركني معك ، فلنا نصف الأرض ولقريش نصفها . ولكن قریشاً قوم لا يعدلون يريد مسيلة - وقد ظن الرسالة ملكاً أو تهدي إلى الملك - أن يقتسم الملك والسلطان مع الرسول القرشي في وقت تألبت عليه فيه قبائل كثيرة في اليمن وفي نجد وفي البصرة وفي بني حنيفة وغيرهم ، وقدر أن الرسول في محنة هذه ، لا بد أن يجيبه ، ولو أن شيئاً من ذلك كان جائزاً في نظر الرسول عليه السلام لأجابه وحل الأزمة ، وأراح الإسلام والمسلمين من شرور كثيرة متوقعة ، ولكنه عليه الصلاة والسلام رد عليه يقول : بعد الحمد لله والناء عليه وإظهار كذب مسيلة : « إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين » وقد قال عليه السلام لواحد من أتباعه قد تلجج أمامه في الكلام « هون عليك فلست بملك فأستعبدكم ، إنما أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد بمكة » ، وهذا هو معنى قول الله سبحانه وتعالى للرسول : « لست عليهم بمسيطر » .

وفي الكلمة التالية إن شاء الله تناقش نظرية الإسلام معارضة بنظريات غير المسلمين ، والله يوفقنا إلى الحق ويهدينا سواء السبيل .

على هامس الجولد والهجرة

نفسية الأستاذ الشيخ محمود محمد

المدرس بكلية اللغة العربية

دخل المدينة أول نفر قبلوا الدعوة ، وأذعنوا الحق ، وبايعوا على النصرة والحماية والمناصرة ، وكانوا ستة من الخزرج هم : أبو أمامة أسعد بن زرار ، وعوف بن الحارث ، ورافع بن مالك ، وقطبة بن عامر ، وعتبة بن عامر ، وجابر بن عبد الله . رضى الله عنهم أجمعين ، بعد أن سبقهم إليها أخبار تطايرت من مكة ، وأوصاف تناقلها الوافدون ، وحكاها المعجبون ، أمثال : إياس بن معاذ ، وأضرابه ممن صدوا عن قبولها وانتهروا في سبيلها .

واستقبل السابقون الأولون من الانصار بالفرح والقبول ، واتسع لهم من نفوس القوم ما جعلهم يجهرون بالدعوة وينادون بالإيمان ، ففشا الإسلام في ربوع المدينة ، ودخل الإيمان إلى بيوتها ، حتى لم يبق دار إلا عمرت بالتوحيد ، وآمنت برسول الله .

وانتهجت الأنظار نحو مكة ، واشتافت كثرة من الانصار لمشاهدة الداعي . ومبايعة التائم على أمر الله ، وطلبوا لقاءه ليروا بأبصارهم ما أعجبهم الحديث فيه ، والسماع عنه .

وترقبوا الموسم القابل إلى أن حان حينه ، وحل أوانه فتنبأ للرحلة منهم عدد شاركت النساء فيه الرجال ، وشدوا الرحال إلى مكة ، يطلبون الهدى والإيمان ، وما إن وصلوا حتى تلقوا إلى محمد صلى الله عليه وسلم فلم يعوزهم طلبة ، ولم يشقهم شدة ، وبعثوا عرفاءهم يتوسمون وجهه الكريم ، ويتعرفون عليه ، فالتقوا به جالساً بجوار عمه العباس في بيت الله المحجوج ينظر إلى الكعبة رمز التوحيد ، وقبلة الموحدين ، قلباً وقعت أبصارهم عليه ، سارعوا إليه ، فأجبروه خبرهم ، وأعلموه أن وراءهم من جاء راغباً في دينه ، محباً في لقائه ، فوعدهم العتبة إلا .

وفرّح الرسول صلوات الله عليه بهم فرحاً شديداً ، فقد أصاب قوماً يحثون عن الحق ، ويرحلون في طلب الهدى ، بعد أن أعياه التعب ، وأكده التعب في عرض الحق على من تنكروا له ، ورفضوا الاعتراف به ،

ويروى أبو الزبير عن جابر وهو يصور صنع الناس مع الرسول ، وصنع الأنصار خاصة معه ، أن النبي صلى الله عليه وسلم لبث عشر سنين يتبع الناس في منازلهم في الموسم ومجنته وعكاظ يقول : « من يؤمنني ، ومن يؤمنني ، ومن ينصرني حتى أبلغ رسالات ربّي فله الجنة ، فلا يجد أحداً ينصره ولا يأويه ، حتى إن الرجل ليرحل من مضر أو اليمن إلى ذي رحمة فيأتيه قومه فيقولون له : احذر غلام قريش لا يفتكك ، ويمشي بين رجالهم يدعوهم إلى الله وهم يشيرون إليه بالأصابع . حتى بعثنا الله من يثرب ، فيأتيه الرجل منا فيؤمن به ويقرؤه القرآن فينقلب إلى أهله فيسلمون بإسلامه . حتى لم يبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رهط من المسلمين يظهرون الإسلام ، وبعثنا الله إليه فاتمروا واجتمعوا ، وقلنا : حتى متى رسول الله صلى الله عليه وسلم يطارد في جبال مكة ويخاف ، فرحنا حتى قدمنا عليه وواعدنا العقبة . »

والتفت العباس إلى النبي وقال له يا ابن أخي : ما هؤلاء القوم الذين جأؤوك إلى ذو معرفة بأهل يثرب ، وهؤلاء أحداث لا أعرفهم ؟ فأعلمه خبرهم . وذهب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى العقبة ، وتسلل إليه ثلاثة وسبعون رجلاً وامرأتان خفية من قومهم ومن كفار مكة ، واجتمعوا عليه من رجل ورجلين وصحب الرسول إذ ذاك عمه العباس وابن عمه علي بن أبي طالب - على ما يقوله بعض الرواة - وتقدم إليه الوافدون . وقالوا يا رسول الله « علام نبايعك » ؟ قال : « على السمع والطاعة في النشاط والكسل ، وعلى التفتة في السر واليسر ، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وعلى أن تقوموا في الله ، لا تأخذكم لومة لائم ، وعلى أن تنصروني إذا قدمت عليكم ، وتمنعوني عما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبنائكم ولكم الجنة . » فقام القوم يبأيعونه ، وأخذ بيده أصغر السبعين

«أسعد بن زرارة» فقال : «يويدأ يا أهل يثرب ، إنا لم نضرب إليه أكباد المطى إلا ونحن نعلم أنه رسول الله ، وإن إخراجهم اليوم مفارقة العرب كافة وقتل خياركم ، وأن تعضكم السيوف ، فإذا أنتم تصبرون على ذلك نخذوه وأجركم على الله ، وإما أنتم تخافون من أنفسكم خيفة فنفرو ، فهو أعذر لكم عند الله . فقالوا يا سعد أمط عنا يدك ، فوالله لا نذر هذه البيعة ولا نستقبلها ، فقمنا إليه رجلاً رجلاً مبايعين ، وقامت المراتان وهما «نسيبة بنت كعب بن عمرو» و «أسماء بنت عمرو بن عدى» فبايعهما الرسول صلى الله عليه وسلم من غير مصافحة - جرياً على عادته من التجافى عن مصافحة النساء .

وصرخ الشيطان على العقبة ، وانفض القوم إلى رحالهم ، وتطايير الخبر إلى قريش . فقدمت جلة من أشrafهم حتى دخلوا شعب الأنصار فقالوا : «يا معشر الخزرج إله بلغنا أنكم لقيتم صاحبنا البارحة ، وواعدتموه أن تبابعوه على حربنا ، وأيم الله ما حى من العرب أبفض إلينا من أن يشب بيتنا وبينه الحرب منكم ، فانبعث إليهم من المشركين ما نفى الخبر وكبر الخطب ، وعظم على نفسه أن يكون من الأنصار ذلك دون أن يأمره أو يشاوره ، وعد ذلك افتياتاً من قومه لو أنهم فعلوه .

ورحمت قريش وهي تعلم أن إيمان الأنصار حقيقة واقعة ، وأنه لا بد من تعويقهم وصدمهم حتى لا يكون لرسول الله في الجزيرة أرض تبعه ولا نفوس تؤمن به يشع منها نور الله على أرجاء الأرض .

وتلاحق المسلمون ، وجدوا في الرحيل عن مكة وتبعهم قريش ، وأدركوا منهم سعد بن عباد فربطوا يديه إلى عنقه وضربوه وجروه إلى مكة ولولا المطم ابن عدى ، و «الحارث بن حرب» - وهما أهل النجدة والإتياذ - ما برح مكة ولا لحق بأصحابه ، وأرسل الرسول معهم «ابن أم مكتوم» و «مصعب بن عمير» ليعلمان من أسلم القرآن ، وجمع بهم مصعب أول جمعة في الإسلام .

عند ذلك شعر صلى الله عليه وسلم أن الدعوة الإسلامية التي ظلت طويلاً تبحث عن وطن تأمنه وشعب تركز إليه قد أصابت طلبتها ووقعت على غرضها ، وأن المدينة أصبحت أولى بلاد العرب باحتضان الدعوة ، وحماية الدين .

وإذن صلى الله عليه وسلم لأصحابه المضطهدين أن يخرجوا إليها بدينهم ويفروا لها بإيمانهم فتجهزوا وحلوا الزراري والأطفال والأموال إلى المدينة، وأزعج ذلك قريشاً، فإن الأوس والخزرج أهل شوكة وبأس، ودارهم دار منعة وقوة.

وضجت قريش لهذا النبأ الجديد فظالموا قدروا فيما بينهم أن أمر محمد حين، وأن استخفافهم به كاف في رده عن قصده، ودفعه عن عايته.

وها لم أن يجد بحجابه من ينصر دعوته، وينشر دينه، ويأوى إليه ويؤازره. ثم هو قد أزمع على الرحيل، وبدأ بترحيل أصحابه، وهو إن لحق بهم قامت دولته وانتشر دينه، وفوت على أصحاب الرياض الكاذبة أغراضهم وآمالهم. واجتمعوا في ناديتهم اجتماعاً حضره أهل الرأي والحجاء، وعرضوا قضية محمد عرضاً جديداً. وبحشوا أمره على ضوء ما جد من حوادث، وأدل كل برأيه، وصرفهم الشيطان عن كل رأى يبق أنفاس محمد على الأرض. لذلك أعجبهم وأعجب شيطانهم رأى أبي جهل بقتله، واشترك القبائل في ذلك اشتراكاً يوزع دمه حتى تتوء عبد مناف بنأره وترضى بدينه، وخرجوا من ناديتهم، وقد أحكموا المؤامرة وعقدوا التية على التنفيذ.

وأعلم الله رسوله بما بيت القوم، كما أعلمه بما يتخذة حيال ضيقهم، فأمره أن يفر بدينه إلى المدينة. فإن مكة لم تنهأ بعد لقبول الدعوة، وقد أعذر محمد لقومه وعشيرته، فقد لبث فيهم ثلاث عشرة سنة من عمر نبوته يدعوم فيها إلى الحق والنور والسيادة والعزة والدنيا والآخرة، ولكن صادقته قلوب عليها أقامها. ونفوس أوصدت عن قبول الحق، وانصرفت عن الهدى إلى متابعة الشيطان، وأى شيء يلزمه بالبقاء فيهم. وفي الأرض سعة لقبول الهدى ونشر الدين.

وما كان محمد صلوات الله عليه ليفر من مكة ناجياً بنفسه مما أصابه ولا منخلصاً من آلام جسمية أو معنوية تعرض لها، فكل ذلك حين أمام عزيمة أولى العزم، ولكن الباعث الذي دفعه إلى ترك أحب البلاد إليه هو حرصه على تبليغ رسالة ربه، بعد أن ضاقت مكة ذرعاً بالحق، وأوشكت الدعوى أن يتضى عليها في مهدها، ولم يبق من عمر الرسالة سوى مدة قصيرة لا تكفى لنشر دين الله وبث تعاليمه وإصلاحاته. فكان لابد من الالتجاء إلى مكان تلوى فيه كلمة الحق، وتعر فيه الدعوة، وقد كانت طيبة، أرجى أرض الله لنشر كلمة الله ونصرة دينه.

أبو العيْناء، الضَّرير

نفضيلة الأستاذ الشيخ محمود النوارى

المفلس بالأردن

هذه شخصية طريفة عظيمة ، قد أوتيت من سعة الذرع في الثقافة والأخذ بأطراف العلوم والمعارف الشيء الكثير ، فأبو العيْناء يشبه من هذه الناحية ابن جرير الطبري ، إلا أنه قد غلبت عليه نواحي الأدب ورواية أخبار العرب ، وهو غير متحفظ من الهزل ولا المجون ، ولا متعبد بقيود الترمذ الديني . كإبن جرير الطبري .

ولا بد للقارىء أن يفتعل بين الجد والهزل ، وأن يستجم نفسه بشيء من اللهو ليستعين به على الحق ، وأن يسوسها بطرائف الأدب ، لينأى بها عن العطب :

لا يصلح النفس إن كانت مدبرة إلا التقل من حال إلى حال

وأبو العيْناء من هاته النواحي أقرب شهاً لصديقه الجاحظ ، فكل منهما من ظرفاء العالم وأحدهم ذكاه ، وأبرعهم نكتة ، وأغزرهم ثقافة ، وأجولهم في شعاب الأدب العربي ، وأكثرهم رواية للأخبار ، وأظفهم أسلوباً ، إلا أن الجاحظ كان من المؤلفين ، وكان له في التأليف آثاره الطيبة الخالدة في شتى العلوم والمعارف على اختلاف ضروبها .

ولعل هذا الضرير لو استدام له بصره ، لاستطاع أن ينافس الجاحظ في ناحية التأليف أيضاً ، ولكنه عمى في سن الأربعين تقريباً ، على أنه كتب قبل ذلك السن ، وجمع كثيراً من الأحبار والآثار ، ثم لم يطرد له ذلك ، وإذا كان الشيء بالشيء يذكر ، فإن زمن كل من الجاحظ وهذا الأديب يسبق زمن الطبري بقليل ، والجاحظ أسبق الملائة في الولادة وفي الوفاة^(١) .

[١] ولد الجاحظ سنة ٢٦٠ وتوفى سنة ٢٥٥ هـ . وولد أبو العيْناء سنة ١٧٠ وتوفى سنة ٢٨٠ هـ .

ورلد الطبري سنة ٢٢٤ وتوفى سنة ٣١٠ هـ كما في تاريخ ابن خلكان .

كانت ولادة أبي عبد الله محمد بن القاسم بن خلاد بن ياسر . الذي نريد الحديث عنه . في سنة ١٧١ هـ ووفاته في سنة ٢٨٣ هـ بالأهواز ، وتذكر بعض الروايات أن ولادته كانت سنة ١٩٩ هـ ، مع الاتفاق على سنة وفاته ، فقد شهد العهد الذهبي العباسي ، وعاصر ثلاثة عشر من الخلفاء العباسيين ، أولهم هرون الرشيد ، وآخرهم المكتفي بالله ، واتصل بالخليفة المتوكل اتصالاً ظاهراً ذا أثر بين في حياته ، وله معه أخبار يمر بك بعضها إن شاء الله .

كان إذاً في عصر يشجع العلم ، ويرفع شأن رجاله ، وهو من الذكاء على ما أشرت لك سابقاً . ونشأ في البصرة وهي لا تزال بجمع الفقهاء والرواة والمحدثين وأئمة اللغة والأدب ، فكرع من حياض العلم بها ، وكتب عن خيرة رجالها من أئمة الحديث والأدب . وله روايات لبعض أحاديث يذكرها الرواة ، على أنه لم يكن بالحجة ولا الموثق ، ومن سمع منهم وأخذ عنهم الأصمعي ، وأبو زيد ، وأبو عاصم النبيل وغيرهم من عمد الأدب وأخبار العرب ومن ملأوا الدنيا معرفة ، وسطرت أخبارهم في كتب الأدب واللغة ، خالدة مشعة فياضة ، فما ظنك بمن يأخذ عنهم شفاهاً ويروي عن عدد منهم ، وهو في مثل ذكاء أبي العيناء وحرصه ، وقد ارتحل من بلده لذلك الغرض . وقد كف بصره كما قلت لك بعد أن بلغ الأربعين . ثم ارتحل إلى بغداد معلماً يركي ما أخذ ، ويأتمن ما جمع ، ويملي على الناس الأخبار ، والأدب والشعر ، وعاد إلى البصرة في آخر حياته فتوفي بها .

أما أصله فمن بني حنيفة ، من سبي اليمامة في أيام الخليفة المنصور ، فلما صار ياسر في قيد المنصور أعتقه . وأما ما أصابه من العمى فيذكر الناس له حديثاً طريفاً يفيد أنه ورائي ، ويقول صاحب معجم الأدباء ، وصاحب زهر الآداب : إن ذلك كان بدعوة من علي بن أبي طالب علي جده الأكبر الذي كان يلقى علياً ، فأساء مخاطبته ، فدعا عليه بالعمى ، فهم يتوارثونه فكل أعشى فيهم صحيح النسب ، ويقول الخطيب : إن الدعوة كانت من عبد الله بن حسن العلوي على جده الأدنى (خلاد) .

ويروي ذلك عن أبي العيناء نفسه . خلاد كان جاسوساً من قبل المنصور على مناوئة عبد الله بن حسن ، في صورة المشايخ له ، وقد زوده المنصور بالأموال

يذلها لعبد الله بن حسن ويتعاون معه في الظاهر ، ولكنه يكتب إلى المنصور بأنفاسه ، وأحوال أبنائه وشيعته ، وكان عبد الله بن حسن راضياً عنه معجباً به ، فلما اتصلت به حقيقة خبره ، دعا بالعمى عليه وعلى نسله ، فهم يتوارثون ذلك . أما نحن فسواء عندنا أصح الخبر الأول أم الثاني ، أم لم يصح واحد منهما ، مادامنا قد علمنا أنه عمى بعد الأربعين . وأن ذلك العمى كان له أثره في بعض ما كان له من صفات تبدو في أخباره ، وتمثل في آثاره الحسن منها والسيئ . فقد أفاد منها كثيراً في إلهاب جذوة النشاط الفكري ، وقوة الحافظة والذاكرة ، وصرفته عن بعض نواحي اللهو التي لا مآرب فيها لأمثاله إذ ذاك ؛ على أنه قد أساء إليه فيما كان يلم به من بعض الضغن والحسد على خلق الله ، مما يتجلى في السب والظن الذي ترامت أخباره إلى الخليفة المتوكل ، وقد حاول أن يحوله عنه فكان يحتج له ويدافع عنه فيقول في بعض دفاعه :

« يا أمير المؤمنين قد مدح الله وحم ، فقال (نعم العبد إنه أواب) ، وقال (همار شاء بنعيم) »

وقال الشاعر :

إذا أنا بالمعروف لم أئن صادقاً ولم أشتم التمسك التميم المذمماً
فصيم عرفت الخير والشر باسمه وشق لي الله المسامح والقها ،
وقد رفع عنه شيئاً من برقع الحياء ، فكان يواجه بالمكروه ما يبالي شيئاً .

روى صاحب زهر الآداب عنه قال : « كان عيسى بن فرخان يديه على في ولايته الوزارة ، فلما صرف عنها رهبن ، فلقيني فسلم على فأحني فقلت لعلامى : من هذا ؟ قال : أبو موسى ، فدنوت منه وقلت :

« أعزك الله ، والله لاند كنت أفنع بإيمانك دون بيانك . وبلحظك دون لفظك ، والحمد لله على ما آلت إليه حالك ، فلئن كانت أخطأت فيك النعمة ، لقد أصابت فيك النعمة . ولئن كانت الدنيا أبدت مقابحها بالإقبال عليك ، لاند أبدت محاسنها بالإدبار عنك ، والله المنة إذ أغنانا عن الكذب عليك ، وترعنا عن قول الرور فيك ، فحمد والله أسأت حمل النعم ، وما شكرت حق المنعم . »

فهذه مواجهة من أسوأ المواجهات ، ومهاجمة من أنزل المهاجمات ، لا ينتصب لها إلا مثله وكفى بها دلالة على مقدار ما صنعت به علته ، على أن لها دلالتها على بلاغة الرجل وطول نفسه في البيان .

وقد سأله القاضي العظيم ابن أبي دؤاد : ما أشد ما أصابك في ذهاب بصرك ؟ فقال له : أمران ، يدؤني قوم بالسلام وكنت أحب أن أبدأهم ، وأني ربما حدثت المعرض عني وكنت أحب أن أعرف ذلك فأقطع عنه حديثي . فآسأه القاضي بقوله : أما من ابتدأك بالسلام فقد كافأته بحسن النية ، وأما من أعرض عتك فما أكسب نفسه من سوء الأدب أكثر مما وصل إليك من سوء اجتماعه .

وفي أخباره ما يدل على أنه كان قبل العمى أحول . روى الخطيب بسنده إليه ، قال مدحني أبو العاليه بقوله :

كنت لابن قاسم مآثرات فهو للمجد صاحب وقرين
أحول العين والمودة زين لا أحوال بها ولا تلون
ليس للمرء شائناً حول العين ، إذا كانت فعله لا يشين

فلما سمع محمد بن المزياني الآيات قال : يا أبا عبد الله وكنت قبل أن يذهب بصرك أحول من حول إلى عمي ، من سقم إلى بلا وانظر ما أجابه به أبو العيناء لتعلم ما أوتيته من السلاطة وما مني به من قلة التحفظ ، وما أكسبته تلك العامة من غيظ . قال أبو العيناء لابن المزياني : هذا أظرف خبر تصعد به الملائكة إلى السماء اليوم . أيما أصلح ؟ من السقم إلى البلاء ، أم حال العجز أصلحها الله من الزنا إلى التيادة . لقد رمى أم صاحبه بأخش ما ترمى به النساء . وسترى أن ذلك العمى قد فوت عليه فرصة منادمة المتوكل ، وأوجب له عقدة نفسية واضطراباً .

• • •

فأما كنيته (أبو العيناء) ، فإنها ترجع إلى عهد اتصاله بأستاذه في العربية أبي زيد بن أوس الأنصاري قبل أن يكف بصره وهو يطلب العلم بالبصرة ، ولعله كان أعين واسع العين إذ ذاك . فقد عاد إلى البصرة من بغداد في آخر حياته ، وكان محبو العلم والأدب يصيرون إليه في داره يسمعون كلامه ، ويكتبون عنه ، فسأله

سائل : يا أبا عبد الله كيف كنت أبا العيناء : قال : قلت لأبي زيد كيف تصغر عينا ، قال عينا ، يا أبا العيناء .

كانت البصرة كما رأيت مستراد أبي عبد الله ومذهبه ، ومسعاه في جمع العلم وتحصيله ، وأنا أستظهر أنه تعلم يبلده الأولى (الأهواز) ، شيئاً من مبادئ العلم كما هو الشأن في بدء تعليم العلماء حين يقوم آباؤهم بشؤونهم . وإن ما يذكره الأدباء والأخباريون حوله ، يدل على أنه التمس بالبصرة الحديث والأخبار ، وكان همه أن يجمع الشعر والأدب والرواية ، ويقول الخطيب في بعض أخباره : أنه أتى أبا عبد الله الخريبي من علماء السنة بالبصرة لجرى بينهما ذلك الحديث :

الخريبي — ما جاء بك ؟ أبو العيناء — الحديث .

الخريبي — اذهب فاحفظ القرآن . أبو العيناء — قد حفظت القرآن .

الخريبي — اقرأ واتل عليهم نبأ نوح . قال أبو العيناء : فقرأ العشر حتى أنعدته .

الخريبي — اذهب الآن فتعلم المرائض . أبو العيناء — قد تعلمتها .

الخريبي — أيما أقرب إليك ابن أخيك أو ابن عمك ؟

أبو العيناء — ابن أخى الخريبي — ولم ؟

أبو العيناء — لأن أخى من أبى وعمى من جدى .

الخريبي — إذ ذهب الآن فتعلم العربية . أبو العيناء — قد تعلمتها .

الخريبي — لم قال عمر بن الخطاب يال الله يال المسلمين ، لم فتح تلك وكسر هذه ؟

أبو العيناء — فتح تلك اللام على الدماء ، وكسر هذه على الاستغاثة والاستنصار .

الخريبي — لو حدثت أحداً حديثك .

وأقام أبو عبد الله بالبصرة حتى عظم شأنه ، فأفاد العلم والمال والجاه والمنزلة .

وفى كلام بعض الشعراء ما يدل على أنه أفاد بالعمى بعض المادة والثراء

قال أبو علي البصير :

قد كنت حفت يد الزمان عليك إذ عمى البصر

لم أدر أنك بالعمى تقنى ، ويفتقر البشر

وفى البصرة جرى عليه ما وصله بالماضى ابن أبي دؤاد رحمه الله ، فازداد رفعة

ونباهة ، بعد محنة كادت تعصف به ولكن الفضل يعرفه ذووه .

روى الخطيب بسنده إلى أبي العيناء قال : كنت في أيام الوراق مقيماً بالبصرة ، فكنت يوماً في سوق الوراقين بها ، إذ رأيت منادياً ينادي على مصحف علق الأداة ، فقلت له : ناد عليه بالبراءة مما فيه ، وأنا أعني به أدانته ، فأقبل المنادي ينادي بالبراءة مما في المصحف ، فاجتمع أهل السوق والمارة على المنادي ، وقالوا يا عدو الله تنادي على المصحف بالبراءة مما فيه وأرقعوا به . فقال لهم ذلك الرجل أمرني فتركوه وأقبلوا إلي ، وتجمعوا عليّ ، ورفعوني إلى الوالي ، وعملوا لي محضراً ، وكتبوا إلى السلطان ، فحول أمرى إلى التماضي ابن أبي دؤاد فتكفل بالعص عنه .

وتابعت الكتابة في شأنى فملت لأبى دؤاد : قد كثر تجمع هؤلاء الجمع على وهم كثير ، فقال - كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله .

فملت : قد بالعوا في التشنيع عليّ ، فقال : لا يحق المكر السيئ إلا بأهله .

فملت : إني على غاية الخوف من شرهم ، ولن يخرج أمرى من يدك .

فقال : لا تحزن إن الله معنا - فملت : التماضي أعزه الله كما قال الصموت الكلابي

لله درك أى جنة حائف ومتاع دنيا أنت للحدثان
متحط يظأ الرجال بنعله وطء العتيق دوارج الفردان (١)
ويسكبهم حتى كأن رؤوسهم مأومة تتحط للغربان
ويفرج الباب الشديد رتاجه حتى يصير كأنه بابان
فقال القاضي - يا غلام : النواة والنمرطاس - أ كتب الآيات .

ولم يزل يتلطف في أمره حتى أخرجه . . . وقد طال بما القول طال دون أن تمتع القارىء بتقصه الطريقة مع الغلام الذى أخرجه من البصرة ، ولا أن تتحبه بشيء من أدبه في الثر والشعر ، غير ما مضت مناسبتة ولا بشيء من نكته وملحه وأجوبته المسكتة ، قال العدد التمام إن شاء الله .

(١) البيت كناية من سطوته حتى إنه لا يبال بالرجال كما لا يبال الفحل إذ وطء الفردان

الإيمان بالله

مفتي الأزهر الشريف الشيخ إبراهيم علي أبو الخشب

المدرس بكلية الشريعة

القرآن الكريم . حينما يلفت أنظارنا إلى ملكوت السماوات والأرض ، ويدعونا إلى النظر فيه ، والتأمل في صنع ، الله الذي خلق كل شيء ، لا يقصد بذلك كله أن نمتنع الحاضر بدقة نظامه ، وبديع هندسته ، ورائع تصديقه ، وغريب تسخير ، الذي أذهل العقول ، وأدهش الأفكار ، وحير الأفتدة ، وهال البصائر ، فإن ذلك أبعد ما يكون عن قصده سبحانه ، لأنه غنى عن العالمين .

ولكنه لما خلق الإنسان في أحسن تقويم ، كرّمه عن الدلة ، ورفع من المهانة ، وسما به عن الصنعة ، وباعد بينه وبين الإسفاف ، لجعل له العزة دون المحلوقات ، ولا يتم له ذلك على وجهه الصحيح ، ما لم يعمر قلبه بالإيمان بالله الذي خلق الماء والهواء ، ونحّم في الوجود والفناء ، وقضى بالصحة والمرض ، والغنى والفقر ، ووزع الحفظ والأرزاق ، ومن الغريب أن العبد إذا ما خضع للعبد ، ذهب ماء وجهه ، وضاع الكثير من آدميته ، وفقد مهابته واحترامه ، وصار أشبه بالذابة الذلول ، التي يستخدمها المستخدمون في قطع المسافات ، ونقل المتاع ، وجزر العربة ، وشق الأرض ، وسقى الزرع .

وعلى العكس من ذلك ، إذا ما تراءى على عتبات سيد الوجود ، وتفاق في ذات المعبود ، وبالغ في الزلنى من رب الأرباب ، ومسبب الأسباب . والر في ذلك أنه جل جلاله لا يُستمر عبده بهذا الخضوع ، ولا يزيده ذلك جبروتا ولا عظمة ، فقد تنهى مجده ، وامتد سلطانه ، وانبسط في الملكوت كله جاهه ، فلم يعد بحاجة إلى طاعة الطائعين ؛ على أن ذلة المكلفين له ، أو نزولهم على إرادته ، وانقيادهم لأمره ، هو أصل الفطرة ، واستجابة الغريزة ، وتجاوب الطبع ، وحكم العادة . ولذلك يستشعر المسلم منه الكرامة والإباء ، والترفع والتعالى ، والتناول والكبرياء والزهو والخيلاء . وكلما أحس بدنوه من الله ، كلما أحس بأنه يخلق في الدنيا ، ويشرف على البسيطة من عبياء لا يتطلع إليها النظر ، ولا يصل إلى آفاقها الوهم ؛ وربما كان هذا هو السبب في أن المرء حينما يدرك هذا الشأو ، وينتهى إلى تلك الغاية ، يحتقر الحياة والأحياء ،

ويزهد فيما يحتويه ذلك الكون الخادع الخلاب . وهذا هو العلة في أن الله لا يغفر أن يُشرك به ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء . لأن الإشراك يتنافى مع الإيمان بالإله الحق ، والخالق المبدع ، والفرد الصمد . وإلى هنا نستطيع أن نفهم ثورة أسلافنا العلماء على المستلطين من أرباب الحكم والجاه ، والبطش والظلم ، والعسف والظنيان ، ونعلم تأويل قول « الجبائي » : ما في الجبة إلا الله . . .

واقعد كان هذا هو المهدف الذي وقف النبي صلى الله عليه وسلم له سبحة في بادئ الأمر بمكة زهاء عشر سنوات ، يحتمل من قومه من الآثى ، ويلاقى من الهوان ، ويتكبد من الشدائد ، ما لا يصبر عليه إلا الصناديد ، ولا يصمد له إلا الأبطال . وجاء في الكتاب العزيز الأمر به في مواضع متنوعة ، ومواطن متعددة ، وأجمع العلماء على أنه الدعامة التي عليها تستند العميدة ، أو يتركز الإسلام . وعلى الرغم من أن الدين المعاملة - كما يقولون - وإن الناس إنما يهتمون بما يتبادلونه من منافع ، وما يتناوبونه من معونة ، وما يذلونه من بر ومعروف ، فإن الله لا يقيم لذلك وزناً ، إلا إذا كان قائماً على الإيمان به . ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً ؛ والكفار مهما كان سلوكهم الطيب ، وخلقهم الحميد ، ويدم على الإنسانية ، وأثرهم على الإصلاح والعمران ، لا يتقبل منهم صنماً ، ولا يحزبهم على المعروف معروف ، ولا يخفف عنهم شيئاً من عذاب جهنم ؛ يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم بشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار . ولأن هذا الإيمان محل القلب ، فقد طلب منا أن نطهره بالصوم ، ونقويه بالصبر ، وكانت من سنته تعالى المحن يتلى بها الاختيار من عباده ، لا ليعلم منهم ما لم يكن يعلم من الجلد للنوازل ، والرضا بما يقضى عليهم ، ولكن ليراقبوا ضمائرهم ، ويهيمنوا على هواجسهم ، ويتحكموا في دعائل نفوسهم ، ويتصرفوا في شؤونهم بالعقل لا بالهوى . وبالتفكير والرأى ، لا بالزق والطيش ، ونحن معرضون دائماً أبدأ للسوء والغفلة والترك والفسيان .

وجاء الحديث الشريف في أكثر من مناسبة ينوّه بشأن القلب ومكانته بين الجوارح : « إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، ألا وهي القلب » . « إن الله لا ينظر إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » . وكان من السنة وضع اليدين على القلب في الصلاة لإيقاظه فلا يغفل ،

وحرصاً عليه من أن ينصرف عن هذا الاتجاه الذي يتجه إليه المصلى هذا الموقف الذي يتفه. !! ويرى بعض الباحثين أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص ، لأنه من الاعتبارات التي لا وجود لها حتى يتوجه إليها النقصان والزيادة ، وليس يدخل في مفهومه ، الذي هو إذعان القلب وانقياده ، زيادة أو نقص . وإذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول في أبي بكر رضي الله عنه : إنه لو وزن إيمانه بإيمان هذه الأمة لرجع ، فإنه يؤول بما يصرف اللغظ عن الطاهر ، على أن الزيادة والنقصان من الأمور المعنوية التي يدركها الإنسان بآثارها ، ويعرفها بمقدار بواعثها ، فإن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مئتين ، وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا .

والإيمان بالله هو الذي حمل الصدر الأول أن يجاهدوا في الله حق جهاده ، وأن يبذلوا نفوسهم وأموالهم في سبيله ، عن طيب خاطر ، وهدوء بال ، واطمئنان صميم ، وكانت لهم العزة والمهابة ، والمجد والجلال ، والبأس والسلطان .

والإيمان بالله - إلى جانب كونه يربط المرء بربه - يباعد بين صاحبه وبين بعض الصفات الخاتية المردولة ، كالنفاق والملق ، والتواضع المموت ، والكذب البغيض ، ومن هذه يذب الفساد ، وتشيع الصوضى ، وتأصل في المجتمع جرائم من الشرور لا عداد لها ، ولا تخلص منها ، اللهم إلا الإفلاج عن هذا الصغار من السلوك ، وهذا التدلى في الأدب ، وهذا الخلط في المعاملة .

والذي يدرس البيئات المنحطة في طباعها ، الرواية في عاداتها ، المريضة في أخلاقها ، لا يجد إلا أنها متحللة من صفة الإيمان بالله ، متفككة من هذا الرباط المقدس ، وعلى قدر ما نكون الأفراد أو الجماعات آخذة به ، عامرة قلوبها منه ، تكون قوتها المسادية والمعنوية ، وقصة الرجل صاحب الدين على بعض العرب من قریش ، الذي حضر من البادية ليتماضاء ، وكان يتلصق إنساناً ذا جاه يستعين بجأه على قضائه من المدين ، وقد دلوه على النبي صلى الله عليه وسلم - استهزاء به ، وسخرية منه - فلم يسمع إلا أن يذهب معه إلى المدين يطالبه . صورة من هذا الإيمان فإن الرجل الماثل لم يكذب وجهه المشرق ، وجيئة المضى ، وطلعت الرأفة ، حتى اضطرب ، وأخذته رعدة من الخوف ، وبادر إلى المال يسلبه لصاحبه شاكرآ له الصنيع الطيب ، والفعال الكريم .

فاللهم ارزقنا هذا الخلق فلا تؤمن إلا بك ، ولا تدل إلا لك ، ولا ترجسواك ، ولا نحاف غيرك ، إنك أنت الخالق الرازق ، الضار النافع ، وأتأس كلهم عيال عليك !

سهل أهداف الاستغفار في الإسلام

لفقيه الأستاذ الشيخ أحمد الشرباصي

المدرس بالأزهر الشريف

هناك جانب من تعاليم الدين الحنيف لا يسهل على الفرد العادي أن يعرف حكمته بالنظر العاجل أو الهوى المائل ، بل لابد من التأني والتحري ، ومعرفة مداخل العلل والأسباب ، ودراسة منابع الحكم والثمرات ، وهنا يسهل عليه أن يحكم حكماً صائباً ، وأن يدرك ما انطوت عليه هذه التعاليم من أسرار وثمرات ؛ ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً ، والله يدعو إلى دار السلام ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم .

يمر بالخاطر مثلاً موضوع الاستغفار في الإسلام ، فترى عجباً ، ويبدو ما يستوجب النظر ويثير الفكر ، إن آيات الاستغفار ، وأحاديث الخوض على التوبة ، كثيرة كثرة تستلفت البصيرة والبصر ، فالقرآن الكريم ، وهو هدى العلى الحكيم ، لا يكتفى بإباحة الاستغفار ، بل يطالب به ويحرض عليه فيقول : « واستغفروا لله إن الله غفور رحيم » ، ويأتي بعض الأحاديث النبوية الشريفة ، فيستفيض في توسيع الباب قائلاً : لو لم تذبوا وتستغفروا لذهب الله بكم ، وأتى بقوم يذبون ويستغفرون ، فيغفر لهم ! .. ويعود القرآن المجيد فيذكر العباد : بأن الله هو البر الرحيم ، والرزوف الكريم ، الذي يجب أن تقصده لغفران الذنوب مهما كانت كبائر ، وأن تلجأ إليه في الأزمات مهما كانت شدائد ، فيقول : « ومن يغفر الذنوب إلا الله » .. ثم يصل الخاطئين بأسباب الرجاء والطمع ، مهما كان مقدار بعدهم عن رحاب الاستقامة فيقول : « إن الله لا يغفر أن يشرك به ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » ، ثم يعمم المغفرة والقبول لكل من تاب وأناب ، مهما سلف منه ، فيقول : « قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ، إن الله يغفر الذنوب جميعاً ، إنه هو الغفور الرحيم » .. ويفسر هذا رسول الله عليه صلوات الله فيقول : « والذي نفسى بيده لو أخطأتم ، حتى تملأ خطاياكم ما بين السماء والأرض ، ثم استغفرتم لغفر الله لكم » .. إلى غير ذلك من عشرات الآيات والأحاديث التي تشرق بأضواء الأمل في التوبة والغفران .

قد يضل ضال في فهم هذه النصوص المقدسة ، فيجبل إليه أن الباب مفتوح له
 بترحيب وبلا نظام ، مهما فسق واستعصى على أمر ربه ، فيقال له : كلا ، ليس
 الأمر كما حسبت ، وليست المسألة مسألة كلمات ترددها الشفاء ، بلا ندم على ماسبق
 وبلا ارتداع عما يسوء ، وبلا عزم أكيد على الاستقامة ، وبلا إصلاح لما يمكن
 إصلاحه من فتوق ، فإن رب المغفرة والمتاب ، هو أيضاً رب المعاقبة والحساب ،
 والذي وسعت رحمته كل شيء هو نفسه الذي يقول : « وأن ليس للإنسان
 إلا ما سعى ، وأن سعيه سوف يرى ، ثم يجزاه الجزاء الآوفي » . ويقول : « فن
 يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » : والله الذي قال
 لنيه : « نبي عبادي ، أتى أنا الغفور الرحيم » هو نفسه الذي قال عقيب ذلك مباشرة :
 « وأن عذابي هو العذاب الأليم » .

لعل اللاهي الضال سيعود إلى الاعتراض قائلاً : إذن فهناك تناقض وتعارض
 بين بعض الآيات وبعض ، وستظل آيات المغفرة الكثيرة إذن بلا موضوع .
 فيقال لذلك الصافل : إن التناقض ليس موجوداً إلا في ذهنك الضيق وتفكيرك
 المحدود ، لأنك تحكم شخصك في أمر جامع عام ، وضعه رب العالمين للعالم وفيهم
 أصناف وأشكال وألوان ، وما هذا الحديث الطويل في القرآن عن الاستغفار
 والحض عليه ، إلا أسلوب الحكيم العليم في تربية الخلق ، وإحياء الضمير ، وإماتة
 السيرة ، والاستكثار من الحسنة ، فهو ينهض على كثير من الأسس القويمة العالية .
 إن الإسلام الخفيف بأسلوبه هذا في التحريض على الاستغفار يريد ألا يصادم
 الطبيعة البشرية ، بل يتمشى معها بما يلائمها ، إذ هو يعرف أن الإنسان خطأ ، قد كتب
 عليه حظه من النقص والعيب ، لإظهار الفرق بين المخلوق والخالق ، ولإيجاد
 ميدان المجاهدة والتنافس في القربي ، فلو سد الإسلام في وجهه باب الندم والتوبة
 والتخفف من أوزار الماضي للنهوض بطيبات الحاضر وحسنات المستقبل ، لأخذ
 إلى الأرض ، وأفلس من أول الطريق ؛ وإذن فليتمس الإسلام للخاطئ عذرا ،
 وليسر لتقويمه أمراً ، وهو أن يحرضه على الاستغفار المشتعل على قوى التذكار
 والاستحضار المؤدى إلى لون من الحاسبة والمراقبة التي تحيي موات الضمير
 في الإنسان ، وينقله من يدها الضلال إلى جادة الإيمان ، ويعده عند الإخلاص
 والصدق مغفرة ورضوانا ، ولعل الرسول الكريم عليه الصلاة والتسليم ، حينما كان

يحرص صحابته على الاستغفار ، ويخبرهم أنه يستغفر في اليوم سبعين مرة ، لم يقصد نفع نفسه ، أو التخلص من ذنوب نسبت إليه ، فهو المعصوم الذي غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، ولكنه قصد أن يعلم أتباعه كيف يفيثون بعد غفلة ، ويستقيمون بعد زلة ، ولا عجب ، فهو بالمؤمنين رؤوف رحيم ١ .

ومن أهداف الاستغفار والتاب في الإسلام أيضاً ، إظهار فضل الله الرحمن الرحيم على عباده الخياري الضعفاء ، فهو الذي برأهم ، وهو الذي أنعم عليهم ، وهو الذي حلم معهم ، وهو أيضاً الذي يقبل التوبة من عباده ويعفو عن السيئات ، فيألفها من منة لا يقدر عليها إلا الخلاق العظيم الذي يفتح أمام الخطائين عن سهو أو نسيان أو زلزلة باب الأمل والرجاء ، حتى لا يعرف اليأس إلى قلوبهم سيلاً ، فإنه كما يقول القرآن : « لا يأس من روح الله إلا القوم الكافرون » ، ويهيئ لهم دائماً فرصة للارتداد والاسترجاع ، والله أفرح بعبده التائب من الذي فقد شيئاً نفيساً لديه ثم عثر عليه ، فيكون ذلك إشعاراً بعد إشعار بفضل الله الواسع ، ومنته الكبرى وآلاله العظمى ، فإن لم يحضض العبد عن طريق الرهبة والتخويف ، استجاب عن طريق التكريم والإنعام ؛ وما هو ذا سبحانه يضاعف ألطفه فيجعل فرصة التطهر والتخلص بمزوجة بالتزود من الخير والاقتراب من البر ، فيجعل عمل الخير تكفيراً لسالف الإثم ، وإتيان الحسنة محواً للسيئة . وفي ذلك ما فيه من الإغراء والتعريض على الدنو من حمى الخيرات ؛ فيقول : « إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين » . ويقول عن فريق من عباده التاجين بمشيئته : « خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم » . ويقول رسوله عليه الصلاة والسلام : « وأتبع البيئة الحسنة تمحها ، وغالقت الناس بخلق حسن » .

ومن أهداف الاستغفار الذي جعله الإسلام متكرراً كلما تكرر الذنب والخطأ ، تربية الحياء والتجمل في نفس الإنسان ، فإنه إذا أخطأ ثم استغفر فغفر له ، ثم عاد فأخطأ فاستغفر ، ثم عاد فأخطأ واستغفر ، حدثته نفسه - إن لم تكن قد ماتت - بأن هذا لا يلقى به كإنسان ، ولا يجدر به كرجل حر ذي ضمير ، فيخجل من نفسه ، ويستحي من تكرار خطئه ، فيستشعر في صدره قوة عزم على المقاومة للمهوى والمغالبة للشيطان حتى يقهره ويستجيب لنداء الرحمن ، ولعل هذا هو المعنى الذي أراده على رضي الله عنه حينما جاءه شخص فسأله قائلاً : رجل أذنب

فماذا يفعل ؟ قال علي : يتوب ويستغفر . قال الرجل : قد فعل ثم عاد . قال علي : يتوب ويستغفر . قال الرجل : قد فعل ثم عاد ! قال علي : يتوب ويستغفر ولو فعل ذلك مائة مرة حتى يخزي الشيطان ! .

ولو فرضنا هنا ما لا يليق بالمرء ، وهو أن يستمر في غييه وبغيه بلا خجل أو ارعواء ، رغم انفتاح باب التائب أمامه ، لحقق الإسلام شيئاً آخر هو الإعذار إلى مثل هذا الميت الخبيث كيلا يكون له على الله حجة ، بعد ما ساسه بكل أساليب الرحمة والتكريم .

ولعل الإكثار من الحديث عن الاستغفار في الإسلام ، فيه إشعار للهداة وتذكير للصالحين بأن الخطأ والزلل من طبيعة البشر ، فيجب على أولئك المرشدين أن تنسج صدورهم ، وأن تقوى عزائمهم ، وأن يحمل صبرهم ، فلا يتضايقوا ولا يأسوا الرؤية الفشل أو تكرر الزلل ، بل يحتملون الصدمات ويعاودون الكرات والمحاولات ، إذ لو كان الخير عاماً وطبيعة في الناس ، لما احتجنا إلى معلمين ومقومين ، ولكن الله يقول : « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون » . ويقول : « وأمر بالمعروف وأنه عن المنكر واصبر على ما أصابك ، إن ذلك من عزم الأمور » .

ولا نفسى أيضاً ما في الاستغفار والدعاء والمناجاة من لذة روحية وطمأنينة نفسية ، وتباعد عن صخب الحياة إلى رحاب المناجاة ، وانقطاع عن هوائف التراب واتصال بالملأ الأعلى ، وفي ذلك استعداد قوى وتيقن فعال لحسن التحول وكريم الاتجاه ، ولعل هذا هو مغزى الحديث النبوي الشريف : « من أكثر من الاستغفار جعل الله له من كل هم خرجاً ، ومن كل ضيق فرجاً ، ورزقه من حيث لا يحتسب » ! .

أما بعد ، فإن الكمال المطلق للبشر حال ، والعصمة للأنبياء والمرسلين ، والخضوع للهوى الأنيم ضلال أى ضلال ، فلم يبق إلا أن نحاول الخير ما استطعنا ، وأن نتجنب السوء ما قدرنا ، ولا يضيرنا أن نعث مرة ، ولكن يضيرنا أن نستمر على الخطأ أو نرضى به ، أو نسعى إليه مختارين مستحلين ، فلنرفع رؤوسنا من جديده ، ولنطو صفحات الماضي بما فيه ، ولنستغفر الله منه ، إنه هو الغفور الرحيم ! .

شعاع من فجر الإسلام

أفضى الأستاذ الشيخ محمد خليفة

المدرس بمحمد القاهرة

إنه شعاع الإيمان المتلألئ ، انبثق في ظلمات الحياة ، فتمتع دياجيرها ،
ومحا جاهليتها ، وشتت حقها وضلاتها .

شعاع الإيمان الذي سكب الله في قلب محمد عليه السلام ، فغمر جانبيه هدى ونورا ،
وجعل من نفسه الدشيرة ، نفساً ملائكية تفسر على ضوء إيمانها أسرار هذا الوجود .
الإيمان الذي شيد من نفس محمد عليه السلام أمة ، وبني من أمة محمد عليه السلام
قوة لا تثبت أمامها قوة .

الإيمان الذي خلق من حفاة الصحراء قادة ، ملكهم لإيمانهم نواصي الحياة ،
وأذرى بالشدائد .

الإيمان الذي ابعث من ذلك القلب فزعزع بطش الجبارين ، وزلزل صلف
المتألهين ، وحطم غدر المتذئبين .

الإيمان الذي خلق من القلوب الصحراوية رحمة ، ومن جشعها قناعة ، ومن
غلظتها وداعة ، حيث تحمد الوداعة ، وعفواً حيث تكون القدرة .

الإيمان الذي جعل من المرأة قوة تفتك بعنت العتاة ، وخلق من فاطمة بنت
الخطاب سلاحاً يخضع جبوت عمر حين تصيح فيه : « طه ما أزلنا عليك القرآن
لتنشق ، إلا تذكرة لمن يحشى ، تزيلا من خلق الأرض والسموات العللا ، الرحمن
على العرش استوى ، له ما في السموات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى ،
وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى ، الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى » ،
فيستسلم عمر الجبار إلى ذلك الإيمان الدافق تتعجر بنايعة من قلب المرأة الضعيفة .
ذلك الإيمان الذي جعل من المسلم الأول أمة يعيش للأمة ، ويعني بالمجتمع ،
لا فرداً تسيطر عليه الفردية ، وتتحكم فيه النفعية الشخصية ، ويعني بالأسرة الصغيرة ،
فيشيد لها ويدخر .

فأبو بكر، رضوان الله عليه، يدفعه إيمانه إلى الجود بكل ماله لله ولرسول الله، ولنصرة دين الله، ثم هو لا يترك لأولاده قوتاً ثقة منه بالله، أنه بهذا البذل يبني الأمة قبل الأسرة، ويؤسس للدولة قبل الولد، بهذا الإيمان من أبي بكر، وبمثله من غيره أبي بكر، ساد العرب وهر الإسلام.

ذلك الإيمان هو الذي جعل للعرب الغلبة والسيادة، فانطلقوا تحت رايته يدعون إلى المبادئ السامية، مبادئ الإخاء والمساواة، مبادئ الإنسانية، فتفتحت الدول أمام دعوتهم قبل أن تفتح بسيفهم، وتطلعت الشعوب المظلومة إلى تلك المبادئ التي جاء بها الإسلام لتنفذها من ظلم القيصرية وجور الاستعمارية، ذلك هو الإيمان الذي جعل بلالا وأمثال بلال يستمرئون مر العذاب في سبيل إيمانهم، فخر الرضاء الذي يشوى الجسوم لم ينهه إيمان الأرواح، ولم يززع ثقة النفوس، لأن إيمانها أعظم من أن يخضعه جبروت أو يدله غش، والإيمان وحده هو الذي نصر ثلاثمائة من المسلمين على ألف من المشركين في بدر، سلاح المؤمنين الإيمان وحده، وللشركيين سلاح من عددهم، وسلاح من مالهم، وسلاح من خيلهم، ولكن كل هذه الأسلحة لم تقن أمام الإيمان شيئاً.

لقد حمل المسلم الأول إيمانه بين جنبيه، وألقى عزمه بين عينيه، واندفع عاصفاً يقطع أعناق الجبال الآسيوية، ويمرق في وديانها، حتى انتهى إلى إفريقية، فأثار رمالها، ومر على خصبها وجذبها، ثم قطع البحر إلى أوروبا، وهو يحمل حيث سار، ويؤذن حيث أقام:

الله أكبر الله أكبر، أشهد ألا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله؛ هتف الأدان، ونادى الإيمان، فصمت الصوامع والبيع، وأخرست النواقيس وراح الحق ينادى في الناس: حي على الصلاة، حي على الفلاح. فتجاوبت الأرواح في أوروبا وإفريقيا وآسيا: ليك ليك.

وهكذا جرى الإيمان نوراً يهفو إلى القلوب فتفتح له كما يفتح الزهر لبسات الصباح، وتنتعش به النفوس كما تنتعش الورود ببسات الربيع.

انند أخى الإيمان بين المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها منذ بدا الجرح، فلا ين مسلم في اليمن، حتى تسمع صدى أناته في المدينة ودمشق وبغداد ومصر

وقرطبة، ولا يستغيث عربي في خيامه الضاربة في حضن الجزيرة العربية، حتى تجاوبه
الاصوات في مصر وقرطبة وبغداد ودمشق: ليك ليك، وهكذا كانت أخوة
الإيمان، يجمع المسلمين لإحساس واحد وإن اختلفت أقطارهم وتنامت بلدانهم.
فأين نحن الآن من هذا الإيمان؟

الامة العربية مضطربة، والشعوب الإسلامية مفككة، بل الاسرة الصغيرة
متناهرة متناحرة.

يا رحمة السماء، عودي فابعثي على هذا العالم الحائر شعاع الإيمان، لعله يمحو
ظلام المسادية من النفوس ويوقظ سمو المبادئ التي جاء بها الإسلام.
يا رحمة السماء، مدى إلى قلوبنا من فجر الإسلام ذلك الشعاع الذي بنى مدينة
الإسلام، فالإيمان وحده هو الذي يعيد للسليين مجدهم.

يا سلاح الإيمان، في مصنعك أنت وجدت المعجزة الأولى التي فتحت بها
العرب العالم، فها فتحت الامة العربية إلى مصنعك تأخذ منه قوتها فتعود
اليها المعجزة.

ان كتاب الله هو مصنع الإيمان الذي تستمد منه القوى وتوجد المعجزات،
فتي يهرع المسلمون إليه ليفتحوا عهداً جديداً وليعبثوا جيلاً جديداً ولا يخلفوا
العالم خلقاً جديداً ينادي في الوجود:
إلى كتاب الله، إلى كتاب الله، فهو سلاح من لا سلاح له.

ذم التنافس فيما يفنى

قال الفارابي:

ينافسُ هذا لهذا على أقل من الكلم الموجز
محيط السموات أولى بنا فاذا التزاحمُ في المركز

أى مجتمع نعيش فيه

لفضيلة الأستاذ محمود محمد المدنى

المدرس بالأزهر

يهدف المجتمع في هذه الحقبة من الزمن إلى الجرى وراء المادة، لا يثنيه عنها ثاب من تعاليم دينية أو مقاييس خلقية أو اعتبارات اجتماعية، وكل ما وقف في طريقه في نظره إنما هي رجعية بغضه إلى نفسه، وقوانين جائرة ليس لها من مبرر، حتى التوى الطريق على الكل وضاعت معايير الأشياء، وانتهدت تعاليم الدين وابتدلت الكرامة وتحلت الأخلاق، وصار المجتمع يجرى وراء هذه المادية العانية التى سنودى به إلى كوارث لا قبل له باحتمال عواقبها .

ولو رجعنا إلى الوراء قليلا، ونظرنا إلى ما كان عليه المجتمع قبل عصر النبوة لتساوى العهدان . فالقوى اليوم هو الأمل لدى الناس جميعاً ، يرهبون جانبه ، ويفضون حوائجه ، ويحسبون له ألف حساب وحساب ، من تقدير وتقديس ، لأن بيده عصب الحياة ، وإكسير الوجود ، والجالب للسعادة وهو المال .

أما الأخلاق، أما الكرامة . فهى ألقاط وضعها اللغويون لغير هذا العصر ، أو هى من التراث العتيق البالى، والذي يعد المتمسك به من الجامدين . فالإباحية المطلقة هى حضارة العصر وقوام الوجود ، وهى المذنية الحقة التى يسعى لها الكل ويهدف إليها الجميع ، ونظرة واحدة إلى حفلات السادة الكبار ترينا مبلغ ما وصل إليه المجتمع فى زيه ولبسه وتصرفه وابتكاراته ، فعمود الزهر يفخر بلبسها السيد السند وفى فمه زمارة وعلى رأسه طرطور وبجواره حواء تكشف عن معانيتها يتقارعان كذؤوس الطللا ، ثم يقومون إلى حلق الرقص ، كأن بهم مس من الجن من بكور الليل إلى انبثاق الصبح ، ييمون فى خيالهم ويسبحون فى مجونهم ، وهذا هو مجتمعهم عليه يلتقون وعنه ينصرفون ، لاوازع من صمير ولا دافع من خلق ، والويل كل الويل لمن ينقد أعمالهم أو يبدى ملاحظة على سيرهم وسلوكهم ، والآدهى من ذلك

أن تنشر صورهم وهم على هذا الوضع المزرى بالأحلاق ، فأى مجتمع هذا الذى نعيش فيه ، وأى خلق يكون مقياساً لهذا العصر ؟

والله إنها للفوضى التى تدرك الأمم فى آخريات وجودها ، وعصر تحللها ، وانقراضها كما يحدثنا التاريخ .

وبدهى أن تلك الحروب الطاحنة التى تشنها الدول على بعضها ، وتلك الاعتمادات الضخمة التى ترصدها ، لها أثر من آثار هذه الأناية المادية ، ومن الغريب أن هذه كلها لو وجهت إلى التعمير والإصلاح لئال العالم كله منها الخير العميم .
ولكن أين التفكير السليم ، بل أين المجتمع المستقيم حتى يعمل الكل لما فيه إسعاد البشرية .

أيها المصلحون : إن الطريق السوى هو التدين الصحيح ، ولن يصلح هذا المجتمع إلا بما صلح به أوله .

تقوى واستقامة يعمل لها الجميع ، ويسمى لها الناس عن يقين ثابت وإيمان قوى وفكر متين . إن هذه الحياة التى نحياها مجون ما وراه مجون ، نهايتها الجنون ، وغضب يصيب الأفراد ، وينصب على المجموع ، واتفوا فئة لا تصين الذين طلبوا منكم خاصة .

فإلى القادة والزعماء ، إلى السادة والرؤساء : أوجه حديثي : عليكم وزر ما وصلت إليه الحالة العامة من انهيار . لأن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن ، فأيقظوا من سباتكم واصحوا من غفلتكم واتفوا الله فى دينكم وفى قدسيته ، فقد طمت البلوى وعمت العوضى ، وهذا التحلل الخلقى مستكونون فى النهاية أول صحاياه .

واعلموا أنه لا عز لكم فى سيادة مشبوبة بدم الأبرياء ، ولا غنى لكم عن تعاليم السماء لكبح جماح المبادئ الهدامة التى نخشى أن تحتاج كل الحصون الخلقية ، والتعاليم السماوية .

أما المال : فهو ظل زائل لا يفتى إذا حزب الأمر واشتد الهول ، فخصوا أنفسكم بالأخلاق ، وحاربوها بالدل والإنفاق ، وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون .
والله أكرم مسئول أن يوفق الجميع لما يعود على المجتمع بالنفع العميم والخير الكثير إنه ولى الهداية والتوفيق .

سه نوادر المخطوطات

شرح ابن بطلال على البخارى

لمحاضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ أبو الوفا المراكشي

مدير المكتبة الأذهرية

من كتب الشريعة الإسلامية التي حظيت بالقبول ، ونالت من عناية العلماء واهتمامهم ، كتاب « الجامع الصحيح » للإمام البخارى المتوفى سنة ٢٥٦ هـ ، فقد أقبل العلماء عليه بالدراسة والبحث ، والاستفادة والشرح والتعليق ، حتى بلغت المؤلفات فيه من نواحيه المختلفة بضع عشرات ، وشرح شروحاً موجزة ومطولة يبلغ بعضها نيفاً وعشرين مجلداً ، ومن أطول شروحه شرح العلامة العيني .

ولم يحظ « الجامع الصحيح » للبخارى بذلك الجلال موضوعه « وهو الأحاديث النبوية الصحيحة » بحسب ، ولكنه نال ذلك لثقة جامعه وأماته ، وحسن ضبطه ، وشدة تحريره ، وتخرجه ، حتى أصبح في مكان القداسة من نفوس المسلمين ، بعد كتاب الله تعالى .

وقد شرح جامع البخارى شروحاً كثيرة ، بعضها مشهور متداول ، وبعضها عفى عليه الزمن فيما عفى ، ومن أشهر شروحه وأقدمها ، شرح ابن بطلال عليه ، وربما كان هذا الشرح أساس شروحه ، فبكثيراً ما يعتمد عليه الشارحون ويتناولون عنه .

وكان علماء الحديث مشوقين إلى معرفته والاطلاع عليه ، والوقوف على طريقة تأليفه ، ومنهاج البحث فيه ، وكان الظن أنه ضاع فيما ضاع من التراث الاسلامي ، ولكن الحظ السعيد قد أظفر به المكتبة الأذهرية ، فأهدى إليها أخيراً ضمن مكتبة المغفور له الشيخ محمد الامير غفر الله له وأجزل ثوبته ، إلا أن سرورنا به لم يتم ، فقد تبين أنه ينقصه أواخر الجزء الاول والجزء الثاني .

وابن بطلال هذا هو أبو الحسن علي بن خلف بن عبد الملك بن بطلال القرطبي يعرف باللجتم ، الامام العالم الحافظ المحدث الراوية الفقيه ، روى عن ابن أبي صفرة والشافعي والقاضي يونس وغيرهم ، وأخذ عنه جماعة ، ألف شرحه المعروف على البخارى والاعتصام في الحديث وتوفى سنة ٤٤٤ هـ أو سنة ٤٤٩ هـ .

وشرحه هذا يقع في أربعة مجلدات بالمكتبه ، منها ثلاثة فقط ، الأول وبآخره
نقص ، والمجلدان الثالث والرابع وهما بقلم معناد وبخط واحد ، هو خط على
ابن عمر عبد الله الامام ، فرغ منهما سنة ٧٨٠ هـ لجامع الخطبة .
وعدد أوراق المجلد الأول ٢٥٣ ورقة ، والثالث ٣٨٧ ، والرابع ٣٧٨ ،
ومسطرتها كلها ٢٥ سطرأ ، وعدد كلمات كل سطر تتراوح بين ١٥ ، ١٨ كلمة ، ومقاسها
٢٧ × ٢٠ ، وعنوان كل جزء بأوله بالممداد الأزرق في حلية ذهبية أنيقة ، وعناوين
الكتب والأبواب في الكتاب جميعه بالممداد الأحمر ، والكتاب بحالة حسنة تمكن
من الانتفاع به ، وما به من هنات لا تمس موضوعه .

ويتبدي الجزء الأول بأول الشرح وينتهي في أنشاء باب زيارة القبور
ويتبدي الثالث بكتاب الاضاحي ، وينتهي بياب الطلاق ، ويتبدي الرابع بياب
ما يكره من الاحتيال في الفرار من الطاعون وينتهي بآخر الشرح .

وشرح ابن بطال هذا هو شرح موجز عني فيه صاحبه بالتبنييه أولاً على الصحابي
راوى الحديث ، وباستنباط الأحكام الفقهية على مذهب الإمام مالك ، قال
صاحب كشف الظنون : « وشرحه البخارى ، الإمام أبو الحسن ... وعالبه
في فقه الإمام مالك من غير تعرض لموضوع الكتاب .

وأول الشرح : « باب كيف بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم
وقول الله عز وجل « إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده ، فيه
عمر بن الخطاب قال النبي صلى الله عليه وسلم : (إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل
امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو إلى امرأة ينكحها ، فهجرته
إلى ما هاجر إليه) قال المؤلف قال لى أبو القاسم الملبب بن أبي صفرة رحمه الله
معنى هذه الآية : « إن الله تعالى أوحى إلى محمد صلى الله عليه وسلم كما أوحى
إلى سائر الأنبياء عليهم السلام وحي رسالة لا وحي إلهام الخ .

وآخر الشرح : « وقول البخارى ويقال القسط مصدر المقسط فأنما أراد
المصدر المحذوف الزوائد كالفرد مصدر قدرت إذا حذفت زوائده ، قال الشاعر :

وإن يهلك قد لك كان قدرى

بمعنى تقديري محذوف زوائده ورده إلى الأصل ، ومثله كثير ، وإنما يحذف
العرب زوائد المصدر ليرد الكلام إلى أصله ويدل عليه ، ومصدر القسط الجارى
على فعله الأقساط اهـ .

عجالات في الأدب العربي

لفضيلة الأستاذ الشيخ كامل محمد عجمي

المتوس بالآزهر

جرى القلم في عجالاتي السابقة عن ملاح الحوار في صناعة الأقلام العربية الخالدة .
والحوار في الأدب الحديث ، عدة لها حطرها لمن يجيدونها ، إذا قدموا الزاد
الفني ، وراحوا من ورائه يرقبون مدى خطواته نحو أعتاب الخلود .
والندامى من العرب نسجوا حوارهم غفو الخاطر . وجرباً وراء فطرم ،
ولم تكن وراءهم مقاييس الصناعة ، ولا دوافع من (مسرح) ولا مقتضيات
(الزمان والمكان) .

وإذا تركنا (الحوار) ، وتلصنا بذور القصة وفقشنا في طوايا المؤلفات ، وخبايا
المراجع القديمة ، وجدنا العجب العجيب ، ووجدناه عند الأقلام المؤرخة أو الدارسة
أو المستعرضة المتعرضة لحيوات الناس ، سواء منهم الشاعر والأديب ، والحاكم
من خليفة أو سلطان أو وال ، لا فرق بين الرجل والمرأة .

ووجدنا كتب السيرة ، وكتب التراجم ، وكتب الأدب ، وكتب الأخبار ،
تحفل بعلاج البوادر القصصية ، وتجنح إلى جانب الأقصوصة ، يتقارب الكاتب
من التوفيق ، إذا زحمته الوقائع والحقائق .

وفي أكثر الكتب أصابة عين التوفيق والاجادة بما ينال رضا من يلتمسون
تطبيق منطق القاص المحدث ، وقواعد واضع الأقصوصة في عصرنا الحاضر
وظاهرة لا يفوتني أن أقف عندها ، وهي الإمعان وراء المصارحة الخالصة
والصدق الواقع ، والتحليل النفسى للأشخاص والجماعات ، وحتى التعابير الموجزة
والتشبيهة المكثفة ، تطوف كالقوارير المحشودة العامرة بالنفحات النفسية ، والعواطف
الناطقة بالحياة المعبرة دون أن تنقص شيئاً ، إذا تأمل القارىء وأنعم المتأمل .

وكثير من الناس يعيون على بعض القدامى كثرة استطرادهم ، وعندى أن الاستطراد يعد ذحرا أدبيا ، لأن المؤرخ حين يتعرض لحياة حليلة مثلا ، ثم يتوقف فجأة عن السرد التاريخي ، وبدأ في طريقة أو رواية حديث أدبي ، ثم يقل نصا أدبيا منظوماً أو مثورا ، وبعد ذلك يعود إلى مرحله التاريخي أو العلي - حين يصنع هذا لا يبعد بالمؤرخ إلا بمقدار ما يتمتع الأديب ، ولا يتمتع الأديب إلا على أساس رسم المناثر الموصحة ، والمعلم الشارحة مما يُستخلص منه روائع الأحداث السارة أو الضارة ، والمنايع التي روت الترائع ، وهزت العواطف فأثمرت العصارات التي حملت اليان في بوتقات صهرت موادها ، فتماسكت سبائكها ، وراقت فلائدها ، وأزمن بها جيد الأدب .

ومهما قيل في استطراد المؤلف القديم ، فإن الذين تخصصوا وخلصوا فنون الأدب إلى مناهج متآخدة ، ووشائج متآخية ، لم يحدوا من المراجع . أوفى من الأفلام المستطردة ، وأخيراً أشهد أن في بعض الإطنابات من التعميم التي تعد مستقلة في القصة أو الأقصوصة .

والضائقون بالسكتب (المستطردة) لا أجسدهم الآن على صواب ، لأن لذة التمثل لا تعوض عند من يريد أن يلون زاده وغذاء عقله وعاطفته .

ولعل الدليل المقتنع : كتاب (الأغاني) إذا وضعناه بجانب مذهب الأغاني .

نعم ونعم ، إذا قضيت ساعة مع أبي الفرج ، ورحلت تغلب عينيك بين أقاصيصه وطره ودعاباته ومقطوعاته ، ثم أخذ بيدك إلى مجلس شاعر أو مجلس خليفة ، ثم عدا بك إلى قصيد أو مقطوعة ، وكشف لك عن صوت يتعلق بأصدائه ، ويخلق مع شاعر آخر أو جارية أدبية أخرى ، رأيت معه نفسك وقد هزتها اللثوة . فإن أردت أن توجز الوقت واتمتت مذهب الأغاني ، طالعنك الجهامة ، وبهذه الجفاف ، وفقدت الطرافة ، وعدت تغلب ناظريك بين عصف بمحور ، لا تلبث إلا ريثما تعود إلى متاع الأغاني ، كما صنع الأصفهاني .

ولا يشك قارىء في أنني أعني الاستطراد عند الترائع الخالدة قبل القرن الرابع الهجري ، وسيدهم غير مدافع (الجاحظ) .

وبعد أن ظهرت المكتبة العربية (بألف ليلة)، ثم بالقصص الشعبي في العصور المتأخرة، أجدني أمام فن قصصي مستقل له خصائصه المتفرده، وله ظلاله وآثاره في الأقلام والقراء.

وحظي في هذه العجالة، أن أعود بالقارىء إلى أن مكتبتنا العربية بدأت تجمع على عوائقها مصنعات لأقلام زاولت وعالجت الأقصوصة، ومنها من شقت بأسلاتها طريق القصة، بل وضعت مستقلة أسسها على هدى من الفطرة والطبيعة العربية الخالصة.

وسوف أعود في عجالة أخرى، إلى المعالم الأولى، والمدارج التي اهتزت فيها الباسقات، وربت في ربوعها وارفات الأقصوصة ثم القصة.

النحو يرثي

كان ابن مالك إمام النحو في عصره، وألفيته تعتبر صندوق النحو إلى اليوم. ولد سنة (٦٠٠) وتوفي سنة (٦٧٢) هـ فرثاه شرف الدين أحد المستفيدين منه بقصيدة طريفة ألفاظها مستمدة من قواعد النحو، وهي:

يا شتات الاسماء والأفعال	بعد موت ابن مالك المفضل
وانحراف الحروف من بعد ضبط	منه في الانفصال والاتصال
مصدراً كان للعلوم يأذن الله	من غير شبهة أو محال
عدم التعت والتعطف والتو	كيد مستبدلاً من الأبدال
ألم اعتراه أسكن منه	حركات كانت بغير اعلال
يا لها سكنة لحرر قضاء	ورثت طول مدة الانفعال
رفعوه في نعشه واتصبتا	نصب تميز كيف سير الجبال
صرفوه بأعظم ما فعلوه	وهو عدل معرف بالجبال

إلى آخرها، وكلها على هذا النمط من استخدام ألفاظ علم النحو، في رثاء إمام النحو.

آراء العرب

الذين عاصروا عهد النبوة

في إعجاز القرآن الكريم

لفضيلة الشيخ محمد عبد المنعم خفاجي

المدرس بكلية اللغة العربية

— ١ —

في هذا البحث نذكر آراء العرب الذين عاصروا عهد الرسول : في القرآن الكريم وإعجازه ؛ ونحيط بموقفهم منه ، وإقرارهم بالعجز حيال تحديه ، ليعرف القارئ كل ما يتصل بالقرآن الحكيم وقضية الإعجاز ؛ معرفة تامة لا لبس فيها ولا خفاء .

رأى الوليد بن المغيرة :

١ — روى أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقرأ عليه القرآن ؛ فكانه رق له ، فبلغ ذلك أبا جهل ، فأتاه فقال : يا عم إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالا ليعطوك ؛ لثلاثي محمدآ ، لتعرض لما قاله . قال : قد علمت قريش أني من أكثرها مالا ؛ قال : قتل فيه قولا يبلغ قومك أنك كاره له ؛ قال : وماذا أقول ؟ فوالله ما فيكم رجل أعلم بالشعر مني ، ولا برجزه ، ولا بقصيده ، ولا بأشعار الجن ، والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا ؛ والله إن لقوله الذي يقول حلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإنه لمثمر أعلاه ، مغدق أسفله ، وإنه ليعلو ولا يعلو عليه ، وإنه ليعظم ما تحته . قال : لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه ؛ قال : فدعني حتى أفكر ، فلما فكر قال : هذا سحر يؤثر ، يأثره عن غيره ^(١) .

٢ — وروى أن الوليد بن المغيرة لما سمع من النبي صلى الله عليه وسلم :

[١] ص ٢٢٣ ج ١ الفتاوى للفاضل عياض ، و ١٧ / ٢ الأتقان للسيوطي ، ٢٥٧ إعجاز القرآن للرازي

« إن الله يأمر بالعدل والإحسان الآية » ، قال : والله إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أسفله لمعدنق ، وإن أعلاه لمثمر ؛ ما يقول هذا بشر ^(١) .

٣ — وجاء في رواية أخرى أن الوليد قال لبي مخزوم : والله لقد سمعت من محمد أنما كلاماً ، ما هو من كلام الأنس ، ولا من كلام الجن ، وإن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة ، وإن أسفله لمعدنق ، وإنه يعلو وما يعلى عليه ؛ فقالت قريش : صبا والله الوليد ، والله لتصبأ قريش كلهم . فقال أبو جهل : أنا أكفيكموه ؛ فتعد إليه حزينا ، وكله بما أحياه ، فقام فأتاهم فقال : تزعمون أن محمداً مجنون ، فهل رأيتموه يخفق ؟ وتقولون : إنه كاهن ، فهل رأيتموه قط يتسكهن ؟ وتزعمون أنه شاعر ، فهل رأيتموه يتعاطى شعراً قط ؟ ؛ وتزعمون أنه كذاب ، فهل جربتم عليه شيئاً من الكذب ؟ فقالوا في كل ذلك : اللهم لا . ثم قالوا : فما هو ؟ ففسكر فقال : ما هو إلا ساحر أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله وولده ومواليه ؛ وما الذي يقوله إلا سحر يآثره عن مسيلة وعن أهل بابل ، فارتجج النادي فرحاً ، وتفرقوا معجبين بقوله ^(٢) .

٤ — ويروي أنه لما اجتمعت قريش عند حضور الموسم ، قال لهم الوليد : إن وفود العرب ترد ، فأجمعوا فيه - يعني النبي صلى الله عليه وسلم - رأياً لا يكذب بعضكم بعضاً ؛ فقالوا : تقول كاهن ، قال : والله ما هو بكاهن ولا هو بزمزمته ولا بجمعه ؛ قالوا : مجنون ، قال : ما هو بمجنون ولا بخنثته ولا وسوسته ؛ قالوا : فتمول شاعر ، قال : ما هو بشاعر ، قد عرفنا الشعر كله ، رجزه وهزجه وقريضه ومبسوطه ومتبوضه ، ما هو بشعر ؛ قالوا : فتمول ساحر ، قال : ما هو بساحر ولا نقشه ولا عتمده ؛ قالوا : فما يقول ؟ قال : ما أتم بقائلين من هذا شيئاً إلا وأنا أعرف أنه لا يصدق ؛ وإن أقرب التمول إنه ساحر ، وإنه سحر يعرق به بين المرء وابنه ، والمرء وأخيه ، والمرء وزوجته ، والمرء وعشيرته . فتفرقوا وجلسوا على السبل يحذرون الناس ^(٣) . فأنزل الله تعالى فيه : « ذرني ومن خلقت وحيداً » الآيات ^(٤) .

٥ — وقال صاحب الطراز : قال الوليد بن المغيرة في القرآن ما قال ، حين جاء إلى

[١] ص ٢٢٠ / ١ ، الشفاء طبعة ١٣١٢ هـ . [٢] ص ١٥٨ / ٤ ، الكشف للزمخشري .

[٣] ١ / ٢٢٣ الشفاء ، ٣٥٨ و ٣٥٧ إجماع القرآن للرامزي [٤] آية ١١ - ٢٥ سورة المدثر

الرسول . وقال له : اتل عليّ يا محمد ما أنزل إليك ، فأسرع الرسول إلى ذلك طمعا في الانتقاد ، فقرأ : بسم الله الرحمن الرحيم ، حمّ نزل من الرحمن الرحيم ، كتاب فصلت آياته ، إلى آخر السورة ؛ فقال : إن أعلاه ملورق ، وإن أسفله لمغدق ، وإن له لحلاوة^(١) رأى عتبة بن ربيعة :

١ — وروى أن أبا جهل قال في ملا من قريش : قد التبس علينا أمر محمد ، فلو التمسنا لنا رجلا عالمنا بالشعر والكهانة والسحر ، فكلّمه ثم أناما ببيان عن أمره . فقال عتبة : والله لقد سمعت الشعر والكهانة والسحر ، وعلمت من ذلك علما ، وما يخفى عليّ ؛ فأنابه ، فأسمعه رسول الله أوائل سورة فصلت ، فلما طلع قوله : صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود ، أمسك عتبة على فيه ، وناشده الرحم ، ورجع إلى أهله ، ولم يخرج إلى قريش . فلما احتبس عنهم قالوا : ما نرى عتبة إلا قد صبا ، فانطلقوا إليه ، وقالوا : يا عتبة ما حبسك عنا إلا أنك قد صبا ؛ ففضب وأقسم لا يكلم محمدا أبدا ، ثم قال : والله لقد كلنته فأجابني بشيء والله ما هو بشعر ولا كهانة ولا سحر ، ولما بلغ صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود ، أمسكت فيه ، وناشدته بالرحم . وقد علم أن محمدا إذا قال شيئا لم يكذب ، تخفت أن ينزل بك العذاب^(٢) .

٢ — وقال عتبة حين سمع القرآن : يا قوم قد علمت أني لم أترك شيئا إلا وقد علمته وقرأته وقلته ، والله لقد سمعت قولها ، والله ما سمعت مثله قط ؛ ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة^(٣) وروى ذلك عن النضر بن الحارث .

الجن تشهد بيلافة القرآن :

وفي القرآن الكريم : « قل أوحى إليّ أنه استمع نفر من الجن ، فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا ، إلى آخر سورة الجن . وقولهم «عجبا» يفسرها المفسرون بيلغ بديع معجز . كلام لم ينزل إلا من السماء :

وروى أن أبا بكر سأل أقواما قدموا عليه من بني حنيفة عن كلام مسيلة وما كان يدعيه قرآنا ؛ فقصّوا عليه بعض كلامه ، فقال أبو بكر : سبحان الله ، ويحكم ، إن هذا الكلام لم يخرج عن آل - أي عن ربوبية - فإين كان يذهب بك^(٤) :

[١] ٣/٢١٨ طراز في علوم البلاغة [٢] ٣/٣٨٧ الكشاف ٢٣١ و ٢/٢٣٢ التعليل
[٣] ٥/٢٢٣ التعليل [٤] أبا دلائي وهامش ٢٦٩ و ٢٧٠ الرازي . وكلام مسيلة تحده في
إعجاز القرآن للباقلائي ، ورمول حين يتحدث مع صاحب الطراز : حركات مسيلة (٢/١٧٣)

زعم واقتراء :

ويقول السيوطي في الاتقان : وكانوا مرة يجهلهم يقولون : أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلًا ، مع علمهم أن صاحبهم أمي ، وليس بحصرة من يملأ أو يكتب في نحو ذلك من الأمور التي أوجبها العناد والجهل والعجز ^(١) حسان يتحدث في شعره عن القرآن :

ويقول حسان بن ثابت في شعره فيما قال عن القرآن الكريم :

الله أكرمنا بنصر نبيه وبنا أقام دعائم الإسلام
وبنا أعزّ نبيّه وكتابه وأعزّنا بالضرب والإقدام
يفتانا جبريل في آياتنا بفرائض الإسلام والأحكام
يتلو علينا التور فيها محكمًا قسمًا لعمرك ليس كالإقسام
فككون أول مستحل حلاله ومحرم لله كل حرام ^(٢)
العرب تجل بلاغة القرآن عن الشعر :

١ — ويروي أن القصائد الجاهلية كانت معلقة على الكعبة ، فأنزلتها العرب لفصاحة القرآن ، إلا معلقة امرئ القيس ؛ فإن أخته أبت ذلك عنادا : فلما نزلت آية : « وقيل يا أرض ابلعي ماءك » قامت إلى الكعبة فأنزلت معلقة أخيها ^(٣) ، وإن كانت هذه الرواية بما لم يسلمها العلماء .

٢ — وفي حديث إسلام أبي ذر وصف أخاه أنيساً فقال : والله ما سمعت بأشعر من أخى أنيس ، لقد ناقض اثني عشر شاعراً في الجاهلية أنا أحدهم ، وأنه انطلق إلى مكة ، وجاءني بخبر النبي ، قلت : فما يقول الناس ؟ قال : يقولون : شاعر ، ساحر ؛ كاهن ، لقد سمعت قول الكهنة فما هو بقولهم ، ولقد وضعت على أقرام الشعر فلم يلتئم ، وما يلتئم على لسان أحد بعدى أنه شاعر ؛ وإنه لصادق . وإنهم لكاذبون ^(٤) .

يسلمون حين سمعوا القرآن :

ويقول السيوطي في كتاب الاتقان : وقد أسلم جماعة عند سماع آية من القرآن :

[١] ٢/١٢١ الاختان طبعة ١٩٣٥ [٢] ٣١٨ القبران [٣] هامش ١٣٧ و ٢٣٨ الزمعي .

[٤] ١/٢٠٤ العقاد .

كما وقع لجبير بن مطعم أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ في المغرب بالطور ، قال : فلبسنا بلغ هذه الآية : « أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون » ، إلى قوله « المصيطرون » ،^(١) ، كاد قلبي أن يطير ، قال : وذلك أول ما وقر الإسلام في قلبي^(٢) .

أعراي يسجد لفصاحة القرآن :

وروى أن أعراباً سمع رجلاً يقرأ : « فاصدع بما تؤمر » ، فسجد ، وقال : سجدت لفصاحته^(٣) .

ومما يتصل بهذا ما يروى أن أعرابياً سمع آخر يقرأ : « فلما استنابوا منه خلصوا نجياً » ، فقال : أشهد أن مخلوقاً لا يقدر على مثل هذا الكلام .

أهل الكتاب يشهدون للقرآن :

١ - وروى أن عمر كان قائماً في المسجد ، فجاءه رجل من بطارقة الروم يحسن العربية ؛ فأسلم وقال : سمعت رجلاً من أسرى المسلمين يقرأ آية من القرآن فتأملتها فإذا هي قد جمعت فيها ما أنزل الله على عيسى من أحوال الدنيا والآخرة : « ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه » الآية^(٤) .

٢ - وروى عن نصراني أنه مر بقاريه ، فوقف يبكي ، فقيل له مم بكيت ؟ قال : للشجاء والنظم^(٥) .

٣ - وعن كعب ، وهو من أهل الكتاب الذين أسلموا : عليكم بالقرآن فإنه فهم العقول ونور الحكمة^(٦) .

أعراية تسحرها فصاحة القرآن :

وهي وإن كانت لم تشاهد عصر النبوة إلا أن ذوقها هو الذوق العربي المفطور وكفى ؛ روى عن الأصمعي أنه سمع كلام جارية ، فقال لها : قاتلك الله ما أفصحك ، فقالت : أو يُبعد هذا فصاحة بعد قول الله تعالى : وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه . الآية ، لجمع في آية واحدة بين أمرين ونهيين وجبرين وبشارتين^(٧) .^٩ يتبع

[١] آية ٣٥ - ٣٧ - بوره الطور . [٢] ٢٣ / ٢ الانفال ، وراجعته في ٢٣١ / ١ الشعاء .

[٣] ٢١٠ / ١ الشعاء . [٤] ٢٢٩ / ١ الشعاء . [٥] ٢٣١ / ١ المرجع .

[٦] ١٢٥ / ١ المرجع . [٧] ٢٢٩ / ١ المرجع .

أَيُّهَا الْبُرْدَةُ

قصيدة كعب بن زهير أم « قصيدة البوصيري ،

لقصيدة الأستاذ منصور علي رجب

أستاذ في كلية أصول الدين

كعب بن زهير والبوصيري هما اثنا ، قد بلغا بقصيدتيهما الخالدتين في مدح
الرسول صلوات الله عليه من الحال والمنزلة في الأدب العربي غاية ليس وراءها متجاوز
لأمل ، ولو كان على الجهد مزيد لبلغاه .

ولكل منهما في قصيدته قصة مستفيضة ، تجعل له ما هو أجل في الاحدوث
وأطيب في النشر . أما كعب فما إن بلغ صوت النصر أذنيه يوم أن فتحت مكة حتى
خرج هو وأخوه بجير هارباً مع من هرب من العرب ، خرج خائفاً يترقب جزاءه
من أشياخ الحق وأنصار دين الله ، لما فرط منه من هجم لهذا النبي العربي المنتصر ،
فأخذوا يعلوان أظماً وهضاباً ، ويقطعان فيافي وقفاراً ، حتى ركنوا إلى رملة لبني سعد
بالحجاز ، أو إلى ماء لبني أسد بين مكة والمدينة ، فأوياً إلى ظله ، وألنى كل منهما
مراسيه ، وبجير يقول لأخيه كعب : اثبت في الغنم حتى آتي هذا الرجل فأسمع كلامه ،
وأعرف ما عنده ، هل هو مما يستملح ، ويلوح صدقه فأتبعه ، أم لا فأتركه ؟ فيقيم
كعب ، ويمضي بجير ، ثم يتساقط الخبر إلى كعب بإسلام بجير ، فيشق الأمر على كعب
فيكتب إليه هذه الآيات :

ألا بلغنا عنى بجيرا رسالة فهل لك فيما قلت ويحك هل لك^(١)
سفاك بها المأمون^(٢) كالأروية فأنهلك المأمون منها وعلكا
ففارت أسباب الهدى وتبعته على أي شيء ويب^(٣) غيرك دلكا

[١] أي هل لك إرادة بما فلك من كلمة الشهادة .

[٢] المراد بالمأمون النبي فقد كانت قريش تسميه المأمون والأمين به كما يدل :

ومليحة شددت لها حرارتها والفضل ما شهدت به الأعداء

[٣] ويب غيرك أي هلكك غيرك فالويب الهلاك وهو بالنصب على أخبار أقبل .

على مذهب لم تلب أمأ ولا أبأ عليه ولم تعرف عليه أخأ لكأ
فإن أنت لم تفعل فليست بآسف ولا قاتل إما عثرت لما لكأ^(١)

يتف ببحير على هذه الآيات ، وفي استطاعته أن يخفيها عن النبي حتى لا يوقع
كعباً في حرج فوق ما فيه من حرج ، ولكن الرجل بعد أن أسلم أصبح لا يعرف
إلا الحق ، أما عاطفته نحو أخيه قيات لا يعرفها أمام الحق وفي سبيل الحق ،
فيذهب ببحير بها إلى النبي ، فلما سمع قوله : سقائك بها المأمون : قال : مأمون والله
ثم قال : من لقي كعباً فليقتله ، ولكن على ببحير أن ينصح أخاه ، والدين النصيحة ،
فيكتب إليه : إن النبي قد أهدر دمك ، وأنه قتل رجلاً ممن كانوا يهجونه ويؤذونه
فإن كان لك في نفسك حاجة فطر إليه ، فإنه لا يرد أحداً جاءه تائباً ، ولا يطالب
بما تقدم قبل الإسلام ، ثم يكتب إليه بهذه الآيات :

من مبلغ كعباً فهل لك في التي تلوم عليها باطلا فهو أحزم
إلى الله لا العزى^(٢) ولا اللات^(٣) وحده فتجو إذا كانت النجاة فقسلم
لدى يوم لا ينجو وليس بمفلس من الناس إلا طاهر القلب مسلم
فدين زهير وهو لا دين دينه ودين أبي سلى على محرم

[١] لما لك أي لا أهدر لك السلامة من ثمرة لغضبي عليك ، فإن لما لك كلمة دعا ، فاعثر
بالسلامة من عثرته .

[٢] كانت العزى أعظم الأصنام عند قريش ، وكانوا يذودونها ، ويهدون لها ، ويذفرون هدها
بالدمايح ، وكانت العرب وقريش تسمى بها فتقول : عبد العزى ، وكانت قريش تطوف بالكعبة ،
وتقول : اللات والعزى . وماء الثالث الأخرى . ما نهن القرايق للملا
وإن شفاعتهن لقريش

وكان الذي اتخذها ظالم ير أسد ، ومكاتها جواد يقال له : حراض ، بأراء العمير عن يمن
المصعد إلى العزى من مكة ، وذلك فوق ذات عرق إلى البستان بقسمه أميال بين عليها بيتاً ، وسداتها
كانت بنى مره ، فلما كان عام الفتح دعا النبي صوات الله عليه خالدهم الوليد ، فقال له : انطلق
إلى حمير يظن تحية فاصدها . فأتاها مصدها .

[٣] كانت صخرة مربعة ، كان سدتها من ثيف ، وكانوا قد بنوا عليها سار ، وكانت
قريش وجميع العرب تعظمها ، وبها كانت العرب تسمى : زيد اللات ، ونيم اللات ، ويقول ابن الكلبي
في كتاب الأصنام : كانت في موضع مباركة مسجد الطائف فيسرى اليوم .

ويبلغه الكتاب، فيأتي إلى قبيلة مزينة لتجيره من رسول الله فتأني عليه ذلك، فتضيق عليه الأرض بما رحبت، ويشفق على نفسه، فيقول قصيدة يمدح بها رسول الله صلوات الله عليه، ثم يخرج حتى يصل المدينة فينزل على رجل من جهينة كانت بينه وبينه معرفة، فيأتي به إلى المسجد، ثم يشير إلى رسول الله، فيقول له ها هو ذا المأمون فقم إليه واستأمنه، ورسول الله بين أصحابه مكان المائدة من القوم حلقه دون حلقه، يقبل إلى هؤلاء مرة فيحدثهم، وإلى هؤلاء مرة فيحدثهم، فيتخطى كعب هذه الحلقات حتى يجلس بين يدي رسول الله، ورسول الله لا يعرفه، وأما هو فيعرفه بالصفة التي وصفه له بها صاحبه، فيضع يده في يده قائلا: يا رسول الله. إن كعب بن زهير قد جاء ليستأمنك تائباً مسلماً. فهل أنت قابل منه إن أنا جئت بك؟ فيقول الأمين: نعم. فيقول أنا كعب بن زهير. فيثب عليه رجل من الأنصار وهو يقول: دعني يا رسول الله وعدو الله أضرب عنقه، فيمنعه الرسول قائلا: دعه عنك، فقد جاءنا تائباً نازعاً. ثم يأخذ كعب يلشد قصيدته بين يدي رسول الله وهو يسمع فيقول:

بانت سعاد فتبلي اليوم متبول متم إثرها لم يفد مكبول
وما سعاد غداة البين إذ رحلوا إلا أغن غصيص الطرف مكحول
وما إن وصل كعب إلى قوله:

إن الرسول لنور يتضاء به مهند من سيوف الهند مسلول

حتى قال رسول الله: من سيوف الله، وألقي عليه بردته الشريفة التي كانت عليه، ويقول الباجوري في حاشيته على هذه القصيدة: قال أهل العلم: هذه القصيدة هي التي حتمها أن تسمى بالبردة، لأن المصطفى صلوات الله عليه أعطى كعباً بردته الشريفة، وأما قصيدة البوصيري لحتمها أن تسمى بالبردة، لأنه قد أصابه داء الفالج فأدبل نصفه وأعيى الأطباء، فلما نظمها رأى المصطفى فسح يده عليه فبرئ لوقته.

وهذا من باب التصحيف، والتصحيف في لغة العرب كثير. قال المعري: أصل التصحيف أن يأخذ الرجل اللفظ من قراءته في صحيفة ولم يكن سمعه من الرجال فيغيره عن الصواب. وقد وقع فيه جماعة من الأجلة من أئمة اللغة وأئمة الحديث حتى قال الإمام أحمد بن حنبل: ومن يعرى من الخطأ والتصحيف ١١١٥

قال ابن دريد : صحف الخليل بن أحمد فقال : يوم بغاث بالغين المعجمة وإنما هو بالمهمل .

وإذا كانت قصيدة البوصيري قد اشتهرت بالبردة واسمها البردة ، فإن البوصيري نفسه قد اشتهر بغير نسبه . فنسبته « الدلاصيري » ذلك أن أباه من دلاص ، وأمه من بوصيري قرية بقرب دلاص بمديرية بني سويف فركبت له نسبة منهما وقيل : الدلاصيري . ولكنه اشتهر بالبوصيري . والبوصيري هذا كان مديراً للشرقية يوم كانت قصبها بليس ، وله قصيدة طويلة مشهورة في مباشرة الشرقية منها :

قدمت طوائف المستخدمينا فلم أر فيكم رجلاً أميناً
فقد عاشرتهم ولبثت فيهم مع التجريب من عمرى سنينا
فكتاب الشمال هم جميعاً فلا صحبت شملهم اليميناً
فكم سرقوا العلال وما عرفنا بهم فكأنما سرقوا العيوناً
ولولا ذلك ما لبسوا حريراً ولا شربوا خموراً الأندريناً
إلى أن قال :

وقد طلعت لبعضهم ذقون ولكن بعد ما حلقوا ذقونا
وللبوصيري في مدائح النبي قصائد طنانة ، منها الحمزية وأولها :
« كيف ترقى رقيق الأنبياء » . وقصيدة على وزن « بانت سعاد » وأولها :
إلى متى أنت بالذات مشغول وأنت عن كل ما قدمت مشغول
وهذا عدا البرمة التي أولها :

أمن تذكر جيران بنى سلم مزجت دمعاً جرى من مقلة بدم
ويطيب لى أن أختم هذه الكلمة بقوله في هذه القصيدة :
يا أكرم الخلق مالى من ألوذ به سواك عند حلول الحادث العمم

مراجع البحث :

- | | |
|---|---------------------------------------|
| ١ - أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير | ٤ - نوات الرواة لابن شاكر |
| ٢ - الأصنام لابن الكلبي | ٥ - حاشية الباجوري على متن بات - عمار |
| ٣ - الخطب التوفيقية لعل مبارك باشا | ٦ - المزهرة للسيوطي |

في ميدان علم النفس

تعريف الحكم

لمحاضرة الأستاذ الدكتور سعيد زاهر

ويلخص العلامة ديبته ، الحكم في ثلاث صور تتبع كل واحدة منها الأخرى ، تليه أولاها الثانية بالتشابه وتوحي ثانیتها إلى الثالثة بالتجاور ، فالصورة عنده تقابل الحادثة ، أو هي الحادثة ذاتها في تعريف العلامة ومارب ، وعلى ذلك فالحادثة الأولى هي الباعث ، والثانية هي التجارب الماضية ، والثالثة هي الحلقة النهائية . وهذا يقابل في رأى د هو لتجورث ، الدالة على ، والمدلول عليه ، والدلالة .

وعلى هذا النمط ، راح المؤلف يوفق بين النظرية الصحيحة - في رأيه - وبين نظريات كل من د وارن وهو فدنچ وتشنر وكالكتر .

وثمة شيء مهم في هذا المضمار هو بيان الصلة بين الإدراك الحسى والحكم ، والاستدلال والاعتماد ... ينبغي التمييز بين ملكة الإدراك الحسى والحكم ، فهما يمتان بصلة إلى عملية أخرى هي الاستدلال ، ويلتخص التمييز في عند مقارنة بينهما ، فالحكم كما رأينا قد عُرف بأنه إثبات علاقة ، ولكن هذا التعريف ليس نوعياً بل عام ، والعمومية في علم النفس ليس لها مقام كبير كالتوعية . فتوايين التداعي والتشابه والتجاور والتضاد مثلا ليس لها مجال في علم النفس ، بل ينبغي النزول إلى اختبار الأفراد .

ويجب أن نعرف أن العلاقات موجودة فعلا في العالم ، وليست من صنع إدراكنا الحسى . فلعلاقات وجود موضوعى ، ويمكن اكتشافها بأكثر من طريقة واحدة ، وأبسط الطرق تلك التى تمتضى منا أن تقابل بينها مباشرة لنعرف وظيفتها . وأول ما يجب أن نفهم هو العلاقة بين الأشياء التى تنظر إليها ، فإننا نستطيع أن نصل إلى العلاقة بمقابلة شيئين ، فأحد الطرفين يبدو كأن تغيرأ حدث فيه ، وإن لم نستطع تمييز موضوعات العلاقة . وبفس الطريقة نعرف لأول وهلة أن هناك تشابهاً في اللون أو تساوياً في الكمية أو تناسباً في الجمال بين موضوع ما

وموضوع آخر . ففي كل هذه الحالات توضح العلاقة وتميز وتؤكد إلى حد كبير ويمكن التعبير عنها بوضوح .

وهناك عملية ثانية لإدراك العلاقات وتقريرها . وهي عملية لها خصائص تمتاز بها ، وهذه العملية تسمى بالإدراك الحسى الوسيط ، فإنه من الممكن بمقارنة حركتين ، أن نعرف إذا كانت إحداها أطول من الأخرى أم لا ، ولا يتأتى ذلك بإدراكنا مباشرة علاقات المكانية ، بل بملاحظتنا الوقت الذى استغرقته كل منهما ، كما يمكننا أن نعرف هل سماء اليوم أصفى من سماء الأمس من مشاهدتنا للظل الذى يقع على الأرض ، ومقدار وضوحه وجلاله ، وبمكتنا كذلك أن نقدر قيمة ثوب ما ونوع القماش الذى صنع منه وما إذا كان أجود من غيره ، لا بمقارنة الفسيح مباشرة ، ولكن بمقارنة سعرهما أو اسمى متجهيما . هذه العلاقات التى نستطيع أن نؤكد بها بطريق غير مباشر فروق فى الدرجة ، كلاهما ثابت وكلاهما مضمون ، ولكن قيمتهما تختلف فى الدرجة .

وكذلك العلاقة المكانية يمكننا أن نتأكد منها عن طريق العلاقة الزمنية ، فبالنسبة لمسافتين مثلا يمكن التأكد من إدراكها بالزمن الذى تستغرقه فيهما سيارة ما تسير بسرعة ثابتة ، هذا النوع غير المباشر من إدراك العلاقات يمكن أن نسميه حكما ، وحياتنا اليومية ملأى بما يحقق هذه النظرية ، فالشاهد الذى أدرك جريمة ما إدراكا مباشرا ، لا تعتمد المحكمة — رغم ذلك — على شهادته كل الاعتماد ، بل تقوم بدراسة مقارنة لعدة شهادات أخرى لتعرف الحقيقة .

وفى كل حالات الحكم نحدث مقارنة حقيقية بين الأشياء — وإن لم يحدث حكم على هذه الأشياء فى ذاتها — يتميز — باختلافها — الحكم عن الإدراك الحسى . وقيام المقارنة هو الذى يميز الحكم عن عملية أخرى يمكن تسميتها بالاستدلال ، فى الاستدلال تدرك العلاقة كذلك بعمليات غير مباشرة ، لاختلال مقارنة ، فنحن نؤكد مثلا أن وزنا ما أثقل من الآخر لأننا عند رفعنا إياه شعرنا بخفته ، أو لأن إحدى كعفى الميزان رجحت عن الأخرى ، ونستدل أيضاً أن وقتنا ما أطول من الآخر لأنى كنت فيه أكثر تضايقا ، وتستنتج كذلك أن الشتاء الماضى كان أشد رداً لأن حركة المرور تعطلت فيه عدة أسابيع ، والمعارفات هنا غير مباشرة ، وتقوم على معرفة إضافية يمكن أن تؤخذ بكل بساطة ، كرمز لحالة علاقية معينة ، لأشياء أولية فى الفكر .

وتمت طريقة رابعة لتقرير العلاقات وإدراكها تضاف إلى الطرق الثلاث السابقة

تلك هي العملية التي نأخذ بها العلاقات عن آخرين ، فإذا أخبرني مدرس مثلاً ، بأن المطبوعات تقرأ بوصوح أكثر في اللون الأحمر منه في اللون الأزرق ، أو بأن من يحكم نفسه أعظم ممن يحكم مدينة ، أو أن الاستجابات السمعية أقصر من البصرية ، فإنني أومن بهذه العلاقات جميعها لثقتي في المدرس .

وربما يقال إن الإيمان ليس إدراكاً بالضبط . ولكن هذه العمليات الأربعة تكون ، بشكل ما ، صيغ إدراكنا في حالة غياب الأفكار القطرية والحقائق الموحى بها . وتعريف الاستدلال والحكم والإدراك الحسى ، توازى الفروق التي عقدناها سابقاً بين الإدراك الحسى والحكم والإيمان ، فالاستدلال عادة أقل ثقة من الحكم ، والحكم أقل تدأ من الإدراك الحسى . وبمعنى آخر يكون الإدراك الحسى أكثرها ثقة ، ويليه الحكم ثم الإيمان .

والخلاصة أن الإدراك الحسى يقوم على تأييد الأشياء نفسها فينا ، ففستجيب نحن بالإحسان ، في حين أن الحكم يقوم على إدراك علاقة بين الأشياء نفسها ، وليس لهذه الأشياء دخل فيه . أما الاستدلال فإنه يقوم على إدراك العلاقة ، ولكن للأشياء دخل في إدراك العلاقة ، بمعنى أننا نلاحظ الجزئيات ثم نرقى منها إلى معرفة العلاقة ، فكأن الحكم دائماً يعتمد على ناحية غير مباشرة .

ولكن ، كيف نستطيع أن نعرف ، بالنسبة لأية حالة من الحالات ، ما إذا كان تقرير العلاقة مباشراً (إدراكاً حسيّاً) أو غير مباشر (حكماً) أو مشتقاً (استدلالياً) . يبدو أن هناك - على الأقل - طريقتان للمعرفة :

إحداهما تكون خلال الملاحظة المباشرة لأنفسنا أو خلال شهادة غير المتعاقبة بملاحظة أنفسهم .

والأخرى تكون بالاستدلال بناء على قاعدة مفروضة للعملية التي نحاول التعرف بها ما إذا كان الاستدلال سينتجى عملية المعرفة ، أم هو عبارة عن القضية في حالة صحتها وبقائها .

وثمة طريقة ثالثة ، هي معرفة ما إذا كانت الفتاوى أو القضايا تصبح أكثر اتفاقاً بالعلاقات الصادقة بين الأشياء المحكوم عليها ، أو أكثر انهماقاً بعلاقات العمليات التي تثق فيها بطريق غير مباشر .

والخلاصة ، أنه يمكن القول بأن كل طريقة من هذه الطرق خاصة بنوع معين من اليقين ، وربما اقتضى يقين ما أن نجمع بينها جميعاً .

الإسلام في مدغشقر

لحضرة الأستاذ محمد طلعت زهران

أستاذ في الآداب

[رأى حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر
شيخ الجامع الأزهر أن يوفد بعوثا لبحث حال المسلمين
في مختلف البلدان الإسلامية . ونحن نهدي هذا المقال
إلى البعثة التي ستطوف في هذه الأرجاء]

مدغشقر جزيرة كبيرة تبعد عن ساحل أفريقيا الشرق نحو ١٤٠ ميلا ،
وتبلغ نحو ٩٨٠ ميلا طولا ، ٣٥٠ ميلا عرضا ، دخلت هي وجزائر كومورو
(وتقع شمالها) تحت الحكم الفرنسي الاستعماري سنة ١٨٩٦ م ، أما سكانها
فيفيدون عن الأربعة ملايين من الأنفس .

وسكانها الأصليون ، ينقسمون إلى عدة قبائل . تختلف عاداتها وتقباين ،
جاء معظمهم من أندونيسيا والملايو ، في سفن ساقطها إلى شواطئ الجزيرة التيارات
والرياح الاستوائية . وفي القرن التاسع الميلادي دخل فيهم العنصر العربي ، وتولوا
أمور الجزيرة ، وغدوا حكامها ، وإن كان هذا العنصر الجديد قد انصهر في بوتقة
الشعب ، فحرت في عروقهم جميعا دماء واحدة .

عرف العرب هذه الأنحاء باسمين : أما الأول فهو بلاد واق الواق ،
وهو اسم تفرقه كثيرا في كتب الرحلات الإسلامية والمؤرخين وألف ليلة .
فيذكر القزويني وابن الوردي أن جزائر واق الواق تحكمها امرأة تجلس على عرشها
عارية وعلى رأسها تاج من الذهب ، تحف بها أربعة آلاف جارية . ولكن
الإدريسي يرى هذه الملكة تلبس ثوبا مغزل من خيوط الذهب ، وفي قدمها نعلان
صنعا من الذهب أيضا . ويروي الهمداني أن أهل واق الواق مخلوقات تشبه

الكائنات الإنسانية ، ولكنهم ثمار أشجار عظيمة يتدلون منها من شعورهم .
وهم دائمو الصياح : واق واق (١) .

ونحن ان تركنا هذه الخرافات جانباً ، رأينا أن الاسم الباني الذي عرّف به
العرب هذه البلاد وهو « جزائر النمر » لا يزال باقياً يطلق على عدة جزائر تقع
شمال مدغشقر هي « جزائر كومورو » ، والتحرّيف عن لفظنا العربي واضح .
وقد أشار الجغرافيون العرب إلى هذه البلاد ومنهم الخوارزمي المتوفى سنة ٨٣٥ م ،
كما أشار إليها غيره من الرحالة الأجانب ، فذكر ماركو بولو مثلاً : أنها بلاد يعيش
فيها المسلمون الذين « يعبدون » محمداً .

وينقسم سكان الجزيرة إلى أقسام ثلاثة ، وهم جميعاً من المسلمين :-
يشمل القسم الأول جزائر القمر [كومورو] وسكان الساحل الشمالي الغربي
من مدغشقر وهم « الباناكارايزون » ، و « التسميتيون » . أما القسم الثاني فهم
« الصقالافيون » ، في وسط الجزيرة وغربها . ويقسم القسم الثالث في الجنوب الشرق
وهم « التاموريون » ، و « الطامباهوكا » ، و « الطيفسيرون » ، و « الطيسكيون » .

جاء العرب - فيما يروى « جبريل فيرّان » (٢) - على أربع موجات ، كانت
الأولى بين القرنين السادس والتاسع الميلادي ، وحولوا بعض السكان - الوثنيين -
إلى الإسلام . ويرجح أنهم قدموا من خليج فارس ، وأنهم كانوا من أهل السنة .
أما الموجة الإسلامية الثانية ، فقد جاءت من جزيرة سومطرة في نهاية القرن
العاشر الميلادي ، وهم الذين أطلقوا على الجزيرة اسم واق الواق . وجاءت الموجة
الثالثة من فارس ، أما الرابعة فكانت في منتصف القرن الثالث عشر الميلادي .

(١) تسمى كلمة واق واق باللغة الوطنية للجزيرة ، الشعب أو الرعايا أو الوطن أو القبيلة ،
ومن هنا يمكن القول إن مدغشقر هي واق الواق التي ذكرها البعثة في . أما بما يخص بالتميز المتدلية
من شعورها ، فإنه توجد في الجزيرة أشجار ضخمة ، لها ثمار تمت نسب إلى ما ذكره القمقي .
[عن دائرة المعارف الإسلامية] ويمكننا أن نذكر أن « الرخ » قد يكون أحد طيور هذه الجزيرة .
وقد اقترح الآن ، وإن كان يذكر أن يهذه في حجم كرة القدم .

(٢) Gabriel Ferrand كان الحاكم الفرنسي للجزيرة مدغشقر لسنتين طويلة ، وكان عالماً ترك عدة
مقالات وكتب عن الجزيرة أهمها : Les Musulmans à Madagascar - Paris 1891
ومقالاً في دائرة المعارف الإسلامية بعنوان : Madagascar and Wak - Wak .

والدليل على هذه الهجرات الإسلامية إلى الجزيرة يوجد في مجموعة من المخطوطات وجدت بالجزيرة ، ومحفظة الآن في مكتبة باريس الأهلية .

وترك العرب والإسلام آثاراً واضحة في حياة القوم ولغتهم وتقاليدهم ، وأول هذه الآثار هو الدين الحنيف الذي يعتنقه السكان ، ويجد بجانب استعمال الحروف الأبجدية العربية ، أو العربية السواحلية ، وعدداً من الكلمات خاصة فيما يدل على أسماء الأيام والشهور ، واصطلاحات علم الفلك ، وألفاظ التحية وأسماء الملابس والنفود والآلات الموسيقية والكتابة . وغيرها كثير . كما أنه - وإلى وقت قريب - كانت تصدر صحيفة إسلامية باللغتين العربية والمقلقة [اللغة الوطنية] في تاناناريف عاصمة الجزيرة . تلكم هي صحيفة « قر الدين » . ولا يزال المسلمون يحتفظون بنسخ من القرآن الكريم ، ومن الكتب العربية الدينية ، وهي كتب يتوارثها الأبناء عن الآباء ، ويعدونها - كما يجب أن تكون - كتباً مقدسة لا يفرطون فيها ^(١) .

ومما يؤسف له أن الجهل والبدع يتفشيان بين أهل هذه البلاد فنجدهم شديدي الإيمان بالزوار ، والسحر ، وعلم الرمل ، ومعرفة الطالع عن طريق يوم الميلاد وبروج الشمس والكواكب . كما تسود بين السكان خرافة هي عدم إكمال أي عمل يقوم به الإنسان ، ويقوم اعتقادهم هذا على سوء فهم معنى أن الله وحده هو « الكامل » ^(٢) .

وينتمي المسلمون في مدغشقر إلى المذهب الشافعي ، ولغتهم الرئيسية هي اللغة السواحلية . وتتكون الجزيرة من أربعة سلطنات تحت الإشراف الفرنسي ، أولاها هي سلطنة « أنجانيشا » ومقرها مدينة « موروني » ، وبها جماعة شاذلية . والسلطنة الثانية هي سلطنة « أنجوان » ، وترجع إلى مدينة شيراز في فارس ، جاء أهلها مدغشقر حوالي عام ١٥٠٦م ، ولهم مسجد كبير في مقرهم « موسامودو » ، واشتقت عنهم السلطنة الثالثة ،

[١] لزبادة الابيضاح انظر : Henri Rusillon : un Petit Continent - Paris 1933.

وكذلك كتب هيران السابقة

[٢] انظر : Robert Griffith : Madagascar - London 1919. Andrew Burgess . Zanahary in South Madagascar - 1932.

والمصادر السابقة .

فيرجع ملوكها إلى أحد أبناء سلاطنة « أنجوان » . أما السلطنة الرابعة والآخرية فهي سلطنة « موهالي » وهم شيراريون أيضا ويرجع تاريخهم إلى عام ٨٣٠ م . ويعتبر المسلمون الصقالاتيون ، أقل مسلمي الجزيرة تمسكا بشعائر دينهم فهم مثلا يحتفلون برمضان ، وإن كانوا لا يصومونه ، كما أنهم يشربون الخمر ويأكلون لحم الخنزير .

أما مسلمو الجنوب ، فهم حسب أساطيرهم قد قدموا من مكة المكرمة ، وما زالوا يحتفظون بالحروف الأبجدية العربية ، والعربية لغتهم المقدسة ، ولديهم مصاحفهم ، وكتبهم العربية في الطب والفلك يتوارثونها جيلا عن جيل .

وحوالى سنة ١٩٢٤ رأى بعض الهنود ، وعلى الأخص « الأحدية » منهم ، في هذه البلاد أرضا بكرأ ، فأخذوا يفسحون تعاليهم فيها بنجاح كبير ، وأخذ المسلمون من زنجبار وبلاد العرب يحجبون أنحاء الجزيرة يفقهون المسلمين أمور دينهم ، فإذا بالقوم يفقهون من سبات طويل ، وإذا بالإسلام يبدأ من جديد يدخل القلوب الغافلة عن ذكر الله ، وأهم مركز إسلامي في الجزيرة يوجد الآن في مدينة ماجمجا Majemga .

الجزيرة الإسلامية

هذه خطوط رسمناها حال الإسلام والمسلمين بالجزيرة ، وبقى أن نبين أن هذه الأرض ، التي سكنها المسلمون ، وآمنوا فيها بالدين الخفيف ، كانت أبدا هدفا لحملات المبشرين المسيحيين ، يحاولون إثني الناس عن دينهم ودين آبائهم القويم ، ويفغرونهم نشي الطرق والوسائل لترك الإسلام واعتناق النصرانية . وإن أمام البعثة الأزهرية التي ستجوب هذه البلاد ، لمشاكل جمة شائكة ، وإننا لاشفق عليها من الآن .

كتب « روبرت جريفيث » ، في كتابه « مدغشقر » (١) . يقول : « علينا أن نعلم أن الإسلام ليس خطوة نحو المسيحية ، وإنما هو منافسها الأكبر والعقبة الكوود في سبيل انتشارها ، ولكنني أضيف أن الإسلام في هذه الأنحاء دين شكلي فهو خليط من « المحمدية » والحرافات الوثنية » .

[١] انظر Robert Griffith : Madagasdar - London 1919.

Andrew Burgess : Zanhary in South Madagascar- 1932

وجاء في تقرير إحدى البعثات المسيحية سنة ١٩١٣ . « إننا نجد أن معظم القرى يتكون نصفها من مسلمين والنصف الآخر من مسيحيين ، وإن نحن تذكرنا تجاربنا السابقة ، لعرفنا أنه من الصعب أن ندخل المسيح في قلوب هؤلاء القوم بعد أن سيطر عليهم الإسلام ، ولكن كان من حسن طالعنا ، أن قوات مسيحية تحتل هذه البلاد » (١) .

وتبذل هذه البعثات التبشيرية ما يسعها وبشتى الطرق لنشر النصرانية وإطعام نور الله ، ولكن المسلمين هنالك « يفلقون مساجدهم عليهم ، ويحافظون على لغتهم ولم مدارسهم الخاصة ، ويعملون ما في استطاعتهم ليتجنبوا الاتصال بالمسيحيين » . وهذا القول يكتبه هنرى روسيون سنة ١٩٢٢ (٢) . في حيرة ومراة ، ولكن هذه الحيرة وهذه المراة ، بل لنقول هذه الخيبة التي مني بها المبشرون المسيحيون هي التي يجب أن تدفعنا إلى الإسراع لإنقاذ هذا الشعب الإسلامي ، فإنهم لن يستطيعوا الصمود طويلا ، فالمستعمر يعمل على وأد لغتهم ونشر لغته ، وعلى غلق مدارسهم وفتح مدارس ، وعلى هدم مساجدهم وإنشاء كنائسه ، ويتبع معهم كل سبيل لينسبهم ماضيتهم المجيد ، ويحيلهم إلى أمة من العبيد لا ترى إلا بعين المستعمر ولا تسمع إلا بأذنه ، ولا تتصرف إلا بتفكيره .

والسكامة الأخيرة نقولها لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر ، فهو المسئول عن رسالة الأزهر ، وليست رسالته معهدا في مصر يفتح ، ولا إشرافا على الدين في مصر ، لا ، إنما رسالة الأزهر الحقيقية هي رعاية المسلمين في خارج البلدان الإسلامية في عرب أفريقيا وشرقها وجنوبها ، وفي جميع البلاد التي لا تتكلم العربية ، فإن الجهل بلغة القرآن مكن للمستعمر - المتعصب لدينه دائما - أن يحول القوم عن عقيديتهم ، وأن ينشر فيهم الانحلال الخلقي والديني . حتى إذا تم له ما أراد ، سهل عليه نظام من دبر إلى دبر ، وأن يقيمهم تحت سلطانه إلى ما شاء الله .

Report of Deputation to Madagascar - London Missionary Society - 1913.

[٢] هنرى روسيون في مجلة العالم الاسلامي سنة ١٩٢٢

وَأَقَعَتِ الْجَمَلُ

لحضرة الأستاذ عبد المنعم محمد السنج

مدرس أول الآداب بالجامعة الدينية

تعتبر هذه الواقعة ، استمراراً للأوران البركاني ، الذي أودى بحياة عثمان رضي الله عنه ، والذي يعتبر شيئاً جديداً في صفحة التاريخ الإسلامي ، من حيث اضطراع القوم ، حول الخلافة والمنصب . فهذه الواقعة ثمرة لجة من ثمار هذه الفتنة الطائشة ، وهي بدورها ، ذات أثر بعيد فيما تمثل من الأحداث بعد ذلك ، على مسرح التاريخ الإسلامي .

برمت السيدة عائشة رضي الله عنها بالمدينة ، ساعة أن اشتد الحصار على الخليفة عثمان ، فركبتها تغلي مراجلها ، لسكون بمنأى عن أحداث الفتنة ومحتملاتها البغيضة وقصدت إلى مكة ، وبينما هي راجعة بعد ذلك إلى المدينة ، إذ بعبيد الله بن أبي سلة ، وهو من أخوالها ، يخبرها بأن عثمان قد قتل ، وأن الناس قد بايعوا علياً ، فهاها الخبر ، وقالت : « ما أظن ذلك تاماً ، ردوني » ، وانصرفت عائدة إلى مكة وهي تقول : « قتل عثمان مظلوماً ، والله لأطلبن بدمه » ، فقال لها : عبيد الله « ولم ؟ إن أول من أمال حرفه لانت ، ولقد كنت تقولين ، اقتلوا نعلنا فقد كفر » ، قالت : « إنهم استتابوه ثم قتلوه » ، وقد قلت وقالوا ، وقولي الأخير خير من قولي الأول ، فقال لها ابن أبي سلة :

منك البداء ، ومنك الفير منك الرياح ، ومنك المطر
وأنت أمرت بقتل الإمام وقلت لنا : أنه قد كفر
فهبنا أطعناك في قتله وقاتله عذنا من أمر الخ

دخلت السيدة عائشة رضي الله عنها مكة ، وهناك أخذت تستنفر الهمة للأخذ بثأر عثمان ، واجتمع حولها خلق كثير ، منهم : عبد الله بن عامر الحضرمي ، أمير مكة من قبل عثمان و « سعيد بن العاص » و « الوليد بن عقبة » و « عبد الله بن عامر » و « يعلى بن أمية » و « طلحة » و « الزبير » . استمر رأى هذه الجماعة على المسير

إلى البصرة ، وأعدوا عدتهم لملاقاة جند علي ، وأرادت حفصة متابعة عائشة ، فنتاها عن ذلك أخوها « عبد الله بن عمر » .

ويجمل بنا في هذا المقام ، أن نورد رسالة من « أم سلمة » ، زوجة النبي عليه السلام ، إلى السيدة عائشة تثنيها عن عزمها ، وذلك لقيمة هذه الرسالة من الناحية البلاغية ، قالت أم سلمة « من أم سلمة زوج النبي إلى عائشة أم المؤمنين ، فإني أحمد الله إليك الذي لا إله إلا هو ، أما بعد فقد هتكت سدة بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمته حجاب مضروب على حرمة ، قد جمع القرآن ذيلك فلا تسحبها ، وسكر خفارتك فلا تبتذليها ، والله من وراء هذه الأمة ، لو علم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن النساء يحتملن الجهاد عهد إليك ، أما علمت أنه قد نهاك عن الفراطة في الدين ، فإن عمود الدين لا يثبت بالنساء إن مال ، ولا يرأب بهن إن صدع ، جهاد النساء غرض الاطراف ، وضم الذبول ، وقصر المواده ، ما كنت قائلة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، لو عارضك ببعض هذه القلوات ناصّة قعوداً من منهل إلى منهل ، وغداً تردين على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأقسم لو قيل لي : يا أم سلمة أدخلي الجنة ، لاستحييت أن ألقى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، هاتكة حجاباً ضربه على ، فاجعلته سترك ، وقاعة البيت حصنك فانك أنصح ما تكونين لهذه الأمة ما قعدت عن نصهم ، ولو أتى حدثك بحديث سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لتهشت نهش الرقشاء المطرقة والسلام . »

مضت السيدة عائشة إلى غايتها ، ولم تثنها هذه الرسالة عن عزمها ، وأعطى « يعلى بن أمية » عائشة الجمل المسمى « عسكر » ومضى القوم من ورائها قاصدين البصرة ، ومروا في طريقهم بمكان يسمى « الحوآب » فتبعهم كلابه ، فقالت عائشة : أي ماء ؟ فقيل : هذا الماء الحوآب ، فصرخت عائشة وقالت : إنا لله وإنا إليه راجعون ، وقالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ، وعنده نساؤه ليت شعري ينبعكن كلاب الحوآب ، ثم ضربت عضد بغيرها فأماخته وقالت : ردوني ، أنا والله صاحبة ماء الحوآب ، غير أن القوم ما زالوا بها حتى مضت معهم إلى الناية المقدورة ، ولما أشرف القوم على البصرة ، أرسلت رضى الله عنها تستميل بعض وجوهها ، ولما علم « عثمان بن حنيف » عامل البصرة من قبل علي بمقدم القوم ، أرسل إليهم « أبا الأسود الدؤلى » و « عمران بن حصين » يسألانهم

فيا قدموا ؟ فقال عائشة رضى الله عنها فأجابت أنها قادمة في الطلب بدم عثمان ،
وأشار من قاتليه ، الذين استحلوا حرمة البلد الحرام ، والشهر الحرام ، فسفكوا
الدم الحرام ، واستباحوا المال الحرام . وكذلك سألا طلحة : ألم تبائع علياً ؟
فقال : بايعت والبع على عتي ، وسألا الزبير فقال كما قال طلحة ، ورجع الرسولان
إلى عثمان بن حنيف ، وابتدره أبو الأسود الدؤلى ، قائلاً :

يا ابن حنيف قد أتيت فأنفـر
وطاعن القوم وجالد واصبر
وأبرز لهم مسئلتنا ، وشمر

ودار قتال مبدئى بين الطرفين ، راح صحبته عثمان بن حنيف ، وده حكيم بن
جبله . ونزل على بدى قار ، في طريقه إلى البصرة ، وأرسل من يندب له أهل
الكوكة ، فكانت الجنود توافيه بدى قار ، على أهبة الاستعداد للسير إلى البصرة ،
وبلغ ما اجتمع له من الجند ١٢٠٠٠ ، فجعلهم أسباعاً ، على كل سبع رئيس .

وأشفق على من هول ما قد يتمنض عنه لقاء الفريقين من مصائب وأهوال ،
فأحب أن يبتدىء الأمر بالتفاهم مع الفريق الآخر ، لعل ذلك يحسم الخلاف ويحتمل الدماء ،
فلما انتظم عقد رجاله بدى قار ، دعا على إليه القوماع بن عمرو ، وكلفه بالذهاب إلى
البصرة في هذه المهمة . فسار إليها ، وحذر القوم عاقبة الخلاف ، وأنه مطوح بالامة
إلى المهالك ، وقال لهم فيما قال : لقد قتلتم بنار عثمان ستائة رجل إلا رجلاً ، فغضب
لهم ستة آلاف من قومهم ، فإذا أنتم صانعون غداً إذا ناجزوكم واتصروا عليكم ؟
إن الخير كل الخير فى أن تقنعوا بما أخذتم من نار عثمان ، وترجعوا إلى الجماعة ،
وتبايعوا علياً ، فانه أصلح للأمر . رضى القوم بالصلح وكاد الخلاف أن ينحسم ، وكان
أشباع طلحة والزبير بالفرصة من البصرة ، وكان أشباع على بالزاوية منها ، بعد أن
رحلوا عن دى قار ، أى أن الفريقين أصبحا قاب قوسين أو أدنى من الالتحام ؛ وخرج
على ، كما خرج الزبير وطلحة ، كل يبنى لقاء صاحبه ، والتقوا عند مكان يقال له
« الحرية » ، ولما قيل لعل أن ذاك هو الزبير قال : أما أنه أحرى الرجلين أن ذكر
بالله أن يذكر ، وسألها على بأى حق يستحلان دمه وقتاله وهم جميعاً أخوة فى الإسلام ،
فاتهمه طلحة بالتأليب على عثمان فقال على : لعن الله قتلة عثمان ، ثم قال للزبير ،
أتذكر يا زبير يوم مررت مع النبي صلى الله عليه وسلم فى بنى عامر فقال لك :

« وثقتانته وأنت له ظالم » فقال الزبير : اللهم نعم ، لو ذكرت ما سرت مسيرى هذا ، والله لا أقاتلك أبداً . غير أن « عبد الله بن الزبير » استطاع أن يحمل أباه على مقاتلة علي .

ولما كان علي رضي الله عنه حريصاً كل الحرص ، على بدل أكبر جهوده لتجنب القتال ، وانتهاء الأمر بالحسنى ، فقد انتدب من لدنه « عبد الله بن عباس » كما انتدب طلحة والزبير من لدهما « محمد بن طلحة » . وأخيراً قرر المندوبين على حسم الخلاف ، وانتهاء الأمر بين الفريقين بالحسنى ، وطرب لذلك كل حريص على خير المسلمين ، ما عدا أولئك الذين سعوا في قتل عثمان رضي الله عنه ، فتمدحوا بما عساه يحل بهم إذا ما هدأت الفتنة ، واقد استطاع هؤلاء أن يوغروا صدر الفريقين على السواء ، فبات كل فريق يتربص بصاحبه ، ويتحضر للقائه .

توافق الجمعان للقتال ، وخرجت عائشة رضي الله عنها ، في هودج جلل بالحديد ، وثار المعسكران يقتتلان ، وحمل وطيس القتال ، ورحى الحرب تدور مرة على الكوفيين وأخرى على البصريين ، ولقد قيل إنه قد قتل يوم الجمل سبعون قرشياً ممن أخذوا بالخطام ، كما يروى أن « مروان بن الحكم » قد قطع في دفاعه عن الجمل أكثر من عشرين يداً من أهل الكوفة ، وكان من بين ضحايا الجمل « محمد بن طلحة » من خير أبناء الصحابة ورعاً وتقوى وزهداً وعبادة ، كما كان « أبو طلحة بن عبيد الله » رضي الله عنه أحد ضحايا الخطام . ولما تزايد عدد الضحايا من الفريقين ، أشار على بعقر الجمل فتقدم إليه « بجير بن دلجة الضبي » واحتش ساقه ، فهوى ، وحمل أتباع علي هودج عائشة ، إلى إحدى دور البصرة ، تحت رعاية علي وأصحابه ، وانتهت المعركة بهزيمة أهل البصرة . ولقد عاجل « عمرو بن جرموز » الزبير بن العوام فقتله بواحد السباع وهو عائد بعد انتهاء القتال ، ولقد بشر على عمراً بالنار ساعة علم بمقتل الزبير على يديه .

ولقد نكب الإسلام ، في هذه الواقعة ، نكبة كبرى إذ قتل فيها عدد كبير من أفاضل الصحابة والتابعين . وغداة الموقعة جاء علي إلى عائشة وقال لها « غفر الله لك » فقالت « ولك » ما أردت إلا الإصلاح ، وظلت عائشة بالبصرة حتى موسم الحج ، فجهزها علي إلى المدينة في ٢٠ أو ٤٠ امرأة من ذوات الشرف ، وجهز معها أخاها محمداً ، وشيعها هو وأولاده رضي الله عنهم أجمعين .

بقى من أمر هذه الواقعة ، أن نعلق عليها تعليقاً تاريخياً : فالمطالبة بدم عثمان تكون من حق الإمام لا من حق الأفراد ، فكان الأحرى بفريق عائشة أن يتريث حتى يرتضى المسلمون حليفة عليهم ، يقيم الحدود ويأخذ برقاب المجرمين ، وكان لوجود نفر من اشتركوا في دم عثمان كابن سبأ في جيش علي ، أبلغ أثر في استطارة الشر ، وعدم الانصباع لصوت الضمير والعقل ، وتعتبر هذه الواقعة فاتحة المعارك الكبرى بين الأحزاب السياسية ، وأكبر دليل على اتساع الفتق وتعاطف الداء ، إذ انقسم المسلمون فيها على أنفسهم : عرب البادية والكوفة ينصرون علياً ، وعرب الحجاز والبصرة ينصرون عائشة ، ولذا تعتبر الواقعة انتصاراً للفريق الأول على الفريق الثاني .

ولذا كانت نهاية الواقعة إنتصاراً حريماً لعل ، فهي من الوجهة السياسية ليست كذلك ، فقد شغلت هذه الواقعة عن خصمه الأكبر معاوية بن أبي سفيان ، الذي انفرد بالشام وراح يحكمه بأمره ، ويدبره على أحكم وجه ، استعداداً للصراع المقبل بينه وبين علي . ثم كان من نتائج هذه الواقعة أن سحق كثير من العرب على قريش ورجالها لانهم أوردوا أناءهم موارد التهلكة . هذا ولأنى أعتقد أن التبعة الكبرى في هذه المعركة الدامية ، التي ذهب ضحيتها نفر من جلة الصحابة والتابعين . تقع على عاتق عائشة ، فإني أقطع بأنه لولا وجود عائشة في موقعة الجمل ، ما اجتمع لأعداء علي شمل ولا قامت لهم قائمة ، إذ ألهبت النفوس بخطبها ، وحركت المشاعر بوجودها ، حتى بلغ القتال أشده ، وأنتج ما أنتج من المصائب والأهوال ، وكان الأولى بأهم المؤمنين أن تقف من الفريقين موقف الناصح المرشد ، حتى تزيل ما في النفوس من تحفز وتحمس للقتال ، وتسعى جاهدة لتأليب القلوب حول الوحدة الإسلامية بالطرق السلبية ، لآبارقة الدماء ، والوقوف موقف المناصر لحزب والمناهض لآخر . والناظر لتطور الحوادث يرى أن هذه الواقعة قد قوت من حجة القائلين بالأخذ بأمر عثمان ، لأن علياً قد آوى قتلته في جنده ، فأضعف بذلك مركزه ، وقوى بالتالي مركز معاوية ، ثم أن عاصمة الاسلام قد جافت من بعد هذه الواقعة ، المدينة ، مطالئاً إلى غيرها من المدن ، وبالإضافة إلى كل ما سبق ، قد أتاحت هذه الواقعة للنافقين جواً مناسباً لبذر الخلاف بين المسلمين .

أسلحة القتال عند المسلمين

لمؤلفة الأستاذ هاشم محمد إبراهيم

مدرس الآداب بمعهد القاهرة

— ٢ —

تكلّمنا في العدد الماضي عن بعض أسلحة المسلمين البرية المباشرة وسنحاول هنا الإشارة إلى بعض أسلحة أخرى غير مباشرة لا تقل فتكاً وتدميراً عن الأسلحة الأخرى، بل تتمايز عنها بسهولة الاستعمال وقلة ضخام الجنود التي تستعملها، ولو أن بعض هذه الأسلحة كان معروفاً، إلا أن المسلمين أدخلوا عليها من التحسينات ما جعل لها قيمة في حروب العصور الوسطى لا يستهان بها :

فمثلاً استعمل للمسلمون القذائف الملتببة التي كانت تسمى النار الاغريقية وهي عبارة عن مخلوط كيميائي به ملح البارود الذي يشتعل عند اصطدام القذيفة بأجسام صلبة. وقد اخترع هذا السلاح مهندس سوري، ثم باعه للدولة البيزنطية التي كافأته بسخاء، وعندما هاجمت البحرية الإسلامية في عهد معاوية بن أبي سفيان القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية لم يقدّمها من السقوط في يد العرب إلا النار الاغريقية التي مزقت الأساطيل الإسلامية، فكان ذلك درساً قاسياً وسلاحاً نافعاً أخذته العرب عن البيزنطيين ضمن أسلحة أخرى .

ومن الطريف أن نصف بعض الأسلحة الغير المباشرة التي ابتدعها المماليك بمصر خاصة أيام الظاهر بيبرس في حربه مع المغول والصليبيين، وقد كانت هذه الأسلحة الحربية الاقتصادية فتاكاً ولا تحتاج إلى تضحيات جنود كثيرين، وكان الغرض منها هو إحداث كل ما يمكن من تخريب، وإشعال الحرائق في أطراف بلاد الأعداء، والثابت في تاريخ دولة المماليك أنه كان بالجيش فئة من فئات المماليك تسمى بالمرقات، ويظهر أنها كانت هيئة منظمة كتنظيم البريد، وربما كانت فرعا من البريد، وكانت طريقة هذه الفئة أن تربط بذبول الثعالب خرقة مبلّلة بمواد ملتهبة ثم يشعلون تلك الخرق ويتركون الثعالب تتطلق نحو بلاد العدو، وللمؤلفة

الممالك أيضاً اختراعات أخرى كثيرة منها مثلاً : اختراع خنق اللاع المحصورة بأنواع من الغازات ، وفكرة إحداث ثقوب بخوايط المدن الحصينة المستعصية الفتح ثم حشو هذه الثقوب بمواد ملتهبة ، وبهذه الوسائل وغيرها انتصر المسلمون على المغول كما انتصروا على الصليبيين في عدة مواقع حاسمة ، وقد استخدم السلطان بيبرس وغيره من سلاطين الممالك في حروبه الدبابات ذات العجل والزحافات والأبراج المتحركة والتطاطيع التي كانت تهتم بها أسوار القلاع .

أما أسلحة القتال البحرية عند المسلمين : قبل الإسلام وفي صدره ، فلم تكن موضع عناية . وقد علل ابن خلدون في مقدمته [ص ٢٢٠] سبب امتناع العرب في أول عهدهم عن ركوب البحر أنهم لم يكونوا أول الأمر مهرة في ثقافته وركوبه ، والروم والأفرنجية لمارسهم أحواله مرتوا عليه فأحكوا الدراية بثقافته . فلما استقر الملك للعرب ، وشمخ سلطانهم وصارت أمم البحر خولاً لهم وتحت أيديهم أنشأوا السفن والشواني وشحنوا الأساطيل بالرجال

ويرجع الفضل في إنشاء الأسطول الإسلامي الأول إلى عثمان بن عفان ، عندما ألح عليه معاوية ، واليه بالشام ، بضرورة غزو بلاد الروم بحراً ، فجهز أول أسطول للمسلمين ، وقاده عبد الله بن سعد بن أبي سرح ، وإلى مصر من قبل عثمان ، وحارب به أمبراطور الروم قسطنطين في عرض البحر الأبيض وانتصر عليه في واقعة ذات السوارى ، مع أن عدد سفن المسلمين كان يقرب من المسائي سفينة وقفت أمام ألف سفينة للعدو .

وعنى معاوية مؤسس الدولة الأموية بإنشاء السفن الحربية ، فأعد لغزو الدولة البيزنطية - التي كثيراً ما أغارت على البلاد الإسلامية - ما يسمى بالشواني والصوائف ، وقد بلغ عدد سفنه ألفاً وسبعائة سفينة .

ولما كانت مصر من البلاد التي تعرضت للغزو البيزنطي ، فقد اهتم أمراؤها ببناء السفن ، وأنشئت دار لبائها في جزيرة الروضة (الخطط للقريري ج ٢ ص ١٩٠) واستمرت البحرية الإسلامية في عظمها طوال العصر الأموي وبداية العصر العباسي . وقد وجه الماطميون عنايتهم إلى الأسطول البحري لصدد غارات

البيزنطيين على الشام ، ومن ثم أنشأ المعز لدين الله داراً لصناعة السفن بنى فيها ستمائة مركب ، وكان على رأس الأسطول المصرى فى العصر الفاطمى عشرة قواد على رأسهم رقيس يسمى أمير الجيوش ، واشتهرت الروضة والإسكندرية بصناعة السفن الحربية .

ولما انتقل الحكم فى مصر إلى صلاح الدين الأيوبي ، اهتم بالأسطول اهتماماً كبيراً لمحاربة الصليبيين وصدهم عن الموانئ الإسلامية ، وقد أنشأ ديواناً خاصاً عرف باسم « ديوان الأسطول » ، وكان القائد يسمى أمير الماء أو أمير البحر . وازدادت العناية بالأساطيل البحرية أيام المماليك ، خاصة فى عهد السلطان بيبرس ، فى عهد الأشرف خليل بن قلاوون ، الذى أنشأ أسطولاً قوياً مكوناً من ستين مركباً مجهزاً بالآلات الحربية والرجال ، وكانت هذه السفن مقسمة إلى أنواع منها الثوانى وهى المراكب المعدة للجهاد فى البحر ، والحراريق وهى سفن فيها قاذفات نيران يرمى بها العدو فى البحر ، والطرائد وهى سفن صغيرة سريعة ، وهى الألفاظ المستعملة اليوم للدمرات والطرادات والبوارج .

ويدين العرب للبيزنطيين بفضل تعليمهم الفنون البحرية ، ولكن العرب نبغوا وأصبحوا سادة البحار بفضل شجاعتهم ، وقوة احتمالهم للشدائد والأحوال ، فأصبحوا أساندة أوروبا ، والدليل على ذلك أن بعض الألفاظ البحرية العربية لا تزال مستعملة فى الاصطلاحات البحرية الأوروبية فتتلا :

كلمة Arsenal [وبالإيطالية Darsonal] أخذت عن لفظ « دار الصناعة » بالعربية .

وكلمة Admiral أخذت عن لفظ « أمير البحر » بالعربية ، وكلمة Cable المأخوذة عن لفظ « جبل » .

ويجب أن لا ننسى أن العرب اهتموا بنظام الجاسوسية فى الحروب ، خاصة أيام الدولة العباسية ، فقد استخدمت النساء والرجال على السواء ، لمعرفة أحوال الأعداء وقواتهم وأسلحتهم ، وكان هؤلاء يرسلون إلى البلاد المعادية ، متنكرين فى أزياء الأطباء والتجار وغيرهم لجمع الأخبار ، وكانت الجاسوسية العباسية على الأخص نشطة إلى حد كبير فى الدولة البيزنطية التى نافست الدولة العربية ، والتى كان الفن الحربى يخرج منها فى الماضى .

كَيْفَ نَقْرَأُ الشَّعْرَ

بقلم الأستاذ حمزة محمد التنبُّغ

إبائنيه في الأدب الانجليزي

ما زال تعريف الشعر بأنه ، حديث الذكريات ، - لما فيه من إيمان في البساطة ، وإغراق في الوضوح - أبرز التعريفات جميعاً ، رغم تعددها وكثرتها . ويرى ذلك التعريف إلى جعل العاطفة واستثارتها ، والفكر وشحنه ، مدار الشعر ، وجمال الشعراء ؛ إذ أن الإنسان قلباً يذكر شيئاً لم يستر شعوره ، أو ينفخ خياله ، أو يستنهض عقله . والكلمة الشعرية لا بد أن تصل إلى أغوار الشعور ، لما لها من جرس وتفاعيل Cadence ، ولما يحيط بها دائماً ، من قدرة إرغائية واسعة ، تفتح أمام الفكر آفاقاً فسيحة من المعاني ، ولما تنسج به من جمال فريد وسحر أخاذ .

وفي الحق إن الجهد الفكري ، الذي نحتاج إليه عند قراءة الشعر ، يناقض تماماً الجهد ، الذي يلزمنا لكي نصل إلى معاني التعبيرات الصوتية الأخرى ، التي لا يتسع مجالها الإيحائي Aura of Suggestion إلا لمعنى واحد ، من بين معاني القاموس اللغوي ، بينما تشغل اللفظة الشعرية مجالاً أوسع وأرحب ، تشع فيه معانيها الإيحائية العديدة ، كما تشع الذرة خطوط القوى ، فتحل الزمان والمكان حوالها . ولعلنا بذلك نستطيع أن نجلو السر الغامض ، الذي يجعل الأسلوب العلوي ، أقرب إلى الفهم والإدراك ، عند القراءة ، أكثر منه عند السماع ، كما يصبح الشعر هو الآخر - حين يلس قياده ، وتواتي قوافيه - لغة الإيحاء ، التي تعتمد على الأدن إلى حد بعيد . وفي خلال ذلك يحتاج الشاعر في تعبيره - كما يحتاج الشاعر - إلى التوجبات الموسيقية التي لا مفر من تعاقبها ، كلما تعاقبت مراحل الجهد والراحة ، واحدة إثر أخرى ، أو كلما دفعت المناسبة الشاعر إلى زيادة التأکید لبعض المعاني ، التي تروقه وتهمه أكثر من سواها . ونحن نجد ، في أنواع الشعر جميعاً ، رابطة قوية ، بين التوقيع الموسيقي ، الذي يخضع لهوى الشاعر في تقدير

الاشياء ، وبين الاوزان الشعرية ، بتفاعيلها المختلفة ، التي استمدت أصولها من تقاليد لغوية قديمة ، خضع لها النظم خلال أزمان طويلة ، ونهج الشعراء على منوالها في أشعارهم .

أما العلاقة بين الشعر والنثر مهما تباينت ألوانه ، فهي تشبه ، إلى حد كبير ، العلاقة بين على الجبر والحساب ... فالشاعر إنما يعبر عن تجاربه الشخصية أو الخيالية ، بيد أن هذه التجارب لا تستكمل قيمتها وأهميتها ، ما لم تتمثل في مخيلة القارئ صوراً مفعمة بالحركة والنشاط ، وما لم تلق بأضوائها فوق تجارب القارئ نفسه ، ومعنى ذلك كله ، أن نجاح الشاعر أو فشله إنما يقاس بكثرة المناسبات التي تذكره وتذكر شعره فيها .

وما دمننا قد اصطللنا على أن الشعر إنما هو حديث الذكريات ، فن الطبيعي أن نجد سائلاً يسأل : وعلام تدور تلك الذكريات ؟ أعلى الحياة تدور ، أم على الموت ؟ أم تعتمد على التعبير عن أغوار الكراهية والخوف ؟ أم تمتد بالوصف لتلك الرغبات العميقة ، التي تراود الناس في يقظتهم ، وتنفو إليها نفوسهم في أحلامهم فيتحقق بعضها طوراً ، ويصبح مصدر ابتهاج وإيناس ، وبفشل بعضها طوراً آخر ، فيظل ماثلاً للعين ، رمزاً للبؤس والحerman ؟ أم تصور الحق ، وقد استطال به نقه في يأس حارق ، وفي حرقة يائسة ؟ أم تصف الباطل ، ، وقد عم البسيطة في جرأة طاغية ، وفي طغيان جارف ؟ أم تنزع حديثها من الأطوار التي تعرض لنا جميعاً ، فتكشف عن الطفولة وبساطتها ، وعن الشباب وثورته ، وعن الكهولة وازرائها ؟

أجل إن حديث الذكريات ، يتناول ذلك كله ، بيد أنه لا يقتصر عليه ، وإنما يتعداه إلى غيره مما تذكره من الأشياء ، بين الفينة والفينة ، مهما كان تافهاً بسيطاً . وفي الحق أننا نسيء إلى الشعر كثيراً ، ونعوقه عن السريان في جداوله الأصلية ، إذا نحن أردنا أن نحبه على تجاربنا العميقة وحدها ، بحيث لا يتناول غيرها بالوصف والتصوير . . بل إن من أرادوا بالشعر ، من هذه السيل ، أن يمجده ، ويحفظوا له مكانته السامية ، لم ينجحوا إلا في صد الناس عن الشعر والشعراء ، الذين ملتهم آذانهم ، ومجتهم أسماعهم . . إذ ليس الشعر سوى صورة

ناطقة للطبيعة البشرية ، تعكسها بشرها وحيروها ، وتنقلها إلينا بعمقها وجمالها ،
وتعبر لنا عما فيها من ألوان البساطة الخالصة ، والصنعة الجارفة ، وعما يعرض أمام
أعيننا من ضروب الذكاء والغباء ، وعما نشهد من صفوف الدس والعفاف .

وثمة أمر آخر يجعل الشعر ذا مجال فسيح في أغراضه ومراميه ، وينأى به عن
الضيق والتضييق ، الذي يريده له بعض النقاد . . ذلك أنه بالرغم من انتشار التعليم
اليوم ، وازدهار الطباعة وذبوعها ، وظهور وسائل التثقيف الجماعية الأخرى ،
كالإذاعة اللاسلكية ، والشاشة البيضاء ، والمسرح ، إلا أن الهوة بين الذوق الأدبي
الرفيع النابذ Highbrow taste ، والذوق الأدبي الخفيض المنقاد Lowbrow taste
ما زالت بعيدة ، بل أبعد عما كانت حتى اليوم .

ثم جاء بعد ذلك دور الانقلاب الصناعي ، الذي كان لاسر بلاد العالم في العصر
الحاضر منه نصيب ، فقصى على كثير من الجماعات الزراعية ، بما لها من ثقافات
محلية تقليدية ، وأحجى الناس قسمين : فهناك العامل وصاحب العمل من ناحية ،
وهناك المساهمون من ناحية أخرى . ولم يجد الأولون فسحة من الوقت ، أو متسعاً
من الفراغ ، بعد أن وسعهم العمل ، وشغلهم السعي ، أما الفئة القليلة الأخرى ،
فقد اتسع أمامها الفراغ تزجيه أنى شئت . وجرى الأدب بطبقة كذلك في شعتين
اثنتين ، تمت إحداهما الفئة الأولى بوسيلة تهرب بها من صخب الحياة ، وصحيج
المصنع ، وتمت الأخرى الفئة الثانية ، بوسيلة تملأ بها لحاج الروح ، أو تنسى بها عالمها ،
لتعيش في عالم من نسج خيالها ، تعمده أشباح هائمة ، وتسوده أجواء مفعمة بهمال
الخرافة وسحر الأسطورة .

والنتاج الفني الرائع قد يكون من صنع أفراد ، وقلة الإقبال عليه لا يعنى
بالضرورة أن ذلك النتاج تنقصه الروعة ، ويعوزة الإتقان . . أما النتاج الفني العام
universal art فلن يتحقق إلا في المجتمع الذي تتحد مشاعره ، وتتفق معايير
الأشياء عنده ، وتفسج آماله وأهدافه . . وبعد كل البعد أن يستطيع الأديب صوغ
خير نتاجه وآتفه إلا في مثل ذلك المجتمع .

في النقد الأدبي

لؤي ستاز الشيخ أحمد محمد صفد

كلية اللغة العربية

يهمون النقد في عصرنا على أنه تناول الأمر بالعب والبحث عن الدقائق فقط . . . ولكن الحقيقة أن النقد يشمل الكشف عن المساوي وتحليل المحاسن . . . والنقد الأدبي - بهذا المعنى - هو الفهم الصحيح والتحليل الدقيق للآثار الأدبية . . . وإظهار القيمة الفنية للأثر الأدبي . ارتفعت هذه القيمة أم انحطت . . . فإذا تناول الكاتب موضوعاً بالنقد فإنما يريد أن يوضحه ويكشف عن حقيقة كما يتقد والصيرفي ، البراهم ليز جيدها من زائفها . . . !

فأعد هذا النقد . . . وما وسائله ؟

أهي القواعد أم السليقة ؟

أهي المعايير والقوانين البلاغية أم الذوق السليم والحس المرهف ؟ وبعبارة أوضح : أهي الصناعة بقواعدها المعقدة . . . أم الطبيعة بأسلوبها السهل اليسير . . . ؟

أسئلة تدفق على أذهان المشتغلين بالأدب العربي في هذا العصر . . . وتحل حيزاً كبيراً من أفكارهم . . . ويختلفون في الجواب فقريق يقول : إن الأدب فن . . . والآخر يرجع إلى الذوق . . . فالحكم في القضايا الأدبية مستمد من السليقة معتمد على الفطرة . . . وكذلك كان العرب القدماء يتقدون الأدب . . . يتذوقون معناه . . . ويهتزون لموسيقا الألفاظ هزة الشعور بالجمال والإحساس بالحسن ، حتى إن الحدائق من النقد زيموا قصة النابغة الذبياني مع حسان بن ثابت والخمساء في سوق عكاظ لأنهم وجدوا عليها مسحة الصنعة ، وهي قصة معروفة تلخص في أن الخمساء أنشدت النابغة - وهو قاضي الشعر في عكاظ - قولها في رثاء صخر أخيها .

قننى بعينيك أم بالعين عوار أم ذرفت إذ خلت من أهلها الدار

فلما قالت :

وإن صحرا لمولانا وسيدنا وإن صحرا إذا نشئوا لنحار
وإن صحراً لتأتم الهداة به كأنه علم في رأسه نار . . .

قال لها : لولا أن أبا بصير - يريد الأعشى سبقك لقلت : إنك أشعر من
في السوق . . . فغضب حسان لذلك وقال : بل أنا أشعر منها ومنك ، قال النابغة :
حين تقول ماذا ؟ قال : حين أقول :

لنا الجففات الغري لمن في الضحا وأسيافنا يقطرن من نجدة دما
ولنا بني العنقاء وابني محرق فأكرم بنا حالا وأكرم بنا ابنما

فقال النابغة : قلت جفانك . . . وقلت : يلحن ، ولو قلت : يرقن ، لكان
أجود . . . وقلت في الضحى : ولو قلت : في الدجى ، لكان أقرب لأن الدجى منزل
الصفبان وقلت : يقطرن ، وكان : يجرين ، أبلغ . . . وافترخت بمن ولدت ولم
تفخر بمن ولدك !!

وقد زيف النقاد هذه النصة وشكوا في ثبوتها على هذه الصورة لأنهم وجدوا
النابغة يعمل لتقدمه بما يشبه كلام النحاة وأرباب الصلابة مع أنه العربي الصريح
الذي كان يذوق السكلام ولا يعرف شيئاً من الاصطلاحات التي وجدت بعد
ذلك ، وكان الناقد العربي قديماً يستحسن الكلام أو يستقبه دون أن يقول لماذا
حسنه . . . أو مجتهه ؟

ويرى فريق آخر أن الذوق لا يقوم بالنقد ولا يكفي في احتمال إعبائه ولا بد
من الاستئناس بالقواعد العامة في الكشف عن مزايا الأدب أو نقائصه . . . إذ
لا يصح أن يترك موضوع خطير كالنقد تتلاعب به الأذواق وتباين فيه المشاعر
فيدمغ أثر جليل بحكم هزيل ورأى خطير . ١١

كما كان يحدث في الجاهلية وصدر الإسلام إذ يسمع الرجل بيتاً من الشعر
فيقسم على الفور بأن قائله أشعر الناس . . . وحين يسأل الرجل عن أشعر الناس
يقول : أشعر الناس من يقول كذا . . . وروى بيتاً أو بيتين فإذا سئل بعد ذلك
ذكر شاعراً آخر . . . وهكذا لو اتقصيت مقالاتهم لخرجت ، وليس في الناس شاعر
و ليس أشعر الناس ١١٢

ونحن إذا نظرنا حولنا اليوم لنقرر « أى الرايين السابقين أصلح ؟ » لوجدنا قوماً قدموا السليقة فلم يعودوا يفهمون الكلام إلا بواسطة المعاجم ولا يقيمون الألفاظ إلا بعد طول النظر في كتب النحو ... ولا يعرفون قيمة التعبيرات إلا بعد أن يستشيروا « السكاكي » وحواشيه في فوائد « التقديم والتأخير » ، وتعريف « المجاز والحقيقة » . والتشبيه والاستعارة . !! فنأين تأيننا السليقة والصناعة تكتنفنا من الجهات الأربع كما يقولون ... وتحيط بنا في كل مكان .

وحبك أن « البلاغة » وهى المادة التى صار إليها النقد الأدبي فى شكله المسوخ — تتنافر كتبها مع اسمها ويناقض أسلوبها وطرق البحث فيها المقصود من تأليفها . ومع ذلك يلقى حبل المتأدين على الغارب يحوسون خلال كتب البلاغة الجافة الملتوية ليخرجوا منها عشرات القواعد يحكموها فى الآثار الأدبية ويدورون معها فى المجال الذى رسمه السابقون . فيكرهون الأثر الأدبي الرائع على الانحناء لقواعدهم الملتوية ، وهيات أن يخضع الوجدان لقاعدة وأن يلبس الشعور ثوب النيماس ، فإذا ضاقت الحيلة واستعصى الكلام على الدخول فى حظيرة القوانين المرسومة ارتكبوا فيه التأويلات البعيدة ليصححوا أخطاء مسلكهم وليحافظوا على قدسية « بلاغتهم » كأنها نظريات فلسفية تحتاج الى التمهيص والتحايل وليتهم يعلمون أن الأدب لا يتحمل كل هذا التقليل . ١١

هذه حال المثقفين فى عصرنا عامة ... وهذه طريقة كتب النقد الأدبي أو « البلاغة » كما يسمونها طريقة علمية تتخذ الحصر والتعداد وسيلة لها وهى طريقة لا تتفق مع المقصود منها لأنها بهذا الوضع لا تخرج نقاداً ..

لذلك لم يكن غريباً أن نرى المقصورين على هذه الكتب وحدها قصار المرمى فى ميدان النقد الأدبي فهى تخرج علماء لا أدباء ، فالذوق الأدبي الصالح غير موجود اليوم . والكتب « التمدية » الملائمة مفعودة فى المحيط المدرسى . فهل نتمنع من الغنيمة بالإياب ، ونكتفى بهذا القدر الذى يبلغه قراء الكتب الحالية ، ونترك البحث عن سلائق طال على فقدائها الأمد ، واحتللت بها العجمة ، وغطتها رمال الزمن وتسلبها التاريخ فأصبحت من ودائعها ... لا هذا . ولا ذاك لأن كتب النقد الأدبي التى ألفت فى القرنين الثالث والرابع الهجريين تتفوق على الكتب المتأخرة فى جمال

الأسلوب وتنمية النوق وتبتعد عن التعقيد العلسفى الذى منيت به كتب البلاغة المتأخرة ، فلو استطعنا أن نختار أصلحها وأجمعها لموضوعات النقد لسددنا ثغرة فى بناء الفكر الحديث .

ويا حبذا لو جمعنا أجوبة الأحرار من النقاد الأقدمين وتعليقهم على بعض الآثار الأدبية فى كتب يقرأها المتأدبون خالية من القواعد مليئة بالفوائد . وأما ما يتعلق بتربية الأذواق الأدبية والاتجاه نحو خلق جيل تنبه عنده السليقة فذلك أمر ميسور ممكن ، وبانتشار الثقافة بين طبقات الشعوب تفرص العامة وتدنو الأمة من السليقة ، ويساعد على ذلك تعهد الذين ينبغون فى الميدان الأدبى بما ينمى ذلك الروح فى نفوسهم ، وإحاطتهم بما يسهل عليهم طول الطريق وبعد الغاية... ولا شك أن التوجيه مع الاستعداد أنجح من حشو الأذهان دون رغبة أو نتيجة مرضية . فإذا سار التوجيه مع الميل الفطرى كان ذلك خيرا للنقد الأدبى ، أما إذا كان كل هذا أن ندير رموس الشباب فى الخلافات السكائية فما أضيع الوقت وأقرب الهدف .

بقيت كلمة صغيرة لأدبائنا الكبار الذين لا يريدون أن يتركوا وراءهم سوى كتبهم ، ونحن نريد منهم أن يتركوا توجيهاتهم وتجربتهم فى حياتهم الأدبية فإن من حق الأدب عليهم أن يساهموا فى خلق نهضة أدبية مبنية على أفكار ناضجة حتى لا يخلو الميدان مرة واحدة بعدم . وبذلك يقضون واجباً نحو بلادهم ولغتهم .

تصحيح أخطاء

عمره المرمية

وقع تحريف طباعى فى بيتين من القصيدة المنشورة فى العدد السابق ، صححه فيما يأتى :

البيت الأول :

رائدُ العلم تكذَّال المنهى يشتكى فقدَ المنى فى النش

البيت الثانى :

سلِّ بحكم الخفيف تشهد سيِّداً يعنى القانونَ فيما يعنى

وفاة عالم

توفي الى رحمة الله فضيلة الاستاذ الجليل الشيخ فكري يس أحد علماء الأزهر
الاجلاء ، والمدرس بكلية الشريعة ، وصاحب المقالات الممتعة في مجلة الأزهر .

كان رحمه الله هينا لنا مذهب النفس ، بعيدا عن اللغو واللغو ، وكانت همته
مصروفة الى زيادة مادته العلمية ، بمعالجة المسائل الاجتماعية الكبرى بالتحليل الدقيق
تحت ضوء الدين والعلم ، فكان في كل ما يكتبه معيدا لقارته بشيء جديد . وهذه
ميزة علمية نادرة الوجود .

فنعزى الأزهر والأزهريين بوفاة هذا الأمل الجليل ، ونعزى أيضا أنفسنا
راجين له الدرجات العلا في حياته الروحية التي آل إليها بعد طول جهاد في هذا
العالم المادي ، ونرجو الله أن يثيبه على ما قدم ثواب الصالحين ، ويجزيه بما جاهد
وناضل عن الدين جزاء المجاهدين الصادقين .

ديوان الأسمر

في نحو منتصف شهر فبراير ، وافقني منه نسخة مهداة إلى من فضيلة الأستاذ
الأملي ، والشاعر المشهور ، الشيخ محمد الأسمر . فتناوله باهتمام ، واستقلت به
في وسط أعمالي فترة من الزمن ، ولم أدعه إلا لتزاحها علي . ولا عجب في ذلك ، فإن
لشعر الأسمر في قلوبنا مكانا ممتازا ، ووقعا عظيما ، وكنت أعود إليه كلما سنحت
لي فرصة ، فعدت إليه وعدت إليه ، وكلما عدت ازددت به كلفا ، وتمازت به إعجابا .

إن ديوان الأسمر ذخيرة أدبية تعطيك إلى جانب سمو الخيال وجمال الأداء ،
إبداعا في التمكيز ، وتويعا في التصوير ، يرتقي بك إلى درجة نشوة أدبية ، تحس
معا كأنك في بستان تحب بك فيه الأزاهير البديعة الأشكال ، المنسقة الطاقات ،
ومن التوفيق أن هذا الإبداع الموضوعي يقابله إبداع شكلي من جمال الطبع وحسن

التفسيق ، وجوده التوسيم ، فأنت معه من إبداع الى إبداع ، حتى تقلع طلبا للاستجمام مع نزوع الى العودة في أقرب فرصة . ولقد صدق الأستاذ الأكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق رحمه الله ، حيث كتب لشاعرنا ، وقد نشره في أول صفحة من ديوانه :

« لشرك تأثير في نفسى ، أحسبه يفوق ما يفعل الشعر ، ذلك أنه فيض نفس أحبا . وقد يكون سحرا ذلك الذى ترسله نغما موسيقيا في أسلوب سهل ، فيسرى في الأرواح ، ويفجر العواطف خلالها تفجييرا . »

أول ما يطالعك في ديوان الأستاذ الأسمر ، قصيدة عصماء له في ميلاد النبي صلى الله عليه وسلم ، جاء منها :

شمسين : شمس سنا وشمس هدى معا	بحر أطل على الوجود فأطلعا
من بعده شبا لمكة مطلعا	ظلت مطالع كل شمس لا ترى
للاثره فوق البسيطة موضعا	قبس من الرحمن لاح فلم يدع
إلا الريح نضارة وتضوعا	ما كان ميلاد الرسول المصطفى
يوم كأن الدهر فيه تجمعا	يوم أغر كفاك منه أنه
يثنى إليه جوده متطلعا	ويكاد غابر كل يوم قبله
وثبا على هام السنين ليرجعا	فلو استطاع لكر من أحبابه
ينسل من خلف الزمان ليسرعا	ويكاد مقبل كل يوم بعده
وانساب يحترق السنين وأنلعا	فلو استطاع لجاء قبل أوانه
ملا الوجود فلم يغادر أصبعا	تتنافس الأيام في الشرف الذى
أنى جرى ترك الجناح المرعا	خير أفاض الله منه على الورى
من بعد ما كانت خرايا بلقعا	وسنا جللاه لتعمر الدنيا به
فانجذب عن جنباتها وتتشعا	وافى ولبس الجاهلية مطبق
واستكبروا شرع الرماح فأسمعا	نادى الى الحسن قلنا أعرضوا
مستلما لاقى الطغاة فروعا	والحق أعزل لا يروع فإن بدا
وتراه أوضح ما يكون مدرعا	والحق أخفى ما يكون مجردا
عرف الطريق ولم يضل للمبعا	بعض الأنام إذا رأى نور الهدى
عن غيه حتى يخاف ويفرعا	ومن البرية معشر لا يثنى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَيْسَ مِنْهُمْ أَنْبَاءٌ

اعتاد كتاب العربية الذين يعالجون إصلاح الشؤون الاجتماعية ، أن يعظموا من مظاهر الحياة الأوربية ، ويذهبوا في تفخيم شأنها كل مذهب ، حتى التي يشكو منها أهلها أنفسهم من الشكوى ؛ وإنا لنشاهد ذلك ونعجب منه ، ولكن لا سبيل لنا ولا لغيرنا إلى وقف تياره . كل هذا لأنهم يشاهدون تبرزهم في كل مجال ، ونجاحهم فيما يحاولونه من الأعمال ، فيتخيلون أن الذين يكونون على هذه الشاكلة تكون جميع مدركاتهم قد قامت على أحكم النظم العلمية ، لا يأتيها الخلل من أية ناحية من نواحيها ؛ والباعث الذي يضطرهم إلى كثرة التنويه بالأوروبيين أن يأخذ لإخوانهم إخذهم في شئونهم فينصون مثل نهضتهم ، ويصلون إلى مثل ما وصلوا إليه من مدنيته .

هذه النظرية تقوم على خطأ كبير ، لأنها تخفي الحوافز الحقيقية للنهوض ، وتظهر آثارها بمظهر عللها الأولية ، وهي ليست بها ، فتزداد خفاء على العقول ، ويرداد الجهل بها تغلفلا في النفوس ، فتحق على الأمم الواقعة تحت آثارها صفة العجز فتبقى فيما هي فيه .

ولست أستطيع أن أفهم القارىء كنه الأسلوب الذي استخدمه الاستاذ خالد في التأثير في عقول قرائه ، إلا بنقل شيء منه على سبيل المثال ، مع الإشارة إلى ما ارتكبه فيه من التسلط والمبالغة ، ومن الخطأ أن يستخدم ذلك أحيانا في سبيل بث حجة الاشتراكية في النفوس ، وهي وسيلة ، إن أفادت مرتكبيها لأول وهلة ، فقد عادت بأشد المضار عليهم وعلى مبادئهم بعد هدوء العاصفة ، والرجوع إلى الثبوت والتحقيق فلننقل قطعة من ذلك الكتاب ليرى القارىء ما نقوله له بعينه ، بل ويلسه يديه إن شاء ذلك . قال تحت عنوان : (هذه عوائقنا) : التفاوت البعيد :

« في طليعة العوامل التي تحرم مجتمعا من التناغم والانسجام والاستقرار ، هذا التمايز البعيد الذي يشطره شطرين غير متكافئين .

« ولقد أصبحت هذه الفروق بين شطري المجتمع من الموضوعات التي يكثر فيها اللغط ، ويقل الفهم الصحيح ، والادراك السليم

« واتخذها الساخطون وقوداً يسعون به سحقهم وغيظهم ، مما يجعل تجاهلها أو تحريم الحديث عنها أمراً غير مجد أو مفيد ونريد الآن قبل تنفيذ مضار هذا التفاوت : أن نفهمه على وجه الصحيح فليس معنى نقدنا له ، أننا ندعو لازالة كل حاجز وفارق بين الناس ، فذلك أمر مستحيل وإنما نجد في أمريكا وروسيا وانجلترا من يملك رصيذاً ضخماً من المال ، ومن لا يملك شيئاً بيد أنهم لا يضارون بهذا التفاوت كما يضاربه ، وكما نزرع تحت كاهله .. وضراوته .. ذلك لأن شعوبهم تعيش فوق خط ضرورتها ، وفي منتصف المسافة أو أكثر ، إلى قمة السعادة وذروة الرخاء والرفاهية ... والمجتمع هناك غير قلق على مستقبله ، ولا ضائق بمحاضره ، وهو لهذا راض عن نفسه ، سعيد بنظمه ، لا يثير التفاوت بغضاه ، لأنه مكفول الرغد ، مطرد التقسم والاقتراب من السعادة الغامرة ، ولكل فرد من أفراد الحق في كافة الفرص التي يمكن أن تجعل منه كما جعلت من غيره وزيراً أو مليونيراً . فهو لذلك لا يجد من الوقت ما ينفقه في الحقد والبغضاء ، لأنه متجه نحو الفرص المترعة ، بكل مقدرات النجاح والفوز يهتبلها ويقتنرها .

« ثم إن التفاوت هناك نتيجة عوامل طبيعية شريفة ، وليس نتيجة استغلال جشع كالذي عندنا ! من أجل هذا نراهم مؤمنين ببلادهم وبأنفسهم إيماناً يخلق بهم فوق العواصف والاحطار . فهذه السيدة الأمريكية التي وقفت تودع أبناءها الخمسة إلى ميدان القتال وتقول لهم : « إذا خاصركم خوف أو تردد ، فاذكروا أن الموت رحلة جميلة سوف تلقون في نهايتها أباً كم ! ، وكان أبوهم قد قتل في إحدى المعارك .

« والمرأة الروسية التي صمدت أمام جنود الألمان ، وقاقتهم في مطبخ دارها بسكين الثوم والبصل حتى فاض أخيراً روحها الباسل وهي تقول : « لا بأس أن أموت ! أما روسيا فلن تموت أبداً .

« وهؤلاء الملايين من شباب الجامعات الذين كانوا يسارعون إلى حومة الوغى كأنهم داهبون إلى مواعيد حب جميل ! أى سحر ذلك الذى أساهم رهبة الموت وقسوة المصير ؟

« إنه المجتمع الصالح العادل المنظم الذى يعيشون فيه إخوانا وسواسية - ليس فيهم قطعان وذئاب ، ولا عبيد وأرباب ، المجتمع الذى منحهم كل إمكانياته وفرصه ، فتحوه كل ولائهم وقلوبهم ، وبأدلوله وفاء بوفاء ، وتقديراً بتقدير .

« ولعل من أشد أخطار هذا التفاوت البعيد القائم فى مجتمعاتنا أنه يقسم الأمة على دانتها ، ويجعل منها معسكرين متناغضين يحقر أدناهما الآخر ، ويتربص كل منهما بالآخر مضراً له كل كراهية وسوء . . . ومهما نحاول لإرضاء هذا الفريق الأدنى برفع مرتبته وتحسين دخله ، فإنه لن يرضى لأن مشكلته لا تتمثل فقط فى حرمانه ، بل وفى هذا الترف المسعور الذى يعيش فيه الآخرون ، فبأ تكون أكثر مما ينبغي أن يأكلوا ، ويلبسون أكثر مما ينبغي أن يلبسوا ، ويرغدوا أكثر مما ينبغي أن يرغدوا ، ويجلسون فوق أهرام من الذهب بينما بقية المجتمع تقتات من آلامها وحرمانها ولغوها . . . ١١٠

« ونستطيع أن ندرك مدى الاحتقار الذى يكره الاعلون لأمته ومجتمعهم من كافة تصرفاتهم . . . ومن سلوكهم إزاء الشعب الذى أنجحتهم نعمه وطيباته فعند ما قررت بحانية التعليم الابتدائى منذ سنوات ، سارع كثيرون من أولئك السادة ، وسحبوا أولادهم من مدارس الحكومة حتى لا يخالطوا فيها أبناء الفقراء والرعاع ، ثم أدخلوهم مدارس أجنبية تليق بمجدهم وعحد آبائهم ، وإن وراء هذا التصرف المخجل لإيماننا عريقاً بالارسطوقراطية ، وحرصاً شديداً على الامتياز والاستعلاء ، وجاهلية نائية لا تقرأ أخلاق الدين ولا أخلاق الدنيا . .

توم هذه القطعة التى آثرنا نشرها من كتاب الأستاذ خالد ، أنه أحاط بكل ما أشار إليه فيها من الموضوعات علماً ، وأنه يقررها عن معرفة بتفصيلاتها ودقائقها ، وعن فقه عميق بآثارها ونتائجها ، ويسوءنا أن ندلل على أن مناقشة سطحية لها ترى قارئها أنها تقريرات ألفت من غير تمحيص ، وكثير منها يخالف الواقع مخالفة صارخة .

فهو يقول فيها: إن الفروق أصبحت شاسعة لدينا بين طبقتي المجتمع، وأن الساخطين جعلوها وقوداً يريدون بها سحقهم تأججاً، إلى آخر ما قاله. والحقيقة أن هذا التفاوت طبعى وموجود فى كل أمة، وما دام فى الأمة فريق برئى ويعلم حتى يبلغ آخر مراحل العلم، وفريق يهمل أمره ويستبقى فى أمية القرون الأولى، فلا بد من وجود هذه الفروق الهائلة فى الأمة، وليس فى هذا الأمر ما يوجب الحيرة، فهو أمر طبعى وعلاجه تعميم التعليم، ولا علاقة له بأرصدة فى البنوك، ولا بعمل اجتماعية يجب معالجتها.

ويقول: وأنا لتجد فى أمريكا وروسيا وإنجلترا من يملك رصيذاً ضخماً من المال ومن لا يملك شيئاً، والواقع أنه لا يوجد روسى واحد يملك رصيذاً فى بنك بعد أخدعهم بما هم عليه من البهشية.

وبعد هذه المقدمة الخاطئة التى أثبتت فيها وجود حزازات نفسية بين طبقتا الاجتماعية، عاد للتوسع فى استغلال هذا التحاقد الشنيع بين طبقتا، فقال: ولعل من أشد أخطار هذا التفاوت البعيد القائم فى مجتمعنا أنه يقسم الأمة على ذاتها، ويجعل منها معسكرين متباغضين، يحقر أحدهما الأدنى، ويمقت أدناهما الأعلى - إلى أن قال -: لأن مشكلته لا تتمثل فقط فى حرمانه، بل وفى هذا الترف المسعور الذى يعيش فيه الآخرون، فبأكلون أكثر مما ينبغي أن يأكلوا، ويلبسون أكثر مما ينبغي أن يلبسوا... ويجلسون فوق أهرام من الذهب، بينما يقية المجتمع تقنات من آلامها وحرمانها وأفوقها. الخ الخ.

نقول إن الأمة المصرية، وأية أمة إسلامية فى العالم كله لم تنقسم على نفسها إلى معسكرين متباغضين بسبب الشؤون المادية، فإن روح الوحدة سائدة فيها، وكل ما تقتضيه هذه الوحدة من تحاب وتواصل موجود بينها إلى درجة محسوسة، فقد يتفق وجود أسرة سرية تسكن داراً واسعة الرحاب تحيط بها حديقة غناء، ولكنها فى بيئة متواضعة تسكنها أسر فقيرة؛ فنشاهد عطفاً عظيماً واحتراماً كبيراً من هذه الأسر لاهل تلك الدار الشامخة، فتحيط بها بحبها ورعايتها، ويتسابق آحاديها رجالاً ونساء إلى خدمتها غير متظرين من أهلها غير شرف التعارف وكرامة الجوار. جرى الحال فى جميع أدوار تاريخنا على هذه الحال، ولا يزال يجرى عليه، حتى إننا نرى إن اتفق لبعض تلك الأسر أن تنتقل إلى المواطن الراقية التى أعدت لأمثالها ببعض الضواحي،

أن الأفراد الذين كانوا يبادلونها الود من سكان تلك الحارات الضيقة ، لا يرالون يوالونها ذلك الود ، لا يتمتعهم منه مانع من بعد الديار . فالتعاضد الذي يذكره الأستاذ لا يوجد له أثر بين الطبقات في بلاد المسلمين . وحاشانا أن نتهم الأستاذ بأنه يذكره لينبه إليه النفوس ، ولكننا نقول إنه يذكره ليهد الطريق للدعوة إلى الاشتراكية . ونحن نؤكد للأستاذ أن الاشتراكية ما دالم من مقوماتها حذف الملكية ، وإبطال حقوق الوراثة ، فإنها يبعد أن تسود العالم عن طواعية ، وهو في عقليته وعواطفه التي هو عليها إلى هذا العهد .

نعم يجوز أن يحدث له تطور اجتماعي يرى معه أن حق التملك يجب أن يلغى وأن عادة توريث الآباء والأقارب أملاك الشخص بعد موته ينحتم أن تبطل ، بسبب ما يكون قد جد من عادات وتقاليد تضمن حياة الناس دون الالتجاء إلى الوسائل المعهودة ، ولكن هذا الوقت لم يحن بعد ، وقد لا يكون قط ، فالاشتراكية والحالة هذه إن لم تكن سابقة وقتها بضعة قرون أو بضعة آلاف من السنين ، فهي من المطالب التي لا تقرها الطبيعة البشرية لأول وهلة . والدليل المحسوس على ما نقول عدم إجماع العمال على الأخذ بها ، بل ليس يقول بها منهم إلا قلة قد تبلغ الخمس ؛ ولكن الأستاذ خالد يكتب عنهم كأنهم مجمعون عليها ، وفي بعض تعبيرات له كأن العالم كله قد آل إليها . كل هذه المحاولات منه تمهيد السيل لشهرها ، ولا ندري أى شيء يحفزها إليها وليس هو من طائفة العمال ، ولا هو من عاش في عالم اشتراكي فداق من حلاوته ما يدفعه لأن يكون داعية إليه . هذه مسألة لا يعنينا حلها ، ولكننا أراء نظرية اقتصادية اجتماعية من أشد المسائل العالمية تعقدا ، وأعصاها قيادا ، فإذا كنا نضطر لخصوص عراثها حيننا بعد حين فلأن مهمتنا تقتضيها ذلك . أما هي في ذاتها فليست من المسائل الوشبكة الحل ، ولو قلت إن بينها وبين الفصل فيها قرونا طويلة فلا تكون مبعدا فيما نقول .

والمسلمون فوق هذا لا يهمهم حل المسألة الاشتراكية ، لأن دينهم قد أدمج مسألة الثروة في أمور الدين من ناحية الزكاة التي هي إحدى أصول الإسلام الخمس فأصبحت الناحية الاقتصادية متصلة بأمور الدين الأولية .

نعم إن المسلمين لا يعملون بدينهم الآن ، وقد أهملوا أمر الزكاة إهمالا يؤخذون عليه ، لأن في إهماله إهمالا لحقوق السواد الأعظم من الأمة وهم الفقراء ،

ولا بد من أن تثار هذه المسئلة في يوم من الأيام ونحاسب الأمة نفسها على إغفالها حساباً عسيراً ، وإذ ذاك يفصل في أمرها بنفسه ما تكون عليه حيال دينها . فإن كانت مستهدية بهديه أو عاملة على ذلك جهد طاقتها ، فإن مسألة الزكاة تحل حلاً يحفظ حقوق الطبقة الفقيرة من الضياع ؛ وإن كانت منتسبة إلى الدين دون العمل به كما هو شأنها اليوم ، فإنها قد تخضع للظروف وتحل المسألة الاقتصادية على الوجه الذي حلها به الأمم الغربية .

أما قوله إن التفاوت بين الأغنياء والفقراء جعل منهما معسكرين متباغضين يترصد كل منهما بالآخر السوء ، لأن المشكلة لا تتمثل فقط في حرمان الفقراء من متع الأغنياء في أكلمهم ومقداره ونوعه ، وفي لبسهم ورغد هم وثرائهم ، بل وفي هذا الترف المسعور الذي يعيشون فيه ، الخ ، فهو استئثار خاطيء ، لأن الإسلام نفسه قرر أن الله يفضل بعض الناس على بعض في الرزق ، فتمضي بالغنى لطائفة وبالفقر على أخرى لمصلحة كل منهما ، وجعل مجال التسابق مباحاً للكافة في كل زمان . لذلك لم تقسم الأمة الإسلامية في أي عهد من عهودها إلى شطرين : شطر الموسع له ، وشرط المضيق عليه لحكمة تقتضيها حاجة الاجتماع ، ولم يسد طريق الوصول إلى الثروة بالأسباب المشروعة في وجه أي طالب من أية طبقة من الأمة .

هذه الحكمة الجليلة حمت المسلمين في جميع عهودهم من نألب الطوائف بعضها على بعض كما حدث في الغرب ، فجعلت ممالك مسرحاً للفتن والمؤامرات في القرون الأخيرة ، ولا تزال على أشد ما يكون في عهدنا هذا ، وقد تولدت منها مذاهب مختلفة تستخدم جميع ضروب التخريب للوصول إلى أغراضها ، ومنها الاشتراكية التي يدعو إليها الأستاذ ؛ فهل يريد حضرته الانتهاء بنا إلى هذه المسألة ؟

وعلى أية حال فتحن سائرون إلى الغاية التي انتهى إليها الغرب وهي ضرب الضرائب على أموال الموسرين وإسعاد المقلين بحاجاتهم منها ، وهو على أي حال شيء من الزكاة المفروضة على المسلمين وإن لم يكن بها من كل وجه . فليس علينا معشر المسلمين إلا الانتظار مع التنويه بالنظام الاقتصادي الإسلامي حتى لا يذثر في الإذهان ، فهو أكمل وأوفى من النظام الأوروبي كما سنبينه هنا في فرصة قد تنهأ له في بعض البحوث .

النفسية

نفسية الأستاذ الشيخ عبد المنعم النمر

قال الله تعالى : « إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيما » [١٠٥ : سورة النساء]

شرحنا في العدد الماضي مفردات هذه الآية الكريمة وبيننا مناسبتها لما قبلها وسبب نزولها ، كما بينا موقف القرآن والإسلام من قضايا المسلمين وأحوالهم ووجوب الاحتكام إليه في كل أمورهم ، واتخاذهم أساساً لحياتهم في جميع صورها ، وبقى في هذه الآية بحثان : أحدهما يتعلق بقوله تعالى « بما أراك الله » وثانيهما بقوله « ولا تكن للخائنين خصيما » .

والحق أن البحث الذي يشار حول النقطة الأولى بحث آثاره المعسرون الأصوليون ، وإن كان الفهم للآية قد يستغنى عنه ، ولكن لم يعد لنا بد من التعرض لهذا البحث ، لا سيما والآية التي تلي هذه الآية وهي قوله تعالى « واستغفر الله إن الله كان غفورا رحيما » تستدعي البحث عن دواعي الاستغفار : هل يستغفر الرسول من صغيرة ، أو من خلاف الأولى ، أو يستغفر لأمته ؟

إن الله سبحانه وجد أن رسوله صلى الله عليه وسلم قدم - حسب طبعه النشوي وعلمه الظاهري ووجهه للمسلمين واعتقاده الصدق فيهم - بالحكم على اليهودى البرية ، فأرسل الله له الوحي بهذه الآية الكريمة ليوجهه إلى غير ما هم به ، ويبين له أن الله أنزل عليه القرآن ليحمي الحق ، ويصونه من الأهواء والعصيات ، ويحكم به بين الناس ، ويترسم طريقه فيما يقول ويفعل ، وليس بما أنزل الله من قواعد الحق أنه يتبع الهوى والعصية . ويميل مع الغرض ، فإن الله سبحانه قد أحاط الحق والمدل في قرآنه بسياج قوى من الوصايا والأوامر تحميه من الاعتداء عليه أو المساس به ولو من بعيد لحب نفس أو قريب أو مال « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين

والأقربين إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا
وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً^(١) .

« ولا يجر منكم شأن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا^(٢) » ،
وكرر الله الأوامر في القرآن للحكم بالحق وعدم اتباع الهوى . وهنا في هذه الآية
يوجه الله نظر الرسول إلى هذه التواعد والأوامر ، ليحول بينه وبين الميل الطبيعي
والنفسى مع قوم أطهروا إسلامهم وتواطئوا على الشهادة لمصلحة قريبهم المسلم ،
فالآية لا تزيد عن توجيه الرسول إلى الحق والحكم به . ولو على أنفسكم
أو الوالدين والأقربين » .

ومع هذا ، فإن الباحثين اختلفوا حول قوله تعالى : « بما أراك الله » هل هو
يعنى أعلمك علماً يقنيا كالرؤية في القوة ، ولا يكون ذلك إلا بالوحي الذي يحدد
المراد على وجه قطعى . وعلى هذا فتوجه الرسول هنا إلى الحكم بالوحي فقط
ولا بعده إلا إلى قياس يرجع إلى الحكم بالنص . وحينئذ لا يكون في الآية دليل
على جواز اجتهاد الرسول ، ولكنها مع ذلك لا تدل على منع الاجتهاد ، لأن الآية
نزلت في موضوع خاص .

ويحتمل أن يكون معنى « بما أراك الله » مما نزل به الوحي ، أو بما أدركته
بواسطة نظرك واجتهادك في أحكام الكتاب وأدله ، « فاتباع النص حين وجوده » ،
والاجتهاد حين لا يوجد النص ، والمراد على كل حال منع الرسول من
الخضوع لأقوال الشاهدين وعصيتهم ، ومن الميل للسليين على اليهودى وحججه
عن الوقوع في خطأ ينتج عن ذلك .

جاء في تفسير المنار للأستاذ الإمام : « ومن مباحث الأصول في هذه الآية
مسألة حكمه صلى الله عليه وسلم بالوحي فقط ، أو بالوحي تارة وبالاجتهاد أخرى » ،
ثم نقل في موضع آخر عن كتاب « الإشارات الإلهية إلى المباحث الأصولية »
للإمام سليمان بن عبد القوى الطوفي الحنبلى قوله : « لتحكم بين الناس بما أراك الله »
يحتمل أن المراد بما نصه لك في الكتاب ، ويحتمل أن المراد بما أراكه بواسطة
نظرك واجتهادك في أحكام الكتاب وأدله . وفيه على هذا دليل على أنه

عليه الصلاة والسلام كان يجتهد فيما لا نص عنده فيه من الحوادث ، وهي مسألة خلاف في أصول الفقه . وفي موضع آخر قال : « ثم على القول الأول - وهو أن الاجتهاد جائز له - هل يقع منه الخطأ فيه أم لا ؟ قولان للأصوليين أحدهما : لا ؛ لعصته ، والثاني : نعم ، بشرط ألا يقر عليه استدلالاً بنحو « عفا الله عنك لم أذنت لهم - ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض » ونحو ذلك . اهـ (١) .

فترى من هذا أن الأصوليين مختلفون في الموضوع الذي أثاروه : فمنهم من أجاز للرسول أن يجتهد لأنه منصب كمال ، ولا ينبغي أن يفوته عليه السلام . وأن فيأمره ما يدل على وقوعه منه ، ومن ذلك قوله عليه السلام : « لو قلت نعم لوجب » وقوله : « لو سمعت شعرة قبل قتله لم أقتله » وقوله : « لو استقبلت من أمرى ما استدبرت ما سقت الهدى » وأيضاً عتاب الله لرسوله في الآيتين المتقدمتين يدل على أن الرأي الذي ذهب إليه كان باجتهاد منه لا بتوجيه الوحي له ، وإلا لما كان هناك محل للعتاب مطلقاً .

أما الذين ذهبوا إلى عدم جوار الاجتهاد منه صلى الله عليه وسلم فقد احتجوا بقوله تعالى : « ما ينطق عن الهوى » ، إن هو إلا وحي يوحى ، وبأنه قادر على يقين الوحي ، والاجتهاد لا يفيد اليقين .

وقد جاء في تفسير المنار أن قوله تعالى « ما ينطق عن الهوى » لا يدل على منع الاجتهاد ، لأن هذا في القرآن خاصة ، وإلا كان كل كلامه عليه الصلاة والسلام وحياً ، وقد ورد أن الوحي كان ينقطع أياً ما متعددة ، وأنه كان يسأل عن الشيء فيلتظر الوحي ، كما كان يسأل أحياناً فيجيب من غير انتظار للوحي ، وليس بمعقول أن كل ما كان ينطق به عليه السلام في كل الأمور كان بوحى . وأما قولهم : إنه كان قادراً على يقين الوحي فغير مسلم لهم على إطلاقه ، فشأن ذلك لله سبحانه .

والذي أميل إليه من خلال هذه الأدلة أنه كان للرسول صلى الله عليه وسلم مجال له أن يجتهد فيه ، وكان هذا المجال بعيداً عما كلفه الوحي بتلقيه ، إذ أن ذلك لا محل فيه للرأي مطلقاً ، وكان الله سبحانه يوجه الرسول في بعض الحالات إلى

غير ما أداه إليه اجتهاده ورأيه وبعائنه ، والقرآن شاهد بذلك في غير موضع ..
وسواء كان العتاب على ترك الأولى أو على خطأ في الرأي ، فإنه كان على كل حال
دليل على أن الرسول ذهب إلى هذا الرأي باجتهاده لا بتوجيه الوحي ، ولا ينفص
هذا من مكانة الرسول . إذ أن ذلك من مقتضيات البشرية ، فليس معنى اختيار الله
له لتبليغ رسالته أنه ارتفع فوق الطبيعة البشرية ، أو أنه صار مسيراً بالوحي في كل
ما يأتي وما يدع من أمور الدين والدنيا ، على أنه « لا يعد أن يقال - إن في جواز
الخطأ في اجتهاده صلى الله عليه وسلم إشارة إلى أن فسر البشر وإن كان في أعلى
الدرجات يحتمل الخطأ بخلاف الوحي »^(١) . ثم إن الحادثة التي نزلت الآية من أجلها
تشير إلى أن الرسول صلى الله عليه وسلم كاد يحكم على البريء برأيه طبعاً ، ولكن الله
حرسه بالوحي « ولولا فضل الله عليك ورحمته لممت طائفة منهم أن يضلوك » .
« وكان فضل الله عليك عظيماً » . ولو أن رأى الرسول وافق الصواب في اتجاهه لما كان
هناك حاجة لوحي .. ولكن - علم الله وله الأمر والتدبير - ما كنا نظهر في القرآن
بهذه الآيات البيّنات دات المبادئ العظمى ، وأعتقد أن البحث حول هذه النقطة ، قد
استوفى حقه . فلينتقل إلى النقطة الأخيرة وهي قوله تعالى « ولا تكن الخائنين خصيماً » .

ذكر الله هذا النهي في آخر الآية بعد توجيهها للرسول في أولها ، وبلاحظ
أن الله لشدة غيظه على الحق كرر تحذير الرسول من البعد عنه ، واحتضان الباطل
والمبطلين « ولا تكن للخائنين خصيماً » ، « ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم » ،
والخائنون هم الذين سرقوا وأرادوا أن يبرئوا أنفسهم ويلصقوا التهمة بغيرهم ،
وتجمعوا متعصبين لقريبهم السارق ، شاهدين ببراءته وإدانة اليهودي أمام الرسول
حتى كاد يتأثر بالظاهر من أمرهم ، مع ميله الطبيعي ووجه النفس لاتباعه المسلمين ،
- ولو أن هذه المؤامرة دلت على بعدهم عن الإسلام - فاتجسس الرسول إلى الأخذ
بالظاهر والحكم على اليهودي البريء ، فقال له الله « ولا تكن للخائنين خصيماً » وبذلك
عرف الرسول أمر هؤلاء المتأمرين ، وعرف أنهم الخائنة الخائنون الذين ارتكبوا
وزرين : وزر السرقة ، ووزر اتهام البريء . وحينما انكشف للرسول أمرهم تنحى
عن الدفاع عنهم والاتصاف لهم ، ولم يستطع الجاني إلا الهروب خوف الحكم عليه .

ما أعظم الحق ! يجرسه ذو الجلال ويغار عليه ، ويكره أن يضام رجل يرى - ولو كان يهودياً مخالفاً لله ورسوله - ويؤخذ بجريرة غيره ، وينزل في ذلك قرآناً يتلى إلى أن تقوم الساعة يحمى الحق من المتآمرين عليه ، وينير طريقه للرسول حتى لا يتأثر بدسائسهم ، قد يحدث مثل هذا في كل يوم وفي كل بلد ، وينتصر الباطل على الحق ، ويقع البريء تحت سياط العذاب ويفت الخائف الأثيم ، ولكن ذلك لا يكون ، والوحي ينزل على الرسول يذبه بالحقيقة التي يحيط بها علام الغيوب ، فكأن هذه الآيات التي تقرر مبدأ من أهم المبادئ وأسمائها ، وهو عدم الانتصار للجناة والدفاع عنهم ، هو الاتجاه إلى الحق والعدل أينما كانا ، لا يفرق في ذلك بين الناس لجسدهم أو دينهم أو جاههم وسلطانهم ، فالكل أمام الحق سواء ولا يجرمنكم شأن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى ، ^(١) .

ما أحرانا بتدبر هذا والعمل به !! فكثيراً ما نرى أناساً منا يحتضنون المجرمين ويحمونهم بجاههم وسلطانهم ، وهم يعدلون مقدار جرمهم ، وكثيراً ما رأينا الحق تميز جواربه تحت ضربات العصية ، وتطمس معالمه بنجار الأهواء الشخصية كم رأينا عطياً يفلت من سلطان الحق والقانون ؛ لأنه عظيم ، ولو كان عطياً في جرمه ؛ وم رأينا صحفاً تسخر قواها للدفاع عن المجرمين وإخفاء معالم الحقيقة ساخرة من الحق ومن عقول قرائها الحاجة في نفسها !! وم رأينا هيآت تألب على الحق وتهوى عليه بقوة سلطانها !!

وم رأينا عامين يدافعون عن الجناة الأثيمين في حق الله والوطن ، وهم يعدلون ذلك ، ومع هذا يقلبون الحقائق ويسخرون ما آتاهم الله من مواهب ليتصرفوا يباطلهم على الحق ، ويتزعموا المجرم من يد الانصاص ؛ ابتغاء المال الكثير والجاه الوفير ! ونسى هؤلاء وأولئك مقدار الجرم الذي يرتكبونه في حق الله والوطن ، نسوا جميعاً قول الحق الأعلى سبحانه : ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار ، وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون ^(٢) ، نعم : يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً ، والأمر يومئذ لله ^(٣) .

فالله : لطفاً بعبادك وهداية ..

الْفَرَقُ وَعَقِيَّةُ الْبَعَثِ

لمحاضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ محمد محمد المديني

يهتم القرآن الكريم بشأن البعث والدار الآخرة اهتماماً عظيماً ، فقلها نجد سورة من سورة - إذا استثنينا بعض قصار المفصل - ألا تذكر البعث وتقرر أمره على نحو ما ، وكثيراً ما نجد فيه سوراً تقوم بأسرها على هذا الشأن فتفيض فيه ، ما بين تدكير وبيان وحسب للأمثال ونقي للشبه وغير ذلك .

ولنمّا عنى القرآن الكريم بهذه العقيدة لأنها أصل عظيم من أصول الصلاح والإصلاح في العالم ، فإن الشر مهما اختلفت ميوهه وأعماله لا يخرجون عن صنفين :

(١) صنف يعمل الخير ويركن إلى الصلاح حباً في الخير والصلاح ، كما يترك الشر والفساد كراهية في الشر والفساد ، فهو لا يلتصق جزاء ولا شكوراً حين يفعل الخير ويركن إلى الصلاح ، ولا يخاف حساباً ولا عقاباً حين يترك الشر ويعرف عن الفساد ، وإنما يترك هذا ويفعل ذاك محاربة لعاطفة فيه ونزعة تدفعه إلى الفعل والترك ليس إلا .

(٢) وصنف يعمل الخير ، ويترك الشر ، ناظراً إلى الجزاء مقدراً أن وراء الفعل أو الترك مصلحة له أو مضرة عليه ، فهو يقدر الأمر بمقدار ما يناله هو ، وينظر إلى العواقب التي تترتب على تصرفه من حيث ما يناله أو يصيبه .

والصنف الأول قليل لا يكاد يوجد ، أما الصنف الثاني فإنه الكثرة الغالبة والشأن في الناس ، ذلك بأن طبيعة البشر طبيعة انتفاعية تبادلية ، كل منهم يريد أن يكون متمتعاً بالخيرات والحسنات ، بعيداً عن الشرور والمصائب ، وأمثلهم هو الذي يرجو من وراء الاستقامة رضا الله ، أو رضا الناس ، دون نظر إلى نفع مادي اكتفاء بحسن الاحدوثة ، وطيب الذكر .

لهذا قضت حكمة الحكيم أن يجعل وراء هذه الدار داراً ، يرى فيها المرء جزاء

عمله إن خيراً أو غير ، وإن شراً فشر ، وجاء القرآن الكريم بإقناع الناس بأن هذه الدار حق ، لينظروا إليها ، وقصدوا بما يأتون أو يدعون وجه الله وثوابه فيها . فلو أن الناس جميعاً قد استقرت فيهم هذه العقيدة ، وآمنوا بها إيماناً لا يتحمله شك ، لاستقامت أمورهم ، وكثر فيهم الخير والاحسان ، وقل بينهم الشر والفساد ، ولكن البشر في كل عصر تغلب عليهم الحياة الدنيا ، وتحلبهم بزخارفها ومتاعها ، وكثير منهم يعتريه الشك في البعث ودار الجزاء ، ويستقيم إلى الحاضر والواقع الذي يعيش فيه ، ولا يلس سواء ، فلا يصدق أنه سيبعث بعد الموت ، وأنه سيعرض للحساب .

وإنكار البعث أو الشك في أمره يرجع في ذهن المنكر أو الشاك إلى أحد أمور .
 (١) إما مخالفته لما ألف من السنن ، حيث لم يعد الأحياء أن ميتا يبعث من رمسه ، وعادت إليه الحياة كرة أخرى ، حتى يمكن قياس ما لم يشهدوا على ما شهدوا .
 (٢) وإما استبعاده واستعظام أمره ، فإن الأحياء قد ألفوا أن يروا أجساد الأموات تنفرد وتنحل وتفسد وتفتن في الأرض وتختلط بالتراب ، فلا تكاد عتوهم تسلم في سهولة ويسر أمر عودتها وتركها وصيرورتها جسماً حياً يسعى ويدرك .
 (٣) وإما كونه أمراً لا تدعو إليه حاجة الناس ، وليس وراءه مصلحة ترجى .
 (٤) وإما العناد في أمره ، والمكابرة والإصرار على تكذيب الدعوى فيه بعد تبين الحجة وظهور البرهان .

وقد عالج القرآن الكريم ذلك كله ، ورد على كل فريق من هؤلاء بما يناسبهم .
 (١) فقال للذين حسبوه مخالفاً للسنن المألوفة : إنكم قد غفطتم عن كثير من آيات الله فتشاهدونها بأعينكم ، وقد صارت لديكم أموراً مألوفة لكثرة حدوثها وتكرر رؤيتها .

فبهذه الأرض تكون ميتة هامة ، فيزل الله عليها الماء ، فتصبح مخضرة ناضرة بالزروع والنبات ، وترى الأرض هامة فإذا نزلنا عليها الماء اهترت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج . ذلك بأن الله هو الحق ، وأنه يحيي الموتى ، وأنه على كل شيء قدير ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من في القبور .

« ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنسا به جنات وحب الحصيد ، والنخل باسقات لها طلع نضيد رزقا للعباد وأحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج » .

وهؤلاء الناس ينامون ويضرب الله على آذانهم مدة من الزمان يكونون فيها كالموتى ثم يبعثون ، وذلك هو المعنى الذى صح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نادى به قومه أول معنه إذ يقول « والله لتوتن كما تنامون ولتبعثن كما يستيقظون » . وقد جاء به القرآن الكريم فى قوله تعالى « الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت فى منامها ، فيمسك التى قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » .

وهذه هى الحبة الجافة يحولها الله بالإيات إلى زرع نضير ، والنواة المتحجرة يصيرها نخلة فارعة مثمرة ، « إن الله فائق الحب والتوى يخرج الحى من الميت ومخرج الميت من الحى فأتى ذلكم الله فأتى تؤفكون » .

إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة التى تلفت إلى نظائر البعث والنشأ فى ألف الناس .
(٢) وقال للذين يستعبدون ذلك ، ويستعظمون أمره : « إن الله لا يعجزه شيء ، وليس شيء عليه يستعبد ، فهو القوى القادر الذى خلق الخلق ، وأنشأه من العدم : « وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده ، وهو أهون عليه ، وله المثل الأعلى فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم » ، « كما بدأنا أول خلق نعيده » ، « وقالوا أنذا كنا عظاما ورفاتا أننا لمبعوثون خلقا جديدا ، قل كونوا حجارة أو حديدا أو خلقا مما يكبر فى صدوركم ، فيقولون من يعيدنا قل الذى فطركم أول مرة ، « وهو الذى ذرأكم فى الأرض وإليه تحشرون وهو الذى يحيى ويميت وله اختلاف الليل والنهار أفلا تعقلون . بل قالوا مثل ما قال الأولون ، قالوا أنذا متنا وكنا ترابا وعظاما أننا لمبعوثون . لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين . قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون سيقولون لله قل أفلا تذكرون ، « وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم ، قل يحييها الذى أنشأها أول مرة ، « يأياها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإننا خلقناكم من تراب » .

إلى غير ذلك من الآيات التى تذكر قدرة الله ، وتذكر بنشأة الخلق ، وترد عليهم فى استبعادهم الأمر ، واستعظامهم إياه فى مثل قولهم « أيعدكم أنكم إذا متم

وكنتم ترأياً وعظماً أنكم مخرجون ، هيهات هيهات لما توعدون إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين .

(٣) ويقول للذين يزعمون أنه أمر لا تدعو إليه حاجة ، ولا تنصي به حكمة . ليجزي الذين أسأوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى . . . وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون . وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبشكم بما كنتم تعملون . . . أحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون . . . يومئذ يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره .

إلى غير ذلك من الآيات التي تذكر حكمة البعث ، ورجوع الناس إلى الله ، في يوم مشهود لبحاسبهم ويجزيهم بالسوء حسوا وبالإحسان إحساناً .

(٤) أما المعاندون المكابرون فيجابههم بالدعوى ويكررها عليهم ، ويقسم عليها في مقابلة قسمهم ، ويصور لهم يوم القيامة وأحواله ، كما لو كانوا يشاهدونه لإشعارهم بأنهم يكابرون فيما يعملون ، وأن الله لا يعمل على مكابرتهم ، بل يسوق لهم الكلام في هذا الشأن حسب الواقع الذي يعلمه ويعلم أنهم يعلمونه : . . . وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت ، بل وعداً عليه حقاً ولكن أكثر الناس لا يعلمون . . . زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بل وربي لتبعثن ثم لتبينن بما علمن . . . وقالوا إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين ، ولو ترى إذ وقفوا على ربهم قال أليس هذا بالحق . قالوا بلى وربنا . قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون . . . وقالوا أئذا ضللنا في الأرض أئنا لفي خلق جديد ، بل هم بلقاء ربهم كافرون ، قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم ، ثم إلى ربكم ترجعون ، ولو ترى إذ المنجمون ناكسوا رؤسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا لنعمل صالحاً إنا موقنون . . . إلى غير ذلك من الآيات التي تصور أحوال القيامة ، وحيرة الكافرين ، واعتراهم بعد رؤية العذاب .

هكذا يهتم القرآن الكريم بأمر البعث والدار الآخرة ، ويقرر على كل مؤمن عقيدة من عقائد الحق التي لا تقبل الشك ، ولا يقبل الله فيها تأويلاً ولا شقاقاً ، ويستقصي كل ما يدل عليه ، ويثبت في القلوب ، ويرزق عنه الشهادة .

ابن سينا ومشكلات العصر الحاضر

لحفرة الأستاذ الدكتور محمد يوسف موسى

بعد الكلمة الأولى التي رأينا التمهيد بها للحديث عن رأى الشيخ الرئيس فى بعض مشاكل العصر الحاضر الذى يعيش فيه ؛ هذه المشاكل التى يأخذ بعضها مِنّا بالحناق ، ونذهب تلمس لها حلولاً من هنا أو هناك ، متناسين ما للإسلام من فكر وفقه فهما غناه أى غناه فى كثير من مشاكلنا وأمورنا العامة ! نقول بعد هذه الكلمة ، نتكلم اليوم عن رأيه فى مشكلة العمل والبطالة ، أو مشكلة الضمان الاجتماعى . وسنرى هنا أنه أتى ، وهو بسبيل علاج هذه المشكلة ، بأراء لم نكدر أن نعرف إلا فى هذا العصر الحديث ، ومع هذا يحسبها العامة وأشباه العامة فى تاريخ الفكر من غترعات فلاسفة أوروبا ومفكرىها .

وهو يبدأ الحديث فى هذه الناحية ببيان أن الإنسان يفارق سائر الحيوانات بأنه لا يمكن أن يعيش عيشة طيبة لو انفرد وحده ولم يشارك غيره . من بنى جنسه فى حياتهم ومجتمعاتهم . ذلك بأنه لا بد من أن يكون الإنسان مكفياً فى كثير من حاجاته وأموره بآخريين من نوعه ، كل منهم يخدم الآخر فى ناحية من نواحي الحياة المادية أو المعنوية . ومن أجل هذا ، كان الإنسان - من قديم الزمن حتى الآن - مضطراً إلى عقد المدن وتأسيس المجتمعات ، حتى يكون البعض لبعض وإن لم يشعروا خدم^(١) .

[١] هذه المكرة نجدها قبل ابن سينا لدى الفلاسفة والمفكرين الذين تطرأوا إلى الاجتماع . فأفلاطون ، فى المقالة الثانية من الجمهورية ، يرى أن الاجتماع طبعه طبعه سببها هجر الفرد عن القيام وحده بكل ما يحتاجه . وأرسطو ، فى المقالة الأولى من كتاب السياسة ، يقرر أن الذى لا يحتاج لغيره إما بهيمة أو إله . ويرى مكتوبه فى كتابه القوز الأصفر أن الإنسان لم يخلق خلق من يعيش وحده ، ويتم له لقاء بهمه . والمعارف يؤكد هذه المكرة فى كتابه آراء أهل المدينة الفاضلة على ما هو معروف .

ويخلص من ذلك بتقرير أنه لا بد إذا في وجود الإنسان وبقائه من مشاركة ، وأنه لا تتم هذه المشاركة إلا بمعاملة الناس بعضهم لبعض ، ولا بد في المعاملة من أن تكون على أساس من سنة وعدل ، ولا بد للسنة من شارع يحیی بها من لدن الله جل وعلا ، وهذا لا بد أن يكون إنساناً ؛ والنتيجة لهذا كله بيان أنه من الضروري أن يوجد نبي يرسله الله للناس بهذه السنة والشریعة ، وأن يكون هذا النبي إنساناً من الناس لا ملكاً من الملائكة .

وعلى هذا النبي ، بعد ما يأتي به من شرائع للناس في العقائد والعبادات والمعاملات ، أن ينظر في ترتيب المدينة (يريد بها الدولة) فيقيمها على دعائم ثلاث : المديرون والحفظة والصناع ومن إليهم ، وهنا تلح في وضوح رأى أفلاطون في هذه الناحية ^(١) ثم يذكر أن كل طبقة من هذه الطبقات يكون عليها رئيس ، وهذا الرئيس يكون تحت أمره رؤساء دونه مرتبة ، وهكذا حتى نصل إلى إقناء الناس ، وحيث أن يكون لكل فرد عمل معروف ومقام محدود ، وإذا فالبطالة والتعطيل عن العمل محرمان تماماً ؛ إذ لا يصح أن يكون أحد عائلة على أحد متى كان قادراً على العمل .

على أن الشيخ الرئيس لم يكن بالفيلسوف النظري الذي يضع القواعد ولا يفكر في الوسائل والتطبيق لما رأى ، نعم ، لم يكن بالمفكر الذي يتعمى عما حوله ، ويتجاهل واقع الحياة وأحداثها ، إنه برغم ما جعله لكل فرد من أبناء الأمة من عمل محدود معروف حتى لا يتعطل أحد عن العمل الذي به يكسب عيشه ، رأى أن هناك متعطلين بالفعل لهذا السبب أو ذاك من الأسباب التي تختلف من آن لآن .

[١] حقيقة لقد استلهم ابن سينا أفلاطون في هذه الفكرة في كتابه الجمهورية المقالة الثانية . وظاهر أن كلامه ما نظر في هذا إلى الإنسان وعمره الثلاث ، وإلى الترتيب الطبيعي الواقع في أي مدينة من المدن .

إلا أن الشيخ الرئيس عالماً بأفلاطون بما رآه من الشيوعية في المال والعباد بالنسبة للحكام والجند ، ولمعتقد أن ابن سينا وقد اتبع في رأيه الشريعة الإسلامية ، تأثر بأفلاطون نفسه حين رجع عن هذه الشيوعية في كتاب القوانين المقالة الخامسة ، وأرجع حين نقد رأى أستاذه ميلاً ما يكون من ضرر شديد في التصحية بالملكبة الخاصة والأسره في سبيل الدولة ، انظر في هذا كله كتاب السياسة المعاملة الثانية . إن المعلم الأول يرى بحق أن الشيوعية في العباد وما يستتبعه من الشيوعية في الأولاد تضر ضرراً كبيراً بهؤلاء وأولئك ، وكف تلك الشيوعية في المال تجلب هذا الضرر العام .

ولهذه تجده يقول إنه إن وجد فعلا جماعة متعطلون عن العمل ، وتمادى بهم الزمن ولو بعض الوقت على هذا الحال ، يجب أن تنظر في أمرهم ، فإن كانوا قادرين على العمل ، وكان العمل موفوراً لمن يريد ، وكان الطريق إليه ميسوراً ، وإنما الامتناع عن العمل يرجع إلى الكسل ، كان من الضروري على الدولة ردع هؤلاء الكسالى وتأديبهم ويحتمل إن لم ينفع فيهم الردع والتأديب ؛ ومن هنا ، نرى في وضوح أن صاحب كتاب الشفاء كان يحرم التسول تحريماً باتاً ؛ التسول الذى صار داء من أدوائنا الاجتماعية ، بل صار مهنة تدبر على من يمارسها أضعاف ما يدره العمل الشريف ، وبخاصة وجمهرة المتسولين قادرين على العمل ، ولكنهم لا يريدون ما دامت الحكومة غير جادة فى أخذهم بالحزم .

ولم كان السبب فى البطالة لا يرجع إلى الكسل ، بأن كان العمل غير ميسر لكل من يريد ، أو كان السبب فى البطالة المرض أو الشيخوخة أو ما إلى ذلك بسبيل ، كان الحال من العمل معنوياً ، وكانت الدولة ملزمة بتوفير الحياة المناسبة له ؛ وسبيل هذا كما يرى المفسر العملى ، أن يجمع هؤلاء الذى لا يستطيعون العمل فى مكان خاص ، وهو الملجأ بلفة العصر ، وأن يجعل عليهم فيتم ينظر فى أمورهم ويدير أحوالهم .

ولا بد فى هذه الحالة من مال يتفق عليهم منه ، وبه تصلح أمورهم ؛ هذا المال يجب ، فى رأى ابن سينا ، أن يجمع من صرائب تفرض على الأرباح الطبيعية والمكتسبة ، يدفعها الأغنياء والقادرون على العمل ، والذين يرغبون بما يعملون شكراً لله على ما حباهم به من نعمة وفضل ، كما يجمع هذا المال من عقوبات تفرض على الذين يخالفون أمر الله وشريعته ، ومن شيء من بيت المال العام . وهنا أذكر أتى لست بالذى يسرف فى تمجيد الماضى ، لأن الزمن قد أكسبه جلاله وقداسته ، ولا بالذى يبخس التفكير الحاضر لأنه لم ينل بعد من الزمن بعض الجلال ، ولكنى اعتدت أن أنظر للقول لا للقاتل ، ثم يكون بعد هذا الحكم والتقدير .

وعلى هذا الأساس نجد تفكير ابن سينا منذ أكثر من ألف عام أو يزيد لا يكاد ينقصه شيء مما وصل إليه المفكرون المحدثون المعاصرون فى هذه الناحية . فقد لاحظ أن الله - جلّت حكمته - لم يُسوّ بين الناس فى حظوظ المال والثروة ،

كما لم يسو بينهم في حظوظ العقل والممتلكات والقدرة على العمل : ومن ذلك كان لا بد أن يكون كل مجتمع على طبقات مختلفة . وهذا ليحس كل فرد من أفراد المجتمع الحاجة لأخيه ، ويعين بعضهم بعضاً ، فيقوم المجتمع وتصلح الحياة . ومن ثم ، نرى فيلسوفنا يقرر أن لكل من أفراد المدينة عملاً يباط به أداؤه ، ومنزلة يضع نفسه فيها ، وتكون النتيجة أن يعمل الجميع ويحمي الجميع حياة طيبة .

ولكن ، وهنا الناحية الواقعية في هذا الجانب من فلسفة ابن سينا ، نراه يلاحظ أن أى مجتمع قد لا يخلو من أناس يضطرون للبطالة ، وأن هؤلاء الناس لإخواننا في الوطن والإنسانية ، وإذا يجب عونهم وتوفير الحياة المناسبة الشريفة لهم في مكان يعيشون فيه ، وتولى الدولة الإنفاق عليهم على ما عرفنا .

ولعل من الطريف أن نلاحظ أن فيلسوفنا كان رجلاً عملياً حقاً ، بجانب كونه فيلسوفاً نظرياً ممتازاً : إذ فكر في المشكلة وفي حلها أيضاً . وفي سبيل هذا الحل الموفق غاية التوفيق ، نراه يتحرر من بعض ما كان يسود أيامه من آراء بعض الفقهاء . إنه لم يقل معهم بأن المرء متى دفع ما عليه من زكاة خلص من جميع ما عليه من حقوق مالية لوطنه وإخوانه ؛ بل إن عليه بعد هذه الزكاة المفروضة أن يسهم بنصيب من أرباحه للمعوزين ، ليقوم التضامن الاجتماعي بين أبناء الوطن الواحد . ولم يقل أيضاً مع هؤلاء الفقهاء بأن معصية الله لها عقابها في الدار الآخرة فقط ^(١) ؛ بل رأى ، بجانب ما سيكون من هذا العقاب الآخروي ، فرض نوع من العقوبات المالية للإنفاق منها على من تقطعت بينهم وبين العمل الأسباب وكانوا معوزين .

ذلك بأن هذا الفيلسوف كان يعرف من الواقع والتجربة أن الله يزرع بالسلطان ما لا يزرع بالقرآن ، وأن هناك من لا يتذوقون أول الأمر حلاوة الطاعة لأمر الله ونهيه ، ومن ثم يكون الخير أحياناً في فرض عقوبات بعضها مالى — على من لا يقف عندما أمر الله ونهى ، فليس — كما يقول — كل إنسان تنزجر لما يخشاه في الآخرة ؟
(الحديث موصول)

(١) من المعروف أن بعض المعاصي لها جزاؤها الدنيوى المعروف في كتب الفقه بجانب جزاء الآخروي . ولكن ما أريد الإشارة لطرافة رأى ابن سينا في فرض عقوبات مالية مع هذا كله .

القرآن الكريم واللغة

وأيهما يؤيد الآخر

لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد الجواد رمضان

يلتق الباحثون في القرآن الكريم ، بمن يؤمنون به ، ومن غيرهم ، في أنه نقل عن النبي صلى الله عليه وسلم بالتواتر الذي يقطع كل ريب في اتصال سنده ، وصحة منه ، حتى ما كان من قبيل الأداء ، كالمند وغيره من مقومات ترتيله وتلاوته .

ويفترقون ، في أن الأولين ، يؤمنون - مع ذلك - بأنه كلام الله المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم بطريق الوحي ، للتعبد بتلاوته ، وللتحدى بأقصر سورة منه ؛ وأنه نزل بلفظ قريش ولغات بعض القبائل الأخرى من مضر ، وهي : كنانة ، وأسد وهذيل ، وضبة ، وبنو سعد ، وثقيف ؛ ولاختلاف لهجات هذه القبائل ، اختلفت صور أداء القرآن الكريم ، ونشأت الفرامات ، التي هي اختلاف ألفاظ الوحي المذكور في الحروف أو كيفيتها ، من تخفيف وتشديد ، وترقيق وتفتيح ، وإبدال ، وإمالة ، وغير ذلك ، ولما أمر عثمان رضي الله عنه : زيد بن ثابت ، وعبد الله بن الزبير ، وسعيد بن العاص ، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام : بكتابة المصحف الامام ، قال للرهط القرشيين الثلاثة إذا اختلفتم أنتم وزيد ابن ثابت في شيء من القرآن ، فاكتبوه بلفظ قريش ، فإنه إنما نزل بلسانهم .

وبرى الآخرون ، وهم المستشرقون ، ومن أولع بمذاهبهم في البحوث والدراسات : أن القرآن الكريم كلام محمد (صلى الله عليه وسلم) ؛ وأن تواتره المقطوع به ، يجعله أصدق نص عربي يمثل اللغة العربية الفصحى ، في العصر الذي تلى فيه ؛ ولما كانت ألعاط اللغة ، التي دونت في معاجمها المختلفة في العصر العباسي وما بعده ، إنما رويت آحادا ، وفي نصوص قوى الشك في أنها منقولة ؛ فإن النص القرآني يجب أن يكون ، الحكم ، في متن اللغة ، لا أن تكون اللغة ، حكما ، في نصوص القرآن .

ونحن - وإن كنا لا نزعم أن الفاظ اللغة قد رويت بالتواتر - نعلم أن حرص المسلمين في العصر الأول، على فهم القرآن الكريم، كان أقوى من حرصهم على الحياة، وأن سيلهم إلى هذا الفهم - ملكاتهم وتبعهم للألفاظ الواردة في كلام القبائل التي نزل القرآن بلغاتها؛ ومضى الأمر على ذلك، عصر بني أمية، وصدرنا من عصر بني العباس؛ حتى إذا اشتد الاختلاط، وفشا اضطراب الملكات؛ وأراد علماء البصرة والكوفة - رثا الإسلام، ومباهته - تدوير اللغة؛ عمدوا إلى أخلص العرب لسانا، وأنأهم عن العجمة ذارا، فأخذوا عنهم؛ أخذوا أكثر اللغة من قيس وتميم وأسد، وانكسروا عليهم في الغريب والإعراب والتصريف؛ ثم من هذيل وبعض كنانة، وبعض طي^١؛ ولم يأخذوا من لخم وجذام، لمجاورتهم أهل مصر القبط؛ ولا من قضاة وغسان وإياد، لمجاورتهم أهل الشام وأكرهم نصارى يقرءون بالعبرية؛ ولا من تغلب وانمر، لأنهم كانوا بجزيرة - قور - بين دجلة والفرات، مجاورين لليونان؛ ولا من بكر، لمجاورتهم التبط والفرس^(١)؛ ولا من عبد القيس وأزد عمان، لأنهم كانوا بالبحرين مخالطين للهند والفرس؛ ولا عن أهل اليمن، لمخالطتهم الهند والحبيشة، ولا من بني حنيفة وسكان اليمامة وثقيف وأهل الطائف، لمخالطتهم تجار اليمن المقيمين عندهم؛ ولا من حاضرة الحجاز لأن الذين نقلوا اللغة، صادفهم قد خالطوا غيرهم من الأمم وفسدت ألسنتهم.

وكان الرواة وعلماء اللغة، يرحلون في طلبها إلى البادية، ليأخذوها عن مصادرها مشافهة وسماعا؛ وأقدم من فعل ذلك، يونس بن حبيب الضبي، المتوفى سنة ١٨٣، وخلف الأحمر، المتوفى سنة ١٨٠، والخليل بن أحمد، المتوفى سنة ١٧٤، وأبو زيد الأنصاري، المتوفى سنة ٢١٥. وكانوا يطلبون جفاة الأعراب، وأهل الطبائع المتوقعة، ويأخذون عن القبائل التي بعدت عن أطراف الجزيرة، وبقيت في سرتها وكان الأعراب كذلك، يطرمون على الحضر من البادية، فيتلقى الرواة، وعلماء اللغة عنهم نواذر اللغة وغريبها، ويحكونهم فيما اختلفوا فيه؛ وينزلون على أحكامهم؛

[١] بط - فتحتين - جبل يتركون البطائح بين العرافين، والواحد يطل على السما نبطا، لأنهم استنبطوا ما يخرج من الأرض، ولتتهم المرباطية.

ذلك لأن الاعرابي القح ، لا ينطق بغير لحن قومه ، وإن كان أفصح منه ، إلا إذا داخله الضعف ؛ والروايات في ذلك متعالة مشهورة .

وكانت الحرب الجدلية اللغوية بين الكوفة والبصرة دائمة الاستمرار ، يزيد ما اشتعالا ، أن أهل الكوفة شيعة ، وأهل البصرة نواصب ؛ وأجمع العلماء على أنه لا معول في رواية اللغة على أهل الكوفة ، لتعلقهم بالشواذ ، ولوضعهم الأشعار ، من صنع حماد الراوية ، ومعه أبو البلاد ؛ أما أهل البصرة ، فقالوا : إن منهم أصحاب الأهواء إلا أربعة فإنهم كانوا أصحاب سنة ، وهم : أبو عمرو بن العلاء ، والخليل بن أحمد ، ويونس بن حبيب ، والاصمعي ؛ وذكروا أئمة اللغة الذين امتازوا بمعظمها ، فقالوا : إن الاصمعي يحفظ تلك اللغة ، والخليل بن أحمد يحفظ نصف اللغة ، وأبو قسيب السدوسي ، تليذ الخليل ، يحفظ الثلثين ، وأبو مالك بن كركرة الاعرابي يحفظ الأربعة كلها ، وكان يحفظ الغريب والنادر ، وهو المراد من اللغة .

أقول : إن هذا التحري البالغ في تدوين اللغة ، والتدقيق في تحملها ونقلها ؛ وهذه القنطرة التي لا تنام ولا تغفل عن حياطتها وتنقيتها من الدخيل والمندسوس ، والموضوع إلى الملكات الطبيعية ، أو القرينة من الطبيعة ، التي كان يمتاز بها رواتها ؛ تعطى اللغة من القوة والصحة ، ما يقرب مما يعطيه التواتر ؛ والقرآن هو الذي طرأ على اللغة ، فكانت الحاجة إلى التواتر في نقله ألزم ؛ ثم هو مع ذلك دين أو معجزة مقررة للدين ، بخلاف اللغة ، فإنها - وإن كانت وسيلة له ، واجبة بوجوبه - ثابتة متقررة ، لأنها لسان المتحدى والمتحدى ؛ على أن في تواتر القرآن الذي نزل بلسان عربي مبين ، تواترا صينيا للغة ، يقطع كل جدل ، وكل شك في صحتها ، ونهوض حجتها .

فليشك المستشرقون وغير المستشرقين في بعض الأشعار أو في أكثر الأشعار وليتهموا بعض الرواة أو أكثر الرواة ؛ فإنهم جميعاً لن يأتونا بجديد لم يقب له رجال اللغة وعلاؤها ، وينهوا غيرهم عليه ، ويقرروا بإزائه من ضروب الوقاية ، ما يصده وينفيه .

— ونحن معاصر الأزهرين — قد تواردنا على تقديم القرآن الكريم على

كل نص سواء تشريعاً وتكريماً ؛ ومن هذا الذي يقدم كلام المخلوق على كلام الخالق ١٩ بيد أنى لا أنكلم الآن في الكرامة والشرف ، وإنما أعرض للقرآن واللغة من ناحية دلالتها على المنهج العربى ، أو بعبارة مشهورة : من ناحية الاستشهاد على قواعد النحو ، وهل النصوص العربية أقوى في تأييدها ، أو النصوص القرآنية ١٩

يقول المستشرقون : النصوص القرآنية أقوى ، روايتها بالتواتر ، ورواية اللغة آحاداً ، ولأن المسلمين في العصر الإسلامى وما بعده ، قد منعوا رواية كل ما ناهض الدين من معارضة وغير معارضة ، وأنا أرد الجزء الأخير بأن النبى صلى الله عليه وسلم نهى عن رواية قصيدة أمية بن أبى الصلت في رثاء قتلى بدر .

هـ لا بكيت على الكرام بنى الكرام أولى المادح

ونهى عن رواية قصيدة الأعشى في مدح عامر بن الطفيل :

علقم ، ما أنت إلى عامر الناقض الاوتار والواتر ؟

ومع ذلك رويت القصيدتان على وجهيهما .

بل لقد روى في صحيح البخارى بيتاً عبد الله بن الزبيرى في قتلى بدر .

ومادا بالقلب ، قلب بدر من الخيرات ، والنعم الجسم ١٩

ومادا بالقلب ، قلب بدر من الشيزى تكلل بالسنام ١٩

ويقول الأزهريون : النصوص القرآنية أقوى ، لشرف القرآن وجلاله ؛ ثم لوروده على أفصح اللغات العربية ؛ فهم يوافقون المستشرقين في الحكم ، ويسخرون من مقدماته عندهم ، لما أسلفنا قريباً ، من أن النصوص العربية ليست مدخولة كلها ، وأشعارهم ليست منحولة كلها ؛ لأن تحرى الرواة ودقهم ، وضعت لكل عقرب حجرها ، ورفعت لكل آية عليها ، ونصبت لكل درب صواه ، مما أقام منار الحق ، وهدى إلى قصد السبيل .

فأما الضعيف الذى هو أنا ، فإنى - مع استعدادى للرجوع إلى الحق - أرى أن النصوص اللغوية الصحيحة ، أقوى في الاستشهاد على قواعد النحو ؛ والدليل على ذلك واضح ميسور ؛ فإن القرآن الكريم ، معجزة الرسول الكريم ، رسول

الإسلام : محمد بن عبد الله ، صلوات الله وسلامه عليه ، وبرهانه الذي قام ويقوم على صدق رسالته ، بتحديه للعرب أن يأتوا بما لا أقصر سورة منه ، مما قالوه ، ومما تزهلهم تحازهم ، لأن يقولوه ، من مشور ومنظوم ؛ وهذا يوجب طبعاً ، أن يكون لهم كلام عرف وعرفت أسرارده وخصائصه البلاغية ، وأساليبه في الإفصاح والبيان ؛ حتى تكون الحججة أقوى ، والعجز أمامها أبلغ ؛ ولا يصيرنا فتمدان بعض ذلك الكلام ، قل أو كثر ؛ ما دام الخصم لا يستطيع أن يدعى أن جميع كلام العرب قد فقد ، ولم يبق إلا القرآن ؛ هذا القليل أو الكثير الذي بقي من كلام العرب ، لا نزاع في أنه الأصل الذي يقاس به القرآن ، حتى تصح الموازنة التي أوجبها التحدي ؛ وما كان أصلاً ، يجب أن يكون الدليل المقدم .

ومما أستأنس به لذلك ، أن العلماء قد اتفقوا على أن القرآن في أعلا درجات البلاغة ؛ ثم اختلفوا : أتماوت مراتبه في البلاغة ، أم لا تتفاوت ؟ قال الناقضي عياض : لا تتفاوت ، وكل كلمة فيه موصوفة بأنها في الذروة العليا ، وإن كان بعض الناس أحسن إحساساً من بعض .

وقال القشيري وغيره : تتفاوت ، ولا ندعى أن كل ما في القرآن على أرفع الدرجات في الفصاحة .

وقال الجزري : لو جاء القرآن كله بالانفصح . لكان على غير النمط المعتاد في كلام العرب ، من الخم بين الانفصح والعصيح ؛ فلا تم الحججة في الإعجاز ، إذ يقال - مثلاً - إنه قد جاء بما لا قدرة للعرب على جمعه ؛ كما لا يصح أن يقول البصير للأعمى : قد غلبتك بنظري ، لأن الأعمى يقول له : إنما تم لك الغلبة ، لو كنت قادراً على النظر ، وكان نظرك أقوى من نظري ، أما إذا فقد أصل النظر ، فكيف تصح مني المعارضة ؟

• • •

وإن المستشرقين ومن شايعهم - وإن طعنوا في صحة ما روى عن العرب من الخطب ؛ ومن أشعار الين وربيعه - يقبلون شعر مضر ، ويعرفونه بخصائص ومميزات لا تشبهه ، ولا تنحني على تقاد الأدب وروائه في الجاهلية والإسلام ؛

الخير باق في الناس

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد عبد التواب

مفتش الوعظ العام بالأزهر

عن أبي سعيد الخدري رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
« من أكل طيباً ، وعمل في سعة وأمن الناس بوائقه ، دخل الجنة ، قالوا :
يا رسول الله ، إن هذا في أمتك اليوم كثير قال : وسيكون في قوم بعدى » .
رواه الحاكم .

ولا يضير أن تأخر تدوينه : فإن النقل بطريق الرواية أصح وأفضل عند علماء
الإخباريات ، من النقل بطريق الكتابة ، لضعفها وإشكالها ، بخلوها من الأعيان
والشكل ، وغلبة الأمية على أهل البداوة بوجه أخص ؛ بل إن علماء اللغة كانوا
إذا ارتابوا بفصاحة أعرابي ، بمن يطمرون على الحضر ، وظنوا أن جلده قد لان ،
وذهب جفاؤه الذي يعدونه مادة الفصاحة ، وضعوا له قياساً غير صحيح ، فإن نطق به
طرحوه ، وإذا وجدوا من أولئك الأعراب من يفهم اللحن وعلل الإعراب ،
بهرجوه وزيفوا طبعه ، وطرحوا لفته ، كما يفعلون بمن لم يحلص منطقته . ذكروا
أن أبا عمرو بن العلاء ، استضعف يوماً فصاحة أبي خزيمة المدوي الأعرابي ،
فسأله : كيف تقول : حفرت الإران ؟ فقال حفرت إراناً . فقال له أبو عمرو :
ألان جلدك . يا أبا خزيمة . حين تحضرت ؟ »^١

وأخيراً ، رحم الله أبا حفص الفاروق المحدث . عمر بن الخطاب أمير المؤمنين
ورضى الله عنه ، إذ يقول ما معناه :

عليكم بأشعار العرب ، ففيها تفسير كتابكم ، لأنه إنما نزل بلسانهم .

[١] أسطأ أبو خزيمة ، لأن الحمرة التي يجبر بها ، يقال لها : إرة وتجمع على إرار . كمرة
وعزير . . وأما الإران فخطب النعش . وانظر الجزء الأول من الخصائص ، لأبي الفتح بن جني .

صلاة الله وسلامه عليك يا سيدى يا رسول الله ، يا بشيراً بالخير ، ويا دليلاً على الهدى ، ويا داعياً إلى اعتناق العصائل والمكرمات .

صفت سعادة الدنيا والآخرة فى كلمات ، وجمعت جمال النفس ، وجلال البر ، وغالض العمل ، وحسن الاحدوة ، فى حديثك العذب المذاق ، فوجهت أمتك إلى شمائل الفضل ، محكمات ، منسقات ، تزدان منهاسكة متجاذبة ، وتزدان متناثرة متألفة ، فهى كدقود الكواكب المزدهرة فى زرقه السماء الصافية ، فى تجمعها جمال ، وفى تألقها جلال ، وفى ثارها بريق يزهر به المشرق ، ويعتز به المغرب ، ويتجاوب لمعانه ودورانه بين الجنوب والشمال .

تلكم هى الحكمة فى أسلوبها ، وهى العطمة من ينبوعها ، وذلكم هو المجد فى توجيه الرسول الحكيم .

من أكل طيباً حللاً ، من عمل يده ، أو مما ورثه ، فى غير حد يتجاوزه ، أو غش يمدح به ، أو غبن يدفع إليه ، فهو الأئى المترف ، وهو الرحيم المتعفف . أبى أن يطعم بما لا يحل له ، ويرفع عن أن يسف إلى ذنية يتبلغ بها ، ويشفق أن ينزع اللقمة من فم المجهود حتى لا يبيت طاوياً ، ويعف عن كل شبهة تشوب الرزق الحلال حتى يصفو من كل كدورة تغشاه ، فهو يفتن بالقليل . متمثلاً بقول الشاعر :

إن الفناعة والعفا ف ليغنيان من الفنى

فإذا صبرت عن المنى فاصبر فقد نلت المنى

فأما الآثم الظالم ، وأما الشره الطامع ، وأما المتكالب المغرور ، فذلك إلى قسوة عتته ، له سعي من بغض من حوله ، وعليه وزر يوء به من سوقه ، وبين يديه غصبة من الله تزلزل من ذات نفسه ، وتذك من حائق جبروته ، وتطوى ما جمع من مال ، فتضيقه عليه فى حسرة ، وفى نكال .

أيها العاشون : الله ورسوله يرآن منكم ، والظالمون : ويد الله فوق أيديكم ، ويا أيها الوالفون فى دماء الفقراء تمتصونها وتمتصرونها . أيها الرابحون فى السوق السوداء ، المتجرون فيما احتكرتم ، لتقلوا خزائنكم ، وتذهبوا بالكثير

والقليل ، رويداً ، فما أتم بأشد قوة ، ولا أكثر جمعاً ، عن نكس الله عتوم ، وخسف بهم ، فاعتبروا ، وازدجروا ، وإلا حلت عليكم كلمة العذاب . فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يدخل الجنة لحم ودم نبتاً على سحت ، النار أولى به » ، رواه الترمذى وابن حبان في صحيحه ، وروى مسلم عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيباً ، وأن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين . فقال تعالى : (يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً) وقال تعالى : يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم (ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر ، يمد يديه إلى السماء : يا رب ، يا رب . ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغنى بالحرام فأنى يستجاب له » ٩٩

• • •

أما من عمل في سنة ، فهو ذلك المبتدى بهدى رسول الله ، الآخذ عنه سمته وتقواه .

من شأنه : مراقبة في العبادة ، وإحسان في المعاملة ، وزهد عما في أيدي الناس وثقة بالله ، واصطبار على الأحداث والنازلات ، وقناعة تسلم النفس إلى الطمأنينة والأمان ، وترفع عن الدنيا ، وبعد عن الريب ، وحلم لا يضيع حقاً ولا يغري بمفسدة ، وحزم يضع الأمور في موازينها ، ليقضى لها أو عليها ، وعزيمة لا تقتر ولا تهين حتى تبلغ هدفها ؛ كل ذلك في حسن القدوة ، وجمال الأسوة ، ومن يطع الرسول فقد أطاع الله ، وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديد العقاب .

• • •

وأما من أمن الناس بواقعه شره ، فهو الأمين في الغيب والشهادة ، الكريم صحبة ، والسليم طوية ، والكاف عن الأدى لسانه ويده ، وغزته ولمزته ، الذي لا يقع في عرض ، ولا يتمرغ في كذب ، ولا يستمرى الطعن والكيد في خفاء ، وفي نذالة ، وفي تبذل ... شأن اللص الجبان الرعيد ، لا يكاد يواجه الثور ، ولا يسرق إلا من وراء ستار .

من أمن الناس بوائقه فاز بحبهم ، وزكا بحمدهم ، وظهر بتأييدهم ، وحب الناس آية حب الله ، وحب الله غاية كل مؤمن .

من أمن الناس بوائقه أمن هو في سربه ، وأفسح لنفسه في مكان العزة عند الله - الذى يعز المؤمنين - وبين الأعزة الأكرمين .

فمن تحلى بالخير ، وتجمل بالمكرمات ، وصبر ، وصابر ، كان من نفسه فى سمو وقوة ، وفى جمال وجلال .

قال الشاعر :

هى النفس ما حملتها تحمل	وللدمر أيام تجور وتعدل
وعاقبة الصبر الخيل جميلة	وأحسن أخلاق الرجال التفضل
ولا عار إن زالت عن الحر نعمة	ولكن عارا أن يرول التجميل

وبعد :

فهذه أوصاف ثلاثة ، من تحلى بها دخل الجنة ، مصداقا لهذا الحديث النبوى الكريم الذى لا ينطق عن الهوى .

طيب الطعمة ، وعمل بالسنة ، وكف عن الأذى .

وانت كانت بشارة هذا الحديث على صاحبه أفضل الصلاة وأتم السلام ، أن مد الخير فى الناس . فلم يقصر الانصاف بتلك الشرائع على من كان فى عهده وبين صحابته - رضوان الله عليهم - حين قالوا : يا رسول الله إن هذا فى أمتك اليوم كثير ، قال : « وسيكون فى قوم بعدى » .

سيكون الخير فى الناس ، ويكون البر ، وتكون القناعة ، ويكون الاعتصام بالكتاب والسنة ، فتكون الطعمة حلالا ، والكسب حلالا ، والقناعة موفورة ، والذمة مكفولة ، والناس فى أمن وأمان .

وليك يا رسول الله ، ثم ليك ؟

المسلمون والتصوير

محاضرة الأستاذ أحمد محمد عيسى

ليسانس في الآداب — دبلوم في الآثار

وأمين مكتبة جامعة عزاد الأول

مقدمة :

إن موضوع التصوير في المراجع العربية ، وأقصد بالذات كتب الفقه الإسلامي من الموضوعات غير الوافية . والمستعرض لتلك المراجع يتنقل من كتاب الى آخر دون أن يجد فرقا محسوسا أو تباينا ملحوسا بين كتاب وكتاب . فالتقدم أخذ عنه المتأخر وهذا الأخير لم يزد على ما نقل شيئا حتمته ظروف الحال ، ولا تغير الزمان والمكان . والمسألة تنحصر في بعض تفسيرات بسيطة سطحية ، أو تأويلات نقلها الخلف عن السلف ، لذلك لا يجد الباحث في موضوع التصوير شيئا له قيمته في تلك الكتب المديحة ، كما لا يجد رأيا يمكن اعتباره فيصلا في المشكلة .

على أني لا أشد استكمال هذا البحث في تلك الكتب من الناحية الفنية وإنما أقصد الوصول الى رأى الفقهاء في مسألة التصوير من ناحية تحليله أو تحريره . وأقول رأى الفقهاء لأنى أعتقد أن الإسلام ترك هذا الموضوع لعدم أهميته ، وكل ما هنالك بعض أحاديث تناولها فقهاء المسلمين بالشرح والتعليق لحرموا أو كرهوا أو أجازوا عمل التصوير أو اقتناءها أو النظر إليها .

لذلك أعتقد أنى أقرب الى الصواب إذا قلت : رأى الفقهاء في التصوير ، أكثر من قولى : رأى الإسلام في التصوير ، لأنى لا أجد في القرآن ولا في الحديث نصاً صريحاً يحرم التصوير ولا تفسيراً صحيحاً يشرح الفرق بين التصوير والتثيل (عمل التماثيل) ولا علة مقولة لتحريم ما انفق المسلمون على تسميته بالصور أو التصوير .

القرآن والتصوير

يهم الباحث في موضوع التصوير أن يعرف ما ورد في القرآن الكريم من

آيات تحرمه أو تحلله ، وسأعرض لتلك الآيات لأصل في النهاية الى مشكلة التحريم أو الإباحة وهل وردت في القرآن أم لم ترد .

لعل أغلب القائلين بتحريم التصوير من المستشرقين يجمعون على أن القرآن قد نص على ذلك في سورة المائدة عند قوله تعالى : « إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان ، فاجتنبوه لعلمكم تغفلون » . وقد فسر هؤلاء كلمة « الأنصاب » بالتصاوير ووصفوها بأنها رجس . وقال النسفي : « إن الأنصاب هي الأصنام ، وكونها رجس لأنها تنصب فتعبد » . وإذا يمكن أن نقول إن وصفها بأنها رجس وأمر المؤمنين باجتنابها راجع الى كونها تعبد من دون الله ، فإذا لم تعبد فإنها كما اعتقد لا تكون رجسا ويجوز للسليبي أن يزاولوها . وقال النسفي أيضا في تفسير قوله تعالى : « وما ذبح على النصب » . أن كانت لهم حجارة منصوبة حول البيت يذبحون عليها ، يعظمونها بذلك ويقربون إليها . ولعل في ذلك ما يشير الى أن هذه الأنصاب كانت أحجارا ولم تكن صورا ولا تماثيل ، ويؤيد ذلك قول الزحشرى في أساس البلاغة « نصب » : (ونصب حول الحوض نصائب وهي حجارة تجعل عضائد له . وكانوا يعبدون الأنصاب وهي حجارة نصب عليها دماء الذبائح فتعبد) .

وجاء في تفسير القرطبي لتلك الآية ما يأتي : (وقيل « على » بمعنى اللام . أى لأجلها . قال قطرب قال ابن زيد : ما ذبح على النصب وما أهل به لغير الله شيء واحد) . من هذا يمكن أن نقول إن الآية لا تعرض للنصب بتحريم أو تحليل وإنما تعنى بالذات ما ذبح على تلك النصب وتحرمه لأنه قد أهل به لغير الله سبحانه وتعالى . وقال القرطبي في تفسير قوله تعالى : « إنما الخمر والميسر .. الآية .. » إن المقصود بالأنصاب : الأصنام . وقيل هي الترد والشرطيح . على أن القرطبي مع شهرته بالعناية بتفسير آيات الأحكام ، لم يتعرض لموضوع الأنصاب في هذه الآية وإنما أخذ بالرأى الذي يفسرها بأنها الترد والشرطيح ، وأوضح ذلك في تفسير قوله تعالى : « فإذا بعد الحق إلا الضلال » [سورة يونس] .

وتصل سورة سبأ بهذا الموضوع من ناحية أن التماثيل كانت في شريعة سليمان عليه السلام ، مباحة لا حرمة فيها . قال تعالى : « يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب » .

قال النيسابورى فى شرح كلمة « تماثيل » : « والتماثيل صور الملائكة والنبين ، كان يأمر بأن تعمل فى المساجد من نحاس وزجاج ورحام ليراها الناس فيعبدوا نحو عبادتهم . وقال الألوسى : « وقيل كانت التماثيل صور شجر أو حيوانات محذوفة الرموس عما جوز فى شرعنا ، ولا يحتاج إلى التزام هذا لأن حرمة تصوير الحيوان كاملاً لم تكن فى ذلك الشرع . ثم قال : وحكى مكى فى الهداية أن قوماً أجازوا التصوير واحتجوا بهذه الآية » .

هذه خلاصة آراء المفسرين للآيات التى تمس عن قرب أو عن بعد موضوع التصوير ، ولا يستطيع أحد أن يقول إن القرآن قد نص صراحة أو ضمناً على تحريم التصوير . ولا يمكننا أن نقبل فى تساهل تأويلات المفسرين ، لأن التأويل ، وجهة نظر ، ووجهة النظر تختلف باختلاف الأفراد والأحوال . ولو أن لمشكلة التصوير ما لغيرها من الأهمية كمشكلة الحر ومشاكل الزواج أو الطلاق أو الميراث ، لنص عليها القرآن صراحة كما نص على غيرها من مشاكل المعاملات والعبادات .

الحديث والتصوير :

أما فى كتب الحديث فإننا نجد بعض الأحاديث التى قد يشتم منها لنظرة الأولى أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد حرم التصوير ونهى عنه . على أن فى هذه الأحاديث تعارضاً وفى بعضها ما يفيد أن النبى قد أقر التصوير ولم ينكره .

والذى يمكن أن يخرج به من يمن النظر فى هذه الأحاديث - على فرص همتها - أن النبى كان يخشى أن يرجع الناس إلى الوثنية الأولى لو صرح أمامهم بإباحة الصور والتماثيل . بيد أنه حين وثق من ثبات العقيدة فى نفوسهم لم يأبه لتلك الصور بل أقرها . غير أن الشراح قد أخذوا بفكرة التحريم وبالقول فيها وتناقضوها بعضهم عن بعض . وسأعرض فى اختصار هذه الأحاديث وتعليق الشراح عليها وما يمكن أن يرد به على هؤلاء الشراح .

الحديث الأول : ... عن عائشة أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يترك فى بيته شيئاً فيه تصاليب إلا نقضه . وفى رواية إلا قضبه .

قال الشوكانى فى شرح كلمة « تصاليب » أى صورة صليب من نقش ثوب أو غيره ، ثم قال : « والحديث يدل على عدم جواز اتخاذ الثياب والستور والبسط

وغيرها التي فيها تصاوير ، وعلى جواز تغيير المنكر باليد من غير إذن مالكه ، زوجة كانت أو غيرها . وهذا التفسير الذي ذهب إليه الشوكاني بعيد عن روح الحديث ونصه ، فالتصايب ليس المقصود منها التصاوير وإنما ما كان على شكل صليب لأن ذلك قد يؤكد ، عند ضعاف العقول ، الرأي القائل بصلب عيسى عليه السلام ، فنقض التصليب لا لكونه صورة وإنما للفكرة التي يحملها الصليب .

ثم ذهب الشوكاني إلى جواز تغيير هذا المنكر عملاً بالحديث مع أن الحديث لا ينص على هذا ولا يشير إليه . وعلى فرض أن الحديث فيه لفت نظر إلى إزالة المنكر فإنه لا يدل على ما قاله الشوكاني من جواز تغيير المنكر باليد ولو بغير إذن مالكه : زوجة كانت أو غيرها .

والذي أراه أن الشوكاني قد تشدد في شرح الحديث وأغرب في فهمه لحمله أكثر مما يحتمل .

الحديث الثاني : ... عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : إن الملائكة لا يدخلون بيتاً فيه صورة أو كلب .

قال النووي في شرح هذا الحديث (وهو شافعي المذهب) : قال أصحابنا وغيرهم من العلماء : تصوير صورة الحيوان حرام شديد التحريم وهو من الكبائر لأنه متوعد عليه بهذا الوعيد الشديد المذكور في الأحاديث . وسواء صنعه لما يمتن أو لغيره فصنعه حرام بكل حال لأن فيه مضاهاة لخلق الله تعالى ، وسواء ما كان في ثوب أو ساط أو درهم أو دينار وفسل وإناء وحائط وغيرها . أما تصوير صورة الشجر وجمال الأرض وغير ذلك مما ليس فيه صورة حيوان فليس بحرام . هذا حكم نقض التصوير . وأما اتخاذ ما فيه صورة حيوان ، فإن كان معلناً على حائط أو ثوب أو عمامة أو نحو ذلك مما لا يعد ممتناً فهو حرام ، وإن كان في ساط يداس ووسادة ونحوها مما يمتن فليس بحرام . ولا فرق في ذلك كله بين ما له ظل وما لا ظل له . هذا تلخيص مذهبنا في المسألة ، وبمعناه قال جماهير العلماء من الصحابة والتابعين فمن بعدهم ، وهو مذهب الثوري ومالك وأبي حنيفة وغيرهم . وقال بعض السلف : إنما ينهى عما كان له ظل ، ولا بأس

بالصور التي ليس لها ظل . وهذا مذهب باطل ، فإن السر الذي أنكر النبي صلى الله عليه وسلم الصورة فيه لا يشك أحد أنه مذموم وليس لصورته ظل .
ويظهر في جلاء أن النووى تشدد إلى أبعد حد وأنه ذهب مذهب الشوكاني في الإغراب في شرح تلك الأحاديث وفهمها . ويمكن في اختصار أن نرد على مقالة النووى بما يأتي :

لقد حرم النووى تصوير صورة الحيوان على الإطلاق لأن في ذلك مضاهاة لخلق الله تعالى ، وأباح تصوير صورة الشجر وجبال الأرض وهو يعلم أن هذا أيضاً من خلق الله ، بل إن الله سبحانه وتعالى حينما تحدى الضالين من عباده ، طلب اليهم أن يخافوا حبة أو ذرة أو شعيرة . فلو أن علة التحريم هي مضاهاة خلق الله تعالى لوجب على النووى أن يقول بتحريم كل ما كان من خلق الله تعالى حتى الشجر وجبال الأرض لأن ذلك صورة مما خلق الله . ولأن المعنى يقول في شرحه : ومن أظلم ممن ذهب يخلق تخلقى (قالها النبي حكاية عن الله سبحانه وتعالى) ، إن التشبيه في كلمة " تخلقى " لا عموم له ، بمعنى تخلقى في فعل الصورة لا من كل الوجوه . . .

وإذن فالنوى بين أحد أمرين : إما أنه لم يصل تماماً إلى معرفة علة تحريم التصوير (لو أن ذلك التحريم كان موجوداً) حين قال إنها مضاهاة خلق الله تعالى ، وإما أنه تساهل وتهاون حين أباح تصوير الشجر وغيره من النبات وجبال الأرض والظاهر أن علة التحريم هي ما لم يذهب إليه النووى أصلاً إذ ليس في مضاهاة الخالق سبحانه وتعالى والتشبه به في محاولة الاتقان والرغبة في الكمال ما يوجب الكفر أو الحرمان ...

وظاهر أيضاً أن النووى لم يفرط ولم يتهاون حين رأى إباحة تصوير صورة الشجر وغيره لأن ذلك مما لا يعقل تحريمه وإنما التحريم منصب على ما يعبد من دون الله . [يقع]

(بمجلة الأزهر) في هذا المقال دراسة أصولية للبحث عن حل أو حرمة التصوير في الإسلام . ولكنها مع قوتها تحتل التمهيد ، فترجو عن غنى من علمائنا المبرزين بمسألة التصوير ، أن يوافقنا برأيهم في هذه المسألة .

النفاق الاجتماعي

لفيفه الأستاذ الشيخ إبراهيم علي أبو الحبيب

المدرس بكلية الشريعة

النفاق في اللغة الموت ، والنفاق هو الرجل يظهر خلاف ما يبطن ، وقد اشتهر على السنة المحققين من العلماء أن نفاق المنافق ملاحظ في اشتقاقه « نافقاء اليربوع » وهو جحر تحفره في داخل جحرها المعتاد تختفي فيه حين يراد طلبها ، أو السطو عليها ، وله باب سرى تغشيه طبقة رقيقة من التراب أو الحجارة تضربه برأسها لتخرج منه . والجحر العادي يسمى « الفاصعاء » وعلى ذلك يقولون في تحديد معنى المنافق ، يظهر غير الذي يبطن . . . و نراهم تركوا في ملاحظتهم - الأخذ أو الاشتقاق - المعنى الأول « الموت » مع أنه أولى بالملاحظة ، وأجدر بالرعاية ، لأن المنافق ميت وإن كان حيا ، وحقيق وإن حاول نياحة الشأن ، وسمو المنزلة ، ولا ينكر ذلك جاحد ، ولا يكذبه مكابر ، وقد عاينا قالوا « مهما تبطن تطهره الأيام » والتاريخ يحدثنا أن المنافقين لم تقبل على الناس حيلهم ، ولم ترج مغترباتهم ، بل كشف الله سترهم ، وأعمى بصائرهم . وأحبط مكرهم ، وفضح ألعيبهم ، وفي القرآن الكريم تعرض لشؤونهم ، وتفصيل لأخبارهم ، وسرد لما كان يدر منهم من خزي ظاهر ، ونقص مزر ، وتخبط واضح ، وفشل ذريع « يحادعون الله والذين آمنوا وما يحادعون إلا أنفسهم وما يشعرون » في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون ، وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون ، وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون ، وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا حلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون ، الله يستهزئ بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون ، أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين . . . والتلون شيء آخر يحالف النفاق لأن صاحبه أشبه بالممثل أو « البهلوان » الذي يحذق لعب الأدوار ، وعرض الروايات ، فلا يعدم

أن يلاقى كل إنسان بوجهه ، وأر يحذثه بنغم ، وأن يضرب له على الوتر الذي يرضيه صوته ، ويشجيه إيقاعه ، وهو ضرب من الملق ، ونوع من الرياء ، قلدا يكون في غير المنافقين . وواضح جد الوضوح جعل الله سبحانه المنافقين « في الدرك الأسفل من النار » وتشديد العقوبة عليهم الى هذا الحد ، لأنهم غامضون في سيرهم ملتون في سلوكهم ، لا تعلن وجوههم عن دخالهم ، ولا تكشف ظواهرهم عن سرائرهم ، بخلاف الكافر فإنه واضح القصد ، بين الغاية ، معروف الاتجاه ، يقول بلسان ساه ، ما يقوله بلسان مقاله ...

وإذا كان الدين الإسلامي ينعي على الفرد أن يكون منافقا ، ويرى أن وجوده أشبه بوجود الجرائم التي تضر بالجسم السليم ، وتفتك بالعضو الصالح ، وتودي بما يعتز به من صحة ، أو يباهى به من قوة ، فإنه ينعي على الجماعة أكثر وأكثر ، ويرى أن الوزر الذي تحمله متضامة متضامنة أشد وأنكى مما يحمله الواحد الدائر ، والإنسان المتكرر ، وكان من السنن الكونية القديمة ، إحلال الخط ، وزول الصواعق . وقلب المدن ، ومسح الاجيال ، وإشاعة الجذب ، واحتباس المطر ، « لعن الذين كفروا من بني اسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ، كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون ، ثم قطع عنا ذلك كله تكريماً لتبينا صلى الله عليه وسلم ، واكتفى بتشديد التكثير ، والتوعد بالعذاب يوم القيامة ، إذ يقول « وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم » ، وذلك لأن الجماعة متى تسرب اليها هذا الوهن ، ودب فيها هذا التخاذل أصبحت غير مرجوة الصلاح ، أو مأولة النفع ، أو ميمونة النهوض ، وكيف يكون فيها شيء من ذلك والمرضى قد استفحل في أوصالها ، وتمشي في مفاصلها ...

وإذا كان الله سبحانه وتعالى يبئلى الأفراد بالشر والخير فتنه ، فإن أشد ما يبئلى به الرجل في خلقه أن يكون منافقا ، له ظاهر طلى ، وباطن غير رضى ، يعيش بينهما مذنباً ، ويقضى عمره فيهما مضطرباً ، لا يثق أحد به ، ولا يأمن جانبه ، ولا يطمئن إلى معاشرته ، ولا يستريح لقربه منه ، ولكنه يطارده مطاردة الحشرات ، ويقاومه مقاومة الحيات ... ولو صح ما يقول علماء الاخلاق من أن كل انحذار

ينحدره الإنسان مطهر لمرض يكمن فيه ، وعلّة تعثره ، وضعف يسيطر على نفسه ، وخلل يتحكم في حسه ، هيبات أن ينفع فيه علاج ، أو يجدى معه طب ، فإن هذا المرض من الأمراض الخبيثة الملعونة ، لأنها لا تنف بصاحبها إلى حد أن تجلب له مصلحة ، وتدفع عنه مفسدة ، بل يسترسل بها الميكروب ، إلى درجة أوسع ، ومدى أبعد ، وتظل تعمل عملها ، وتؤدي رسالتها في محيط لا نهاية له من الضرر والهلاك .

وقد يكون من الممكن أن يتلافى المجتمع ذلك الإيذاء الذى يناله من فرد شاذ أو أفراد شاذين ، كما نطالع في المجلات والصحف عن بعض الشعوب المتمدية ، والأمم الراقية من عزلهم المصابين وحرمانهم من الزواج والنسل ، وبهذا تتخلص من كيدهم وتنجو من خطرهم . . أما الجماعات نفسها فلا يمكن حين يعثرها هذا الفساد التخلص منها ، والفضاء عليها ، اللهم إلا إذا تداركتها عناية الله بالمعجزات ، وخوارق العادات ، وما أظن أن يكون شيء من ذلك . . لهذا فإن ما تعانيه البشرية الآن من جهل ومرض ، وفقر وخلاف لا ينتهى ، ونزاع لا ينقطع ، واضطراب شامل ، وقلق دائم ، وعدوان متكرر ، ليس إلا بعض سيئات التفاق الاجتماعى . ومع أن هذا النوع من التفاق ميؤوس من علاجه ، فى نظر علماء التربية ، فإن الذين يرى أن الولد باعتباره أمانة فى يد أبيه مطلوب منه أن يحفظها ويرعاها ، ويتعهد بها بالتهذيب والأدب ، كما يتعهد الفلاح حقله بالرى والتسميد ، إذا صان خلقه من الانحدار ، ورعى طباعه من الفساد ، وأحاط سلوكه من الالتواء ، خلق منه رجلا كاملا ، وإنسانا فاضلا ، وبهذا يصبح فى البيئات المختلفة جماعات مثالية مرموقة ، يعتمد عليها الوطن ، ويحملها المسؤولية ، ويلقى إليها بالرام . . وفى الحديث « كلكم راع وكلكم مشول عن رعيته » ولكن الوصولية حين طغت على الناس ، والعيش حين ألحّت مطالبه على الأفراد ، جعلتهم يتذبذبون بين الواجب والمصلحة ، والهوى والضمير ، والعقل والطيش ، ورضى الخالق وسخط المخلوق ، وداعى الإيمان ، وهواتف الشيطان ، فاللهم حقر الدنيا فى أعيننا ، وبغضها إلى نفوسنا ، ولا تجعلنا عبيدها ، ولا تفتننا بها ، وارزقنا فيها الفناعة والزهد ، واجعلها تطلبنا دون أن نطلبها وترغبنا دون أن نرغبها . . فإننا شهدنا لها ضحايا منكرة مرذولة ، واستعدنا بك وحذك ، إنك أمت المولى وأنت النصير .

على هامس المولد والهجرة

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمود حميدة

المدرس بكلية اللغة العربية

نزل أمين الوحي ، وبلغ الصادق الأمين ما بينته القوم له ، وأمره أن لا ينأى في مضجعه ، وأن يتقل مركز قيادته إلى طيبة التي قرر لها أن تكون رده الدعوة وسند الحق وقصبة الدولة الجديدة ، ومبعث الهدى والعرفان ، ومصدر النصر والعزة ومدينة النور والإسلام .

بعد أن فرطت مكة في مكاتها وتهاونت في مجدها وشرفها وضحت بسيادتها ، وباعت مستقبلها باسم المنير بماضيها الخلب الخادع ، وأسرفت وأفرطت وحضفت الضلال ووكزت الحق واستحبت العمى على الهدى ، حتى فقر منها المخلصون وفر عنها المصلحون وقصد إلى غيرها أحباب الله وأعداء الشيطان ، ولم يبق منهم بها سوى من ضيق عليه الخناق طلباً لفتنته ، وطمعاً في صرفه عن عقيدته ، أو من بقي مع محمد صلى الله عليه وسلم رجاء الصعبة أو انتظاراً لأمر الله ، وبقي أبو بكر رضي الله عنه مع الفاقين وكُم الخ في الهجرة وألح عليه الرسول في البقاء ، على أن يحظى بالمراقبة ويفوز بالمصاحبة ، فلما جاء الإذن وقيل للرسول : « وقل رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق واجعل لي من لدنك سلطاناً نصيراً » قال الجبريل : من يهاجر معي ؟ قال : أبو بكر الصديق . فذهب إليه متقنعاً في منتصف النهار في ساعة لم يعتد الذهاب فيها . وأخبره أنه قد أذن له في الخروج ، فسأله أبو بكر الصعبة ، فأجابته بأنها قد وجبت . فقال أبو بكر : بأبي أنت وأمي خذ إحدى راحلتى هاتين . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : على أن تأخذ ثمنها . وهكذا بلح جدية المعاملة ، وصدق الصعبة ، وإخلاص القلوب ، فلا تفضيل ولا طمع ولا خدعة ولا رياء ، ولا ظلم ولا تورط .

وحقق الله أمنية أبي بكر وأمية الرسول له ، ثم رجع الرسول إلى منزله

واضطجبت معه من هو أولى بنصره ، وأحق بالدفاع عنه ، اضطجبت علياً بن أبي طالب الرضى الوفى ، أخاه وابن عمه ودخل الحجرة الشريفة .
وما كانت حجرتة عليه الصلاة والسلام حصناً يرد طالباً ، ولا قلعة محكمة البواب ثابتة الأركان ، ولكنها حجرة متواضعة لا تعز على مفتحتها ولا تعجز متسلقها .

لقد انبعث أشقياء قريش فى عتمة من الليل إلى بيت الرسول ليقتلوه ، وكان فيهم أبو جهل ، والحكم بن العاص ، وعقبة بن أبي معيط ، والنضر بن الحارث وأمية بن خلف ، وزمعة بن الأسود ، وطعنة بن عدى ، وأبو لهب ، إلى غير هؤلاء من رأى بعض الرواة أنهم كانوا مائة عدا . يا عجباً كل العجب أكثر من فتيان قريش تسكون كتيبة حربية تقف على أبواب الرسول وتحيط بمنزله مدججة بالسلاح ، مؤيدة من قريش ؟ ماذا وقع فى خلدها ، وبماذا صورت محمداً فى هذا الوقت ، وبماذا تصورت حجرتة ؟ أظنها قد تصورته ليثاً هصوراً أو عدواً غفيراً ، وتصورت حجرتة مدينة محصنة ، لذا واجهته بهذه الجموع بعد تشاور وتحالف ، وهكذا كان رسول الله مرهوب الجانب عظيم القدر معجزة فى كل شيء .

وتطلع أشقى العصابة من ثقب الباب ليرصده ويكشف أمره ، وأمر الرسول علياً أن يرقد فى فراشه ، ويتشح بردائه الحضرمى ، وهم بالخروج على القوم الذين انطعمت أبصارهم كأنطعمات بصائرهم حينما طلعت عليهم شمس الوجود ، ونور الحق وخرج محمد وهو يحثو التراب على رؤوسهم يقرأ قرآنه : « وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون » .

وبقى القوم يترقبون النبي مطمئنين بأنهم سيفصلون فى قضيتهم فصلاً يؤمنهم على ماضيهم ويبقى على آلتهم وضلالهم .

وكم كانت دهشتهم عند ما نفض على من فراشه وعلبوا أنهم أقاموا الليلة حراساً لعل لا متربصين بمحمد ، وفستت المؤامرة وسقط التدبير ، وعلبوا أن الزمام

قد أفلت من أيديهم ، وأنه لا أمل لهم بعد إلا إذا أدركوه فحبسوه أو قتلوه .
 وإذا ١١٩ لا بد من عيون تشر ، وقصاص يتعقبون الأثر ، وجعل يذل بسحاء
 لمن يرشد إليه ويدل عليه ، وحمى الله رسوله ، ونصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم قریشاً
 وحده ، وأدل المشركين وأخزاهم بخروجه من بينهم وهم لا يشعرون .

وهنا أقف وقفة قصيرة أمام رجلين آخى الله بينهما في الأرض كما آخى بين
 ملائكته في السماء : محمد وعلى علياً بمؤامرة قريش وما يتنوه من شر بأعلام الله
 ، وإذ يمكر بك الدين كفروا ليبتلوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله
 والله خير الماكرين .

ثم هذا على بصحب محمدأ ويلزمه إلى بيته وهو يعلم أن الغدر محقق وأن محمدأ
 مرعى السهام ، وهدف السيوف ، ثم يأتي على إلا أن يقدم نفسه فداء لآخيه ، وهذا
 وفاء تقتضيه الأخوة ، ويفعله المخلصون ، ولكن محمدأ صلوات الله عليه يأمره أن
 يرقد في مكانه وهو الهدف للرايين ، ثم يُلطف ويخرج ليبدأ رحلته إلى دار نصرته
 وعزته ، فيا ترى ماذا دار بخلد الرسول في ذلك الوقت بالنسبة لآخيه ؟ لقد قال
 لعلي قبل : لا يخلص إليك شيء تكرهه منهم ، والحق أن محمدأ كان مؤمناً بنصر
 حقه ، وأن سهام المبتلين لا تصل إلى صميمه ولما تحمله قدماء ، وعلى رضى الله
 عنه جُئته الحق . ونحيف الباطل ، ومذل الشرك ، ومواقفه في الله لا زالت تقظره
 والله لا يخزي النبي ولا يخذه ، فقد وعده نصره وتأييده ، ثم إن رسول الله صلى
 الله عليه وسلم يعلم أنه المقصود المتبوع دون علي ، وأن القوم يريدون قتله على
 مشهد من بنى هاشم ، لتعلم أن قبائل قريش جميعها قد اشتركت في دمه ، إذن لن
 يقتلوه غيلة ، لأن ذلك مفوت لقصد مبعدهم عن غرضهم ، فلا بد من انتظار
 يقطعه ، وعند ذلك يتبينوه ، ومتى تبينوه عرفوه ، ومتى عرفوه تركوه .

وما أشبه طاعة علي والسيوف مصلته ، بطاعة اسماعيل والمدية معدة ، ففي
 كل وفاء وابتلاء ، وفي على تضحية وفداء ؛ ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم

إلى بيت أبي بكر ، فخرجا من داره بعد أن جهزا أخف الجهاز ، قالت عائشة رضي الله عنها : « وجهرناهما أحت الجهاز ووضعنا لهما سفرة في جراب فقطعت أسماء بذت أبي قطعة من نطاقي فأوكت به الجراب وقطعت الأخرى قصيرتها عصاما فقم الترية . » ولقيت لذلك بذات النطافين ، وكأنا قد استأجرا عبد الله بن أريقط الليثي هاديا للطريق ومرشدا في السفر ، وهو على دين قومه وأماه على ذلك وسلما إليه راحتهما وواعداه غار ثور بعد ثلاث .

واتجه الرسول إلى غار ثور ومعه أبو بكر ، فجعل يمشي ساعة بين يديه وساعة خلفه حتى فطن له الرسول فسأله ، فقال يا رسول الله أذكر الطلب فأمشي خلفك ثم أذكر الرصد فأمشي بين يديك ، فقال : يا أبا بكر ، لو شيء أحببت أن يكون بك دوني ، قال نعم . والذى بعثك بالحق ، فلما انتهيا إلى الغار قال أبو بكر لرسول الله مكانك حتى استبرئ لك ، ويستبرئ ويرجع فيذكر أنه لم يستبرئ الحجر فيسرع لاستبرائهما ، ثم يدعو رسول الله للدخول فدخلا ، وجدت قريش في طلبه ومعهما القافة ووقفوا على الغار حتى قال أبو بكر لو أن أحدهم نظر إلى ما تحت قدميه لأبصرنا ، فقال الرسول : ما ظنك باثنين الله ثالثهما لا تحزن إن الله معنا .

ويجتمع القوم ويتفرقون ويتناقشون ويتجادلون ، ومحمد وصاحبه يسمعان حديثهم ، ويدركان نعمة الله عليهما في أن عم أمرهما على المشركين وصرف عن صفيه وصفي صفيه كيد الخائنين ، وكان عامر بن فهير يرعى عليهما غنما لأبي بكر ويستمتع ما يدور بمكة بشأنيهما ، ثم يأتيهما بالخبر ، فإذا كان السحر سرح مع الناس ، ومكثا في الغار ثلاث ليال حتى نحدث نار الطلب ، وجاءهما ابن أريقط على ميعاده فارتحلا ، وأردف أبو بكر عامر بن فهير ، وسار الدليل أمامهما ، وعين الله تكلماهما وتأيدته يصحبهما وأسعاده يرحلهما ويسعدهما ؟

(يتبع)

دَعَائِمُ الدَّعْوَةِ إِلَى الْحَقِّ

تفضيلة الأستاذ الشيخ مامد عوني

المدرس في كلية اللغة العربية

لا يزال الناس بخير ما استمعوا بالمعروف وتناهوا عن المنكر : ذلك أن الأمر بالمعروف والنسأء بالحق هما قطب الرحى للسعادة البشرية ، بل هما التخاصع الشوك الحياة الأمم ، ورائد الفلاح لكل شعب ، وإن المنكر دام وييل في البشر ، وسد منبع دون السعادة ، ما باض طائرته في أمة إلا أفرخ شرا ، ولا امتدت جنوده في أرض إلا تفرعت بلاء وضرا .

وقديما علنا أن الهداة الى الخير في كل أمة هم قلبها النابض ، وروحها الخافق ما أقيم عليهما حارس من العظة والاعتبار ، حتى إذا ما أخذتهم سنة ، أو قعد بهم العجز عن أداء ما حلوا من أمانة لم تلبث الأمة أن تصاب بسكته القلب ، وتفقد عنصر الحياة ، وبذلك نستطيع أن ندرك ما لأولئك الهداة من خطورة الموقف ، وفداحة العبء ، وما لهديم - إن صدق - من عظيم الاثر في حياة الأمم والافراد . وأخلق بالهداية أن تنفذ الى حبات القلوب فقاذ السهم في الرمية ، وأن تقع من النفوس موقع الرحيق الحلال من ذى الغلة الصاى ، لو أنها وليدة أبى عذرهما ، وناسج بردها ، فاكل فرس جواد ، ولا كل عارض ماطر .

وهل يفتب الخطى إلا وشيجه وتفرس إلا في منابها التحل ؟

وخليق بمن يؤمل لغراس هديه أطيب الثمر ، أن يكون هاديا بزيه وهندامه قبل أن يكون هاديا بجواهر لفظه وسحر بيانه ، ولست أريد أن يكون رث الهيئة زرى الطلعة يرتدى الاسمال البالية ، فتصدف عنه القلوب جموحا من حيث يريد اقتيادها ، بل أن يتخذ طريقا قصدا ، فلا هو خلع البزة يعثر في فضل رياشه ، ولا هو يذ الهيئة يتعثر في أسماله . . . كلا طرفي قصد الامور ذميم .

ولا يعزب عن أذهانتنا أن الداعي إلى الحق يعرض أن يصطلم بقلوب غلف وآذان موقورة، فإن لم يكن ذا لسان مشحوذ الغرار تثلث مضاربه دون نفاذ، فما أشد حاجته إذاً بمقول سبحان وبديهة عمرو ليكتسح ما عسى أن يستهدف له من حوائل، قرب لسان أقطع من حسام، وكلية أنفذ من سهام.

ولن يكون المرء في هديه كاملاً حتى يكون بمختلف العلوم حافلاً، وبخاصة ذلك التنزيل المحكم، وسنة من خصص بجوامع السلم، وروائع الحكم، فهما لعمري البحر الخضم منه الصدر وإليه الورود، وحتى يكون له سهم معرفة في كل ماله مساس بالخلق والدين من مستحدثات الحضارة، وولاتد الترف، فيكون أقدر على ضرب الأمثال، وأعرف بإيراد الشواهد، فيقع المعنى من النفس موقعه من لمس يده وأبصر بعينه، وإلا فإذا تجددى من اللسان ذرابته، ومن الذهن تفتقه إذا تفه الغذاء وقلت البضاعة ؟

وإن يك أساءة الأجسام قد تعوزهم المديرة والفراحة أن يأسوا فرحة هي برأى العين وفي تناول اللبس، فما ظنك بأساءة قوم هم بصدد أن يحتشوا أصول أدواء قد امتزجت بنفوس سقيمة، فاستحالت فيها إلى سلاقي، وتحولت إلى طباع، أنهم لعمري أشد ما يكون حاجة إلى حذق ومهارة يتلاءمان مع خطورة الداء، وتعهده بتناجع الدواء ولكن أنى لآسى النفوس أن يضع الهناء مواضع النقب إذا لم يك دارساً عناصر الداء، مطلعاً على خبيثة أمره، ومداخل طبعه، وهل يعرف بواطن الأدواء غير أساءة الحي، ويحسن نزع السهام غير براة القسي ؟؟ أجل :

لا يعرف الشوق إلا من يكابده ولا الصبابة إلا من يعانها
لهذا كان واجباً أن يكون ناصح القوم من سلالة البيئة التي نشأ منها وبعث فيها، هنالك يقوى على اجتثاث جرائم الفساد من مغارسها، وعلى نزع بذور الشر من منابتها، ومن هنا تتجلى حكمته جل شأنه في جعل رسالته إلى الأمم على لسان رسل منهم، ذلك أن وسائل الهداية، ومناهج الرشاد أبقي ما تكون أثر في نفسك إذا جاءتك عن طريق إنسك وابن إنسك، فإن النفس بابن ييشها آس، وإلى نشء قبلتها أميل، وهذا هو سر توفيق الرسل عليهم السلام في مهمتهم على خطورتها، ونهوضهم بالعبء على فداحته، وهالك ترحمة زياد ابن أبيه، تنبأ كيف كانت البصرة

جرة مشتعلة وجفوة متقدة ، تعاقب عليها دهاة الولاة فكانت تهدأ لما نازرة
إلا ريثما تعجم عود واليها . ثم لا تلبث أن تنوهج نارها ، وتندلع لهيبها رغم ما كان
عليه الولاة من دهاء ، ذلك أنهم لم يهتدوا إلى بيت الداء ، ومضوا يعالجون عن
غير خبرة :

وإن الجرح ينفر بعد حين إذا كان البناء على فساد
حتى قدمها داهية دهاة العرب ، وباقعة بواقمهم ، زياد ابن أبيه فسل أحقادها ،
وداوى أدواءها ، وألان قناة طفاتها ، وقع نوازي أهوائهم حتى هدأت نازرتها ،
واستقامت الجماعات على لاحب السنن .

فهل تدري رعاك الله ما السر في توفيق زياد إلى ما لم يوفق إليه غيره ؟ إنه
كان من قطان البصرة منذ الحداثة ، ومن السابقين الأولين إلى استيطانها ، فكان
أهدى سبيلا إلى مواطن الداء ، وأصدق خبرة بناجع الدواء .

وإذا علنا أن لسلطان الهوى هيمنة على النفوس من قديم ، وأنها بطبعها
أسلس ما تكون قيادا لجناة الغواية وغوائها ، وأشد ما تكون نفورا من دعاة
الفضيلة وحماها ، كان لابد لكبح جماحها من خرط الفتاد ، أو ازدراد الحسك ،
وليس للداعي إلى الحق حصن ترددونه سهام غضب الطبيعة البشرية غير درعى
الصبر والحلم ، فهما لعمري القوة الكاشحة ، والحسام الناصم ، بهما تدرع الرسل عليهم
السلام ، فكسحوا جيوش الجهالة ، وقصموا ظهور الصعاب ، حتى أشرفوا على الغاية
وبخاصة نبي هذه الأمة ، لقد ذاق في بث دعوته الأمرين ، واحتسى في نشرها عصير
الغضا ، وما كان يزيد غت القوم وعنادهم إلا صبرا وحلما ، كعمود زاده الإحراق
طلياً ، وما ظنك بمن كان يتعقبه قساة القلوب ، وجفافة الطباع من مشركى العرب
بأنواع الأذى ، ويتعاورونه بضروب العذاب ، غير وائين ولا متهاونين فما كان يزيد
على أن يدعو لهم بالهداية والتوفيق قائلا : اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون ، ،
ولم ينش كل ذلك قيد أنملة عن المضاء في عزمه حتى تم له الأمر ، وأوس الرشد من
الملة ، وهكذا من سار على الدرب وصل .

أخلق بذى الصبر أن يحظى بحاجته ومدمن القرع للأبواب أن يلجا
وخلق بمن نصب نفسه لهداية الناس أن يكون سهل الخليفة لبس العريكة رحب

الصدر ، لا تستفزه دعونة الجاهل ، ولا تستخمه عوراء البذيء ، يأخذ الناس باللين ، ويجادلهم بالحسنى ، فذلك أعون على إحقاق الحق ، والبلوغ به إلى أعماق النفوس ، وما عهدنا في عالم الجدل أن العنف طريق من طرق المحاجة ، ولا وسيلة من وسائل الإقناع ، كيف ولن أراك تستطيع كبح جماح دابتك حتى تحرك لها حوارها ، ولا أن تسلس قيادها حتى تنزع لها قرارها ، وعلى هذه السنة جرى النبي صلى الله عليه وسلم في نشر دعوته ، فكان يتحرج جهده أن تأخذه سورة الغضب في محاجه خصومه ، فيتشعب الصدع من حيث يريد رأيه ، حتى في أخرج المواقف يوم زعموه ضالاً لم يأذن للغضب أن يفك له حبة ، ولا أن تمس له أناة ، وأبى عليه حبله إلا أن يخاطبهم بقوله : « ولأنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين » ، لم يشأ عليه السلام أن يعرفهم إلى الضلال فيثير حفاظهم ، وهو أحرص ما يكون على استئانهم وتأليفهم سيما وأن الإسلام كان في نشأته الأولى أحوج ما يكون إلى تكثير سواده ، وبهذه الملاينة وأخذ الأمور بالرفق استطاع هذا النبي الكريم أن يثد الخصومة في مهدها ، وأن يقيمهم على السنن القويم ، ويسلك بهم جادة الطريق ، ولو كان فظاً غليظ القلب لانفضوا من حوله .

ومكدا ينال باللين والرفق ما لا ينال بالعنف والقسر ، فما كان زياد ليقمع فتنة البصرة ، ويضبط أمر العراق بحد السيف ، وقوة الكتائب ولكن بأن قتل لها ما بين الذروة والغارب ، وعلى هذا المنوال نسج معاوية رضى الله عنه ، فعد أحد دهاة العرب . وهاك سياسته : إني لا أضع سيفي حيث يكفيني سوطي ، ولا أضع سوطي حيث يكفيني لساني ، ولو أن بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت .

وها هي ذى الدولة البريطانية على جبروتها ، جل اعتمادها في بسط نفوذها على قوة اللين والهوادة ، ولهذا سعى ساستها دهاة العالم ، فأحر باللين من حسام هو في طراوته أمضى شاباً من تلك الصمصامة في يد الزبيدي ، أو القوس في كف باربرها .

وما كان غراس الدعوة إلى الله ليثمر في تربة كائنه ما كانت ، حتى يكون في البذر خاصية الإثمار ، فعلى مسدى النصيحة أن يبدأ بنفسه ، فيقوم من أودها ، ويصل ما صدأ من خلاها . هناك يثمر غرسه ، ويعيد درسه وإلا فن العيب أن تنفج

لغيرك حبل الصبح وأنت عارى السوء ، وتنظم له قلائد الوعظ وأنت عاطل الجيد
ومن البلية أن .

تصف الدواء لذى السقام وذى الضنى كسيما يصح به وأنت سقيم
فابدأ بنفسك فانها عن غيها فإذا انتهت عنه فأنت حكيم
لأنه عن خلق وتأتى مثله عار عليك إذا فعلت عظيم

فلتطبع الاسماع بطوايع وعظك ما شئت ، ولتقرع الاسماع بجواهر لفظك
ما أردت ، ولتأت بالمعجزات من لفظك المختار ، وأساليبك المصطفاة ، فلن تجد
إلا وقرأ في الآذان ، وإلا قلوباً في أكنة مما تدعو اليه ، ومن بينها وبينك حجاب
ما لم تكن بفعالك أو عظم منك بمقالك .

أرايتك لو انتظمتك حفل من الناس قام يخطبهم واعظ ثغلبك سحر بيانه .
وأتملك خيرة إحسانه ، ثم تتبعته فإذا هو عبد شهوته ، يسخره أبو مرة أنى شاء ،
وحيثما أراد ، ثم رأيت وقد عاد يصوغ الفرائد وعظاً ، وينظم القلائد نصحاً .
أكنت تعير للفظه أذناً ، وتقيم لموعظته وزناً ؟ لأنهم لشر أداة شر على المجتمع ، أولئك
الذين يدعون إلى مكارم الأخلاق ولا خلاق لهم ، ويأمرون الناس بالمعروف
وينسون أنفسهم ، وقانا الله شر ذلك السم في الدسم ، والطلاء على الورم .

وأحر بالداعي إلى الله ألا يكون هدفاً لسهام الأغراض . تكأمة لعوامل
الاهواء ، فما دخل الغرض أمراً إلا أفسده ، ولا عبث الهوى بشيء إلا أقدمه ،
وليكن له من العفاف ما يصون له عرض كرامته ، ويحفظ عليه حرمة نصحه وإرشاده
فما انتك لكرامة عرض تولى العفاف حراسته ، وما هتك لنصيحة ستر تذود عنه
الكرامة ، ورحم الله امرأ عرف قدر نفسه فجذبها مصارع الفضول ، ونأى بها
عن مظان الصغار .

وعلى الجملة إن من أرقى لساناً قادراً ، وبيانا ساحراً ، وذليلاً تقياً ، وقلباً تقياً
لا يخاف في الحق لومة لائم . ولا يخشى في الله صولة ظالم ، لا تميله الرغبة عن الجادة
ولا تقصيه الرهبة عن سنن الحق ، وكان حليف حزم وعزم ، خدين حلم وعلم ، فقد وفق
أن يكون من الهداة المصلحين .

أبو العيناء والضريز

لفظيرة الأستاذ الشيخ محمود النواوي

المعش بالآزهر

وأبو العيناء هو ذلك الأديب الممنوع الذي قدمت للقارىء الكريم صورة عن نشأته وبعض أخباره . والآن أسوق طرفاً من أخباره آخر فيه أدب وفيه فكاهة ، ثم أعرض لصورة من ملحه وأجوبته ومهانته ، وصورة أخرى عن بلاغته وما كان له من يد طولى فى كل من التث والتظم .

وأبدأ بذكر قصة خروجه من البصرة ، وهى قصة تستضحكك وتحملك على روايتها والتحدث بها . حدث جماعة من المؤرخين عن أبى العيناء ، وحدث عن نفسه وسبب خروجه من البصرة بما ملخصه أن أبى العيناء مر بسوق النخاسين (بائعى العيد) يوماً ، فرأى غلاماً ينادى عليه بثلاثين ديناراً ، وهو يسأوى ثلثائة ، فاشتراه وكان يبنى داراً فدفع إليه عشرين ديناراً ليوزعها على الصناع فوزع عشرة منها واشترى بالباقي ثوباً ، فجرى بينهما ذلك الحديث :

أبو العيناء — من أمرك بهذا ؟

السلام — يا مولاي لا تعجل فان أهل المرومات والافدار لا يعيرون على غلمانهم إذا فعلوا فعلاً يعود بالدين على موالهم .

قال أبو العيناء فقلت فى نفسى قد اشتريت الأصمى ، ولم أعلم قال وكانت فى نفسى امرأة أردت أن أتزوجها سرّاً من ابنة عمى فقلت له يوماً : أفليك خير ؟

فقال إى لعمري ، فأطلعت على الخبر ، فقال أنا نعم العون لك فتزوجت المرأة ودفعت إليه ديناراً ليشتري أشياء فيها سمك هازبى ^(١) فاشترى سمكاً (مارماهى) فقلت أليس قد أمرتك بشراء الهازبى ؟ قال : بلى ولكنى رأيت بقراط يقول إن الهازبى يولد الصفراء والمارماهى أقل غائلة . فقلت له : يا ابن الفاعلة . أنا لم أعلم أنى

[١] نوع من السمك والمارماهى نوع آخر .

اشترت جالينوس ، وضربته عشر مقارع ، فلما فرغت أخذني وضربني سبع مقارع وقال : يا مولاي . الأدب ثلاث والسبع فصل وذلك قصاص فضربتك هذه السبع خوفاً عليك من القصاص يوم القيامة . فغاضني جداً فرميتة فشججته ففضي من وقته إلى ابنة عمي وقال لها : يا مولائي . الدين النصيحة ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم من غشنا فليس منا ، وأنا أعلمك يا مولائي أن مولاي قد تزوج واستكنمتني ، فلما قلت له لا بد من تعريف مولائي ضربني بالمقارع وشجني . ففتعني من دخول الدار والارتفاع شيء مما فيها ووقعنا في تحليط ، حتى طلقت امرأتى الثانية وصلاح أمرى مع ابنة عمي وسمعت الغلام الناصح . فلم يكن يتبأ إلى أن أكله ، فقلت أعفقه واستريح فلعله أن يمضي من عندي إلى النار . فلما أعفقه لزمني ، وقال الآن وجب حقلك على . ثم أراد الحج فجهزته وزودته فغاب عني عشرين يوماً ورجع فقلت : لم رجعت قال : قطع الطريق وفكرت فإذا الله يقول (والله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً) فكنت غير مستطيع وفكرت فإذا حقلك أوجب فرجعت . ثم أراد الغزو فجهزته أيضاً لذلك وشخص ، فلما غاب عني بعث كل ما أملكه بالبصرة من عتار وغيره وخرجت منها خوفاً أن يرجع . حكاية طريفة تصور لك ما كان من أمر غلام يساوي ثلثائة فباعه أصحابه بثلاثين لأنه محتل التفكير ، كثير الخلاف على غزارة مادته وقوة حجته ، ولطف مأخذه ، وتصور لك ما يكون من أمر المرأة في مختلف الأزمان وتحكمها في أمر الرجال وسيطرتها إلى ذلك الحد الذي جعلها تخرج الرجل من بيتها فلا يملك إلا أن ينزل على طاعتها ، وتصور لك ضعف أبي العيناء أمام قوة ذلك الغلام الذي أخرجه من مستقره بعد أن أعبته الحيل في أمره .

وانتقل أبو العيناء إلى بغداد ، فأخذ ينمي معارفه ويوسع مجال ثقافته . ويجمع الناس من حوله فيحدثهم بما فتح الله عليه من رواية بعيدة المدى وأدب جم وفير وكان ذلك بعد بلوغه سن الأربعين ، وقد تم نضجه وبلغ أشده واستوى ، ويظهر أنه مكث بها مدة لا تقل عن مدته بالبصرة ، وخرج منها في آخر حياته ليؤت بالبصرة ، وقد ذكر أنه كان في سفينة تحمل ثمانين نفساً وأنها غرقت فأسلم غيره على عمي بصره وقلة حيلته ، فلما صار إلى البصرة مات . فسبحان مصرف الكائنات .

ولعل القارئ الكريم في شوق أن يرى بعض ما اشتهر به ذلك الرجل

من ملح ونوادر وأجوبة مسكتة ، وفي كتب الأدب من ذلك الشيء الكثير بعضه في معجم الأدباء وبعضه في زهر الآداب وبعضه في تاريخ بغداد وفي تاريخ ابن خلكان وغيرها .

وفي بعض ذلك الطريف المقبول وفي بعضه الماجن وفي بعضه الفاحش المسوخ وسأحاول أن أصور للقارىء وضع هذا الرجل بما لا أخرج به عن حد الكمال . وتستطيع أن تردهذا المعنى إلى جهات ثلاث : محادثاته مع المتوكل الخليفة ، الذى كان يحبه ويؤثره ، ومحادثاته مع الولاة والوزراء ، ومحادثاته مع غيرهم من الدهماء أو من أصحابه .

فأما محاوراته مع المتوكل فتذكر منها ما يأتى :

قال له المتوكل يوماً هل رأيت طالبياً (من آل على) حسن الوجه قط فقال متخلصاً من الورطة يا أمير المؤمنين . رأيت أحداً قط سألت ضريراً عن هذا .

المتوكل — لم تكن ضريراً فيما تقدم وإنما سألتك فيما سلف .

أبو العيناء — نعم رأيت منهم ببغداد منذ ثلاثين سنة ففى ما رأيت أجمل منه .

المتوكل — تجده كان مؤجراً وتجدك كنت قواداً عليه .

أبو العيناء — وفرغت لهذا يا أمير المؤمنين أترانى أدع موالى على كثرتهم وأقوم على الغرباء .

المتوكل — أسكت يا مابون — أبو العيناء — مولى القوم منهم .

قال المتوكل : أردت أن أشتقى منهم به فاشتقى لهم منى .

وهذه محادثة تدل على مبلغ استهتار المتوكل وتنزله ، وعلى غلوه فى التعامل على العترة السكرية .

وقال له المتوكل يوماً : إن سعيد بن عبد الملك يضحك منك . فقال على البديهة : إن الذين أجروا كانوا من الذين آمنوا يضحكون ، .

وقال له فى حديث جرى : إن إبراهيم بن نوح النصرانى واجد عليك فقال : « ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم » . وقال له إن جماعة من الكتاب يلومونك فقال :

إذا رضيت عنى كرام عشيرتى فلا زال غضباناً على لثامها

وقال له أكان أبوك في البلاغة مثلك فقال : لو رأى أمير المؤمنين أبي لرأى عبداً له لا يرضاني عبداً له .

وكان في عهده رجل اسمه نجاح بن سلة ، وشرب نجاح هذا مع موسى بن عبد الملك فاعتاله موسى .

فلما اجتمع أبو العيناء بالمتوكل قال له المتوكل ما تتول في نجاح بن سلة ، قال ما قال الله تعالى : « فوكره موسى فتمضى عليه » . فعاتب بعض الوزراء أبا العيناء على ذلك الإغراء .

فقال له أبو العيناء والله ما استعذبت الواقعة فيه حتى ذمت سريره لك فأمسك عنه خوف لسانه .

قال له المتوكل من أسمى من رأيت ؟ قال ابن أبي دؤاد فقال المتوكل : تأتي إلى رجل رفضته فنسبه إلى الكرم ، فانظر كيف تدارك الموقف على نفسه . وكيف دافع عن قوله قال : يا أمير المؤمنين إن الصدق لا يكون في موضع من المواضع أصدق منه في مجلسك . وإن الناس يغلطون فيمن ينسبونه إلى الجود ، لأن سخاء البرامكة منسوب إلى الرشيد . وسخاء الفضل والحسن ابني سهل منسوب إلى للأأمون وجود ابن أبي دؤاد منسوب إلى المعتصم فإذا نسب الناس الفتح وعبيد الله إلى السخاء فذلك سخاؤك . قال صدقت في أيحل من رأيت . قال موسى بن عبد الملك قال : وما رأيت من بخله قال : رأيت يخدم القريب كما يخدم البعيد . ويعتذر من الإحسان كما يعتذر من الإساءة I قال قد وقعت فيه عندى مرتين ، قاله واعتذر إليه من غير أن يعلم أنى وجهتك . فصار إلى موسى واعتذر كل منهما إلى صاحبه ثم لقيه موسى فقال قد اصطلحنا فما لك لا تأتينا ، قال : أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس ، (يريد نجاحاً السابق) فقال موسى ما أرانا إلا كما كنا .

ولما قيل له إن المتوكل قال لولا أنه ضرير لنادمناه . قال إن أعفاني من رؤية الأهله وقرامة نقش الفصوص فأنا أصلح للمنادمة .

وأما أحاديثه وأجوبته مع الوزراء والكبراء فكثيرة ، نذكر منها أيضاً ما لم يشتهد حروجه . قال له عبيد الله بن سليمان الوزير في مرة : أعذرتني فأني مشغول . فقال : إذا فرغت من شغلك لم نحتاج إليك . وأشداه :

فلا تعسدر بالشغل عنا فإنما تناط بك الآمال ما اتصل الشغل

ثم قال : يا سيدي قد عذرتك فإنه لا يصلح لشكرك من لا يصلح لعذرك .
 ودخل عليه يوماً فشكا إليه حاله . فقال : أليس قد كتبنا لك إلى إبراهيم بن
 المدبر . قال : كتبت إلى رجل قصر من همه طول الفقر ، وذل الأسر ، ومعاناة
 محن الدهر . قال : أنت أخذته . قال : وما عليّ أعز الله الوزير في ذلك قد اختار
 موسى قومه سبعين رجلاً لما كان منهم رشيد واختار النبي صلى الله عليه وسلم
 ابن أبي سرح كاتباً فرجع إلى المشركين مرتداً . واختار علي بن أبي طالب أبا موسى
 حاكماً لحكم عليه .

ولما استوزر صاعد عتب لإسلامه صار إليه أبو العيناء فقيل له يصلي فعاد
 فقيل يصلي فقال معذور لكل جديد لذة .

ووعده ابن المدبر ببخلة ، ثم لقيه في الطريق وقال له كيف أصبحت ؟ قال :
 أصبحت بلا بعة ، فضحك وبعث بها إليه . وسئل يوماً عن مالك بن طوق فقال :
 لو كان في زمن بني إسرائيل ونزل ذبح البقرة ما دبح غيره ، قيل فأخوه عمر فقال :
 كسر اب ببيعة يحسه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً - ومن ملحه مع سائر
 الناس أن رجلاً زح به بالجسر على حماره فضرب يده على أذن الحمار وقال يا هذا
 قل للحمار الذي فوقك يقول : الطريق .

ومر يوماً على دار عدو له فقال : ما حال أبي محمد ، قيل على ما تحب قال :
 فما لي لا أسمع الرنة والصياح . وقيل له : إلى متى تهجو الناس وتمدحهم فقال ما دام
 المحسن يحسن والمسيء يسيء وأعوذ بالله أن أكون كالعقرب تلعب بالنبي والاممي .
 وقالت له قينة ، هب لي خاتمك وأذكرك به فقال أذكرى أنك طلبته مني ومنعتك
 وكان له صاحب ياتب بابن مكرم وله معه مهارات كثيرة يحسن بالقاريء أن يرجع
 إليها في كتب الأدب فقد كدت أخرج إلى حد الإملال على أن فيها ما لا يليق .

وأما بلاغته فتجلى لك في بعض ما مر بك من محادثاته وله كتب طريفة
 أدبية تزيدك إيماناً بجميع فضله في هاته الناحية ، قال صاحبه محمد بن مكرم الكاتب :
 من زعم أن عبد الحميد أكتب من أبي العيناء إذا أحس بكرم أو شرع في طمع
 فقد ظلم . كتب إلى عبد الله بن سليمان يطلب غلاماً اسمه كافور . قد علمت
 أصلحك الله أن الكريم المنكوب أجرى على الأحرار من اللثيم الموفور ، لأن

التي يزيد مع النعمة لزوماً ، والكريم لا يزيد مع المحنة إلا كرمًا . هذا متكل على رازقه ، وهذا يسيء الظن بخالقه ، وعبدك إلى ملك كافر فقير ، وثمنه على ما اتصل بي يسير ، لأنه بخدمته السلطان يعرفني الرؤساء والإخوان فإن سمحت به فتلك عادتك ، وإن أمرت بأخذ ثمنه فما لك مادي أدام الله دولتك ، واستقبل بالنعمة نكتتك . فأمر له به .

وجدير لعمري بمثل هذا الأسلوب أن يعطف النفوس الكريمة . وبين يدي الآن عدة من رسائله أحصا وأمتعها ، وأعذبها وأظرفها . وأدلهما على ما كان فيه من عبث ورقة ما كتب به إلى صديق له ولي ولاية يقول فيه : أما بعد . فإني لا أعطك موعظة الله ، لأنك عنها غني . ولا أخوفك إياه لأنك أعلم به مني ولكني أقول كما قال الأول :

أحار بن عمرو قد وليت ولاية فكن حذرا فيها تحوون وتسرق
وكأثر تمجيا بالغنى إن بالغنى لسانا به المرء الهيوبة ينطق

واعلم أن الحياة فطنة والأمانة حرقة ، والجمع كيس . والمنع صرامة ، وليس كل يوم ولاية . فاذكر أيام العطلة ، ولا تحقرن صغيراً . فإن من الدور إلى الدور وأيام الولاية رقدته ، فتنه قبل أن تنبه ، وأخو السلطان أعى . عن قليل سوف يبصر ، وما هذه الوصية التي وصى بها يعقوب بنده ، ولكن رأيت الحزم في أخذ العاجل وترك الآجل .

وأما شعره فقد ذكر صاحب زهر الآداب (ج ١٨ ص ٣٠٢) فأبعدها طائفة صالحة دلت على أدب جم وذوق لطيف في أسلوب مكثز ليس فيه فصل عن معناه ، متماسك قوى ولا سبيل إلى الاستيعاب ، فقد صاق المجال . ولكني أتعجل للتقاريء الكريم بعض ما اختار منه . قال يهجو أسد به جوهر .

تفس الزمان فقد أتى المعجب وعارسوم العضل والآداب
وإني بكتاب لو انطلقت يدي فيهم رددتهم إلى الكتاب
جيل من الانعام إلا أنهم من بينها حظوا بلا أذئاب
إلى أن قال :

نكتك أمك هبك من بقر الفلا ما كنت تلفظ مرة بصواب

بَابُ الْأَسْئَلَةِ وَالْفَتَاوَى

حكم الله في المسلم يقاثل المسلم

محاضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ حسين محمد مخلوف

مفتي الديار المصرية سابقاً ومفتي جامعة كبار العلماء

تضامر الكتاب والسنة وإجماع الأمة على حرمة دماء المسلمين . وقد خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع فقال : إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم وأبشاركم (جمع بشرة ؛ وهي ظاهر جلد الإنسان) عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا . ألا هل بلغت ؟ .

وروى البخاري في صحيحه عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من حمل علينا السلاح فليس منا ، وفي رواية مسلم : من سل علينا السلاح فليس منا . وفي رواية أحمد : من رما بالنبل فليس منا . والمقصود من ذلك أن من حمل من المسلمين سلاحاً أو نبلاً أو أى أداة للقتال يريد به قتال أخيه المسلم بغير حق مشروع فليس من الإسلام ولا من أهله في شيء . ففيه دلالة - كما قال الحافظ ابن حجر في الفتح وغيره - على تحريم قتال المسلمين والتشديد فيه ، لأن من حق المسلم على المسلم أن ينصره ويقاثل دونه لا أن يرعبه بحمل السلاح عليه لإرادة قتاله ، فصلاً عن قتله . وهذه الحرمة وهذا الإثم العظيم والوعيد الشديد فيمن لا يستحل ذلك . فأما من يستحله مكابراً للشارع فإنه يكفر باستحلال الحرام وفي البخاري من رواية أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : لا يُبشر أحدكم على أخيه بالسلاح ، فإنه لا يدرى لعل الشيطان ينزغ في يده (يغريه حتى يحمله على قتل أخيه) فيقع في حفرة من النار ، فقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن مجرد الإشارة بالسلاح إلى الأخ المسلم خشية أن يصله الشيطان فيصيب أخاه فيقع في النار وفي رواية عنه : اللاتكة تلعن أحدكم إذا أشار إلى الآخر بحديدة .

وقال أبو بكر بن العربي : إذا استحق الذي يشير بالحديدة هذا اللعن

فكيف بالنبي يصيب بها ؟ وإنما يستحق اللعن إذا كانت إشارته تهديداً ، سواء أ كان جاداً أم هازلاً .

° ° °

وعن عبد الله بن مسعود قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : سباب المسلم فسوق وقتاله كفر . ولا يخفى ما فيه من المبالغة في الزجر . والتحذير من الإقدام على قتال المسلم .

وفي حديث ابن عمر : لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض . فسمى الرسول من يفعل ذلك كافراً مبالغة في التحريم والتحذير .

° ° °

وأعظم من هذا إثماً وأشد تحريماً في دين الله وشرعة الإسلام من يقدم على قتال أخيه المسلم في صفوف أعداء الإسلام الذين يحاربون الشعوب الإسلامية لاستلاب حرياتهما ، والاستيلاء على أوطانها ، ويقتحمون بالحديد والنار منازل الأهلين الآمنين لاستعمار البلاد واستعباد العباد ، ويكيدون للإسلام وأهله بمختلف الوسائل الشريرة ، فإن موالاتهم ، وإسداء المعونة لهم في هذه الحروب - ولو مع غير المسلمين - بأية صورة من الصور ، فضلاً عن القتال في صفوفهم من أشد المخرمات وأكبر الكبائر ، وقد يكون كفراً بواحاً إذا اعتمد المسلم حله . وذلك لما فيه من القوة لهم ، ومن تمكينهم من أعناق المسلمين ، ورقاب الارضين ، وإذلال الموحدين ، والقضاء على دين رب العالمين .

° ° °

هؤلاء الأعداء ، حرب على الإسلام والمسلمين في كل زمان ومكان ، فتحرم موالاتهم والفتة بهم ، وتحرم إعانتهم ونصرتهم في السلم والحرب ، وخاصة إذا أرادوا المسلم على أن يقاتل أحاه المسلم ، أو يكيد له أو يضعف من شأنه ويخرب في دياره ، قال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق) وقال تعالى : (إن يتفقوكم يكونوا لكم أعداء ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء وودوا لو تكفروا) . وقال تعالى : (لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ،

ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء إلا أن تتقوا منهم تقاة ، ويحذركم الله نفسه وإلى الله المصير . قل إن تحموا ما في صدوركم أو تبدوه يعلمه الله ويعلم ما في السموات وما في الأرض والله على كل شيء قدير) .

أما غير المسلمين الذين ليسوا حرباً علينا فيجوز مخالفتهم وعقد المعاهدات معهم ما دام في ذلك خير لنا ، كما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم في صلح الحديبية ، فإذا انقلب حرباً بعد ذلك فلا عهد ولا مخالفة بل حرب ومناجزة .

واعلموا أن مع الصبر الظفر ، ومع الحذر السلامة ، وبالجهد في سبيل الله تنالون إحدى الحسنيين لا محالة .

وإن الذين يؤيدونكم وينصرونكم في جهادكم من القبائل هم المؤمنون حقاً ، الصادقون قولاً وفعلًا ، الذين صلحت قلوبهم وسلت ضمائرهم من قتة الخيانة وموالاته الأعداء والخائنين .

أما أولئك الذين آزروا العدو وأيدوه وشهروا السلاح في وجوه إخوانهم المسلمين فإن استحلوا ذلك كانوا مرتدين عن الإسلام ، خارجين عن حظيرته ، وأدنى حالهم الإثم العظيم ، والعذاب الشديد ، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

على المسلم أن يحمل السلاح للدفاع عن دينه وماله وعرضه ووطنه ، فإن مات دون ذلك فهو شهيد ، سواء أكان المعتدى عليه مسلحاً أم غير مسلم ، والله حسبنا ونعم الوكيل .

أعلام الأهر

السيد على أبو النصر المنفلوطي

المتوفى سنة (١٢٩٨ هـ - ١٨٨٠ م)

نقيب الأشراف الشيخ محمد كامل الفقي

المدرس بكلية اللغة العربية

ولد بمنفلوط من أعمال مديرية أسيوط ، وقدم إلى القاهرة صبياً ، ثم التحق بالأهر لطلب العلم فيه . وقد شب مغطوراً على حب الأدب ، والتزود من قنونه ، فبرع في قرض الشعر يافعاً ، ونظم الأزجال حدثاً ، ولم يلبث أن دأب صيته وتسامع الناس به ، وكان طيب المفاكة والمجالسة ، لطيف المسامرة والمؤامسة . حاضِر الذهن قوى الجدل ، لا يغلب في حوار ، ولا ينهزم في مناظرة ، وكانت له مطايات حافلة بالنسك الأدبية مع الحشمة ، والحذر عما تأباه النفوس الآلية ^(١) . فكانت له مكانة عند أولى الأمر وذوى الجاه ، يحلون قدره ، ويلبسون شفاعته ، اتصل بالبيت العلوي من عهد محمد علي باشا إلى توفيق ، ورحل إلى القسطنطينية ورحلتين أولاهما في عهد محمد علي باشا سنة ١٢٩٢ هـ حيث احتفل السلطان عبد الحميد بإعذار ^(٢) أنجاله ، وطلب من محمد علي باشا أن يوفد للحفل وفداً من العلماء والأمراء ، فكان الشاعر في طليعة الذين أوفدهم محمد علي باشا إلى القسطنطينية ، وقد مدح شيخ الإسلام بقصيدة استجادهما إذ قدما إليه ، وبكى متأثراً ببعض أبياتها ، ثم سأله هل قلت في القسطنطينية شيئاً فأجابه بأن له بيتين يستحي أن يرضهما (لكونهما من زيف الكلام) فقال تسمعهما إن شئت ، فقال :

وكنا نرى مصر السعيدة جنة ونحسبها دون البلاد هي العليا
فلما رأت دار الخلافة عيننا علنا يقيناً أنها هي الدنيا

[١] منقحة الديوان للرحوم أحمد باشا نخري

[٢] أضر الغلام حنته كقدره بمنه . ولقوم عمل طمام الفتاك .

فتبسم شيخ الإسلام وقال له : إن البيتين جيدان من جهة الأدب ، ولكنك في مدحك القسطنطينية فضلت مصر عليها ، لأنك جعلت مصر هي العليا ، والقسطنطينية هي الدنيا ، وفي علمك أن الدنيا تأنيث الأدون ، فيفيد النظم أن القسطنطينية دون مرتبة مصر ، فقال الشاعر بحياً : حب الوطن من الإيمان .

وأما رحلته الأخيرة إليها ، فكانت في عهد الخديوي إسماعيل سنة ١٢٨٩ هـ حيث استصحبه إليها في حلافة السلطان عبد العزيز ، وكان مقدمهما إلى القسطنطينية متفقاً مع الاحتفال بعيد الخلوص ، فأشأ الشاعر قصيدة بليغة مطلعها :

تبسمت الآمال عن لؤلؤ القطر ففاح شذاها في الحداثق كالعطر

وكان مصراع تاريخها (جلوسك عيد الدهر أم ليلة القدر) .

ومما اتم به أنه كان راجح العمل ، نافذ الرأي ، عالماً بالأحوال السياسية ، خبيراً بشئون الأمم ، محباً لتربية الأمة ، داعياً لتثقيفها ونهضتها .

وكان شعره شتياً غير مجموع . حتى قبض له المعروف لهما محمد باشا سلطان وحسين بك حسنى ناظر المطبعة الأميرية إذ ذاك ، فجمعاً أشنائه ، وضماً متفرقة ، وعهد إلى المرحوم محمد أفندى الحسينى رئيس مصحح المطبعة بجمعه في ديوان صدر بخطبة الأخير ، وبترجمة للشاعر بقلم المرحوم أحمد باشا خيرى ناظر المعارف العمومية في ذلك الحين .

هذا عدا ما كان له من الطرف والملح والموايل والأزجال وغير ذلك ، مما عبث به يد التفريط والإهمال .

شعره :

أقيس شعره بشعر عصره . فأراه شديداً به ، موافقاً له ، يتجه متجه . وينزع نزعته ، وهو يميل إلى الجناس لكن في غير استكراه ، ويطلبه لكن في غير تكلف شديد . ويورى غير أنه لا يلحف في رجاء التورية ، ولا يرتصد لطلبها ، وتدور الصنعة في شعره غير مفتون بها ، وإن تبيأت له بغير إفراط ولا إسراف ، أما التاريخ الشعرى . فهو مغرى به متهافت عليه ، ملتزم له في الجمهرة العظمى من شعره ، فن تجنيسه قوله :

في الخان قد جس معسول اللعى وترا فانفض لتسمع ألحان الصبا وترى

فقد أوقع الجناس بين (الحان) وهو محل بيع الخمر، و (الحان) الصبا جمع لحن، كما أوقعه بين الوتر الذي هو شرعة القوس ومعلمتها الواقع مفعولا، والفعل المضارع (تري) مقرونا بواو العطف، ويدو لك تكلفه الجناسين، إلا أنهما أقرب إلى القبول، ومن تجنبه أيضاً قوله :

أبداً تقلب فكرتي أيدي الأسي طوعاً لأمر الدهر أحسن أو أسا

فقد أوقع الجناس بين لفظ الأسي بمعنى الحزن، والفعل الماضي (أساء) مخدوف الهمزة ليم الجناس بحذفها، والجناس هنا مقصود للشاعر، إلا أنه لم يبلغ من الثقل مداه. ومن تجنبه أيضاً قوله :

كم ذا أحاول نصحا بالعظا وفي ظني وجود سميع بالعهود وفي

فالجناس بين حرف الجر (في) مقرونا بالواو ولفظ (وفي) الصفة المخدوف لإحدى يائيه، وهو أقل ثقلاً من صاحبه الماضي، ومن جناسه المقبول قوله :

رياض المجد أهدت نفح طيب فقلت مبهتا يا نفس طيبي

ويطلب أن يلتزم الجناس في مطالع قصائده، وهو في هذا الموضع أكثر طلباً له، واستشرافاً إليه.

ومن التورية التي يستعملها في شعره قوله :

على مضض صبرت وكم أداري	بتاريخ الغرام وأنت داري
يجاديني الهوى فأذوب وجدا	ويسليني التوى ثوب اصطباري
وعدالي دروا ما بي فلاموا	كأن هوى الاحبة باختياري
وإن سألوا عن اللامى ودمعى	أقول كلاهما لا شك جاري

فقد وري بقوله (جاري) عن اسم الفاعل من جرى بمعنى سال، والاسم الذي هو بمعنى مجاور مضافاً لياء المتكلم.

ويقول في رجل يدعى العلم يسمى (التخلي) :

بروض الفضل أخصان	خطت عن حلية الفضل
سألناها أجابتنا	دهتنا غلطة (التخلي)

فيحتمل أن يراد به الشجر ، أو اسم الرجل ، ومما يورى به قوله :

حروف دمعى وسائل والدمع جار وسائل

أى أن قطرات دمعها الشبيهة بالحروف وسائل ترضى الحبيب ، فقد جانس بين (وسائل) الأولى جمع وسيلة و (وسائل) الثانية التى هى اسم فاعل من سال بمعنى جرى مقرونا بالواو ، ثم فى وسائل الثانية تورية إذ يحتمل أن تكون اسم فاعل بمعنى جار أو اسم فاعل من سأل بمعنى طلب .

ومن شعره التاريخ قوله :

يا من بطالعه الاسمى حوى شرفا يزى بدر علاه قبه الفلك
أنت الذى بحلى الاخلاق زدت علا لازل ترقى بفضل المنعم الملك
إسعاد نجمك إد لاحت بشائره أرخت أوليت بكباشى وأت زكى

ولا شك أن هذا التاريخ أضعف الشعر وحال دون روعته وجماله ، ولكنها سنة العصر الذى أغرق فيه وعالى ، وله فى تاريخه لحية :

لما اذهى روض المحاسن والبها وبدا به الريحان وهو شريف
حط المذار كما تحب صحيفة تاريخها صان الجبال نظيف

وهو شعر ضعيف متهافت كما ترى ، ومما لا أسيفه ، وصف الريحان بالشرف ولست أدري متى يكون الريحان شريفاً أو غير شريف ، فلعلة يقصد أن الريحان وهو أخضر الأغصان يبدو كالعنابم الخضر التى هى سمة الاشراف .

وقد يولع بالتاريخ ، فيجعل فى كل شطر تاريخاً كما قال :

بشير هنا لاحت يمين قدومه بدورها نور البشائر قد صفا
وشعره أنذاك لا روعة فيه ، ولا تنسم منه روح الشعر بحال .

غير أنه يتناول كثيراً من الأغراض فى شعره ، ويتسع أفقه لالوان مختلفة من الشعر فيمدح ويهني ، ويرثى ويعتب ، ويشكو وبشكر ، ويتغزل ويصف وينصح ، وتجد فى شعره الحكم والمدائح النبوية ، والاقتصائد الوطنية ، والخزبات لغير اغراق ، كما تجد فيه الوداعة والحماة ، ويتناول الإنفاذ بل يكثر منها فيجىء شعره بها معبى مستغلقا ، ويطول نفسه فى بعض القصائد حتى تبلغ مائة بيت

إلا أن شعره أقرب إلى شعر العلماء منه إلى شعر الفحول من الشعراء ، وشعره
وسط بين الإجادة والفنائة ، والضعف والقوة .

فما قاله متغزلا :

إلى الأوطان يجذبني المهام	ولى قلب يقلبه العرام
وفى دمي غرقت ونار وجدى	بتذكار الديار لها ضرام
ولى فى كل منزله حديث	إذا كررته ناح الحام
وما عندى من الأشواق خاف	ولو أبدته لبيكى الفهام
ويوم وداعهم كانت حباتى	مكابرة وللدمع انسجام
أراهم أينما كانوا بقلبي	وفى نوى وهل يغنى المنام
وقائلة إلام تحن شوقا	وتعلو جسمك المضنى السقام
أتحسب أن من تهواه بك	عليك ولو أضربك الهيام ؟
قتلت لها قديتك إن نوى	على لبعدهم أبدا حرام
وهل يجدى أعا الوجد المعنى	إذا ضنوا بزورته اعتصام ؟
دعنى فالتصيحة لو أفادت	لضاع الحب واقطع الملام
كلت بحبهم فألفت سهدى	ولم يخطر على جفنى المنام
أهم بهم ولى فيهم نجيون	إذا ظعنوا بقلبي أو أقاموا
أخلاقى احفظوا عني حديثاً	يسر به المقلد والإمام
قتيل الشوق يحبه التدانى	وينعشه التواصل لا الدام
فان مر النسيم بكم سلوه	فأخبار الهوى منه ترام
وساعات الوصال كلح طرف	لدى المضنى ويوم البعد عام

هذه أبيات سابقها الشاعر متغزلا ، لجامت من أجود ما قال رقة معنى ، وخفة
روح ، ووصوح أسلوب لم يسع الشاعر فيها وراء صنعة لفظية أو يحسن من المحسنات
البديعية ، ولم يمس طرفا من ذلك إلا الجناس الذى شكه شكاً وتناوله برفق فى عجز
البيت الاول بين قلب ويقلبه .

وبما قاله فى شكوى الزمان :

بشكوى الليالى كيف لا أنمل
وديمة دمي دائماً تنهل

وما في زمان في مكابد مكره	وفي وهمه أني له أنذل
أكابد ما لا استطاع من الأسى	وأحل منه فوق ما يتحمل
وجريت أبناء الزمان بأسرهم	فلم أر منهم من عليه يعول
وسالت إخوانا بدال أنهم	على تقص بفيان الصداقة عولوا
فيأدهر ماذا تبتغي من مجرب	وقد شاع في الآفاق أنك تجهل
تقدم من لا يستحق وتزدرى	بمن هو أولى بالجليل وتعجل
تبرأت من أهل المعارف والتقى	وهم دولة الإسعاد إن كنت تعجل
وقربت أرباب الجهالة للعلا	كأنك لاستظهارهم تتجمل

فهذه الآيات من أجود ما قيل في شكوى الزمان صدرت من الشاعر مصورة عبث الزمان به وتجهمه له ، وما يكابده من أساء الذي لا استطاع ، وما يحمله مما يشق حمله ، وما ألقه من إخوان جربهم فلم يرفههم من عليه المعول ، وإخوان سالمهم لما بداله من تعويلهم على تقص الصداقة ونسكت العهد ، وكان جميلا من الشاعر ما بينه من جهل الزمان من تقديم من لا يستحق والزيادة بمن هو أولى بالجليل ، وبراءة الزمان من أهل المعارف والتقى ، الذين هم دولة الإسعاد لو كان بمقل ذلك ، وتقریب أرباب الجهالة وإيثارهم بالعلا كأنه يتجمل لاستظهارهم ، فهي آيات صادقة في شكوى الليالي وصدق التجربة ، وغدر الإخوان ، وعبث الزمان ، كل ذلك مسوق بأسلوب غير نازل ، ورصف رصين لم يتهالك على محسن ولا زخرف .

ومما قاله يمدح به النبي صلى الله عليه وسلم :

إذا هفت بمدحتك الموالى	وأشد شمره فيك البديع
وحدث عنك من يروى حديثاً	وصاغ من التثا ما يستطيع
فا بلغوا البسير ولو أطلوا	وكيف وأنت في الأخرى شفيح ؟
إليك شكايتي من كل ذنب	وحسن حماك لي حرز منيع
ومن يرجوك يسعف بالاماني	ومن قصد المشفع لا يضيع
ملأت سرادقات الكون فضلا	وجاهك سيدي جاء رقيق
فمن للذين سواك يرجى	إذا ما استعظم الهول العطيع ؟

وهو شعر سهل رصين تمثل فيه روح الشاعر المؤمن الذي يلتمس عند رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكون له حرراً منيعاً ، وشفيعاً يغفر به كل ذنب ، وإن كان في نفسى شيء من اللط (اللطيف) . وقال يعاتب بعض أصحابه :

لعمرك ما البوار كالعصى ولا الطرف المذل كالنصي^(١)
ولا فلق الصباح إذا تبسدى لذى بصر يقابل بالعشى
أراك رفعت أدنى الناس قدراً وآثرت الأدنى على على
شفقت عصا الوفاق وبعثت غبنا صواب الرأي بالخطأ الجلي
وبدلت الأجرة من قریش وأبناء الأماجد بالدنى^(٢)
ستعرف ما جهلت إذا التفتينا وبان لك الجبان من الكى^(٣)

ولعل هذه الأبيات من أحسن شعره وأبلغه ، وأحفلها بالتشبهات المحكمة ، وفيها جباس متمول بين حرف الجر (على) و (على) وتورية لطيفة في لفظ «على» ، الذى يحتمل أن يكون وصفاً مقابلاً (للدنى) وأن يكون مشيراً إلى اسم الشاعر (السيد على) . ومن رثائه قوله :

أنظرى أعينى الدوامى دواما إن غيث الكرام يأتى ركاما^(٤)
واستمدى من حبة القلب دمعا فلعن الدموع تروى أواما^(٥)
ومن السهد للجفون اكتحالا ودعى عنك فى الدياجى المناما
واسكبي الدمع خفية وجهارا واستحلى من البكاء الحراما
واقترنى فى صهيفة الدهر سطرًا نطقته يد القضا فاستقاما
واكتبى ما جنته أيدى المنايا حيث لم تبق للأناام إماما

فهذه من أصدق المراثيات وأرقها ، وأحسبها معنى ، وأحفلها تصويراً للجزع والأسى ، ولم يكن الشاعر مصرفاً فيها إلى الظلاء اللفظى اللهم إلا ما يكلف به من الجناس فى مطالع قصائده ، فإنه أوقع الجناس المتكلف بين (الدوامى) و (دواما) و (الكرام) و (ركاما) ، ولكنه لم يستند جمال الأبيات ، ولم يذهب بروعتها ؟

(١) البوار - قسوف القاطعة ، الطرف الكريم من الخيل - المذل السهل المنقاد .

(٢) الأدنى : كرضى الرجل الفاحش . (٣) الكى : كرمى الشجاع أو لايس السلاح .

(٤) الزكام السحاب الممراكم . (٥) الأوام كمراب ، العطش أو حره .

تسمية الأسماء بغير أسمائها

لفضيلة الأستاذ الشيخ برر المتولى عبد الباسط

المدرس بكلية الشريعة

روى البخارى ومسلم بسنديهما عن أبى حميد عبد الرحمن بن سعد الساعدى رضى الله عنهما قال : « استعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلاً من الأزد يقال له ابن اللثبية على الصدقة ، فلما قدم ، قال هذا لكم وهذا أهدي لى ، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : « أما بعد : فإنى أستعمل الرجل منكم على العمل بما ولانى الله ، فإذا فى يقول هذا لكم وهذا هدية أهديت لى : أفلا جلس فى بيت أبيه وأمه حتى تأتبه هدية إن كان صادقاً ، والله لا يأخذ أحد منكم شيئاً بغير حقه ، إلا لقي الله تعالى يحمله يوم القيامة ، فلا أعرن أحداً منكم لى الله يحمل بغيراً له رعاء أو بقره لها حوار أو شاة تبعر ، ثم رفع يديه حتى رقى بياض أبطيه ، فقال اللهم هل بلغت . »

شرح المفردات : الرعاء . صوت الإبل . الحوار صوت البقر . تبعر تصيح والعيار صوت الفهم .

هناك جم غفير من الناس يطيب لهم أن يضحكوا على الناس أو يضحكوا على أنفسهم ، فتراهم يسمون كثيراً من الأشياء بغير أسمائها . فهم يسمون الذل تواضعاً والكبر ترفعاً ، والإسراف جوداً ، والبخل اقتصاداً ، والكذب سياسة ، والغش حصافه وهؤلاء ، إن كانوا يؤمنون بما يقولون ، فقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه ، وليس عليهم أمرهم من حيث لا يشعرون ، وأما إن كانوا لا يؤمنون بما يقولون ، ولكنهم يموهون على الناس فهؤلاء قوم منافقون ، يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم . وهؤلاء جرءاء على الله ، وهذا الضرب من الناس بصفتيه عرفهم الإنسان قديماً وحديثاً ، ومن هؤلاء رجل ولاه رسول الله صلى الله عليه وسلم ولاية الصدقة ، فاستغل نعوذ ، ومكاته ، وتقبل الرشوة بمن ولى أمرهم . وسماها رسول

الله صلى الله عليه وسلم هدية، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم بين الفرق بين الهدية التي لا تصدر إلا عن حب حالي وود قديم، ولا يراد بها إلا توثيق العلاقات بين المتهادين، وبين الرشوة التي هي أكل لأموال الناس بالباطل، ولا دفاع لها إلا الرغبة في جاه المرتشي أو الرهبة من بطشه وجروته، وجعل الفرق بين الرشوة والهدية فرقاً واضحاً جلياً، فكل ما يقدم إلى من يتولى عملاً عاماً إن كان يقدم إليه قبل أن يتولى هذا العمل، فهو هدية حتمية، لم يرد بها صاحبها جلب منفعته أو دفع مفرم، وأما أولئك الذين لا تساق إليهم الهدايا إلا إذا أسندت إليهم الوظائف العامة فإنما تساق إليهم الرشوى مسماة باسم الهدية، وإن استطاعوا في الحياة أن يفتلوا من قبضة القانون، فلن يستطيعوا النجاة من الله سبحانه يوم القيامة، فسيعرضهم الله على ملائكة من الأولين والآخرين، وقد صور النبي صلوات الله عليه فضيحتهم بقوله: «فلا أعرفن أحداً منكم لقي الله تعالى يحمل بعيراً له رغاء، أو بقرة لها خوار، أو شاة تبحر»، ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين عن الرشوة بأسلوب النبي (لا أعرفن) مع التأكيد وفيه من المبالغة ما فيه. كأن هذا الأمر لا ينبغي أن يقع، لمنافاته لما يجب أن يكون عليه المسلم الصادق، وتصوير النبي الأكرم لهذه العضيضة الشذية هذا التصوير البليغ مما يعث الخشية في قلوب هؤلاء المتساهلين وليس هناك ما يمنع عملاً أو نقلاً من أن هذا إخبار منه صلى الله عليه وسلم بحقيقة ما يلتهأ هؤلاء المرتشون يوم القيامة. ولما كانت الرشوة من أخطر الأمراض الاجتماعية التي تصيب المجتمع، فتموض أركانها، رفع رسول الله صلى الله عليه وسلم يديه إلى السماء، ثم قال تلك التولية المشهورة التي لا يمتلأها - كما يعلم المتبحرون للسنة - إلا في الأمور الهامة: «اللهم هل بلغت».

وكيف لا تكون الرشوة من أخطر الأدواء التي تهدكيان المجتمع، وهي متى انتشرت في أمة فقد استحقت سخط الله ودمته، وكتبت يدها كتاب شقائها، فهي تجعل الحق باطلاً والباطل حقاً، وترفع قوماً حقهم أن يخفضوا، وتخفض قوماً حقهم أن يرتفعوا، وعندئذ يوسد الأمر إلى غير أهله، ومتى وسد الأمر إلى غير أهله في أمة فقد حانت ساعته وذهبت ريحها، ولما كانت الرشوة في أية صورة من صورها وبأى اسم من أسمائها، خطراً على المجتمع الإسلامي ووبالاً على الأمة المحمدية جميعها فقد لعن الله الراشي والمرتشي، وطردهما من رحمته، ووكلهما إلى نفسهما، فقد روى

أبو داود والترمذي يستديهما عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ، قال : لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم الرائي والمرئى .

أما الرائي ، فإن لم يكن صاحب حق فقد جمع الى جريمة الظلم جريمة التعاون على الإثم والعدوان ، وإن كان صاحب حق ولا يصل الى حقه إلا بالرشوة فقد أعان هذا الظالم وهو المرئى ، وأفسد حلقه وجعله يستمرى الرشوة من كل من له عليهم نفوذ أو سلطان . وفي هذا من الفساد ما فيه . وأما المرئى فإنه يأكل أموال الناس سحتاً وينشر بين المجتمع فساداً ويعطل مصالح العامة ، هذا ، وقد بين رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يحل لكل موظف من موظفي الدولة ، وما لا يحل من الأموال في كلية جامعة ، فقال فيما رواه عنه عبد الله بن برمجة عن أبيه رضي الله عنهما : « من استعملناه على عمل ، فرزقناه رزقاً فما أخذ بعد ذلك فهو غلول ، والغلول الخيانة في الأموال العامة ، وقد شدد الله في أمر الغلول كثيراً ، وما كان لشيء أن يغفل ومن يغفل يات بما غل يوم القيامة ثم توفي كل نفس ما كسبت وهم لا يطلون ، وفي الله هذه الأمانة داه الرشوة وركب نفوس بنيها وطهر أخلاقهم حتى يكونوا أهلاً لما هيأهم الله له من خلافة في الأرض .

خفي حنين

كان يزيد بن حاتم الأزدي والى مصر مدحه ربيعة بن الرائق ، واستبطأ عطائه فقال : أرائني ولا كفران لله راجعاً . يخفي حنين من نوال بن حاتم فبلغ قوله يزيد بن حاتم ، فأمر بإحضاره إليه ، فبنا دحل على الأمير سأل هل قال غير هذا البيت ؟ فأقسم له بأنه لم يزد عليه شيئاً . فقال له الأمير : لترجعن بخفي حنين ملثماً مالا ، وعمل بما وعد . فقال فيه ربيعة الرائق :

بكي أهل مصر بالدموع السواحم غداة غدا منها الأغر بن حاتم
ومنها :

وشتان ما بين اليريدين في الندى يزيد سليم والأغر بن حاتم
فهم العتي الأزدي لإفاق ماله وهم العتي القيسي جمع الدراهم
فلا يحسب انتقام أني هجوته ولكنني فضلت أهل المكارم

كيف ينهض المسلمون

لفضيلة الأستاذ الشيخ علي رفاهي

مفتي الوسط والارشاد

النهضة كلمة رائعة تحمل كل عناصر الحياة . والفن . والخلود . ومن عناصرها الحية الخالدة يكتب تاريخ الأمم التي تنتظم نفسها في أمم التاريخ ! . فما هو إذن نهيب المسلمين من النهضة ، وإلى أي مدى بلغت بهم همهم فيها ، وما هو حكم التاريخ العادل إذا أراد أن يقول فيهم كلمته .

أعتقد أن الإسلام إنما جاء ليحكم ويسود لأنه دين مشحون ببارود القوة الحافزة المللية ، والتي تدفع أتباعه - دائماً - إلى الأمام . هذه هي الحقيقة الكبرى التي ضلت بين ركام الأحداث الجسام في عصور المسلمين المظلمة ، وكادت تغيب في جماجم الموقى الأولين ! . وإذا كان التاريخ شاهد عدل لا يريغ رأيه ، ولا يضل حكمه ، فلنسأل التاريخ إذن كيف نهض المسلمون ليجيئنا التاريخ في غير حذر ولا موارد ولا مداواة ، وليفتح أعيننا على القوة الكامنة في طبيعة الإسلام حتى نعرف في بساطة ويسر كيف ينهض المسلمون .

يقول التاريخ : أن أول باب يدخل منه الداخل إلى ساحات الإسلام الفساح هو التوحيد .. مبدأ ، وعقيدة ، وخلق . أما أنه مبدأ فذلك ما يشهد به واقع حياة المسلمين الأولين ، ويشهد له القرآن الكريم « وإن هذه أمتكم أمة واحدة ، وأنا ربكم فاتقون » وهو سر النواة التي أخرجت هذه الدوحة الكريمة المتشابكة لتنفذ الدنيا ظلها الوارفة ، وتنفس في جوها المعطر الشميم ، وناهيك بدين يقدس معنى وحدة المبدأ بين أتباعه ، فيعلن في سمو بالغ أن الوحدة إيمان ، والفرقة كفر « يا أيها الذين آمنوا ان تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين » أي بعد جماعتكم ووحدتكم متفرقين . لا ترجعوا بعدى كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض . »

نعم إنه مبدأ كريم أشربته قلوب المؤمنين بهذا الدين ، حتى صرخ في عروقهم النابضة بالقوة والحياة أن حطموا هذه الفرقة الطاغية المبددة . ثم انفذوا باسم الله إلى أقطار هذه الأرض الباغية ، لتصفوا أقدام الناس على الطريق المستقيم ، فإذا الكلمة واحدة ، والسيل قاصدة ، والشمل جميع .

وأما أنه عقيدة فهذا هو السور الذي ساد به المستنون ، ليس في الأرض آلهة ولا جبابرة ، وليس في الناس سادة وعبيد . . وإنما هو إله واحد تغنوا له الجباه وتحنّت له القلوب ، وتخضع له الرقاب ، وإلهم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم ، والناس - بعد - في عبوديتهم له سواء . فأى دين يغرس في عقول أتباعه ، وقلوبهم هذه البذرة المباركة النامية ويوجههم إلى (توحيد) عقيدتهم هذا التوجيه السديد ، إنه الإسلام الذي يضع لأتباعه أعظم ما عرفت الأرض من قواعد النهضة .

وأما أنه خلق فذلك لأنه يرسم للسلوك الإنسانى طريقه المعبد بين عتبات المجد الكاذب ، وشعابه المتلوية ، ليترسم المسلمون وخدم متاهج العزة والكرامة والرجولة التي لا يستعبد بها بشر لبشر مثله (الناس سواسية كأسنان المشط ، ، ، كلكم لآدم وآدم من تراب .)

فلا تسأل كيف نهض المسلمون . ولكن سل عن سر هذا النهوض .

يجب أن نواجه الحقائق لنكون - على الأقل - منطقيين مع أنفسنا ! إن هذه الغشاوات المعتمة التي تحجب عن العيون ضوء الإسلام الخفيف ، هي التي هوت بالمسلمين إلى الخضيض ، وكادت تعنى على آثار تهضباتهم التي وقف التاريخ في محرابها غاشماً يرتل ألحان العظمة والجلال . وأن هذه الحفائر العميقة التي ملئت بالقدر العفن من واردات الغرب ، ثم غطيت بالقش الرخيص لتكبوا فيها الأقدام ، هي علة ما يشكو منه المسلمون .

والإسلام دين يؤمن بالقوة ، ويحشد أجناده - دائماً - على الثغور ، وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل .

ويقدس أسبابها ووسائلها ، ويصورها في معارضها الحافلة ، الحاشدة ، ويضفي عليها من المهابة ثوباً فضفاضاً غم الحواشي ، والمعاديات ضجعا ، فالموريات قدحا فالمغيرات صبحا ، فأثرن به قعما فوسطن به جمعا .

والإسلام يدعو إلى الحرية ، ويحطم في عنف وقسوة قيود الذلة والعبودية والاستخذاء ، ويوجه نظر المسلمين دائماً جهة السماء « والله العزة والرسول واليومين » .

والإسلام يهتف بالحق أبداً ، ويصوغ أغنيته العذبة من لحنه الأخاذ ، وبالحق أنزلناه ، وبالحق نزل ، . « ذلك بأن الله هو الحق وإنما يدعون من دونه الباطل » .

الحق ، القوة ، الحرية . هي تغاريد الخناجر المؤتمنة بالعشى والابكار .
وهي أنشودة الكتائب المجاهدة التي غيرت مجرى التاريخ .
وهي ألحان القطرة النضرة التي لم تعبت بها أيدي الشياطين .
وهي دعائم النهضة الزاكية التي لفتت أنظار الدنيا ، وهزت أرجاء العالم الكبير .
لقد كانت تعاليم الإسلام الخالد هي مبعث نهضة المسلمين بالأمس ، ولن يكون غيرها أبداً مبعث نهضتهم اليوم .. ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها .

رسالة

قدم جرير على عمر بن عبد العزيز ، فقال له : مالي وللشعر يا جرير إني لني شغل عنه . فأجابه : يا أمير المؤمنين إنها رسالة من أهل الحجاز . قال : فماتها إذن ، فقال :

كم من ضرير أمير المؤمنين لدى	أهل الحجاز دهاه البؤس والضرر
أصابته السنة الشبهاء ما ملكته	يمينه لخصاء الجهد والكبر
ومن قطع الحشا عاشت غيباء	ما كانت الشمس تلقاها ولا القمر
لما اجتلها صروف الدهر كارمة	قامت تنادى بأعلى الصوت يا عمر

الفقه السياسي عند المسلمين

لفقيه الشيخ محمود فياض

أستاذ التاريخ الاسلامي بكلية أصول الدين

يرى الإسلام أن الأرض لله ، والخلق لله ، فالمولة لذلك هي دولة الله ! فهو وحده سبحانه السيد المالك ، وليس لغيره أن يستعبد الناس ، أو يتعبد لهم بشيء ما ، وقد جعل الله لنفسه العزة والسيادة على كل شعب في أي بقعة من أرضه ثم جعل هذه السيادة للشعب نفسه بعد الله ورسوله ، فالشعب في كل دولة هو خليفة الله ونائبه في عمارة أرضه وحفظها من الشرور ، وهو المسئول عن تصريف أمور الدولة نيابة عن مالکها سبحانه وتعالى ، ولما كان الشعب مجتمعاً لا يمكنه أن يقوم بالتكاليف المنوطة به ، فقد أتيح له أن يختار من يحمل عنه التبعة والمسئولية ، في التيام بالتكاليف ، وتدير أمر الجماعة ، وهذا المختار من الشعب هو حاكم الشعب ، ويراد منه ، قيادة المجموعة بقيادة خيرة رشيدة تحقق الخير للجميع ، وتكفل لكل فرد أكبر قسط ممكن من حياة حرة كريمة سعيدة .

والحاكم الذي يختاره الشعب لهذه القيادة الرشيدة ، وكيل عن الأمة التي اختارته ، وتختاره الأمة بالبيعة ، وهي تعاقد بين طرفين هما : الأمة والحاكم ، أو بعبارة أدق بين كل فرد مبايع وبين الحاكم . وهذا التعاقد يلزم الحاكم والمبايع بالتزامات محددة ، معروفة ، مفهومة من الطرفين ، يتعهد الحاكم بمقتضاه بالسير في حكمه على القواعد التي رسمها (القرآن والسنة) وهما دستور المتعاقدين المتفق على احترامه والالتزام بالعمل به ، وهو دستور عام خالد ، ثابت دائم ، ليس لأحد المتعاقدين تصرف فيه بزيادة أو انتقاص ، لأن مشرعه هو السيد المالك العليم الخبير ، بما يصلح دولته ، وما لا يصلح لها ، وتعهد الأمة (أو المبايع) للحاكم بالطاعة في كل ما يصدره وفقاً لمبادئ هذا الدستور المحترم من الطرفين ، غير مستبد برأيه . بل عن ملا وشورى بين المسلمين ، ولما كان كل فرد في الأمة مسئولاً عن الأمة وحكمها ، فإنه يتقدم للبايعة ويقول : «أبايعك على كتاب الله وسنة

ورسوله وصالح المؤمنين ، وليس لذلك معنى غير أنه يوكله عن نفسه في القيام بتدبير أمر الدولة الذي هو حق لكل فرد مسئول فيها ، وليس على الموكل المبايع ، سوى الطاعة في حدود الدستور المتفق عليه ، وإذن فالبيعة هي عقد وكالة بين الأمة وحاكمها المنتخب ، من أفرادها المسؤولين عنها ، وظاهر جدا أن عقد الوكالة ليس عقد تمليك للوكيل ، ولا يقتضى تمليكا ، وإنما هو عقد إذن بالتصرف باسم الموكل في حدود ما رسمه للوكيل ، وأذنه بالتصرف فيه ، ثم هو عقد مؤقت مشروط . فهو خاضع لرقابة الاصيل ، فإن رأى الوكيل ملتزماً للشروط المحددة ورأى أن استمرار العقد في صالحه ، أبقى الوكيل إن شاء ، فإن رأى الوكيل قد جانب الشرط وخرج من العهدة ، عزله إن شاء إذا لم يعزل من نفسه ، كذلك لا ينطوى عقد الوكالة على تنازل من الاصيل عن شيء من حرياته أو سلطانه أو حقوقه كلها أو بعضها ، وإلا كان العقد عقد تمليك ، ولهذا اتفق فقهاء الإسلام على أن الحاكم وكيل عن الأمة خاضع لرقابتها ، ولها عليه سلطان التولية والعزل والتوجيه ، ولكل فرد من أفرادها حق أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر . وهي السلطة الكبرى التي جعلها الله لأدنى المسلمين يقرع بها أتف أعلام كما يقول الأستاذ الإمام محمد عبده (١) .

وفي هذا يقول الإمام الكاساني رحمه الله : « وكل ما يخرج به الوكيل عن الوكالة يخرج به القاضي عن القضاء ، لا يختلفان إلا في شيء واحد ، وهو أن الموكل إذا مات ، أو خلع ، يعزل الوكيل ، والخليفة إذا مات أو خلع ، لا تعزل قضاته وولاته ، ووجه الفرق أن الوكيل يعمل بولاية الموكل ، وفي خالص حقه ، وقد بطلت أهلية الولاية (يعني بموت الموكل أو خلفه) فيعزل الوكيل ، والقاضي لا يعمل بولاية الخليفة وفي خالصه ، بل بولاية المسلمين ، وفي حقوقهم وإنما الخليفة بمنزلة الرسول عنهم ، لهذا لم تلحقه العهدة كالرسول في سائر العقود والوكيل في النكاح ، وإذا كان رسولا كان فعله (أي فعل الخليفة) بمنزلة فعل عامة المسلمين ، وولاتهم بعد موت الخليفة باقية فيبقى القاضي على ولايته ، وهذا

بخلاف العزل . فإن الخليفة إذا عزل القاضي أو الوالي يعزل بعزله ، ولا يعزل بموته ، لأنه لا يعزل بعزل الخليفة أيضاً في الحقيقة بل بعزل العامة ، لما ذكرنا من أن توليته بتولية العامة ، والعامة ولوه الاستبدال دلالة لتعلق مصالحهم بذلك فكانت ولايته منهم معنى في العزل أيضاً ^(١) .

وما يتطوع بصحة فكرة وكالة الحاكم عن الأمة وخضوعه لرقابتها وسلطانها ، أن جميع الفقهاء ، اعتبروه واحداً من أفراد الأمة في كل تصرفاته ، والأموه بتألفه وجنباياته ، فهو يؤخذ بالتفاصيل إذا قتل عامداً ظالماً ، ويلزم بالأموال التي تطفها ، وتقطع يده إذا سرق ، ويحمله أو يرحم إذا زنى ، والأمة هي التي تحاسبه وتعاقبه ، يقول الإمام القفال من الشافعية : « إن الخليفة إذا زنى يقيم عليه الحد ، من ولي الحكم عنه . وهو الأمة » ^(٢) .

ولدينا نصوص كثيرة في هذا المعنى الجليل ، الذي جاء به الإسلام لأول مرة في تاريخ البشرية والتي تشير إليه عبارة « الأمة مصدر السلطات » التي يجب أن تعدل هكذا « الأمة قيعة على الحكم ، ومصدر سلطات الحاكم » .

عما تقدم يرى الفارسي أن عبارة « السلطان ظل الله في أرضه » عبارة لا تستقيم في ظاهرها مع روح الإسلام ونصوص العلماء ، كما فهم ذلك بعض الناس ، وجعلوا بمقتضاها للحاكم - في نظر الإسلام ظلياً - حقاً مقدساً . وقالوا لهذا : إن نظرية الحكم في الإسلام تشبه نظريات الحق الملكي المقدس عند المراعنة والفرس والروم ، مع تعديل يسير اقتضاء تقدم البشرية ، وتطور الزمن .

وفي اعتقادي أن هذه العبارة التي جاءت لأول مرة في بعض كتب المنصور العباسي ، قد انتقلت إلى العباسيين عن التفكيك الفارسي الذي كان يقدس الأكاسرة قديماً ، أو عن الحكام الرومانيين في العصر المسيحي الميروفنجي ، وهي في الحقيقة تشير إلى النظرية الكفسية التي تزعم أن الله قال للقديس بطرس « إن ما حلته في الأرض فأنا أحله في السماء ، وما ربطته في الأرض فأنا أربطه في السماء » بمعنى

[١] البدائع لأبي بكر الكاساني المئوق سنة ٥٨٧ هـ - ٧ ص ١٦ .

[٢] حتى المحتاج على المتاج للعطيب ٤ ص ١٤ . وتحة المحتاج للبيشي ٩ ص ١١٥ .

أن البابا هو ظل الله في أرضه ، وكل أوامره مقدسة لأنها وحى السماء ، وقد قامت الكنيسة بمساعدة شارلمان على إعلان الدولة الرومانية المقدسة ، بتوجيه ملكا للرومانيين سنة ٨٠٠م ، وأرادت من هذا التوجيه أن يكون لها سلطان على الامبراطور المقدس الذي توجه البابا المقدس الذي له سلطة الحل والربط في الأرض وفي السماء ، ولا نظن المنصور العباسي على كبر عقله ، وسعة علمه ، وقربه من مصدر النور الهادي . كان يقصد شيئا مما تعنيه نظريات الحق المقدس ، لأن ذلك يناقض مبادئ الإسلام ويخافى النصوص الصحيحة ، فالرسول عليه السلام يعلن أنه : « ليس ملكا ولا جباراً في الأرض » . إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر ، وعمر بن الخطاب يخاطب في الناس قائلا : أيها الناس لست ملكا فاستعبدكم بملك أو جيرية ، إنما أنا واحد من الناس ، وإنما مثلي منكم ومن أموالكم كمثل ولي اليتيم منه ومن ماله ، يعني حسن الرعاية والارشاد إلى الخير ، لا سيادة له عليهم كما أن ولي اليتيم لا سيادة له عليه ولا يملك شيئا من ماله ، فإن احتياجه أكل بالمعروف من مال اليتيم وكان ذلك كأجر على حسن الرعاية ، وغاية ما هنالك أن الحاكم وكيل عن الأمة النابتة عن الله في عمارة أرضه وحفظها من الشرور ، فهو يأمر وينهى بسلطان الأمة الذي هو سلطان الله . وهو مع ذلك خاضع لرقابة الأمة في كل تصرفاته ، وعلى هذا فلا صلة إطلاقا - بين نظرية الإسلام في الحكم ، ونظريات الحق المقدس القديمة ولا نظريات الكنيسة المسيحية ، وإذا ثبت أن المنصور العباسي كان يعني ما يشير إليه ظاهر العبارة ، فالمنصور فرد مسلم غير معصوم ، وليس حجة على الإسلام .

يق أن تحدث عما اعتبره الكتاب المحدثون شها بين نظرية الإسلام ونظريات التعاقد ، هذه النظريات سواء منها الأغريق القديم ، أو المسيحي الحديث تقوم على أساس تنازل من الأفراد الذين يؤلفون دولة في أي مكان . عن بعض سلطاتهم وحرمانهم للحاكم . ليكون له من مجموع هذه « التنازلات » سلطة ممتازة تأمر فتطاع ، وقد رأى الفيلسوف الإنجليزي « هوبز » أن هذا التنازل من الأفراد ، تنازل نهائي في غير مقابل ، وليس لهم حق الرجعة فيه ، فالشخص الذي يملكونه هذه السلطة الممتازة ، هو حاكم دائم مالك لهذه السلطة ، وليس للشعب أن يسأله

عن تصرفاته ، وقد استخدم هوبز هذه النظرية لتأييد الملكية المطلقة المستبدة السائدة في عصره ، وجاء بعده الفيلسوف الانجليزي « لوك » فقال : ان تنازل الأفراد عن بعض حرياتهم وسلطاتهم تنازل حتمي ، يقتضى أن يكون الحاكم مالكا للسلطة الممتازة ، ولكنهم إنما تنازلوا في مقابل رعاية الحاكم لمصالحهم ، ومنع تصادم حريات الأفراد ، واستخدم هذه النظرية لتأييد فكرة الملكية الدستورية المستتيرة السائدة في إنجلترا إذ ذاك .

وفي القرن التاسع عشر الميلادي جاء الفيلسوف الفرنسي « روسو » فنفى بهذه النظرية نحواً جديداً ، فقال : إن تنازل الأفراد ليس تنازلاً نهائياً ، وإنما هو تنازل مشروط بأن يكون الحكم لصالحهم ، ولهذا لم حق الرجعة في هذا التنازل ، إذا لم يحقق الحكم مصلحة الجماعة ، ومعنى هذا أن الحاكم خاضع لرقابتهم ، فإذا انحرف بالحكم عن صالح المحكومين ، فن حقهم أن يخلعوه .

وقد استخدم روسو . هذه النظرية لتأييد سيطرة الشعوب على الحكومات ، في الوقت الذي كان الشعب الفرنسي يتباً فيه للثورة على الملكية المطابقة ، على أن فكرة حق الأمة في عزل الحاكم المعوج لم تأت صريحة في نظريات التعاقد كما جاء بها الإسلام . هذا وأنت ترى أن فلاسفة التعاقد قد اتفقوا على أن الأفراد قد تنازلوا عن بعض حرياتهم وسلطاتهم ، في مقابل أو في غير مقابل ، تنازلاً نهائياً أو غير نهائى ، والذين جنحوا منهم إلى تأييد سلطة الشعب على حكامه اضطروا إلى النص على توقيت مدة الرئيس المنتخب للجمهورية . حتى لا يرى نفسه ملكاً ، أو يراه الناس ملكاً ، فقرروا انتخاب الرئيس كلما انتهت مدة الرئاسة ، وفي هذا ما فيه من إشاعة الاضطراب والفلاقل ، كلما تجدد انتخاب الرئيس . وكثيراً ما تسود الاحن والضغائن وتنقسم الأمة إلى شيع متحاربة . من جراء تنافس المرشحين للرئاسة .

وأما نظرية الإسلام ، فليس فيها أفراد تنازلوا عن شيء من حرياتهم وسلطاتهم وإنما لدينا أمة مكلّمة وكلت عنها بعض أفرادها لرعاية صوالجها ، وليس في الوكالة تمليك ولا مظنة تمليك ، والبيعة عقد يقيد الحاكم بدستور خاص ، ويحدد له حدود مهمته ، فإذا التزم شروط العقد فله حق الطاعة على المحكومين ، فإذا تجاوز ما عين

له وخرج على الشرط ، انزل من الوكالة وخرج ، من العدة بنفسه أو بعزل الشعب الذى ولاه ، وفى هذا يقول الصديق رضى الله عنه للناس « أطيعونى ما أطعت الله فيكم ، فإذا عصيته فلا طاعة لى عايكم » وأساس هذا قول الرسول عليه الصلاة والسلام : « لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق » ولا شك أن عدم رعاية مصالح الدين وصالح الدولة ، أكبر معصية لرب الدولة سبحانه وتعالى ، وهذه النظرية يتحقق الاستقرار فى الدولة ، ويمكن الحاكم المصلح من خدمة شعبه ، وتحقيق منهج إصلاحه ، ويضع الحاكم فى مكان الخادم للأمة ، والأمة له بالمرصاد ، تراقبه وتحاسبه ، وتسكبح جموحه إن جمع ، وترشده إلى الحق إن مال أو التبس عليه أمره وتعرله إن ظهر غشمه وظلم وجور ولم يرعو لناصح أو زاجر .

بعد هذا يا أخى التارى لا أظنك تقول : إن الحكم فى نظر الإسلام كالحكم فى نظريات التعاقد 11 فإن كان لنا فى « التعاقد » هوى ، فالتعاقد فى الإسلام تعاقد خاص بالإسلام ، وهو أسى وأجل من نظريات التعاقد التى عرفتها .

وإذا عرفت هذا ، فاعلم أن الإسلام هو أول من احترم الأمة ، وجعل لها « شخصية معنوية » وألزمها بالتكاليف العامة ، ووكل إليها القوامة على أمورها ، واعلم أيضاً أن المسلمين هم أول من عرف أن الأمة هى مصدر جميع السلطات ، وأن الحاكم خادم وقائد ورائد ، لا سيد مستبد والناس عبيده ، ولعلك يا قارئ تطلب منى البيان ! وأعدك به فى العدد القادم إن شاء الله ، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ؟

(يتبع)

الحكمة

مر عيسى عليه السلام بقوم فقالوا له شراً ، فقال هو خيراً . فقيل له : إنهم يقولون شراً وتمول لهم خيراً ؟ فقال : كل واحد ينفق بما عنده . وقال الشاعر :

وذى رحم قلت أظفار جهله	يحمى عنه حين ليس له حلم
إذا سمته وصل القرابة سامنى	قطيعتها تلك السفاهة والإثم
فداويته بالحلم والمرء قادر	على سهمه ما كان فى كفه السهم

الحياة الأخرى

عن سيد أمير علي *

لمؤلفه عمر طلعت زهره

استاذ في الآداب

[يا أيها النفس المظلمة . ارجعي إلى ربك راضية]

[مرضية . فادخلي في عبادي . وادخلي جنتي]

نظرية الحياة الأخرى — بعد افتراق عنصر الحياة عن الجزء الثاني — نظرية تقاسمها جماعات الناس عموماً ، وإن كانت تتميز عندهم الواحدة عن الأخرى ، حتى إنها تنتهي بنا إلى الاعتقاد بأنها يجب أن تكون من الأوليات في مقومات وجودنا . ولو بحثنا الحقائق التي تصل بطفولة الاجناس والقبائل بحثاً وافياً ، لعرفنا أن فكرة « الحياة الأخرى » هي نتيجة طبيعية لتقدم العقل البشري .

وليس للإنسان البدائي أية فكرة عن حياة منفصلة ، ومختلفة عن حياته تلك التي يحياها على الأرض ؛ فالموت عنده نهاية الوجود . ثم يجتاز الإنسان هذه المرحلة ، إلى مرحلة ثانية تكون له فيها آمال ورغبات ، لم تعد تنفني بعد على الموت الأرضي ، بل إنه ليتوقع « وجوداً آخر » بعد أن ينتهي وجوده الحاضر . ولكنه في هذه المرحلة لا يتعدى فهمه الخلود ، يجري الحياة اليومية . فالحياة بعد الموت ، إنما هي مجرد استمرار للحياة على الأرض . ويبدو أن هذه الفكرة عن استمرار الحياة فيما وراء القبر ، قد نتجت عن شوق لا شعوري للروح الإنساني ، يرغب في أن ينتهي الفراق بين الأصدقاء — وهو فراق مر للإنسان البدائي والمتمدن على السواء — إلى لقاء .

وينتقل الإنسان — بسرعة — إلى مرحلة ثالثة ، فيعتقد أن السعادة الحالية

والشقاء الموجود ، ليساً ، ولا يمكن أن يكونا هما كل الوجود ، أو كل النهاية لوجوده ، بل إنه ستوجد حياة أخرى ، أو أنه توجد حياة أخرى بعد الموت ، يكون فيها سعيداً أو شقياً ، بالنظر إلى ما يستحقه .

ونجد أنفسنا هنا أمام : مبدأ وقانون

ولم يتقدم العقل الإنسانى فى بحثه فى نظرية الحياة الأخرى ، ولم يستكشف فيلسوف الشك المطلق شيئاً ، أو يحقق وضعاً جديداً ، بل إنه سار الهويثا متأثراً خطئى سلفه البدائى ، الذى كان مجال تفكيره متأثراً بحياته لحسب .

ومن الحقائق الثابتة أنا إذا نظرنا إلى كل هذه النظريات التى تمثل المراحل المختلفة من وجهة نظر موضوعية ، رأيناها قد وجدت متعاصرة ، لا عند الأمم المختلفة فقط ، وإنما عند الأمة الواحدة ، على صور مختلفة ، تبعاً للتقدم الفردى .

ويقال : إن المصريين كانوا أول من عرف نظرية الحياة الثانية . أو أنهم هم - على الأقل - أول من بنى مبادئ السلوك الإنسانى على مثل هذه النظرية . فقد ربطوا نظرية التناسخ بفكرة الثواب والعقاب المستقبلية : ينزل الإنسان إلى القبر ليقوم ثانية ، وبعد بعضه يدخل حياة جديدة ، فى حجة الشمس ، عنصر الوجود ، العلة الموجودة بذاتها لكل شيء . واعتبر روح الإنسان خالداً مثل الشمس يقوم بنفس انتقالاتها Pilgrimages . نزلت كل الأرواح إلى العالم الأدنى ، ولكنها ليست جميعاً مؤكدة البعث . وكان « أوزيريس » ومستشاروه الإثنان والأربعون يحاكمون الموتى ، والحرمان [من البعث] نصيب من يدان . أما من خفت موازينه فكان ينق من آثام الحياة ، ويدخل « السعادة الكاملة » ، ويعظم - كرفاق « أوزيريس » - بأشهى طعام .

ومن الطبيعى أن توقع أن إقامة الإسرائيليين الطويلة فى مصر قد أوجدت بينهم فهما لفكرة الحياة الثانية وما يتبعها من ثواب أو عقاب . ولكن « الموسوية » الخالصة [أو التعاليم التى تحمل هذا الاسم] لا تعترف بحالة وجود تختلف عن حالة الوجود الحاضرة . والمحور الذى يدور حوله كل نظام التشريع الموسوى يقوم على أساس ثواب وعقاب أرضى محسوس . أما نظرية البعث ، وما ينبع عنها

من أفكار ظهرت فيما بعد في اليهودية - خاصة في كتابات ودانيال وحزقيال،^(١) - فقد كانت ثمرة لغرس أجنبي مستمد من أصول «زردشتية»، حتى إن وصف الإقامة العامة للكائنات الراحلة، سواء العادلة منها والظالمة، التي تظهر في الكتابات المتقدمة بعض الشيء، لا يبدو أنها من أصل عبري صحيح. فلا يستطيع الإنسان فيها أن يحمده ربه أو أن يذكر حبه ورحمته. إنها مملكة ظلال، محاولة يهودية لمعارضة العالم الوثني غير المرتق؛ والموق [في هذه المملكة] لا يعلمون شيئاً عن كانوا أحبابهم على الأرض، فلا ينوحون إلا على أحوالهم.

ولم تلبث اليهودية، حتى ملئت - فيما بعد - بإيمان قوى بالحياة الأخرى، فقد غنيت آثارها بوصف منازل المؤمنين، أو ما يلائمه المشركون من عذاب. وأثرت الزردشتية على الجنس العبري تأثيراً مزدوجاً، فلم تكن تريد عنها فهماً أكثر نقاء وروحانية لحسب، ولكننا نجد أن المجوسية الزردشتية فيما بعد، - وهي ثمرة كالدانية - قد صبغت العقائد الربانية^(٢) بأراء مادية عن الثواب والعقاب في الحياة الأخرى. وعلى أية حال فإن شعوب الشرق الآرية هي التي عرفت نظرية الحياة الأخرى بعد الموت. ففي الفرع الأول من العائلة الآرية اتخذت النظرية إما شكل التناسخ الأبدي، دائرة لا تنتهي من الميلاد والموت، أو شكل فناء كلي بعد فترة اختبار طويلة في اللانهاية المطلقة، أو شكل لانهاية في زمن لا قياس له، أو لا شيء^(٣) واتخذت النظرية عند الفرع الآخر من العائلة الآرية شكل سلم متدرج للثواب والعقاب، بالمعنى الذي يفهم به الآن المسلم أو المسيحي قيمة الإنسانية.

هل كان المجوس الزردشتيون يعتقدون من البدء في البعث الجسدي؟ هذه مسألة اختلف فيها العلماء، فيرى دولنجر Dollinger وبيرونوف Burnouf أن هذه النظرية لم تكن زردشتية حقيقة، وأنها ظهرت متأخرة، إن لم تكن مستمدة من العبريين^(٤) ومهما كان الأمر في هذه المسألة، فإن الفرس، في زمن النبي

[١] بيان من أبناء بني إسرائيل الأربعة النظام، عاشا في القرنين السابع والسادس ق. م.

[٢] الربانيون هم كبة اليهود وطاؤم.

[٣] صبح البرامة عذاب النار ومسرات النعيم صبحه خيالية حية. وعلى الباحث العربي أن يرجع إلى النظريات البوذية عند شهرستان.

[٤] يرى آلجر Alger أن الزردشتيين الأولين كانوا يؤمنون بالبعث الجسدي.

العربي صلى الله عليه وسلم كانت لديهم نظرية قوية متقدمة عن الحياة الأخرى .
وتبين بقايا الزند أفستا التي وصلت إلينا ، بوضوح ، الاعتقاد بثواب وعقاب
مستقبلين . وترى زردشتية فنديداد وبوندهيش Vendidad & Bundehesh
- زيادة على اعتقادات الأفستا - أنه بعد موت الإنسان تملك الشياطين جسده ،
ولكنه في اليوم الثالث ، يرجع إليه الشعور . ولا تستطيع الأرواح التي استسلمت
- في الحياة - لاغراء الشيطان ، أن تمر على فطرة شينفاد Chinevad المحيطة ،
وهي الفطرة التي يجب أن تمر عليها في اليوم التالي ليلة الوفاة الثالثة . أما الأرواح
الطيبة فتنتجح في المرور ، يسدد خطاها « يا زاتاس Yazatas ، [وهو في الفارسية
الحديثة « إزاد Izad] ، ثم تدخل جنات النعيم حيث تصحب « أورمزد ،
وصحبه من « الأمشاسپاند Amshaspand ، في مقرهم حيث يجلسون على عروش
من ذهب ، ينعمون برفقة جنيات حسان Hoorân-i-Behisht ، وبجميع أنواع
المسرات . وتسقط الأرواح الشريرة من فوق الفطرة . أو تبحر إلى خليج « دوزاخ ،
حيث يعذبها « دايفاس Daevas ، ويحدد « أورمزد « مدة العقوبة ، كما أن بعض
الأرواح قد يخلصها صلاة ودعاء أصدقائها . ويظهر قبيل نهاية العالم ، نبي يخلص
العالم من الجور والشر ، ويستمر حكمه السعيد ألف عام وهي مملكة « أورمزد ،
السمائية ^(١) . وبعد هذا يبعث العالم أجمع ، وتقابل الأهل والأصدقاء ، وبعد
أن ينتهي سرور التعارف ، يفصل الطيبون عن الأشرار ، ويكون عذاب غير
الطيبين عظيما . ويذرع « أهريمان ، فطرة « شينفاد ، جيئة وذهابا ، وهو يقاسي
العذاب الأكبر ، ثم يهوى على الأرض مذنب ملتبس بحرقا ، تقتصر الجبال
وتنساق كالمعادن الدائبة فتغمر الجففس البشرية كله - طيه وحيثه - ليخرج الناس
بعدئذ جميعا من هذا الطوفان مطهرين . وبهذا يمحي الشر ، ويعيش الناس جميعا
في سرور ولذة لا يعادلها سرور ولذة .

هذه هي خلاصة دين قد أثر على المعتقدات السامية إلى درجة كبيرة .

وكان اليهود قد قدموا استقلالهم إلى الأبد ، واحتل عرش داود مدع بائس ،

[١] يسمى شمستان هذا النبي « أونيدريكا ، [ط كيرتون ص ١٨٨] وسمى علماء الغرب
أن اسمه « سوسيش Sosiesch ، ببقته بيان آخران هما ، أو شيدر باي Oscheder Bami ،
وأوشيدر ماه ، ويسمى « دوساس ، هذا النبي « باشوتان Pashoutan ، .

وتمكنت قوة أعظم من قوة السلوقيين^(١) أن تذكي فيهم روح الإذعان ، ومن هنا نشأ بين اليهود - مثلهم مثل أى أمة يملكها حب للوطن والعقيدة والفردية - أمل قوى بأن يسترد مبعوث سماوى - مثل جيدون أو مكابوس^(٢) - مجدهم الأول ، ويمكنهم من وضع أقدامهم فوق أعناق مضطهدهم الكثيرين^(٣) ، واتخذ ظهور المسيح ، عند الوطنيين منهم صورة حية ، وتركزت أناشيد اليهود وأغانيهم حول أمل واحد عظيم ، هو : استرجاع مملكة اسرائيل ، ولكن الإيمان بظهور « المسيح » كان إيمانا خافتاً غير متميز ، أو كان مجرد صدى لإيمان العوام بينهم ، وذلك بسبب الآثار المجوسية الزردشتية والكالدانية في الشرق ، ومدارس الفلسفة الإغريقية في الغرب .

أما يهود فلسطين ، فقد استخلصوا من عدة عناصر صورة ثخمة ، وإن كانت مضطربة ، لظهور المسيح ، فتعود الأشياء جميعاً ، ويعتد الموق ، وبحكم المسيح الأرض ، وهذه جميعاً حوادث إما أن تحدث معاً ، أو تترادف بسرعة ، الواحدة إثر الأخرى ، ويأتى المسيح من نسل داود ، فيجمع شمل القبائل المنفرقة شعباً ، ويطردهم ويهلك أعداءهم ، ثم يعيد الموق ، ولكن هذا كله يحدث لمصلحة الجنس اليهودى حسب^(٤) .

ووسط كل هذا الحماس ، وهذه الرؤى ، الغامضة ، كانت الآمال في الحياة الباقية ، والجنة المقبلة محتلطة متداخلة ، وكان اليأس والانتظار ، وهما حدان منطرفان ، يعملان دائماً على تهينة عقول الشعب ، فأخذ قسم منه ينتظر مملكة غير أرضية ، يسود فيها الأمن والقانون تحت سلطان من لدن الله ، وهى محاولة للهروب من قسوة حكم الأعداء : أما القسم الآخر فأخذ يطمح نفس المملكة الإلهية ، وإنما على دماء الأعداء والكفرة !

هذه فكرة الحياة الأخرى عند طائفة من الشعوب ، وبقى أن نتحدث عنها عند المسيحيين ثم المسلمين ، فى العدد القادم . [يتبع]

[١] أسرة حاكمة ، أسسها سلوقس الأول في سوريا ، حكمت من ٦٤٥-٣٢ ق . م .

[٢] مكابوس : اسم لسيمة إغرة استشهدوا ولهم تحت حكم أثيوكوش إيمان سنة ١٦٨ ق . م .

[٣] يرى آلمر أنه ليس ضروريا أن يعتقد اليهود بالناسخ لانهم يقرطون في ظهور « المسيح » أو غيره من أسيادهم ، وأن ذلك لا يتحدى الامانى الوطنية .

[٤] الشبه قوى بين اعتقاد اليهود والزردشتيين في ظهور مخلص ، ورى أن ذلك جاء نتيجة للاضطهاد الذى صادفه كل من الشعبين تحت حكم أجني .

فِي مَجْلِسِ الْقُرْآنِ

للفضيلة الأستاذ الشيخ السير شريف

المدرس بمسجد القاهرة

تعود كثير من المستمعين إلى آى الذكر الحكيم في حفلات المآتم والذكرى وبعض المناسبات - أن يجلس كل منهم إلى زميله يتحدث معه جهرة ، أو بين السر والجهر ، في شئون متنوعة ، وقد يتطرق بهما الحديث إلى تناول آخرين بالقدح وتعداد المثالب ، وقد يبلغ بهما التعمق فيه إلى أمور أقل ما يقال في الحديث عنها إن إثارتها عمل يحافى الذوق ، ولا يساوق الطبع ، ولا يتفق وما لمجلس القرآن من مهابة وكرامة ، وتوقير وتبجيل ، ورفعته وسمو .

وقد انتقلت هذه العدوى إلى المساجد ، إذ نرى فريقاً كبيراً من المصلين ، إذا ما سمعوا قارئاً ، يحزمون أمرهم باتفاق ، أو على سبيل المصادفة على أن يوجهوا إليه تحية ، ليست طيبة ولا مباركة عند كل وقف أو قبله بأصوات صاخبة مدوية ، مدفوعين إلى ذلك بدافع التشجيع له ، أو التعصب لفنه ، لما بينهم من روابط وصلات ، على أن من القراء من يتخذ له بطانة تلازمه في حله وترحاله ، تشيد بذكره ، وتترع الإعجاب والاستحسان من سامعيه ، حتى يعلو ذكره ، ويظهر صيته ، ويبلغ شأنه .

وتلك حالة ، كيفما كان الباعث عليها - تدعو إلى الآسى والالام ، ولا تتفق مع ما يجب لهذه المجالس من قدسية وجلال ، ليتوفر للجالس فيها ما يطلب منه ، من تفكير واعتبار ، وتدبر وإمعان في أسلوب القرآن ، للوقوف على ما فيه من روعة وجزالة وقوة ورصانة ، وما يفصح عنه ، من حكمة وعظمة ، وترغيب وترهيب ، ووعد ووعيد ، ودعوة حازمة إلى الطريق القويم ، وتوجيه حكيم إلى الصراط المستقيم .

وإن ما تقع عليه نواظرنا الآن في المساجد وغيرها ، وتنقله إلينا الاذاعة ، ويسمعه العالم الإسلامى والعربى أيام الجمع من نهو يش يثقل على السمع ، وتبرم

به الذاكرة التي تود أن تعي ، وتضيق له النفس التي تبغى التدبر والتأمل ، هو حرام
يأثم مقترفه ، والداعى إليه ، والمحذله ، لأنه فضلا عما فيه من مجافاة للذوق ،
فيه مخالفة للنص الصريح ، في قوله تعالى « وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا
لعلكم ترحون » وللعلماء في المراد من هذه الآية الكريمة أقوال أحسنها قول الحسن
وأهل الظاهر .

أن غوى هذه الآية على العموم في أى وقت وفي أى موضع ومن أى قارىء
قرئ القرآن ، يجب على كل أحد الاستماع والسكوت ، لأن قوله فاستمعوا وأنصتوا
أمر ، وظاهر الأمر الوجوب ، فقتضاء أن يكون الاستماع والسكوت واجبين ،
والمراد من الاستماع الإصغاء ، والمقصود من الإنصات السكوت للاستماع ، بحيث
يحيط السامع بذلك الكلام المسموع على الوجه الكامل ، كما قال تعالى لموسى عليه
السلام « وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى » .

وفقد ذهب بعض العلماء إلى عدم الاكتفاء من سماع القرآن بالسكوت
والإصغاء ، بل طلب منه الإجابة والقبول كما قال الزجاج ، ورأى أن هذا أوفق
لتأليف النظم الكريم سابقا ولاحقا ، وأجمع للعاني والأقوال ، فإنه تعالى لما ذكر
قوله « هذا بصائر من ربكم وهدى ورحمة لقوم يؤمنون » تعريضا بأن المشركين
لأنما استهزءوا بالقرآن وبذوه وراءهم ظهريا ، لأنهم فقدوا البصائر وعدموا الهداية
والرحمة وأن حالهم على خلاف المؤمنين ، لهذا ، أمر المؤمنين بما هو أزيد من مجرد
السماع ، وهو قبوله ، والعمل بما فيه والتمسك به بالألا بماوزوه ، فيما يأتون وما
يدعون ، وفي ذلك يقول تعالى « كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته » وقال
« أفلا يتدبرون القرآن » ، وصفة ذلك أن يشغل المؤمن قلبه بالتفكير والنظر إلى
الأوامر والنواهي ، ويعتقد قبول ذلك ، فإن كان مما قصر عنه فيما مضى ، اعتذر
واستغفر ، وإذا مر بآية رحمة ، استبشر وسأل ، أو عذاب أشق وتعوذ ، أو دعاء
تضرع وطلب .

على أن رفع الصوت في المساجد بالعلم والذكر وفي غير حضرة القرآن كرهه
مالك وجماعة من العلماء فكيف بهذه الأصوات ترتفع قوية مجلجلة بغير العلم

والذكر وفي حضرة القرآن . إنه - لا شك - ذنب عظيم وإثم كبير . يعيد الى الذاكرة ما كان يقترفه أولئك الذين استهانوا بحرمة البيت حينما تقربوا إليه بالمسكاء والتصدية . وفي ذلك يقول تعالى : وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية ، أى صغيرا وتصفيقا .

وفي كنف هذه الآداب حجب الدين الخفيف للسامع أن يطلب ذا الصوت الندى الجميل . الذي يرسل الى الآذان لحنا عذبا جميلا . يلس الإحساس فيملا النفس نشوة وإرتياحا ، والقلب إيمانا وقينا ، وقد أخرج البزار وغيره : حسن الصوت زينة القرآن ، وأيضا حمد من القارئ إن لم يكن حسن الصوت أن يحسنه ما استطاع الى ذلك سبيلا بحيث لا يخرج الى حد التخطيط الذي يتولد منه عن الفتحة ألف والضممة واو . والكسرة ياء . أو يدغم في غير مواضع الإدغام . فإن وصل به التحسين الى هذا الحد ، كانت القراءة حراما ، يفسق بها القارئ ، ويأثم المستمع لأنه عدل بالقرآن عن نهجه القويم - كما رغب إليه أن يضع نصب عينيه ، الحفاظ الشديد ، والعناية التامة بالكتاب العزيز ، فيحافظ على سلامة لمطه ويرعى ترتيب آيه ، وأن يجلس إليه خاشعا ، يزيه الوقار ، وبحوطه الحياء ، متطهرا متجملا ، وأن يحذر قطع القراءة بمكاملة أحد ، لأن كلام الله لا ينبغي أن يؤثر عليه كلام غيره ، وقد كان ابن عمر إذا قرأ القرآن لم يتكلم حتى يفرغ منه ، وأن يأخذ نفسه على ترك الضحك والعبث والنظر الى ما يلهي .

هذه بعض الآداب التي يجب أن تتوفر لمجالس القرآن ، دستور الله القويم ، ومعجزة رسوله الخالدة ، ونهجه المشرق الواضح ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد .

وفق الله المسلمين الى رعاية قدره ، وهداهم الى الخير ، وجنبهم مواطن الزلل .

إنه سميع مجيب

آراء العرب

الذين عاصروا عهد النبوة

في إعجاز القرآن الكريم

للمفصلة الأستاذ محمد عبد المنعم صفاهي

المدرس بكلية اللغة العربية

- ٢ -

قدمنا طرفاً من آراء العرب الذين عاصروا عهد الرسول الأعظم ، في القرآن الكريم ، وبلاغته ، وقضية إعجازه ، وعجزهم عن الوقوف أمام تحديه ، وإقرارهم بالعجز على أنفسهم .

وتابع اليوم بقية هذا البحث الموجز الدقيق :

كان مسيلة يعارض القرآن الكريم بخرافات وأقوال سخيفة ، ذكر طرفاً منها الباقلاقي في كتابه « إعجاز القرآن » . وهي معارضات لا يمكن أن توزن بالقرآن في سموه وجلال إعجازه بأي حال ؛ وقد أصيب مسيلة بالحزى والدل والهوان أمام نفسه وعند الناس .

ويقول صاحب الشفاء : وروى أن ابن المقفع طلب معارضة القرآن ، ورامه وشرع فيه . فر بصبي يقرأ : « وقيل يا أرض ابلعي ماءك » ، فرجع ، فحى ما عمل ، وقال : أشهد أن هذا لا يعارض ، وما هو من كلام البشر ؛ وكان من أفصح أهل وقته ... وكان يحيى بن حكم العزال بليغ الأندلس في زمنه ، لحكى أنه رام شيئاً من هذا ، فنظر في سورة الإخلاص ، ليجذو على مثالها ، وينسج بزعمه على موالها . قال : فاعترتني منه حشية ورقة حملتني على التوبة والإنابة ^(١) .

وتتهمون المتنبى والمعري وغيرهما بمعارضة القرآن الكريم ، وهذا لم يصح عن أحد منهم .

وما روى من آثار معارضة القرآن لا يوافق ذوق علي وضعه في كفة واحدة مع القرآن الكريم .

ويقول الدكتور طه حسين باشا : تستطيع أن نطمئن إلى أن القرآن لم يجد له مقلدا ، ولم يجد له تلميذا . هو واحد في باب ، لم يسبق ولم يلحق بما يشبهه ^(١) . وسنعود إلى حديث المعارضة في بحث مستقل إن شاء الله .

أمية بن أبي الصلت يعارض القرآن :

ويقولون إن أمية قد وقعت منه في شعره عدة معارضات للقرآن الكريم . وحاشا لله أن يوزن شعر أمية الديني الذي نظمه بعد بعثة الرسول بيلاعة القرآن الكريم .

ولقد نظم أمية قصصا ديفية كثيرة ، كقصص مريم ، وقصة موسى ، وقصة إبراهيم ونوح وغيرهم : ولكن أين هذه القصائد من هذا الإعجاز ، وذلك السحر القرآني العظيم ؟ والسكوتيات في شعر أمية ، والأساطير وقصص خلق العالم ، وقصص الأندياء ، كل ذلك لا يقبل ذوق أن يعده معارضة للقرآن ، وأين الثريا من الثرى كما يقولون ؟ .

وفي شعر أمية يبدو تأثيره الواضح أحيانا بيلاعة القرآن ومعانيه وأساليبه ، كما تجده في هذه الآيات :

عند ذي العرش يعرضون عليه	يعلم الجهر والسكلام الخفيا
يوم تأتيه وهو رب رحيم	إنه كان وعده مأثيا
يوم تأتيه مثل ما قال فرداً	لم يذر فيه راشداً وغويا
أسعِد سعادة أنا أرجو	أم مهان بما كسبت شقيا
رب كلا حتمته وارد لنا	ر كتابا حتمته مقضيا

الشعراء تهرم بِلَاغَةُ الْقُرْآنِ فَلَا يَنْطَقُونَ :

وأنتم تعلمون أن الشعراء في أول عهد النبوة كانوا طوائف ثلاثاً . فطائفة كانت تعارض رسالة محمد وتحاربها أشد حارب ، ومنهم : عبد الله بن

[١] ص ٣٢ من حديث الشعر والنثر للدكتور طه

الزبيرى ، وأبو سفيان بن الحارث ، وعمرو بن العاص ، وضرار بن الخطاب ، وهؤلاء جميعاً أسلموا بعد حين وبعد أن بهرتهم بلاغة القرآن .

وطائفة أخرى كانت مع الرسول وأصحابه ، تدافع عن الدعوة والرسالة : كحسان ، وكعب بن مالك ، وعبد الله بن رواحة . وهؤلاء إعجابهم ببلاغة القرآن وتأثرهم به معروف .

وطائفة ثالثة كانت تعيش في نجد بعيداً عن مكة والمدينة ومواطن نزول الوحي . ومن هؤلاء : الخطيئة ، وكعب بن زهير وغيرهما . وقد ظل شعراً جاهلياً حتى أسلموا وسمعوا القرآن وتأثروا بفصاحته وبيانه .

وأتمّ تعلون قوة شعر حسان في الجاهلية ولينه في الإسلام ، انهياراً بجلال القرآن وروعته . وتعلون شموخ شعر أمية بن أبي الصلت في الجاهلية واستخذه في الإسلام ، عجزاً أمام هذا البحر الساحر ، والبلاغة المتدفقة ، والإيجاز العجيب ويروون أن ليبدأ لم يقل شعراً في الإسلام إلا بيتاً واحداً :

ما عاتب للمرء الكريم كنفسه والمرء يصلحه الجليس الصالح
وقيل قوله :

الحمد لله إذ لم يأتني أجلى حتى اكتسيت من الإسلام سرّاً
وقال له عمر : أشدنى من شعرك ، فقرأ سورة البقرة ، وقال : ما كنت لأقول شعراً بعد إذ علني الله سورة البقرة ، فزاد عمر في عطائه^(١) .
ويروى أن عمر كتب إلى عامله : أن سل ليبدأ والأغلب ما أحدثنا من الشعر في الإسلام ، فقال الأغلب :

أرجزا سألت أم قصيذا ؟ فقد سألت حيناً موجودا
وقال ليبدأ : قد أبدلني الله بالشعر سورة البقرة وآل عمران فزاد عمر في عطائه^(٢) .
بلغاء العرب يتأثرون ببلاغة القرآن :

[١] ص ٨٩ الشعر والقصائد لابن قتيبة .

[٢] طبقات القراء لابن سلام .

وكما تأثر الشعراء بالقرآن وبلاغته ، فكذلك تأثر الخطباء والكتاب والبلاء في عصر الرسول وبعده ؛ ويقول ابن خلدون في مقدمته في بيان السبب في أن كلام الإسلاميين من العرب أعلى طبقة في البلاغة وأدواقيها من كلام الجاهلية ، ومشورهم ومنظومهم : السبب في ذلك أن هؤلاء الدين أدركوا الإسلام سمعوا الطبقة العالية من الكلام في القرآن والحديث ، والذين عجز البشر عن الإتيان بهما ، لسكونها ولجأت في قلوبهم ، ونشأت على أساليبها نفوسهم ؛ فهضت طباعهم وارتقت ملكاتهم في البلاغة عن ملكات من قبلهم من أهل الجاهلية ، ممن لم يسمع هذه الطبقة ، ولا نشأ عليها ؛ فكان كلامهم في نظمهم ونثرهم ، أحسن ديباجة ، وأصنى رونقا ، من أولئك ، وأرصف مبنى ، وأعدل تثقيفا ؛ بما استفادوه من الكلام العالي الطبقة^(١).

وقد ظل تأثر الأدب العربي واللغة بالقرآن الكريم واضحا جليا في كل عصر ؛ من عهد النبوة حتى اليوم .

فهل بعد ذلك كله نحتاج إلى دليل على الإغماز ، وإقرار العرب بهجزهم أمام تحدى القرآن ، واعترافهم بقصور ملكاتهم ومواهبهم عن معارضته ؟ اللهم لا .

وما أصدق ما يقول رسول الله صلوات الله وسلامه عليه :

« إن الله أنزل هذا القرآن أمرا وجزاء ، وسنة خالية ، ومثلا مضروبا . فيه نبؤكم ، وخبر ما كان قبلكم ، ونبا ما بعدكم ، وحكم ما بينكم . ولا يحلقه طول الرد ، ولا تنقضي عجائبه ، هو الحق ليس بالهزل . هو الذكر الحكيم ، والثور المبين ، والصراط المستقيم ، وحبل الله المتين » .

وفي الحديث : قال الله تعالى لمحمد صلوات الله وسلامه عليه : إني منزل عليك توراة حديثة ؛ تفتح بها أعينا عميا ، وآذانا صما ، وقلوبا غلفا . فيها يتابع العلم ، وفهم الحكمة ، وريع القلوب .

الإسلام الحق

بقلم الأستاذ الشيخ عبد الحلیم محمود عبد الرزاق

من علماء الأئمة

الإسلام دين يسمو بالروح المتسكة به إلى مدارج السمو والارتقاء . ثم هو يعالج كل مشكلات الحياة أنجع العلاج ، فإن لم تكن هناك مشكلات فهو يرسم للإنسانية أسلم خطة تسعدها في الدنيا والآخرة ، بل ويقتظم كل سبب ينعطف بالناس نحو حياتهم أو مماتهم ... هكذا جاء محمد صلوات الله عليه بالإسلام من عند ربه .

فاذا يا ترى كان شأن الإسلام بين أهله بعد محمد صلى الله عليه وسلم ؟ ذلك ما نرى إليه من كلتا هذه .

سوف نتحدث عن إسلام جديد إذن ، ولا نغنى به إسلاماً غير ما جاء به محمد صلوات الله عليه ، ولكن نغنى أن كثيراً من المسلمين في مختلف العصور قد خلعوا على الإسلام نعوتاً وأوصافاً من عند أنفسهم ، وزادوا عليه أو انتقصوا منه بالقدر الذي يرضى أهواءهم . فمن ثم بدا لهم أن حدود الإسلام كما رسموا ، وأن حقائقه كما فهموا . ساعدتهم على ذلك مرونة الإسلام وسعته ، ومجاراته لحاجات الحياة جميعها . على أنه للحكمة السامية كان في الإسلام ذلك - لا للشطط والتأويل .

ولهذا اختلف المسلمون في معنى الإسلام أكبر اختلاف ، وانطبعت في نفوس الناس للإسلام صور غاية في التباين والتمايز ، كلها إما قريب من تعاليمه أو بعيد عنها . وبعضها منطبق على الإسلام الحق الذي جاء به محمد صلوات الله عليه وذلك فيما نرى أقل من القليل .

رأت جماعة من المسلمين أن الإسلام ليس شيئاً إلا أن يكون عبادة ظاهرة ، لا هم لهذه الجماعة إلا أن ترى هذه العبادة مؤداة ليكون المسلم قد قام بواجبه نحو الناس ، ويكون الناس بهذا قد وصلوا إلى لب الإسلام وحيه فؤاده . ولعل هذا رأى عامة المسلمين اليوم .

وجماعة أخرى رأت أن الإسلام ما هو إلا خلق فاضل ، وفيضان من الروحانية

وغذاء دسم من الفلسفة للعقل ، ومانع قاهر جبار ينأى بالروح عن طغيان المادة وظلمها وجبروتها ومخافتها لحقائق الأشياء .

وجماعة نائلة ترى الإسلام ديناً ينبغي أن نعجب به ونشيد بذكره ونسبح بحمده كلما ذكر شيء عن الإصلاح وطرقه لأن الإسلام فيه عند هذه الجماعة من المعاني الحيوية العملية ما يسعد المجتمع ويسمو به حتى لا مطمع في مزيد وأكثر هذه الجماعة يقف عند ذلك فقط لا يتجاوز إلى ما طلب الإسلام وأكد في طلبه من مراعاة حقوق الله وحقوق العباد

وجماعة ترى الإسلام نوعاً من الديانات التي خلصها الآباء للأبناء فكانت في عداد ما ورثوا وضمن ما يجب عليهم أن يقلدوا فيه آباءهم وأجدادهم ، فلا غناء في الإسلام عند هؤلاء ، ولا نهضة للمجتمع عن طريقه . فهذه الجماعة متبرمة بالإسلام أشد ما يكون التبرم ، ترى في التمسك به حباً لا متينة تربطها بالرجعية والوجود . وهذه الطائفة جعلها بمن تتقفوا ثقافة أجنبية بعدت بهم عن الفهم الصحيح للإسلام فكأنهم لم يعرفوا عنه شيئاً أصلاً أو عرفوا عنه ما غمره المسخ والتشويه والبهتان . تلك صور متعددة لشيء واحد ، وأفهام مختلفة لمفهوم واحد . أما السبب في ذلك الاختلاف والتباين ، فهو ما ألمعنا إليه من جرى الناس وراء شهواتهم ومن سوء استغلالهم لمرونة الإسلام الخفيف ، بل من عدم إمعانهم في تعرف أسرارهِ والبحث عن كوامنه .

وبعد : فإسلام اليوم الجديد الذي يجب أن تمسك به حتى النهاية هو ما جاء به محمد صلوات الله عليه من عذريته ولم يحرفه المخرفون ولم يتأول فيه المتأولون هو الكتاب الكريم : ما فرطنا في الكتاب من شيء ، والسنة المطهرة : وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى .

فالإسلام إذن في حقيقته التي تؤلم الكثيرين من عباد الشهوات هو عقيدة وعبادة وقومية ووطن ، ودين ودولة ، وروحانية وعمل ، حتى إن القرآن الكريم ليعتبر هذا من لب الإسلام وصميمه حين يوصي بالإحسان فيه فيقول : وابغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيحتك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ، والآلة بعد ذلك والبراهين لا تدع مجالاً لمخرف أو تعطى سائحة لتأول فآليات الآتية ناطقة أفصح ما يكون النطق ودالة أصدق ما يكون التدليل على حقيقة الإسلام التي قدمنا : ففي العبادة والعقيدة يقول تعالى : وما أمروا إلا ليعبدوا الله

مخلصين له الدين خفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة ، وفي السياسة والقضاء والحكم بين الناس يقول تعالى : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلووا تسليما » ، وفي المعاملات يقول : « يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه وليكتب بينكم كاتب بالعدل ولا يأب كاتب أن يكتب كما عهده الله فليكتب وليملل الذي عليه الحق وليتق الله ربه فإن كان الذي عليه الحق سفيها أو ضعيفا أو لا يستطيع أن يمل هو فليملل وليه بالعدل واستشهدوا شهيدين من رجالكم فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تفضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى ولا يأب الشهداء إذا ما دعوا ولا تساموا أن تكتبوه صغيراً أو كبيراً إلى أجله ذلكم أحسب عند الله وأقوم للشهادة وأدنى ألا ترتابوا إلا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينهم فليس عليكم جناح ألا تكتبوها وأشهدوا إذا تبايعتم ولا يضار كاتب ولا شهيد ، وإن فعلوا فإنه فسوق بكم واتقوا الله ويعلمكم الله والله بكل شيء عليم » .

وفي الحرب يقول : « وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتنم طائفة منهم معك وليأخذوا أسلحتهم فإذا سجدوا فليكونوا من ورائكم ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم ، ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة ولا جناح عليكم إن كان بكم أذى من مطر أو كنتم مرضى أن تضعوا أسلحتكم وحدوا حذركم إن الله أعد للكافرين عذابا مهينا » .

إلى كثير من الآيات التي تناول كل مقومات الحياة قاصيها ودانيها .

هكذا يجب أن نفهم أن الإسلام دين ينظم شئون الحياة جميعها لكل عصر ولكل جنس ، وإن لم نفهم فإن العاقبة جد وخيمة ، وإنها لتسير بنا إلى حيث نهلك ونذل ونخزي أكثر مما نحن فيه ، ونسكون حينئذ والعياذ بالله كما قال تعالى : « أفؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك إلا خزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون » ونعوذ بالله من أن يحمل بنا عذابه أو خزبه ويعوذه من أن نظل هكذا نتخبط لا ندري من أمرنا أين رشفه .

الإسلام والاشتراكية

لحضرة الأستاذ معبر زهير

مقدمة :

الاشتراكية مذهب اقتصادي حديث يعنى المساواة بين الناس في التاحتين المادية والأدبية ، وكأى مذهب حديث يظهر في الغرب انبرى له المسلمون بالدراسة والتحليل ، لمعرفة مدى اتفاهه مع دينهم أو اختلافه معه ، ولقد ظهر — مع الفجر — أن الإسلام قد طبق نظرا لا يصح لنا أن نسميها اشتراكية إلا بالتجاوز . فهي تفوق الاشتراكية في عدلها ومساواتها ومراعاتها للتاحتية الإسلامية .

ولقد عثرنا يوم أن كنا مهتمين بدراسة هذا الموضوع على كتاب وضعه أستاذ هندي ^(١) باللغة الإنجليزية بعنوان « الإسلام والاشتراكية » ، قدم له بمقدمة طويلة ، فصل فيها منهج الإسلام في السياسة والدولة . ولقد رأينا أن نقول لقراء العربية تلك المقدمة الى لغة الضاد ، عليها تلفت الأنظار الى ما في الإسلام من إحاطة بدقائق النفس البشرية ومعاملة أفراد البشر معاملة كريمة تليق بأدميتهم .

قال الأستاذ مشير : اعتذر الى قرأني عن عرض هذا الموضوع الذي يبرز كل يوم عرضا سريعا ، وبالرغم من أن التأليف الأوربي في موضوع الاشتراكية ليس قليلا بأى حال ، فإن القارئ العادى لا يألفه ، ولا أعلم بوجود كتاب قد بحث هذا الموضوع في لغة شرقية ^(٢) كما أنى لا أعتمد كثيرا على التأليف الغربى القيم في هذا الصدد نظرا لأن آرائى حول الاشتراكية تختلف الى حد كبير عن آراء الكتاب الأوربيين . ولسوء الحظ ليس من اليسير القيام ببحث على في الهند نظرا لقلة المكتبات القيمة وندرتها ، اللهم إلا كتب قليلة مثل التى أعارنى إياها صديقى

(١) الأستاذ مشير حسين كيدوى

S. Mushir Hosein Kidwai • Islam and Socialism.

(٢) يجب أن نلاحظ أن المؤلف وضع كتابه سنة ١٩١٢ م

مولوى نظام الدين صاحب ، والمستر ر. س. هورت وتلك المساعدة التي أسداها
الى صديقى الحميم قوار مهرابا ، وأخى الفاضل الشيخ مقبول حسين صاحب ، وإذن
فكان على أن أعود الى المصادر الضئيلة التي بين يدي ، ذلك هو السبب الرئيسى
فى أن هذا الكتاب الصغير ليس كاملا على النحو الذى أردت .

وبعد أن بين المؤلف الصعوبات التي اعترضته فى تأليف الكتاب ونشره ، أشار
إلى المصادر الإسلامية التي استمد منها البحث ، وأولها القرآن الكريم نفسه ، قال :
لأتى على يقين من مدى جهل أوروبا بمضائل الإسلام ، ورأيت أنى باستعراض
أصول الإسلام ربما أنجح فى إقناع قرائى بأن فكرة الاشتراكية فى الإسلام
ليس عمرها أقل من ثلاثة عشر قرناً ، وأنها لا يمكن أن تعزى إلى التأثير الأوروبى ،
فلست أقصد بهذا إلى القول بأن الدعاية الاشتراكية المنظمة كما تعرف اليوم ، كانت
توجد حيثئذ بل أريد أن أؤكد أن مبادئ الاشتراكية لم تكن مجهولة فى المجتمع
الإسلامى فى عهد محمد نفسه . وأن هذه المبادئ طبقت فى كثير من الأحيان أكثر
مما طبقت بأوروبا فى أى وقت مضى بعد ذلك التاريخ . ولعل هناك بعض القراء
الذين لا يودون أن يتأملوا كثيراً من النصوص التي كثيراً ما يبدو أنها تقطع سلسلة
الأفكار ، ولهذا فلن أعرض فى هذا الكتاب إلا للنقط الأساسية .

للاشتراكية من وجهة النظر الحديثة مظهران :

الاول : اشتراكية الدولة وهي إما أن تكون مركزية أو ممثلة فى المجالس البلدية .

الثانى : الاشتراكية الصناعية .

والنوع الاول هو المظهر الأهم ، ذلك لأنه إن كانت الدولة اشتراكية فتصطبغ
الصناعة بالاشتراكية إلى حد كبير ، والأرض نفسها هى منبع الإنتاج ومجال للصناعة
العظمى ، وإذن فينبغى أن نغير اشتراكية الأراضى واشتراكية الدولة أعظم اهتمام
ثم إن الإسلام قد قصر نفسه على هذا النوع من الاشتراكية فبمجرد أن أصبحت
الدولة فى يدى الرسول صلى الله عليه وسلم اصطبغ دستورهما بالصيغة الاشتراكية
وأصبحت الأراضى ملكاً للدولة ، وقد طبقت هذه السياسة عند ما بسط الإسلام
رواقه على البلاد الأجنبية وحتى المغول فى الهند نهجوا هذه السياسة الاشتراكية
فما يخص بالأراضى ، كما أن خلفاءهم ظلوا يفسجون على منوالهم إلى يومنا هذا

على نحو مسرف لدرجة أنه لا ترد جميع المنافع إلى الدولة فحسب ، بل إذا اكتشف شخص منجبا فعليه أن يرده إلى الدولة التي تعد المالك الحقيقي للأراضي ، وكل ما يوجد تحتها ، وقد كانت الأراضي إبان الحكم الإسلامي تؤولها الدولة للشعب ، وبذلك كانت تعتمد مالياً على الدخل الذي يأتيها من الأرض التي لا تزال حتى الآن المصدر الرئيسي لموارد الدولة ، ويقضى قانون الميراث في الشريعة الإسلامية بأن تقسم ثروة المورث إلى حصص صغيرة ، وبذلك تتناول ملكية الدولة عدداً كبيراً من الأفراد جيلاً بعد جيل ، ولا شك أن هذا القانون يسدد ضربة قاضية إلى الدوقيات الواسعة ، فالمالك الحقيقي للأرض هو الدولة ، ونظراً إلى أن الدولة اشتراكية فإن أهم وسائل الإنتاج ستكون خاضعة للملكية الشعب .

على أن هذا النوع من اشتراكية الدولة ليس هو النظام الوحيد الذي سجل محمد به نظاماً تقديمياً ، لأن نظام الدولة نفسها كان قائماً على أسس اشتراكية صرفة . وما يجدر ذكره أن الاشتراكيين في هذا العصر يناوون بالاشتراكية الديمقراطية فهم يريدون أن تقوم الحكومة على أساس تطبيق نظام إيفاد مندوبين إلى المجالس أو الهيئات التمثيلية ، بيد أن الحكومة القائمة على النظام النيابي أو التمثيلي ديموقراطية وليست اشتراكية بالمعنى الحقيقي ، فالنظام الاشتراكي يقضي بأن يكون للشعب نفسه صوت مباشر في الدولة ، وقد بلغت الدولة على عهد الإسلام ذروة الاشتراكية في هذا الصدد . فقد كان الناس يعلمون أن التشريع ليس في يد وزارة أو برلمان ، وأنه لا يخضع قط لمصالح أية طبقة أو جنس أو دائرة انتخابية . لجميع قوانين الإسلام مقدسة ، صدرت عن مشرع لا يحابي أحداً ، فهي ليست من صنع الإنسان وليست من صنع أية هيئة تمثل فريقاً من أصحاب الامتيازات ؛ بل إن للإنسانية - كوحدة - امتيازاً مشتركاً ، وليس في وسع شخص أو جماعة متجنين أو مختارين تغيير تلك القوانين من أجل طائفة خاصة أو حزب أو طبقة . والجمعيات التشريعية اليوم كلها تعد هيئات نيابية ، والحكومات التي تقوم على أساس هذا النظام تنجح الفرصة لقيام الأحزاب ، ومن شأن الأحزاب أن تخلق روحاً غير اجتماعية ، والتشريع الذي يرجع فيه إلى الشعب أقرب إلى الاشتراكية من التشريع القائم على النظام النيابي ، ولكن يجب أن يكون

للمرجع هو الشعب كله دون إقصاء طائفة أو حزب ، ومن ناحية تفسير القانون للمقدس (القرآن) للمسلمين فقد أعطى الإسلام امتياز هذا التفسير للرجل والمرأة على السواء وقد يكون التفسير الذى تذهب إليه امرأة عجوز فقيرة خيراً من تفسير الخليفة الذى يجب عليه فى هذه الحال أن يتبع رأى الصائب .

ويقضى هذا القانون بأن تكون الحكومة فى أيدي الأفراد بحسب مقدرتهم واستحقاقهم عن طريق المندوبين . وكأن رؤساء الحكومة أدوات يقومون بمحاجات ورغبات الشعب حتى يسود القانون الإلهى وفقاً للتفسير الذى يذهب إليه الشعب .

هذا وتعد البيروقراطية فى الحكومة من أخطر النظم ، ولهذا فإن المسلمين كانوا يأخذون حذرهم منها ، ولم تكن حكومتهم بيروقراطية بأى معنى ، ولم تكن هناك أقسام حكومية أو وزارات ، ولم يكن رؤساء الحكومة مستقلين عن رأى العام كما هو الشأن فى الوزارات القائمة فى حكومات العصر الحاضر الديموقراطية ، وكان على زعماء المسلمين أن يحترموا لإرادة الشعب فى كل شأن من شئون الحياة ، اجتماعية كانت أو سياسية ، ولم يكن فى وسعهم أن يغفلوا مطالب الشعب فى شأن ، ويحتجوا وراء الأغلبية البرلمانية فى شأن آخر كما يفعل اليوم الوزراء الديموقراطيون .

وتعرض الكاتب بعد هذا للصحافة الأوربية حين نددت بتصرف الطليان فى طرابلس ، قائلاً إن هذا التدبير إنما يقع على الشعب نفسه ، بيد أن الوزراء الأوربيين أجمعوا على إهمال رأى العام ، وأصموا آذانهم عن كتابات الصحف . وحتى أول البرلمانات ^(١) (الترجمة الحرفية أم البرلمانات The mother of Parliaments) ليس ديموقراطياً ، إذ ظل إلى العام الماضى حاضماً للصوت الجائر الذى ينطلق من هيئة ليست ديموقراطية ولا ممثلة . أما الديموقراطية الصحيحة فيجب أن تضع الإدارة والتشريع فى يد الشعب ، وبصرف النظر عن النظام الاشتراكى فإن الغربيين لم يستطيعوا إنتاج نظام ديموقراطى كامل لدولهم ، فلا يزال الجيش فى كثير من دول أوروبا أجيراً فى حين أن الإدارة المدنية فضلاً عن الجيش كانت خاضعة للنظام

(١) لعله يقصد البرلمان الانجليزى .

الإسلامي القديم الذي يقضى بأن يكون القائمون عليها أبناء الأمة ، هذا وقد كان يوجد بحكم النظام الإسلامي جيش من المواطنين يخوض غمرات القتال دفاعاً عن شرفه وبلاده كما هو الشأن مع أبطال الجيش الذي دافع عن طرابلس ، ولم يكن الجنود المسلمون . والمدنيون المسلمون يقبضون رواتب على شكل أجور ، وكانت الدولة تسكّل بأبنائهم وأسرمهم ، كما هو الشأن مع طلاب الكليات أو مع المسنين والأطفال الذين ليس في وسعهم أن يستقلوا بالعمل لكسب قوتهم . وكان الشجعان من الجنود والقواد يقبضون مكافأة جزاء لخدماتهم الوطنية ، وكانوا إذا تركوا أرامل أو يتامى تكفلت الدولة بمن تركوا ، وأما الذين يستطيعون أن يقوموا بنفقات طعامهم وحاجاتهم فلا تصرف لهم أية مساعدة مادية في وقت الحرب ، بل عليهم أن يتولوا أمر أنفسهم كسائر الرعايا . ومن الأمثلة الحية لهذا الصنف ، المجاهدون العرب من أهل طرابلس .

ويجمل القول : أن التنظيم العسكري والمدني للدول الإسلامية كان اشتراكياً يكاد يبلغ حد التمام ، ولكن لا يمكن القول بأن هذا النظام كان مطبقاً على الناحية الأخرى من الاشتراكية ، وهي الاشتراكية الصناعية . إذ لم يكن من الميسور إحداث تطور عظيم في الاشتراكية الصناعية نظراً إلى أن الصناعة كانت حينئذ لا تزال في طفولتها .

(يقبع)

الأجواد

أجواد الإسلام ثلاثة كانوا في عصر واحد : عبيد الله بن عباس ، وعبد الله بن جعفر ، وسعيد بن العاص .

فن جود عبيد الله أنه أول من فطر جيرانه ، وأول من وضع الموائد على الطرق ، وأول من حيا على طعامه ، وفيه يقول شاعر المدينة :

وأنت ربيع للبتسامي وعصمة إذا المحل من جو السماء تطلعا
أبوك أبو الفضل الذي كان رحمة وغوثاً ونوراً للخلائق أجمعا

مِنْ نَيْاسِ الْحَيَاةِ

لحضرة الأستاذ إبراهيم حماد

مراغب بالأدب

نشأت في مصر . لا تعرف عن أهلها ولا بلدها شيئاً . فقد غادرت الريف في سن مبكرة . لتخدم عند أسرة تقيم في المدن .

وكان أبوها قد مات . ولم يترك شيئاً يورث ، فالتوت سبل الحياة بأمها المعذمة ، واعتاصت عليها طرائق العيش الشريف ، ولم تجد في حياة الناس متسعاً لها ، ولا في مالهم باباً تستجديه .

فلجأت إلى الزواج ، ورماها الزمن بزوج فقير لا يكاد يجد ما يقينه ، ورضيت هي به لتتقئ السنة الناس ، وتدفع غائلة العوز الشديد . . . ولكن حاجته الملحة ، وحالته الضيقة ضاقتا بابتها ، فاحتال للتخلص منها . فأخذ يزير لها حياة المدن ، ويحببها في عيشها الرغد ، ورغبها في دفع بنتها إليه . . . وما زال بها يلاطفها حيناً ، ويقسو عليها حيناً ، حتى لانت آخر الأمر . . . وكان هذا آخر عهدها بابتها ما بقي لها من حياة .

• • •

سافرت إلى مصر ، وزاولت مهنتها التي ساقتها إليها المقادير ، كما اعتادت مثيلاتها من الخدمة في بيوت القادرين . فلقبت عتاً ، وأصابها مكروه ، فهامت على وجهها تبحث عن بيت تجد فيه الرحمة والأمن ، وتصيب فيه الخير والدعة ، وتشعر بالهدوء والاطمئنان ، ولكن حظها العاثر قد آلى أن لا يهدأ لها بال ، أو يقر لها مضجع ، أو تسكن منها نفس . فرماها في بيت لم يكن خيراً من سابقه ، وبأناس لم يعرفوا الإحسان ولم يقروه .

فظلت تجرب حظها ، وصارت يلفظها بيت فيناقفها آخر بالشر والسكر ، حتى ضاقت بالحياة ، وثبت في نفسها أن « السادة » كلهم سواء ، وأن قلوبهم جميعاً قد

تجردت من الخير ، فلم تدن منه ، وأن نفوسهم قد دخلت من الإيمان فلم يراقبوا الله ، ولم يخشوه ، وكأنهم آمنوا بكر الله ، وغدر الزمن ، ومدولة الأيام ، فلم تهدم عظة ، ولم يهد من سورتهم خوف من قانون ، أو جزاء من عقاب ، أو صوت — ولو خافت — من تقريع النفس وتأنيب الضمير .

وأى ضمير عند هؤلاء ، وقد أبطرتهم نعاء الحياة ولينها ، فأنكروا مرارة العيش وقسوة الأيام ، ولم يبالوا بطبقة وخدم ، ونسوا أنهم مثلهم كلهم من آدم وآدم من تراب ١١٩

• • •

ولما آداهما الاحتمال ، وعيل الصبر ، أنكرت ماضيها وأقبلت على حياة جديدة فيها اللهو والإغراء ، وفيها الطهر والعفاف ، وتزوجت أخيراً من « عامل » فرضيت به ، وهدأت نفسها وقرت ، ووهبت بيتها وزوجها كل ما أوتيت من قوة وهمة ، فكانت تمضي نهارها في إعداد البيت وتهيبته ، وتسعى ليلها في إسعاد زوجها والتخفيف عنه ، لا تبالي بما تبذل من وقت وجهد ، لا تمتنع من شئ ولا تضيق بشئ... سواء لديها أصابت طعاماً شهياً رغداً ، أم أصابت قديداً بغيضاً... وما زالت تلك خطتها حتى من الله عليها بمولود « ذكر » .

فرحت بوليدها كثيراً - واضطرت للزمن - من أجله لإسمائه ، وطوت صفحة الماضي ، وفتحت صفحة جديدة أخذت تملؤها بالتفاني في تربيته وتثنيته ، بقدر ما يتسع لها عيشها المحدود .

ورفعت عن زوجها فساهمت - بنصيب محمود - في جلب القوت وحفظ الرزق : فكانت تبيع أوراق « اليانصيب » حيناً ، وتسجر في البضاعة التي تعرضها الفقيرات على أفواه الازقة والحارات أكثر الاحيان ، ووضعت أملها كله في وليدها ، وجعلت حياتها من حياته ، وسعادتها من سعادته . بل جعلت حياتها وسعادتها وقفاً عليه : لا تفكر إلا فيه ، ولا تعمل إلا له ، ولا تأتى أمراً أو تدع شيئاً إلا من أجله ، وفي ظل هذا الحذب ، وتمت تلك الرعاية والعناية ترعرع الولد ، وتدرج في طفولته إلى أن اكتمل نموه فدفعته به إلى المدرسة .

وقد أوتي « محسن » ذكاء نادرا ، وعقلا حقيقياً ، وقوة وافرة ، وظهرت بوادر ذلك عند ما أتم تعليمه في المدرسة الأولية ، فالمدرسة الابتدائية ، إذ بدد أقرانه ، وكان الأول ، وظفر بمجانية التعليم الثانوي لتفوقه ، وظل محافظاً على « الأولية » حتى نال « التوجيهية » .

وعندئذ رغبت أمه في أن تتراح من الكدح وراء العيش ، فطلبت إليه أن يسعى لدى الحكومة أو لدى شركة ، عليه بمجد وظيفة ، وفي مرتبتها الضئيل ما يسعها ويسعه . أليست قد نشأت على الحرمان ! أو ليس هو قد ربي على السكفاف ؟ لذلك كان كل همتها وسعادتها في أن يوظف لتباهي به لداتها وكثير عليهما الثانية جنهات . ولكن « محسن » ، قد تدوق لذة الظفر على الأقران ، وعرف « فيما عرف » حلاوة العلم وكرامة العلماء . فأبى ألا أن يتم تعليمه في الجامعة ولو كلف أمه النصب والعناء .

وأخيراً رضخت أمه لرغبته ، ودخل كلية الطب ، وكان كعبدنا به مبرزاً ظافراً ، وانتهى من دراسته كأكرم ما يكون طالب انتهى من دراسته . وفي فترة انتظار النتيجة كانت أمه تعد الساعات والثواني ، وتعلق عليها الآمال الطوال العراض .

وفي اليوم الذي ظهرت فيه نتيجة النجاح كان الموت قد اختطفه من يديها ، ففرغت وشدهت وفقرت فاهها ولا زال فاعرا حتى الآن ؟ ...

هذا من أقسى ما يعانیه النوع البشرى في حياته الدنيا ، وهو ليس بالشاذ النادر ، فإن لم يكن البتلى بمثله رده من دين كان الموت عنده أفضل من الحياة ، وكثيراً ما قضى على حياته يده !

نعم إن في الدين لسوى ، لسوى تشنى الصدور وتملؤها نورا . فلا تضق ذرعاً بمآسى الحياة ، ولكن اركن في شذائلك إلى الدين تجده يتجددك ، ويوصلك إلى مأمنك من حيث لا تحسب ولا تتخيل ؟

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

زواج حضرة صاحب الجلالة الملك

صهر بنات نفوس الوصف

تم في أسعد الأوقات وأبركها عقد قران حضرة صاحب الجلالة الملك « فاروق الأول » ملك مصر والسودان ، وحضرة سليمة المجد والشرف العالى صاحبة الجلالة الملكة « نازيمه » في يوم الأحد الثلاثين من شهر رجب لسنة ١٣٧٠ هـ ، الموافق لليوم السادس من شهر مايو لسنة ١٩٥١ ، في سراى عابدين العاصرة ، في حفل جمع أصحاب السمو أمراء وأميرات البيت العلوى الكريم ، وكبار رجال الدولة من ملكيين وعسكريين ، وجهوداً كبيراً من السراة والنزلاء المحترمين . فكان يوماً مشهوداً لم يسبق له مثيل ، إذ اتفق وعيد جلوس جلالته الملك حيث يؤم السراى الملكية الأتوف من الوجها وكبار الموظفين وسفراء الدول وقناصلها وأعيانها المبجلين لتهنئة جلالته « الفاروق » بعيد جلوسه السعيد . كل هذا جعل ذلك اليوم من أحفل ما شهدته القاهرة من الأعياد الملكية .

وقد زاد في رونق هذا اليوم ، وعظم من شأنه ، أنه اجتمع فيه أمران عظيمان : زواج جلالة الملك ، وذكرى جلوسه السعيد ؛ وكلاهما يهتم له الشعب ويفرح به ، فلا غرو إذا بالغ في إظهاره شعور الغبطة فيه إلى الحد الذي رأيناه ، مما يسجل في تاريخ هذه البلاد ، ويبقى ذكره أبداً الدهر .

ومجلة الأزهر : التي تمثل أرقى وأعرق جامعة في الشرق بأسره ، يسرها أن تنشر هذه الكلمة عنه في أولى صفحاتها ، وتذيعها في الخافقين ، راجية للأمة المصرية الكرامة والجلال ، و لجلالة مليكها المعظم العمر المديد ، والمز والتأييد ؟

محمد فريد وجدي

خطبة

حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير الشيخ عبد الرحمن عيسى
وصكيل الأزهر

في إحياء ذكرى المغفور له الملك فؤاد الأول
وتوزيع الجوائز على التاجين

بسم الله الرحمن الرحيم

حضرة صاحب العزة مندوب حضرة صاحب الجلالة الملك - حضرات السادة
نحتفل اليوم بذكرى ساكن الجنان المغفور له الملك فؤاد الأول ، أحسن الله
منه . وتمر السنون وتتعاقب الأيام وذكره يعمر القلوب ويملا الأفئدة ويلهج
الالسن بالدعاء إلى الله أن يطر جده شأيب الرحمة والرضوان ، جزاء ما أدى لأمته
من الخير وجيل الأعمال .

كرس الملك فؤاد حياته كلها في مصر وخارج مصر ، لخدمة بلاده التي فطر
على حبها منذ حداثة ، وكان هدفه في جميع أعماله خير الأمة وتحقيق النفع العام
بجميع أبنائها ، ولقد أثر عنه أحسن الله ثوبته قوله : ليس أمراً أن تكون أميراً
ولكن الأمر كل الأمر أن تكون نافعاً .

كان من أول ما اهتم به الملك فؤاد العناية بشيبة البلاد ونشئتهم نشئة
صالحة ، لأنه كان يرى أنهم عماد الوطن وعدته في المستقبل ، وفي صلاحهم صلاح
الوطن ، ولهذا حرص على أن يبني لهم تقدماً علياً ، ويوفر لهم ثقافة ممتازة متعددة
النواحي ، تقوم على تمجيد ماضيهم العريق ، وتفتح أمامهم طريق البحوث العلمية
الحديثة التي سبق إليها العالم لتكون لمصر ثروة عليية نافعة تقبوا بها مكانتها
المجيدة بين الأمم .

وكان أول مظهر لهذا الاهتمام إنشاء الجامعة المصرية بعد أن كانت أمنية وطنية
وفكرة قومية ، تظهر حيناً ثم تخبو ، لما تلاق من الصعوبات ، فقد عمل رحمه الله

على أن تكون حقيقة واقعة ، ثم وجه عنايته إلى النهوض بها والتكثيف لها لتكون أداة فعالة في إذكاء الروح العلمية بين الشباب ، وعاملاً قوياً في بعث حركة البحث والتأليف على أحدث نظم الجامعات العالمية العريقة .

وقد بدل لها في هذا المضمار من قوة نفسه ما قوى دعائها ، ووسع مجالها وأعانها على النهوض حتى بلغت في عهده الميمون الذروة ، وحقق ما عتد عليها من آمال - وما هي اليوم تحمل اسم فؤاد العظيم تباهة مخورة ، تسمى أعظم الجامعات جلالاً ومجداً .

لم يفت فؤاد العظيم ما للأزهر الشريف من أثر بارز في الحياة المصرية ، وتقويم الشباب وتنشئتهم على المضائل الإسلامية والأخلاق القويمة ، ولا ماله من مكانة سامية في البلاد الإسلامية ، فحرص على أن يبلغ من التقدم ما يحجي به أجداده السالفة ويحيي له في المجتمع الإسلامي مكانه المرموق ، فأحاطه بعين رعايته حيث أشار رحمه الله بتعديل قوانينه وإصلاح مناهجه ، ليسير حركة النهضة العلمية التي انبعثت في البلاد بفضل جهوده ، فكان أن صدرت عدة قوانين تدرج بها الأزهر في حركته العلمية إلى أن توجت بقانون سنة ١٩٣٠ ، وهو القانون الشامل للإصلاح ، حيث أنشئت به الكليات ونظم به الأزهر تنظيمًا جامعيًا ، وأدخلت فيه اللغات الأجنبية والشرقية وهو تنظيم سائر فيه الأزهر روح العصر مع الاحتفاظ بالتراث الفكري الإسلامي والعناية بفهم ما فيه من كنوز وذخائر

وبتوجيه الكرم ، أرسلت بعثة فؤاد الأول من أبناء الأزهر إلى الخارج ليتزودوا من العلم والمعرفة ، ولیدرسوا أحسن النظم الجامعية في البحث والتأليف . وأرسلت بعثتان من رجاله إلى الصين والحبشة لنشر الثقافة الإسلامية في أرجاء هذه البلاد . فكانت هذه البعثات نواة لحركة التوسع العلمي التي نمت واتسع نطاقها في عهد شبلة العظيم ، الملك فاروق الأول أعزه الله

وقد عمل أحسن الله مثواه ، على تشجيع الطلاب على التوسع والتفقه في العلم فأرصد مكافآت سخية للناخبين والأوائل منهم في الكليات ، وما هذه الجوائز التي تقدم اليوم لأوائل الناجحين في امتحان الشهادات العالية للكليات إلا عارفة من عوارفه ، ويد من أياديه النعم الميامين على الأزهر وأبنائه .

وجملة القول أنه في عهد الملك فؤاد العظيم قد انبثقت في الأزهر كله نهضة علمية واسعة ، فانتشرت معاهده في الأقاليم ، ونشطت حركة البحث والتأليف بين رجاله وأخرج أبناء الأزهر مئات البحوث النيرة في شتى نواحي العلوم ، وتبوأ الأزهر بفضل رعايته مكانة ملحوظة في الحياة العامة في مصر وخارجها ، وهو في عهد الملك فاروق ، أعزه الله ، قد خطا في هذا السبيل خطوات موفقة ، وهو يسير قدما في نشر الدين والثقافة الإسلامية في مصر وخارج مصر بما نرجو أن يحققه الله به الخير العام للإنسانية .

لم يقف فضل الملك فؤاد في النهوض بشيئة البلاد عند حد العناية بالأزهر والجامعة ، بل امتد إلى التعليم العام فشمّل جميع مراحل ، من ابتدائية وثانوية وفنية حيث أشار بإصلاح نظم التعليم ومناهجه في المراحل المختلفة بما يتفق ومصلحة الأمة . وبحسن توجيهه انتشرت مدارس التعليم الإلزامي في القرى والبلاد ، وأنشئت مدارس ليلية لتعليم العمال وغيرهم ، وكان هدفه في كل ذلك النهوض بأبناء الأمة ومحو الأمية من صفوفهم ؛ لتساعى مصر أمم العالم حضارة ومجداً .

كما وجه عنايته إلى رعاية البحوث العلمية التي تعود على الإنسانية بالخير ، فشجع الجمعيات العلمية وأمدّها بروحه ، وأظلمها برعايته ، حتى استطاعت أن تؤدي رسالتها وأن ترفع اسم مصر ومكانتها ، وفي مصر الآن كثير من الجمعيات ومعاهد العلم النافعة كلها من غرس يديه ؛ كالجمعية الجغرافية ومعهد الأحياء المائية وجمعية الاقتصاد السياسي وجمعية فلاحية السائين وجمعية الهلال الأحمر ، وجمعية الإسعاف وغيرها .

واهتم جلّالته باشتراك مصر في المؤتمرات الدولية ، لما في ذلك من عظيم الفائدة من ناحية الدعوة إلى مصر بين أمم الأرض ، ومن ناحية الاستفادة من تبادل البحوث فيما بينهم مصر الاطلاع عليه من التقدم في أساليب الزراعة والصناعة والاقتصاد وغير ذلك . وبفضله دعت مصر إلى عدة مؤتمرات كان لها أحسن الأثر في العناية لمصر الحديثة التي أنشأها هذا الملك العظيم .

وكان جلّالته شديد العناية بالأدب والفن ، حرصاً على أن يوفر للشباب ذخيرة قومية من الكتب التي تعد مراجع في الأدب واللغة ، حيث أشار - أحسن الله ذكراً - بطبع أمهات الكتب الدفينة والعربية التي تعد من ذخائر التراث الاسلامي .

وأمر فطبع المصحف الكريم طبعا متقنا تحت إشراف لجنة عليية ، ثم وزع على المعاهد والمدارس وكثير من البلاد الإسلامية ، وهو معد لكل من يطلبه من المسلمين في جميع أقطار الأرض .

هذه لحظة من جبرود الراحل العظيم في النواحي الثقافية والعلمية ، أما جهوده في النواحي الاجتماعية والعمرانية والسياسية فهي أعظم من أن ألم بها في مثل هذه العجالة ، ويكفي أن أقول إن له في كل بقعة من الوادي أثرا من آثاره فضته يحس به كل مصري . ونظامنا الدستوري الحديث وهيئاته النيابية والتمثيلية في الخارج ، كلها لبنات قوية وضعها طيب الله ثراه ، وبفت عليها مصر الحديثة مجدها وعظمتها . ولقد أتم الله نعمته عليه فشهد بنفسه الغرس الذي تعهده ، وأحسن عظمة المجد الذي شاده .

وانتقل إلى الرفيق الأعلى راضياً مرضياً في مثل هذا اليوم من سنة ١٩٣٦ ودوى صوت القدر في أرجاء الكون « مات فؤاد العظيم وليحي الملك فاروق » . رحم الله فؤاداً ، وجعله في أعلى عليين مع الصديقين والشهداء والصالحين . والسلام عليكم ورحمة الله ؟

كلمة

حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير

الشيخ محمد عبد اللطيف دراز

مدير الأزهر

التي ألقاها

في احتفال جمعية المحافظة على القرآن الكريم

بتوزيع الجوائز على المتفوقين

بمحضور مندوب من لدن حضرة صاحب الجلالة الملك

بسم الله الرحمن الرحيم :

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على النبي الأسمى الكريم ، الذي أنزل عليه القرآن ، هدى ورحمة ، وذكرى للمؤمنين ، وعلى آله وصحبه ، حفظوا كتاب الله واهتدوا بهدى الله ، ففازوا بالسعادة في الدارين ..

دعوة الحق

حضرة صاحب العزة مندوب جلالة الملك

حضرات السادة :

إذا كانت جماعات البر والخير جدية بالتشجيع والتقدير ، فإن واحدة من هذه الجماعات ، لا يمكن أن تقارن بجمعية المحافظة على القرآن ، في سمو الغاية ، ونبل المسعى ، إذ ليست هناك غاية أسمى من حراسة القرآن ونشره ، لأنه الأساس الذي نحفظ به حياتنا ، ونصون به شرفنا ، ونحمي به في هذه الحياة الدنيا كرامتنا السياسية والاجتماعية .

القرآن الذي ينفر من الذلة وينفر منها ، ويمكن العزة في نفوس أبنائه .

القرآن الذي أدرك بعض غلاة الاستعمار أنه سبب نهوض المسلمين في الماضي ، وأنهم إذا عادوا إلى التمسك به عادوا من جديد إلى التماس المجد ، والتخلص من مظالم المستعمرين واستبدادهم ، فصاح في قومه قائلاً : « إنه لا بقاء لنا في الشرق إلا إذا انتزع هذا الكتاب من أيدي المسلمين » . ولقد صدق ، فإن عزة المؤمنين التي قررها القرآن لا يمكن أن تجتمع مع ذلة المستعبدين .. إن هذا الكتاب ينبع فياضاً بأنبال المثل وأزكاهما ، ولو أننا روينا ظمأنا الروحي والمادي منه ، لما شعرنا بهذه الدلة في اتباع الغرب ، وارتقاب الغيث من سرايه الخادع .

هبة الرأي والدماء والمساواة في القرآن

يا حضرات السادة :

إن التجارب التي عانتها الإنسانية من حربين كبيرتين ، تهاهب بعدها لحرب أخرى ، أثبتت أن الأمم لا تنهض إلا على أسس الحرية والعدالة والمساواة في الحقوق والفرص ، والمساواة في الشدائد والمحن . والضمان الذي يرد عليها هذه المطالب إن عدا عليها جبار عنيد ، أو افئات عليها شعب مستكبر طامع ، وللأم جميعاً أن تسعى إلى هذه الأهداف ، وأن تبذل في سبيلها أحراراً دماؤها ، وأغلى أموالها ، فإن الحياة بدونها لا تساوي قتلاً ، ولو فقه المسلمون القرآن العظيم ، وأبصروا ما رسم للعالم من غايات ، وخط له من مناهج واضحات ، لعلموا أن ما يطمحون إليه في تناول أيديهم ، ليس عليه غبار من شهوة ، أو ظل من ارتياب .

إن الإسلام مكن للحرية يوم غرس عقيدة التوحيد في القلوب ، ويوم علم المسلم أن لا يذل إلا لله ، وأن لا يستعين إلا بالله ، وأن لا يتوكل إلا على الله ، وأن لا يشعر بجلال أو كبرياء إلا لصاحب الجلال الكبير المتعال ، ويوم حارب كل تأله كاذب للأدعياء ، الذين ظهروا في تاريخ الإنسانية ، متألهين متعبرين ، وتبعهم الناس جاهلين ، أو مخدوعين : « إن كل من في السموات والأرض إلا آتي الرحمن عبداً . لقد أحصاهم وعدهم عدا . وكلهم آتية يوم القيامة فردا » . ولقد كان

صاحب الرسالة صلى الله عليه وسلم أكبر معلم لحرية الفكر . يوم نادى في عاصمة الوثنية بتوحيد الله ، ويوم صبر على الأذى في سبيلها ، وتحمل العنت لإبلاغها ، وإزاحة العوائق من طريقها . وهل كانت هجرته إلا تقريراً لحرية العقيدة ؟ وهل كانت حروبه التي صحت دعوته إلا دفاعاً عن حق من حقوق الإنسانية العالية ؟ هو حق كل امرئ أن يعتقد ما يطمئن إليه من آراء تتفق مع الفطرة السليمة ، ويعيش في ظله ، من أجل ذلك شرع القتال ، وقال القرآن الكريم « وقاتلهم حتى لا تكون فتنة ، ويكون الدين كله لله » . والفتنة معناها استخدام القوة في مصادرة الآراء الصحيحة ، واضطهاد المبادئ السليمة ، وكما أقام الإسلام بناء المجتمع على الحرية الصحيحة ، جعل العدالة أساساً للشرعة ليطمئن إلى برها وسماحتها العدو والصديق ويصل إلى حتمه في ظلها القوي والضعيف ، ولقد شرحت في موقف سابق من هذا المنبر ، كيف كان عامة الناس يتقاضون الخلفاء أنفسهم أمام قضاة المسببين ، فلا يستنكف الخلفاء أن يحضروا مجلس القضاء ، ولا يترددون في تنفيذ ما يلزمون به من حقوق .

العدالة في القرآن ، تضاهل أمامها روابط النسب مهما قربت ، وفوارق الدين مهما بعدت « كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنياً أو فقيراً فاتته أولى بهما ، فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا » والذين آمنوا ولم يهاجروا مالكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق » فانظر كيف سادت العدالة مطلق القرآن وجعلت للعبود حرمة لا تضعفها وحدة الدين ، وقد كان النزاع يقع بين أهل الكتاب وحكام المسلمين ، فيقفون جريماً في ساحة القضاء فلا تعلق إلا كلمة الحق ، وصوت الحجة ، ولو كان في ذلك خذلان للمسلم الحاكم واتصار الكتابي الضعيف . . . والقرآن الكريم أول دستور أهدر التفاوت بين

الطبقات ، وجعل اختلاف الألسنة والألوان مجرد آية من آيات الله في الخلق ، فليس هناك جنس أفضل من جنس ، ولا لون أكرم من لون .

وفي صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، صهيب الرومي ، وبلال الحبشي ، وسلمان الفارسي ، وكان الرسول عليه السلام يقول : « سلمان منا آل البيت » .

نعم . علم الإسلام أنهاء ، أن أصلهم واحد ، وأن الحقوق والواجبات موزعة بينهم على سواء ، وأن السوق والعطاء أمام تعاليم الدين ، وموازن الحساب ، وفي ميادين العمل ، لا يفضل أحد منهم أحدا إلا بالتقوى والخلق الكريم ، فأين ذلك مما يحدث في العالم اليوم تحت إشراف السياسة العالمية ، وبوحىها ، ورضاها من تقسيم خلق الله إلى سادة وعبيد ، ومن تحويل المستعمرات إلى حقول استغلال ، يمرح فيها البيض ، مفتاتين على جهود الكادحين ؟

الحقوق التي قررها القرآن للمعوزين في المال لا نظير لها في النظم الحديثة

ومن أروع ما حفل به القرآن الكريم ، حفظ التوازن بين الطبقات تأكيداً للتضامن الاجتماعي الذي يشد بناء الأمة شداً محكما ، فلا تتساقط منه لبنة ، أو تحدث فيه ثغرة .

فالغنى في نظر القرآن وظيفه اجتماعية ، وصاحب المال يحاسب على تصرفه فيه ، وتناط به حقوق يجب أن يؤديها ، ويجب على الدولة أن تسأله عنها ، وقد فرض الله الزكاة وجعلها من أركان الإسلام . « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكهم بها » . وهناك حقوق لا تقل في خطرها عن الزكاة ، أوجبها الإسلام كما أوجب الزكاة ، وقد قرر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن في المال حقاً سوى الزكاة ، وأوضح القرآن الكريم هذا الحق ميثاقاً حقيقة البر ، وعناصر التقوى ، ودلائل صدق الإيمان فقال : « وآتوا المال على حبه ذواً القربى ، واليتامى ،

والمساكين ، وابن السبيل ، والسائلين ، وفي الرقاب ، . وأردف هذا بقوله : وأقام الصلاة ، وآتى الزكاة ، فإسعاف المسكوبين ، وإعانة الملهوفين حق على من صادفهم في أزمته ، ولو كان قد أدى زكاة ماله ، وهذا من أنواع الماعون ، الذي جعل الله الويل لمناعيه ، واعتبرهم مكذبين بالدين ، الذين هم يراؤون ويمنعون الماعون . وقد بين رسول الله صلى الله عليه وسلم أن إكرام الضعيف المنتطح عن أهله وماله ، حق على من نزل بهم ، وهذا الحكم من دعائم المروءة ، وروافد الخلق الفاضل في المجتمع ، وقد بلغت حساسية الإسلام المرفهة بأوجاع الناس وأحزانهم أن رصد من مال الزكاة ، ما تسد به ديون الفارمين العاجزين ، وذلك ما لا نظير له في شرائع البشر — وإذا عم البلاد قحط جارف ، لم يبق لصاحب مال حق في الانفراد به ، بل تضع الدولة يدها على الطعام ليستفيد منه الجميع على السواء . (إن الأشعرين إذا أرملوا في الغزو أو قل طعام عيالهم بالمدينة جمعوا ما كان عندهم في ثوب ثم اقتسموه بينهم بالسوية ، فهم مني وأنا منهم) . حدثوني إذا بعد هذا الذي سمعتم ، ماهي الاشتراكية الحديثة التي ضمنت للناس ما ضمن الإسلام من سماحة ومرحمة ، وإنكم لتعلمون بما ذكرنا أن الحقوق التي قيدت بها الملكية ليست في نظر الإسلام نافلة هينة ، ولكنها نظام مفروض ، يقاقل دونه الإسلام ، وعصمة الدماء والأموال ، مقرونة بأداء هذه الحقوق ، كما قرره عليه الصلاة والسلام . ١٩

هذا أيها السادة هو القرآن الذي أخذت هذه الجمعية نفسها بتحفيظه للناشئة ، بعد أن حورب في بلاده بكافة الوسائل وشقى الدسائس والحيل التي أحكمها الماكرون فإذا يمكن أن نبلغ من القول في فضل هذه الجمعية ؟ إنا ندع شكرها لله الذي يحزى المحسنين .

وفتقنا الله وإياكم للاهتمام بهدى القرآن ، والتأديب بآدابه في ظل صاحب الجلالة الملك العظيم ، ملك وادي النيل ، فاروق الأول حفظه الله .

كلمة

حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير

الشيخ محمد عبد اللطيف دراز

مدير الأزهر

التي ألقاها

في الاحتفال بذكرى المجاهد العربي

السيد عبد القادر الحسيني « بدار جمعية الشبان المسلمين ،

أبها السادة :

إن احتفالنا اليوم بتلك الذكرى المجيدة ، ذكرى أحد أبطال الجهاد المغفور له السيد عبد القادر الحسيني ، يبرز لنا أعظم ناحية من نواحي الجهاد لأشرف غاية من غاياته ، في هذا المثل الحى الخالد ، رمز التضحية (عبد القادر) الذى جاهد فبذل أعز ما يملكه المجاهد ، وهو نفسه ودمه ، وجاهد فى أنبل هدف يهدف اليه الأبطال ، وهو حماية الدين ، والعقيدة ، والوطن ، فاستشهد عبد القادر بعد أن ضرب أروع الأمثال ، ولا غرو ، فإنه نبت طيب نما فى أرض خصبة طيبة فلا بد أن يكون لذكراه هذا الخلود .

إن جميع من عرفت من أسرة الحسيني ، كان له شرف اضطهاد الظالمين المعتدين بلون من ألوان الاضطهاد . وكبير هذه الاسرة مثل مضروب فى قوة الإيمان ، والثبات على العقيدة ، وتحمل جميع المكاره ، فى حكمة ، وعمل ، وثبات نفس ، وقوة جنان ، ونشاط منقطع النظير ، واحتقار لا كاذب الأعداء ، أو المأجورين ، أو بعض البسطاء المخدوعين .

لم يكن غريباً عندي إذأ أن يقوم عظيم من عظماء هذه الاسرة بذلك الجهاد المبرور ، الجهاد الحاسم ، القاهر ، فإما أن يحسم بغير الأعداء ، أو يحسم بالاستشهاد .

فالجهاد في نظر المؤس طريق معبد إلى نصر محقق ، ان لم يكن في دار الفناء ، ففي دار الخلد والبقاء . (قل هل تتربصون بنا إلا لإحدى الحسينين ونحن تتربص بكم أن يصيبكم الله بعداب من عنده أو بأيدينا فتربصوا إنما معكم تتربصون) .

ليست ذكريات الجهاد والاستشهاد كلاماً يردد ، أو خطباً تعاد ، فذلك من مواطن الضعف بين العرب والمسلمين في عهودهم الأخيرة ، حينما ألهبوا الأكف بالنصفيق ، وأتعبوا الخناجر بالهتاف ، وراحوا يعددون مناقب السلف وتخاذل الخلف ، وكيف فاز الأولون بالعلب ، وقنع الآخرون بالبكاء .

لا . أيها السادة . ذكريات الشهداء اقتناع بالحق وشعور بوجوب التضحية في سبيله ، وتدافع إلى استعادته بالعمل لا بالقول . . . ذكريات الشهداء قوة في النضال ، وعزيمة في الجلال ، وتسابق واعداد ، حتى يعلم الناس أن العرب والمسلمين أفاقوا من سباتهم ، وصمموا تصميماً لا ينحل على استرداد مجدهم .

أعداؤنا أيها السادة هم أعداؤنا الأولون ، هم الصليبيون . هم الذين شنوا العارة على المسلمين في مدى مائتي عام ، فعمدوا إلى إذلال العباد ، وإفساد البلاد ، وهم ليسوا في ثوبهم الجديد من الحضارة المكذوبة ، والمدنية المدعاة والزعيم المردود بأن الحروب الآن سياسية لنصرة المظلوم ، والاحذ بيد الضعفاء . وتوزيع العدالة في الأرض . ليسوا في هذه الحروب بالنسبة للمسلمين الاصليين يهرقون دماءهم ويناهضون حقوقهم ، ويطمسون معالم حضارتهم وثقافتهم . . . فإذا كان هؤلاء الأعداء لا يرالون صليبيين فليكن المسلمون جميعاً أيوبيين ، وليكن كل ملك من ملوكهم وكل أمير من أمرائهم وكل زعيم من زعمائهم . ليسكن كل واحد من هؤلاء صلاح الدين الأيوبي في قوة إيمانه وشكيمته ، ورباطة جأشه ، وسلامة رأيه ، وبعد نظره ، وليكن جهادنا في أنفسنا بالرجوع إلى الدين ، واستجلاء نظمته ، والحفاظ على تعاليمه السامية ، التي ترسم للعالم كله طريق المنجد والمظمنة والإباء .

ثم يأتي بعد ذلك جهادنا في أعدائنا الذين لا ينتطعون عن الكيد لنا ، وتمزيق صفوفنا ، وتفريق وحدتنا .

هذا سجل التاريخ ، شهادة ناطقة بما كان في عهد الأيوبيين في نفس الميدان الذي قضى فيه عبد القادر الحسيني ، من مقاومة صادقة ، وجهاد رائع ، ابتداء من عهد مؤسسها صلاح الدين ، إلى عهد توران شاه .

كلت حياة هذين البطلين بالانتصار الباهر في معارك معروفة ، وكان بينهما ملوك لم يقصروا عنهما في رد غارات الأعداء ، فكان هذه الدولة وجدت لتكون عقبة في سبيل تغلب أوروبا على المسلمين ، أو لتأخير ذلك أكثر من ستائة سنة .

ولولا وقوف هذه الدولة في وجه أوروبا المنعصبة لا تقرض الإسلام من الشام ، والجزيرة ، ومصر ، وشمال أفريقيا ، كما اتقرض من الأندلس . والفضل في ذلك للواقعتين الحاسمتين واقعة (حطين) وبطلها صلاح الدين ، وواقعة (المنصورة) وبطلها توران شاه .

ونحن الآن بصدد انتظار معركة جديدة يقودها بطل من طراز هذين الرجلين العظميين لطرد الأوربيين من بلاد الإسلام ، وطرد أذنانهم من فلسطين ، قلب العالم الإسلامي .

ولإني الآن أيها السادة أجهل في طمأنينة وثقة ، وقوة أمل ، أن المرحلة التالية ستنتهي إن شاء الله بانتصار العرب والمسلمين متى قيض الله هذا البطل الذي يقود المؤمنين إلى النصر الموعود ، والظفر المرجو ، ذلك وعد الله (إن تصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم) .

كما إنني واثق من أن مصر ستظل كعادتها في مقدمة الصفوف ، لدفع الأعداء وحمل اللواء ، وفق الله مصر والعرب ، وحفظ الله الملك .

لَيْسَ هَيْبَانِجِلْ

الملكيات الزراعية الكبرى

لحضرة صاحب العزة مير المجد

قال حضرة مؤلف كتاب (من هنا نبداً) تحت رقم ٢ من باب (هذه عواقبنا) بعنوان (الملكييات الزراعية الكبرى) :

« وثاني العواقب التي تحول بين المجتمع ونموه وسعادته - هذه الملكييات الزراعية الواسعة .. وإذا كانت مصر بلداً زراعياً ، وكانت تسعة أعشار أرضها المزروعة ملكاً لمائة أسرة أو مائتين ؛ فإذا يبق للشعب من ثروة بلاده وأرضه ؟ ، هذه ظاهرة محرقة ، ولو أنفقنا من الوقت والجهد في مواجهتها مثل ما تنفقه في مكافحة الضائقتين بها ، لآفدنا كثيراً .. »

ثم أتى حضرة المؤلف بإحصاء يبين أن في مصر (١٦٨٩٤٠٨٣) من المواطنين لا يملكون شيئاً من أرض بلادهم ، أي إن الذين يملكون أجزاء منها لا يزيدون عن أربعة ملايين إلا قليلاً .

وعقب حضرة المؤلف على هذا الإحصاء بقوله :

« ترى : هل كتب على بلاد العرب أن تظل وحدها على هذه المحنة الطاعية ؟ فإنك لتجد الحياة كلها ضرباً متبائلاً من الشدود والقوضى ... ومثل ذلك في سوريا ولبنان واليمن ... وفي الحجاز حيث تنقطع أنفاس الحجازيين عدواً ووثباً وراء الحجاج وهم يصبحون : هله يا حج .. هله يا حاج .. !! بينما حفنة من المترفين تحصى على الأصابع ... تسبح في بحيرات من اللذة والشراب ... والذهب المذاب . يا حسرة على العرب ... وعلى الشعوب التي أوهنها الحرمان الأليم ! »

نقول : هذه اللهجة المقذعة التي يستخدمها المؤلف في إيراد الموضوع الذي هو بصدده ، يوم بأن عوامل من الاستبداد في تصريف الشؤون الاقتصادية تعمل على

لإنجاده واستمرار وجوده ، وكان الأولى معالجة الموضوع الخطير معالجة عليية لتعلم الشعوب الممنونة بهذا الضرب من الحرمان كنه العوامل العاملة على وجوده وعلى استمراره ، وتنادى من ذلك إلى طرق الخلاص من آثاره .

والحقيقة العلية هي أن الشعوب كلها على عهد الحكومات المطلقة السابقة على العهد الدستوري ، كانت على هذه الشاكلة ، فلم يكن لأحد من الفرنسيين أو الإيطاليين أو الألمان وغيرهم شبر من الأرض لأحد منهم حق التصرف فيها استغلالاً أو يعباً وشراء ، بل كان الحق كله على الأراضي ومن عليها للولك وبطاناتهم وكان الشرق كله على تلك الشاكلة .

فلما تولى مصر محمد على الكبير مؤسس الأسرة المصرية المسالكة عمل على تنشيط الفلاحين على الزراعة واستصلاح الأرضين ، فكان يفرض عليهم استغلال قطع من الأراضي فرضاً ، وكانوا هم انصوهمهمهم ، وتقصير ذات يدهم يعجزون عن زراعتها ، ويلجأون إلى الهجرة إلى البلاد المجاورة . فكانوا يهربون إلى سورية ويقيمون فيها طول حياتهم هرباً من هذه التكاليف .

في هذا العهد ، عمد كثير من كبار رجال الدولة إلى احتياز ألوف من الفدادين واستصلاحها والانعاق عليها ، واستخدام الفلاحين فيها بأقل الأجور ، واستطاعوا بذلك أن يعدوا مساحات واسعة للزراعة الاصولية ، واعتبار ما يمتازونه على هذا الوجه ملكاً لهم . فلما هل عهد تحديد الملكيات الزراعية أقرت الحكومة ملكيتهم لتلك الأراضي ، وبقي معظم الفلاحين أجراء عندهم ، ليس لهم مما تعبوا في استصلاحه غير حظ ضئيل .

على هذا الوجه أصبحت معظم الأراضي الزراعية لسكبار رجال الدولة ، ثم لمن دونهم من الموظفين .

وقد فطنت الحكومات السابقة إلى أن حرمان الفلاحين من ملكية الأراضي يجر إلى مشكلات اقتصادية خطيرة ، فعملت على تسهيل حصولهم على ما يستطيعون الحصول عليه منها ببيع الاطيان البائرة إليهم بأثمان زهيدة ، وبإعفاء بعض تلك الاطيان المملوكة من الضرائب . فأصبح لهم بهذه الوسائل بعض الأراضي ، وهي لا تزال تعمل على شاكلتها في هذه الوجهة . وستضطر إلى تقوية هذه الوسائل حتى تبلغ حدها المعقول .

على هذه الشاكلة جرت الأمم الأوروبية في تمليك العلاحين الاراضى التى يعيشون عليها ، وقد كان نشاطها أشد من نشاطنا فى هذه السبيل ، ولا نظن أنه يمر قرن حتى تصبح حصة العلاحين من ملكية أراضهم أكبر الحصص ، فتتزن الثنون الاقتصادية من هذه الناحية ، وتبلغ الحاجة الاجتماعية حدها الطبيعى ، ولا نظن أن ذلك يكون إلا بعد تحديد ملكية الاراضى .

أما فى أوروبا فقد بلغت أهمها أقصى مرحلة من مراحل توزيع الاراضى على الفلاحين ، وحددت فيها الملكيات تحديداً دقيقاً ، فأصبح للذين يشتغلون بالزراعة حق عتاز فى هذا المجال الحيوى .

ونريد أن نقول إن لإحكام وضع قواعد ثابتة لتوزيع الاراضى على المشتغلين بزراعتها أمر بعيد التحقق ، ولكن السبر إلى تحقيقه على مر الأيام أمر متظر بعد أمد ليس بطويل .

فكان المتظر من الأستاذ مؤلف (من هنا نبدأ) أن يلف من شدته فى معالجة هذه المسألة الاقتصادية وهى تسير سيرها الطبيعى ، وأن لا يجعلها موضوع انقلاب تقدمه النذر والصيحات ، وتلام عليه الجماعات والحكومات ، فهى ككل الأوضاع الاجتماعية لا تولد إلا بتولد عواملها ومقتضياتها ، والدليل على ذلك أن أية حكومة لو أرادت إحداث مثل هذا التطور قبل استكمال مقتضياته ، وتوافر دواعيه ، لما استطاعت إلى ذلك سبيلا ، لعدم استعداد الثنون الاقتصادية لموانئه ولا الأيدى العاملة للقيام بمحقه . والأستاذ المؤلف يعرف هذا جيداً ، ولكنه يرى من وراء الدعوة إليه إلى الدعوة للاشتركية المتطرفة فى وسط شعوب لم يتمذهبوا بعد بالاشتركية المعتدلة . فهى دعوة تذهب مع الريح ككل دعوة ليس لها بواعث من الهيئة الاجتماعية ، ولا من حزب قوى الجاه متغلغل فى عدد وفير من المجتمع ، يرى أن لا حياة له إلا بإحداث ذلك الانقلاب الاقتصادى ، اعتقاداً راسخاً منه أنه أمثل المناهج لتحقيق اجتماع أفضل مما نحن عليه .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى إن الاشتراكية المتطرفة التى يدعو إليها الأستاذ لما يعض عليها مدى من الزمان أثبتت فيه أنها أولى من جميع النظم الاقتصادية لحياة الشعوب حياة طيبة . فهى لا تزال وليدة جماعات مفكرة فى بيئات

لم تستكمل وجودها الاقتصادي، دفعتها إليه عوامل مريسية واجتماعية ليس لسائر الشعوب مثلها، ولا احتوشتها من عوامل الانقلاب مثل التي احتوشتها. ومثل هذه الجماعات لا تندفع إلى تلك الانقلابات، ولو أعطيت الاختيار لقبولها. ودليلنا على ذلك، الشعوب الأوروبية، فإياها بما أوتيته من الحرية تستطيع بمحض إرادتها أن تستقيم على السبيل الاقتصادي الأصح لوجودها، ولكن أكثريتها تعمم عنه ولا تريده، وتمضى قدما فيما هي فيه، ليس لها من أهداف سوى استيفاء حقوقها بالوصول إليه من الطريق الدستوري المقرر، لا من طريق الثورة على النظام الاقتصادي القائم.

وبعد، فلا يجوز أن يفوتنا أن المبالغة في طلب التسوية في مجال الحياة الاقتصادية لا يجوز أن توجد، فليس ذلك في قدرة أى مصلح. ولا يمكن أن يؤدي إليه أى نظام في العالم. فإن الناس يتفاوتون في المقدرة العلية والخلقية، وإذا أمكن أن يحصل رجل بمجده واجتهاده على مقدار من الثروة في مدة محدودة، لا يمكن لغيره أن يصل إلى مثلها لوجود الموانع دون ذلك من ناحية قدرته العلية والعملية، وأخلاقه وقوة احتماله، وسائر الصفات المؤهلة للإنتاج والاقتصاد، ولو أوقى الأفراد بحصصهم من الثروة العامة كاملة، فلا يستطيع الكثيرون منهم أن يحافظوا عليها، فالتفاوت بين الناس أمر طبيعي لا بد منه ما دامت النفوس متفاوتة، وما دامت الشهوات تدفع بأصحابها إلى تجاوز الحدود في المتاع، وإلى الانتهاء إلى الحرمان المطلق، وبناء على هذه الأصول المقررة لا يمكن أن تصدق أحلام الاشتراكية السكاملة إلا إذا ساد المجتمع نظام استبدادي يجبر الأفراد على توحيد مطالبهم، والاكتفاء بما لا يضر الحصول عليه بقية أفراد المجتمع. وهذا الاجبار يتنافى وأقدس عنصر يجب ترك المجال الاجتماعي مفتوحا أمامه، ألا وهو الحرية.

نعم يمكن بتقييد حرية الناس تأليف مجتمع تتساوى فيه الأنصبة من مقدمات الحياة، فيعيش الناس سواسية لا يزيد بعضهم على الآخرين ولا يقلون عنهم، ولكن مثل هذا يصبح جحima الكثير من النفوس يشرون عليها، ويعضلون الموت على العيش فيها.

التفسير

سور التسميح في القرآن الكريم

لمحاضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ محمد محمد محمد

- ١ -

أقصد بسور التسميح تلك السور التي نزلت مبدوءة بلفظ «يسبح» أو «يسبح»، أو «سبح» أو «سبحان» وهي سور سبع، منها اثنتان مكتبتان هما الإسراء والأعلى، وخمس مدنيات هن الحديد والحشر والصف والجمعة والتغابن .
وسننظر أولاً في هذه الخمس للمدنيات .

تبدأ هذه السور كلها بتقرير الحقيقة الواقعة في شأن الإله جل جلاله وما خلق ، فتبين أن جميع الكائنات من سماوية وأرضية هي دلائل ناطقات ، وآيات بينات ، تدل على عظمة خالقها ومكوّناتها ، وتنزهه عن كل صفة من صفات السوء والنقص ، وقد عبر عن هذا تارة بلفظ الماضي : «سبح لله ما في السموات وما في الأرض» ، وتارة بلفظ المضارع : «يسبح لله ما في السموات وما في الأرض» ، إشعاراً بأن هذه الحقيقة ثابتة من لدن وجدت الكائنات ، باقية ما بقيت .

وتشارك هذه السور - بعد اتفاقها في هذا الافتتاح - في معنى واحد يبدو أنه غايتها ومقصدها وهدفها الذي ترمي إليه ، كما تشارك كلها - بوجه إجمالي - في الوسيلة التي تتوصل بها إلى هذه الغاية .

فأما المعنى الذي تشارك في تقريره وإبرازه فهو غرس خلق التضحية في قلوب المؤمنين ، وحثهم في قوة وصرامة على أن يذبلوا أنفسهم وأموالهم في سبيل الله .

وأما الوسيلة التي اتخذتها لذلك فهي بيان أن كل شيء في هذا الوجود إنما هو لله تعالى ملكا وتصريفا وتديرا ، فليس يسوغ للملوك أن يتمرّدوا على أمر مالكهم ومدبر شئونهم والمتصرف فيهم ، ولا أن يخلّوا بشيء مما أحاطه عليهم سواء أكان هذا الشيء نفسا أم مالا أم متاعا .

على أن الأسلوب في بيان هذه الوسيلة قد اختلف ، فكان لكل سورة طابعها الخاص ، وروحها المتميز .

ونرجو أن تتمكن من إبراز ذلك عند ما نعرض الكلام عليه بالتفصيل إن شاء الله تعالى .

• • •

١ - سورة الحديد :

بدأت أول سورة من سور التيسيح المدنيات ، وهي سورة الحديد بقوله تعالى « سبح لله ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم » ثم أوردت بعد ذلك أوصافا لله جل جلاله ترجع إلى ذاته وأفعاله وتصريفه ، فبينت أن ملك السموات والأرض إنما هو الله ، وأنه تعالى يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير ، وأنه هو الأول والآخر ، والظاهر والباطن ، وهو بكل شيء عليم ، ثم ذكرت خلقه السموات والأرض في ستة أيام واستواءه تعالى على العرش وإساحة عله بكل شيء ، ورجوع كل شيء إليه ، فتم لها بذلك التمهيد للقصص ، وإعداد النفوس للطلوب ، ومن ذا الذي يسمع هذا الوصف الذي يصف به الإله المسالك الخالق القادر المتصرف نفسه ثم لا يكون منهيا بروحه وقلبه لتلقى أمر مولاة ومالك ناصيته ؟

هكذا تخلصت السورة إلى القلوب بهذا الوصف القوي الرهيب ، وهذا الحديث الجامع عن عظمة الله ، ثم جاءت بعد ذلك بالأمرا المراد فقالت « آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه » لجمعت بين طلب الإيمان بالله ورسوله - الذي هو المريضة الأولى على الإنسان - وطلب الإنفاق ، وعبرت عن المال الذي أمرت بالبذل منه بعبارة تنفق وما مهدت به من أن كل ما في الوجود مملوك لله تعالى حيث قالت « مما جعلكم مستخلفين فيه » لتفيدهم أن مركزهم بالنسبة

المال هو مركز الخليفة عن الله ، كما أنهم خلفاء عنه في الأرض ذاتها ، إلى جاعل في الأرض خليفة .

وفهم من التعبير بلفظ « الاستخلاف » أن الإنسان قد 'خوّل' المال ، وفوض له أن يتصرف فيه تصرف المالك الذي يفعل في ملكه ما يشاء ، ولكن في دائرة ما استخلف فيه ، وهو قد استخلف على أن يكون ما جعله الله في يده قسماً له وقسماً في سبيل الله وفي سد حاجة المحتاجين ، فليس له أن يحتجز ما لغيره فيخل به عن مواضعه ، وإلا كان خارجاً على دستور خلافته ، منحرفاً عن شروط توليته وتخويله .

وفي التعبير بلفظ « الاستخلاف » أيضاً إشارة إلى معنى آخر ، وهو أن المال قد وصل إلى الحاضرين بعد أن كان في أيدي السابقين ، وأنه سيصل إلى الآتين بعد أن يخرج من أيدي الحاضرين . فإن الخلافة معناها أن يتتابع على الأمر خلف بعد خلف ، فإذا نظرنا إلى المال هذه النظرة علمنا أنه غير باق لنا كما لم يبق لمن قبلنا ، وحرصنا على أن نستوفي منه حفظنا قبل أن يصير لغيرنا .

ثم ذكرت السورة بعد هذا الأمر الجازم بالإيمان والإنفاق أن جزاء الذين استجابوا لربهم فآمنوا وأنفقوا جزاء كريم ، وأجرهم أجر كبير ، ثم ناقشت معنى التباطؤ عن الإيمان ، والتباطؤ عن الإنفاق مناقشة منطقية ، فاستنكرت الأول بقولها : « وما لكم لا تؤمنون بالله والرسول » يدعوكم لتؤمنوا بربكم وقد أخذ ميثاقكم إن كنتم مؤمنين ، هو الذي ينزل على عبده آيات بينات ليخرجكم من الظلمات إلى النور وإن الله بكم لموفق رحيم .

فهي تقول لهم : إن الرسول قائم بينكم يدعوكم دائماً إلى الإيمان بالله ، وقد أخذت عليكم الموائيق من قبل : لتؤمنن بالله بربكم ، موائيق الفطرة والعقل والدلائل يوم « ألت بربكم » ، ووضح لكم أن الله هو الذي أرسل هذا الرسول وأنزل عليه الآيات البينات ، ليخرجكم من ظلمات الكفر والجهالة إلى نور الإيمان والمعركة رافة بكم ، ورحمة لكم ، فما الذي يحول بينكم وبين الإيمان ؟

واستنكرت الثاني بقولها : « وما لكم ألا تنفقوا في سبيل الله والله مبرأ السماوات والأرض » أي أن كل شيء في هذه الدنيا صائر إلى الله ، ولا مناص من خروج

الإسان عما يملك ، إما بالموت وإما بالإتفاق ، فإذا خرج عنه بالموت مع حرصه على اكتنازه وبخله به وعصيان الله فيه ، فقد خرج عنه بطريقة مدمومة يلحقه فيها العيب ، ويدركه اللوم والعقاب ، وإذا خرج عنه بطريق البذل والإنفاق والزول على أمر الله فيه ، ومعرفة حتمه ، كان في هذا الخروج كريماً نبيلاً ، ولا شك أن العاقل يختار الثانية على الأولى .

وهكذا عاجلت السورة أمر التباطؤ عن الإيمان والإنفاق بإثبات الدواعي ونفي الموانع كما يقول أهل البحث والمناظرة .

ثم وازنت السورة بين فريقين من الباذلين المضحين ، فريق الذين بذلوا أموالهم وأنفسهم ، فأنفقوا وقاتلوا قبل الفتح ، وقبل أن تبدو مظاهر النصر للدين ، وفريق الذين أنفقوا وقاتلوا بعد الفتح حين ظهر الإسلام ، وقويت شوكتهم ، وقد أثبت الله الحسنى لكل من الفريقين ولكنه جعل للأولين درجة على الآخرين .

وفي هذا عدل وإنصاف حيث لم يحرم أحداً جزاء فعله ، ولم يسو بين من كان إحسانه مستوفياً عناصر الثقة بالله دون تلبث ولا تردد ، ومن كان إحسانه بعد لاي وإن كان من الصادقين .

ثم جاءت السورة الكريمة بعد هذا بصورة رائعة من صور الحث على فعل الخير : صورة مقرض يناشد من يقرضه قرصاً حسناً ، ويعدّه على هذا القرض وعداً صادقاً أن يضاعفه له ، وأن يزيده فوق هذه المضاعفة أجراً كريماً في يوم يكون للمؤمنين فيه شأن ، وللنافقين شأن ، والمقرض الداعي في هذه الصورة هو الله جل جلاله ، والمدعرون إلى هذا القرض هم المؤمنون والمؤمنات الذين وثقوا بربههم ، ولم يفتنوا ولم يتربصوا ولم يرتابوا ولم تغرهم الآماني . من ذا الذي يقرض الله قرصاً حسناً فيضاعفه له وله أجر كريم . يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم بشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك هو الفوز العظيم ، يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا اظربونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ، ينادونهم ألم نكن معكم قالوا بلى ولكنك

فتنم أنفسكم وتربصن وارتبتم وغرتكم الأمانى حتى جاء أمر الله وغركم بالله الغرور ، فالיום لا يقبل منكم فدية ولا من الذين كفروا مأواكم النار هي مولاكم وبئس المصير . .

ثم غشى السورة بعد هذه الدعوة القوية إلى البدل والإنفاق ، فتلس منهم القلوب وعواطف الإيمان والرحمة ، وتحذرهم أن يكونوا كأهل الكتاب الذين طال عليهم الأمد ففتست قلوبهم ، كما تحذرهم أن يفتنوا ويأسوا من أنفسهم فإن الله يحيى الأرض بعد موتها ، وتعود بسرعة مرة أخرى إلى حديث الإنفاق والصدقات فتقول : « إن المصدقين والمصدقات وأقرضوا الله قرصاً حسناً يضاعف لهم ولم أجر كريم » . وتغشى في هذا الحديث مبينة شأن المؤمنين بالله ورسوله ، وأجرهم عند ربهم ، وشأن الكافرين المكذبين وجزاهم في نار الجحيم ، وتضرب مثلاً للحياة الدنيا في لعبها ولهوها وزينتها وتكاثر الناس فيها وتفاخرهم بالأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يبيح فتراهم مصفراً ثم يكون حطاماً وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور . ثم تدعو المؤمنين إلى مسابقة جازتها المغفرة من ربهم والجنة العريضة التي أعدها الله لمن آمن به ورسله ، « سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم » .

ثم تنفي عن المؤمنين عاملاً من عوامل الضعف النفسى حين يشغلون أنفسهم بالندم على ما فاتهم ، والفرح بما أوتوا ، وتعلمهم أن كل شيء يصيبهم إنما هو في كتاب قد قدره الله وسبق به عليه فلا مناص منه ، ولا مفر من حصوله ، وإذن فليس الحرص على المال بنافع إذا أراد الله بالمرء فقراً ، وليس البذل بمناع من الغنى إذا أراد الله بالعبد غنى ، وإن الله ليسكره هؤلاء المختالين الفخورين ، الذين يظنون أنهم قد اطلعوا بحصافتهم أو علمهم أو فراستهم على الغيب ، فيبخلون خوفاً من الفقر : ويأمرون الناس بالبخل تخويفاً لهم منه ، ويتولون عن دعوة الله كأن لم يسمعوها ، والله هو الغنى الخبير .

ثم تحدث عن شأن الله في إرسال الرسل بالبينات، وإنزاله الكتب للهداية والتعليم، وربطه الكون على سنن ثابتة وموازن متسابة ليقوم الناس بالقسط، وإنزاله الحديد ليكون زجرا لمن لا تنفع فيه الموعظة، ولا تجدى معه أساليب الدعوة، وتذكر رسالة نوح وإبراهيم ومن جاء بعدهما من ذريتهما، وتذكر عيسى ابن مريم ومتبعيه، ثم تنجس في ختامها إلى المؤمنين بهذا النداء القوي فتقول:

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ إِلَّا يَتَّقُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ » .

والكاملان اللذان وعدت بهما هذه الآية من آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم هما الجزاءان اللذان ادخرهما الله للذين جمعوا بين الإيمان بالرسل السابقين والإيمان بخاتمهم عليه الصلاة والسلام، وقد جاء ذلك أيضاً في قوله تعالى من سورة القصص: « الَّذِينَ آمَنُوا بِالْكِتَابِ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ، وَإِذَا تُلِيَ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ، أُولَئِكَ يُؤْتُونَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا » .

من هذا العرض السريع لسورة الحديد يتبين ما قلناه من أن المقصود الأول أو الأوحد لها، هو غرس خلق البذل والتضحية في نفوس المؤمنين، وحثهم على محاربة الشح والظن بالمال، وأنها التمسست لهذا الغرض وسيلة معينة هي إلهام الناس أن الله جل جلاله هو مالك الملك، وهو صاحب الخلق، وكل شيء في هذه الحياة فهو منه وإليه، وكل ما وقع أو سيمتفع فيأذنه وعده، فليس لأحد أن ينكص عن أمره، أو يقباطاً في تلبية دعوته.

وستعرض في مقالاتنا المقبلة — إن شاء الله — لما جاءت به سور التيسيح الأخرى، ثم نعود إلى التفسير التفصيلي لهذه السور الكريمة، والله المستعان .

التفسير

بقية التفسير الوارد في العدد الماضي

لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد النعم النمر

قال الله تعالى : « واستغفر الله إن الله كان غفوراً رحيماً » ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم إن الله لا يحب من كان خواناً أثيماً »
سورة النساء

« واستغفر الله » الغفر : الستر والتغطية وغفر : غطى وستر . واستغفره لذنبه ومن ذنبه واستغفره إياه طلب منه غفره وستره بمعنى عدم ترتب العقوبة عليه . ولم يذكر المستغفر منه هنا وتركه عاماً كما تركه في قوله . فسبح بحمد ربك واستغفره ، وذكره في آية محمد « واستغفر لذنبك وللمؤمنين ... » . وهذا الأمر من الله لئله يستدعي البحث عن الذي يستغفر منه الرسول هنا وفي الآيات الأخرى ... أما هنا ففهوم من المقام ، إذ أن الرسول صلى الله عليه وسلم مال بطبعه وحسب الأدلة التي تجمعت لديه إلى مناصرة المسلمين السارقين دون علم بحالهم طبعاً وهم أن يقضى على اليهودى البرى ، لولا أن الله نبهه إلى الحق الذي خفى عليه . فيكون الاستغفار بسبب هذا الهم وهذا الميل المعذور فيه . وهذا وإن كان لاشئ فيه بالنسبة لعامة الناس إلا أن مقام الرسول وعلو مرتبته وشدة قربه من الله ومراقبته يجعل ذلك مما يدعو إلى المبادرة بالنظر منه . ولكل إنسان مقام وتصرف يتناسب مع مقامه فما يعد مقبولا من الجاهل أو الخادم قد يلام بسببه العالم أو السيد وحسنات الأبرار سيئات المقربين ، كما قال الجنيد . وهذا هو الذى يمكن فهمه سبباً للاستغفار هنا يعيننا عليه سبب نزول هذه الآيات ، وأيضا هذه التواهي التي يشتم منها اتجاه الرسول إلى ما نهى عنه . فمجموع هذا يجعلنا نفهم أن المستغفر منه هنا إنما هو الميل والهم بالحكم فقط إذ لم يتعد الأمر غير هذا ولم تقع من الرسول في هذا المقام مخالفة عملية ،

وكذلك يمكن أن نفهم قوله : « فسيح بحمد ربك واستغفره » ، فسبب الاستغفار هنا كما يفهم من كلام الإمام الشيخ محمد عبده راجع إلى ما كان يساور الرسول من القلق والحزن لتأخر النصر والفتح . وهذه هواجس للنفس لا سبيل إلى التغلب عليها لاسيما في الشدائد ، فأمر الرسول بالاستغفار عما لا قدرة له على دفعه تطهيراً لمقام النبوة لأن ذلك هو المناسب لها .

أما آية محمد « واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات » فقد صرح فيها بالاستغفار منه وهو الذنب . وهذا يستدعي منا أن نبحث هل وقع من الرسول ذنوب حتى يؤمر بالاستغفار منها وحتى يقول الله في آية الفتح له : « ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر » .

هذه النقطة كانت مثار جدل قديم بين العلماء تفرعت عنه تأويلات شتى لهاتين الآيتين وما ماثلهما في القرآن مثل : « فعصى آدم ربه فغوى » وقوله على لسان سيدنا إبراهيم « ، والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين » وقوله تعالى عن سيدنا داود « فاستغفر ربه وخر راكماً وأباب .. فغفرنا له ذلك » ..

ولا أحب أن أنقل عليك كثيراً برد هذه الخلافات ، ولهذا سأذكر هنا الرأي الذي أميل إليه مطمئناً إلى دلالته وإلى من قال به من الأئمة الأعلام .

لا شك أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لا يقصدون في أعمالهم إلى مخالفة الله في سرهم أو جهرهم ، وهم لا يسرون في كل أمورهم بوحى بل يتركون في كثير منها لفهمهم واجتهادهم في الوصول إلى الخير وتطبيق ما عرفوه عن الله على الحوادث الجارية أمامهم متوخين رضا الله سبحانه ، ولكنهم قد لا يوافقون في اجتهادهم وفهمهم مراد الله ، وهنا تحوطم العناية الإلهية ويرد إلى ما يريد من الصواب . وهذا هو الفرق بين الرسل وبين المجتهدين من العلماء .

قد يكون الرد إلى الصواب بعد تنفيذ الرأي وربما يصحبه عتاب كلامي كما حصل مع ندينا في قصة الأسارى^(١) والمستأذنين^(٢) وفي قصة زينب^(٣) وابن

(١) : ما كان لي أن يكون له أسرى . الآيات ٦٧ وما بعدها - سورة الأنفال .

(٢) : عفا الله عنك لم أذنت لهم . آية ٤٣ من التوبة .

(٣) : وإذا حول الذي أمم الله عليه وأسلمت عليه . آية ٢٧ من الأحزاب .

أم مكتوم^(١) وقد يكون قبل التعميد كما معنا في هذه الآية إذ أن الرسول لم يحكم بالفعل بل هم ومال فذبه الله بالوحى إلى خلاف همه وميله وأمره بالاستغفار من أجله .

هذا الذى يحصل من الرسل من عدم موافقة فهمهم واجتهادهم لمراد الله مع إخلاصهم بالطبع فى قصدهم للخير هو ما يمكن أن يقال عنه إنه ذنوب كما عبر القرآن . وهى قطعاً ليست ذنوباً من جنس ذنوبنا بل إنها تشبه خطائنا - الذى ذاب عليه - فى الاجتهاد . على أن بعض العلماء يسميها أخطاء وبعضهم يسميها خلاف الأولى .

والذى يسميها ذنوباً أو أخطاء يجد سنده فى تسمية القرآن لها بهذه التسمية . والذى يطلق عليها خلاف الأولى يقول إن الله الذى أرسل الرسل هو الذى له أن يصف بعض أعمالهم بأنها خطأ وأنها ذنب . أما نحن الاتباع - وكلنا أقل مرتبة من الرسل - فلا يليق بنا أن نقول عن هذه الأعمال إلا أنها خلاف الأولى تأدياً مع مقامهم عليهم الصلاة والسلام .

والرسل فى هذه الحالات التى خالفوا فيها مراد الله معذورون . . ولكنهم ليسوا كالناس بل هم من المصطفين الاختيار لا يتناسب مع مقامهم إلا أن يتطهروا بالنسب على عدم التوفيق فى فهم مراد الله - وإن كانوا معذورين - ولذلك وجههم ربهم - الذى أديهم ورباهم إلى التطهر وطلب العفو والمغفرة فكانت أوامر الاستغفار الصادرة من الله إلى الرسل والتى معنا منها هذه الآية وكانت رغبة الرسل فى التطهر شديدة كذلك ، وكان إحساسهم بسمو مقامهم وشدة قربهم من الله يدفعهم إلى الاكثار من الاستغفار والدعاء والعبادة . . يدعون الله لهم أولاً لأنهم فى حاجة إلى عفوه ورضاه ، ويدعون لأنهم ، ويعلمونها كيف تستغفر وتدعو . .

وإذا وافقتنى على هذا رأى الذى اخترته كنت معى فى أن هؤلاء الذين قالوا فى : واستغفر الله ، أى لبعض أهلك الذين تواطؤوا مع السارق وشهدوا معه ،

(١) . هـ وولى أن جهده الأعلى . . الآيات ، من سورة هـ .

وقالوا في : « واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات » المراد ذنب أمته . كما قالوا في : « ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر » أى من ذنب أمتك . كنت معى فى أن هذا التأويل غلو لا معنى له ولا داعى إليه لا سيما وفهم الرسول والصحابه لآية : « ليغفر لك الله ... » وما دار بينهم وبين الرسول حولها حين نزلت كان على أساس أن المغفرة للرسول لا لهم ؛ فقد قالوا له حينما نزلت وقد عبد الله حتى تورمت قدماء : « لم هذا وقد غفر لك ؟ » فقال : « أفلا أكون عبداً شكوراً » وقالوا له هنيئاً مريئاً يابى الله .. بين الله ما يفعل بك ، فما يفعل بنا ؟ - وكان ذلك عقب نزول : « ليغفر لك الله ... » فزلت : « ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار الآية » .

« إن الله كان غفوراً رحيماً » كان تقتضى ثبوت الخبر للخبر عنه فى زمن مضى وانقطع . وهذا المعنى لا يستقيم فى هذه الآية ولا فيما يشبهها ؛ إذ أن الله قديم وبقى بذاته وصفاته فلا بد أن نحملها على الدوام فى هذا التركيب وأمثاله ومعناه لم يزل ولا يزال موصوفاً بذلك الوصف .

وغفور ورحيم جاءا على صيغى المبالغة فعول وفعل وممنهما كثير الستر والتغطية للذنوب المستغفر منها ، بمعنى أنه كثير التجاوز عن العقاب عليها كما أنه كثير الرحمة لعباده والإيعام عليهم بنعمه التى لا تحصى ، والرحمة فيه من مقتضى الوهية وربوبيته .

« ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم » هذا نهى للرسول صلى الله عليه وسلم ولكل فرد من أمته عن الدقاع عن الخونة الآثمين . والجدل : اللدد فى الخصومة والقدرة عليها . وكان الإنسان أكثر شئ جدلاً ، والمجادلة المخاصمة . من جدله وجدله فانجدل صرعه على الجدالة ، وهى الأرض كأن كلا من الخصمين يريد أن يفوز على حصمه ويلقبه على الأرض . والمعنى لا تقتصر لقوم خائنين ، وقدافع عنهم حتى تجعلهم يفوزون بباطلهم ويفضرون على غيرهم من الأبرياء .

« ويختانون أنفسهم » يخونونها إذ الاختيان والخيانة بمعنى . يقال خانه واختانه وإن كانت الأخيرة فيها معنى التكلف والتحمل كأنه يحمل نفسه ويقرها قسراً

على الخروج عن الفطرة بالخيانة . والمراد بهم : السارق وقومه الذين أزروه ونصروه بالباطل .

وخيانتهم أنفسهم : جاءت من أن ضرر خيانة الغير يعود على النفس ، ولا شك أن إضرار النفس خيانة لها ، إذ أنه بالمعصية عرضها للعقاب وحرمانها من الثواب . وقد اختار الله سبحانه هذا التركيب هنا وفي آيات كثيرة مثل قوله : « ولا تقتلوا أنفسكم »^(١) ، « ولا تلبسوا أنفسكم »^(٢) ، « لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم »^(٣) . إشعاراً للنفوس بأن الاعتداء على الغير في أية صورة كانت اعتداء على النفس ، وتربية لها على الإحساس الجماعي حتى يحب المرء لآخيه ما يحب لنفسه ، ويكره له ما يكرهه لنفسه ، وحتى يفهم معنى الترابط والتآخي العام ، وبحس بفداحة ما يقدم عليه من الاعتداء على الغير حتى ينفر منه .

« إن الله لا يحب من كان خواناً أثماً » ورد في القرآن ، « إن الله لا يحب المعتدين »^(٤) ، « لا يحب الله الجهر بالسوء »^(٥) ، « والله لا يحب كل مختال فخور »^(٦) وعدم المحبة في هذه الآيات كناية عن السخط والغضب من الله . إذ المحبة التي هي انفصال نفسياني يترتب عليه آثاره مستحيلة على الله ، وكذلك عدم المحبة ، ثم إن نفى المحبة في حد ذاته لا يستدعي الغضب والكراهة والسخط ، لأنه يوجد معنى وسط بين المحبة وعدم المحبة ، فيقال أنا لا أحبه ولا أكرهه ، ولكن هذا لا يكون بحانب الله ، فهو سبحانه إما راض أو ساط ، وليس بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار ، على أن محبة الله لما كانت منفية عن الخوان الإثم ، والمختال الفخور ، والجاهر بالسوء والمعتدى ، كان لا بد من تأويل ذلك بالسخط والغضب ، فعنى لا يحب أى يسخط ويعاقب .

وه من كان خواناً أثماً ، جاء على صيغتي المبالغة فعال وفعل و انضم إلى ذلك ما تشعره كان في مثل هذا التركيب من معنى المداومة ، ومعنى ذلك كثير الإثم كثير الخيانة ، مداوم عليهما حتى صاراً ديدنه . ولكن هل معنى هذا أن غضب الله وسخطه لا يكون إلا على المتأصلين في الخيانة والإثم ؛ لا . إن الله لا يرضى أبداً

(١) ٢٩ سورة النساء (٧) الحجرات (٢) ٨٨ تيفرة (١) ١٩٠ البقرة .

(٥) ١٤٨ سورة النساء (٦) ٢٣ الحديد .

عن الخائن الآثم ، ولا عن الخوان الآثم ، فكلاهما مستحق للعقاب وإن تفاوتا . وإنما جاء هذا التركيب معبراً عن الواقع من أمر السارق وقومه ؛ فقد كان وغلا في الحيانة والإجرام ، وكانت نفسه بطيئتها لا تفك عن ارتكاب الجرائم ، حتى إنه لما فضحه الله بهذه الآيات كفر وهرب إلى مكة ، واستمر في جرمه حتى مات . هذا فوق أنه سارق ومتهم غيره ومعاول لإضلال الرسول وانتزاع حكم منه لصالحه بغير الحق ، وقد اشترك قومه معه وعاونوه وآزرروه ، فاستحقوا جميعاً هذا الوصف : الخوان الآثم .

وهذا الواقع الذي سجلته الآية في صيغتي المبالغة هو الذي روعى أيضاً في الجمع بين الخوان والآثم . فقد خان حين سرق ، وآثم في اتهام البريء . ويمكن أن يقال إن الحيانة حالة نفسية خبيثة ، تترتب عليها آثار عملية ، لجمع الله بين الطيبة الشريرة ، والآثم الصادر عنها بما وافق حالة السارق وقومه . بخلاف ما يصدر من الإثم بحسن نية .

* * *

وبعد . فهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم تعرض أمامه حادثة من الحوادث وتكون الأدلة لديه لاتخاذ رأى معين فيها ، ولكن لم يحكم به لأن الله حرسه من الأعيب المنافقين ودساتيمهم ، ونبهه إلى ما يجدر عمله حتى يوضع الحق في نصابه ، ولم يكن في هذا الميل الذي أداه إليه اجتهاده من شيء عليه ، وإنما يحكم بالظاهر ، ولكن الله سبحانه لم يرض لرسوله حتى هذا الميل وهذا الهم بالحكم ، ووجد أن ذلك شيء لا يتفق مع صفاء النبوة ولا سمو الرسالة ، فوجهه إلى استرضائه وطلب المغفرة منه ، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم كثير الاستغفار والدعاء وهو الذي يقول عليه السلام : « ما أصبحت غداة قط إلا استغفرت الله فيها مائة مرة »^(١) ، ويقول ابن عمر رضي الله عنهما : « إنا كنا نعد لرسول الله صلى الله عليه وسلم في المجلس يقول : « رب اغفر لي وتب علي إنك أنت التواب الرحيم » مائة مرة ، ولا غربة في هذا ورسول الله أقرب المقربين إلى الله ، فإنا نعرف أن حرص

[١] أخرجه النسائي وابن ماجه عن أبي موسى .

الحب على رضا حبيبه يجعله دائماً يحاسب نفسه على هواجسها ويؤاخذها ويجتهد في بدل كل ما يتربه أو يزيد قرباً . والدين يعاشرون الملوك يخشون هفوات نفوسهم ، وتعد عليهم أنفاسهم ونظراتهم ويبادرون دائماً بتصحيح كل ما يمكن أن يؤخذ عليهم وإزالته حتى لا يطردها من ساحة ملكهم ، أو يوصفوا بعدم الارتياح إليهم ، ويجتهدون أن يكونوا عند ملكهم تماثيل من الاخلاص تشع وفاء وولاء ، فما بالك هؤلاء المصطفيين الاخيار ، الذين اختارهم ملك الملوك واجتباهم وهذبهم وهدهم ، أفلا يكونون أحرص خلق الله على رضا ، وأشد هم إحساساً وتقديراً لفضله ، وأسرعهم إلى إزالة كل ما يشتم منه رائحة مخالفة ولو صورية لربهم ! ثم ألسنا نحن أتباع الرسل نلوم أنفسنا كثيراً على هواجسها السيئة أو نستغفر الله ونقدم من سيطرتها علينا فترة من الوقت ١٩.

فهل يمكن لإنسان بعد هذا أن يقول : إن هؤلاء المقربين أصبحوا في غنى عن فضل الله وعفوه ورضاه ، أو أن مقامهم يحل عن ذلك حتى يجعل كل استغفار لهم استغفاراً لأنهم لا لهم ، بحجة أنهم ليسوا في حاجة إلى استغفار ٢٠ لقد استغفروا لأنفسهم لأنهم في حاجة إلى العفو والمغفرة ، واستغفروا لأنهم لأنها في حاجة إلى دعائهم واستغفارهم وشفاعتهم عند ربهم ، وعلوا الناس بذلك كيف يستغفرون وينتظرون وهم أشد حاجة إلى الاستغفار والتطهر ، وه لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر .

ما أجدرنا أن تأمل قليلاً في توجيه الله لرسوله أن يسترضيه ويستغفره ١١ إنه العطف الكامل والرعاية الشاملة التي تؤذن بقبول الاستغفار وشمول العفو والمغفرة . ثم ما أجدرنا بعد هذا أن تأمل موقفنا من احتضان الباطل والمبطلين ومناصرة الظلم والظالمين بالتمسك إلى موقف الرسول الذي كان يقصد الحق حين اجتهد فأمره الله أن يستغفر مما وقع فيه من الهل والميل . كم نحن في حاجة إذن إلى الاستغفار ١٢

إن في هذا لفتاً شديداً لأنظارنا حتى نحفظ للحق كرامه ونصور أنفسنا من الخوض في الباطل أو مناصرة الظالم ، كما أن فيه تحريصاً قويا على السعي إلى التطهر مما يتدنس به الإنسان من عمل لا يتفق والحق . والاستغفار ليس

للاتوبة خالصة ، فيها ندم ورجوع إلى الحق وعزم على الإخلاص . والله سبحانه كريم يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ، ومن كمال ربوبيته رحمته التي وسعت كل شيء . « لو أن العباد لم يذنبوا لخلق الله خلقاً يذنبون ثم يغفر لهم وهو الغفور الرحيم » (١) . « والذي نفسى بيده لو أخطأتم حتى تملا خطاياكم ما بين السماء والأرض ثم استغفرتم لغفر لكم » (٢) . فلا محل لإذن اليأس من رحمة الله « إنه لا يأس من روح الله إلا الكافرون » (٣) . فمن الواجب أن يبادر المؤمن بالتطهر وهو موقن أن الذي يرجوه يحجب رجاءه ويفرح بتوسله « أنا عند حسن ظن عبدي بي وأنا معه حيث يذكرني ، والله الله أفرح بتوبة عبده من أحدكم يجد ضالته بالفلاة . ومن تقرب إلى شبراً تقربت إليه ذراعاً ، ومن تقرب إلى ذراعاً تقربت إليه باعاً وإذا أقبل يمشی أقبلت إليه أهول » (٤) .

وبعد أن أمر الله رسوله بالتطهر عاد إلى مخاطبته حيث ينهاء للمرة الثانية عن الوقوف في صف الباطل والمبطلين ، فقد سبق قبل هذا بآية أن قال له : « ولا تكن للخائنين خصيماً ، فعوده هذا يحق لنا أن نقف عنده طويلاً فإن خطاب الرسول هنا خطاب لأمته معه ، ولنحن أشد حاجة إلى أن يقرع سمعنا هذا النهي مرة بعد أخرى حتى يستقيم أمرنا ، ويقرر الحق بيننا ، وحتى لا يجد المفسدون في الأرض من يحجبهم من سطوة القانون وإن ختم الآية ليحمل إنذاراً شديداً للخائنين الذين يعيشون في الأرض الفاسد ، وهل هناك ما هو أشد على الإنسان من الطرد من رحمة الله حيث ينزل عليه غضبه ، وتحل عليه عقوبته ١٩

إن صاحب الأمر ومالك الملك يتوعد الخائنين وينذرهم غضبه في يوم يجعل الولدان شيباً ، وبأس ربك شديد وعذابه أليم مهين ، وإن كان غفوراً رحيماً « عاقر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذى الطول » .

ولقد جمعت الآيات بين الترغيب والترهيب ، أطمعت الأولى عباد الله المتقصرين في عفوه ورحمته ليبادر إلى ساحتها كل تواب أو اب ، أما السادرون في آثامهم وضلالهم فقد كشفت الثانية عن مصيرهم ومآلهم : غضب وطرده من رحمة الله « ومن يهن الله فما له من مكرم : إن الله يفعل ما يشاء » . يتبع

الشيعة

عيد الدستور

لفضيلة الشيخ طه محمد السالك

المدرس بالأزهر

عن طارق بن شهاب قال : جاء رجل من اليهود إلى عمر ، فقال يا أمير المؤمنين آيةٌ في كتابكم تقرؤونها ، لو علينا نزلت - معشر اليهود - لاتخذنا ذلك اليوم عيداً . قال : وأى آية ؟ قال : واليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً ، فقال عمر : إني لأعلم اليوم الذي نزلت فيه ، والمكان الذي نزلت فيه ؛ نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم بعرفات في يوم الجمعة . رواه الشيخان .

تحتفل الأمم والحكومات الدستورية باليوم الذي ظفرت فيه بدُستورها الوضعي ، ويفخرون بأن لهم عيداً دستورياً مقدساً هو رمز جهاد طويل ، وعنوان حياة سعيدة ! .

فأحببتنا أن ندلم على عيد أعظم وأجل ، وهو عيد الدستور السماوي الذي احتفل فيه الإسلام احتفالاً مدوياً جامعاً يآكال الدين وإتمام النعمة وإعلان الإنسانية بأنه دين الله الذي لا يبتغي غيره ولا يقبل من أحد سواه ، ومن يتبغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين .

نزل القرآن الكريم على الرسول الأمين صلوات الله وسلامه عليه في مدة رسالته ، وهي ثلاث وعشرون سنة ؛ قضى منها ثلاث عشرة بمكة ، وعشراً بالمدينة . وفي السنة العاشرة التي لحق فيها بالرفيق الأعلى حج حجة الوداع ، ولم يحج

بعد الهجرة غيرها^(١) . ووقف معه بعرفة مائة ألف أو يزيدون ، وشهدوا جميعاً هذا الحفل الإسلامي الرائع الجامع الذي لا يشهد التاريخ مثله أبداً ، ووافق الوقوف يوم العيد الأسبوعي خير يوم طلعت عليه الشمس بشهادة الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم .

وبعد عصر هذا اليوم الذي جمع الله فيه للمسلمين عيدين عظيمين : عيد الجمعة وعيد عرفة - وإن شئت فقل عيد الأضحي - نزلت هذه الآية الكريمة تبشر المسلمين ببشائر ثلاث ، من جماع المجد والعز والخير كله : بلوغ دينهم مبلغ الكمال في حدوده ومعامله ، وفرائضه وأحكامه ، وحلاله وحرامه ؛ وإتمام نعمة الله عليهم بالنصر والعزة والتسكين في الأرض ، ودخولهم البلد الحرام آمنين مظفرين ؛ واختيار الإسلام من بين سائر الأديان ديناً لهم ، رضي الله وأحبه وأظهره على الدين كله ، وجعل السعادة كل السعادة في الاهتداء بهديه ، والشقاوة كل الشقاوة في المخالفة عن أمره .

كان بين نزول هذه الآية وبين انتقاله صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى أحد وثمانون يوماً نزل فيها عليه آية الكلاله^(٢) آخر سورة النساء ؛ وسورة النصر ، وآيات الربا . وقد قيل في كل من هذه الآية وما نزل بعدها إنه آخر ما نزل من القرآن ، وهذا على حسب علم القائل وفهمه . والحق أن آخر ما نزل باطلاق ولم ينزل بعده شيء من القرآن ألبتة ، قوله تعالى « وأنقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون » فقد توفى صلى الله عليه وسلم على إثر ليال بعدها .

وأياً ما كان الأمر ، فلن يعارض نزول هذه الآية من بشارة إكمال الدين شيئاً ؛ فإن ما قارب الشيء يعطى حكمه ، ولا سيما إذا كان التمام موثقاً به ، لا يحوم حوله شك ولا ريبه ، وذلك كما يقول الملك وهو على طرف انتماء من الغلبة والنصر : تم لي ما أردت ، وكما يقول المعنى بالصلاة لأول وقتها ولما يدخل : دخل الوقت .

[١] وأما قبل الهجرة فكان يجمع كل عام ، قبل الرسالة وبعدها .

[٢] الكلاله من مات ولم يترك أصلاً ولا مراً

بهرت اليهود هذه البشائر ، وهم أشد الناس عداوة وحسداً للإسلام والمسلمين فأرادوا أن يعتوهم بما ظنوا أن لاجواب عنه ، ويفظوهم بما حسبوا أن لا شفاء منه ، وغاب عنهم أن الله عاذلهم على يد الفاروق من أعز به الإسلام ، وجعل الحق على لسانه وقلبه ؛ قدموا أحدهم وهو كعب الأحبار ^(١) ولم يكن أسلم بعد ، فوجه لأمير المؤمنين مقالته في لهجة المتنعت أو الفرح أو الشاخ ؛ فما كان من الفاروق إلا أن أحجمه بجواب لا يقال إنه مسكت لحسب ، بل يقال - ولا مبالغة - إنه قاصم الظهر ، يبهت منه الذي كفر .

أجابه أمير المؤمنين بأن منزل القرآن - وقد أحاط بكل شيء علماً - أنزل هذه الآية السكرية في عيدين عظيمين لا في عيد واحد ، وفي أكرم مكان وأعظم حفل شهده التاريخ . فنحن لا نتخذ يوم نزولها عيداً من تلقاء أنفسنا ، ولا نتدع في دين الله ما ليس منه كما تصنعون ؛ ولكننا نتحد يوم نزولها عيداً بشرع الحكيم العليم ، الذي هدانا إلى الحق وإلى طريق مستقيم .

هذا هو عيد الدستور السامى الذى ورثه الله المصطفين من عباده ، وكتب فيه سعادة الدارين لمن ينصفون أنفسهم ويستعملون عقولهم ولا يدسون فطرة الله التى فطر الناس عليها .

ولكن ما الحيلة فى أقوام ركبوا رموسهم ، واتبعوا أهواءهم ، وعمهوا أو تعاموا عن هذا النور المبين والهدى الحكيم ، فراحوا يطلبون حقوقهم فى دستور أَرْضَى لا يغنى من الحق والسعادة شيئاً ١١٩ .

إن الدستور الوضعى - كما يقول واضعوه - هو مجموع القواعد والقوانين التى تبين سلطة الحاكم وحقوق المحكوم وعلاقة كل منهما بالآخر ، وطرق توزيع السلطة واستعمالها ، وكل هذا تكفل به الدستور السامى وبينه أتم بيان وأحسنه وقام بتطبيقه المسلمون الأولون ، رعاة ورعية على خير وجه وأكمله ، أيام كانوا

(١) لأنه أعلمهم الشرائع وأدراهم بالتوراة ، ولما رضوا به نسب إليهم القول بما جاء من الروايات وقالت اليهود لعمر ، الخ وأسلم كعب فى عهد عمر رضى الله عنه ، وفى إسلامه مقال نفوس فيه الأمر إلى الله عز وجل .

ابن سينا ومشكلات العصر الحاضر

محاضرة الأستاذ الدكتور محمد يوسف موسى

أستاذ بكلية أصول الدين

- ٣ -

تحدثنا في الكلمة الماضية عن رأى ابن سينا فى مشكلة العمل والبطالة .
أو - بلغة أيامنا هذه - مشكلة الضمان الاجتماعى . وكان فى النية أن نسوق الحديث
بعد هذا الى رأى فى مسألة المرأة ومنزلتها من الرجل والمجتمع بصفة عامة . إلا أننا

ملوك الدنيا وسادة العالم ، وأيام كانت شعوب أوربا خاضعة لملوك وأمراء
يزعمون أنهم موكلون بمصالح البشر ، اصطفاهم الله للحكم بين الناس ، فعليهم للملوك
السمع والطاعة ، وليس على الملوك لهم حق ولا واجب ! .

ولقد ناضلت هذه الشعوب نضالاً عتيقاً جرت فيه الدماء وأزهقت فيه
الآرواح ، حتى نالت حقوقها المسلوبة ، وحررتها المفكوبة ، بعد ثورات عواصف
حطمت فيها الشعوب معازل الظلم والاستعباد ، ودكت صروح العسف والاضطهاد ..
وكان آخر مقسم لهذا الكفاح الطويل المتواصل تلك الدساتير الوضعية التى اصطلمحوا
عليها . . ثم قدسوها قدسياً لو ظفر منهم ببعضه الدستور السماوى لعاشوا فى رغد
من العيش لن ينالوه فى ظل تلك الدساتير أبداً !!!

• • •

أما بعد ، فإذا كانت الأمم العربية قد ناضلت وفانلت فى سبيل دستورها
الوضعى حتى كتبت بدماء الثورة . فقد منحنا الله دستوراً أجمل وأعظم نغم به مقام
الحير والعر والظفر ، دون أن نخسر شيئاً . وإذا كانت الأمم الغربية تبتهج بدستورها
وتفرح ، فإن المسلم الحق بدستوره الحق أعظم ابتهاجاً وأشد فرحاً .

« يا أيها الناس قد جاءكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور . وهدى
ورحمة للمؤمنين . قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون » .

رأينا من الخير أن نعقب على البحث الماضى بوضع مقارنات وتعليقات في كلمات محدودة موجزة .

١ - الشيخ الرئيس كان مسلما قبل أن يكون فيلسوفا ، وقد فهم الإسلام حق الفهم ، وعرف الغايات التي جاء من أجلها والوسائل التي رأى اتخاذها لبلوغ هذه الغايات ، فكان لا بد إذا من أن يتأثر في تفكيره وعلاجه للمشكلات الاجتماعية والسياسية والفلسفية بهذا الدين الذي نشأ عليه ، وهذا التأثير نجده واضحاً في كل كتاباته في هذه النواحي وغيرها ؛ كما نجده قد تأثر في ذلك بلا ريب بما درس من العلوم ، وكان له بعد هذا وذاك رأيه الخاص بعد التفكير والموازنة والتفحص .

ولسنا نحاول أن ندخل في الإسلام كل تفسير نراه طيباً ، وكل علاج نراه عادلاً لبعض ما نحسه من مشكلات ، كأن نقول مع القائلين بأن الإسلام دين اشتراكي وديموقراطي وما إلى ذلك ، إن الإسلام أسمى من ذلك كله ، إنه دين أصيل له أسسه الخاصة وطابعه الخاص ، وإن غايته إسعاد الفرد والمجتمع والإنسانية كلها في كل زمان ومكان ، وذلك بتعميم العدل وإشاعة الرحمة والتعاطف بين الناس جميعاً ، لا فرق بين دين ودين وجنس وجنس .

هذا عمر بن الخطاب يقرر في بعض عهوده رفع الجزية عن كل من يضعف عن العمل من أهل الذمة ، وبأن يعطى من مال المسلمين ما يكفيه هو وعياله ما أقام بدار الإسلام . لقد رأى ذات يوم يهودياً يستجدي ، وعلم أنه ألجئ إلى هذا بسبب الجزية والسن والحاجة ، فأمر برفع الجزية عنه وعن أمثاله وترتيب نفقة تجارية له مدة حياته ، وقال : ما أنصفناه ، أكلنا شديته وضيعناه في هرمه ؛ وفي سفره إلى دمشق أمر بمنزل لهذا القوم من النصارى ابتلوا بالجزام فلم يجدوا إلى العمل سبيلاً . وكان من هذه السياسة العادلة ، التي شملت المسلمين واليهود والمسيحيين ، أنه لم يكن في عهد عمر الماروق من يشكو الحاجة ، ما دامت الدولة كانت تسارع لمعون العاجز والمحتاج . وكان الاطفال يعتبرون عاجزين عن العمل ، ولهذا كان يفرض عمر لهم أيضاً من بيت المال ما يكفيهم ، كما يفرض لولي كل طفل رزقاً يعينه على تنشئته وتربيته .

وكذلك كان الأمر في عهد الفاروق الثاني ، عمر بن عبد العزيز رضوان الله عليه ، حتى ليقول يحيى بن سعيد فيما يرويه الأستاذ سيد قطب في كتابه « العدالة الاجتماعية في الإسلام » : « بعثني عمر بن عبد العزيز على صدقات إفريقية فاقضيتها ، وطلبت فقراء نعطيها لهم ، فلم نجد بها فقيراً ولم نجد من يأخذها ، فقد أغنى عمر ابن عبد العزيز [أى بعد له] الناس ، فاشترت بها رقاباً فأعتقتهم » .

هذه الروح النبيلة ، من العدل والرحمة والتعاطف العام ، التي هي من لباب الإسلام ، قد فهمها ابن سينا وأمثاله ، فتأثروا بها دون ريب في تفكيرهم الاجتماعي والسياسي ، وكان من الشيخ الرئيس رأيه الذي عرفنا فيما سبق عن مشكلة العمل والبطالة . ومن نافذة القول أن نلاحظ هنا أن أوروبا لم تفكر في شيء من هذا الضمان الاجتماعي إلا في هذا القرن ، أى بعد أكثر من ثلاثة عشر قرناً بعد ظهور الإسلام .

٢ — يقول ابن سينا : « ومن الناس من رأى قتل الميئوس من صلاحه منهم [أى من الذين حيل بينهم وبين الكسب بأمراض وزمانات] ، وذلك قبيح ، فإن قوتهم لا يحجف بالمدينة » . على أنه ، مع هذا ، يرى إلزام القادر من قرابات هؤلاء الذين لا يرجى صلاحهم ببعض نفقتهم في غير إجحاف ولا إلحاح .

هؤلاء الذين رأوا هذا الرأي القاسي العنيف ، نرى منهم بعض مفكرى اسبارطة ، كما نرى منهم أفلاطون وأرسطو ، إن أفلاطون يرى في المقالة الخامسة من الجمهورية ، قتل الطفل ناقص التركيب ، والضعيف عديم النفع ، والمرضى لا يرجى له شفاء ؛ وكذلك يذهب إلى مثل هذا أرسطو في كتابه (السياسة) . لكن الشيخ الرئيس رأى - بحق - أن في ذلك انتهاكاً لحزمة النفس الإنسانية بلا ذنب جناه هذا المريض ، أو ناقص التركيب ونحوهما ، وبخاصة - كما يقول بحق أيضاً - وتكاليف حياتهم لا تعتبر عبئاً على الدولة بحال ما . ثم من يدرى بأن هذا النحو من الناس ضعاف الأجسام ، لا يكون من أحدم خير كثير من الناحية العقلية والتاريخ مصداق هذا الذي تقول في كثير من الحالات .

هذا فيما يتعلق بابن سينا وفلاسفة العصر القديم ؛ وفي هذا العصر الحديث نجد كذلك المجال واسعاً للمقارنات بين تفكير الشيخ الرئيس وتفكير بعض

فلاسفة أوروبا في هذه المسألة ، نفى مسألة العمل والعمال والعاجزين عن العمل وما يكون لهم على الدولة من حق توفير العيش السليم لهم .

، عندنا مثلاً ، وآدم سميث ، الفيلسوف الاسكتلندي المتوفى عام ١٧٩٠م ، إنه يعتبر العمل هو مصدر الثروة ؛ وأن قيمة الشيء لا ترجع إلى صفات ذاتية فيه ، بل إلى العرض والطلب . كما كان يرى أن الإنسان ينجح في إفادة المجتمع وهو يعمل لصالح نفسه ، أكثر مما لو قصد تخصيص مجوده لصالح المجتمع ، وفي هذا يقول : ولم أعرف أن خيراً كثيراً تم على أيدي أولئك الذين يتخذون من الصالح العام تجارة لهم ، ^(١) .

هذا الفيلسوف كان لا يرى فرض ضريبة على الأرباح ، لأنه من العسير تقدير قيمة رأس المال تقديراً حقاً صادقاً ، وذلك بعكس الأراضي ، كما أنه من السهل الفرار برأس المال إلى نواح أخرى عند ما يحس صاحبه ثقل عبء الضريبة عليه ^(٢) . ومن الواضح أن في هذا الرأي خسارة على الدولة ، وتضييع جانب كبير من الضرائب التي يجب جبايتها لتفق في صالح الفقير والمحتاج من المواطنين ولهذا لا يذهب إلى هذا الرأي الاقتصاديون في الوقت الحاضر .

وعلى كل ، فإن سينا كان أبعد نظراً ، وأرفق بالفقراء والمحتاجين لعون الدولة حين رأى - كما قدمنا من قبل - فرض ضريبة على الأرباح الطبيعية والأرباح المكتسبة لتصرف في خير المعوزين . ولعل الضريبة على المال تدخل فيما يسميه الأرباح المكتسبة .

٤ - قدمنا في الكلمة الماضية أن ابن سينا كان يرى أنه يجب أن يكون لكل فرد من الأمة ، من أية طبقة اجتماعية يكون ، مقام محدود وعمل معروف وإدأ فالبطالة والتعطيل عن العمل محرمان تماماً ؛ إذ لا يصح أن يكون أحد عالة على أحد متى كان قادراً على العمل ، كما لا يصح ألا توفر الدولة لكل قادر على العمل عملاً يكسب منه عيشه في كرامة .

[١] ص ٧٧ من كتاب النظام الاشتراكي للدكتور أحمد نظمي صد الحيد والدكتور راشد البراوي ، نشر مكتبة النهضة سنة ١٩٤٦ م

[٢] النظام الاشتراكي السابق ذكره ص ١٩٥

حق كل مواطن في أن يعمل ، هذا الحق أو الواجب الذي يقرره ابن سينا في هدوه ، ولا يجد حاجة في تقريره إلى الثورة على شيء من النظم القائمة ؛ وكذلك حق العاجز عن العمل ، لأنه لا يجده أو لأنه عاجز عن القيام به ، وواجب الدولة في ضمان العيش المقبول الكريم لكل فرد من المواطنين - نقول ، هذا الحق وذلكهما اللذان لم يجد ابن سينا أى عاء في تقريرهما ، نرى أنهما لم يتقررا في أوروبا إلا بعد ثورات اجتماعية ، ثورات أريقت الدماء في بعضها ، على أنهما مع هذا من الحقوق الطبيعية للإنسان باعتباره إنسانا عضواً في مجتمع أو مواطناً في دولة .

ها هو ذا الفيلسوف الألماني فخته "Fichte" (١٧٦٢ - ١٨١٤ م) ، يرى أنه على الدولة أن تكفل لكل فرد من أهلها عملاً ، وهذا ما يسمى بمبدأ حق العمل الذي نادى به هذا الفيلسوف ^(١) .

ومن بعد ، فخته ، نجد كارل ماركس ، المتوفى عام ١٨٨٣ م ، يذكر في البيان الذي صممه مطالب الحزب الشيوعي في ألمانيا أنه يجب أن تضمن الدولة المعيشة لجميع العمال ، وأن تتولى أمر العاجزين عن العمل ، ^(٢) . يذكر هذا المبدأ ويعمل على تقريره وتنفيذه فعلاً ، بعد أحداث وخطوب حسام ، ومع هذا لم يسعد برؤيته نافذاً في أوروبا كما كان يتمنى .

• • •

وبعد ، من هذه التعليقات والممارسات التي قدمنا ، نعلم كيف كان تفكير ابن سينا سليماً وأصيلًا في هذه المشكلة ، مشكلة العمل والبطالة ، وأن أوروبا بصفة عامة ، لم تفكر في أن تصل إلى مثل ما قرره الإسلام في هذه الناحية إلا بعد أكثر من ثلاثة عشر قرناً من ظهور الإسلام .

والآن ، إلى المشكلة الثانية ، نغنى مشكلة المرأة ومنزلتها من الرجل والمجتمع ، في العدد الآتي إن شاء الله تعالى ؟
الحديث موصول

[١] النظام الانتخابي ، ص ١٧

[٢] نفس المرجع ، ص ٦١ - ٦٢

شِعْرَاءُ الْإَزْهَرِ

٦ - الشيخ مصطفى عبد الرازق (باشا)

شيخ الأزهر الأسبق

لفظيد الأستاذ الشيخ عبد الجواد رمضان

ترجع معرفتي لآل عبد الرازق الكرام ، لقريب من أول عهدي بالأزهر الشريف ؛ فقد حضرت القطر والشذور وابن عثيل والأشعوني ، في جامع محمد بك أبي الذهب ، على المغفور له العلامة الثبت الحجة ، الشيخ محمد عليان ، طيب الله ثراه ! وكان أبرز الدرس - على كثرة البارزين فيه - شخصان نشيطان ، يلفتان النظر بخصائصهما المميزة ، وبمشاركتهما للشيخ في مشكلات المسائل ، مشاركة تنفي عن تعمق في البحث ، وعن ذكاء ممتاز ؛ فأما أحدهما ، فهو أسن الطلاب ، وأجسمهم ، وأعلمهم ، المرحوم الشيخ حسين البيومي عضو جماعة كبار العلماء ؛ وقد نال شهادة العالمية ونحن في مقدمة الأشعوني ، فكان انتقاله من صفوف الطلبة ، إلى صفوف العلماء سريعاً مبكراً سهلاً ، بقى موضع عجبنا وإعجابنا زمناً طويلاً . وأما الآخر ، فهو صاحب المعالي على عبد الرازق باشا وزير الأوقاف الأسبق ، ذو الطربوش الفريد في الأزهر يتزوج زياً عربياً ثميناً أنيقاً كل الأنقى ، كاملاً كل الكامل ؛ وهو دسكرتير ، شيخنا العظيم ؛ يكلفه - أبداً - بالكشف عما يعرض من الألفاظ الغامضة في المعاجم اللغوية فيؤدى رسالته على خير الوجه .

وصلتنا بالسادة القبايات ، صلة ورثناها عن الآباء والأجداد ؛ لأنهم الشيوخ الروحانيون لمصر الوسطى ؛ وكان لشباب هؤلاء ، وشباب آل عبد الرازق ، وشباب آل أبي العيون ، مصاطب ، وإن شئت فقل : صالونات ؛ يجتمعون فيها على شراب الشاي البديع ، يتفلقون عليه بالأدب الرفيع رواية وإنشاء ، في الأرياف لقرب بلادهم بعضها من بعض ؛ وفي القاهرة ، لأن الأزهر يجمعهم ؛ ولتقاربهم في الأستان وفي الدراسات .

وكان يختلف الى مجتمعاتهم كثيرون من الشباب المثقف من مختلف الأقاليم المصرية، والأوطان العربية؛ فيتباحثون، ويتساجلون، ويتناشدون. وعن طريق مشايخنا القباية تصل إلينا طرائف مما يدور في مجالسهم، فتلقمها، ونحرص على حفظها وروايتها، كما نحرص على روائع النصوص الأدبية.

ومما بقي عالماً بذهني من تلك الطرائف، أن الشيخ مصطفى عبد الرازق - وكان يعتبر رئيس الشلة - طرح اليتين المنسويين لولادة بنت المستكفي بالله الأموي، الخليفة بالأندلس:

أنا - والله - أصلح للبعالي وأمشى مشيتي، وأتبه تبه
أجر على الوري ذيل التصابي وأعطي قبلي من يشتهها!
للتشاطر، وجعل جائزة المتفوق، ييتين من شعر الرئيس: وكان المتفوق
المغفور له الشيخ إبراهيم القبايقي؛ فقال الشيخ مصطفى عبد الرازق:
لله إبراهيم من شاعر ذى فطنة في الشعر وقاده
ولد في التشاطر من لطفه مالم تضعه قبل ولاده!
والثورية في: تضعه قبل ولاده غنية بروعتها وجمالها عن أن يشار إليها.
والذنب في إغفال ذلك التشاطر، على خيانة الذاكرة، لا على حساب الوفاء.
ومن تلك الطرائف في «الشاي»، وتروى للزعيم القبايقي المغفور له الشيخ
عبد العظيم، طيب الله ثراه:

وصجد الشاي يحلى في قالب من لجين
هذا يروق قلبي وذا يروق لعيني

وفي «شروط» حانة «الشاي» وفيه مجانة:

إذا ما جاوز الندمان خمأ مع السلطان والساق الأديب
ف..... أم قى حنانا و..... أم قى مجيب
إلى غير ذلك، مما ذهبت به - مع الشباب - الأيام.

والشيخ مصطفى عبد الرازق، أحد ثلاثة صرفتهم الكتابة عن الشعر، بعد

أن كان وكدهم في أول حياتهم : السيد مصطفى لطفى المنفلوطى ، والشيخ عبدالعزيز البشرى ، والشيخ مصطفى عبد الرزاق ؛ والمنفلوطى أشعرهم ، والبشرى أضعفهم ؛ وقد عاود هذا ، الحنين إلى الشعر ، في عهده الأخير ، ففشر قصيدة له ، في السياسة قدم لها بمقدمة قال فيها : إن له سبعة وعشرين عاما لم ينظم شعراً ؛ وكأنه يباهى بقصيدته ، التي كان الضعف والتكلف يشيعان في أطرافها ؛ فكتب إليه أحد عشاق كتابته - كما أسر بذلك إلى - « قصيدتك المفضولة في السياسة ، ردتك إلى الخلف سبعة وعشرين عاما ! » وفهم البشرى « النكتة » وهو سيد من يفهم ! فلم يعد إلى الشعر أبداً .

وما زال المنفلوطى يقول الشعر في الفينة بعد الفينة - على حد تعبيره - حتى لقي الله .

فأما الشيخ مصطفى عبد الرزاق ، فقد انصرف عنه انصرافاً تاماً منذ عهد بعيد ، لعله بعد أن نال شهادة العالمية . يقول المغفور له الشيخ رشيد رضا في تاريخ الإمام الشيخ محمد عبده : « ومن تخرج عليه في الكتابين « أسرار البلاغة » و « دلائل الإعجاز » فكان كاتباً مجيداً ، وشاعراً بليغاً ، المرحوم السيد لطفى المنفلوطى ، وله قصائد في مدحه ؛ ومنهم الشيخ عبد الرحمن البرقوقى ، والشيخ مصطفى عبد الرزاق ، والشيخ على عبد الرزاق وكل منهم كاتب بليغ ؛ وكان الشيخ مصطفى مجيد نظم الشعر ، وقد مدح الأستاذ الإمام بشعره ، والظاهر أنه تركه بعد ذلك ، اهـ بنصه (١) .

• • •

وانصراف هذا الثالوث عن الشعر إلى الكتابة ، كان توفيقاً من الله عظيماً ؛ فإننا لم نخسر كثيراً إذ لم نظهر من شعرهم بالكثير ؛ وكنا نخسر الكثير الذى لا يعتاض بمثله لو خسروا كتاباً ؛ فقد انفرد كل واحد منهم بمذهب كتابى لا يشبهه ، ولا يشارك فيه .

فأما البشرى ، فقد أعاد الطريقة « الجاحظية » جذعة : ألعاظ بكر ، جذلة نفحة ، تحمل مشابه البداوة ؛ وأسلوب غل قوى يطاهر فيه الحسن المجلوب ، حسناً غير مجلوب ؛ ومعنى شريف فى منطق دامغ عميق ؛ وسخرية بارعة لاذعة ؛ واستقصاء لا يدع فيما يعرض له من المعانى لغيره فضلاً . وعلى الجملة : طريقة البشرى ،

هي طريقة الجاحظ مجددة مجلوة في مطرف قشيب ؛ تحس ذلك في يسر ، إذا قرأت للبشرى ، ثم قرأت الجاحظ في غير « البيان والبيان » فإن الجمع يغلب على هذا الكتاب ، وإنما يلتمس أسلوب الجاحظ في مثل « الحيوان » وغيره من رسائله وكتبه .

وأما المنفلوطي ، فهو لإمام « السهل الممتنع » في العصر الحديث غير مدافع ؛ والنقاد يعرفون السهل الممتنع ، بأنه الأسلوب الذي يقرؤه القاري ، فيرى أنه يستطيع مثله ، ولو خدش أنفه بظفر كلب ما استطاع . وكأنهم يريدون أن قلب الحقائق أيسر منه منالا ، فعاود قراءة المنفلوطي في أي كتبه شئت ؛ ثم قل لي : ماذا ترى ؟

وأما أسلوب الشيخ مصطفى عبد الرزاق ، فذلك الطراز المنمنم ، الذي تقطر الرقة من أعطافه ؛ ويترقق الحسن في أطرافه ؛ ويجمع لك بين تفحات الزهر ونشوات الحر . ونفثات السحر ؛ وهل رأيت الشيخ مصطفى عبد الرزاق في ذوقه العام : في ستمه ، في لباسه ، في حديثه . في نقاشه ، في خطابه ؟ ذلك هو مصطفى عبد الرزاق في كتابته : خيوط عريية متخيرة سدى ولحمة ، نسجتا بغداد ، وفصلتها باريس تفصيلا هندسيا محكم الضبط ، رائع الاسجام ؛ تزين معانيه ألفاظه ، وألفاظه زائحات المعاني .

ليس فيها ما يقال له كلك لو أن ذا كلا

أولئك رجال ، أسأل الله شططا ، لو سأله تعالى أن يعوضنا فيهم خيرا ؛ فرحمة الله عليهم . ١

وأختم هذا البحث ، بما أمكنني الوصول إليه من أشعار المرحوم الشيخ مصطفى عبد الرزاق باشا . قال المغمور له الشيخ رشيد رضا في « تاريخ الإمام » : لما قدم الأستاذ الإمام من سياحته في هذا العام سنة ١٩٠١ في أوربة وتونس والجزائر هناك بالعصائد الطنانة جماهير العلماء والأدباء في الأزهر وتذكر هذه الآيات للشاب الذي زاحم في بدايته أهل النهاية ، تنشطها له على العناية بالأدب وهو الشيخ مصطفى نجل حسن بك (باشا) عبد الرزاق . قال :

أقبل ، عليك تحية وسلام يا ساهرا والمسلوب نيام
تطوى البلاد ، وحيث جئت لامة نشرت لفضلك بينهم أعلام
كالبدر ، أنى سار يشرق نوره والحق ، أنى حل فهو لإمام
إن يتدروا فى الغرب شلك قدره فدصر أولى منهم والشام
فيك الرجاء لامة لعبت بما يلهى الصغار ، وجدت الأيام
لا زلت غيظا للضلال وأهله والله يرضى عنك والإسلام

* * *

ورثاه بقوله :

رزى العلم فيك والإسلام يا فقيد الهدى ، عليك السلام !
كنت طودا إذا الخطوب ادهمت لم تل همك الخطوب الجسام
رجل كان حين يسلك لجا تتحلى طريقه الأيام
يادفين القلوب ، قد هابك الدهر ، فكيف اعتدى عليك الحمام
إن فى قبرك الساحة والفضل ، وفيه الثبات والإقدام
كان مغناك للعفاة وحييا ثبتت فى رحابه الأيتام
لم تسكن تحمل الضغينة والحقود وإن نال من أذاك الشام
طيب القلب لم تهتم بشر طاهر الذيل لم يمسك ذام
كنت حى الفؤاد تصدع بالحق فتلوى عنائها الأوهام
كنت سلم الطباع ، والدهر حرب ساهر العزم ، والقلوب نيام
كنت ترى فى كل علم بهم لا تباريه فى السداد سهام
أنت خلكت فى الحياة ثناء تنفى بذكره الأعلام
جئت هدى الحياة والدهر كهيل وتوليت والزمان غلام
إن قلبا أصفاك بالود جيا صدعته بموتك الآلام
كان فى هذه الحياة رجاء فدفناه يوم مات الإمام
رحم الله منك نفس كريم وقليل من النفوس الكرام

ولا ريب أن معانى هذا الشعر وقوافيه على قوتها الواضحة ، كانت فى حاجة إلى التركيز والتسكين ، وعذره أنه كان فى طور المراتة ، لا فى إبان النضج .

رحمة الله عليه ؟

لغويات

مية - مائة

لغويات السبع محمد علي النجار

مدرس بكلية لغة العربية

هذان وجهان يجران في استعمال اسم العدد مائة .

فالاستعمال الأول مية ، يجرى على السنة العامة . وهو — كما لا يخفى — انحراف عن الصواب في النطق وتكسب للجادة . وهمى هنا أن أخرج هذا الوجه من الاستعمال وأبين مأناه ومبعثه في السنة العامة . وسرى أنه ليس بعيدا عن النهج العربي .

فأصل ذلك تخفيف همزة مئة ، وإبدالها ياء ، وهو قانون تخفيف الهمزة المفتوحة المكسورة ما قبلها ؛ إذ كان الكسر قبلها يجتنب الياء . وتخفيف الهمز سنة الحجازيين ومن صاحبهم وجاورهم . وذلك أنهم يرونها ثقيلة في النطق فيغرون منها بتخفيفها وحذفها تارة ، وإبدالها حرفا آخر من حروف اللين تارة أخرى ، على منهج مدروس في كتب العربية . ويبقى التيميون على الهمزة فلا يخففونها ، ويسمى علماء العربية أهل التحقيق ، أى أنهم يحققون الهمز ، ولا يفعلون به كما يفعل الحجازيون ، ونرى العامة يجران في ألفهم في الهمز على منهج الحجازيين في التخفيف ، فيقولون : الرأس في الرأس ، والبئر في البئر ، والمرة في المرأة .

وتخفيف همزة مئة بإبدالها ياء قرأ به القراء في القرآن الكريم ، وذلك قراءة أبي جعفر يزيد بن القعقاع أحد القراء العشرة المتوفى سنة ١٣٠ . وفي الفشر :
والهمزة المفتوحة قبلها كسرة ، يبدلها أبو جعفر ياء . ومن ذلك مئة وقعة ، وتنتيها ، وجاء هذا أيضا في المسأور عن العرب ، وما ينسب إلى زرقاء اليمامة في قصة لها :

ليت الحمام لي به إلى حمامته
ونصفه قديه تم الحمام ميه

فترى أن النطق بالياء في د مئة ، بدل الهمزة عربي صحيح . وإنما زاد العامة تشديد الياء في هذا اللفظ فقالوا : مية ، وهذا ما لم يعرف عن العرب . ولكنه مع ذلك منهج مألوف لهم جروا عليه في بعض ما حذف لآمه ، تعويضاً عن المحذوف . فقد جاء عنهم الهم في الهم ؛ قال العجاج .

ياليها قد خرجت من فم حتى يعود الملك في أسطمة^(١)

وحكى اللحياني أنه يقال فم وإفام ، قال ابن مالك في شرح التسهيل عقب سوق هذه الحكاية : « فعلم أن التشديد لغة صحيحة ؛ لثبوت الجمع على وقتها . فليس بمصيب من رعم أن التشديد لم يستعمل في غير ضرورة ، وبما شددوه من هذا الضرب الدم ، قالوا فيه : الدم ؛ قال^(٢) أبو خراش الهذلي يرثي خالد بن زمير :

أرقت لهم ضافني بعد هجعة على خالد فالعين دائمة السجم
إذا ذكرته العين أغرقها البكى وتشرق من شهما لها العين بالدم

وأشد ابن مالك في شرح التسهيل قول الشاعر :

أهان دممك فرغاً بعد عزته يا عمرو بفيك لإصراراً على الحسد
فقد شقيت شقاء لا انقضاء له وسعد مرديك موفور على الأبد

وقول آخر : والدم يجرى بينهم كالجدول .

وأكرر الكسائي تشديد ميم الدم ، فهو^(٣) يقول : « لا أعرف أحداً يفضل الدم ، وقد مر بك من الشواهد ما يدفع حكمه هذا . وجاء تشديد الآب والأخ ، حكى ذلك الأزهري ، وأنه يقال : استتب أبا أي اتخذ لك أبا ، وقد جعل التشديد في أب تعويضاً عن المحذوف كما قالوا قن للعبد المملوك وأصله قن من التقيّة . ويجرنا ذكر تشديد الآب إلى سوق قصة أوردها الشيخ يس في حاشيته^(٤) على التصريح ، وذلك أن بعض الرؤساء قال لشهاب الدين القوصي : أنت عندنا مثل الآب ، وشدد الباء ، فقال الشهاب : لا جرم أنكم تأكلونني^(٥) ! يريد الشهاب

[١] أسطمة الشيء : وسطه ومعظمه ، والضمير في « خرجت » كأنه يريد به كلمة يشكم بها في

ثأن من يحدث عنه . [٢] أنظر ديوان الهذليين طبع دار الكتب ١٥١/٢ .

[٣] اللسان [دى] . [٤] في مجمع العرب والمأبى [مرات الأسماء الخمسة]

[٥] في حاشية الشيخ يس : تأكلون ، والوجه ما أمته .

أن الأب مشددا متعارف في العشب الذي تأكله البهائم . وكأن الشهاب يرمى بذلك إلى أن هذا الرئيس لا يعرف له حقه ويتهمه ، فهو يأكل كما يأق الذئب فريسته ، وبذلك ترى أن مادة الأكل هنا لها لطف وماء ، ويقول الشيخ يس : « ولو قال القوصى : لا جرم أنكم ترعوننى كان أطف كما لا يخفى على أهل الذوق ، وقد عرفت ما فى هذا . ويزعم الشيخ يس أن لا وجه لإنكار القوصى التشديد هنا ، والقوصى — فيما يبدو — كان عاتبا على الرئيس فأظهر عتابه فى هذا الرد وقد بناء على المتعارف فى اللغة كما رأيت . ويشول الشيخ يس أيضا : « ولا وجه لقول بعضهم : من يشدد الباء من الأب الذى هو الوالد ما يكون إلا دابة » .

والاستعمال الآخر « مائة » نسمعه كثيرا من المثقفين . وسبب هذا الخطأ رسم مائة بالآلف ، وقد كان هذا الرسم مبهمة دفع التباس « مائة » لو كتبت على وجهها « منه » بعبارة « منه » مع ملاحظة أن الكتابة فى القديم كانت تخلو فى الأكثر من النقط اعتمادا على الفهم من القرائن والسياق .

وقد استرعى نظرى أن وجدت هذا الخطأ فى النطق من دهر غير . فقد نبه عليه نحوى أندلسى زار مصر فى سنة ٨٢٥ من الهجرة . وأوطنها حتى مات بها سنة ٨٥٣ ، وصلى عليه بالأزهر . ذلك هو^(١) محمد بن محمد الراعى صاحب التصانيف الكثيرة فى النحو . فله شرح الآجرومية وإعراب الألفية . وله الأجوبة المرضية عن الأسئلة النحوية . وهذا الكتاب الأخير هو الذى وقفت عليه من كتبه ، وقد عنيت به عناية خاصة ، لأنه يسجل بعض ما كان فاشيا فى عصره من الأخطاء اللغوية فى مصر . وسأقتل عنه فى هذا المقام بعض ما أراه صالحا للنشر فى « لغويات » .

وكتاب « الأجوبة المرضية عن الأسئلة النحوية » من مخطوطات دار الكتب المصرية (٣٣٥ نحو) . وإنى أؤثر أن أنقل لفظه من كتابه . قال : « سأل بعض الطلبة عن قراءة العامة المتممين إلى الخاصة . وهم أكثر القضاة وأتباعهم من الموقعين والشهود ونحوهم . لفظ مائة فى تاريخ المكاتيب ونحوها بفتح الميم ومد الآلف ، على صورة كتابتها فى صناعة الرسم ، فيقولون : مائة .

« فأجبت أن ذاك خطأ فاحش ولحن قبيح . وكأنهم لم يقرءوا كتاب الله عز وجل . قال الله - عز وجل - ولبنوا في كههم ثلاثمائة سنين ، فأجلنوا كل واحد منهما مائة جلدة ، فأمانه الله مائة عام ، إلى غير ذلك من الآيات . والصواب أن يقرأ لفظ « مائة » بهم مكسورة بعدها همزة مفتوحة وتاء مربوطة هي محل الإعراب ولا يجوز مد الألف بوجه من الوجوه ، ويجوز تسهيلها بقلبها ياء ؛ قال ابن مالك : وياء اقلب ألفا كسرا تلا ، ومنه قول زرقاء اليمامة :

ليت الحمام إليه إلى حمامته
ونصفه قديه تم الحمام ميه

« فإن قلت : فإذا كانت ألها لا تمد فلم كتبت في الخط بالآلاف بعد الكسرة : وما الحاجة لكتيب هذه الآلف ؟

قلت : قال أهل العلم : إنما كتبوها بالآلف ليفرقوا بين « مائة » و « منه » ؛ لأنك إذا قلت في التاريخ مثلا :

وخمس مائة ، وكتبت « منه » بغير ألف كانت تشبه لفظ « منه » فكان يلتبس في الخط قولك :

وخمس مئة بقولك : وخمس منه ؛ لأن صورة « مئة » و « منه » بغير الآلف في الخط واحدة ، ففرقوا بينهما بالآلف : كما فرقوا بين عمرو وعمر بالواو .

وفي بعض كلام الراعي مجال للتعقب . فقد استدل على تسهيل الهمزة بقلبها ياء في نحو مئة بقول ابن مالك :

وياء اقلب ألفا كسرا تلا

وكلام ابن مالك في الآلف اللينة التي يعبر عنها بالآلف اليابسة . وابن مالك يتكلم في هذا على قاعدة إبدال الآلف ياء في مثل مصايح ، والإبدال في هذا واجب لا محيد عنه ، والإبدال في مئة وفتة استحسانى غير واجب كما لا يخفى ، وإنما يذهب إليه بعض العرب وهم الحجازيون كما سلف لك .

هذا أمر خاص بفلان . الثبل خاص بذى الخلق الحسن

يكثر هذا التعبير . وقد جرى بحث في هذا إذ ورد في كلام الشيخ عبد القاهر

في أمرار البلاغة حيث يقول : « مثاله أن يتعدى الفعل إلى شيء مخصوص يكون له من أجله حكم خاص ، وقد كان من رأى من تحدث معي في هذا الأمر أن الصواب أن يقال : « حكم مخصوص به » ، ذلك أنه يقال : خص أن عليا بالنبل ، فالتبل مخصوص به على ، ولا يسوغ ذلك أن يقال : التبل خاص بعلي ؛ فإن الخاص في هذا الأسلوب هو الماعل ، وهو الله سبحانه في هذا المثال . وذكر لي محدثي أنه لا يقال - على حسب ما جاء في المعاجم اللغوية - خص الشيء بكذا ، أي إن المعاجم خلت من إيراد هذه المادة لازمة غير واقعة . ووجدت ما قاله صحيحاً في بادي الرأي . ففي القاموس : « خصه بالشيء ، خصا ، وخصوصاً ، وخصوصية - ويفتح - وخصيصي - ويمد - وخصيه ، وتخصه : فضله ، وخصه بالود كذلك » . وفي اللسان : « خصه بالشيء ، يتخصه ، خصا ، وخصوصا ، وخصوصية ، وخصوصية - والفتح أفصح - ، وخصيصي : وخصصه واختصه : أفرده به دون غيره ، فترى أن ما يقع به التفضيل أو الإفراد سبيله في هذه المادة أن يوصل بياء الجر ، والوصف منه « مخصوص به » . فأما الخاص فهو المفضل والمُفَضَّل ، وأن « خص » لا يأتي لازماً . وفي اللسان أن « اختص » يأتي لازماً كما يأتي متعدياً فيقال : اختص فلان بالامر .

ولكني رأيت في اللسان النص الآتي : « ويقال : فلان مُخص بفلان أي خاص به » وفيه أيضا : « ويقال : خاص بين الخصوصية ، والاستشهاد بالنص الثاني : إذ كان معزوا إلى العرب ومن قولهم ، فأما النص الأول فهو تفسير لغوي ، ففي الأخذ به مجال للقول والطعن . وأعود إلى هذا النص فأقول : إنه يفيد استعمال « خاص » لازماً ، فيقال : التبل خاص بفلان ، وهو ما في عبارة عبد القاهر ، وبهذا يكون هذا الإمام بمنجاة من اللوم والتفريع .

وبقي بعد هذا مسألة تبدو للباحث هكذا : هل يأتي الفعل لازماً فيقال : خص التبل بفلان ؟ والجواب عن هذا أن من الأصول اللغوية أنه إذا ورد الوصف في العربية سوغ ذلك إيراد الفعل على وفق الوصف . ذلك أن ورود الوصف دليل على استعمال الوصف ، وإن لم تنف عليه ولم يبلغنا . ويقول ابن جني :

الفقه السياسي عند المسلمين

التكاليف - المسؤولية - الحريات - سيادة الأمة

المؤلف: الدكتور محمود فياض

المدرس بكلية أصول الدين

رأينا فيما سلف أن الإسلام يقيم دولته على أساس التكليف الإلهي للأمة ، وأن الأمة بهذا التكليف هي صاحبة السلطان المطلق على جميع أمورها ، وأنه لهذا التكليف الجماعي أضحت الأمة مسئولة مسئولية حقيقية عن صالح الدين وصالح المسلمين ، أمام سيدها ومالكها سبحانه ، وإنك لتجد ذلك واضحاً في الخطاب العام الموجه إلى الأمة في القرآن الكريم ، في جميع الأمور . إيجابية وسلبية ، فتلا تجد الخالق سبحانه يناهى الأمة بـ : « يا أيها الناس ... » ، « يا أيها الذين آمنوا ... » ، كما تجد الأوامر والنواهي موجهة إلى الأمة أيضاً : « أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة » ، « وافعلوا الخير » ، « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها » . وإذا حكمتكم

« (١) قال في أبو علي بالكشاف : إذا صححت الصفة فالفعل في الكف » ، وقال (٢) أيضاً : « وحكى أبو زيد : رجل مدرهم ، قال : ولم يقولوا منه : درهم . إلا أنه إذا جاء اسم المفعول فالفعل نفسه حاصل في الكف » .

وقد ظفرت بنص صريح في هذا يكفيننا مئونة القياس والاستنباط . فقد جاء في كتاب (٣) الأفعال لابن القوطية : « وخص الشيء ، خصوصاً : ضد عم » .

وأنبه هنا إلى عبرة نأخذها من هذا البحث . وهو أن المعاجم التي بأيدينا قد تخلو من بعض اللغة الواردة ، فعلينا أن نثريث في إنكار ما ليس فيها ، فقد يكون في غير ما هو مألوف لدينا . وعلينا بعد هذا أن نعتي بإخراج الأصول اللغوية بقدر ما يبسر لنا حتى تتسع ثروتنا اللغوية ، ويكون حكمتنا في اللغة أقرب إلى السداد . والله الموفق للصواب .

بين الناس أن تحكموا بالعدل » والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما « الرأية والزاني فاجلدوا » وهكذا يتجه الخطاب إلى الأمة بالتكليف في شتى النواحي ، في أمور العبادة ، وفي المعاملات ، وفي الشئون العامة كالحكم والقضاء أو تنفيذ أحكام الشرع ، وبذلك يقرر الإسلام أن للأمة الإسلامية كياناً خاصاً وشخصية معنوية جعلها مناط التكليف فأمرها ونهاها ، وألزمها تبعة التكليف ومقتضياتها ، وحملها المسؤولية عن صالح دينها ، وصالح أفرادها ، وصالحها في الجملة « صالح الدين والدولة » .

والتكاليب الجماعية أضخم تحقفاً ، وأشد إلزاماً للفرد من التكليف الفردي ، لأن الفرد في الواقع في التكليف الجماعي يكون مكلماً باعتبارين ، باعتباره وحدة من وحدات الأمة المخاطبة بالتكليف . وباعتباره فرداً مخاطباً بشخصه ضمن الخطاب العام للأمة ، وبعبارة أخرى ، هو مخاطب بوصفه الجماعي باعتباره لبنة قوية في بناء المجموعة يطلب إليه العمل على خيرها ، وبوصفه الفردي باعتباره إنساناً يجب أن يتوهم بالتزاماته نحو سيده ونحو إخوانه ، ومن هنا نشأ ما نسميه التضامن الجماعي الفرد والجماعة ، وتقررت بهذا التضامن مسؤولية الجماعة عن صالح الفرد الذي يعتبر مقوماً من متوماتها ، ومسئولية الفرد عن صالحه ، وصالح كل فرد من إخوانه ، وصالح الجماعة بصفة عامة ، بوصف الفرد مطالباً بالعمل على سلامة البناء والمحافظة على قوته وكرامته ، ولهذا جعل الإسلام لكل مسلم حق الإشراف العام على شئون الدولة ، ومراقبة تصرف الحكام ، ولفت نظرهم إلى الأخطاء التي يرتكبونها ، وتصحيح هذه الأخطاء ، يارشادهم إلى الحق ، ونصحهم بالمعروف ومجاهبتهم بما يجترحون من مظالم ، وحمل الإسلام كل فرد يفضي أو (يتستر) على جرائم الحكام وظلمهم ، مثل ما يحتمله المجرم أو الحاكم الظالم ، وفي هذا يقول عليه السلام : « من رأى منكم منكراً فليغيره ... » ويقول : « إذا كان في أمي من يهاب أن يقول للظالم : يا ظالم ! فتمتدودع منهم ، ويقول : « إذا وجدتني في أمي ظلماً وفيهم من يستطيعون أن يغيروا فلم يغيروا ليوشكن الله أن يعذبهم بعذاب ، والنصوص في ذلك كثيرة وهي تدور حول قوله سبحانه وتعالى : « ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار » ؛ وهذه هي الرقابة الشعبية بلغة هذا

العصر ، التى جعلها المشرع سبحانه سيفاً مصلتاً على رقاب المخالفين . حكماً كانوا أو محكومين ، وهذه الرقابة هى المعبر عنها فى لسان فقهاء الإسلام ، بالامر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وهى سلطة كبيرة وصعها الله فى يد كل مسلم وطلب إليه أن يحسن استعمالها ، وعنها يقول الإمام محمد عبده فى كتابه (الإسلام والنصرانية) « وهى السلطة الوحيدة فى الإسلام ، التى جعلها الله لأدنى المسلمين يقرع بها أنف أعلام » .

وهذا أسمى ما أعطى للأفراد . فى كل التشريعات - من ضمان الحرية الرأى ، والتعبير عنه ، والدعوة إليه ، ولم تستطع أحداث الدساتير ديموقراطية ، أن تضمن للفرد بعض ما يمنحه له الإسلام فى هذا الشأن .

وهذا النمط من التكليف الجماعية يتفرد به الإسلام عن غيره ، وإنك لن تجد هذه المعانى التى حدثت عنها فى مثل هذا التكليف القائل : « من ضربك على خدك الأيمن فأدر له الأيسر » . « أعط ما لله لله ، وما لقيصر لقيصر » ، فأى تضامن جماعى ، أو مسئولية مشتركة يوحى بها مثل هذا التكليف ؟ وزد على هذا أن قيصرًا هذا لم يعد له فى الإسلام شئ أكثر مما لغيره من أفراد المسلمين ، بل إن عليه تبعة أعظم من تبعاتهم ، لأنه خادم للأمة صاحبة السيادة عليه ، ويعبر عن هذا عمر بن الخطاب بقوله للأشعري أمير الكوفة : « يا أبا موسى إنما أنت واحد من الناس غير أن الله جعلك أقبلهم حملاً » ثم يقول : « إنه من ولى أمر المسلمين يجب عليه لهم ما يجب على العبد لسيده » .

ونظراً لعظم التكليف وثقل المسئولية عنها ، فقد قرر الإسلام : أن كل مكلف يجب أن يعطى من الوسائل كل ما يمكنه من القيام بتكاليفه ، وإلا كان هذا التكليف ظلماً وتعسفاً . لا يكلف الله نفساً إلا وسعها . ولا يكلف الله نفساً إلا ما أتاها . فأنت إذا أنيت شخصاً فى اليم وقلت له إياك أن تبتل بالماء ، وأنت لم تعطه وسائل الوقاية من الماء فأنت ظالم متعنت يجب أن تخالف ! ولهذا يقرر الإسلام فى كل نصوصه ، وفى كل مناسبة ، أن كل مكلف يجب أن يكون فى يده وسائل تنفيذ ما كلف به ، وأن التكليف يتوقف ويتعطل ، إذا فقدت أو تعطلت وسائل تنفيذه فالمرضى الذى لا يستطيع القيام بعمل ما مما كلف به ؛ والاسير فى يد العدو الإسلام

الذى عطل حرياته ، وأصبح لا يملك وسائل تنفيذ تكليفه ، والمجنون الذى لا يعقل أمرا ولا نهيا ، وكل شخص - ذكرا كان أو أنثى - أصبح في حالة تنعدم فيها لديه وسائل تنفيذ التكليف . هؤلاء جميعا تتوقف تكاليفهم وتعطل ، ولا تلحظهم مسئولية حتى يسترد المريض صحته ، وحتى يسترد الأسير حريته ، وحتى يعقل المجنون ، وحتى تذهب الموانع كيفما كانت ، ويصبح الشخص في حالة يمكنه فيها تادية واجباته . وأهم هذه الوسائل التى يجب ضمانها للفرد ليقوم بتكاليفه . إقداره على التمتع بحقوقه الفطرية التى وهبها الله له ، وهى : الحرية الشخصية ، حرية العبادة ، حرية التفكير أو حرية الرأى والتعبير عنه والدعوة إليه ، وتحقيق مساواته بإخوانه الأحرار المتساوين من كل وجه ، فى كل المنح والفرص الاجتماعية ، وعلى الأمة (الدولة) أن تمسكه من كل ذلك حتى يقوم بتكاليفه - على الأقل نحوها - فإذا هى حرمت من التمتع بحقوقه كلها أو بعضها ، فقد أهدرت أهليته ، وأبطلت تكليفه ، وهو حينئذ يصبح غير ملزم بطاعتها وتنفيذ أوامرها ، ولا يحق لها مطالبتها بشيء ما دامت هى التى عطلت تكليفه ، ويتضح من ذلك أن تمكين الأمة (الدولة) الأفراد من التمتع بحرياتهم ، بعيدا عن الطغايا والعدوان . إنما هو أمر فى صالح الدولة نفسها قبل أن يكون من صالح الأفراد ؛ وما دام خالق الدولة هو رب الأفراد وهو واحد ، ثم هم بنو أب واحد وأم واحدة ، وتكاليفهم واحدة ، ونسبتهم إلى الله وإلى الدولة واحدة ، فهم أحرار متساوون من جميع الوجوه ، ليس بينهم فروق ولا امتيازات ، ومن الظلم أن تقيد الدولة حرياتهم ، أو تعطل تكاليفهم ، أو تمنعهم حقوقهم ، أو تقيم بينهم فروقا لم يأذن بها رب الدولة المشرع لها سبحانه وإن أكرمكم عند الله أتقاكم ، لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى .

وإذا كان الإسلام قد أطلق للإنسان جميع حرياته ، فإنه فى نفس الوقت ، وضع شروطا يجب على الفرد التزامها عند مباشرته لحرياته ، حتى لا تصطدم الحريات ، ولا يطفى بعض الأحرار على بعض ، وجعل مراعاة هذه الشروط تكليفاً من التكاليف الواجب تنفيذها دون هوادة ، فليستعمل الفرد حرياته غير باغ ولا عاد ، فى حدود العدل والإحسان ولا تظلمون ولا تظلمون ، ولا ضرر ولا ضرار ، وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان ، ولا تعبدوا إلا الله لا يحب المعتدين ، إن الله يأمر بالعدل والإحسان ..

وهكذا أعطاك الإسلام حق التمتع بحرياتك للقيام بتكاليفك ، بشرط ألا تعتدى على حريات الآخرين ، وأباح لك الحصول على حقوقك بشرط ألا تعطل حقاً لأحد ، أو تغصب حقاً لأحد ، وألزمك أن ترعى في جميع أعمالك الصالح العام للدين والدولة ، وهذا هو معنى « ابتغاء وجه ربك الأعلى » ، وابتغاء مرضاة الله ، ومصلحة الجماعة (مصلحة الدين والدولة) تأتى في المرتبة الأولى من الاعتبار في نظر الإسلام ، ويجب أن تقدم مصلحة الجماعة على مصلحة الفرد عند التعارض ، وعلى الفرد أن يتوخى في عمله وتمتعه بحرياته مصلحة الجماعة ، وأن يقدمها - بنفسه - على مصلحته الخاصة ، فإذا تعنت وآثر نفسه على الجماعة ، وجب على الجماعة أن تكبح جموحه ، وتؤخر مصلحته عن مصلحتها ، لأنه من المسلم به أن كل صالح للجماعة صالح للفرد ، ومن هذا ترى أن حريات الأفراد لا يقيدوها إلا صالح الدين والدولة ، وهو أمر يتفق عليه المسلمون فيما بينهم ، ويمتدرونه بالتشاور مع ذوى رأى منهم ، أو بالشورى بين علمائهم وحكامهم ، والمسلمون عدول فيما بينهم . تأمل قوله عليه السلام : « إن قوما ركبوا في سفينة . فصار لكل منهم موضع بقاء رجل فقرر موضعه بقأس . فقالوا له : ما تصنع ؟ قال : هو مكاني أصنع فيه ما أشاء . فإن هم أخذوا على يده نجوا ونجا . وإن هم تركوه هلكوا وهلك » .

وليس من شك في أن الأمة هي المكلفة برعاية ذلك وتنصيده . ولهذا يجب أن يكون سلطانها مطلقاً وسيادتها على بنيتها عامة غير مفيدة ولا محدودة إلا بما يقيدها الله به وحده لها .

كذلك نجد الإسلام يقرر قواعد الحكم الصالح ، ومبادئ العدالة المطلقة ، ويضع دستوراً يمشى على هديه الحكم والقضاة والعلماء وأهل الرأى والنظر ، وهذا هو ألزم شيء لتحقيق العدل والسلام في أمة تنشد هما ، ثم هو مع هذا يترك شكل الحكم ونوع الحكومة لا يقرر فيها شيئاً ، فهل هي مثلاً حكومة ملكية أو جمهورية ؟ لم يعن الإسلام بهذا لأنه من المظاهر المتغيرة بتغير الفكر والبيئة ، في الأزمنة والأمكنة المختلفة ، فترك للأمة تقدره هي حسب مصلحتها ، وتختار بنفسها شكل الحكم الذى يلائمها ويتفق مع صالحها ؛ غير أنه يوجب أن يكون الحكم

- كيفما كان شكله الذي اختارته الأمة - حكما شوريا بين الأمة بوساطة عليائها وذوى الخبرة والرأى فيها ، وبين حكامها تحت رقابة الأمة كلها ؛ ولم يشأ أن يعين شكل الشورى . وهل هى مظانة أم مقيدة بطبقة خاصة لأن شكل الشورى أيضاً متغير ، يتطور بتطور الناس وتغير ظروفهم وثقافتهم ، فتركه أيضاً للأمة ، فعينه حسب مصلحتها ، وبهذا كان التشريع السياسى للإسلام فى أسنى درجات الكمال ، لم يجبر الأمة على أمر يخضع للتغير بتطور الفكر ، ويختلف باختلاف الأزمنة والامكنة ، وكان نظام الإسلام لهذا صالحاً للتطبيق فى كل زمان ومكان ، والإسلام بهذا يقرر لأول مرة فى تاريخ الإنسانية أن الأمة هى صاحبة السلطان الأكبر ، وهى التى تختار شكل الحكم ونوع الحكومة ، وهى بالتالى صاحبة السلطة فى تعيين حكامها ، ومدى ما يحتاجونه من سلطان لضبط أمورها ، وتصريف أحوالها ، فإذا مال الحاكم أو أعوج قومه بالنصح والارشاد ، فإن ظلم ولجر ألزمته جادة الحق ، فإن استكبر وطفى عزله ، أو تخلصت من شره بما تراه فى مصلحتها ، وفى هذا يقول العضد فى كتابه المواقف : « وللأمة خلع الإمام ، وعزله بسبب بوجهه ، وإن أدى إلى الفتنة احتمل أدنى المضرتين » ، وعلق على ذلك شارحه السيد الجرجاني بقوله . « مثل أن يوجد منه ما يوجب احتلال أحوال المسلمين ، وانتكاس أمور الدين ، كما كان لهم تعيينه وإقامته لانتظامها وإعلانها ^(١) » . ويقول لإمام الحرمين : « إن الإمام إذا جار وظهر غشمه ولم يرعوا لئلا يجر عن سوء صديعة فلاهل الحل والعقد التواطؤ على ردعه ولو بشهر السلاح ونصب الحروب ^(٢) » ، وهذا الذى قرره العلماء حق مسلم به للأمة فى الإسلام منذ أول أيامه ، وهو الذى سار عليه السلف الصالح حتى التوى بالمسلمين القصد وحكمهم غيرهم ، وحكموا هم بغير ما أنزل الله ، فهدا هو الصديق أبو بكر يقول للناس عندما وجد نفورا من على وبنى هاشم : « أيها الناس . لاني أستقيلكم بيعتكم . . إن رأيتم أن تقولوني بيعتكم فذلكم لكم ... » ثم يقول : « إن رأيتموني على حق فأعينوني ، وإن رأيتموني على باطل فسدوني . أطيعوني ما أطعت الله فيكم ، فإذا عصيته فلا طاعة لي عليكم ،

(١) الواقف ج ٨ الأمانة الكبرى .

(٢) شرح المقاصد ج ٢ ص ٣٧٢ .

يشير بذلك إلى قوله عليه السلام : « لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق » ، وهذا هو عمر بن الخطاب يقول لطلحة بن عبيد الله عندما لاحظ عمر أن النعمة أبطرت كثيراً من الناس : « وددت أني في سفينة ، وأنتم في سفينة ، تذهب هذه شرقاً وهذه غرباً ، ولن يعجز الناس أن يولوا رجلاً منهم ، فإن استقام اتبعوه ، وإن جنف قتلوه ، فقال طلحة : يا أمير المؤمنين ، هلا قلت إن تعوَّج عزلوه ؟ قال عمر : لا ، أنتل أنكل لمن بعده ، وجاء عمر بن عبد العزيز الأموي الذي ورث عرش الخلافة الأموية عن آبائه . فقرر من جديد للأمة حقها بعد طول اغتصابها منها ، فخطب الناس أول جمعة تأمر على المسلمين فقال : « أيها الناس . إنني قد ابتليت بهذا الأمر عن غير رأي كان مني فيه ، ولا طلبه له ، ولا مشورة من المسلمين . وإنني قد خلعت ما في أعناقكم من يبعثي . فاختاروا لأنفسكم » . فقال الناس : يا أمير المؤمنين . قد احترناك ، ورضيناك ، قل أمر المسلمين باليمن والبركة ، وهكذا رد عمر بن عبد العزيز أمر المسلمين إليهم ، بعد أن اغتصبه من الأمة سابقوه وورثوه أبناءهم ، وهو بذلك يقرر . أن الحكم هو حق الأمة وحدها لا حق أفراد منها ، وأن حق الأمة لا يورث . لأن الأمة حية قائمة عليه لا تموت حتى تقوم الساعة ، ولعله سأل نفسه . بأي حق ورثه الأمويون حكم الأمة ؟ ومتى تنازلت الأمة مختارة عن شخصيتها وحقوقها ، وجعلت نفسها متاعاً يورثه الأمويون أبناءهم ؟ فلما لم يجد جواباً . ولا وثيقة تؤيد ورائته هذه . رد إلى الأمة حقها المختص ، وعاد الأمر كما قال الصديق أبو بكر لرجل سأله ، ألم يترك الرسول نصاً ولا وصية لأحد ؟ فأجابه : إن النبي صلى الله عليه وسلم . خلى على الناس أمراً ليختاروا لأنفسهم متفقين لا مختلفين ، ونخلص مما تقدم إلى أن الإسلام قرر لأول مرة المبادئ السامية الآتية :

- ١ — للأمة شخصية معنوية هي مناط التكليف والمسئولية .
- ٢ — الأمة توجه الحكم وتسيطر على الحاكمين الذين يستمدون منها سلطانهم وقوتهم .
- ٣ — الأمة سيادة نفسها ، وهي صاحبة السيادة على نفسها وأبنائها جميعاً ولا سيادة عليها لغير الله .

المسلمون والتصوير

لحضرة الأستاذ أحمد محمد عيسى

ليسانس في الآداب — دبلوم في الآثار

وأمين مكتبة جامعة فؤاد الأول

انتبهنا في المقال الأول من هذا الموضوع عند الكلام على الحديث والتصوير ، وماقشنا رأى الشراح في حديث : « إن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن يترك في بيته شيئاً فيه تصاليب إلا نقضه » ، وحديث « إن الملائكة لا يدخلون بيتاً فيه صورة أو كلب » . ونستمر في مناقشة رأى الشراح في الأحاديث الأخرى التي تناولت موضوع التصوير ، وهي :

الحديث الثالث : عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة المصورون » .

قال الطبري في شرح هذا الحديث : إن المراد هنا ما يعبد من دون الله ، وهو عارف بذلك ، فإنه يكفر . وقال الخطابي : إن عقوبة المصورين إنما عظمت لأن

٤ — على الأمة أن ترعى صالح الفرد وتقدره على أداء تكاليفه ، بتكليفه من التمتع بحرياته .

٥ — الحاكم عادم مطاع ، تعطيه الأمة من السلطان ما يتناسب مع التكاليف التي كلفته بها ، وطاعته مشروطة بمبدأ التزامه للشرع الذي كلف بتنفيذه ، ولا زالت الدساتير البشرية حتى يومنا هذا تتعثر في طريق الوصول إلى الدرجة الدنيا من سلم هذه المبادئ السامية التي حكمت قرونا طويلة خفقت الحرية والأخوة ، والمساواة ، كما حققت الأمن والعدالة ، والرحاء والسلام .

وإلى العدد التادم نحدثكم عن مركز الحاكم ونسبته إلى الأمة ، والله ولي التوفيق

الصور كانت تعبد من دور الله تعالى ، ولأن النظر إليها يفتن ، وبعض النفوس إليها تميل .

وإذن فلا سبيل إلى القول بأن علة التحريم هي مضاهاة خلق الله تعالى ، وإنما هي الخوف فقط من الرجوع إلى الوثنية التي كان العرب قريبي عهد بها .

الحديث الرابع : عن أبي طلحة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن الملائكة لا تدخل بيتاً فيه الصورة » ، قال : ثم اشتكى زيد فعدهناه (وزيد هو الذي روى عنه طلحة هذا الحديث) ، فإذا على بابيه ستر فيه صورة ، فقلت لعبد الله ربيب ميمونة زوج النبي صلى الله عليه وسلم : ألم يخبرنا زيد عن الصورة يوم الأول ١٩ ؟ فقال عبيد الله : ألم تسمعه حين قال : إلا رقياً في ثوب ! .

وتعليق العيني على هذا الحديث وجيه ومقبول وهذا نصه : قال : « وإنما نهى الشارع أولاً عن الصور كلها ، وإن كانت رقماً في ثوب ، لأنهم كانوا حديثي عهد بمباداة الصور ، فنهى عن ذلك جملة ، ثم لما تقرر نهيه ، عندئذ أباح ما كان رقماً في ثوب » .

ونقول إنما إذا كان النبي صلى الله عليه وسلم قد أباح الرقم على الثوب حين أمن زينج العميدة ونكسة الجاهلية والشرك بالله ، فلا ضرر - فيما يبدو - إذا اتخذنا الصور والتماثيل ، ما دمتا على بينة من ديننا ، وما دامت هذه الصور والتماثيل بعيدة عن فكرة التقديس والعبادة . على أني أعتقد أن القول بتحريم التصوير دائماً ، ولهذا السبب ، معناه الشك في إخلاص المعتقدين للدين ، وأنه لم يتمكن بعد من نفوسهم وهذا ما لا يرضاه المسلمون ولا يرضى عنه الفقهاء بالطبع .

وتكملة للرد على كلام النووي ، أورد ما ذكره العيني خاصاً بشرح حديث : « لا تدخل الملائكة بيتاً فيه كلب ولا تصاوير » ، فقد قال إن المقصود بالملائكة ملائكة الرحى مثل جبريل وإسرافيل ، وهؤلاء لا صلة لهم بسائر الناس طبعاً . على أن العيني قد ورد على امتناع دخول الملائكة البيت الذي فيه كلب لنجاسته ، أن ذلك غير متبول لأن الخنزير وهو أشد نجاسة . والسنور وهو أكثر أكلا للنجاسات لم يرد بشأنهما امتناع دخول الملائكة لبيت وجداً فيه . ونقول إنه ليس

من المعقول أن تدخل الملائكة بيتاً فيه خنزير بينما لا تدخل بيتاً فيه صورة مع الفارق الكبير بين الصورة والخنزير .

ويعجبنى قول ابن حبان الذى أورده ابن حجر العسقلانى فى شرحه على صحيح البخارى وهو : إن هذا الحكم (أى امتناع دخول الملائكة لبيت فيه كلب أو صورة) إنما هو خاص بالنبي عليه الصلاة والسلام . ولا غرابة فى هذا ، فإن للنبي خصوصيات ، ثم إنه صلى الله عليه وسلم لم يكن فى حاجة إلى كلب يحرس داره أو تمثال يزين جداره . وإذن فالمسألة هى كما قال العيني : خاصة بالنبي وبملائكة الوحي الذين يحملون إليه رسالات ربه .

وذهب بعض العلماء مذهب النووي فى تحريم ما له ظل وما لا ظل له ، معتمدين فى ذلك على حديث للنبي عليه الصلاة والسلام روته السيدة عائشة قالت : « قدم النبي من سفر وقد سترت بقرام لى على سهوة لى فيها تماثيل ، فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم هتكه وقال : أشد الناس عذاباً يوم القيامة الذين يضاهون بخلق الله . قالت : لجعلناه وسادة أو وسادتين . ثم يستشهد القائلون بالتحريم أيضاً بحديث : « وعد النبي صلى الله عليه وسلم جبريل ، فراث عليه حتى اشتد على النبي صلى الله عليه وسلم ، فخرج النبي فلقبه فشكا إليه ما وجد ، فقال له جبريل إنا لا ندخل بيتاً فيه صورة ولا كلب . » وفى رواية أخرى أن جبريل خاطب النبي فقال : « أيتك البارحة فلم يمنعني أن أكون دخلت إلا أن كان على الباب تماثيل وكان بالبيت قرام ستر فيه تماثيل وكان فى البيت كلب . فر برأس التمال الذى فى البيت يقطع فيصير كهية الشجرة ، ومر بالكلب فليخرج ، ففعل النبي ذلك . »

وإذن فدليل التماثيل بتحريم ما لا ظل له ، أمر النبي بهتك الستر وتقطيعه وعمل وسادتين منه . ونحن فى حاجة إلى جواب من هؤلاء على سؤال هو : إن عمل وسادتين من الستر معناه أن الصورة لا زالت باقية فى بيت النبي كما صرح بذلك رواية ابن حنبل ، فهل امتنع الملائكة بعد ذلك من دخول البيت ؟ وهل اشترط الملائكة ألا يدخلوا بيتاً فيه صورة إلا إذا كانت ممتنة ؟ وهل وسادة ينام عليها النبي صلى الله عليه وسلم تعد ممتنة فى نظر الملائكة ولا تمنعهم من دخول بيته ؟ .

تلك أسئلة أعتقد أن الاجابة عليها في صالح إباحة التصوير ، ولعلها بالنالى تخفف من حدة الفقهاء وتشددهم عند الكلام عن هذا الموضوع .

على أن حديث « جبريل » بحاجة إلى إمعان نظر وإعمال فكر ، ذلك لاني أعتقد أن جبريل عليه السلام إنما نزل على النبي صلى الله عليه وسلم بكلمات الله وأصول التشريع والديانة ، ولم ينزل ليوحى إليه أن يقطع الستائر وأن يعمل من « الهلاهيل » وسائد ومرافق . ويمكن أن نرد على حديث « جبريل » بحديث آخر ، رواه البخارى عن أنس أنه قال : « كان قرام لعائشة سترت به جانب بيتها ، فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم : أميطي عني فإنه لا تزال تصاويره تعرض لي في صلاتي » .

وفيدنا هذا الحديث من ناحيتين :

أولا : أنه يرد على حديث هنك الست الذي تمسك به القائلون بالتحريم ، وعلى رأسهم النووي .

ثانيا : أن النبي قد أقر الست ولم يقطعه ، وإنما نحاه فقط حتى لا يشغل به في صلاته على الرغم من وجود تصاوير به .

من ذلك نرى أن شراح الأحاديث قد اختلفوا في فهمها وشرحها ، وذهبوا في ذلك مذاهب شتى . ولسكننا وجدنا من بينهم أمثال ابن حبان الذي يقول : إن امتناع دخول الملائكة لبيت فيه صورة ، إنما هو خاص بالنبي لا بعامة المؤمنين . كذلك رأينا الطبري يقول : إن المراد بالمصورين من يصورون ما يعبد من دون الله ...

بعد هذا ، يتخيل إلينا أنه قد امتنع الدليل المنقول أو المعقول على من يقول بتحريم التصوير ، له ظل أولا ظل له ، امتن أو لم يمتن ، ثم سواء أكان الحيوان أم غير حيوان .

سبب القول بالتحريم :

قد يرجع سبب قول الفقهاء بتحريم التصوير إلى تأثير الافكار اليهودية التي

اختلفت بالدين الإسلامى عن طريق اليهود الذين تحولوا إلى الإسلام ، ولا سيما أن منهم من كان من رجال الحديث أمثال كعب الأحبار ، الذى أخذ عنه ابن عباس ، وكذا وهب بن منبه وغيرهما .

ولا يستطيع باحث أن ينكر تسرب كثير من الاسرائيليات إلى المعتقدات الإسلامية ، فإن القول مثلا بكراهية المحراب المحفور (الفائر أو المجوف) قد يرجع إلى ما ورد فى التوراة خاصا بالمذبح حيث يقول الرب : « وإن صنعت لى مذبحا من حجارة فلا تبته منها منحوتة » . كذلك قد يرجع القول بكراهية المنبر فى أول الأمر إلى ما ورد فى التوراة فى نفس الإصحاح حيث يقول الرب :

« ولا تصعد بدرجة إلى مذبحى كيلا تنكشف عورتك عليه » .

ويخيل إلى بعد هذا ، أن القائلين بتحريم التصوير من فقهاء المسلمين قد تأثروا — إلى حد ما — بالآراء اليهودية . على أن بعض المستشرقين يتهمون الأمم السامية عامة بخوف متأصل من الصور والتماثيل ، وأنهم يفسبون إليها قوى سحرية . وقال هؤلاء المستشرقون إن مظهر ذلك الخوف هو القول بتحريم التصوير . ومن طريف ما يروى فى باب الاستشهاد للتدليل على صحة ذلك الزعم الذى يذهب إليه المستشرقون ، أن أبا جعفر المنصور حين بنى قصره . وسط مدينته الجديدة « بغداد » ، جعل على قبة القصر فارسا ممسكا رمحا لمعرفة اتجاه الرياح — كما يقول المستشرق توماس آرنولد — ولكن سادت بين الناس خرافة مؤداها أن الفارس إذا اتجه برمحه إلى جهة ما ، فإن شرا منتظرا سيحدث بتلك الجهة . ومن الواضح أن هذا النوع من التفكير الخرافى يجعل الناس يتقبلون فى سهولة قول القائلين بتحريم التصوير .

اليهودية والتصور :

أما تحريم التصوير فى الديانة الموسوية فإنه يعتمد على ما ورد فى التوراة فى الإصحاح العشرين من سفر الخروج وهذا نصه : « ثم تكلم الرب بهذه الكلمات قائلا : أنا الرب إلهك الذى أخرجك من مصر ، من أرض العبودية . لا تكن لك

آلهة أخرى أمامي . لا تصنع لك تمثالا منحوتا ولا صورة ما بما في السماء من فوق ؛ وما في الأرض من تحت ، وما في الماء من تحت الأرض . لا تسجد لمن ولا تعبدن . . . ونقرأ في موضع آخر من سفر الخروج قول الرب : « لا تصنعوا معي آلهة فضة ولا تصنعوا لكم آلهة ذهب . »

وهذا التحريم الذي نصت عليه الديانة الموسوية في سفر الخروج من التوراة له ما يبرره إذا حاولنا أن نفهمه في ضوء الظروف والملابسات التي أحاطت بتلك الديانة وقت ظهورها . فمن المعلوم أن مصر التي عرفها بنو إسرائيل حق المعرفة — كما عرفوا غيرها من البلاد المجاورة التي تعبد الآوثان — كانت حينذاك زاخرة بأرباب تعبد من دون الله ، وكانت تماثيل آلهتها الآدمية والحيوانية العديدة تحتل كل مكان . . . وما نكسة بني إسرائيل ورجوعهم عن الوحدانية السامية إلى عبادة العجل إلا لضعف إيمانهم بالدين الجديد ، وشدة تأثرهم بالآفكار القديمة التي وجدوا عليها آباءهم .

وأذن فمن الضروري أن تلجأ الديانة الموسوية إلى النص على تحريم التصوير وعمل التماثيل ، حتى لا يفتن الناس بها فتلتهم بالعجل ، وحتى لا تمهد لوسيلة تفسد عقول معتققيها في وجود إله واحد لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير .

أما الإسلام الذي مهدت له الديانة اليهودية والديانة المسيحية بإعداد عقليّة الناس لقبول عقيدة سماوية واعتقاد في وجود إله واحد منزه ، فليس هناك ما يدعو فتمها على الصحيح — إلى القول بتحريم التصوير خوفا من الرجوع إلى الشرك بالله أو امتناعا عن مضاهاة خلق الله سبحانه وتعالى .

وإذا سلمنا أن ذلك المنع كان له ما يبرره عند ظهور الإسلام لأقرب عهد الناس بعبادة الآوثان ، فلا ينبغي أن نسلم به اليوم ، ولا أن نطل على القول بالتحريم ، مع ما يرى من شدة الحاجة إلى التصوير والتماثيل في حياتنا اليومية وشؤوننا الاجتماعية ، والشريعة — كما تؤمن — صالحة لكل زمان ومكان .

سوق السعاة

نفسير الأستاذ الشيخ محمد كامل محمود

المدرس بالأزهر

في مجتمعنا أسواق نافقة ، تعج بالتجار الكبار والصغار ، يمسون ويصبحون ولا هم لهم إلا السعي ، وبين أشداقهم طحن معسول ، وفئات بغيض ، وبين جوانحهم حسائك نمامها الحسد ، ورواها الحقد ، وأرضعت عصارات مرة من صدى الورثة أو إسفاف اليثة ، أو تدنق الترية وانحطاط التقليد .

يمرون بالآمين ببحر الأضالع ، ويندسون بين الأصدقاء ، ويطوفون على الجماعات ويمسحون بالرؤساء ، ويتعلقون بالأذناب .

لا تكل أقدامهم ، ولا تراجع خطواتهم المشاة ، ولا تسحبهم المنسل ، كأنما قد نصيبهم للعورات ، وتبعمهم للزلات ، من جبل لا تفد أحجاره ، ولا تقهى دققات حممه ، ولا هبات عثيره .

وما رأيت كالسعاة ، يحملون أوزار أهواتهم ، ويمشون بها في الأسواق ، يصبون في كل مشرب صاف ما يكدره ، وفي كل منبت تام ما يصوحه وفي كل مجمع سار ما ينقص على آله ، حتى يفرق ما التأم ، ويشتت ما تماسك وترايط وتساند .

نعم ما رأيت كالسعاة ، يضربون بالمعول في غفلة ، وينمزون بالإبرة في صحوة ويدفعون بالمهماز في ثورة ، فإذا النار موقدة ، وإذا البغضاء تقوم بالناس وتقدم ، وإذا النمام قرير النفس ، يلس حر النار فيكون برداً على كبده ، وماء ينزل فوق صخرة فزاده الكليل ، وضيمه البليد ، وطواياه المظلة ، وحناة التي باض فيها النعان . وتلك الأسواق المتفشية ، وتجارها المتكاثرون ، وسماستها الذين لا يهدأون وبضاعتها التي تنقل على محفات الرواج ، لا نجد للخلاص منها طريقاً ، ولا نلوذ منها بعاصم حتى ليس لها من دون الله كاشفة . .

ولو أنصفنا مجتمعنا، وأردنا لأنفسنا الوقاية من شرها، لأقنا الأموال ورصدنا الجهود لمحاربتها ومطاردة المدمنين، والعاكفين على استثمارها، والجري وراء النفع الموقوت الذي لا يدوم، وإن دام لا يخرج إلا نكداً من الغاية، وخبثاً في النهاية من لي بمقاومة الأسواق التي تبث القطيعة، وتمحق الترابط، وترى الشحناء، وتوهن أسباب الصداقة، وعرى الأصدقاء، فإذا المودة ضائعة، وإذا القطيعة سائدة، وإذا الحياة جبهة عليها القتام، لقد حذر القرآن، وخوفت السنة، وجاهد السلف، وضح الثر، وصرخ الشعر بالويل والثبور على المشائين القمامين.

ومع هذا فالسوق هي هي، وقد تكاثرت، مروجوا هذه البضاعة هم هم، وقد نفثوا وأصبحوا أولى قوة تخطف أبصار الناس، وتخيل إليهم من سحر نفاقهم أنها على ركة، وإن كانت أوهن من نسج العنكبوت، وخاط الهباء، وبني الريح، وأسس الحشم المأكول، وما أزعج أبى على بينة من علاج تلك الأسواق، غير أنى أضع أمام القارىء زفرات صادقات، ورميات قاصمات، قابل بها العتلاء والادباء والكبراء من يحتطبون على موائد هذه الأسواق.

ولعلنا نجد فيما صرح به القدامى من المجريين، والمتحفظين والمتوقفين علامات وصبايات، إذا تمزناها وتأملناها واعتبرنا بها، حالت بيننا وبين التسمم، وباعدت بيننا وبين العدوى، فإن السعاية داء دوى، وخطر لا يأتي على شيء إلا جعله جذاذا ثم هسيا ثم هباء.

وفي الأولين لنا بصائر...

لما ولي عبد العزيز بن الوليد بن عبد الملك دمشق ولم يكن في بني أمية أئيب منه مع حدائقه سنة قال أهل دمشق: هذا غلام شاب ولا علم له بالأمور، وسيسمع منا، فقام إليه أحدهم فقال: أصلح الله الأمير، عندى نصيحة فقال له: ياليت شعرى. ما هذه النصيحة التي ابتدأت بها من غير يد سبقت منى إليك؟ فقال: جاز لي عاص متخلف عن ثغره، فقال له: ما اتقيت الله ولا أكرمت أميرك، ولا حفظت جوارك، إن شئت نظرنا فيما تقول، فإن كنت صادقاً لم يتفعل ذلك عندنا، وإن كنت كاذباً عاقبك، وإن شئت أفلناك.

قال : أقلنى .

قال : اذهب حيث شئت ، لا صعبك الله .

ثم قال : يا أهل دہشق : أما أعظمت ما جاء به الفاسق : إن السعاية أحسب منه بهيمة ، ولولا أنه لا ينبغي للوالى أن يعاقب قبل أن يعاتب ، كان لى فيه رأى ، فلا يأتى أحد منكم بسعاية على أحد ، وإن الصادق فيها فاسق والكاذب بهات .

ومن هذه المواجهات القاسية الرادة ما روى عن عمر بن عبد العزيز من أن رجلا سعى برجل عنده فقال : إن شئت نظرنا فى أمرك فإن كنت كاذبا فأنت من هذه الآفة ، إن جاءكم فاسق بنبأ . . . وإن كنت صادقا فأنت من هذه الآفة . همار مشاء بنميم ، وإن شئت صفونا عنك .

قال : العفو يا أمير المؤمنين .

قال : على ألا تعود .

ومن خلال العقلاء كره السعاة وما ينبغي لهم إلا أن يقولوا فى وجهه : إن صدقتا أبغضناك ، وإن كذبتنا عاقبتناك ، وإن استقلتنا أقتلاك .

ومن أمثلة الرجال قتيبة بن مسلم ، روى عنه أن رجلا اغتاب آخر عنده فقال له قتيبة : « أمسك عليك أيها الرجل ، والله لقد تلظت بمضغة طامسا لفظتها الكرام . وإنى لأنهى عجمائى هربا من كرائه هذه السوق التى حرمت على صاحبها روائح الجنة من كل سماع ونقال للكذب بما جاء فى كتب المحاضرات الأولى عن السلف من أن رجلا قال للآخر إن (فلانا) لم يزل يذكر ك ويقول : الضال ، فقال السامع العاقل المتوق : يا هذا . والله ما راعيت حق بحالسته حين نقلت إلينا حديثه ولا راعيت حتى حين أبلغتنى عن أخى ما أكرهه ، اعلم أن الموت يعمنا والبعث يحشرنا والقيامة تجمعنا ، والله يحكم بيننا وهو خير الحاكمين ؟ »

في صحب المكفوفين

لفقيه الأستاذ الشيخ أحمد الشرباصي

المدرس بالأزهر

هؤلاء قوم حرمهم الأقدار نعمة الإبصار ، فخليل يذمهم وبين نور الحياة وضياء الكون ، وصاروا سجناء الظلام الدامس ، وآثروا في الغالب زوايا البيوت ، أو منعطفات المعازل ، فأصبحوا رهائن محبس آخر . . . ولو اقتضت بليتهم على ذلك لاحتلوا راضين أو صابرين ، ولكن أهل الحياة جهلوا رسالتهم ، وهضموا حقوقهم ، فأخروا أولئك المكفوفين ولو كانوا أهل تقديم ، وأهملوا شئونهم ولو كانوا جديرين بالعناية والاهتمام ، وصدومهم عن احتلال أماكنهم العالية في المجتمع إذا ما توفرت فيهم مؤهلات ذلك الاحتلال المشروع : بل وتطاول السفهاء ولا يزالون يتناولون - على المكفوفين ، فسخروا منهم وتندروا بهم ، واتخذوهم مسلاة وتلبية ؛ ولعل هذا هو أهم الأسباب التي دفعتنا إلى تخصيص ذلك البحث عن المكفوفين ، ولسنا نريد أن تقتصر ثمرته على الفائدة العلمية التي تأتي عن طريق البحث والعرض ؛ بل نرجو أعمق الرجاء أن تكون صحبتنا هذه مع قرائنا للمكفوفين مدعاة إلى أن يتبدل الحال ، فيأخذ المكفوف مكانه الطبيعي في الحياة ، يتعلم ويتقوى ، ويعمل فيحترم ، ويجاهد فيحصل ، ويشارك غيره من المبصرين مشاركة الأنداد .

والكفيف هو الشخص الذي ذهب بصره ، ويقال له أيضاً أعمى والعمى كما نحدثنا اللغة هو ذهاب البصر وعدم الرؤية ، ويقال : عمى عليه الأمر أى التبس وتعمى الرجل تظاهراً بأنه أعمى ، ورجل عمى القلب أى جاهل ، والاعميان الليل والجلج الهائج ، وقيل : هما السيل والجلج الهائج ؛ والعماء السحاب ، وقيل هو الذي يشبه الدخان ويركب رموس الجبال ، وفي المثل : ربما أصاب الاعمى رشده .

ويقال للأعمى أيضاً ضرير ، ويقال له أكمه ، وذلك إذا ولد أعمى . والعمش قريب من العمى ، والفرق بينهما أن العمش هو ضعف رؤية العين مع سيلان الدمعة منها ، كأن المرميات تستر عنها يستور الدمع .

وبلادنا - مع أشد الأسف - أكثر بلاد الأرض عمياناً؛ وقد تعاونت على إيجاد هذه الكثرة في المكفوفين بيننا عدة عوامل، كل منها غول مخيف، وشيطان رجيم، فهناك الفقر الذي يمنع من النظافة ومن العلاج، فينشأ من وراء ذلك العمى وهناك الجهل الذي يدفع بالجاهل إلى ارتكاب السيئات الكبائر في صحته وفي عيذه على الآخر فيؤدى ذلك إلى العمى، وهناك المرض المتمثل في الرمد الشائع الذائع وهذا الرمد له مخايا من المكفوفين أكثر من مخايا سواه، وهناك القذارة التي ابتليت بها بلادنا، فلم يصدق في الحملة عليها فرد، ولم تعاون في محاربتها جماعة، وهذه القذارة تتناول متجارية على البصر، فتصيبه ثم تفضى عليه؛ وهناك الغبار الذي يثور في أغلب الأوقات فيحمل جراثيم العيش والعمى في عجلة وإسراع؛ ومن السهل عليك أن تلاحظ عند مراجعة هذه الأسباب مجتمعة أن أغلبها - إن لم يكن جميعها - تتحمل إصره وتبعته الجماعة والدولة أكثر مما يتحملها الفرد الضعيف وذلك لأنها أسباب عامة طامة؛ ولا طاقة للفرد بالوقوف في وجهها، وإنما ينهض بذلك المجموع، ومن تلك الملاحظة نستطيع أن ندرك في سهولة عظم المسؤولية التي تتحملها الجماعة في كثرة المكفوفين ببلادنا العزيزة ١.

وعلى الرغم من أن أكثر بلدان الأرض عمياناً، فإننا أشد الناس إهمالاً لشئون المكفوفين، وأكثر الناس تعريطاً في حقوقهم، مع أن الواجب أن يكون الأمر بالعكس، فما دمتنا قد كثرت فينا المكفوفون كثرة لا مثيل لها في الأقطار الأخرى، فقد كان لزاماً علينا أن نخصص جهوداً كبرى لتواجه هذه الكثرة بما ينبغي لها أو يجب من رعاية واهتمام، ولكن هكذا كان الوضع، والله الأمر من قبل ومن بعد، ولا زلنا بلاد المعجائب والغرائب وإن كثرت منا الدعاوات ..

ولو أنك ألقيت نظرة على صنيع الأمم في ميداننا هذا لوجدت المكفوفين في الأمم الناهضة الوائبة أماما عاملين مؤثرين، متساوين مع الآخرين في الحقوق وأغلب الواجبات، فللمكفوفين هناك إنتاجهم ونشاطهم، ومدارسهم ومعاهدهم، وصحافتهم وكتبهم، وآثارهم الصناعية والعسكرية؛ ولكنهم بيتنا كالمثبودين، يعيشون على هامش الحياة وفي أبعد زاوية من زوايا المجتمع، وبذلك تضيع عبقریات، وتختفي كنوز رائعة ياهمال أولئك الناس ١ ..

وليت أمرنا اقتصر مع إخواننا المكفوفين على التنبذ والإهمال ، إذن لحف الأمر وهان ؛ وفي الشر خيار كما يقولون ، ولكن شاعت فينا السخرية بالاعمى ، وألقنا اتحاذ المكفوف موطنا للاستهزاء ، وذلك استخفاف بذى الكرامة الإنسانية والحرمة البشرية ، وكأنما الساحر من صاحب العاهة ، أو الهازي بمن نالته آفة ، يريد أن يبدو في صورة المعترض على الله ، المتغطرس المتكبر على من سواه ، فيكون محطاً لتقمة العزيز الجبار ، مستحقاً للعنة وسوء القرار .

وطالما شاهدنا ذلك العتل الأثيم الذي يؤنب رجلاً مكفوف البصر على خطأ ارتكبه وسمعه يقول ناثراً وساخراً : « لا لوم عليك فإنك أعمى » . . . وكأنما جمع الرجل في كلمة « أعمى » هذه كل صفات الإهانة والتحقير ، فنزلت على كاهل الرجل الكفيف صخرة لخطئته ، وكثيراً ما نسمع من لا خلاق لهم يقولون لمثل هذا الكفيف ساحرين : « حتماً إن كل ذى عاهة جبار » إلى غير ذلك من عبارات السخرية والاستهزاء ١ .

إن هذا أولاً سوء أدب مع الخالق والمخلوق ، فلو أراد الله لجعل الساخر مكان المسخور منه ، فذلك إذن سابق التفضاء وحكيم القدر ، والسخرية مما سبق في علم الله ، وجرى بحكمته وهذاه محاربة له . ومن يفعل ذلك فقد باء بسخط من الله وعذاب شديد . . . وإن كان المكفوف قد فقد بصره في حادث أو جهاد أو كسب رزق أو تحصيل علم فذلك شرف له ، ومنزلة علياً تنتظره عند ربه ، ليسعد يوم أماته برؤية جلاله ، والاقتراب من نوره الذي أشرق له الظلمات ^(١) ؛ ولقد روى عن أنس رضي الله عنه عن النبي صلوات الله عليه عن جبريل عن ربه قال : يا جبريل ، ما ثواب عبدي إذا أخذت كريمته (أى عيذه) إلا النظر إلى وجهي ، والجوار في داري . . . قال أنس : فأنشد رأيت أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يكون حوله ، يريدون أن تذهب أنصارهم : « وذلك اشتياقاً منهم إلى التمتع برؤية ربهم ، وهي نهاية التعميم في جنات الخلود » . وفي رواية : إذا أخذت كريمتي عبدي في الدنيا لم يكن له جزاء عندى إلا الجنة :

وحق لو فقد الكفيف بصره في معصية لكان مستحقاً للرحمة والثناء ، بدل التناول والاستهزاء ، فرب معصية أورثت ذلاً وافقاراً خير من طاعة أورثت

[١] ذكر ابن أبي الدنيا عن بعض سلف الأعمى يرى ملائكة ربه عند مص ربه .

عزاً واستكباراً ، ورأفتك بالمفرط المكسور عون له على أن ينجر ويستقيم ،
وأما سحررتك منه فتحريرض له على العناد والإبعاد في مهاوى الفساد ؛ ولقد شرب
رجل الخمر على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم فضر به حداً وتأديباً ، فقال له
بعض الصحابة : أخزأك الله ١ . فغضب من ذلك وهتف : لا تقولوا هذا ،
لا تعينوا عليه ١ .

وكثيراً ما يكون الكفيف البصر المزدري في أعين الناس كريماً عند الله ،
رفيع المكانة لديه ، قريب المنزلة إليه ، لفتح قلبه وإن ذهب نور عينيه ، فإنها
لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور ؛ فها هو ذا الصحابي الجليل
عمرو بن أم مكتوم يقبل على الرسول وهو مشغول بتذكير الزعماء الصناديد
من قريش^(٢) ؛ وهدايتهم إلى الله ، فلا يجد الرسول فرصة عاجلة لينفرد به هذا
الكفيف السامع ، فيمهل قليلاً ، فيزل الله سورة في كتابه ، يعاتب فيها نبيه ،
ويقول عز من قائل معرضاً وموارياً : « عيسى وتولى ، أن جاءه الأعمى ، وما يدريك
لعله يركى ، أو يذكر فتطمعه الذكرى ، أما من استغنى فأنت له تصدى ، وما عليك
أن لا يركى ، وأما من جاءك يسعى وهو يخشى ، فأنت عنه تلهى ؛
كلا إنها تذكرة » ١

ولا يصف القرآن الكريم ابن مكتوم هنا إلا بوصف « الأعمى » في صراحة
وجهر ، كأنه يريد أن يقول إن هذا الوصف الذي قوبل صاحبه بالإهمال
أو الإهمال كان هو نفسه جديراً بأن يقابل بالرحمة والاحتفال ؛ وصلوات الله
وسلامه على من أدبه ربه فأحسن تأديبه ، وبعثه منها لمكارم الأخلاق ؛ ولذلك
كان الرسول إذا رآه بعد ذلك اهتم به وقال له : مرحباً بمن عاتبنى فيه ربي ،
هل لك حاجة ؟ . . . وجعله خليفة وراثة على المدينة عدة مرات مع أنه كفيف ،
لأن العبرة بجمال النفوس وطهارة القلوب وسعة العقول . . .

ولقد أعجبت بأدب شاب جلس يقرأ علينا قصيدة يصف فيها صاحبها
مدينة خربت عارات الأعداء ، وكان فينا رجل كفيف حساس ، وكان في وسط
القصيدة هذا البيت :

مشى الموت فيها « ضرير » الخطأ يتقل في كل بيت قدم

[٢] من أمثال حبه وشيبة ابني ربيعة وأبي جهل وأمية بن خلف وأولاد بني النخيلة .

فلما وصل الشاب إلى هذا البيت تخطاه ولم يقرأه ، وكنت أعلم بوجوده فيها ، فلما انفردت به سأله عن سبب تخطيه له ، وأما أريد أن أؤكد ظنا كريما جال بخاطري عن تصرفه ؛ فقال : لقد لمحت كلمة (ضرير) في البيت قبل أن أنطق به ، فخشيت أن يجرح إحساس فلان فتخطيته ... فشكرت له صنيعه ، وتمنيت لو أن مثل هذا الشعور الرقيق مرى بين الجميع !

على أن ضياع البصر اليوم من الإنسان الذور ، وبقاءه في الحياة بين هؤلاء الاحياء بدون عيونه يعتبر منحة لا محنة ، إذ يستريح المرء بهذا من مطالعة كثير من المجازي ، ومشاهدة عديد من المآسي ، فهذا زمان تترامى صورته وحوادثه أقداء في عيون الناظرين فتعشيها وتدميها ، ولقد كان الشاعر القديم يتطلع إلى دنياه فلا يرى فيها من أناسها من يستحق التطلع إليه والاعتماد عليه . فهنف :

ما أكره الناس ، لا بل ما أقلهم الله يعلم أني لم أقل قسدا
إني لأفتح عيني حين أفتحها على كثير ، ولكن لا أرى احدا

فليت شعري ، كيف لو تأخر الزمن بشاعرنا حتى أدرك زمانا نعيش فيه بأبصارنا ، ونحن تمنى أن نفقدها لنستريح من خزي ما رى وشاهد ١٩ .
الإن سخرية القوى بنقص الضعيف ليست من شيم الرجل الاصيل ، والتذكير بالمعورات أو التندر بالعاهات ليس من طبع الرفيع النبيل ، ورسول الإسلام عليه الصلاة والسلام يقول : بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم ، كل المسلم على المسلم حرام : دمه وماله وعرضه . والمرء يفقد إنسانيته أول ما يفقد حين يسمح لنفسه الامارة بالسوء أن تستطيل بالاستهزاء والاستخفاف على رجل امتحنه الله وابتلأه — لحكمة يعلمها ولا نعلمها — بعللة مزمنة أو عاهة دائمة ؛ وما كانت مكانات الرجال لتقاس يوما بالاجسام والاشكال ، ولكنها تقاس بالأخلاق والأعمال ...

على أننا حين تنبسط أمامنا صفحات البحث في صحبة المكفوفين سنرى أن كلف البصر ليس عاهة تقبل الهزاء والسخرية ، وليس تقصا يعاب عليه صاحبه ، وليس حائلا يحول بينه وبين مراقب المجد وذرا الرفعة ؛ وسنجد من شواهد التاريخ وسواند الحوادث ومنطق العقل والتفكير أن المكفوفين كانوا عباقرة في القديم ، وهم أهل لأن يكونوا عباقرة في الحديث ، لو استقام أمامهم الطريق ! ...

الاسلام أصل حضارة العالم

لنفسير الأستاذ الشيخ محمود محمد المدني

المدرس بالأزهر

يقولون إن المدنية الحديثة أساسها الحرية والإخاء والمساواة، وإن هذه الأشياء لم تعرف أول ما عرفت إلا في عهد الثورة الفرنسية التي قامت في آخر القرن الثامن عشر، وإن أعظم أسس تلك الثورة كتاب العقد الاجتماعي الذي نشره جان جاك روسو، والذي أوله (ولد الانسان حراً).

ولم يدر هؤلاء المغالون الجبهة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قال من قبل ذلك بما يزيد عن اثني عشر قرناً (إن الناس سواسية كأسنان المشط، وأنه ليس لأحد فضل على أحد إلا بالتقوى) وذكر ذلك عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه بأقوال تكاد تكون أقوال جان جاك روسو، حكاية لها، حيث لصح أحد عماله بقوله (كيف تستعبد الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً).

وبعد، فلا أظن شمس الحرية أضاءت كما أشعلها الاسلام، إذ أضاءت العالم من مشرقه إلى مغربه كلها انتشرت تعاليمه — أما أوروبا صاحبة المدنية الحالية التي أثبتت الأيام أنها مدنية الحجارة والحديد والتشاحن على المادة والعرض وإرهاق النفوس لملء البطون وإشباع هم المجور والفسق والفتنة في السلم، هذه المدنية لم تعرف اسم الحرية إلا بعد أن احتكت بمدنية الاسلام، وبعد أن أضاء قوس من نوره من العراق والأندلس ومصر والقسطنطينية.

حتى في بلاد العرب لم تكن الحرية ذات معنى حقيقي قبل النبي صلى الله عليه وسلم، ولا أظن خافياً على أحد ما الذي كان يفعله التنطعون من قريش والمزمتون فيها حين كانوا يؤذون رسول الله وأصحابه بأشد أنواع الأذى، ويذيتونهم أمر أصناف التشكيل مع أنهم لم يراحمهم على عرض ولم يتافسوم على جاء ولم يطالبوا بسلطة ولا بحكم، وإنما كانوا يدعون لدينهم بالمول اللين والكلم الطيب وحده إلى نبذ عبادة الأصنام، والتفكير في المخلوقات ليعلموا أنها من صنع الله الواحد القهار.

ومع ذلك فقد أخذتهم حية الجاهلية وطوحت برؤوسهم إلى العنت والسخط حتى اضطروا الرسول صلوات الله عليه للهجرة هو وأصحابه ، واضطروهم إلى أن يشقوا بأسيا فيهم الطريق إلى الحرية ، حتى أفاضت بنورها وحتى انكفأت أطباق الظلم ، وإذا بالمسلمين يحملون شعلتها المقدسة وفي أولها هذه الحرية ، يدعون إلى الله ويدعون إلى المساواة ، إلى أن تكسرت أمام أسيا فيهم وتحت أقدام خيولهم ما عهده ممالك فارس والروم والمغرب وأوروبا من نظام الطبقات ، ومن استعباد الناس بعضهم لبعض ، مما كانوا يسمونه نظام الإقطاع ، وحق السيد أو الشريف على عبيده ، وحق الكهنة ورجال الكنائس على عموم الناس .

لم يعرف العالم إلغاء هذه النظم العجيبة قبل الإسلام ، ولو قام إنسان في أوروبا في القرون الوسطى ، ودعا إلى المساواة بين العلاح وصاحب الحق ، أو دعا رجال الكنائس أو المعابد إلى التنازل عما كانوا يدعون من حقوق لما كان له من جزاء أقل من التعذيب والتقتيل والتخريب .

ولقد ضلت المدينة الآوربية طريقها وحادت عن أصلها الأول في الإسلام وجسموها نظريات فاسدة واتخذوا لها طرقاً لا تمت إلى الحق بسبب ، فكانت النتيجة أن انقلب الأعراس الزائفة ، والصور الباطلة ، نقمة عليهم وإذا هم يطغى بعضهم على بعض يتكالبون على ما يشبع النهم أو يطغى ظناً الشهوة ، وما هم ببالغين من ذلك إلا دق الاعتناق ، ولا يراجعين إلا عن طريق روح الإسلام - عند ذلك يتذوقون المساواة الحققة والإخاء الصحيح .

جاء الوحي من عند الله العزيز العليم إلى محمد صلى الله عليه وسلم معلم البشرية الأول ، وكان أول بدئه قوله تعالى : ، اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذي علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم .

أول الدعوة وأول الرسالة طالب المولى حبيب العلم ، يا لها من حضارة تبهق العقول وتستهوى الأبواب وتشرح الصدور . يطالب جل شأنه بالعلم ، فدين الإسلام إذاً أساسه العلم ووحية الحق وروحه الحضارة في أجلى صورها وأبهى معانيها ؟ العلم بأوسع صورته وأدق معانيه ، وإلا فيما تفسر انتقال العرب بعد إسلامهم من عدادا لأمم الجاهلة المشردة إلى مصاف الأمم الراقية السائدة ؟ استغفر الله

بل إلى صف فوق الصغوف صارت فيه وحدها حافظة للعلم والحضارة والفنون دون سائر الأمم . وقد اعترف لها الكافة بالزعامة في ذلك قروياً طويلاً كانوا فيها يؤمنون عواصمها يأخذون عنها العلم والحكمة وأسرار الصناعات والفنون ، ولا يزال المؤرخون من جميع الملل والنحل يرددون هذه الحقيقة - أليس هذا لأن الإسلام يفرض الرقي فرضاً ولا يسمح به سماحاً .

تحدث القرآن عن ذلك بمنتهى التوبة حيث يقول الله تعالى : (وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً) ويقول : (وقل رب زدني علماً) ويقول : (قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون) ويقول المصطفى صفوة خلقه (خذ الحكمة ولا يضرك من أي وعاء خرجت) أي ولو خرجت من فم آثم أو كافر ، فإن الحكمة تلتقط حيث كانت ولا يؤثر على قدسها شيء .

كل هذه الآيات وتلك الأحاديث فرضت على المسلمين العلم ودفعت بهم إلى مباحته دفعا ، والعلم يؤدي إلى الترقى لا محالة بل هو طريقته الوحيد في كل أدوار البشر . وأي علم هو ؟ العلم على إطلاقه بكل ما يحتمله لفظه ومعناه وبكل ما يؤدي إليه في الحياة . فإن الدين الذي يفرض على ذويه النظر في السموات والأرض والذي يقول إنه يضرب الأمثال للناس وما يعقلها إلا العالمون ، والذي يرفع من شأن أهل العلم بحيث يستشهد بهم في حقه ، والذي يقول رسوله الأمين (فقيه واحد أفصل عند الله من ألف عابد) ويقول (فكر ساعة خير من عبادة ستين سنة) الدين الذي يفعل هذا يدفع بأهله قهراً إلى طلب العلم ، وطلبه يدفع بهم إلى أطوار من الترقى لا تطوف بخيالهم قبل الدخول فيها .

وإلا فن ذا الذي كان يتوهم أن العربي الذي يتخيل أن القمر له غلاف اسمه الساجور ، يدخل فيه كل شهر مرة ثم يخرج منه يسيراً يسيراً ليعطل بذلك أطواره المختلفة من هلال إلى بدر . يصبح بعد مائة وخمسين سنة يعرف من أحوال هذا الكوكب ما يعرفه أكبر الفلكيين إذ ذاك .

ومن ذلك الذي كان يتصور أن ذلك العربي الجاهل يصبح بعد تلك المدة العصيرة ويده ذلك القدس من العلم يعيش إلى نوره العالم من جميع أرجاء الأرض يأخذون عنه ما جعله الله آميناً عليه دون خلقه - من ذا الذي يستطيع أن يتخيل

هذا لولا أن الإسلام قد أوجب على متبعيه الاتقياد لقاموس الترقى إيجاباً ، لا أنه قد أباحه لهم تغييراً .

لم يكتف الإسلام بالدعوة إلى العلم حسب ، ولكنه تفلغل في نظام الاجتماع ووضع من القواعد ما يعتبر المنار الواج لهداية الناس إلى ما يسمو بهم فرادى وجماعات ، وإلى ما يمر حالهم من حيث معاشهم ومعادهم ، فكان النظام الاقتصادي أبدع من النظم الاقتصادية التي عرفت من قبله والتي ولدت من بعده ، هذا النظام هو نظام توزيع الثروات توزيعاً عادلاً مشعباً بروح المودة والرحمة والاحترام بين الطبقات ، وذلك النظام هو نظام الزكاة وحسبنا لو طبق هذا النظام على وجهه الشرعى الصحيح أن تهرب الأشباح الخفيفة التي تطفئ على العالم الآن باسم الشيوعية والتازية والعاشية والأسمالية ، وما إلى ذلك مما يسير فيه العالم متخططاً بين ظلمة الجشع وواجب الرحمة .

ثم كان تنظيمه للأسرة وعلاقة الرجل مع زوجته وأولاده وأقاربه في حياته وبعد مماته نظام غيب منشؤه التواصل والتراجل والتعاطف ، وإن ررم به الغريون وغيرهم بمن في قلوبهم مرض ، وعابوا عليه بعض الشيء . فهم ولا بد راجعون إليه بطبيعتهم مندفعون إليه بغرائزهم ، هذا من ناحية وهناك ناحية أخرى اجتماعية لها دقتها ومكانتها وقد وقف منها الدين الاسلامى موقعاً عظيماً يدل على منتهى السمو والعظمة إلا وهو الطلاق وإباحته مع بنضه وتقيده بتلك القيود البالغة منتهى الدقة حيث يقول جل شأنه (فعطوهم واجمروهم في المضاجع واضربوهم فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سديلاً) ثم بعد ذلك يقول (الطلاق مرتان فامسك بمعروف أو تسريح بإحسان) :

أين حضارة الغرب هنا ؟ بل أين مدنيته ؟ ها نحن نراهم يرجعون إلى ديننا في هذه المسائل كلها ، وما ذلك إلا لصلاحيتها واستقامتها وتمشيتها مع روح العصر وما هم يقتربون منا كل يوم .

ولو نظرنا قليلاً في تقاليد المجتمع وما يسميه الغريون بنظام (الإتيكيت) والآداب الاجتماعية ، ونظرنا إلى نظام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، لئرى أيهما أقوى دتامة وأرقى مدنية وحضارة .

يقول الله تعالى في آداب دخول البيوت والاستئذان لرجال ربوا على البداوة وعاشوا في أحضان الطبيعة ، يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأسوا وتسألوا على أهلها ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون فإن لم تجدوا فيها أحداً فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أذنى لكم ، ويقول في آداب الجلوس : يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا في المجالس فافسحوا يفسح الله لكم ، وغير ذلك من الآيات :

بل نظم العلاقة بين الأفراد والعائلة بالنسبة لبعضهم البعض داخل بيوتهم حتى يلزمهم حسن الأدب محافظة على الكرامة فقال (يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات : من قبل صلاة الفجر ، وحين تضعون ثيابكم من الطهيرة ، ومن بعد صلاة العشاء ، ثلاث عورات لكم ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن طوافون عليكم بعضكم على بعض)

تعليم إلهي وأدب سماوي وأخلاق قدسية تدل على الحضارة الحقة الكاملة ، حضارة لم تغير معالمها تلك الحضارة الرائقة التي وجدت في هذا القرن والتي كان منها هذا الدمار الذي نشاهده وتلك الحرب الضروس التي نراها اليوم والتي أطاحت بدول وأذهبت ممالك وثلت عروشاً كانت تفخر بأنها بلغت الذروة في الحضارة حتى إن رئيس إحدى هاتيك الدول قد اعترف والقلب منه دام ، بأن الخلاعة والمجون كانا السبب المباشر في انهيار دولته العظيمة والتي كانت تباهي الأمم كلها بحضارتها وتفخر عليهم بها

إن حضارة الإسلام مبناها النظام الروحي والإخاء الإنساني الحق ، لذلك بقيت تعاليمه صحيحة لم تغير معالمها الأيام ، ولم تقوض صروحها السنون ، بل إنها تزداد على مر الأيام قوة وتمكناً

وهنا نحن ننتظر أن يثوب العالم إلى رشده ويرجع إلى عقله فينشد الأمن والسلام في دين الإسلام ويفتش عن الحضارة في هذا الدين ليعتقها الجميع وعند ذلك تنقطع الثورات وتهدأ الحروب ويتركز العالم على سياسة واحدة حقة ، وهي سياسة الله العلي التدير . والله الموفق لأقوم طريق .

دعوة الاسلام الى المساواة

نفسية الامتاز الشيخ سيد شريف

الدرس محمد الفاضل

لرسول الإنسانية محمد بن عبد الله أياذ يضاء على المجتمع ما أجلها . وفضائل
شما اختص بها العلي القدير ذلك الذي توافرت فيه أكرم الصفات . فجعلت منه
عقربا فدا . وقائدا موقفا . وداعيا إلى الله يأذنه يثوب إلى هديه الحائر ، ويستضيء
بنوره الضال ، ويؤمن بدعوته المنصف . ويخشى هيبة المتباعد . ويتصالح لعظمته
المتكبر . حتى خلق من عرب الجزيرة على تنافرهم . وتباغضهم . وتأصل أسباب
الفرقة بينهم . أمة قوية الدعائم . شائعة البناء . تربط بينها أواصر الدين . وتؤلف
بين قلوب أبنائها تعاليم الله . وتغرس في نفوسهم رفيع السجايا . وجميل الخلال
التي جعلت من العربي . الجاف الطبع . الغليظ اللفظ . الثائر المندفع . الشره الحاقد .
إنسانا مرهف الحس . لين العريكة . مهذب القول . يكفيه من متاع الحياة ما يسد
رتمه . ويقيم أوده ويحفظ عليه حياته . بل تسامت به القناعة وفكران الذات إلى
أن يؤثر أخاه على نفسه . ويخرج له عن جل ماله . من طارف وتليد . وتلك
مساواة إسلامية . يعبر عنها المحدثون بما يشاءون . دان بها السلف وأخلصوا في
تنفيذها حتى أصبحت خلقا لهم . ودستورا ما فذا بينهم . يحببه إليهم ما تمتلئ به
قلوبهم . من حب لله ورسوله . وإخلاص للدعوة الرشيدة . دعوة الإحاء والتراحم
والتواد والتعاطف . ونبد العوارق التي تدعو إلى التخاصم والتناحر . والتفاخر
بالأحساب . والتباهي بالأنساب . وتناسى ما وقر في أدهامهم من عصية جاهلية .
جعلتهم يشكرون على الرسول الأمين في مبدأ الدعوة . بحالسة العقراء وأحاطته لهم
بمزيد من رعايته وتقديره ، وقر رأيهم على أنهم لا يستطيعون أن يؤمنوا بدين
يسوى بين الأشراف ذوى الجاه ، وبين العقراء المنبوذين إداداك ، حينما بصروا
عد رسول الله بصيب ، وخباب ، وبلال ، وغيرهم من ليسوا من ذوى العصية .

وأبناء الأسر ، رغبوا إليه أن يعدهم عن مجلسه . فلما أبى ضنا بهم . وإثارة لهم ، وقال (ما أنا بطارد المؤمنين) قالوا اجعل لنا مجلسا ليس لهم أن يحصروه . فإذا فرغنا بما قصدنا إليه هرعوا إليك كما أرادوا ، فقال نعم طمعا في إيمانهم . وكان ذلك بحضرة عمر رضى الله عنه . ولكن الله آثر القضاء على الفوارق داه المجتمع العباد . على إيمانهم . فنزل قوله جل شأنه (ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون من الظالمين) .

ثم شدد سبحانه النكير على دعاة التفرقة ، والتفريق لهم بأسلوب لا يدع مجالاً للثقة فيهم ، والركون إليهم . والاطمئنان لهم ، ما داموا يتمسكون بهذه الطائفية المردولة التي تدفعهم إلى أن يقولوا نحن سادات مضر وأشرافها إن أسلنا تسل الناس ، وإن وفود العرب تستحي أن ترانا قعودا مع هؤلاء الأعداء ، فقال تعالى : (واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي) إلى أن يقول : (ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا) .

وبذلك تقرر هذا المبدأ القويم . مبدأ المساواة بصورة عملية قاطعة . سدت كل المنافذ أمام أولئك النفر من عطاء قريش ، الذين أملوا أن يبقى لهم في ظل هذا الدين نظامهم الموروث عن آباءهم وأجدادهم . وكان من أجلى مظاهره . غطرسة وكبرياء . وعنجهية تدفعهم إلى حب الظلم . والتعلق بالاستبداد . فلما غاب ظنهم . وكذب حدسهم . حاربوا الدين . وحاصموا أتباعه . وأنزلوا بهم أنواعا من القسوة . وصنوا من الاضطهاد . وألوانا من العذاب . اضطر معه المؤمنون أن يفروا حرصا على دينهم . وصونا لعقيدتهم . ويحموا وجههم شطر المدينة . فلما بلغوها . وجدوا أن الدعوة الجديدة التي تهدف إلى أنه لا فرق بين أبيض . وأسود . وقرشي وغيره إلا بالتقوى وأن المسلمين مهما تباعدت ديارهم . واختلفت ألوانهم . وتباينت ألسنتهم . هم في الدين أخوة ويسمى بذمتهم أدانهم . وجدوها قد نمت . وأنبعت في مهجرهم . وليس أدل على ذلك مما قابلهم به الانصار . من حفاوة بالغة . واستقبال عظيم . ورضى سابق . عبروا عنه بقولهم للرسول صلى الله عليه وسلم

مدفوعين بأخوة صادقة للقادمين عليهم . وحب أكيد لهم (أموالنا بينهم قطائع) حينما قال لهم (إن إخوانكم قد تركوا الأموال والأولاد وخرجوا إليكم) والقرآن الكريم يذكر هذه المعاملة الطيبة في قوله تعالى [والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة . ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون] وقد سادت بينهم جميعا صلوات قربة على أسس من التعاون والمودة . في ظل سلم يصونه ما يتذرعون به من غنى نفس . وإيمان صادق . يحفزهم إلى القضاء على الفتنة في مهدها . قبل أن يزرع قرنها . ويندلع لهيبها . وهم أعرف الناس بآثارها لأنهم قد طحنهم حروب العصية . ولقحت جباههم نيران العداوة والبغضاء . أيام جاهليتهم . وقد حرص الرسول أشد الحرص على أن تكون الوحدة في كنف التسامح والمساواة حتمية واقعة . تلتزم الانصار والمهاجرين . ومن يجاورهم من اليهود . سيما وقد وُجِحت لهم محاولة المنافقين الواقعة بين الأوس والخزرج من المسلمين . وبين الانصار والمهاجرين . يزيد هذا ما روى عن جابر بن عبد الله أن رجلا من المهاجرين كسع رجلا من الانصار . فاتهمها ابن أبي قحافة موانية . لأن ينفخ في بوق الفتنة ويثيرها حربا شعواء . تبعث العصية من جديد إذ قال في رهط من قومه . قد نافرونا وكأثرونا في بلادنا وهذا ما فعلتم بأنفسكم . أحللتهموم بلادكم . وقاسمتهموم أموالكم أما والله لو أمسكتهم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير بلادكم . فسمع ذلك زيد بن أرقم فشئى به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك عند فراغه من غزوه فأخبره الخبر وعنده عمر بن الخطاب . فقال يا رسول الله مر به عباد بن بشر بن وقش فليقتله فقال رسول الله . فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه وإذا ترعد له أنف كثيرة يثرب . وقال لمن تدفعه الغيرة إلى أن يدل دلوه في الفتنة . دعوها فإنها منقته .

لذلك كتب كتابا بين الانصار والمهاجرين وادع فيه اليهود وعاهدهم وأقرهم على دينهم وأموالهم وشرط لهم . واشترط عليهم . وهذا الكتاب يعتبر بحق وثيقة إسلامية . تفيض تسامحا لا يعرف العصية . الظالمة ومساواة باعدت بينهم وبين

القبيلة الفاشقة . وعدلا لا يصدر إلا عن نفس ندية طاهرة تجردت عن الغرض والهوى . ولم يتحكم فيها مأرب . أو تستخفها شهوة . تدعو إلى نكث العهد . ونقض المواثيق . بدافع من الأثرة وحس الذات . وابتغاء منفعة عاجلة . وانتهاز فرصة مواتية . كما نرى الآن بمن يتعاقرون بالألفاظ الجوفاء . والعبارات المعسولة التي تنادى بالحرية والصفة . وإقامة نظام سلى دائم . يحفظ للام الضعيفة كرامتها واستقلالها . ويهيب بالام القوية . أن تتبادل معها علاقات الحب والتعاون على قدم الإخلاص والوفاء . ومع ما يتصاحبون به ويتسابقون في سبيله من عقد المخالفات بأسمائها المتنوعة . نحس منهم الام خلاف ما يظهرون . إذ يشيع بينهم حقد تغلى مرآجله . ونهم لا تحفى مظاهره . وإسفاف فى الخصومة بلغوا به الغاية . وإمعان فى العدوان بدّد الثقة فيهم . والركون إليهم . وتبلبلت الأفكار وأشعبت بينهم الآراء تتبع الأهواء .

أين هذا من قول الرسول فى عهده الذى لم يجد عنه قيد أئمة (إن من اتبعنا من يهود . فإن له النصر والأسوة . غير مظلومين . ولا متناصرين عليهم . وإن سلم المؤمنین واحدة ، وإن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنین ، لليهود دينهم . وللسلمين دينهم . مواليهم وأنفسهم ، إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوقع إلا نفسه وأهل بيته . إلى أن يقول . وإن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم . وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة . من حدث أو اشتجار يخاف فساده . فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد صلى الله عليه وسلم على كل أناس حصتهم من جابهم الذى قبلهم . وإن يهود الأوس . مواليهم وأنفسهم على مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع لبيب المحض من أهل هذه الصحيفة) وقد واصل الرسول بذل الجهد لمحاربة الفوارق والعنصرية أينما وجدت وكيفما كانت . ولذلك عنى أشد العناية بمحاربة هذه التهمة البغيضة يوم الفتح حين أذن بلال على الكعبة فغضب الحارث بن هشام . وعتاب ابن أسير وقالوا هذا العبد الأسود يؤذن على ظهر الكعبة فيؤل قوله تعالى يظاهر الرسول . ويعينه على المضى فى دعوته . (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم) وقال صلى الله عليه وسلم رب أشعث أغبر ذى طمرين لا يؤبه له . لو أقسم على الله لأبره .

بهذه الدعوة الإنسانية القويمة دعا الإسلام ، وقد استجاب لها المسلمون الأوائل ، وأخلصوا في تنفيذها حتى جمع البلد الواحد بين المسلم والنصراني واليهودي ، ينعمون فيه جريماً بحياة مليئة بالهدوء والاستقرار في جو من الثقة وحسن التفاهم ، وقد سارت تقفو أثره . ولا تفك عن متابعتها في سرعة انتشاره . حتى أصبحت من مميزات العفيدة . يدين بها المسلمون في الحواضر والأمصار . في الجزيرة وغيرها من بلدان المشرق والمغرب .

وحسب الباحث النصف أن يرنو بصره إلى بلاد الحضارة الآن التي قامت على أنقاض مجد الإسلام بعد أن حارب أهلها تعاليمه . وجعلوا معتنيهم شيعاً وأحزاباً . فبان أمرهم ، وضاعت هيبتهم . وأسلبوا تراثهم . ورسوا بالمظاهر المصطنعة . مما تخجل له نفس الآبي الحر . تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى . حسب أن يلقى نظرة فاحصة ، ليتبين كيف غلبت المادة على الروح ، والحيوانية على الإنسانية ، والآبانية التي دفعت بها العنصرية إلى أن تظهر شيئاً فشيئاً حتى إذا كانت لها الغلبة والسلطان . طمست معالم التسامح والمساواة وغدا التفاضل بين الأجناس شرعة ومنهاجا . ليس من حرج على أحد أن يعمل له . ويحجر بالدعوة إليه ، وها هي ذى بلاد الدنيا الجديدة ، البيض فيها يفرون من الحر . فرار السليم من الأجرب . يظلدونهم . ويحقرونهم ، ويقيدون حريتهم ، ويضربون حولهم نفاقاً من المهانة والإذلال ، ولا يسمحون لهم بالسكنى في أحيائهم أو الدنو منها ، وويل لمن تسول له نفسه هذا العمل . سيلقى حتفه . ويهدر دمه . وليس لأحدهم أن يغشى لهم مجتمعاً . أو أن يلج لهم نادياً من نواديهم ، فضلاً عن أن تجمع بينهم وشائج المصاهرة . وقد قامت دنياهم وقعدت عند ما اقترنت بفضاء برنجي . أليس ذلك وغيره أقوى دليل على أن الإسلام دين المساواة الحققة ، والحرية الوارفة ، وهو ملاذ الإنسانية . يتمها من العنت والتحكم ، ويدعو إلى العدالة الاجتماعية التي هي دعوة الحاضر ، وهيئات أن يتحقق منها بين مختلف الأمم والشعوب ما تحقق في الماضي بفضل تعاليم الإسلام . وما سيتحقق في المستقبل لو رجعوا إلى دستور الله التوفيم .

صفحة من المجد

المفكر الأستاذ محمد خليفة

المدرس بمعهد القاهرة

من ذلك الاسود الداكن الذي منحه الليل جناحه ، ونسج هو من جبينه
 لصفحات الليالي أجنحة ؟ ولدت الاحداث ، وارتفع من أهوال الليالي فتدفقت
 الاهوال في دمه فهو وليد الاحداث وهو رضيع الاهوال وهو الذي يعيش لها ،
 يحسبه الرائي أنه ليس من طينة هذا البشر ولكن من طينة أخرى صهرتها عزيمته
 أمضى من عزائم الجن فكانت ذلك المخلوق الفدائي الذي عرفه تاريخ الإسلام جلدأ
 رائحاً كالطود والاجسام تنساقط حوالبه ، والرؤوس تتطاير ، والقلوب تتمزق ،
 والأشلاء تتناثر والدماء تتفجر ، وهو هو الساخر من الموت البسام لعواصف الردى .
 لقد ركب البحر المسامح وبين جنبيه قلب بموج ويهدر ، وفي رأسه أفكار تصطبغ
 وترعد ، وخواطر ترغى وتربد ، وفي نفسه آمال تبيض وتثب وليست الذهب
 أو الفيد أو العيش بين الزهر والكأس : لا : إنها الآمال الكبار ، إنها الفتح
 والنصر ، لقد عاش في الصحراء يحمل قلبه من صخرها قوة وصلابة ، ويحمل
 من اتساعها أملا كاتساعها ، ومن آسائها عزائم أسائها ، وقد انطبع صفاء الصحراء
 في نفسه ، فكانت أصنى من الصفاء في مواطن الصفاء كما كان صورة لروعة الصحراء
 وروبة الصحراء في مواطن الدماء .

وجاءته شرعة الإسلام فرآها شريعة الحق فوهب نفسه ودمه للحق يناضل
 له ويموت في سبيله .

إنه طارق بن زياد ، إنه البطولة ، إنه أول فدائي مست أقدامه تراب أوروبا
 واستهان بالموت في سبيل تركيز راية الإسلام فوق صخور المضيق تخفق

فتنخلع في خفقاتها قلوب المالكين الذين استعبدوا الناس ، وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا .

لقد عذرت السفن في ذلك البحر الزاخر وفي طليعتها طارق يزخر قلبه بشكول من الآمال وألوان من الأفكار .

تعالم طارق إلى ذلك الصحر الداكن الذي تبدى من بعيد ، فرأى فيه صورة لوجهه ، ورأى في أحاديده وأغواره صورة لأعماق نفسه .

ورأى في ثباته وتوطد جوانبه أمام ثورة البحر الطاغية ، وأمواجه العاتية ، صورة لموقفه الذي يجب أن يكون أمام المستقبل الذي يرتقبه ، وما يحمل بين أيامه ولياليه مما يشبه طغيان البحر وعنو الأمواج

وما كادت السفن تقارب الشاطئ حتى وثب إلى الشاطئ ، ليثبت للدنيا أن الحياة وثبات ، وأن الذي يتحسس موطئ قدميه خوفاً من أشواك الحياة أو رهبة من أعوارها وأعماقها خلق به أن يتدثر بخمار غانية لا أن يلبس لامة الحرب ويدرع للأهوال وبين جثثه قلب العنراء

لقد توائمت في أثره الجند وكلهم كطارق في سحريته من الموت واستهاته بما تعبته الأندلس من عدة أو عتاد

وهنا تطلع طارق إلى تلك السفن الرابضة إلى جانب الشاطئ فرأى فيها باب الحياة لأولئك الذين قد يطلبون الحياة إذا عجزوا عن لقاء الموت ، فأشعل النار فيها وهو يتنسم ، والجند في حيرة من هذا القائد يتساهلون عن السر ، فلا يجدون جوابا غير ألسنة الثيران تصاعد إلى السماء ، حتى إذا صارت السفن حطاما تتقاذفه الأمواج ورأى أنه قد خلص جنده من عبودية الجبن الذي قد يكون حين تبدو نواجد الموت وقف على الصخرة يصرخ في جنوده ، فتنبههم صيحائه كل شيء إلا الحق الذي يكالحن له والمجد الذي يجب أن يشهدوا في سيده حتى تقوم صروحه من أشلائهم لقد وقف يقول :

أيها الناس أين المفر ، البحر من ورائكم والعدو أمامكم وليس لكم والله إلا الصدق والصبر ، واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضيع من الأيتام في مأدبة اللثام ، وقد

استقبلكم عدوكم بجيشه وأقواته موفورة، وأنتم لا وذر لكم إلا سيوفكم
ولا أقوات إلا ما تستخلصونه من أيدي عدوكم، وإن امتدت بكم الأيام على افتقاركم
ولم تنجزوا لكم أمرا ذهب ويحكم وتعوضت القلوب من رعبها منكم الجراءة عليكم
فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة بمناجزة هذا الطاغية، وإن انتهز الفرصة
فيه لممكن إن سمحتم لأنفسكم بالموت

ونظر طارق وراء الأفق البعيد فاذا الأندلس تلى إليه بخيلها ورجلها أمواجا
من البشرية تدفق وأعلاما تسد الأفق تخفق وتضطرب.

ما هذا؟ أنه لذريق ملك الأندلس يزحف في جيشه الجرار ليقتذف بأولئك
الحماة إلى البحر طعاما شهيا للأسماك والحيتان

انه لذريق يسير في مائه ألف مقاتل يركب مركبه التي لم يحلم بها ملك من قبل
ولا من بعد، يحيط به من حرسه الخاص عشرة آلاف من الرجال الأشداء

انه لذريق أعجبه جنوده فانفجر ضاحكا يسخر من أولئك الجياع الذين جاءوا
يطلبون عرشا عز على القيصر طلبة

وزحف طارق لا يريد الميمنة ولا يبنى الميسرة، ولكنه يريد الخطر يريد
القلب وحده فإذا أن يناله فيسكون النصر ولما أن يهلك قبله فتظل العاصفة جاثمة
ويكون قد شق الطريق لها إلى القلب لتعصف به وتأتى عليه وفيه لذريق وعندئذ
يكون النصر.

ان أسبانيا وما عبات أسبانيا لن تثنى طارقا أو ترده، أنه يريد أن يضع قدمه
على قمة جبال البرانس ويؤذن في الوجود: الله أكبر الله أكبر.

ووثب طارق وثبته وانطلق كالرياح بل أسرع من نكب الرياح يززعزع
الحراب والقنا ويحصد السيوف والرماح فزاغت أبصار الأسبان وبلغت قلوبهم
الحناجر ولووا وجوهم يترقبون مخرجا من لقاء الموت فإذا العاصفة تزلزل الأرض

من تحتهم وإذا التكبير والتهليل يفجر رؤوسهم . لا . لا ليس هؤلاء المسلمون من طينة البشر وما من قوة في الأرض تنف أمام قوة السماء .

إن هؤلاء خلقوا في مصنع المعجزات السماوية فلا طاقة لأحد بهم .

وأدار الاسبان ظهورهم وأطلقوا للرياح سوقهم .

وأدار لذريق بصره فلم يجد حرسه الخاص الذي يبلغ عدده عدد جيش المسلمين .

ولم يسمع غير أصوات المنايا تقترب منه فقفز من مركبته وفر مع الفارين بل كان أسبق الفارين .

ولكنه ولى ولللطن سورة إذا ذكرتها نفسه لمس الجنا

فأين لذريق ؟ وأين ضحكات السخرية التي كان يملأ بها شذقيه ؟ وأين نظرات الازدراء التي صعدتها وحدرها في أولئك المسلمين الذين لفظتهم الصحراء على معقل لذريق الشاوخ ؟ إن التاريخ أثر بعد تلك الموقعة في لذريق فغير أثوابه الملكية وتاجه العظيم على شاطئ النهر ولعل النهر أبى ألا أن يكون بين قاعه قبر الطاغية .

وسار طاروق يمد جناحيه على شرق الأندلس وغربها حتى وافاه سيده موسى ابن نصير فتقدما وزحفا حتى بلغا جبال البرانس ووقف طاروق على قممها الشاهقة يحقق حلما من أحلامه الجميلة . وأمنية من أمانيه العذاب .

أنه أطلق صوته فوق هذه الجبال يؤذن في الوجود : الله أكبر الله أكبر .

وخر ساجداً لله شكرا وحل الصدى روعة الأذان يجلجل بها في أوروبا فوضع الفرنسيون أيديهم على صدورهم يتحسسون موضع قلوبهم يخشون أن تكون قد فرت من جنوبهم فلم يحسوا بفرارها .

اتمد أذهلهم الرعب عن كل شيء حين رأوا موسى بن نصير وقد وقف على قمة البرانس وأرسل طرفه إلى الشرق البعيد ثم صاح : سأخذ طريقى إلى الشرق عن

طريق شمالي (بحر الروم) البحر الأبيض ولا بد أن أجعل منه بحيرة عربية ، حلم جميل ليته يتحقق وقد كان في قدرة المسلمين الذين أخضعوا الأكاكسة وأذلوا القياصرة أن يجعلوا أوروبا كلها مسلمة ولكن لم يرد الله الخير لشعوبها :

يا شباب الشرق : إن طارقا بنى للإسلام دولة وشاد للمسلمين مجداً في بلاد الأندلس فهل عجز الشرق أن ينجب مثل طارق

يا شباب الشرق إن مصنع المعجزات الذي صنع طارقاً هو كتاب الله وهو حي خالد فهل عجز الشرق أن يصنع في مصنع المعجزات في ألف طارق :

يا شباب الشرق لقد داس طارق وجند طارق بأرجلهم الذهب وما هو أغلى من الذهب فلم يشغلهم بريق المال ولم يذهل المال والجمال رجل الصحراء عن رسالته التي حملها وجاء من أجلها وهي الجهاد في سبيل الله حتى يتم الله نوره .

يا شباب الشرق : إن المغاربة الذين فتحوا بالأسس الأندلس وروعوا فرنسا هيض جناح أحفادهم اليوم فتحكم في الأحفاد عبيد الأجداد فهل يعيد التاريخ نفسه فيقوض حفات الصحراء بأيمانهم وأخلاقهم عروش الجبارين :

يا شباب مصر : أنظروا إلى أولئك الحفاة الجياع من جند طارق وقد عرت نفوسهم في ميدان الجهاد فلم تعزم الدنيا ولا زخارف الدنيا وهي بين أيديهم وتحت أرجلهم ثم انظروا إلينا اليوم ونحن متخمون ونأبى نفوسنا الضعيفة إلا أن نقدم حياة جنودنا ثمناً رخيصاً لقصور نبتيتها أو ضيعة نملكها فنهدم مجد أمة لنترك للأولاد والأحفاد ثروة ينعمون في ظلالها :

أيها الشباب :

لا تكونوا عالة على التاريخ ولا تعيشوا على موائد الماضي بين ألوان الذكري بل شيدوا لكم حاضراً تذكركم به الأجيال المقبلة واطلبوا الموت توهب لكم الحياة :

لمحات في النظم التعبدية :

الرهبانية والتيررية والتصوف

محاضرة الأستاذ عبد النعم الشبخ

مدرس بالأزهر

تعشق النفس دواماً ، أن تحيا مع هؤلاء الذين وهبوا أنفسهم للخالق ، وحبسوها على طاعته ، ابتغاء مرضاته ، وتقرباً لذاته العلية ، وطمعاً في فيض نوره الذي يهدي الأرواح الحائرة ، وسط حياة مفعمة بالظلمة والآثام . . . أحببت أن أحييا مع هؤلاء ساعات من زمان عمرى ، فألى قراء هذه المجلة أهدى هذه الساعات !

سأعرض في بحثي هذا ، للرهبانية والديرية والتصوف ، مع عقد المقارنة بينهما ، كلما لاح لي وجه ملائم لهذه المقارنة . اشتقت كلمة « الرهبانية » أو الديرية monasticism ، من كلمة يونانية ، معناها الوحدة والافراد ، ومن هذه الكلمة ، تولدت جميع المشتقات ، التي تعطى هذا المعنى . فكلمة « monk » ، معناها الرجل الراهب ، أو الرجل الديرى ، وكلمة « monastery » ، معناها الدير ، وهو المكان الذى تنظم فيه جماعة العباد التى آثرت هذا النوع من الحياة . وهذه العزلة ، ليست فى عرف جميع قديسى هذه الحياة الانفرادية ، الانقطاع الكلى المطلق ، عن الحياة النابضة المتطورة فى الخارج ، وتجشيم النفس ما فوق طاقتها من المتاعب والمصاعب . وإلى هذا الانقطاع الكلى المطلق ، وإذلال النفس ، وحرمانها أتم الله ، ومنع الحياة ، أشار النبي عليه الصلاة والسلام بقوله « لا رهبانية فى الاسلام » ، ويحسن أن نثبت فى مستهل هذا البحث ، أنه بالرغم من أن الرهبانية والديرية ، ليستا من أنظمة المسيحية الخاصة ، فإنه لم يتح لها من النماء والتطور قدر ما أتيج لها فى ظل المسيحية . أما عن أصل اشتقاق « صوفى وصوفية ومتصوف ومتصوفة وتصوف » ، فقد ورد فى ذلك كلام كثير ، ويعتينا من كل ما قيل ، ما رسخ لدى العلماء اليوم ، وهو أن الاسم مشتق من الصوف ، وأن القوم اختصوا بلبسه ، تميزاً لأنفسهم

عن الطبقات التي درجت على البذخ وانغمست في الترف . ونظرة لكلا الاشتقاقيين في الرهبانية والديرية والتصوف ، ترينا أن القوم في كل . نظروا الى الحياة نظرة زهد ، وعزفوا عن مباحيها وملأوها ، وذلك يتفق مع ما نعرف من أن هذه الأنظمة التعبدية ، قد نشأت كلها عن الزهد .

وسأتناول الآن ماهية كل من هذه الأنظمة ، لنقف على ما يبيها من أوجه اشتراك وأوجه افتراق : عرفت الوثنية الرهبانية والديرية ، ولكن المسيحية لم تعرفها قبل القرن الثالث الميلادي ، ولم تعم هذه الحياة الشرق وتنتشر فيه قبل القرن الرابع ، كما أن القرن الخامس شهدتها متناثرة في غربي أوروبا ، ولم تعم وتنتشر هناك إلا في القرن السادس . ولقد نبئت أولى بذور هذه الحياة في الشرق ، وفي ذلك برهان قوى على التأثير الشرقى في المسيحية . والاصل في الرهبانية والديرية ، هو الانفراد والابتعاد عن المجتمع الغارق في المنكرات ، السادر في الموبيتات والعرار بعيداً عن صليل المادة المسكر ، هذا مع التنشف في العيش ، والاكتفاء بما يقيم الأود ، بالتندر الذي يهيء للعبادة والأمل فتطم . وهناك فرق بين الانعزالية الرهبانية والانعزالية الديرية ، فالأولى هي حياة فرد من الأفراد ، حناق درعاً بالحياة المصلة من حوله ، فراح يلتبس سعادة نفسه وهدوءها في رحاب الله ، بالابتعاد عن الخلائق والتفرد للخالق .

أما الانعزالية الديرية ، فهي عيشة اجتماعية في دير من الأديرة ، خارج نطاق الحياة البشرية العامة ، وهي عيشة منظمة كإلية ، ليس فيها قسوة الرهبانية وشدها إذ هي حياة تعاونية ، في ظلال التعبد والتقرب من الله . هذه هي الرهبانية ، وتلك هي الديرية ، أما التصوف فتبدو ماهيته من التعاريف الآتية :

قال رويم بن أحمد البغدادي ، التصوف مبنى على ثلاث خصال : التمسك بالفرق والافتقار والتحقق بالبذل وترك الفرص والاختيار ، وقال الكرخي : (التصوف هو الأخذ بالحقائق واليأس مما في أيدي الخلائق) وقال الجنيد : (أن تكون مع الله تعالى بلا علاقة) وقال ابن خلدون في مقدمته : (الصوفية

من العلوم الشرعية الحادثة في الملة . وأصلها العكوف على العبادة ، والانقطاع إلى الله تعالى ، والإعراض عن زخرف الدنيا ، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه ، والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة . وقد كان ذلك فاشيا في الصحابة والسلف . ولما عم الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا ، اختص المتأملون على العبادة باسم الصوفية أو المتصوفة) ينصح لنا من العرض السالف لماهية هذه النظم التعبدية ، أن بينها أوجه العلاقة الآتية:

١ - أنها جميعا تنفق في هجر المجتمع النائم المليء بالشور والآنم ، إلى مكان منعزل تمارس فيه طقوسها الدينية خالصة لوجه الله وحده ، وسرى فيما بعد أن قيام هذه النظم كان رداً على موجات الفساد التي اجتاحت المجتمعات حينذاك .

٢ - هذه النظم جميعا يطبعها التقشف والزهد في الحياة ، وهو طابع يضاد ما في حياة المجتمعات حينذاك من إغراق في البذخ والترف وإقبال على الدنيا ونسيان للحال . ولذلك فكثير ممن انضوا تحت لواء هذه النظم آثروا لأنهم فشلوا في مواجهة أحداث الحياة .

٣ - أن الإسلام قد رفض الرهبانية كنظام تعبدى من أنظمتها ، وذلك لأن الإسلام دين اجتماعي يكره الانحلال الاجتماعي ، ويكرم النفس البشرية فلا يحملها فوق طاقتها ، ونحن إذا علمنا أن من بين جماعة الرهبان من يعيش في أعماق الصحراء ، ومنهم من يعيش في صومعات تتصل بالخارج بواسطة فتحات صغيرة ، ومنهم من يعيش فوق الأشجار ، ومنهم من يحمل نفسه السلاسل والأغلال ويترك لحيته وشعره يتدلى في غير نظام ، ومنهم من يضيق حياته تضوراً . إذا علمنا ذلك أدركنا حكمة الإسلام في قول النبي (لا رهبانية في الإسلام) ونحن نعرف المثل القائل : (إن إنكار الجمال هو في الحقيقة نعمة ضدية لمن يتشددون بالقداسة) فترى هؤلاء القوم وقد أعرضوا عن النظافة والراحة واللذة وفضلوا القفر والذل الحيوى ، وكل هذا بما ياباه ديننا الحنيف ، وهناك وجه شبه بين الديرة والتصوف ، فللعباد في الأولى ديرهم ولهم في الثانية خلوتهم وتكليتهم .

وسأتناول الآن الظروف التي قامت فيها هذه الأنظمة ، وسنرى أنها جميعاً نشأت في ظروف تكاد تكون متشابهة : لقد ثارت النفوس ضد الامبراطورية الرومانية التي لاحت ونبذتها محتملة الوقوع في القرن الرابع الميلادي ، والواقع أن الخلاعة والفجور والإفراط في المجون ، قد أثر في الأرواح الحساسة الشاعرة . فراحت تلتبس في العزلة منجاة لها من خداع الحياة البراق ، وتصل عن طريق هذه العزلة إلى راحة العقل والقلب ، فنبذ هؤلاء القوم أملاكهم وأحببهم وأصدقاهم ، وجنحوا إلى حياة العزلة ، وإذا كان هذا النوع من الحياة عنواناً للتضحية وشرف الفقر ، كما كان من أسباب قيام هذه الحياة أيضاً ، تلك العبارات التي حث بها المسيح أتباعه على الانقطاع للعبادة ، وترك مظاهر الحياة الخداعة ، وكان لها لجأ إليه أباطرة الدولة الرومانية من الاضطهادات أثر في نشوء هذه الحياة ، ويكفي للتدليل على ذلك ، تمشي حركة الرهبانية مع حوادث الاضطهاد المعروفة في مصر ، منذ عهد الإمبراطور (ديسيوس Decius) إلى عهد الإمبراطور (دقلديانوس) [٢٤٩ - ٣٠٥ م] ولقد وجدت بالاسكندرية في القرنين الثاني والثالث الميلاديين مدرسة ، كانت تعلم نوعاً من إنكار الذات والتضحية ، وكان لوجود هذه المدرسة أثر في نشوء الرهبانية .

هنا عن الرهبانية والديرية . أما عن التصوف ، فقد نشأ في ظروف تشابه هذه الظروف : نشأ التصوف عن الزهد كما أشرنا سلفاً ، ولقد نما هذا الزهد إثر الحروب الأهلية ، ومقتل الخليفة عثمان رضي الله عنه ، إذ أثر ذلك تأثيراً بالغاً في قلوب المتدينين ، كما كان للتطاحن الحزبي ، وفوضى الفرق في عهد بني أمية ، أثره في فزع القلوب الحساسة الشاعرة التي راحت تترقب الخلاص من هذه الحياة في ظهور (المهدي) وحملت فكرة ظهور المهدي كثيرين على اعتزال الحياة ريثما يعود إليها صفاؤها وطهارتها ؛ أثرت هذه العوامل ، كما أثرت نظائرها في زهاد التصاري من قبل ، فاتجهوا إلى القوة الإلهية ، وأيقنوا أن البذخ والترف بدعة ، وتحققوا أن الدائم الذي لا يفنى ، والحقيقة التي لا تبلى ، هي الاتصال بالله .

الواقعية الحديثة

والادب المصرى المعاصر

لـمؤلفهـا محمد عباس صالح

المذهب الواقعى (Realism) عرف فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر وظل سائداً حتى نشوب الحرب العالمية الأولى . وقد جاء خلفاً للمذهب الطبيعى (Waturalism) الذى دعا له الكاتب الفرنسى د أميل زولا ،^(١) وأصحابه . وقد بشر بهذا المذهب (فلوير)^(٢) ثم (موباسان)^(٣) فى فرنسا ، ولم يلبث أن شاع فى جميع الأقطار وأصبح الطابع الغالب على الفترة ما بين نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين .

على أنه بعد الحرب العالمية الأولى ، وهى النتيجة الطبيعية لانتشار المصانع الضخمة وتعميم (الآلة) وسيطرتها على المجتمعات الغربية ، ظهر كتاب ما زالوا حتى الآن مسيطرين على الأدب الغربى ينفرون من (الآلة) ويرجعون إليها سبب التدهور الخلقى والاجتماعى الذى ساد القارة الأوروبية ، متوهمين أن الانتاج الجماعى وتقسيم العمل قتل روح الاستقلال لدى الإنسان وجعله تابعاً للآلة . وأنه نتيجة لهذا صار المجتمع مادياً آلياً تحتضر فيه القيم الروحية التى ظلت سائدة مد كان العمل اليدوى والنظام الاقطاعى مسيطرين على العالم .

والواقع أن النظر السطحي إلى ما أدى اليه الانتاج بالجملة من نتائج يجعلنا

(١) أميل زولا - كاتب فرنسى ظهر فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، وكان يرى أن الانسان مدفوع إلى تصرفاته بمرائزه الثابتة والمتأصلة فيه ولذلك قد سمي مذهبه الفنى (بالطبيعة) نسبة إلى المراد الطبيعة فى الانسان .

(٢) جوستاف فلوير - من أتباع أميل زولا وعاش بعده بقليل ، صاحب القصة القصيرة . مدام بوفارى ، وعما أسد عن الواقع مباشرة ويعتبر أول من نشر بالمدرسة الواقعية .

(٣) جردى موباسان - من أتباع أميل زولا وعاش بعده فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر وقد أجه إلى تشييع أركان المذهب الواقعى .

تتجى باللوم على التقدم الآلى الذى وصلنا اليه ؛ فإن البطالة والمنافسة والاحتكار واختفاء المحلات التجارية الصغيرة والكوارث التى حدثت قبل وخلال أزمة سنة ١٩٣٠ زعزعت الفكر الأوروبى وأطلقت أفلام كتابهم تضرب خبط عشواء فى مهاجمة ما توهموه عدوم الآلة - وهو الإنتاج الجماعى .

على أن الإنتاج الوفير لا يمكن أن يكون ضاراً بالمجتمع الإنسانى ، ذلك أن المحاولات التاريخية التى بذلها الإنسان لتوفير حاجياته منذ العصر الحجري حتى الآن لم تتوقف ؛ كما أن حاجتنا الأولية لم تتحقق بعد . ولقد أرجع الاقتصاديون الناهيون هذه الأخطاء إلى الذناب الذى يربط العلاقات بين المنتجين وبعضهم ثم بينهم وبين المستهلكين . ولكن هذه النظرة العملية ، والحلول الاقتصادية التى قدمت حينذاك ، لم تصادف مستقراً فى نفوس الكتاب والفنانين الذين روعتهم تلك الكوارث التى حدثت من بداية القرن حتى الأزمة الكبرى لجعلوا يصبون جام غضبهم وثورتهم على ما يسمى بواقع الحياة إذ كان شائعاً أن واقع الحياة هو التجرد من كل المواقف والأخلاق النبيلة واعتناق فكرة البقاء للأصلح ، وكان رجل الأعمال شخصاً صلباً بارداً كالحزانة التى يضع فيها أمواله .

وتتقدم هذه الحلقة من الكتاب ذوى الشهرة (د . ش . لورانس)^(١) و (ت . س . البوت)^(٢) و (ألنوس هكسلى)^(٣) وغيرهم ، وقد أطلق النقاد عليهم اسم كتاب الأزمة والانحلال ، ذلك أنهم لم يحاولوا أن يبشوا الأمل فى النفوس أو أن يدعوا إلى بناء اجتماعى جديد ، بل كانوا كالأغربان ينعبون على أطلال حضارة ميتة .

١١٥ ، د . ش . لورانس - كاتب انجليزى توفى قبل الحرب العالمية الثانية يرجع احتلال المجتمع إلى عدم التوازن بين الرجل المتحضر والمرأة .

٢١١ ، ت . س . البوت - شاعر وكاتب انجليزى معاصر يرجع اختلال المجتمع إلى سيطرة الآلة ، والإنتاج بالآلة وينادى ببقائها .

٢١٢ ، ألنوس هكسلى - كاتب انجليزى معاصر يحدو من أسره هزيفه فى العلم يرى أن التقدم العلمى سرودى بمقتبل الإنسان وعمله فى النهاية إلى شئ جامد متشابه كالسلح التى ينتجها .

هؤلاء الكتاب استحدثوا مذهباً جديداً في الفن بل مذاهب اتخذت جميعاً — هروباً من الواقع — منطقة اللاوعي في الإنسان وعكفت على الجانب النفسي فيه بعد أن انتشر مذهب « فرويد » واشتهر التحليل النفسي وعرف (اللاوعي) .

وفي الاستطاعة القول بأن معظم المدارس الفنية الحديثة تصدر عن هذا السبع . ففي إنجلترا عرفت « فرجينيا وولف » و « جيمس جويس » وفي أمريكا « ميلر » و « جنجداي » وغيرهما وأصبح من المؤلف ظهور أدب غير مفهوم بحاجة أنه يبحث في أعماق النفس البشرية وبعث المذهب الرمزي الذي انتهجه « بو » (١) الأمريكي وورثة « بودلير » (٢) وآل إلى « بول فاليري » (٣) الفرنسي .

وأصبح مألوفاً أن هذا الأدب يعيش في عزلة عن معترك الحياة اليومية وتقلبات المجتمع وآلامه . ومن هنا ابتدأ النزاع القديم بين التزام الفنان واعتزاله يعود إلى الميدان . أيجب على الفنان أن يشارك في نقد مجتمعه ؟ أيجب أن يشير إلى الاتجاهات السليمة ويحذرها ؟ أيجب أن ينقد الأوضاع الخاطئة ؟ أم يجب أن يعتزل ويعكف على فنه يجمده ويحسنه ؟ وأعيد من جديد النقاش حول مسألة الفن من أجل الفن أو الفن من أجل المجتمع ، وانقسم الفنانون تبعاً لهذا - قسمين . الأول منهما يرى الاعتزال والآخر يرى الخوض في المعارك السياسية والاجتماعية ومناقشة واقع الحياة .

ومهما يكن من أمر هذين الفريقين فن المرجح أن عصرنا هذا عصر قلق يقف عند مفترق الطرق . وأصبح من المعتقد أن النظام القائم في أوروبا لا يبقى

(١) أوجار آل بو - كاتب أمريكي عاش في نهاية القرن الثامن عشر وبداية التاسع عشر وكان يسكن في مرميا في كتاباته .

(٢) هارل بودلير - شاعر فرنسي عاش في القرن التاسع عشر وكان قاصراً تنوير كتاباته حول المعرفة الحسية ونمحي في كتاباته نمحي ومزج .

(٣) بول فاليري - كاتب فرنسي تولى أثناء الحرب العالمية الأخيرة مهنة دبلوماسي وكان يعتمد في تأليفه الفكرة على الموسيقى القلبية .

بأغراض الإنسان في الاستقرار والهدوء الروحي ، ولذلك فقد حاول كل من تصدى لبقده أن يقدم حولا . فنادى (لورانس) بالرجوع إلى الفطرة وحياة أشبه بحياة القبائل في أفريقيا وأستراليا ولكنه لم يلبث أن تراجع عن هذه الدعوة في أخريات أيامه ولم يقدم جديداً ، أما (اليوت) فنادى بمذهب يوشك أن يكون كالنصوف حيث يطبع المجتمع كله بطابع كنسي مترهب . إذ أصبح في اعتقاده أن الاستقرار في ظل وسائل المعيشة العصرية خرافة .

على أن الاتجاه لدى بعض كتاب الغرب لم يكن قاصراً على إنجلترا أو فرنسا أو أمريكا ، بل ظهر فلاسفة في العشرين سنة الماضية في ألمانيا (كشينجر) يبشرون أو يندرون بانتهاء الحضارة الغربية ووشوك قيام حضارة عظيمة لدى الشرق لا شيء إلا لأن القيم الروحية والأخلاقية والفطرية لم تزل باقية في بلدان هذا الشرق وفي نفس الوقت يقول إنه يجب على المجتمع (الأبيض) أن يهيم نفسه لفاضلة هذا المارد (الملون) الذي ينبعث من الشرق ، والخطوة الأولى في هذا السبيل هي الكراهية . وعلى هذه الفلسفة المقيتة يقع جزء كبير من التبعة في سقوط ألمانيا وإيطاليا السقطنة المعروفة .

وفي ظل هذه الأفكار المتشائمة والمريضة قام فريق من الكتاب الجدد ينفذون عنهم آثار المتاعب والكوارث التي صبغت نصف القرن ليؤسسوا لأنفسهم مذهباً جديداً على المذهب القديم المعروف بالمذهب الواقعي ، هذا هو الواقعية الحديثة .

ولقد كانت — حقا — أشبه بإفاقة الجريح بعد المعركة ؛ يجب أن يعاد النظر من جديد إلى الحياة بمنظار موضوعي سليم ، ما هي الأخطاء التي ارتكبت وأدت إلى هذه الحروب المدمرة وأشاعت القلق والخوف في النفوس ؟

وعلى ذلك فكان أول أساس تتحذه هذه المدرسة هو الإيمان بالإنسانية أو بوجود العنصر الصالح في الإنسان لمواصلة الحياة وبناء حضارة أعظم ، ومن هنا يظهر الجانب الإشرافي لهذا التفكير . وعكف أعلام هذه المدرسة — التي يمثلها

الآن «سيلوني»^(١)، الإيطالي و«ريتشارد رايت»^(٢)، الأمريكي وغيرهما — على دراسة الحياة كما هي وأصبح الفن لا يتحد مداره حول الخرافة أو اللبائفة بل الحقيقة البسيطة التي تحدث كل يوم في النفوس والبيوت والمصانع ودراسها دراسة دقيقة.

وحيث أصبح مجتمعنا — في جميع بقاع الأرض — يقوم على العلم وحده ، وحيث اتخذ العلم صفته المحتومة القاهرة وهي الحقيقة الموضوعية المبنية على أساس تجريبي ، صار المذهب الواقعي أيضا لا يعنى إلا بالتجربة . ومن هنا يفرق تماما عن سائر المذاهب الفنية الأخرى حيث يكون المجال كبيرا للتخيل والتوليف ، ولم تعد للفن صفته الرخيصة وهي التسلية أو المنفعة ، بل أصبح ركنا ضخما للشاركة في بناء الحضارة الاقتصادية والاجتماعية والروحية بعد أن شاع أنه لا يمكن التفرقة بين هذه العناصر الثلاثة .

وإذ كان مجال هذا الفن هو دراسة (المجتمع) كما هو في الواقع فقد اتخذ مادته من القوم الذين يمثلون غالبية المجتمع وجعل يستكشف فيهم مواطن القوة والضعف . ولكن المذهب الواقعي أيضا لا يقتصر في تساوله الفن على فئة دون أخرى في المجتمع بل على كل الفئات باعتبارها جميعا مكونة له .

وعلى ذلك فقد أعلن في صراحة أنه لا يفهم معنى لهذا الفن الذي لا ينتسب إلى واقع الحياة بحجة أنه يؤدي لوجهه الفن وحده . وتراجعت تلك الشذمة التي ظهرت من خلعاء فرنسا في نهاية القرن الماضي وبداية هذا القرن واحتضنها أوسكار وايلد الإنجليزي وظلت ممتدة حتى وقتنا هذا ، وأصبح من المعترف به — على الرغم من صرخات واهنة تطلق هنا وهناك — أن الفن لا بد من اتصاله بواقع الحياة ومشاكلها .

ولكن هذا المذهب وجد من يحاربه في أوروبا وأمريكا بل وفي كل مكان

[١] إيزابو سيلوني - كاتب إيطالي معاصر من إيطاليا أيام حكم موسوليني وظل يستل بين فرنسا وسويسرا وغيرها من دول أوروبا إلى أن دمج أحيرا إلى إيطاليا .

[٢] ريتشارد رايت - كاتب أمريكي زنجي معاصر يأخذ من الواقع مباشرة ويعالج مشكله لزوج في أمريكا في كتاباته .

الآن ، إذ ظهر في فرنسا اتجاه جديد : مثله (جان بول سارتر^(١)) (وألبير كاموا^(٢)) وغيرهما يروجون للعودة إلى رومانتيكية جديدة تختلف عن الرومانتيكية القديمة بأنها بشعة سوداء متشائمة ، وهب سارتر يدافع عن الأسلوب الرومانتي حيث العاطفة العذبة والمبالغة هما أساس العمل الفني . ومع أنه إلى ما قبل الحرب العالمية الثانية كان الدفاع عن الرومانتيكية يبدو شيئاً مضحكاً باعثاً على السخرية فقد وجد سارتر في ضجيج القلق النفسي الذي يحدث في فرنسا الآن مجالاً كبيراً لصراخه الرومانتي.

وإذا نظرنا إلى أدبنا المصري المعاصر على ضوء هذا الكلام لوجدنا أننا لم نتخط في سلك مدرسة أدبية بعينها من هذه المدارس وإن كان الطابع الغالب علينا هو رومانتيكية هادئة كما يبدو في أدب توفيق الحكيم القديم وبعض أعمال طه حسين والمازني . ولكن حجبتنا في ذلك هي أننا في بداية تشكيل فن جديد نقيم على تراثنا العربي الضخم ومتكئين على ما وصل إليه الغرب ، ونتيجة لهذا ظهر أدب القصة والمسرحية عندنا وأخذ الشعر العربي يتشكل أشكالاً جديدة ولم يصبح التزام قافية واحدة في القصيدة قدراً محتوماً على الشاعر .

وفي ظل هذه المدرسة الواقعية يستطيع الأدب المصري المعاصر أن يكون وثيق الصلة بمجتمعته مبتعداً عن الرخاوة الشائعة في مجلاتنا المصورة وغير المصورة وتلك المخازي التي توضع لجذب جمهور خال من الثقافة والتقدير السليم . وليس شك أن القصص التي تنشر في هذه المجلات والصحف لا تمت إلى الفن الحقيقي بصلة . ولا يشك أحد أيضاً في أن دراسة المذاهب الأدبية المختلفة من خلال النصوص ذاتها عمل ضروري واجب تقوم عليه النهضة الأدبية الحالية سواء في الجامعة الأزهرية أو الجامعات الأخرى .

[١] جان بول سارتر - كاتب فرنسي معاصر ومؤسس المذهب الوجودي الصانع في فرنسا الآن

[٢] ألبير كاموا - كاتب فرنسي معاصر من الجزائر ينحى نحو المذهب الوجودي في آثاره الفنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الكلمة التي ألقاها

مفضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير الشيخ عبد الرحمن من

وكيل الجامع الأزهر وإمام شرف صاحب الجلالة الملك

في ليلة « نصف شعبان المبارك » من سنة ١٣٧٠ هجرية

في مسجد « محمد علي » بالقلعة

نحمدك اللهم حمداً يديم علينا شكرك ، ويفتح لنا أبواب رحمتك ، يا ذا الجلال والإكرام ، يا ذا الطول ، لا إله إلا أنت ظهر اللاجئين ، وجار المستجيرين ، ومأمن الخائفين . ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيء لنا من أمرنا رشداً . ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا ، وتوفنا مع الأبرار . وصل اللهم على سيدنا محمد عبدك ورسولك الذي أرسلته للناس هدى ورحمة ومرشداً وداعياً إلى صراطك المستقيم . أما بعد : فهذه ليلة من الليالي المباركة ، التي يتجلى الله فيها على عباده المخلصين ، فيعطى من يشاء ويغفر لمن يشاء ويرحم من يشاء بيده الخير ، والله ذو الفضل العظيم . وقد ورد في السنة أن النبي صلى الله عليه وسلم أحيا هذه الليلة بالصلاة والدعاء والاستغفار للؤمنين والشهداء ، وبأنها ليلة مباركة ، يغفبى للؤمن أن يلتجئ فيها إلى الله تعالى عسى أن ينال من الصفحات الإلهية ما لا يشق بعده أبداً ، فقد روى البيهقي عن عائشة رضي الله عنها قالت : قام رسول الله صلى الله عليه وسلم من الليل فصلى فأطال السجود حتى ظننت أنه قد قبض ، فلما رأيت ذلك قمت حتى حركت إبهامي فتحرك ، فرجعت فسمعت يقول في سجوده : أعوذ بعفوك من عقابك ، وأعوذ برضاك من سخطك ، وأعوذ بك منك إليك ، لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك . ولما فرغ من صلاته قال لها : هذه ليلة النصف من شعبان ، إن الله عز وجل يطلع على عباده في ليلة النصف من شعبان فيغفر للمستغفرين ، ويرحم المسترحمين ، ويؤخر أهل الحقد كما هم .

وقالت: إنه خرج في هذه الليلة - أى ليلة النصف من شعبان - إلى بقيع الفرقد ، فأدركته فوجدته يستغفر للمؤمنين والمؤمنات والشهداء .

وقد ورد في فضل هذه الليلة عدة أحاديث رويت عن النبي صلى الله عليه وسلم خرجاً بها من المحدثين الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه وابن حبان والطبراني والبيهقي عن جمع من الصحابة منهم : عائشة وأبو بكر ومعاذ وأبو موسى الأشعري وعبد الله بن عمرو وعثمان بن أبي العاص وأبو ثعلبة الخشني وهي في مجموعها تدل على أن الله سبحانه وتعالى يتجلى على عباده في هذه الليلة المباركة ، ويتولاهم بالمغفرة والرحمة وإجابة الدعاء (١) .

ولكن ناساً ذكروا رسول الله صلى الله عليه وسلم بأوصافهم وبين أنهم ليسوا أهلاً للمغفرة وأنهم مبعدون من رحمة الله في هذه الليلة إلا إذا طهروا نفوسهم من الآثام وكبائر الذنوب التي وصفهم بها .

فن هؤلاء أهل الشحناء ، وقد ورد ذكرهم في رواية أبي بكر رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ينزل الله إلى سماء الدنيا ليلة النصف من شعبان فيغفر لكل شيء إلا لرجل مشرك أو رجل في قلبه شحناء ، والشحناء هي العداوة والخصومة ، والمشاكسة وهي وصف لو وجد بين أفراد الأسرة لانتحلت عصبيتها ، ولو سرى بين الجماعات في أمة لانتحل كياناتها وتفرقت شملها ، ولو وجد بين أمتين فقد يفتنى بينهما إلى الحرب ؛ فأهل الشحناء ليسوا أهلاً لأن يتولاهم برحمته ومغفرته . ومنهم الحاقدون وهم الذين انطوت نفوسهم على الغل والعداوة والبغضاء للفرد أو للجماعة ، وقد ورد ذكر الحاقدين في رواية عائشة - السابقة - رضى الله عنها أن الله يغفر للمستغفرين ويرحم المسترحمين ويؤخر أهل الحقد كما هم .

[١] راجع بما ذكر باب التزبيب في صوم شعبان ٨٠ هـ ٨١ من الجزء الثاني من كتاب التزبيب والتزبيب للمعتمد المتوفى والجلد الثاني في نصف شعبان من كتاب لطائف المعارف لابن رجب ص ١٤٤ والجزء السادس من كتاب زاد المسلم ص ٥٦٨ و ٥٧١ ورسالة هداية الرحمن .

والخائف وإن لم يظهر يظهر المشاكس إلا أن ما اطوت عليه نفسه يحمله على الكيد وخلق الخصومات للحقود عليه والسعاية بينه وبين الناس بالعداوة والبغضاء ، وقد وصف الله المؤمنين بقوله : « ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم » .

فالخفد صفة تحريم العبد مغفرة مولاه في مواسم الرحمة والاستغفار .

ومنهم قاتلوا النفس التي حرّمها الله ، وقد ورد ذكرهم في رواية عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يطلع الله عز وجل إلى خلقه ليلة النصف من شعبان فيغفر لعباده إلا اثنين : مشاحن ، وقاتل نفس . ويكفي في وصف قاتل النفس بغير حق ما توعدّه الله في الكتاب العزيز من العذاب واللعنة والغضب ، ففي سورة النساء : ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيماً ، وفي سورة الفرقان : والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاماً ، يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهاناً ، إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات ، وكان الله خفواً رحيماً ، .

هذه بعض أمثلة مما جاء في أحاديث فضائل هذه الليلة ، وأنه مانع من المغفرة وقبول الدعاء .

والأحاديث لم تستوعب كل الذنوب التي تبعد بين العبد وبين الله تعالى في هذه الليلة ، وإنما أتت بأمثلة ألفصد منها التنبية إلى أن كل من كان متلبساً بالمعصية وكبائر الذنوب ، فهو مبعد ومطروود من رحمة الله ومغفرته ، فقطاع الطرق الذين يهددون الأمن والنظام ، والذين يسعون في الأرض فساداً ، والذين يأكلون أموال الناس بالباطل ، والغشاشون والخائثون وأرباب الأهواء والمتناقضون وشاهدوا

الزور وأرباب الفتن ، كل أولئك وغيرهم من أصحاب الذنوب والمعاصي الذين ورد ذكرهم في الكتاب أو في السنة ليسوا أهلاً لأن يشملهم الله برحمته ومغفرته حتى يتوبوا ويقلموا عن الذنوب ويطهروا أنفسهم من الآثام ، وإلا فلا فائدة في الدعاء والاستغفار ، وكما يقول ابن الجوزي : الثوب غير التظيف أولى به الصابون من البخور والتعطير .

فينبغي للمؤمنين أن يسارعوا بالتوبة وتطهير النفوس من الآثام والأوزار ، وأن يفرغوا في هذه الليلة لذكر الله والاتجاه إليه لغفران الذنوب وستر العيوب وتفريج الكروب ، فإن الله فيها نفحات عسى أن تصيهم نفحة منها ، يسمعون بها في هذه الدنيا ويؤمنون بعدها شر العذاب في الآخرة ، فقد^(١) روى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم : « اطلبوا الخير دهركم وتعرضوا لنفحات ربكم فإن الله نفحات من رحمته يصيب بها من يشاء من عباده وسلوا الله أن يستر عوراتكم ويؤمن روعاتكم » . وعن^(٢) محمد بن مسلمة عن النبي صلى الله عليه وسلم : « إن الله في أيام الدهر نفحات فتعرضوا لها فقلل أحدكم أن تصيبه نفحة فلا يشقى بعدها أبدا » .

كان الناس ولا يزالون منذ عصر التابعين^(٣) يحيون هذه الليلة بالذكر والدعاء والاستغفار جماعة في المساجد ، وكان التابعون من علماء الشام نخلة بن معدان الحنصلي ، ومكحول الدمشقي ، وبعان بن عامر الحنصلي ، وغيرهم من أعلام العلماء لا يرون مانعا من إحياء هذه الليلة وتعظيمها جماعة ، ولهذا كانوا يلبسون فيها أحسن ثيابهم ويتبخرون ويكتحلون ويقومون في المسجد ليلتهم ويجهرون فيها

[١] أخرجه ابن أبي الدنيا والطبراني وغيرهما مرفوعا — لطائف المعارف ص ٦ .

[٢] أخرجه الطبراني ص ٧ لطائف .

[٣] مخالف في جواز إحيائها أكثر علماء الحجاز ص ١٤٤ لطائف المعارف ، والصحيح ما ذكرناه .

بالدعاء والاستغفار ، ووافقهم على إحيائها إسحاق بن إبراهيم الحنظلي ، المعروف بابن راهويه ، وهو من أشهر أئمة الحديث في القرن الثالث ، قال عنه الإمام أحمد : إنه من أئمة المسلمين عندنا ، ولا أعلم له نظيراً .

وقال الأوزاعي إمام أهل الشام : إنه يكره الاجتماع فيها في المساجد للصلاة والقصص والدعاء ، وإنما يصلي الإنسان فيها مفرداً خاصة نفسه .

وروى ^(١) عن عمر بن عبد العزيز أنه كتب إلى عامله بالبصرة : عليك بأربع ليال من السنة ، فإن الله يُفرغ فيهن الرحمة إفراغاً : أول ليلة من رجب ، وليلة النصف من شعبان ، وليلة العطر ، وليلة الأضحى .

وقال الشافعي رضي الله عنه : بلغنا أن الدعاء يستجاب في خمس ليال : ليلة الجمعة ، والعيدين ، وأول رجب ، ونصف شعبان ، قال : واستحب كل ما حكيت في هذه الليالي .

والذي يترجح في هذه المسألة جواز اجتماع الناس للدعاء والاستغفار في هذه الليلة كما هو حاصل ، ولا كراهة في ذلك . ففي صحيح مسلم ^(٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا يقعد قوم يذكرون الله عز وجل إلا حفتهم الملائكة ، وغشيتهم الرحمة ، ونزلت عليهم السكينة ، وذكرهم الله فيمن عنده » . وظاهر أن الدعاء والاستغفار نوع من الذكر ، أما الصلاة فتكون بلا جماعة لأنها صلاة نافلة ^(٣) ولم يثبت في السنة أنها صليت بجماعة .

[١] يعضده في الليلة ما روى عن معاذ وعبد بن الصامت عن ١٠٠ ، ١٠١ جزء ٢ الترغيب والترهيب .

[٢] كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار جزء ١٧ صحيح مسلم بشرح النووي .

[٣] صلاة النافلة جماعة جائز كما في كتاب الصلاة من صحيح مسلم ، ولكن في خصوص إحيائها هذه الليلة كرهها العلماء ونهي أحيائها مفرداً ولم يثبت أنه صلاة جماعة .

أما ما ذكره النزالي في الإحياء من أن السلف كانوا يجتمعون في هذه الليلة ويصلون جماعة أو فرادى مائة ركعة كل ركعتين بتسليمة يقرأ في كل ركعة الفاتحة وقل هو الله أحد إحدى عشرة مرة ، ويسمون بها صلاة الخير ، فلم يثبت في السنة ، وكل ما روى فيها من الأحاديث رده العلماء .

وبما جرى عليه العمل في مصر أن الناس عقب الصلاة يدعون بالدعاء المشهور وفيه : « إن كنت كنتجى عندك في أم الكتاب محروما مقترا على رزقي ، فاحرماني ويسر رزقي وأثبتني عندك سعيدا موقفا للخير فإنك قلت في كتابك الذي أنزلت : « يحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب » .

هذا الدعاء ^(١) مروى عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه لا في خصوص هذه الليلة ، وقال : مادعا عبد قط بهذه الدعوات إلا وسع الله له في معيشته ، وابن مسعود لا يقول هذا إلا إذا كان قد تلقاه عن النبي صلى الله عليه وسلم ، فهو دعاء مأثور يصح الدعاء به في هذه الليلة وفي غيرها .

وقد اشتمل هذا الدعاء على أمر كان موضع نقاش بين العلماء ، وهو أن ما كتب على الإنسان من الشقاوة أو السعادة والآجل والرزق وغير ذلك يبقى بدون تغيير أو أن الله تعالى يحو منه ما يشاء فيطيل العمر ويسر الرزق ، ويحو الشقاوة ويثبت السعادة .

فريق يرى أن ما كتب على الإنسان لا يتغير ، وفريق آخر يرى أن الله يحو ما يشاء ويثبت ما يشاء ، وروى عن ابن عباس رضي الله عنهما أن الله يحو أمور عباده ويثبت ، إلا السعادة والشقاوة والآجال فإنه لا يحو فيها .

[١] واجع زاد المسلم وهداية الرحمن من المل السابق ذكره .

والذى يظهر من أحكام الشريعة في مجموعها أن ما كتب على الإنسان من خير أو شر وأجل أو غير ذلك يبقى بدون تغيير، إلا إذا غيره الله سبحانه وتعالى، ففي الكتاب العزيز: *يحيو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب*، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يدعو بطول العمر وكثرة الرزق وغير ذلك من أمور الدنيا والآخرة.

أخرج^(١) البخارى في الأدب المفرد عن أنس رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم دعا له بكثرة المال والولد وطول العمر فاستجاب الله دعاءه، وقال أنس: *فواته إن مالى لكثير وإن ولدى وولد ولدى ليتعادون على نحو المائة اليوم*، وقد أطل الله حياته، فقد كان في الهجرة ابن تسع سنين ومات سنة ثلاث وتسعين من الهجرة، وقد كان الصحابة والتابعون يدعون بالسعادة ومحو الشقاوة وتيسير الرزق وغير ذلك من أمور الدنيا والآخرة.

والامم التى تعنى بالتربية الرياضية وتتقى الأمراض والأوبئة بالطرق العلمية السليمة، وتعيش في هتامة من العيش، تطول حياتها وحياة أفرادها، ويبارك الله لهم في آجالهم. والامم الجاهلة التى ترزح تحت أنقال المرض والأوبئة والجوع والفقر تموت بسرعة وتقصّر آجال أفرادها.

هذه ستة الله في خلقه، والسعيد من وفقه الله.

هذا وإنا نرجو الله سبحانه وتعالى العلى القدير أن يطيل في حياة حضرة صاحب الجلالة الملك، وأن يجعلها حياة طيبة مباركة يعمل فيها خير مصر وخير العرب والإسلام، وأن يحفه الله بعنايته وتوفيقه ورشده وهديه، كما نرجوه تعالى أن يوفق حكومة جلالاته إلى خير العمل، وما يرجى لمصر من عز وسؤدد.

والسلام عليكم ورحمة الله

[١] أول باب دعوة النبي صلى الله عليه وسلم لحاكمه بطول العمر = ٩١ من فتح الباري.

أثر الصيام في تقويم الشخصية الانسانية

كان الناس إلى زمان قريب يحسبون أن الصيام من الشئون الخاصة بالأديان ، ولكن لم يكند يقتصر تاريخ الطب بين الناس حتى علموا أن الصيام اعتبر في كثير من الأمراض من مقومات الصحة الجثمانية ، فقد علموا أنه عُمد من عهد إمبراطور ، عاملاً قوياً من العوامل المنقية للجسم من سموم الأغذية .

نعم سموم الأغذية ، فإن المواد الحيوانية التي تتناولها بشرها ، تحتوي على مواد دهنية ، ومواد رباعية العناصر ، لا تطبق البذية البشرية أن تحتزن مقداراً يزيد عن الحاجة منها ، وهذه الحاجة الضئيلة منها يمكن الحصول عليها من النباتات أتقى وأصح مما يمكن الحصول عليها من المواد الحيوانية .

ولا يوجد من ينكر أن البوذيين في الهند والصين ، وهم يعدون بمئات الملايين لا يأكلون لحوم الحيوانات تدنياً ، وهم على أكمل حال من الصحة ، بل يوجد غيرهم في أوروبا ممن لا يؤمنون بالشرائع الدينية لا يأكلون المواد الحيوانية بتاتاً .

لسنا هنا بصدد تفضيل الأغذية النباتية على الأغذية الحيوانية ، ولكننا بسبيل إثبات أن الصوم عمل ضروري طبيًا ، لإيجاد الاتزان الطبيعي بين مواد الأغذية البشرية ، إذا حدث ما أدخل بذلك الاتزان ، أو اقتضت الدورة الحيوية للإنسان إحداث عمل مباشر لإعادة نظام التغذية ، تفادياً مما يحدث بسبب اختلالها من اختلال الوظائف الهضمية ، واختلال هذه الوظائف في العالم الإنساني آثار بعيدة الأثر على حياته المدنية .

هذا التأثير الغذائي خاص بالتنوع البشري ، لأنه الكائن الوحيد المطلق الحرية في شئون تغذيته دون سائر الكائنات ، فإن لكل منها نوعاً من الأغذية صيغت على موجه أعضاؤها الهضمية ، فكل نوع منها خصت به أنواع خاصة من المواد

لا يتعداها في تغذيته ؛ وأطلقت الحرية للإنسان فهو يتناول منها كل ما يقع تحت يده ، وكثيراً ما يصاب بسبب هذه الحرية بآفات مرضية تكون في أول أمرها وبالأعلى عليه ، ثم يعتادها فتصير مألوقة له مع بقاء أضرارها حادثة به من ضروب شتى ، حتى يقنعه إليها ويحاول التخلص منها ، وقد تمر الأجيال فلا يستطيع أن يتحول عنها . فهو من هذه الناحية معرض لانحرافات بعيدة . وقد كشف العلم هذه الانحرافات كلها ، وبحسبها بحثاً عميقاً حتى لم يبق محل للزبد .

كل ذلك لم يثن الإنسان عن المضي فيما هو عليه ، متجاهلاً أحكام العلم ، شأنه في جميع محاولاته المادية والادبية ، حتى إنه ليجمع الذين يعلمون والذين لا يعلمون على مائدة واحدة ، فلا تستطيع أن تفرق بين الفريقين ، لتساويهما في عدم المبالاة بالصنوف التي يتناولونها ، وهذا شأن الإنسان ، وأشد أدوائه تأثيراً عليه .

نعم ، إن العلم في اقتباسه الصوم من الدين لم يتقيد بمواعيده ، ولا بمدته ، ولا بأسلوبه ، فلم يأخذ منه إلا المبدأ : وهو أنه لكل ما يلقي في المعدة من المواد تأثيراً على الجسم والعقل والشعور معا ، ومن هنا يصح أن يكون ذا تأثير بالغ في تخفيف الأعراض التي تنتاب الأعضاء الباطنة والظاهرة ، وتحويل محمود في حالة المريض يتأذى منه إلى التخلص مما أصابه من الآلام والانحرافات .

وحصة الروح من هذا التحويل لا تقل قيمة عن حصة الجسم ، فإنه يخلو الطريق أمامها لإيصال النفس الانسانية إلى مستوى من الشعور أرفع من مستواها وهي متورطة فيما هي فيه من الشؤون الحيوية .

وقد استفاد الطب من هذه الناحية ما لم يستفده من ناحية العلاج بالعقاقير ، فجعل مناطق علاجه للأمراض تحير المواد الغذائية التي يجب أن يعول عليها المريض في التغذية . وقد أنشئت في عواصم أوروبا مصحات هي عبارة عن قصور نفقة في وسط حدائق غناء ، ومياه جارية ، يقصدها المرضى من أرجاء الأرض ، ويمكنون بها أياماً أو أسابيع يخرجون بعدها وقد تملأوا صحة وقوة ، لا يشكون شيئاً مما كان يلزمهم ويؤلمهم ، ولم يتعاطوا في مكائحه عقاراً ، ولم يشعروا بأنهم تحت سلطان

نظام صحي دقيق ، فلا يمر عليهم أكثر من أسبوعين حتى يروا أنهم قد انتقلوا من حال إلى حال لم يكونوا يحملون بها من قبل . كل هذا يبركه اختيار الأطعمة ، والاقتصاد على غير الضرر منها .

وقد شرع الله الإسلام خاتماً للاديان ، لأنه جمع كل ما كان لخير الإنسانية منها وجعل الصيام ركناً من أركانه ، وجعل عدة أيامه ما يتفق أن يكون عليه رمضان بين ٢٩ و ٣٠ يوماً ، مختاراً له نظام الامتناع عن تناول شيء من الطعام أو الشراب ما بين أذان الفجر إلى أذان المغرب ، وهي مدة تتراوح بين تسعة وعشرين وبين ثلاثين يوماً . وقد أثر الله أن يجعله انقطاعاً عن التقدي نصف ساعات اليوم دون أن يقصر ما يؤكل على صنوف من الأطعمة دون صنوف . وهذا فيما يظهر خير نوعيه ، لأن ما يحرم منه الصائم بالصوم يعوضه أضعافاً مضاعفة في شهور الإفطار فيبضر نفسه ضرراً بليغاً . لذلك تركه الإسلام يختار لنفسه القدر الذي يكفيه من الأطعمة مع النصح له بالتخفف من الأغذية هرباً من سوء مغبة الإفراط منها على الصحة .

ونزيد على ذلك ، أن لحلاء المعدة من العمل ساعات متوالية في حالة راحة تامة ، تأثيراً في إعادة قواها إليها لا يمكن الحصول عليه بأية وسيلة أخرى . مثلاً في ذلك مثل العامل المتعب الضعيف ، يستحيل أن تعود إليه قواه وهو مستمر في العمل مهما كان ما يعمله هيناً ؛ ولكن بالانقطاع عن العمل بناتاً يعود إليه كل ما فقدته من قواه ، فإذا عاد للعمل عاد إليه وهو حاصل على قواه كاملة ؛ و فرق بعيد بين الحالتين في حفظ هذا الجنان بعيداً عن الوهن أطول مدة ممكنة .

فالصيام في الإسلام إذن يكون له أثر بعيد جداً في حفظ صحة أهله ، وسلامة جسامهم من العاهات ، ولكن أكثرهم لا يأبهون كثيراً بالمستقبل ، ولا يحسبون حساباً للشيخوخة ، ولا يعرفون للقوى حدوداً ، فيعيشون كما يجيء لا كما يجب ؟

محمد فريد وجدي

النفسي

سورة فاتحة الكتاب

محاضرة صاحب النفوس الأستاذ الجليل الشيخ هاشم محسن

مدرسة جامعة كبار السن.

قال الله تعالى :

« الحمد لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين ، إياك نعبد وإياك نستعين ، اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين » .

ولأنما سميت بذلك الاسم . لأنها قد افتتح بها كتاب الله المجيد ، وافتتحت الفاتحة بالحمد لله رب العالمين ، لأنه تعالى أول كل شيء وآخر كل شيء ، هو وحده الحقيق بالحمد ، ولقد كان مقتضى الواقع أن يحيا بصيغة الأمر فيقال : احمدا الله . إذ أن العباد هم المنعم عليهم فهم المطالبون بالحمد . وهو تعالى مفيض النعم ومسبها فله تعالى الحمد . ولكن الآية قد سبقت بصيغة الخبر ، إذ أن الأمر مقتضاه تكليف ، وللنفوس عند مبادأة بالتكليف جمحة ونفرة ، وإن عاودها بعدها الانقياد والطاعة ، ولكنه تعالى - سمى حكته - وهو يبادئهم بشرعة جديدة ، وتكاليف لم يهدوها ، قد أراد أن يؤنس نفوسهم ، ويؤلف قلوبهم بالترفق في الخطاب ، حتى يديموا الإصغاء لما سيلقيه عليهم ، ولأنما بدأ كتابه العزيز بتلك الجملة ليكون في ذلك تعليم لنا أن نبدأ كتبنا وخطبنا بالحمد والثناء عليه تعالى ، حتى نبدأ ونحن في صلة بالله تكشف عن النفوس أغشيتها ، وتجلبو عن القلوب أصداءها ، مما يلعب به للفكر وجه الحق ، ويتبدى له وجه الصواب ، وهو من ناحية ثانية تنبيه لنا إلى ما يجب علينا لله تعالى ، وهو سبحانه المتعهد لنا في جميع تطوراتنا منذ تكويننا من الطين حتى استوينا عقلاء مفكرين ، تحفنا في كل تلك المراحل رحمته ، وتظللنا عنايته . وإلى ذلك فهو تصوير لتطورات الفطر السليمة ، إذ تعرف ربها ، وإذ تنقل من مرتبة

إلى مرتبة ، حتى تصل إلى مرتبة الإحسان فتقوم المراقبة ويقوى الاتصال ، وإن أول تلك المراحل هو حمد الله حين نلتفت إلى وافر نعمته ، ومحيط رحمته ، وملكوته لأولى العبد وآخرته ، ثم تنتقل إلى مرحلة العبادة والتفديس ، تفرد به ، وتختصه دون سواه ، ثم تنتقل إلى أسنى العبادات وهو الدعاء وسؤاله تعالى ما أحلمها فيه قربها من ربها ، وأن يسر لها سلوك سبيل المنعم عليهم من النيين والصديقين والشهداء والصالحين ، لتنال جزاءهم وتحظى بمرافقتهم .

ولما كان الشكر هو ثناء من المنعم عليه على المنعم ، يعلن به عن انفعال نفسه وتأثرها بالنعمة الواصلة إليه بالفعل . ولما كان المدح ثناء على الممدوح ، وتقديرا لما قام به من جميل خلق أو خلق مما لا يصل منه أثر للمدح ، كجمال في وجهه أو كسجاعة في قلبه ، أو مما يصل أثره إلى غير المدح ، كالبرودة والكرم . لما كان ذلك هو الشكر ، وذاك هو المدح ، وكان الحمد في مقابلتهما هو ثناء يعلن به الحامد عن تقديره لذات المحمود ، لكونها مرد كل خير ، ومصدر كل نعمة ، من كبيرها وصغيرها ، من أصولها وفروعها ، من عامها وخاصها ، من واصل إلى الخامد بالفعل أو غير الواصل إليه ، لما كان هذا هو الحمد ، وذاك هو المدح ، وذلك هو الشكر ، فقد أصبح واضحاً لك ما بينها في الاستعمال من فروق .

فالشكر لما كان في مقابل ما يصل إلى الشاكر من نعمة بالفعل . رأيهم يتجهون به إلى الخالق ، ويتجهون به إلى المخلوق ، فنقول لذى جميل عليك : أشكرك . ونقول أشكر ربى على ما أولاني من نعمة ، والمدح لما كان على ما يقوم بالممدوح نفسه من جمال خلقى ليس له أثر يتعدى ، أو خلقى يتعدى أثره أو لم يتعد ، رأيهم لا يتجهون به إلا إلى المخلوق ، وأما الحمد فلما كان إنما يكون لذات هي مصدر كل خير ، ومبدأ كل نعم ، ما جل منها وما دق ، ما ظهر منها وما بطن ، ما وقع وما لم يقع ، وما من ذات في الوجود ذلك هو شأنها إلا الذات الأقدس ذات الله جلّت ذاته ، وتقدس صفاته ، لما كان كذلك ، رأيهم لا يتجهون بالحمد إلا إلى الله تعالى .

وإذا كان ذلك هو معنى الحمد ، كان أنسب المعاني التي تحمل عليها (أل) في قوله : الحمد لله ، هو كونها للحقيقة ، فيكون المعنى : إن حقيقة الحمد مستحقة لله وحده ، فليس هناك موجود مهما سما في معنويته ، أو مهما علا في ماديته ، أن يكون فيه من الصفات ما يستحق بها أن يتجه له أحد من الناس بالحمد فهو وحده المحمود كما أنه وحده المعبود .

ثم إنك ترى أنه قد أجرى على لفظ الجلالة نعت الربوبية للعالمين (الحمد لله رب العالمين) أى مربيهم ومتعهدهم بالتنمية ، ومتوليهم بحفظه ورعايته ، منذ كانوا تراباً إلى أن بلغوا أشدهم في أبدع صورة وأحسن تقويم ، وإنما أجرى ذلك الوصف على الذات بعد ما ناطها باستحقاق الحمد لحكم بالغة ومعان سامية .

أما أولاً — فلأن طلب الحمد الذى سبق فى صورة الخبر ترفقاً منه تعالى بعباده بإعفائهم من المبادأة بالأمر التكليفى الذى قد ارتكز فى النفوس البشرية استغفاله كما أشرنا لذلك سابقاً أقول :

فلأن طلب الحمد ككل طلب متى كان موجهاً ، كانت القلوب به أشد اقتناعاً فتكون النفوس له أسرع استجابة وأدوم طاعة . فإجراء وصف الربوبية على لفظ الجلالة توجيه لما طلبه تعالى من عباده من أن يحمده .

وأما ثانياً — فلأن تذكيرهم بنعمه وبمعجيب التطور المحوط برعايته وحفظه إثارة لنفوسهم نحو المسارعة إلى الاستجابة والمبادرة فى قوة وإخلاص إلى الطاعة . وأما ثالثاً — فلأن إجراء الوصف على ذلك الوجه جعله كالاستدلال على استحقاقه تعالى وحده للحمد ، وفى ذلك إشعار لعباده بأنهم مكرمون من ربهم . إذ الأمر بغير توجيه فيه إيماء إلى إهمال عقولهم ، وحدثة فى استعبادهم ، وعلى العكس إذا كان الأمر موجهاً وكالمستدل عليه يكون فيه إشعار لهم برعاية ناحية العقل فيهم وفى تلك الرعاية تقدير وتكريم ، ولا شك أن هذه نعمة معنوية كبرى من شأها أن تبعثهم فى قوة إلى الاستكثار من حمده تعالى .

ثم إنك تجد لفظ (رب) قد أضيف إلى صيغة الملتحق بجمع المذكر السالم ، ذلك لأن صيغة جمع المذكر السالم من الصيغ الدالة على القلة وأقل الجمع ثلاثة . ذلك ليشير إلى أن المراد بالعالمين ، إنما هى الأجناس الثلاثة التى يفتنح بها الإنسان فى شئون حياته ، والتى هى ذات مدخلة كبرى فى نمائه وتربيته ، كما أن لها مدخلة قوية فى تفتيحه إلى نعم ربه ، ولقت نظره إلى موجبات حمده ، تلك الأجناس الثلاثة هى عالم الحيوان وعالم النبات وعالم الجماد ، ألا ترى أن له من الحيوان لحومه وألبانه وله منه أصوافه وأوباره ، وله منه أن يحمله ومتاعه إلى بلد لا يستطيع بلوغه بدونه أو يستطيع بالمشقة المعتبرة .

وله من النبات حبه وعصفه ، وخشب الأشجار وثمارها ، وله من الجماد أنهار وبحار وجبال ، ولكل نفع هو فى حاجة أو قل فى ضرورة إليه .

فن الجبال يبنى بيوتاً وفي البحار يجرى سفناً ، ويستخرج للحأ وحلياً ، ومن الأنهار يروى زرعه وحيوانه . وهكذا من كل ما هو من عوامل تربيته ووسائل نمائه ومعدات حياته (الحمد لله رب العالمين)

ثم تراه قد أتبع هذا الوصف وصفاً آخر وهو : الرحمن الرحيم ، وإنما أتبع الوصف السابق (رب العالمين) هذا الوصف (الرحمن الرحيم) لحكمة سامية ذلك أن المربي قد يكون خشناً جباراً معتاً ، وذلك مما يخذش من جيل التربية وينقص فضل التعبد ، ويغير لإشراق النفوس الحاصل عن الشعور بفضل التعبد والتربية فأتبع كونه مريئاً كونه الرحمن الرحيم لينبئ بذلك هذا الاحتمال ، فتبقى للقلوب طمأننتها ، وللنفوس بهجتها ، ويبقى الشعور بفضل الله على عباده غير مخدوش ولا مغموس وتقدير النعمة كاملاً غير منقوص ، مما يعظم في قوة إلى حمد الله .

وقد جمع بين الوصفين (الرحمن الرحيم) مع كونهما معاً من مادة الرحمة ذلك لاختلاف معنيهما ، إذ أن كل صيغة تفيد غير ما تفيد الأخرى ، ففاد صيغة (الرحمن) الإلزام بالفعل ، والإحسان الواقع المتكرر ، وأما صيغة (الرحيم) فإنها تفيد ثبوت الرحمة للموصوف ثبوتاً على سبيل اللزوم والنوام ، فلما كان الاقتصار على الأولى قد تمر معه في النفس خواطر انقطاع الإلزام ، وهو اجس منع الإحسان ، ضم إليه الوصف الثاني ليفيد أن إحسانه الفعلي وإنعامه الحاصل الواقع مصدرهما وصف ذاتي دائم الثبوت لداته تعالى ، فنبع الإحسان الفعلي ومصدر الإلزام الواقع دائم الثبوت له تعالى ، فلن ينقطع عن عباده إنعام ، ولن يفترقه عنهم إحسان وفي ذلك دوام تعلق النفوس بربها ، واستمرار رجائها فيه مما هو باعها على حمده ودافعها إلى تقديسه (الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم) .

ولما بين لهم موجبات حمده ، وأنه الحق وحده بالحد . بأنه المربي الرحيم والمنعم الكريم ، أتبع ذلك بيان أن هيئته فوقهم ، وولايته عليهم ، وسيطرته على شئونهم ليست بما ينتهي بانتهاء تلك الدار ، وينقضي بانقضاء هذه الحياة ، بل هو إلى ذلك ملك اليوم الآخر ، يوم الحساب والجزاء العادل . يوم لا تظلم نفس فيه شيئاً (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) .

وفي ذلك الإتيان استئصال لذلك الخيال الضال ، واجتثاث تلك القضية الباطلة التي كثيراً ما اتخذ منها الشيطان حبالاً لصيد الإنسان وصدته عن سبيل الله ،

وكثيراً ما أثارَت بها النفوس غبار الشكوك والريب في أفق الحق والإيمان لتجيد عن سواء السبيل إلى مهاوى الغواية والضلال : تلك قولهم (أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون أو آباءنا الأولون) وإذن فله الأولى والآخرة ولا مفر منه إلا إليه، وفي هذا دفع لوساوس الشيطان ، وطرد لأحاديث النفس وأمانها بما يحمل النفوس على الرجوع إلى الله وابتغاء مرضاته وإتقاء عذابه بالإخلاص في حمده والمداومة على ذكره والمحافظة على طاعته فيما نهى وأمر .

الآية قد قرئت (ملك ليوم الدين - ومالك يوم الدين) وعلى القراءة الأولى يكون اليوم ملكاً لله بضم الميم وعلى الثانية يكون اليوم ملكاً لله بكسر الميم فعلى القراءة الأولى يكون المعنى ، أن له تعالى على اليوم هيمنة الملوك فكل شأن يجري فيه برسمه ، وكل تصرف فيه يتفد باسمه ، ليس لغيره أمر ولا نهى ، ولا لسواه منع ولا منعه ، ولا تصرف في أى شأن صغر أو كبر ، بل كل ما فيه صاغر أمام عزته خاضع لجلال عظمته .

وعلى القراءة الثانية يكون المعنى : أن كل ما في اليوم ملك له تعالى ينظم جزئياته علماً وتقديراً ، شأن الممالك الفرد في جزئيات مملكة المحدود الذي لا يغيب عنه منه شيء جملة ولا تفضيلاً ، حتى إن ما يجتمع في ذلك اليوم من الأولين والآخرين ، من الإنس والجن ، من الملائكة وغيرهم ، مذنبهم وطائعتهم ، من الناطق والآنم مما يعيى العبادين ، ويعجز الحاصرين ، كل ذلك قد أحاط به علماً جزءاً جزءاً وفرداً فرداً ، وكل ذلك محصور وزنا وعداً (وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين) فيعلم أن ما يحتويه اليوم وإن جل وعظم فهو إلى عظمة مملكة حقير ، وإلى جلالة قليل ، فكان سبحانه بإحاطة علمه بكل ما في اليوم على وجه التفصيل مالمسا ، وكان بشموله لما في اليوم سيطرة واستيلاء مملكة ، وإذن فهو الملك وهو الممالك : ولقد أضاف ملك ومالك على القراءتين إلى يوم الدين . لأنه ليس هناك عبارة تفيد إحاطة مملكة بما في اليوم إلا أن يملك اليوم . إذ أن اليوم ظرف فلا يعقل أن شيئاً له وجود وليس فيه بل كل ماله وجود فهو بالطبيعة حاصل فيه فإذا كان اليوم مملوكاً لله كان كل ما فيه مملكة لله وذلك هو السر في أن يسلك في التعبير مملك الكناية لا الحقيقة .

(الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين) يتبع .

النقد الفني

لمشروع ترتيب القرآن الكريم حسب نزوله

تقــرير

مرفوع إلى إدارة الجامع الأزهر

بقلم

فضيلة الأستاذ الجليل الدكتور محمد عبد الله دراز

عضو جماعة كبار العلماء

بسم الله الرحمن الرحيم :

تلبية لأمر حضرة صاحب العضيلة الأستاذ الجليل مدير الجامع الأزهر والمعاهد الدينية ، تصفحت الرسالة المعنونة : « رتبوا القرآن الكريم كما أنزله الله » بقلم (يوسف راشد بوزارة العدل) ، فوجدت الكاتب يدعو فيها المسلمين إلى ترتيب سور القرآن على حسب نزولها ، ابتداء بسورة العلق ، ثم القلم ، ثم المزمل ، ثم المدثر ، ثم الفاتحة ، وهكذا حتى يختم بسورة النصر .

ويقول الكاتب في توجيه هذا الاقتراح : إن ترتيب القرآن في وضعه الحالي يبلبل الأفكار ، ويضيع الفائدة المطلوبة من نزول القرآن ؛ لأنه يخالف منهج التدرج التشريعي الذي روعي في النزول ، ويفسد نظام التسلسل الطبيعي للفكرة ؛ لأن القاري إذا انتقل من سورة مكية إلى سورة مدنية اصطدم صدمة عنيفة ، وانتقل بدون تمهيد إلى جو غريب عن الجو الذي كان فيه ، وصار كالذي ينتقل من درس نحو ، إلى درس في الحروف الأبجدية ، إلى درس في البلاغة . الخ . الخ .

أول ما نلاحظه أن هذه المقدمات لو صحت كان يجب أن تؤدي إلى نتيجة غير التي يدعو إليها الكاتب . ذلك أنه كان يلزم بمقتضى استدلاله ألا يعاد النظر في ترتيب السور حسب ، بل أن تثر نجوم القرآن كلها ، وترتب ترتيباً جديداً على وفق نزولها : المكي منها قبل المدني ، والمتقدم في كل منهما على المتأخر منه ، حتى يصبح المصحف صورة تاريخية لمراحل نزول القرآن .

فهل عسى أن يكون الكاتب رأى في الدعوة إلى تعديل ترتيب الآي جراءة خطيرة تثير عليه سخط العالم الإسلامي ، فأراد أن يمهّد لها بخطوة أقل خطراً في نظره . فدعا مؤقّتا إلى إعادة تأليف السور على حسب تواريخها ، دون مساس بنظم الآي في سورها . . . حتى إذا تم له ما أراد أتبعه بالضربة الحاسمة التي تأتلف مع مقدماته ؟

إننا لا نريد أن نحاسب المؤلف على أهدافه ومراميه البعيدة ؛ فانه أعلم بما في نفسه . ولكن الذي يعنينا هو أن نسجل هاهنا السبب الذي بنى عليه تورعه عن تغيير نظام الآي ، فقد قال في بيان المانع من ذلك : إن الرسول كان ينزل عليه بعض الآيات فيأمر بإلحاقها بسورة مضت ، حتى إنه كان يلحق بعض آيات مدنية بسور مكية .

هذا تقرير صحيح ، وهو يتضمن اعترافين اثنين ، كل منهما يؤخذ حجة عليه .
 الأول — اعترافه بأن ترتيب الآي قد روعي فيه وضع آخر غير منهج التسلسل التاريخي في النزول . فإذا كان حضرته قد استساع في السورة الواحدة أن تشمل على أجزاء مكية وأجزاء مدنية ، فكيف لا يستسج أن تكون سورتان متجاورتان إحداهما مكية والأخرى مدنية ؛ مع أن الأمر في السور أهون ؛ لأن كل سورة وحدة مستقلة ، ولا شك أن تجاور جسمين غريبين أخف من دخول أعضاء غريبة في جسم واحد ، على أن تجاور المكي والمدني لا مفر منه على اقتراحه هو أيضا ؛ لأنه سيضطر آخر الأمر إلى الانتقال من سورة مكية إلى سورة مدنية ؛ فكيف يفسر الفجوة التي ستحدث بالانتقال من آخر السور المكية إلى أول السور المدنية مع بعد ما بين اللونين في نظره ؟

الاعتراف الآن — في قوله ، إن المانع من تغيير نظام الآيات هو أن تأليفها في سورها كان بتوقيف نبوي (بل نقول بتوقيف آلهي) ولم يكن بمجرد اجتهد من الصحابة ، وإنه لذلك يجب أن تراعى لهذا الترتيب قدسيته ، فلا يلحقه تغيير ولا تبديل . ومقتضى هذا التعليل أن المؤلف لو علم أن ترتيب السور في مواضعها كما هي الآن ترتيب توقيفي أيضا لحافظ عليه ، ولم يجرؤ على طلب تغييره . ألا فليعلم حضرته - إن لم يكن يعلم - أن الأمر كذلك في السور ، وأن الأمة لم تختلف في شأنها اختلافا يعتد به إلا في موضع واحد ، وهو جعل سورة التوبة بعد سورة الانفال بغير بسملة ، فتال بعض العلماء إنه كان باجتهاد من عثمان رضى الله عنه ، حيث لم يصل إليه في شأنه تعليم نبوي : أما سورتان أم سورة واحدة ؟ فوضعهما متجاورتين من غير بسملة احتياطا . ولكن جمهور العلماء على أنه توقيفي كسائر السور ، هذا هو الموضع الوحيد الذي يمكن أن يكون للبحث فيه مجال . على أنه سواء أكان الترتيب في هذا الموضع توقيفيا أم توفيقيا ، فإنه لم يخالف سني ولا شيعي في التزام هذا الوضع الذي كان عليه المصحف من أول يوم .

وخلاصة القول في هذه الملاحظة الإجمالية أن احترام قدسية الوضع المأثور يقضى بالمحافظة على النسق القائم الآن في الآيات والسور جميعا ؛ وأن فكرة ترتيب المصحف على حسب النزول كانت تقضى بتغيير الوضع في السور والآيات جميعا ؛ بل هي في الآيات كانت أشد اقتضاء ، ومع ذلك قد حولت وخضع المؤلف لهذه المخالفة في أقوى مظاهرها . وكان مقتضى المنطق أن يقبل هذه المخالفة في الأنف والأهون .

• • •

ونجى الآن إلى فكرة ترتيب السور على وفق نزولها ، لنناقش الوجوه التي حاول المؤلف أن يبرر بها دعوته إلى هذا التعديل .

— ١ —

يتول حضرته : إن الانتقال من السورة المكية إلى السورة المدنية يصدم القارئ صدمة عنيفة ، ويدخله طفرة في جو غريب منقطع عن السابق .

نقول : إن كلمات « الصدمة الضيقة » و « الجو الغريب » ونحوها من العبارات المألوفة و « نقول الجارية على أقلام الكتاب لا تمنع طالب الحق ما دامت تخلق في سبيل هذا العموم المطلق الذي لا يطبق على مثال معين ؛ لأنها ما دامت كذلك يخشى أن تكون مجرد ألقاف لا مدلول لها في الخارج ولا في ذهن الكاتب .

ولقد شعر المؤلف بحاجة القارئ إلى هذا التطبيق ، فضرب لنا مثلا بوضع سورة محمد بعد سور الجواميم ، وكنا ننتظر منه أن يضع يدنا على موضع المفارقة وبين لنا وجه الانقطاع ، بين سورة محمد والسورة التي قبلها ؛ ولكنه لم يفعل . واكتفى بإعادة هذه الألقاف العامة قائلا : إن القائل يشعر بها ...

وبحسب نقول : إن الذي يشعر به القارئ هو على عكس ذلك : كمال الانسجام ، وتسام الالتحام ، بين هاتين السورتين . وهاتين أولاه نصح يد المؤلف على حثيثة ما نقول :

فليقرأ حضرته أول سورة محمد . . الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم ، وليقرأ صدر السورة التي قبلها إلى قوله : « ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم النسيئة » وليقل لنا : أين المفارقة بين هذين الحديين ؟ - ثم ليرأ في ختام سورة الأحقاف قوله تعالى : « بلاغ ! فهل يهلك إلا القوم الفاسقون » وفي ختام سورة محمد قوله تعالى : « وإن تولوا يبدل قومنا غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم » . ثم لينظر هل يرى أحسن من هذا تقابلا بين البدايتين ، وتوازيا بين النهايتين ؛ وهل يرى في إحكام هذا النسق إلا صورة أخرى من صنع الله الذي أتقن كل شيء ؟ لقد صدق الله : « ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور ؛ ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير »

فإن ظن حضرته أن مجرد ذكر التناوب في سورة محمد وعدم ذكره في سورة الأحقاف يباعد بين السورتين قلنا له : ألم تر كيف وصفت في آخر الأحقاف قطرة لطيفة « عبور منها إلى هذا المعنى الجديد ؟ فأنشدك الإنذار بإهلاك الفاسقين في آخر السورة الأولى خير توطئة للأمر بنوع من أنواع هذا الإهلاك في السورة التي تليها .

أما إن كان لا يسوغ في ذوقه بوجه عام أن السور المسكية بما فيها من أصول العقائد ، وأصول مكارم الأخلاق ، والترغيب والترهيب ، توضع في ثايات السور المدنية بما فيها من القوانين المدنية ، والقواعد الحربية ، وشعائر العبادة ، وسائر الشرائع التفصيلية ، فيقال له : كيف استسغت إذاً أنه لا تكاد تخلو سورة مدنية من آيات التوحيد أو الجزاء أو الوعد أو غيرها من المقاصد المسكية ؟ وإذا رضيت بهذا الإدراج في السورة الواحدة فلماذا لا ترضى به بين سورة وسورة ؟

فإن كان هذا الجواب الإلزامي لا يشفي غلته فإليه الجواب الشافي :

إن هذا المهبج القرآني في تلوين البيان وتنويع العلوم ليس فقط من أهم المقاصد البلاغية : تشويقاً إلى الحديث وقطرية للنشاط ، وترويحاً للنفس من عناء العلائق البشرية ، وصعوداً بها بين الفينة والفينة إلى الملأ الأعلى وإلى الحياة الباقية ؛ بل هو كذلك من أحكم وسائل التربية العملية ؛ لأن رد الفروع إلى أصولها ، وبناء القواعد العملية على دعائمها الأولى العقلية والوجدانية ، من شأنه أن يمكن العفول والقلوب من هضم التوابع وتمثلها ، وأن يحول النفوس إلى قوى محركه تمد الإرادات بأقوى بواعثها .

وليس الانتقال من أحد النوعين إلى الآخر كما ظن المؤلف انتقالاً إلى مقصد جديد أو إلى جو غريب ؛ فإن مقاصد القرآن وأهدافه في السور المسكية والمدنية واحدة ؛ وهي إصلاح العقائد ، وتنظيم مناهج السلوك للأفراد والجماعات ؛ وإنما يفترق المسكي عن المدني بالإجمال والتفصيل ، وكما لا غنى للقواعد الكلية عن رسم طرقها العملية ، كذلك لا غنى للفروع عن الاستناد إلى قواعدها الكلية ، والاستمداد من ينابيعها النفسية العميقة . ولذلك بنى نظم القرآن في آياته وفي سورته على وجه من التداخل والتعاقب بين الاعتقاديات والعمليات والبواعث والزواجر بحيث يظاهر بعضها بعضاً على تقرير كل واحدة منها وتثبيتها في النفوس ، ومن هنا كان القرآن « أحسن الحديث » كما وصفه الله « كتاباً متشابهاً مثاني » ، تقشعر منه جلود الذين يحشون ربه ، ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ،

- ٢ -

أما قول المؤلف إن الوضع الحالي للسور محل بحكمة التدرج في التشريع : فهو انتقال نظر يدل على غفلة عظيمة وخلط بين مقامين مختلفين : مقام التزليل والتعليم ، ومقام التدوين والترتيل . وهما مقامان قد وضعنا من أول يوم لتحقيق غرضين متفاوتين ، فكان أولها يعتمد حاجات التشريع ، وثانيها يرتبط بحاجات الوضع البياني . وإن مراعاة إحدى الحاجتين في موضع الأخرى ليس من الحكمة في شيء بل هو وضع للأمور في غير موضعها .

ولما كان حضرته يميل إلى الأسلوب التصوري ، ويجب ضرب الأمثال ، وقد ضرب لنا مثلاً بالإنجودية والنحو والبلاغة ، حق علينا أن نضرب له المثل الحق الذي هو أحسن تفسيراً في هذه القضية :

رجل يريد أن يبني بيتاً لسكنائه ، لجعل يجتلب تباعاً كل ما هو بسبيل من تحقيق غايته ، غير مبال بأن يشتري أجزاء المُرُش والأُسُف قبل الأسس والجدران ، أو يستورد أدوات الارتفاق قبل مواد البناء ؛ متبعاً في كل ذلك فرصة توفر الثمن لديه ، ووجود المواد في السوق ، وسهولة وسائل النقل ، إلى غير ذلك من ظروف احتياجه . وضروب إمكانه ؛ فهل من الحكمة أن يضع البناء هذه الأجزاء في البنيان على حسب تواريخ ورودها ؟ أم الواجب أن يضع كل جزء منها في مكانه اللائق به ، وفقاً لرسم هندسي معلوم ، مهما خالف ترتيبه الزماني ؟

كذلك كان نزول القرآن متجماً على حسب حاجات النفوس من الإصلاح والتعليم ، وروعيته في ذلك حكمة التدرج والترقي في التشريع على أحسن الوجوه وأكملها . ولكن هذه النجوم في الوقت نفسه لم تترك مبعثرة منزلاً بعضها عن بعض ، بل أريد لها أن تكون فصولاً من أبواب أسما السور ، وأن تكون هذه الأبواب أجزاء من ديوان اسمه القرآن ، فكان لا بد أن يراعى في مواقعها من هذا البنيان معنى آخر غير ترتيبها الزماني ، بحيث يألف من كل مجموعة منها باب ، ويألف من جملة الأبواب كتاب ؛ ولا يكون ذلك إلا إذا ألقت على وجه هندسي منطوق بليغ ، تبرز به وحدتها البيانية في مظهر لا يقل جمالاً وإحكاماً عنها في وضعها للأفراد التعليمية .

وكانت الآية الكبرى في أمر هذا التأليف القرآني أنه كان يتم في كل نجم فور نزوله ، فكان يوضع هذا النجم توأ في سورة ما ، وفي مكان ما من تلك السورة ؛ وكذلك كان يفعل بسائر النجوم فتفرق فور نزولها على السور ، مما يدل قطعاً على أنه كانت هناك خطة مرسومة ، ونظام سابق محدود ، لا لكل سورة وحدها ، بل لمجموعة السور كلها . وهذا وحده - لو تأملناه - من أعظم الأدلة البرهانية على أن القرآن ليس من صنع هذا البشر الذي لا يدري ما يكون في الغد ، فضلاً عن أن يعلم ما ستأتي به الحوادث في مجرى حياته كلها ، فضلاً عن أن يعرف النظام الذي سيحيى عليه البيان في شأن هذه الحوادث ليس له مكانه قبل مجيئه ، فضلاً عن أن يعلم أنه سيعيش حتى تأخذ كل سورة وضعها الكامل ، ويأخذ القرآن نظامه الشامل ، وحتى يكون انتقاله إلى الرفيق الأعلى عقب اعلانه بأن مهمته قد انتهت . . . هكذا يدل كل شيء على أن عناية الله الذي خلق فسوى ، والذي قدر فهدى ، كانت هي التي تهيم على تنزيل هذه النجوم القرآنية ، وعلى ترتيبها حتى بلغت تمامها ، وأن هذا الترتيب المكاني المستقل عن ترتيبها الرماني قد كان مقصوداً لحكمة البتة ؛ عرف هذه الحكمة من عرفها ، وجهلها من جهلها .

ولقد اعترف المؤلف بأنه من أهل القسم الثاني ، حيث قال في صدر رسالته : « ما الحكمة في ترتيب السور على هذا النحو ؟ » ثم أجاب بقوله : « لست أدري ، فكان ذلك منه انصافاً محموداً ؛ وكان الوضع السليم الذي يقضى به منطق هذا الاعتراف أن يسلك إحدى خطتين : فإما أن يتوقف عن البحث في حكمة هذا الترتيب . ويقول كما يقول الراحون في العلم : « آمنا به كل من عند ربنا » ، وإما أن يلتمس من أهل الذكر بياناً يكشف عنه بعض هذه الغمة . . . ولكنه لم يصنع هذا ولا ذاك ، بل أسرع فاستغبط من الجهل علماً ، ومن الشك يقيناً ، ودعا إلى التغيير قبل أن تثبت من صواب قصده ، فكان كالذين قال الله فيهم : « بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله » .

وهنا لا يسعنا إلا أن نوجه لحضرتة نصيحة رشيدة ، نهد لها بمقدمة صغيرة .
أما المقدمة فهي : أن التعمق في القرآن يفغى أن يكون على ثلاث مراحل

متصاعدة لا تستقيم واحدة منها عن موضعها ولا تستأخر . (المرحلة الاولى)
فهم مسائل القرآن مسألة مسألة ، والتعمق في أمرها ونهيا ، وحلالها وحرامها ،
ومواعظها وعبرها ، ثم التحلى بأدائها ، والوقوف عند حدودها . (المرحلة الثانية)
النظر في جملة مسائل السورة على أنها أجزاء من وحدة مستقلة يرتبط بعضها ببعض
في نظام واحد ، ويأخذ كل منها في هذه الوحدة وضعا معينا يناسبه . (المرحلة الثالثة)
النظر في مجموع سور القرآن على أنها أبواب من ديوان واحد قد قصد إلى ترتيبها
فيه على هذا النحو .

مثل ذلك مثل الناظر في علم التشريح : لا يبحث في العلاقة بين جهاز وجهاز
حتى يعرف أعضاء كل جهاز على حدة . ولا يبحث في الأربطة والوشائج التي بين
هذه الأعضاء قبل أن يدرس تركيب العضو ويستبين أنسجته وخلاياه .

فكما أن الذى يسأل عن حكمة وضع العينين في مقدم الوجه . ووضع الاذنين
في جانبيه ، قبل أن يعرف تشريح العين والاذن ، يعد مشتتلا بنوع من الترف
العتملى قبل أن يحصل على جواهر العلم ولبابه ، كذلك الذى يسأل عن حكمة تقديم
سورة وتأخير أخرى يقال له : اذهب فأتقن فهم الآية والسورة أولا ، ثم تعال
فانظر في حكمة ترتيب السور ؛ فهذا من زينة العلم وحليته ، وذلك من مبادئه
وأوليياته . وإن مخالفة المنهج في هذه الدراسة يعد من عكس الوصع السليم ؛ كالجائع
الذى لا يجد كسرة يسد بها رمقه ، يضع وقته في البحث عن الأزهار والرياحين ؛
أو كالمدين المستغرق الذى ينفق ماله على الفقراء قبل أن يؤدي حق الغرماء .

إذا تمهد هذا فليتنظر صاحب هذه الدعوة الجديدة في أى مرحلة هو من هذه
المراحل ، وليضع نفسه حيث يحق له من مراتب أهل البحث والدرس .

فإن كان لا يزال بعد في إحدى المرحلتين الأولى . وجب عليه أن يترك
في السير إلى المرحلة الأخيرة . وأن يكتفى فيها مؤقتاً بأن يعلم إجمالاً أن الرسول
صلوات الله عليه كان يرتل القرآن في الصلوات ، وفي العرض في رمضان وغيره ،
على هذا الترتيب ، وأنه جعل الحمد لله رب العالمين ، أول القرآن ، وسماها فاتحة
الكتاب في الأحاديث الصحيحة الثابتة ، مع أنها ليست أول ما أنزل ، وأنه كان يبين

لأصحابه موضع السورة من الكتاب ، كما كان يبين لهم موضع الآية من السورة . فهو إذا وضع مقصود لمقضى يعلمه واضعه ، ولا يضر أحداً الجبل به . ومن بداله أن يجوز تبديل هذا الوضع لأنه لا يعرف حكمته كان كمن لم يفهم حكمة وضع العينين في مقدم الرأس ، فظن أنه كان الأنسب أن توضع إحداهما في الوجه والأخرى في القفا ليرى الإنسان بهما من أمامه ومن خلفه على السواء . فإن هو حاول تحقيق هذه الفكرة عملياً عاكس الطباع ، وأفسد الأوضاع . ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن . ألا وإن الشأن في التنزيل كالشأن في التكوين ، كلاهما من صنع الحكيم الخبير الذي أحاط بكل شيء علماً . فكما أنه لا تبديل لخلق الله ، كذلك لا تبديل لكلماته . وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم .

— ٤ —

أما إن كان قد حذق مسائل القرآن مسألة مسألة ، ووقف على سر نظم الآيات في سورها آية آية ، واشتهى بعد ذلك أن يعرف الوجه في ترتيب السور ، فليعلم أن للناس في ذلك مسائل من النظر بعضها أعمق وأدق من بعض .

ولعل أدق هذه المسائل وأيسرها قول بعض المستشرقين : إنه روعي في هذا الترتيب في الخلة البدء بأطول السور ، ثم بأوسطها . ثم بأقصرها . فهذا وجه من النظر لا يخلو من الصواب ؛ لأن شأن المبتدئ في التلاوة أن يكون أجمل نشاطاً ، وأوفر رغبة ، وأتم استعداداً لقراءة المقالات الضافية ، ثم تأخذ قوته في التناقص تدريجاً ، بسبب ما يعتري الطبع الإنساني من الفتور والتراخي ، فقدرت السور على حسب الطاقة والنشاط : من المثين ، إلى المشرات . إلى الآحاد . ولكن هذا التوجيه - كما ترى - سطحي يقيس السور بعدد كلماتها وجملها ، لا بالقراءة بين معانيها وأساليبها .

ولو أننا جاوزنا هذه القشرة السطحية ونفذنا منها إلى المعاني والأساليب لوجدنا ضروباً أخرى من التسلسل التعليمي والبيان تلتمح فيه السورة مع ما قبلها وما بعدها في أحسن وضع وأحكمه .

ولقد رأينا آتفا كيف أن سورتي الاحقاف ومحمد قد تجاوزت مطالعتهما ،
وتطابقت مقاطعتهما ، مع أنهما من فصيلتين مختلفتين في تواريخ النزول .

هذا ضرب من الاقتران على وجه التوازي والمحاذاة .

وضرب آخر من الانسجام يصح أن نسميه نظام السلايم ، أو أسلوب الحال^١
المرتحل . وهو أن يكون المعنى الذي انتهت اليه سورة من السور هو نفسه المعنى
الذي يفتح السورة التي تليها . انظر مثلاً إلى سورة الواقعة المسكية كيف ختمت بقوله
تعالى : « فسبح باسم ربك العظيم » وكيف حسن بحى سورة الحديد المدنية بعدها
حيث تفتح بقوله : « سبح لله ما فى السموات والارض » . وهكذا كان قوله :
« وإدبار التجوم » جسراً إلى قوله : « والنجم إذا هوى » ؛ وقوله : « أزفت الآزفة »
سلباً إلى قوله : « اقتربت الساعة واشق القمر » ؛ وقوله : « فى مقعد صدق عند
ملك مقتدر » سيباً ممدوداً إلى قوله : « الرحمن ... »

وهناك وجوه آخر من التسلسل أعمق وأدق يهتدى إليها من جعل همه تدبر
آيات الله .

وبحسبنا فى هذه العجالة أن نعالج الشبهة التى علقـت بصدر المؤلف حين لم يفهم
الحكمة فى وضع الفاتحة فى أول القرآن ووضع بعض السور القصار فى آخره ،
وأن نلفت نظره إلى أن كلا من البدء والختام قد وقع موقعه الرصين ، ووضع
فى قراره المسكين ، وأن المؤلفين حتى يومنا هذا ما زالوا يترسمون فى مطالع كتبهم
ومقاطعها هذا المنهج المثالى القرآنى .

فوقع سورة الفاتحة من القرآن كله موقع الفهرس الذى يعرض بإيجاز محتويات
الكتاب قبل الدخول فى تفاصيله ؛ فكل شىء فى القرآن من الإلهيات ، والتبوات ،
والمعاد ، والأعمال ، والأخلاق ، وعبر التاريخ ، قد وضعت مفاتيحه فى هذه
الكلمات القليلة بأسلوب لا يبدو عليه طابع العد والسرّد ، وإنما هو ماء الحياة
ينساب فى جداوله غذاء للعقول والأرواح ، فلا يمل ولا يخلق على كثرة الترداد .
ثم إن هذه السورة - وراء موقعها من جملة القرآن - موقعاً خاصاً من السورة التى
بعدها ، هو موقع الديباجة التى تبين وجه الحاجة إلى التعليم الذى يليها . ذلك أنها

صورت المؤمنين باسطة أيديهم ملتصقين الهداية من واهبها : « اهدنا الصراط المستقيم » ، فكان حتماً على المسئول القريب الذي يجيب دعوة الداعي إذا دعاه ، أن يتلقى هذا الدعاء بالقبول ؟ وهكذا جاءت سورة البقرة معلنة في بدايتها أنها ستسد هذه الحاجة وستحقق هذا الملمس : « ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين » .

أرأيت لو أننا وضعنا الفاتحة على ترتيب نزولها كما يريد المؤلف بين سورتي المدثر وأبي لؤب ، كيف كان ينبو بها موضعها ، وتقطع صلتها بما قبلها وما بعدها ؛ وكيف كانت تقوت هذه المجاورة الروحية بين الداعي والمدعو ؛ وكيف كان يصبح القرآن كتاباً بغير فهرس ، بل جسماً بلا رأس ؟

أما السور السبع الفصار ، فإنها كلها تحمل طابع الختم والانهاء ، وإن النفس الذي يجرى فيها ليتأدى بأنها كلها أشبه شيء بوصية المودع . فانظر إلى سورة (الكوثر) حين قضى الرحي مفصلاً كيف التفتت إليه في نظرة جامعة لتعرف الرسول بمقدار ما انطوى عليه القرآن من النعمة الكبرى والخير العميم : « إنا أعطيناك الكوثر » . فكان ذلك أحسن فذلكم يحتم بها كتاب وبنوّه بشأنه . ولما كان تعريف الرسول بنفاسة ما وصل إلى يديه ليس امتثاناً عليه بحسب ، بل هو تحريض خفي له على الحرص على تلك الهدية ، لاجرم جاءت السورة التي تليها متمفية على هذا التقريط بالأمر المؤكد بالاستمسك بهذا الدين ، وعدم التحول عنه مهما لج المعاندون : « قل يا أيها الكافرون . لا أعبد ما تعبدون ... » ؛ وكان طبعاً بعد هذا الأمر والهوى ، وبعد تقسيم الناس هكذا إلى معسكرين منفصلين في شأن الدين ، أن تقرر عاقبة كل منهما ؛ فأشارت إحدى السورتين التاليتين إلى عاقبة المتقين المستمسكين بما جاءهم : « إذا جاء نصر الله والفتح » ، وأشارت الأخرى إلى عاقبة أعدائهم وشائليهم : « تبت يدا أبي لؤب وب » ، ولم يكن هذا الأخير إلا تطبيقاً لقاعدة كلية مهدت له آنفاً في قوله تعالى : « إن شاتك هو الأبر » . ثم كان مسك الختام أن يورك هذا الكتاب وحصن التحصين السماوي المنيع ؛ وذلك بطلب الالتجاء إلى الإله الأحد الصمد في أن يحفظ للعالم هذه الهداية العظمى ، برغم حسد الحاسدين ، ووسوسة الموسوسين ، الذين يلقون الشبهات في صدور الناس ليصدوهم عن سبيل الله .

هذا نموذج من نسق السور كما رتبها الله . طاب بدءاً وختاماً ، وحسن مرتجلاً ومقاماً . ولا غرو فهو تنزيل الحكيم الخيد ، ومن أحسن من الله حديثاً .

— ٥ —

ونعود الآن نفترض جدلاً أن ترتيب السور لم يكن بتوقيف إلهى ، ولا بتوقيف
ببوى ، وأنه كان من عمل الصحابة باجتهاد منهم ، ألا يكفينا فى حرمة وقداسته
أنه استقر عليه لإجماعهم وإجماع المسلمين من بعدهم ؟

إن اليهود والنصارى - وقد أصاب كتبهم ما أصابها من تعدد النسخ واختلافها -
يحسدون المسلمين على أن لهم كتاباً موحداً لا يختلف فيه حرف واحد عند سنى
ولا شيعى منذ أربعة عشر قرناً ، ولا يختلف فيه وضع سورة فى نسخة عن وضعها
فى أخرى ، بل إن علماءهم يغبطوننا على وجود بعض ألغات أو لامات زائدة فى
رسم المصحف ، وعلى انفصال بعض كلمات شأنها أن توصل ، واتصال كلمات
شأنها أن تفصل ، ونحو ذلك من الرسوم القرآنية المخالفة للرسم الإملائى المقرر
فى كتب النحو والصرف ؛ ويستدلون بناء هذا كله فى المصاحف الإسلامية - برغم
اختلاف العصور وتطور العلوم - على مبلغ القدسية التى أحاط المسلمون بها كتابهم
من أول يوم ، وعلى أن النص الذى تلقوه من نبيهم بقى كما هو لم تتله يد قط بأدنى
تغيير أو تبديل ، مع وجود الحاجة إلى بعض هذه التعديلات تسهيلاً على المبتدئين .
أفتجىء نحن اليوم - بغير ضرورة ولا فائدة ، بل لإفساداً واتباعاً للبهوى - فنضيق
بأيدينا هذه الحجة القائمة ، ونفتح مجال الشبهة أمام العصور المقبلة ، فيقول قائل
منهم : إنه لم يبق لنا ثمة بأن هذا الكتاب بقى فى كل العصور بعيداً عن كل تبديل ؛
لأنه فى العصر الفلانى قد غيرت أوضاع السور فيه ، فلعله قد أصابه قبل ذلك
تعديلات أخرى لم تصل إلينا أنباؤها ، ؟

وجملة القول أن الدعوة إلى تغيير ترتيب السور دعوة لا يقرها عقل ولا نقل ؛
لأنها قبل كل شيء دعوة إلى بدعة خارقة لإجماع المسلمين يحرف بها الكلام عن
مواضعه التى وضعه الله فيها . ولأنها محاولة لن يكون من ورائها إلا إفساد النسق ،
وتشويه جماله ، وتقض بديانه المحكم الوثيق ، ثم لأنها فتح باب للشبهة فى حفظ
الذكر الذى ضمن الله حفظه ، فهى إذاً دعوة لا يستجاب لها ، ولا يجوز أن يمكن
أحد من تحقيقها .

- ٦ -

بقى أن نقول رأينا فيما ينبغي أن يتبع في شأن المؤلف وتأليفه .

إننا لسنا من أنصار سياسة الكبت وتكليم الأفواه والأقلام ، والتسرع بمصادرة الكتب والآراء المنحرفة في الدين ؛ لأنها سياسة قد أثبتت التجارب فشلها ، ولأنها بدل أن تطفىء نار الفتنة تشعل أوارها ، وتغرى أهل الفضول بتلس هذه المؤلفات كما تلس المهربات ؛ ولأن ضعيف الحجة هو الذى يحاول إسكات خصمه بالقوة والعنف ، وليس الضعف من صفات الحقائق الإسلامية التى لا يأتيناها الباطل من بين يديها ولا من خلفها ؛ وأخيراً لأن هذه السياسة ليست سياسة قرآنية ؛ فإن الله تعالى أمرنا أن ندعو إلى سبيله بالحكمة والموعظة الحسنة ، وأن نجادل المخالفين بالتي هي أحسن ، ثم إنه سبحانه لم يترك شبهة ولا فكرة زائفة لأعداء الإسلام إلا سجلها وخلدها فى كتابه ، وبقى عليها بما يدحض باطلها . فكذلك ينبغي فيما نرى أن تفرع كتب المبطلين بالحق الذى يدفعها ، ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حى عن بينة .

ونرى فى موضوعنا بوجه خاص أن ترسل صورة من هذا البيان إلى المؤلف ، وأن نترك له الفرصة الكافية لقراءته وتدبر ما فيه :

فأما إن كان من طلاب الإصلاح بنصفه وحسن نية ، فسيكون هو أول من يرجع إلى الحق متى تبين له ، وأول من يحافظ على ترتيب القرآن كما رتبته الله . وإن بقيت فى نفسه بعض شبهة فيسمى إلى حلها باستفتاء أهل الذكر فيها .

وأما إن أصر على رأيه لحاجة وهوى فى نفسه ، فلتترك دعوته تموت بعدم الإصغاء إليها . فإن نشط لنشرها وترويجها ، وتضليل السذج بمغالطاتها ، بعثا عليه جنوداً من حجج الحق تتعقب بها فلول باطله ، فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة .

ونحن على كل حال واقفون بالمرصاد لكل من أراد تبديل شيء فى كتاب الله ، والله غالب على أمره ، والسلام على من اتبع الهدى ؟

الرباداء البشرية الويل

لفضيلة الأستاذ الشيخ بدر الخنولي عبد الباسط

المدرس بكلية الشريعة

إن التشريع الجدير بالاحترام هو الذي يحارب الشر بين الأفراد والجماعات ،
 فيبيح كل ما رجح فيه جانب الخير على جانب الشر ، ويحرم كل ما رجح فيه جانب
 الشر على جانب الخير ، ولا يقيم وزناً للخير مرجوح إن كان يقابله شر راجح ،
 ولا وزناً لشر موهوم إن كان يقابله خير مؤكد ، وإن الإنسان لا ينظر إلى الأمور
 إلا من ناحية هواه ؛ وكثيراً ما يتقلب الهوى على العقل ، فيفسد تفكيره ، ويريه
 الحسن قبيحاً ، والقبيح حسناً وقد يما قيل :

وعين الرضا عن كل عيب كيلة كما أن عين السخط تبدى المساويا

ولا يعدم حب الزنا أن يجد له مندوحة في زعمه ، وحب الخمر يبرأ لها
 في وهمه : فقد قرأنا وسمعنا الكثير من هذه الترهات . لهذا كان التشريع الإنساني
 - في كل العصور - مجالا للخطأ المقصود وغير المقصود ؛ ولم يترك الله الناس إلى
 عقولهم وأهوائهم ، بل أرسل رسله مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب ،
 وشرع لهم الشرائع ، وكان تشريعه أو في الشرائع بحاجة البشر ، فإنه - سبحانه -
 أعلم بمصالح عباده من أنفسهم ، وليس حكمه عن هوى أو غرض تعالى الله عن
 ذلك علواً كبيراً .

وانتد راعي الشارح الحكيم في تشريع المعاملات بث روح التعاون بين الأفراد
 والجماعات ، وتنمية عاطفة الخير في القلوب ؛ فأباح من أنواع المعاملات كل ما يحقق
 هذا المبدأ النبيل ؛ وحرم كل ما من شأنه أن يقطع أو اصر الألفة ؛ ويبدد بذور
 العداوة والبغضاء ، وما حرمة الله ، سبحانه - الربا ، وشد في أمره ، وبالغ في التنكير
 على المتعاملين به ، وجعل المصممين على التعامل به من الخالدين في النار ، وسلوكهم
 في سلك واحد مع الكفار الآثمين ؛ ثم توعده المرابين بحرب منه إن لم يتوبوا

ويردوا الأموال إلى آربائها .

استمع إليه سبحانه إذ يقول : « الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا وأحل الله البيع وحرم الربا فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره إلى الله : ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون . يحق الله الربا ويربي الصدقات والله لا يحب كل كفار أثيم » . ثم استمع إليه سبحانه إذ يقول : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين . فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله وإن تبتم فلكم رموس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون » .

وقد سد الشارع الحكيم هذا الباب لما فيه من شر مستطير وفساد كبير لجعل شبهة الربا محرمة كالربا فقد صح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « كل قرض جر نفعا فهو ربا » ، وهذه سنة من سنته تعالى إذا عظم شر أمر من الأمور حرمه وحرم مبادئه وكل ما يتصل به من قرب أو بعد كما حرم مبادئه الزنا من نظر وخلوة ومس ، وكما حرم قليل الحر وكثيرها وحرم بيعها كما حرم تعاطيها ، حتى يقطع النفوس عن أهوائها ؛ ويردها عما يهلكها .

والنفس كالطعل إن تركه شب على حب الرضاع وإن تفطمه ينفطم وتطبيقاً لهذا المبدأ القويم جعل الرسول الكريم المتعاملين به وشهوده وكتاب صكوكه شركاء في الإثم ، ولعنهم فقد صح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لعن الله آكل الربا وموكله وشاهديه وكتابه » .

وعده الرسول الأكرم من الموبقات المهلكات في الدنيا والآخرة وجعله في مرتبة تلي القتل في الإثم فقد صح عنه صلى الله عليه وسلم أن قال : « اجتنبوا السبع الموبقات » ، قالوا يا رسول الله وما هن : قال : « الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولي يوم الزحف ، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات » .

وكيف لا يكون قرين القتل وقد خرب البيوت العامرة ، وشنت الأسر الكريمة وأورث القلوب غلا وحقدآ وحسدآ ، وماذا وراء ذلك إلا سفك الدماء وإزهاق الأرواح ؟

ومهما عدد الاقتصاديون للربا من مزايا ، ونسبوا إليه من فوائد فهل يستطيعون أن ينكروا أن الربا يجعل العلاقة بين أفراد المجتمع علاقة مادية بحتة : لا ظل فيها للتعاون ولا قيمة فيها للأخلاق الكريمة ؟ والشرع قد نظم العلاقة بين الناس على أسس من التعاون على البر والتقوى ، وهل ينكر رجال الاقتصاد أن الربا يجعل هناك طبقة من الناس تعيش على جهود الغير ، وتستنزف عرق جيئهم ، وتسعد بشقايتهم ، وتشقى بسعادتهم شأن كل الطفيليات التي تمتص دماء الإنسان والحيوان ، ولا تقوى إلا في ظلال الجهل ، ولا تنشر إلا المرض والفقر ؟ ولا ينكر رجال الاقتصاد أن الربا يفرى أرباب الأموال أن لا يستفلوا أموالهم إلا في هذا الباب لأنه في رعمهم أضمن فائدة وأبعد عن مظان الخسارة وحيلئد تموت المشاريع العمرانية والصناعية التي يعود خيرها على جميع الطبقات . فإن الله جل شأنه ، لم يجعل الذمذمة مقصودة لذاتها في التجارة ؛ وإنما جعله الله وسيلة للبيع والشراء . والربا بصيره مقصوداً لذاته فيحتكره أرباب الأموال فتعطل مصالح العباد وتتولد الثورات وتفشى النزعات الهدامة .

ولعل البشرية لم تصل في تاريخها الطويل إلى مثل ما وصلت إليه اليوم من علوم ومعارف - ولكنها - مع ذلك - لم تصل في تاريخها الطويل إلى مثل ما وصلت إليه اليوم من اضطراب الأحوال وتبليبل البال وسلب الطمأنينة عن النفوس لا فرق في ذلك بين الأفراد والجماعات والأمم ؛ فلا تكاد البشرية تقوم من هوة حتى تتردى في هوة أعمق منها ؛ ولا تحل مشكلة من المشاكل حتى تواجه بمشكلة أعتمد منها مع ككرة الخبراء في كل ناحية من نواحي الحياة .

أليست هذه نذر من الله - سبحانه - لعباده بتلك الحرب التي آذنتهم بها لانتهاء كمهم حرمانه وخروجهم على تعاليم دينه ، وجعلهم الربا أساساً من أسس معاملاتهم ؟ ١١٩ وويل للبشرية ، ثم ويل لها يوم أن تصيح في حالة حرب مع الله الواحد القهار ، قل هو الغادر على أر يبعث عليكم عذاباً من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعاً ويدينق بعضهم بأس بعض .

ربما كان من المحتمل أن يقع في جريمة الربا فرد أو أفراد فإن كل عصر من العصور لا يخلو من العصاة والمذنبين والخارجين على الشرائع والتوانين ولكنه ليس من المحتمل في مجتمع يدين بالإسلام أن يصبح الربا فيه أساساً

من أسس المعاملات : تبيحه القوانين ، وتقع فيه الأفراد والحكومات ويشبع
بين الناس حتى كأنه ليس جريمة من الجرائم . وكأن الله - سبحانه - لم ينزل فيه قرآناً ،
ولم يبين فيه حكماً ، وكأنا نؤمن بأراء من نسميهم اقتصاديين أكثر مما نؤمن بالله
ورسوله والكتاب الذي نزل على رسوله والكتاب الذي أنزل من قبل .

وكان هؤلاء المرابين لا يسكنهم زاجراً وواعظاً ما يروونه من عواقب
من سلف من أشياعهم وكيف أصبحت ديارهم خراباً وأبنائهم فقراء مساكين
يتكففون الناس « وما آتيتم من ربا ليربو في أموال الناس فلا يربو عند الله »

ثم إن هؤلاء المقرضين بالربا لا يشفع لهم عند الله تلك الأعذار الواهية التي
يتعللون بها لجلهم إن لم يكن كلهم لم يقرضوا بالربا ليسدوا جوعة أو يستروا
عورة بل اقترضوا ليعيشوا عيشة الترفيع أو ليزيدوا إلى ملكهم ملكاً جديداً ؛
ولو أنهم دبروا أمورهم في حدود طاقتهم المالية ما فتحوا على أنفسهم وذريتهم
باباً من الشر لن يستطيعوا له إغلاقاً ولما وضعوا في أعناقهم وأعناق أبنائهم غلا
من الدين لن يستطيعوا منه فكاً .

بقيت كلمة أخيرة في هذا الموضوع وهي أن بعض من ينتقص أطراف الدين
باسم الدين يتعللون بقوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافاً
مضاعفة » فيتمسكون بمفهوم هذا اللفظ ويقولون بحله إن لم يكن كذلك . ونحن
نقول لهؤلاء : لقد فهمتم في كتاب الله ما لم يفهمه محمد بن عبد الله وصحابته
الأكرمون وما لم يفهمه أحد من الأئمة المجتهدين ؛ ولو كان ما نقولون مراداً لله
لجاز أن يكون الربا ٩٩٪ أو دون ذلك ، لأن هذا ليس ضعفاً ولا ضعف
الضعف ؛ إن هذا الوصف لا مفهوم له بل هو بيان للواقع ، فإن من شأن الربا أن
يضاعف الدين حتى يتعذر على المدين السداد ؛ والواقع والمشهد شاهد على هذا الفهم .
فالخلق الذي لا مزية فيه أن الربا قلبه وكثيره ظاهره وخفيه محرم عند الله
ورسوله والمسلمين أجمعين ؛ فمن أحل منه صورة من صور ، فإنما إثمه على نفسه
وعلى الذين يتولونه . فإن الحلال بين وإن الحرام بين . ومن شاء فليؤمن ومن شاء
فليكفر إنما أعتدنا للظالمين نارا أحاط بهم سرادقها وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل
يشوي الوجوه ، بش الشراب وساءت مرتقفاً .

جمل الله للمسلمين من أمرهم رشداً ، وهداهم إلى الصراط المستقيم ، إنه على ما يشاء قدير .

ابن سينا ومشكلات العصر الحاضر

٤ - مشكلة المرأة

لمحاضرة الأستاذ الدكتور محمد يوسف موسى

أستاذ بكلية أصول الدين

بعد أن تكلم الشيخ الرئيس عما يجب على الدولة من توفير عمل لكل فرد من أفراد الأمة ، ومن ضمان المعيشة المعقولة للعاجزين عن العمل أو المتعطلين الدين لا يجدون إليه سبيلا ، أحد في الحديث عن المرأة من ناحية الزواج والطلاق ومنزلتها من الرجل وما يناسب أن يكون لها من عمل . كل هذا ، قد تناوله بالبحث وإن كان موجزاً ، وأدلى فيه بالرأى الذى يرى حتى تقوم المدينة الفاضلة أو الدولة الصالحة على الأسس التى تجعل حظها وافرأ من الاستقرار والسلام والسعادة .

وسنظم من رأى ابن سينا فى هذه المشكلة من نواحيها المختلفة ، أن المغالين من أنصار المرأة يظلمون الحق والطبيعة وأنفسهم والمرأة نفسها حين يذهبون إلى مساواتها التامة بالرجل ، وحين يصنعون خصومهم بالاستبداد والجور على ما أورثهم الدين والتقاليد من أفكار . ذلك بأنهم سيرون فيما يلى أن الفلسفة ، لا الدين وحده ، بل وأن أرسطو المعلم الأول نفسه ، لا يريان ما يرون ، وأنهما يذهبان أحيانا إلى ضد ما يرون .

يشدد ابن سينا فى الزواج وضرورته ، لأن به كما يقول بقاء النوع الإنسان الذى بقاءه دليل وجود الله تعالى . ثم يذكر أن الزواج يجب أن يقع ظاهراً ، حتى لا يقع خلل فى نسب الأولاد وانتقال الموارث التى هى أصول الأموال ، وهو فى هذا كله على اتفاق مع الشريعة الإسلامية وآراء المفكرين الاجتماعيين . ويرى بعد هذا ، على خلاف ما هو موجود فى المسيحية ، أنه يجب أن يكون هناك سبيل للفرقة بين الزوجين ، وألا يُسد هذا من كل وجه ، لأن فى منع الفرقة

أصلاً بين الزوجين وجوها مختلفة من الضرر الشديد . ومن الأسباب التي يمتنع معها الفرقة بين الزوجين ، فيما يرى ، اختلاف الطبائع إلى حد عدم الألفة ، وسوء الخلق في العشرة ، مما يؤدي إلى شقاء الحياة بالمعيشة معا . ثم فيما يقول أيضاً : ربما الزوجان لا يتعاونان على الفسل ، وهذا مطلوب حتماً من الزواج ، فإذا حصل الطلاق وبدلاً لزوجين آخرين رزقهما الله ما شاء من الفسل الصالح والأولاد النجباء والذي يراه الشيخ الرئيس هنا من ضرورة إباحة الطلاق للأسباب المتقدمة ونحوها ، نراه في كتب الفقه الإسلامي . ففي هذه الكتب ترى أن من الأسباب التي يكون معها الطلاق خيراً للزوجين معاً تباين الأخلاق ، وحدوث البغضاء بين الزوجين التي تجعل العشرة الطيبة بينهما متعذرة أو فيها عسر شديد ، وكذلك من هذه الأسباب ، حدوث الزينة والشكوك بين الزوجين ، أو أن تكون المرأة مؤذية للزوج أو غيره ، أو أن يكون في عدم الطلاق قواص ما يوجب القرآن من الإمساك بمعروف .

وهذا الطلاق يجب في رأى فيلسوفنا ألا يكون بيد المرأة بحال ما ، مع أن الشريعة الإسلامية تحجز أن يكون الطلاق بيدها أحياناً . إن المرأة - في رأيه - في الحقيقة واهية العقل ، مبادرة إلى طاعة أهوى والنضب ، وهنا يمس الشيخ الرئيس مسألة هامة لها خطرهما في كل آن . وتثور من أجلها هذه الأيام المناقشات العنيفة من وقت لآخر ، بل قد بلغ الأمر أن الخلاف من أجلها وصل إلى أعلى هيئة قضائية في البلد وهي مجلس الدولة ؛ ونعني بهذه المسألة مشكلة مساواة المرأة للرجل أو أنها أدنى مرتبة منه لهذا السبب أو ذلك .

ولست هنا بالذي يتعرض لهذه المشكلة من الناحية الموضوعية ، ولكني أحب فقط أن أشير إلى أن ابن سينا يتشدد في أمر الطلاق أكثر من الشريعة الإسلامية إن الشريعة - على ما هو معروف - أباحت أن يكون الطلاق بيد المرأة أيضاً إن شرط لها هذا الحق في عقد الزواج ، كما جعلت للقاضي أن يوقعه ويفرق بين الزوجين بشروط وفي حالات خاصة معروفة في كتب الفقه الإسلامي ، وإذا ، فليس البراءة وأنصارها أن يتهموا الشريعة بالقسوة أو تجاهل وجودها وحقوقها وبخاصة وقد أباحت أيضاً - على بعض المذاهب - أن تلي المرأة بعض الشئون

العامه ، وإن كنت لا أقول بأن هذا هو الحق أو الرأي الراجح في المسألة ، وحسب فقط أن أشير كما قلت ، إلى سماحة الشريعة وعرفانها لكل من الرجل والمرأة منزله وحقوقه وواجباته التي يصلح المجتمع برعايتها ، وأنها في هذا كانت أشد سماحا من كثير من أساطين المفكرين والفلاسفة .

ها هو ذا أرسطو الفيلسوف الإغريق الأشهر ، والمعلم الأول بحق ، يرى في الكتاب الأول من كتابه « السياسة » أن المرأة أقل عقلا من الرجل . وأقل لذلك بصراً بالأمور وإدراكاً لطبيعة الأشياء ، ومن ثم يرى أن أمور المدينة - يريد الدولة - يجب أن تكون خالصة للرجل وحده ، وللرأة أمور المنزل والأولاد تحت عناية الرجل وإشرافه ، إنه في هذا يقول : « فالرجل ، ما عدا استثناءات مضادة للطبع ، هو الذي يأمر دون المرأة ، كما أن الكائن الأكبر هو الذي يتأمر على الأصغر والانقص » : كما يقول في موضع آخر : « والمرأة لها إرادة لكن في درجة أدنى » .

ومن هذا يرى أن مشكلة المرأة ومنزلتها من الرجل والمجتمع ، مشكلة عريقة في القدم عراققة وجود الإنسان بوعيه ، وأن للمفكرين في كل العصور آراءهم فيها وفي الحلول التي يرونها لها ، وأن للطبيعة أيضا فيها رأيها الخاص الذي يتفق وطبائع الأشياء ، وإن من الخطأ ، وعدم فهم الواقع ودراسة تاريخ الفكر ، الزعم بأن الشريعة الإسلامية تقف في هذه المشكلة موقف العداء للمرأة . وإنه من الخير للرجل والمرأة على السواء أن يعرف كل منزلته التي أرادها له الله وطبيعة الأمور ثم أن يحسن القيام بالواجب الذي نيط به ، وبالدور الذي جعلت له الحياة القيام به ذلك أدنى إلى الحق بلا ريب ، وفيه تحقيق للصالح العام .

° ° °

ذلك ، وكل حديث له خاتمة ونتيجته . وأحب أن أشير في هذه الخاتمة أو النتيجة إلى أنه قد وضح لنا أن هذه المشاكل التي يحس بها إحساسا شديدا هذه الايام ، مشكلة الفقر والعمل والبطالة ، ومشكلة المرأة ومنزلتها في المجتمع . قد أحسها الناس جميعا منذ وجود العالم واشتد التنافس في الحياة . وقد حاول

المفكرون ، والمصلحون الاجتماعيون ، منذ زمن محقق ، وضع حلول لهذه المشاكل حلول تقرب كثيراً أو قليلاً من عقليات الأزمان والبيئات التي كانوا يعيشون فيها ولم يكن المفكرون المسلمون بدعاً في هذه الناحية ، فقد تناولها كثير منهم بالبحث والدرس ، محاولين حلها على نحو به يصلح المجتمع والحياة ، ومن هؤلاء ابن سينا الفيلسوف الإسلامي الأشهر الذي يستعد العالم الإسلامي هذه الأيام للاحتفال بعيدة الألفي .

ولعل هذا مما يجعل البعض يحسن الظن بالعلفة ، فيرى أنها لا تطلب إلا الحق والخير العام ، وقد تصيب من هذا كثيراً أو قليلاً .

كما نرجو أن يكون هذا من شأنه أيضاً أن يجعلنا نشق بحضارتنا وقوميتنا وتفكيرنا الإسلامي ، فلا نجرى دائماً وراء الغرب مستجديه في كل شئتنا ، ناركين وراءنا ثروة كبيرة كلها بدائع وكنوز ، وقد أفاد منها الغربيون أنفسهم كثيراً .

يسرع ليصل

وقف الأحنف بن قيس ومحمد بن الأشعث باب معاوية ، فأذن للأحنف ، ثم أذن لابن الأشعث ، فأسرع الثاني في مشيته حتى تقدم الأحنف ، ودخل قبله ، فلما رآه معاوية غمه ذلك وأحنته . فالتفت إلى الأحنف وقال له :

« والله إني ما أذنت له قبلك وأما أريد أن تدخل قبله ، وإننا كما نرى أموركم كذلك نرى آدابكم ، ولا يزيد متريد في خطوه إلا النقص بجمده من نفسه » .

وفي الأمثال من أدهن قرع الباب يوشك أن يفتح له وقال :

أخلق بذى الصبر أن يحظى بمحاجة وممن القرع للأبواب أن يلجا

ونظر رجل إلى الحسن بن عبد الحميد يزاحم الناس على باب محمد بن سليمان ، فقال له : مثلك يرضى بهذا ؟ فقال :

أهين لهم نفسي لا كرمهم بها ومن يكرم النفس التي لا يهينها

الفتة السياسية عند المسلمين

الحق المأمم لمؤسسة، أولياء الأمر، مركز الحاكم

محاضرة الدكتور محمود قياض

أستاذ التاريخ الاسلامي بكلية أصول الدين

عرفت أيها القاريء الكريم ، أن أمتنا أمة مكلفة مسئولة ، وأن لها السيادة المطلقة على أرضها ، وأبنائها ، ومتمدراتها ، وليس لأمة غيرها ، ولا لفرد منها . أي سلطان عليها ، لأن تنفيذ التكليف منوط بها ، فهي المهيمنة على وسائل الحفاظ على الشرع وتنفيذ أحكامه ، ومراقبة منفذيه ، فهي بذلك تملك سلطة التشريع فيما تركه التشريع لها من أمور نجد ، أو أمور تتغير وتختلف حسب الزمان والمكان والظروف والملاسات ، ثم هي تملك هذه السلطة بحكم بيابتها عن المشرع سبحانه ، وكل ما يعرفه علماء الأصول باسم التشريع الحاجي ، أو الضروري ، هو موضع السلطة التشريعية للأمة ، تقدر الظروف وتشرع لها بواسطة علمائها بما لا يختلف مع المواعيد الكلية للإسلام ، وللأمة حق التوكيل والإبابة عنها من ترقيته لتنفيذ تكاليفها ، ولها حق الرقابة عليه : تعين حاكمها ، وتمنحه الطاعة والسلطان ، وتنفذ أوامره ، ما اعترف بحقها والترم الحدود المرسومة له ، وتمنحه الطاعة ، وتحرمه السلطان ، وتسلب أوامره القوة ، إذا تسكر لها ، أو حرج عما عين له ، ولها أن تصححه إذا مال مع الهوى ، وتقومه إذا اعوج ، وتعلم له إذا لج في عتوه ونفوره من سلطانها . وهي التي تقدر مصلحتها في التولية والعزل ؛ ثم هي أمة حية قائمة ، وحقوقها ثابتة لها دائمة ، ما بقي تشريعها وما بقي فرد من أفرادها ، لا يرث عنها حقوقها إلا سيدها ومالكها يوم يرث الأرض ومن عليها ، وليس من حقها أن تتنازل عن سيادتها وسلطانها وحقوقها ، لأن سيدها الذي استخلفها لم يأذن بالتنازل عما يملكه هو وحده ، وليس لأحد أن يدعي وراثتها ، إلا مدل بباطل ، أو مغتصب لا يرعى حدود الله .

هنا ، وتعلم أيها القاريء الكريم ، أن الإسلام هو دين الفطرة ، وهو نهاية الشوط في التشريع السماوي لصالح البشرية ، وأنه جاء وقد اكتمل العقل البشري ،

وارتقت الإنسانية إلى أرفع مما كانت عليه قبله في الإدراك والتعقل ، وأنه جاء مصلحاً منظماً . فعرض لثنى نواحي المجتمع البشرى ، وراعى كل احتياجاته ، واستعرض العادات والتقاليد ، وأشباه النظم التي وجدها ، فعدل منها ما عدله ، وهذب ما هذبه ، وألغى ما لا يتفق مع روحه وسمو مبادئه ، وابتكر ما ابتكره من نظم وتشريعات غير معهودة من قبله ، وكثيراً ما تكون الأمور التي هدبها ، أو ، شذبها ، الإسلام ، أو سلبها بحالها ، من الأمور الضرورية التي لا تستغنى عنها الإنسانية بحال من الأحوال في أي زمان أو مكان .

ولقد وجد الإسلام قبائل العرب - كغيرها من شعوب الله - تخضع كل منها لرعيم من بينها له صفات خاصة ، تفذ أمره ، وتبج رأيه في السلم والحرب ، وتعترف برياسته عليها وتعطيه حق تدبير أمرها مع جماعة من كبارها يشورون معه ، ويتعاونون معه على ما فيه خير القبيلة ، وهذا تقليد إنساني مرت به جميع الشعوب البشرية ، ولقد احترم الإسلام هذا التقليد الذي صاحب البشرية في تطورها في العصور المختلفة ، لجعل كبار القوم - وهم عادة أهل العلم والرأي والخبرة والشرف - جعلهم موضع احترام الجميع ، وجعل لهم حق الطاعة على الجميع ، كما وضعهم في مقدمة الأمة في تحمل المسؤولية ، انظر متى إلى أي أسرة ، أو جماعة أو أمة ١١ فانتا لا نجد في مكان صدارتها ، إلا بطل أو عالم أو خبير بالحياة شديد الرأي ، أو ترى قدّمه ماله وعصيته . هؤلاء هم كبار القوم الذين يسمع لهم ، ويعمل الناس بارشادهم ، وهم الذين سبّاهم القرآن الكريم أولياء الأمر في قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ، ثم في قوله : « وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ، ولو ردوه إلى الرسول ، وإلى أولى الأمر منهم لعليه الذين يستنبطونه منهم ، وحول هاتين الآيتين الكريمتين ، اضطررب كلام الشراح سيما في عصر الجلود ، والعصر الحديث ، في تفسير أولى الأمر ، تبعاً لشدة أو ضعف ضغط السياسة التي لم تدع شيئاً إلا أنفسده ، حتى تطاولت إلى أقدس المقدسات وهو الدين ..! فقال قوم : هم الحكام . وقال قوم آخرون : هم العلماء ، وقال غيرهم : هم أهل المكانة والصدارة من الزعماء والعلماء وأهل الرأي والخبرة ، وبمخلصنا من هذا الاضطراب الذي أمثلته ظروف خاصة . إذا نحن علنا أن العنصر الأخلاقي عنصر أساسي في الشريعة الإسلامية التي تأخذ

المسلمين بأفانين من الترية والتأديب لتخرج منهم أمة وسطا . وخير أمة أخرجت للناس . ولتضع منهم نمطا إنسانيا عاليا تمتاز به البشرية ، وهذا العنصر هو أهم ما تميزت به شريعة الإسلام عن مختلف الشرائع السابوية والوضعية ، والإسلام يسمح تقبل التقاليد الإنسانية التي لا تتنافى مع مبادئه ، وقد علمت أن طاعة كبار القوم من أهل المكانة والعلم والرأى والتجربة تقليد إنساني ، وهو لا ينافي مقررات الإسلام ، وهؤلاء هم أهل الذكر ، واسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ، وهم أولياء أمر قومهم ، ورواد مصالح أهلهم ، والإسلام يريد أن يربي الأمة على طاعة كبرائها المجريين في غير معصية الله ، وكل فرد إذا وجد في نفسه القوة والكفافية أن يكون من هؤلاء ، حاكما كان أو محكوما ، وإذا كانت الآية الأولى عامة قررت قاعدة كلية ، وحمل أولوا الأمر فيها على الحكم ، فإن الآية الأخرى تتحدث عن أولى أمر ، إلى جانب الرسول صلى الله عليه وسلم لم قدرة على الاستبطاء ، واستتباع الناس ، ومعروف أنه لم يكن مع الرسول حاكم أو حكام يشاركونه في حكم المسلمين ، فوامح إذا أن هؤلاء لم يكونوا غير كبار المسلمين من أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم وزعماء القبائل ، وأهل البصر والتجربة ، ممن يتبعهم الناس ، ويسمعون لهم ، وينقادون لأمرهم عادة أو عصبية .

وأولوا الأمر - هؤلاء - هم المعبر عنهم عند علماء الإسلام بـ (أهل الحل والعقد) وهم من ذكرنا صفاتهم .

وقد ذهب إلى هذا الرأي جماعة من خيار السلف والخلف منهم الإمام الرازي ، والإمام الثفتازاني (السعد) والإمام النووي والإمام الرملي والإمام الشيخ محمد عبده والاستاذ رشيد رضا والاستاذ شلتوت^(١) .

ولما كان هؤلاء (أهل الحل والعقد) هم رموس قومهم ، وطلاب صلاحهم ، وأهل رأيهم وخبرتهم ، ووجودهم ضروري في كل جماعة تبحث عن خيرها ، ولا غنى للجماعة عنهم وقد صقلهم الإيمان . وحجب الإسلام إليهم التفاني والرغبة

(١) راجع تفسير الرازي لسورة النساء في الآيتين ، ورأى السعد في المقامد ٧ - ٥٧٢ وشرح المنهاج للرملي ٧ - ١٢٠ وتفسير المار ٥ - ١٨ — ٦١٢ وفتح القرآن والدة فتيحي شلتوت ص ١٧٤ .

في صالح الإسلام والمسلمين ، وأصبح ذلك هدفهم الأول ، فإن الله قد أوجب طاعتهم على أفراد الأمة في كل ما لا يضر الدين والدولة ، وما داموا أهلاً لثقة المؤمنين .

وقد كانت هذه الطبقة من المسلمين في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم تكون ما يشبه المجلس الشورى للرسول عليه السلام ، وكان صلى الله عليه وسلم يستشيرهم فيما تستلزمه دينهم ومصالحهم بما لا شرع فيه يلزمهم باتجاه معين ، وكثيراً ما رأينا القرآن الكريم يؤيد وجهة نظر بعض هؤلاء المستشارين في غير مسألة ، استشارهم عليه السلام يوم الحديبية ، ويوم بدر ، ويوم الأحزاب ، وفي الحجاب ، وأمور الحرب والمعاهدات ، وأوضح مثل تقدمه لذلك استشارة الرسول لهم فيما يجب عمله مع أسرى بدر من المشركين ، وما نزل في ذلك من قرآن كريم ، ونخلص مما قدمته الى أن كبار الثوم من زعماء وعلماء وأهل خبرة في نواحي الحياة المختلفة . هم أولياء الأمر ، وأهل الحل والعقد ، وهم لسان الأمة الناطق برغباتها والمعلن لخطتها أو رضاها ، أو هم وكلاء الأمة الدائمون ، يتألف منهم شبه (مجلس أعلى للأمة) يسهر على مصالحها ، ويوجه سياستها في السلم والحرب . ويراقب حكامها ، ويرشح من يراه أهلاً لقيادة المسلمين ورياستهم ، ويقدمه للأمة لتوكله بالبيعة ليصرف شئونها ، وهؤلاء هم المعنيون بقول الله تعالى : « وأمرهم شورى بينهم » ، وهم الذين أوجب الله على رسوله الكريم مشاورتهم « وشاورهم في الأمر » ، وأول واجب عليهم هو ترشيح الحاكم وتزكيته ، وتقديمه للبيعة ، فإن رآه الأمة أهلاً لنقبتها منحه رضاها ، وبايعته ، وإذا ظهر في المرشح عيب حتى عن الكبار يطعن في أهليته ، فمن حق الأمة أن ترده إن شاءت ، والمسلمون جميعاً أهل للاختيار بشرط الكفاية والصلاح والقدرة على استتباع الناس ، لا يختص الحكم الإسلامي بيت خاص ، أو قبيلة خاصة أو شعب خاص ، فالمسلمون سواسية كأسنان المشط ، وأكرمهم عند الله أتقاهم ، ومن لم يتقدم به عمله ، لم يسرع به نسبه ، ولو جاءت الأعاجم بالعمل وجاء العرب بغير عمل . لكان المعجم أحق بمحمد يوم القيامة كما يقول عمر فكل من توفرت فيه الكفاية أهل للحكم إذا ارتضته الأمة لقيادتها ، وله عليها حق الطاعة ما دام ملتزماً لدستورها ، فإن تحلل منه ، فهي في حل من طاعته .

ومن الملاحظ دائماً أن الحاكم الذي تختاره الأمة يكون عادة واحداً من أهل الحل والعقد، وأيضاً فإن أهل الحل والعقد يرشحون دائماً فرداً منهم، وإن كان هناك احتمال الاتفاق بين هؤلاء الكبار على استغلال الأمة؛ ولهذا يجتاط الإسلام لما عساه يحدث من تأمرهم مع الحاكم، وهو مهمهم على الأمة واستغلال نفوذهم ومكانتهم لمصالحهم الخاصة، هم بشر غير معصومين، وليس لدى الإسلام ما يضمن له أن يظل هؤلاء الكبار كما كانوا في عهد الرسالة. يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، والقلوب تتقلب، والنفوس تتغير، ونظرتها إلى الحياة تتطور، وروح الدين قد يضعف أو يتلاشى. وعندئذ لا يبرع الشخص قرآن ولا سلطان، فهل توضع الأمة في مثل هذا الطرف تحت رحمة هؤلاء الكبار؟ لا. ما كان للإسلام أن يكبل الأمة بهذه القيود ويخضعها لفئة منها هم خدامها، لأن الإسلام قد أحترم الأمة، وخلق لها بالتكليف شخصية معنوية دائمة. ومنحها السيادة على نفسها ومقدراتها، ووكّل إليها اختيار خدام مصالحها. ولهذا يضع الإسلام الأمة في أعلى القمة على رأس الحاكم ومجلس شوراه (أهل الحل والعقد) فهم جميعاً تحت رقابة الأمة، وكل فرد من الأمة مسلط عليهم، ومن حقهم مراقبتهم، بسلطة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حتى لا تستعبد الأمة وتذل لفرد أو أفراد من أبنائها، وحتى لا يكون هناك مجال لتسخيرها لمصالح الحاكمين، إذا فسدت الضمائر وتواطئوا على استغلالها لصوالحهم الخاصة، ولهذا وضع الحاكم ومستشارو تحت سيف مصلت على رقابهم هو سيف الرقابة الشعبية وبهذا يتميز النظام الإسلامي عن غيره من النظم البشرية قديماً وحديثاً.

إذن فركز الحاكم مركز دقيق محفوف بالاشواك والأخطار، هو خادم مستول عن سيده أمام سيده وأمام خالقه مسئولية دينية وأخروية، وهذا هو معنى قول عمر بن الخطاب للناس: «إن الله ابتلاني بكم وابتلاكم بي». «إذا كنت في منزلة تسعى. وتعجز عن الناس. فوالله ما تلك لي بمنزلة حتى أكون أسوة الناس». «إني والله لست بملك فأستعبدكم. ولست بعبء على الأمانة. فإن أنا أبيتها ورددتها عليكم وابتعتكم حتى تشبعوا في بيوتكم وترووا. سعدت بكم، وإن أنا حملتها واستتبعتم إلى بيتي شقيت بكم»، ولما أقسم عامل الرمادة ألا يذوق سخطاً

ولا لحا ولا عسلا ولا لبنا ، وأراد بعض الناس صرفه عن قسمه قال : . كيف يعنني شأن الرعية إذا لم يمسنني مامسهم ؟ بنس الوالي أنا إذا شجعت وجاع الناس ! . ولما قال له الأحنف بن قيس : اتق الله فيما لا يغني عنك يوم القيامة قبيلا ولا قالا ، واجمل بينك وبين رعبتك من العدل والانصاف شيئا ، قال رجل : كيف تقول لأمير المؤمنين اتق الله . غضب عمر وقال : لا خير فيكم إذا لم تقولوها . ولا خير فينا إذا لم نسمعها منكم ، ١١

ويقول عن أموال المسلمين : . والله ما من أحد إلا وله في هذا المال حق ، وما أنا فيه إلا كأحدكم ، ولكننا على منازلنا من كتاب الله . . . وكان يرى أن ظلم الحاكم مسقط لولايته ، وكان ينادي في كل موسم حج : من ظلمه أمير فلا إمرة عليه دوني . وبهذه الروح قال لعمر بن العاص : متى تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ؟

وهذا المنهج وتلك المبادئ هما في الواقع صدى لقوله تعالى لرسوله : . فذكر إنما أنت مذكر ، لست عليهم بمسيطر ، فهمة الحاكم حسن الارشاد وتحقيق العدالة وقيادة المجتمع قيادة رشيدة إلى الخير والجمال ، والسلام والكمال ، وإذا كان من حقه أن يكون عام السلطان لمسئوليته عن كل شيء ، فليس له أن يسيطر ويستعبد الناس ، لأنه واحد منهم . وهم الذين قدموه ، وله ما لهم وعليه حمل أنقل من أحماهم ، وميزله منهم كنزلة ولي اليتيم منه ومن ماله ، فليس لهذا على اليتيم سيادة ، وليس له أن يأكل من ماله إلا إذا كان فقيرا فليأكل بالمعروف ، إفاء حسن إرشاده وحسن رعايته ، وهكذا أحكم الإسلام وحدة الأمة ، وحقق بهذا التنظيم والتعاون والتضامن ، الانسجام والتوافق والتجاوب بين الحاكم والمحكوم . وهذا هو سر حيوية الإسلام السياسية ، وسر قوة الحكم الإسلامي في العصور الأولى . وسر صلاحية السياسة الإسلامية للتطبيق في كل زمان ومكان ، وقدرتها على حل مشاكل العصر الحاضر .

وللكلام بقية ، فإلى العدد القادم إن شاء الله ، والله يهدينا إلى صراطه المستقيم .

دراسات في القرآن

موسى الكليم

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمود النواوي

المفتش بالأزهر

القصص في القرآن باب واسع ، يحتل مكانا فسيحا ، وينال قسطا كبيرا ، ذلك أنه غرض جليل الفائدة ، غزير المادة ، عظيم الخطر ، بالغ الأثر ، سائغ العرض ، محبب إلى كل نفس من الغلام الناشئ ، إلى الشيخ الفاني ، كل يجد فيه السلى ، ويتخذ منه العظة العظمى . وفي قصص هذا الكتاب السماوى دقة تخير لما ينفع ، وأعظم تحرر لما وقع ، فهو أصدق الحديث ، وأحسن القصص ، ولقد كان في قصصهم عبرة لأولى الألباب ، ما كان حديثا يفترى ، ولكن تصديق الذى بين يديه ، وتفصيل كل شيء ، وهدى ورحمة لقوم يؤمنون .

ولو لم يكن في هذا القصص إلا دلالته الحقة على صدق هذا النبي الأسمى الذى نشأ يتيما في مكة يحول بين شعابها الجاهلة وبدرج في ربوعها الغافلة ، حيث لا معلم ولا موجه . ثم هو بعد يتحدى أهل الكتب السماوية ، ويحاج ذوى المعارف والثقافة في مختلف النواحي فيهرم ويصرعهم ، فمن أين كان لذلك اليقيم ناشئ مكة أن يعرف أن الله كتب في التوراة أن النفس بالنفس ، والعين بالعين إلى آخر القصص ؛ أو يعرف أن الرجم في التوراة . ويتحدى أجبارهم لإنبات ذلك مثلا ؛ بل من أين هذا القصص الثابت الصادق الذى تحدى به أمم الأرض ورواتها ، ولا سيما أرباب الكتب المقدسة ، فما حاول أحد أن يكذبه ، وهم الأعداء الأشداء الذين أعتيمت الخيل في صراع محمد والقضاء عليه ؟؟؟ ليس في ذلك دلالة على صدقه في دعوى الرسالة وأن هذا العلم من لدن الله ؛ وفي الكتاب الكريم : « أو لم يكن لهم آية أن يعمله عباء بنى إسرائيل ، إن هذا القرآن يقص على بنى إسرائيل أكثر الذى هم فيه يختلفون ، وفيه أيضا : « وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين ، ولكننا أنشأنا قرونا فتناول عليهم العمر ، وما كنت

ثاويًا في أهل مدين تتلو عليهم آياتنا ، ولكننا كنا مرسلين ، وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ولكن رحمة من ربك .

ردد الله سبحانه في القرآن الكريم كثيراً من شئون بني إسرائيل في ماضيهم وحاضرهم ، وأنبأهم بدعائل نفوسهم ، وكشف لهم طائفة من عيوبهم ، وساق عدة من أخبار نبيه الكريم قبل الرسالة وبعد الرسالة ، يرددها في ألوان مختلفة في لغة الواثق المثبت ، وجرأة العلم المتحقق ، وقد أحصيت لها خمسة وعشرين موضعاً في الكتاب الكريم ، بعض معانيها يتكرر مع بعض آخر ، وهو الأكثر الأغلب وبعضه يفرد به موضع واحد ، كقصة بقرة بني إسرائيل في سورة البقرة وقتل النفس التي تدافعوا فيها أيضاً ، وكقصة قتال الجبارين في المائدة ، وكقصة قارون في القصص ، وكقصة الخضر وموسى في الكهف وهذا التكرار في الكتاب من مزاياه الخطيرة . ودلائل إعجازه المشرقة المنيرة . فباليت شعري أي كتاب سوى القرآن سلك هذا المسلك فلم يسخف ، وتطاول إلى ذلك الرقي فلم يهن ولم يضعف لقد كان جديراً أن يختلف أسلوبه ، أو تفتقر بعض عباراته ، أو تهجف خصوصته أو تنحف بلاغته ، أو تمر حلاوته ، أو تملح عذوبته ، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً .

على أن فيه من التشويق والاستطراف ما لا يحصى ، فهو يكمل في بعض المناسبات ما لم يتم في مناسبة أخرى .

ولعمري أيهم لو كان الأمر كما يزعمون لسبق به خصوم محمد صلى الله عليه وسلم من أهل اللسان ، وأصحاب الذوق ، وهم الذين كانوا يلتمسون عثرة جده بكل حيلة وبخاصة أنه تحداهم بالقرآن وألح في التحدي حتى أصمهم وأعمى أبصارهم .

ذكر الله سبحانه موسى الكريم في خمسة وعشرين موضعاً من كتابه الكريم في هذه السور : البقرة ، المائدة ، الأعراف ، يونس ، هود ، إبراهيم ، الإسراء ، الكهف ، طه ، المؤمنون ، الفرقان ، الشعراء ، النمل ، القصص ، السجدة ، الأحزاب ، الصافات ، غافر ، الزخرف ، الدخان ، الاحقاف ، الذاريات ، القمر ، الصف ، التازعات .

أما سورة البقرة فقد تناولت الآيات الكريمة (٤٧ - ٩٣) توجيه الخطاب إلى بني إسرائيل الذين كانوا يسلكون مع نبيه صلى الله عليه وسلم مسلك الجحود

ويعاملونه معاملة لا يصدر مثلها من مثلهم ، فذكرتهم نعم الله سبحانه وفصلت نواحي من ذلك الإنعام ، من ذلك تفييه القوم بما كان لبعض أسلافهم من ماض سىء فيه مثلات وعظمت ، تأتي على العاقل الموفق أن يتورط بعدها في خروج على رسول عظيم ، أرسله الله يعلمهم ، وقامت عليه الدلائل في كتبهم ، ثم هي تحمل موجب الإيمان به والتقدير له من قبل أن ذلك التاريخ التفصيل البعيد مداه ، المندثرة آثاره من أقوى الدلائل على أنه وهو هذا الأمل المعروف رسول من عند الله . على أن بين الآيات الكريمة استطرادا ، فالآية ٥٤ تذكرهم بنعمة الله عليهم إذا أقدم من الكرب العظيم من فرعون وآله ، وكانوا يذيقونهم سوء العذاب ، يدبحون الذكور من أبنائهم ويستبقون الإناث ، ذلك أن الشعب الإسرائيلي كان في مصر عنصرا أجنبيا بين التبط ، بدأ حياته في مصر من عهد يوسف وإخوته ثم أخذ ينمو ويتزايد ، وهو شعب جبار عارم شديد الأثرة والاعتداد فأخذ القبط يستغلونهم بالأعمال الشاقة ، ولم يكن ذلك ليقل من شوكتهم ، فلما كان عهد فرعون ذلك المذكور في القرآن أشار عليه القبط بأن يأمر القوابل بقطع دابر الذكور منهم بأن يدبحوهم وقت الولادة ، وهو بلاء عظيم حتما ، والمعنى مرو في سور كثيرة مع بعض التفصيل في أوائل سورة القصص آية (٤ ، ٥) وفي الآية ٥٠ تفصيل لبعض نواحي النجاة من آل فرعون مع طي ما كان من ولادة موسى وما جرى عليه إلى عهد الرسالة مما تكفلت به سورة القصص وطه والنمل كما ستره إن شاء الله ، فالآية تنص على أن الله فرق بهم البحر فأنجاهم وأغرق آل فرعون برأى منهم ، والمعنى مفصل في الآيات (٩٠ - ٩٣) من يونس والآيات (٧٧ - ٧٩) طه ، والآيات (٥٢ - ٦٦) الشعراء ، والآيات (٢٢ - ٣١) الدخان ، وفي شرح بعض القرآن ببعض منته ومنفعة وإيمان .

وتعود آية ٥١ من سورة البقرة فتشير إلى مواعدة الله سبحانه عبده موسى بإيتاء التوراة بعد حادث النجاة فقد خلصوا من شواغل تلك المزعجات من فرعون وقومه وما كانوا ينالونهم به قبل موسى وبعده ، واستعدوا لتشريع من الله يسرون على نهجه . فأمر الله سبحانه موسى أن يحجى إلى الجبل بعد أربعين ليلة ليأخذ التوراة فيها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون .

عدي بن الرقاع

بين الوليد بن عبد الملك وبين هرون الرشيد

لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد الجواد رمضان

الأستاذ بكلية اللغة العربية

عدي بن الرقاع العاملي ، أحد شعراء الإسلام ؛ وكان شاعرا مقدما عند بني أمية ، مداحا لهم ، حاصا بالوليد بن عبد الملك ؛ أثيرا عنده ؛ وقد تعرض لجرير وناقضه في مجلس الوليد ، ثم لم تتم بينهما مهاجاة ؛ وكانت مكاتبة عند الوليد ، مثار حسده له ، وغيره منه ، عند غيره من الشعراء ، بجرير ، والفرزدق ، وكثير وغيرهم . دخل جرير على الوليد مرة وعنده عدي ، فقال الوليد : أتعرف هذا ؟ قال : لا ، فمن هو ؟ قال : هذا ابن الرقاع . قال : فشر الثياب الرقاع ، فمن هو ؟ قال : من عاملة . قال : أمن التي قال الله تعالى فيها : « عاملة ناصبة ، تصلي نارا حامية » ؟ فقال الوليد : والله ليركبئك الشاعرنا ومدحنا والرائي لامواتنا تقول هذه المقالة ! يا غلام ، على ياكاف ولجام . فقام إليه عمر بن الوليد ، فسأله أن يعفيه فأعفاه ؛ وقال والله لئن هجوته لأفعلن ولأفعلن . فلم يصرح جرير بهجاء عدي ، ولكنه عرض به تعريضا ، في قصيدته التي مطلعها :

حي الهدملة من ذات المواعيس ؛ إذ يقول فيها :

إني إذا الشاعر المغرور حربي	جار لقبر علي مران مرموس ^(١)
قد كان أشوس آباء فورثنا	شعبا على الناس في أبنائه الشوس ^(٢)
أقصر ، فإن زارا لن يعاضلها	فرع لثم ، وأصل غير مفروس
وابن اللبون إذا مالز في قرن	لم يستطع صولة البزل القناعيس
قد جربت عركتي في كل معترك	غلب الأسود ، فأبال الضغاييس ^(٣)

(١) حربي : أغضبي . (٢) الشوس [بالتحريك] . التكبر والنظر بمؤخر العين .

(٣) تالمب جمع أغلب ؛ وهو الملبط الرعية . والضغاييس جمع ضغوس : الضعيف .

وذكر كثير، وعدي، في مجلس بعض خلفاء بني أمية : فامتروا فيهما أيهما أشعر، وفي المجلس جرير : فقال جرير : لقد قال كثير بيتاً ، هو أشهر وأعرف في الناس من عدي بن الرقاع نفسه ! ثم أنشد قول كثير :

أَنْ زُمْ أَجْمَالُ ، وفارق جيرة وصاح غراب البين ، أنت حزين ؟
خلف الخليفة : لئن كان عدي بن الرقاع أعرف في الناس من بيت كثير ،
ليس جن جريراً ، وليلجمه ، وليركب عدي بن الرقاع على ظهره ! فكتب إلى واليه بالمدينة : إذا فرغت من خطبتك فسل الناس : من الذي يقول :

أَنْ زُمْ أَجْمَالُ ، وفارق جيرة وصاح غراب البين أنت حزين
وعن نسب ابن الرقاع . فلما فرغ الوالي من خطبته ، قال : إن أمير المؤمنين كتب إلى أن أسألكم من الذي يقول :

أَنْ زُمْ أَجْمَالُ الخ . قال : فابتدروا من كل وجه يقولون : كثير ، كثير .
ثم قال : وأمرني أن أسأل عن نسب ابن الرقاع : فقالوا : لا ندري ! حتى قام
أعرابي من مؤخر المسجد فقال : هو من عاملة !

ومن أعجب العجب ، أن يقول نوح بن جرير لأبيه : يا أبت ، من أسب الشعراء ؟ فيقول له : أتعني ما قلت ؟ فيقول : لا ، إني لست أريد من شعرك ،
إنما أريد من شعر غيرك . فيقول جرير : أنسب الشعراء ابن الرقاع في قوله :

لولا الحياء وأن رأسي قد عسا فيه المشيب لزرت أم التماس
وكانها وسط النساء أعارها عينيه ، أحور من جاذر جاسم
وسنان أقصده النعاس فرتمت في عينه سنة ، وليس بنائم

ما كان يبالي أن لم يقتل بعدها شيئاً ! !

وأن يقول جرير : سمعت عدي بن الرقاع يشد :

ترجي أغن كأن لبرة روقه

فرحمته من هذا التشبيه فقلت : بأي شيء يشبهه ترى ! فلما قال : قلم أصاب
من اللواة مدادها .

رحمت نفسي منه !

وأشدّ عدى بن الرقاع الوليد بن عبد الملك قصيدته ، التي منها البيت السابق ،
والتي أولها :

عرف الديار توها فاعتادها من بعد ما شمل البلى أبلادها
إلا رواكد كلهن قد اصطلت حراء أشعل أهلها إيقادها
كانت رواحل للقدور ، فمررت منهن ، واستلب الزمان رمادها

وعنده كثير ، وكان ييلفه عن عدى ، أنه يطعن على شعره ، ويقول :
هكذا شعر حجازي مفرور إذا أصابه قر الشام جمد وهلك . فلما انتهى عدى
إلى قوله فيها :

وقصيدة قدبت أجمع بينها حتى أقوم ميلها وسنادها
قال كثير : لو كنت مطبوعا أو فصيحاً أو عالماً ، لم تأت فيها بميل ولا سناد ،
فتحتاج إلى أن تقومها . ولما قال :

نظر المثقف في كعوب قناته حتى يقيم ثقافه منآدها
قال كثير : لا جرم أن الأيام إذا تطاولت عليها عادت عوجاء ، ولأن تكون
مستقيمة لا تحتاج إلى ثقاف أجود لها . ثم أنشد :

وعدت ، حتى ما أسائل عالماً عن علم واحدة لكي ازدادها
فقال كثير : كذبت ، ورب البيت الحرام ، فليمتحنك أمير المؤمنين بأن يسألك
عن صغار الأمور دون كبارها حتى يقين جهلك ؛ وما كنت قط أحق منك الآن
حيث تظن هذا بنفسك . فضحك الوليد ومن حضر ، وقطع بعدى بن الرقاع
حتى ما نطق .

• • •

وروى ابن عبد ربه - في نسق رائع ، وخبر طويل - عن الأصمعي قال :
تصرفني في الأسباب إلى باب الرشيد مؤملاً للظفر ، وطاولني الغايات بما كدت
به أن أصير إلى قلاية ؛ فلم تشعر أن خرج علينا خادم في ليلة نثرت السعادة والتوفيق
فيها الأرق بين أجنان الرشيد . فقال : هل بالحضرة أحمد يحسن الشعر ؟ فقلت :
الله أكبر ! رب قيد مضيقته قد فكك التيسير للأنعام ! أنا صاحبك . فأخذ

بيدي ، فواجهت الرشيد في البهو جالسا ، كأنما ركب البدر فوق أزراره جمالا ، والفضل بن يحيى إلى جانبه ؛ فوقف بن الخادم حيث يسمع تسليمي ، ثم قال ؛ سلم ، فسلمت ، فرد ، ثم قال ؛ تنح ؛ ليسكن قليلا إن وجد لروعتك حسا ، فقمعت حتى سكن جأشي قليلا ، ثم أقدمت فقلت ؛ يا أمير المؤمنين ، إضائة كرمك ، وبهاء مجدك ، مجيران لمن نظر إليهما من اعتراض أذية له . تسألني فأجيب ، أم أبئدي فأصيب ، يمن أمير المؤمنين وفضله ؛ قال ؛ فتبسم الفضل ، ثم قال ؛ والله يا أمير المؤمنين لقد أقسم ببرزا محسنا في استشهادي على برامته من الحيرة ، وأرجو أن يكون محسنا ؛ قال ؛ أرجو . أدن ، فدنوت ، فقال ؛ أشاعر أم راوية ؟ فقلت ؛ راوية يا أمير المؤمنين ؛ قال ؛ لمن ؛ قلت ؛ لذى جد وهزل ، بعد أن يكون محسنا . قال ؛ والله ما رأيت أدعى لعلم ، ولا أخبر بمحاسن بيان فثقته الأذهان منك ؛ ولئن صدرت حامدا أثرك ، لتعرفن الأفضال متوجها إليك سريعا . قلت ؛ أنا على الميدان يا أمير المؤمنين .

وبعد اختبار دقيق وحوار تمتع لا يتطلبهما صميم الموضوع ، قال ؛ أسمعني كلمة عدي بن الرقاع في الوليد بن عبد الملك ؛ عرف الديار توها فاعتادها . فقال الفضل ؛ يا أمير المؤمنين أليستنا ثوب السهر ليلتنا هذه ، لاستماع الكذب ؛ لم لا تأمره يسمعك ما قالت الشعراء فيك وفي آبائك ؛ قال ؛ ويحك ؛ إنه أدب ، وقلما يعتاض مثله ولأن أسمع من ثقف ، أحب إلى من أن تشافني به الرسوم ؛ وللمتدح بهذا الشعر حركات سترد عليك ، ولا تقدر أن تصدر من غير استحسان لها ، ثم تردها إليك الرواية ، قال الفضل ؛ قد - والله - يا أمير المؤمنين ، شاركتك في الشوق ، وأعتك على السوق ؛ ثم التفت إلى الفضل وقال ؛ هذا سيدي أمير المؤمنين قد أصنى إليك ، فر - ويحك - في عنان الانشاد ، فهي ليلة دهرك ، لا تنصرف إلا غائما . قال الرشيد ؛ أما إدا قطعت على ، فأحلف لتشركني في الجزاء ، فإكان لي في هذا شيء لم تقاسمته . قال الفضل ؛ قد - والله - يا أمير المؤمنين ، وطنت نفسي على ذلك متقدما ، فلا تجمعلني وعيدا ؛ قال الرشيد ؛ لا أجعله وعيدا . قال الأصمعي الآن ألبس رداء لثي على العرب كلها ، وأنا أرى الخليفة والوزير يتناظران في المواهب لي ، فررت في سنن الانشاد ، حتى بلغت إلى قوله ؛

تزجى أغن كانت إبرة روقه قلم أصاب من الدواة مدادها
 فاستوى جالساً ، ثم قال : أتخفظ في هذا شيئاً ؟ قلت : نعم ، يا أمير المؤمنين ،
 كان الفرزدق — لما قال عدى : تزجى أغن كان إبرة روقه — قال لجرير : أى
 شيء تراه يناسب هذا تشبيهاً ؟ فقال جرير : قلم أصاب من الدواة مدادها ؛ فأرجع
 الجواب ، حتى قال عدى : قلم أصاب من الدواة مدادها ، فقال لجرير : ويحك
 لكان سمعك مخبوء في فؤاده ؛ فقال جرير أسكت شغلنى سبك عن جيد الكلام^(١) .
 ثم قال الرشيد : مر في إنشادك ، فضيت حتى بلغت قوله :

ولقد أراد الله إذ ولا كما من أمة إصلاحها ورشادها
 قال الفضل : كذب وما بر ؛ قال الرشيد : ماذا صنع إذ سمع هذا ؟ قلت :
 ذكرت الرواة — يا أمير المؤمنين — أمة قال : لا حول ولا قوة إلا بالله ؛ قال :
 مر في إنشادك ؛ فضيت حتى بلغت إلى قوله :

لم تأت إلا عتوة غصبا ، ويجمع للحروب عتادها
 قال الرشيد : لقد وصفه بعزم وحزم ، لا يعرض بينهما وكل ولا استدلال ؛
 قال : ماذا صنع ؟ قلت — يا أمير المؤمنين — ذكرت الرواة أنه قال : ما شاء الله
 الله ؛ قال : أحسبك وهمان . قلت : يا أمير المؤمنين أنت أولى بالهداية ، فليردني
 أمير المؤمنين إلى الصواب . قال : إنما هذا عند قوله :

ولقد أراد الله إذ ولا كما من أمة إصلاحها ورشادها
 ثم قال : والله ما قلت هذا عن سمع . ولكننى أعلم أن الرجل لم يكن يخطئ
 في مثل هذا . قال الأصمعي : وهو — والله — الصواب . ثم قال : مر في إنشادك
 فضيت حتى بلغت إلى قوله :

وعلت ، حتى ما أسائل عالما عن حرف واحدة لكى أزدادها
 قال : وكان من جبرهم ماذا ؟ قلت : ذكرت الرواة أن جريرا لما أشد عدى
 هذا البيت قال : بلى والله وعشر مئين . . .

[١] رويت في هذا رواية أخرى آتت عن الأعمش ، وهي عندي أرجح عما هنا ، وإن صححها
 بأن المدحج شغل من الشاعر بعد أن أشد الشطر الأول مرة تسع سؤال الفرزدق وجواب جرير .
 والله أعلم .

قال الرشيد : والله إنه لثقي الكلام في مدحه وفي تشييبه ؛ قال الفضل :
يا أمير المؤمنين ، لا يحسن عدي أن يقول :

شمس السداوة حتى يستقاد لهم وأعظم الناس أحلاما إذا قدروا

قال الرشيد : بلى ، قد أحسن . ثم التفت إلى قتال : ما حفظت له في هذا
الشعر شيئا حين قال :

أطفأت نيران الحروب ، وأوقدت نار قدحت براحتك زنادها

قلت : ذكرت الرواية يا أمير المؤمنين ، أنه حك يمينا شمالا ممتدحا بذلك ،
ثم قال : الحمد لله على نعمة الإسلام .

• • •

وبعد أن استنشده لذى الرمة ، وللشباخ ، قال : أمسك . ثم قال : استعفر الله
(ثلاثا) آخر قليلا واجلس ، فقد أمتعت منشداً ، ووجدناك محسناً في أدبك ،
معبراً عن سرائر حفظك : ثم التفت إلى الفضل فقال : لكلام هؤلاء ديباج
الكلام الحسن ، وإنه يزيدك على القدم حدة وحسناً ؛ فإذا جاء الكلام المزين
بالبديع ، جاءك الحرير الصيني المذهب ، فإذا أمتعته الاسباع ، لذى القلوب له
رونق صواب ، ولكن في الأقل ! ثم قال : يعجبني مثل قول مسلم في أبيك
وأخيك ، مخاطبا حليته ، مقتخراً عليها بطول السرى في اكتساب المغامم :

أجدك ، هل تدري أن رب ليلة كأن دجاها من قرونك يفسر

صبرت لها ، حتى تجلت بعرة كفرة يحبي حين يذكر جعفر

أفرايت ! ما أظف ما جعلهما معدا لكال الصفات ومحاسنها ، ثم التفت إلى
وقال : أجد ملالة . ولعل يا العباس يكون لذلك أنشط ، وهو لنا ضيف في ليلتنا
هذه ، فأقم عنده ، مسامراً له ... ثم قال : يا غلام ، على بصاخ الخادم ؛ فقال :
يؤمر له بتعجيل الثلاثين ألف درهم في ليلته هذه . قال الفضل : لولا أنه يجلس
أمير المؤمنين ، ولا يأمر فيه أحد غيره ، لدعوت له بمثل ما أمر به أمير المؤمنين .
فدعا له بتسعة وعشرين ألفاً يقبضها من غده . قال الأصمعي : فما صليت الظهر ،
إلا وفي بيتي تسعة وخمسون ألف درهم !

أما بعد ، فقد سقت هذا الحديث الذي ليس لي فيه إلا الجمع ، لا أقصد من وراءه أن أترجم لعدى ، فما أكثر تراجم الرجال في السوق ! ، وإنما قصدت إلى نشر ما حواه ، من رائع الأدب ، وبارع النقد ، وعناية خلفاء المسلمين بهما ؛ وانعاقهم في ذلك على اختلاف مذاهبهم في الدين والسياسة والاجتماع والثقافة ؛ وحذقهم للنقد دراية ورواية ؛ وبصرهم بسات الجمال الفني في قديم الشعر وحديثه ، بصر الباحث الخبير الذواق .

فهذا الوليد بن عبد الملك ، أوسع بى مروان رقعة ملك ، وأوفاهم حظاً من الشعراء ، لا يصرفه تعريض جرير بابن الرقاع . ولا نقد كثير له في مجلسه وانقطاع عدى وهزيمته ، عن إدناته ، والدفاع عنه ، والاختصاص به ، لما يلبسه من قوة فنه ، في مدحهم ، ورتاء موتاهم ، كما قال .

وهذا الرشيد ، خصم الوليد وقرينه ، وجبار بنى العباس ، لا تصرفه العداوة الطبيعية بين أمية وهاشم في القديم والحديث ، ولا يصرفه وزيره الفضل بن يحيى بلومه الذي لا يخلو من عنف ، عن سماع قصيدة عدى في مدح خصمه الوليد ، ولا عن روايته هو نفسه ، لتلك الكلم التوابخ ، التي أرسلها الوليد عقب سماعه لكل بيت نادر ، وللحوادث التي اتصلت ببعض أبيات القصيدة :

يقول الرشيد للأصمعي : أسمعني كلمة عدى بن الرقاع في الوليد بن عبد الملك : عرف الديار توها فاعتادها . فيقول الفضل : يا أمير المؤمنين ، ألبستنا ثوب السهر لبنتنا هذه لاستماع الكذب !؟ لم لا تأمره يسمعك ما قالت الشعراء فيك وفي آبائك ! فيقول الرشيد : ويحك ! إنه أدب ، وقلنا يعتاض مثله ، ولأن أسمع من ثقف ، أحب إلى من أن تشافهني به الرسوم ؛ وللمتدح بهذا الشعر حركات سترد عليك ، ولا تقدر أن تصدر من غير استحسان لها ، ثم تردها إليك الرواية !

ثم يعلل الرشيد مبلغ عنايته بالشعر القديم ، بهذا الحكم العادل القاطع : « لكلام هؤلاء ، الندامى ، ديباج الكلام الحسن ، وأنه يزيدك على القدم جدة » . ثم يقول عن شعر المحدثين : « فإذا جاء الكلام المزين بالبديع ، جاءك التحرير الصينى المذهب ، فإذا أمتعت الأسماع ، لذ في الملوب له روتق صواب ، ولكن في الأقل ! » .

أنظر إلى هذه الدقة ، وهذا النعاد ، ثم أخبرني : أليس كلام الملوك ، ملوك الكلام !؟

في صحيح المكفوفين

لفقيه الأستاذ الشيخ أحمد الشرباصي

المدرس بالأزهر الشريف

حينما نستني التاريخ نجد أنه قد ضم في صفحاته كثيرين من كبار المكفوفين الذين كان لهم مكان ملحوظ ومركز ممتاز؛ ويستوى في ذلك التاريخ البعيد والتاريخ القريب، فنحن نجد في الأنبياء مكفوفين مثل إسحق ويعقوب وشعيب عليهم السلام. نعم قد وقع خلاف في جواز العمى على الأنبياء، فتنه بعضهم لأن مقام النبوة أشرف من ذلك، ولأنه لم يرد نص قطعي الدلالة بمعنى إسحق وشعيب، ويقول البعض الآخر: فكيف يقول الله عن يعقوب: «وايضت عيناه من الحزن» وقوله عنه: «فارتد بصيرا»؟. إن هذا يفيد سبق العمى، ولا ينفع التأويل بأن قوله «ايضت عيناه» كناية عن غلبة البكاء وامتلاء العين بالدموع.

ومن أشراف العرب وعظماهم قبل الإسلام مكفوفون منهم عبد المطلب ابن هاشم والحكم بن العاص وزهرة بن كلاب وقلاب بن مرة ومطعم بن عدي، وغير هؤلاء.

ومن كبار الصحابة في الإسلام مكفوفون، نذكر منهم أبا قحافة والد أبي بكر الصديق وكعب بن مالك الأنصاري وقتادة بن النعمان والبراء بن عازب وسعد ابن أبي وقاص وعبد الله بن الأرقم وعمرو بن أم مكتوم ومالك بن ربيعة وعزيمة ابن نوفل وعبد الله بن عباس؛ وتراجم هؤلاء مبسولة في مختلف المصادر القديمة والحديثة، وهي تفيض بالمآثر والمفاخر.

ومن كبار التابعين مكفوفون مثل عطاء بن أبي رباح وأبي هلال الراسبي وقتادة بن دعامة وأبي عبد الرحمن السبي، وهؤلاء معارف في تاريخ الإسلام وليسوا ببنكرات...

ومن كبار الأئمة والفقهاء والعلماء مكفوفون، وحسبك أن تذكر هنا هذه

الاسماء الخالدة : الشاطبي ، الترمذى ، النيسابورى ، العكبرى ، الشترى ، أبو زكريا البغدادى .

ومن عظماء شعراء العربية مكفوفون حسبنا منهم هنا عيان لا يحفيان على ناظر وهما أبو العلاء المعرى وبشار بن برد .

وفي التاريخ القريب نجد كثيراً من الأزهرين النابغين اللامعين كانوا مكفوفين مثل يوسف الدجوى وإبراهيم الإيبارى ومحمد المعداوى ومحمد حسين البولاقى (والد المرحوم أحمد حسين باشا) وأحمد الزين . ومن الأزهريين المعاصرين النابغين نجد مكفوفين ، فهذا هو الدكتور طه حسين باشا الذى لم يمنعه كف بصره عن الجمع بين الثقافة الشرقية والثقافة الغربية ، ولا عن تعلم اللغات القديمة والحديثة ولا عن الإنتاج الأدبى الهائل ، ولا عن مركز الوزارة نفسه . . .

وهذا هو الشيخ الصاوى شعلان يعد مثلاً من أمثلة نوع المكفوفين ، فهو قد أتم دراسته الأزهرية ، ثم برع فى دراسته الجامعية ، ثم مهر عدة لغات . وهو يجيد الشعر والنثر خطابة وكتابة ، وهذا أخونا الأستاذ محمد العلاقى ، كان زميلاً لنا فى الدراسة الأزهرية ، ثم التحق بكلية الآداب وهو مكفوف فأتم دراسته بها ، ثم سافر إلى إنجلترا يتلقى العلم فى معاهدها ، ولا يزال هنا يتابع خطواته الموفقة فى سبيل الحصول على درجته العلمية الفاتحة .

ولم نقصد حين ذكرنا كل هذه الاسماء بعد أن نظمناها ، وقد كانت مبنوثة متفرقة فى شتى المصادر ، أن نقول إن هؤلاء جرحاً ولدوا مكفوفين ، أو أصابهم كف البصر منذ الصغر ، فقد اختلفت أحوالهم من غير شك ، فبعضهم ولد أعمى ، وبعضهم كف بصره صغيراً ، وبعضهم أصابه العمى كبيراً ، ولكنهم على أية حال يعدون فى ثبت المكفوفين .

• • •

وكف البصر كما تريد أن تؤكد فى الأذهان ليس إلا نقصاً حسيّاً فى ناحية من نواحي 'الجسم' ، ومن الممكن تعويض هذا النقص بالمثل أو بأكثر منه ، لأن الخالق سبحانه إذا سلب عبداً نعمة عوضه عنها مثلاً أو خيراً منها ، ومن هنا نرى الكفيف

لا يعوقه كف بصره عن القيام بواجبه في حياته ، لأنه يكون عادة حاد اللمس ، والسمع والنطق والفهم ، ومن حدة لمسه أنه يميز بين الأشياء المتشابهة والأدوات المتماثلة بينها ، ولو أغمض البصير عينيه وأراد ذلك لما استطاع ، ومن حدة سمعه أنه يسمع الحمس البعيد والتجوى الخفية ، ومن حدة نطقه أنه يكون جهوري الصوت يسمع الجمل الغفير ، ولذلك يجلجل صوته إذا خطب أو وعظ ، وترعرع الأسباع بنبراته ، ومن هنا قال إبراهيم بن هاني : « من تمام آلة القصص أن يكون القاص أعمى ، ويكون شيخاً بعيد مدى الصوت » ، ومن حدة فهمه أنك ترى المكفوف أسرع إلى الإدراك وأعمل في التحصيل وأدق في التمييز العقلي من مثله البصير ، كما أنه مما يوضح ذلك أننا نرى كثيرين من المكفوفين يبرعون في الحياطة والموسيقى ولعب الشطرنج والخطابة وغير ذلك من دقائق الأعمال ، كما قد يمر بنا تبيان في مستقبل الكلام .

واقف قال صلاح الدين بن أيك الصفدي : « قل أن وجد أعمى بليداً ، ولا يرى أعمى إلا وهو دكي (ثم ذكر أسماء عميان عظماء ثم قال :) والسبب الذي أراه في ذلك أن ذهن الأعمى وفكره يجمع عليه ، ولا يعود متشعباً بما يراه ، ونحن نرى الإنسان إذا أراد أن يذكر شيئاً نسيه أغمض عينيه وفكره ، فيقع على ما شرد من حافظته ، وفي المنزل : أحفظ من العميان ؛ أوردته المبداني في أمثاله . »

ولا يحسب أحد أن إدراك ذلك مما يغيب عن المكفوفين أنفسهم ، بل لعلم أسبق من سوام في الوقوف عليه والتنويه به ؛ قال رجل للقاسم بن محمد الضرير : لقد سلبت أحسن وجهك ، فقال : صدقت ، غير أنني منعت النظر إلى ما يلهمي . وعوضت الفكرة فيما يجدي . وقال عبد الله بن عباس رضي الله عنه ، بعد أن كف بصره :

إن يأخذ الله من عيني نورها في لاني وسمي منهما نور
قلبي ذكي ، وعتملى غير ذى دخل وفي في صادم كالسيف مأمور
وقال الحريري الضرير :

فإن عيني خبا نورها فكم قبلها نور عين خبا
فلم يعم قلبي ، ولكننا أرى نور عيني لقلبي سعى

وما أبرعه من تعبير ، وما أدقه من معنى ، حيث قال إن نور عينه قد سعى من باصرته إلى بصيرته فكان ذلك من الله خير تعويض . . . وقال أبو علي الأعمى :

اثن كان يهديني الغلام لوجهي ويقتادني في السير إذ أنا راكب
فقد يستضيء القوم بي في أمورهم ويخجوا ضياء العين والرأى ثاقب
وقال عز الدين أحمد بن عبد الدائم :

إن يذهب الله من عيني نورهما فإن قلبي بصير ما به ضرر
أرى بقلبي ديتلي وأخرتي والقلب يدرك ما لا يدرك البصر

وبما يركب هذه البصيرة في الأعمى ما جاء على لسان النبوة في قصة الأبرص والأقرع والأعمى ، وهي في البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن ثلاثة في بني إسرائيل - أبرص وأقرع وأعمى - فأراد الله أن يتليهم فبعث إليهم ملكا ، فأتى الأبرص فقال : أي شيء أحب إليك ؟ قال : لون حسن وجلد حسن ، ويذهب عني الذي قد قدرني الناس . فسحه فذهب عنه قدره ، وأعطى لونا حسنا وجلدا حسنا . قال : فأى المال أحب إليك ؟ قال : الإبل ؛ فأعطى باقة هشراء . فقال : بارك الله لك فيها . قال : فأتى الأقرع فقال : أي شيء أحب إليك ؟ قال : شعر حسن ويذهب عني هذا الذي قد قدرني الناس . قال : فسحه فذهب عنه ، وأعطى شعرا حسنا . قال : فأى المال أحب إليك ؟ قال : البقر ؛ فأعطى بقرة حاملا فقال : بارك الله لك فيها . قال : فأتى الأعمى ، فقال : أي شيء أحب إليك ؟ قال : أن يرد الله إلى بصري فأبصر به الناس . قال : فسحه فرد الله إليه بصره . قال : فأى المال أحب إليك ؟ قال : النعم ؛ فأعطى شاة والدأ ، فأنتج هذان وولدت هذا ، فكان لهذا واد من الإبل ، ولهذا واد من البقر ، ولهذا واد من النعم ، قال : ثم إنه أتى الأبرص في صورته وهيئته فقال : رجل مسكين قد انتطعت في الجبال في سمرى ، فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك ، أسألك بالذي أعطاك اللون الحسن والجلد الحسن والمال - بعيرا أتبلغ عليه في سفرى . فقال : الحقوق كثيرة . فقال (الملك) له : كأتى أعرفك ، ألم تكن أبرص يقدرك الناس

فقيراً فأعطاك الله ؟ فقال : إنما ورثت هذا المال كاهراً عن كاهر . فقال : إن كنت كاذباً فصيرك الله إلى ما كنت .

قال : وأنى الأقرع في صورته ، فقال له مثل ما قال لهذا ، ورد عليه مثل ما رد عليه هذا ، فقال : إن كنت كاذباً فصيرك الله إلى ما كنت . قال : وأنى الأعمى في صورته وهيته فقال : رجل مسكين وابن سبيل انقطعت في الجبال في سفرى ، فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك ، أسألك بالذى رد عليك بصرك شاة أتبلغ بها في سفرى . فقال : قد كنت أعمى فرد الله إلى بصرى ، فخذ ما شئت ودع ما شئت ، فوالله لا أجدك اليوم شيئاً أخذته الله . فقال : أمسك مالك فإنما ابتليتم فقد رضى عنك ، وسمخط على صاحبك ...

أرأيت كيف أجدى المعروف في المكفوف ، وقد شكر أنعم الله حين جاءته وكيف استحق على لسان النبوة أن يكون صاحب الحكمة بين قريفيه ، والفائز بالخير بينما خسره الآخرون ؟ ... أليس في ذلك إجماع من طرف دقيق خفى بأن المكفوف يستحق التكريم لأنه لا يضيع عنده المعروف ؟ ...

* * *

والمكفوف من الناحية الشرعية لا يتأخر كثيراً عن البصير ، ولا يوجد بينهما من الفروق إلا ما يقتضيه هذا النقص الحسى ، فالأعمى من ناحية الشرع يلى التكاح ، ويكاتب ، ويؤم الناس في الصلاة ، ويحتد في الأوقات والأواني ، ويبيع ويشترى ، ويحل له الصيد بالكلب والرمى ، ويجوز ذبحه إذا فعله وإن كره ، ويصح أن يكون وصياً ، وتصح منه المساقاة ، وتجب عليه الجمعة إذا وجد قائداً ، ويلزمه الحج إذا وجد مع الزاد والراحلة قائداً .

واختلف القدماء في رؤية الأعمى للنامات ، فقال بعضهم : يرى . وقال بعضهم : لا يرى . والذي يقتضيه المقام هو التمهيل الموافق لما أثبتته التجربة والعلوم الحديثة ، وخاصة علم النفس ، وهو أن الأعمى إن كان قد طرأ عليه العمى بعد إبطار ، وبعد تمييزه للأشياء ، فإنه يستطيع أن يرى منامات وإلا فلا ، وليس عدم الرؤية للأكمة بممانعة من أن يحلم أحلاماً سمعية أو كلامية ، لأنه وإن فقد البصر يسمع ويتكلم .

الإسلام والاستراكية

لحضرة الأستاذ سعيد زهير

قد تقدمت الصناعة في ظل الحضارة الغربية المادية ، غير أن العنصرية المحمدية التي لا نظير لها لم تفعل مسائل العمل والصناعة ورأس المال ، وقد حرم الإسلام الربا وبهذا هاجم بعنف الرأسمالية . كما أنه فرض بمقتضى قانون الزكاة ضريبة على الأغنياء يؤدونها لمصلحة الفقراء . وقد كانت الأرض على عهد محمد صلى الله عليه وسلم أعظم مورد للعامل ، وكانت الأرض في ظل الإسلام — كما تبين — ملكاً للأمة . وأما الصناعة القليلة التي كانت قائمة قبل بداية عصر العلم فقد كان يتولى أمرها إما الفقراء بأنفسهم وإما العبيد خدمة لسادتهم الأوتوقراطيين الطغاة . وكان الذين يتولون أى شأن من شئون التجارة أو الصناعة — قبل مجيء الإسلام — ينظر إليهم نظرة احتقار من قبل الأرسقراطيين ، وأما العبيد الذين كانوا يمثلون حيتقذ الطبقة العاملة فقد كان سادتهم الرأسماليون يعاملونهم معاملة العبيد ، وقد مارس النبي بنفسه التجارة قبل البعث بالرغم من أنه سليل أنبل أسرة عرفتها العرب . وكان محمد باعتباراه النبي الصادق المعترف به ، سيد الجزيرة العربية والعالم الإسلامى قاطبة ومع ذلك فقد كان يخطط ثوبه ويخصف نعله ، وأجرأ خطوة اتخذها نحو الاشتراكية الصناعية تمثل فى أنه رفع منزلة العبيد إلى مستوى الأحرار ، وجعل الرقيق أنصاره ورفاقه ، وأمرهم على الجيوش وغيرها وصاروا فى كثير من الأحيان أعضاء فى الأسرة التي كانت تعاملهم قبل الإسلام معاملة الأنعام ، كما أضحى العبيد شركاء لسادتهم فيما يملكون . والواقع أن الخطوات التي اتخذها محمد لتحسين أحوال العمال على عهده لم يتجاوزها أحد فى التاريخ الاقتصادى للعالم ، فعمال التمرن العشرين الذين يعدون العمود الفقرى للتقدم والرخاء الذى تستمتع به أوروبا الماركسية . . . وعمال المستعمرات البريطانية وعمال التعدين والمناجم فى الترنسفال . . . يعاملون أسوأ مما كان يعامل أولئك الذين كانوا يعرفون بالرقائق فى ظل الفترة الاشتراكية من الحضارة الإسلامية . والحق أن نظرة محمد صلى الله عليه وسلم إلى الاشتراكية كانت أسى وأنبل ، وأن الأسلوب الذى اتخذته ليثبتها فى النفوس لتكون عملية أيسر

من الأسلوب الذى لجأ إليه زعماء الاشتراكية فى الوقت الحاضر . على أن مفتاح الاشتراكية المحمدية هو التقدم الروحى والأدبى للشعب ، فاشتراكيته كانت أخلاقية فى حين أن الاشتراكية الحديثة مادية . والاشتراكيون يطالبون اليوم بأن تقل ملكية الأراضى ورموس الأموال إلى الدولة فوراً معتقدين وقد تملكهم الحماس أنه من اليسور تحقيق هدفهم ، وأنهم عندما ينجحون فسينتج عن ذلك تحسين مستوى حياة الشعب ، والواقع أنهم يخطئون فى زعمهم فهم لا يدركون أن خصومهم تؤيدهم قوة عسكرية أشد كما تبين من ممالك الحكومة المسماة بحكومة الأحرار لإزاه عمال السكك الحديدية المضربين ، وحتى إذا نجح الاشتراكيون عن طريق اللجوء إلى العنف وإثارة العواطف كما فعلوا فى فرنسا منذ حين قلن يكون فى وسعهم تحسين حال الشعب أو السير قدماً بقضية الاشتراكية طالما لم يسم رجال الدولة من الناحية الختامية ، فالـم تتألف الدولة من رجال يحرمون حقوق سيادة الأفراد وما لم تكن عواطف الانسجام المتبادل والأحوة بين الأفراد هى الأساس للاشتراكية الحققة فلن يتحقق قسط حلم الاشتراكيين المحدثين . وإذا حول زمام السلطة على الأراضى ورموس الأموال إلى المجتمع أو الدولة المؤلفة من أفراد يعتقدون فى الحقوق والمزايا الخاصة والذين ليس فى وسعهم القضاء على أفكار العنصر والطبقة فستصير أحوال الشعب حينئذ أشد سوءاً مما هى عليه فى الوقت الحاضر . وإذن ففكرة تحويل الأرصدة ورأس المال إلى الدولة لا تكفل وحدها صيغ إدارة الدولة بالصيغة الاشتراكية ، أو ليست جميع الأراضى فى الهد ملكاً لحكومة الهند ؟ أو ليست أسلاك البرق والمسرة وبعض خطوط السكك الحديدية ملكاً للدولة ؟ أو ليست دولة الهند تستخدم عدداً كبيراً من العمال فى أعمال الرى ومصانعه حيث يجرى ذلك على أسس تجارية ؟ أو لم تكن معظم الصناعة ورأس المال فى يد الدولة لإبان نظام الحكم التركى العتيق ؟ بيد أن ملكية الأرض والملكية الصناعية وملكىة الرأسمالية فى تركيا لم تجد شيئاً فى خلق نوع من الدولة الاشتراكية وحتى لم تخف حدة أشد النظم الأوتوقراطية فى هذه الدولات . ذلك لأن الاشتراكية الحققة ولان الضرورى فى الاشتراكية ليس تأميم Nationalisation الأراضى والأموال لحسب بل تأميم الدولة ذاتها أيضاً . غير أن ذلك يتطلب

عبقرية نبي بحيث تكون مرنة وقوية كعبقرية محمد عليه الصلاة والسلام حتى يقبني لها أن تطبق المثل العليا تطبيقاً عملياً . وهناك كثير من المصلحين الذين يظنون يعطون الناس طول حياتهم إلا أنهم يعجزون عن إغراء فرد واحد في العمل وفقاً لما يقولون . ولقد سمعنا في جيلنا هذا عطات وخطبا ألقاها ملوك وأشخاص باركوا السلام وتغنوا باستمراره ومع ذلك لازلنا نرى الدم الإنساني يراق كأنه المساء على أيدي عبي السلام ودعائه . وقد دأبت الأمم على أن تغلق أعينها عن مسارح المذابح التي يقوم على قربانها الضعفاء من الأطفال والنساء ، ثم تظن أنها أنقذت شرفها بما أبدته من عدم اكتراث يدل على الجبن ، ويرى فريق من هذه الأمم أفراداً عاجزين قد سلبوا في رابعة النهار بأيدي قراصنة أشدها قساة ، ومع ذلك يدير هذا الفريق من الناس وجوههم معلنين أنفسهم بأنه لم يكن لهم يد في هذا الالم .

وأوروبا اليوم مليئة بالأمم التي إما ترتكب بنفسها الجريمة أو تشارك غيرها فيها . ومثل هذه الأمم التي لا تحترم حقوق الآخرين ولا تحترم التزاماتها ووعودها لا يمكن أن ينتظر منها العمل على تقدم المثل العليا الثيلة كإقرار السلام العالمي أو دعم الاشتراكية التي تفشر المساواة في العالم ، وأنا على يقين من أن حديث الاشتراكية الذي يردده أهل أوروبا ليس إلا أسطورة لا جدوى من ورائها كأسطورة السلام . فالملبول المادية التي تموج في العصر الحاضر تروج في أذهانهم الأهواء التي تعد مناقضة لفكرة الاشتراكية على نحو ما تناقض السلام ، وأوروبا التي تسعى إلى الترف وتميل إلى عدم الاعتراف بالآلوهية لن يكون في وسعها نشر السلام والاشتراكية ، إذ أن كلا منهما يتطلب أساساً وقوة روحية ، وهما مما تقتفر إليه أوروبا ، وما معظم الصحائف الذهبية لتاريخ هذا العالم إلا أسفار للنصر الأدبي الذي ظهرت به آسيا ، أما أوروبا فقد اخترعت أدوات حديثة عبقرية عايتها هلاك الإنسان ، في حين أن آسيا أنجبت تلك الأرواح الخالدة التي أنقذت الجنس الإنساني بأسره . وقد كان الغزو الأوروبي لآسيا قائماً على أسنة الرماح ، أما سلطان آسيا على أوروبا فقد تم بفضل تلك العقول الكبيرة التي أحدثت ثورة في الأخلاق Ethice ورفعت مستوى المثل الإنسانية حتى بلغت مرتبة الكمال (يتبع)

العظمة والخلود

لفقيه الأستاذ الشيخ إبراهيم علي أبو القتب

المدرس بكلية الشريعة

حب العظمة نزوع إنسان قديم ، جبل عليه ابن آدم منذ أحس بحاجته إلى نضال العيش ، وسجال الكسب ، وعراك المسادة ، والميل إلى القلب ، والرغبة في السيطرة ، والطموح للملك والافناء... وقد صعب هذا كله إعجاب المعجبين بالفوق ، وتصنيفهم للسابق ، وإكبارهم للبرز ، وتعظيمهم للتقدم... وما زال هذا المعنى يتدرج مع الزمن ، وينمو على الأيام ، حتى ازداد الإقبال عليه ، والطمع فيه ، وود الناس أن يكون نطلع الانظار إليهم دائماً ، وحديث الأفواه عنهم غير منقطع... وهنالك فكروا في أن تفرن العظمة بالخلود ، فرغبوا في امتداد جبل الحياة ، وتراخى أجل الموت الذي يدركونه من غير شك ، ويشاهدونه متكرراً متجدداً... وقد نشأت عن ذلك خرافات كثيرة وترهات متنوعة ، لا يتسع المجال لسردها ، ولا لطول الحديث عنها ، إلا أن عتميدة البعث التي جاء بها الإسلام كانت قصاء على ذلك كله ، وتهدياً للخيال المخلق فيها ، وإرضاء للنهم في البقاء وصار المسلم يطمئن الاطمئنان الصحيح إلى الموت ، لأنه يعلم أنه حياة من طراز آخر ، وخلود على مثال لم تأله البشرية ، وأكثر القرآن الكريم من حديث البعث والواب والعتاب ، والمجازاة على الأعمال ، وتركز الإيمان في النفوس على أساس أنه « فن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » . وجاء في وصف الآخرة ما يفيد أنها دار البقاء والقرار . وأن الدنيا دار الفناء والقرار ، وأكثر الشعراء من جريان ذلك على ألسنتهم ، ودورانه في نايأ قصائد م... إلا أن العتول قد تضاربت في حقيقة العظمة ، واختلعت في بيان معناها ، ويظهر أن تنوع البيئة والرمات والمكان ، كان من عوامل تباين وجهات النظر في ذلك... حتى كان في اللصوصية عظمة ، وفي الكبرياء عظمة ، وفي العدوان على الضعفاء ، واغتيال الأبرياء ، والبطاول على الشرفاء عظمة ، كأن الأبواب صدمت ، والحجاضل

وميران الأشياء أصابه خلل ، لأن الرذيلة لا تكون فضيلة ، والنور لا يكون ظلمة ، إلا حين تنفكس القلوب ، وتلتوى الأفئدة . وتحول الأحوال ... وحين أطل فجر الإسلام على المسلمين وكانت رؤوسهم لا تزال - على جاهليتها - متأثرة ببعض دواعي العظمة الكاذبة ، مما كانوا يزعمونه من أسبابها ، ويظنون به يحملهم من أربابها جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم أحداً بتلايب آخر يشكوه إليه ، لأنه يكآثره بماله ، ويفآخره بنفسه ، ويتطاول عليه بماضيه في الكفر ، وسوابقه في الجاهلية ، وقد ظل أنه حين يرفع أمره للرسول الكريم ، سيقضى له ، وينصره عليه ، ولم يدر بخلفه أن الدين الذي سوى بين الناس في التقدير ، ووفق بينهم في الاعتبار ، لم يجعل لعربي فضلاً على عجمي إلا بالتقوى ، ولم يجعل خيارهم في الجاهلية خياراً في الإسلام إذا لم يضموا إلى أحسابهم الأولى ، وميزانهم السالفة ، والفقه في الدين . وهو بالطبع لا يقصد أن يكون الإنسان عالماً وكفى .. ولكنه يقصد أن يكون العلم سبيلاً إلى العمل ، ووسيلة إلى الساقس في الخير ، والتسابق إلى المجد ، وفهم الذين اعتنقوا شريعته صلى الله عليه وسلم أن العظمة في الطاعة ، والفخر في الامتثال ، والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملاً . وكلما أحسوا من أنفسهم أنهم يلزمون الجادة ، ويسرون على صراط ربهم المستقيم ، ازدادوا زهواً وخيلاً ، وتناسوا ما في الدنيا من زخرف ، وما في أهلها من مظاهر ، وما يحيط بها من فتنة وقالوا ما كان يقول الرسول صلى الله عليه وسلم . لا هم إن العيش عيش الآخرة .

وفكرة حلول الخلق في الدنيا بما قدموه من أعمال ، وما قاموا به من جهود ، وما بدلوه من معروف ، وما ادخروه عنده سبحانه من طاعة .. فكرة لم ينكرها الدين ، لأن يوم القيامة وإن كان ظرفاً للجزاء ، ومجالاً للثواب .. إلا أن تردد اسم الموت ، وخطوره بالبال ، وجريانه على اللسان ، إلى جانب كونه نوعاً من الجزاء العاجل ، يغري بالخير ، ويدفع إلى العمل الصالح ، ويجب في صرف الجوارح لله الذي خلق السموات والأرض .

وكما تكون العظمة في العمل الآخرة تكون كذلك في العمل للدنيا ، غير أن عمل الدنيا العظمة فيه زائلة ، والحديث عنه ينتهي بنهايتها ، ويروى بزوالها ، ولذلك يرشدنا جل جلاله ، إلى العمل الذي ينفع ، والذخر الذي يدوم ، والشرف الذي

يبقى ، إذ يقول : ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا . وربما مر بالخاطر أن ثواب الأعمال على قدر ما يحصل منها من فائدة في الدنيا . أما أعمال الآخرة فأمور تعود على العامل وحده ، وأجدر بها ألا تكون من العظمة في شيء . والصحيح أن العمل الصالح في ذاته يعظم به الأجر ، ويزيد به القدر ، ويكثر به الذخر ، وأفضل الأعمال في باب الطاعة ، ما كان أكثر عائدة على الناس ، لأن الأصل في التكاليف أن يتهذب بها المكلف ليكون إلى الملائكة أقرب ، وإلى الخير أشد ميلا .

وبعض الجاهلين يروق له الخلود مطلقا بصرف النظر عن نوعه من الخير أو الشر ، ولا يعتنيه من العظمة ، إلا أن يكون حديثا معادا ، وذكرى متعولة ، متاسيا أن خلود الشر شر الخلود ، وترداد الذكر بالسوء من أخبت أنواع السوء ، فالهم وقهم لفهم الأشياء ، وارشدهم إلى الصراط السوى ، وبصرهم بالحقائق ، وجنبهم مزلق الشيطان ، واهداهم فإنهم لا يعلمون ؟

من الشعر حكمة

قدم العلاء بن الحضرمي على النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال له : هل تروى من الشعر شيئا ؟

قال : نعم !

قال : فأنتدق ، فأنتفده :

تحبب ذوى الأضعاف تسب نفوسهم	تحبيك القربى فقد ترقع النعل
وإن حدوا بالكفر فاعف تسكرما	وإن غيوا عنك الحديث فلا تسل
فإن الذى يؤذيك منه سماعه	وإن الذى قالوا وراك لم يقل

عجالات مع النفس :

انى صائم .. !

لفضيلة الأستاذ فاضل محمد محمود

المدرس بالأزهر

هذا هو المضطرب الصاحب ، وذاك هو النكالب المريح ، والتطاحن الدائب ،
فانزل إليه وسام فيه ، وألقِ دلوك في الدلاء ، وخذ في العلائق ، وتعلق بالأسباب :
أسباب اقتشادق الذى خدع الناس ؛ واصططعه بعضهم ، وعاش منه وعليه وله ...
هكذا هجست وتلبظت النفس ... غير أنى وقفت وهى تراودنى وتطارحنى
الهمهمة ، وكادت فتانى تلين حين أثمرت إلى أناس يعدم الناس من الأخبار ،
ويحسبهم الغي من الاتقياء .

وكادت فتانى مرة أخرى تهن ...

ثم عدت إلى النفس أسمع حسيها ولا أجيب ، وتغلى أهواؤها ولا تفور
وجعلت أتصنع الوعى عنها والفهم ... وجعلت تؤزنى أزاً وتهزنى هزاً ، وأخيراً
قلت لها بعد أن قالت لى :

أيتها النفس : أجهلى شغفاً ، وهونى عليك . أيتها النفس : إنى صائم .

— نعم ... أنت صائم ...

أعرف هذا من حرمانى . تمسك عن الطعام والشراب ؟

وصحكت من نفسى وأثخنيتها باللوم ، وأرهقتها من سحرياتى ، ودميت جوانبها ،
كأنما أحارب عدوا يشهر سلاحه فى وجهى .

— أيتها النفس ، صومك عن الطعام والشراب بعض ما فى الصوم من تكليف

أيتها النفس : لا حاجة لله فى هذا اللون من الحرمان ، أن جريت فى ميدان
تخبء فيه غيرك ووضع .

أيتها النفس : لا تذكرى الأهواء وأنت صائمة . ولا تجرى وراء الخدع وأنت صائمة ، ولا تغوضى فى حديث اللاهين وأنت صائمة ، ولا تمدى عيناً وأنت صائمة ، ولا تجهرى أو تخافتى بضغينة وأنت صائمة .. ولا ولا ..
وهنا شذعت النفس قائلة : قدك قدك :

— كنت أحسب الصوم ؟ ..

ولم أدعها تهجس بما عندها من باق وما فى قرارتها من قول .. بل رحت فى نشوة المنتصر أغرقها فى حضم من معانى الروح وصفاء القلب ، وأسوق إليها طرائف وطرف من طيب بالغ فى العظة والتذكير حتى إذا اطمأنت وأخذها صحو الاعتبار كسرت من شوكتها وألفت إلى السمع .

— أيتها النفس : نهارى نهار الناس وليلى ليلهم ، ولكن وراء الليل والنهار صوم تمرن عليه فى شهر لتذكره فى كل شهر وتعمل به آناة الليل وأطراف النهار .
ذاك هو الصبر على المكروه والترفع والإبقاء على نعمة العقل وحن الرضى وصحة الرأى ، وتوثيق العميدة ، والتعلق بحب الله ورسوله ، وإفساح الصدر ، حتى يطرد منه ضيق الجاهلية ، ودعوة الحق ، وغرور المدعين ، وصخب المبطلين .

— أيتها النفس أنى صائم .. وأنت ؟ ..

— إني صائمة ..

— تصومين أيتها النفس ؟

— نعم أصوم النهار وأقوم الليل !

— يا عجبا .. !

— ولم العجب ؟ ..

— أعرف النفس أماره بالمطامع ، همازة مشاة إلى كل ما يردى ..

— تعبر قننى ولكن ؟

— ولكن ماذا ؟ ..

— إنه الصوم ، وإنها فطرة طيبة ، إذا قُدِّحت أبوابها غُلقت منافذ الشيطان وقطعت دابر الفتنة ، واطمأنت الروح من غاشيات قاسية قاصية .

وصامت النفس أبد الحياة ، وحزمت على صاحبها مسالك الطفيان والجور
وفي زحمة الاتصار على النفس ، تنفست وتلفت فإذا الحياة جميلة ، وإذا طروب
الصوم تلقى ، ولا أجد في حرمانه غير طلاوة الهدوء ، وسكينة الاطمئنان ، وراحة
الآمل ، وبشرى السلامة من عقاب الله ، وفي ظل اللياد بعفوه ورجاء مشوبته ،
والطمع في رحمة التي وسعت كل شيء .

أيتها النفس : « أنى صائم » .

أيها القلب : وأنت طول الدهر صائم ، فإلى مائدة الروح . إليها . إليها ..

وأما حاجات النفس ، فإلى أطواء الحرمان ، حتى تلقى الله الذي يتولى السرائر ،
ويضع المواردن في ملتقى لا ينفع فيه إلا سلامة القلب ، وصوم الدهر عن زيف
زخرفتها أنامل الخدع . ورقشتها ريشة لورن في طلائها ، فان الأبالة ،
ومفتن الشياطين .

أيتها النفس .. هل تلاقينا .. ؟

أكبر الظن بل عين اليقين أنى وإياك لختلفن ..

أيتها النفس هذا حذاء الصائم في يدها الحياة ، ولعلك تذكرين غنوة الصحراوي
الذي صحب ناقته إلى هدف يحبه ، وسمع حنين الناقة إلى ما خلفته ، فراح يشكو
وهي تشكو ... وراح يحن وهي تحن ، وكل يغنى على ليلاه ..

هوى ناقتي خلفي وقداى الهوى وإنى وإياها لختلفان

أيتها النفس هنيئاً لى ولك صوم شهر ومران دهر ...

هنيئاً مريئاً غير حاجسات غمامرة أيتها النفس : إنى صائم ، ؟

لغويات

لفظة الأستاذ الشيخ محمد علي النجار

المدرس بكلية اللغة العربية

أما بعد ، وأما بعد ، وبعد .

تورد (أما بعد) في معرض الانتقال من موضوع إلى موضوع . قال الزجاج^(١) : « إذا كان الرجل في حديث فأراد أن يأتي بغيره قال : أما بعد . ويذكرها علماء^(٢) البديع في الكلام على الاقتضاب ، وهو الانتقال من حديث إلى حديث لا يلائم . والاقتضاب مذهب الجاهليين ومن يليهم : لا يتأقنون في الحديث ، ولا يتكلمون مراعاة التناسب فيه . ويذكر البديعيون : أن الاقتضاب في (أما بعد) يدنو من مقام التخلص ، في أنه يشوبه شيء من المناسبة . واشتهر إيرادها في الخطب بعد حمد الله والثناء عليه ، والصلاة والسلام على صاحب الرسالة - صلوات الله وسلامه عليه - ، وكذا في صدور المصنفات والرسائل . قال ابن حجر : « ولا^(٣) تختص » (أما بعد) بالخطب ، بل يقال أيضاً في صدور الرسائل والمصنفات .

وقد وردت (أما بعد) في خطب الرسول - عليه الصلاة والسلام - ورسائله . وعقد البخاري في أبواب الجمعة من صحيحه باباً أورد فيه ستة أحاديث فيها أما بعد . وفي فتح الباري : أن هذا اللفظ ورد في أحاديث أخر ، وأن الحافظ عبد القادر الرهاوي تتبع طرق الأحاديث التي وقع فيها (أما بعد) . ومن هذه الأحاديث ما روى عن المسور بن مخرمة : كان النبي - صلى الله عليه وسلم - إذا خطب خطبة قال : أما بعد . قال ابن حجر : « وظاهره المواظبة على ذلك ، وقال ابن^(٤) »

(١) أنظر فتح الباري ، في أبواب الجمعة

(٢) فتح الباري في أبواب الجمعة

(٣) أنظر التلخيص وشروحه في آخر البديع

(٤) أنظر طبقات الشافعية ج ١ ص ١٠٨

السبكي في الطبقات : « ولو ذهبت أسند ما وقع من الأحاديث والآثار في (أما بعد) لطال الفصل وخرج إلى الملal ، ودخل به السامع في الكلال » .

وقد أخذ العلماء من هذا استحباب (أما بعد) في الخطب والرسائل . قال الزين بن المنير : « ينبغي للخطباء أن يستعملوها تأسيّاً وانباغاً ، وقال النووي في شرح مسلم في أبواب الجمعة في الكتابة على حديث فيه هذا اللفظ : « فيه استحباب (أما بعد) في خطب الوعظ والجمعة والعيد وغيرها ، وكذا في خطب الكتب المصنفة . وقد عقد البخاري باباً في استحبابه . وذكر فيه جملة من الأحاديث ، وإذا كان التاري لا يحالجه شك بعد هذا الحديث في رفع (أما بعد) إلى الرسول عليه الصلاة والسلام ، فقد يدور بخلد هذا السؤال : هل قبلت قبله ، وهل يحيط العلم بأول من قالها ؟

ولا يكاد الباحث يرى من يسند أوليتها إلى الرسول عليه الصلاة والسلام ، وكان مما لا ريب فيه أنها قبلت قبله ، ولم أقف على نص وردت فيه قبل العهد الإسلامي .

وللعلماء جولات واسعة في أول من قالها ، حتى ليسندوها بعضهم^(١) إلى يعقوب عليه الصلاة والسلام ، ففي بعض الحديث : لما جاء ملك الموت إلى يعقوب - عليه الصلاة والسلام - قال يعقوب في جملة كلامه . أما بعد ، فإذا أهل بيت موكل بنا البلاء . وظاهر أن هذه الحكاية إن صحت ، حكاية لما قاله يعقوب وترجمة لمعناه بالأسلوب العربي ، ولا يلزم أن يكون في لعمته ما يقابل (أما بعد) . وقد قيل إن (أما بعد) هو فصل الخطاب الذي أوتيه داود عليه الصلاة والسلام ، وإنه أول من نطق بها . قال ذلك بعض المفسرين أو كثير منهم ، قال النووي : « وقال المحققون : فصل الخطاب : الفصل بين الحق والباطل ، وابن الأثير في المثل السائر لا يرى ما يراه النووي ، فهو يقول :^(٢) . والذي أجمع عليه المحققون من علماء البيان أنه - يريد فصل الخطاب - أما بعد : لأن المتكلم يفتح كلامه في كل أمر

(١) التبري في شرح البخاري في أبواب الجمعة .

(٢) أنظر النوع الثالث والعشرين .

ذی شأن بذكر الله وتحميده ، فإذا أراد أن يخرج إلى الغرض السوق له فصل بينه وبين ذكر الله تعالى بقوله : (أما بعد) ، وقد يكون ابن الأثير لا يعنى فصل الخطاب الذى أوتيہ داود عليه الصلاة والسلام .

ويرى بعضهم أن أول من قالها يعرب بن قحطان ، وبعضهم أنه 'قتس ابن ساعدة . وبعضهم أنه سحبان وائل ويوردون له :

لقد علم الحسنى اليمانيون أننى إذا قلت أما بعد أنى خطيبها

وسحبان هذا من وائل القبيلة القيسية ، وقد أورده ابن حجر فى الإصابة ، وابن عساكر فى تاريخ دمشق غير مذکور اسم أبيه . ونسبه صاحب بلوغ الأرب فقال : هو سحبان بن زُفر بن إياس الوائلى وائل باهلة . وأيا ما كان الأمر فلم أر أحداً جعل أباه وائلا ، وإنما يضاف إلى وائل ، فيقال سحبان وائل لا سحبان بن وائل ، ومن ذلك البيتان المشهوران :

أتانا ولم يعدله سحبان وائل بيانا وعلماً بالذى هو قائل
فما زال عنه اللقم حتى كأنه من العبي لما أن تكلم بأقل

وقد أردت بهذا أن يتنبه لخطأ توارد عليه الكتّاب فى (أما بعد) ، فهم يقولون : سحبان بن وائل . ترى هذا فى طبقات الشافعية وفتح البارى وشرح المعنى للبخارى وغيرها . وفى الإصابة أن المعروف من أمر سحبان أنه جاهلى ، ونقل عن ابن عساكر أنه عمر حتى وقد على معاوية رضى الله عنه ، فإذا صح هذا وصح أنه قال البيت السابق قبل الإسلام برّد فى يدنا نصّاً بها قبل أحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام . على أن فى عزو هذا البيت إلى سحبان بعض الشيء ، فإن سحبان مضرى ؛ إذ ينتسب إلى قيس عيلان بن مضر ، فما باله يفخر بالخطبة فى الحسنى اليمانيين ، والخطيب إنما يفخر فى العادة بالخطبة فى نادى قومه .

ووردت صيغة أخرى حيث تورد (أما بعد) هى : وأما بعد ، بزيادة الواو . ومن هذا قول (١) الشاعر :

(١) أنظر لسان الباط ١٠٥/٢ طبعة مطبعة القشوح الادبية

وإن جئت الأمير قتل :سلام عليك ، ورحمة الله الرحيم
وأما بعد داك فلي غريم من الأعراب ، قبيح من غريم !
وقول صاحب المفتاح : . وأما بعد فإن خلاصة الاصلين . .

واشتهرت بعد صيغة أخرى أضحت هي المتداولة في الخطب والرسائل
والقصص ، وهي (وبعد) . وقد صارت هذه الصيغة أجرى على الألسنة
وألوط بالافتدة .

وقد جرى في شأن هذه الصيغة الأخيرة حديث بين الباحثين ، وأنكرها
بعض الفضلاء .

وفي الحق أن هذه الصيغة لم ترد في المأثور من الكلام القديم . وأقدم ما وقفت
عليه في ذلك قول ^(١) الجاحظ : . وبعد فهل قتل ذؤاب الأسد عتيبة بن الحارث
ابن شهاب إلا وسط الليل الأعظم حين تبعوم فلقوم . . وما ينبغي أن يقبّه
عليه في هذا الموطن أن الجاحظ أتى بهذه الصيغة في معرض الفدلكة للكلام السابق
وإجمال ما أسلف من تفصيل . فقد كان يتحدث قبل عن قتال العرب بالليل ، ويرد
فرية من رعم أن العرب لا تعرف هذا الضرب من القتال ، ثم أورد هذا الحديث .
وكذلك ورد هذا اللفظ أيضاً في كلام ابن جني . ففي ^(٢) الخصائص : . وبعد فقد
صريح ووضح أن الشريعة إنما جاءت من عند الله تعالى ، وفيها أيضاً ^(٣) : . وبعد
فإذا عرف التوكيد لم وقع في الكلام ، نحو نفسه وعينه وأجمع وكله وكلهم وكلهما
وما أشبه ذلك عرفت سعة المجاز في هذا الكلام ، ويقول ^(٤) أيضاً فيها : . وبعد
فهذا مذهب الشعراء : أن يظهروا في هذا ونحوه شكاً وتخالجاً ليروا قوة الشبه
واستحكام الشبهة ، والقارىء لكلام ابن جني يرى أنه استعملها أيضاً في الفدلكة

(١) البيان ٩/٢

(٢) ١٥١/١ وهو الجزء المطبوع

(٣) الجزء الثاني (لم يطبع بعد) في : باب المجاز إذا كثر لحن بالحقيقة .

(٤) الجزء الثاني : باب إقرار اللفاظ على أوضاعها الأول .

كما استعملها الجاحظ . وقد يرى الباحث أن هذا ليس يعيد من الغرض الأصلي للصيغة الأصلية (أما بعد) وهو الانتقال من موضوع إلى آخر ، ففي الفذلكة الانتقال من التفصيل إلى الإجمال ، وبينهما بعض التباين والاختلاف ، فكان المنقل من أحدهما إلى الآخر منتقل من موضوع إلى موضوع ومن حديث إلى حديث .

ويبدو أن العلماء كانوا يرون في هذه الصيغة الحادثة أنها صورة للأصل : أما بعد ، وهم لهذا كانوا لا ينكرونها . ويقول ابن حجر في الكلام على (أما بعد) : وقد كثرت استعمال المصنفين لها بلفظ (وبعد) ، بل يرى بعضهم أن لها حكم (أما بعد) في الاستحباب ؛ إذ كانت فرعاً عنها ، وثبت للفرع حكم الأصل . وقد ألف الشيخ أحمد بن موسى العدوي المالكي (١) رسالة لطيفة سماها : «عائدة الورد» فيها يتعلق بالكلام على (وبعد) ، رتبها على سبع مقالات ، وجعل المقالة الخامسة في حكم الإتيان بها ، ويقول في هذا المبحث : «فيندب الإتيان بها : قياساً على أصلها الذي كان يأتي به عليه الصلاة والسلام في خطبه وكتبه وهو (أما بعد) ؛ كما هو الثابت في صحيح الخبر عن الأئمة والآثر : لأن ما ثبت للأصل ثبت لفرعه . وقد يناقش هذا التماس : فالاستحباب إنما عماده التأسي بالرسول عليه الصلاة والسلام وذلك لا يتحقق إلا باتباعه في اللفظ الذي جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام بعينه ونصه ، فإذا جرى بلفظ آخر كان حرياً ألا يكون هذا اتباعاً ، وإن كان بسبب مما جاء به ، وليس هناك ما يدعو إلى تجنب اللفظ الذي أتى به الرسول عليه الصلاة والسلام إلا الرغبة في الاستخفاف .

والناظر في الصيغة من جهة العربية يرى بعدها الفاء حيث لا موجب لها . وهنا تشعبت آراء العلماء ، فيرى فريق أن هذا المقام لما أُلِفَ فيه (أما بعد) أضحت (أما) فيه عاقبة بالنفس وإن سقطت في الكلام . فـ (أما) وإن لم توجد حساً فهي موجودة وهما ، وعلى ذلك جاءت الفاء ، والوهم يترتب عليه آثار لسانية كثيرة ؛ ألا ترى إلى قول الشاعر :

(١) هذه الرسالة في مجموعة في دار الكتب الأزهرية . انظرها في مبرس النحو .

بدالى أنى لست مدرك ما مضى ولا سابق شيئا إذا كانت جائيا

حيث جر (سابق) على توهم الباء فى (مدرك). ومن ذلك جمعهم مسيلا من السيل - على مسلان ، توهموا مسيلا فعिला ككثيب ورغيف ، فجمعوه على فعلان ، وإنما مسيل مفعِل . وقالوا : تمسكن وتمندل وتمدرع على توهم إصالة الميم ، وهى - لا محالة - زائدة ، ما كان لها أن تثبت فى بناء الفعل . على أن هذا الرأى قد لقي تقدأ وإنكاراً ، ويقول ابن عابدين^(١) : « وأما توهم أمّا فلم يعتبره أحد من النحويين ، وكان ذلك لأن التوهم المذهب فيه السماع ، ولا يتوسع فيه ، ويقتصر به على ما ورد عن العرب .

ويرى بعضهم أن الكلام على تقدير أمّا فى الكلام ، ويشترط الرضى لتقدير أمّا فى الكلام بعد الواو أن يكون ما بعد الفاء أمراً أو نهياً ، وما قبلها منصوباً به أو بمفسر به ، كما فى قوله تعالى : وربك فكبر . ويتكلف بعضهم تخريج ما هنا على مذهب الرضى فيقدر فى الكلام عنوقاً .

ويرى بعضهم أن الواو نائبة عن أمّا ، ومن ثم جاءت الفاء . وبها ألفى بعضهم فقال :

وما واو لها شرط يليه جواب قرنه بالفاء حتما ؟

فأجابه^(٢) بعضهم بقوله :

هى الواو التى قرنت بيمد وأما أصلها ، والأصل مهما

وأيا ما كان الامر فقد يخرج القارىء من هذا البحث بصحة ، وبعد ، عربية وأنه ليس من الخطأ استعمالها . وللمصنفين سلف فى الجاحظ وابن جنى ، وهما من هما فى التحرى للعربية والعلم بها .

(١) الرسائل ١/١٩٠ .

(٢) أظن حاشية السجاسى على القنطرى فى الخطبة .

سردار المنى طوطا

المجمع المؤسس للمعجم المفهرس

لفضيلة الاستاذ الشيخ أبو الوفا المرافى

مدير مكتبة الأزهر

من مفاخر علماء المسلمين السابقين إبان نهضتهم الفكرية أمانتهم العلمية التي يدهش لها المنصفون من علماء العصر ويقدرونها قدرها بين الفضائل العلمية ، وقد كانت هذه الأمانة تغلب في نفوسهم كل عاطفة مهما اشتدت ، إذ كان الأب يتهم في سبيلها ابنه إذا رأى منه ما لا يتفق وتلك الأمانة ، وقد جاء عن بعض علماء الحديث أنه كان يقول عن ابنه : . لا تتقوا بروايته ، وبما يعد من مفاخرهم أيضاً وفاؤهم لشيوخهم وإجلالهم واعتراؤهم بالفضل عليهم . ومن مآثور الحكم : من علمنى حرفاً صرت له عبداً .

وقد دفعت تلك الأمانة العلمية بعض العلماء - وبخاصة علماء الحديث - أنه يسجل أسماء شيوخه وما رواه عنهم في أسفار خاصة تعرف بمعاجم الشيوخ ، يحدوهم إلى ذلك عاملان ، عامل الاعتراف بالفضل لشيوخهم ، وعامل الائمة فيما يروونه ، وكأنهم بذلك يقدمون البيئات على دعاوهم العلمية .

وفي تاريخ العلوم الإسلامية شيء من هذه المعاجم أو الفهارس ، ومن أحسن ما عثرنا عليه في ذلك : المجمع المؤسس للمعجم المفهرس للعلامة ابن حجر ، وهو مجلد صمّم دَوّن فيه أسماء شيوخه الذين روى عنهم الحديث . وموضوعات هذه المرويات أو أجزاءها ويقع في ١٦٠ ورقة عدا ورقتين ملحقتين بآخره ، وعدا بعض طيارات في وسطه (ورقات صغيرة ملحقة ببعض ورقاته) وقد ذكر أسماء شيوخه مرتبة على حروف المعجم وقسمهم على طبقات أشار إليها في خطبته كما يأتي :

وهو بخط ابن حجر نفسه والمسودة الأولى له ، لذلك تكثر فيه الكتابة على الهامش تكملة أو تصحيحاً أو تهدياً لما في الصلب وهو عسر القراءة لعدم جودة

الخط وندرة النقط والإيجام في أكثر كلماته كنهج عصره في الخط ، وقد ابتدأ في وضعه سنة ٨٠٦ هـ وفرغ منه سنة ٨٢٩ هـ .

وابن حجر هذا من أشهر علماء الحديث رواية ودراية في عصره ، وله طائفة كبيرة من الكتب في علوم الحديث . وله الشرح المشهور على صحيح البخاري . فتح الباري ، وقد أجمعت التراجم على غزارة علمه وجلال قدره ، كما أجمعت على صلاحه وتقواه قال العلامة السخاوي في ترجمته في التبر المسبوك : . هو شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن محمد بن أحمد الكناني العسقلاني الأصل المصري الشافعي ، حافظ العصر . علامة الدهر ، شيخ مشايخ الإسلام ، حامل لواء سنة خير الأنام ، قاضي القضاة ، أدق الحفاظ والرواة ، باشر القضاء بالديار المصرية استقلالاً مدة تزيد على إحدى وعشرين سنة بأشهر تحللها ولاية جماعة . والتدريس بعده أما كن في التفسير والحديث والفقه والوعظ وخطب بجماعي عمرو والأزهر وغيرهما ، وأمل ما يذيع على ألف مجلس من حفظه ، وزادت تصانيفه على مائة وخمسين ، واشتهر ذكره ، وبعد صيته ، وارتحل له الأئمة وكثرت طلبته حتى كان رؤوس العلماء في كل مذهب وبكل قطر من تلامذته ، وانتشرت جملة من تصانيفه في حياته وتهادتها الملوك والأكابر ، كل ذلك مع تواضعه وحله وظرفه وصيامه وورعه ومزيد أدبه مع المتقدمين والمتأخرين وعفته أهل الفضل والتنويه بكرمه وعدم اطراء نفسه وركونه إلى هضمها وبذله وكرمه وقد شهد له القدماء بالحفظ والمعرفة وسعة العلم في فنون شتى وشهد له شيخه العراقي بأنه أعلم أصحاب الحديث .

ولد في شعبان سنة ٧٧٣ هـ بمصر وتوفي سنة ٨٥٢ هـ بمصر أيضاً ودفن بالقراقة الصغرى في مشهد لم ير مثله .

ومن خطبة المجمع المؤسس بعد الديباجة : أما بعد : فإنه كثيراً من سلف المحدثين اعتنوا بجمع أسامي شيوخهم وتدوين أخبار كبارهم وتغايرت مقاصدهم في السير فرأيت أن أحذو حذوهم وأسير نلوم لأتذكر عهدهم ، وأجدد لهم الرحمة بعدم تجميع أسامي شيوخهم على المعجم مرتباً وقسمتهم على قسمين مهذباً فالأول من حملت عنه على طريق الرواية ، والثاني من قرأت عنه شيئاً على طريق الدراية

وأضفت إلى الثاني من أخذت عنه شيئاً في الذاكرة من الأقران ونحوهم وقد قسمتهم من حيث العلو إلى خمس مراتب الأولى من حدثنا عن مثل التقي سليمان وأبي الحسن الموالى وأبي الفوث الدبوسى وعيسى المطعم والقاسم بن عساكر وأبي العباس ابن الشحنة ونحوهم وعلامتنا ط . إشارة إلى أنهم الطبقة الأولى . الثانية من حدثنا عن أصحاب ابن عبد الدايم والتجيب وابن علان ونحوهم وعلامتهم طس . إشارة إلى أنهم من الطبقة الوسطى . الرابعة من حدثنا عن أصحاب الفخر بن البخارى وابن القواس والأبرقوهى ونحوهم من كان يملكنا الأخذ عنهم . الخامسة من أشرت إليه من أخذت عنه في الذاكرة أو شيئاً ما لغرض أو نوعاً من العلم أو اشتهاء أو فائدة ومن ليس عندي عنه إلا الإجازة أو الشيء اليسير بإسماع من أهل الطبقة الخامسة من غير استيعاب لهم وترك العلامة لهم علامة الخ .

وبآخر الكتاب :

.. آخر المجمع المؤسس للعجم المفهرس علقه أحمد بن علي بن حجر الشافعى عفى الله عنه واتفق الفراغ منه في يوم الخميس سادس عشر جمادى الآخرة سنة تسع وعشرين وثمانمائة بالماهرة سوى ما ألحق فيه بعد ذلك وكان الابتداء في كتابة مسودته سنة ست وثمانمائة . ثم جمعت الفهرست منه وزدت فيه أسانيد كتب كثيرة بالإجازة لتكمل الفائدة وكان في شعبان سنة اثنين وثلاثين وثمانمائة والله الحمد على ما من وأفضل .

تكلف

لى صديق يرى حقوقى عليه نافلات ، وحقه الدهر فرضا
لو قطعت البلاد طولاً إليه ثم من بعد طولها سرت عرضا
لرأى ما فعلت غير كثير واشتهى أن يزيد فى العرض عرضا
وقال صالح بن عبد القدوس فى صديق السوء :

تجنب صديق السوء واصرم حباله وإن لم تجد عنه عيضا ، فداره
ومن يطلب المعروف من غير أهله يجده وراء البحر ، أو فى قراره
ولكنها محضوفة بالكاره والله فى عرض السموات جنة

رمضان بين الماضي والحاضر

لفقيه الأستاذ الشيخ محمد خليفة

المدرس بالأزهر

شهد ماضى رمضان نهراً عامراً بالإيمان والإحسان ، وليلاً زاخراً بالذكر والقرآن .

ويشهد حاضره نهراً مفتوناً بشهوة البطون ، وليلاً صاحباً بالخلاعة والمجون
شهد ماضيه عبّاداً فى الأسفار يتلون قرآن الفجر وقد أمسكوا عن شهوات الدنيا وسجدوا لرهبهم فى المحارب حاشعين متضرعين يكون من خشية الله ، ويرجون أن يتقبل الله ، حتى إذا صلوا الفجر راحوا يشهدون رزق ربهم ويجاهدون فى سبيل العيش بعد أن أشبعوا الروح من زاد الآخرة .

ويشهد حاضره فى مصر الإسلامية ألواناً متنافرة : عبّاداً وأشباه عباد وأنصاف عباد ولا عباد ، بل تشهد أسماره سكارى عجت بهم بحال السمر العابت بين الفيد والكاس ، لا يصيخون لمؤذن الصباح بل لمؤذن الصبح ، ولا يرعشهم قرآن بل ترفصهم الألحان ، حتى إذا امتدت فى الأفق خيوط الفجر امتد النوم إلى جفونهم فاستلذوا المخادع ، واطمأنوا فى المضاجع حتى الأصيل ، ليستقبلوا ليلة أخرى حراء وهكذا ينقضى شهر العبادات والطيبات وهم فى طو صارخ واستهتار بالدين والأخلاق .

لم يشهد ماضيه فى الضحى مطاعم ولا مقامى مفتحة الأبواب ، يختلف إليها أولئك الذين قدرو الحياء وقد راحوا يلتممون الطعام ويستعذبون الشراب .

أما حاضره فيشهد فى كل شبر صوراً مخلفة الأشكال من المحازى فى مصر الإسلامية ، فالمطاعم والمقامى فى صهى رمضان عاصم بالطاعمين الشاربين الذين لا يستحون من الله ولا من الناس .

ومكاتب الوزارات والمصانع والمجتمعات العامة والسيارات كل هاتيك النواحي يشهد فيها رمضان أفواجا من المسلمين يأكلون ويشربون ولا يتوارون عن العيون .
والمنازل يشهد فيها رمضان أواس وسيدات حفن أن يضعضن الصوم قوتهن أو يذهب نضارتهن فأفطرن صونا للجمال أن يدل .

ويل لهؤلاء وأولئك يوم ينادى الله . كلما فضحت جلودهم بدلتهم جلوداً غيرهما لينوقوا العذاب .

شهد ماضيه في الأصائل قصور الأغنياء ودور العطاء يهرع اليها المحتاجون والأرامل والمساكين واليتامى حتى إذا امتلأت بهم الساحات شمت عليهم بسمات المحسنين فأنستهم قسوة الحرمان ، وامتدت إليهم الأيدي بالطعام فأنستهم مرارة الجوع واطلمت حناجرهم بصادق الدعاء يشق الفضاء إلى السماء .

ويشهد حاضره في الأصائل قصور الأغنياء ساكنة كأنها المقابر لا تسمع حولها دعاء محسن ، ولا دعوة بائس ، ولا تمتد يد محبة ، وراء الستائر بلقمة من العيش ترد جوعة صائم ، أو تحقق أمنية حالم ، وحسب البائس أن تثير رائحة الشواء أمعاه ، وتسيل جفاف لعابه ، ليمود إلى بفيه الجياع ، أو زوجته المنطوية على نفسها ، بالدع بين جفنيه ، والحسرة والحرمان بين جنبيه .

لم يشهد رمضان في الماضي المرأة المسلة إلا راعية في بيتها تقوم على شئونها وترعى حقوق زوجها وبنيها ، وتضحي براحتها في سبيل هناءة أسرته

ويشهد اليوم رمضان المرأة المسلة وقد تنكرت لبيتها ، وأنكرت زوجها وأبناءها ، وافتتت بزيفتها عن غيرها ، وجرها شيطان الهوى إلى التسكر لكل ماله صلة بالدين والأحلاق ، وليتها نسيت أنوثتها وعواطفها ، وخافت وعيد ربها ، ودكرت قول محمد صلوات الله عليه : « بطرت إلى النار فإذا أكثر أهلها النساء »
فا ينجها يومئذ من عذاب الله جمال ولا مال ولا جاه .

لقد شهد رمضان في الماضي نفوسا هذبها الإسلام وربطت بينها أخلاق الإسلام بوشائج من الأخوة وأسباب من التراحم والتواد والتعاطف فهي قلوب

لا تعرف الشحنة ولا تثيرها البغضاء في رمضان لغير شيء ، ويشهد رمضان الآن منذ الصباح الباكر في مصر صورا من المعارك لا تقطع بين الصائمين ، ومشاحنات لا ينطفئ لها أوار حتى كأن الصوم قد كهرب الناس فأجسامهم لا تطيق المساس ، فكم نرى في الأسواق بائعا يثور ومشتريا يفور وفي الوزارات كم نرى رئيسا يرغب ويزيد ومرؤوسا يحقق ويعربد فلم صام هؤلاء وأولئك ، وليس لله حاجة في أن يدعوا الطعام والشراب ؟ إن الصوم الذي لم يهذب النفوس يعذب المجتمع ، فليفطر هؤلاء وليرحموا المجتمع إذا ضعفوا عن جهاد أنفسهم .

ولكم شهد رمضان في الماضي ساعة الإفطار مساجد تنموج بالأغنياء والفقراء جلسوا جنبا إلى جنب ينتظرون الإفطار ليعتوا أنهم سواء في طاعة الله ، سواء أمام أوامر الله ، سواء في الوقوف بين يدي الله ، أمسكوا معا وأفطروا معا وسيصلون معا ثم ينصرف كل إلى ما يسر الله له من طعام راحيا شاكرا ، ويشهد رمضان الآن مساجد الله ساعة الإفطار وقد خلت إلا من فقير أو غريب ، أما صوام الأغنياء فإنهم يستقبلون الموائد عند دوى المدافع ليتخموا بطونهم بلذائد الطعام ثم يأخذهم الدوار العنيف لكثرة ما قذفوا في معداتهم من أطعمة يشور تفاعلها حتى يهلك المعدة فتكسل ويمتد كسلها إلى الجسم فلا ينهض إلى صلاة إلا بعد ساعات طوال .

وأما عن ليالي رمضان في الماضي فكم كانت تزدهر فيها قصور العظماء بالأضواء وتفتح أبوابها لكل وافد يسمع آيات الله يرتلها الفقهاء ، وكم كانت تعج القاهرة بالافواج المتلاحقة من الطرق الصوفية يرددون ذكر الله وهم في طريقهم إلى بيت من بيوت الله تفيض قلوبهم بحب الله وتدوى أصداؤه أصواتهم فتحترق قلوب الناس إنهم كانوا يعتقدون أن ليالي رمضان أعياد لآلهما تجمعهم في عبادة الله .

ويشهد حاضره قصور العظماء تضج بالحفلات ، العابثة فهي ليست بالنصوور وإنما هي مذايح تنحرف فيها الفضائل وتسفك فيها الأخلاق وتدبح فيها التხოة وتموت الكرامة وقد يجر كل ذلك إلى فقدان الشرف وهو أعز ما يملك الإنسان .

إن ماضى رمضان قد شهد ألوانا من العادة والبر ، وإن حاضره ليشهد صورا من الفجور والشر ، فهل أوشكت القاهرة يوم يكون أناس كالقراش الميتوث وتكون الجبال كالعين المنفوش .

أيها الصائمون أذكروا أن محمدا صلوات الله عليه كان يصوم في جو الصحراء اللافح ، فلا تتأثر أحاسيسه بحرارة جوها فيثور ويغضب بشيء أو بغير شيء ، وأنه كان يفطر على تمرات لا تقيم صلبا ولكن القناعة كانت تشبعه ، فهل لكم في رسول الله أسوة حسنة تأتسون بها .

إن مصر التي تفخر بماضيها وتذكر مجدها خليق بها أن تنزع إلى الدين وتعود لتجدد ما يلى من أخلاق ، فإن المجد المنشود لن يصل إليه إلا إذا أضأنا سبيله بأخلاقنا ، وإن نفوسنا المظلمة وأخلاقنا المظلمة لن تصل بهما إلى عزرة نريدها أو آمال نبتغيها .

إن آلاف المحرومين تغلى صدورهم ، وتتصاعد زفراتهم إلى السماء تشكو إلى الله بظلمكم ، فاتقوا شكاياتهم فليس بينها وبين الله حجاب .

لكأنى بالساعة وقد قامت ونصبت الموازين فرحتم تقببون بين أعمالكم عن صومكم فلم تجدوه ، لأن ربكم لم يقبل عمل المتبرم الساخط ، أفهل حسبت أن ربكم في حاجة إلى عبادتكم ؟ إن الإس والجن لو صاموا الدهر كله ما زاد ذلك من جلال الله شيئا ، وأن الإس والجن لو كمروا بالله وبرسالات الرسل جميعا واتخذوا آلاف الأرباب ما نقص ذلك من عزرة الله شيئا .

حساب الله عسير فاتقوا الله .

ذكا

قال الشيباني خرج أبو العباس أمير المؤمنين بالانياز فأمعن في زهرته واتبر من أصحابه ، فوافى حاء لأعرابي فقال له الأعرابي : عن الرجل ؟ قال من كنانة ؛ قال من أى كنانة ؟ قال من أبغض كنانته إلى كنانته .

قال : فأنت إذن من قريش . — قال : نعم .

قال : فمن أى قريش ؟ — قال : من أبغض قريش إلى قريش .

قال : فأنت إذن من ولد عبد المطلب . — قال : نعم .

قال : فمن أى ولد عبد المطلب أنت ؟

قال : من أبغض ولد عبد المطلب إلى ولد عبد المطلب .

قال : فأنت إذن أمير المؤمنين ، السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته . فاستحسن ما رأى منه وأمر له بمجازة .

الحياة الأخرى

عن سيد أمير علي .

لمؤلفه عمر طلعت زهره

استاذ الآداب

[يا أيها النفس المطمئنة . ارجعي إلى ربك راضية]

[مرضية . فادخلي في عبادي . وادخلي جنتي .]

تحدثنا في المقال السابق عن فكرة الوجود الثاني عند قدماء المصريين واليهود
والزردشتيين ، ثم عن عقيدة اليهود في المسيح المنتظر . وتحدث اليوم عن عقيدة
الحياة الأخرى في المسيحية والإسلام .

اجتازت أقوال المسيح عدة أطوار من التغير والتبديل ، حتى إنه يصعب
علينا اليوم - كل الصعوبة - أن نميز صحيحها من غثها . ولسكتنا إن أخذناها كما هي ،
وبحسبنا كما بحثنا غيرها من الوثائق الدينية [دون أن نتجاهل روحها الحقيقة ،
ودون أن نحاول إيجاد معانٍ مستترة كما يفعل المتعصبون] رأينا فيها نظرية عن
نظام جديد ، هي « مملكة السماء » ، تبدو واضحة خلال هذه الأقوال ، وضوحاً
يجعلها متميزة عن غيرها من النظريات : ظهر المسيح ، وصارت مملكة الله
قاب قوسين أو أدنى ، وهي مملكة ستحل محل المجتمع والحكومة غير الكاملين ،
بل والمليئين بالشروع . وكانت كلماته أحياناً ، تجعل تلاميذه يرون أن « المعلم »
الجديد سيولد ليقود الجائع والمفقر إلى المجد والعادة ، وأن الفقراء والجوعى
لحسب ، سيكونون هم السعداء ، وأن العذاب سيحل بالأنبياء والمتخمين . وكانت
مملكة الله تعهم في بعض الأحيان على أنها تعني تحقيق الرؤى أو الأحلام الوحيية^(١)

(١) The Spirit of Islam - Sayed Ameer Aly

(٢) خاصة ما أدرج في لهديس يوحنا في جزيرة بالطوس .

فما يختص بظهور المسيح . وقد تكون مملكة الله - في فهم ثالث - هي حكم الأرواح ويكون الخلاص المقرب ، مجرد خلاص روحي من أغلال هذا الوجود الأرضي . وحالت قسوة الفئة الحاكمة . وحالتها العقلية ، وقوة الرومان ، دون إحداث تغيير اجتماعي ، فلاشت جميع الآمال في تحسين « الحالة الراهنة » ، وتمسكت القلوب آمال ورجيات في مستقبل أكثر سعادة . واعتقد النعم أن « بعث الإنسانية أصبح قريباً »^(١) : فيظهر المسيح نفسه من بين ثباب السحاب ، يأتزر برداء الله ، ويجلس على عرش تحف به الملائكة ويحيطه أتباعه المحضون . وإذا ذلك ينشر الموتى من التبور ، ويجلس المسيح في مجلس القضاء ، ينفذ الملائكة أحكامه . أما الأبرار ففي جنات أعدت لهم منذ بدء الخليقة ؛ وأما الأشرار فإلى نار خالدة معدة للشيطان وأتباعه^(٢) ، حيث يعلو النواح وبشد اصطكاك الأسنان . و « المختارون » ، وهم قليلون^(٣) . يقيمون في دار ساطعة الضياء ، تمد لهم ولائم حافلة ، يرأسها أب الجنس الاسرائيلي ، ويحضرها البطارقة والأيبياء^(٤) ، بل ويوجد فيها المسيح ذاته^(٥) .

ويتضح من كلمات السيد [المسيح] أن « النظام » الجديد وعودة يسوع الثانية ، والنشور ، إنما هي أمور قريبة الحدوث ، فطالما أكد لسامعيه اقتراب مملكة الله ، وعبت الاهتمام بحاجات هذه الحياة وشواغلها .

وكانت كلمات المسيح تمس شغاف قلوب المريدين ، فإذا بهم جميعاً ينظرون إلى المستقبل في شوق بالغ ، لم ير التاريخ قط ما يفوقه ، منتظرين أن تتحقق [تحققاً حقيقياً] هذه النبوءات .

« وإذا كان الجيل الأول من المسيحيين ذوى عقيدة قوية ثابتة ، فذلك لأنهم ظنوا العالم يقترب من نهايته ، وأن « رؤى » المسيح العظيمة ، قريبة الحدوث^(٦) . ثم صارت الكنيسة المسيحية منظمة ، وانتشر أتباعها يذيعون آراءها ، آخذين

(١) ليس تمت ملك في أن المسيح نفسه كان يؤمن بالبعث الجسدي وفي الثواب والمقاب البدنيين في الحياة الأخرى ، طالما تحدث عن المبرورين في مملكته ، يأكلون ويشربون على مائدة .

(٢) متى ٢٥ / ٤١ . (٣) لوقا ١٣ / ٣٠ . (٤) متى ٨ / ٢ : لوقا ١٢ / ٢٨ و ١٢ / ٣٠ .

(٥) متى ٢٦ / ٢٩ . (٦) ريمون : حياة المسيح ص ٢٨٧ .

بالنظام الإغريق أو الرومان ، حاملين لواء دينهم إلى آفاق كانت مجهولة ، حيث يعيش البرابرة ، الذين تركوا - بالكاد - عاباتهم ، ورأوا في المسيح ومريم صورة أخرى لألهتهم التي كانوا يعبدونها .

ظل العالم المسيحي يهزه الشوق ، وتحرقه الرغبة ، كلما نام بحدثان الرمان - إلى ظهور [المسيح] ، وأخذت فكرة « حكم الله » بمرور الزمان وتطور التفكير إما صورة روحية ، أو غشت آثارها من بعض العقول ، أو ركبها الريادات ، فأخذت تستقى صفات جديدة من يثبات المؤمنين الجدد ، فوجدت في المسيحية آثار كلدانية ومجوسية زردشتية وأفلوطينية ، غيرت جميعها من المعتقدات التدمرية وصيغتها صبغة جديدة .

كانت تمت فكرة في المسيحية ، شجع رجال الدين على انتشارها ، وهي أن محمداً صلى الله عليه وسلم ينكر وجود أرواح للفساء ، ولكن هذه الفكرة اندثرت ، وإنها لفكرة خبيثة ابتدعت لخلق روح الكراهية ضد الإسلام . ولا زال المسيحيون يؤمنون بأن النبي العربي وعد أتباعه المؤمنين بمحنة حسية بها الحور ، وبها ملذات متفاوت درجاتها ، ولكن هذا الفهم إنما تأتي عن الجهل والمغالطة .

ولكن من الضروري - نظرا للبيئة التي نزل فيها القرآن - استعمال أساليب تنفق وعقل سكان الصحراء ، فكان هذا الوصف الذي يسترعى انتباههم ، ولكنه كان صورة جانبية . يتلوها الجوهر ، وهو عبادة الله في خشوع وحب ولنا نستطيع أن نقول إن الأوصاف الواردة للجنة والنار كانت حسية ، ولنا نستطيع القول إن محمداً صلى الله عليه وسلم أو أحداً من أتباعه - حتى أبعدهم في فهم القرآن فهما حرفياً - كان يقول إنها مبنية على الحواس ، لا العقل أو الروح .

والنظرية الرئيسية السائدة في الإسلام - فيما يختص بالحياة الثانية - إنما تنبئ على اعتقاد أنه على كل كائن بشري - في حالة الوجود الآخر - أن يقدم حساباً عن أعماله في الأرض ، وأن سعادة الفرد أو شغامة ، آنذاك ، إنما تترتب على الطريقة التي أدى بها هذا الفرد حقوق خالقه .

أما رحته ونعمته [تعالى] فليس لها حدود ، يصفيهما على خلقه . هذا هو المحور الذى تدور حوله نظرية الحياة الثانية فى الإسلام ، بل وهذه هى النقطة العقيدية الوحيدة التى على المسلم أن يؤمن بها ويقبلها ، أما ما عدا ذلك من عناصر أضيفت إليها وأخذت من تقاليد الأجناس والشعوب فإلى غير ذلك من زيادات ، وإن نحن تركنا جانباً مسألة الموضوعية الموجودة فى جميع النظريات عن الثواب والعقاب المستقبليين ، أو بقول أدق نظريات حياة ما بعد الموت ، فعلينا أن نذكر جيداً أن هذه النظريات أمدت ، معنى ، العالم الأخلاقيين بأقوى سلاح يؤثرون به فى سلوك الأفراد والشعوب : فالفضيلة - لذاتها - يمكن أن تقبلها عقول النخبة الممتازة ، أما المتوسطون وغير المتعلمين فلا بد من أن نقرن الفضيلة لهم بالثواب والعقاب .

ولتر الآن طبيعة هذا الثواب والعقاب ، على أن نتذكر أنه يندر أن تتمكن من أن تنقل فكرة عن لذة روحية أو ألم روحى إلى أفهام غالبية البشر دون أن نلبس تعابيرنا رداء حياً ، أو أن نقدم فى وصف هذه اللذة أو ذلك الألم موضوعات حية . وطالما استعملت الفلسفة التعبيرات المجردة ، دون أى رداء محسوس ، وقد كان لهذه التعبيرات والأفهام [الفلسفية] يوم ازدهرت فيه ، ثم ماتت دون أن يشعر بها أحد خارج دائرة العلماء الخالمين الذين كانوا يعيشون ، فى غموض غير محدود ، داخل أفكارهم .

أما محمد (صلى الله عليه وسلم) فقد كان ينقل الدين ، لا نعتقد الراجحة الممتازة من المفكرين المتألمين الذين تصادف وجودهم ، لحسب ، وإنما للعالم المتسع حوله ، المؤثر بالمادية بكافة أنواعها ، وكان عليه أن يخاطب الناس على قدر عقولهم . فالعربى الجائع ، ماذا عنده أجل وأحلى ، أو أكثر توافقاً مع تفكيره عن الجنة ، أكثر من أنهار تجري فيها المياه ويجرى اللبن والعسل ، وهل يود أن يرى إلا الفاكهة والحضرة الدائمة والخصب الثمر؟ إنه لا يستطيع أن يتصور نعمة لا تصحبها هذه الملذات المستمدة من الحواس .

هذا هو رأى جماعة من المسلمين يرى - كما يرى السنائى والغزالي - أنه وراء السعادة المادية ، المصورة فى محسوسات كالاشجار والأنهار والنفور الجميلة والحدود

العين ، يوجد معنى أعرق ، وأن لذة اللذات إنما توجد في رؤى النفس المبرورة في حضرة الحق حين يرفع الحجاب بين الرب والعبد ، وتجلى الذات على العقل بعد أن يتخلص من شوائب الجسد وأدران الدنيا . وهم في هذا يتمثلون بكلمات القرآن والحديث ، روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ما معناه - إن أحب الناس إلى الله هو من يرى وجهه تعالى صباح مساء ، فيشعر بسعادة تفوق كل مسرات البدن ، كما تفوق مياه المحيط نقطة العرق . وحدث أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال فيما يرويه عن ربه : أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، ثم قال اقرأوا إن شئتم . فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون ^(١) . وثبت حديث آخر صرح فيه النبي صلى الله عليه وسلم : أن الإرادة الطيبة تمتع بغرب الله ، وهي التي عناها القرآن بقوله : « والله يدعو إلى دار السلام ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ، للذين أحسنوا الحسنى وزيادة » ^(٢) .

أما التعبيرات الصريحة في القرآن ، فإن هذه الجماعة من المفكرين تفسرها على ضوء الآية الكريمة من الكتاب الحكيم : « هو الذي أنزل عليك الكتاب ، منه آيات محكمات [واضحات للمهم] ، هن أم الكتاب ، وأخر متشابهات » ^(٣) .

وتوجد فرقة تنظر إلى مسرات الآخرة وعذابها نظرة موضوعية إطلاقاً ، فهي ترى أنه لما كان الالم العقلي [المعنوي] الشديد أكثر عذاباً من الالم الجسدي ، فكذلك يكون السرور العقلي [المعنوي] ذا طبيعة أعلى ودرجة أسمى من أى لذة جدية . ومن هنا ترجع ، [إذا استعملنا اللفظ القرآني] الروح الفردية بعد الموت البدني إلى الروح الكلية ، فإن جميع المسرات والآلام التي صورها النبي [الموحى إليه] في صور حية مثيرة ، لا يمكن العوام من فهم حقيقتها ، لن تكون إلا عقلية وموضوعية . وتتضمن هذه الفرقه بعض كبار المفلسة والمتصوفة المسلمين .

وفرقة أخرى ، وربما كانت الأكثر عدداً ، تعتقد في حرفة الالفاظ القرآنية .

(١) المجدة ٢٢ / ٧١ .

(٢) سورة آل عمران ٧/٣ .

(٣) سورة يوسف ٢٥٠/١ - ٢٥١/١ .

تدرج القرآن بالإنسان من المعاني الحسية إلى المعاني الروحية ، مسيراً قدرة معتققي الدين الجدد على التخلص من حياتهم المادية ، وبالتالي قدرتهم على فهم الحياة الروحية إن سعادة الأبرار إنما تكون في السلام الدائم والإرادة الحيرة في حضرة الحق : « إن المتقين في جنات وعيون . أدخلوها بسلام آمين . وزعنا ما في صدورهم من غل إخواناً على سرر متقابلين . لا يمسهم فيها نصب وما هم منها بمخرجين ^(١) » .

إنما أردنا هنا أن ندلل على فساد النظرية التي تقول بأن صور القرآن عن الحياة الأخرى كانت كلها حبة ، وحسبنا دليلاً هذه الآية من القرآن الكريم ، لئلا نرى عمق الروحية في الإسلام ، ونقاء الآمال وطهر الاتجاهات التي تفنن عليها قوانين الحياة .

« يا أيها النفس المطمئنة . إرجعي إلى ربك راضية مرضية . فادخلي في عبادي وادخلي جنتي ^(٢) » .

الموصلى

كان محمد بن دانيال بن يوسف الطيب صاحب نثر رقيق وشعر طريف وكان يعتمد على النكات في شعره فيجئ مروحاً للنفوس . من شعره :

أصبحت أفقر من يروح ويقتدى	ما في يدي من فاقة الأيدي
في منزل لم يحو غيري قاعداً	فاذا رقدت رقدت غير عدد
لم يبق فيه سوى رسوم حصيرة	ومخدة كانت لام المهتدي
ملق على طراحة في حشوها	قل كئيل السمسم المتبدد
والفأر يركض كالحيول نساقت	من كل جرداء الأديم وأجرد

موقف الاسلام من الفقراء

لفضيلة الأستاذ سيد شريف

المدرس بمعهد القاهرة

دعا الإسلام الى المبادئ الإنسانية القويمة التي تهدف الى خلق أمة قوية متماسكة تشيع بين أفرادها أسس المبادئ الخلقية التي تتمثل فيما تفيض به نفوسهم . من محبة خالصة ، وود صادق ، وتعاون حق ، وأخوة أكيدة ، حتى غدا المجتمع الإسلامي الأول ، مجتمعاً مثالياً ليس فيه نائر آله الجوع . وأمضه الحرمان ، أو مظلوم أحزنه الإغصاء ، وكاد يودى به الفسياد ، أو ظالم أمن في سربه ، وقد أدمت سياطه الطهور ، وغلت أوزاره الاعتاق ، أو غنى طنى ، وبغى لأنه وجد من يملك طمعا في ماله ، وركونا الى جاهه . ورهبة من سلطانه وذلك لأن الدستور الاسلامي سوى بينهم ، وكفل لهم حقوقهم في حدود واضحة لا لبس فيها ولا غموض .

ورسم لأفراد مجتمعه . السبل الواضح الى الحياة الكريمة ، حياة العاملين المناضلين ، وكره منهم نوازع المذلة والمهانة ، وندد بمن يستمرئون الكسل . ويستطيون المسألة ، ويستغيثون الاستجداء ، ورعاية لهذه الأغراض النبيلة ، لم يفرض للفقراء حقوقاً على القادرين وأرباب الثروات ، إلا بعد أن دعاهم الى الجد والمثابرة على السعى ، ولا أدل على ذلك من قوله تعالى فيمن يستحقون منهم المساعدة الاجتماعية . للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله لا يستطيعون ضرباً في الأرض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسئلون الناس إلخافاً ، وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم .

وقد دعا الرسول في قوة وحزم ، الى الدأب على العمل في صدق وإخلاص ، فمن أبي سعيد الخدري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : أقبلت لأسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوجدته يقول : من يصبر ، يصبره الله ، ومن يستعفف يعفه الله ، ومن يستغن يغنه الله ، قلت فما أنا بسائلك اليوم ، وفيما رواه الزبير ابن العوام عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لأن يأخذ أحدكم حبلأ فذهب

فيأتي بحزمة حطب على ظهره فيبيعها ، فتكف بها وجهه ، خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه ، وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا أبا بكر ما فتح رجل باب مسألة يريد بها كثرة إلا زاده الله بها قلة .

ولقد اتبع الفقراء الأولون السياسة التي رسمها الدين ، وأخلصوا في تنفيذها ، وأخذوا أنفسهم على القصد والاعتدال . والقناعة عملاً بتوجيه الرسول وأمثالاً لإرشاده . وقد أصبحت هذه الصفات عقيدة لهم ، يدينون بها ، ويؤمنون بالإخلاص لها ، ولذلك غدا كل منهم خارجاً عن سلطان بطنه فلا يشتهي ما لا يجد ، ولا يكثر إذا وجد ، يدل على صدق ما نقول صنيع عبادة بن الصامت حينما أهديت له هدية ، وإن في الدار إثني عشر رجلاً من أهل بيته . فقال عبادة اذهبوا بهذه إلى آل فلان فهو أحوج بها منا . فقال الوليد بن عبادة . فأخذتها فكلما جئت أهل بيت يقولون اذهبوا بها إلى آل فلان فهو أحوج منا إليها حتى رجعت الهدية إلى عبادة قبل الصبح .

وحينما يعجز الفقراء عن السعي والجد لكسب قوتهم ، لم يتركهم دستور الدساتير هملاً يتضورون جوعاً ، ويمشون في الأرض فساداً ، بل وضع لهم نظاماً قويمًا دعمه بأقوى الأسس وأثبتها ، إذ فرض لهم على الأغنياء فيهم حقوقاً تفي بحاجاتهم ومطالب وجودهم ، وتفسح لهم في مجتمعاتهم مكاناً لا يحسون فيه فوارق تشكي لها النفس . ويتبرم بها الحس .

ولقد عنى بهذه الحقوق أكل عناية ، وفي غير نص من نصوصه ، ولم يفرق بين المسلم وغيره تفديساً للتسامح الذي ينهض أكثر من دليل على أنه من مميزات هذا الدستور . ورصد للوفاء بشئون الفقراء ، يستوى منهم من عجز عن العمل . ومن عدت عليهم عوادي الأيام ، وحلت بهم صروف الزمن ، ومن ضاقت مواردهم على أن ترتفع حياتهم إلى المستوى الإنساني الذي يليق بهم رصد لهم باباً موفور الدخل ، هو باب المساعدات الاجتماعية . ولما طبعت نفوس السلف على الخير ، وحب البذل ، والسبق إلى السخاء ، استوى عندهم أن تمت أيديهم بما أوجبه الدين . وجعله لازماً عليهم . يطالبون بأدائه . وما يفعلونه تطوعاً يبتغون به إلى الله التقرب والزلفى . مدفوعين إليه بضمير يقطر وحس مرهف .

وقد حنروا بمسارعهم للبدل أن يحقق بهم ما حاق بعلبة بن حاطب ، وقد وعد أن يتصدق ، ثم نكصر على عقبه بعد أن غلبه الشح ، وتمكن منه الضن ، نحاس بعد قطعه على نفسه أمام رسول الله قال فيه : « فوالذي بعثك بالحق إن آتاني الله سبحانه مالا لأعطين كل ذي حق حقه » . ولما تاب إلى رشده ، بكى ندما وحشا التراب على رأسه ، وفيه يقول تعالى : « ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن . ولنكونن من الصالحين . من فضله يخولوا به وتولوا وهم معرضون . فأعقبهم نفاقا في قلوبهم إلى يوم يأتونه بما أخلفوا الله ما وعدوه ، وبما كانوا يكذبون . ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم وأن الله علام الغيوب » .

وكان قينا بالمسلمين أن يستجيوا في صدق إلى هذا النداء الإلهي الحكيم . إذ أحسوا من قائدهم الأمين وزعيمهم الملهم ، محمد بن عبد الله ، عملا يسبق القول ، ودعوة إلى البر ، تقفو جودا كالريح المرسلة . يصدر عن قلب رحيم ، أحب الفقراء . ونهض بهم ، وحباهم بفصل من عطفه ، ولفت الأنظار إلى احترامهم . ورعاية أقدارهم حينما قربهم إليه ، وأدناهم منه ، وبالغ في صلتهم ، وسوى بينهم ، وبين من اعتقد أنه عريق الأصل ، طيب الأرومة .

رأى أنه كان عنده أول ما اشتد به المرض سبعة دنائير خاف أن يقبضه الله وما زال باقية عنده فأمر أهله أن يتصدقوا بها ، ولكن اشتغالهم بتمريضه والقيام على خدمته ، وإطراء المرض في شدته أنساهم تنفيذ أمره . فلما أفاق يوم لأحد الذي سبق وفاته من إغنامه سألم ما فعلوا بها ، فأجابته عائشة أنها ما زال عندها . فطلب إليها أن تحضرها ، ووضعها في كفه ثم قال : ما ظن محمد بربه لو لقي الله وعنده هذه ، ثم تصدق بها جميعا على فقراء المسلمين .

وكذلك كان المسلمون يقتدون بالرسول في حياته وبعد مماته . يدل لذلك ما روى أنه كان في المدينة في زمن النبي شاب يقال له مالك بن ثعلبة الأنصاري ، ولم يكن في المدينة شاب أغنى منه ، فر بالنبي ، والنبي يتلو : « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم » . يوم يحمى عليها في نار جهنم . فتكوى بها جباههم ، وجنوبهم ، وظهورهم ، هذا ما كنزتم لأنفسكم ، فنزفوا ما كنتم تكفزون » .

فغشى على الشاب ، فلما أفاق دخل على النبي فقال : بأبي أنت وأمي هذه الآية لمن كنز الذهب والفضة . فقال له النبي نعم يا مالك ، قال والذي بعثك بالحق ليسين مالك ولا يملك ديناراً ولا درهما . فتصدق بما له ، وفعل عمر يدل على تنفيذ المسلمين لهذه السياسة بعد رسول الله ، إذ رأى شيخاً ضريراً يسأل على باب فلما علم أنه يهودى ، قال له ما ألباك إلى ما أرى قال : أسأل الجزية ، والحاجة ، والسن ، فأخذ عمر يده ، وذهب به إلى منزله فأعطاه ما يكفيه ساعتها ، وأرسل إلى حازن بيت المال يقول : أنظر هذا وضرابه ، فوالله ما أنصفناه إن أكلنا شيبته ، ثم نخذه عند الهرم .

هذا هو موقف الاسلام من الفقراء ، السواد الغالب في الأمم والشعوب ، لم يتركهم نهياً لذوى الأغراض وأرباب الشهوات . بل حفظ لهم حقوقهم الانسانية كاملة . أما الآن — وقد تبدل الحال غير الحال ، وغدت الأناية والآثرة شرعة الأقوياء ، وسمة ذوى السلطان — فقد استشرى الفساد ، وشاعت أسباب الفرقة والاختلاف ، ولا أدل على ذلك مما نشاهده من تباعد بين الطبقات ، أفقد الأغنياء ثقة الفقراء لانهم تخلوا عما يوجبهم دينهم من التعاون والتراحم ، وعاشوا في أبراج عاجية ، يحيون حياة أبطال الأفاصيص ، من ترف وبدخ ، ومجون وسرف ، يثرون الذهب على موائد الميسر ، وفي ميادين الساق وأماكن اللهو .

أما مواسم البر ، ودواعي الخير ، فليس لهم إليها من سبيل مما جعل الفقراء يقيمون عليهم ، ويتربصون بهم الدوائر ، ويتربصون الفرصة المواتية لأن يتزعوا منهم حقهم في الحياة ، ويتطلعون إلى المبادئ الهدامة ، عليهم يحصلون في حماها على حقهم المقتضب ، ونصيبهم المسلوب ، وكرامتهم المهذرة ، وإنسانيتهم الممتنة ، بعد أن أيأسهم الوعود الخلابية ، والأساليب المعسولة ، وعبارات الكذب والملق . ولا علاج لهذه الحالة ، إلا إذا أحس الأغنياء ، وأرباب الثراء ، أن في أموالهم حقا معلوما للسائل والمحروم ، وأن عيوننا تلبث منها نظرات متقدة ، كأنها سواظ من نار ، تنزل إلى ما في أيديهم من أموال ذاخرة ، وما تصل إليهم من أرباح دافقة وترقب في عناية بالغة مصادرها ، كيف جمعت وإلى أين ذهبت ، وقد تيفظ الوعي القوي ، فأصبحت الشعوب لا ترضى بغير التاسب والتاسق بين الطبقات ، والتعاطف والتعاون ، ليجد الجائع الطعام ، والعمى الكساء ، والمريض الدواء ، والجاهل العرفان ، ولذا ذاك ترفرف على الجميع ألوية الحب والسلام ؟

مَذْهَبُ الصَّرْفَةِ

ابن حزم

تفضيلة الاستاذ الشيخ علي محمد حسن العمري

مبعوث الأزهر في السودان

أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الطاهري الأندلسي ، أصله من فارس ،
جده الثامن أول من أسلم من أسرته ، وكان مولى ليريد بن أبي سفيان ، ولذلك
كان ابن حزم يميل إلى الأمويين ، ويتشيع لهم .

عاش ابن حزم بين سنتي ٣٨٤ ، ٤٥٦ هـ ، ونشأ في قرطبة ، في بيت رياسة ،
وقد لايس جزءاً من هذه الرياسة حقة من دهره ، ثم انصرف في وقت مبكر
إلى الدراسة والتحصيل ، ودفعته همة عالية ، وذكاء متقد إلى التعمق في كثير
من العلوم ، فكان ثانياً اثنين - في الدولة الإسلامية - بلغا الذروة في التأليف ،
ثانيهما ابن جرير الطبري .

ووجد ابن حزم عداً شديداً من أهل الاندلس ، ويرجع ذلك إلى أسباب ،
أحدها ما صبرته بقوله :

هنالك تدرى أن للبعد غصة وأن فساد العلم آفته القرب
فزامر الحى لا يطرب ، والفاضل - في كل مكان - مبغض إلى أهل بلده ،
وابن حزم يقول :

تقر لى العراق ومن يلبها وأهل الأرض إلا أهل دارى
وثانيها : أن ابن حزم كان معتداً بنفسه إلى أبعد حدود الاعتداد ، فدفعه
ذلك إلى مأزقين خطرين ، فقد كان ينال من الأئمة المتقدمين ، لم ينلم من لسانه
أحد ، ويصور ذلك قول ابن العريف : كان لسان ابن حزم وسيف الحجاج
توأمين ، كما كان يقول ما يجهى على لسانه دون رفق أو التواء ، لا يعرف التعريض
ولا التلطف في الخطاب ، بل يصك معارضه صك الجندل - كما يقول ياقوت -

كل ذلك إلى تشبيهه لبني أمية ، وانحرافه عن عدام ، بغض فيه رؤسائه ، وكثر أعدائه ، وأساء إلى سمعته .

ولابن حزم تأليف كثيرة - كما أسلفنا - ولعل أهمها كتابه (الفصل في الملل والنحل) وهو كتاب لا ينكر فضله إلا جاحد أو مكابر ، وفيه تكلم عن إعجاز القرآن ، وعليه معتمدنا في هذا البحث .

آراؤه في القرآن :

القرآن المعجز هو المكتوب المتلو ، وإعجازه باى إلى يوم القيامة ، وكله معجز قليله وكثيره ، والمعجز منه نظمه ، وما فيه من الإخبار بالغيوب ، وليس هذا الأخير - وحده - معجزاً - كما روى عن بعضهم ، وبرهان ذلك قول الله تعالى ، فأتوا بسورة من مثله ، فنص على أنهم لا يأتون بمثل سورة من سوره ، وأكثر سوره ليس فيها إخبار بغيب ، ووجه إعجازه أن الله رفع القوة عن العرب ، وحال بين العباد وبين أن يأتوا بمثله .

ويظهر أن ابن حزم يطرد هذه الحيلولة في كل الآيات ، فهو يرى أن من أهر الآيات وأعظمها قول النبي لليهود الذين كانوا معه في وقته ولعلم كانوا الوفا أن يتمنوا الموت ان كانوا صادقين في تكديهم نبوته ، وأعلمهم أنهم لا يستطيعون ذلك أصلاً فعجزوا عن تمنى الموت ، وحيل بينهم وبين النطق بذلك . وهذه قصة منصوصة في سورة الجمعة ، وقد كان أسهل الأمور عليهم أن يكذبوا بأن يتمنوا الموت لو استطاعوا ، وهم يسمعونونه يقول (فتمنوا الموت ان كنتم صادقين ولا يتمنونه أبداً بما قدمت أيديهم) .

ولم يرو عن أحد أنه قبل التحدى ، وعارض القرآن معارضة صحيحة ، ولم يتكلف أحد معارضته إلا افتضح وسقط . قال ابن خرم وقد تعاملى بعضهم ذلك يوماً في كلام جرى بيني وبينه فقلت له : اتق الله على نفسك ، فإن الله قد منعك من البيان والبلاغة نعمة سبقت بها ، والله لئن تعرضت لهذا الباب بإشارة ليسللك الله هذه النعمة ، ولجعللك فضيحة وشهرة ومسخرة وصحكة كما فعل بمن رام هذا من قبلك ، فقال لى : صدقت والله ، واظهر الندم .

رده على مذهب اليبانيين :

يقول أكثر أهل العريية - ومنهم الجاحظ - بالإعجاز اليباني في القرآن ،

ولكن ابن حزم يعتبر هذا رأى طائفة، ويعتبر القول بالصرقة رأى طوائف، وقد عني أولاً بالرد على القائلين بأن القرآن في أعلى درج البلاغة فقال: وقد ظن قوم أن عجز العرب ومن تلام من سائر البلغاء عن معارضة القرآن إنما هو لكون القرآن في أعلى طبقات البلاغة، وهذا خطأ شديد، ولو كان كذلك - وقد أبى الله عز وجل أن يكون - لما كان حيثئذ معجزة، لأن هذه صفة كل باسقى في طبقة، والشئ الذي هو كذلك، وإن كان سبق في وقت ما فلا يؤمن أن يأتي في غد ما يقاربه بل ما يفوقه.

وأيضاً لو كان إعجاز القرآن لأنه في أعلى درجة البلاغة، لكان بمنزلة كلام الحسن وسهل بن هرون، والجاحظ، وشعر امرئ القيس، ومعاذ الله من هذا، لأن كل ما يسبق في طبقة لم يؤمن أن يأتي من يماثله ضرورة، فلا بد لهم من هذه الحطة أو من المصير إلى قولنا إن الله تعالى مع من معارضته فقط.

الاعتراض على الصرقة والإجابة عنه:

يسوق ابن حزم اعتراض الفريق الآخر القائل بأن الأمر لو كان كما يقول أصحاب الصرقة لوجب أن يكون القرآن أغث ما يمكن أن يكون من الكلام فكانت تكون الحجة أبلغ، ثم رد قائلاً: فهذا هو الكلام الثغ حقاً لوجوه:

(أحدها) أنه قول بلا برهان؛ لأنه يعمس عليه قوله بنفسه، فيقال له: بل لو كان إعجازه لكونه في أعلى درج البلاغة لكان لا حجة فيه، لأن هذا يكون في كل ما كان في أعلى طبقة، وأما آيات الانبياء فخرجة عن المعبود.

(ثانيها) أنه لا يسأل الله تعالى عما يفعل، ولا يقال له: لم عجرت بهذا النظم دون غيره، ولم أرسلت هذا الرسول دون غيره ولم قلبت عصا موسى حية دون أن تظلم أسداً؟ وكل هذا حق من جاء به لم يوجب قط عقل، وحسب الآية أن تكون خارجة عن المعبود فقط.

(ثالثها) أنهم حين طردوا سؤالهم ربه بهذا السؤال العاسد لزمهم أن يقولوا: هلا كان هذا الإعجاز في كلام بجميع اللغات، فيستوى في معرفة إعجازه العرب والعجم؛ لأن العجم لا يعرفون إعجاز القرآن إلا بأخبار العرب فقط.

القرآن وكلام البشر :

يرى ابن حزم أن القرآن ليس من نوع كلام المخلوقين ، لا من أعلاه ، ولا من أدناه ، ولا من أوسطه ، وبرهان ذلك :

١ - أن إنساناً لو أدخل في رسالة له أو خطبة ، أو تأليف أو موعظة حروف الهجاء المقطعة لكان خارجاً عن البلاغة المعهودة جملة بلا شك ، كما أن الأقسام التي في أوائل السور لا عهد بها ، وليس هذا من نوع بلاغة الناس المعهودة .

٢ - نجد في القرآن إدخال معنى بين معنيين ، ليس بينهما كقولہ تعالى : تلك الجنة التي نورث من عبادنا من كان تقياً ، وما ننزل إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك وما كان ربك نسياً ، رب السموات والأرض وما بينهما فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سميّاً ، ويقول الإنسان أنذا ما مت لسوف أخرج حياً . . وليس هذا من بلاغة الناس في ورود ولا صدر ، ومثل هذا في القرآن كثير .

٣ - ما روى عن أنيس أحمى أبي ذر الغفاري رضي الله عنهما حين سمع القرآن فقال : لقد وضعت هذا الكلام على السنة البلغاء والسنة الشعراء فلم أجده يوافق ذلك ، أو كلاماً هذا معناه .

ويتعرض ابن حزم - هنا - لأمور تنصل بالاعجاز ويطول فيها ، وغرضه أن تكون بعض حججه على رأيه ، فهو يتعرض للقدار المعجز من القرآن ، ويناقش قول الأشعرية مناقشة عنيفة ، ويخلص منها إلى أن القرآن لا يمكن أن يكون معجزاً بأنه في أعلى درج البلاغة ، فالأشعرية يقولون : إن المعجز إنما هو مقدار أقل سورة منه ، وهو إما أعطيناك الكوثر فصاعداً ، فيرد ابن حزم بقول الله تعالى : على أن يأتوا بمثل هذا القرآن ، ولا يختلف اثنان في أن كل شيء من القرآن قرآن ، فكل شيء من القرآن معجز ، وهذا هو الحق الذي عليه سائر أهل الإسلام ، ويقلب المسألة على جميع وجوهاً ثم يخلص إلى أنه ما دام القليل والكثير معجزاً فلا يمكن أن يكون ذلك إلا بأن صرف الله العرب عن المعارضة ، ولأن بعض الآيات وردت على لسان المخلوقين ، ولا يمال حينئذ إنها معجزة ، فلما صارت

مِنْ أَدَبِ الْإِسْلَامِ

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمود محمد المنقذ

قدمت أسماء بنت زيد الأنصارية إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالت يا رسول الله ، إن الله بعثك إلى الرجال والنساء فأمنّا بك واتبعناك ، ونحن معاشر النساء مقصورات مخدورات ، قواعد بيوت ، ومواضع شهوات الرجال ، وحاملات أولادهم ، وأن الرجال فضلوا علينا بالجماعات وشهود الجنائز ، وإذا خرجوا للجهاد حفظنا لهم أموالهم ، وربيتنا لهم أولادهم ، أفنشاركهم في الأجر يا رسول الله فالتفت رسول الله صلى الله عليه وسلم بوجهه إلى أصحابه وقال : هل سمعتم مقالة امرأة أحسن سؤالا عن دينها من هذه . قالوا بلى يا رسول الله . فقال انصري يا أسماء واعلمي بأنك من النساء ، إن حسن فعل إحداكن لزوجها وطلبها لمرضاته واتباعها لموافقته ، يعدل كل ما ذكرت للرجال .

من كلام الله أصبحت معجزة ، وأن كل كلمة قائمة المعنى يعلم إذا تليت منها من القرآن فإنها معجزة لا يقدر أحد على المحيى بمثلها أبداً ، وأنها متى ذكرت في خبر على أنها ليست قرآناً فهي غير معجزة .

حرصت في هذا البحث على أن ألتصص آراء ابن حزم بكل دقة ، ولم أتعرض للرد عليها ، بل تركت ذلك إلى أوانه حين أفصل رذود السلف على القائلين بهذا المذهب ، على أني أطلت النظر في كلام ابن حزم لأرى هل تعرض لشبهة قديمة يذكرها العلماء في الرد على مذهب الصرفة ، وهي أنه لو كان الأمر كذلك لكان تعجب العرب - حين عجزوا - من مجزم لا من بلاغة القرآن ، فلم أهند إلى شيء في كتابه يصرح أو يلمح إلى هذه الشبهة .

وكما ملاحظ أن ابن حزم وإن جعل القرآن نوعاً على حدة . وليس من نوع كلام المخلوقين - إلا أنه يفهم من ضربه المثل بالمأشئ في الطريق - أن القرآن كان مقدوراً للعرب ، وأنهم كانوا يستطيعون أن يجيئوا بمثله لولا أن الله حال بينهم وبين المعارضة ، وبهذا - عنده - يكون الإعجاز .

هذه القصة ترينا الصورة الحقيقية التي يهدف إليها الإسلام في تربية المرأة وتكوين خلقها ، وتهذيب نفسها ، ومدى صلاحيتها لبناء مجدها ، وتربية أمة قوية في أخلاقها وفي تكوينها والاشراف على أولادها ، لتخرج للمجتمع رجالا صالحين لأن يبنوا مملكتهم ، ويعملوا شأن أمتهم .

جيلا سداه الخلق ، ولحمته النظام ، واحترام حقوق الغير . والعمل لخير المجموع . هذا هو المستور الصحيح الذي إن تمسكت به المرأة وسارت على محبته وانتظمت في سلوكه ، وعملت بقواعده ، رقت وسمت ، ونالت المكانة السامية ، والمزلة الرفيعة وحق لامتها أن تفخر بين الأمم بما تقدم هذه الأم لابنائها من مثل عليا ، وما تبعه في نفوس أبنائها من عزة وكرامة ، وسمو واعتزاز . فالمرأة التي تهز المهدي يمينها هي الحقيقة بأن تحرك العروش بشاها .

أما تلك التي تفسى واجباتها ، وتهمل مملكتها ، وتخرج إلى الطرقات لتبعث في الناس الفسنة ، وتثير فيهم مكان الشهوة بما تبديه من زينة وما تظهره من حلاعة وججون ، فهي حرة بكل احتقار ، خلقة بكل ما يصيبها من ظلم شرفها والاعتداء على كرامتها ، ووصفها بأبدا أنواع النعوت ، لا يقام لها شأن ، ولا يلتفت إليها إلا كما يلتفت الحيوان إلى أليفه حينما تلح عليه الشهوة أو تثيره عوامل الاغراء ، لا يقام لأبها وزن ، ولا يعاب بمشورتها .

وقديما قسم العلماء والفلاسفة المرأة إلى ثلاث صنوف :

فالصنف الأول منهن هي التي تعيش في حدود أنوثتها الكاملة ، وموماتها السامية ، وردة ناضجة تشم ، لا شوكة تؤدى وتجرح ، وقلبا ينبض بالحياة لا عقلا يتفلسف ، وشعرا يوحى ويلهم .

والصنف الثاني - هي التي تلتزم حدود الانوثة في سماحتها وعفتها ورقتها لها قوة العابدات لا عقل المربيات تعيش للرجل أمة تخضع ومتاعا يستغل .

والصنف الثالث - هي التي تعيش الآن في عصرنا الحاضر تمرد على أنوثتها وتخرج عن حدود طبعها ، وتثور على حقها ، وتطالب بما للرجال من حقوق قبل إدراكها لمطالب المجتمع قلبا ، تتعلم لتجادل وتطلب التحرر لتحتل من قيود

الفضيلة وتسمى في الأرض لتبث الفتنة أينما حلت وحينما ارتحلت وما دوت
 أن الثعالب تترقبها وأن الذئاب تنظرها وأنها تدبج الفضيلة في ثورتها .
 فعلينا إذا أردت أن نكون المرأة الكاملة في المدينة الفاضلة أن نرحم أنفسنا
 ونعني بأسرتها وتوابعها إلى رشدنا وتأخذ لها العبرة من الماضي والحاضر لتبني
 المستقبل على أسس الدين الصحيحة وأخلاقه الرشيدة ففيها كل السعادة لها وللأجيال
 المقبلة ، وكما هذا الدستور السليم الذي أرسله رب العالمين إلى خير الهادين
 والمرشدين في قوله : « وقل للؤمنات يفضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن
 ولا يبدن زينتهن إلا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدن
 زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن
 أو أخواتهن أو بنى أخواتهن أو بنى أخواتهن أو نسائهن أو ما ملكت أيماهن
 أو التابعين غير أولى الإربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات
 النساء ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يحرم من زينتهن وتوبوا إلى الله جميعاً
 أيها المؤمنون لعلكم تفلحون » .

هذا هو النظام السكوني الصحيح الذي وصفه الله تعالى للمجتمع لسير على هديه
 وينتظم تحت لوائه وهو المجتمع المثالي الذي ارتضاه رب العزة والجلال لخلقاته .
 أما تلك النظم الماسعة التي نصعبا نحن لأنفسنا والتي لا تختلف في شيء عن نظم
 الغاب فهو عبث صياري لا يبنى لأمة مجدداً ولا يرفع لها شأنها ، ولا يعلى لها قدراً
 بل على العكس من ذلك يهدم بديانها ويقوض دعائمها وفي النهاية تتردى في هوة
 صقيقة وتعود إلى همجيتها الأولى .

قال القادة والزعماء أصيب بهم ألا يحاملوا أحداً على حساب دينهم وليقولوا
 بصوت الحق والعدل والانصاف للمرأة قولة الطهر والبراءة ، وقرن في بيوتكن
 ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى .

عند ذلك تستقيم الأمور وتصلح الأحوال ويعرف كل واجبه فيؤديه على خير
 الوجه ويعود للأمة الإسلامية مجدداً وعزها ومكاتها وسؤدها وتجتث عوامل
 الشر والفساد ونفسي على هذه القوضى التي تن من منها جميعاً ويرضى عنا الله
 والناس أجمعين .

والله ولي الهداية والتوفيق .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الدروس الدينية

في قصر رأس التين

ألقى صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير الشيخ عبد الرحمن حسن وكيل الجامع الأزهر حديثين دينيين من أحاديث شهر رمضان المعظم بعد صلاة العشاء، الأول يوم الجمعة ٤ رمضان، والثاني يوم الجمعة ١٨ رمضان، في قصر رأس التين العامر. وقد استمع الى حديثي فضيلته كبار رجال القصر الملكي العامر وكثيرون من العلماء الفضلاء وأهل الرأي.

وقد ختم فضيلته الحديث الأول بهذا الدعاء:

« نَسْأَلُكَ اللَّهُمَّ وَأَنْتَ الْعَلِيُّ الْقَدِيرُ أَنْ تَحْفَظَ حَضْرَةَ صَاحِبِ الْجَلَالَةِ الْمَلِكِ فَارُوقَ الْأَوَّلِ أَعَزَّهُ اللَّهُ . وَأَنْ تَكْتُبَ لَهُ السَّلَامَةَ لِحَيْرِ الدِّينِ وَالْأَمَةِ وَالْوَطَنِ . اللَّهُمَّ أَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّهُ قَدْ بَذَلَ مِنْ جَاهِهِ وَقُوَّةِ نَفْسِهِ وَعِزِّهِ وَلَمْ يَدْخَرْ فِي ذَلِكَ وَسْعًا فِي سَبِيلِ مَجْدِ مِصْرَ وَرَفْعَةِ شَأْنِهَا وَفِي سَبِيلِ مَجْدِ الْعُرْبَةِ وَالْإِسْلَامِ .

اللَّهُمَّ أَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّهُ أَنْفَقَ الْكَثِيرَ مِنْ مَالِهِ فِي سَبِيلِ الْخَيْرِ الْعَامِ وَوَأَسَى الْفُقَرَاءَ وَاحْسَنَ إِلَى الضَّعِيفَاءِ وَذَوِي الْحَاجَاتِ بِمَالِهِ وَقَوْلِهِ وَفِعْلِهِ وَعَمَلِ مَصْلَحَتِهِمْ وَلِخَيْرِهِمْ وَرِفَاهَتِهِمْ وَكُلِّ ذَلِكَ فِي سَبِيلِكَ وَابْتِغَاءِ مَرْضَاتِكَ .

اللَّهُمَّ أَمْنَحْهُ الرِّضَا وَأَمْلَأْ قَلْبَهُ حِكْمَةً وَرَحْمَةً وَنُورًا مِنْ نُورِكَ الْأَسْنَى وَاجْعَلْ فِيهِ وَمِنْهُ الْخَيْرَ لِعِزِّ الْإِسْلَامِ وَمَجْدِ الْإِسْلَامِ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

« كَمَا نَسْأَلُكَ اللَّهُمَّ أَنْ تُوَفِّقَ حُكُومَةَ جَلَالَتِهِ إِلَى مَا فِيهِ خَيْرُ الْأَمَةِ وَصَلَاحُهَا وَفَلَاحُهَا وَأَنْ تَتِمَّ دَمًا فِي هَذَا السَّبِيلِ بِعَوْنِكَ وَقُوَّتِكَ وَأَنْ تَمْنَحَهَا فِي أَعْمَالِهَا الرِّشْدَ وَالسَّدَادَ وَالسَّلَامَ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةَ اللَّهِ » .

وتنشر فيما يلي نص هذين الحديثين:

المرسى الأول :

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى :

« مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة ، والله يضاعف لمن يشاء . والله واسع عليم (٢٦١) الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يقبعون ما أنفقوا منا ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم . ولا خوف عليهم . ولا هم يحزنون (٢٦٢) قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى ، والله غني حلیم (٢٦٣) يأبى الذين آمنوا أن يلبطوا صدقاتكم بالمن والأذى ، كألذى ينفق ماله رثاء الناس ، ولا يؤمن بالله واليوم الآخر ، فثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلداً ، لا يقدرُونَ على شيء مما كسبوا ، والله لا يهدي الكافرين (٢٦٤) . »

في الآيات السابقة ذكر الله مثلين في حياة الأمم وموتها : مثل الأمة التي فقدت حياتها كأمة ، لهاونها في شئونها ، وخور عزيمة أبنائها أمام عدوها مع كثرتهم . ومثل الأمة التي كادت تستكين لعدوها وتخضع لسلطانها ، وتفقد حياتها كأمة ، لولا ما كان من فريق من أبنائها ذوى القوة والجلد والصبر ، قادوها في معترك الحياة إلى الدفاع عن كيائها ، والاستهانة بالشدائد في سبيل حياتها ، حتى غلبوا عدوهم وظفروا بأمنهم وسلامتهم ، وكتب الله لهم الملك والحياة .

وفي معرض ذكر هذين المثالين أمر الله المؤمنين بالجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمة الله . وذكرهم بما كان من أمر هاتين الأمتين ليعتبروا ، ودعاهم إلى بذل المال في هذا السبيل ، وسمى ما دعاهم إليه قرضاً حسناً لله ، مع أنه غنى عن العالمين ، فقال : « من ذا الذى يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة . » وأتى بهذا الأسلوب الرائع القوي ليزرع في قلوب المؤمنين هزاً ، ويملأ نفوسهم روعة وجلالاً ويملك عليهم شعورهم ووجدانهم ، حتى أنه ليسهل على المؤمن عند سماعه هذا أن ينزل عن كل ماله حبا في الله وابتغاء مرضاته . فكيف وقد وعده بالجزاء عليه أضعافاً كثيرة ، ووعدته الحق .

عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه أنه لما نزلت هذه الآية قال أبو الدحداح :
يا رسول الله : أو أن الله يريد منا القرض ؟ قال : نعم يا أبا الدحداح . قال : يدك
قبل . فناولته يده . قال : فإني قد أقرضت ربى حائطى : حائطاً فيه ستمائة نخلة .
ثم جاء يمشى حتى أتى الحائط ، وأم الدحداح فيه فى عيالها ، فناداهما : يأم الدحداح .
قالت : ليك . قال : اخرجى قد أقرضت ربى حائطاً فيه ستمائة نخلة . وقال زيد
ابن أسلم : إن هذا الحائط كان أحسن الأرضين اللتين يملكهما أبو الدحداح .

هذا ما جاء فى الآيات السابقة . وبعد أن حذر الله المؤمنين من التواني فى الإنفاق
فى سبيل الله بقوله : « يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى يوم
لا بيع فيه ولا خلة » ذكر هنا تفصيل ما سبق لإجماله ، وبين فى الآيات ما ينبغي
أن يكون عليه المؤمن فيما ينفقه فى سبيل الله حتى يحظى برضاء الله ، وينال عليه
جزاه فى الدنيا والآخرة ، فقال « مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة
أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة » أى أن ما ينفقه هؤلاء فى سبيل الخير
العام للمؤمنين لإعلاء كلمة الله ورفعة شأن الأمة الإسلامية ينميه الله تعالى ويضاعفه
حتى يكون خيره كأبرك حب فى أخصب أرض نما حتى جاءت غلته مضاعفة
إلى سبعمائة ضعف ، وأنهم بعملهم هذا سيجزون الجزاء الأوفى فى الدنيا والآخرة ،
بما يكون لهم من الذكر الحسن بين مواطنهم ، وما يكون لهم بين أفراد الأمة
من التمتع بحمايتها ورعايتها ، بما لها من المكانة ورفعة الشأن بين الأمم ، وما يتألون
من الواب العظيم الذى يضاعفه الله تعالى لهم إلى سبعمائة ضعف أو يزيد .
« والله يضاعف لمن يشاء » فيزيد من الأجر إلى ما لا يقدر . . والله واسع عليم ،
لا ينحصر فضله ، ولا يحده عطاؤه ، وهو أعلم بمن يستحق المزيد من فضله من أهل
الإخلاص وعمل الخير الدائم .

ولما قلنا إن الإنفاق فى سبيل الله هو الإنفاق فى سبيل الخير العام للمؤمنين ،
لأن سبيل الله هو دينه وطريقه الذى يوصل إلى الخير العام . وقد جهز عثمان بن
عفان جيش العسرة فى غزوة تبوك بألف بعير وألف دينار . وتصدق عبد الرحمن
ابن عوف بنصف ماله أربعة آلاف دينار . ونزل الكتاب بأن ما أنفتموه هو
فى سبيل الله يضاعف الله عليه الأجر . وأنفق أبو بكر ماله فى مصالح المؤمنين لإعلاء

كلمة الله ، وكان ما أنفق في سبيل الله . وهكذا كان ذوو اليسار من المؤمنين ينفقون أموالهم في خير الأمة وهم يعلمون أنهم إنما يفعلون ذلك في سبيل الله وابتغاء مرضاته . وعلى هذا فالإنفاق على نشر العلم ، وإنشاء المستشفيات والمصحات والملاجئ ، وتسهيل سبل العيش على الفقراء ، وإعداد الجيوش ، وكل ما فيه خير للمسلمين ، هو إنفاق في سبيل الله ، يضاعف الله عليه الأجر ، ويجزى عليه خير الجزاء .

والحكومات وإن كانت تقوم بهذا ولكن موازينها عادة لا تنكفي ، فيكون من حق الله على المومنين أن يتموا هذا النص ، ليسعدوا وتسعد أمتهم ، ويكون لهم من الله الجزاء العظيم .

لما عظم الله أمر الإنفاق في سبيل الله ، وكانت هناك أمور تعرض للنفوس فتكدر صنائع المعروف ، نبه الله المؤمنين إلى أنه ينبغي أن تكون نفقاتهم في سبيل الخير بعيدة عن هذه المكدرات ، خالصة لوجه الله تعالى ، حتى يكون لهم عند الله عظيم الأجر ونعم العطاء ، فقال تعالى : الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون .

والمن : هو ذكر ما يتفحص المعروف ، بأن يذكر المحسن إحسانه لمن أحسن إليه ، يظهر به تفضله عليه . والأذى : هو أن يتناول المحسن على من أحسن إليه بسبب هذا الإحسان .

والمعنى أن الذين يذلون أموالهم في سبيل الخير العام لأمتهم ، أو لذوى الحاجة من أبنائهم ولا يلحقون بهذا العمل ما يكدره من المن على من أحسنوا إليهم بإظهار تفضله عليهم ، أو بإيذائهم بالتناول عليهم بسبب ما بذلوه لهم من الإحسان - سيكون لهم عند الله أجر عظيم ، ولا خوف عليهم حين يخاف الناس وتقرعهم الأهوال ، ولا هم يحزنون حين يحزن الباخلون المسكون عن الإنفاق في سبيل الله . وقول الله تعالى : قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى ، تأكيد لما تضمنته الآية السابقة من النهي عن المن والأذى .

أى كلام جميل تقبله القلوب ولا تنكره يردبه السائل من غير عطاء ، وإغضاء عما يحصل منه من الإلحاف في المسألة ، أو ستر لحاله بعدم التشهير به - خير له

من صدقة يتبعها سوء القول أو سوء المقابلة ، أو غيرهما من كل ما فيه إساءة أو إيذاء له . هـ والله غنى حلیم ، أى غنى عن هذه الصدقات التى تجلب الأذى للفقراء ، لأنه طيب لا يتقبل إلا الطيبات . وحليم لا يعجل العقوبة على من يمن ويؤذى بصدقته .

وهذه الآية تقرر مبدأ عاما فى الشريعة ، وهو أن درء المفسد مقدم على جلب المصالح ، وأن الخير لا يكون طريقا إلى الشر . وفيها إعلام من الله تعالى لنا بأنه يجب أن نطهر أعمالنا فى الخير من الشوائب التى تنقص على الفقراء ، بل من حقهم علينا أن نترفق بهم ، وأن الصدقة عليهم إذا لم تكن إلا مع المن والأذى فلتتركها ، ولا أقل من أن نجبر قلوبهم بكلمة المعروف .

وقال الأستاذ الإمام : القول المعروف يتوجه تارة إلى السائل إن كانت الصدقة عليه ، وتارة يتوجه إلى المصلحة العامة ، كما إذا هاجم البلد عدو ، وأرادوا جمع المال للاستعانة على دفعه ، فن لم يكن له مال ، يمكنه أن يساعد بالقول المعروف الذى يبحث على العمل ، وينشط العامل . ويعت عزيمة البازل ، وهذا خير من الذى يساعد الأمة ببعض المال مع سوء القول فى العمل الذى ساعدها عليه ، وإظهار استهجانها ، وبيان التقصير فيه ، أو تشكيك الناس فى فائدته . فإن كونك مع الأمة بقلبك ولسانك خير من أن ترضخ ببعض المال مع قول السوء وفعل الأذى .

بعد أن بين الله فى الآيتين السابقتين ما ينبغى أن يكون عليه المؤمنون فى صدقاتهم على الفقراء أو فى سبيل المصلحة العامة للدومنين ، وهو أن تصدر حالية من المن والأذى ، أقبل عليهم ونهائم عن ذلك نبيا صريحا فقال : هـ يأيتها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى ، أى أن من يتصدق ويتبع صدقته بالمن والأذى فإن صدقته تقع على وجه لا ثواب فيه ، فيحبطها الله ويجعلها كأنها لم تكن .

أو المعنى لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى لأن المن والأذى يهدم الغرض المقصود من الصدقة ، وهو تخفيف بؤس المحتاجين ، وكشف أذى الفقر عنهم إذا كانت الصدقة للأفراد ، أو تخفيف حاجات الأمة ودفع الضرر عنها إذا كانت

الصدقة قد أنفقت في مصلحة عامة . ولا مراء في أن كل عمل لا يؤدي إلى الفائدة المتصورة منه يكون كأنه لم يكن . وهنا قد أتبع الصدقة بما يحبطها ويمنع من الغرض المقصود منها ، بل هو ضدها ونقيضها .

وقد شبه الله أصحاب المن والأذى في الآية بالمرائي وهو الذي ينفق ماله حباً في الظهور أمام الناس بمظهر فعل الخير ليدحوه ويرضوا عنه ، وقلبه منصرف عن الله ، ومتعلق بالناس الذين يرثيهم ، فقال : كالذي ينفق ماله رثاء الناس ولا يؤمن بآله واليوم الآخر .

والإنسان وإن كان معطوفاً على حب المدح وكراهة الذم ، وحب الجاه والسلطان ، ولكن الجاه والمدح والثناء لا يكون محموداً عند الله تعالى إلا إذا كان من طريق الكمال النفسى ، والإخلاص لله في العمل ، لا من طريق مراعاة الناس مع عدم الشعور بعظمة الله وسلطانه . فالذى ينفق ماله ليكسب حب الناس ومودتهم وتعلقهم به ، وليكون له بينهم جاه وسلطان ، ليتوسل بذلك إلى التمكن من قلوبهم ، والسيطرة على نفوسهم ، ليصلح الفاسد ، ويقوم الموعج ، ويهديهم إلى طريق الخير - هو لا شك من القادة الأحيار ، الذين يستحقون أعظم الحمد والثناء في الدنيا ، وأحسن الجزاء عند الله في الآخرة .

وأصحاب المن والأذى هم كالمرائي في أحط صفاته ، وهو أنه مراء لا يؤمن بالله ولا يؤمن باليوم الآخر : فعمله مجرد من صفات الخير ، لا إيمان بالله ، ولا إيمان باليوم الآخر ، ولا هو يعمل العمل لذات الخير ، كالعمل الذى يعمل به غير المؤمنين لذات الخير غير مرآئين فيه ، وإنما هو يعمل للهوى النفسى ، وشهوة المدح والجاه ، وما مثله إلا كتل الصفوان ، وهو الحجر الأملس ، إذا كان عليه تراب ، يطنه الرائي صالحاً للإنبات ، ولكن لا يلبث هذا التراب حتى ينزل عليه وابل ، أى مطر غزير ، يمحوه فيعود ذلك الحجر أملس لا يصلح لتقبل البذور ، ولا الإنبات . فهو كما قال الله تعالى : فتنه كتل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلداً .

والماتون المؤذون والمرامون هم سواء في أنهم كاللحجر الأملس عليه تراب هو عملهم الذي يرى كأنه نافع فيزل عليه الماء ، وهو مثل المن والأذى والمرأاة فيمحو هذا التراب ويغسله غسلًا لا يقدر على شيء مما كسبوا . أي لا ينتفعون بشيء مما عملوا يوم القيامة ، لأنه لا ثواب إلا مع الإخلاص ، ولا إخلاص مع المن والأذى والرياء ، بل هم في الدنيا يكونون موضع سخط الناس وغضبهم عندما ينكشف حالهم ، وتظهر سوءاتهم . والله لا يهدي القوم الكافرين ، الذين خلت قلوبهم من نور الهداية ، لمجدوا نعمة الله عليهم ، ولم يقابلوها بالشكران بأن ينفقوا بما أنعم عليهم ، كما أراد الله ، من غير من ولا أذى ، ولا مرأاة ، ليكونوا في عداد العاملين المخلصين .

الدرس الثاني :

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى :

وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُتْلَاهَا ضَعْفَيْنِ ، فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ قَطَلٌ ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٦٥) أَمْ يَدْعُونَ أَنْ نَكُونَهُ لُجْنَةً مِنْ نَجْلِ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ، لَهُ مِنْهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ، وَأَصْنَاءُ الْكُكُرِ ، وَلَهُ دُرَّةٌ مُدْمَعَةٌ ، فَأَصَابَهَا رِجْسٌ مِنْ عَصَارِ فِيهِ نَارٌ ، فَاحْتَرَقَتْ ، كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (٢٦٦) . .

بين الله في الآيات السابقة ما دعا اليه المؤمنون من الإنفاق في سبيل الله ، وأهم إذا أنفقوا في سبيل الله فإن الله تعالى يضاعف لهم الأجر أصفاً مصاعفة إلى ستمائة ضعف ، ونهاهم عن أن يقبضوا صدقاتهم بالمال على من أنفقوا عليهم ، أو يذنبهم ، بأن يسيئوا اليهم بأي نوع من أنواع الإساءة : وبين لهم أن المن والادى يبطل الصدقة ، كما تبطلها المراهاة ، وأنهم هم والمرأى سواء ، في أنهم كالحجر الأملس الذي عليه تراب ، يظه الناس أنه تراب فيه نفع وصالح للإنبات ، ولكن هذا التراب لا يلبث حتى يهزل عليه مطر عزيز . فيذهب به ويعمل الحجر فيعود أماساً ، لا يصلح لتقبل البذر ولإنبات . وأن هذا التراب هو مثل ما يقومون به من الصدقات ، وذلك المطر هو مثل المن والأذى والرياء ؛ يذهب بما عملوا ، ويحمله كأن لم يكن .

ثم أعقب الله هذا المثل بمثل المذمومين المخلصين الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله ، للغبابة ، وظهور الفرق بين هؤلاء وأولئك ، فقال : . . ومثل الذين

ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وثيقاً من أنفسهم كمثل جنة بربوة . . . إلى آخر الآية .

والمعنى أن أهل البر والإحسان ، الذين ينفقون أموالهم طلباً لمرضاة الله ، وهم متشبثون من أنفسهم أن عملهم خالص لله ، هؤلاء مثلهم كمثل جنة في أرض مستوية ، جيدة التربة ، عظيمة الخصب ، إن أصابها مطر غزير آتت ثمرتها مثلي ما كان يمدد منها ، وإن أصابها طل ، وهو الندى أو المطر الخفيف ، فإنه يكفيها في أن تثمر وتأتي بالخير ، لحسن موقعها ، وجودة تربتها ، وقوة إنباتها .

والوجه في هذا التمثيل أن هؤلاء المصدقين الصادقين هم كالجنة النابتة ، الجيدة الخصب ، فكما أنها إن أصابها الوابل ضاعفت الثمرة ، وإن خف المطر آتت كُثْلها على كل حال ، كذلك هؤلاء المخلصون في صدقاتهم ، إن وسع الله عليهم أغدقوا الخير ووسعوا ، وإن أصابهم خير قليل أغفوا بما يتسع إليه عالمهم ؛ وهم في صفاء نفوسهم وإخلاص قلوبهم لا يضرب معيهم ، ولا يخيب قاصدهم ، كبهذه الجنة أُكُلها دائم ، ولا يخبث عليها التلف .

وقد ختم الله الآية بقوله : والله بما تعملون بصير ، ليذكرنا بأنه يعلم كل أمورنا لا يخفى عليه شيء من أعمالنا ، وسيجازي كل عامل بما عمل . وفي هذا تحذير أيضاً لأهل الرياء الذين يستعشرون الناس بقواهم ، وتحذير لأهل المن والادى بأن الله بصير لعملهم الذي لا حير فيه .

وقوله تعالى : أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب . . . إلى آخر الآية ، مثل آخر ضربه الله للرائين وأهل المن والادى . والاستفهام في الآية للإنكار ، والإعصار هو الريح العاصفة التي تستدير فوق الأرض ثم تعكس إلى السماء حاملة غباراً ، فتكون كهيئة العمود ، وهي المسماة بالزوبعة . والمراد بالنار : السموم الشديدة الحر الذي يحرق البساتين والشجر .

والمعنى : أيود الإنسان أن تكون له هذه الجنة ، وهي جنة في غاية الحسن شجرها الكرم والنخل ، اللذان هما أجل الشجر وأنفعه ، وفيها أنهار تجري

من نعمتها تؤدها حساً ، وله فيها من كل اثرات ، وقد لحقته الشينوخة وطعن في السن ، وذريته صغار لا يقدرون على العمل ، ثم لم يلبث حتى أصابها إعصار فيه سموم محرقة أنت عليها فأحرقتها ، فصار في محلة ملأت نفسه غماً وهماً وحسرة بما ضاع من الثمرة التي لم يكن له ولذريته معاش سواها ، وأصبح في أشد الحاجة إلى النفقة .

والاستفهام الإنكارى في الآية يعطى معنى النفي ، أى لا يوجد عاقل يود أن يكون صاحب هذه الجنة ، ويصيبه ما أصاب صاحبها من التجرد من منافعها ، في وقت هو أشد ما يكون حاجة إليها .

والمقصود من هذا المثل بيان حال المرائين وأصحاب المن والاذى ، الذين قرنوا صدقاتهم بما يطلها ويذهب بثوابها ، وذلك أنهم يجيئون في الآخرة وهم في أشد الحاجة إلى ثواب ما عملوا فلا يجدونه ، وفي غاية العجز عن اكتساب ما ينفعهم ، فيصيبهم من الغم والحسرة والخيرة ما لا يعلمه إلى الله . فثلثم مثل ذلك الشيخ الكبير الذى احترقت جنته في حال حاجته إليها ، وضروره إلى ثمرها ، وضغفه عن عمارتها ، وفي حال صغر أولاده وعجزهم عن إحيائها والقيام عليها .

ونعد أن بين الله للتومنين ما ينبغي أن تكون عليه صدقاتهم ، وذلك بأن تكون خالصة لله لا يشوبها من ولا أذى ولا رياء ، وضرب لهم الامثال ليحتسروا ، أعقب هذا بقوله : ألملكم تتفكرون ، أى أن الله تعالى قد بين لكم حقائق الأمور وما فيها من خير وشر بالادلة الواضحة البينة ، وضرب لكم الامثال لتتفكروا في عاقبة أولئك الذين حادوا عن الطريق السوى ، فتضموها نفقاتكم في مواضعها التي يرضاهم الله .

هنا ما ينبغي أن يكون عليه المؤمنون من الصفات وقت البذل ، وهي الإخلاص لله في أداء الصدقة ، وأن يتنبؤوا من أنفسهم أن عملهم خالص لله

أما المال المتفق فقد وصفه الله في قوله : يا أيها الذين آمنوا انفقوا من طيبات ما كسبتم ، وما أخرجنا لكم من الارض ، ولا تبعموا الخبيث منه تنفقون ولستم بأحديه إلا أن تعضوا فيه ، واعلموا أن الله غنى حميد ، . (٢٦٧) . والطيب . هو الجيد الذى تستطيبه النفس . والخبيث : هو الردى الذى تكرهه .

وهذا التفسير هو الذى يتفق مع ما نزل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم والجمهور من أئمة التفسير ، كما فى تفسير الطبرى والمرطى . أما ما نقل عن ابن زيد بن أسلم من أن المراد بالطيب الحلال ، وبالخبث الحرام ، فلا يظهر وجهه ، لأنه لا يتفق مع نظم الآية فى قوله ، ولستم بأحديه إلا أن تمصوا فيه ، ولا مع ما ورد من الآيات الأخرى ، مثل قوله تعالى : لن تألوا البر حتى تنفقوا مما تحبون ، وقوله ، ويحثل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ، ، لأن المعنى حيثئذ ويحثل لهم الحلال ، ويحرم عليهم الحرام ، وهو من تحصيل الحاصل ، ولا يتفق مع ما ذكره المفسرون فى سبب نزول الآية ، وهو أن بعض المسلمين كانوا يأتون بصدقته من ردى التمر .

فقد روى أن بعضهم كان يعزل الردى من التمر ، حتى إذا جاء صاحب الصدقة أعطاه له فيما عليه من الصدقة ، فنزلت الآية . ومع هذا فالخطاب للمؤمنين ، والأصل فى أموال المؤمنين أن تكون حلالا ، وهم إنما حوطبوا بالإفاق عما فى أيديهم .

وقد بين الله فى الآية صفة المال المبذول فى الصدقة ، وهو أن يكون من طيب ما يكسب نفعنا ، كمكسب العمال والتجار والصناع ونحوهم ، ومن طيب ما نخرجه الأرض لنا من الزروع والثمار والمعادن والركاز وغير ذلك مما تحويه الأرض .

وقد نهاا الله تعالى فى الآية عن أن نعيد إلى الردى من أموالنا فنبدله فى الصدقة .

أما المال المتوسط بين الجودة والرداءة ، فالآية لا تمنع من بدله ، ولكن بذل الجيد أفضل ، لأن الصدقة قربة إلى الله ، وخير ما يتقرب به إلى الله أجود الأموال وأفضلها ، هذا إذا كان بعض المال جيدا وبعضه رديئا فقصده إلى الردى . فأخرجه فى الصدقة وأبقى الجيد لنفسه ، أما إذا كان كل ماله دون الجيد أو كان الحاضر منه كذلك فتصدق منه كان عمله محمودا عند الله تعالى لأنه أهدى مما أعطاه الله من فضله ولم يبخل .

وفي قوله تعالى : « ولستم بأخذيه إلا أن تغمضوا فيه » ، ما يشعر بالتقريع والتوبيخ لمن يتصدقون من ردى أموالهم أى كيف تمعدون الى الردى من أموالكم تتصدقون به وأنتم لا ترضون مثله لأنفسكم فى معاملتكم إلا إذا أعضيتكم النظر عما فيه من العيب تساهلا منكم !

ثم قال تعالى : « واعلموا أن الله غنى حميد » ، أى دهره هذا المال الخبيث الذى لا خير فيه فانه غنى عن صدقاتكم وعن غيرها ، ولما دعاكم الى بذل الصدقة من طيب أموالكم ليفنى به عائلكم ، ويقوى به ضيفكم ، ويجزل لكم به فى الآخرة مثوبتكم : فهى الخيركم ومصلحتكم ، لا من أجل حاجته إليكم . وهو المحمود الواجب شكره على ما هداكم إليه من الخير ، وعلى ما تفضل وأنعم به عليكم .

ولما رغب الله المؤمنين فى أن تكون صدقاتهم على الفقراء وفى سبيل الخير العام من خير ما يملكون ، ونهاهم عن التصديق بالخبيث ، لعنهم الى ما يرخص للنفوس من الوسوس التى "تُخَيِّلُ" لها أن الإنفاق يفضى الى ضياع المال وسوء الحال ، وأن الخير فى إمساكه ليكون عدة المستقبل عند الحاجة إليه ، فقال : « الشيطان يعدكم الفقر ، ويأمركم بالفحشاء » ، والله يعدكم مغفرة منه وفضلا ، والله واسع عليم (٢٦٨) .

والمعنى أن الشيطان يعدكم الفقر ، أى يخوفكم منه ويخيل إليكم أن الإنفاق فى سبيل الخير يذهب بالمال فلا تجدونه وقت حاجتكم إليه ، ومع هذا هو يأمركم بالفحشاء ، وهى المعاصى ، ويفريكم بالإنفاق فيها . أو المعنى أنه يخوفكم من الفقر ويأمركم بالفحشاء أى البخل ، أى ويفريكم بالبخل لإعراء الأمر بالمأور . والفاحش عند العرب البخل ، كما فى قول طرفة :

أرى الموت يعتام الكرام ويصطفى عقيلة مال الفاحش المتشدد

وبقابل وسوسة الشيطان بالخوف من الفقر والإغراء بالبخل ، وعداؤه لنا بأن الإنفاق فى سبيل الله ومواساة الفقراء ، كل بحسب مقدرته وسعة حاله مع الابتعاد عما يذهب بشمرة الصدقة من المن والأذى والرياء ، سيكون منه الخير العام لنا فى الدنيا والآخرة . ففى الآخرة غفران الذنوب وتكفير الخطايا ،

وفي الدنيا ما يخلفه الله عليا من فضله ، وهو واسع الفضل ، يحقق ما وعدها به ، وهو عليم بما تنفق ، يحصيه ويحصى عليه .

وقد جاء في الكتاب الكريم : وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه ، وهو خير الرازقين ، وفي صحيح البخاري ومسلم : ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملأ مكان ينزلان ، يقول أحدهما : اللهم أعط متاعا خلفا ، ويقول الآخر : اللهم أعط ممسكا تلفا . أي أذهب ماله إلى حيث لا خير فيه . فأنه تعالى وعد المتصدقين بأنه يخلف عليهم ما تصدقوا به ، ولكن ما يخلفه الله ليس ضروريا أن يكون من نوع ما أنفقوا ، بل قد يكون من الأمور المعنوية التي يحبها الإنسان ويراها خيرا من كثير من المال وذلك كالذكر الحسن الذي يحصل لاهل البر والاحسان بين مواطنهم ، أو حب الناس لهم ، وتعلق القلوب بهم ، وكأن يرزقهم الله ذرية نافعة لخير الدين والدنيا ، ويحو ذلك من الأمور المعنوية التي يحبها الناس وليست بمال .

وقد يكون ما يخلفه الله من الأمور المادية ، وذلك بأن يستعمل الله للمنفقين طرق الرزق ، ويصرفهم بالعدل الذي يُدر عليهم المال الذي يخلف الله به ما أنفقوا أو يزيد ، أو يرزقهم بما لا يكون في الحسبان مما ليس لهم فيه كسب ، كالمال الذي يجيء من طريق الميراث أو الهبات أو الوصايا أو غير ذلك .

ويدخل في عداد البر والإحسان الذي يخلفه الله على المنفقين ، ما ينمي أن يقوم به أصحاب الشركات وكبار الملاك من البر والإحسان نحو عمالهم الذين يعملون لهم ، مما يدفع حاجة هؤلاء العمال ويصلح شؤونهم المادية والصحية والاجتماعية لأن إنفاقهم في هذا السبيل هو من باب الاتفاق في الخير العام للأمة : لأن العمال جزء منها ، والأمة كل يتكون من عدة أجزاء إذا صلحت صلحت الأمة كلها . فليتعمروا ، وليتبروا عمالهم ؛ فإنهم إن فعلوا ذلك حق لهم ما وعدهم الله به من فضله عليهم ، والله ذو الفضل العظيم .

وفضل الله عليهم قد يكون من طريق الإرشاد والهداية إلى أقوم الطرق وأصلحها للإنتاج والجهاد في العمل ؛ وقد يكون من طريق ربط الأسباب الظاهرة بمسبباتها ، وهو النظام الذي سنه الله في هذه الحياة . وذلك لأن إصلاح

شأن العمال والإحسان إليهم يغيظهم ويحبب إليهم الملاك ، فينشطون إلى العمل بنفس قوة ، رائدها الإخلاص ، والإنسان عبد الإحسان ، فيكثر الإنتاج ، وتزيد الثروة بما لا يقاس معه المال الذي أنفق في سبيل البر والإحسان إلى العمال .

وهذا فضل الله الذي يخلف ما أنفقوه . والله واسع الفضل ، عظيم الخير .
هكذا وعد الله ، وذلك لإغواء الشيطان . الشيطان يمدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء ، والله يمدكم مغفرة مئة وصلا .

قرئان تلسا بالنفس عند نزوعها إلى عمل الخير : وسوسة الشيطان وهي قوة الشر التي تحوّل من الفقر وتأمّر بالفحشاء ، وإلهامات الرحمن وهي قوة الخير التي تدعو إلى الإنفاق في سبيل الله ، حيث يكون فضل الله ومغفرته .

وفي صحيح الترمذي عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن للشيطان لمة بابن آدم ، ولذلك لمة ، فأما لمة الشيطان فأبعاد بالشر ، ونسكذيب بالحق ، وأما لمة الملك فأبعاد بالخير ، وتصديق بالحق ، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله ، ومن وجد الأخرى فليتعوذ بالله من الشيطان ، ثم قرأ ، الشيطان يمدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء ، والتممة هي الهمة والخطرة إلى تقع في القلب ، فما كان منها من خطرات الخير فهو من الإلهامات الإلهية ، وما كان منها من خطرات الشر فهو من الوسوس الشيطانية .

فيأياها المؤمنون : إذا ألمت بكم قوة الخير فاحمدوا الله عليها ، وإذا ألمت بكم قوة الشر فاستميدوا بالله من الشيطان ، وتحصنوا بحمى الله منه ، وأقدموا على فعل الخير ، وعودوا أنفسكم عليه ، حتى لا تنيلم بتلو بكم خطرات الشيطان ولا وسوسه وعواجه .

وأنتم أيها الباخلون : راجعوا أنفسكم ، وحاسبوها ، وانظروا أين تضعون نفقتكم ، أي وعد الله تعالى أم في وسارس الشيطان ، وأي الأمرين تسكن إليه نفوسكم وتطمئن إليه قلوبكم : وعد الله لكم بالخير أو إبعاد الشيطان لكم بالشر وقد ظهر الحق ووضح الطريق .

وقد أرشدنا الله تعالى بقوله ، يؤتى الحكمة من يشاء ، ومن يؤتى الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً ، وما يذكر إلا أولو الألباب (٢٦٩) ، إلى أن ما يقع في قلوبنا من الوسوس والهواجس الشيطانية ، والإلهامات الإلهية ، ويشبهه الأمر فيه علينا ، إنما يتميز بالحكمة التي يوفقنا الله للحصول عليها . والحكمة هي العلم الذي تعظم منفعته ، و"تجمل" فائدته ، وهو العلم الذي يكشف حقائق الأشياء ، ويفرق بين الحق والباطل ، وبين النافع والضرر ، ويميز الإلهامات الإلهية من الوسوس الشيطانية ، ومن يؤتى هذا العلم النافع الذي "تجمل" فائدته فقد أوتي خيراً كثيراً ، وما يذكر إلا أولو الألباب ، الذين فتح الله قلوبهم للتقوى ، وأعد لهم لقبول الهداية .

لَيْسَ هُنَا نَبْذُلُ

ليس من هنا نبدأ ، لأننا بدأنا فعلا من حيث يجب أن نبدأ ، وقد قطعنا مرحلة من الطريق التي يجب أن تسلك . فإن استعرض الباحث ما كنا عليه من حياتنا الاجتماعية والعلمية والعملية ، رأى رأى العين صدق ما نقول ، واستطاع أن يقدر ما قطعناه من الطريق في كل وجهة من وجهات الحياة الأدبية والمادية . فقد أدركنا أن أساس الحياة العلم والعمل فاندفعنا في سبيلهما بقدر ما تستطيعه وسائلنا المادية والمعنوية ، فإن كنا لا نزال متأخرين عن الأمم التي تعتبر مُثُلًا عليا فيهما ، فما ذلك إلا لأننا بدأنا بعدها بيضعة قرون ، فإن دأبنا وضاعفنا جهودنا فلا شك في أننا مدركوها وسائرون إلى جانبها وربما سبقناها ولا حرج على فضل الله .

فيجب علينا أن ندرك هذه الحقيقة ، وأن ندرأ عنا شيطان العجلة فإن المنبت لا أرضا قطع ولا ظهراً أبق .

نعم أن الغيرة الوطنية تشتد في بعض النفوس فتحترق جهود الأمة التي تبذلها لتلحق بالقافلة ، فتشدد وطأتها في النمي على بطئها وتردها ، وفي التشهير بتؤدتها وتواكلها ، وهذه النزعة الحماسية من تلك النفوس تضرب أكثر مما تنفع ، فهي تغزو مادة اليأس في قلوب الضعفاء ، وتريد من عديد الجامدين على القديم منهم ، ولو تأمل هؤلاء المتحمسون منا لرأوا أن الأمة بحملتها استقامت في طريق الذين سبقوها وترملت خطاهم ، ونشبت بفكرة اللحاق بهم ، وهي نزعة إذا سلبت من المشبطات أدت بأهلها إلى اللحاق بمن سبقوها ، لأنها تسلك طريقا عبيدا من تقدمها فكيفت مؤونة التعبد والتمهيد ، وهما من أشد القواطع للسالكين ، فتقطع في الزمن القصير ، ما كان يضطرها للصبر الطويل . وبذل الجهد الجهد . وفي ضرب المنزل بالأمة اليابانية مقنع .

فند كانت هي والصينيون على مدنية عريضة في القدم ، ولكنها كانت مدنية صناعة دقيقة وتفكير عميق ، ليس لقوى البخار والكهرباء فيها من نصيب . فتنبه

اليابانيون لذلك منذ نحو مائة سنة ، فاستخدموها فلم تحض عليهم بضعة عشرات من السنين حتى ارتقوا إلى مصاف الأمم الأوربية ، واحتلت حذوها الأمة الصينية ، فبلغت مكانة فيها . ونحن بعد فترة قصيرة من الزمن نستكمل فيها تعميم التعليم ، ويكثر بين ظهر أيها المتعلمون الذين لا يجدون عملاً ، فيضطرون بحكم الضرورة الحيوية للبحث عن عمل يحصلون من القيام به ما يسد حاجتهم المعيشية ، وكلما اشتد بهم الضيق تشددوا في تركيز قواهم العقلية في ابتكار ما يوصل إلى كسب القوت من عمل يثيب الناس القائم به ، فتتفتح أمامهم ضروب الحاجات المعيشية والصناعية ، فيضطروا للاشتغال بها ، ولكهم بسبب تفوقهم في القوة الفكرية يعملون عتولهم في التجديد والابتكار فيصلون بها إلى درجات رفيعة مما يرق ذوق المجموع ويحمل مظهره ، ومنهم من يتوصل إلى اختراع أداة يصل من ورائها إلى أبعد حدود الثروة ، ويكون قدوة لغيره في إدمان التفكير في خدمة المدنية . وبازدياد عديد المفكرين من هذا القبيل تزداد قيمة الأعمال الحرة والعاملين فيها ، ويتمنى الذين يهرون وراء الوظائف الدبوانية لو أتيح لهم أن يكونوا من قبيل هؤلاء الأحرار الثاقمين .

على هذا الوجه بدأت الحال في أوروبا . وقد بلغت اليوم أوجها الأعلى ، فن هؤلاء الرجال من لو بذلت له الحكومة مالا جاليا لشغل وظيفة في إحدى مصالحها ، بل لو عرضت عليه وزارة من وزاراتها لأبى ذلك عليها ، لقنه بأنه يعمل عملاً أشرف من عمله في وزارة وأنفع منه للأمة .

على هذا الوجه ترتقى الأمم ، وتبلغ أقصى الغايات في المدنية ، وليس بلوغ هذه الغايات بوقف على جنس من أجناس البشر ، ولا على قبيل منهم ، فجميعهم سواء في الوصول إلى هذه الدرجة العليا من الحياة ، وقد وصل معظمهم إليها في مدى وجودهم . فالذين يقولون بوقف هذه الغايات على بعض الأجناس دون البعض الآخر وإهمون .

فن الذي يصدق الآن أن الأوروبيين الذين تضرب بعظمة مدنياتهم الآمال ، كانوا قبل بضعة مئات من السنين في حالة من الانحطاط يصعب تصديقها الآن . فقد كانوا ينون بيوهم بالخلفاء ويلطخونها بالطين ، ولا يجعلون لها مداخن

يتسرب منها الدخان . وكانوا يرمون فصلات النباتات واللحوم التي يتغنون بها أمام الدور فيتراكم عليها الذباب ، وتتصاعد منها الروائح الكريهة . وكأوا يضطهدون النساء ويضعون على أفواههن الاقفال لينعموهن من الثروة والقبيل والقال . وكان رجال الدين عندهم يضطهدون من يظهر منهم ميل إلى الفلسفة أو العلم ، ومن كان يثابر على الاشتغال بشيء من ذلك ، وفيها ما ينافي ما عندهم من كروية الأرض وصغر حجمها بالنسبة لغيرها من الكواكب ، يلقونه في النار بحجة أنه مناهض للكتب الدينية ، فأحرقوا على هذا الوجه أكثر من ثلاثمائة ألف عالم ومتعلم بهذه الحجة ، حين ثبت لهم أنهم يدأبون على ما هم عليه ، لثقاته للدين فيما يزعمون .

أما الصنائع والفنون فكانوا منها في الخسيف . قلنا من يصدق أن هذا كان ماضى أوروبا قبل بضعة قرون ، وهو يراها اليوم صاحبة الزعامة العلمية ، ورافعة علم المدنية في جميع الآفاق ؟

فالأم تحط وترقى ولا علاقة لذلك بحسن أولون أو مناخ . أليس العرب الذين كانت تضرب بجاهليتهم وأمتهم الأمثال هم الذين أحيوا موات العلم بعد دخولهم في الإسلام ، ورفعوا علم المدنية ، وآخروا بين الدين والعلم مؤاخاة لانقسام لعراها بفضل هذا القرآن ؟

محمد فريد وجدي

وصف حصان

ما ممقوف يختال في أشطانه	ملآن من حلف به وتلهوق
تعري العيون به ويفلق شاعر	في نعته عفواً وليس بمملق
قد سالت الأوصاح سيل قرارة	فيه ففترق عليه وملق
صاقي الأديم كأنما ألسه	من سندس ثوباً ومن إستبرق
مسرد شطر مثل ما أسود الدجى	مبيض شطر كايضاض المهرق
فكأن فارسه يصرف إذ غدا	في منته لبن الصباح الأبلق
أملسه أمليسه لو علق	من صهوته العين لم تتعلق

التفسير

بقية تفسير سورة الفاتحة

محاضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد عابد محمد

عضو جماعة كبار العلماء

قد انتهينا فيما سبق من التفسير إلى قوله تعالى : إياك نعبد . فليبدأ في الكلام على بقية السورة فنقول : إلى هنا قد تم بالآيات السابقة إذعان العبد بأن أولاه وآخرته إنما هما لله ، وأنه تعالى المنفرد باستحقاق الحمد والتقدير لأنه وحده الممد للعبد بالوجود والمتعبد له بالتربية والمفيض عليه في كل أطواره .

واسع رحمته والمجازى له على عمله يوم الجراء على الخير خيراً وعلى الشر شراً ، فهو المهيمن عليه وهو مالك أمره في حياته . هنا وقد تم ذلك ، أدرك العبد ألا مناص من الله تعالى إلا إليه فهو المرجع وإليه المصير .

وهنا وقد ملكك نفسه موجة من هذا الشعور كان لا بد أن يسأله خاطره إذا كان ذلك شأن الله في رحمته وعظمته وملكه لكل شيء فهل هناك في الوجود من يستحق أن يعبد ويقدر وأن يعظم ويكبر سوى من ذلك شأنه . ويكون جوابه هذا السؤال حتماً أنه تعالى وحده دون سواه هو المستحق لأن يفرد بالالوهية ويختص بالعبادة ويصور ما اقتضت به نفسه من الحق المبين وما امتلأ به قلبه من نور اليقين بقوله : إياك نعبد ، مما يفيد في الأساليب العربية اختصاصه بالعبادة أي يارباه يامن تولاني برعايته وغمرني برحمته يامسبحاً على نعمه وناشراً حولي رحمته يا مالك شأني كله في أولاي وآخرتي إن لك وحدك التقديس وإن لك وحدك العبادة والتزие فلا إجلال إلا لك ولا تعظيم لسواك .

ولما دفع العبد إلى الإقرار بوجوب إفراذ ربه بالعبادة ما ذكره له تعالى

من عظيم النعم وواسع الرحمة ، وما أيقن به مما سيقام يوم الجزاء من موازين العدل التي لا يضيع معها على العبد أوله مثقال ذرة من خير أو شر .

هنا وقد دفعه ذكر ذلك إلى القيام بواجب المنعم الرحيم والمجازى العادل وجد أن ما يقوم به من عادة مهما أخلص فيها وأطال فليس موفيا حق الله عليه فلم يبق أمامه من سبيل يسلكه للوفاء بحق ربه أو المتابعة من الوفاء إلا أن يسأله تعالى المعونة حتى يوفى أو يدانى الوفاء وإذا ذاك يقول : وإياك نستعين .

أى لا أطلب إلا منك المعونة فأنت التدير على كل شئ . والعليم بباطن الأمور وظاهرها لا تخفى عليك طوية . ولا تتوارى عنك بسة فإمدادك أنت هو الإمداد ومعونتك هي المعونة .

وهنا يدور بنفس العبد حين يملك نفسه هذا الشعور ويستغرق في ذكر عظمة الله ورحمته - سؤال - إذا كنت لا تسأل غيره ا معونة فمِم تسأله المعونة أفى شأن ذنباك وتخصك أم فى شأن آخرتك وربك ، وهنا يكون الجواب ببيان ما يسأل العبد ربه فيه وأن أحب شئ إليه إنما هو هدايته إلى الطريق الذى يوصله إلى أسمى غاياته وأعظم مناصده فيقول : إهدنا الصراط المستقيم .

أى اهدنا ربنا إلى ما يوصلنا إليك ، ودلنا على ما تحمل به ساحة رضوانك ، وذلك هو الطريق المستقيم المفضى بنا فى اختصار إلى ساحتك وحبنا معوج الطرق مما يبطئ بالساتر عن الغاية ومما قد يضل بالساتر عن المقصد .

وهنا إذ يشتد قرب العبد من ربه ، فيزداد احتياطه فيما يؤدى به إلى الغاية من واضح الطرق وقيمها ، تراه يزداد فى التحرى والاحتياط لذلك لم يكتب العبد بسؤال ربه الهداية إلى الطريق الموصوف بالاستقامة ، بل زاد فى بيانه فقال : « صراط الذين أنعمت عليهم ، وإنما اختار فى البيان أن يضيف الطريق إلى المنعم عليهم لمعينين : أولهما هو إبراز نفسية المحب المخلص ، وأنه يكون شديد الاحتياط دقيق التحرى عن الطريق الموصل إلى ساحة الرضا فى ثقة تملأ نفسه ، وتطمع قلبه ، ولا يجد فى مثل هذا المقام ما يملأ نفسه ثقة ويفطم قلبه طمأنة إلا أن يبين الطريق بأنه الطريق الذى وصل بالسير عليه من قبله من النبيين والصديقين والشهداء

والصالحين ، كما فصل ذلك في غير تلك الآية . وثانيهما أن من خواطر المؤمل في نعم ربه أن يكون تمامه في رفقة من الناس صالحين وصحب منهم محسنين .

ولما كان قد يتسرب إلى عموم النفس لعظ المنعم عليهم للكافرين والمؤمنين والمعاصين والطائعين ، فقد زاد في تحديد المراد بوصف المنعم عليهم بأنهم غير المفضوب عليهم ، مبالغة في التحديد وزيادة في البيان حرصاً على من يتم بهم ومعهم استمتاعه بنعم ذي الجلال ورضاه .

كما أنه زيادة في التنصيص على تمييزهم عن غيرهم من غضب الله عليهم ومن صلوا سبيل الرشاد ليكون في ذلك إيماء إلى شدة حرصه على تجنب سبيل الصالحين وإشارة إلى شدة الاحتياط لوضع الحواجز القوية لحفظ نفسه عن أن يقد عليها خواطر غير مرادة - وإن خرجت بعد ذلك - طريقه التأمل كما هو شأن أساليب القرآن في أنها لا تدع احتمالاً غير مراد يمر بالنفس ، كما أنها لا تترك معنى مراداً دون أن تمسكه في النفس .

ذلك أن نعم الله منها ما قد تشمل الكافر والمؤمن . والعاصي والمطيع ، فقوله تعالى ، صراط الذين أنعمت عليهم ، قد لا يبع لأول سماعه أن يتسرب إلى الذهن شموله وعمومه ، فلدفع هذا الخاطر من أول الأمر جرى بذلك التحديد للمراد من المنعم عليهم ، وأنهم الفائزون بنعمة الرضا بما آمنوا واتقوا ، والمتأبون بحسن الجزاء بما صبروا وأحسنوا . فليس المراد مطلق منهم عليه ، بل المراد من نعموا برضا الله وحسن جزائه .

ولما كانت المقابلة بين المنعم عليهم والمفضوب عليهم أوضح منها بين المنعم عليهم والصالحين ، فقد قدم الأول على الثاني في الذكر ، وإنما جمع بينهما لأن العبد كما قلنا آنفاً كلما اشتد قربيه من ربه ، قويت حيلته لطريق فوزه وسلامته ، واشتد بنفسه لمن لم ينالوا بالطاعة والقرب رضا ربهم . فكان عن ذلك المبالغة في بيان كل من يتم من ربه أن يجنبه طريقهم باستقصاء عناوين الطوائف الذين حادوا عن الجادة ولم يهتدوا سواء السبيل .

ومن هذا ندرك ما اشتملت عليه سورة الفاتحة من تصوير الفطر السليمة في تدرجها في الاتصال بربها وترتيبها في ما تطلبه إليه وفق قربها منه وقوة علاقتها به .

فإن الفطر إذا سلت وساطها من الشئون ما يعود عليها بالعقل والاستشارة ترى أنها أول ما تشعر به هو ما تحسه من نعمة وما يحوطها من رحمة يبعثها نحو البناء على الله وحده لما تدركه من حياطها لصانعه منذ تكوينها من الطين إلى أن بلغت مبلغ التفكير والاستنتاج وترتيب المعلومات فهي إذ تدرك نشأتها وتقلانها في حياطة ربها وفي صيانة من رحمته تنبعث إلى اختصاصه بالحمد والثناء فإذا اتسع أفقها في التفكير وانبعثت إلى الخالص من حيرتها في أن هذا العالم علويہ وسفليہ وما احتواء من أنواع وأجناس من ناطق وغير ناطق كيف يكون ذلك النظام البديع والملك المتقن إنما هو لتلك الأيام المعنودة التي تقهى بموت الناس وفنائهم . هذه الحيرة وذلك التردد يبعث النفوس إلى الحكم بأن وراء تلك الحياة حياة أسمى من تلك الحياة وفيها يتفاوت الناس وفق تفاوتهم فيما أتوا في حياتهم من سيء أو حسن ومن خير أو شر . ذلك هو يوم الدين يوم الجزاء العادل يوم إقامة الموازين . فإذا بلغت الفطرة ذلك وأن هناك حياة أسمى من تلك الحياة فيها المقارنة العادلة بين أفراد البشر التجأت إلى التقرب من خالقها حتى تؤدي واجب النعم في الدنيا وتحظى بالجزاء الحسن في الآخرة ، فيعلن في خضوع أنها تعبد وتقدس ولا تعبد غيره ولا تقدس سواه وإد تحس الفطرة بواجب العبودية وأنه عظيم قد لا نستطيع له أداء اضطرت إلى سؤال معونه تعالى فإذا عبدت وسألت المعونة اشتدت حيلتها فسألت تعالى الهداية إلى أوثق طريق يؤدي للغاية طريق الذين أنعم عليهم من النبيين والصديقين والصالحين . وبهذا تكون سورة الفاتحة قد أجمل فيها كل ما جاء منفصلا في الكتب السابقة وفي القرآن فإنها لم تعد شرح ما لله من نعم توجب حمده وبيان وعد ووعد يوجب اتقائه وخوفه كما يوجب الرغبة فيه والسمي في سبيل رضاه ورسم طريق لما يؤدي به واجب العبودية وما توفي به مظاهر التقديس مينة طريق الحق الذي سلكه الفائزون وسار عليه المحسنون .

نسأل الله تعالى أن يهدينا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين . آمين

بهاء الدين السبكي

لفظيرة الأستاذ الشيخ عبد الله مهملقي المراهقي

مدير قسم المساجد بوزارة الأوقاف

نختم بهذا المقال تراجم السبكيين المصريين الذين شغلت بهم مناصب القضاء حبة طويلة من الزمن وطلبتهم مناصب الفنا والقضاء المصرية والشامية فأثبتوا كفاءة ممتازة وكان عددهم معين صاف من العلم يرده الظالمون المتعطشون للإفادة الطالبون لحكم الدين فيما يرض لهم من حوادث الزمن وما هم في حاجة إليه من حكم الشريعة القراء .

وهذا بهاء الدين رابع الثلاثة السبكيين وإسمه محمد بن عبد البر بن يحيى بن علي ابن تمام بن يوسف بن موسى بن تمام بن حامد السبكي المكنى بأبي الفناء كانت ولادته سنة سبع وسبعائة من الهجرة وتمذهب بمذهب الشافعي كعلماء أسرته وأظهر شيخ له نال العلم منه هو ابن عم أبيه تقي الدين السبكي الذي لازمه ملازمة طويلة في أيام صباه حتى تخرج عليه . ومن شيوخه الآخرين الحجار والدبوسي وعبد الله بن علي الصنهاجي والمزني والبرزالي والجزري وعلاء الدين القونوي والقطب السفياطي ، وقد مهر في اللغة العربية والفقه والتفسير وأصول الفقه وعلم الكلام . ولما ثبت قدمه وتم نضجه العلمي واستولى على زمام العلوم الشرعية وعرف بين أهلها ودوبها بالنبوغ واعترف له أقرانه بالتفوق وكال التحصيل تصدر - على عادة الشيوخ - للتدريس والافتاء فكان ينبوعا عديبا ينهل منه كل من أراد من طلاب العلم والمعرفة . وقال صاحب الدرر الكامنة : وذكر لي الشيخ شمس الدين ابن القطان أنه كان ممن أخذ عنه وأنه كان يضح إذا توجه عليه البحث وغالب من ثقيناء كان يبالغ في وصفه بالتحقيق والحدق ، وكانت له رحلات في سبيل العلم وخدمة المصلحة العامة فقد دخل الشام مع الشيخ تقي الدين سنة تسع وثلاثين وسبعائة وناب عنه في قضاء الشام ثم تولى قضاء طرابلس ثم عاد إلى القاهرة وتولى فيها مناصب جليلة في القضاء فقد ناب عن القاضي عز الدين بن جماعة في منصبه ثم أضيف إليه قضاء العسكر والنظر في الأوقاف ثم خلف عز الدين في وظيفته سنة ست وستين وسبعائة وظل يباشر شئون منصبه بما عرف عنه

من دربة وحقق وكياسة مع احاطة بشئون الحياة الاجتماعية والدينية ثم فوض اليه بعد ذلك قضاء الشام وظل قاضياً بدمشق إلى حين وفاته وقد اعترف له بالفضل العلماء الأفاضل من أهل زمانه فكان الاسنوى يقدمه ويفضله على أهل عصره وكان العماد الحسباني يشهد أنه يحفظ الروضة وكان هو يقول عن نفسه أعرف عشرين عالماً لم يسألني عنها بالقاهرة أحد .

وقد أتى عليه الذهبي ووصفه بأوصاف المبرز في العلم الحاذقين لدقائق المسائل الغائصة في بحار العلوم والمعارف ، وقال عنه ابن حبيب : شيخ الإسلام وبهاؤه ومصباح أفق الحكم وضيأؤه وشمس الشريعة وبدرها وحبر العلوم وبحرها كان إماماً في المذهب طراز الرداء المذهب رأساً لذوى الرياسة والرتب حجة في التفسير واللفظ والنحو والآداب ثقة في الأصول والفروع قدوة لأرباب السجود والركوع مشهور في البلاد والأمصا سالك طريق من سلف من سالفة الأنصار . درس وأفاد وهدى بفتاويه إلى ميل الرشاد .

وهذه شهادة من ثقة تدل دلالة لا ريب فيها على أن مترجماً قد حاز الأوصاف التي تليق بالائمة العلماء العاملين الذين يزكون عن علمهم ويظهرون أنفسهم ويسخون بما وهبهم الله تعالى من نعمته في الدين فهم يجدون بما حوته قلوبهم من معارف وإرشاد لسلك من قرع بابهم وطلب منهم التوال من أحكام شرعية وتوجيهات دينية ، وإن تنقله بين الشام ومصر وتعدد وظائفه في القضاء لدليل واضح على صلاحته لأعباء الحياة ومشاركته لمجتمعه مشاركة البصير المستنير ، وذلك شأن العلماء الذين يشعرون من قرارة نفوسهم بأن واجبهم في الحياة التوجيه والإرشاد والادماج في المجتمعات وتولى الشئون التي لا تستقيم أمور الأمة إلا بها . وقد اختلفت كتب التراجم في ذكر مصنفات له فيقول صاحب شذرات الذهب في اخیار من ذهب طبعة مكتبة القدسي في الجزء السادس صحيفة أربع وخمسين ومائتين ما نصه : ومع سعة علمه لم يصف شيئاً ، ويقول صاحب الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة مطبعة دائرة المعارف العثمانية ببلدة حيدر آباد بالهند في الجزء الثالث صحيفة تسعين وأربعائة وما بعدها ما نصه : ولم يظهر له من التصانيف شيء مع أنه كتب على الروضة وعلى مختصر ابن الحاجب الأصلي ، وعلى المطلب لابن الرفعة .

توفي رحمه الله بدمشق في جمادى الأولى سنة ٧٧٧هـ ودفن بسفح قاسيون بقرية السبكين .

المسلم والقرآن

للدكتور محمد يوسف موسى

هذا العدد تحتم المجلة عامها الحاضر ، وبهذه الكلمة أوشك أن أختتم فترة - إن لم أقل عهداً - من فترات حياتي العلمية ، فليكن الحديث فيها على بعض واجبات المسلم بالنسبة للقرآن ، ولا عجب : فتحن في الشهر الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان .

تحتفل مصر ، مثلها في هذا مثل كل بلد إسلامي ، بهذا الشهر المبارك بكلمات تنشر في الصحف وأحاديث تداع بالراديو ، وإن كان الكثير من هذه الكلمات والأحاديث من المعاد المكرور الذي لا يكشف عن جديد ، ولذا نراها فقدت لذة الجديد وأصبح تأثيرها جافاً قليل .

على أن لرمضان وهو الشهر الذي اتصلت فيه السماء والأرض بنزول القرآن ، وهو الشهر الذي فرق الله فيه بين الحق والباطل وأذل فيه الشرك وأهله في غزوة بدر الكبرى ، من الجلالة والكرامة والمنزلة ما يوجب أن يكون احتفالنا به على نحو آخر غير ما ألفنا كل عام .

أريد أن أقول بأن رمضان وهو موسم خير وبركات يجب أن تتجدد فيه العزائم وتنقد الإرادات على أن تكون خيراً مما نحن ، وعلى أن تنهض فيه الحياة عزيزة خير من الحياة التي نحيها الآن ؛ وهذا ما لا يكون إلا بعد أن تفهم القرآن حق الفهم ، وأن تتعرف ما جاء به من هدى وبينات ، وأن تلجأ إليه فتتخذ فيه مثال المسلم الكامل الذي يعرف مكانه في الحياة ومركزه في قيادة العالم .

١ لقد آن ، للمسلم ، منذ زمن طويل أن يظهر بتفسير للقرآن يستغنى به عن التفسير التي ورثها عن القرون الوسطى والتي أصبحت لا تلائم روح العصر الذي نعيش فيه ، هذه التفسير المذهبية ، والمليئة مع هذا بما لا يتفق مع الحق من الإسرائيليات وغير الإسرائيليات . نريد تفسيراً وسطاً بين الإطناب والإيجاز

تجلى فيه روح القرآن العظيم ، عقيدة وتشريعاً وأخلاقاً وتقاليد طيبة ، فى التمسك به عز الدنيا والآخرة ، تفسيراً يعرف منه المسلم أمور دينه ودنياه فى سهولة ويسر ، تفسيراً صالحاً للنقل إلى كل لغات العالم الحية ليعرف غير المسلم ما هو القرآن وما هو الإسلام الذى يقوم على هذا القرآن .

مثل هذا التفسير أصبح ضرورة لازمة وفرضاً على الأزهر ورجاله ، بل فرض عين على القادر منا بما وهب الله له من العقل الثاقذ والأسلوب الممتع العربى المبين ، ويمكن له من قلوب الناس . متى ، إذاً ، نرى من يعكف على هذا المهم الجليل يقف عليه وقته وجهده ، ويخرجه للعالم أثراً يبقى على الزمن ؟ مثل هذا العمل الجليل يكون خيراً للإسلام والأزهر ولمن يقوم به من الاصطلاح بأكثر المناصب فى الأزهر ، ولعل الله يفتح له قلب من تعنيه بهذا الحديث لى هذه الناحية فيقبل عليه مصحوباً دائماً بعون الله وتأييده ، وبخاصة وما ظهر له حتى الآن من دروس أو محاضرات فى التفسير يجعلنا متقياً بأنه المرجى المأمول لهذا العمل الكبير .

والقرآن فيه ، مع هذا ، هدى ، فيما يختصم العالم اليوم بسببه من مشاكل السياسة والحكم والاقتصاد . إن فيه المذاهب المتلى فى كل هذه النواحي الحيوية ، وفيه - بصفة خاصة فى المشاكل الاقتصادية - المذهب الذى يحقق العدالة الاجتماعية كاملة بين أبناء الوطن الواحد . وكل ما علينا ، لتعرف هذا المذهب ، أن نقرأ القرآن لهذا الغرض ، وأن تدبره حين نقرؤه ، وأن نضم للآية ما يتصل بها من حديث الرسول ، ثم نضم لهذا أو ذاك شواهد من التاريخ الإسلامى الصحيح فيها لإيضاح وتطبيق لأصول هذا المذهب الذى يدعو إليه .

إنه ليس من الكرامة ولا من العقل فى شيء أن نولى وجوهنا شطر الغرب نلتهمس لديه مانحتاج من نظم سياسية أو مالية ، ولدينا القرآن لم نستخرج منه بعض ما يندخر به من كنوز !

سنجد إن درسنا القرآن هذه الدراسة ، أنه حين أباح الملكية الخاصة قد قيدها بقبود لا تتيح أن يكون منا من يملك الآلاف ومن لا يملك قوت يومه بانتظام ؛ وأن للفقراء فى الأموال التى تحت أيدي الأغنياء حقوقاً أخرى غير الزكاة المعلومة المفروضة ؛ وأن الإسلام حرص على أن يكون المجتمع الإسلامى كله متهاكاً

منضامناً ، لافرق بين المسلم وغير المسلم ، بحيث يجد كل من أعضائه العون حين الحاجة له من صفر أو زمانة أو كارثة حلت به مع الفقر ، وهذا ما يسمى في عرف الاقتصاديين المحدثين ، بالضمان الاجتماعي . .

متى نعود للقرآن تفهمه وتتخذنا مثالا ؟ متى يارب متى ؟ ومتى يصرف الشباب في البلاد الإسلامية وجهه عن هذه الحياة التي يحياها ، ويولي وجهه نحو القرآن يتخذها إماما ؟

٢ — يرى شاعر الإسلام الدكتور ، محمد إقبال ، ، ورأيه الحق ، أن هذا الجيل ليس حياً قائماً بنفسه ويفكر بعقله ، بل إن حياته عارية من الغرب فصار ظلاً لأوروبا ، وهو في ذلك يقول (١) :

« إن الشباب المثقف فارغ الأكواب ظمآن الشفتين : مصقول الوجه ، مظلم الروح ؟ مستنير العقل ، كليل البصر ؛ ضعيف اليقين ، كثير اليأس هؤلاء الشباب أشباه الرجال ولا رجال ، يتكرون نفوسهم ويؤمنون بغيرهم ، ويسأل الأجانب من تراهم الإسلامى كنائس وأدياراً . شباب ناعم رخو كالحرير ، يموت الأمل في مهده في صدورهم ، ولا يستطيعون أن يفكروا في الحرية . إن المدرسة قد نزعت منهم العاطفة الدينية ، وأصبحوا خبز كان ، أجهل الناس لنفوسهم وأبعدهم من شخصياتهم ، شغفتهم الحضارة الغربية ، فيمدون كفهم إلى الأجانب ليتصدقوا عليهم بخبز شعير ، ويديعون أرواحهم في ذلك .

« غفول وقحة ، وقلوب قاسية ، وعيون لا تفكر عن المحارم ، وقلوب لا تذوب بالتقارع . كل ما عندهم من علم وفن ودين وسياسة وعقل وقلب يطوف حول للساديات . قلوبهم لا تلتقي الخواطر ، وأفكارهم لا تساوى شيئاً ، حياتهم جامدة واقفة متعطلة . .

٣ — هذا هو وصف شباب الجيل الحاضر في رأى إقبال ، ويحسن بجانبه أن نذكر رأيه في المسلم كما يجب أن يكون :

(٢) هذه النقول وما يحيط بها من الرسالة الطيبة القيمة التي أصدرها هذه الأيام شيخ مصر الأستاذ الكبير أبو الحسن علي الحسيني الندوي واسمها : « شاعر الإسلام الدكتور محمد إقبال » ، وهي رسالة يجب على كل مسلم استيعابها وتذوقها .

«المسلم المثالي هو - في رأيه - الذي يمتاز بين أهل الشك والظن بإيمانه وبقبحته ، وبين أهل الجبن والخوف بشجاعته وقوته الروحية ، وبين عباد الرجال والأموال والأصنام والملك بتوحيده الخالص ، وبين عباد الأوطان والألوان والشعوب بأفاقته وإنسانيته ، وبين عباد الشهوات والأهواء والمنافع بتجرده من الشهوات وتمرده على موازين المجتمع الزائفة وقيم الأشياء الخفيرة .

«وبين أهل الآثرة والآمانية بزهده وإثارة وكبر نفسه ، ويعيش برسالة ولرسالته ؛ ذلك المسلم الحق الذي مهما اختلفت الأوضاع وتطورت الحياة لا يزال الحقيقة الثابتة التي لا تتغير ولا تتحول .

«هذا المسلم - في رأى إقبال - لم يخلق ليندفع مع التيار ، بل خلق ليوجه العالم ويملي عليه إرادته لأنه صاحب الرسالة وصاحب العلم اليقين ؛ فليس مقامه مقام التقليد والاتباع ، بل مقام الإمامة والقيادة ، وإذا تسكر له الزمان وعصاه المجتمع لم يكن له أن يستسلم ويخضع ويضع أوزاره ويذل المذهب ، بل عليه أن يثور عليه وينازله حتى يقضى الله في أمره ؛ وبذلك يرد الأمر إلى نصابه ، وبقبحه سالفة الدهر الفشوم ، وبقبحه الوجع ويصلح الفاسد . وفي هذا يقول " إقبال " ، متمثلاً :

" سألتى ربى : هل ناسبك هذا العصر وأنسجم مع عقيدتك ورسالتك ؟ قلت : لا ، يا ربى ! قال : لخطمه ولا تبالي ! " .

وأخيراً ، يرى « محمد إقبال » أن الخضوع والاستكانة للأحوال القاسية والأوضاع القاهرة ، والاعتذار بالقضاء والقدر ، من شأن الصغفاء الأقزام . وفي هذا يقول في بعض شعره : « المسلم الضعيف يعتذر دائماً بالقضاء والقدر ، أما المؤمن القوي نفسه فهو قضاء الله الغالب وقدره الذي لا يرد » . كما يقول : « إذا أحسن المرء تربية نفسه ، وعرف قيمة نفسه ، لم يقع في العالم إلا ما يرضاه ويحبه » .

وبعد : هذه الصورة للمسلم المثالي في رأى إقبال ، مع بيان مكان هذا المسلم في العالم ، ليس لنا فيه من فضل إلا فضل الناقل لبعض ما يستحسن ؛ ولعل في ذلك ما يفتح أعين النائم ، ويسمع الآذان الصم . ويهز القلوب التي جمدت مع الدهر لتخضع لذكر الله وما نزل من الحق . ولعل في ذلك أيضاً ما يلفت شبابنا عن الحياة الهزيلة المساجنة التي يحياها ، إلى الحياة الجادة الكريمة التي نرجوها له ، وبالله التوفيق .

مذهب الإمام مالك

في الأندلس والمغرب

لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد الجواد رمضان

فتحت الأندلس والخلافة الإسلامية في دمشق ؛ وإمام أهل الشام عبد الرحمن الأوزاعي ؛ يتفقهون على مذهبه ، ويتعبدون على فروعه ؛ وإنما جند الأندلس شعبه من أهل الشام ، فكان طليما أن يحملوا مذهبهم إلى مخرجهم الجديد ؛ فأقام الأندلسيون على مذهب الأوزاعي ، طيلة عهد الولاة ، وصدرنا من عهد بني أمية ؛ ثم تحولوا عنه إلى مذهب الإمام مالك ، في عهد الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل ، (١٨٠ - ٢٠٦ هـ) .

ولعل مرد ذلك التحول ، إلى ما حكاه العلامة ابن خلدون ، من أن رحلة الأندلسيين كانت - غالبا - إلى الحجاز ، وهو منتهى سفرهم . والمدينة يومئذ دار العلم ، ومنها خرج إلى العراق ، ولم يكن العراق في طريفهم ؛ فافتصروا على الأخذ من علماء المدينة ، وشيخهم يومئذ وإمامهم ، مالك بن أنس . وإلى أن البداوة كانت غالبة على أهل الأندلس في أول أمرهم ، ولم يكونوا يعانون الحضارة التي لأهل العراق ؛ فكانوا إلى أهل الحجاز أميل ، لمشاكانهم لهم في البداوة ، فلما تحضروا ، قاسوا الأمور بأشبابها ، وجروا في التشريع مع العمران .

وقال ابن حزم : مذهبنا انتشرا في بدء أمرهما ، بالآسة والسلطان : مذهب أبي حنيفة . فإنه لما ولي النضاء أبو يوسف ، كانت القضاة من قبله في الدولة الإسلامية من أقصى المشرق ، إلى أقصى عمل إفريقية ، فكان لا يولى إلا أصحابه والمنتسبين لمذهبه .

ومذهب مالك عندنا بالأندلس ؛ فإن يحيى بن يحيى الليثي صاحب الإمام مالك ^(١) كان مكينا عند السلطان . مقبول القول في النضاء ، وكان لا يلى قاض

في أقطار الأندلس ، إلا بمشورته واختياره ، ولا يشير إلا بأصحابه ومن كان على مذهبه ؛ والناس سراع إلى الدنيا ؛ فأقبلوا على ما يرجون بلوغ أغراضهم به ؛ على أن يحبي لم يل قضاء قط ولا أجاب إليه ؛ وكان ذلك زائدا في جلاله عندهم ، وداعيا إلى قبول رأيه لديهم .

وكان القضاء مأمورين بالحكم بمذهب مالك ، لا يجوز لهم أن يقضوا بغيره ، وإن خالف رأيهم واجتهادهم .

فتنذر بن سعيد البلوطي (٢٢٣ - ٣٣٥) قاضي الجماعة ، قاضي القضاء ، لعبد الرحمن الناصر ، ٣٠٠ - ٣٥٠ ، كان ظاهرياً ، يحنج لمذهب داود ويأخذ به في نفسه ، فإذا جلس للقضاء ، قضى بمذهب مالك وأصحابه ، لأمر الخليفة بذلك ، وقد كانت هذه المسألة موضع نزاع بين فقهاء الأندلس ، انشعبوا فيه إلى فرق ثلاثة ، إحداها تصحح التولية والشرط ؛ والثانية تبطلهما ؛ والثالثة تصحح التولية . وتلغى الشرط ، قياساً على أحد الأقوال في الشرط الفاسد إذا اقترن بالبيع .

• • •

ولما قامت دولة المرابطين بالمغرب (٤٤٨ - ٥٤٩) وضم عاهلهم يوسف ابن تاشفين جزيرة الأندلس إلى ملكه (٤٨٥) اشتد إيثاره لأهل الفقه والدين ، وكان لا يقطع أمراً في جميع مملكته دون مشاورة الفقهاء ، فكان إذا ولي أحداً من قضاته ، عهد إليه ألا يقطع أمراً ، ولا يبت حكومة في جليل ولا حقير ، إلا بمحض أربعة من الفقهاء ؛ فبلغ الفقهاء في عهده ، أعظم مما بلغوه في الصدر الأول من فتح الأندلس ؛ ولم تزل أمور المسلمين راجعة إليهم ، وشريعتهم موقوفة عليهم ، طيلة حكمه ؛ فانصرفت إليهم وجوه الناس ، واتسعت مكاسبهم ، وكثرت أموالهم ، حتى قال فيهم الشاعر الجياني أبو جعفر بن البني :

أهل الرياء ليستمونا موسكم كالدنب أدج في الطلام العائم
فلستمو الدنيا بمذهب مالك وقستم الأموال بابن القاسم
وركبتمو شهب الدواب بأئهب وبأصيح صبغت لكم في العالم

يعرض بالقاضي ابن حدين قاضي قرطبة للرابطين ، ثم يصرح بهجائه بعد ذلك فيقول :

أدجال ، أوان الخروج ويا شمس لوحي من المغرب
يريد ابن حدين أن يعنى وجدواه أنأى من الكوكب
إذا سئل العرف حك استه ليثبت دعواه في تغلب !
وكان ابن حدين ينسب إلى تغلب . ولا تخفى قوة البيت الأخير : وهو من
قول جرير للأخطل :

والتغلي إذا تنحج للقرى حك استه وتمثل الأمثالا

ولم يكن يحظى عند أمير المسلمين يوسف بن تاشفين إلا من عَلمَ عَلمَ فروع
مذهب مالك ، فنفتت في ذلك الزمن كتب المذهب أو عمل بمقتضاها ، وند
ما سواها ، حتى نسي النظر في كتاب الله ، وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم
كما بغض الفقهاء إليه علم الكلام ، فكان يصدر المنشورات إلى مختلف البلدان ،
يمنع الخوض في شيء منه ، وتوعد من يملك شيئاً من كتبه بالوعيد الشديد ؛
ولما دخلت كتب أبي حامد الغزالي رحمه الله تعالى بلاد المغرب ، أمر أمير المسلمين
بإحراقها ، وتهدم بالوعيد الشديد ، من سفك الدم ، واستتصال المال ، لمن وجد
عنده شيء منها !

ولما قامت دولة الموحدين ، على أنقاض دولة المرابطين ؛ وتولى من عواهلها
أبو يوسف يعقوب بن عبد المؤمن (٥٨٠ - ٥٩٥) وكان من الصالحين المتبتلين ،
خامرته فكرة محو مذهب مالك من بلاد المغرب جملة ، كما خامرت أباه وجده
من قبل ؛ فقد أخبر الحافظ بن الجند : قال : لما دخلت على أمير المؤمنين أبي يعقوب
أول دحلة دخلتها عليه ، وجدت بين يديه كتاب ابن يونس ، فقال لي يا أبا بكر ،
أنا أنظر في هذه الآراء المتشعبة ، التي أحدثت في دين الله ! أرايت يا أبا بكر ،
المسألة فيها أربعة أقوال أو خمسة أقوال أو أكثر من هذا ؛ في أي هذه الأقوال
هو الحق ؟ وأنها يجب أن يأخذ به المقلد ؛ فافتحت آبين له ما أشكل عليه من ذلك
فقال لي ، وقطع كلامي : يا أبا بكر ، ليس إلا هذا ، وأشار إلى المصحف ، أو هذا ،
وأشار إلى سنن أبي داود وكان عين بعينه ، أو السيف .

فأمر أبو يوسف هذا ، جماعة من علماء الحديث بجمع أحاديث المصنفات العشرة : الصحيحين ، والترمذي ، والموطأ ، وسنن أبي داود ، وسنن النسائي ، وسنن البزار ، ومستند ابن أبي شيبة ، وسنن الدارقطني ، وسنن البيهقي ؛ في الصلاة وما يتعلق بها ، على نحو الأحاديث التي جمعها ، داعيتهم محمد بن تومرت في الطهارة ؛ فلما جمعوها ورفعوها إليه ، كان يملأها على الناس بنفسه ، ويأخذهم بحفظها ، ويسن عليه الجوائز من الكسبا والأموال .

ثم تقدم بإحراق كتب المذهب ، بعد أن يجرّد ما فيها من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن القرآن الكريم ، فكان يؤتى منها بالأحمال فتوضع ، وتطلق فيها النار ، في تحلّف البلاد ؛ فكان بما أحرق : مدونة مخنون ، وكتاب ابن يونس ، ونوادر ابن أبي زيد ، ومختصره ، وكتاب التهذيب للبرادعي ، وغير ذلك كثير . وكان تهديده المروع كافياً في صرف وجوه الفقهاء عن البحث في المروع إلى طلب علم الحديث ، الذي كفّل طلابه ، وقربهم ؛ ولما نمي إليه حسد الموحدين هؤلاء الطلاب ، جبههم بقوله : يا معشر الموحدين ، أنتم قبائل ، فمن نابّه منكم أمر ، فرع إلى قبيلته ، وهؤلاء — يعني الطلبة — لا قبيل لهم إلا أنا ، فهما نابهم أمر فأما ملجؤهم ، وإلى فرعهم ، وإلى ينتسبون .

فمعظم ذلك من أمرهم ، وحمل الموحدين على المبالغة في برهم وإكرامهم .

• • •

وكان صلاح أبي يوسف هذا صلاح المؤمن المستنير المثبت ، الذي لا تنهوه به العاطفة ، ولا يميل به الهوى ، عن جادة الاعتدال ؛ روى أنه حينما حج ، اجتمع في حجر الكعبة بالشيخ الصالح أبي العباس أحمد بن مطرف المري ، فقال له : يا أبا العباس ، إشهد لي بين يدي الله عز وجل ، أني لا أقول بالعصمة (يعني عصمة محمد بن تومرت) وكان الموحدون على أنه الإمام المهدي المعصوم .

وقال بعض علماء جيان : لما رجع أمير المؤمنين أبو يوسف من وقعه الأرك التي أوقع فيها بالاذفئش ، قدمني أهل جيان لتكليمه ، فرفعت إليه ، فسألني عن أحوال البلد وأحوال قضائه وولائه وعمله على ما جرت به عادته ، فلما فرغت من جوابه ، سألتني كيف حال في نفسي ، فشكرت له ، ودعوت بطول بقائه ؛ ثم

قال لي : ما قرأت من العلم ؟ قلت : قرأت تواليف الإمام (يعني ابن تومرت)
فنظر إلى نظرة الغضب وقال : ما هكذا يقول الطالب إنما حكك ان تقول :

قرأت كتاب الله ، وقرأت شيئاً من السنة ، ثم بعد هذا قل ما شئت ! .

وكتب قبل خروجه إلى بعض غزواته ، إلى جميع البلاد بالبحث عن
الصالحين وحلهم إليه . واجتمعت له منهم جماعة كبيرة ، كان يقدمهم بين يديه
كلها سار ، فإذا نظر إليهم ، قال لمن حوله : هؤلاء الجند ، لا أولئك (ويشير إلى
الجيش) وكأنه في هذا متأثر بما حكى عن قتيبة بن مسلم وإلى خراسان ، حين لقي
الترك ، وكان في جيشه أبو عبد الله محمد بن واسع ، فجعل يكثر السؤال عنه ، فيخبر
أنه في ناحية من الجيش ، متكئاً على سية قوسه ، رافعا أصبعه إلى السماء ، ينفض
بها : فيقول : لاصبعه تلك ، أحب إلى من عشرة آلاف سيف ! .

ولعل الغلظة التي يقف فيها التاريخ عاتها ، بل عاضبا ، تلك المحنة التي امتحن بها
في أيامه ، الفيلسوف الإسلامي العظيم أبو الوليد بن رشد : فقد ذكر المؤرخون :
أن أبا الوليد كان يشرح كتاب الحيوان لأرسططاليس ، فقال عند ذكر الزرافة ،
وكيف تولد ، وبأى أرض تنشأ : وقد رأيتها عند ملك البربر ؛ ونمى ذلك إلى
أبي يوسف ، فاضطفتها عليه ، إلى أن سعى به عنده بعض مناوئيه من أهل قرطبة ،
ورفع إلى أبي يوسف ملحصات بخط ابن رشد ، يقول فيها حاكيا عن بعض قدماء
الفلاسفة ، بعد كلام تقدم : فقد ظهر أن الزهرة أحد الآلهة . فاستدعاه ، بعد أن
جمع له الرؤساء والأعيان من كل طبقة ، وهم بمدينة قرطبة ؛ فلما حضر أبو الوليد
رحمه الله ، قال له ، بعد أن نبذ إليه بالأوراق : أحطك هذا ؟ فأنكر ، فقال
أبو يوسف : لعن الله كاتب هذا الخط ، وأمر الحاضرين بلعنه ، ثم أمر بإخراجه
على حال سيئة ، وإبعاده ، وإبعاد من يتكلم في شيء من هذه العلوم ، وتقدم إلى الناس
بترك هذه العلوم جملة ، وإحراق كتب الفلسفة كلها ، إلا ما كان من الطب
والحساب ، وما يتوصل به من علم النجوم إلى معرفة أوقات الليل والنهار ، وأخذ
سمت القبلة . ولكنه لما رجع إلى مراکش ، نزع عن ذلك كله ، وجنح إلى تعلم
الفلسفة ، واستدعى أبا الوليد إلى مراکش ، للإحسان إليه والعفو عنه ، فحضر
أبو الوليد رحمه الله إلى مراکش ، فرض بها مرضه الذي مات منه سنة ٥٩٤ هـ ،
ومات أبو يوسف أمير المؤمنين بعده بيسير .

لغويات

نفضيلة الأستاذ الشيخ محمد علي النجار

المدرس بكلية اللغة العربية

عبدان - عبادان

يتردد ذكر هذا الاسم في هذه الأيام على صفحات صحف الاخبار وغيرها في الحديث عن قنطرة (بترول) لمران .

ففي مقال « البترول في إيران » المنشور في مجلة الكتاب (جزء يونيه ١٩٥١) :
« ويأيران أكبر معمل لتكرير البترول في العالم ، يكرر يوميا نصف مليون برميل من الزيت الخام ، ويقع هذا المعمل في عبدان على الخليج الفارسي ، وفي « مصر » يوم ٥ يونية سنة ١٩٥١ : « ونفى السيد فاطمي الأنبا المفضلة التي أدبعت عن وجود اضطرابات في منطقة عبدان وخوزستان » .

وقد درج الناس على كتابة هذا الاسم بالصورة الأولى « عبدان » . وهذا خطأ في الرسم ، صوابه : عبادان .

وعبادان مدينة قديمة تقع في رأس الخليج الفارسي ، وتنسب إلى عباد ابن الحصين الحبلي من قواد الحجاج . وقد ألحق بكلمة « عباد » المقطع « ان » ليدل به على النسبة ، فعبادان معناها في هذا الاصطلاح : عبادي أو عبادية . ويقول يا قوت في معجم البلدان في الكلام على هذه المدينة : « وأما إلحاق الألف والنون

أما بعد ، فإذا جرت عواد بالسعد والنحس ، على مذهب الإمام مالك ، فطنى سلطانه حيناً على العناية بكتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ؛ وضعف شأنه حيناً ، حتى كاد يمحى اسماء ؛ وعلى أبي الوليد بن رشد وفلسفته ، فسميا مكانه وسميت ، عند أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ؛ وهبط وهبط إلى الخضيض ، عند ولده أبي يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن . أقول : لئن جرت هذه العوادى بالسعد والنحس ، كما جرت على كثير من عظماء العالم ورجال التاريخ ، لقد محت أيدي الزمن فضول الأسراف ، فاعتدل الغالي ، وارتفع الهابط ؛ وبقي مذهب مالك حياً ، وبقيت فلسفة ابن رشد حية ، لأن الحق والعلم لا يموتان ؟

فهو لغة مستعملة في البصرة ونواحيها : أنهم إذا سموا موضعاً أو نسبوه إلى رجل يزيدون في آخره ألفاً ونوناً : كقولهم في قرية عندهم منسوبة إلى زياد بن أبيه : زيادان ، وأخرى إلى عبدا لله : عبد اللاهان ، وأخرى إلى بلال بن أبي بردة : بلالان .
لست أفيك حقل .

يكثر هذا الاستعمال في هذا العصر . فيقال : أنا عاجز عن شكرك على ما أسلفت من يد ، ولست أفيك — مهما اجتهدت — حقل وقد وقع هذا في نثر الكتاب ، وشعر الشعراء .

في مقال في مجلة الأزهر (جزء ربيع الأول سنة ١٣٧٠) في الحديث عن القصص الانكليزي العبقري ، برناردشو : « ولست نستطيع أن نفهم الرسالة الشوية حقها من التفصيل دون أن نذكر شيئاً عن المسرح الانكليزي الذي اتجه به شو اتجاهها واقعياً » .

وفي ديوان لشاعر معاصر ذي خطر وشأن :

فلست أفيك بعض المدح شعراً ولست أفيك بعض المدح نثراً
وفيه : فاعذر فلست بمن تفهيه قصيدة .
وفيه أيضاً : يا دسوق لا يفيك مديحي .

وهذا الاستعمال لا تتركه اللغة ، ولا هو يجري على مناهجها . وإنما ينبغي أن يقال : لست أوفيك حقل ، وأفيك حقل ، من أوفى ووفى . وفي اللسان : « أوفى الرجل حقه ، ووفاه إياه بمعنى أكله له ، وأعطاه إياه وافيًا . وفي التنزيل العزيز : « ووجد الله عنده فوفاه حسابه » . ويقال : أوفيته حقه ، ووفيته أجره » . وفي المصباح : « وقال العارابي أيضاً : أوفيته حقه ، ووفيته إياه ، بالتثنية ، فأما وفي فإنما يأتي لازماً ، يقال : وفي بالهدى ، فهو وفي من قوم أوفياء ، على أن أوفى قد يأتي لازماً كوفي ، وقد جمع الشاعر بينهما فقال :

أما ابن طوق فقد أوفى بذمه كما وفي بفلاص النجم حاديها
الرسالة الشوية ، الشوية

وقع البحث في النسبة إلى شو ، وهو الكاتب الانكليزي « برناردشو » الذي طبق ذكره الآفاق بما أبدع من قصص سارت مسير الشمس في الشرق والغرب . و « شو » ، هذا اللفظ يلحق بما وضع في العربية على حرفين ثانيهما حرف علة :

كلو، وفي، ولا. وتوجب قواعد النحو أن تزداد أمثال هذه الكلمات الثانية عند النسب حرفاً لتحوير ثلاثية، فيلحقها علم الإضافة بعد اكتسابها. ومن الجلي أنه لا ينسب إلى هذه الحروف إلا بعد أن تجعل أعلاماً على أنفسها أو على غيرها فإذا أكثر إنسان من لفظ لو صح أن ينسب إلى هذا اللفظ، وتري أن (لو) في هذا الموطأ علم على لفظها. وقد يسمى من يفت عليه لو لوًا. ولو أريد إعرابها بعد التسمية فلا بد من ردها ثلاثية أيضاً.

وتتليق هذه الثلاثيات بتضعيف الحرف الثاني، فيقال: لو، وفي. ومن شواهد ما نحن فيه قول الشاعر:

ألام على لو، ولو كنت عالماً بأذئاب لو لم تغتنى أوائله
وعلى هذا إذا نسب إلى لو قيل: لوى.

وعلى مثالها إذا نسب إلى (شو) قيل: شوى

ويرى بعضهم بدلاً من تضعيف الحرف الثاني أن يزداد همزة، أي أكل الحرف. فيقال في النسب إلى لو على هذا: لوقى

وعلى غرار هذا يقال في النسب إلى (شو): شوقى.

وعلى هذا النهج جرى كاتب مقال «نجمة الشرق في مهاتما الغرب» المنشور في مجلة الأزهر (جرب ربيع الأول ١٣٧٠) إذ يقول: «وقبل أن نخوض في جوانب الرسالة الشيوعية المتشعبة، نحب أن نلم على عمل بنشأة الأديب التي كان لها أثر عميق في توجيهه».

وقد كان الوجه الأخير في النسب موضع إنكار. ذلك أنك لا تكاد تجد في كتب الصرف غير الوصية بتضعيف الحرف. ولكننا نرى في شرح الرضى للشافعية ٦٠/٢: «ولوى، ولوقى، فيمن يكثر لفظه لو، وكتب الفضلاء المحققون للكتاب: «بعض النسخ سقطت كلمة (لوقى)، والصواب ثبوتها. وأراد الشارح بذلك الإشارة إلى ما حكى عن بعض العرب: من أنه يجعل الزيادة المختلة بعد حرف الهمزة على الإطلاق، فيقول: لاقى، وكفى، ولوقى، وما أشبه ذلك، وهذا الكلام مأخوذ من كلام الرضى (١)»، وقد أحببت أن أسوقه لما فيه من تجلية البحث: «وإذا كان ثاني الثاني حرف علة وجب تضعيفه إذا أعربته، سواء جعلته عبا للفظ أو لغيره: نحو لو، وفي، ولا، وهو، وهى. تقول:

هذا لو ، وفي ، ولاء ؛ زدت على ألف لا ألفاً آخر ، وجعلته همزة تشبيها برداء وكساء . وإنما وجب التضعيف لأنك لو أعربت بلا زيادة حرف آخر لسقطت ^(١) حرف العلة للتوين ، فيبقى المعرب على حرف واحد ، ولا يجوز وحكى عن بعض العرب أنه يجعل الزيادة المختلة بعد حرف العلة الثانية همزة بكل حال ؛ نحو لوه ، وفيه ، ولاء ، والأول - أى التضعيف - أولى ؛ لكون المزيد غير أجنبي . .
هذا الكتاب كهذا الكتاب سواء بسواء

يجرى هذا الأسلوب كثيراً في معرض تقرير القائل بين شيئين واستوائهما . وفيه تكرار سواء مقروناً بياء الجر . والمعروف في اللغة لإفراد سواء . وبحسب المتكلم في إفادة غرضه أن يقول : هذا الكتاب لهذا الكتاب سواء . ويقال : الكتاب سواء ، والرجلان سواء في العلم .

وقد وقع السؤال عن هذا الأسلوب . سواء بسواء . ، وهل ورد في المأثور عن العرب . والباحث لا يرى المعاجم اللغوية عرضت له . غير أنه جاء في حديث الربا قوله صلى الله عليه وسلم : الذهب بالذهب ، والفضة بالفضة ، والبر بالبر ، والشعير بالشعير ، والتمر بالتمر ، والملح بالملح ، مثلاً بمثل ، سواء بسواء ، يداً بيد . وقد جاء هذا الحديث في مسلم وأبو داود ، بل قيل إنه في الستة ما عدا البخاري . وإذا جاء الحديث بلفظ واحد مع تعدد رواته وطرقه ، قوى الظن أنه لفظ الرسول عليه الصلاة والسلام ، وضعف احتمال الرواية بالمعنى فيه .

ونرجع إلى الحديث . فالمراد أن يباع المثل بمثله ، والسواء بسوائه . فالباء في (سواء) حرف جر أصلي ، هي باء المعارضة والمبادلة . وهل يأتي هذا في مثالنا : هذا الكتاب كهذا الكتاب سواء بسواء ؟ وفي الحق أنه لا يظهر هنا معنى المعارضة كما يظهر في الحديث . وهذا يقودنا إلى القول بأن الأسلوب الجارى على الألسنة احتذى به الحديث في غير دقة وسداد .

وقد خطر بالذهن أن الباء في (سواء) في الاستعمال الشائع زائدة دخلت على سواء ، وهو تأكيد لفظي ، كما تدخل على التوكيد المعنوي في قولك : جاء زيد بنفسه ، ويعينه .

وهذا التخريج لا بأس به ، وإن كان يضعفه أن زيادة الباء يقتصر فيها على موارد المسموعة ، وليس هذا الموطن منها . والله يتولانا بالهداية إلى الصواب .

(١) يجرى الوضع على تأنيث الحرف فتأنيثه بالكلمة ، ولذلك يؤنث الفعل له .

ضيق الصدر

والازمات النفسية

لفضيلة الأستاذ الشيخ على رفاعي

معشر الوعظ

إن ضيق الصدر وما يحدثه من ويلات، وأزمات النفس ومآسيه من كوارث ونفاد الصبر وما ينتج عنه من بلاء وعناء . كل أولئك من الأمراض الخطيرة ، التي كثيراً ما تؤدي بأصحابها إلى سوء المصير - وتجعل حياتهم جحيماً لا يطاق . ولما كان لكل داء دواء ، ولكل علة طريق يفضي إلى الشفاء ، والإنسان إن لم يعالج مرض جسمه هلك ، والنفس كالجسم إن مرضت تحتاج إلى علاج ، وعلاجها بدواء يناسبها . وتركها بدون علاج يذبل زهرتها ويطفئ نورها . لما كان الأمر كذلك . وجب علينا أن نبحث متلبسين طريق الخلاص من مرض ضيق الصدر وما يسببه للنفس من كآبة وحزن ونهم إذا تعرفنا على علة الداء . أصبح من اليسير القضاء عليه قبل أن يستفحل ، ولقد قضى الحكيم العليم . أن تكون الحياة ميداناً صاخباً بالهموم والأحزان . حافلاً بالرزايا والنوائب . مائجاً بالآلام والأسقام ، تصطرع فيه التكبكات . وتزاحم على أهله التنازلات . والإنسان بين ذلك في جهد وقعب . ومشقة ونصب . خلقه الخالق العظيم وأراد به ذلك ، وفي هذا يقول جل جلاله : *انم خلقنا الإنسان في كبد* ، سبحانه ربى عذب بحكمتك الأزلية فقصيت ولا راد لنقضائك . فلا يزال الإنسان في شدائد . فن ظلمة الرحم ومضيقه إلى اضطراع في الحياة وجهاد مرير ، ثم يعقب ذلك البازلة الكبرى - الموت الذي يضع حداً فاصلاً بين معتركين . معترك الحياة الدنيا - والدار الآخرة - وللإنسان في هذه الحياة الدنيا آمال يرجو تحقيقها بمحدوه الرجاء . ويتملكه القلق . لأمل ينشده ويخشى الحرمان منه . أو لشر يحذره ويخاف وقوعه . . وقد يضيق صدره . ويختم الحزن على قلبه . وتطير نفسه شعاعاً محبوب فات نواله ؛ أو ضر نزل به . وقد يحدث ما نابيه أو ما يتوهم أن يصيبه أزمة نفسية يغذوا بها كثيراً كاسف البال

يئوساً موزع النفس ، فتراه ميتاً في صورة الأحياء . حياته شقاء . وعيشه عناء .
موته راحة له من الآلام . ولقد أدرك هذا المعنى وصوره أكل تصوير من قال :

ليس من مات فاستراح بميت إنما الميت ميت الأحياء
إنما الميت من يعيش كثيراً كاساً باله قليل الرجاء

فالاستسلام لضيق الصدر والأزمات النفسية داء خطر يوهن النفس ويضعف
القلب ، ويتقط من زوال الخطاب . فيشتد الكرب . ويدوم السكد ويستمر التكد .
فيجىء الغد كالأمس في غم وبلاءه ، ويلزم النفس التشام والتطير . ويقطع
الرجاء ، ويستعصى الخلاص . وهذه جميعاً بلايا لا تجلب خيراً ولا تدفع شراً
ولا ترد فائتاً . ولا تحقق أملاً . وفي ذلك سوء الحال . وشر المآل وفي الحكم
المروية . من قل صبره ، وعظم عليه أمره . وضاق عن حمل ما نزل به صدره
فقد تبين كفره . فلا يؤمن على من كان الجزع من شأنه أن يذهب بإيمانه .

ويقول بعض العلماء : من كثر جزعه كثرت زلته ، وعظمت علة وبعد
أمله وحبط عمله ، وكفى مرض ضيق الصدر قبحا أن الانتحار أثر من آثاره .
وسيته من سيئاته . وهو بعد ليس من صفات العقلاء في شيء . فالمصاب به عقله
محتل وقلبه معتل ، ونفسه مريضة فلا يليق بالإنسان الذي جعل خليفة في الأرض .
وخلق لمهارتها وصلاحها أن يستسلم لهذا المرض الذي يقضى على الهناء ، وينقص
الحياة ويهدم القوى ويحطم الأعصاب ويذيب الحيوية والنشاط ، ولنا في الانبياء
عليهم السلام أسوة وقدوة - فهذا موسى عليه السلام ، لم يستسلم لضيق صدره ،
حيث لا ينطلق لسانه كما يريد - فطلب من ربه الذي أرسله . أن يعينه بأخيه
هارون لأنه أفصح منه لساناً . فلا تحتل دعوته ولا تضعف حجته . وفي ذلك شرح
لصدره وتيسير لأمره) قال رب اشرح صدري يسهل أمري واحلل عقدة من
لساني يفهموا قولي واجعل لي وزيراً من أهلي هارون أخى أشد به أروى وأشركه
في أمري :) وفي آية أخرى قال الله سبحانه (وإذ نادى ربك موسى أن إئت القوم
الظالمين ، قوم فرعون ألا يتقون قال رب إني أخاف أن يكذبون ويضيق
صدري ولا ينطلق لساني فأرسل إلى هارون) .

ومن شرح الله صدره بالإسلام ، سهل عليه علاج نفسه من هذا المرض الخطير

وسعد بالشفاعة - وعليه فقط أن يبحث عن الطبيب الحاذق - ويستعمل ما يصمه من الدواء فيسجد السلامة منه . وطيبه في هذا إرشادات الإسلام ، فمن هدبه الدعوة إلى الصبر والرضا بالقضاء والقدر ، وإحياء الرجاء في السلامة ، والحياة الصحيحة بالعمل على ذلك . وكل ذلك من شعب الإيمان .

واند حضء القرآن الكريم على الصبر في أكثر من سبعين موضعاً . وأضاف أكثر الدرجات والحسنات إليه . وجعلها ثمرة له وطلب منا الاستعانة على كل أمورنا ، وما ينزل بنا بالصبر والصلاة قال الله تعالى : يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة ، إن الله مع الصابرين .

فاستعن بالصبر . وعالج أمرك بالروية والحكمة . وحذار أن ينفد صبرك ، أو تعيا حيلتك . فالرجل كل الرجل هو الذى يتخذ من الهزيمة في أمر من الأمور عطية للتناصر في محاولة مقبلة . والعامل الأريب هو الذى ينفذ بأخطائه قد تقع منه فيتجنبها ويسير على نهج سوى . ولا يستسلم لليأس فإنه قتال للنفس ، مثبت للهمم ، جالب للهموم والأحزان .

وعلى من ضاق صدره لأمر من الأمور ، أن يتذكر أن أيامه في هذه الدنيا معدودة وأنفاسه محدودة . وأنه في هذه الحياة ضيف ولا بد من الرحيل . فإذا أيقن بهذا ، فلماذا يكدر عيشه بضيق الصدر ، وينقص أيامه القصيرة بالأحزان والكتابة . إن كان ذلك للنال فهو إلى زوال ، وإن كان لسعة الرزق فقد تكفل به الكبير المتعال . وعلى كل حال فالدنيا إما نعمة نازلة ، وإما نعمة زائلة : أولها عناء ، وآخرها فناء . حلالها حساب - وحرامها عقاب . ومن صح فيها أمن ، ومن مرض فيها ندم . ومن استغنى فيها فتن . ومن افتقر فيها حزن . ومن ساعاها فاته ، ومن تعد عنها أته . ومن نظر إليها أعته . ومن نظر بها بصرته : ويرحم الله المتأمل :

تمتع من الأيام إن كنت حازماً فإليك منها بين ناه وآمر
إذا أبقت الدنيا على المرء دينه فما فاته منها فليس بضائر

أيها المكتئب الحزين تمثل قول الحسن البصرى رحمه الله :

الدنيا كلها غمٌ فما كان منها من سرور فهو ربح .

دراسات في التصوف

الأمير المتصوف

لمحاضرة الأستاذ عمر طلعت زهران

أستاذ في الأدب

يا من ترفع للدين ودينها ليس الترفع دفع العين بالعين
إذا أردت شريف الناس كلم فانظر إلى ملك في ذي مسكن
أبو السامية

كان يقوم في بلخ بخراسان ، في أوائل القرن الثاني الهجري ، قصر عال منيف ،
يملؤه الخدم ، ويروح أمامه الحراس ، ويبحثون ، يقيم به أمير من نسل الملوك ،
هو أدهم بن منصور بن يزيد العجلي ، من العرب ، من بني عجل ، أو من تميم^(١) ،
كريم الحسب ، عريض الثراء .

حزم الأمير أدهم رأى على أن يؤدي لله بعض حقه بجميع بيته الحرام ، فأعد
العدة ، وسار ركبته ، يضم زوجته وخدمته نحو الأرض المقدسة الطاهرة ، فبلغها .
وكانت الزوج حاملًا في شهورها الأخيرة ، وكأنما أراد الله لها أن تضع مولودها
في أرضه المباركة ، فوضعت غلامًا ، واستحضرها الفرح — بالغلام وبالميلاد في
الأرض التي حلت على ثراها الرسول — فجعلت تطوف به في المسجد ، وتقول
للناس : ادعوا لابني أن يجعله الله رجلاً من الصالحين^(٢) .

وعلت وجوه الناس ابتسامة حلوة ، إذ هاجت فيهم عاطفة الآبوة ، فدعوا الله
بقلوب خالصة غالية ، أن يحقق حلم الأم ، وكأنما كانت أبواب السماء مفتحة ،
فاستجاب الله لدعاء الداعين .

وعاد الحبيب — كل إلى بلده ، وعاد أصحابنا إلى بلخ ، وشب الرضيع غلاماً .

(١) البستان ٢١١/١ ، الخلية ٢٧٢/٧ . (٢) قارن الخلية ٧٧١/٧ .

ففتى يرتع في ثراء أبيه المريض ، ويحيا الحياة التي كان يحياها أترابه ، لهو وفراغ .
فإذا أضجره الفراغ بحث عن الله .

وكان أبوه قد حجب إليه الصيد ، فخرج يوما بصطاد ، وسار بين يديه نحو من
عشرين شاكري^(١) ، فأثار أرنبا أو ثعلبا ، فتبعه بجواده ، وهو في نشوة السعادة
بفتوة الشباب وفراغ الحياة . وسار به جواده يقع الحيوان المسكين ، حتى بعد عن
رفاقه ، فإذا به يسمع صوتا يهتف به : ، ليس لذا خلقت ، ولا بهذا أمرت . فتوقف
متلعتا يبحث عن هذا المتحدث فلم يجد بجانبه إنسانا ، فظن الأمر وهما ، ولكن
جواده يريد أن يسير ، فإذا بالصوت يخرج من قربوس سرجه : يا إبراهيم ما لذا
خلقت ولا بهذا أمرت .^(٢)

وآن لدعاء الصالحين ، أن يستجيب له الله ، حين وقف الفتى المترف ، المدثر
بالحرير والدمقس ، فصاح في نفسه : ، أنبت ، أنبت ! جاءني نذير من رب
العالمين . والله ما عصيت الله بعد يومى ذا ما عصمتي ربى . وألقى الشاب المرفه
المترف ثيابه الغالية ، ونزل عن فرسه المظلم ، واستبدل كل هذا بحبة من صوف
لراع من رعاة أبيه ، ثم أخذ يضرب في بلاد الله .

وقد تختلف الرواية قليلا ، ولكن أساسها يبق واحد ، وهو أن الشاب
الموسر الفتى المترف المرفه ، ترك الدنيا فجأة ، وزرع عنه أسبابها .

أو قد تختلف الرواية كثيرا ، فتجعل الشاب جالسا في قصره ، يتفكر
ويتأمل ، فيسمع ذات ليلة جلبة صاخبة فوق سطح القصر ، فلما ذهب الحراس
يستطلعون الخبر ، فاجأوا قوما يدعون أنهم يبحثون عن إبلهم الضالة ، فافتيد
هؤلاء الممتحنين للقصر إلى الأمير ، ولما سألم : ، هل حدث أن تفقد امرؤ إبله
فوق سطوح المنازل ، ، أجابوا : ونحن لا نعمل إلا اقتداء بك أنت الذى تسعى
إلى الاتحاد بالله ، بينما أنت جالس على عرشك ، قبل لرجل في مثل هذا المقام
يستطيع أن يقترب من الله ، ، فكان من هذا أن هرب الأمير من القصر . ولم
يره أحد منذ ذلك الوقت^(٣) .

(١) الحلية ٢٧١/٧ . (٢) الحلية ٢٦٧/٧ ، الرسالة ٩٠٩ .

(٣) المعينة والشرعية في الإسلام . الترجمة العربية من ١٤٤٣ .

ذكر هذه الرواية جلال الدين الرومي ، ومنها نستطيع أن تبين أمرين ، أما أولهما فهو أن فكرة التصوف - أو الزهد - كانت موجودة قبلاً في نفس إبراهيم ، وأما الثاني فهو اعتقاد فريق من المتصوفة بأن سمو المكانة يبعد المرء عن الله ، وهي فكرة نستطيع بها أن نفهم تواضعهم وزهدهم في كل شيء ، عدا الله ، بل ونستطيع بها أن نعلل سلوك الملامية وأن نعذرهم .

هجر إبراهيم إذن قصره ، وكل ما يربطه بالعالم ، حتى زوجته وأولاده ، ويرى جوله تسير^(١) . أن قصة إبراهيم بن آدم تشبه في سماتها البارزة سيرة « بوذا » . بدأ جوتامو بوذا حياته بهجرة لعائلته ، والاسطورة المعروفة الشائعة عنه هي أن أميراً أقلقته منظر المرض والشيخوخة والموت ، فقرر أن يبحث عن الخلاص من آلام الحياة ، فترك في ظلام إحدى الليالي قصره الملكي الباذخ ، وعائلته الحبيبة ، ليبدأ حياته جواب آفاق فقيراً ، حياة راهب سائل . وقد تبدو هذه القصة خيالية ولكننا نرى فيها أعماق المعاني ، تناول مباشرة وبصراحة مأساة الحياة^(٢) .

وإن كان بوذا وإبراهيم قد تركا الثراء إلى الفقر ، والعز إلى الزهد ، فتمت كثير من غيرهما فعلا نفس الأمر ، وتاريخ التصوف الإسلامي يروي الكثير عن أمثال إبراهيم بن آدم ، وإن لم تكن لهؤلاء مثل شهرته : روى السكتاني قال : « كان بمكة فتى عليه أظفار رثة ، وكان لا يداخلنا ولا يجالسنا ، فوقعت محبة في قلبي ، ففتح لي بمانتي درم من وجه جلال ، فحملتها إليه ، ووضعها على طرف سجاده ، وقلت له إنه فتح لي ذلك من وجه حلال تصرفه في بعض أمورك . فنظر شزراً ، ثم كشف عما هو مستور عني ، وقال : « اشتريت هذه الجلسة مع الله تعالى على الفراغ بسبعين ألف دينار ، غير الضياع والمستغلات ، تريد أن تخدعني عنها بهذه . وقام وبددها »^(٣) .

ومثل هذا الزاهد العابد العارف كثيرون ، تركوا جميعاً الدنيا ونزعوا اليد من الأسباب ، وأرادوا الله .

- - -

(١) المرجع السابق .

Great Age of world History, V. Stanka, 1946. P. 9 (٢)

(٣) الرسالة ١٦٤ .

المنصوفة فريقان . فريق أثر الإقامة فلم يسافر إلا لغرض ، ومن هؤلاء الجنيد وسهل بن عبد الله والبسطامي ، وفريق أثر السفر ، فكان على ذلك إلى أن خرج من الدنيا ومن هؤلاء أبي عبد الله المغربي وإبراهيم بن آدم .
أثر ابن آدم التنقل والسفر ، فهو كصوفي يرى أن العالم كله وطنه ، والناس كلهم إخوانه . لا يفرقهم عنه وطن ولا دين ، حتى يقال إنه أخذ المعرفة عن راهب مسيحي اسمه أبو سمعان ^(١) .

ترك إبراهيم خراسان ، يرتدى فروا ليس تحته قميص ، ولا يلبس خفين ولا عمامة ، إذا كان الوقت شتاء ، أو يرتدى - صيفا - شتمتين ، بأربعة دراهم ، يتزر بواحدة ويرتدى الأخرى ، وسار أرض تضعه ، وأرض ترفعه حتى جاء العراق ، ومنها إلى مكة ، ثم البادية وبها لقي سفيان الثوري والفضيل بن عياض ^(٢) . وما لبث أن قصد بلاد الشام والنفور ، فتقل في ربوعها ، بجاعلا منها مركزه الرئيسي ، الذي يرجع إليه دائما بعد سفره الكثير . وهو لم يأت الشام للجهاد أو رباط ، وإنما ليشتيع من خبز حلال ^(٣) .

ومات إبراهيم بالشام عام ١٦١ أو ١٦٢ للهجرة ، في خلافة المهدي العباسي . قال أبو نعيم : ، إنه مات في صائفة السفر بالبطن ، وهذا قول مردود ، كما سنرى بعد . أما المشهور في موته فهو أنه مات وهو يغزو في إحدى الجزر ببلاد الروم - كما يقول البستاني ، وإن كان الأرجح ، فيما أرى ، هو ما رواه فرج - مولى إبراهيم - من أنه مات في الجزيرة أثناء الغزو ، فحمل إلى صور ودفن بها في موضع يقال له : مدفلة ، وعرف أهل صور قدره ، فصاروا يذكرونه في تشييب أشعارهم ، ولا يرثون ميتا إلا بدأوا بذكره . وقال القاسم بن عبد السلام إنه رأى قبره بصور ^(٤) .

هذا هو إبراهيم بن آدم ، الذي عد واحد من أربعة كانوا أهل الورع في زمانه حتى إنه وأصحابه كانوا يمتنعون أنفسهم أربعا : لذة المساء والحمامات والحذاء ، ولا يجعلون في الملح أبارا . ^(٥)

وإلى العدد التالي لتسكمل حديثنا عنه . [يتبع]

(١) الحلية ٨ / ٢٨ . (٢) حراسان من مرو ، ويلى ولد يسمرصد ، ومات بمكة ٢٨٧هـ .

كان يقطع الطريق ثم ناب . (٣) الحلية ٢٠٣ / ٧ . (٤) الحلية ٩ / ٨ . (٥) الحلية ٣٩١ / ٧ .

مِنْ طَرَفِ الْفَرَزِ الْحَكِيمِ

لفضيلة الأستاذ الشيخ عبدالقنى عوضى الراجحى

مبعوث الأزهر بكلية الشريعة الإسلامية في بغداد

نقتصر في مقالنا هذا على سبع مفارقات تتعلق بتشابه النظم في قصص القرآن الكريم حيث يكون المعنى واحد أو كالواحد يذكر في أكثر من موضع بعبارات تختلف تقديماً وتأخيراً وذكراً وحذفاً ونحو ذلك نكشف عن السر في ذلك تفصيلاً بعد ما عرّف إجمالاً من أن ذلك مردود إلى التفنن والنويع ومناسبة المقامات المختلفة لمقتضيات أحوالها المختلفة .

المعارفة الأولى . . في قوله تعالى في سورة الأعراف في قصة صالح : فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربى . . مع قوله تعالى في السورة نفسها في قصة شعيب . . فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربى . مع قوله تعالى في السورة نفسها في قصة نوح . . ولكنى رسول من رب العالمين أبلغكم رسالات ربى . . مع قوله تعالى في السورة نفسها في قصة هود : ولكنى رسول من رب العالمين أبلغكم رسالات ربى : فقد كانت الرسالة في قصة صالح على لفظ المفرد وفي قصة غيره على لفظ الجمع فهل من سر لذلك ؟ والجواب أن المؤدى في النهاية واحد لأن الرسالة بالنظر إلى وحدتها في حد ذاتها يصح أفرادها بالنظر إلى ما تشتمل عليه من الأوامر والنواهي والإرشادات الكثيرة يصح جمعها لكن الأفراد بقصة صالح أوفق لأنه لم يحك عنه في القصة كثير من ذلك بل دار كلامه على الناقصة والحث على إكرامها . . والجمع بقصص المذكورين من نوح وهو وشعيب أوفق فقد ذكر في قصصهم كثير من الجدل والأوامر والنواهي سيما شعيب الذى كان مرسلًا إلى أهل مدين وأصحاب الأيكة الأمر الذى يقتضى تعدد التبليغ وتكثر

الإرشادات وفي ، ملاك التأويل ، ما يعطى أن العرب في كلامها تضع الأكثر في متابلة الأكثر وبحواره والأقل في مقابلة الأقل وبحواره حيث كان في قصة شعيب كثير من أوامره ونواهي المتعلقة بالعبادة والموارين والمكاييل وقع التعبير بالرسالات جمعا . . . وحيث كان في قول قوم نوح له ، إنا لنراك في ضلال مبين ، كثرة وشمول حيث أرادوا أنه ضال في كل ما يأتي ويذر ضلالا بينما كان الرد عليهم بالرسالات جمعا في قوله ليس بي ضلالة ولكني رسول من رب العالمين أبلغكم رسالات ربي ، وكذلك كان الحال في قصة هود حيث قال قومه له ، إنا لنراك في سفاهة ، والسفاهة مصدر سفه بالضم أرادوا أنها صارت له ملكة في كل ما يأتي ويذر فكان في ذلك شمول فتناسب الجمع في الرسالة في رده عليهم ، ليس بي سفاهة ولكني رسول من رب العالمين أبلغكم رسالات ربي . . . وحيث لم يذكر في قصة صالح شيء من ذلك اللهم إلا الناقة وكفر قومه به جاء لفظ الرسالة مفردا .

المفارقة الثانية : في قوله تعالى في سورة هود في قصة نوح رأيتم أن كنت على بينة من ربي وآتاني رحمة من عنده مع قوله تعالى في السورة نفسها في قصة صالح رأيتم أن كنت على بينة من ربي وآتاني منه رحمة . مع قوله تعالى في السورة نفسها في قصة شعيب . رأيتم أن كنت على بينة من ربي ورزقني منه رزقا حسنا . فالآيات الثلاثة في حكاية أقوال هؤلاء الأنبياء الثلاثة لأقوامهم لكن المفعول الثاني لفعل الإيتاء في قصة نوح وقع تاليا للفعل ومفعوله الأول لا فاصل بينهما وفي قصتي هود وشعيب وقع المفعول الثاني رحمة في الأولى ورزقا في الثانية مفصولا بينه وبين المفعول الأول وفعله بالجار والمجرور وهو قوله ، منه ، فهل من سر لذلك ؟؟ والجواب أنه حيث تقدم في قصة نوح في نفس السورة أفعال اقتضت مفعولين لا فاصل بينهما بمثل هذا الجار والمجرور وذلك في قولهم له : و ما نراك إلا بشراً مثلنا وما نراك استعك إلا الذين هم أرادنا بادي الرأي ، كان من الحسن اتباع المتأخر بالمتقدم في الطريقة فلما كان التقدير في قولهم هذا نراك بشراً مثلنا ، نراك متبوع الأراذل كان رده على نفس هذه الطريقة . . آتاني رحمة من عنده بعدم الفصل بين المفعولين بجار ومجرور . . وحيث تقدم في قصة صالح

في نفس السورة قول قومه في كفرهم ، قد كنت فينا مرجوا قبل هذا . فوقع الجار والمجرور بين اسم كان وجبرها كان من الحسن اتباع المتأخر بالمتقدم في الطريقة بوقوع ل هذا الفاصل بين المفعولين فتبيل : وآتاني منه رحمة ، وقريب من ذلك الواقع في قصة شعيب فإن ما في حكاية كلامه من تقديم الجار والمجرور على المفعول الذي هو الرزق شبيه بما سبقه في نفس القصة والسورة من قول قومه له : أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء ، بتقديم الجار والمجرور على المفعول ..

وفي ، ملاك التأويل ، ما يعطى في سر هذا المفارقة جوابا آخر مؤداه أن قوم نوح ألقوا الشبه والكفريات على الأصل دون تقرر والتواء في الكلام فقد اتهموه بالمثلثة في البشرية واتباع الأراذل وكاشفوه بظنهم كذبه وكذب اتباعه وقوم صالح تعمروا في الكلام وأسقطوا صالحا عن رتبة الرجاء في حاله فوقعت حكاية قول كل رسول على طريقة حكاية كفر قومه فكانت في قصة نوح على الأصل من تقديم المفعول وتأخير المتعلق به فقيل : وآتاني رحمة من عنده ، وكانت في قصة صالح على خلاف الأصل بتقديم الجار والمجرور على المفعول الثاني ، وآتاني منه رحمة ، وقريب منه ما في قصة شعيب فقد كان قومه متعبرين ملتزمين خارجين عن الأصل في قولهم له : أصلاتك تأمرك أن تترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء إنك لأنك الحليم الرشيد . فكان في جوابه خروج عن الأصل بتقديم الجار والمجرور على المفعول الثاني في قوله ورزقني منه رزقا حسنا .

أما التعبير بالرق في قصة شعيب بدلا من الرحمة في قصتي هود وصالح فلتناسبة الأموال والمكاييل والموازين المذكورة في قصته فإن لفظ الوزن بجوار ذلك أشكل وأوفق .

أما كون هذا الجار والمجرور في قصتي صالح وشعيب بلفظ منه ، وفي قصة نوح بلفظ من عنده فالمعنى ، وإن كان واحدا إلا أن زيادة العندية تفيد زيادة التمسك في المعنى وذلك أوفق بقصة نوح لما فيها في هذه السورة خاصة من الاطناب والزيادة في بيان جداله مع قدمه الذين كانوا كما نطق القرآن عنهم أظلم وأظنى ..

المفارقة الثالثة : في قوله تعالى في سورة الصافات في قصة إبراهيم من قول ابنه له : ستجدني إن شاء الله من الصابرين ، مع قوله تعالى في سورة النقص

في قصة موسى من قول صهره له ، ستجدني إن شاء الله من الصالحين ، وواضح أن الأولى من قول الذبيح حين أخبره والده بعزمه على ذبحه تنفيذاً لوصي الله فكان له معوانا على طاعة الله بامثاله وقوله له يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين أي على آلام الذبح فالصبر بهذا الموضع أوقع وأن الثانية من قول شعيب لموسى حين المعاهدة بينهما على زواج الثاني بآية الأولى على أن يأجره ثمانى حبيج فإن أتم عشر آفن عنده فقال له وما أريد أن أشق عليك ستجدني إن شاء الله من الصالحين أي في المعاملة لا ظالماً ولا طامعاً فالصلاح بهذا الموضع أوقع . .

المفارقة الرابعة : في سورة الشعراء في سائر قصص السورة^(١) يقول كل رسول لقومه ، فاتقوا الله وأطيعوا ، هكذا تكون آية برأسها إلا أنها في قصة كل من نوح وهود وصالح ذكرت مرتين وفي قصة لوط وشعيب ذكرت مرة واحدة . . والسر في ذلك - والله أعلم - أنها في قصة شعيب وقع الإغناء عن ذكرها مرة ثانية بما ذكر من قوله لقومه ، واتقوا الذي خلقكم والجليلة الأولين ووقع الإغناء عنها في قصة لوط بما ذكر من قوله لهم ، إني لعملكم من القالين ، فهو بغض لعملم مستلزم لارادته أن يطيعوه بتقوى الله والاقلاع عما هم فيه . ثم لا يبعد أن يكون ذلك لأن شعيباً ولوطاً ذكر عنهما خاصة في السورة الاشتغال بالنهي عن معصية معينه هي إثبات الذكور والتلاعب بالمقاييس فكان ذلك اشتغالا بتحصيل طاعة وتقوى في أمر معين أغنى عن الاشتغال بتحصيل طاعة وتقوى عامة مرة ثانية^(٢).

المفارقة الخامسة : في قوله تعالى في سورة الشعراء قصة إبراهيم ، فأهم عدو لي إلا رب العالمين الذي خلقني فهو يهدين والذي هو يطعني ويسقي وإذا مرضت فهو يشفين والذي يميتني ثم يحييني مع قوله تعالى في سورة النجم ، وأن إلى ربك المنتهى وأنه هو أهلك وأنه هو أمات وأحيا وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى من نطفة إذا تمنى وأن عليه النشأة الآخرة وأنه هو أغنى وأقنى وأنه هو رب السمعي ، الكلام ها هنا في ذكر الضمير ، هو ، قبل بعض الأفعال المسندة إلى الله دون بعض في كل من الآيتين هل من سر لهذه التفرقة ؟ والجواب أن هذا الضمير ذكر قبل الأفعال التي يتوهم أنها من فعل العبد ومن شأنها أن يكتسب الأمر فيها أما الأفعال

(١) ما عدا قصص موسى وإبراهيم فهما نخط خاص (٢) راجع السورة المذكورة

التي من شأنها أن لا يقع في أنها محض فعل الله اشتباه فيستغنى بوضوح خلوصها لله عن الاتيان بهذا الضمير وعلى ذلك فتد جاء قبل الاغناء والافتاء والاضحاك والابكاء والاطعام^(١) والهداية وكونه ربا للشعري ولم يحى قبل كونه عليه النشأة الأخرى وكونه خلق الزوجين الذكر والأنثى مع ما حصلت به تقوية هذا الأخير من سابق قوله تعالى في سورة النجم : هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنة في بطون أمهاتكم ، لكن ما يستحكم فيه السؤال فعل الإحياء والإماتة وتقدم الضمير عليهما في سورة النجم دون ذلك في سورة الشعراء وهما شيء واحد ولعل ذلك - والله أعلم - لأن الأصل عدم وقوع اللبس في أنهما من محض فعل الله لكن قد يعرض هذا اللبس ويحلو التلبس في هذا التادر من المعاندين الذين يركبون رؤوسهم كأنهم رؤس حنجر حجاجه إبراهيم فتعال له ، ربى الذى يحى ويميت قال أنا أحيى وأميت ، وإذا كان ذلك كذلك فقد جاء الكلام على الأصل من عدم الالتباس وبالتالي حذف الضمير في سورة الشعراء السابقة على سورة النجم في ترتيب التلاوة لأنها كالأصل لها فكان ذلك من وقوع الأصل في الأصل مع مراعاة أن عدم اللبس فيما يختص بشخص المتكلم أبرز وأظهر فينبغي حذف الضمير وهذا هو الواقع في سورة الشعراء لأنها في حديث إبراهيم عن نفسه بينما كان المقابل لذلك كله هو الواقع في سورة النجم ..

المعارفة السادسة : في قوله تعالى في سورة هود والذاريات في قصة إبراهيم : أوجس منهم خيفة ، مع قوله تعالى في سورة طه قصة موسى : أوجس في نفسه خيفة موسى ، فقد زادت الثانية على الأولى قوله في نفسه وذلك لأن موسى استشعر هذه الخيفة وهو في موقف التحدى بمعجزة العصا على ملائمة الناس بعد أن ألقى السحرة حبالهم وعصيمهم وخيل اليه من محرهم أنها تسعى فكان يبالي في إخفاء هذه الخيفة عن الناس وما صرح بها لأحد أما إبراهيم فما كان يبالي في إخفاء هذه الخيفة عن ضيفه المكرمين بل أنه أعلنها بعد أن توجهها بقوله إنا منكم وجلون فقالوا له لا توجل إنا نبشرك بغلام علم .

المعارفة السابعة : في قوله تعالى في سورة إبراهيم الآيات ٩ ، ١٠ ، ١١ قصص قوم نوح وعاد وثمود .

(١) قوله ربه من مطروف على قوله يطمئن بهما واحد

(٢) سورة البقرة

لمحات في النظم التعبدية

(٢) الرهبانية والديرية والتصوف

دكتورناز عبد المنعم محمد الشيخ

تناولنا في بحثنا السابق بعض نواحي هذا الموضوع ، فنحن قد تحدثنا عن أصل اشتقاق كلمات « الرهبانية والديرية والتصوف » ، كما عرضنا أيضا لماهية هذه النظم التعبدية والظروف التي نشأت فيها .

والآن ، وفي هذا البحث ، نتابع عرضنا لهذا الموضوع ، متاولين تطور هذه النظم التعبدية ، مع تحقيق ما جرينا عليه في بحثنا السالف وهو عتمد المقارنة بينهما كلما لاح لنا وجه ملائم لهذه المقارنة .

إن أول من نادى بحياة الرهبانية هما القديسان « بول Paul » وأنطون ٢٥١ - ٣٥٦ م . ويعتبر الأخير المؤسس الأول للرهبانية ، في بلدة « قس العروس » بديرية ببي سويف ، كما يعد القديس « باخوم » المؤسس الأول للديرية في مصر العليا .

ولقد انتشرت الرهبانية والديرية بادي الامر في مصر ، ثم انتقلت إلى فلسطين وسوريا ثم جميعه ثم الغرب .

وانتد نشأت الرهبانية أولا ثم الديرية تاليا ، وتعد الديرية في الواقع تشذيب وتهذيب لحياة الرهبانية القاسية ، وقد تم ذلك على يد القديس « باخوم » المتوفى عام ٣٤٩ م ، إذ أدرك قسوة التعاليم الرهبانية ، التي لا تحسب لإنسانية الإنسان حساباً ، والتي نكلفه فوق طاقه البشرية ، فبنى هذا القديس ديراً بجزيرة « تابينا Tabenna » بالنيل ، حيث أسس طريقة تنبى في جوهرها على النظام والطاعة والعمل اليدوى والرياضة البدنية ، وبذلك أزال هذا القديس لأول مرة وحشة حياة النفس الانفرادية ، ثم انتقلت الرهبانية والديرية بعد ذلك إلى الولايات

الرومانية الشرقية على يد أخت القديس ، باسيلي ، عام ٣٥٨ م ثم أسس ، باسيلي Basil ، هذا مستعمرة من الديرين في ، كابدوكيا Cappadocia ، وسرعان ما انتشرت تعاليمه في سوريا وفلسطين واليونان في العصور الوسطى ، ولدقة هذه التعاليم وشدة تنظيمها ، أطلق عليها اسم ، القاعدة الباسيلية ، ويعد ، باسيلي ، من الرجال النادرين الذين استطاعوا النهوض بالناحية العلمية من الحياة الديرية ، فكانت تعاليمه لا ترمي إلى مساعدة الذات فحسب ، بل إلى مساعدة الفقير والضعيف أيضاً ، وإلى تنمية حاسة الشعور بالواجب .

والواقع أن حياة التقشف الشديدة وحرمان النفس لذات الحياة ، تجعل الإنسان غير صالح للنفع العام ، وقد كانت تعاليم ، باسيلي ، تجمع بين الناحيتين التعبدية الدينية والعملية في الحياة . وتتلخص الحياة داخل الدير الباسيلي في الصناعة والزراعة وإنشاء الحدائق وصنع الملابس من الجلود وأعمال التجارة وقطع الأحجار والبناء والزراعة وحفظ المخطوطات ، كما أنه لم يسمح للديرى بتملك الأشياء وحيازتها ، فيما عدا ملابسه وحذائه ، وغير ذلك مشاع للجميع ، أى أنهم كانوا يمارسون نوعاً من الاشتراكية داخل الدير ، وحتم على الديرى ، أن تكون ملابسه بسيطة ، تشف عن فقر نظيف ، كما حرم عليه الفحش في القول والعمل . وبالاختصار فالحياة داخل الدير تقسم بالفقر والنظافة والنواصع والعفة والطاعة والتعاون والتجهد ، مع القيام ببعض الأعمال كالغزل والصلاحة والتعلم واستيعاب المخطوطات والصلاة والصوم والتبشير . ومع ذلك كله فيجب أن نقرر هنا أنه بالرغم من أن الرهبانية والديرية فامتا لتجاربا حش القرن الرابع ، إلا أنهما مع ذلك لم تخلوا من الشور ، فهذا النوع من الحياة يعتبر على أية حال ، أمابية غير أنانية ، إذ أن غرضها الاسمى هو أن يسمو الديرى بنفسه إلى ذروة الكمال ، عن طريق التأمل ، وتنمية عاطفة حب الله في نفسه شخصياً بغض النظر عن الآخرين . كما أن هذه الحياة تعد ضرباً من ضروب الانحلال الاجتماعى ، وتنتج من شدة تعصب الديرين أن اضطهدوا كل وثنى ، ونحن نعلم أن نشوء حركة الرهبانية والديرية ، كان يتشئ مع التضال الاخير بين الوثنية المحترضة والمسيحية المنحرفة ، ونعلم كذلك أن التناج الادبى والفنى والفلسفى والعلمى كان كله من نتائج الوثنية ،

وثمرة تفكير العقل الإنسانى حتى تلك العصور ، فراح جماعة الرهبان والديرين المتعصين يدمرون ويحرقون كل ما يمت للوثنية بسبب من معابد وتماثيل ومخطوطات ومكاتب^(١) ، بل زادوا على ذلك وحرروا على الناس قراءة الأدب القديم ، وأغلظوا فى معاملة الفلاسفة والمعلمين . وكل ذلك يعد ، دون ريب ، مسببة وعاراً فى تاريخ هذه الحركة .

نشأت الرهبانية والديرية بعد ذلك طريقها من اليونان الشرقى إلى الغرب اللاتينى ، وقد سم ذلك على أيدي أربعة هم : القديس . كسيان Cassian د ٣٦٠ - ٤٣٥ م ، والقديس . مارتن Martin ٣١٦ - ٣٩٧ م ، والقديس . قيصر Caesar توفى عام ٥٤٢ م ، والقديس . بندكت Benedict ٤٨٠ - ٥٤٣ م . وهما من أمر هؤلاء جميعاً القديس . بندكت . حيث حظيت حركة الرهبانية والديرية على يديه والنرة الأولى فى تاريخها بتعصيد البابوية ، ومن بين أحجار معبد . أبولو Apollo ، الوثنى بمدينة . منت كاسينو ، الإيطالية ، انبعثت التعاليم البندكتية ، واتقد أدرك ، بندكت عيوب الرهبانية والديرية الشرقية ، وعدم صلاحيتها للحياة فى أوربا ، فأخرج نظاماً معدلاً جديداً عرف باسم « المذهب البندكتى » طابعه الطاعة والعمل وإنكار الذات والصلاة والنظام ، جملة فضائل وضعت بحسب لا تترك ممارستها مجالاً للردائل . أخذت دولة الأوثان تتضاءل بعد ذلك على أيدي بعثات التبشير المسيحية رويداً رويداً ، ويضيق بنا المتنام عن تتبع هذه الحركة تفصيلاً ، وهما أن نعرف النتائج التى تمخضت عنها حركة الرهبانية والديرية : فقد علمت هذه الحركة رجال الكنيسة حب الإحسان والعفاف وكثيراً من الفضائل الأخرى ، أما تأثيرها على الحياة الاجتماعية فكان واسعاً بعيد المدى ، ففى الزراعة ، أصلحوا كثيراً من الأراضي البرية ، التى قاموا فيها بتجارب زراعية . وفى الصناعة ، صنعوا بأيديهم كثيراً من الأدوات التى احتاجوا إليها ، وعرفوا الغزل وصناعة الملابس وقطع الأحجار والبناء ورعى الماشية وطهى الطعام وصنع الملابس ودينج الجلود وغير ذلك . وفى التعليم ، حفظوا ما هنالك من مخطوطات

(١) أحرقت حينذاك مكتبة الإسكندرية الثانية .

وأنشئت المدارس التعليمية ، أسكولات ، ومن مزايا هذه الحركة أيضاً تعريد النظام والطاعة بغير إكراه ، كما عملت على نشر المسيحية في الأقاليم الوثنية ، وأعطت المرأة في تلك العصور فرصاً كانت محرومة منها ، لأن الأديرة النسائية كانت تدار بواسطة إداراة نسائية .

بقى من موضوعنا هذا ، أن نمرض لنطور التصوف ، مكتفين بقتبعه أثناء القرنين الأولين من السيطرة الإسلامية ، ففي القرن الثاني لم يكن للتصوفة رابطة منظمة تجمعهم ، أو مكان معلوم يزاولون فيه طقوسهم الدينية ، بل كان مهمهم هو الانصراف عن الدنيا تقريباً من أفعه تعالى ، ولم تنشأ عنهم بعد في هذا الدور نظرية الاتحاد أو الحلول والصوفية في هذا الدور إسلامية محضة ، لم تدخلها العناصر النورية الهدامة ، وكانت غايتهم من التصوف الاتصال لا الخلاص Slavation .

وفي القرن الثالث ، دخلت في التصوف العناصر غير الإسلامية ، وأشهرها فكرة الاتحاد ، ولهذا التغير في معتقدات المتصوفة عوامله : فالمتصوفة كانوا على الدوام ، ينظرون إلى الإسلام كمصدر للسلطة ، وأنهم اقتبسوا نظام الأقطاب عن الشيعة ، وتأثروا بمذهب الاسماعيلية ، وأخذوا مذهب الحلول منهم ، ثم أن الإسلام يعتبر من أصول الصوفية الأولى إن لم يكن من أولها ، وبالإضافة إلى ذلك فإن التصوف قد تأثر دون شك بالعناصر الأجنبية فأخذت الصوفية عن النصرانية نظرية الحب الآلهي ، كما قيل إن لباس الصوف من أصل يوناني وأن نذور الصمت وحلقات الذكر يمكن إرجاعها إلى مصدر نصراني ، وتأثر التصوف كذلك بالافلوطينية الجديدة عن طريق الترجمة والنقل والاختلاط مع رهبان النصارى في الرها وحران ، كذلك تأثرت الصوفية بالمعرفة Gnosis or Gnosticism ، ويمكننا أن نلح هذا الأثر في أقوال الصوفية أنفسهم ، فلقد قال الكرخي « التصوف معرفة الحقائق الآلهية » ثم أن الرأي القائل بأن الكور سائر على نظام النور والظلام ، واعتقاد الرفاعية في « الحجب السبعة آلاف » كليهما مأخوذ عن نظرية المعرفة . كذلك تأثر التصوف بالبودية ، فما استعمال المساجح في الصلوات وتشديد الممامات إلا مقتبسات عن البودية كما أن « نظرية الفناء » هي أيضاً من تعاليم البودية .

ويحسن في ختام موضوعنا هذا أن نورد شيئاً عن نظام التنكيا في التصوف ،

تاريخ الرجال . . .

لفضيلة الأستاذ الشيخ إبراهيم أبو الحسب

المدرس بكلية الشريعة

قد يضيق الرجل منا ذرعاً بصديقه فيقطعه إلى غير صلة ، ويفارقه إلى غير لقاء ، متناسياً ما يوجهه دينه عليه ، من النهي عن هجران المرء لأخيه فوق الثلاث ، أو متغافلاً ما يلحظه من لوم اللائمين ، وزيارة الناقدين ، لأن الصداقة والعداوة من الأمور التي ترجع إلى المزاج والذوق ، والإحساس والعاطفة ، وأصعب محاولة يحاولها الإنسان التغلب عليها ، والإرغام لها ، وعدم النظر إلى ما يلائمها ، لأن كبت رغباتها ، ومحاربتها في شهواتها ، قتل للروح ، وموت للوجدان . وهيات أن تكون للحى حياة بعدها ، أو يشعر من نفسه بالطموح بدونها .

لما لذلك من الشبه بنظام الديرة في المسيحية . يقول المقرئ ، إن الخانقاه قد دخلت الإسلام إبان القرن ٥٥٠ (١١ م) ويقال إن أبا سعيد بن أبي الخير ، هو مؤسس التكايا . وفي هذه الأمانة يجتمع الشيوخ ومريدوهم ، الذين يملكون بدور الارتضاع ثم العظام ، وتضم هذه التكية رجالاً من مختلف الأعمار والمقدرة ولم قاعة عامة للصلاة تسمى بيت الجماعة ، ومن يرد الانضمام لهذه الزمرة ، فعليه أن يتخلى عن أمواله وممتلكاته للجماعة ، ويخضع لنظامها من تكرار الذكر والصلاة ، ومن أم هذه الفرق التي نشأت على نظام التكايا : الرفاعية والبكتاشية والتماديرية وغيرها ، والمهم هو أن الناس أصبحوا لا يفرقون بين الشعوذة والدين والعلم ، واضطر علم الشريعة إلى نوعين : نوع اختص به الفقهاء وأهل الافتاء ، والعبادات ، ونوع اختص به الصوفية من مجاهدة ومحاسبة والكلام في المواجهات والأذواق وكيفية الترقى وشرح الاصطلاحات التي تدور بينهم (١) ، وألف بعضهم في الورع والمحاسبة كالقشيري والسهورودي ، ولما جاء الغزالي دون النوعين في كتابه المشهور ، إحياء علوم الدين ، فكتب في الورع والافتداء وآداب الصوفية وسفها وشرح اصطلاحاتها ، ومن هنا صار التصوف علماً ،

ولهذا يحسب العقلاء الحساب للصدقة ، ويوصون بعدم التهاوت عليها ، والإسفاف فيها ، ويقولون إن صديقك عرضك ، فتخيره عن يسمون بشرفك ، ويرفعون قدرك ، ويعلمون منزلتك ، ويعززون جانبك ، وينصحون لك ، ويدلونك على مواطن الخير ، ومواضع النبل ، ومدارج السكال .

وهناك صديق لا يستطيع المستطيعون خلقه ، وليس في إمكانهم التخلي عنه ، ولا التخلص منه ، والهجران له ، وربما كانت المضاضة في مرافقته ، والتنقيص في مصاحبته ، والالام في زمالته ، وكم ود الناس لو يهجرونه إلى غير اناء .

ومع ذلك فهم يظنون في نومهم ، ويسبحون في خيالهم ، ويعرفون في أحلامهم ويتبعون في صحراء أوسع من وادي الياه ولا يعلمون أنه ، التاريخ ، لا يرحم صاحبه ، ولا يجاني رصيفه ، ولا يفضي لمن يستهتر به ، ويتهاون فيه ، وأن حياة الامم والجماعات ، قد ينطلي عليها الرياء ، ويروح فيها السكذب ، وينفق في ساحتها سوق التفاق ، أما حياة الأفراد فلا يفتقر لديها التويه ، ولا يصح فيها المداجاة ، ولا يحسن أن تقوم على الباطل ، لأن الفرد هو الذي يكتب صفحاته ، وينقش سطوره ، ويعلى على الزمن حوادثه ووقائعه ، وهو مسئول - لا محالة - أمام الله . يوم ينظر للمرء ما قدمت يداه .

بخلاف الشعوب حين تسف ، والدول حين تنزلق ، والأجيال حين تنحدر ، والفرق بين المعنيين واضح التباين ، ظاهر المناقاة ، ولذلك يقاسي الناس الذلة التي يشترك فيها الجماعة ، لأن الذي يحمل وزرها شخصية معنوية ، ولا ينسون الذلة التي تقع من الفرد ، مع صرف النظر عما يترتب على هذه وهذه من الإضرار والإفساد ، والأذى والتسكيل ، والإيلام والكيد ، وفوات الفرصة ، وضبايع المصلحة .

ولذلك يعنى المربون بالواحد ، أكثر من عنايتهم بالبيئة ، ويهتمون به أولاً وبالذات ، كنواة ضرورية ، وحجر أساسي ، ونرى الشارع الحكيم ، في توجيه الواجب ، وإلزامه بالتكاليف ، بصريح في آذان المسكفين واحدا واحدا ، ولا تزر وازرة وزر أخرى ... كل امرئ بما كسب رهين ... لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ... ولا يحق المسكر السوء إلا بأهله .

وما ذلك إلا لأن الأمل المعلق على الشخص بذاته أعظم من الأمل المعلق عليه دائراً في بني جفسه .

والرجل هو الذى يصنع تاريخ نفسه من غير شك ، ويملا صفحاته بما يحدث من أحداث ، أو يأتي من وقائع ، أو يفكر فيه من خير أو شر ، فأما من أوتي كتابه يمينه فيقول هاؤم اقرؤا كتابه إني ظننت أني ملأت حسابيه ، فهو في عيشة راضية ، في جنة عالية ، فطوفها دابة ، كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية . . . وأما من أوتي كتابه بشماله فيقول ياليتني لم أرت كتابه ، ولم أدر ما حسابيه ، ولذلك يرشده النبي صلى الله عليه وسلم أن يحاسب نفسه قبل أن يحاسب ، ومن نوقش الحساب هلك ، ويعلمه أن يتعط بالماضي ، حتى لا يلدغ من جحر مرتين ، وأن ينظر إلى ما ينكره من سواء فلا يقارفه ، والدين النصيحة .
وأن يشاور في أموره ، ومن شاور الرجال شاركها في عقولها ، بل إنه جعل هذه الفوضى من صميم الإسلام .

وأصل ذلك كله أن يكون له ضمير يحذره ، وعقل يناصره ، وعزم يؤازره . . . وهذه ليست من السهولة بحيث تتأتى لكل مرتاد ، وتتقاد لكل طالب ، وبخاصة الأول منها لأنه نتيجة التربية من البيت إلى المدرسة إلى البيئة . . . ولذلك تختلف الضمائر إلى بارزة وحافية ، ومريضة وصحيحة ، والويل لمن يموت فيه ذلك الحارس ، أو يفعل عنه ذلك المراقب . . . وكما أن الجسم يقوى بالغذاء ، ويصح بتجنبه لمحاول الهدم والهلاك ، فكذلك الضمير غذاؤه التقوى ، ينمو بها ، ويشب عليها ، ويزيد تمسكاً وسلامة ، ومنعة وصلابة ، بحيث يحارب نوازع الشر ، ونوازع الطغيان . . . ولا يزال هكذا صحيحاً ، كلما دامت مراقبته . . . ولذلك كان من سنته سبحانه الابتلاء ، لا يعرف من الناس مالم يكن يعرف ، ويعلم على ما كان خافياً ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ، ولكن ليحفز المسلم بهذا إلى أن يرجع بنفسه إلى ضميره ، ليرى هل تغافل عن إيمانه فتزعزع ، أو سها عن بنيانه فتهدم . . . والمصائب في لغة الشرع تسمى المحن ، لأن صاحبها يمتحن بها ، فإذا جازها بنجاح ، وتحطها بجلد ، وانتقل منها بفوز ، كان من أبطال التاريخ . أما إذا انكشف بها عن ضعف ، وظهر منها عن خور ، وانتقلت به إلى سقوط ، كان أشبه بالحيوان الأعجم ، لا تاريخ له إلا في حياة البهائم . . . فليظن الإنسان إلى أن الله كثره ، وليعتبر بغيره من الناس ، وليحاسب نفسه ، وليكن له ضمير المؤمن ، وعقل المكرين ، فإنه هو الذى بنى مجده .

الإسلام والاشتراكية

محاضرة الأستاذ سعيد زهير

لا سبيل إلى إحراز السلام والاشتراكية عن طريق أسنة الزمناح بل يمكن ذلك بفضل تقدم الطبيعة الإنسانية . ولم تصبح أوروبا حتى الآن في نبد النفوذ الأخلاقي الذي بسطته آسيا ولكن لا بد لتسرد آسيا سلطانها من ميلاد محمد ثان ، والظروف التي تكثف العالم تتطلب ظور عبقرية قوية تربط بين القوى المادية والروحية ولعل هذه العبقرية تولد في أي حين فالتاريخ يصطنع أمثالها . وأوروبا تبذل قصارى جهدها لتجعل آسيا باقية تحت سيطرتها الدائمة ، ثم إن أوروبا وقد خشيت التقدم العجيب البارز الذي أحرزته جزيرة صغرى كالاليابان تتردد اليوم في السماح لآية دولة أو أمة أسيوية في تنمية مواردها المادية وزيادة قواتها البرية والبحرية التي بفضلها صارت لأوروبا اليد العليا على آسيا ، وأوروبا لا تدع لآسيا متفصا تتمكن فيه من إصلاح حالها لأنها تعلم أنه لن يمضي وقت طويل على اندماج آسيا من الناحيتين المادية والروحية حتى تقف أمام أوروبا وجها لوجه . وإن المسلك العنيف الذي اتخذته بعض الدول الأوروبية إزاء تركيا وإيران والصين عندما أبدت هذه البلاد علائم النهوض وحاولت أن تطبق الديمقراطية لدليل واضح على أن أوروبا لن ترغب طوعا في السماح لآية دولة أسيوية بأن تقوى نفسها ويكون منها اليابان الثانية سواء في آسيا أو إفريقيا . فلفقد قلب الدهر لمراكش ظهر المجن ، وسيفعل كذلك إيران ، وطرابلس على أبواب نضال ومصر في وضع سيء .

ولم تنض مضامح هذه البلدان الإسلامية كلها إلا لأن أوروبا لا يسعها أن تنظر إلى قيام حركة إسلامية جامعة ولهذا فقد عقدت العزم على أن تقتلها في مهدها . ولا شك أن أوروبا تتمتع بأعظم قط ممكن من قوتها المادية غير

أن الطبيعة الإنسانية حتى ولو كانت طبيعة الأوروبيين تنطوي على شيء إلهي ، ومن شأن تقض المبادئ الإنسانية الأدبي على أيدي الأوروبيين أن يكون له صدى فيهم ويثير كثيرا من الذين سينحازون إلى جانب الآسيويين ومساعدتهم على إقامة السلام والاشتراكية العالمية عن طريق القوة الروحية . وقد اقتنع الآسيويون بأن الدبلوماسية الآوربية الحاضرة هي وحدها القوة التي يعتمد عليها . لا ريب في أن مستقبل المسلمين إذا قيس إلى ماضيهم القريب ليس مزدهرا غير أن آسيا في وسعها أن تنجب رجالا مثل بوذا والمسيح ومل محمد عليه الصلاة والسلام ، ولا شك أن إنجاب مثل هؤلاء الذين لا يوجد في أوروبا نظير لهم ميزة عظمى وميراث لآسيا . وقد أثار الهجوم الذي شنه رجال السياسة الأوروبيين على آسيا اشمزاز المستعبرين من أهل آسيا على الحضارة الآوربية . ولا سبيل إلى التحدث في مثل هذه الظروف عن الاشتراكية فالأوروبيون الذين يتوقون حقا إلى اشتراكية عالمية ينبغي لهم أولا أن يوجهوا نشاطهم إلى المساواة في حقوق الإنسانية ، ولن يمكن أن نتاح للاشتراكية فرصة للنجاح ما لم يأخذ العالم بنصيحة الشاعر الأمريكي العظيم لويل ...

وينبغي أن تتألف الحمية التي تستظل بهيئة تسلمهم العبقريّة الاشتراكية لحماية حقوق الإنسانية من كل معتد أوربياً كان أو آسيوياً أو أمريكياً أو إفريقيّاً ، ويجب أن تهتم في كل قطر بمجتمعات مهمتها تغذية الاخوة المتبادلة وتقويتها . فهذا وبهذا وحده تنجح الاشتراكية ، والامة الإسلامية خاصة أهل لتحمل رسالة الاشتراكية ، وبالرغم من أن المسلمين قد أصابهم ضعف مثل سائر أهل آسيا فإنهم ينطوون على الروح الذي يعد لازماً لتقدم الاشتراكية ، وقد بينت الكوارث الأخيرة التي أنزلتها أطلاع أوروبا بالعالم الإسلامي مظهرين من مظاهر الصحة التي يتمتع بها المسلمون .

أولها أنه لا تزال توجد نقطة يتجمع فيها العالم الإسلامي أو مركز تلاقى فيه قطار دائرهم ، وقد كان أول أثر تركته الوحشية التي أنزلتها إيطاليا بطرابلس

في أنفس المسلمين هو أنهم توجهوا إلى أحكم الحاكمين الذي تسعد الأمة الإسلامية خليفته في الأرض والذي يجب أن يكون تمجيد اسمه وصفاته جل شأنه هو الغاية من حياة كل مسلم .

والظاهر الثاني من مظاهر الصحة التي يتمتع بها المسلمون هو ذلك التعاطف الذي يشعر به المسلمون نحو إخوانهم في الدين من أهل طرابلس وإيران ، وهذا يدل على العواطف الحية القائمة على المودة والأخوة بين الأفراد والتي تعد الأساس الحقيقي للإشتركية لم تمت في نفوس المسلمين .

ولو أن هاتين الظاهرتين أشدت ساعدهما وأصبحتا حقائق واقعة لكان نصر المسلمين أمراً محققاً فكون الجماعات ذات هدف مشترك في الحياة وكونها مرتبطة بعمرى مشترك من الأخوة فضائل اشترائية ذات قيمة عظيمة ، ولو أن ثقتنا بالله قوية ولو أن شعورنا بالجامعة الإسلامية تأصلت جنوره في قلوب ثلثمائة مليون من الأنفس التي تسكن بقاعاً مختلفة في الكرة الأرضية لوجدت الحضارة من ذلك كله دافعاً عظيماً ولمضت قضية الاشتراكية في خطوات واسعة إلى الأمام . وينبغي للمسلمين أن يعملوا على تحقيق فكرة الرصيد القوى أو يحيا نظام بيت المال القديم ليتسنى هذا المشروع الدفاع عن الإسلام والممتلكات الإسلامية المستقلة التي يجب أن يرى كل مسلم أن من واجبه المساهمة بتصيب من دخله في سبيلها ، وكان ينبغي أن تكون كل قطرة دم أراقها الإيطاليون في طرابلس أو الروس في إيران رابطاً يوحد بين قلب المسلم والمسلم في أنحاء العالم ، ويظن كثير من الأوروبيين - على ما يبدو - أنه من المتعذر تحقيق النظام الدستوري في ظل الإسلام غير أن الذين على علم بروح الديمقراطية والاشترائية المتأصلة في الإسلام يعجبون من جهل الأوروبيين بالإسلام ، ثم إن كثيراً من الكتاب الأوروبيين يتخذون من الاضطرابات التي وقعت في تركيا وإيران أمثلة على أن النظم الدستورية غريبة على الإسلام . إلا أن هؤلاء المفكرين يفسون كم من السنين مرت بها بلادهم المحترمة وهي تعاني الموضي وإراقة الدماء قبل أن تتجح في إقامة النظم الدستورية النافذة التي تسود معظم البلدان الغربية .

من رسائل الازهر في الريف :

درس عملي في الزكاة

محاضرة الاستاذ ابراهيم علي شعوط

المدرس بكلية اللغة العربية

في ليلة من ايام الصيف عام ١٢٦٥ هـ شمل القرية هدوءها المألوف ، وفيها الليل بثوب أبيض شفاف ، صنعته الصبر من فضته المعهودة حينما ينتصف شهره العربي . ونام شباب الريف في أحضان الطبيعة الجميلة ، واتخذوا من أجرا الفصح وسائد وحشايا ؛ وحين استسلم كل من الفتيان والفتيات الى حله الجليل ، روعتهم صيحة المدعورين ، واستغاثات الحراس . فهب التوام يهرولون على غير هدى ، وصارت كل جماعة تضرب الى ناحية باحثه عن مصدر الفزع . ثم اتضح أن هناك حريقا اندلعت ناره في قح أحد الاغذية المعروفين في القرية .

وراح الذين كشموا هذا الخبر من شباب القرية الفقراء يرجعون الى ديارهم ؛ وكلما صادفهم مدعور من أمثالهم يجرى الى مصدر الصباح ردوه بقولهم : إرجع يا أخى ، وخفف عن نفسك . إن هذا الحريق ، وتلك النار في قح فلان . فيرد عليه قائلا : زادها الله اشتعالا ، واستفحالا ؛ ياليتها اشتعلت في بيته ، أو في جسمه هو وأمثاله من الاغذية الانحاء . إنه لم يك من المصلين ، ولم يك يطعم المسكين ؛ وليس في ماله حق معلوم للسائل والمحروم . ما فرج كربة عن مكروب ، ولا واصل فقيرا ، ولا عطف على بائس .

ارجعوا يا قوم إرجعوا ؛ فإنه انتقام من الله ، ودرس للعصاة . إنه يضن على الفقير والمسكين بنصيبه ؛ فكان جمع ماله طعمة للنار ، وعرضه للبوار .

وراح الفلاح الساذج يرسل من زقرات قلبه أنات مكبوتة مزوجة بروح من الدين ، والرجوع الى الله إعترافا بأن ما آمن به حق من آيات الله وشريعة رسوله . وكنت أسمع ذلك وأنا في طريق الى النار المشبوبة ، التي عقد دخانها سحبا كشيعة في سماء القرية فبدأ عليها روح الانتقام من السماء ، وآيات الغضب من رب السماء .

وحملت نفسى إلى مكان الحريق لأرى : هل ترك حقيقة يأكل تراث الغنى كله أم إن هناك من تطوع بإحماده والقضاء عليه من شباب القرية العامل ككادح ، الذى يعتمد عليه في مثل هذه الملمات ؟

وليس للأغنياء ، ولا أشباه الأغنياء عمل في هذه الحالات إلا الأمر والتوجيه للفئة الفقيرة العاملة الكادحة التى تعتبر بحق عدة القرية : بل عدة الريف المصرى جمعية في أمثال هذه التوازل ، وتلك الملمات ، بل عدة الوطن كله في حماية الأرواح والأموال ، والسهر على مرافقه ، وكرامته من عدوان مفاجيء ، أو استغلال مييت .

ورحت إلى مكان الحريق ، فلبست ظاهرة تفسر مقدار ما انطوت عليه قلوب الفقراء من حقد وكرهية للأغنياء البهلاء : رأيت فرق الشباب التى وقعت نفسها لمحاصرة النيران قد انفقوا فيما بينهم عملياً على أن يحرسوا أموال الكرماء والفقراء ، ويمنعوا النار أن تضر بها : على أن يكون ذلك على حساب صاحب القمح الذى تأججت فيه النار . وطريقة الريف في إطفاء الحرائق هى حصار يضرب على النار بإخلاء ما حوّلها وإبعاد المواد التى تمدّها بالاشتعال : فلما هم هؤلاء بنقل كيات كبيرة لم تصل إليها النار من القمح وعزلوها عن مكان اللهب ، جاء جماعة آ-رون لينتقدوا ما يمكن إنقاذه من أفواه السحير ليصيفوها إلى السلم المعروف : وكانوا يتعمدون أن ينقلوا الشرر بهذه العملية إلى الناجى من القمح ، فلا تلبث أن تلتهب الخدوة المنقولة فيما نجا من مال فينطلق الصياح من هذا الجانب : يا قومنا أدركوا النار . في أسلوب ساخر لا ذع ، له مغزى يفهمه الأغنياء والفقراء .

وهكذا لم تدع النار لصاحب القمح شيئاً ، وعاد الفتيان وفي أفواههم عبارات التشفي ، وفي قلوبهم راحة لما حدث ، وتسبح بحمد الله بعباراتهم الريفية البريئة وهى قولهم : « يا ما أنت ياربى كريم » .

عاد الناس إلى مضاجعهم وقد حدثت النيران التى روعتهم ، لنشعل من جديد في نفسى لوجود تلك الروح بين الأغنياء والفقراء . فأردت أن أعرف من هؤلاء العمال والأجراء الأسباب التى جعلتهم يضررون في قلوبهم هذه المعاني لهذا الصف من الأغنياء . وجمعت مجلس بعدد كبير منهم أسواي ، وارتاحوا إلى حديثي : فكانت الزفات والانات تترجم إلى هذه الجمل ، وتلك الكلمات : إن الغنى الكريم نفديه

بالروح، وتنصب من أنفسنا حراساً على ماله وتتمنى له البركات التي تضاعف ثرائه، وتحفظ أنامه من كل مكروه. ولماذا يرضى الغنى بحق الفقير في ماله وهو الذي قام على هذا المال فناء ورعاه، وتعهده حتى تضاعف واتخذ سبيله إلى جيب الغنى وخزائنه؟ ألسنا نحن الذين وضعوا مجهودهم تحت تصرف الأغنياء والوجهاء فهم في ساعة الكوارث وعند الملمات يأمرتنا بقطع، وينسلطون علينا باسم الإنسانية فنبلى؟ نحمل موتاهم على أعناقنا إلى مقبرها الأخير في حمارة الفيظ، وزمهرير البرد ونبكي على هؤلاء السادة - أو نقباكي - حتى نعلن أننا وهم في الكارثة سواء. ونصطف على أبواب السراقات الأنيقة الفخمة في ولائهم. وعزائهم لربط المطايا، وإعداد الركائب للوافدين والمعزين. ثم نحن الذين نصب الماء على أيدي الآكلين للطعام الشهي وليس لنا منه نصيب. ونلقى بأنفسنا في النار إذا أصاب مالمهم مكروه لنحفظ عليهم المال والجاه رجاء أن ينالنا منه حظ قليل. وهكذا طال بذلنا للجهد، ودفعنا للعرق والدم في كل مناسبة تلبية لنداء الغنى الذي يستنحنا فيه باسم الإنسانية والإسلام. ولكن الأغنياء لم يقيموا لنا وزناً، ولم يعترفوا لنا بوجود: خلّفوا في قلوبنا البغص، حتى صرنا نتمنى زوال النعمة التي في أيديهم، فلا ندفع السوء الذي يحيق بهم. فكيف نطالب بعد ذلك بإخماد النار التي تشتعل في مالمهم، ودفع الفرق الذي يحتاج عاصيلهم، وهم بحقنا يبخلون وبكلمات الشكر يرضون؟

وراجعت ما سمعت على ما علت ورأيت في قرى مصر، فوجدت الحق معهم؛ وأدركتني الحسرة على انتشار تلك الروح بين جماعات المسلمين. وتسألت عن العلاج، واتمسكت في النظم الاجتماعية الحديثة كلها فلم أجِدْ لذلك من علاج إلا ما شرعه القرآن الكريم، وما ألزمه المسلمون الأول حين كانوا قادة، ضربوا للناس المثل العليا في الأخوة بين بني الإنسان، في مشارق الأرض ومغاربها.

ليس من علاج إذاً إلا أن يخرج الغنى زكاة ماله فتؤخذ منه لئلا يزداد على الفقير والمسكين، فتترب المسافات الشاسعة بين الطائفتين؛ في الريف نجد الخير كامناً في القلوب؛ ولكن بعته يحتاج إلى توجيه وتحريض، وقليل جداً أن يوجد هناك العناد والتبجح؛ وإن وجد فلا يوجد معه الإصرار. أو الاستمرار، وهم أطوع الناس في مواسم الخير للتأثر بالارشاد، وتلّس ما ينجيهم من عذاب الآخرة، ويرفع

درجاتهم عند الله ، إذا لمسوا الاخلاص في التوجه ، وأدركوا الرغبة الحقة في العمل على رضا مولاهم .

كانت هذه الدعوة في أول يوم من شهر رمضان المعظم عام ١٣٦٥ هـ ، فلما تحدثنا إلى الناس في الزكاة وسمعوا قول الله تعالى (حذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكهم بها) ومرت على أسماعهم العظات في الآيات (وفي أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم) و (كلا بل لا تكرمون اليقيم ولا تحضون على طعام المسكين ، ونأكلون التراث أكلا لما وتحبون المال حبا جما) و (أرايت الذي يكذب بالدين فذلك الذي يدع اليقيم ولا يحض على طعام المسكين) . وجدت القوم كأنهم يسمعون كلاما ما سمعوه ، وأعجبوا به إعجابا تنليديا بحاملة للخطيب والواعظ .

فلما رأيت منهم ذلك قلت لهم : هذا هو الكلام في الزكاة ، وأما العمل فسبداً به من اليوم : ومن حسن الحظ أنكم في موسم حصاد زرعكم ؛ والله تعالى يقول : (وآتوا حنّه يوم حصاده) فإذا أنتم صانعون ؟ خبروني بربكم عن الطريق الذي تريدون أن ترسموه لأنفسكم في العبادة لتكونوا مؤمنين .

يجب أن نحدد موقفنا مع الله ؛ فأما أن نكون مسلمين حقا فنؤمن بما جاء به رسول الله جميعه ؛ وإما أن نخرج أنفسنا من عداد المسلمين ، فنرفض كل تلك التعاليم جملة ، ونسكون بذلك صرحاء مع ربنا غير مناةقين ولا حذاعين . وأنا أعلن لكم هنا في مسجد القرية وفي بيت الله ، أنكم إن لم تخرجوا زكاةكم فلا حاجة لله في صلاتكم ، ولا صيامكم ، وأنكم حين تشهدون بأن لا إله إلا الله دون أن تطيعوه فإنكم كاذبون . والخطوات العملية يا قوم أن تأتوا جميعاً لتتسلوا مني زكاة وأقارب ثم بعد ذلك تريد أن نعلن عن أنفسنا أننا مسلمون كما أراد الله منا الإسلام . فلما رأى الناس الجد في التنفيذ ، وصدق النية في الوصول إلى الهدف المقصود ، أسقط في أيديهم ، ووجدوا أن دعوة الحق إن قام أصحابها بتطبيقاتها على أنفسهم أولا انهارت المقاومة ، وضعف المبطلون . كان عجبا أن يكون شباب القرية من الموسرين أسرع الناس إلى الجهاد في سبيل هذه الدعوة ، فانتشروا في التربة جياة يتحملون الأذى في سبيل الله . وضرب الحصار حول المتخلفين ، وأقيم للحساب سوق في المسجد يعرض فيه أمر المدعين الذين قالوا : إنا أخرجنا حق الله من زمن بعيد .

ومن أجل هذا كان الخير كل الخير أن تجمع الزكاة في مخزن عام ، ويحصى الفقراء والمساكين في السرية وخاصة المتعفين الذين لم يسألوا الناس خسرهم أغنياء .

قدر لأهل هذه القرية أن يجمعوا نخسين أردباً من القمح في المخزن العام ونادى منادى الخير في جنبات القرية : من يرى نفسه أهلاً للزكاة فليحضر في فجر يوم الجمعة أمام مخزن الزكاة ، وكان المحتاجون من الأسر التي أخنى عليها الدهر ، ومنعها كبرياتها من أن تقف على باب مخلوق ، قد عرفوا أنهم إن حضروا أمام المخزن العام ، فإنه لا فضل لسكان من كان على هؤلاء الأفراد ، وليست هنا يد سفل ولا يد عليا أمام الحق المقرر في القرآن .

فتسلل المستحقون والمستحقات ، وخرجوا من كهوفهم مع الليل ليستقبلوا النهار هناك عند المخزن المحبوب . فلما امتد ضياء المعجزة في الأفق الشرقى ، وانتشرت أنواره لمع الندى على الوجوه الشاحبة ، والمناكب العارية ، والهياكل المتداعية كما أنما خرجت من القبور أشباح موقى قد نساهم أهلهم من الدعوات والرحمات . وتسلم كل منهم حقه بالنسيطة ، وحصل على ما يكفيه بنية العام حتى يأتي الحصاد التالى .

ونما في القرية روح جديد من الود الخالص ، والتعاون التام بين الغنى والفقير ، ووجد الحب في كل قلب ، ووضع للبلاد المجاورة رخاء القرية ونعيمها ، فلم يعد يسمع الناس بتلك الحوادث التي تسبب عن الفقر ، ومد الآمان والأمن رواقه في قلوب النعم ، فعاهدوا أنفسهم على المواظبة في إخراج الزكاة وأن يعملوا أبناءهم الخير الذى حصلوا عليه من أداء هذا الفرض كما شرع الله .

هذه قصة الدرس العملى في الزكاة ، قد واظب عليه أهل هذه القرية المباركة إلى الآن ؛ فإن شئت أن تسأل عن القرية فأقول لك أنها [حصّة النعيم مركز قلبي فؤادية] وإن شئت أن تعرف صاحب هذه الدعوة بين أهله في الريف ؛ فأقول لك : إنه كاتب هذه السطور .

المعتمد بن عباد

لفضيلة الاستاذ محمد خليفة

المترجم بالأزهر

ملك غنت حوله دنيا الجبال فشدًا معها ، وكان وترًا من أوتارها سحرته الترانيم
فرجمها الحانًا عدا بآهى وحي النعيم والهيام الخيال .

ولد المعتمد بين أعطاف النعمة ، وعاش بين أحضان أبيه المعتمد ملك أشبيلية
يحال الشعراء ، وينادم الأدباء ، ويركض بين أفياء اللهو ، وينفق بين رنين المظاهر
ويصحو على قراع الكؤوس ، ويمجن ما شاء له شباباه الفض ، حتى توح ملكا
بعد أبيه ، فراح ينعم في ظلال ملكة الوارف ، وابتمست له الحياة وزها له ضحاها
فلم يدع أمنية للشباب الدافق إلا عائقها ، ولا حلًا من أحلام الهوى والشباب
إلا نادمه . تدار عليه الراح في مجلس رقت حواشيه ورقصت جوابه ، فيرى
ساقه غلاما تسيل رفته ويبيض إشراقه فتزخر شاعريته فينفث :

لله ساق مهيف غنج قد قام يسقى لجاء بالمعجب
أهدى لنا من لطيف حكته في جامد الماء ذائب الذهب

وتتمد بحال منخره تحت ضوء القمر فزهو أعطافه وعواطفه ، وتراقص حوله
أفنان الرياض ، وتتلألأ النجوم ، فيلهمه كل ذلك صورة شعرية ساحرة إذ يقول :

ولقد شربت الراح يطع نورها والليل قد مد الظلام رداء
حتى تبدى البدر في جوزائه ملكا تنامي بهجة وهاء
وترى الكواكب كالمواكب حوله رفعت ثرياها عليه لواء

وهكذا كانت حياة المعتمد كلها شعر فهو يصدر ويصور ، ويفتن في الاصدار
والنصوير عن قريحة شاعرة ، فهو لا يحال غير الشعراء ، ولا يستوزر إلا المبرز
منهم ، ولا ينادم إلا عباقرة الأدباء ، فابن زيدون وابن عمار من وزرائه ، وابن
حدين وابن عبد الصمد وابن اللبانه من ندمائه ، وقصوره أندية يختلف إليها كل

من صفت قريحته ورق شعره ، ورحلاته للصيد ولغير الصيد ، لا يصحبه فيها غير شاعر ولو كان من أصحاب الحرف ، خرج يوما للصيد ومعه حاشية من الشعراء فالتقى بجواده في وسط مزرعة بين ضرب شجرة برعه فعلمت به تيلة فالتفت وراءه فإذا ابن حاج الصباغ ، فقال له أجز : كأنها فوق العصا

فقال ابن حاج : هامة زنجبي عصى

وكان يخبر بنفسه الشعراء قبل أن يستصفهم ، وقد حدث ابن حديس الصقل أنه دخل عليه في مجلسه فأمر بطاق ففتح فإذا بكبير زجاج تلوح النار من بايه وواقدهما يفتحهما تارة ويسددهما أخرى ، ثم أدام سد أحدهما ، فقال المعتمد لابن حديس أجز :

أنظرهما في الظلام قد نجما

فقال ابن حديس : كما رنا في الدجنة الأسد

فقال المعتمد : يفتح عذيقه ثم يطبقها

فقال ابن حديس : فعل امرىء في جفونه رمد

فقال المعتمد : فابتزه الدهر نور واحدة

فقال ابن حديس : وهل نجما من صروفه أحد

فأمر له المعتمد بجائزه ، وأضافه إلى حاشيته بعد أن امتحن قدرته على ارتجال الشعر ، وقد بلغ من تقديره للشعر وأهله أنه ركب النهر ومعه ابن عمار وزيره ، فنظر إلى صفحة الماء وقد جعدها النسيم ، فبدت لعينه كأنها درع بحكمة السرد فقال لابن عمار أجز :

صنع الريح من الماء زرد

ففكر ابن عمار وطال تفكيره فبنت جارية غسالة فقالت : أى درع لفنال لو جمد ، فأعجب المعتمد بها وبسرعة خاطرها وتزوج بها وتلك هي اعتماد الشاعرة التي أنجبت له أولاده ، والتي اشتهرت بالرميكية ، وكان لها أثر في اضطغان قلب المعتمد على ابن عمار الذي هجاها بعد فقال فيها :

تخبرتها من نبات الهجان رميكية ما تساوى عقالا

لجأت بكل قصير المنار لثم التجارب عما وخالا

ولم تطلق اعتماد صبرا على هذا الهجاء ، فأوغرت صدر المعتمد وأغرته بقتل ابن عمار ، ففتك به .

غاية المعتمد الأولى حياة كلها هو صارخ وخر وسمير .

أما حياته الثانية فسكها شقاء وبكاء ، بدأت منذ رأى المعتمد أن العرة الإسلامية تأتي عليه أن يدفع الجزية المفروضة عليه وعلى ملوك الأندلس جميعاً للملك الفرنجة ، فلما جاءه الجبابة نكل بهم ومديده يستنجد بيوسف بن تاشفين ملك المغرب فتقدم يوسف بمحيشه الجرار وصددوا ملوك الفرنجة على أشبيلية ، وعاد إلى المغرب ولسكن في النفس هففة وبين الجوانح حسرات على الأندلس على نعمها ومالها وجمالها الذي يقول فيه ابن خفاجة .

يا أهل أندلس لله دركو ماء وظل وأنهار وأشجار
ماجنة الخلد إلا في دياركو ولو تخفرت هذا كنت أختار
لا تحسبوا بعد ذا أن تدخلوا سقراً فليس تدخل بعد الجنة النار

وعز على يوسف أن يملك الأندلس ملوك لا يستطيعون حمايتها أو رد المغير عليها ، ومن ثم فلم يكذ ينتفض ملك الفرنجة على أشبيلية ثانية حتى عاد يوسف لصدده فانتصر عليه ، ثم أعلن خلع ملوك الأندلس جميعاً ، وما كان للمعتمد أن يذعن لهذا الخلع ، ويترك عرشه لبرابرة الصحراء يتعمون به ، بل وقف يحارب أطاع يوسف ويطارده أحلامه ، وقام على أبواب أشبيلية يصول فوق فرسه ويهتف :

أن يسلب القوم العدا ملكي وتسلبني الجموع
فالقلب بين ضلوعه لم تسلم القلب الضلوع
أجلى تأخر لم يكن بهوأي ذلي والخضوع
ما سرت قط إلى القتا ل وكان من أملي الرجوع

واشتد أوار الحرب ، وحصر بأشبيلية وطال حصاره حتى ألقى كثير من جنوده بأنفسهم إلى النهر فراراً من حصار يوسف ، وأخيراً أسر المعتمد ونفى إلى أغمات ، إلى صحراء المغرب ، ووقف ابن اللبانة شاعره في حشد من الناس على ضفتي الوادي ليكون ملكهم الأسير ، وقد خرج مكبلاً بالقيود حيث هتفت شاعرية ابن اللبانة الباكبة تقول :

تبكى السماء بمن رانح غاد على البهاليل من أبناء عباد
على الجبال التي هدت قواعدها وكانت الأرض فيهم ذات أوتاد
وكعبة كانت الآمال تخدمها فالיום لا عاكف فيها ولا باد
ألقى السلاح وخل المشرفى فقد أصبحت في لهوات الضيفم العادى
ومخرت بهم السفن بين نواح الاندلسيين وبكائهم إلى المغرب ، إلى الصحراء
إلى قرية ليس فيها شيء من سحر الجبال الذى كان ينعم به فى الاندلس تحت حراسة
جند لا يرحون ملكا تنكرت له الايام ، وازورت عنه آمال الليالى ، وراحت بناته
ينزلن للناس ، ويخدمن لياكلن .

وكم آلمته ذكريات الماضى وأمره ونبيه وقيوده التى رست فيها الناس فقال :
قد كان لنعبان قيدك فى الورى ففدا عليك القيد كالثعبان
قلبي إلى الرحمن يشكو به ما غاب من يشكو إلى الرحمن
وأنة ليتفجع وقد طبقت أنباء أسره الآفاق ، وأنى له الصكاك من ذلك القيد
الذى لا ينى عن عضه حتى ورمت فيه رجلاه ويذكر مع هذا سيفه وفتوحاته فيقول :
قد ضاق صدر المعالى إذ نعت لها وقيل إن عليك القيد قد ضاها
أنى غلبت وكنت الدهر ذا غلب للغالبين ولللباق سباقا
وهكذا لا يفتأ المعتمد فى منغاه يبكى ثقل القيود ويندب عز البنود وأنى يحمى
البكاء أو ينفع التوجع إنه ينظر الى الطليق من الطير فيتمنى لو أصبح طليقا من
قيوده ينعم بما ينعم به الناس ويمرح كما يمرح الطير .

ويرى قرية تتوح على هديلها فوق الفن فتذكر من فقدم فى الاندلس من أبنائه
وأصحابه فثار الاسى فى نفسه لحاوب القمرية نوحها ورجع صداها فقال :

بكت أن رأت إلفين صهما وكر مساء وقد أخنى على ألفها الدهر
وماحت فباحث واستراحت لسرها وما نطقت حرفا ييوح به سر
بكت واحدا لم يشجها غير فقدته وأبكى لآلاف عديدهم كثر
وهكذا كانت حياة المعتمد الثانية دموعا وبكاء وزفرات وأنات ، يصدرها
شعرا داما يديب الأكباد ، حتى أسلم روحه لا بين صليل السيوف بل بين صليل
القيود ، ودفن فى أنعام وبقيت مأساته تهيج الحواطر وتثير المشاعر ، ولم يعدم
وفيا من شعرائه المخلصين يتسلل فى يوم عيد فينف على قبره يرثيه ويكيه ويناديه .

أعلام الأندلس

السيد على الدرويش المصري

(المتوفى سنة ١٢٧٠ هـ - ١٨٥٣ م)

نفضية الأستاذ محمد كامل النقي

المدرس بكلية اللغة العربية

نشأته وحياته:

هو السيد على الدرويش بن حسن بن إبراهيم الأنكوري . ولد ونشأ بالقاهرة في غرة شهر المحرم سنة ١٢١١ هـ ، ولما شب ألحق بالأزهر ، فتلقى علومه على جلة من شيوخه ، وكان منذ صباه ميالا إلى الأدب وفنونه ، فأقبل على كتبه بغذى ملكته بقرائنها ، وقلب في كتب اللغة فعرف أسرارها ، وكان هواه إلى الهندسة والحساب أيضا فأجال فيهما نظره ، ثم أنه تفرغ للكتابة وقرض الشعر ، وحرر الرسائل ، واشتهر بصناعة المواليا والموشحات حتى أصبح شاعر المرحوم عباس الأول .

وكان غنيا بماله وعقاره عن التكسب بشعره ، معروفا بميله إلى اللهو والطرب ، فزير المدح لمن يحبه ، لاذع الهجاء لمن ينفضه ، ولعله امتاز بهذين عن الشعراء الأزهريين الذين لم يكونوا في ذلك مسرفين ، كما كان حاضرا البديهة ، وكانت وفاته في السابع والعشرين من ذي القعدة سنة سبعين ومائتين وألف من الهجرة .

شعره:

عصر الدرويش عصر صناعة وزخرف ، وكلف بالبدیع ، على تفاوت الشعراء في ذلك ، ولو أن الدرويش اقتصر في شعره على اللفظ الذي تناوله المعاصرون له من الصناعة والمحسنات لكان من أجودهم شعرا ، إلا أنه أغرق في البدیع ، وكلف بالزخرف .

فن جناسه الذي يستعمله في شعره قوله :

أيام أفراح هي الحسن صدق الذين بأنها بمن

فالجناس بين النسي والنسي وهو متكلف إلا أنه غير موغل في الثقل .
ومن الطباق الذي يستعمله في شعره قوله :

بيت جديد قديم المجد عن سلف بسعد أنجالهم قد شرف السكن
فقد طابق بين (جديد) و (قديم) ، وقوله :

فكم قالت لها الأخرى هلى وكم قالت لها الدنيا ثانى
فقد طابق بين الأخرى والدنيا ، ومن أنواع البديع التي يستعملها في شعره
مراعاة الظهير كقوله :

لم جامع من غير باب ، فكم عوت عليهم من المحراب في الصبح جردان
إذا سجدت حيطانه فهي ركن وتسمع تسبح الحصا منه سقفاً
وقد جمع سقف على سقفاً والصحيح سقف وسقوف ، وما أولع به من
التورية في شعره قوله في ملبح اسمه رضوان .

قد أكثر البعض في إنكاره سفا يوم القيامة جنات ونيرانا
فأبطل الله في الدنيا أدلتهم لما أراهم من الجنات رضوانا
فيحتمل أن يكون أراد (رضوان) عازن الجنة ، أو الملبح المسمى ، رضوان .
أو الرضوان مصدر كالرضا من رضى ورضوان من الله أكبر .
وهو يغرى بالبديع أيضاً في الموشحات و (أدوار) الغناء قراء يلتزم الجناس
فيها ، ويستعمل التورية ما استطاع ، كقوله .

بالفاتك الفتان ناسي ، ناسي ، أهواء

وخده النعمان كاسي ، كاسي ، آه ، واه

فقد أوقع الجناس بين ناسي اسم فاعل من نسي و (ناسي) بمعنى أهلى ،
وأوقعه بين كاسي اسم فاعل من كسا ، و (كاسي) التي هي إناه الخمر مضافة إلى ياء
المتكلم ، كما أوقعه بين أهواء ، فعلاً بمعنى أحبه ، وآه وواه اسمي فعل بمعنى أنالم ،
وفي ذلك من التكلف والتشدد ما فيه .

ولوعه بالتاريخ الشعري :

وهو مفتون بالتاريخ الشعري ، وما زال يستعمله في شعره حتى عرف به ،
ومهر فيه ، « حتى ما كانت تمر به حادثة إلا أرخها عفو الساعة » (١)

فمن ذلك ما قاله يؤرخ به إنشاء قنطرة .

إنشاء معدوح الملا من عدله الدنيا ملا
أعنى الوزير محمدا رب المحامد والولا
لقبولة قد أرخوا إنشاء قنطرة الملا

ومما قاله يمدح به المرحوم محمدا عليا ويؤرخ لامتحان المدارس .

أيجهد في سوى العلم المعاني ومعنى الاس إدراك المعاني ؟
كفاني أن رب العلم باق على الدنيا وهل باق كفاني ؟

فهذه أبيات حشد الشاعر فيها ما قدر عليه من أنواع البديع المشدود ، وأنواع
الصنعة المتكلفة المستكرهة حتى لكانها مقصده الأول ، وغرضه الاسمي ، لجأت
لغة مقفرة من جمال الشعر .

ومن شعره الذي فيه شيء من الطرافة وحسن السبك ما قاله من قصيدة يعتذر
بها للشيخ البديري .

بدر صفا بعد تكدير النوى فيه وجادلى بعد أن زالت نوافيه
فروح الروح واغتم نور بهجتها بمفرد قد سما عن يحاكيه
وقال مضمناً :

وغادة غار منى زوجها فعسى يريد قتلى وفي أحشائه حرم
يا زوجها كف عن قتلى مساحنة بينى وبينك لو أنصفتى رحم
وقال يتنزل في قصيدة طويلة :

تعالى من أعار الغض ليناً وأحرم من خباء العازلينا
بهنا العاشقون بطيب عيش فما أحلى عذاب العاشقينا
سعدنا بالنواصل بعد هجر وقد كنا بمجفونه شقينا
فقل للصابرين على هواء دعوا العذال فيما يفتروننا
فإنا في هواك عبيد رق على حب وما كنا سيينا

وهذه أبيات تمثل غزل العلماء الجاف ، ولكن الدرويش لا يحلو أحياناً
من شعر مقبول ، ونظم على طرف من الجمال والحس ، ويظفر بذلك كلما تحرر من قيود
التكلف ، وآثر السهولة والتطلق .

ومن ذلك قوله :

ألا محب يلاقيني أطارحه هوى حبيب منيع الدار نازحه
رأيت في الفصن شيئاً من رشاقته فكدت من فرط أشواقى أصاغه
ومن شعره المذهب قوله :

لقد كان لي قلب تعض لؤلؤاً من الشعر مسبوك النظام أنيما
فلما حللت فيه حاولت نقله فأخرجته من ناظري عنيما

* * *

وقد جمع تليذه مصطفى سلامة النجارى شعره ونثره في كتاب سماه « الأشعار بحميد الأشعار » ، وطبعه على مطبعة الحجر سنة ١٢٨٤ هـ . ورتب الديوان على ثلاثة أبواب الأول في الصناعات مرتبة على السنين ، والثاني في غير المصنع مرتباً على حروف الهجاء ، والثالث في النثر والأدوار .

أما نثره فهو صورة من شعره في التكلف والتعسف ، يلتم فيه السجع حسن أوساء ، ولولا ما كانت تجرّه إليه الإيحاء من الحشو والخروج ، لعد من كتاب الطبقة الأولى في مفتي ذلك العهد ، (١) .

وقد تضمن نثره الباب الثالث من « الأشعار بحميد الأشعار » وله مقامات ورسائل فيها روعة ورصانة .

ومن مؤلفاته كتاب الدرر والدرك ، وهو كتاب وضعه في مدح من اشتهر في أيامه بكرم الصفات وجميل المزاي ، وضم ذوى الدنيا والمثالب ، على ما هداه ميله وأوحى إليه عقله . جعل الدرج للدوحين ، والدرك للدمومين . روى تليذه مصطفى النجارى أن هذا الكتاب استعاره منه صديقه حافظ بك مصطفى ولم يردده . وله كتاب آخر اسمه « تاريخ محاسن الميل لصور الخيل » ، وهو كتاب وضعه تلبية لرغبة الخديو عباس الأول ، ذكر فيه محاسن الخيل ومساوئها ، وله رحلة لم تطبع ولم يتيسر الاطلاع عليها . وله سفينة الآداب ، استعارها منه صديقه على أغا الترجمان ولم يرددها .

(١) أعيان البيان للتدوين ص ٤٧ .

عجالات في الأدب :

كبرياء القلم

نفسيد الأستاذ كامل محمد محمود

مدرس بالأزهر

الأقلام معادن منها الحر الخالص للصدق ، ومنها العبد الذي يسخر ويصرف في شئون من يملك نواصيه ، ويقيد أقداره ، ويذلله كما تذل الدابة ، ويرسله لإرسال السائمة ، وربما جلب حتمه بلعاب شبابه وتجوّر زبوه أو اندفاعات نزواته .
والقلم حرفة وهواية ، وهو مع ذلك رسالة تقوم على المواهب ، وتنبع من أعماق النفس الصافية ، وعالم الروح المنطوى على مثابه ، لا ندري من أمرها إلا الآثار التي تدل . . والمبدعات التي تشهد . والله في خلق الأقلام شئون ، وما يعزب عنه القلم الضال ، ولا صريف البراع المهتدى ، والأقلام منها النقي والفاجر ، ومنها الضاحك والباكي ومنها القوى والضعيف ومنها الغنى والفقر ، ومنها المترفع والمسف ، ومنها المتعالي والمتطامن .

* * *

ولن تقلب آثار القرائح على اختلاف ألوانها وأزمانها وأوطانها ، إلا وجدت نتاج الأقلام مقسما كما وزع الله المواهب على النفوس ، وكما أعطى الحفظ .
وكل قلم ميسر لما يراه الله له ، فلا عتاب ولا ملامة .

والأقلام الحرة تجوع في سبيل فنها وإبداع نتاجها ، ولا تأكل بتسخير لعبها وتوزيعه على مطالب الهوى وشهوة النفس التي تلعب بها الأهواء ، وتراقص بنوازعها الأغراض المسفة والمتع الزائلة ، واللهفة على الشهرة المجلوبة .

وناشئ الأقلام من أبنائنا يحد القدوة بين يديه ممن يشرفون على تفهيل غضارته الإنسانية . وما ينبغي لنا أن نمكن للعدوى السيئة من النفث في صفوف

الطلاب ، ولكن والأسف يقطر زفرات ويكاد - لولا الحياء - يسيل عبرات ... كثيرآ ما نجد في حصص ما ينشر ، ومسف ما يكتب ونازل ما يحتر صحفا لا حظ لأقلامها من صدق الفكرة ولا سمو الغرض ولا الإمعان وراء الإبداع الفني والصوغ اليباني .

ولأنما هو احتطاب للألفاظ وسوق للكلمات و (نسويد) لوجوه الصحائف بما يبرأ منه ، الأدب الرفيع ، والدين الصادق ، ومرد هذا شهوة الشهرة وقلة المراقبة للتأج . ونحن في حاجة إلى أقلام لها كبرياؤها . حتى ترتفع بناشتنا التي تعثرت في كدر (المجلات) المتهافة ، وأخص منها التي تنسب إلى (الدين) ، وتستغل عواطف القراء . ثم نطلق من مساييلها أساليب منهرة ، ومواد عصف ، وتعايير هزيلة مكررة تذهب بنشاط المتلقي ، وتعني على قوته ، وتخدر الفنى ، فإذا عينه تدور من فرط الاجتهاد بغير طائل وراء طحالب التعبير .

ولا أنكر أن أمثال هذه (المجلات) تولد في أحضان الفقر وتنمو في ظل الحاجة وتدرج على أكتف تدها لوجه الله لا تريد من نتاجها سمواً ولا من أسلوبها علواً ولا من عرضها تفنتا .

ومن المؤسف - ونحن في بلد إسلامي - أننا لا نجد من معارض الصحافة ولا حقول المزلقات الشعبية الدينية إلا ما يخجل جبين الفن البلاغى ويسىء إلى الدين الذى يجب إلى أهله التوبة والمناة ولا يرضى لهم الترهل والحرقه والضعف . وسبب ذلك ، أن الأقلام التي تصطنع الكتابة الدينية ، أغلبها في أيد فاشلة ونفوس تنجر باسم الدين ولا تراه رسالة سامية يجب أن تنزه عن الرياء والاحتراف السوقي . والقلم الدينى في حاجة إلى كبرياء وفي حاجة إلى أن يدلف إلى أعنان الخلود ويلوذ بمراقي التجديد . ولا يكون ذلك إلا إذا غربلت مسفات المجلات وحيل بين الأقلام المتعلقة والبراعات المتاجرة ، وبين التويه باسم الدين والعيش على حسابه . وحسبى من الدعوة إلى القوة والتجديد ، أننى أرى كبرياء قلم ما أهوينه لربة ولا حلتة نحو حقول السفاسف من الأدب ، ولا زيوف الطغام من الأحلام الذين يعيشون كلا على الدين . وما ربك بعافل عما يسطر المسفون . وتعالى الذى علم بالقلم ، وكرم من يصون كبريائه .

مناهج التفسير

حاجة المسلمين إلى تفسير أوضح

لفضيلة الشيخ عبد المنعم النمر

دفعني للكتابة في هذا الموضوع حرج أشعر به دائماً حين يسألني أحد المتعلمين تعليماً مدنياً عن تفسير للقرآن يستطيع أن يقف منه على بعض أسرار الكتاب الكريم ومعانيه . فأستعرض أمامي التفسير التي ورثناها عن العلماء السابقين لاختار له تفسيراً واضحاً يشبع غلته ويرضى نزعته ويقرب إليه المعنى دون أن يمله أو يتعبه أو يصدّه عن متابعة القراءة فلا أجد ويقتلني حرج ونجل !! أي التفسير أدفعه إليه .

إن التفسير التي أمامنا قد وضعها في عصور قديمة علماء فطاحل دارسون ومستوعبون لكل العلوم الشرعية والعربية وغيرها فجعلوا تفسيرهم معرضاً لعلومهم التي يعرفونها ، وكلما وجدوا كلمة أو جملة تتصل بأية ناجة من نواحي العلوم التي يعرفونها استوردوا إليها ولو كانت الآية لا تحتاج في فهمها إلى هذا الاستيراد ، وكلما وجدوا آية في القرآن تتصل من قريب أو من بعيد بموضوع من موضوعات الخلاف في التوحيد أو النحو أو البلاغة أو الفقه حاضوا بهذه الآية غمار الخلاف وتكلموا عن أصل الموضوع والخلاف الطارىء عليه وحجج الفريق الآخر والرد عليها حتى للشعر وأنت تخوض هذا الخصم معهم أنك بعدت عن الشاطيء كثيراً شاطيء القرآن وأصبحت في جو جديد جو الفقه أو التوحيد أو النحو أو ما شئت من العلوم .

وتجد لكل تفسير من التفسير التي بأيدينا ميزة يتميز بها عن غيره ، وهذه الميزة التي يظهر بها التفسير راجعة إلى ما يمتاز به المفسر نفسه ، فإن كان المفسر تغلب عليه علوم اللغة ، وجدت تفسيره غاصاً بأبحاث لغوية ، وإن كان متبحراً في علوم البلاغة ، وجدت لهذا أثره البارز في تفسيره ، وإن كان فقيها وجدت

للفقه أثره المألوس العالِب على كل ما عداه في تفسيره ، وإن كان عالماً كونياً فلسفياً انتهز فرصة الآيات التي تتكلم عن السكون وأفاض لإفاضة لا يفهمها إلا أمثاله من العلماء الكونيين ، وبعض المفسرين يلجأ إلى نقل الاسرائيليات ويفسر بها كتاب الله وهي مدسوسة من علماء بني اسرائيل نقلها عداؤنا بحسن نية وفسروا بها كتاب الله ونسبوا غالباً إلى ابن عباس أو غيره من أجلة العلماء ، وبعضهم يحرص على قتل أحاديث كثيرة مختلفة في القوة والضعف يريد أن يفسر الآية بها ، وأنت أمام هذه التفسيرات كلها لا تظهر بتفسير حقيق للقرآن تطمئن إليه نفسك ويفشرح له صدرك ، وكما قيل تظهر من كتب التفسير بكل شيء إلا التفسير ، هذا فوق أن بعض هذه التفسيرات يقرر أشياء بعيدة عن روح الإسلام وعن أصوله كما في قصة الغرائق وقصة زينب بنت جحش مما اعتمد عليه المستشرقون في مهاجمتهم للإسلام .

ونجد لهم أحياناً تفسيرات نافذة بعيدة كل البعد عن هدف القرآن وعظمته ، فتجد بعضهم مثلاً يذكر عن قوله تعالى : ولما ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمن ، أن من هذه الكلمات التي ابتلى بها إبراهيم قصص الظفر وحلق العانة والختان وتنف الإبط ، مما نزه القرآن عن التعرض لثلثه في هذا المقام ، بل تكبر الكتاب العاديين عن الخوض فيه .

وإذا كان كل كتاب من كتب التفسير يتفرد بالإفاضة في ناحية من نواحي العلوم الخارجة عن لب التفسير مع عدم إغفاله العلوم الأخرى ، فأنتى لا أغالى إذا قلت إنها تكاد تكون خالية من البحث عن أهداف القرآن وأغراضه والروح العامة التي تشاق إليها النفوس الظالمة ، اللهم إلا بعض إشارات وعبارات يمكن الاعتماد عليها في الفهم العام لمعاني القرآن .

ولنا لا يزال حتى الآن مغرمين بالسير على منوال السابقين من المفسرين ، فالأبحاث اللفظية والبلاغية والعقيدية والكلامية ، هي شغلنا الشاغل كلما تعرضنا لتفسير القرآن ، والمفسر العظيم هو الذي يستطيع أن يحشد في مقاله أو تفسيره ما قاله السابقون في كتبهم من الأبحاث البعيدة عن روح القرآن ، أما أنه يتحرر

قليلًا من التقييد بهذه الأبحاث ، ويرى إلى الكشف عن لب الآية ، ويربط بينها وبين الحياة وتياراتها دون أن يلقي بالآلة إلى التفسير ، فذلك المفسر في نظر الكثير لا يعرف شيئاً عن التفسير .

ودرستنا في الأزهر الآن متيدة كذلك بقيود السابقين ، ونظرتهم إلى دراسة القرآن ، فشفطنا الشاغل في درس التفسير هو النحو والبلاغة والفقه وعلم الكلام ؛ فإذا ما انتهينا من التحدث عن هذه العلوم كنا قد انتهينا من فهم الآية ودراسها ، ولذلك نجد درس التفسير كأى درس من الدروس الأخرى ، لا يفرق كثيراً عن دروس الكيمياء والطبيعة في جفافه وخلوه من الروح والعظة والهداية .

وافد درجت على أن أسمى هذه الأبحاث التى أضطر إليها في درس التفسير . تلبكاً ، في تفسير القرآن ، كتليك . المعدة تماماً ، إذ أنها تحول بيننا وبين هداية القرآن والاتعاظ به ، فتجد المفسرين مثلاً حينما يتعرضون لتفسير قوله تعالى : « وفي خلعتكم وما يبيت من دابة آيات لقوم يوقنون ، يهتمون كل الاهتمام بعراب الآية من حيث عطف وفي خلعتكم ثم عطف وما يبيت ، والخلاف في ذلك « وآيات » معربة بالرفع أو النصب الخ ، ويذكرون كلاماً لا يفهمه كثير من العلماء !! ثم ينتقلون بعد ذلك إلى الآية الثانية ، وهكذا دون أن يدلوا على مكان العظة والعبرة والعظمة في خلق الناس وبت الدواب ، ودور أن يكشفوا عن آيات الله في خلقه بما تشع له القلوب ، وتحمل له الجباه . وهكذا لا تجد ما يشق غلتك أو يشجعهمك في فهم معاني القرآن ، بينما تجد أبحاثاً تجلب الصداق وتصد عن الاطلاع .

ولم يجد من المحدثين من يسد هذا النقص بتفسير تام للقرآن ، يستطيع المتعلمون في غير الأزهر أن يقرؤوه ويفهموه ويجدوا فيه ضالتهم ، ويستطيع الأزهريون وغير الأزهرين أن يشموا منه رائحة الهداية في القرآن وناحية العظة فيه .

وقد ترك لنا الإمام المغفور له الشيخ محمد عبده وتلميذه السيد رشيد رضا عليه رحمة الله نموذجاً طيباً في تفسير القرآن ، وإن كان لم يتم إلا أنه على كل حال فتح جديد في عالم التفسير ، يجد فيه المثقفون ضالتهم وعائتهم ، ويستطيع من يريد أن يخدم كتاب الله أن يتهج هذا المصحح الصالح ، ولقد قام المغفور له الإمام المراغي بدروس في التفسير نهج فيها نهج إمامه وأستاذه الشيخ محمد عبده ، فكانت هي الأخرى على قلبها فتحاً جديداً في الكشف عن معاني القرآن وتهريبها لأذهان الناس

ومنذ سنوات عدة قام ثلاثة من كبار العلماء أصحاب الفضيلة الشيخ محمود شلتوت والشيخ عبدالوهاب حلاف والاستاذ عبد الوهاب حمودة بإلقاء محاضرات في تفسير القرآن بدار الحكمة بمعاونة الحاج يعةوب بك عبد الوهاب وقد نصبت هذه المحاضرات نجاحاً كبيراً واحتشد لها المثقفون على اختلاف ثقافتهم حيث وجدوا فيها الغذاء الذي ينشدونه من القرآن الكريم لعقولهم وأرواحهم . وم نجد حضرات المفسرين في هذا يترسمون خطى المفسرين السابقين من العناية بالابحاث اللفظية بل إنهم عنوا بالمعنى ، بالروح ، بالهدف ، بالعظة والعبرة . فكشفوا بذلك عن عظمة القرآن وعن سر خلوده .

وهذا النجاح والاقبال حتى من كبار علماء الأزهر على هذه المحاضرات تزيينا إلى أى حد نحن محتاجون إلى تفسير كهذا التفسير الذى قرأناه فى المنار وسمعناه فى المحاضرات .

إننا نقراً كثيراً أن الواجب يقضى بوضع تفسير للقرآن يترجم إلى اللغات ليعرف الأجانب منه عظمة القرآن وتشريعاته ومبادئه : ولئننى أقول إن المسلمين العرب لنى أشد الحاجة إلى أن يقرءوا بالعربية تفسيراً يفهمون منه معانى القرآن ويقفون منه على عظمته وعظمة تشريعاته ومبادئه حتى إذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً .

وإننا فى الأزهر لنى أشد الحاجة كذلك إلى توجيه طيب فى كيفية دراسة التفسير بحيث يجعله درساً للهداية والعلم ، نفهم فيه القرآن بدل أن نردد فيه ما نعرفه من علوم النحو والبلاغة والفقه . إذ أننا بهذا التوجيه السديد الجديد نفتتح فتحاً جديداً فى عالم التفسير ونربى جيلاً جديداً من العلماء يقوم علمه على اللب لا على القشور .

وإن فى الأزهر وخارج الأزهر من العلماء الافذاذ من يستطيعونه لو تضاموا وصح منهم العزم - أن يخدموا القرآن ويخدموا المسلمين ويخدموا أنفسهم ويخلصوا ذكركم إذا وضعوا تفسيراً للقرآن يتم ما بدأه الإمام الشيخ محمد عبده وتليذذه السيد رشيد رضا ، ويحقق لشموس الطائفة المتلهفة رغبته فى الردود من كتاب الله والارتواء من معيته العذب العرات .

فهل يفعلون ؟ ! إننا منتظرون ؟

المسلمون والتصوير

مؤلف: أستاذ أحمد محمد عيسى

ليسانس في التاريخ - ودبلوم في الآثار - وأمين مكتبة جامعة فؤاد الأول

عرضنا فيما سبق للكلام عن اليهودية والتصوير ، وذكرنا بعض ما جاء في التوراة من آيات تتعلق بهذا الموضوع ، وتكلمنا عن أسباب منع التصوير في الشريعة الموسوية ، ودوافع ذلك المنع ، واحتمال تأثر المسلمين بتلك الأفكار . ونذقل بعد هذا إلى الكلام عما يأتي :

المسيحية والتصوير :

جاءت المسيحية ، ولقيت أول ما واجدت ألواناً من الاضطهاد من أتباع الديانة اليهودية من جانب ، ومن الدولة الرومانية الوثنية من جانب آخر . وعاشت المسيحية في جحيم الاضطهاد سنوات ، ورأى المؤمنون بها أن رجال اليهود المكابرين وحكام الرومان الظالمين ، لن يغفروا لهم ثباتهم على تلك العقيدة ، ولن يدعوا فرصة تر دون تعذيبهم والقضاء عليهم ، غير أن إيمان المسيحيين الأول كان أقوى من مكر اليهود وبطش الحكام ، وقد هدام إيمانهم إلى الهرب بعقيدتهم إلى المغاور والكهوف والسراديب ، حيث جعلوا منها أما كن للصلاة والعبادة ، كما اتخذوا لأنفسهم رموزاً خاصة يفهمون وحدهم مدلولاتها : فكان رسم السمكة يرمز ليسوع المسيح المخلص ، ابن الله ، وكانت الحمامة ترمز للروح القدس ، وكان رسم الراعي الذي يحمل الشاة الشاردة فوق منكبيه ، يرمز للمسيح الذي بعث ليخلص الناس وهكذا . ومضت قرون وحل القرن الرابع الميلادي ، وخرجت الأفكار المسيحية من باطن الأرض إلى ظاهرها ، حين اعترف بها الإباطرة ديناً رسمياً للدولة الرومانية . ومن ثم انتشرت المسيحية في كل مكان من بلاد الإمبراطورية الضخمة ، ورأى القائلون على أمر الدعوة المسيحية أن حور الوسائل التي تسهل للدين الجديد الثبات والاستقرار ، اتباع كثير من الأساليب والنظم التي خلقتها الإمبراطورية الوثنية دون أن يخشوا شيئاً من زيف أو خروج على الدين . والذي حدث أن الكنيسة

أفادت كثيراً من ذلك الاقتباس الذي لم يحمل في طياته أى خطر بالنسبة إليها . غير أن الفن المسيحي أو الفنون التي نشأت لخدمة الكنيسة وأغراضها قد اختلفت بطبيعة الحال عن الفن الرومانى الوثنى ، حيث كانت أقرب إلى البساطة ، وأطوع لرغبات رجال الدين المسيحيين . وإن كنا لا نستطيع أن نتجاهل ما أفاده الفن المسيحي مما عاصره ، وما كان قبله من الفنون .

ولما كانت المسيحية قد استعانت منذ ظهورها بالصور لنشر العقيدة ونقلها عن طريق الرسوم الرمزية من مكان إلى آخر ، فقد ظلت على إيمانها بالفن ولزومه لشرح العقيدة ، واستخدامه في تقريب معانى الإنجيل إلى أذهان الناس وأفهامهم ، وتوضيح الأحداث المسيحية الكبرى ، وحياة الرسل والقديسين باللوحات المصورة والنماثيل . وحدير بالذكر أنه لم يتم - حتى القرن الثامن الميلادى - أى اعتراض أو خوف من رجعة الوثنية أو نكسة المسيحية .

ولقائل أن يقول إن الاعتراض على الصور أو الخوف منها قد ظهر في القرن الثامن الميلادى بدليل قيام حركة تحطيم الصور الدينية في الامبراطورية الرومانية الشرقية .

والجواب على هذا أن تلك الحركة لا علاقه لها برجال الدين المسيحيين بل قام بها ودعا إليها الامبراطور نفسه لدوافع سياسية واقتصادية كان لها ما يبررها في نظر الامبراطور حينذاك . مع أن تلك الحركة كانت قاصرة على اتباع الكنيسة الشرقية أو الكنيسة الأرثوذكسية . بينما ظلت الحال على ما هي عليه في سائر أجزاء العالم المسيحى . وقد تختلف عن خدمة فن التصوير للمسيحية تراث ضخم رائع ليس الكلام عنه من موضوع هذا المقال .

الفرس والنصوتر :

يرجع ماضى الفرس العتي إلى ما يزيد على ثلاثين قرناً قبل الميلاد ، كما تدلنا على ذلك نتائج الحفريات التي قام بها الآثريون الفريون هناك . وإذن فليس من السهل على شعب يرجع تراثه الفنى إلى ذلك الماضى السحيق ، أن يتحول عن طبيعته الفنية ، ولا أن يغض عيونه عما يراه ماثلاً أمامه في كل مكان من روائع ما أنتجه الأجداد السابقون .

ولم تحل الأفكار الدينية التي سادت إيران في عصورها التاريخية — دون مزاولة الفرس للفنون في شتى أشكالها ، فالزردشتية كانت تأمر الناس بعمل الخير اقتداءً بالله الخير ومساعدة له على أن يزم بفضل أعوانه — إله الشر . ويفهم من هذا أن تقيد الآله في أعماله وأفعاله ، أمر تحض عليه الزردشتية ، والاقتداء به فيما يتخلى ويريد ، كمال مطلوب . والخلاصة أن الزردشتية لا تخاف تقليد الآله بل ترى أن هذا مما تنزع إليه كل نفس طيبة ، لأن الغرض الأول من ذلك هو الوصول للكمال لا المكابرة والعناد .

أما ، المانوية ، فقد استعانت على أداء رسالتها بالتصوير ، ذلك أن ماني نفسه — صاحب تلك العقيدة — كان مصورا ماهرا ، وفد زين كتبه التي نشرها بين أتباعه بالصور والرسوم وتقبل الفرس ذلك الجهد الفني قبولاً حسناً وإن لم يؤمن الكثيرون منهم بأرله ماني الدينية .

ثم جاء الإسلام إلى بلاد فارس فآمن به الفرس وتناولوا أصوله وأحكامه بعقولهم لا بقلوبهم خصب . ويبدو أنهم كانوا أكثر تأملاً للنصوص وأعمق فهماً للحقيقة القائلة : « إن الدين صالح لكل زمان ومكان » . وعلى قدر ما كان الفتح العربي لبلاد فارس انتلاباً من حيث نظام الحكم وأشخاص الحاكمين وطبيعة الدين ، كان إيمان الناس بالإسلام استجابة لنداء العقل ، لا خضوعاً لقوة السيف ولا رهبة من بطش الحاكم . على أن الفرس احتفظوا بطابعهم المعيشي القديم ، ورعوا فنونهم بإخلاص حر متوارث ، وزاولوا تلك الفنون في ظل الحكم الإسلامي بنفس التدقيق الذي كانوا يزاولونها به قبل أن يحل الإسلام بينهم ،

وفي ذلك العصر الإسلامي رسم الفرس بعض المواقف من حياة الرسول وأحداث التاريخ ، كما شرحوا كتب العلوم بالصور الثبائية والحيوانية ، وزينوا الأثاث والآواني ، ونقشوا البسط والياب ، واتخذوا من الحزف والمعدن تحفاً على صورة الطيور والانس ، دون أن يخطر بأذهانهم عهد لمخالفة الدين أو رغبة في الخروج على تعاليمه . ولكن الفرس تحركوا في إيمان عميق ، بأن الإسلام لا يكره الصور ولا يحشاها ، وأن تلك الرسوم لا تستطيع — مهما بلغت من روعة الفن — أن تميل بالنفوس عن جلال الوحدانية وسموها .

دراسات في القرآن

لفضيلة الاستاذ الشيخ محمود النواوي

تردد الحديث عن كليم الله موسى في خمسة وعشرين سورة من القرآن سردها جميعاً ثم بدأت أذكر مواضع الآيات من تلك السور مفسراً لها .

وتحدث اليوم عما تفيد به الآيات (٦٠) فما بعدها من سورة البقرة تذكراً لآية (٦٠) من سورة البقرة أن موسى طلب السقيا لقومه ومعناه أنهم عطشوا في الصحراء ولا ماء . فسأل الله أن يسقيهم فأكرمهم الله بأن أخرج لهم الماء من الحجر . كما أكرمهم من قبل فجعل لهم طريقاً في البحر يبسا .

قال الله سبحانه لموسى مقبلاً له ولهم على ما وضع من أسرار في هذه العصا التي أنقذته من سحر فرعون فالتفت ما كانوا يأفكون ، وضربت البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم ، قال له أضرب بعصاك الحجر ففجرت منه اثنتا عشر عينا ، بعدد الأسباط الذي قسمهم موسى قسمة القائد الحكيم . وعلم كل أناس مشربهم بلا بنى ولا اعتداء .

بعد هذا نورد الآية (٦١) صورة من تمرد القوم في شأن الطعام بعد أن ذكرت ما قبلها صورة من حفاوة الله بهم في أمر الشراب ، فهؤلاء القوم قد أنعم الله سبحانه عليهم في الصحراء المحرقة المجربة ، فظلل عليهم الغمام وقاية ، وأنزل عليهم المن والسلوى طعاماً شهيياً ، وغذاء قوياً مع ذلك الشراب من الحجر ، فكفروا بنعمة الله وقالوا لن نصبر على طعام واحد ، وسألوه عتياً وشقاء شيئاً عما تنبت الأرض لا ما تنزل السماء ، فالتمسوا لأنفسهم الشقاء ، وطلبوا الأدنى بدلاً من الأعلى .

فتحدهم الله سبحانه كما يقول - الأستاذ محمد عبيد - أن ينزلوا إلى محاربة سكان الأرض الموعودة ، ولكنهم امتنعوا جنباً كما هو شأنهم .

وفي آتي (٦٣، ٦٤) أن الله سبحانه أخذ عليهم العهد والميثاق بعد أن رفع فوقهم جبل الطور تخويفاً لهم حتى يقبلوا التوراة . قالوا إن نبي الله موسى طلب من قومه لما رجع من مناجاة ربه ، ومع التوراة ، أن يعملوا بها ، فأبوا إلا أن يروا الله ويكلمهم كما كلم موسى فأخذتهم الصاعقة كما ذكر في آية سابقة ثم بعثهم الله . ثم عادوا إلى خلافهم فأمر الله سبحانه جبريل أن ينزل الجبل فيجعله فوق رؤوسهم . عند ذلك خافوا وعاهدوا موسى على العمل والطاعة . ثم خالفوا بعد ذلك . ولولا فضل الله عليهم ورحمته لسكانوا من الهالكين .

وذكرت آية (١٧١) من سورة الأعراف أن الله سبحانه تنق الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم ، وخذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون ، ففي سورة الأعراف بعض تفصيل للرفع كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم وفي سورة البقرة بيان أنهم نقضوا العهد .

وأما آية (٥٦) مما هنا (البقرة) فهي تحدثنا أن جماعة من بني إسرائيل اعتدوا في السبت فسمحهم الله قردة وتذكر أن يهود الإسلام علموا ذلك وأن الله سبحانه جعل تلك العقوبة نكالا وعبرة لمن في زمنهم ومن بعدهم وموعظة للنفوس ، والحادث مفصل بأكثر مما هنا في سورة الأعراف (١٦٣ - ١٦٦) ففيها أن ذلك كان بالقرية التي كانت حاضرة البحر قريبة منه وأنهم اعتدوا لأن الله سبحانه ابتلاهم لجعل الحيتان تظهر لهم يوم يستون ، ولا تأتئهم يوم لا يستون وأن طائفة كانت تنهاهم وأخرى كانت تلوم التي تنهاهم لأن الله سيهلكهم أو يعذبهم عذاباً شديداً وأن الله أنجي الناهية وعذب الظالمة وسكت القرآن عن اللائمة فاحتلف الناس فيها وأن الله أيضا قال لهم وللمعتدين ، كونوا قردة خاسئين هذا ما في الكتاب الكريم فإذا تعيين القرية بأكثر من أنها قريبة من البحر فهي موضع ابتلاء بالحيتان . وأما الكلام في أن الطائفة الناهية هلكت أو نجت فلا ثبوت له ومن عجب النظر وفضوله محاولة التأويل في أمر المسخ بأنه محاز عن الحسة أو غيرها كما ينقل الشيخ رشيد رحمه الله في التفسير .

والآيات من (٦٧ - ٧١) من سورة البقرة نقص علينا من أنباء بني إسرائيل ما يصور بعض تطعيم وإحفاثهم في السؤال ، وهي متصلة بما بعدها (١٢ - ٧٣) مرتبة عليهما ، متأخر مدلولها في الزمن عنهما ، واسكن ذلك مسالك الذكر الحكيم للتشويق حتى يستقر في النفس ما بعده ، ويقع منها موقع الماء من ذى الغلة .

تذكر أن موسى (ص) ينقل إلى قومه عن الله سبحانه أنه يأمرهم أن يذبحوا بقرة ، وأن ذلك لغرابته عندهم يجعل موسى عندهم كالمستهزى بهم ، فلا علاقة في عقولهم بين قتل نفس يراد معرفة قاتلها ، وبقرة يؤمرون بذبحها ، والاستهزاء من صفات الجاهلين ، فاستعاد موسى بالله أن يكون من الجاهلين .

فطلبوا من موسى أولاً أن يعين لهم صفتها ، ما هي ، ففهم أن ذلك سؤال عن سنن فسأل ربه فأجاب بأنها لا تارض ، مسنة ، ولا تكر ، صغيرة .. ولكنها عوان ، نصف ، بين ذلك . ثم سألوه ثانياً عن لونها فقال إنها صفراء شديدة الصفرة تسر الناظرين بهذا اللون المحبوب ، وطلبوا ثالثاً زيادة التمييز في الصفة أسائمه هي أم عاملة . واعتذروا عن هذا الإسفاف بأن البقر تشابه وأن لهم أملاً في الاهتداء فقال لهم إن الله سبحانه يطلبها غير عاملة فهي ليست ذلولاً تغلب الأرض للزراعة . ولا نسق الأرض المياه لها ويريدها مسلمة ليس فيها لون يخالف لونها فقالوا الآن جئت بالبيان الحق فذبحوها وما كادوا يفعلون . ولو أنهم ذبحوا بقرة لكف عنهم أيا كانوا ، ولكنهم شددوا فشد عليهم ، وهذه القصة سميت السورة الكريمة ، سورة البقرة ، ذلك فيما أفهم لأنها لم تذكر في غيرها وفي ٧٢ و ٧٣ ، أنهم قتلوا أنفسهم فاختلفوا في القاتل وتدابعوا كل يدفع عن نفسه ويتم غيره ولكن الله مبين للحق فلذلك قال اضربوا القاتل ببعض تلك البقرة وقوله وكذلك يحب الله الموق ، صريح في أن الله أحياء أو كالصريح فيه ، فلا عبرة بتعسف الشيخ رشيد وتعميده في آيات الكتاب . والله الموفق للصواب .

في صحب المكفوفين

بقلم فضيلة الأستاذ محمد الصرباصي

المدرس بالأزهر الشريف

يخطئ بعض الناس حين يظن أن القرآن الكريم قد شوه صورة العمى وقبح منظر الاعمى ، لأنه أكثر من ذكر العمى والاعمى في مواطن الذم والسوء ؛ وهذا ظن قد يساعده الشكل والمظهر ، ولكن الأمر يقبل حين النظر الدقيق والبحث العميق ؛ وقد تبعت الآيات الكريمة التي وردت فيها مادة « العمى » ثم بحثتها ، فلاحظت لي فيها سمة غالبية ، هذه السمة هي أن القرآن لا يريد بمادة « العمى » في أكثر استعمالاته كف البصر وروال الرؤية من العين ، ولكنه يريد بها ضلال العقل وسفه التفكير وخطل الرأي ، ولنتعرض الآن طائفة من تلك الآيات لتبين فيها ذلك .

يقول الحق تبارك وتعالى في سورة البقرة واصفا شأن المنافقين : « هم بكم عمى فهم لا يرجعون » ، وهؤلاء المنافقون مبصرون حسا ، ولكن القرآن أراد أن بهم عمى عن الحق وضلالا عن الهدى ، فإراد القرآن العمى الحسى ، بل أراد العمى المعنوى ، وهو شر ما يعاب به الإنسان . ويقول في سورة الأنعام : « قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها وما أنا عليكم بحفيظ » . ويقول في سورة يونس : « أفأنت تهدي العمى ولو كانوا لا يبصرون » ، والمراد به أيضا الضالون السفهاء الذين لا يستجيون . ويقول في سورة الإسراء : « ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا » ، والمراد الاعمى عن الحجة المنصرف عن الدليل ولو كان له بصر زرقاء النيامة . وفي سورة الحج يقول : « فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور » ، والآية لا تحتاج إلى تعليق ، فهي في الباب أوضح ما يكون . ويقول في سورة النمل : « وما أنت بهادي العمى عن ضلالهم » ، والمقصود مفهوم . ويقول في سورة فصلت : « وأما ثمود فهديناهم فاستجبوا العمى على الهدى » ، فالمقصود بالعمى هنا هو الضلال لا فقدان البصر ولذلك قول بالهدى .

وفي نفس السورة يقول عن القرآن : « قل هو الذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عى » أى لا يفهمونه ولا يتأثرون به لبلاذتهم وظلمة قلوبهم وعقولهم . وفي سورة محمد يقول عن المحرمين من الكافرين والمعاندين : « أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم » أى أضلهم عن الإيمان فلا يهتدون إلى سبيل الرشاد ، ولذلك عتب الآية السابقة بقوله : « أفلا يتدبرون القرآن أم على القلوب أقفالها » .

ويقول في سورة فاطر : « وما يستوى الأعمى والبصير ، ولا الظلمات ولا النور ، ولا الظل ولا الحرور ، وما يستوى الأحياء ولا الأموات إن الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من فى القبور » . قال المفسرون : هذه أمثال ضربها الله فى حق المؤمنين والكفار ، فتقوله : الأعمى والبصير أى العالم والجاهل ؛ ولا الظلمات ولا النور أى الكفر والإيمان ؛ ولا الظل ولا الحرور أى الجنة والنار ؛ وما يستوى الأحياء ولا الأموات أى المؤمنون والكافرون

من هذا نرى أن أغلب الاستعمالات التى وردت فى القرآن الكريم لمادة « العمى » أريد بها عمى القلب والعقل والروح ، لا عمى البصر .

فإذا أراد القرآن استعمال مادة « العمى » بمعناها اللغوية الأولى وهو كف البصر ، لم يستعملها على وجه الهمز والتفخيم ، بل يذكرها فى مواطن الرحمة أو التخفيف ، فهو مثلا يقول : « عبس وتولى ، أن جاءه الأعمى » ، وما يدريك لعله يزكى ، أو يذكر فتفتحه الذكري ، فيذكر المكفوف هنا باللفظ الصريح ، لا ليتندر عليه ولا ليسخر منه ولا ليستزى به ، وإنما لذكر رسوله صلوات الله وسلامه عليه بأن هذا « الأعمى » كان فى حاجة إلى الرحمة والإقبال ، لا إلى الإعراض أو الإهمال ، والقرآن الكريم يقول فى آية أخرى : « ليس على الأعمى حرج » ، فيذكر أيضاً كلمة « الأعمى » بمعناها الأصلية وهو كف البصر ، ولكن فى أى موطن ؟ . ليس فى موطن الهمز والتفخيم ، بل فى موطن الرحمة والتخفيف . . . وإذن فالقرآن لا يسخر من الأعمى كما يظن الجمهور ، ولا يذكره ذاماً أو ناقداً ؛ وإذن فاستشهاد الكثيرين بالآيات التى تتضمن مادة « العمى » فى الجملة على المكفوفين أو السخرية بهم ، استشهاد يدل على عمى فى العقل وبلادة فى الشعور . وقد التفت إلى هذا المعنى بعض المباحرة وذكروه فى كلامهم ، فقال إبراهيم التيمي

« كفى بالمرء حسرة أن يفسح الله له في بصره في الدنيا ، وله جار أعشى ، فيأتي يوم القيامة أعشى ، وجاره بصيراء . وقال معاوية بن أبي سفيان لعبد الله بن عباس : ما بالكم تصابون في أبصاركم يا بني هاشم ؟ (وكان ابن عباس قد كف بصره في آخر حياته) فألقمه ابن عباس حجرا حين أجابه قائلا : كما تصابون في بصائركم يا بني أمية ! . وسمعت عفيرة بنت الوليد البصرية العابدة رجلا يقول : ما أشد العمى على من كان بصيرا . فقالت : يا عبد الله ، عمى القلب أشد من عمى العين في الدنيا ، والله لو ددت أن الله وهب لي كنهه محبته ولم يبق مني جارحة إلا أخذها ! ... » وقال رجل للقاسم بن محمد : لقد سُلِيتَ أحسن وجهك . قال : صدقت غير أني مُنعت النظر إلى ما يلي ، وعوضت المكورة في العمل فيما يجدي ! ... »

والقاعدة التي زِيدَ تنبئها في الأذهان ولو بالإلحاح في الإعادة والتكرار هي أن كف البصر ليس بعيب موجب للاحتقار ، وليس بنقص يعوق صاحبه عن السبق والتبريز في الحياة إذا هيئت له الوسائل والأسباب ، وكل ما يقال فيه هو أنه نقص جسدي لا يلام عليه صاحبه ولا يعاب ، وأحيانا يهش له صاحبه ويهرج به ، إذ يريحه من سيئات وييسر له حسنات ، ولعل أبا العلاء المعري أشار إلى ذلك من طرف سخر حين قال : « أنا أحمد الله على العمى ، كما يحمدونه غيري على البصر » . وكفيف البصر إذا أوتي الموهبة وواتته الظروف قد يعلو غيره من المبصرين وقد يسودهم في مواقف يقام لها كل ميزان ؛ ومن أمثلة ذلك أن أبا العلاء المعري الضرير دخل ذات يوم على المرتضى بلا قائد ، فعثر في طريقه برجل ، وتعجل الرجل فقال ، من هذا الكلب ؟ . فأراد أبو العلاء أن يرد عليه سبه بأقذع منه ، ولكن في أسلوب مطوي ومن طريق غير مباشر ، وفي الوقت نفسه يبين له أن هذا الضرير المشتم أفضل في علمه وحفظه من البصير الشاتم ، فأجابه أبو العلاء معرضاً به : الكلب يا هذا هو من لا يعرف للكلب سبعين اسما ، ومعنى هذا أن المعري يعرف للكلب سبعين اسما ، وإلا لحق عليه باعترافه هو أنه كلب ، وهذه عبقرية لغوية مذهشة ، ومعناه أيضاً أن أبا العلاء يدرك أن شامته لا يعرف هذه السبعين فهو إذن الكلب ! ولما شاهد المرتضى ذلك قرب أبا العلاء وأدناه واختبره فوجده عالماً ، مثبجاً بالقطنة والذكاء ، فأقبل عليه وهو ضرير إقبالا شديدا بعد أن ترك المبصرين وراءه ظمرياً ! ... »

فكرتا العالمية والقومية

في نظر الاسلام

لنفسير الأستاذ محمود فياض

مدرس التاريخ الاسلامي بكلية أصول الدين

لقد أظهر البحث المختار في علمي السياسة والدستور ، أن الإسلام هو أول نظام عالمي سليم عرفته الإنسانية حتى اليوم ، وأن ما ظهر من فكر عالمي ، بعد سنة ٥٧٠ من ميلاد المسيح ، إنما استمد من النظم الإسلامية ، أليس الإسلام قد ألغى الفروق بين الأفراد في الأمة ، وتمعهم بالحرية والاخوة والمساواة ؟ أوليس قد ألغى الحواجز والامتياز بين الشعوب ، وجعل الشعب في الأمة الإنسانية فرداً . ومن مقتضيات الاخوة والفرابة ، المحبة والمودة ، وحسن المعاملة ، وضمان السلامة للجميع ، وتيسير الخير للجميع ، والتعاون في سبيل صالحهم العام ، وهذا هو معنى التعارف الذي جعله الله حكمة من حكم إجماعه البشرية ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، فالتعارف والسلام هما أساس العلاقات بين الناس أفراداً كانوا أو شعوباً ، وكما تتفاوت الأفراد في النشاط والكسب ، والقدرة على العمل ومبلغ النبل في القصد من العمل ، كذلك تتفاوت الشعوب في ذلك ، وهذا هو موضع تقدير الشرف ، ودرجة التكريم للفرد أو الشعب ، وفق القاعدة الكلية ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، أي أنعمكم عن الشرك الديني والاجتماعي ، وأنقاكم للضار والمفاسد ، وأكثركم دفعاً لها عن الأفراد والشعوب .

ونظراً لهذه النظرة الإسلامية إلى البشرية كان الإسلام ديناً عاماً للبشرية كلها ، لا خاصاً بشعب من شعوب الإنسانية ، واتجه في دعوته إلى البشرية كلها . لا إلى الشعب العربي الذي بعث فيه رسول الإسلام محمد صلوات الله عليه ، ولهذا فهو ينادى البشرية في القرآن الكريم بـ « يا أيها الناس » ، يا بني آدم ، وغالباً ما تجد الحديث الذي يعقب هذا النداء في القرآن الكريم شاملاً عاماً للإنسانية ، لا خاصاً

بأنظمة يعمل بها الذين آمنوا . . وهذا أيضاً هو مغزى عموم رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين . .

قرر الإسلام هذا المعنى منذ ١٣٨٣ عاماً (أى منذ بعث محمد رسولا إلى الناس كافة ، وهذا المعنى هو ما تحاول البشرية أن تصل إليه اليوم وعينا تحاول كما حاولت فيما مضى ١١

حقيقة كانت المدينة اليونانية من عوامل إزالة الفوارق بين الشعوب . لأنها كانت خلاصة مدنيت لشعوب مختلفة ، وساعدت على قيام دويلات في حوض البحر الأبيض المتوسط في الشرق والغرب ، فجاء أن توصف بأنها كانت نواة لنظام عالمي يجمع أكثر من أبناء شعب واحد في دائرة حضارة واحدة ، ولكنك إذا عرفت أن « أرسطو » عندما تحدث عن الرقيق عرفه « بأن كل من كان غير يوناني فهو رقيق ليوناني . لأن اليوناني لا يمكن أن يسترق ولا يحل أن يستعبد وكل غير يوناني يجب أن يكون عبداً لليوناني ، أو من شأنه ذلك ، لأن عبوديته لليوناني تهدبه وترقيه ، وتسمى مواهبه » ١١ وإذن فالمدينة اليونانية كانت مدينة استعمارية ، تحم الفروق بين البشر ، ولا تعترف بحقوق الإنسان لغير اليوناني ، ودعوى « أرسطو » هذه هي أساس النظريات الاستعمارية التي أخذت ألوانا مختلفة في العصور الحديثة (استثمار . حماية ائداب . وصاية . مساعدة الخ)

وحقيقة أيضاً أن الامبراطورية الرومانية القديمة كانت عاملا قضى على الحواجز السياسية بين الشعوب ، بتعميمها حق المواطنة الرومانية لأناء الشعوب الخاضعة لسلطانها ، ابتناء الامتزاج في نظام عالمي واحد ، يقوم على التقليل من حدة الفوارق الجنسية والسياسية بين الشعوب سيما بعد أن انتشرت المسيحية فيها وحاول الدين ورجال السياسة جمع العالم كله في دائرة روحية واحدة تظلمها راية سياسية واحدة .

هذا . ولما جاء الإسلام باتجاهه إلى الإنسانية ، ودعى إلى وحدتها على أساس الأخوة والمحبة ، ورسم للبشرية منهجا دينيا واجتماعيا وسياسيا ، يخلصها من قيود

الذل والعبودية ، وبحقق لها السلام ، ويضمن لها السعادة ، وكان بذلك أول تشريع أكرم الإنسانية ، وكان صاحب فضل ظاهر ، وأثر باهر ، في رقيها وسعادتها وتوجيهها نحو المثل العليا ، بقى أن يقول لى القارىء الكريم ، إذا كان الإسلام قد دعى إلى العالمية فما موقفه من القومية أو (الوطنية المحلية) ؟ وأبادر فأقول لك : إن الإسلام في دعوته إلى العالمية لم يغفل القومية ولم يدع إلى إهدار الوطنية وهو هنا على عكس الشيوعية تماماً ، وذلك أن الإسلام يدعو إلى العالمية وفق منهج خاص يقول : إن بنى الإنسان إخوة وذوو أرحام ، وهم أحرار متساوون في الحقوق والالتزامات ، ليس لفرد ولا لشعب أن يستعبد فرداً أو شعباً ، ثم بدعهم إلى إقامة العلاقات بينهم - فردية وجماعية - على المحبة والمودة والسلام ، والبعد عن الظلم والطغيان ، كما بدعهم إلى الصامن الجماعى في سبيل خير الجميع ، ولضمان تحقق ذلك كله يدعو البشرية إلى عبادة إله واحد هو خالقها ، والاحتكام إلى دستور واحد (القرآن) من صنع الخالق لا من صنع البشر .

ولم تقتل الشعوب من عاداتها وتقاليدها ، إذا لم تتناقض مع مبادئ الإسلام الكلية ، بل نجده يمر العرف (وهو مجموعة العادات والتقاليد للشعب) ، ويحكمه في كثير من الجزئيات ، ما دام متفقاً مع قواعد الإسلام الكلية ، حتى قال الفقهاء : المعروف عرفاً كالمشروط شرطاً ، والإسلام إذ يصبح موجهاً للإنسانية ، ويصبح دستوره دستوراً ، يصبح لدى الناس قوميتان ، قومية عالمية إنسانية تساوى عندئذ القومية الإسلامية ، وقومية خاصة هى الوطنية المحلية لكل شعب من الشعوب ، وفى إبان العصور الإمبراطورية الإسلامية .

عرف الشرقيون بصفة عامة فى العصور الإسلامية المختلفة حتى قيل انهيار الخلافة العثمانية باسم المسلمين ، وعرفت بلادهم ببلاد المسلمين أو دار الإسلام ، وعرف المسلمون بلاد غيرهم بدار الحرب أو بلاد الكفار ، وتحدث الأوروبيون عن الشرقيين باسم المسلمين أو المحمديين ، وألغيت الحدود بين بلاد المسلمين ، وأصبحت أرض الإسلام موطناً عاماً للمسلمين ، ومع هذا كان لكل شعب خصائصه

وميزاته ، وعاداته وتقاليد وعرفه ، وطرق معيشته ، وأسلوبه الخاص في الحياة ، وكان لكل إقليم حكومته ونظامه واقتصاده ، والإسلام من وراء ذلك كله مرشد وموجه ودستور عام ، وهذا غير ما دعت إليه العالمية اليونانية ، والرومانية والشيوعية ، فهي تصر إصراراً على إلغاء القوميات ، وتوجب انبعاثها في القومية اليونانية أو الرومانية أو الروسية مثلاً .

وألفت النظر إلى أن الإسلام عندما دعى إلى العالمية لم يحتم أن تكون للسليين في شتى البقاع حكومة واحدة ، ولم يحتم أن تكون للإنسانية حكومة واحدة ، كما أنه لم يمنع قيام مثل هذه الحكومة لو كان فيها تحقيق الخير والسلام لبني الإنسان ! فهو يرى ذلك شأماً من شئون البشرية تقدره حسب مصلحتها ، فإذا رأى المسلمون أو البشرية أن سعادتها وسلامتها وتحقيق رغائها والعدالة فيها تحققة حكومة عالمية مركزية واحدة ، فمن حقها إنشاء هذه الحكومة ، وإذا رأت مصلحتها في حكومة عالمية اتحادية تشرف على حكومات شتى لقوميات وشعوب شتى ، تتفق هذه الحكومات فيما بينها على طاعة الحكومة الاتحادية (حكومة الخلافة في العصور الأولى) فلها إنشاء هذه الحكومة ، وإذا رأت مصلحتها في حكومات مركزية مستقلة لكل شعب من شعوبها فلها ذلك ، لا يحتم الإسلام شكلاً ولا لوناً من الأشكال السياسية ولا يمنع ، ويترك ذلك لتقدير الإنسانية ، ولكن الأمر الذي يحته الإسلام هو أن يكون الحكم وفق الدستور الإسلامي ، وأن تكون الأخوة والحرية والمساواة والتعاون والسلام هي أسس العلاقات بين الأفراد والجماعات والشعوب والحكومات ، وهذا من أهم مميزات العالمية الإسلامية عن غيرها ، عالميتنا لانتمى القومية ولا تدعو إلى التسلط والظلم والاستعمار واستعباد الشعوب ، لأنها تقرم على دين مثالي يقرر الحرية والأخوة ، المساواة للأفراد والشعوب ، ويوجب المحبة والتعاون على خير الجميع . ويأمر أن تكون العدالة والسلام والبر والاحسان هي الروابط بين الأفراد والشعوب ، عالمية الإسلام هي سبيل السلام ، ولن تتحقق للإنسانية أحلامها وسعادتها إلا بها .

« جهاد الهوى .. »

نفسية الأستاذ علي محمد حسن العمري

المترجم بالأزهر

النفس الإنسانية مطبوعة ، على ضرائب من اللؤم ، ومهينة - دائما - لتقبل ما يوحى به الهوى ، وكل تشريع سماوى أو أرضى يجعل من أول أهدافه تطهير النفس من أهوائها ، وتطهيرها من نزعات الشر فيها ، وإذا كان في بعض التشريعات الوضعية ما يساعد النفوس على اتجاهاتها الصغيرة ، فما نشك أن هذه التشريعات فاسدة مفسدة ، فإن المجتمع الصالح لا يتكون إلا بأفراد صالحين ، والفرد لا يكون صالحا حتى يكون العدل والانصاف ، وحب الخير للآخرين ، والرغبة في إنهاض أمته ، ومساعدتها على الحياة السعيدة ، حتى تكون كل هذه أولى أهدافه ، وأسمى أغراضه .

وإذا سألتني عن أمة يشيع فيها الفساد ، ويحالفها التأخر والانتكاس ، وتنقطع أواصر المحبة والإخلاص بين بنينا بعضهم مع بعض ، وبين شعبها وحكومتها ، وبين رؤسائها ومرموسها ، إذا سألتني عن السر في كل هذه المساوئ . لم أتردد مطلقا أن أقول لك : أن هذه الأمة يسود فيها الحكم بالهوى ، والميل مع الأغراض الشخصية ، والخضوع للنوازع الدنيا في نفوسها ، وبذلك تندفع هذه الأمة إلى التأخر ، والفناء ، بمقدار ما تسود فيها أهوائها ، وتحكم في بنينا شهوات نفوسهم ، ومنذ أربعة عشر قرنا أئذنا الصادق المصدوق بهذا الذي نحن من تفشيه بيننا ، فقد ورد أن امرأة من بنى مخزوم سرق ، وهم النبي صلى الله عليه وسلم أن يقيم عليها الحد ، ولكن قريشا أهمهم أمرها ، وخافوا أن تمتص يدها ، وهي كريمة قومها ، وسيدة من سيدات قريش العظيمات ، فقالوا من يكلم رسول الله فيها ، فقال قائل : ومن يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد حب رسول الله ، فكلمه أسامة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنشف في حد من حدود الله عز وجل ، ثم قام فخطب الناس ، ثم قال : إنما هنك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم

الشرىف تركوه ، وإذا سرق فىهم الضعىف أقاموا علىه الحىد ، وأىم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقى لقطعت يدها .

إن هذه قصة سىرة صغىرة ، ولكن دلالتها عظمىة الشأن ، كبرىة الخطر ، والمخزومىة سرقى شىئاً قد يؤثر فى حىاة فرد ، فكىف يكون الحال لو أن الأىدى العذرة امتدت إلى ما يؤثر فى حىاة الأمة ، مم ترك الشرىف لشرفه ، فإذا كان ضعىفاً وسرق ما لعله فى حاجة إلىه رحىبت به القىود والسجون ، لا شك أن مثل هذا السلوك خطىر جداً على حىاة الأمم ، لأنه يولد الاحقاد والضغائن فى النفوس ، ولأنه يسهل لمن يستطىع أن يعرض أمته لاطخر الشرور والاحداث .

والراصد للاحوالنا الاجتماعىة ، يحزنه أشد الحزن ما يحده فىها من تغلب الاهواء ، وسيطرتها على كل شأن من الشئون ، ولىس الحكم بالهوى ، فىما يخالف القاون ، هو المظهر الوحىد لسىطرة الهوى وسلطانه ، بل هناك فى صغائر الامور وكبارها أهواء مطاعة ، وشهوات متعة ، وربما بدا لبعض النىج أن اباع الهوى فى بعض الامور له ما يبرره ، ولكن ذلك وسوسة الشىطان ، وخداع النفوس ، نأخذ مثلاً الامتحانات - ونحن فى موسمها - فنرى بعض القائمين على أمرها يخضعون فى كثر من الاحايين لأهوائهم ، فلهاذا قريبه ، ولذلك ابن صدىقه ، والثالث موصى على طالب أو تلىد ، ولا بأس عندهم أن ينال واحد من هؤلاء أكثر من حققه ، ولكن لو كننا ننظر إلى الامور نظرة جادة لرأىنا أن الامتحان قضاء ، وأنه كما لا يجوز للقاضى أن يخضع لهوى نفسه ، فكذلك لا يحق للدرس أن يتمدى العىدل والحق ، فكل محاباة لضعىف إنما هى ظلم لقوى ، ولىس أضر على الناشئ من أن يشعرا أنه يصعد على يد غىره ، فإن ذلك يعوده الاستهانة بالعمل ، والنسق فى الحىاة ، وكان يقال : إذا رأىتم حلة شر رائعة من رجل فاحذروه ، وإن كان عند الناس رجل صدق ، فإن لها عنده أخوات ، وإذا رأىتم حلة غىر رائعة من رجل فلا تقطعوا عه أياسكم ، وإن كان عد الناس رجل سوء ، فإن لها عنده أخوات .

فإذا انتقلنا إلى مسلك الرجل مع أبناؤه ، أو الاىخ مع أخوته ، أو الصدىق مع أصدقائه ، رأىنا الهوى متعلباً فى كثر من الاحايين ، ووجدنا الأمر كما بقول الشاعر :

فلست براد عيب ذى الود كله ولا بعض ما فيه إذا كنت راصيا
فعين الرضا عن كل عيب كلية كما أن عين السخط تبدى المساويا

ولقد حدثوا أن رجلا من يأكلون العيش بأخلاقهم ، كان يسير مع بعض
الأمراء على نهر يمر ببلدة من البلدان فقال الأمير ما أنفع هذا النهر لأهل هذا المصر
فقال صاحبه : أجل أيها الأمير ، والله أنهم يستعذبون مائه ، وتفيض مياههم إليه
ويتعلم صبياهم فيه العوم ، وتأثيم تجارتهم وطعامهم فيه ، فلما إن كان بعد ذلك
سائر هنا هذا الرجل أمير آخر ، وكان عدواً للأمير الأول ، فقال : ما أضر هذا
النهر بأهل هذا المصر : فقال صاحبه وهو الذى امتدح النهر بالأمس - أجل أيها
الأمير ، نزع منه دورهم ، ويفرق فيه صبيانهم !

وليس الهوى الذى يدفع النفس إلى الفوارة والشر ، بأقل خطراً من هذا الهوى
الذى يدفعها إلى أن تجانب العدل والانصاف حين تحكم ، أو حين تعامل الآخرين
فإن الهوى لا يأتى بخير أبداً ، وهو غلاب ، فالإنسان فى حاجة ماسة إلى إرادة
قوية تعصمه من الزلل ، وتحول بينه وبين الخضوع لما تمليه عليه نفسه الامارة
بالسوء ، ولذلك يقول البوصيرى :

والنفس كالطفل أن تهمله شب على حب الرضاع ، وإن فطمته ينفطم
فاحذر هواها ، واحذر أن توليه أن الهوى ما تولى يصم أو يصم

ويقول العارفون من الأولين : جاهدوا أهواءكم كما تجاهدون أعداءكم ، ما أشد
فناء الكبير ، بل كانوا يقولون قاتلوا أهواءكم أشد مما تقتلون عدوكم وقيل لعمر
ابن عبد العزيز رضى الله عنه : أى الجهاد أفضل ؟ قال : جهادك هواك .

وجماع ذلك كله قول النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد رجع من بعض غزواته :
رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر ، يريد مجاهدة النفس وشهواتها فإن
الشجاع الباسل قد يتغلب على أقرانه ، ولكنه يضعف أمام رغبات نفسه ، وقد
يرد الخيس العرمم ، ولكنه لا يستطيع أن يرد هوى من أهواء نفسه ، ومن
الصريح فى ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : ليس الشديد بالصرعة وإنما الشديد الذى
يملك نفسه عند الغضب .

في القصة المصرية

لـمـؤـنـسـاـةـ أـمـمـهـمـبـاسـ صـالـح

فن القصة :

تحتل القصة مركز الصدارة الآن في الآداب العالمية ، فهي ضرب من الفن يمتاز عن الفنون الأخرى بالشمول . إذ بينما تختص المسرحية في المنظر ، أو الحوار ، نجد أن الحركة وامتداد الحوادث وتغير الامكنة لا تتوقف في القصة بل تضي مضيا طيعيا يطابق واقع الحياة . وعلى العكس يقف فن التصوير والنحت عاجزاً في حيزه الضيق .

وفي الشعر لا تكاد القصيدة تنفي بأغراضها الفنية إلا في مجال محدود حيث العناية باللفظ والموسيقى والقافية تنف بالمرصاد لتتبع القصيدة عن المضى في متابعة الحياة متابعة واقعية .

ومع أن الرواية قديمة قدم الإنسان ذاته ، إلا أن الشكل الفني المصطلح عليه الآن ، من حيث الوحدة والتتابع والحبكة الخ . لم يظهر إلا في القرن الثامن عشر . وعلى هذا فن القصة الحديث مبثوث الصلة بالأساطير والحكايات والملاحم والسير والرحلات التي عرفت قبل هذا التاريخ . كما أن الفرق كبير بين المسرحية (Play) وبين الرواية (Novel) فالأولى يشترط فيها أن تمثل على المسرح^(١) ويكون الحوار ، فيها عصب الموضوع بينما الثانية لا تمثل على المسرح ولا تنقيد بالحوار ، وتستطيع أن تدنل حيث تشاء ولها أن تطيل الوقوف عند حادثة ما أو أن تكتفي بالعرض السريع .

ولقد ظلت الرواية (Novel) تتطور في الشكل (Form) على أيدي كبار كتابها حتى أخذت شكلها الذي نعرفه الآن .

(١) كتبت كثير من المسرحيات في العصر الحديث لقراءة فقط .

والحرية التي تتمتع بها في الأداء ظهرت طرق متعددة لكتابتها فهناك اليوميات والخطابات والاعترافات الخ... ولكنها جميعا محتم عليها أن تكون ذات وحدة .

وقد انقسم هذا الفن بعد فترة من التطور إلى ثلاثة أقسام : الأول وهو القصة الطويلة (Novel) وميدانها فسيح ، إذ نستطيع أن تعرض حياة شخص ما منذ نشأته مثل قصة (أوليفر تويست) للكاتب الانجليزي تشارلز ديكنز أو حياة جيل من الناس مثل رواية (الحرب والسلام) للكاتب الروسي تولستوى .

والثاني وهو القصة القصيرة (Short story) وقد بدأت في شكل حكايات قصيرة (Tales) على يدى بوكاشيو الإيطالى ، ثم تلقاها إدجار آلن بو الأمريكى ونزل بها ميدان الصحافة ، ومن ثم انتشرت في أوروبا وفي ربوع العالم .

وتختلف الاقصوصة عن النصة في أنها غالبا تعنى بحادثة واحدة أو جانب واحد وتدور حول فكرة واحدة ، وتمتاز بالتركيز والعرض السريع . وهى التي تطلع علينا بها الصحف اليومية والاسبوعية من حين لآخر .

والنوع الثالث وهو أحدث هذه الأنواع جميعا إذ يتف بين النصة والاقصوصة ويسمى (Novelet) وهو أطول من الاقصوصة وأقصر من النصة ، ابتدعها الكاتب الروسى تشيكوف ، وتبعه الكاتب الانجليزي المعاصر سومرست موم وأصبحت شائعة الآن في الآداب جميعا .

وتمتاز بأنها لا تمر مروراً سريعاً على الحياة التي تعرضها ، مثلما تفعل الاقصوصة كما أنها لا تطلب اطناب النصة الطويلة ، والواقع أنها نبعت من القصة القصيرة ، ففيها تجد الخط (Line) الواحد الذي قلنا يتسع ، ونجد هذا واضحاً في قصة (رجل مجهول)^(١) لتشيكوف ، ثم أنها تتبع جانباً معيناً من حياة شخص ما ولا تمتد إلى حياة الآخرين إلا بإيجاز .

(١) ترجمت هذه القصة إلى اللغة العربية دار الكتب المصرية .

فهرس

المجلد الثاني والعشرين

(لسنة ١٣٧٠ هـ - ١٩٥١ م)

المرسوع	يفلم	صفحة
(١)		
آراء العرب	فضيلة الأستاذ محمد عبد المنعم حجاجي	٦٥٨٠٥١٣
آراء في انجاس القرآن الكريم ...	محمد عبد المنعم حجاجي	١٦٧
ابن سنان ومذهب الصرفة	علي محمد العماري	٣٤٥
ابن سينا ومشكلات العصر الحاضر	الدكتور محمد يوسف موسى	٥٩٢٠٥٠٢ ٨٠١٠٧٠٨
ابن حزم	فضيلة الأستاذ علي محمد العماري	٨٥٨
أبو حامد بهاء الدين السبكي	عبد الله مصطفى المراغي	٥٠٧
أبو العيلاء الضرير	عمود النواوي	٦٢٢٠٥٢٠
أثر الصيام في تقويم الصحة	صاحب العزة مدير المجلة	٧٧٦
احتفال الأزهر بذكرى الهجرة	١٢
... .. بعيد الميلاد الملكي	...	٣٨٥
الاحتفال بذكرى عبد القادر الحسيني	فضيلة الأستاذ الكبير مدير الأهر	٦٨٤
احتفال جمعية المحافظة على القرآن الكريم	...	٦٧٩
احتفال ليلة نصف شعبان	وكيل الأهر	٧٦٩
إحياء ذكرى الملك فؤاد	٦٧٥
الأساطير عند مختلف الشعوب	حضرة ... حزة محمد الشيخ	١٦٠
أسباب العزة	فضيلة ... محمد عبد الثواب	٤٢٠
أسباب العنة في عهد عثمان	حضرة ... عبد المم محمد الشيخ	٤٥٣
الأستاذ الأكبر الجديد	صاحب العزة مدير المجلة	•
الإسلام أصل حضارة العالم	فضيلة الأستاذ محمود محمد الدق	٧٤٤

صفحة	يقسم	الموضوع
١٨٢٦-٦٦٥	حضرة . سعيد زايد	الإسلام والاشتراكية
٩٢١		
٦٦٢	فضيلة . عبد الحليم عبد الرازق	الإسلام الحق
٥٥٥	حضرة . عمر طلعت زهران	الإسلام في مدعشقر
٣٢٨	حضرة . محمود فياض	الإسلام يحقق السلام
٥٦٥، ٤٧٩	حضرة . هاشم محمد إبراهيم	أسلحة القتال عند المسلمين
٩١	فضيلة . عز الدين اسماعيل	أسلوب التمثيل في القرآن
١٨٤	أسلوب الجدل في القرآن
١٧٦، ٥٧	حضرة . عبد المنعم محمد الشيخ	الأفضل بن بدر الجمالي
١٤٦	فضيلة الأستاذ محمود محمد المدني	إلى أى طريق نحن مسوقون
٤٥٩ محمود التراوي	إمام المفسرين ابن جرير الطبري
٩٥٥	حضرة . عمر طلعت زهران	الأمير المتصوف
٨٣٢ كامل مجلان	إلى صائم
٥٠ علي حسن المهارى	أهل النار يختصمون
٢٩١ فكرى يس	أول القرآن نزولا وآخره
٥٢٦ إبراهيم أبو الحبيب	الإيمان بالله
٥٣٦ محمود محمد المدني	أى مجتمع نميش فيه
٥٤٨ منصور رجب	أيهما البردة
		(ب)
٤٩٥ طه السكاك	بركة المسلم حياً وميتاً
٣٦٦ هاشم محمد إبراهيم	البريد في الإسلام
١٣٩ إبراهيم أبو الحبيب	بشرية النبي
٨٨٧ عبدالله مصطفى المراغى	بهام الدين السبكي
٩٧٠، ٨	بيان من فضيلة الأستاذ الأكبر
		(ت)
٣٠٤	فضيلة الأستاذ عبد الله المراغى	تاج الدين السبكي
٢٣ فكرى يس	التأريخ

صفحة	بـقـم	الموضوع
٩١٨	فضيلة الأستاذ إبراهيم أبو الخشب	تاريخ الرجال
٦	عبد الجواد رمضان	تحفة شرعية
٦٢٨	بدر المتولي عبد الباسط	تسمية الأسماء بغير أسماؤها
٣٦٣	حضرة الأستاذ إبراهيم عمار	تعدد الزوجات
٥٠٢١٣٣٤	سعيد زايد	تعريف الحكم
٨٨٣١٧٧٩	فضيلة الأستاذ حامد محيمن	التفسير - فاتحة الكتاب
٦٩١	محمد محمد المدني	التفسير
١٥٨٣٤٨٦/٦٩٧١	عبد المنعم النمر	تفسير القرآن
١٩٠	تقاريف
١٣٦	عبد الله مصطفى المراغي	تق الدين السبكي
٧	السباعي الشناوي	تهنئة شعرية
(ث)		
١٤٩	فضيلة الأستاذ عبد الحميد المسلول	ثقافة الاديب
(ج)		
١٦٣	فضيلة الأستاذ كامل مجلان	جراحات قلم
٢٨٣	عبد الله شوق الاسد	جماعة التبشير الإسلامي
٩٥٦	علي حسن العباري	جهاد الهوى
(ح)		
١٣٢	الدكتور محمد يوسف موسى	الحج
٣٣	الحج من الناحية الفلسفية
٤٣٤	فضيلة الأستاذ محمد كامل الفقي	حسن قويدر الخليلي
٤٦٧	أحمد الشرباصي	حرف بثمانين ألف
٦٢٨	فتوى	حكم الله في المسلم يقاتل المسلم
٢٣٩	فضيلة الأستاذ محمد كامل الفقي	حزة فتح الله

صفحة	بقلم	الموضوع
٢٥٣	حضرة الأستاذ أحمد تراجاني	حول عروج الجسم الى السماء
٨٤٨١٦٥٠	• • • • • عمر طلعت زهران	الحياة الاخرى
		(خ)
٤٢٦	فضيلة الأستاذ إبراهيم أبو الخشب	خداع الحياة
٢٧٢	حضرة الأستاذ هاشم محمد إبراهيم	الخلافة بعد فتح الأتراك مصر
١٨٠	• • • • •	الخلافه العباسية في القاهرة
٦٠٩	فضيلة • محمد عبد التواب	الخير باق في الناس
		(د)
٩٢٤	• • • إبراهيم سقوط	درس عملي في الزكاة
٨٦٥	• • • الكبير وكيل الأزهر	الدروس الدينية
٤٦	فضيلة الأستاذ حسن جاد	دعاء مستجاب
٦١٧	• • • حامد عوني	دعائم الدعوة إلى الحق
٧٤٩	• • • السيد شريف	دعوة الإسلام إلى المساواة
٢٩٥	• • • محمد محمد المدني	دفاع عن التعصب
		(ذ)
٢١٥	فضيلة الأستاذ عبد الجواد رمضان	ذكرى المولد الشريف = موشحة
		(ر)
٧٩٧	• • • بدر المتولي عبد قباط	الربا داء البشرية
٩٥	• • • • •	رفاء وتقاريط
٨٧	الشيخ أحمد صقر	رسالة الأزهر
٢٨٩ ١-٢	فضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الأزهر	رسالة شيخ الأزهر
٢٩٦	• • • محمد عبد المنعم خفاجي	الرسول الأعظم
١٤٢	• • • علي حسن العمادى	رضا الناس
٨٤٤	• • • محمد خليفة	رمضان بين الماضي والحاضر
٩١٤ ١٥٩	حضرة • عبد المنعم محمد الشيخ	الرهانية والدينية والتصوف

الموضوع	بـقـلم	صفحة
(ز)		
زواج حضرة صاحب الجلالة الملك	٦٧٢
(س)		
السهروردي المقتول	٣٢٩٠٢٤٨
سوف أعود إلى الأرض	٣٧٣
سوق السعاة	٧٣٦
سيدي ابراهيم الدسوقي	٢٢٦
(ش)		
الشباب وكيف نعد	٤٢٣
شرك العقيدة وشرك العمل	٤٠١
شعاع من بحر الإسلام	٥٣٣
الشعر	١٧٢
شعراء الأزهر	٣١٢
الشعر المسرحي	٤٧٣
شواهد البلاغة	٨٠
(ص)		
صفحة من المجد	٧٥٤
(ض)		
ضبط النفس	٣٦٠
ضيق الصدر	٩٠٢
(ع)		
عجالات في الأدب	٤٧٦٠٢٨١
عدي بن الرقاع	٥٤٠
عظة الهجرة	٨١٤
العظمة والخلود	٧٦
	٨٢٩

الموضوع	بقلم	صفحة
العقل والنقل والفوق	حضرة الأستاذ عمر طلعت زهران	١٥٥١٦٢
العلاقة بين الإسلام والنصرانية ...	• • • سالم أحمد الرشيدى	١٢٧١٦٦
العلم بأسباب نزول القرآن	فضيلة الأستاذ فكري يس	٤٠٥
العلم والعمل	• • • محمود النواوى	٣٢٠
على أبو النصر المنفلوطى	• • • محمد كامل الفقى	٦٣١
على الدرويش المصرى	• • • • •	٩٣٣
على هامش الاخبار	• • • أبو الوفا المراغى	٣٥١
على هامش الملوك والهجرة	• • • محمود جميلة	١٣٢٤١٢٦٢ ٦١٣١٥١٦
عهد المدنية	سماحة الأستاذ السيد	٤١٤
عيد الدستور	فضيلة الأستاذ طه محمد الساكت	٧٠٥
(ف)		
فاجعة الشرق في مهاجمة الغرب ...	حضرة الأستاذ حمزة محمد الشيخ	٢٧٧
الفقه السياسى عند المسلمين	حضرة الأستاذ محمود فواض	١٥١٠٠٤٤٠ ١٧٢٣٠٦٤٤
فكرتنا العالمية والقومية	• • • • •	٨٠٥ ٩٥٢
فلسفة الصوف	حضرة الأستاذ عمر طلعت زهران	٤٤٨
فهم في آية	فضيلة الأستاذ محمد محمد المدنى	٤٩١
في سبيل الله والازهر	الدكتور محمد يوسف موسى	٣٩٩
في صحبة المكفوفين	فضيلة الأستاذ أحمد الشرباصى	١٨٢١٠٧٣٩ ٩٤٩
في القصة المصرية	حضرة • • • أحمد عباس صالح	٩٥٩
في مجلس القرآن	فضيلة • • • السيد شريف	٦٥٥
في النقد الأدبى	الشيخ أحمد صقر	٥٧١
(ق)		
القرآن كتاب جامع شامل	فضيلة الأستاذ فكري يس	١١٦
القرآن الكريم واللغة	• • • عبد الجواد رمضان	٥٩٦

الموضوع	بقلم	صفحة
القرآن وعقيدة البعث	محمد محمد المدني	٥٨٨
القرآن وقواعد النحو	١٩٩
القصة بين الذاتية والموضوعية	حضرة د. حمزة محمد الشيخ	٢٦٩
(ك)		
كبرياء القلم	فضيلة د. كامل عجلان	٩٣٧
كلمات	الدكتور محمد يوسف موسى	٣٠٧
كلمات	٢١٠
كيف تتقارب الشعوب	فضيلة الأستاذ أبو الوفا المراغي	٢٢٢
كيف نقرأ الشعر	حضرة د. حمزة محمد الشيخ	٥٦٨
كيف ندرس الأدب	الشيخ أحمد صقر	٢٨٥
كيف ندرس الأدب	فضيلة الأستاذ عبد الجواد رمضان	٤٠٩
كيف ينض المسلمون	٦٤١
(ل)		
لا يستوى الخبيث والطيب	٥٤
لغويات	٢١٨١٢١
...	٢١٨١٤٩٥
...	٨٩٨١٨٣٥
...	١٠٤١١٧
...	٢٨٩١١٩٣
ليس من هنا بدأ	صاحب العزة مدير المجلة	٤٨١٠٣٩٠
(م)		
المبشرون بالإسلام	فضيلة الأستاذ إبراهيم أبو الحبيب	٣٩٧
متاعب الرسول	٢٣٢
مجدنا في ديننا	٤٣٠
مجة الأزهر في أعماها الثاني والعشرين	صاحب العزة مدير المجلة	٣
مذهب الإمام مالك	فضيلة الأستاذ عبد الجواد رمضان	٨٩٣
المسلمون والتصوير	فضيلة الأستاذ أحمد محمد عيسى	٧٣٠٠٦٠٥
	٩٤٣

صفحة	بفلم	الموضوع
٨٨٩	الدكتور محمد يوسف موسى	المسلم والقرآن
٣٧٩	الأستاذ سعد الدين موسى	مشكلات المدنية الحديثة
٣٥٤ : ٢٥٧	عبد المنعم محمد الشيخ	مصر والسودان
٧١٢	عبد الجواد رمضان	مصطفى عبد الرازق
٩٢٩	محمد خليفة	المعتمد بن عباد
٨٤	نور الدين شريعة	مناهج التصوف الإسلامى
٨٦٢	محمود المدنى	من أدب الإسلام
٥٢٩	أحمد الشرباصى	من أهداف الاستغفار
٩٢٩	عبد المنعم الفخر	مناهج التفسير
١١١ : ٢٨	محمد محمد المدنى	المتفهمون بهدى القرآن
٤٩	محمود النواوى	من توجيهات الإسلام
٩٠٩	عبد الغنى الراجى	من طرائف القرآن الحكيم
٦٧٠	حضرة الأستاذ ابراهيم عمار	من مآسى الحياة
٨٤١ : ٥٣٨	فضيلة الأستاذ أبو الوفا المرازى	من نوادر المخطوطات
٧١	أحمد حسن كميل	من وحى بدر
٢٨	ابراهيم أبو الحشب	المهاجرون والانصار
٩٤٦ : ٨١١	محمود النواوى	موسى الكليم
٨٥٤	السيد شريف	موقف الإسلام من الفقراء
٢٣٥	علي رفاعى	مولد النور
١٤٦	محمود جملة	ميلاد محمد
(ن)		
٢٠٣	فكرى يسن	نزول القرآن
٦١٠	ابراهيم أبو الحشب	التفاق الاجتماعى
٧٨٤	الدكتور محمد عبد الله دراز	التمدد الفنى لمشروع ترتيب القرآن
(و)		
٤٩٨	فضيلة الأستاذ بدر المتولى عبد الباسط	واجب مصر نحو القرآن الكريم
٥٦٠	حضرة الأستاذ عبد المنعم محمد الشيخ	واقعة الجبل
٧٦٢	أحمد عباس صالح	الواقعية الحديثة
٤٦٢	فضيلة د المنشاوى عهود الخولى	وسائل النصر